

دولة حاجو آغا الكردية

دراسة في تاريخ سياسي وتنفيذي

الكتاب: دولة حاجو آغا الكردية

الكاتب: إبراهيم محمود

الطبعة الأولى: 2018

جميع الحقوق محفوظة

الناشر: دار الزمان

للطباعة والنشر والتوزيع

فايبر وواتس آب:



00964 772 4223169

موبايل: 00964 750 3598630

E-mail: zeman005@hotmail.com

Website: www.darzaman.net

په رتووکخانه یا نووډهم

Mob: 00964 750 3598630

00964 770 4572613

Viber – whatsapp:

00964 772 4223169

E. mail: zeman005@yahoo.com

Facebook: Pertûkxana nûdem



الإخراج الداخلي: دار الزمان

الغلاف: م. جمال الأبطح

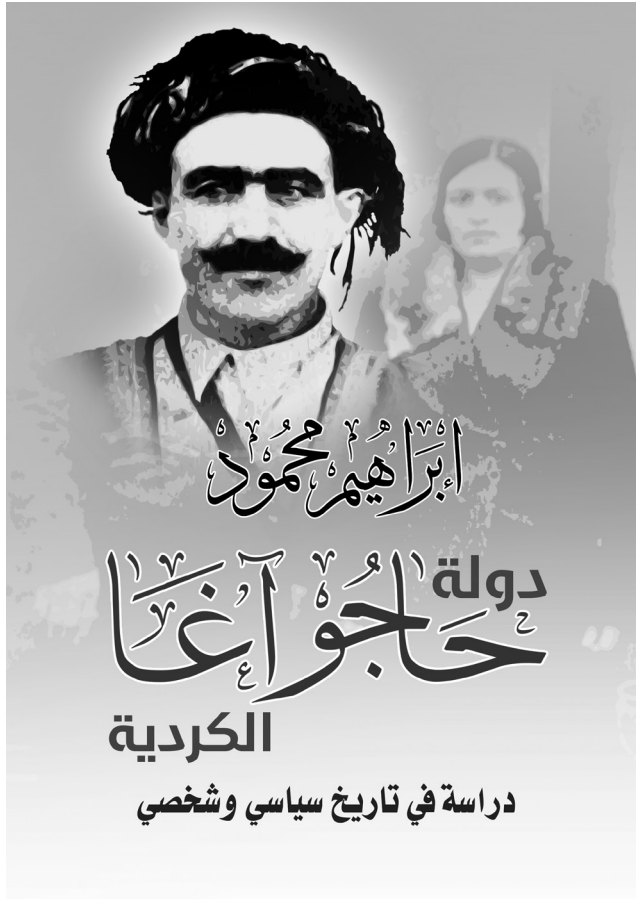
Copy Right © Dar Zaman Publishing

لا يسمح بطباعة هذا الكتاب أو تصويره أو نسخه

إلا بإذن خاص ومسبق من الناشر

All right reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted.
without permission in writing from the publisher

إبراهيم محمود



دولة حاجو آغا الكردية

دراسة في تاريخ سياسي وشخصي

الفهرس

الإهداء	11
فقط للتأمل	13
في أُلّا تكون أنت بدايةً «تلك هي المقدمة المحتملة»:	17
عن الأبواب السبعة للتاريخ	17
تاريخ آخر	19
لاتناهي التاريخ	21
مشروع اسم مختلف	26
الفهرس الأول: أسماء فاعلة مبنية للمعلوم	33
لماذا دولة حاجو آغا الكردية ؟:	35
أحجار كثيرة في الطريق الوعر	35
بين الاسم والقبيلة	39
تنقلات	42
تقاسيم اليوم الواحد	45
بين جانبي الحدود	50
خطأطة النسب- محك الخطأطة التاريخي:	57
النسب كتاريخ والنسب كمعايشة معتدية	57
كتابة لها بصمتها	61
ما يستحق السؤال عنه	65
الصواب الغامض	75
رهانات الأسماء	83
نسب يستغرب اسمه	89
هفيركان: الجغرافيا والتاريخ:	94
طريقة أولى	94
اقتصاد الأرض	97
مجهول القوى	100
مؤثرات القوة	104
حلقات النسب	108

116	صراعات لا تستثني أحداً
119	الأرض الخادمة- المخدومة
125	لحظة غير مقدرة في التاريخ
132	كتاب ليس بمفرده
136	مسوغات لا تفوت
143	مفارقات النسب
151	تعريف يحتاج إلى تعريف
163	زعامة بلغة مركبة
175	صدوع الاسم الواحد
183	أحوال القرابة وأهلها
200	ما يبقى خفياً جدير بالمتابعة
213	أبعد من المجتمع التقليدي
221	أكثر من رأس في سلّة الجغرافيا الساخنة:
221	صورة داخل صورة
223	الغريب قريباً
228	السلطة الامبراطورية
231	ظلال الأعداء المعتمدة
234	أين الخل؟
239	عليكي بتي Elîkê Betê: حربٌ بطل ريفي داخل مدينة مكتومة الأنفاس:
239	ولادة رمز بطولي كردي
241	البحث عن أعداء دائمين
243	الکرد المهمشون وليسوا مهمشين
245	برج بابل كردي
247	جدل الديني- القومي
249	عليكي بتي جكرخوينياً
252	وجهة أخرى طبعاً
255	الاسم المختلّف عليه
258	صدمة عائلية
262	النار الداخلية

264	تهمة مخدرة
267	مع الرواية الأهلية
273	صوت المصلحة الذاتية
277	تحفيز مطلوب
282	فن الرجل الكبير
287	وللأغنية عنوان لافت
295	الفسر الثنائي : على تخوم كيان دولة كردية
297	أكردي هو؟ أي كردي هو ؟:
297	ملاحظات لقراءة هذا القسم
300	تدقيق مركز
305	صناعة الاسم، أهي صناعة حقاً؟:
305	رفعة ملاحظة
310	زمن التحدي المعلوم
315	أبعد من حدود العشيرة
318	العالم المرئي وخلافه
323	عدوانية القريب
330	يقين خبر الداخل
336	محضر ضبط تاريخي حول حاجو آغا
343	بيان دور وخروج حاجو آغا إلى العالم الخارجي:
343	نقطة صغيرة تشغل صفحة بالكامل
346	نقطة ليست على السطر
348	رواية جكرخوين وهي ليست روايته
353	تاريخ ينتظر تأريخاً
371	وصايا مرايا
376	كرد المفارقات
378	غورغاس وشعرة معاوية في يد حاجو آغا
383	بيان دور وخرزة كبيرة في مسبحة التاريخ
414	غربة التاريخ
425	إيلام أهلي

427		حاجو آغا ومنغص «ثورة» الشيخ سعيد بيران Pîran :
427		الرأس الرخو والرقبة الصلبة
430		نقطة مجهرية مكبرة
436		منعطف ملغوم في الذاكرة
444		موضوع النظر
456		وجوب السؤال
458		الرحيل إلى بنختي: ولادة سياسي كردي اسمه حاجو آغا
458		درس الجغرافيا أولاً
467		علم السياسي ومعرفته
471		لنقلها بصراحة
475		التقابل بالتفاوت
514		الدرس القادم
520		الجزيرة، أي جزيرة؟
526		جغرافيا كردية وكرد الجغرافيا :
526		تركيبات جغرافية في قلب التاريخ
532		الاسم المعلق
535		حضورات تاريخية في قلب الجغرافيا
543		جغرافيا مظلومة
548		حاجو آغا مواطن مدينة
548		طبيعي وليس طبيعياً
557		رمزية القوة والجغرافيا
564		البحث عن عصا التوازن
569		الخلف الذي يتحدى
576		الرحلة الصادمة لأهلها
580		مسامير صدئة في جسد ممزق
584		ورقة لا تحترق
591		المرأة الوهمية للآخر
593		عصا الزان: حاجو آغا بين جمعية «خويون» وثورة «أكري»:
593		أن تقسو وأنت معرض لقسوات

596	 اللعبة المستمرة
601	 الصواب المطارد
605	 شراكة في خانة المساءلة
609	 نقاط لا تُحصى
614	 مثال تنويري
622	 لفظ متوقع
628	 إشكالات لا تُمحي
633	 نقد وارد
636	 أسئلة لا تهدأ
644	 خويبون
646	 اخفاق الخطه
647	 جواب فرنسا
648	 شذرة اسماعيلية وما يترافق معها تاريخياً
655	 في سياق جمعية «خويبون»
673	 حاجو آغا ورحلة البحث عن كيان كردي:
673	 ماذا يعني أن تكون قوياً ؟
677	 البحث عن طريق سالك
685	 خلفية متحركة سياسياً
703	 في المجال الكردي الساخن جداً
717	 الرثة السياسية للثقافة
722	 ما يجب التذكير به طبعاً
727	 حاجو آغا والسير على الجمر في سنواته الأخيرة:
727	 إحياء العصب المركزي
731	 الحس التاريخي
734	 وجه في العاصفة
738	 حدود وقيود
752	 ما ليس زبداً
763	 وثائق لتتوير ما يجب تنويره

805		حاجو آغا ما بعد حاجو آغا:
805		علامة فارقة
813		أسماء تختلف عن أسماء
831		حاجو آغا في أي طريق للتاريخ؟ «في مقام الخاتمة»
837		إمضاء تاريخية مهمة
845		رؤى من داخل بيت حاجو آغا
857		ملحق
858		ملف جكرخوين:
858		جكرخوين: سيرة حياتي «الترجمة العربية»
864		ترجمة مقدّمة كتاب زين العابدين زنار «كتاب القضية»
871		مختارات من «كتاب القضية» عن جكرخوين، باللغة الكردية، لزين العابدين زنار
878		محاكمة جكرخوين في كتاب:
878		أخطر وثيقة ضد جكرخوين:
879		في البدء كانت المواجهة
884		صنم جكرخوين، في كتاب «سلاطين هفيران»: بضع ملاحظات على القراءة
888		زمن حاجو آغا، لابراهيم الجيين
		عنزة ولوطارت: حاجو آغا في كتاب محمد جمال باروت «التكوّن التاريخي
891		الحديث للجزيرة السورية»:
891		لافتة
893		حمى البحث عن «العدو» الكردي
897		عداء لا يقاوم
898		شرّف الاسم، تَلَف النقيض
902		الاصطناع المطلق
906		معرفة تصفّي نفسها
913		قهرٌ نفسيّ غير مرصود
923		صورة جلادت بدرخان بك وحاجو آغا في رواية «بئر القدر» لمحمد اوزون
933		ملحق صور
963		سيرة ذاتية للمؤلّف

الإهداء :

إلى الحدود التي باعدت بين البشر
إلى الحدود التي أَلَبَّت بشراً على بشر
إلى الحدود التي جعلت بشراً دون بشر وهم بشر
إلى الحدود التي مزَّقت اللغة الواحدة، وأحالت أَلْفها إلى معادٍ لِيائها وبالعكس
إلى الحدود التي غَلَبَتْ منطق الإلزام على فضيلة الممكن
إلى الحدود التي أقصت الإنسان عن ظله وأبقته عارياً
إلى الحدود التي نحتكم إليها، وباسمها نمضي في التخاصم والتنازع
إلى الحدود التي لَغَمَت العقل الواحد، وحجزته في ثكنات، ونقاط حراسة
حدودية

إلى الحدود التي صادرت الطبيعة من وداعتها
إلى الحدود التي كانت ملهمتي في هذا الكتاب رغم قسوة الملهم، ومرارة المردود
وحدهم معذبو الحدود أَعْلَمُ بهذه الحدود وسَرَيان فعل عنفها، من أقوام شتّى
حتى اللحظة

إليها - أيضاً - وهي توثّق جراحاتها على جانبي الحدود وداخلها وعبرها

إلى حدودي أنا بالذات

وأنا أعيش انفجارات الحدود !

ابراهيم محمود

فقط للتأمل

«في العام 1926، قدمت شخصية قوية من تركيا إلى سوريا، أفلح هذا في تركيز قوة كبيرة في يديه من خلال خليط من الطرق التقليدية والحديثة. وكان هذا هو حاجو، آخر زعيم قبلي عظيم للهفركانيين. إن التاريخ الحديث لهذه القبيلة، وعلى الأخص سيرة حاجو، هي الحالة الأخيرة التي سيجري وصفها هنا».

مارتن فان بروينسن : الأغا والشيخ والدولة

* * *

بعد مرور شهر كامل من الانتفاضة الكردية في بياندور، شعرت السلطات الفرنسية بصعوبة السيطرة على الجزيرة عبر الوسائل العسكرية والأمنية، فلجأت إلى محاولة استعطاف العشائر الكردية .

اعتبرت السلطات الفرنسية، في البداية، انتفاضة بياندور مجرد تمرد عشائري كردي، حدث نتيجة لتحريض تركي من جهة ونتيجة سوء تصرف المسؤولين المحليين من جهة أخرى. فلجأ الفرنسيون إلى ممارسة الضغط الدبلوماسي على حكومة أنقره (كانت اسطنبول مازالت محتلة)، وإلى شن العمليات العسكرية ضد العشائر المنتفضة .

و نتيجة لتعاضم نفوذ حاجو آغا ومؤيديه، وانتشار هذا النفوذ في المناطق الكردية الأخرى، خشيت السلطات الفرنسية من فكرة تشكيل كيان سياسي يمتد من الفرات إلى الموصل. وترسخ هذا الاعتقاد لدى السلطات الفرنسية العليا عندما سمعت بأن الشيخ محمود البرزنجي (ملك كردستان) قد زار نصيبين في الوقت الذي كان حاجو آغا يتخذ من منطقة نصيبين مركزاً لنشاطاته .

من الوثائق الفرنسية: حاجو آغا وملك كردستان في نصيبين

* * *

في 1926 / 11 / 26

اصدقائي المبجلين،

لقد قرأت راسلتكم المؤرخة في 15 تشرين الثاني 26 بكل سرور، وفهمت محتوياتها، واشكركم على ما ابدىتموه من عواطف تجاهي، بيد انني تأثرت بالغ الامر لخبر ابعادكم الى العراق «٢». ارجو منكم ان لا تقلقوا اذا سيحين الوقت الذي سينسى فيه الوطنيون امثالنا مشاكلهم. واننا ياذن الله سنوفق في تحقيق آمالنا. ان الامة لا يمكنها ان تنهض الا بدعم واسناد رجال عظام من شكالتنا، ان المفرة الحالية «قوة ٢» ستسفع دمها في سبيل سعادة الامة.

ان الواجب يقتضي منا ان ننقذ بلدنا من عبودية عدونا الكبير الاتراك. وانني في سبيل هذا الهدف اواصل العمل ليل نهار ولهذا السبب ايضا اوفدت قبل شهرين الشيخ مهدي الى شيخ برزان، ويعقوب وسيمكو، وارى ان الضرورة تستدعي منكم ايضا ان تتوجهوا بالنصح الى الناس هناك وفي امكنة اخرى.

لم استسلم لحد الآن رداً من الشيخ مهدي. ان امين اغا رحمان و خليل ابن الباشا يبعثان اليكم باحتراماتهما.

سيد حاجي «حاجو» رئيس عشيرة هافركي «هفيركا/هفيركان»

ملاحظة: ارجو ابلاغ تحياتي الى جميع اصدقائكم

من وثائق بريطانية عن تشكيل دولة كردية مستقلة «1924-1927»

* * *

نشرة المعلومات المحلية

المفوضية العليا للجمهورية الفرنسية

دولة سورية

منطقة الفرات

إدارة المخابرات

دير الزور 22 شباط 1930

رقم: 12 / ن. م

نشرة المعلومات رقم 12

سري: يجب أن لا تُعلن

الفترة من 20 إلى 22 شباط 1930

مسجل في وارد قيادة القوات الفرنسية في الشمال

في 24 شباط 1930 .

أولاً: لمحة عامة

السياسة :

حاجو آغا يقدم لضابط إدارة مخابرات القامشلية مضبطة موجهة إلى المفوض

السامي مطالباً الأخذ بعين الاعتبار منطقة الجزيرة العليا الكردية ، ودراسة

نظام حكم ذاتي.

* * *

الأمن العام

بيروت في 20 تموز 1937

معلومة رقم 3542

أمن القامشلية، 16-7-37 .

آ/س- الانفصالية - (الداخل)

وصل توفيق شامية، محافظ دير الزور، إلى القامشلية في الخامس عشر من

شهر تموز 1937، و يرافقه الكابيتن بلونديل . بناء على طلبه، ذهب أربعة زعماء

انفصاليين لمقابلته في فندق معمار وهم: حاجو آغا، و الشيخ ميزر و ميشيل دوم

و ممدوح إبراهيم باشا، وهؤلاء قالوا ببساطة بأن الجزيرة لم تعد لها أي شيء مع

دمشق، و أنها قد توجهت إلى عصبة الأمم لحل قضيتها .

لقد قلّ احتمال وقوع هجوم من قبل العشائر العربية على القامشلية ، و لكن

الخوف مستمرٌ. ترك القامشلية عدد كبير من العائلات، و لجأت إلى حلب أو إلى

لبنان. تلجأ العائلات المسلمة إلى القرى .

السلطات العسكرية لا تزال تحافظ على الأمن .

السراي مسكونة من قبل الجاندارمه، جميع مكاتب الحكومة المحلية محتلة. جميع

المعاملات الإدارية معلقة .

علمنا في آخر لحظة بأن العديد من زعماء العشائر العربية قد وقعت اليوم برقية
و أرسلت إلى المفوض السامي و هي مصاغة كالتالي:
«نؤيد الحركة الانفصالية و نستنكر موقف حكومة دمشق»

خاتم و توقيع

مدير الأمن العام

المفتش العام للشرطة

من وثائق الصراع على الجزيرة عام 1937 - 4-

في ألا تكون أنت بدايةً «تلك هي المقدمة المحتملة»:

«طبّق عبارة تشيخوف على نفسه: قد حان الوقت ليتخلّص كلٌّ منّا من العبد الكامن في أعماقه».

ترزفيتان تودوروف: الأمل والذاكرة «خلاصة القرن العشرين»، ص 74.

عن الأبواب السبعة للتاريخ :

حتى الأمس القريب جداً، كان تأمين المصادر المتعلقة بموضوع معين، من التحديات الكبرى التي يواجهها المؤرخ، إلى جانب الباحث التاريخي، وهو يتحرك على أكثر من مسار، وفي أكثر من منعطف ومنحدر بحثيين: الأول في سعيه إلى العثور على مصادر مباشرة ومحقّقة، وإمكان الاستفادة منها، والثاني، في محاولته المقارنة بين مجموع المصادر المتعلقة بموضوع معين، أو وشائج القربى بين هاتيك المصادر ضمن كتاب يندرج في حقل التاريخ ويحمل بصمته، اعتماداً على ما يعينه في مسعاه هذا في مضمار النقد التاريخي وبفعالية أكثر وهي تحمل بصمته، والجهود الفعلية المطلوبة للربط المثمر ما بين المحسوس والذهني أو المجرد .

حتى الأمس القريب جداً، كان في مقدور أي مهتم بالتاريخ أن يتلمس فتنة السرد التاريخي وحضور سلطة الراوية التي لم تكن تقاوم، بسبب صلاحياته التاريخية الكبرى، وغالباً ما يكون هذا السرد بقوامه ذي البعد الواحد، وهو لا يلزم نفسه بالاحتكام المنهجي أو العلمي إلى حقول أخرى مهمة: جغرافية ونفسية وتحليلية، وحاجة كل ذلك إلى مزيد من الجلّد والتروّي وحتى النّفَس الملحمي أحياناً، إلى جانب الضغط على الذات وتنويرها باضطراد، أو كبح جماح النفس تجنباً لانزلاقات مزاجية وغيرها، شعوراً أن كتابة التاريخ هي هكذا، أو لأن سوق المعروضات التاريخية تمرّر إلى داخلها «سلعاً» من هذا القبيل، بدءاً بالمحكّم في نوعية البحث أو طبيعة التداول، وكيفية التدوين، والعنوان، مروراً بطريقة التداول والعلاقة البينية، ومن ثم الأحكام المعتمدة في السرد، وانتهاءً بطريقة التداول، وإيصال المطلوب إلى الجهة المسماة، حيث يكون القارئ أو المختص، وما في ذلك من نزعة تحكّم استبدادية ووصاية قائمة على أصل الفكرة وسبل التعامل معها: قراءة وتفسيراً، وحتى على مستوى التأويل كذلك .

حتى الأمس القريب، كان من السهل جداً رفضُ عمل تأريخي لا لأنه يفتقر إلى نسب التاريخ، ولا يتضمن حضوراً معرفياً تاريخية وإدراكاً لمفهوم التاريخ وانشاءاته، ونوعية الإقامة في عالمه، وإنما لأن هناك تجاوز مسبقاً للموسوم له، حيث لا يؤتى على ذكر مؤرخين معينين، أو نقاد تاريخ محددين، باعتبارهم المؤهلين الأكفاء لمنح الكتاب المقدم القيمة المستحقة، وما في ذلك من صرامة في المنهج وتقليص لحدود الاجتهاد، أو إطلاق لسراح إرادة الاجتهاد في المؤرخ ومن ثم الباحث التأريخي، حيث يحضر هنا الثنائي: لانجلوا وسينوبوس، قبل قرن وخمسة القرن في كتاب ذائع صيته «المدخل إلى الدراسات التاريخية»، والذي شكّل مرجعاً رئيساً لجمهور من المؤرخين على مدى عقود زمنية وربما حتى الآن بتفاوت⁽¹⁾.

سوى أن أي حقل معرفة، كما هو العلم الذي يتجدد ويجدد مفهومه، يخضع هو الآخر لسلطة التغيير والتغير، وبالتالي، فإن ما يجري راهناً، ومنذ عدة عقود زمنية، هو وضع التاريخ وكل ما ينسب إليه، حتى بالنسبة لأكثر الكتابات تأكيداً تماسك تاريخ وثائقياً، أو لحمة مواد، وسلطة نافذة لصلات الوصل والانتقال من فكرة جزئية إلى أخرى، في واجهة أكثر من مساءلة تاريخية بالذات، إذ ليس في مقدور التاريخ أن يتقدم، ويصبح أكثر حضوراً أثر من التاريخ نفسه، على طريقة «وداو بالتي كانت هي الداء»، فدواء التاريخ من جنس دائه، إذ ينطلق منه ولا يعود إليه هو نفسه، وقد توسعت حدود البحث، وأصبح المؤرخ أكثر وعياً بهدفه الذي يتحرك ضمن زاوية نظر تُري الكثير مما كان غير معترف به سابقاً، فيكون لدينا العامل الاقتصادي، النفسي، الاجتماعي، الجغرافي والسياسي.... الخ، وهذا من شأنه مدّ الباحث التأريخي بدوره بقدرات موازية أو مقابلة جهة أدوات التحليل والتأويل والمقاربة النقدية، وكأنه هو وليس هو في عمله هذا، حيث (إن تاريخ المعرفة الإنسانية هو تاريخ الجهد الذي يبذله البشر من أجل إدراك وعي خبراتهم الناتجة من علاقتهم بالطبيعة و ببعضهم البعض، من أجل تطوير حياتهم تطويراً، يسمح بتنظيم اجتماعهم واقتصادهم)⁽²⁾.

(1) ينظر في النقد التاريخي: مجموعة مؤرخين، ترجمة عن الفرنسية والألمانية: د. عبدالرحمن بدوي، وكالة المطبوعات - الكويت، ط4، 1981، ضمناً: كتاب المؤرخين وغيرهما.

(2) كوثراني، د. وجيه: تاريخ التأريخ: اتجاهات - مدارس - مناهج، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط2، 2013، ص 17.

ولعل هذا الجهد الذي يكون في مبتداه ومنتهاه بشرياً، ينطوي على مفارقات كبرى، أقلّها، أنه لا يُسمّى باسم صاحبه أحياناً، سواء أكان شخصاً أم طرفاً، أم جماعة، أو حتى شعباً، بقدر ما يخضع - وبوعي مقصود ومتعمّد - إلى أكثر من سلسلة من العمليات التي تستهدف كيفية فصله حتى كلياً عمّن وراءه واقعاً، وإسناده إلى آخر: فرداً أم جماعة. ذلك ما يمكن التعرف عليه في بطون أمهات الكتب، وعلى ألسنة الناس، استناداً إلى قوى متفاوتة، محسوسة على الأرض، وبالطريقة هذه، يجري تدوين التاريخ، ويضاء مسرح شعب دون آخر، كما أن أفراداً معيّنين يجري التعطيم عليهم من قبل آخرين، أو أنظمة، أو سلطات ليس في مصلحتها، ولا بأي شكل، التّويه إلى وجودهم، ولو بشكل عابر، حتى لا يكون ذلك مدعاة لمزيد من الدرس والتمحيص، إنما يكون هناك من يجري تكليفهم، أو يكون لدينا من يضعون أنفسهم، بطريقة ما، في خدمة هذه الجهة السياسية أو تلك لنيل رضئ، وهم لا تنقصهم علامة الذكاء، بالعكس من ذلك، إنهم على غاية من الفطنة، على غاية من التقدير لمكانة من يسعون إلى العبث بحقيقة أمرهم تاريخياً، شعوراً منهم أنهم بهذا السعي يحققون مكسباً هنا وهناك.

تاريخ آخر :

ولعلّي على صواب حين أقول عن أن توضيحاً لما تقدّم، يكاد يكون من البدايات لدى أهل العلم، ومن يعينهم موضوع التاريخ بالذات، إذ إن من المستحيل بمكان تصفّح أي كتاب في التاريخ أو حوله، إلا وينطوي على ضرب من ضروب النقد إلى تلك الأساليب الخاطئة، إلى الطرق المتبعة لدى مؤرخين أكثر من سواهم، وهي في معرض البحث التأريخي، ولسان حالها: نشدان الحقيقة. لكنها في الوقت ذاتها، تشير إلى قائمة أخطاء مرتكبة بحق التاريخ، والمعنيون بها يعرف بهم على أنهم أنصار التاريخ، لا بل ومن أشد المدافعين عنه، والتشديد على وجوب فضح أو تعرية كل من يسيء إليه وهو يتحدث باسمه مؤرخاً أو باحث تاريخ، إلا أن هؤلاء لا يدّخرون جهداً في الوقت نفسه في الإساءة المتعمّدة إلى التاريخ، حين يتعرضون لموضوع ما، يتعلق بجماعة أو شعب، أو حتى شخصية لها مكانة تاريخية، وهم ساعون إلى سبل المكر ومن ثم الالتفاف على الموضوع، كما تقول طريقتهم البحثية، أو لائحة مراجعهم، أو صياغتهم لواقعة دون أخرى، وكيف أن التاريخ في هذا المقام يستقطب أو يتضمن في دائرته الواسعة كلاً من رجل العلم المحض، والجغرافي، والسياسي، ومن ثم العالم اللغوي،

فالاقتصادي والمربي، ورجل الأخلاق، لحظة النظر في أي حدث تاريخي يسجل ومنحاه المجتمعي، حيث لا حدث دون زمان ومكان، دون بشر معينين، أو نوعية لغة وأسماء الذين شكّلوا سبباً له، وهذا ما يذكّرنا بما يجب التركيز عليه، وأعني بذلك «التجارة»! ليست تجارة السلع، وسهوكة التأكد من حقيقتها، وصلاحياتها الزمنية، أو ما إذا كان التاريخ المسجل مزوراً، وإنما تجارة الافكار، الروايات، الأحاديث المختلفة، احتكار سوق الرواية التاريخية، وتزكية أفراد دون آخرين، إلى جانب تجارة القيم التي توضع لها طرائق معرفية ممنهجة، وأطر بحث، وصيغ إعطاء.

وأحسب أن الفيلسوف الألماني نيتشه «1844-1900»، كان ناقماً على عصره بعمومية نفّاثة ورهيبة، وهو يشهر سخطه على هذا التزييف للحقيقة بالجملة، وفي بلده الذي لم يدع فرصة حديث إلا وعرضه لقطعان نقده حياً به، ورغبة عقلية في تحريره من الذين يعتمون عليه ويحولون دون تقدمه، كما في قوله هذا ذي الصلة المباشرة بما هو أخلاقي (من المؤكد بين غالب الناس، أنه حتى لدى أعفّ الأشخاص وأصلحهم إنما يكفي جرعة صغيرة من التهجم والخبث والغمز حتى تحمرّ العين دماً وتعمى عن كل إنصاف)⁽¹⁾.

أترانا فيما نحن عليه من علاقات مع التاريخ وفي التاريخ من ذوي السمعة الحسنة، قادرين على التلويح ببراءتنا بالنسبة لمن يعملون في مضماره، وكل ما له صلة به؟ أترانا مؤهلين لأن نتكلم ودأبنا تصحيح مسار الحقيقة أم تحريفه أكثر؟ وهو ما لا يجب الاستغراب منه، على وقع العلاقة القائمة بين جماعة بشرية وأخرى، تسندها سياسات يغذيها التفاوت الاعتباري، أو في المواقع، على أساس القوة والتي في ضوئها ينبغي التعرف إلى التاريخ، كما ينبغي من خلالها تبيان ذلك الكم الهائل من القيم المزعومة، أو الفضائل التي تنسب إلى شعب أكثر من سواه: ولادة نسب، وبنية لغة، وطبيعة تفكير... الخ .

وحين أسمّي التاريخ، فلائي، وجرأاً إقامة علاقات شتى معه، جبت في جنباته كثيراً، واستأنست به، بمقدار ما جهدت في التحاور معه، ومحاولة تفهمه، والذهاب به إلى ما وراء منطق الظاهري، إلى تحريّ الذهنية الفعلية التي تكون سبب هذا

(1) نيتشه، فريدريتش: في جنياولوجيا الأخلاق، ترجمة: فتحي المسكيني، منشورات سيناترا، تونس، ط1، 2010، ص 103 .

الانتشار له في منحى دون سواه، وكيف يحضر أشخاص دون سواهم في مواقع مختلفة منه، كيف تعطى أولوية السرد والاعتبار في الكلام، والإحالة المرجعية، ومصادقية الشهادة لطرف دون آخر، بمقدار انشغالي بقدراته الخلاقة في ترسيم حدود سياسية لا تخترق، أو سهولة العبور، أو غير مستقرة بين أناس ينتمون إلى جماعة بشرية واحدة، وبمقدار تشديدي على المكانة الفارقة له، حين أعلم على الأقل، عن أننا لا نعرف بأنفسنا إلا من داخله، ولا نتقدم خطوة واحدة إلى الأمام، ولا يعطى لنا اعتبار، ولا يجري تأسيس لقيمة تنطلق بلسان جماعة معينة، إلا عبر تحديد تأريخي، ولأن عقوداً من الزمن، أمضيتها في صحبته مؤانساً ومجالساً، مطالباً ومخاطباً، شاكياً، وناطقاً، معززاً، ومسائلاً، وطاعناً، ومصالحاً، ومصححاً تبعاً لوعيي التاريخي، وهي كما أرى تضمن لي هذا التصريح الخطي، وهذا المضي بالقول إلى ما أنا عليه في مبحثي هذا، وهو معقد القوى تاريخياً، وأنا في صورة شبه اليقين الكلي، وربما أكثر، عن أنه لا يستهان به تاريخياً، لكنه لا يقبل به تاريخياً كذلك، جراً تقاسمه بين وصفه بما هو تاريخي وخلافه، بما هو شعبي: حكاوي وخلافه، بما هو شفاهي متداول وأكثر منه، بما هو خاص وعام كذلك .

هل أشير هنا إلى أمراض التاريخ، إلى وجوه المكر في التاريخ، إلى مقالب التاريخ، إلى مثالب التاريخ، إلى أقنعة التاريخ، إلى أهوال التاريخ، وإلى مصاعب التاريخ؟ لعلها في مجملها تتقاطع، كما تلاقى في التاريخ نفسه بوصفه واحداً ومختلفاً، بوصفه التاريخ الذي يراد له أن يكون، والتاريخ الذي يراد له أن يكون، التاريخ الذي يجري تعريضه لسلطات قيمية، لا تخفي طابعها السياسي والحدودي والجهوي، فحيث يوجد تاريخ، ثمة ما ليس تاريخاً إلا من وجهة نظر معينة، وحيث يسمعك التاريخ صوته، ويريك صورته المقرّبة، ثمة ما يستدعي المزيد من الحذر، وما يجب التحفظ عليه، خصوصاً في عالم اليوم.

لاتناهي التاريخ :

وحسبي أن أتحدث هنا عن الحضور الهائل للتاريخ فيما نقرأ ونكتب أو نسمع في محيطنا، لأننا نشدُّ إلى الماضي، وثمة من ينبهوننا إلى أن حقيقتنا في ماضينا، وأننا على قدر وعينا لهذا الماضي، نحسن التنفس والتحرك في الطريق السليم حاضراً ومستقبلاً، لأن هذا الإجراء يعزز في الساحة تلك الحقيقة التي لا دخل للتاريخ البتة فيها، وهي أن التاريخ الذي يدعى إليه، ليس أكثر من التاريخ الذي يفرض على

الساحة ذاتها وفي الجوار: صوته، لونه، رائحته، ظله الخاص، باعتباره التاريخ الذي يسمي الحقيقة وليس سواها، كما تقول الكتب المدرسية، أو عموم المكتبات الرسمية، وهي التي تعرف من خلال أعلام خاصة، وشعارات خاصة، ومداخل خاصة في الوقت نفسه، وفي ذلك تبرز الإيديولوجيا التي تحتضن تاريخاً دون سواه، وبمعيار منهجي، وقيمي مراقب، حتى بالنسبة لأهل اللغة الواحدة، العربية وسواها .

ذلك ما ألفته منذ عقود طويلة نسبياً من الزمن، من خلال رموزه، وتوجهاته، وعناوينه، والقيمين عليه، وتلك السبل التي تحدّد تاريخياً، وتلك التي تغفل من التاريخ، حتى لو أن الجغرافيا شهدت على أنها عريقة بكائناتها وحيواتها، ذلك ما شكّل لديّ أرشيفاً على مستوى المحصلة البحثية، وفي الذاكرة التي تلتقط أئى توجهت وتوقفت مثل هذه الإشارات الدالة، وأنا في سعي مختلف إلى تحرّي ما يتعدى حدود هذا التاريخ، ما يسمح بتعقب التاريخ وكيف يشرعن للغة، ولقوته، ويتسرب إلى داخل وجدانات الناس البسطاء، بمقدار ما يتسلل إلى أحاسيس الأطفال وحتى النشء في مقاعد الدراسة، وأي جهاز عصبي يكون هو الهدف المعلن له، كيف يجذّر فيها أبجدية سلطته، ومن هم المزكّون من خلالها، واختزال الحياة عبرها، الأمر الذي كلّفني جهوداً استغرقت سنوات طوالاً، بمقدار ما ألزمتني بحصر طاقات خاصة، بغية الإحاطة بالذهنية الفاعلة في استيلاء تاريخ كهذا، وكيف يجري التحضير لها ليتشكل بوسائط قواه الحية، وبالصوت والصورة، بمقدار ما حفّزت قواي النفسية لأن أستدعي كل ما يلزم من معارف مكتسبة، ومن طرق تفاعل مع الوسط المحيط، وأساليب عيش، لأكون أكثر استعداداً لتبيين حقيقة هذا النوع من التاريخ، وكيف يعتمد أوجه المكر ليتسلل حتى إلى ما وراء شعوري الذاتي، وهو يتقدم إليّ، ويعبرني معتمداً توأم التهديد والوعيد، الترغيب والترهيب، بوجهه اليانوسي.

تلك هي الخاصية الكبرى للتاريخ الذي يُحفظُ عليه بمقدار، ويؤخذ بمقدار، ما يطرح خارجاً، وهو بعدته وعتاده، بحضوره وغيباه، بما يبقيه ملء السمع والبصر، وما ينحّيه جانباً لحظة إخضاعه لمنطق التنوع والاختلاف، وتمثيل الاسم وحقيقته، ولا بد أن هذه الخاصية تقرّبنا منه، بمقدار ما تبعدنا أو تقصينا عنه، بمقدار ما تمنحنا المزيد من الوعي الاحترازي/الاحتياطي، حيث الخشية الكبرى بالمقابل، من أن لا يؤتمن، وأن لا يمتلك تلك الإمكانية في تقبل المغامرة في سرد الكلام، وتثمين الاختلاف، وهو ما يُّبقى المسافة الفاصلة بينه ومن يريد التقدم بطريقة مفارقة لما هو

معتمد فيه أو لديه، ومن يرهأه أو يتحدث باسمه، محفوظة، بحيث يكون الاختلاف مرئياً وقابلاً للنظر فيه، أو الإصغاء إليه دون خوف من رقيب يمثل التاريخ ذاك.

ولعلي في هذا المنعطف الخطير من التعاطي التاريخي، أسمى ما أريد التحدث باسمه أو فيه، أو حتى عنه، أو كتابة تاريخ، وفي بعض منه، لعلّي لا أجد سقف تاريخ يتقبله، أو أدناً تاريخية تصغي إلى صوته، وهو داخل في خانة المحظور أو شبهه، أو بالكاد منح حضوراً دون التاريخ المعهود، وأقرب إلى حكم المتداول الشعبي، إلى ألسنة العامة، وفي مجال خاصة، وليس بين طيات كتاب يستحق شرف الانتماء إلى التاريخ حرفياً، وفي المستوى اللائق به، إذ ثمة حضور خجول له، وما تردد عنه أيضاً أحيل إلى الحقل المجاور للتاريخ: الانثروبولوجيا، أو السوسيولوجيا، وفي الحالتين يكون سقف التاريخ واطناً، مهما دقق فيه .

وأنا بصدد ما أريد طرحه كتابةً، وأنا بصدد ما يمكن التفكير فيه، وتحويله إلى كلام مسطور، فإن الذي تعزّزّ عندي في هذا المضمار، هو تجنب الدخول في استطرادات تاريخية، كما هو المعتاد كثيراً في الكثير من الكتب ذات الصلة بالتاريخ الكردي، إذ يسهل التعرف على إجراء كهذا في أي موضوع له تماس مباشر بالكردي، سواء تعلّق بشخصية كردية، أو مدينة كردية، أو شأن كردي، كما الحال في العلاقات الكردية والدول الأخرى، أو في واقعة كردية، لنجد في المقدمة، وهي ليست مقدمة هذا الاسترسال، وربما من النوع الخطابي في الحديث الكردي: النشأة وإشكالية التسمية الجغرافية، وتعقيداتها الكثيرة، ومن ثم الإتيان على ذكر الذين اهتموا بالموضوع، وإيراد مقتبسات من أقوالهم، أو المقارنة فيما بينها، إذ إنه ما عاد مفيداً هذا الإجراء، إن بعضاً من التذكير بأسماء معينة ودون وضع هوامش، قد يجعل البحث أكثر تهذيباً، وشاهداً على حصافته، وعلى تقدير وعي القارئ والنظر إليه على أنه يمتلك من المعلومات أحياناً ما ليس في «جرب» الكاتب منها .

إذ يسهل الحديث في الحالة هذه عن وفرة المصادر البحثية والتاريخية التي تخص الكرد وكردستان: مصادر تخصصية وأخرى عامة: تصنيفها، توجهاتها، مستوياتها: مينورسكي، نيكيتين، جويده، فريزر، ليرخ، خالفين، لازاريف، توماس بوا، مكديول، جيرار شاليان، ادموندز، هنري فيلد، فان بروينسن، مكديول، أرشاك سافرايان، كوتشيرا... الخ.

وفي هذا السياق، فإن مجرد التذكير بالدولة، كما سيتضح لاحقاً، يثير أكثر من سؤال: دولة ماذا، وأين، وكيف؟ إذ إن في ذهن كل منا مفهوماً للدولة، دولة تعنيه، وليس أي كان، سوى أن الذين كان لهم دور في التاريخ السياسي الكردي، كانوا معنيين بنماذج منها، أو ألقاب، أو مقامات، ولا أخالني للحظة واحدة، ببعيد عن تلك الصورة المحددة التي تكون فيها الدولة كمفهوم ومعنى، وهو ملوثة، وحتى أسرة، وهي بحدودها، ونظامها، وقانونها، وأجهزتها، وعدتها وعتادها، معدة في ذهن المتفاعل معها، أو المتأثر بها، ولديه صلات بما هو سياسي، أو يعمل كسياسي، لا أخالني ببعيد عن تلك المؤثرات النفسية التي تبقى مسكوناً بغواية دولة كهذه، وإن لم تتحقق. فما نصيب حاجو آغا من دولة كردية كهذه؟ ذلك هو السؤال!

ومن جانب آخر، فإن هذا الموضوع الذي يشغلي منذ سنوات طويلة، هي عمر اهتمامي بقضايا من هذا النوع، وأسميها، مثلما أعتبرها قضايا، كونها تشكّل محاور بحث وتقصّ تاريخية، إلى جانب أنها تمتلك المقدرة على استيعاب أسئلة لها أكثر من صفة تاريخ ونقد تأريخي واجتماع وسياسة، دون نسيان أنها على أتم علاقة بما هو انتروبولوجي «إناسي» وما هو اثوغرافي «وصفي» لمجتمع الموضوع في محيطه الجغرافي، وتدايعات أفكاره، والطابع السيّري أحياناً له، ومن ثم البعد الفولكلوري والذي يمنحه رونقاً وإشكالية نسب من جهة الأداء والموقع ومن ثم القيمة، ومن ثم حين تمارس نوعاً من الاستتطاق لقضايا أخرى من جنسها: تاريخية وسياسية واجتماعية، أي ما يشد الموضوع إلى نظائره، مثلاً: ما الذي يصل «آل حاجو آغا» بسواهم في المنطقة كردياً وعربياً؟ فثمة تنوع أجناسي في هذا المجال، وثمة تشابك علاقات، وثمة ما هو أكثر من ذلك: الحساسيات التاريخية والتي تنطلق من المكان المشترك، والتنافس على الألقاب تقاسم القيم والنفوذ، وكون المشار إليه بـ«قضية» فلأن ما يعرفنا بمحتوى الموضوع، من خلال تحريره، يتطلب دراسة كهذه، أي إن جمر رماد التاريخ لما يزل يحتفظ بوهجه، وإمكانية تسخينه وإضاءة ما حوله، والغوص فيه أكثر⁽¹⁾.

(1) في نطاق الاهتمام بهذا الموضوع/القضية، سبق لي أن نشرت بحثاً أنتروبولوجياً عن قبيلة «هفيران» في مجلة «الأكاديمية» الكردية، في هوليير، العدد «29» 2014، إلى جانب كرّاس، سلسلة مختارات، يحمل عنوان «عليكي به تي في التاريخ والفولكلور الكرديين»، عن مركز بيشكجي للدراسات الكردية، جامعة دهوك، العدد «51» تشرين الثاني، 2017.

ولا بد من التنويه إلى نقطة أخرى، أجدها رئيسة، وهي أن هذا البحث يصلني أنا كشخص بكثيرين ممن ينتمون إلى هذه الدائرة الديموغرافية والاجتماعية، أي أفراد هم شخصيات معروفة من «آل حاجو آغا»، علاقة شخصية وحيّة تمتد إلى عقود من الزمن، أسهمت في تحفيز إرادتي البحثية أكثر على المضي بالموضوع الذي يشغلي إلى «نهاية» ما له، وفي الوقت الذي يجب التذكير بأنني، وأنا مقبل على كتابته، لم أتصل بأي كان من هؤلاء الأصدقاء والمعارف منهم، وهم كثر، وفي الوقت الذي يجري تواصل بين شخصيات معروفة منهم وبينني عبر «الفايبر- الواتساب»، ونحن نتحدث في أمور كثيرة، دون أن أتطرق مباشرة إلى هذا الموضوع، أي من باب الإعلام بأنني مهتم به، والهدف هو تأليف كتاب، وهذا الإقرار سوف يتم الإطلاع عليه، لبيان حقيقته، ولعل المسوّغ الوحيد الذي دفع بي إلى التزام «الكتمان»، هو السعي إلى ممارسة استقلالية نفسية، وإمكان التحرك والتفكير وتدبير العلاقة بين مختلف جوانب الموضوع بإيعاز ذاتي، دون أن أنفي الفائدة المعرفية التي كنت سأحصلها فيما لو جرى اتصال في هذا الجانب، ومن خلال استفسارات وأسئلة، تخص نقاطاً ذات صبغة إشكالية فيما هو مسموع ومتداول وفيما هو مكتوب ومنشور بالمقابل، لكن ذلك، وكما قدّرت، سيكون لهذا المسلك شعور نفسي آخر، وإحياء نفسي آخر، له صلة مباشرة بنوعية العمل و«مدة» الإنجاز، وربما كتابة البحث في إطار آخر، على مستوى القيمة المعرفية، والنقاط المفصلية، وتلك الإشكالات الذاتية والساخنة في المتن، وقد قدّرت ذلك في اللحظة التي أكملت البحث، حينها جرى الاتصال بغية الاستفادة من معلومات تتوفر لديهم أو غيرها لإغناء هذا البحث وهو ما تم حقاً، من خلال معلومات إضافية، أو صور تعمّق أثر البحث المكتوب.

وثمة جانب له علاقة بما أعرّض له في بحثي هذا، وهو من باب إضاءته، إذ لطالما كنت في معرض نقد من لا أريد الإتيان على ذكرهم، لأنهم غائبون عن النظر، حين يضمنا مجلس مشترك قبل عقود من الزمن، ونحن نتحدث حول «أيام زمان» ومن كانوا ذوي سلطة فيها، كوني أحتج على اللقب : آغا، بك، باشا، وهم يشددون عليه كلما تهجّوا اسماً في هذا النطاق، وربما سيقروا أن هذا الكتاب، وسيعتبرون أو لعلمهم سيعتبرون ذلك اعترافاً بصواب موقفهم، سوى أنني أشدد على موقفني كما كنت، وهو أنني في كتابتي هنا أنطلق من واقعة تاريخية، ومن علامة فارقة لا يمكن تجاوزها، كما في حال «حاجو آغا» مثلاً، سوى أن ما كان يدار

حينذاك، هو نوع من الإطناب أو المديح المجاني، وهذا خلط في العلاقة وفي استخدام المفهوم.

ربما كان الذي أتيت على وصفه، أو تحليله، أو إشهاره مدعاة لأكثر من مساءلة وتقويم بالمقابل، سوى أنني في هذا التوجه المعرفي، الثقافي، البحثي، والتأريخي لا أخفي حقيقة على تماس مباشر بتقديري الذاتي لكل ما تقدم، وهو أن ما أقوم به يعتمد على فعل ذاكرة، وكيفية التعويل عليها بالطريقة التي تمكّني من رؤية مسلكي البحثي أكثر، دون الانجراف في تيار فكرة مقروءة أو مدونة في هذا الكتاب أو ذاك، وتحديدًا في موضوع لا أخطر منه حمولة قيمة أو أثر، وهو الذي يعني بشراً لا أنفصل عنهم، كما لو أن الذاكرة في الحالة هذه تمارس دور المدافع عما هو واجب إبقاؤه لصالح الحقيقة، وهي أن الذين بالكاد يجدون أنفسهم في مجتمعات الكتب، كما تريد أو تشاء أنظمة رافضة لهم كما هم، تكون الذاكرة في طابعها الجمعي، وهي المعززة بالشفاهة ملاذاً ضامناً لاستمراريتهم بصورة أفضل، ولإبقائهم أصحاء في الداخل، حذرين مما يجري باسمهم وضدهم وعلى مدار الساعة طبعاً، ولا بد أنني أقدر كلمة تودوروف البلغاري الأصل، الفرنسي الجنسية في هذا المقام (أن تتذكر معناه يعني أنك أهل لمثلك الأعلى، حتى لا تفقد شرفك).⁽¹⁾

مشروع اسم مختلف :

وأن أسمى الذاكرة مجدداً، فليكون ذلك تنبيهاً إلى آخرين ممن يغفلون عن دور الذاكرة في وضع كالذي أشدد عليه، أي حين تصبحاً تمرداً على تاريخ قائم، حرباً لها على نسيان موجّه.

لقد عقدت العزم على طرح الاسم وهو في هيئة جملة، والجملة عنوان تاريخي، والتاريخ لم يعهد أو يعرف مثيله بالصيغة ذاتها، وما عرف من أقوال ليس خلاصة تاريخ، أو مسار تاريخ، وما فيه من مدونات ومن أرشيف مباشر، سوى أن وثائق قائمة، تحفز على القيام بنشاط كهذا، يوسع دائرة التاريخ بالذات، ويعمّق معناه في آن، رغم مغامرة البحث، وإشكالية الموقع والعلاقة بالمقابل، أي «دولة

(1) تودوروف، تزفيتان: الأمل والذاكرة «خلاصة القرن العشرين»، نقله إلى العربية: نرمين العمري، منشورات العبيكان، الرياض، ط1، 2006، ص 311 .

حاجو آغا الكردية»، وما يمكن أن يثيره إنشاء كهذا من ردود أفعال وتصورات جمة، وبالمقابل، ما يمكن أن يحفز في الذاكرة من قوى احتجاج على تاريخ تعسفي.

أي كيف يمكن لهذا الكتاب أن يكون أكثر تبصرة بموعوده وهو يتخوف منه؟ لأنه على دراية كافية بخطورة تأليف كتاب كهذا، أي ما يجعل الكرد متنبهين إلى الثغرات، الخرق التي يلبسونها، والبؤس الذي لا يتبصرونه واقعاً، وهم في حل من بعضهم بعضاً، وعتابهم حساسية، وكلما تهم «غمزات، لمزات»، وثمة شعور بالازورار في جل ما يتحدث فيها تجاه بعضهم بعضاً، ومع أعدائهم ثمة استحياء أو استغفال عن «بيت القصيد»: كيفية تشخيص المشكل والدفع بهم إلى إمكان الإصغاء إليهم، ليكونوا خارج نطاق الدائرة الجغرافية المقسمة والتي تحصرهم داخلها، وقد باتوا شيعاً، ضيعاً.

أقول ذلك، وأنا أشير بسببتي إلى التاريخ المضحى به كردياً، ومن قبل من يُعنى بالشأن الكردي سياسياً، في إطار التأريخ للحركة السياسية الكردية، حيث يجري التركيز عليها مع ولادة أول حزب سياسي كردي في سوريا سنة 1957، وكأن الكرد قبل ذلك كانوا في عمى التاريخ يعيشون، وأنهم استيقظوا على وقع «نفير» إعلان ولادة هذا الحزب.

مثال ذلك أن محمد ملا أحمد، في كتابه المعروف عن تأريخ لحركة التحرر الوطني الكردي في سوريا، يستسهل الكتابة بالطريقة هذه، مضحياً - على الأقل - بثلاث قرن من هذا التاريخ، الذي، إن دُقّق فيه، سوف يلاحظ، أن كل محاولات الحركة هذه، وحتى الآن لم تخرج عما كان يُبدّل من قبل الكرد في الفترة تلك، حيث نقرأ عن (التأريخ بعد انتهاء أربعينيات القرن الماضي، حيث المآسي الكبرى .. ص16... أما في سوريا فجمعية خوييون، اتبعت نفس الأسلوب القديم من النضال، وكانت القيادة في هذا الحين، مؤلفة من نفس عناصر القيادة القديمة، بالإضافة إلى عناصر أخرى بعد أن بدلت اسم حزبها من جمعية خوييون، إلى البارتي الديمقراطي الكردي في 1946، كما هو في إيران ومن ثم في العراق. «في الهامش، ص 18: كانت قيادة جمعية خوييون، في هذا الوقت، مؤلفة: من الدكتور أحمد نافذ رئيساً، وعضوية كل من : أكرم جميل باشا، قدري جميل باشا، حسن حاجو آغا، جميل حاجو آغا، عارف عباس، عبدالرحمن علي يونس آغا، جكرخوين وملا أحمد زفنكي «مفتي القامشلي»..... لاحقاً، يؤرخ للحركة القومية الكردية في

سوريا، بعد فشل انتفاضة ملا مصطفى البارزاني في 1943-1945/ في العراق،
وانهيار جمهورية مهباد الديمقراطية في أواخر 1946/ توقف نشاطها السياسي،
وركنت القيادة القديمة إلى الراحة.. ص27...الخ⁽¹⁾.

هذا التأريخ في الوقت الذي يبشّر بولادة كائن سياسي ينطق الكردية
بفصاحة أهليه، يعلن عن إعدام تاريخ عاصف وحافل بالدلالات ذات الطابع
القومي كردياً، وما في ذلك من عمى تاريخي متعمّد، وربما كان تعامل من هذا
النوع، ومن يتحدث عن جانب مظلومية الكرد، ينطق بالخطأ الفاحش والقاتل
تاريخياً، إذ إن تاريخ الحركة الكردية لا يعني أبداً الدائرة التي تتحرك في نطاقها،
أي اعتبار كل ما يخص القضية الكردية معلوماً من خلالها، وأنها في أقصى ما
حاولته وتحاوله حتى الآن، من خلال المطالبة بنظام فيدرالي في سوريا، من قبل
المعارضة الكردية ضمن المعارضة السورية، والخلافات القائمة حول ذلك، أو عبر
مفهوم «الإدارة الذاتية» والذي يشار إليه في إطار المسمّى بـ «روجافا كردستان»
حالياً، ومنذ سنوات، أن كل ذلك، كان يجري التركيز عليه في الفترة المذكورة، والتي
يعتّم عليها، وهو ما يمكن وضعه في نطاق «ظلم ذوي القربى»، أعني به الظلم
السياسي الذي لا يغتفر، وفي الكتاب إضاءة لواقعه.

من جانب آخر أنوّه إلى ذلك العمق الجمالي والأخلاقي الكامن في وصف فلك
الدين كاكائي وقد أشار إلى أن وضع الكرد في المنطقة، شبيه المحبوس في بيت
زجاجي، حيث إنهم مرئيون، لكنهم أسرى الداخل، وعليهم بعدم الاكتفاء أسرى إن
أرادوا الخروج إلى الهواء الطلق، أي إذا أرادوا لقاء أنفسهم المعلقة وقد أمست
معتقة، وتاريخ الكتابة يرجع إلى 29-8-2009، والقول الذي يهمني أمره، ولا أدري
إلى أي درجة يهتم الكردي الذي أتعب ظلاله هنا هو(يشبه وضع الكرد في المنطقة
بالبیت الزجاجي، و«البیت الزجاجي» لا بد أن يثير تداعيات ذهنية عن وضع
نباتات أو أية أحياء أو أشياء أخرى في بقعة محددة محاصرة بجدران زجاجية،
فهي تُرى من الخارج لكنها ليست حرّة أو طليقة بل محكومة بالبقاء داخل الجدران
الزجاجية.. أما وجود البيت الزجاجي لكائنات معينة فيعني أن لها كياناً ما، ولو

(1) أحمد، محمد ملا: صفحات من تأريخ حركة التحرر الوطني الكردي في سورية، رابطة كاوا،
أربيل، ط1، 2001، ص16-18-27.

كان زجاجي المظهر..... وفي الختام يرى أنه في الإمكان تحطيم جدراننا الزجاجية، إذ نستطيع ونتمكن..⁽¹⁾.

ولا أخالني بمبالغ إن شددتُ على أن هذا القفص الزجاجي لما يزال قائماً، إن لم يكن أكثر تضائلاً وخنق أنفاس.

حاجو آغا :

صانعُ نسَبِه الشخصي، وواهبُ نسَبِه الاجتماعي والرمزي،

ابن ماضيه الذي كان بمفهومه العضوي، لكنه «أبو» مستقبله الذي برزَ باسمه الاعتباري.

حالةٌ نادرةٌ في أن يجمع شخص في اسمه الوحيد المفرد ما هو فردي وجمعي ويكتفى به :

مختلفٌ عليه في ولادته، بين أن تكون سنة 1877، أو 1880، أو 1885، أو 1896، ومختلفٌ عليه في وفاته سنة 1940، بين أن تكون طبيعية أو بفعل فاعل،

(1) كاكايه بي، فلك الدين: البيت الزجاجي للشرق الأوسط «في العلاقات التضامنية للشعب الكردي»، دار آراس، أربيل، ط1، 2010، ص 7-10 .

إنما كيف يمكن تحطيم هذا البيت وهو أكثر صلابة مما هو متصور أو متخيل، وتحديدًا عندما نقرأ الوارد في كتاب أصليخان يلدرم: كردستان والحدود في القرن العشرين، ترجمه من الكردية : ابراهيم محمود، مراجعة وتدقيق د. عبدالفتاح علي البوتاني، منشورات الأكاديمية الكردية، أربيل، 2016 (إن كردستان، وباعتبارها منطقة استراتيجية وهامة جداً في العالم، بقيت على مر آلاف السنين منطقة حدودية، انطلاقاً من الكثير من الأسباب المختلفة والمتنوعة، لكن الحدود التي مررت داخلها في مطلع القرن العشرين، وبظهور الدول التي قامت على ترابها، وأُخضعت للظلم والاستبداد عبر مخططات وبرامج، كان من شأنها أن تعرضها لمتاهات كبرى، وظهرت اختلافات داخل الأجزاء المقتسمة لها، وعبر هذه الحدود الدولية القائمة اليوم، تعرضت عشائر كثيرة إلى التجزؤ، وفصل ما بين الأم وابنها، وتم تهجير الناس من أراضيهم وإبعادهم، وأخضعوا لوضع استثنائي، وهو أن يعيشوا حالة الحرب دائماً...الخ.ص39)، ذلك قول يمكن أن يشكل إقراراً لواقع حال معكوس لما تقدم، ليس بمعنى اليأس مما يجري، وإنما إضاعة لرعب الدائر في نطاق الجغرافيا الكردية، وكيف يتعامل أعداء الكرد معهم، وكيف يتعامل الكرد مع بعضهم بعضاً جرّاء هذا التفتيت لكنونتهم وتعميق خلافاتهم، وأن ما نحن فيه أو عليه لا ينفصل عن هذه الانجرافات التي تتقاسم الجسد الكردي ظاهراً وباطناً.

ومختلف عليه أشدَّ الاختلاف بين أن يكون موضوع الرواة والمغنيين الشعبيين، أو المؤرخين وما كان لهذا الاختلاف أن يحصل لولا أنه داهية سياسي من نوع مختلف وقد أقلق الكثيرين من حوله، وفي المسافة الفاصلة بين قرية «مزيخ» مسقط رأسه في «بنختي Bin xetê» وقرية/بلدة «تريه سبي» Bin xetê عاصمته وشاهدة على رحيله الأخير، والتي تقدَّر بستين كيلومتراً، نُسِجَت باسمه حكايات، وتردَّدتْ عنه أقوال، وأُطْلِقَت حوله تقويلات، لم يعهد لها كرديٌّ غيره

حاجو آغا:

مختلف عليه أشدَّ الاختلاف بين أن يكون إنساناً عادياً، أو لاعب أدوار سياسية، ومن أشد الداعين إلى كيان سياسي كردي مستقل في الجزيرة حينها، وأثر دعوته يمتد إلى يومنا هذا.

حاجو آغا:

رجل عرف بثقافته المتواضعة، لكنه بذكائه العملي وحنكته كان الشاغل الرئيس لحكومات ثلاث في الفترة الفاصلة بين 1926-1940، حيث شهد تنقلات ونفي له بين «تريه سبي» ودمشق والحسكة، وهي: الفرنسية المنتدبة على سوريا، والتركية التي كانت تراقب تحركاته عن كثب خطوةً خطوة من وراء الحدود المصطنعة، والسورية التي اتَّهَمَتْه بـ «الانفصالي» أكثر من غيره، أي الداعي إلى الاستقلال الذاتي عن حكومة المركز في دمشق، وقد سعت إلى استرضائه، بمقدار سعيها إلى لجم نشاطه السياسي، وكان وراء منْح مساحات واسعة من أراضي الجزيرة للکرد، وتودَّدتْ إليه عشائر كثيرة، كما حاربتَه عشائر كثيرة في المنطقة

حاجو آغا:

اسم تعدَّى صفته الشخصية، كما الحال في «مالبات: آل حاجو»، له شأنه الكبير في التصريف الجغرافي والتاريخي، بغموضه ووضوحه، كأنِّي به لغزٌ وليس كائنًا من لحم ودم .

لكن وقائع التاريخ المقروءة تعرّف به وتقدِّمه أكثر من ألح في منطقته على صيغة استقلال ذاتية للکرد حتى ما قبل انتقاله إلى «الجزيرة» ويعرّف في نطاق الحدود السياسية «أي منذ أيام «بياندور-1923» !

أي ما يجعل من اسم حاجو أكثر من كونه نسباً أو لقباً، بمثابة تأكيد على حق لا يجب التغافل عنه، ولا نسيانه، على خلفية من دوره الكبير في تاريخ عائلي، بيئي، اجتماعي وسياسي.

أي ما يجعل من التشديد على هذا الاسم فاعلاً في التذكير المستمر بتاريخ معتم عليه، وإن أضيء فإنما الباقي هو وجوب إشهاره ليكون علماً لمن تجاهله عن عمد، نظير مكانة جلية له.

أي ما يمكن اعتباره في ضوء ما هو متردد عنه بـ «الغازي» حاجو، جهة انتشار صيته !

أي ما يحول مكاناً يحمل بصمة الاسم فاكتسب أكثر من صيغة التاريخ الشخصي، أي دمغة لا تخفى للكردية التي تعني شعباً كان في المكان، وشدّد إليه، ومن حقه أن يذكر به بالتالي.

ومن منطلق شخصي، واجتهاد معرفي، أستدعي إلى الذاكرة القريبة تلك العبارات التي استهل بها عظيم روسيا في الرواية دوستوفسكي «1821-1881»، روايته الشهيرة «الأبله» ولسان سارده الشخصي (يشتكي عندنا دائماً من أننا يعوزنا أناس عمليون. فيقال مثلاً أن هناك وفرة في رجال السياسة، وأن هناك كثيراً من الجنرالات، وأننا إذا احتجنا إلى رؤساء للمشروعات، أيّاً كان العدد الذي نريده منهم، فسوف نجد ضالّتنا من جميع أنواعهم فوراً، أما الناس العمليون فلا نقع عليهم، قل على الأقل أن جميع المملأ يتشكون من أنهم لا يقعون عليهم... إن فقدان التفرد والأصالة قد عدّ في جميع البلاد وفي جميع الأزمان ميزة أولى ومدخلاً مضموناً لشخص ما، على النجاح في الأعمال وعلى امتلاك الحس العملي)⁽¹⁾.

هل علي أن أحدد المقصد من الكلام، فأشير منذ البداية، وربما من باب أخذ العلم الشخصي، أن الذي يتمحور حوله الكتاب في دولته الكردية هو حاجو آغا وفق معايير ستموقع في الداخل؟

ذلك هو كتابي، رغم أنه يتوسل المحفوظ طيّات ألسنة الناس، والمنشتر في زوايا

(1) دوستوفسكي: الأبله، ترجمة: د. سامي الدروبي، دار ابن رشد، بيروت، ط2، 1985، ج2، ص 7-8.

الأرشيفات، وكذلك المتقطع وغير المنتظم في كتب ليست تاريخية في مجموعها، إنما في السير منها، كتابي حيث ينبنى بالأسلوب الذي أردته، وبناء على تقديرات ثقافية: تاريخية، اجتماعية، سياسية ونفسية معينة، وهو يعرض داخله ما يجعله خارجاً جديراً بالمكاشفة، إنما أيضاً بالمتابعة وأهلية التثييت في متن التاريخ. إنه كتابي الذي تهيأت للاشتغال عليه منذ سنوات، حتى توافرت اللبّات التي تمكّني من البدء بعمرانه كما أرى، وأنا مدرك لما لم أتمكن من بلوغه أرشيفياً، أو تحصيل مراجع تسهم في إثراء البحث التاريخي أكثر، لكن العبرة في الجاري طرحه، وأن القيمة تتمثل في الممكن تميّزه والجدير بالتعمق كذلك، وأنا أضع نصب عينيّ ما تردد بلسان جان جاك روسو قبل أكثر من مائتين وخمسين سنة (لقد رويْتُ في كتابي الطيب والخبيث على السواء، بصراحة، فلم أمح أي رديء، ولا انتحلت زوراً أي طيب)⁽¹⁾.

وأنا في مختّم هذه المقدمة، أشكر كل الذين لهم بصمة في إنجاز هذا الكتاب بصورة مباشرة، وغير مباشرة، سواء عبر الاتصال الشخصي، أو عن طريق البريد الإلكتروني، ومن لهم فضل في ظهور الكتاب بالهيئة هذه من المصادر والوثائق بصورة خاصة والتي أضفت على بحثي هذا قيمة اعتبارية وتاريخية أكثر، وفي المقام الأول الباحث والمترجم الكردي خالد عيسى، أما على صعيد بعض النقاط الإشكالية المتعلقة بتاريخ حاجو آغا في الزمان والمكان، فإنه من عدا المصادر وكل ما له صلة به، ثمة الفضل الكبير للعديد من الأصدقاء من آل حاجو ممن تموقعوا بأسمائهم في نهاية الكتاب، وأنا على مشارف نهاية «مشروعي البحثي هذا» كما نوّهت، وقد كنا نتحدث كثيراً في ذلك استفساراً وتساوياً بغية التمكن أكثر من دقة المعلومة، ومن وجهة نظري- أنا- في النهاية، وفضلهم لافت أيضاً في تلك الصور والوثائق التي تغني البحث، حيث لم أستطع إلا انتقاء ما اعتبرته الأكثر أهمية هنا. كما أشكر مركز بيشكجي للدراسات الإنسانية في جامعة دھوك الذي وضع بين يدي أرشيف صور تخص كتاب الباحث نذير جبو «سلاطين هفيكا» حيث استعرت بعضاً منها. ولا بد أن قارئ كتابي هذا سيلاحظ هذا الفضل لحظة تتبّعه في فصوله وأقسامه، إلى جانب الصور التي وجدت طريقها إلى الملحق، فهم لم يدّخوا جهداً في هذا المقام، ونقاط أخرى، لولاها لما أبصر الكتاب نوراً بالسرعة هذه.

(1) اعترافات جان جاك روسو، ترجمة: حلمي مراد، دار البشير، دمشق- بيروت، 1998، ص 9.

الفسر الأول

أسماء فاعلة مبنية للمعلوم

«إن استرجاعنا للماضي أمر لا بد منه من أجل تأكيد هويتنا، سواء كأفراد أو كجماعات»

تزفيتان تودوروف: الأمل والذاكرة «خلاصة القرن العشرين»، ص 228 .

لماذا دولة حاجو آغا الكردية ؟

«إن عمل المؤرخ، شأنه كأي عمل حول الماضي، لا ينحصر فقط بإثبات الوقائع، بل أيضاً باختيار الأبرز منها والتي لها مدلول، ثم بإنشاء الصلة بينها...»
تزفيتان تودوروف: الأمل والذاكرة «خلاصة القرن العشرين»، ص 175 .

أحجار كثيرة في الطريق الوعر :

ليس من كردي ولديه وعي مبسّط بالكردية، إلا ويعرّف ولو بالاسم، من يكون حاجو آغا، وحين يتجه سؤالٌ ما إلى ما هو تأريخي، ربما تسمّع معلومات ذات صلة، ذلك على مستوى المدونات التاريخية، ففي ذلك يتطلب حضور المهتم، أما حين يؤتى على ذكر عبارة كهذه، وهي عنوان للكتاب أصلاً «دولة حاجو آغا الكردية»، فإن الذي يمكن أن يعقب القول، هو أكثر من قول، أو تعليق أو حتى سؤال في الحال: أو كان لحاجو آغا دولة ودولة كردية؟ أين، وكيف ؟

لحاجو آغا كشخصية تاريخية وفولكلورية أيضاً مقام في التاريخ السياسي والشعبي، وما أكبر الفرق بينهما للوهلة الأولى، إذ إن الأول يُتطرّق إليه من خلال مسمّيات مكانية، وبألْسنة أشخاص عاصروه أو ما زالوا أحياء، أو من خلال خلف لهم، واعتماداً على كتابات أو وثائق وهي تعرضه في صور شتى على مستوى الوعي التاريخي، والممارسة السياسية، وما يكون عليه قريباً من خاصية الكردية «أو الكردايّتي» أو بُعداً عنها، ليصبح ذلك كلام الكتب، ويكون مدعاة لتفسير وتحليل ومناقشات، وبالتالي لتوافر انقسامات، وتجاذبات بين: موالين وأنصار ومعارضين وحتى مخاصمين لهذه الفكرة أو تلك والدائرة عنه .

لكن كلام الشعبي غير الأول، فثمة الصوت الناطق على طريقته وهو المغنّى: الملحون من ناحية، وهو المتداول على ألسنة الناس مما كانوا على قرب منه، أو لهم صلة به، وبأفراد عائلته، فتتشكل لدينا هنا ملازم أقوال وتباينات، وما يدوّن وقيّم تأريخياً من ناحية أخرى .

ولعل إمعان النظر في الحالتين، يرينا أن من الظلم التاريخي بمكان إقامة جدار عازل، وبطريقة تعسفية «غير مدروسة» بين الاثنين، إذ ما أكثر ما احتاج

التاريخ السياسي إلى التاريخ الشعبي، هذا الذي يقول ما لديه دون أي حساب لحقيقة كلامه، وما يترتب عليه من حكم قيمة، كونه الأبعد ما يكون عن التفكير المسبق فيما عليه واقع التاريخ «الفعلي»، وما أكثر الحالات التي ينمي التاريخ موضوعه، أو ينير مفهوماً يعنيه انطلاقاً إلى الأشخاص الذين لا مرتبة «أكاديمية» لهم، ولا غنى بالتالي عن استفادة من هذا التنوع، وتحديدًا حين نكون إزاء واقعة تغلب فيها الشفاهة على الكتابة، ولأسباب سياسية تحوّل دون كتابة تاريخ يستجيب لحيوية المستجدات وضغط السؤال التاريخي بالذات، أي ما يمكن تلمسه من فراغ هائل أحياناً في موضوع تاريخي دون آخر، ذي علاقة بما هو سياسي واجتماعي، كما في الشأن الكردي، وفي الوقت الذي يسهل علينا العثور على إشارات، لا بل وصفحات، وفي بعض الحالات كتب، وهي محدودة، ولكنها غير كافية، تفيدنا في إنارة المقرر البحث فيه أو عنه، سوى أنها تتطلب المزيد من البحث واستقراء المدوّن نفسه، من باب التمهّيس التاريخي، وبغية توسيع نطاق البحث وتعميقه وطرح المزيد من الأسئلة الفاعلة والمُجدية في إشغال ما هو موجود، ومن باب استنطاق المصموت أو المتكتم أو المعتم عليه، أو ما جري ويجري تهميشه أو تحييته جانباً، نظراً لأنه يمارس تأثيره في سلوكيات أشخاص معينين لهم مواقعهم الاجتماعية، أو من باب الواجهة، أو لأن المضي بالسؤال التاريخي يتطلب أكثر من شجاعة معرفة في تتبع أثر هذا الاسم «موضوع البحث»، لصالح التاريخ أولاً، ومن ثمن لصالح الذين يهمهم مثل هذا البحث، خصوصاً حين يصلهم بجانب قرابة أو صلات قريبي ثانياً، وهذا يضيف على البحث حرارة تاريخ أكثر.

الاسم: حاجو آغا، وهو ليس اكتشافاً، والموضوع: صلة حاجو آغا بدولة كردية، وهو الآخر ليس ابتكاراً، أو اجتهداً، إذ إن هناك أكثر من إشارة إلى وجود طرح كهذا في أكثر من مرجع، ووثيقة «فرنسية» بالذات. ما الجديد المفيد إذ؟

دولة حاجو آغا الكردية: صياغة تثير الذاكرة، مثلما تحفّز قوى نفسية متعددة مرفقة بمشاعر وأحاسيس عن المراد من ذلك، وعما هو محضّر، بمقدر ما علامة استفزاز لآخرين، ليكون هذا العنوان عنوان كتاب، لا يعرف ما سيكون عليه حتى الآن طبيعة بحث، وحجماً كذلك.

هذا الموضوع، وبهذا العنوان، يطرح نفسه من خلال مؤثرات ثقافية فاعلة في بنية

البحث وأهليته بالتوسع والتعمق، ومن ثم بالمزيد من الأسئلة المطروحة والتي تطل ما هو تاريخي لم ينل حقه من المكافحة والمقاربة النقديتين، وما هو نفسي، لأن هناك شخصيات مختلفة سوف تحضر بقاماتها وأسمائها وسلوكياتها وتتحرك في أكثر من جهة، بقدر ما يكون لها خوض في أكثر من موقع اشتباكي ومواجهة ومطاردة حدودية من جهة ثانية، وكون الموضوع ينطلق من مفهوم «الدولة» فهذا يعني قبل كل شيء التصرف بما يعزّز من مقام الفكرة التي ينبغي عليها أن تكون عملياً بمقياس دولة جغرافياً وتاريخياً، ولعبة السياسة في تينك الحاليتين، أي ما يضيفي على الكتابة قيمة ثقافية تتناسب والصورة الفعلية المعطاة للدولة هذه.

«دولة حاجو آغا الكردية» ! منذ متى كان الحديث عن هذه الدولة؟ وقبل كل شيء، وهذا ما يجب التنبيه إليه: من هم آل حاجو آغا، ليكون لهذا مثل هذا المسلك السياسي والثقافي؟ ومن يتقدم على من في صناعة الاسم؟ إذ إن التحضر لتنفيذ أي مشروع يستوجب التذكير بالعناصر الداعمة له: ما يجعل المشروع مشروعاً، وبالنسبة لآل حاجو، كيف قيّض لهم أن يشددوا على لزوم بناء دولة، وكردية حصراً؟ وأي دافع كان وراء هذا الفعل، وما في الإجراء من تحديات ومخاطر وحتى كلف وضحايا؟

ومن هو هذا الـ «حاجو» وهو آغا، ومن هو هذا الآغا وهو يخرجنا إلى عالم الريف، القرية وليس المدينة، ليكون اسمه مرتبطاً بدولة كردية، وهي تتجاوز نطاق الريف/القرية، والأعداء والخصوم يحيطون به، ممن ينتمون إلى عالم الأغراب، حيث تقاسموا كردستانه: عرباً وفرساً وتركاً، وممن ينتمون إلى دائرته الأسرية «من بطانته»، وكذلك في محيطه الاجتماعي الضيق، على مستوى عشائري، لم يخفوا عداؤهم له، أي باعتبارهم كرداً؟

ما هي مقومات هذه الدولة التي أراد حاجو آغا التحضير لها في هذا الوسط الشديد السخونة والاضطراب والمنقسم على نفسه؟ وهل - حقاً - تستحق تسميتها بدولة، وكيف؟

على صعيد التاريخ العائلي والاجتماعي ثم الشخصي، لا أسهل من القول بأن حاجو «هكذا يعرف، ويعني أنه ذائع الصيت في منطقته»، قد حمل - ربما - بأوصاف لم يحمل بها غيره، وفق ما تابعتة وقرأته وتوصلت إليه، فهو: القبلي

المتخلف، والمدني، والأمي، والسياسي، والأخطر: الخائن والعميل، والمتعاون مع الأتراك والفرنساوية «زلمتهما»، والانتهازي، أو المصلحجي، إن جاز التعبير، والرجل الداهية، والقاسي، والعطوف، والبطل الأسطوري الذي لا مثيل له، وعدو شعبه لا صلة لها بالكردايتية، والمتقلب... الخ. قائمة من الأسماء أو الألقاب، حسبي القول فيها أنها فور قراءتها، تنشّط الخيال والذهن معاً لمعرفة السبيل الضامنة للوصول بينها: كيف أمكن لرجل لم يعمّر كثيراً «63 عاماً»، أن يحصل كل ما تقدّم؟ كيف يجمل بين روحية الكردايتي، وسهولة التبعية للأعداء؟ كيف يجمع ما بين كونه أمياً، جاهلاً ومتخلفاً، ومتعلماً، ويجالس كبار السياسيين؟ كيف له أن يكون جباناً، وفي تاريخه ثمة أكثر من عمل بطولي على طرفي الحدود؟ أتى له، وفي زمن قصير، أن ينال كل هذه الألقاب، ومن هم وراءها؟ أليس سماعها، عمل روائي ضخم، حافزاً كبيراً لمتابعتها بعمق؟

ذلك يرجعنا إلى متن التاريخ أو يضعنا في واجهته، إلى جغرافيا تتطلب تسمية جهات لها، أو تحديدها اسماً، وما هو ديموغرافي فيها، وبنية هذه الديموغرافيا عموماً، وبالنسبة للكرد الذين يخصونه، وطبيعتهم الاجتماعية والسياسية والثقافية.

الحديث عن التاريخ، بمقدار ما يدفع بنا إلى ما هو سردي واستناداً إلى مصادر مختلفة، وما في ذلك من تنشيط دافع تقليدي، والاستعانة بالذاكرة الحفظية، أو ما هو مدوّن، بمقدار ما يتراجع هذا الدافع إلى الوراء، لأن هناك حاجة معرفية، وضمناً علمية تتطلب توثيقاً، لجعل المروي أو المقتبس في مكانه الجدير بالتسمية والتسوية، إذ إن هناك الكثير من الثغرات التي تتخلل أي إجراء يمكن القيام به، تجاه أي نقطة مفصلية وفرعية في هذا الفضاء الجغرافي غير المستقر، وفي الوقت الذي يتوجب على من يعنيه أمر البحث وحقيقته، التحلي بمزيد من التروّي، وإقامة علاقة مع المعلومة، ليس بوصفها منزلة: صادقة تماماً، وإنما إخضاعها لمسبار المسألة وتقصي كيفية ظهورها في مقام المعلومة التاريخية، ومن يكون مصدرها، وثقافته وصلته بالموضوع، إلى جانب مراعاة شروط أخرى على تماس مباشر بحرفية التاريخ: فيما هو تقليدي فيه: الحدث، الوثيقة، مدى أصالة الأخيرة، وقبلها: مدى مصداقية الحدث في الزمان والمكان، حيث لا أكثر من الأقاويل التي يسهل سماعها أو قراءتها، ذات علاقة بجانب من

الموضوع أو أكثر، وما فيه من تشابكات، كما لو أن الذي يقوم بالبحث هو من يفتتحه، هو من يفصح عنه، هو من يجري ترتيبات له، هو من يقدم طاقمه من المعنيين بعالمه البحثي، هو من يعلن «قيامه دولة كردية» وعلى رؤوس الأشهاد، وما يترتب على ذلك من تداعيات وردود أفعال، هو من يحاول جاهداً إلى تأكيد حيوية هذه الدولة، أو إضاعتها داخلاً وخارجاً، ليكون الخصم والحكم، ودون أن يقاطع خصماً بوضع حد له، وقطع صلاته بالبحث، ودون أن يكون الحكم في كامل صلاحية الحكم، إنما ما يبقى الموضوع مفتوحاً، إنما قبل كل شيء، ما يفصح عن غواية معرفية لها ما يبرر تسميتها والانتباه إليها، واعتبارها أكثر من غواية، وهي تؤثر في طبيعة التفكير ومسار القول وهو يتشعب ويتوسع في كل خطوة، لوجود أرضية تاريخية وليس خيالية، وأن ما أشير إليه ذات يوم بدولة حاجو آغا الكردية، لم يكن من بُنات خيال هذا الاسم، ولا اصطناعاً من لدن الباحث هنا، إنما ما هو قائم في التاريخ بالذات، من خلال أصول اجتماعية وسياسية وثقافية له، يكون العمل البحثي عليها ذا مردود تاريخي قبل كل شيء بالتأكيد، حيث لا شيء يغني التاريخ، لا شيء يمنحه قيمة اسمية، ورصيداً قيمياً أكثر من مساءلته وتصويبه زمنياً .

ومن الأسئلة التي تطرح هنا، وهي من صلب التاريخ: لماذا تصدر هذا الاسم «حاجو آغا» مشهداً سياسياً كردياً في زمن تاريخي محتسب وفي الربع الثاني- تقريباً- من القرن العشرين؟ ما الذي أخرج هذا الاسم «حاجو آغا» من خاصية اجتماعية، إلى عمومية سياسية، ويكون له شأن أو مكانة ودور فاعل في مرحلة تاريخية شديدة الأهمية كردياً ؟

بين الاسم والقبيلة :

أي «سر» في أن يكون حاجو آغا متقدماً على اسم قبيلة هي أكثر من قبيلة بالذات، وبالتالي، وإن كان يعرف بانتمائه إليها أي «هفيركان» Hevêrkan، وتبقى القبيلة هذه في «الخلف» أي تكون هي مرتبطة به لا العكس؟

وهل يقف اسم حاجو آغا من جهة النشأة داخل حدود هذه القبيلة، أم يرتد إلى الأبعد منها، ومن خلالها، ودور ذلك في هذا الموضوع: الدولة؟ والأهم أيضاً، هو: لماذا غلب النسب مبتدأ النسب بالذات، أي يتقدم عليه ويبقيه في العتمة، من

خلال تداوله أو التعريف به، وعلى مستوى المنتمين إليه، في إطار: «آل حاجو آغا»، وليس أكثر من ذلك؟

إذ إن المعروف، وكما سنرى، يرتد اسم حاجو إلى سلو المركّب الكردي من سليمان، داخل شجرة عائلة كبيرة متفرعة، فكيف أجيّز لحاجو الابن أن يتقدم على حاجو الأب؟ في المقام الاعتباري، ثم يتواصل حاجو هذا متسلسلاً، فيكون حاجو الأول الابن المباشر لمبتدأ الاسم: سلو، وحاجو الثاني ابناً لحسن نظير أخ له وهو بتي/ باتي Betê / Batê» ونكتفي ب: بتي، ومن ثم ما صار إليه إيقونة العائلة حامل اسمها، ومجسّد مكانتها: حاجو الثالث، ومقابله الأشهر بذيوع صيته: علي/ عليكي، أليكي، والأبرز: عليكي، بتصرفه الكردي، سوى أن حاجو يفوز بقصب السبق، وقد مضى عليكي ملهم المغنيين الشعبيين الكرد سريعاً، ليحل محله حاجو الثالث، دون أن يلغيه مكانة بالتأكيد، إنما ليتابع طريقاً يعبر حدوداً، ويتحدّى حدوداً مصطنعة وملغومة، وفي الداخل مجابهات، دونها ما كان حاجو حاجو!

أي إن حاجو هو التالي على الأصل «سلو»، ولا أظنها بدعة، حين جرى الاصطفاف حول حاجو هذا، إنما لأن هناك ما سوّغ لهذا الاسم لأن يفارق الشخصي ويصبح عنواناً عائلياً ووبصورة موسعة «آل حاجو آغا»، أي ليس هناك كما هو معهود، مثلاً «آل سلو»، والذي كان عليه الانتظار لبعض الوقت ليكسب حظوة اجتماعية، حيث اللقب لا يأتي بسهولة، إنما يعتمد على مقومات، من بينها القوة والشجاعة والدهاء والحيلة وحتى المراوغة عند اللزوم، وفي البال، أسماء شكّلت دولا، أو كانت مخاضات دول: الأمويون، العباسيون، الصفويون، العثمانيون، السعوديون... الخ، فهم من حيث المنطلق يرتبطون بأسماء أشخاص كان لهم دور في هذا التوقيت الزمني الاستثنائي الفاعل تاريخياً، سوى أن حاجو الأول هو استثناء من نوع آخر، ولم يظهر إلى الساحة لأنه نال من أبيه، أو ورث سلطة سائلة، إنما «أوجدها»، فاستحق مكانة تحمل بصمته، ومن خلال اسم تال، هو المقصود بمحتواه القيمي بالذات: حاجو الثالث، وليس من هما قبله .

طبعاً، علي أن أسارع إلى القول ومن باب التنوير للمعنى، على أن ليس هناك من ينتسب إلى حاجو آغا، كما في إشارتنا إلى «البدرخانيين» نسبة إلى بدرخان بك، إنما يكون التركيز على حاجو بصفته منتمياً إلى قبيلة هفيران، أو يكون من

حيث الصفة: هفيركياً، ولكن شهرة حاجو آغا تتقدم اسم القبيلة بالذات، وهذا من شأنه النظر في المنجز على يديه .

في السياق ذاته: لماذا توقفت السلسلة عند حاجو الثالث «1896-1940»، تبعاً لتاريخ ولادة وحياة إجمالاً «وهو تاريخ إشكالي كبير، كما سنرى» من خلال وقفة تحرر حسابية، أي رغم وجود أكثر من إشارة إلى أنه توفي عن عمر يناهز الـ «63» عاماً، أي إنه من مواليد «1877»، وهو بحث آخر يخص الثقافة الشفاهية، والوضع الاجتماعي والسياسي للکرد؟ لأن ما يلي يشكل توضيحاً أو تأكيداً لكل ما أثرته حول! هل من سر في ذلك؟ لا بد أن البحث في بنية السؤال، ومن ثم عن الجواب «الملائم» لا يقتضي ذاكرة زيفاكوية «نسبة إلى الفرنسي ميشال زيفاكو»، ولا خيالاً هيتشكوكياً، حيث التدقيق في الخفايا وما هو أبعد منها بقلبها البوليسي، إنما هو المرتبط بأصل الموضوع، وهو كغيره من الموضوعات الفرعية الأخرى، يؤسس لفكرة لها مكانتها التاريخية المعتبرة، حيث إن اللاحق يضاء بالسابق، بمقدار ما يوضحه في الآن عينه، إذا أخذنا في الاعتبار جملة من المسوغات التاريخية والتي تجعل لكل موضوع ظاهراً وباطناً.

كيف يمكن التعرف على حاجو، وهو في المقصد: حاجو الثالث، وقد أبقى سابقه كغيره خلفه، دون أن يعتّم عليهما، إنما هو جانب المقدرة الاجتماعية ومن ثم الدهاء السياسي، وما في ذلك من مكر بالآخرين، وعلى مستوى عال: جهة التعامل مع كل من السلطتين: التركية والفرنسية، وكذلك جهة إدارة العلاقات مع وجهاء المجتمع في وسطه وكسب النفوذ، أي ما يخص بلاغة الذات التي تشق طريقها وسط صعاب معقدة بالسلطة على طريق الحدود وأبعد.

ومن المعلوم أننا في هذا النطاق المفتوح، وإن كان يتشكل من مجموعة من الموضوعات «الموتيفات»، وبينها تباعد في الزمان والمكان: عندما نشير إلى علاقة حاجو آغا بالبدرخانين مثلاً، وطبيعتها، والذين ينتمون إليهم: جلادت وكاميران بك في الواجهة، وهل من قيمة توثيقية واستلهامية جديدة بالتذكير، في دعوة حاجو آغا إلى كيان كردي، وارتباطها بتلك الإمارة التي لا ينفصل عنها على مستوى القبيلة: إمارة بوتان البدرخانية منذ قرابة قرنين من الزمن، وربما ما هو أبعد من هذا التاريخ، لحظة النظر في النشأة البعيد الأثر تاريخياً لأصول القبيلة «هفيركان» وصلتها بماض

موغل في القدم، وعلينا علينا أن نأخذ في الاعتبار تلك التناقضات الجدودية، ومفهوم الأعرق في التاريخ، بين العشائر فالقبائل الكردية، حيث إن العراقة كانت تشكل دمغة تأريخية ووجاهة اجتماعية، وإثراء للرصيد الرمزي للقبيلة ومن يتزعمها كردياً.

تنقّلات :

ومن المكان إلى المكان: من الأحدث إلى الأقدم، وبالعكس، من خلال استدعاءات تأريخية واعتبارات اجتماعية، ودون نسيان الدور الكبير للسلطات الموجودة، ونوعية تعاملها مع ثقافة تأريخية ومحلية، وهي تقييم علاقات مع رموز القوة في هذه العشيرة/القبيلة أو تلك: العربية أو الكردية وغيرهما، والملوّن السياسي في كل عملية تدخّل أو تحريك أو استحداث أو تطعيم أو تعميق...الخ لوازع عصبي أو استثارة جانبية بقصد التقاتل، أو الفتنة، وذلك كان دأب سياسات الأنظمة القائمة وقتذاك وإلى هذه اللحظة، حيث إن تناول أي طرف، لا يمكن أن يضفي على البحث أهمية مستحقة دون التطرق إلى هذه المؤثرات، وما يكون العامل الأكثر تحريكاً لقوى كامنة وتفجيرها أو استثمارها أو كيفية التحكم فيها في ساحة الصراعات التي تتدخل فيها قوى مختلفة، كما كان الحال مع السلطات الفرنسية والتركية والسورية، وحتى الانكليزية والعراقية، وهي الساحة الجغرافية التي يمكن تأطيرها بصورة ما، لحظة تسليط الضوء على تأريخ حاجو آغا الأكبر من اسم شخصي بالتأكيد، ولعبة المساومات ذات الطابع الدولي في الصميم، خصوصاً وأننا نتحدث عن مرحلة لا أخطر منها، كان من نتائجها تلك الخارطة السياسية التي تشكلت ومهدت لظهور دول بكيانات سياسية، وضمن حدود سياسية تحمل بصمات دولية: فرنسية وانكليزية بداية، لتكون دول أخرى عرفت من خلال هذه القوى الدولية، هي المعنية بهذه الحدود، كما لو أنها حدودها وليس سواها، وهي تحرص عليها إلى يومنا هذا، كما هو الملموس في بنية الصراعات التي يشهدها عالمنا اليوم، وبالنسبة للكرد بجلاء.

تلك فضيلة معرفية وبحثية تأريخية المنشأ، فضيلة لا أعتقدني ببعيد عن المبالغة إن قلت، عن أنها فضيلة الفضائل، وأنا أشدّ على خطورة موضوع كهذا الذي أتهياً له، أو وأنا أكتب فيه وعنه، حيث تلقي قوى خفية وعلمية، ولأنه يتقبل

أي إضافة ذات مسحة جغرافية، أو علامة تأريخية ويزداد رسوخاً في الزمان والمكان، بمقدار مرونة التصرف في الربط .

ولعل من نافل القول التأكيد على أن مساع أو محاولات كثيرة ارتسمت في التاريخ عموماً وفي التاريخ الكردي خصوصاً في نطاق الدعوة إلى دولة كردية بشكل مصغر أو على مستوى كردستاني ومنذ مطلع القرن التاسع عشر، لتراوح هذه الدعوة في مكانها، وهي بين الدعوة اللفظية، أو من باب الدعاية، أو بجديّة كاملة، ودون الفصل بينها وبين موقع الداعي إلى ذلك، من قبيل رفع أسهم الصيد الاجتماعي والوفاهي للشخص، والصراعات التي رافقتها أو تخللتها حتى داخل «جماعته»، وعلى مستوى أعلى، حيث التلويح بياقطة القومية، وإن كان في الإمكان القول بأن ليس من دعوة فعلية، وبمفهومها القومي الفعلي، بما يتطلبه هذا الإجراء من وعي مؤسساتي، وتحرر من غواية ما هو طائفي أو عشائري أو مذهبي، سواء من الداخل، أو في العلاقة مع القوى المجاورة، قد ظهرت إلى الوجود، أو في وسعها تأكيد ذلك لحظة النظر في طبيعتها، ومن ثم المغذي الفعلي لها: نوعية القوة الداعمة، ومصدرها، والذين يتحفزون لها، ومن الصعب، إن لم يكن مستحيلاً استدعاء ولو مثال واحد، ولا بأي شكل، تأكيداً على جاهزية دعوة كهذه، ومشروعيتها من خلال المكونات التي تتطلبها الدول حقاً.

هذا يعني أننا نتحدث هنا بلغة الإمكان، وعبر تفهّم الظروف المتاحة، وما يمكن أن يكون مقبولاً للطرح، لا بل ما يمكن أن يؤخذ بعين الاعتبار في الزمان والمكان وملابسات الحالة، وفي ضوئها يجري تقييم الفاعل القائم بالدعوة، أي وفي خاطرنّا أو ذهننا المؤثر العشيري أو القبلي الذي لا يغفل البتة، حيث إن الاعتراف بوجوده وفعالية أثره من الفضائل، بحيث إنه يسمح لنا بمقاربة الموضوع بدقة أكثر، وحساب نسبة حضور هذا المؤثر أو تراجعته إلى الخلف لصالح ما هو معرفي يصل الدعوة بمؤثر آخر، هو الغفل من الاسم، أو المنوّه إليه في كل مساءلة من هذا النوع وصلته بما هو قومي، أو تلك التجاذبات بين مقام الاسم الشخصي ومداه الاجتماعي.

حاجو آغا، كان كغيره ممن سبقه بقرن من الزمان تقريباً، إن تذكرنا سلفه البوتاني بدرخان بك، مع فارق أن دعوة حاجو آغا لم تتم في مضمار محمية عشائرية أو قبائلية، أو مقتطع جغرافي، كحال الإمارات الكردية المعلومة، إنما من

داخل مجتمع يحمل علامة المدينة الفارقة «ولا أقول المدنية»، وفي الوقت الذي لا ينسى لا هنا ولا فيما بعد التنويه المباشر أو ضمناً إلى الحضور العشيري أو القبلي في بنية الدعوة، أي الاعتداد بذخيرة العشير/ القبيلة في تحريك الدعة هذه .

وحين أتحدث عن حاجو آغا، وأنا أمهد لما ينبغي أن يتشكل بالحركات والعلامات الداعمة لكل عبارة، فلا بد من إضاءة مقولة أخرى، لا أحسبها بمحدودة الأثر ناحية القيمة الدلالية للبنية المعززة لها أو المحركة لكل عنصر من عناصر البحث، أي في اعتبار حاجو آغا في مقام «السلطان»، وربما كان اللقب هذا استثناء، كما في حال «سلاطين هفيركان»، إذ في حدود المقروء والمسموع، ليس هناك من اكتسب هذا اللقب وبالطريقة هذه كسلاطين هفيركان، وفي ذلك إيعاز معرفي، إلى جانب كونه انبثاقي، أي من الداخل، وليس مكرمة سلطانية، من جهة «الباب العالي» العثماني، حال الذي نعلم بأمرهم كما في : الباشا، «أمير الأمراء»، على الأقل، وهي ألقاب كانت تمنح مكافأة على أعمال قام بها من وضعوا أنفسهم في خدمة السلطان الذي يعلو ولا يعلو عليه، ليكون السلطان الهفيري بالتالي في مقام التحدي للرمز الأكبر، وصدمة لذلك المعقول التاريخي طويل الأمد والذي يتمثل في عموم الذين ما كانوا يعرفون سوى هذا الاسم الأوحده مقرر الأوحده عثمانياً بالتأكيد، وفي الوقت الذي يشار إلى أن أيّاً من آل حاجو، أي ممن له قرابة بحاجو آغا، وممن سار على «نهجه»، لم يسبق له أن نال مكافأة من هذا القبيل، بالعكس، ثمة مطاردة عثمانية، بمقدار ما هناك مطاردة تركية للإجهاد عليه، حيث إن هفيركان سلكت، أو أسلكت معابر وممرات متشعبة جهة الملاحقة، وعبرت حدوداً متجاوزة سرختي إلى بنختي وأبعد، وحتى أبعد من رفّع أو جهات جغرافية متموضعة في الشرق، حيث يكون «شنگال» وفي الجوار منطقة «زُمار» وغيرهما .

ذلك من شأنه الدفع بنا، ونحن أكثر أهلية للتحرك، وباستقلالية فكرية، وشهية بحث مضاعفة، حين نتعزز بكل هذه العوامل التي تقرّبنا من التاريخ، وتقصينا عن ولاءات معينة، أو استرضاءات، كما الحال مع حاجو آغا نفسه، أي ما يكون المسلك الحياتي الذي عرف به حاجو آغا، وهو يستقطر وراء حلفاً أو تحالفاً عشائرياً/قبائلياً، إلى جانب تحالفات أخرى في الجوار، إلى جانب صلات مع قوى فاعلة في محيطه، وهي سياسية: دولية طبعاً، وما يعيننا عليه هذا المسلك في

البحث عن المزيد من التركيز في البصيرة، وفي الوصل بين نقاط مختلفة، ليكون للموضوع ما يبرر شرعية انتساب إلى التاريخ، وبمزيد من الدعم الجانب كاعتراف من قبل الذين لهم اطلاع أو متابعات من هذا النوع، ولا أظن أن هناك ما يخل بمنحى البحث أو يقلل من حيويته، أو يعرض نقطة فيه لشبهة ما: مجاملة أو محاباة، أو افتتاناً بمقولة ذاتية أو خلافها، إن شددت على طبيعة تأثير موضوع البحث ومن يكون محرك البحث فيه، أعني بذلك: حاجو آغا، وهو بقدراته الذاتية، في تلوين البحث الذي نعمل عليه، أي ما يكون البحث متأثراً ومجداً في الاجتهاد، ولا بد أن هذا التركيز على حاجو آغا، ومن خلال عنوان نوه إليه لأكثر من مرة سالفاً، ما كان له أن يتم، ولا كان له أن يندرج في سياق عمل تألفي وراهننا، دون أن يكون له ما يعدّه ويشده إلى عالم الكلام المكتوب، وفي إهاب كتاب هو قيد التشكل، دون هذا التقدير لهذا الشخص، وهو يتحرك في أكثر من اتجاه باعتباره سلطاناً هفبريكياً أو زعيم عشيرة أو قبيلة، وكونه منتمياً إلى مجتمع، ومتصرفاً كسياسي، وهو يعقد تحالفات، كما يقوم بمناورات، وعلى أكثر من جبهة، وفي خضم صراعات ساخنة، تجد ما يشابهها راهنا، ولو انقطع تشابه كهذا، لما كان هناك معنى للتاريخ، أو جدوى الانشغال بما هو تاريخي، أي إن الكتابة عن حاجو آغا، هي ارتحال إلى ما كان، ودراسة محيط جغرافي، وفضاء تاريخي متعدد الأبعاد، والإصغاء إلى أصوات من كانوا حينذاك، ليكون فيما بعد ذلك المأثور البحثي والذي يكون ناجعاً، وملهماً في آن، لإضاءة ما نحن عليه، وأوجه الخلاف والاختلاف بينهما.

تقاسيم اليوم الواحد :

أليس في مقدور أي باحث، نصفه تاريخي، ونصفه اجتماعي، أن يلاحظ مدى التداخل بين كرد اليوم وكرد الأمس؟ أليست الظروف التي تقدّم بطابعها الكردي، والعوائق التي تعترضها، والموقع الذي لا يحسد عليه، للذين ينتمون إليه، ومن قبل بني جلدتهم، وفي بعض الأحيان كما هي عوائق الأمس القريب ومن كانوا يعرفون بها، وربما أكثر من تلك، لحظة أخذ الجاري من خلال الحديث المتكرر عن الوعي وانتشار وسائل التواصل الاجتماعي، ودور التعليم في الحياة، وقدرة نسبة كبيرة من الكرد في الداخل، وفي المهاجر والمغتربات على التحدث بلغات شتى، بعين الاعتبار؟

لعلها عينات، وما أكثرها، ولعلها نماذج، وما أمضاها دلالات، ولعلها أمثلة تعيننا في الارتباط الجانبي وفك الارتباط بين حالة وأخرى، بين وجه شخصية فاعلة ودرجة الفعل الاجتماعية وتقواها الكردية ومقابل له في عالمنا هذا، وهي مستويات من البحث والمقابلة والمقارنة واستشراف القيم الموجودة في كل منها، وأي منها، أكثر أهلية انتماء إلى كيان الدولة، ولا بد من التحرك في أكثر من اتجاه، والتفكير بأكثر من طريقة، واستتطاق أكثر من عبارة أو اسم، للتاريخ ومن أجله .

ربما من باب البدهاة أيضاً، والتذكير عن أن مطلع القرن العشرين مهدّ لإرهاصات إصلاح عالمي، ودشّن للحرب العالمية الأولى وفضائعتها ما بين عامي 1914-1918. نظير ذلك ماذا نجد في مستهل القرن الحادي والعشرين؟ بدءاً من « 11 سبتمبر » 2001، كان هناك انفجار برجى التجارة العالميين صدمة لا ينساها الأميركيون ولا العالم «المتقدم» ولا خلفه، جرّاء رعب المردود، ليشهد العالم بعد تحولات دراماتيكية، ومن ذلك أننا الآن «وأنا في خضم 2017» نعيش حرباً عالمية أولى، نظيرة شقيقتها الشقية في القرن العشرين مع داعش وغيره في المنطقة، ومخاوف إرهاب داعش وكل التنظيمات الداعمة له، وما يعيشه العالم من مخاوف إضافية، والهجرات والنزوحات المليونية وبشكل مضاعف في المنطقة وغيرها، كما لو أن أوروبا التي فتت المنطقة ذات يوم ها هي تعاني من ضغط الهجرات إليها جرّاء سوء فعلها .

وحاجو، ربما يكون الوحيد في العصر الحديث الذي نبّه إلى خلل في ترجمة الحدود بصورة خاطئة، ويكمن في عبور لـ «الخط المصطنع» والعودة، حيث القيام بعمليات ومناوشات ضد القوات التركية على طرفي الخط ، وكل ذلك له وزنه، أو تأثيره في أي مقارنة نقدية، كما سنرى، ونحن نتعقب خيوطاً مرئية وأخرى داخلية في شبكة علاقات اجتماعية ضخمة.

وفي صلب الحرب العالمية الأولى، اندلعت هذه الحرب، واكتوت في ناراها شعوب وأمم، وكان عدد الضحايا هائلاً في المنطقة، وتحديدأ، منطقة كردستان، كما باتت تعرف من قبل المعنيين بها، وكان المعمول على الطاولة اتفاقية «سايكس-بيكو»، أي في منتصف المسافة، كما لو أن نار الحرب الحارقة المحرقة قد أعدت وأعد لها مسبقاً، من قبل الدول الكبرى آنذاك: بريطانيا العظمى وفرنسا بصورة رئيسة، من

أجل هذه الطبخة التي سمّمت شعوب المنطقة بجغرافيتها، وليكون ضحاياها من كان يشار إليهم بشعوب وأمم أو جماعات اثنية معروفة: الأرمن، السريان، والكرد، وتكون فظائع ومجازر، وبليلة جغرافيا، وتغيير خرائط، ونقل مواقع قوة، ولعب بمصائر الشعوب وويلات حرب، وربما بلعب الشعوب الموعودة بتأسيس دول لها الطعم القاتل أو شبهه: الأرمن فالكرد، كنموذجين لافتين، ويكون لظهور حدود سياسية لكل من دول تم تشكيلها: سوريا والعراق، والإبقاء على دول أخرى داخل حدود على حساب المحرومة منها: إيران وتركيا خاصة، وبدا أن الخارطة السياسية إثر نهاية هذه الحرب «1918»، كما لو أنها خطّطت لها على وجه العموم، ليجد الكرد أنفسهم في حلبة التجاذبات السياسية ومسلخها العقائدي، ربما لأنهم يصلحون أكثر من غيرهم، وهم بحضورهم العددي، في منظور الدول الكبرى ودول المنطقة التي ارتبطت بها وتقاسمت كردستان، لأن يلعبوا الدور الخطير في تجديد التوترات، وأن يكونوا من جهة أخرى وقوداً للعبة لا تنتهي، وهم في معرض المقاومة لهذا الدور، حيث إن ساحة جغرافية كبيرة، وقد وضعت في قالب خارطة سياسية دولية مصانة، تتطلب توازنات، وهذه التوازنات تتطلب نوعاً من الاستقرار، والسخونة الدورية وإعمال الصراعات الجانبية: الحدودية المرسومة، ليكون هناك تدخل من هذا الطرف أو ذاك، وعلى مستوى دولي عند اللزوم، تلبية لحاجات طويلة المدى، وبما يحقق المصالح الاستراتيجية لدول بينها غاية التناقض، أو العداء، إلا أن محتوى الصراع قادر على حفظ «حقوق» هذه الدول جهة استمرارية قواها وكأنظمة على حساب الجاري اللعب بمصيرهم أكثر من غيرهم، والدماء لم تتوقف عن السفك بنسب متفاوتة تبعاً للعبة الجارية: أي الكرد، وما يمكن أن ينظر فيه راهناً، وبدءاً من النظر الزماني «2014»، كان الهجوم الداعشي المرعب بمثابة اندلاع حرب تهيأت لها منطقة واسعة شملت دولاً مختلفة في المنطقة، وأن الحديث عن «دول التحالف» ومنذ عقود من الزمن، وهي تمارس امتحاناً لقواها العسكرية والسياسية والدبلوماسية، بصورة رمزية، أو بالذخيرة الحية، أو بإشرافات شتى، لا يعدو أن يكون تسمية لما كان يدور قبل أكثر من قرن من الزمان، وقبل ذلك بعقود زمنية في الصراعات الجانبية والمكلفة، فروسيا لم تغب عن ساحة الصراع، ولا كل من بريطانيا وفرنسا، ووحدها أميركا «الولايات المتحدة الأميركية، داخلة على الخط، سوى أن اللعبة لا تخفي بصمة القوى الغربية وعنفها السيادي النافذ في

سياسات دول المنطقة وزعم سيادتها المحدودة، حيث لا يشكل كل من العراق وسوريا الرقعة الجغرافية الوحيدة للصراعات، وإن كانا في الواجهة، ونحن نشهد اشتراك مختلف الدول في لعبتها بطرق شتى: إيران وتركيا بصورة فاعلة، سوى أن الكرد الذين يتحركون على أكثر من جبهة، هم أنفسهم أولئك الكرد الذين يعانون تمزقات وخلافات ورهانات جانبية، وفي الوقت الذي يسهل تبين مدى اللعب بمصير كل قوة كردية، وفي أي اتجاه تتحرك اللعبة، وكيف يجري تمثيل الكرد في الساحة الدولية: مؤتمرات وندوات ومناقشات، وأن الحديث من قبل الكرد عن خرق القاعدة المرسومة منذ أيام «سايكس-بيكو»، يجرُّ في إثره أكثر من حديث وتهديد بأكثر من حرب فعلية وإعلامية والتفافات دبلوماسية «كحال تركيا وإيران»، أي لحظة التلويح بإقامة كيان كردي، كمن يلوح بنقل محل الإقامة من هذا الكوكب إلى كوكب آخر، وليكون المرفوض استعمارياً محروساً إقليمياً، الأمر الذي يستدعي الذهاب بالمرئي والمسموع إلى مكاشفة ما وراء المعلن عنه والمقروء، مع صعوبة التكهّن بحل يغيّر في واقع الكرد، وما يبقينا في نطاق الحديث الإشكالي عن المفارقة الكبرى لهذه اللعبة بتوأمها: الصراع- الحوار، أو الجدلي، وهي التي تكاد تلخّص التاريخ العميق والفالقي للعلاقات بين الدول كأنظمة، وشعوب محكومة بمؤثراتها السياسية الصادمة (إذا كان التاريخ تاريخ صراع، فكيف يمكن أن يكون واحداً ومتنوعاً داخلياً بدون المبدأ المحرك الداخلي الخاص بالجدل؟)⁽¹⁾.

في متابعة اسم حاجو آغا، ثمة انكشاف لأكثر من واقع مرير، على أكثر من جبهة بمفهومها الكردي الداخلي، وما يمد بهذه الجبهة ويحيلها إلى ما هو خارجي، أي ما يواجهنا بالقائمة الفائضة من الانكسارات والفجائع الكردية ذاتياً، ولأكثر من واقع يجد الكرد أنفسهم فيه ليس لأنهم اختاروه، وإنما لأن الواقع ليس حسابياً ولا سطحاً دون قاع/ عمق، فيكونون داخل لعبة هذا الواقع وقد أدخل فيه ما يغيّر في مفهومه، فلا يكون السطح المرآوي، لا يكون نظير الترجمة المباشرة لما هو مرئي أو ملموس أو مشموم... الخ، وإنما ما يخلط بين الحواس، ويمارس صهراً لقوى نفسية على الضد مما هو سائد، في التغير المفاجيء، ولأكثر من عملية

(1) يانج، روبرت: أساطير بيضاء: كتابة التاريخ والغرب، ترجمة: أحمد محمود، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، 2005، ص 109 .

تركيب للقوى الموجودة على الأرض، وقد تداخلت فيما بينها، حيث ثمة أكثر من ظاهر، وليس ظاهراً واحداً، أكثر من باطن، تأكيداً على وفرة القوى المتنافسة فيما بينها مباشرة أو بالوكالة، أو بنوع من السمسرة على مستوى دولي، والعمولة المدفوعة تكون أرضاً مقسّمة، أو تستحيل مقاسم/قسيمات، وبشراً يجري الزج بهم في أتون البازار السياسي الملتهب، والذين يحرصون على مراقبة كل شاردة وواردة، وتسجيل المستجد، لحساب آخرين، هم أنفسهم يلعبون سوى أنه يلعب بهم حتى وهم في متروبوليتهم، وليس كما يشاع عن أنهم يمتازون بحريات مصانة.

في متابعة البحث عن حاجو آغا، ثمة الكثير من المحفّزات التي تمنح الموضوع قيمة تشويقية، على صعيد المعرفة، وهي في طور النمو، رغم مأساة المشهد التاريخي الذي يضم إليه حاجو آغا، ودعوته إلى دولة كردية، وعلى أي أرضية، فلدينا كل ما يمكن تسميته في إطار هذا البحث، بدءاً من الشخصية المتعدية لخاصيتها الفردية، ومن القبيلة المرتبطة في حيز جغرافي يمكن التوقف عنده، ولهذا الجانب مقامه تالياً، وليس انتهاءً بمجموعة من التحالفات الجانبية التي كان حاجو آغا يسعى إلى عقدها أو الدخول فيها مع آخرين: كرداً وعرباً وسرياناً، في مضمار الجغرافيا السورية التي كانت فرنسا منتدبة عليها، إلى ما كان يجري وراء الحدود، ويقرّر من خلال مركز القوى في العواصم الأوروبية وتوابعها في المنطقة سياسياً.

ما الذي كان يدور في واعي حاجو آغا وهو يتنقل بين الأمكنة؟ أي تاريخ كان يحمله داخله، وهو يقيم علاقات على جانبي الحدود «التركية- السورية»؟ أي شعور نفسي كان يملكه وهو يعبر هذه الحدود بالقوة أو خفية، وملؤه إحساس نفسي عميق أنها ليست حدوداً تعنيه وموضوعة من أجله، وإنما لتقييده ككرد، إلى جانب ممارسة العنف عليه أيضاً؟ كيف كان حاجو يخطط لما كان يقوم به، وهو في وسط مثقل بالأعداء والخصوم من قبيلته، ومن داخل عائلته بالذات، وهو العصب الأكثر تلوثاً بعدوى التصارع الأهلي، وليست هفيران استثناء في هذا الجانب، كما يشار إلى ذلك أحياناً، وحين يفكر في الدّ أعدائه السياسيين، ممن يريدون إحكام الطوق عليه على مستوى أنظمة المنطقة برموز العنف فيها؟ أي شخصية تاريخية يمكننا البحث فيها، وهي تسمّى حاجو، لحظة مقارنتها بشخصيات تاريخية: كردية، على صعيد الإمارات الكردية، أو تلك الشخصيات

السياسية الكردية الأخرى وهي تجمع بين ممارسة السياسة وتطبيقاتها على الأرض من خلال مواجهات عسكرية، ونوعية هذه المواجهة تخطيطاً ورسم أهداف بالمقابل؟ هل حقاً أن حاجو آغا ليس في مستوى هذا الربط أو المقاربة بقائمة شخصيات عرفت من خلال إماراتها، أو لعبت أدواراً في المحافل الدولية، وفي الحالة هذه، كيف يمكننا تقييمها في سلوكياته اليومية، وما جسده على الأرض وعبرها أو باسمها، وانشغل به كثيرون كرداً وغير كرد بالمقابل؟

لعلها أسئلة، ولعل أسئلة أخرى، يمكن طرحها، جديدة بالتعرض لها، والبحث عن أجوبة لها من خلال حيثيات التاريخ، أي ما يجعل من حاجو آغا شخصية من لحم ودم، ويدفع به إلى واجهة الشخصيات القابلة للدراسة مقدرة وأداء مهام !

بين جانبي الحدود :

حاجو آغا ربما يكون الأقدر على الإدلاء بسردية أمكنة مختلفة تصل ما بين جانبي الحدود، في مقام فارس من نوع خاص ومغامر في الوقت ذاته، ومرصود من قبل قوى حدودية تتهدده وتتوعده بصيغ شتى، ولعله الوحيد في هذا المجال، لعله الاستثنائي وقد عبر الحدود المرسومة جيئةً وذهاباً متحدياً، بروح «عارية» نقاط المراقبة الحدودية والرصد لتحركاته، كما لو أن دأبه كيفية العبور في الاتجاهين، من باب الاستهواء المعلوم والمتعمد، لحظة مقارنته بآخرين ممن قاوموا العثمانيين والأتراك، أو تعاونوا معهم لأسباب مصالحية معينة، فترة «فرسان الحميدية»، أو كانوا يحاربون عدواً لصالح آخر، وهم ينحسرون بين الاثنين، كما نجد في التوترات بين كل من تركيا وفرنسا، ولا أظن أن حاجو آغا يمكن إدراجه في خانة كهذه، ونحن نتذكر ولو تسمية: حيثيات ثورة الشيخ سعيد «1925»، وبنية هذه الثورة وحقيقتها، أو قبلها وبعدها، لتكبر الرقعة الخلافية في الحالة هذه بين مسار حاجو آغا وكثيرين ممن دخلوا في تحالفات جانبية مع الأتراك أو الفرنسيين، أو حتى بالنسبة لكرد العراق وطبيعة علاقاتهم مع الانكليز.

وربما كان مفيداً هذا المقتبس من رمز ثقافي فاعل في دراسة التاريخ الكردي، وهو في الأصل أكاديمي سرياني من جنوب العراق حيث درّس في أميركا، وتوفي هناك سنة 2001، وترك مؤلفاً تأثر به كثير من الباحثين الأجانب ومن ثم الكرد «بروينسن- عثمان علي، بالتقابل مثلاً»، حين يتعرض للفسحة الجغرافية السورية

وإعرابها السياسي: الكردي، إذ يقول (على الرغم من مساهمة الكرد السوريين في الحركة القومية الكردية، يجب أن نوضح أنهم مختلفون في نقطة هامة عن الكرد في تركيا والعراق وبلاد فارس. فسوريا لم تكن فيها مجموعات كردية كبيرة تامة بذاتها مثل تلك البلدان، ولا أي مراكز أساسية للحياة القبلية الكردية وتقاليدها يمكن أن يقارن ببديس وديار بكر وجزيرة ابن عمر في تركيا، والسليمانية وراوندوز والعمادية في العراق، وسنّه وصاوجبولاقي وأورميا في بلاد فارس. وربما لهذا السبب أخفقت كردستان السورية بتقديم أية شخصية وطنية كردية بمنزلة الشيخ محمود في العراق أو سمو آغا في بلاد فارس أو الشيخ سعيد في تركيا. كان القادة الأشهر لدى كرد سوريا هما الأخوان بدرخان، في الأصل كرد من جزيرة ابن عمر في تركيا، اللذان ينحدران من أصول أميرية، وكانا مثقفين أكثر من النمط التقليدي للقائد الكردي الذي يتمتع بدعم قبلي جماهيري)⁽¹⁾.

جويده لا يخيب أملاً فيما تعرض له، سوى أنه لا يراعي طبيعة الجغرافيا السورية، وإن كان يشير إليها في بعض منها، حيث إن عملية الانتقال إلى جنوب/ جنوب الخط، كانت مرتبطة بعمليات سياسية في المنطقة المفتوحة، وبإملاءات استعمارية، وأن حاجو آغا الذي لم يُشر إلى اسمه، كان له مقام في هذه الفسحة الجغرافية المقسّمة، والتاريخ المستجد، عدا أن الأخوين بدرخان نفسيهما كانا يتجاوبان مع التعليمات الموجهة إليهما من قبل الحكومة الفرنسية، وهما يمارسان نشاطهما الثقافي قبل كل شيء، وأن حاجو آغا بالذات كان على اتصال مباشر بمثل هذا النشاط الثقافي من جهة، إلى جانب توفير ما أمكنه ذلك، ما يعزز وجودهما في سوريا، وهما يعملان من أجل قضية اعتبرها محورية لهما: توجيه الأنظار إلى ما وراء الحدود الموضوعة، وتجاهل مجمل ما كان يحدث في نطاق سوريا «السياسية» وتسخير كل القوى الكردية من أجل أي نشاط سياسي أو عسكري في تركيا، وأنظارهما متجهة إلى حيث كان رمز عظمة السلف: إمارة بوتان البدرخانية من جهة أخرى.

(1) جويده، وديع: الحركة القومية الكردية: نشأتها وتطورها، قدّم له: مارتن فان برونسن، ترجمة: مجموعة من المترجمين، إشراف وتدقيق: غازي برّو، دار الفارابي- بيروت، دار آراس- أربيل، ط1، 2013، ص 350 .

ذلك يمهّد الطريق أمامنا أكثر، ويحفّزنا على المضي قدماً في هذا المنحى غير المستقيم أو الأفقي والمتصل، وهذا ما يجب على الباحث التنبه إليه، انطلاقاً من مفهوم السياسة واعتبارها تقطعات لا وصلات، وتفاوتات مكانية وزمانية، وليس مرادفات أو تقابلات من الزاوية ذاتها، فتكون دولة حاجو آغا الكردية مستحقة كل مجهود بحثي واستقصائي يبذل من أجلها، أعني من أجل تاريخ «سوي» لم يدوّن بعد، ولا ثقافة تاريخية لم تأخذ حقها من الإضاءة لمفهومها، أي من أجل بشر يبحثون عما هو معرّف على وجه العموم، وليس عن أشخاص عالقين على الحدود، أو مؤطّرين ضمن توجهات إيديولوجية، أو نزلاء مواقع محمية لأهداف سلطوية، ولا أظن أن دولة كهذه، وهي تبحث عن يسميها، وعن يسعى إلى مكاشفة جغرافية لرسم حدودها، وما إذا كانت دقيقة، كما تردد عنها، وأن هذه القبيلة «هفيركان» شأنها شأن قبائل كردية كثيرة، كانت تتحرك على أكثر من خط سياسي واجتماعي، ويتأثر من أكثر من مؤثر محيطي كرد فعل على ما كان يجري، ومن منظور مختلف سياسياً .

والذي يضاعف أثر هذا البحث والموقف منه، هو هذا التنوع في حياة هذا الرجل الذي تتقاسمه رؤى شديدة التفاوت، ولا أشك للحظة واحدة أن وضعاً كهذا يسهم باضطراب في ممارسة المزيد من التحريّ ومساءلة كل ما له صلة به، أي ما يفيد في سياق السؤال عن حقيقة هذه الدولة، وتبعاً لأي تصور تاريخي وجغرافي وسياسي، تكون حقيقة واقعة .

بمختصر العبارة، إن ما يشغل البحث ويعزز أهميته هو التأكيد على تجنب ثلاثة أصنام لها عرافتها التاريخية، كما أفصح عنها الفرنسي فرانسوا سيميان «1873-1935»، لا بد أنها شديدة التأثير في الذهنية الفاعلة للمؤرخ والباحث في التاريخ بصورة رئيسة (ثلاثة أصنام لدى قبيلة المؤرخين: الصنم السياسي والمسيطر على الدراسات أو هو الاهتمام الدائم للتاريخ السياسي وتاريخ الأحداث السياسية والحروب وغيرها.. والصنم الفردي، والذي اعتاد تصور التاريخ بوصفه تاريخاً للأفراد وليس دراسة للأحداث.. والصنم التاريخي، وهي عادة الإغراق في البحث عن الأصول والتوغل في أبحاث خصوصية، عوضاً عن دراسة ما هو طبيعي وفهمه أولاً..)⁽¹⁾.

(1) التاريخ الجديد «إشراف جاك غودي»: ، ترجمة وتقديم : د. محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007، ص 107 .

نتحدث هنا عن «أفول الأصنام/الأوثان» كما تطرّق إليها نيتشه قبل أكثر من قرن كامل، إنها جملة العوائق الذهنية ومن ثم النفسية التي تمارس توقيفاً للتاريخ، وما في التاريخ هذا من تنوع، ومن اختلاف بين الأمم والشعوب، ولكل صنم ما يجلوه مكانة وضراوة قيمة وسلطة تحول دون رؤية المجتمع بوصفه سلسلة تركيبات ومجموعات لا تنصهر في بوتقة حسابية ديموغرافية واحدة، ذلك ما يعيننا في مقارنة نقدية لكم كبير من المؤرخين الذين كانوا يكتبون التاريخ وفق معايير تنتمي إلى أنظمة سلطوية، أو سيستامات بحثية معززة من قوى سائدة، حيث يتم اختزال المجتمع، اختزال الألسنة، إلى جانب وجوه المعرفة بالذات، إلى جانب التعتيم على الأشخاص المختلفين في مواقفهم وتصوراتهم للعالم المحيط بهم، حيث إن الأحداث التاريخية يُعامل معها وفق توجه سياسي، ومسوغات معتقداتية وحساب مكافآت، وما فيها من زجر في حال نقل روايات تاريخية لا تتجاوب ورؤية القيم على السلطة، فتكون الحقيقة حقيقة تبعاً لهذا الموقع السلطوي، وهذا يشدنا إلى الصنم الآخر، وكيفية تجسيده لتسلطية الفردي، وسطوته في مطاردة كل من يسعى إلى الاختلاف، حيث يكون التاريخ صنعة أفراد لا جماعات، والحقائق معمولة في أذهان أشخاص معينين دون سواهم، والمجتمع مقود بقوة فردية معتبرة، وهنا يكون الصنم الآخر في الانتظار، فأن يكون هناك تقليص لمهام المؤرخ أو الباحث التاريخي تبعاً لرغبات سلطة دون أخرى، فذلك يعني عدم السماح بوجود نوع من المشاركة في إنجاز أي عمل يحمل أكثر من بصمة، ولا بد أن الذين يعظمون تواريخهم الشخصية، ويوجدون أتباعاً لهم في الكتابة، لوضع شجر نسب عائلية تميّزهم عن الآخرين، من جهة التفخيم والفرادة، كما هو المتداول في منطقتنا ومنذ زمن طويل، يتحركون ضمن هذه الدائرة الضيقة، وهذا يسمح لنا، في أن نعتمد أكثر من طريقة تجمع ما بين الفردي والجماعي، أي إن تسليط الضوء على حاجو آغا وباعتباره شخصية ذات مكانة اجتماعية وسياسية تاريخياً، كحقيقة مدركة، يكون صحيحاً أيضاً القول عن أن مجتمعاً، مهما غُض الطرف عنه، كان يضمه إليه، ولا يمكنه نسيانه، أبعد من خاصية هفيران بالذات، وما في ذلك من تعزيز للرابط المشترك بينهما .

ذلك ما يسهل النظر فيه بدقة، عند مكاشفة الطريقة التي اشتهر بها حاجو آغا،

ومن أين جاء، وصلة «أوصمان» من الناحية النَّسَبِيَّة بالقبيلة وهذه بمجموعة القبائل في المنطقة، وضمن سياقات تنافسية واجتماعية وسياسية في المنطقة، وليكون لمفهوم المبادرة الذاتية ثمنها، أو دلالتها الرمزية، إنما دون إغفال المحفّز الاجتماعي والبيئة المحيطة في عملية البروز!

حاجو آغا لا يُذكر بمفرده، إنما هناك آخرون ينحدرون من أوساط قبلية معروفة، كما في حال الأخوين: جلادت وكاميران بدرخان، وقدري جميل باشا دياربكرلي ونورالدين زازا... الخ، سوى أنه من خلال ما قام به، وقبل أن ينتقل إلى «داخل» سوريا، أو ما يعرف حتى الآن بـ «جنوب الخط Bin xetê»، والذي يشكل امتداداً لجنوب تركيا، أو ما يعرف بالمقابل بـ «أعلى الخط Ser xetê»، كان له حضوره كشخصية مرهوبة الجانب، وأن هذا التحرك الملموس له حساب آخر في عملية التنقل والاتصال بذوي السياسة أو الاهتمام بالمستجدات، وهو مراقب من جهات شتى أهلياً وسلطوياً بالمقابل .

أعني بذلك أن الكتابة عن شخصية معينة تعتمد على مراعاة جملة الظروف الزمانية والمكانية المحيطة به، وما تمثّله على أرض الواقع من قيم ونوعيتها الاجتماعية والسياسية، وتلك من النقاط الرئيسة في أي عمل سوسيولوجي وتاريخي معاً .

ذلك ما يجعل أي شخصية، ودونما استثناء، وهي في معرض التناول البحثي شخصيات متعددة، بسيطة ومركّبة، وما يعرف بالمجتمع، على أنه أكثر من صيغة تعهدية بالمجتمع، أي مجتمعات، وما يكون الطريق السالك إليه أكثر من طريق، ومن ثم، ما يحرّر أي عمل تأريخي من سلطة التوجه المعرفي المحددة، وبنوع من الوصاية بالذات، وفي الحالة هذه، نكون أقدر على تتبع ما هو مغيب وما ملعوب، حيث يكون المنشود بالشكل التالي (التاريخ تواريخ والمجتمع جموع وجماعات)⁽¹⁾.

(1) العروي، عبدالله: مفهوم التاريخ 1-الألفاظ والمذاهب-2-المفاهيم والأصول، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط4، 2005، ص 399 .

هذه الصيغة المقترحة ترفع من سقف الرؤية البحثية إلى موضوعها، وما يتم الكشف عنه من خلاله، وفي الواقع الكردي على أكثر من مستوى، وفي أكثر من مسار، لعل ذلك ينير مساحة البحث ويعمّق في مفهوم الكتابة التاريخية ونجاعتها.

بناءً عليه، لا تكون دولة حاجو آغا الكردية، معطوفة عليه بالذات، ولا على أي فرد من أفراد أسرته، أو آل حاجو آغا بالذات، وإلا لما كان هذا الموضوع وهو على أشد ما يكون من التشعب والخلافية في الاسم والمراد من عنوانه، إذ إن أي تعليق للعنوان ضمن خطاطة قيمية، وصفية، تشريحية تشخيصية، يفقد العنوان أو اسمه مسوّغ تداوله بحثياً.

وإذا كان من شأن هذا الموضوع أن يكون احتواء لتاريخ عائلة ما، أو احتواء لها، وعبر تكرار اسم معين، بدءاً من العنوان بالذات، فإن ذلك لا يعني البتة أن هناك استقطاباً لكل معلومة تلتقي مع أخرى، أو توضع في إطار فقرة معينة، أو فصل أو قسم يشكل حقلاً جزئياً من حقول الكتاب، بمقدار ما يعين على النظر في الجهات الأربع، والسعي إلى التنقيب في كل معلومة، ومدى مشروعيتها، وهي تلتحم مع نظيرتها، أو تزيدها وضوحاً، أو تتضح من خلالها، وفي محاولة لإضاءة تاريخ لم ينل الحد الأدنى من حقه في البحث والمساءلة عن مغذياته المختلفة في التاريخ السوري الحديث خصوصاً، إلى جانب أنه لا ينعزل عن تاريخ الجوار الحدودي إن في «الشمال» أو في «الشرق» حيث الحضور الكردي يشغل المكان،

وهو الذي كان فاعلاً في التحضير للموضوع، كعمل متعدد المهام، ولو أنه يتقدم بعلامة فارقة تأريخية كشفاً وانكشافاً.

وإذا كان من عبارة ما قابلة للأخذ بها في هذا السياق الذي يضيق ويتسع بحسب نوعية المطروح، كما هو مشهد التاريخ، ورؤية ملامحه على الأرض، فهي في كون ما يقرأ أو يكتب، أو ما يتحفّظ عليه، لا ينفصل عن ذائقة تاريخية معينة، أو معايير وجدانية، لا أظنها بممكنة نفي أي قيمة لها، بالنسبة للمؤرخ أو نظيره الباحث التاريخي، خصوصاً وأن الموضوع المدروس يتعلق بمجتمع له اسمه، وبشر أحياء، حتى لو كانوا في عداد الموتى، وأن قراءة أي رواية بلسان أحدهم، لا تبقيه نزول قبره، وإنما وهو في سيماء معينة، وببرة صوتية معينة، يجري تصويرها أو تخيلها، ليحسن المعنى به تدبير ما هو مهتم به، وكيفية نقل المسموع أو المستخلص منه إلى الورق، وهو بلون

مختلف متأثراً بمتغيرات التاريخ وراهنه، وهذا ما يقصد منه، ولسان فيلسوف مأهول بخطورة التاريخ ودوره في حياة الأمم، وهو يحاول توثيق تلك العلاقة بين المنشغل بواقعة زمانية بوصفها تأريخية، وذلك الذي يديم النظر فيها، وكله مسعى لأن يزيد في تقليص المسافة بينه وبينها، كما لو أن ما كان هو مخاض الآن (لا يكون الفهم معلقاً في الهواء أبداً، بل هو دوماً مشوب بوجدان ما)⁽¹⁾.

أي تكون الحدود هي الواصلة والفاصلة، هي علامات ترقيم لتلوين قوى الإنسان وتحريكها وتسميتها، فدون الحدود لا مجال للتفكير، والكردي ربما في صدارة الذين يشار إليهم حدودياً بغرائبها وعجائبها، بأهوالها وعنف أحوالها، ببشرها وكيفية انقسامهم حدودياً، عبر سلطات حاكمية وراثة في الوقت نفسه، فـ (عندما ننظر بصورة عامة في وضع الحدود بين الدول، يتبين لنا كيف أنها تتضح بجلاء، وهي مع الزمن تزداد تثبيتاً، من خلال الجبال والأحجار، وحتى النقاط المتناهية الصغر والواقعة على الحدود، وقد أصبحت محمية في المائة سنة الأخيرة ومراقبة أكثر فأكثر)⁽²⁾.

هذا المؤثر الوجداني هو الذي ينوع في العلاقات بين مختلف الأزمنة، ويمنحها ديمومة روحية، تبعاً للمبتغى بها، وهو الذي يترك أثره في عملية البحث وطريقة عملية البحث، وربما في تقديم قيمة على أخرى تقديراً لمكانتها ومشروعيتها، وأن ذلك إذا كان من تعليق قابل لتسميته، فهو أنه من حيث البنية يشكّل واقعة نفسية كامنة في الحراك البحثي لأي موضوع، مهما تميّز المؤرخ أو نظيره بالموضوعية، أو بالتزام «النزاهة» أو «الأمانة»، فرفض هذا الجانب تتكرّر لما هو قائم ويستحيل التخلص من فتنته، أو سحره الجانبي، أو تسرب مؤثره بصورة ما أو بأخرى في بناء الفكرة أو كتابة عموم البحث .

(1) هيدغر، مارتن: الكينونة والزمان، ترجمة وتقديم وتعليق: د. فتحي المسكيني، مراجعة: إسماعيل المصدق، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، 2012، ص 590 .

(2) Esfıxan Yildirim:Kurdistan û sınor di sedsala 20,an de, weşanên Azad, Istanbul, (2) ç1,2013, r33.

ينظر في ترجمتي العربية للكتاب: كردستان والحدود في القرن العشرين، منشورات الأكاديمية الكردية، أربيل، 2016، ص 35 .

خطاطة النسب ومحك الخطاطة التاريخي

«البشر بحاجة ماسة إلى تحديد انتمائهم، حتى لا تتناهم الريبة في أصل وجودهم».

تزفيتان تودوروف: الأمل والذاكرة «خلاصة القرن العشرين»، ص 341

النسب كتأريخ والنسب كمعايشة معتقدية:

لا أكثر منها معارك تلك التي دارت حول النسب، أفراداً وجماعات، ومنافسات حول إمكان تثبيت النسب الأفضل، وما في ذلك من استدعاء عوامل القوة، وسبل إدارة هذا المسلك والذي يجمع بين ما هو تاريخي مبتدع وأخلاقي ونفسي .

في هذا السياق، تؤخذ بعين الاعتبار حسابات كثيرة على قدر تواجد المتنافسين على اللقب الأكثر إغواء وجاذبية، إلى جانب النسب الأكثر امتلاء بالمعنى المطلوب، في مهب الصراعات القائمة، والتي تدفع بالأطراف المشاركة إلى عملية الدمج بين ما هو سياسي في القول الشفاهي والمكتوب، وما هو عملي تطبيقي من مجابهات إلى درجة التصارع، دفاعاً عن هذا الموقع ربما إلى درجة الاستماتة، طالما أن هذا التصرف يفيد الأطراف هذه في كسب نقاط هنا وهناك .

ثمة النسب الطبيعي، حيث يرتبط الابن بالأب وهذا بالنسبة الفعلية، وثمة النسب المقحم أو المصطنع، والذي يغير في مفهوم الأول على أكثر من صعيد اجتماعي، تحقيقاً لمكسب سياسي، وإعلاء من شأن تاريخ شخصي أو عائلي، وذلك من شأنه الدخول بنا في أتون التجاذبات التي يتدخل فيها المكر والتحريف والتحوير، فلا يعود الطبيعي مأخوذاً به، بمقدار ما يكون القناع الذاتي والاجتماعي هو المتداول والمطلوب تبعاً لمقاييس تتناسب والمبتغى من هذه العملية، وفي ضوء ما تقدم، تتشكل وقائع أو مناظرات، وحتى تهاجمات بأكثر من معنى كرمى المنشود، حيث التكرار للأصل والتشديد على المبتدع، لنكون في سوق المزايدات، وما يترتب عليها من مشاحنات وتوترات وتربصات بينية مكلفة بمقدار أهمية المراهن عليه.

وفي إطار النسب ثمة قائمة كبرى من الأنساب: النسب السياسي العام، فالنسب السلطوي «ومن يجسد السلطة» ومن ينتمي إليها واقعاً وزيفاً، وثمة

النسب الاجتماعي: من يدير أمور المجتمع، ويحيل إليه كل شيء، والذين يتحركون فيه، يحتكمون إلى قانونه الاجتماعي، وثمة النسب التربوي، والذي يتقدم باسمه، على أنه أس التربية، وثمة النسب القيمي، حيث يحدد ما هو خير وما هو شر... إلى آخر قائمة الأنساب واشتقاقاتها .

ولا بد أن الثقافة الممثلة لسلطة معينة، وهي متفذة، وتشجع على محاولات كهذه، وهي تديرها خطوة خطوة، وتضع شروطاً، أو تحدد سماسرة وأدلاء، ومضاريبي بورصة قيمية، واصطناع درجات ومراتب متفاوتة القيمة، بما أن المجتمع الذي يشهد كل هذه المساعي يتشكل من «فوق» إجمالاً، وبإيعازات مخططة من سلطة تشرف من الأعلى .

أي أننا نواجه هنا غواية الامتيازات، وكيف يجري البحث فيها وطرحها في سوق القيم المثمنة، كما الحال في سكوك الغفران، وتكون الأعمال المنجزة من قبل أشخاص أو طراف معينة أحياناً نظيرة النقود، أو مدى التقرب من السلطة تلك .

مقصد هذا الكلام المعرفي، هو إنارة ما نحن بصده، أي الاسم المتشكل بأكثر من صيغة ومن ثم تأريخ نشأة وحقيقته، بالنسبة للمشترك القبائلي/العشائري: هفيران، كما بات يعرف بهذه الهيئة، وكيف جرى التعريف به كبداية ظهور له، عبر الشبكة المعلوماتية الملحقه به :

ثمة روايات تعرف بهفيران: من تكون، وماذا تكون، ومن أين جاءت، وما حقيقة نسبتها؟ أسئلة لا تتركز عليها وحدها، إنما تشمل مختلف القبائل والعشائر، وهي تؤسس، إن جاز التعبير ل بدايات لها في نطاق «الأصول»، اعتماداً على ألسنة أشخاص معينين، وبطرق شتى، ووفق المكانة التي تبرز فيها هذه الجهة أو تلك، والراغبة في وضع أو إيجاد بطاقة نسب تمنحها قيمة تتعدى بها تلك السابقة لها، وما فيها من بعد ذرائعي، والظروف المتاحة أو المشجعة لإجراء كهذا، وهذا الضرب القائم في المجتمعات التقليدية هو الأكثر قبولاً أو رواجاً، بحيث إنه من الصعب، إن لم يكن مستحيلاً وجود جماعة بشرية معينة في قالب عشائري أو قبائلي، بمنجى من هذه اللعبة النسبية، حتى لو زعم أولو أمرها على أنهم في واقع الحال خلاف الجميع، إلا أن المناخ العام أو السائد، لا يعفيها من جواب على سؤال عن مغزى هذا الاستثناء، وفي صورة خاصة حين تكون الجماعة ذات مكانة، أو

مقدرة ونفوذ، كما لو أن إخضاعها لهذا المنطق، يستجيب لما هو عرّفه كامن أو متجذر في نفوس العامة والخاصة ورؤوسهم، وبنوع من القدريّة التي يجدون ألا فكاك منها، ولا بد أن تصرفاً كهذا يعرفنا بنوعية الضغوط المعتمدة، وعراقلة تصرفات كهذه، وهي تبرز في أكثر من هيئة قاعدة بجلاء .

ربما كان نذير جبو الذي تعرض لهفيركان في عمل بحثي وتأريخي وسيري، مفيداً لنا حين نقرأ ما كتبه حول ذلك:

(لا توجد بين أيدينا معلومات واضحة عن معنى اسم هفيركي ومن أين جاء. فهناك من يقول أنها مشتقة من العجين Hevîr kir، أو صنع العجين Hevîr kir، وهناك من يقول أنها مشتقة من كلمة Hevuri، أي التيس، وهو ذكر الماعز الذي أكمل للتو عامه الأول، وأن هذه الكلمة، أي Hevuri قد تحولت مع مر الزمن إلى Hevuriya، ثم إلى Heverkiya. أما المؤرخ الكردي محمد أمين زكي فيقول إن هذه التسمية جاءت من إيزيدية Havri.. ولا توجد لدينا معلومات قاطعة حول المكان الذي جاءت منه أسرة آل عثمان، الأسرة الأخيرة التي تزعمت الهفيركانيين، وحسب قول جاجان حاجو إنهم جاؤوا من أطراف مدينة تبريز، ويقول البعض أنهم جاؤوا من منطقة مارددين، ويقول البعض الآخر إنهم جاؤوا من سنجار «شنگال» وجبل عبدالعزيز... إلا أن هناك اتفاقاً على أن أول مكان استقروا فيه هو قرية زاخوران ثم استقروا فيما بعد في مزيخ، التي كانت قرية سريانية قديمة، ومزيخ هي أول قرية تقع على يسار الطريق عند الذهاب من مديات إلى كربوران. س. هـ). طبعاً دون تحديد المصدر، وشأن جل الإحالات التاريخية، كما يذكر نذير جبو، كيف يربطهم الشاعر جكرخوين من جهة الأصل بالسوباريين إلى جانب الميتانيين وقبل أكثر من 4000 من الآن» س. هـ⁽¹⁾.

إنها مجموعة من الروايات غير المسندة، طالما أن كلمة «يقال» هي المتقدمة على سواها، فهي من حيث القيمة، تبقى بين شك ويقين، أو ترجيحية، من جهة، وتبقى الباب مفتوحاً أمام المزيد من مثيلتها، أو حالات التنسيب، من جهة ثانية،

(1) جبو، نذير: سلاطين هفيركان «صفحة من تاريخ الكرد»، ترجمة من التركية أ. د. خليل علي مراد، مراجعة وتقديم أ. د. عبدالفتاح البوتاني، مركز الأبحاث العلمية والدراسات الكردية (دهوك، 2012)، ص 46 .

إنما تحفّز الوعي الزمكاني لأن يتعامل مع الكلمة باعتبارها رافضة لما هو قطعي، وما في ذلك من دعوة إلى مزيد من البحث أو الإصغاء إلى اجتهادات أخرى، أو متابعات أخرى، من جهة ثالثة.

ولا بد أن جبو فيما انطلق منه، وتوقف عنده، كان يمارس دور المتلقي والمدوّن لما يُسمع، وليس العارض له على محك الاختبار التأريخي، أو مسائلاً إياه عن مدى دقته في هذا الجانب أو ذلك، حيث تبرز مسافات بعيدة بين رواية وأخرى، وهي في مجموعها تبقي الموضوع على عاتق أهل الاختصاص، وصعوبة التحري والجرح والتعديل، كما يقال.

وإن تحولنا إلى محمد أمين زكي بك ابتغاءاً للمزيد من المعلومات، فسوف نجده يتهجى المفردة بصيغة أخرى، وكذلك فإنه يقدم لنا ما يزيد في عملية البحث وساعة وغموضاً معاً، وهو يثبت أسماء العشائر أو القبائل، وما يقوله فيما بعد لا يعدو أن يكون اجتهاداً يستند إلى توافق لفظي (هاواركا: هويركا «1800 أسرة نصفها مسلمون والنصف الآخر نصارى يتكلمون الكرمانجية ويظهر أن هناك صلة بين الهاواركيين وبين» هاوري» اليزيدية)⁽¹⁾.

ضمناً، إذا كان جبو يقتبس كلاماً من جكرخوين: الشاعر الكردي، فهو يورده دون أي مسألة عن مغزى ما ذهب إليه الشاعر، ولا السؤال عن مصدر معلوماته، ومن خلال كتابه «الفولكلور الكردي» ودون ذكر صفحة المصدر، وذلك ما يمكننا العثور على شبيهه هذا التوجه، والسؤال عن قيمة روايته المركبة في سيرته، وهو في معرض تناوله لقبيلة هفيركان وذكر أهم «أعلامها» بقوله (كان رئيس الهفيركيين منذ القدم أسرة علي رمو، وكانت أسرة خليل سليمان أسرة محترمة إذ كانوا يطالبون بالسيادة)، ليستدرك فيما بعد قائلاً (لكن أسرة «حاجو» أو أسرة «عثمان» قد صاروا رؤساء الهفيركيين منذ قرون، وهم لا يتفقون على أصل عائلتهم. فبعضهم يقولون إنهم من أهل قرية «باتي»، وبعضهم يقولون: إنهم من

(1) زكي بك، محمد أمين: خلاصة تاريخ كرد وكردستان من أقدم العصور التاريخية حتى الآن، ترجمة: محمد علي عوني، الجمعية الكردية اللبنانية، بيروت، ط2، 2003، ج1، ص 352 .
وفي كتاب مارك سايكس: القبائل الكردية في الامبراطورية العثمانية، ترجمة: أ. د. خليل علي مراد- تقديم ومراجعة وتعليق: أ. د. عبد الفتاح علي بوتاني، دار الزمان، دمشق، ط1، 2007، نقرأ (هه فيركا: 1800 أسرة. نصفهم مسيحيون ونصفهم مسلمون يتكلمون الكرمانجية، وأشك في وجود نوع من العلاقة بينهم وبين هه ويرى الإيزيدية.. ص 81).

العرب «الطي»، كما أن بعضهم يقولون إنهم من أتراك ماردین، من أسرة قاسم باشا. لكن من أي مكان كانوا فإنهم قد صاروا رؤساء الهفیرکین ويقولون عنهم: «سلاطین الهفیرکین». وهم صاروا قسمین أيضاً: أسرة حاجو، وأسرة جلی، وأسرة حاجو هفیرکین دوماً، وأسرة جلی دکشوریون⁽¹⁾.

أي يكون البدء من «أسرة عثمان» وليس «أسرة سلو»، ربما من باب اعتباري، حيث انتشر صيت الاسم في منطقة نفوذ عشائرية أبعد من حدود العشيرة الأم، أي في «مزیزخ»، وليس «زاخوران» وهي الولادة ذات العلامة التاريخية في أرض تخص الآخرين، كما سنرى.

كتابة لها بصمتها :

في نطاق المتردد ضمناً، كان ينبغي على جكرخوين أن يأتي على ذكر أسماء رواته أو يصدّق بعضه بعضاً في عملية سرد الوقائع، ليمنح كتابته مصداقية أكثر، حيث إن السماع لا يضمن للمقتبس أهلية بقاء، أو قابلية التسيب إلى التاريخ بالذات، ورغم أنه لا يمكننا أن نمارس «استجواباً» ولا بأي شكل لثقافة جكرخوين، أو معلوماته، باعتباره شاعراً ويتعامل مع المعلومة بعاطفة شاعر غالباً، شاعر متقلب الأهواء تبعاً لنوعية المعلومة، وما في تفاعله معها من تحبذ أو رفض انطلاقاً من موقف لا يخلو في الحالة هذه من طبقية تحول دون مكاشفة المسموع ودقته، وتحديدًا، لحظة هذا التذير اللامتجانس لتسيبات مختلفة: التسيب إلى القرية «باتي»، وإلى العرب «الطي»، أو فالأتراك «في ماردین»، وربما كانت هذه من بين المواقف الأكثر ضعفاً في وعيه، وبما يتجاوب مع رغبة نفسية تتقبل مرويات كهذه، وبصورة خاصة في تلك الفترة، حيث الصراعات القبلية، حتى داخل القبيلة الواحدة، كهفیرکان هنا، وسواها، وما يلعبه من هم مع الدولة التركية وغيرها من أتباع أو حتى عملاء يروجون لمصلحتها مما يبلبل الوضع، ويشكل حرباً من نوع آخر، بغية الإساءة إلى هذه الشخصية أو تلك، وهي تعادي الدولة «تركيا بالذات»، وهذا ما يجب أخذه بعين الاعتبار، أي ما يجب معرفته، على صعيد المعلومة التي تتبض بالمعاني واللاحيادية بالتأكيد: ماذا أروي، عمّ أروي، كيف أروي، لمن أروي؟! وعدم التمييز بين النسب الفعلي، وبين مفهوم الحلف

(1) جكرخوين: سيرة حياتي، ترجمة: جوان أيو- ديلان شوقي، مراجعة وتدقيق الأستاذ رضوان إسماعيل، دار باهت للطباعة والنشر، د.ت، ولا تحديد المكان، ص 46.

وهو دون النسب، أي علاقة قوة مشتركة، أو عقد شراكة زمنية، كما في قول «أنا مع فلان، أو من جماعته»، وليس «أنا أنتمي إليه كنسب»، حيث إن الحالة الأولى لا تثبت إنما تخضع لمتغيرات المصلحة الجانبية .

وفي السياق نفسه، نتعرف على تخريج آخر على مستوى التركيب اللغوي، لنجد أنفسنا إزاء مزيج ديني، اثني، وما يفصح عنه هذا التركيب من حادثة عهد بالموضوع، جهة التأريخ، والتوقف عن المضي إلى ما يصعب التكهّن به (من العشائر الكردية في المنطقة: هاروكية- هاويركان«هفيركان»: أكراد انضم إليهم بعض عناصر سريانية ويزيدية، منطقتهم قبور البيض «تربه سبي» وما حولها الواقعة شرقي القامشلي على طريق ديريك، وهم نحو «900» بيت ثلثهم مسلمون سنة والثلاثان الباقيان نصارى سريان يعاقبة وقليلهم يزيدية وكان رئيسهم بلا منازع حاجو آغا وابنه حسن آغا.⁽¹⁾

هو شاهد آخر على التوزع القبلي في المنطقة «الجزيرة السورية العليا»، أو «بنخطي: بنختي»، ودون أن يزيد أو ينقص من أو في المعلومة، ربما إدراكاً مسبقاً منه أنه بذلك يكون التصرف الحسن والأمثل، نظراً لاختلاط الروايات وتناقضاتها، وربما أمكن التذكير بأحد أعلام آل حاجو آغا، وهو جميل حاجو آغا «1906- 1990»، حيث إنه تقادى الإشارة إلى أي جانب في هذه العلاقة، إنما اكتفى بالحديث بداية عن طفولته، ومن ثم عن المجموع العام لهفيركان، كما سنرى، ولا بد أنه كان واعياً ومتنبهاً إلى حساسية هذه النقطة الحساسة أو المنزلق الخطر الذي يتحتمس له كثيرون، بنوع من المغامرة، وما في ذلك من حدوث بلبلة، أو استتارات جانبية، لا بد أن الغرض منها ليس خدمة التاريخ، وإنما التشويش عليه إجمالاً، وإن كان أعطى معلومات لافتة عن حدود العشيرة وهي دالة عن قوة نفوذها، وإشارته إلى من استلم رئاسة القبيلة (آل علي رمو التي تسكن قرية جيلك غربي نهر دجلة)، وكيفية انتقالها إلى «آل اوصمان» وقوله عن (اوصمان سلو جدنا الأول المقيم في قرية زاخروان...)⁽²⁾...

(1) باشا، محمد علي بك ابراهيم: أمير أمراء كردستان ابراهيم باشا المّلي «1845- 1908»، دراسة وتحقيق: أ. د عبدالفتاح علي البوتاني- علي صالح الميراني، منشورات الأكاديمية الكردية، أربيل، 2009، ص 23 .

(2) هفيريكي، جميل حاجو: مذكرات جميل حاجو هفيريكي، تقديم ومراجعة : أ. د. عبدالفتاح البوتاني- علي صالح الميراني- فرهاد جميل حاجو هفيريكي، مركز الأبحاث العلمية والدراسات الكردية، دهوك، 2012، ص33، وسوف نستعين بهذا الكتاب فيما بعد، لأهميته طبعاً .

أي إنه اكتفى بأن نسب نفسه إلى القبيلة في النهاية، وما في ذلك من وعي لافت جهة التسيب ومغزاه، حيث ورد اسم «حاجو» دون توصيف «آغا»، وهو ما يستحق إنارة من الداخل، جهة الحافز الذي دفع به لأن يكتب اسمه بالطريقة هذه.

ذلك يعني أنه في مقدور من يجد في نفسه دافعية فضول وإثارة في المشاركة وربط القبيلة كنشأة ببداية ما، مكاناً، أو اسم علم ما، أتى كان موقعه ودنسيته، يمكن أن نسمعه صوته، أو يقدم لنا ما يعتبره اجتهداً أو ما شابه ذلك⁽¹⁾.

سوى أن هذه الغشاوة يمكنها أن تنزاح، وهي التي تغطي علاقة بين طرفين، أو

واللافت للنظر، بصدد الحديث «علي رمو» أنه ورد في وثيقة عثمانية مرقمة بـ «63»، ومرسلة من قبل والي إيالة ديار بكر محمد خيرالدين بتاريخ «3 أيار 1847»، إلى السلطان العثماني، عن الوضع الأمني العام حينها «في منطقته» طبعاً، وبخصوص بدرخان بك، وكيفية التأثير في الذين يحيطون به، ومن ذلك، اعتماد أسلوب «الحكمة والإقناع» لإبعاد من تحالفوا مع الأمير عنه ما أمكن، ومن ثم (حتى تمكناً من استمالة وجلب كل من عثمان حسن وعلي رمو وحاجو كلش وهم من أنصار الأمير الموما إليه، وألبسناهم الخلع وطيبنا خاطرهم .)، كما ذكر ذلك في كتاب «صفحات من تاريخ الكرد وكردستان الحديث في الوثائق العثمانية: 1840-1915»، لكل من الدكتور خليل علي مراد والدكتور عبدالفتاح علي البوتاني، منشورات الأكاديمية الكردية، أربيل، 2015، ص 216، اللافت هو اسم «علي رمو»، وكان ذا قوة ضاربة في زمانه، لعل المقصود بالاسم هو نفسه متزعم الهفريكين بداية، إذا علمنا مدى ارتباطهم ببوتان البدرخانين، وهذا يفيد في دراسة أهمية هفريكان وامتداد نفوذها لاحقاً، والأهم في الأمر، هو احتمال أن تكون استمالته إلى جانب آخرين، سبباً لتحتيته أو الإطاحة به من قبل آل عثمان/ أوصمان بالذات، إذا قدرنا مدى إخلاص هؤلاء الهفريكين للبدرخانين. وللتتويه أيضاً فانه في وثيقة سابقة من الكتاب ذات الرقم 52 وبتاريخ 11 آذار 1847، ورد اسم علي رمو هكذا: علي رامو بعد حسن عثمان كونهما مراقبي النواحي الكائنة بقضاء مديات التابع لأقليم دياربكر وبقلم مدير مال الاقليم بكر سليمان، ص 187 فهو الاسم نفسه، حيث الوضع يختلف بحسب الكاتب، وأكثر من ذلك ما ورد في الفصل نفسه في الوثيقة رقم 22 بتاريخ 17 تشرين الثاني 1842، وقد عُرف سيف الدين بك على أنه ابن أخي بدران بك ص 118، وفي الوثيقة المرقمة 33 بتاريخ 2 تشرين الثاني 1843 عُرف به على أنه ابن عم بدرخان بك. ص 143... الخ

(1) أعلمني الأستاذ فرهاد حاجو «ابن جميل حاجو» من السويد ونحن نتحدث على الفاير عن موضوعات تاريخية وأشار إلى أن من معاني هفريكان نسبة إلى جده حاجو: هفريك بتاريخ 11- 10/ 2017 «رفاق الطريق الواحد»، ولعل ما ذهب إليه يندرج فيما شددنا عليه، وإن كان في قول فرهاد ما يشجّع على النظر اللغوي، والعلاقة بين اسم القبيلة ومكوناتها الدينية والاشية، أو المكانة وخاصيته، حيث المعنى المذكور يقابل بالكردية «Hevrêk» .

شخصين، أو نسب فعلي وآخر يجري التهيؤ له أو اصطناعه، حين نتلقى تنبيهاً من التاريخ القريب، وربما حتى الآن، عن أن وضعاً كهذا، قد يشمل جمعاً غفيراً من القبائل والأسر الكردية وغير الكردية في هذا التنافس النسبي، أو هذا الافتتان بباعه السلطوي الطويل والفاعل طبعاً.

ذلك ما يستوقفنا، لمكاشفة أمثلة حية حُفظت في ثنايا كتب التاريخ، ومن ذلك : صلة هفيركان بالبدرخانين، وما كان يتردد عن جهة نسبية لهم، وهي تمضي بهم إلى خارج حدود إمارتهم، لا بل ولسانهم، وتشدهم بلسان عربي مجتاح لمنطقتهم.

ذلك ما يمكن قراءته في مذكرات جميل حاجو هفيركي، وهو ينوّه إلى هذه الرابطة وتبعيتها، حين يقول (إن علاقة عائلتنا بالبدرخانين تعود إلى عهود قديمة حيث إن عشيرتنا تابعة لإمارة بوتان واشتراك جدنا حسن في انتفاضة الأمير يزدين شير ضد الدولة العثمانية بعد إبعاد الأمير بدرخان إلى استنبول – أعتقد أن يزدين شير ليس من أبناء بدرخان بل من أقربائه، وقد يكون ابن عمه أو ابن أخيه. كان جدنا حسن قائداً بارزاً في جيش الأمير)⁽¹⁾.

(1) هفيركي، جميل حاجو: المصدر المذكور، ص 68 .

لا أدري كيف يمكن الربط بين قولة جميل حاجو وإشارته إلى جده «حسن» عن أنه حارب في جيش يزدين/ يزدان شير، ولماذا لم يذكر جيش بدرخان بك؟ هل ثمة إمكان لتقدير عمره الزمني في الحالة هذه؟

في السياق نفسه، هل يمكن أن يكون المقصود بـ «حسن هويري» في أغنية «كاويس آغا» عن مير بوتان، ومنها هذا المقطع، رغم أن اسمه يتكرر في أكثر من مقطع:

Lê Lê meyro lê lê Meyro lê lê Meyro lê Meyro

Milê xanê xoş milê xanê

Mîr Bedirxan bi sê denga kira gazî:

Hesenê Hewêrî Tahirê Meymo Samiyê Lotî

Şemûyê Dêrşewî:

Osman paşa sekinî cezîra Bota

Birojê eskerê xwe kom dika

Bi şevê be rela dikata ser rîza gonad...

ينظر حول ذلك في مقال الدكتور عبدالفتاح بوتاني: بوتان والبوتانيون والأغنية الكردية التاريخية، مجلة «كاروان» العدد «29»، إقليم كردستان العراق، القسم الثاني، شباط، 1985، ص 157.

حيث إن البدرخانين أنفسهم يصار إلى إدخالهم في هذه الدائرة النسبية أو حتى إبراز النسب اللافت، من خلال رواية متداولة هنا وهناك، أي في أكثر من مكان، كما وردت بلسان صالح بدرخان بالذات (يروى أن السلالة الأريزية تنحدر من نسل خالد بن الوليد . لا يوجد بين أيدينا أي وثيقة تثبت ذلك، وليس لنا أي دليل بذلك.. وفي سجل عثماني يقال أن سلالة بدرخان تنسب إلى خالد بن الوليد.. وفي شرفنامه، جاء عن أن أول أمير حكم الجزيرة المعروفة باسم «آريزان» كان أمير اسمه سليمان بن خالد واشتهرت أيام حكمه بالعدل والرخاء.. ترك عند وفاته ثلاث أبناء: عبدالعزيز، مير حاجي بدر، ومير آبدال)، بعد ذلك يقول عن (أن خالد بن الوليد بعدما أتم فتح «ديار بكر التي كانت تسمى آمد» حين ذاك وضع حفيده عبدالعزيز بن سليمان والياً هناك فتشعبت منه بطون آريزان. وإن وجود ضريح سليمان بن خالد في ديار بكر يقرب هذا الادعاء للتصديق.... والحاصل أن بدرخان هو آخر حكام الجزيرة بينما كان يعلن الحرب على العثمانيين ليكسب الحرية والاستقلال وأوضاع المعركة بسبب خيانة أحد المنتمين للعشيرة وكان اسمه «عزالدين شير»⁽¹⁾.

إن «يروى» في مقام «يقال» حيث يختفي الشخص الراوية أو القائل، وما يكون عليه ثقافة أو عمراً أو موقعاً من الذين يروي عنهم، ولعل هذه الرواية تستند إلى مرجعية ثقافية ونفسية في آن، وبالتنافس مع روايات متاخمة ومنافسة إياها في الجوار، أو بالتناظر، تضيف على النسب المرتحل إليه قيمة متعالية، أو مظلة واقية من الكثير من المؤثرات السلبية، إلى جانب صلة المروي عنهم بالجهة المتنفذة، وممارسة نوع من الفصل بينهم وبين آخرين، ممن يشاطرونهم في الانتماء الاثني واقعاً، وفي المركز أو النفوذ، إنما بالمقابل، في المطاردة الرمزية احتفاء بنسب يعلو ولا يعلو عليه في محيطه.

ما يستحق السؤال عنه :

في مفردة «يقال» ما يستوجب الحيطة والحذر، والتروّي في أي عملية تشييد حُكم أو تصورات تثقل على الفكرة موضوع البحث، وتحديدًا، حين يكون المثار ذا

(1) بدرخان، صالح: مذكراتي، ترجمة: روشن بدرخان، الناشر دلاور زكي، دمشق، ط1، 1991، ص14- 15 .

صلة بحساسيات وردود أفعال سابقة، تُراعى في القراءة، أي ما يفتقر إلى الرواية الثقة، قول قد يكون تدليساً أيضاً.

وفي الإطار نفسه، ما الذي أدخل هذه الرواية في مضمار السجل العثماني؟ لا بد من رجل، وهو ليس عادياً، إنما ينتمي إلى الهرم الأعلى من هذه العائلة البدرخانية، قد تفوّه بنسب كهذا، أو من ينوب عنه، أو أن طرفاً يمثّل السلطة العثمانية كان وراء عملية الإقحام هذه، سوى أن الرواية التي تنطلق من داخل المعقل البدرخاني أكثر جدارة بالأخذ بها، لحظة إمعان النظر في ذلك المناخ الذي استغرق عائلات مختلفة، أو أسراً، أو تجموعات قبائلية، درءاً لنفسها من أخطار مختلفة وما في ذلك من «إدراج» منافع لها طابع رمزي وفرض هيبة للنسب الجاري تطويبه.

وبدوره، فإن الباحث المؤرخ الكردي جليلي جليل، قد أدلى بدلوه هو الآخر في هذا النوع من التنصيب النسبي، ودون أن يتعرض تشريحاً أو تنقيحاً لهذه العلاقة المركّبة، وهو يتحدث عن إمارة بوتان «بوطان» حين قال (كانت تحكم بوطان عائلة أميرية كردية من سلالة عزيزيان، ويعتبر أمين زكي وغيره من المؤلفين الأكراد، استناداً إلى «شرف- نامه»، إن كلمة عزيزيان ظهرت من اسم أحد مؤسسي السلالة وهو الأمير عبدالعزيز حفيد خالد من الجزيرة، ويؤكد كاميران علي بدرخان.. أن كلمة «عزيز» أصلها تسمية لقرية صغيرة وهي «ازيزيان» الواقعة بالقرب من مدينة الجزيرة، وهناك آراء أخرى عن أصل هذه السلالة، إحداها تقول عن الأصل العربي لها واتصالها بالأسرة الهاشمية.⁽¹⁾

جليل لم يشأ المضي في هذا الحقل المفلّغ، بالطريقة التي تفيد قارئه الكردي، لا بل تهّم حقيقة التاريخ، لا أظن، لأن عجزاً كان يعتور ذاكرته أو وعيه التاريخي، أو جماع ثقافته للموضوع، إنما- ربما- لأنه ترك الموضوع لمن يهمله الأمر، أو شعوراً مضمرّاً منه، أن عدم الخوض فيه، ربما يبقيه بعيداً عن الانتباه، كما لو أن تجاهله بمثابة الحكم عليه بالنفي، وإن كان من المستحسن أن يضيء هذه النقطة الحرجة والفاعلة إلى حد كبير في تصورات الكثير من الكرد ومشاعرهم، حيث إن الممكن

(1) جليل، جليلي: من تاريخ الإمارات في الامبراطورية العثمانية، دارالأهالي، دمشق، ط1، 1987، ص 74 .

التركيز عليه هو وجود نوع من أبستيميا النسب المستقدم من الخارج، تجنباً لغشيان مخاطر الخارج واتقاء منه.

ماليسانز متببه إلى خطورة هذه اللعبة، ومقومها السبّاق، وهو يشير إلى واقعة كهذه كانت نزيلة صفحة نسب هذه العائلة العريقة بالتأكيد حين يقول يسميها، ودون أن يغفل عن لزوم مراعاة المحذور فيها (... ويشار إلى قضية النسب نسب الأسرة عبر وصلها بصلاح الدين الأيوبي، وهناك من يصلها بخالد بن الوليد، والادعاء الأخير جرى تنفيده.. وحسب بعض الكتاب أن «جد هذه الأسرة، كما هو معروف عائلياً يصل في البطن السابع بخان بتليس ومؤلف كتاب التاريخ الموسوم بالشرفنامه، وشرفخان الأول.. لكن ذلك يجب تفحصه بدقة»⁽¹⁾.

أي إن المشار إليه يظل بحاجة ماسة إلى مزيد من المقاربة النقدية، وليس مجرد الرد، أو الدحض، أو التنفيد، بقولة: ذلك ليس صحيحاً، أو هذا ما ينفيه التاريخ نفسه، أو هذا إقحام مغرض من الذين يريدون الإساءة إلى هذه العائلة... الخ.

لعل ذلك يبرز من خلال تعرض محمد أمين زكي له في «خلاصة....» ولاحقاً يظهر مترجمه، وهو يزيد موضوع التعقيب وضوحاً، حيث نقرأ جهة الإشارة إلى أن (هؤلاء الأمراء من ذرية سيدنا «خالد بن الوليد»)، فيعلق بقوله (ولكن التاريخ الإسلامي العام لم يذكر شيئاً عن وجود «خالد» أو عن وجود ابن له يدعى «سليمان» في كردستان، كما أنه من المعروف على وجه التحقيق أن ذرية هذا البطل العربي الإسلامي قد انقرضت في صدر الإسلام، ولهذا كان من العسير الأخذ بمثل هذه الرواية)، ويأتي توضيح المترجم محمد علي عوني هكذا (المؤلف يسعى إلى إبراز أن خالد بن الوليد توفي كما دفن في حمص، وانتشار روايته في كردستان من باب تقدير الكرد له، والتاريخ ينص على انقطاع ذريته في صدر الإسلام. والمتواتر أن له أنجلاً ثلاثة سليمان وعبدالرحمن ومهاجر، وكان أولهم مع علي «ر» وقتل في حرب صفين، والثاني والياً على حمص ففسد له السم في دواء بأمر من معاوية... ويشير إلى مؤلف «أسد الغابة، ج2، ص104» إلى انقراض ذريته.. ويشير

(1) ماليسانز: بدرخانيو جزيرة بوتان ومحاضر اجتماعات الجمعية العائلية البدرخانية، ترجمة: شكور مصطفى، وزارة الثقافة، أربيل، 1988، ص 38.

المؤلف إلى التداخل بين خالد وانحدار عشائر الجزيرة وحواليها من الشعب «الخلدي- الكلدي» واعتباراً ذلك سبباً لهذا التسيب مع تقادم الزمان⁽¹⁾... الخ⁽²⁾.

(1) زكي بك، محمد أمين: خلاصة تاريخ كرد وكردستان من أقدم العصور التاريخية حتى الآن، المصدر المذكور، ج2، ص 309 .

ربما من المفيد هنا النظر فيما استهل به عباس العزاوي كتابه المهم العراق بين احتلالين، الجزء الأول، بغداد، 1955، حكومة المغول، 1258-1338 م، وهو أساساً في في ثمانية أجزاء، ببيتين من الشعر، هما:

وما كتب التاريخ في كل ما روت لقرائها إلا حديث ملفق

نظرنا لأمر الحاضرين فرابنا فكيف بأمر الغابرين نصدق. ص3.

ومن المفيد أيضاً النظر في الفقرة التي تخص ظاهرة «تضخم الألقاب» ص 51،

(2) من الواجب هنا، لفت نظر القارئ إلى من أتمم مؤلفه التأريخي، كما سنرى، بهذا النوع من السلاسل النسبية، بحيث يصعب وجود استثناء، أي شرف خان بدليسي، مثلاً، حين يتحدث

في كتابه: شرفنامه، ترجمة: محمد جميل الملا الروزياني، دار المدى، دمشق ط3، 2007، وفي

الفصل الرابع، عن ذلك، أي «في ذكر حكام الجزيرة وهو في ثلاث شعب»، ومن ثم (تسبيهم إلى الصحابي خالد بن الوليد ص 245- في الهامش: اعتباره ادعاء باطلاً، حيث انقراض نسل

خالد، ومن خلال الإحالة أيضاً إلى «أسد الغابة» و«نهاية الأدب» ص 277...

الشعبة الأولى: في شأن حكام «الجزيرة» المعروفين بالأسرة العزيزية «عزيزان»: الأمير

عبدالعزیز- الأمير سيف الدين- الأمير مجد الدين- الأمير عيسى.... الأخير 269: الأمير

شرف خان أبدال، صص 249-270).

وقبل ذلك، ينوّه إلى ما هو ديني، وقد اشتغل عليه مختصون، كما في حال مونترجمري وات، في

كتابه: الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر، ترجمة: د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ، الهيئة

المصرية للكتاب، القاهرة، 1998. حيث يرجع نشاطه إلى الثلث الأول من القرن الماضي، وهو

يدرس حقيقة الصلة- مثلاً- بين إبراهيم والعرب، وهذا جانب له خطورته بالمفهوم التّسبي

تاريخياً، كما في قوله (ورغم ارتباط إبراهيم بمكة إلا أن القرآن الكريم لم يذكر لنا عرباً

انحدروا من نسله إلا أن علماء مسلمين في زمن متأخر ربطوا بين الأنساب التقليدية للعرب

بتلك الواردة في العهد القديم وأخذوا بالقول أن عرب الشمال من نسل اسماعيل. إنه من

المؤكد أن معظم العرب ينتمون إلى سلالة سامية أخرى وأنهم ورثوا العقلية السامية ذاتها

وكثيراً من ثقافة الساميين ودينهم ص 173).

ومع قراءة مقتبس كهذا، ينبغي النظر في الدائر تاريخياً وفي ظل القوة التي توجه التاريخ، حيث

إن الغزوات العربية الإسلامية استخدمت أقصى ما لديها نظير قوتها على الأرض وتحت

غطاء ديني، لربط الجغرافيا بالتاريخ. وهي تحميل بذهنية المسيطر الممدوح إلهياً ما هو

محتل إلى مغنم وهبة إلهيين، وتأريخ كل نقطة جغرافية باسم مختلف نوعاً من الحياة

«الإيديولوجية» الاستملاكية لها .

أي إننا نجد أنفسنا في مواجهة تأريخ مقدّم بوصفه حقيقة، ونقد تاريخ بوصفه نقيضه، وفي الحالتين يحضر تاريخ بصفة ما، بمقدار ما يتحى جانباً بتاريخ من داخله، وعبر الاستعانة بما هو توثيقي، أي ضبط التاريخ بالتاريخ .

ذلك علينا مراعاة أمرين اثنين في الحالة هذه: ما هو مشاع بين الناس، وصلته بما هو نفسي وثقافي عام، يستحوذ على قلوبهم ومشاعرهم إلى درجة الاستبداد، حيث تختلط الهيبة بالرهبة، وفي النطاق هذا يكون الدين فاعلاً، من خلال رموزه وربطها بمخاوف لامرئية، شدد عليها مع الزمن، بحيث إن أي مسأ بالدين ورموزه تترتب عليه بالتالي عواقب وخيمة، إلى جانب الحساب الأخروي، وما هو مقرر في الكتب، وهذه بدورها، لا ينبغي أن يعول عليها كثيراً، جهة ارتباطها بمن أخضعوا للإسلام ورموزهم من الخارج، وهم بلغة مغايرة للغة القائمة: العربية في مواجهة الكردية هنا، حيث إن «لغة» القرآن غير أي لغة أخرى في المضي عليها قدسياً، وما في ذلك من محاذير مترافقة مع أي محاولة انفصال والتمسك باللغة الأصل: الكردية، وما في ذلك من مراهنات ونزاعات ظاهرة وباطنة، وليس من باب الاستغراب إن كان اسم خالد بن الوليد محتفظاً بوقع تأريخي، وربما يرتبط بجهاث شجعت على تأكيده، واعتباره موجوداً ولم ينقرض، إذ كثيراً ما لا تلتزم الرواية الشفاهية بحقيقة المتردد جهة الاتصال بالواقع، لأننا إزاء واقعة نفسية، أو واقع

حول ذلك ينظر كتاب أرسناك بولاديان: حول مسألة أصل الكرد، ترجمة جماعية، دار الفارابي- بيروت، دار آراس- أربيل، ط1، 2013، كقوله (.. منذ الفتوحات الإسلامية تدفقت إلى هذه المناطق هجرات جديدة للأقوام العربية جاءت تستوطن فيها... وعلى هذا النحو نجد أن منطقة الجزيرة بما تضمه من وحدات إدارية مثل ديار ربيعة «مركزها الموصل» ، وديار مضر «مركزها الرقة»، وديار بكر «مركزها آمد» كانت تمثل في الواقع مدناً وقرى ذات مساحات شاسعة من الأراضي، فبالإضافة إلى الشعوب الأصلية التي كانت تقطن المناطق التي شملها توسع الفتح الإسلامي مثل الأرمن والسريريان/الأشوريين/والكرد وغيرهم... وفي ديار ربيعة كان الكرد يشكلون غالبية السكان القاطنين فيها .. ص61).

أي نجد التالي: الاستيلاء على المكان بالقوة.

تغيير اسم المكان بما يتناسب وقواعد العربية وسلطتها السياسية.

تحويل السكان الأصليين «الكرد كنموذج» إلى متصرف بهم بحسب السياسة الاستيطانية

والاحتوائية للمكان، وفرض نظام لغوي عربي عليهم.

التأريخ للمكان وأهليه، باعتبار غزوهم ولادة جديدة لهم.

إلحاقهم بمن غزوهم، وكأنهم وجدوا اكتشافاً بالغزو!!

متخيل، رغبتي، محرر من سلطة الواقع الفيزيكي، ومفروض عليه، ولهذا يكون من الصعب أحياناً الفصل بين الناس ومعتقداتهم، حيث تستقر تصورات، أو وقائع لها صلة بما هو نفسي في خانتها «أي المعتقدات»، وحين نؤخذ علماً، وهو أن المعتقد من العقدة، وهذه مما يعلق على الشيء، الأمر، الفكرة، ويحول دون عرضها للمساءلة، أو إمكان التحقق من مصداقيتها بمراجعة الواقع .

أي حيث يجب علينا ألا ننسى الطابع الكردي لإمارة بوتان، وتلك اللهجة/ اللغة الكردية التي روّهن عليها كثيراً، اللهجة/ اللغة التي سعى جلادت بك جاهداً إلى أن تكون اللغة الكردية بامتياز، وهي لغة «هاوار»، وكأن طرّحها لغة رئيسة، بمثابة التأسيس الأول لكيان سياسي كردي، ما أن يوضع حجر الأساس له حتى تكون اللغة المطلوبة جاهزة قراءة وكتابة.

في دعاء يتقدّم مطران كنيسة مسيحية في عهد إمارة بوتان، مرفوع للأمير البوتاني وباللهجة الكرمانجية «لغة هاوار»، نظير الترتيل الكنسي، حيث المحتوى يتمحور حول وجوب تيقُّظ الإنسان قبل أن يطويه الموت، ومن ثم تأتية ساعة الحساب، ما يعزّز هذه اللغة، ومدى الارتباط بالفترة تلك، أورد هذه المقاطع نقلاً عن دعاء منغمّ، جدير بالتأمل فيه :

Looo çi denge çi heydana
 Û çi gurgure li ezmana
 Dengê nefîr û zirna
 Hin dibêjin qiyamete
 Hin dibêjin êxir zemana
 Looo dengê Nefîr Ji ezmana hatiya
 Û erd û ezman hejana
 Û deng ketiye guhê miriya
 Û guh kete bedinê wa
 Û wek qanata qiyametê bi ser wande bariye
 Û şîn bû wek giyayê gu
 Bihar lê hatiya

Lo insane cêhilo berê xwe de ezmana

Çiqasê şîne û sunhan bike

Ji xwedayê keremê...

إنه نوع من العلاقة الروحية بين رجل الدين المسيحي وأمير بوتان، ولا بد أن ارتباط حاجو آغا من خلاف أسلافه بالبدرخانين، إنما كان على التنوع في المعتقد، إلى جانب لغة رئيسة للتفاهم بين جميع مكونات الإمارة، وربما كانت هفيران سعيًا في هذا النطاق، مع علامة فارقة خاصة بمن ينتمي إلى الاتحاد القبلي، وهي عدم التشديد في العقيدة، إنما تعزيز وحدة قبلية يشعر كل عضو فيه أنه المعني بها، وبصفة مختلفة في آن، وربما كان هذا التمايز واصلًا بين شعور حاجو الأول والثالث في مجتمع كان أقرب إلى المدينة التي راهن عليها «قامشلو» والذي حوِّرب كثيرًا .

ولعل مارتن فان بروينسن حين يتحدث عن إمارة بوتان والبدرخانين ضمناً (كانت إمارة بوتان على امتداد عدد كبير من القرون، تحكمها عادة تحدرها من خالد بن الوليد أحد أشهر قادة النبي العسكريين)⁽¹⁾، لا بد أنه يقدر مرجعية هذه الرواية/ الشهادة، دون تعريضها لعملية «الجرح والتعديل» التاريخيين: من هم الأشخاص الذين يتلقى عنهم رواياته، ما موقعهم الاجتماعي، وما وقع هذه الروايات نفوس المحيطين بهم، وأين يكونون، وفي أي وضعية... ذلك من شأنه فائدة التاريخ، سوى أن بروينسن تجنب هذا المسلك، وسجّل، كما يظهر، ما قيل

(1) بروينسن، مارتن فان: الآغا والشيخ والدولة «البنى الاجتماعية والسياسية لكردستان» ج1، ترجمة: أمجد حسين، معهد الدراسات الاستراتيجية، بغداد - أربيل - بيروت، ط1، 2007، ص 383 .

في هامش الصفحة ذاتها ذي الرقم 99»، وردت العبارة التالية، ولسان بروينسن (إن ما يلي «أي بخصوص الحديث عن بدرخان بيك وسقوط إمارته»، قائم على أساس من معلومات شفوية جمعت في بوتان في ربيع وصيف العام 1976). ذلك يتطلب مكاشفة نفسية وعقلية وتحليلية لمثل هذا الإجراء، إذ إن الفاصل الزمني بين هذا العمل وسقوط الإمارة المذكورة، يتعدى المائة عام، ولنا، كما أنه علينا، النظر في طبيعة مسافة زمنية كهذه، وطبيعة المعلومات ذات الصلة. من جهة أخرى، حسبنا أن نشير هنا إلى مدى تأثره بوديغ جويده، في مصدره المذكور، حول هذه النقطة، مستنداً هذه المرة، لا إلى رواية شفاهية، وإنما إلى رواية بدليسي في «شرف نامه»، ص 169 .

له، ومن أشخاص جديرين بالإصغاء إليهم، أي لهم علاقة مباشرة ببنية الموضوع، وما يتطلب ذلك من توقع ما ينصبُّ في خانة المعنيين بالموضوع .

وإذا كان في الإمكان من إضافة أخرى، بغية إثراء الموضوع، أو من توسيع لدائرة البحث، ومن خلال أهميته الكبرى، فهو يتمثل فيما ذهب إليه شرف خان بدليسي، كما نوّه إليه، فهو يعتبر هنا بطل التنسيبات، ومحرّر جل الكرد مما يبقّيه كرداً، من خلال كم وافر من قبائلهم أو عشائريهم، حتى بالنسبة إليه بالذات، ولعلّي أجد في المقتبس الطويل نسبياً مسوّغاً إلى تثبيته، ليكون درساً تاريخياً لدرس نقدي وقيمي في آن، وضمناً تعليق المترجم (في تراجم حكام حكاري المعروفين بأسرة شنبو. ص213... هناك وصف مقتضب للجزيرة. ص245... عن حسنكيف، ص282... الملك سليمان، الملك محمد .. ص284... پير منصور، ص315... تنسيب: «نسب أسرة شنبو» لا تحتجب عن ضمائر نقاد الكلام ولا عن خواطر ذوي الآراء المشعة صورة القصة الآتية التي هي : إن نسب أمراء حكاري الأجلاء يرتقي إلى الخلفاء العباسيين. بيد أنه لما لم تضبط سلسلة نسبهم، ولم يعلم بمن من الخلفاء تنتهي، عطفنا عنان اليراع الجواد عن الخوض في البحث في ارتباط هذه الأسرة الكريمة بأولئك الخلفاء العظام .. ص213... إن ذوي الفضائل الأعلام في البلاغة، ومدبجي آيات الفصاحة هم الذين يلمون بهذه الدقائق، ويقفون على مثل هذه الحقائق وهي إن حكام «صاصون» يمتّون بصلة النسب إلى ملوك الفرس الأكاسرة . ص335... مثلهم حكام كليس: لا يغرب عن بال النبهاء الواقفين على تراجم الأسر الهاشمية، ولا يخفى على ضمائر الملمين بأسرار الأسر القرشية، أن سلسلة نسب حكام كليس = كلس، كما يزعمون هم أنفسهم، تنتهي بأحد أولاد العباس رضي الله عنه.. ص367... وفي نسب أمراء زرقية: لا يخفى على ضمائر الماهرين في البلاغة، وخواطر المؤرخين الفصحاء، صورة القصة التالية، وهي : إن نسب أمراء زرقية ينتهي إلى القبائل العربية في الشام، فقد قيل إن رجلاً يدعى الشيخ حسن... الخ. ص387... بصدد الأمراء السويدية نسبهم يرتقي إلى آل برمك = البرامكة. ص403... ونسب الأمراء السلیمانيّة يرتقي إلى مروان الحمار آخر ملوك بني أمية.. ص415... وبالنسبة لحكام سهران «سوران»: لا تخفى حقائق الروايات الآتية على أصحاب الأذهان المشعة إشعاع الشمس، وهي أن نسب حكام «سهران- سوران» يرتقي إلى رجل

يدعى «كلوس- الأثرم» من سلالة أحد عظماء العرب في بغداد..ص427... وأن نسب أمراء دنبلي: يستفاد من تقارير الرواة الثقافات المقبولة أن نسب أمراء دنبلي ينتهي إلى الرجل المسمى عيسى من العرب النازحين من الشام..ص487.... في سيرة عشيرة روزكي «أحد الأيام»، وسبب تسميتها بهذا الاسم، وقد نشأت هذه من أربع وعشرين قبيلة من قبائل الكرد..ص564... وبعد خلافات داخلية: يشار إلى عزالدين وضياء الدين: ثم لما قضوا رداً من الزمن في فوضى واضطراب، تابوا إلى رشدهم، فعقد لارساء القبائل والعشائر بينهم مؤتمراً وتداولوا الرأي لحل الأزمة حتى تفاهموا بينهم، فقر رأيهم على أن يوفدوا إلى أخلاط من يأتي بالأخوين وضياء اللذين كانا يمتان بصلة النسب إلى الملوك الأكاسرة «الساسانيين»...ص565.... من جهة النسب: لقد صح بالروايات المتواترة.. أن حكام بدليس يمتون بصلة النسب إلى ملوك الأكاسرة «الساسانيين». وقد شاع بين الناس أنهم من سلالة نوشيروان.. ص568... الخ. ... في الهامش «100» تأكيد على كردية عزالدين «ص577» تعليق المترجم في الهامش «101» عن التنسيب: هذا المرض المتفشي بين الأكراد بالانتساب إلى أسرة ملكية أو أسرة سيادة أو أسرة خلافة، مرض «مخز» أدى بالمؤرخين إلى أن يعتبروا قسماً من الأكراد فارسي وقسماً عربي الأصل وقسماً تركي الأصل، علماً أن كل ذلك باطل من الأساس.ص577(1).

(1) البديليسي، الأمير شرف خان: شرفنامه، ترجمة: محمد جميل الملا أحمد الروزياني، دار المدى، دمشق، ط3، 2007، وقد وردت أرقام الصفحات في المتن من باب الإيجاز .
وحول ذلك أيضاً ينظر في تقديم الدكتور عبدالفتاح بوتاني لكتاب مارك سايكس: القبائل الكردية في الامبراطورية العثمانية، المصدر المذكور، حيث يعلّق على هذه النقطة بالذات قائلاً (أما ادعاء بعض العشائر، وبالذات رؤسائها، أو بعض الأسر المتنفذة والكبيرة، التي تحولت بمرور الزمن إلى «عشيرة»، الأصل العربي أو الانتساب إلى العرب وصحابة الرسول«ص» فلا أساس تاريخي له، وقد حسم هذه المسألة العلامة المرحوم مصطفى جواد في معرض تعليقه على ما ذهب إليه المسعودي «ت 956 م» من أن أصل الكرد عرب، بقوله: لا شك في أن إلحاق الكرد بالأنساب العربية، قد أصبح باطلاً عند أهل التحقيق والتدقيق، وكان السبب فيه على ما أرى إثبات الأخوة في النسب تبعاً للأخوة في الدين وكثرة اختلاط الكرد بالعرب حيث يعز على الكرد أن لا يكونوا من أصل عربي قديم، فاخترع النسابون تلك النسبة. ص9 . ينظر في تعليق الدكتور أيضاً، في الهامش «1» ص60).
وربما في السياق ذاته، وانطلاقاً من مضمار مدينة يُتصارَع عليها، باعتبارها عربية «ديار ربيعة، ومركزها الموصل»، ينظر في كتاب الدكتور البوتاني المهم، ومن واقع التجربة: صفحات من

وتلك «وجبة» دسمة من خلأط الدسم في «مطبخ» الأنساب المعدّ والذي يرجع إلى تواريخ سالفة، سوى أن «رائحة» المطبخ لم تنقطع بعد، أي من جهة الذي ما زالوا يقيّمون الحاضر في ضوء ما كان، رغم الفارق الزمني الكبير بين مستجدات الآن، وما جرى سابقاً وفي أزمنة مختلفة.

لقد قيل الكثير عن بدليسي، وسياسة الكتابة لديه، وهو الأمير ابن الأمير ابن الأمير، وما الذي دفع به لأن يكون مشدوداً بين قوتين خارجيتين، يُرى من خلالهما: الفارسية والعثمانية؟ لا بد أنه راعى مناخ عصره قبل أربعة قرون، ورأى في فعل التنسيب انتقالاً من الخطر إلى الأمان، إذ التعارف بنسب خارجي لا يصار إلى تبنيه أو الاعتداد به، وإنما أشبه ما يكون بقفاز يقي من البرد، وبنية الاستمرار في الوجود، وبالنسبة لجماعة عرقية كانت محط أنظار أطماع الآخرين، وكأن هذا التبني خروج إلى هواء التاريخ الطلق، وإن كان في ذلك ما يتقبل النقاش، جهة هذا التكتيف في التنسيب، ومن ثم هذا التحميل للکرد أثقالاً لا يبدو أن التاريخ اللاحق قد أسعف الكرد أو كان شفيعاً لهم في أن يكونوا كالذين استبدوا بهم، ربما بالعكس من ذلك، حين أجهز عليهم أكثر من ذي قبل، عندما يجري التعريف بهم كرد ويُرد عليهم بأنهم ليسوا كذلك، والدليل هو ما صدر بالسنة رموز، أعيان، وجهاء الكرد أنفسهم، كما يجري في عالمنا اليوم، وفي الوقت الذي نجد من يركّز على نسب مستقدم، ويحتمي به في وضوح النهار، إجهازاً على حقيقة كونه كردياً يعرف بنفسه هكذا دون خجل، كما يتصرف الآخرون في الجوار منه، أو على تخومه السياسي من عرب وترك وفرس قبل أي كان .

الذاكرة الموصلية «مجموعة مقالات ومقابلات عن تاريخ الموصل القريب»، مركز الدراسات الكردية وحفظ الوثائق، جامعة دهوك، 2011، عندما نتعرف بداية على «التعاضد بين الكرد والعرب أيام العثمانيين» وما تلا ذلك جرّاء إيديولوجيا التعالي العروبية طبعاً؛ ولكن مما يؤسف له أن العرب، وبعد تأسيس الدولة العراقية، أو المملكة العراقية سنة 1921، وهي صنعية بريطانية، أخذ حكام بغداد يمثلون دور الأتراك إزاء أخوتهم الكرد.. ص7... ومن ثم: وجد التنظيم السياسي الكردي في الموصل مع بدء الحياة الحزبية في العراق.. بدءاً من عام 2008، ص8.. ثم ما يصلنا بموضوعنا: والأهم من هذا وذلك أن هناك عشرات الأسر الموصلية العريقة تعود في جذورها إلى أصول كردية مثل: آل الجومرد، آل الجادر، آل جلميران، آل القدو، آل الرزوق، الخ، وجميع الأسر التي تدعي الانتساب إلى خالد بن الوليد أو العباس عم الرسول «ص» فضلاً عن الأسر التي صاهرت الكرد مثل: آل العمري، آل الدمولوجي، آل الجليلي، شيوخ شمر، وآل ملا علو وسواها.. ص8- نقد ادعاء العروبة اليوم.. ص9... الخ

الصواب الغامض :

إنه أكثر من حقيقة كونه خطأ لغوياً، أو سهواً تاريخياً، أو حصاد احتمالات تاريخية، لحظة التعرض لإضاءة تاريخ كلمة معينة، تكون جامعة، بمقدار ما أنها تظهر كيفي التعاطي مع معطيات التاريخ، وأوجه المكر فيه .

مثلاً، حين يتحدث توفيق وهبي بك عن «الأكراد» من جهة الأصول ، وهو يرد على (د . ن . مكنزي الذي ربط الكردية متأثرة باللغة الفارسية الوسطى، خلاف مينورسكي الذي ربطها باللغات الإيرانية ، وسابقاً على أن الأكراد اليوم هم أحفاد الماد ..)، أو حين يتعقب معنى «كوران» جهة: الجبن أو القوة مثلاً..⁽¹⁾.

أو بالنسبة إلى معروف جياووك، وهو ينقّب في معاني «بارزان» وتشابكاتها، كما في قوله (على ما أخال النسبة إلى عشيرة برازي، أو أنه اسم جدهم الأعلى ومعناه حامل الحق أو عارف الحق أو مقلوبة من «بارسان» أي الدراويش أو برازان أي أخوان الصفا)⁽²⁾ .

فتمة إبراز لوجهات النظر، إنما ثمة اجتهادات وسعي إلى التقدم بالأكثر قابلية للأخذ به كردياً، ولصالح الكردية هنا .

ذلك خلاف من يشدد على أن نسبه ليس كردياً، بالعكس، إنه يظهر شحنة عنف محسوسة، من خلال عملية الرفض، وهو رفض يتعزز بمدى الافتتان بالنسب المرسوم أو المنشود، أو المنتقى منه، كما في حال عبدالرحمن الكواكبي «1855-1902»، مثلاً، من خلال حفيده (ويستغرب حين يشار إلى كردية أبيه من قبل البعض، كحال «محمد كامل ضاهر» في كتابه «الإسلام وفكرة العلمنة- بيروت 1993»، بقوله عن أنه من عائلة كردية تنتسب إلى النبي «ص»... ولا يقول تهكماً، وإنما من باب تأكيد على عربية أصل الكواكبي.. ولا هو بإيراني.. إنما هو من أم عربية «من آل النقيب»، وغيرهما.. ص39... الخ. - «الكواكبي» مسلم، ومن أجداد عرب منذ ما قبل الإسلام)⁽³⁾.

(1) وهبي بك، توفيق: الآثار الكاملة «سرجمي برهمي»: إعداد رفيق صالح، بنكي زين، السليمانية 2006، ج1، ص 14، 15، 126، 152 .

(2) جياووك، معروف: مأساة بارزان المظلومة، منشورات آراس، أربيل، ط2، 2001، ط1، 1954، ص 46.

(3) الكواكبي، عبدالرحمن «السيرة الذاتية»، بقلم الحفيد القاضي سعد زغلول الكواكبي، دار بيسان، بيروت، ط1، 1998، ص 151 .

نتلمس هنا وجهاً من وجوه التعرية للآخر في الذات، أي حين تتحول ذات المتكلم، أو المفصح عن نفسه، ومن موقع الدفاع، إلى الآخر، والذي يستحيل مرفوضاً، لأنه غير مرغوب فيه، بما أنه لا يوفر القيمة الاعتبارية في المجتمع، وأهلية حيازة الأصوات، فيما لو كان على النقيض مما هو عليه، وهذه المجابهة لصورة الآخر في الذات وأمام الملاء، أو بشكل خطي، هي التي يمكن التأكد منها، وتقدير خطورة أبعادها الاجتماعية والسياسية، وضراوة التحدي ابتغاء لمكاسب شتى، أي ما ينطوي عليه هذا الإجراء من تقريع للأصل، وتوسل إلى المصطنع، طالما أن له رواجاً في المسار المجتمعي، وما يصلنا بأصالة المتداول في وضع لا يخفي تخلفه .

ربما نقراً تصرفاً من هذا القبيل في متابعات السوسيولوجي الفلسطيني الأصل حنا بطاطو، في ثلاثيته البحثية عن العراق، وذلك في الكتاب الأول، وبدءاً من الفصل السابع، حيث يتعنون بـ «السادة» وهو يمارس تصنيفاً للذين يتنافسون فيما بينهم وبمقاييس شتى، أو يعيشون صراعات في الذات وبها، ومع الوسط المحيط، وربما مع أقرب المقربين، جهة التقارب أو التباعد، جهة التحول في النسبة هذه أو تلك، وفي بلد مهياً لهذه الجاذبيات القانصة والفتاكة قيمياً، إن جاز التعبير، أعني به العراق، وهو يعيش تحت وطأة المذاهب فالاثنيات فالطوائف فالتحزيبات، وكيف أنها تسهم على قدر تنوعها ليس في إثراء البلد إنما تبيئسه، حيث العطالة الوجدانية تمثل نسفاً تصاعدياً ودواماتياً لكل ما هو مفصلي، يمكنه أن يمارس تقريباً بين النفوس و تنويراً لداخلها (السادة ج سيد، يعرفون باسم الأشراف، ج شريف، يدعون أنهم من سلالة الرسول محمد.. ونظرياً هم جماعة منغلقة..وعلى العموم، فإن الادعاء بالتحدر من بيت محمد، الذي كان يقدمه «السادة» ملاك الأراضي، كان يشكل عنصر دعم وإسناد لموقعهم الاجتماعي أكثر من أنه الحقيقة التي تكمن وراء هذا الموقع.. وفي الواقع، يبدو أن ادعاء هؤلاء التحدر من سلالة قدسية لم يظهر إلا بعد أن برز أصحابه في العالم، وبعد التغير

ينوء هنا على الأقل إلى أهمية مفكر عراقي، حين يقول (ولعل اسم عبدالرحمن الكواكبي، وهو حلبي- كردي، يحتل مكانة مركزية في بناء وعي الذات العربي على قاعدة العقلانية- الدستورية الحديثة.) . ينظر حول ذلك: فالج عبدالجبار- هشام داود: الاثنية والدولة: الأكراد في العراق وإيران وتركيا، ترجمة: عبدالإله النعيمي، معهد الدراسات الاستراتيجية، بيروت، ط1/2006، ص 455.

في موقعهم .. وفي حقيقة الأمر، فإن صحة نسب العدد الأكبر من «السادة» لم تمر من غير إثارة للشكوك والتساؤلات. وحتى آل الكيلاني، الذين كان منهم «نقباء أشراف» بغداد لمدة تزيد على أربعة قرون، من 1531 وحتى 1962 حيث زال هذا المنصب، لم يستطيعوا الهرب من توجيه الاتهام إليهم بأنهم زوروا شجرة عائلتهم.. وإلى جانب هذا، يبدو أن «الأشراف» كانوا- مع مرور الزمن- يمنحون لقب «سيد» لأناس كلياً بهدف تدعيم أنفسهم سياسياً.. وكان «الأشراف» عند السنة، وخصوصاً في المدن، محدودي العدد، وكان أكثرهم من الرجال البارزين اجتماعياً والأثرياء. واستناداً إلى لائحة رسمية نشرت في العام 1894 بهدف وضع حد- على ما يبدو- للنزاعات حول الأسبقية في الأهمية، كانت هنالك في بغداد، في تلك السنة، خمس عائلات «أشراف» سنة فقط «هي عائلات جميل والكيلاني والألوسي والحيدري والسنوي»، وكان مجموع «الأشراف» واحداً وعشرين فقط، ستة عشر منهم من آل الكيلاني.. ولسبب ما، فإن آل السنوي، الذين يدعون تحدرهم من الأمويين، وبالتالي، من قريش، قبيلة الرسول، وليس من بيت الرسول نفسه، أدخلوا في اللائحة، في حين أن آل السويدي، الذين يدعون التحدر من عباس، عم الرسول، لم يدرجوا فيها. وكذلك فقد استبعد من اللائحة آل الطبجلي ورجب الراوي، الذين يدعون التحدر من الحسين، حفيد الرسول، ربما لأنهم كانوا ينتمون إلى الطريقة الرفاعية، وهي طريقة باطنية تنافس طريقة «النقيب» الذي يرأس القادرية.. ص 184.. وكانت عائلات «أشراف» بارزة كثيرة تعود بأصولها الحديثة نسبياً إلى شبه الجزيرة العربية أو إيران أو سورية. فعائلة أبو طبيخ التي كانت في العام 1958 تملك 124496 دونماً على قنال الشامية المتفرع من الفرات وفي رميثة وشمشة في لواء الديوانية، كانت قد انتقلت من الحسا في شبه الجزيرة العربية إلى العراق قبل حوالي 250 سنة. وآل جميل، الذين كان لديهم 92166 دونماً، تشمل معظم ذيل نهر خراسان في ديالى، وكانوا يملكون أيضاً 121 بيتاً وجكاناً في حي قنبر علي في بغداد، كانوا قد جاؤوا إلى العراق من سورية في نهاية القرن الثامن عشر، وكان الشرفاء، الذين يملكون 33352 دونماً على شط الحلة، قد هاجروا من مكة المكرمة قبل حوالي 350 سنة.... والطبجلية كانوا من حماة في سورية، والقوزينيون من إيران، وآل زوين من المدينة المنورة وآل الياصري من المدينة المنورة.. والعائلة المالكة نفسها من أصل حجازي.. وسادة الموصل:

النقيب والفخري والمفتي والعبيدي يتحدرون من السيد عبدالله، من بيت الأعرجي المشهور، أتى به الأتراك من مكة المكرمة في أواسط القرن السادس عشر، وأما الحيدريون وهم من السادة الأكراد من أردبيل، جنوب شرق بحر قزوين.. ص188... والشيخ عبدالقادر الباني الحقيقي لثروات الكيلانيين من كيلان في فارس سنة 1095.. والسعدون في أصولهم من مكة المكرمة لم يكن السادة يحتلون مراتب متساوية. ص188... ويبدو أن العنف يقدم أيضاً تفسيراً جزئياً لنفوذ آل حفيد البرزنجي، وهي عائلة «السادة» القائمة في السلিমانيّة، وكانت في العام 1958 تملك 71716 دونماً. ص 195. وكان والد الشيخ محمود، الشيخ سعيد، مصدر رعب السلیمانيّة.. ص 195..... حول انتقال اسم السادة: يبدو أن ياسمين الهاشمي، الذي كان اسمه ياسين حلمي، لم يتبن لقبه الجديد هذا إلا في حوالي سنة 1902، عندما دخل الأكاديمية العسكرية في استامبول، وهو لقب يشير طبعاً إلى أن حامله يتحدر من بني هاشم، عشيرة الرسول. وكان والده يحمل لقب «سيد» ولكن البعض يشك في أصله العربي ويربطه بعشيرة كروية التركية التي جاءت إلى العراق مع السلطان مراد في القرن السابع عشر.. ص 228» الأصل غير العراقي لكثيرين: أصل الشرشفيين من بلاد فارس، وعائلات الشاهبندر والبايجي والقشطيني من سوريا، وعائلات الزبيق وغنام وصالح وثيان وعساي في وبصام ومنديل وزهير وعبدالواحد من نجد.. ص298.(1).

(1) بطاطو، حنا: العراق «الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية»، ترجمة: عفيف الرزاز، منشورات فرصاد، قم، إيران، ط1، 2005، وقد وردت أرقام الصفحات في المتن إيجازاً.

في هذا السياق، نذكر أيضاً، ومن باب التأكيد على أن التلاعب بالنسب لا يتحدد ضمن فضاء تاريخي معين «كردي»، إنما أكثر، وهو ما يتطلب وعياً نقدياً وتأريخياً أعمق وأرحب، ومن ذلك أيضاً نقرأ ما ورد في كتاب د. عبدالجليل الطاهر: العشائر والسياسة «تقرير سري لدائرة الاستخبارات البريطانية وعلاقتها بالإدارة البريطانية»، بغداد 1958، إعادة الطباعة 2008، مطبوع أساساً سنة 1958، وفي أكثر من نقطة متسلسلة تاريخياً، من ذلك :

كان الانكليز يستعملون مختلف طرق الإغراء وتلويث الضمائر.. وخير مثال على ذلك السياسة التي اتبعتها في الفرات. ص 3.. ويرجع فعل السرد العشائري من خلال قائمة بأسماء عشائر عراقية مختلفة ووظائفها وأحوالها الاقتصادية ومن يمثل كل عشيرة وارتباطاته وحقيقته وموقع عشيرته وفروعها إلى تبين الدور الاجتماعي والسياسي الفعلي والمعطى لها في بنية العلاقات المختلفة.. بدءاً، من ص 13.. ولاحقاً : ويرجع نسب «عنيزة» إلى عرب

طبعاً، مثل هذه التصنيفات، والتقسيمات، يمكنها أن تفيد الباحث الاجتماعي، وهو يتعقب موقع كل اسم، وكيف كان، وأين استقر، وماذا اكتسب بطريقته هذه، كما تفيد المؤرخ، جهة التحول الاجتماعي، وجملة الوقائع التي يشترك فيها هؤلاء الذين دخول في لعبة التنافس، لأن العملية لا تبتغي رسداً لهدف مشترك، وإنما تفكيكه، أو تشويه مفهومه، وإلا لما كان هذا السبق أو الاستباق، لما كان هذا التخطيط الفئوي أو التكتلي أو المناوراتي، وتسلق الأكتاف، وابتزاز المشاعر ضمناً، حيث إن هذه تصرف كثيراً.

ذلك يندرج في صلب العلاقة بين المنتمي إلى المدينة والآخر، وما تكون عليه هذه العلاقة من تعاكس في رغبة الاعتراف بالآخر، ليكون ذلك تدشيناً لمجموعة قيم حوامل لما هو مؤسساتي مدني، وتكون مجموعة الأفراد/ الأطراف الداخل في هذا البناء «المرصوص»، أي العقد المجتمعي خميرة فاعلة وملهمة لجعل المدينة في مستوى اسمها واقعاً.

الشمال، ويذكر المؤرخون بأن نسب عنيزة يرجع إلى «عنيزة بن أسعد» الذي يتصل نسبه بربيعة، وهي أحد أحد الفرعين الكبيرين من نزار. ص 23 ... وما يعمق المشهد التركيبي الديموغرافي نسبياً: وعلى سبيل المثال لدينا عشيرة البيات، نقرأ في لائحة الأحوال الاجتماعية والسياسية: عشيرة مخلوطة من الأكراد والعرب مزارعون، يربون الخيول والماشية يسكنون في أكوخ، يتكلمون العربية والتركية، ويقال أن كثيراً من أفراد القبائل التي كانت تطاردهم السلطات التركية قد انضموا إلى البيات، ويقدر عددهم بحوالي 10000 كوخاً وخيمة، يزرعون الذرة على العظيم. ص 40، تبرز لنا الخلفية الاقتصادية والاجتماعية والكمية لها. وبالنسبة لعشيرة: تعد من أكبر عشائر وادي ما بين النهرين وهم مشتتون على ضفاف الأنهار شمالاً حتى الموصل وخابور. ويدعى الجبور في العراق أنهم قدموا في الأصل من منطقة الخابور.. ولهم خلافات ونزاعات مع «الفتلة». ص 102، تبرز «الهوية» الاجتماعية والسياسية لها ... المجمع: أغلب أفراد العشيرة لصوص ومشردون. ص 129- السادة «الشرفاء» عائلة من السادة- اسم جمع كلمة شريف، جاؤوا من مكة قبل حوالي 300 سنة. ص 144- بنو تميم: فرع من عشيرة قديمة تبعثرت على بقاع واسعة أصلها من نجد، بدأت في الهجرة إلى العراق قبيل الفتح الإسلامي. ص 183- زوبع: تدعي زوبع بأن نسبها يتصل بطي، ولكن من المحتمل أن ترجع في الأصل إلى شمر. ص 200... زيد: ترجع عشيرة زيد في أصلها إلى اليمن. ص 205- بنوز زريج: يدعون بأنهم من بني مالك- ولكنهم ليسوا من بني مالك الذين هم من قبائل المنتفك، وإنما من أجداد بني حسن وجماعة العشائر الشامية التي تشمل العوايد وآل علي. ص 213... الخ.

هذا يعكس الدرجات الكبرى من سوء النوايا التي تبقى العلاقات دون اسمها، وهي درجات الأساس الهش، لا بل المفلوم الذي يعدُّ بما ليس مبشراً بالخير لأي كان، أي حين يُتخذ من النسب المستدعى قناع يركَّب ربما على قناع آخر، ولا يعود في المقدور التعرف على الوجه الفعلي لهذا الشخص ذي النسب الجديد، وإنما على لعبة تغذّي نفاقاً وفساد قيم .

ذلك ما يعيننا في معرفة هذا التخلخل في كتابة تاريخ الأسر أو العائلات، وحتى الأحزاب، كما سنرى بصورة أوسع لاحقاً وفي حينه، حيث توجد ثغرات كثيرة تتطلب اجتهادات جانبية للملئها، لا تخلو من مغامرة ربما لا تحقق المطلوب، ولا بد أن الذين يلتحفون بنسب من هذا النوع، ويدثرون أنفسهم بأغطيته، وهم يتسترون على أصولهم، يتحملون مسئولية ذلك.

إن ما ورد آنفاً، يمكن إيجاد نظيره في مجمل المجتمعات التقليدية، أي مجتمعات لا تجد مانعاً في أن تتسابق أسر، أو أن يسارع أفراد معينون وهم في مواقع اجتماعية معينة، وبغية تحقيق مكاسب وجاهية وغيرها، في ابتداع أنساب على قدر ما تخطط له، أو تسعى إليه، وليبقى كل مسرود نسبي في وضع كهذا قابلاً للمساءلة والتنقيب في بنية أغطيته ووجوهه، وكما في مقابل آخر، ولو محدود، إنما مفيد، لما أورده الباحث بطاطو، وهو بصدد الجاري أو الدائر ذات يوم في سوريا، كقوله (وتمتعت عائلة العظم، ويحتمل أن تكون من أصل عربي، لكنها قد تكون من أصل تركي أناضولي، بلقب بيك، وقدمت كثيراً من حكام الولايات أو المناطق في القرن الثامن عشر. أما آل الكيلاني الذين تعود جذورهم إلى مقاطعة جيلان الفارسية، فحملوا لقب أفندي، وكانوا تالياً «أهل القلم». وكانوا من الأشراف، أو ممن يزعمون أن نسبهم يعود إلى النبي محمد)⁽¹⁾.

(1) بطاطو، حنا: فلاحو سورية: أبناء وجهائهم الريفيين الأقل شأنًا وسياساتهم، ترجمة: عبدالله فاضل - رائد النقشبندى، مراجعة: تائر ديب، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط2، 2015، ص 148 .

طبعاً، يمكن التوسع في هذه النقطة المتعلقة بأصول الأسر وارتباطها بمراتب القوة، ومن ثم تأثير اللاحق على السابق، أي ما تلجأ إليه أسر في كتابة تاريخ خاص بها أحياناً، تبعاً للظرف، وإعلاء من شأنها، بوضع تاريخ سيّري لها، وكل ذلك يسمح لنا بدراسة مركبة: تأريخية واجتماعية وسياسية ونفسية، وبالنسبة للعظم، مثلاً، نجد حضوراً تسلسلياً لهذه الأسرة

في كتاب: حوادث دمشق اليومية «1154-1175هـ/ 1741-1762م»، جمعها: الشيخ أحمد البديري الحلاق، نقحها: الشيخ محمد سعيد القاسمي، وقف على تحقيقها ونشرها: د. أحمد عزت عبدالكريم، مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، ط1، 1959، بالطريقة هذه: أول من عرف من آل العظم هو «ابراهيم العظم»، وكان جندياً سكن وأسرته في معرة النعمان، ثم آل الحكم في المعرة لابنه 1-اسماعيل باشا العظم، وقد حكم المعرة ثم حماة فحمص برتبة «بكلريكي: أمير الأمراء» - سليمان باشا العظم: وهو أخو اسماعيل، وتولى باشوية صيدا فالشام. -أسعد باشا العظم، حيث خلف ابن أخيه في ولاية الشام «اسماعيل باشا» -سعد الدين باشا: أخو سعد من أبيه اسماعيل باشا العظم. - مصطفى باشا العظم، وقد ولي صيدا. - محمد باشا العظم. وهو من مشاهير آل العظم وكبرائهم. - يوسف باشا العظم ابن محمد باشا العظم، وتولى باشوية حلب سنة 1781 - عبدالله باشا العظم، ص 38 ... تنتهي المقدمة عند الصفحة 60. هذا المقتبس، لم يكن المقصد منه إلا تنويعاً إلى ما يجري.

أي إنها تشكّل قائمة من أسماء الذوات في تواريخ متتابعة .

في هذا السياق، يمكن التذكير أيضاً بظاهرة الألقاب وطابعها المحسوبياتي في المجتمع أو البعد الخدمي فيها وكيفية الحصول عليها من خلال متعهدين معروفين بالتأكيد، أو بطرق يُجْتَهِد فيها، وأنا أوجه الأنظار ، كمثال حي، إلى الجاري في إيران، كما ورد عن ذلك في كتاب روي متحدة: بردة النبي «الدين والسياسة في إيران»، ترجمة وتعليق: رضوان السيد، المدار الإسلامي، بيروت، ط2، 2007 ، ويرجع تاريخ إنجاز الكتاب إلى بين عامي 1983-1985: (كثرة الألقاب في إيران، من خلال التضخم حتى في الألقاب الدينية، وعلى سبيل المثال، إن لقب «آية الله» وهو لقب غير رسمي كان يخلع على أكبر المجتهدين في نهاية القرن لكنه الآن يطلق على المئات إن لم يكن على الألوف..ص292-293...ثم: كان التنظيم غير الرسمي للألقاب عرضاً من أعراض استمرار ضعف الضبط الرسمي لبنية عالم الملالي. ص 301... وتعظيم مكان جلال آل أحمد، من خلال حديثه عن «الابتلاء بالغرب» ص 362...و: في إيران كان اللقب أحصل عليه في الداخل أو الخارج يعطي المرء اعتباراً..ص387)...الخ.

وفي سياق المتاجرة بالنسب وارتباطه بالسلطة والقوة والمصلحة، يمكن النظر في كتاب جرجيس فتح الله: نظرات في القومية العربية مدأ وجزراً حتى العام 1970 : تاريخاً وتحليلاً، دار آراس، أربيل، ط1، 2004، ج5: أشخاص ذوو أدوار في الدراما، وثائق ، مراسلات، بيانات وتصريحات ذات طابع عمومي، من خلال لمحات من سيرة رشيد عالي الكيلاني والذي عاش بين عامي «1892-1965»، وكان «رئيس الحكومة العراقية أثناء الأزمة الآشورية 1892-1965»، ص «2105-2043»...ومن ذلك (..ورشيد عالي: اسم تركي رغم لفظه العربي: ابن عبدالوهاب الكيلاني مدرّس الدين في مدرسة جامع مدينة «بعقوبة» ومن أقرباء السيد عبدالرحمن الرقيب..ص2046 «في الهامش: سجل اسمه: رشيد في ولادته ولا يعلم من أضاف إليها كلمة «عالي» التسمية التركية الطابع..ص2045..تزوج عبدالوهاب من أخت غير شقيقة لعبدالرحمن، وبقيت عاقراً، فاتخذ له زوجة أخرى هي بنت سركال كردي من عشيرة

ذلك يعلّمنا ما يكون عليه التاريخ، وكيف تسجّل علامات اعتبارية لقوى متصارعة في الساحة المفتوحة بين أطراف، وكل طرف يلتف حول رايته، والراية تحمل صورة، رمزاً لا يعدو أن يكون تنسيباً أو إعلاماً بحياة نسب، حيث إن حقل النسب لا يحاط به من خلال وساعة العلاقات القائمة بين أفراد المجتمع والدول أو الأمم المجاورة لبعضها بعضاً، وحتى فيما تعتمد الدولة استناداً إلى سلطة تعنيها وقرارات تحمل توقيعها، من دلالات متضمنة في كلمات محددة هي تنسيبات، أو في مقام النسب وأكثر عمقاً وخطورة، كما في حال العثمانيين، من خلال ما كان يعرف بالخط «الهامايوني» والذي تُدول على أنه «المبارك» باعتباره سلطوياً، ولكنه يعرفنا كثيراً بالبعد التاريخي المتعدي لما هو إسلامي، أي الطقوسي: الشاماني، ومن على لسان أحد المنتمين، اثياً إلى تركيا، وهو الباحث حكمت قفلجمي، في كتاب له يتصدى لقائمة طويلة من الأسماء، تشكل في مجموعها صنانة أنساب اجتماعية، تاريخية، دينية وعقائدية، وهو يتوقف في صفحة منه عن خاصية الألقاب، كقوله (لم تكن الدولة القديمة ذات وجهين فهي لا تتردد في إبراز سمتها الفوق إنسانية وفوق المجتمعية بكثير من الصراحة التي تصل إلى درجة الوقاحة. ولذلك فإنها تفرض المراتبية التي أوجدتها من البداية على الآخرين من خلال صيغة مكتوبة.)، ذلك يقودنا إلى نقطة أخرى تستدعيها الأولى،/ سألقة الذكر، وهو تأكيد على نزياح المعنى عن خاتمة المفهومة، إلى ما وراء الأكثر خصوصية وشعائرية، حيث يبرز الهمايون، أو الهومايون. ما الذي يكشف عنه هذا الاسم؟ أي تاريخ يعلّمنا إياه، أو يلقّن به من يريد أن يكون عالماً بمحتواه؟ (أما الهومايون، فيعتبر الاسم المتفق عليه لطائر خرافي «أسطوري» رغم أن الأتراك

البيات في بعقوبة خلافاً لرغبة قريبه «عبدالرحمن» فولدت له رشيد عالي وآخرين عام 1892 سنة ولادته. «وتدعي عشيرة بيات أنها كردية أنا وتكرية أنا، وفقاً لمجرى الحياة السياسية، وهي في الواقع كردية اختلطت بالترك نسباً وكان ثم تزواج بينهما. ص2046.. ولهذا حرمه عميد الأسرة «عبدالرحمن» من سهم كان يتقاضاه من إيرادات الوقف الذي.. ص2045.. فترتب على ذلك أن عاشت أسرة رشيد وضعاً مادياً صعباً جداً.. بعد نياله الحقوق، في العام 1914، استلم وظيفة في بغداد لانتقائه التركية والعربية التركية. ربما لا نتسابه إلى «حزب الاتحاد والترقي» القومي التركي.. وفي الحرب العالمية الأولى هرب من بغداد ومعه صندوق المديرية وفيه وثائق وسجلات وأموال تقدّر بثلاثين ألف ليرة عثمانية، متوجهاً إلى سامراء.. ص2047.. الخ).....

العثمانيين لم يوضحوا ذلك بما يكفي من الوضوح ولا يمكن تشبيه رأس هذا الطائر الميثولوجي وجسده وجناحيه ومنقاره الخ... بالطيور الموجودة على الأرض والمعروفة لدى الناس. فهو- أي الطائر- لم يره أحد حتى نأخذ وصفه منه، ومع ذلك يجري التأكيد بشدة على وجوده. ص 252... وإذا نظرنا إلى المسألة من زاوية الواقع الاجتماعي فإننا نستنتج بأن هذا الهومايون ليس إلا الصيغة المقدسة «التابو» لما يعرف باسم الطوطم في الميثولوجيا العصري. فمن الواضح أن بني عثمان من عشيرة قايي خان إنمال جاؤوا من آسيا الوسطى مصطحبين طوطمهم «الهومايون» هذا. وما سائر الانتصارات التي تحققت لهم إلا بفضل الروح الجماعية المتجسدة في ذلك للطائر الأسطوري «الهومايون»...⁽¹⁾.

ليس في ذلك قول مجاني، أو عرَضِي، إنما هو اشتغال على الأكثر تعريفاً بالتميز والمتعالي على الآخر، ممن لا ينتمي إلى هذا الخط الرفيع والقاتل في آن، خط روحاني، يلزم بالخضوع أو الطاعة، وبناء عليه تمارس السلطة سياستها.

رهانات الأسماء :

ثمة أسماء مقدرةً بعلاماتها، أي تشكّل للبعض، وأكثر من البعض، لحظة الدخول في رهانات نسبية، تمثل مؤثرات تحفز على اقتناص أي فرصة مناسبة، والسعي ما أمكن إلى بلوغ الأكثر قابلية للحلول في موقع اجتماعي مقدّر.

ما يكون وظيفياً، ولغايات تكتيكية، وما يكون بدافع نفسي، لغايات استراتيجية لا رجعة عنها، وقد تمثلتها، تلك هي المساحة الواسعة التي يمكننا التعرف على صور مختلفة، وهي كثيرة لهذه الظاهرة المألوفة والمشجّع عليها هنا وهناك.

ولقد كان الكرد كغيرهم، بالمفهوم التاريخي، في عقد صلات، أو بناء علاقات، أو ابتداء أساليب تعارف وتسجيل أسماء تمنح أولي أمر منهم، ومن يجدون أنفسهم في وضع يمهد لهم الطريق التنسيبي مجارة أو مناكدة أو معاداة أو حقداً.

وما دمنّا في موضوع النسب، فإن من المهم جداً، التوقف عند أكثر من فرع له،

(1) قفلجمي، حكمت: التاريخ العثماني «رؤية مادية»، دار الجليل، دمشق، ط1، 1987، ص 132-252.

ومن ذلك النسب الجغرافي، فالنسب الديمغرافي أو العائلي والشخصي، وكلها أنساب تلتقي في نقطة واحدة، وهي مدى تاريخيتها، أو مصداقيتها.

ومبعث القول هذا، هو ما قام الباحث السوري محمد جمال باروت بتأليفه كتاباً يتعدى الألف صفحة في هذا المضمار، أي حيث ظهرت «الجزيرة السورية» عرضة للاجتياح وادعاء الامتلاك «وهي مذ كانت سورية وتنطق بالعربية، وفق العنوان «اليافطة: التكوّن التاريخي الحديث للجزيرة السورية»، حيث الحديث يعني وضعية تزييف لما كان، والنسب المرفوع إلى مستوى المقاربة النقدية تاريخياً ليس كذلك، أي ما يبقى النسب واسع الأبعاد، متعدد الطيات، إنما في الصميم، ما يقلب ظهر المجن، عبر التلاعب بالنسب استجابة لوازع معتدي، وهو أن ثمة ما يجب ليس تغييره بل طيه، والأدق إدخاله في خانة تدين كل قائل بنسب ليس له، وتقلل من شأنه، والمقصود هنا أولاً وأخيراً هو الكردي، أو الكرد كشعب، ومن خلال تطرقه لموضوع «التكوّن التاريخي الحديث للجزيرة السورية...» كما ذكرت، والذي له صلة مباشرة بمجريات أحداث سوريا سنة 2011، والوضع المستجد للكرد في «الجزيرة»، وهو وضع لا أخاله بمبهج له، لأن ثمة ما يجري على الأرض، أي يُخرج نسبيتها المعتادة إلى نسبية أخرى لا وجود لها، رغم ثباتها في أدبيات الجغرافيين العرب والمسلمين أنفسهم، وهو ما يسهل الرجوع إليها وتبيين هذه المفارقات :

إن أول ما يواجهنا به الباحث هو طَبَوْنَة «أي وضع الطابو» على الجزيرة السورية، باعتبارها جزءاً من ديار ربيعة، ومن ثم ما يرد في حديثه في توضيحه للبعد الاستعماري في مستهل الكتاب عن أنه (إثر تكريس الحدود «الاستعمارية» الدولية بين كل من سورية «الانتدابية» وتركيا وبريطانيا بموجب معاهدة لوزان «1923» التي أنهت الدولة العثمانية قانونياً، ونقلت المنطقة من النظام الإمبراطوري السابق إلى نظام «الدول» المستقلة الخاضعة للانتداب، آل القسم الأكبر من الجزيرة العليا إلى تركيا، والقسم الأكبر من الجزيرة السفلى إلى العراق، في حين آلت الجزيرة الوسطى إلى سورية . ص 24)، أي دون أن يكلف نفسه -ولو- عناء الإشارة إلى اتفاقية «سيفر» 1920، وماذا كانت تتضمن، ومن ثم ما حقيقة هذه الجزيرة التي ثلثها دون أي مساءلة عن حقيقتها النسبية: التاريخية، أي دون الإشارة أبداً إلى كردستان، من البداية «حيث ديار ربيعة»، ولاحقاً، الجزيرة المقسمة بين ثلاث دول، وبالتالي، ما نفع كل هذا التنظير لولا وجود كردستان

الاسم والشعب الذي يتمثل الاسم في ذاكرته وواعيته، أي دون ذلك هل يقبل على طرح كتاب ضخم هكذا إلى «قارئه» ؟

تُرى، هل حقاً اطلع على كتابات الجغرافيين العرب والمسلمين، وكيف فصلوا في أسماء الأمكنة والجهات الجغرافية، ولم يدعوا الكرد أو «بلاد الأكراد» بتعريفهم جانباً، لأنهم كانوا على قرب مما يجري، أما باروت فتنكر حتى لتاريخهم، وتبعاً لأي ثقافة سلطوية كانوا يتنفسون؟

تأكيداً على المقولة المضادة، يمكن إيراد مجموعة أمثلة من التاريخ الذي ينطلق منه باروت بالذات :

(أشار البلدانى أبو عبيد البكري (ت 1094م) إلى مناطق انتشار الأكراد في «أرض دينور وهمدان وبلاد أذربيجان وبلاد الشام وبأرض الموصل إلى جبل جودي».

يشكل إقليم الجزيرة امتداداً طبيعياً لإقليم الجبال من جهة الشرق، وقد أطلق الجغرافيون المسلمون على المناطق الشمالية الواقعة بين نهري دجلة والفرات اسم الجزيرة أو البلاد الجزرية، فتباينت تسمياتها وحدودها ونسبة بعض المدن إليها بتفاوت الأزمنة والبلدانين، وعلى سبيل المثال لا الحصر، فقد اعتبر ياقوت الحموي (1187 - 1229م) في القرن الثاني عشر الميلادي مدينة خلاط قسبة أرمينية بينما عدّها ابن عريشاه (1389 - 1450م) في القرن الرابع عشر الميلادي، جزءاً من «بلاد الأكراد».

لم يتطرق الواقدي إلى الأقوام الجزرية عرضاً و قد أشار إلى العديد من القلاع و الحصون والمواقع دون ذكر للكرد فيها علماً أن مصادر أخرى ستتحدث عنها كقلاع و حصون لأهلها الأكراد وتحديد القبائل الكردية الحاكمة فيها . تنوب كلمة النصارى ذات المدلول الديني في نص الواقدي عن التعددية الأقوامية في الجزيرة ، فهي الكلمة الجامعة للسكان في الجزيرة وفق نص الواقدي . و هنا لا بدّ من الإشارة إلى أن كلمتي النصارى والسريان لهما نفس المدلول الديني .

وفي معرض تعريف ابن شدّاد لجزيرة ابن عمر يقول : (جزيرة ابن عمر مدينة مسورة، تحيط بها دجلة مثل الهلال. وهي إسلامية محدثة، اختطها الحسن بن عمر بن الخطاب التغلبي، بعد المئتين في أيام المأمون فعرفت به. وعدّ ابن واضح

من كور ديار ربيعة جزيرة الأكراد، وأظنها هذه الجزيرة ، وأنها كانت تعرف بذلك، قبل أن يختطها ابن عمر التي نسبت إليه).

يعتبر الموسوعي الدمشقي فضل الله العمري (1301 – 1349م) من أكثر المؤلفين الذين تناولوا الكرد في مؤلفاتهم و قد أخذ الكرد حيزاً كبيراً في مؤلفاته تستحق إفراد بحث خاص عن الكرد في كتاباته . فحديثه عن الكرد بالدرجة الأولى منصب على القبائل العريقة الحاكمة و التي كان المؤلف على دراية بأحوالها ومواطن سكناها . يقول العمري: (لم أذكر من عشائريهم إلا من كنت به خبيراً، ولم أسمّ فيها منهم إلا بيت ملك أو إمارة، تبدأ بجمال همذان وشهرزو واربيل و تنتهي إلى دجلة الجزيرة من كوار إلى الموصل، ونترك ما وراء نهر دجلة إلى نهر الفرات لقلة الاحتفال به على أن الذي ذكرته هو خلاصة المقصود، إذ لم يبق إلا أكراد الجزيرة وقرى ماردين وهم لكل من جاورهم من الأعداء الماردين، مع أن أماكنهم ليست منيعة و مساكنهم للعصيان غير مستطبعة... يشير نص العمري بوضوح إلى أكراد السهل في الجزيرة وقرى ماردين وهي منطقة ذات غالبية كردية في وقتنا الحالي و ستصبح ماردين و ضواحيها في القرن التاسع عشر جزءاً من إيالة كردستان العثمانية)⁽¹⁾.

وفي سردية الالتفاف على التاريخ ثمة من يسبقه أو يقتدى به عنده، كما في هذه التغطية الجغرافية:

(أهمية رأس العين. ص 27- «تل حلف» مكان مدينة حثية.. نقبها البارون ماكس فون اوبنهايم في سني 191-1913، وفي سني 1927-1929.. ص 271... من الدبارسية إلى الحسكة 70 كم، نصيبين: مركز قضاء، بليدة في حدود تركية.. كانت بقعة نصيبين فيما مضى خصبة جداً.. ص 273... إزاءها انتصبت بلدة حديثة اسمها «القامشلي من كثرة القصب الذي كان ثمة على ضفة الجفجف سكانها 18000 جلهم نصارى سريان وكاثوليك وأرمن قديم ومسلمون عرب ويهود من حولي تركيا ثم جواله من عرب بلاد الشام «دمشق وحلب».. ص 374..)⁽²⁾ ولا ذكر للكرد فيها. أيعقل ذلك ؟

(1) لقد استفدت من مقال الباحث الكردي محسن سيدا «أكراد الجزيرة في المصادر العربية الإسلامية» والمنشور في الموقع الإلكتروني «مدارات كرد» بتاريخ 27-6/ 2016 .

(2) زكريا، أحمد وصفي: المشاهد والآثار في بلاد الشام، دار رسلان، ط1، 2008 ، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن، للإيجاز، والباحث زكريا عاش بين عامي 1889-1964 .

وبغض النظر عن الجانب الدسائسي في الكتابة، فإن ما يسطّره الباحث الآخر عبدالقادر عياش «1911-1974»، وهو يتحدث عن نصيبين مثلاً، وهو مكتفٍ بعبارة لافتة عن الكرد (ولقد تعرضت نصيبين ومدارسها وأديرتها لكوارث الحروب الكثيرة التي تتابع وقوعها بين الروم والفرس... ويشير إلى ابن جبير وإعجابه بها، وذمه للأكراد فيها... وربما بناء عليه يقول: وخرب الأكراد نصيبين بكثرة غاراتهم عليها)⁽¹⁾.

أي كما لو أن التعريف بالكرد يتم من خلال هذه اللصقة «الشقاواتية»، ولكنها من ناحية أخرى تعني أنهم من سكنى المكان، أي لم يكونوا رحالة أو مهاجرين من أصقاع أخرى، وقبل استيطان العرب في المنطقة تلك .

وفي كتاب تاريخي يقول فاضل بيات عن «ديار بكر: آمد» ما يفصح عن منحى آخر في الكتابة (كانت ديار بكر من أهم القلاع والمدن الواقعة في جنوب شرق الأناضول وكانت كغيرها من القلاع واقعة تحت الحكم الصفوي. ويرسم المؤرخ العثماني خوجه سعدالدين أفندي صورة عن أوضاعها في هذه الفترة قائلاً: وكانت هذه المنطقة معظم سكانها من الأكراد وكانت الأقوام الكردية يعجبهم العيش متفرقين وباستثناء كلمة التوحيد لا يتفقون في أي موضوع)⁽²⁾.

إذ إن التعبير اللافت هو في تواجد الكرد في المكان، أما عن تفرقهم، ففي ذلك ما يستحق التعليق، وهو أنهم ليسوا بهذه الصورة، وإلا لما استمروا إلى يومنا هذا، وفي الجانب الآخر، وهو لن يكون لمصلحة الكاتب أو ما يشدد على النقطة هذه، وهو أنهم كانوا متحدّين، ربما لما كان هناك كتاب باسم «التكوينات التاريخي الحديث للجزيرة السورية»، ولا الجزيرة بأقسامها الثلاثة، إنما «کردستان» كما يشدد عليها الكرد بصورة عامة، أم أن الغرض من التوصيف هو أنهم لا يستحقون أن يكونوا أصحاب دولة أو كيان سياسي، وأنهم جرّاء تمزقهم/ شقاقهم سلّط عليهم الآخرين؟

(1) عياش، عبدالقادر: حضارة وادي الفرات «مدن فراتية»: القسم السوري، إعداد: وليد مشوح، دار الأهالي، دمشق، دمشق، ط2، 1999، ص 218-223-226 .

(2) بيات، د. فاضل مهدي: دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني «رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية»، دار المدار العثماني، بيروت، ط1، 2003، ص 19 .

وثمة كتاب موسوعي يتعرض فيه باحث فرنسي عن هذه الجغرافيا الكردية منذ عهد العثمانيين، ومن خلالهم، ومن ذلك هذه الأمثلة (أزناور: بلدة في تركيا الآسيوية «الأناضول» في ولاية كردستان، لواء ماردين ص 54-أسعرد، سعرد، في ولاية كردستان ص 64... هرزور... جزيرة عمرية: مدينة في تركيا الآسيوية، في ولاية كردستان، لواء ماردين، على جزيرة في نهر دجلة ص 233... جلك : مبلدة في تركيا الآسيوية، في ولاية كردستان، لواء ماردين على نهر دجلة ص 242... زاخو: مدينة في تركيا الآسيوية، في ولاية كردستان، لواء ماردين على نهر الخابور، أحد روافد دجلة ص 285... غرزان: بلدة في ولاية كردستان، لواء أسعرد ص 370-ماردين: مريد-مارد، مدينة في تركيا الآسيوية، في ولاية كردستان ص 452... نصيبين، نزين: أنتيوخيا ميغدونيكا، نيسيبيس، بلدة في تركيا الآسيوية، في ولاية كردستان، لواء اردي على أحد روافد الفرات ص 479-نزيب: بلدة مركز ناحية في لواء الرقة، ولاية حلب ص 479)⁽¹⁾....الخ.

أو ما يقرأ على النقيض تماماً، مما يتفوه به باروت عن الجزيرة وماذا كانت تُسمى، دون الإشارة إلى أي أثر لوجود الكرد تاريخياً فيها (أطلقت على الجزيرة تسميات عديدة... المناطق الكردية من الجزيرة عرفت في المصادر اليونانية القديمة باسم كاردوخيا وأهلها بـ «الكاردوخيين»... وقد حدد الجغرافيون اليونانيون سترابو أراضي كاردوخيا، بأنها تقع على كلتا ضفتي نهر دجلة..... أشارت المصادر العربية إلى وجود الكرد في الجزيرة والموصل في سياق تناولها الفتوحات الإسلامية، وهذا يدل على وجودهم في المنطقة قبل الإسلام وأن جزيرة ابن عمر كانت تعرف بجزيرة الأكراد مما يثبت أن الكرد كانوا يشكلون الغالبية فيها، كما أن أوليا جلبي يرجع وجود الكرد في الجزيرة إلى زمن نوح عليه السلام، إن صح رأيه فإنه يدل على قدم الكرد فيها)⁽²⁾.

أي إنه من المفترض أن يكون هناك انفتاح على التاريخ بمقدار انفتاحه على الجغرافيا والعكس صحيح، إن أريدَ للبحث أن يكون متوازناً، مثلاً، حين يكتب

(1) موستراس، س: المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ترجمة وتعليق: عصام محمد الشحات، دار اب حزم، بيروت، ط1، 2002، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

(2) عزت، د. فائزة محمد: الكرد في إقليم الجزيرة وشهرزور في صدر الإسلام 16-132هـ/ 637-739 م «دراسة في التاريخ السياسي»، مطبعة خاني، دهوك، د.ت، ص 27-44.

(تغلغت بعض مجموعات القبائل العربية في زمن الدولة الساسانية «226-650م»، في شمال الإقليم قبل الفتح، مستفيدة من التطوير الكبير الذي أدخله الساسانيون في مجال الري والسدود، ومن التسامح الساساني مع المسيحيين. ص 38)، لا يسأل نفسه من هم هؤلاء الساسانيون في أصولهم؟ أي ما صلتهم بالكرد حصراً؟

وتبدأ معضلة الكتابة وانحرافها عن المسار التاريخي الفعلي، لحظة التعرض لنسب الكرد وعشائريهم، غير مكلف نفسه هذه المرة أيضاً، ولا بأي شكل، عن مغزى تنسيب أحدهم نفسه لجماعة ما في ظرف ما، بداعي الاحتماء لا الانتماء، أو لأن الظروف العصبية والقسرية كانت تلزم هؤلاء وسواهم على أن يعتبروا أنفسهم حتى من «أهل البيت»، أو يصلهم نسبهم بصحابي أو بالأُمويين، وما شابه، وبغية التأثير في أذهان العامة، وتثبيت السلطة أكثر، كما في تناوله للأيوبيين، وحديثه عن أهم مؤرخ نسابة مارس هذا التحريف في القول النسبي، باعتبار الكرد من أصول عربية إجمالاً «ص47»، سوى أن ليس من رواية بقادرة على تأكيد هذا الزعم، لأنها تفتقد الإسناد، وحتى لو أسندت فإن الإسناد موجه بحرفه .

نسب يستغرب اسمه :

أكثر إيغالاً في التلاعب بالمفاهيم، لحظة الإحالة إلى مفهوم «العصبية» الخلدوني، أي (العلاقة بين «النسب» و«العصبية» وتحقيق النسب لوظيفة «الولاء والتلاحم» وكأنها «صلة رحم» بلغة ابن خلدون.....)، واعتبار توجه المسعودي مفهوماً بذلك، وليتابع ما يضيق الخناق على كل كردي ينادي بكرديته ومصادقية التمايز (استمر تخيل معظم العشائر الكردية الكبيرة لأصلها العربي وتمسكها به قائماً حتى العقود الأولى من القرن العشرين... ص48)، وتلك براعة مركبة من الكاتب حين يتجاهل المسوغات التي كانت وراء حماس كردي من النوع ذلك، ولماذا انتفى الدافع ذاك، وفي الجانب الآخر، ما الذي ينشط في نفس باروت هذا الهوى المعرفي لتأكيد النسب العربي للكرد؟ أحبباً بهم، ليرجعوا إلى بيتهم «الآمن»، أم تهرياً من استحقاقات التاريخ، وشعوراً أن هناك مشكلة تاريخية، لا يواجهها إلا بطريقته، وهي التي تتمثل في كيفية المناورة والمخاتلة، حتى في إخراج «العصبية» بمفهومها الخلدوني من سياقها التاريخي، والتي كان يشدد عليها، جرّاء اهتمامه بالعرب، وبالأُمويين خصوصاً، وما عرف العرب بها، وهم يغزون العالم وليس أنهم يفتحونه.

أكثر من ذلك، ومن خلال متابعتي لموضوع النسب في الأدبيات العربية، والذي يحيل المكان بمن فيه إلى الحاضنة العربية، إنما يستند إلى توهم تاريخ، أي إلى ما ليس موجوداً في الأساس، واستناداً مما هو مدوّن عن الأنساب عربياً.

(فالعرب، تبعاً لتقسيم النسابة العرب «الأفحاح» ثلاثة تقسيمات:

1- العارية فيهم، وقد انقرضوا، مثل «عالد وثمود وطسم وجديس... الخ».

2- المتعربة فيهم، وهم أبناء قحطان، وقد نطقوا بلسان العرب العارية واستقروا في ديارهم.

3- المستعربة فيهم، ويسمون أنفسهم عدنانيين، وهم أبناء اسماعيل بن ابراهيم.

ذلك يعني «منطقياً» أن لا وجود للعرب البتة، طالما أن الذين يُعتَبَرُون العرب الخُلص قد أبيدوا، لا بل تبدو عملية إبادتهم أو انقراضهم مثيرة للتساؤلات، إذ لم يحصل لهم ذلك، إلا لأنهم جنوا على أنفسهم بأنفسهم، كما تقول بذلك الأدبيات التاريخية في تجليها الأسطوري والخرافي والديني كذلك، والتي دوّنت لاحقاً بعد الإسلام بعقود زمنية طويلة، وأن الذين تم تعريبهم واستعراهم تالياً، أيضاً، في لعبة تدوين تاريخية مؤلفة، هم محط تساؤلات ودراسات متعددة الأبعاد أو المرامي حتى الآن، وما يقوله جواد علي، وليس غيره، يؤكد هذا الجانب (الحق أن ما نسميه قحطانية أو عدنانية إنما هو صفحة من صفحات المنزع الحزبي عند العرب في الإسلام، شاء أصحابه ومثيروه رجعه إلى الماضي البعيد، ووضع تأريخ قديم له، فجعلوا له أصولاً زعموا أنها ترجع إلى ما قبل الإسلام بكثير ورووا في ذلك شعراً لا يخرج في نظرتنا عن هذا الشعر الذي يحفظه الرواة على لسان آدم وهابيل وقابيل والجن)⁽¹⁾.

يعني ذلك أن استمرار النسب هنا لا يعدو أن يكون استهواء حيث لا وجود له واستقواء لتحقيق غاية بأكثر من معنى، وأن الشغف الدوري بهذا الموضوع يبعث على التشكيك في بنية الموضوع، وينسفه من أصله، لأنه حيلة من يريد تصديق نفسه، ويسقط وهم على الآخرين.

(1) محمود، ابراهيم: القبيلة الضائعة «الأكراد في الأدبيات العربية- الإسلامية»، منشورات الريس، بيروت، ط1، 2007، ص31.

فأي مكرمة ومنعمة ومرحمة في هذا الإصرار على أن جماعات أو أسماء ادّعت نسبها إلى العرب، أو من أرادوا الإيقاع بالعرب أنفسهم، وهم منهم، وليسوا منهم، حتى لو اتّبعتا التخریجة التوراتية في الأنساب بحامها وسامها ويافتها، إذ الكرد في عداد «يافت» لحظة التدقيق في ثالوث النسب، في لاساميتهم، وحيث إن العرب نسبياً، وعلى مستوى التاريخ، في التقسيم السالف الذكر غير موجودين، وقد ولّفوا لأولي أمرهم الذين كانوا يريدون مجابهة آخرين بآنسب لها مقامها الرفیع، وقد أطلقوا لتوهماتهم عنان الخيال إلى يومنا هذا ١٥!

ولاحقاً، يبرز السعي الحثيث للباحث في كيفية الربط بين أي مجموعة/ عشيرة كردية بنسبة من حمولة العربية، ترسیخ إيمان على أن ليس للكردی إلا أن يؤمن بالعربي ليكون له حضور أو يجري اعتراف به، ليس من باب تأكيد عدم وجود دم نقي، وإنما في باب عدم دم كردي، كما يظهر إلا وفيه نسبة من الدم العربي، تعزيزاً لمقولة لا أظنها هذه المرة أيضاً لصالح من يمضي في هذا المنحى، وهي أن التشبث بها طمأنة للروح القلقة، كأن القائل بها لا راحة له بدونها، كما في اعتبار عشائر ابراهيم باشا، وهي من كبرى العشائر الكردية (وبالأحرى الكردية- العربية، وإحكام الطوق على خناق مدمر لا فكاك منهم على طريقة العرب، كما يظهر، بين كرد وكرد دون رجعة أو تراجع، كما في حال (الدياربكرليين «المدنيين»، بقيادة آل جميل باشا أنفسهم، و«الهويركيين: الهفيريكيين» «القبليين» بقيادة حاجو آغا. ص 99)، وهو تقسيم مصطنع، إذ لطالما تعاونوا وتحالفوا، وكان اختلافهم على غير ما أشير إليه، كما سنرى ذلك، عدا عن أن الهفيريكيين ليسوا بالصورة القبلية المنادی بها، أكثر من فكرة القبلية التي تتلبس واعية الباحث، لاعتبار ما يقوم به واقعة تاريخية.

ربما أمكن المضي قدماً على هذا النسق التوليفي بين تحالفات العشائر المختلفة، ومدى تأثيرها في نظرتها إلى بعضها بعضاً، وإن تعزيز أي علاقة إلى مستوى نسب ما، إنما هو استهواء بالفكرة التليدة، لطبي الجغرافيا والتاريخ سلباً. هكذا يصبح الاستخفاف بالتاريخ والجغرافيا استخفافاً بذات الكاتب قيمياً في استلاق العلمي الموجّه، طالما أن خطأ في أي منهما يعدي الآخر، كما في تكراره لخطأ التسمية، ولا بد أن ثمة عدوى نسبية في ذلك، بالنسبة إلى «سعيد

النورسي» والمقصود به تاريخياً «سعيد بيران» وثورته، بينما النورسي الذي يتكرر فهو الممتنع عن المشاركة في قتال الأتراك، خصوصاً، وأنه «يعثمته»، وهذا تأكيد آخر على استهتاره بالمعلومة الجغرافية والتاريخية ثانية، وكونه يذكر التاريخ: 1925 «ص 210-212-214-245-246-250»، وليستمر على نهج «النسب-العصبية»، وهو يقحم المزيد من الكرد في خانة النسب العربي، كاليزيديين والبابانيين «ص 236»، وعبر الاعتماد على من يبحث عن ذلك، على طريقة «شاهد شاهد من أهله...».

بالطريقة هذه يجري ضبط الجغرافيا، إلى جانب ترسيم التاريخ على هوى النسب، بين أن يكونا عربيين مذ وجدت الخليفة، وأن يكونا مجتاحين من قبل الأقوام أو الجماعات الأخرى، والاستيطان في الرقعة الجغرافية المطوّبة: عربية سورية، وليس لأن الجغرافيا تلك لا تمتلك شاهد عيان تاريخياً ملموساً، إلا ما جرى على هوى وضّاعي أنساب العرب.

قد لا يكون في مستطاعنا تتبع كل جملة أو عبارة أو صفحة من كتاب باروت والتدقيق في كل ذلك، لأن العملية سوف تكون مرهقة أولاً، وبمقدار ما ستكون مضیعة للوقت من خلال ما تبينّت البدايات الأولى متداعية بمنطقها التاريخي، حيث الارتكاز إلى من لا يرغب في سماع سوى لغته، والجغرافيا وقد تمت حيازتها عربياً .. (1).

أترانا ابتعدنا عن موضوعنا الفرعي هذا؟ من وجهة نظري، يبدو المثار مفيداً في لفت الأنظار إلى ما كان يجري في إطار المسمى بالأنساق الاجتماعية، ونوعية القيم التي كانت تتخللها أو «تتبلها»، لجعلها مرغوبة ومحبوبة ومطلوبة تالياً، وأن في

(1) كما هو مشار إليه، فإن أرقام صفحات كتاب الباحث محمد جمال باروت: التكون التاريخي الحديث للجزيرة السورية، المصدر المذكور، قد وردت في المتن للإيجاز .
وأنوّه هنا إلى الأهمية الكبرى للحلقات النقدية التي يكتبها الباحث الكردي والأكاديمي محمود عباس، حول كتاب باروت السالف الذكر، تحت عنوان: مصداقية الباحث العربي.. محمد جمال باروت مثلاً، ومن زوايا مختلفة، حيث نشر حوله حتى الآن «30» حلقة «مبيناً التهاافت التاريخي والتزييف الجغرافي في كتاب باروت ذاك عن «الجزيرة السورية» والتلاعب بالمصادر والمعلومات، والطابع الأمني لكتابه «أي باروت»، حيث تنشر هذه الحلقات في كل من موقع «الحوار المتمدن» الإلكتروني، و«ولاتي مه» الإلكتروني كذلك .

وسع الباحث في التاريخ وداخله مؤرخ متتور، أن يعثر على بغيته، كواقعة تأريخية، كلقية تاريخ مهمة، كأثر تأريخي ينتظر التسمية، كفكرة تأريخية تتطلب إضاءة من الداخل، وهي في وضعية تحولات تصل الأمس باليوم .

وبين الحديث المتشعب نسبياً، وما سيؤول إليه أمر هذا الإجراء، عن هفيركان: الاتحاد القبلي، وهو أشبه ما يكون بكونفدرالية تحتفظ بأهميتها الاجتماعية والسياسية، وحاجو آغا، ومدى الترابط بينهما، أي ما تكونه هفيركان على الأرض، وما سيعرف عنها لاحقاً أكثر، وهي في تركيبها الاجتماعية والديموغرافية، وما يكونه حاجو آغا المنتمي إلى هذا الاتحاد والذي يعرف به، والمنفصل عنه، كشخصية استقطابية، استطاعت أن تبني نفسها، وأن تطورها، استناداً إلى جملة من المقومات الذاتية الدفع «إن جاز التعبير»، وهي بطابعها المغامراتي، كما لو أنه هو الكيان المستقل بنفسه، حيث الحديث يتركز عليه، ومن خلال «آل حاجو آغا»، ذلك يعطي البحث مدداً بحثياً، وقدرة قاعية لتبين العوامل التي جعلت من هذا الاسم أكثر مما هو شخصي فيه، أي ما يبقى أي ركيعة خارجية تعتبر الحامل الرئيس لها مستبعدة، كما نجد ذلك في حال التطرق إلى أسماء كثيرة، في إطار العلاقة بين الأبوة والبنوة، أو ما يكونه المعطى الوراثي إجمالاً.

هفيركان: الجغرافيا والتاريخ

«يبدو التباين الموجود بين الشاهد» عن حياته الخاصة «والمؤرخ» لأحداث العالم» مكتملاً، فالأول تحركه مصلحته الشخصية، أما الآخر فيدفعه حرصه لبلوغ الحقيقة..
تزفيتان تودوروف: الأمل والذاكرة «خلاصة القرن العشرين»، ص 178 .

طريقة أولى :

ها أنتم ترون، كما يحلو لي التكلم بهذه الطريقة، كيف أمهد لهذا الموضوع الفرعي الآخر، في إطار تعقب خيوط دولة حاجو آغا الكردية، من خلال مشاهد جغرافية، ووقائع تاريخية داخلها، وكيف أن الذي يرتقي إلى مستوى السارد متحدثاً عما كان، بوصفه شاهداً، يعنيه أمره، وهو في موقع المرئي والمسموع، ودور العامل الذاتي في هذا الوضع، بالنسبة لهفيركان كتموضع، ومن يمثلها الاتحاد الرحب المدى، متعدد الأطياف، يؤسس لكتابة مشروعة وما يتحمس له المنشغل بهذا الموضوع، وكيف يضيف عليه طابعاً تاريخياً، بوصفه أكثر من شاهد، إنما مؤرخ، كي يتمكن من الإحاطة بكلية الموضوع المترامي الأطراف في الجغرافيا والتاريخ الساخنين معاً ، سخونة تبقى الذاكرة وإرادة الكتابة نشطتين !

وأعترف هنا، وأنا إزاء مباشرة الكتابة في نقطة مفصلية أخرى، أنني في وضع غير محسود عليه، ليس استسهالاً من شأن الكتابة في الموضوع، وإنما لأن هناك تهيئاً أو خشية من الموضوع الذي ربما يُرى من وجهه، ويُخفى في أكثر من وجهه، خصوصاً وأنه مشار إليه في نطاق دولة وأكثر في تشعب ذبوله، كما لو أنني محاط بحدود سياسية وهي غير موجودة، وحولي تنتشر أسماء مؤسسات، ومعنيين بها، وليس لذلك من حضور مباشر، أو وجود فعلي لها، ووسط أجهزة تخص هذه الدولة، وهي غير موجودة على الإطلاق، وأمامي صورة لمن عنونت الكتاب باسمه، وهو في حقيقته غير موجود بالطريقة التي تصورته، وهذا يلزمني بالمزيد من الحذر فيما أقدم عليه من نسج خيوط كتابة، أو عَنَوْنَة أفكار، أو إيراد اقتباسات، ومدى دقة العلاقة بين الواحد والآخر، وبين يدي طائفة من الأقوال أو الأسماء وهي ليست منسجمة مع بعضها بعضاً، حال المعتبر: التاريخ الكردي الذي لمّا يزل

في أمس الحاجة إلى المزيد ليكون في مقام هذا الاسم: تاريخ راشد نوعاً ما، وهو يغطي مجالات حياتية كردية مختلفة، بأساليب ومن ثم من زوايا مختلفة أيضاً، تسهم في منح التاريخ أهلية حضور، وهو يُرى من جوانب شتى، أي ما يتعلق بأوجه النقص، واختلال العلاقات القائمة بين وجوه التاريخ استناداً إلى الذخيرة الحية، إن جاز التوصيف، من العداوات المتبادلة بين الأسر الكردية، أو القبائل الكردية، ويتأجل أي مشروع كردي بمفهومه القومي لبناء كيان سياسي معرّف بحدوده.

أجدني بداية آخذاً برواية بروينسن المنوّه إليها، لأنه يقدم معلومات لها غوايتها من حيث النوعية والمساحة الجغرافية التي تخص هفيركان، وما يترافق جغرافياً من الجهة التاريخية، وما يمكن أن يتشكل نفسياً لحظة الربطة بينهما، ومن خلال المؤلف المشار إليه سالفاً .

حين يقول بروينسن (في العام 1926، قدمت شخصية قوية من تركيا إلى سوريا، أفلح هذا في تركيز قوة كبيرة في يديه من خلال خليط من الطرق التقليدية والحديثة. وكان هذا هو حاجو، آخر زعيم قبلي عظيم للهفركانيين. إن التاريخ الحديث لهذه القبيلة، وعلى الأخص سيرة حاجو، هي الحالة الأخيرة التي سيجري وصفها هنا. ص 230)، فلا بد أن معلومة كهذه تثير متخيلاً ثقافياً ونفسياً لدي، لحظة تمهيد الطريق لشخصية استثنائية هي صنيدة ظروفها وأهلها، والتحديات الجانبية، ولكنها صنيدة ذاتها، وصانعة تاريخ يمتد إلى الأمام، إلى اللحظة هذه باسم حاجو، وإلا لما هناك تقديم وتأخير بالنسبة لكل من الاسم الشخصي فالقبلي. لا بد أن بروينسن، وهو في معرض سرد معلومات عن هذه الشخصية، كان لديه حصيلة منها، حفزته لأن يستهل الحديث عن هفيركان بهذا الشكل، شعوراً منه بأهمية الشخصية من جهة، وإدراكاً منه بمدى حضور الجانب الكاريزمي، بصورة ما، لما هو شخصي في المنطقة، حيث إن الأمم والشعوب أو الجماعات، في مراحل تاريخية مختلفة، تعرّف بقادتها أو زعماء معينين لها، وهذا يخص شخصية الدولة الاعتبارية أو المقدرة أيضاً، إذ لا وجود لدولة هيكلية، مجوفة، إنما تكون حية، جسدية، وأن الذي يتقدمها قوة وضعفاً يتراءى في مقام شخصية معينة، وفي مجتمعاتنا بالذات، ولهذا كان مسلك الهولندي⁽¹⁾.

(1) ذلك ما نتلمسه فيما يقوله الباحث الكردي عثمان علي والمتأثر بوديع جويده، ومن بعده بروينسن، وهو ما يذكرنا بكلام الأخير (وبرز حاجو بيك زعيم عشيرة هافرني قائد

ولا بد أن الدخول في متن التاريخ المنتظر، وسيرية أعلامه، يشكل الخطوة التوضيحية لما تقدم، حيث يفتح ملف هذا الاتحاد القبلي (إن الهفركان اتحاد قبائلي كبير يتكون «حسب ما يشاع» من أربع وعشرين قبيلة، بعضها مسلم، وبعضها يزيدي، وكان هناك أيضاً عدد من المسيحيين المرتبطين بالقبيلة ارتباطاً دائماً. وكانت الهفركان تنتمي إلى إمارة بوتان. وحينما كانت هذه لا تزال قائمة كان النظام سائداً، حسب ما يقال. فلم تكن هناك نزاعات ضمن القبيلة الواحدة، ولا بين القبائل على وجه مؤكد. وكان للهفركان زعيم عام تابع لأمير بوتان. وحين هُزم هذا الأخير على يد العثمانيين ونفي «1847» تفككت الإمارة، كما تفكك العديد من القبائل بعد أن فرقتها الصراعات على الزعامة. ص 230).

تلك هي تأشيرة للتوقف، ومكاشفة الوارد في بنية العبارة، أي الحديث عن سلطة قوية وتفككها، وتداعياتها لاحقاً :

لا شك أن المكونات التي شكّلت هفيران تعنيها قوة حضور، وفي الوقت نفسه خطورة استجابة للعوامل الخارجية والتي تتمثل في محاولة إحداث شرخ من قبل الراغبين في خرق هذا «الحلف» السياسي، أو هذا الائتلاف، من خلال وجود عناصر مهيئة لتمرير مؤثرات فاعلة سلباً في الجسم الاجتماعي وهو في لحمة سياسية بوضوح، وهذا يشدد على مرونة العلاقات القائمة بين مجموع المكونات، والدور الرئيس للزعيم الكلي، وقدرته على خلق تناغمات بين أفراد الاتحاد.

ولعل البناء القاعدي لهفيران كان يوضّح الحاجة إلى تكوينه من خلال ضغوطات معينة، دفعت بالذين يتوزعون في خارطة السياسية للاتحاد لأن ينسجموا مع بعضهم بعضاً حرصاً على مصلحة الجميع، وتقوية لها .

ولا بد أن انهيار الإمارة البدرخانية كان يرتبط بحالات نخر، أو شروخ مهددة للكيان السياسي: حيث الأسباب الداخلية، أو ضغوط من الخارج، وما يستجيب لها في الداخل، وليس لأن الخارجي هو الأساس حصراً، حتى نكون أقدر على رؤية

للمجاهدين العاملين في منطقة الحدود التركية السورية). ، كما ورد في كتابه: الحركة الكردية المعاصرة «دراسة تاريخية وثائقية 1833-1946»، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرنند- فرجينيا، الولايات المتحدة الأميركية، ط2، 2008، ص 523. ولا يحتاج القول هذا إلى تعليق في محتواه.

العوامل التي تسهم في إعلاء صرح اجتماعي وسياسي من جهة، ولئلا نعطي قيمة موجهة للخارجي بزعم تحيئه الفرص للنيل من الداخلي، أي ما يخص المؤامرة، أو ما يرادفها، وما في هذا التشديد الاعتباري من تحويل أنظار الداخل إلى الخارج، والحيلولة دون حساب الداخل وتصدعاته من جهة أخرى .

ولا بد أن تفكك الإمارة وهي واسعة النفوذ ونظيرة المظلة السياسية، بالنسبة للجهات التابعة لها، كان فاعلاً في إحداث عملية الجذر، أو الانكماش، أي إن فعل انهيار الإمارة أو السلطة القائمة، وهي بمفهومها الهرمي، ما إن تتعرض السلطة هذه للضغوط حتى تسحب قواتها إلى الداخل، إلى درجة أنها تضيق الخناق على نفسها بزعم الدفاع عن الدولة، وهي في كل مرة تظهر التلاشي المستمر لقوتها، مما يزيد في الحصار عليها، وفي الطرف المقابل، تتحرك الأطراف وكانت تابعة إلى الملمة شتاتها، إلى تكوين صيغة دولية ولو مصغرة لها، وقد استغلت هذا الضعف الموجود، وفي ظل انشغال الجهة المشددة على السلطة تلك، ومن خلال قوى ذاتية بداية، وربما عبر تحالفات تسمح لها بالظهور ضمن كيان سياسي ما .

نتحدث هنا عن عامل اجتماعي سياسي أساساً يكون فاعلاً في هذا الإجراء، وهو متعدد الاتجاهات، ويمتلك قدرات بنيوية عندما يُحسن استخدامها واقعاً (فالعامل الاجتماعي يأخذ بعين الاعتبار قوة الاستراتيجيات الطوائفية: إن الفاعلين الاجتماعيين كانوا ينزعون ، كلما أصاب الانهيار الامبراطورية، أو كلما ضعف النظام العسكرية القديم، إلى تعميق سلوك التماهي مع الجماعة، أو القبيلة، أو مع القرية، بشكل عام، عاملين هكذا على تسهيل سلطة الوجيه الذي يسيطر⁽¹⁾).

اقتصاد الأرض :

ذلك يعني أن العامل الخارجي يشير إلى القوة المسيطرة على الأرض ومن وما عليها، أي ما يلحق الاقتصاد، ومن يعمل فيه للحاكم الأعلى، إنما بالمقابل، وأي خلخلة في العلاقة، تؤدي إلى توتر وربما مجابهة مباشرة بين الحاكم الأعلى ومن يبدأ بالتمرد عليه، كما لو أنه يمارس إعاقة لسلطته وتوتيرها لها على وجه العموم، ومن خلال الأرض، إن أحد الباحثين الأتراك في هذا المجال، بصدد التركيز على

(1) بادي، برتران: الدولتان» الدولة والمجتمع في الغرب وفي دار الإسلام، ترجمة: نخلة فريفر، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1996 ، ص 165 .

الضرائب والرعايا حين يقول (في ظل النظام العثماني كان الشعب يتكوّن من مجموعتين أساسيتين: العسكري، وهي الطبقة الإدارية أو العسكرية، التي كان أفرادها يقومون بوظائف عامة كممثلين للسلطان وكانت لذلك معفاة رسمياً من كل الضرائب. والمجموعة الثانية، الرعايا، أي التجار، والعمال، والفلاحون، وهي عملياً مجموعة من الناس التي تقوم بأعمال منتجة وتدفع لذلك الضرائب)⁽¹⁾، فهو يسمّى، وكما هو مقدّر، تلك القوة التي تُعَلّي من مكانة السلطان/ذلك الحاكم، وتزيد في أتباعه بوجود المزيد من احتلالات الأرض، ويعني ذلك أن الأرض هي المحك، وأن أي تناول لمفهوم «سياسة الأرض» فهو يشمل كيفية إدارتها من جهة استثمارها مالياً للحصول على المزيد من المكاسب دعماً لخزينة الدولة، وتعزيزاً لثروة السلطان وهي دالة على مدى نفوذه بالمقابل، وعلينا أن نتخيل نوعية السياسة التي كان السلطان يتبعها مع أتباعه من عسكريين وإداريين وحتى أمراء محليين، ضمن هذه الفسحة الامبراطورية، والتي كان التقليد في المجمل هو المدخل الرئيس لفهم طبيعة العلاقات السارية المفعول فيها، ولم يخطئ الباحث المأتي على ذكره حين نوّه تالياً إلى نقطة محورية كهذه وهي (بقيت الامبراطورية العثمانية، حتى سقوطها بعد الحرب العالمية الأولى، امبراطورية زراعية، كما كانت على الدوام)⁽²⁾، وهو يضع نصب عينيه هذا المشهد الأرضي، وما يمكن أن يُسمّى فيه دينياً، حيث يكون السلطان ظل الله على الأرض، وهذه تكون محكومة به بسلطات تراتبية وبقوة.

وضمن/ داخل هذا الفضاء الامبراطوري علينا ألا نتجاهل، ولو للحظة واحدة، ما يمكن أن يحصل من خلل في وظيفة سلطانية معينة بالقرب من بابه العالي أو بعيداً عنه، حيث إن وساعة المكان والتنوع الكبير في أسنة يسمح بمثل هذه الخروقات، أو التحديات، وما يتخللها من أعمال شقاوة وعنف، ومن ثم اختلاس وفساد وخيانة للسلطان، وبصورة خاصة لحظة الشعور بالمتعة المرافقة لحياة البذخ أو الترف، وقائمة الشعارات التي تتداخل معها وهي تخفي حقيقة الأساليب

(1) إينالجك، خليل: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، تحرير: خليل إينالجك بالتعاون مع دونالد كواترت، ترجمة: د. عبداللطيف الحارس، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2007، م1، ص 61.

(2) المصدر نفسه، م2، ص 605.

المتبعة في استغلال الفلاحين أو الأقل شأنًا تحت سقف الدولة، وبروز دور الأهواء النفسية وعامل الغلبة في ذلك، وتحديدًا بعد شهدت الامبراطورية العثمانية مدى بعيداً لنفوذها داخل قارات ثلاث، في القرن الثامن عشر، وما كان يؤدّيهِ كل ذلك إلى ظهور تعارضات على السطح (وتجدر الإشارة إلى أن كبار الوزراء والباشوات كانوا قد اكتشفوا مصادر جديدة لتنمية ثرواتهم، ومن جملة هذه المصادر «بعد سنة 1695م» حث استثمار الأراضي مدى الحياة بعد أن كان هذا الحق «التزام» يسري لمدة محدودة، ناهيك عن أراضي «الدولة الأميرية» التي استولى عليها بطرق غير مشروعة)⁽¹⁾.

يندرج في هذه اللعبة على الأرض أولئك الذين يؤدون مهام بالوكالة في الولايات والأقاليم، ويتميزون بنوع من الاستقلالية في إدارة المقاطعات أو الجهات التي يحكمونها، ولا بد أن الكرد مشمولون بذلك كأمرأ ومأمورين في آن .

ولا شك أن أحدهم وهو في موقعه كأمير أو متنفذ، ما كان يتصرف في اتجاه واحد، حيث المتغيرات قائمة، إنما يتأثر بها، وعلى قدر إرادة التنبه إلى التوازنات وطبيعتها كان يوجه بوصلة السياسة وبنية الحكم في سفينة سلطته، بحيث إنه في نشوة هذا الاندفاع أو الشعور بعظمة غير مؤقتة، قد يزيد من سرعته في التشبه بالسلطان بالذات.

ولأننا بصدد علاقة السلطة بالمكان، أو بالعكس، ومن ثم طبيعة المكان والحدود السياسية التي تسمّيه، يمكن أن نشير إلى بدرخان بك مجدداً، وكان أمثلة حية ومبعث إغواء للذين دانوا لسلطته بالقوة والإكراه، أو تقديراً ضمنياً بأنه أهل للسلطة السلطانية المصغرة وكونهم في الوقت نفسه يشعرون بسلطة داخل سلطة حيث يقيمون ويكونون أصحاب نفوذ، يمكن لنا أن نستشهد بما قاله جويده عن بدرخان هذا في عظمتة ونقطة ضعفه (ما من شك أن بدرخان واحد من أعظم الزعماء الكرد الذين عرفهم التاريخ. فالطريق التي تمكن خلالها من انتشار نفسه من الحضيض والوصول إلى قمة النفوذ والثروة كافية للاقتناع أنه يمتلك صفات جد مميزة. بالنسبة إلى الكرد، كان الزعيم المثالي الذكي، له

(1) كواترت، دونالد: الدولة العثمانية: 1700-1922م، تعريب: أيمن أرمنازي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 2004، ص 83.

حضوره ويتمتع بإطلالة خاصة تجعل الآخرين يهابونه ويحترمونه في آن. كان إنساناً شجاعاً حازماً في اتخاذ قراراته طموحاً، تقياً، وورعاً. ولا شك أن اجتماع كل هذه الصفات برجل واحد ستجعل منه عظيماً ولكن في الوقت نفسه قد يتحول هذا الشخص إلى نقيضه، إذ تتحول الشجاعة إلى تهور والعزم إلى عناد والتقى إلى تعصب أعمى.⁽¹⁾

ذلك عائد إلى جانب الخيلاء جرّاء المزيد من السيطرة، ولغلبة عامل الغواية الذاتية، ومن ثم العصبية في محيطها الذي يُسميه جغرافياً، حيث يتم جرّاء هذا التلذذ بمأثرة السلطة وكثرة الأتباع، نسيان مخاطر الخارج وعنفه المباغت.

هذا يشجعنا على تصور جغرافيا مرسومة ومحكومة بالإغلاق من الخارج من خلال نقاط مراقبة، أي باعتبارها جغرافيا محتواة داخل أخرى، وأنها قد أوتيت قوة انفجارية وتحدياً يتهدد الأكبر منها، لتبقى في عزلة عن الخارج البعيد، والذي هو نفسه لا ينظر إليه مجرداً من المراهنات السياسية، أو لعبة المصالح بالذات، ولا بد أن أي تحدٍ للسلطان في الحالة هذه، يرتبط بعامل الظرف أو الوقت، ويكون خارجياً، مثلما أن هذا العامل كان وراء تسمية هذه الإمارة باسمها، ونسيان أو تناسي ما يمكن أن تشكله الجهات الأخرى من أخطار، أو من تحديات، وليس تحدياً واحداً بالمقابل لحركة الإمارة.

مجهول القوى :

ضمن أو عبر هذا التصور يمكن النظر إلى القائمة الطويلة من القوى الكردية التي عرفها التاريخ، حتى على مستوى الممالك وتحالفاتها، والاستهانة بقوة غير مقدرة كما يجب في جهة معينة لها صلة بالداخل، ليكون وزن هذا التحدي أكبر بكثير في العصور الحديثة، وفي القرن التاسع عشر الذي يمكن اعتباره قرن القوة الكردية ضمن إمارات مستقلة، إنما بدت وكأنها جزر عائمة على سطح التاريخ، فلا هي استفادة من عبر التاريخ، ولا هي مارست قراءة في تجارب بعضها بعضاً لمعرفة الغث من السمين،

(1) جويده، وديع: المصدر المذكور، ص 172.

ينظر أيضاً، في كتاب الدكتور عبدالله العلياوي: كردستان في عهد الدولة العثمانية من سنة 1851 - 1914 «دراسة في التاريخ السياسي»، السليمانية، 2005، إمارة بوتان ، صص 41-48، و صص 77-86، و صص 103-109... الخ.

أو الخبيث من الطيب في بنيتها: قياماً وحطاماً، كما يقال، وتلك حصيلة تجربة مباشرة من بروينسن حين يميّط اللثام عن المكون المفصلي لها (وعليه، فإن القبائل الكردية لا توجد في فراغ من شأنه أن يسمح لها بالنشوء نشوءاً مستقلاً، فأدائها الوظيفي وتنظيمها الداخلي...متأثران جداً بالعوامل الخارجية. ص 283).

وهذا يمضي بنا إلى ما يعيننا أكثر في التعريف بالقابلة التاريخية التي أسهمت في ولادة قوة كردية قبلية، ضمن مقاطعة، أو إمارة معينة، وهو التعريف الذي يحتفظ بحيويته وصلاحيته طرحه على مستوى التعامل مع القوى الكردية على الأرض وكل ما يتعلق بالدعوة إلى كيان سياسي معين، وضمن إطار دول غربية عنها في لسانها وتوجهاتها السياسية (إن النظر إلى القبيلة بصفاتها كياناً من خلق الدولة، أكثر من كونها تشكيلاً اجتماعياً وسياسياً سابقاً لذلك، فرض نفسه تدريجياً علي في مجري عملي الميداني، وبقوة أشد خلال قراءاتي اللاحقة في المصادر التاريخية. ص 283).

أليس هذا ما نراه بالعين المجردة في كل الجهات الداخلة في نطاق الجغرافيا الكردستانية؟ أليس كل مسعى إلى بناء كيان كردي أو ما يرادفه يصطدم بأكثر من حائط سياسي، سلطوي محلي، إقليمي ودولي في الوقت نفسه؟ أليس ما جرى إبان استفتاء إقليم كردستان العراق في «25-9/2017»، والدعوة إلى الاستقلال، ترجمة حية من هذا النوع؟ حيث إن ردود الأفعال المقابلة بدءاً من الدول الضامة له: العراق وحكومتها في بغداد، ومن ثم الدول المجاورة له، وبقية الدول الأخرى في المنطقة الشرق أوسطية فالعالمية، كانت تعزّز هذه الخاصية، جهة استحالة فك الارتباط بالمفهوم السياسي.

علينا أن نعاين بنية ردود الأفعال استناداً إلى المطلب السياسي أو نوعية المحاولة في الاستقلالية وحدودها. في حال الإمارة البوتانية ومأساة انهيارها لأكثر من مرة، على خلفية من العنف السلطاني الذي وجّه إليها مضاعفاً، كما لو أن هذا العنف شكّل رسالة تهديد للمحاولات الأخرى من جهة، وضربات استباقية ومؤلة لمن خوّلت له نفسه بفعل النظر من جهة أخرى. بالعكس من ذلك، إن عامل اللحمة الذي يكون فاعلاً في التوحيد بين المشترك القبائلي لغايات مشتركة، حين يصاب بالزلزلة، يتفتت، إنما في الآن عينه، يظهر الداخلون شركاء في أصل اللحمة وهم متنافرون، كما لو أن كلاً منهم يتبرأ كما يتطير مما حصل، وهو يحمل سواء مرارة

الهزيمة أو الانكسار، عندما نعود إلى بوتان وختامها الفجيعة (بعد ذلك مباشر تقريباً، تمزقت الإمارة إلى خليط من القبائل المتناحرة، فبدون المير لم يكن بالإمكان منع التنافسات . ص 393) .

يغدو الأمير في لحظة محسوبة من الزمن عامل ضبط للنفوس وبينها نزاعات وحتى أحقاد مضمرة، مثلما أنه يصبح حافظاً على تطهير تلك النفوس في مناخ من انتصار المير وإمارته من كل نفور جانبي، لأن ثمة البديل المفيد، لكن قانون البناء القبائلي، وانطلاقاً من الأرضية التي تتحرك عليها سلطة الباب العالي، وهي في وضع نقاط استناد محدد، ومرئية بين أهل النفوذ المجازين من قبلها، يحمل بصمتها، وهي بصمة لا تعني البتة منح صلاحية التصرف بالسلطة بإطلاق، حيث إن مفهوم الإمارة بالذات، وضمن محمية سلطانية، يعرف بمحتواه، أي أنها تابعة كغيرها لإرادة السلطان.

في العودة إلى الرجل الهفيري محط الاهتمام، يمكن تسجيل أكثر من نقطة علام تعنيه في مبادرته لأن يكرر في مسعاه لأن يكون زعيماً بدرخانياً، حيث كان السلف الصالح في أمس بالنسبة إليه، إنما يكون هفيرياً، ومن صلبها، ليصبح أكثر مقدرة في التحرك وإيحاء إلى أنه لا يعيد ما قام به ذلك السلف والذي شكّل هدفاً لأوجه عنف السلطان بأكثر من معنى، ومن ثم لیتاح له التحرك في مسار مغاير إعلاماً لبني جلدته في الاتحاد القبائلي عن أنه صاحب مبادرة ذاتية، وما تحتاجه عملية من هذا القبيل إلى المزيد من عامل اليقظة، وأخذ المحمية السلطانية قبل كل شيء بعين الاعتبار، وإن كان حافظ التمرّد أو العصيان على إرادة السلطان يتقدم على ما عداه، وهو يتحين الفرصة المناسبة، كما كان سلفه، إبان هزيمة الباب العالي أمام إبراهيم باشا سنة 1838، واعتبار ذلك فرصته الذهبية في دعم قوته وتثبيتها بمزيد من التوسعات، ولا بد أن محاولات الهفيري في إبراز قوته كانت تتم على خلفية من هذا التصرف، حيث السلطان يتداعى قوة في أكثر من جهة، في الصراع الأبدي بين القوة النافذة والقوة المتداعية.

لهذا نجد أنه في إثر عملية التداعي، أي جرّاء الحطام، يحصل فراغ في القوة التي وجدت سابقاً، وتم محوها، أو القضاء عليها بحيث لا يعود في مقدورها التصدي للقوة المركزية، الأمر الذي يولّد قوى كامنة، لا تتفصل عن الرئيسة، أو

تكون في الجوار، ومن خلال علاقة معينة مع المركز، وما في ذلك من تناقضات وأشكال ولواء الطاعة، أو اقتناص الفرص التي ينتهزها أو يستغلها من يستشعرون إرادة مواجهة بين جنبيهم أو قوة تميزهم عن سواهم، وربما لهذا نجد له صدى لدى هفيركان (وكانت العائلة الحاكمة الأولى التي حكمت اتحاد هفيركان القبائلي هي عائلة الملا شيخا، التي لا يجري تذكر الشيء الكثير عنها بالإضافة إلى اسمها، التي لا يجري تذكر الشيء الكثير عنها بالإضافة إلى اسمها. وسرعان ما استبدلت بعائلة الملا علي رمو. وكان علي رمو رأس فخذ الأربيان الذي استطاع بما كان يمتلكه من «ميراني»: الرجولة، البأس، قد أخضع الأفخاذ الأخرى، تلو الآخر، لسيطرته. وبالتالي فقد سللته سلطتها لصالح عائلة أخرى هي عائلة عثمان، وهي من فخذ الأليكان، ولم يمض على وفاة عثمان نفسه بعض الوقت حتى شرعت العائلة بلعب دور يتجاوز الفخذ الذي كانت تنتمي إليه، فكان حسن أول من مدَّ سيطرته لتشمل بعضاً من الفروع المجاورة. ص 231) .

أي حين نجد حضوراً لأكثر من أب عائلي يفرض سلطته الذاتية في المكان وعليه، وفي عثمان البداية، ولا بد أن حسن التالي عليه هو أن برز بقوى ذاتية عززت من رصيد قوى الأول.

ونلاحظ هنا عدة عائلات تم تداول السلطة القبلية فيما بينها، دون أن نعلم بالمدة الزمنية الفاصلة بين عائلة وأخرى، سوى أن الممكن توقعه، هو وجود وفرة في الصراعات والتحلفات الجانبية، إلى جانب المكر والدهاء، وهو دافع مركّب ومتجذر في البنية العصبية لأفراد القبيلة الواحدة، وفيما بين أولي أمرها، أو على مستوى الزعامات المتجاورة، وهي التي ترتبط بزعامة أكبر أو أكثر، ولكل منها مسلك معين في التصرف والتجاوب واحتواء القوة وتصريفها.

إنما قبل التعرض أكثر لهذا التسلسل الزمني غير المتساوي للزعامات، يجدر التنويه مجدداً إلى «هوية» الاتحاد» وليس القبيلة مباشرة، أي مفهوم «الحمولة» ونحن نتخيل جماعات مختلفة من ذوي الأديان والطوائف، وهي تتطلق بملء حريتها، وتبعاً لوضعية تاريخية: سياسية معينة، إلى الدخول في دائرة هذا التحالف، وهو انتماء يستحق مكاشفة اجتماعية وثقافية ونفسية، لحظة السؤال عن طبيعة العلاقات القائمة بين أفرادها في مناسبات مختلفة: الديانة منها

خصوصاً، وذلك من خلال قوة تتحدى هؤلاء جميعاً، أو يجد هؤلاء المنتمين أنفسهم مضطرين إلى تشكيل تحالف من هذا النوع، أو حين تشد نواة قبيلة أو عشيرة معينة، وهي في موقع القوة، على الأرض، ولها سطوة في الجوار، جماعات أخرى من الخارج، أو تفتقر إلى القوة الكافية للدفاع عن نفسها، حيث تتلمس في فعل الانتماء تجاوباً مع رغبات وحاجات ضرورية لحياتها.

مؤثرات القوة :

نتحدث هنا عن القوة وهي ليست طبيعية فحسب، وإنما تتداخل كما تتفاعل مع مؤثرات الوسط والمستجدات، وما في ذلك من استعدادات نفسية خاصة، وهي تتشكل من خلال تصورات، أو في ضوء تحديات وعلاقات معينة فاعلة فيها طبعاً، وبناء عليه، لا يمكن أن ينظر إلى القوة، إلا في ضوء مجموعة عوامل ذاتية وموضوعية، وحيث يكون للسياسة ونوعيتها بالمفهوم الأخلاقي دورها المعتبر، رغم أن هذا المفهوم لا ينفصل عن متغيرات الأحوال، أي حين تصبح الأخلاق ذاتها في وضعية المختلف عليه، وإلا لما كان هذا التنازع، لا بل والتقاتل كذلك، وسعي كل طرف إلى تأكيد وجوده على حساب الآخر.

هذه النقلات التاريخية تتطلب أكثر من عملية كشف لبنية كل منها، لمعرفة الكامن وراء ظهورها ومن ثم اختفائها، وبلغة السياسة: القيام والحطام، أو الانتصار والانكسار، بغية الاستفادة من العامل المفصلي في كل حالة وأخرى.

لكن ذلك غير موجود، سوى ما هو متداول في أدوار التاريخ المختلفة، أو منعطفاتها، في مجتمع ذي طابع تقليدي، ومدى تداخل التقليدي: المحاكاتي بشكل مكثف مع ما هو زراعي، وعلينا التذكير عند هذه النقطة بما هو إقطاعي من النمط الشرقي، والذي يعزز لوجوده بغطاء ديني، ضمن إقطاعية تعنيه، والسعي إلى التوسع، إنما في عبادة الحاكم الأول.

يتخذ الصراع الأسري، أو الجانبي: الحدودي المصطنع طبيعة انقلابية أو تأمرية أو انشقاقية غالباً، جهة النظر في موقع المتنفس أو المعتبر أميراً أو آغا تالياً، حيث حضور القوة وغيابها يخضعان لآلية المجابهة والغلبة أو الانحسار والضعف. بالطريقة هذه يمكن النظر في المتحولات، وحتى في أمور الدولة، ولو بصورة موسعة.

ينبّه أحد الباحثين المخضرمين في التاريخ العثماني والشامي إلى نقطة مهمة تضيء ما توقفنا عنده، وهي المتعلقة بدور البيوتات أو الأسر في تلوين التاريخ، أو حتى بناء الدول، وهو دور يكاد يكون فاعلاً بأكثر من معنى، وعبر مفهوم زعاماتي (إن تاريخ السلطات المحلية في بلاد الشام في العهد العثماني، هو تاريخ عدد من الأسر القوية التي برزت في العديد من المناطق، على قاعدة قدرتها على القيام بهذا الدور الوسيط بين «الهيئة الحاكمة» من جهة، والرعايا، من جهة ثانية).⁽¹⁾

ذلك يشكّل قاسماً مشتركاً أكبر بالنسبة للأسر التي عرفت في التاريخ العثماني الطويل، وفي الجهات الأربع من المنطقة، أولاً فيما بين الأسر الداخلة في نطاق العشيرة/القبيلة الواحدة، أو خارج نطاق/سياجها، أو على مستوى عام، وليس بجديد إن أشرنا إلى الذين حكموا كما يحكمون دولاً حتى الآن، وفي المنطقة، أسر وامتداد لأسر أخرى، أصبحت في ذمة التاريخ أو طواها النسيان مقارنة بسواها «آل سعود، الصباح، آل خليفة، آل نهيان...»، وقبل ذلك «أسرة محمد علي باشا، الأسرة الهاشمية في الأردن حتى الآن... الخ، أما في دمشق مثلاً، فيشار إلى الكثير منها «العظم، اليوسف، زلفو، البرازي...»، حيث نسبة كبيرة منها كردية، وقد لعبت أدواراً متفاوتة في القوة والضعف في التاريخ العثماني والسوري الحديث.⁽²⁾

(1) كوثراني د. وجيه: السلطة والمجتمع والعمل السياسي «من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام»، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1988، ص 60.

قارن ذلك، على الصعيد الكردي، بما ورد في كتاب د. عبدالرحمن قاسم: كردستان والأكراد «دراسة سياسية واقتصادية»، المؤسسة اللبنانية، بيروت، كما في: (كردستان بلاد زراعية تتحكم فيها علاقات إقطاعية قوية. ص119.. ثم تبيان أهمية تأثير البك والآغا وسلطتهما القانونية المطلقة في كردستان.. ص152... في كردستان هناك: الملاكون الكبار «للملاك الكبير مائة قرية أحياناً أو أكثر»، والمتوسطون، قرية واحدة لكل ملاك عادة. ص172.. وهناك أملاك الدولة الخاصة. ص178.. وأملاك الملك.. ص181... الخ).

(2) على الأقل، وأنا أشير إلى كتاب ليندا شيلشر: دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ترجمة: عمرو الملاح - دينا الملاح، مراجعة: عطف مارديني، دار الجمهورية، دمشق، ط1، 1898، مثلاً عن دمشق وصراعات داخل المدينة (بين أغوات حي الميدان وخارجه.. ص76... وموقع الأشراف وهم يمثلون أسراً أو يكوّنونها واقعاً، وكيفية تعريفها لنفسها، جهة المكانة الاستثنائية لهم بانتسابهم إلى النبي.. ص137... وكان للأشراف- «وهم بدورهم أسريون، إن جاز التعبير» على العكس من الأغوات بل وأكثر من العلماء- نفوذ يسري في المدينة كلها.. ص156.. وفي عودة إلى الشريحة الأولى، نجد الأغوات: آل العظم ودورهم الكبير في

هذا يقرّبنا من الموضوع ولزوم التدقيق في كل معلومة داخلية في صلبه، وما يحال عليه باسمه، حيث يمكن التعرف أكثر على المفاصل الحركية له، وبيعدنا عنه، كي يكون في المستطاع تشكيل صورة بحثية وفكرية أشمل للموضوع بالذات، وتحديدًا بالنسبة للأسر وكيف تتعامل فيما بينها، وهي تعتمد جملة من الأساليب الاجتماعية ومغذياتها القيمة، ومن ثم الأرضية التي تتحرك عليها، وهنا لا نستبعد مؤثرات التناظر أو الحساسية الشخصية أو التباغض أو التربص الجانبي بالآخر أو اقتناص الفرص أو الكيدية البنيّة وحُبّ الدسائس ضد أولي الأمر... الخ، وهي عوامل تجمع كما تصل ما بين الدائر داخلياً وخارجياً، وهي من حيث البنية لا تتفصل عن البنيان المجتمعي كما السياسي للدولة ذاتها ونوعية السلطة فيها .

أليس ذلك مساعداً لنا لمعرفة تلك الطريقة التي اتبعها حسن بن عثمان بن سلو ليدشن لآل حاجو آغا ما هو معتبر تاريخياً ؟

أليس ذلك محضراً على تخيل الأساليب المتبعة وعوامل القوة الموجودة في إزاحة خصومه ليكون هو الزعيم في الواجهة؟

أليس هذا الانتقال من أسرة إلى أخرى، جديراً بالتعمق في الفواصل، وفي التحرّي عن المغيّب والفاعل في الهدم، ومن ثم البناء، وما يجري التعقيم عليه أو إخفاؤه، ومن ثم الاحتفاظ به، ليكون هناك استيعاب أكثر لهذا الجانب؟

أي ما يجعل التاريخ الأسري موضوعاً لأكثر من بحث حفرياتي «أركيولوجي» وأنثروبولوجي «إناسي»، واجتماعي عبر ربط فعالية كل أسرة بسواها في عملية تنافس على المكان، وما يكون لهذا الدور من تعزيز المكانة السيادية وكاريزمية الشخصية سياسياً ورمزياً فيما بعد .

ربما من الصعب إدراك حقيقة هذه الانتقالات في مجتمع يتسم بالحدز الجانبي والتخوف المتبادل، ومن ثم بالفخاخية، وهي الحالة التي تسعى فيها الأسرة أو القبيلة الواحدة أحياناً إلى النيل من سواها عبر الإيقاع بها، وما في ذلك من تنوع. ولا بد أن الذي شهدته هفيركان في مسيرتها «الاتحادية»، واستناداً إلى

دمشق، صص 168-178.. آل شمدين من الكرد.. صص 181-183.. آل اليوسف من الكرد أيضاً طاهراآمدي، صص 200-201..، صص 184-186.. آل العابد، صص 186-188..، وسوف نتعمق في هذه النقطة لاحقاً .

مؤثرات تسميها أكثر، يؤكد ذلك، وأن الذي أوضحه إيفلغتون يضيء هذا المشهد الجغرافي- التاريخي الكردي، حيث يقول (ليس لكل القبائل نظام متماثل، إن البنية الكلاسيكية «التقليدية» تبدأ بالظهور مع الأسر الممتدة التي يكثر عدد أفرادها، أو الفروع التي يرتبط أفرادها فيما بينهم بالقرابة السلالية أو بالتزاوج... وفي القبائل الأضخم عدداً تصبح العلاقات أكثر تعقيداً. ثم إن التشكيلات القبلية المتنوعة الموجودة في كردستان غالباً ما تتطور حينما تتولى عشيرة مزعجة، أو قبيلة صغيرة قادمة من الخارج، السلطة في منطقة انعدمت فيها الروابط القبلية، أو أصبحت غير فاعلة، إن هذه الزعامة الجديدة عادة لا تمتلك روابط سلالية مع أفراد القبيلة، لكنها تكسب زعامتها عبر التفاعل المركب مع حلفائها الأوفياء وعير الضغوط...⁽¹⁾).

هذا التمييز يشكل نقطة شارحة لما هو موحد أحياناً على صعيد المفردة ، أو الجملة الواحدة: الأسرة أو العائلة الكردية، من باب التخصيص، إنما في الإطار

(1) إيفلغتون، ويليام: القبائل الكردية، ترجمة: د. أحمد محمود خليل، كردستان، مؤسسة موكرياني، أربيل، 2006، ص 21- 22.

ومن المهم هنا، وكما في الإشارات السابقة، عدم نسيان علاقة الزعامة بالقوة والسيطرة إلى جانب امتلاك الأرض الشاهد الرئيس على النفوذ السلطوي، وفي كتاب أحمد صدقي شقيرات: الزعامات المحلية والعشائرية «من وثيقة المهمة العثمانية رقم» 3/59 لسنة 966هـ = 1559م، أريد، الأردن، ط1، 2008، ثمة تناول للصراعات في العهد العثماني، وامتداداتها مقدرة هنا، وللزعامة مكانة لافتة فيها، وهو يتناول موضوع أصحاب الزعامة (وهذا المصطلح من المصطلحات العثمانية متعددة الاستعمالات في المجالات الإدارية والمالية والإقطاعية والعسكرية، ويعني «رؤساء الإقطاعات من رتبة زعامت»، من الكلمة العربية «زعامة»: من «زعم» وتعني: الشريف، الرئاسة، كثير المال، كثير الدروع، في المجال الرسمي تعني «زعامت»: أرض زراعية تقطع للمحاربين.. ص94- يعتبر أعيان الزعامات المحلية والعشائرية في بلاد الشام والتي تكشف عنهم وثيقة المهمة العثمانية، بمثابة قيادة المجتمع المحلي والفاعلين فيه في ذلك الزمن، وتأتي هذه الزعامات بناء على توازنات متعددة، وطبقاً لمعايير ومنجزات اجتماعية مختلفة.. ص180). الخ، وفي المفهوم ما ينقضه، من خلال دلالة «الزعم» أي ما ليس فيه، مقابل ما يبقيه، وربما برز مدعي الزعامة بصفات لا أصل لها، سوى أن منطق القوة يفرضها، ولعل في ربط بالزعامة بالسيطرة الأرضية كأساس أو منطلق لها، وكانت الإقطاعية وليدتها، ما يلفت نظرنا إلى عالم خارج المدينة، حيث الريف، أو القرية واقتطاع الأراضي، ولاحقاً تصبح الزعامة مدنية أبعد من منطق الأصل، حيث يتلبس الزعيم ما هو مثالي متعالٍ على الأرضي.

القبلي، والأكثر إبرازاً أو إشهاراً، بالمفهوم السلطوي، وكيف أن أسرة تختفي تحت وطأة أسرة أخرى، أو تنقسم على نفسها، وهي من أرومة واحدة، أو تشكّل جرثومة عصبية واحدة، أي أب مؤسس واحد للقبيلة أو العشيرة، وليجري انقسام في النسب الأبوي نفسه، وليجري في إثر هذه العملية ضخ لمعلومات أو مؤثرات تعمق الخلاف، أو هوته، كما لو أن الطرفين لم يكونا ذات يوماً أهلاً: أخوة، ويضمهم منزل واحد، أو بيت واحد بصورة أشمل.

ذلك ينشّط إرادة التحري في أصول التباعد والمواجهة والاستعداد في آن، وذلك يصعد إلى مستوى القانون في تسمية نوع الخلاف وتأريخه ومكانته وأهليه وفسحته، وللاكراد باعهم الطويل في هذا المجال، على صعيد الانقسام الأسري، ونحن نتحدث ليس عن الروابط الأسرية حصراً، إنما عما يلغم هذه الروابط، أي ينهي عوامل نشأتها وظهورها بصورة مرئية .

صحيح أن المتصدرلواجهة الزعامة، لا بد أن لديه حساباته، وعدته في عملية التحول: تجاه السلطة الموجودة، وهي مرهوبة الجانب، ومن يجري الإجهاز عليه أسرياً بالمقابل، كما لو أن الأسرة الواحدة، وعلى هذه الشاكلة، تخضع للقانون الموضوع خلدونياً، والمتعلق بأطوار الدولة، حيث القوة تترافق مع شظف العيش، بينما الانحلال يترافق مع البذخ والهدر، بحيث لا يعود في الإمكان النظر في سلبيات هذا الوجه المدمر للدولة، وقد تمر في هذه الأطوار كاملة، بوجود قوى مكافئة بنسبة لها في الجوار، على تخوم قوى متنفذة: سلطوية، أي قوى محكومة بسواها، أو ضمنها، كحال الكرد بامتياز.

حلاقات النسب :

لنتابع أنثروبولوجياً بروينسن، فيما يقوله عما جرى بعد ذلك بالمفهوم التاريخي، كما لو أنه يؤرّخ لسردية حلقاتية، مترابطة، أي متسلسلة لهفركان هذه بمفهومها الزعاماتي: الدولتي (ومضى وقت طويل دون أن يكون هناك حاكم أعلى للهفركان ككل. وقسمت السلطة بين عائلة الملا علي رمو والملا عثمان. ولم تستطع عائلة الملا عثمان مطلقاً أن تتخلص بصورة كاملة من وصمة العار التي لحقت بها لكونها حديثة نعمة، حتى حين تمكنت من بسط كامل السيطرة على الاتحاد القبائلي: فإن عائلة الملا علي رمو لا تزال تتمتع باحترام أوسع على النطاق

العام. ومما له دلالة أن أفراداً من عائلة الملا عثمان يدعمون الآن عائلة علي رمو، والعكس ليس صحيحاً. وتتدخل عائلاً الملا علي رمو أحياناً للتوسط حينما تنشأ نزاعات بين فرعي عائلة الملا عثمان.

ومن ثم يتابع قائلاً: مد حاجو، ابن حسن، سلطانه إلى دائرة أوسع، ولكن دون أن تشمل كل أراضي الهفركان بعد. وكانت استراتيجيته تشمل محاربة قبيلة دكشوري المجاورة، وهم غرياء لم ينتموا قط إلى إمارة بوتان. فساعد ذلك في توحيد عدد هام من الهفركانيين خلفه، ووضع كذا في خلاف مع الحكومة العثمانية التي كانت متحالفة مع الدكشوريين. ومنذ ذلك الوقت وما تلاه اكتسب الهفركانيون سمعة القبيلة المتمردة- ولقد أثبتوا فعلاً. (ص 231) .

أي حيث يتم التركيز على عائلة عثمان كنقطة انطلاق رئيسة لآل حاجو فيما بعد، وليس «سلو» الذي يدرش تأريخ شجرة العائلة، دون أن نعرف عنه شيئاً بالنسبة إلى سجله الشخصي.

هذه المدة الموهلة في الزمن، دون أن نعرف على وجه الدقة حقيقتها عدد السنوات، مثلاً»، وجه آخر من وجوه غياب المؤشر الزمني، إنما الوثيقة الفعلية والتي تقطع الشك باليقين: بداية ونهاية، وذلك عائد إلى طبيعة المجتمع الكردي، إلى نوعية الثقافة السائدة وهي تركز إلى ذاكرة جمعية، وهي ليست محمولة من قبل الجميع، وأغلبهم بائس، إنما إلى فئة، أو نسبة قليلة جداً، وهذه تكون مجاورة لمراكز القرار في السلطة المحلية، وكيف تتم إدارتها بما يتوافق مع المصلحة الخاصة وتالياً العامة، أي بوجود تعمد في هذا التعتيم، لأن فقدان التأريخي، يعني استحالة الحديث عن السلف والخلف بدقة، ولأن ذلك لا يوفر لنا القدرة في البحث اعتماداً على أرشيف متوفر، أو أدلة مادية تمكن من معرفة كل واقعة في زمكانها .

قد تكون هذه المدة الطويلة شاهدة على أن كل شيء بقي كما هو في صورته الروتينية، سوى أن الوقائع التاريخية تعلمنا بأن هذه المدة المشار إليها ليست كذلك، وخصوصاً في القرن التاسع عشر، بالنسبة للعلاقات بين الإمارات الكردية والباب العالي، وتدخل القوى الكبرى بعسكرها ومبشرها ورجالها الذين يعنون بكل شاردة وواردة، ويسجلونها لأجلها .

وحتى بالنسبة للعثمانيين، كان القرن هذا يشكل التحدي التاريخي الأكبر لهم، حيث يعتبر بتعبير المؤرخ إيلبر أوريلي (القرن الأطول في تاريخ الامبراطورية)⁽¹⁾، ومن المؤكد أنه طويل للعرب والفرس أيضاً، إنما بنسب متفاوتة، سوى أن مفهوم «المدة الطويلة» كردياً، ليس علامة فرح، أو انفراج، إنما استمرار الوضع البائس في الانقسام الكردي، وهو الذي يعيدنا في كل مرحلة زمنية إلى نقطة الصفر، جهة فقدان البوصلة، وعلى خلفية الصراعات الجانبية، حيث تكون الأسر فاعلة في تلوينها، كما لو أن ظهور أسرة ما أحياناً، يعني تهديداً لسواها حيث تكثف جهودها للنيل منها، وما في ذلك من خلط الديني بالسياسي، وتبين العامل الديني وهو يخرج المؤثر السياسي عن نطاقه الفعلي أو الممكن النظر في حمولة قوته، تحت وطأة الحوامل الإيديولوجية التي تعهد بها السلطات الموجودة، بدءاً من الناطق الديني الرسمي أو المرجع الديني الأول في البلاد وانتهاء بصغار رجال الدين ممن يتبعون أوامره عبر اعتماد سيستام الإغراءات والتهديدات التي تصل ما بين الديني والأخروي.

عدا عن ذلك، ما يتقدم اسم العائلة هذه كصفة مميزة لها، وهي كونها دينية: عائلة الملا رمو- عثمان، وهذا ما يعرف به الكرد، لأسباب ربما كان في وسع الباحث التاريخي والمختص أن يتحرى ما هو عميق فيها، أي كيف قيض للكرد في أن يكون لهم حضور ديني في «دارالإسلام»، قبل أي حضور آخر، كيف أن هذا الحضور يشكل مكرمة تاريخية مسجلة، أو «فتحاً» مبيناً أمكن للكرد هؤلاء أن يثبتوا وجودهم، وأن يردوا حتى على «فاتحي» أوطانهم، بالطرق التي تعرف بهم أصحاب أثر في الدين نفسه، من خلال مسلكتهم المشيخية والمלוية، أو تكياتهم، وزواياهم وتلوينهم للإسلام بما يعرفون به أكثر من سواهم: في القادرية والنقشبندية، والكم الهائل من رجالات الدين، أو شيوخ الطريقة في بيئاتهم وداخل بيوتهم، لا بل في بنية أقوالهم وأحاديثهم اليومية، وفيما يتداولونه فيما بينهم بالنسبة إلى أبسط الأمور وأعقدها.

ولعل بروينسن، لم يدرج جهداً في إضاءة معالم هذه النقطة المستغرقة لمحيط كردستان الجغرافي والتاريخي، حين يدقق في جوانبها أو مفاصلها طويلاً وعرضاً، وفي متابعة ميدانية :

(1) بوزرسلان، حميد: تاريخ تركيا المعاصر، ترجمة: حسين عمر، دار كلمة- المركز الثقافي العربي، أبو ظبي- بيروت، ط1، 2009، ص 15.

(يعتمد الطامحون إلى القوة ضمن الدائرة القبلية أحياناً إلى أية مصادر قوة خارجية ممكنة ص 433.. ويكون الله أكثر الطرق مباشرة لاستمداد، عبر الادعاء بأن الشخص هو الله.. وثمة خطورة في ذلك.. لئلا يكرر تجربة الحلاج..... ص 435... والأسلم لأي كان هنا الادعاء أن يتلقى الإلهام الإلهي ص 436... وثمة وجود نسب زائف لدى الزعماء القبليين الأكراد يصلهم برجال الإسلام العظماء.... ومن ذلك: الانتساب إلى عمر بن الخطاب «العمريون» - إلى خالد بن الوليد «الخالديون» - سلالة الخلفاء العباسيين «العباسيون».. ومع نمو النزعة القومية الكردية تخفف من ذلك ص 440... وليأتي الحديث التالي عن الملا: الملا له مكانته وهو يتراأس كل الاحتفالات الدينية على مستوى القرية، ويدرس أطفالها القرآن. ص 443... والمشحيات بأنواعها: والشيخ كذلك: وللشيخ تعددية أدوار، والأهم: دور الرجل المقدس، وهو محط تقان شعبي، ودور القائد الملهم.. ص 444... والطرق الصوفية: وهناك الطرق الصوفية والدرويشية. ص 450... وظاهرة الكرامات. ص 456... وضمناً وما يخص تاريخ الطريقة القادرية. ص 457-473.. وكذلك الطريقة النقشبندية والطريقة النقشبندية، حيث للطريقة جذورها التاريخية في آسيا الوسطى. ص 473... وما يعود إلى سبب انتشار النقشبندية في كردستان، من خلال سمات الطريقة - الحالة الاجتماعية الخاصة بكردستان. ص 479... ومن ثم الذكر في الطريقة النقشبندية صامت وحالات الانتشاء يشجع على تجنبها. ص 513... وخلال الخمسين سنة الأخيرة، اضمحل نفوذ الشيوخ في كردستان بدرجة كبيرة. ص 539... وهناك إحدى حركات الإحياء الإسلامية في تركيا وربما أقواها «النورجو»، رغم إعلانها مناهضتها للطرق، وتعني «تابع النور»، وثمة أمثلة من كتابات «سعيد النورسي». ص 550... وكمثال حي لما يجري في الواقع: ارتبطت ثورة الشيخ سعيد بجاذبيته الشعبية. ص 557... بالإضافة إلى الوطنية والعثمانية، أصبحت الشعبوية حجر زاوية آخر للنظام الجديد «بعد ولادة الجمهورية التركية 29 أكتوبر 1923»، والزعم أن كل مواطني الجمهورية متساوون.. وجعلت الأكراد أتراكاً بقرار فوقي... ص 579... وبعد انتهاء الحرب، فقدت الخلافة معظم مطالباتها بولاء الأكراد لها حينما لم يعد الخليفة سوى أداة، بيد الحلفاء، وبشكل خاص البريطانيين. ص 587... وكان هناك تأسيس منظمة كردية سرية جديدة في العام 1923 بعد انتصار قومي مصطفى كمال. وممثلوها رجال عسكريون متمرسون. ص 594... وبرز الشيخ سعيد على خلفية منها.

ص605... وتداعيات الحالة الدينية: في الحقيقة، لم يساهم الفلاحون اللاقبليون مساهمة واسعة النطاق في الانتفاضات الكردية اللاحقة في العراق، والتي كانت أوسع انتشاراً من ثورة الشيخ سعيد، لكن انتفضوا فعلاً ضد كبار ملاك الأراضي عدة مرات. ص629... وما يندرج في المعمران الديني اليومي: يلعب الولاء القرابي نفسه دوراً في «تضاد الأشياء». ففي الحالات التي يحصل فيها نزاع بين شخصين، فإن أقارب كل منهما يهبطون لنصرته. ص645.... وعلى مستوى زعاماتي: تتألف سلطة الآغوات والشيوخ عادة من مزيج مما اصطلح فيبر على تسميته بالسلطة التقليدية والكاريزماتية. ص648.... ما يستند إلى إرث من هذا القبيل: لقد أصبحت النزعة القومية الكردية حركة جماهيرية خلال ستينيات وأوائل سبعينات القرن العشرين، لا بسبب الدعاية القومية التي كان يبيثها المثقفون، والتي شددت على الفكرة المجردة القائلة بوجود أمة كردية، بل بسبب النجاحات العسكرية السياسية التي أحرزها الملا مصطفى البارزاني... لقد كان ابن شيخ ديني، وكان يمتلك أسلوب الزعيم القبلي العظيم، كما عُرف في الأيام الخوالي، ومنحت بطولاته الأكراد شيئاً يفتخرون به. ص666... ولاحقاً.. كان الآغوات يقدمون أنفسهم بصفتهم قوميين أو أبطالاً يدافعون عن الإنسان المستضعف. ص666.. وهكذا برز الدور في جميع الأحزاب والمنظمات الكردية فعلياً.. ص667... واختفاء هذه الولاءات سوف يستغرق وقتاً، وقد تعاود الظهور.. وتلبي الحاجة إلى الانتماء إلى جماعة يمكن تحديد هويتها.. والعوامل الاقتصادية ليست ضامنة هنا... وللعوامل السياسية والخارجية.. ص668.... وتجلي الأثر المشيخي: الديني في أماكن أخرى، كما في «الجزيرة السورية العليا»: ينتمي إبراهيم حقي إلى النقشبندية. ص697.. وهناك الشيخ علوان خانقا في قرية حلوة بالقرب من دوكير في الجزء السوري من الجزيرة... وكذلك الشيخ أحمد كفتارو الذي صار موظفاً حكومياً في سورية رغم اعتباره الخليفة الشرعي لمولانا خالد.. وهناك الشيخ صبغة الله، وهو شيخ نقشبندي اشتهر في أوائل القرن الثامن عشر.. واستقر في قرية خيزان بالقرب منم بيتليس.. ص698... ومن ثم أحمد الخزنوي، هو الخليفة الأشهر والأكثر نفوذاً من بين خلفاء «الحضرة». ص701...الخ⁽¹⁾.

(1) بروينس، مارتن فان: الآغا والشيخ والدولة «البنى الاجتماعية والسياسية لكردستان» ج2،

هذه التغطية الأوقيانوسية مجدداً، تضعنا في مواجهة «الحدث الأكبر» على مستوى الشاغل النفسي للمؤمن وهو في داخله يخضع لنظام مشدد عليه سلطوياً، وعلماني حتى النخاع، جهة السيطرة الحديدية على مفاصل الحياة اليومية له، بدءاً من اسم المولود، وما يُقرأ ويُردّد في أذنه، ويجري توسيمه «من الوسم» ادخالاً له إلى الحياة، وانتهاء بعملية دفنه، أي ما يتعرض له من عمليات احتواء لكل ما يميّزه نفسياً وذهنياً، وبصيغ شتى، ويكون للكردي من خلال تاريخه المحوّل به خارج مضماره المنشود، أي تجريده مما هو كردي كسواه في «أمة الإسلام»، صاحب الرصيد الأعلى في الاحتواء.

ولا بد أن قارئ الوارد في هذه المقاطع السريعة، وضمن مقتبسات، وفي صفحات تترى، يلاحظ ولو من خلال عناوين سريعة واختلاف الأمكنة والأسماء الشخصية والطرق الصوفية فيها، كيف أن العامل المسيطر في كل ذلك هو الإسلام الأقرب إلى السياسي المدروس والمعزّز بعلامات فارقة حاكمة أو سلطانية، أو أميرية، أو شاهنشاهية.... الخ.

ترجم الكرد في دار الإسلام ما يعينهم على قضاء حوائجهم وهم معلومون بين «أخوة إيمانهم»، سوى أن الغائب الأكبر في هذا الحصاد العقائدي: الإيمان، أنه يدخلهم في «بورصة» القيم المتوخاة سلطوياً إجمالاً، وأن البحث عن مخرج من هذا الانغلاق عليه من الخارج، يتطلب جهوداً مضاعفة، أي كيفية التصدي لقوتين مرهوبي الجانب: الديني، وتتمثل في كيفية مواجهة السلطان، أو صاحب السلطة المستبد، وقد أوحى إليه كثيراً ما سيلقاه من محن ومن إيذاء فيما لو حاول حتى مجرد التفكير في هذا الاتجاه «المعكس»: اتجاه التهلكة، والجانب الديني الذي يشغل الحاضر والغيب، والحقل المغموم الذي يحوطه من خلال عمليات تلقين مباشرة وغير مباشرة من قبل المعنيين بتعليمات الحاكم، وفي الطرف الأقصى، تبرز كلمة «القومية» في موقع القياماتي، أي ما يضاعف من فكرة التهديد والوعيد، وتحديد إذا أخذنا بعين الاعتبار المناخ الديني الذي يعيش فيه الكردي إجمالاً أو أخضع له بطرق شتى، وكيف أن الانتشاء الذي يستشعره الكردي وهو في هيئة

ترجمة: أمجد حسين، دراسات عراقية، بغداد - أربيل - بيروت - ط1، 2008، وقد وردت أرقام الصفحات في المتن من باب الإيجاز.

المتعبد أو المسلم أمره لصاحب الأمر، وهو حاكمه قبل كل شيء، بوصفه روحياً، إنما يثقل عليه دنياً، ويحول بينه ورؤية ما يجري على أرض الواقع، وهو منتهب في روحه ووجدانه، وفي معرض الاستغلال بأكثر من معنى.

تلك هي العلامة الكبرى التي يسجل بها الكردي في عالم الامبراطوريات الكبرى، وهي بميسمها الإسلامي، ويعرف بها في جهاتها الحاكمة، أو الرعائية، انطلاقاً من مفهوم القطيع وتبعيته للراعي: الامبراطوريات العربية، الفارسية فالعثمانية ثالثاً ومن خلال التناوب على عملية تدجينه أو تجديد بنائه من الداخل كغيره أو أكثر لحظة مراعاة وضعه السياسي.

ولا أدل على ذلك من تلك الإشارات بدور الكرد في بناء الصرح الإسلامي، دون مكاشفة المردود طبعا⁽¹⁾.

(1) ينظر حول ذلك في العناوين التالية:

مجموعة التسعين وثيقة، والفائقة الأهمية، من الوثائق العثمانية عن حركة بدرخان بك وإمارة بوتان، في كتاب: صفحات من تاريخ الكرد وكردستان الحديث في الوثائق العثمانية... الخ، المصدر المذكور، صص 83-263، وتالياً: الوثائق العثمانية الخمس عن حركة ئيزدين شير بك، في المصدر نفسه، صص 265-274، وقبل ذلك سرد تاريخي عن إمارة بوتان، وإبراز مكانة بدرخان بك، وذلك من خلال مناقب «قومية كردية» أيضاً، صص 9-39. رشيد الخيون: لاهوت السياسة «الأحزاب والحركات الدينية في العراق»، دراسات عراقية، منشورات الجمل، ط1، 2009 بغداد - أربيل - بيروت، وحديثه عن الحركة الكردية الإسلامية: تبدو الحركة الإسلامية الكردية العراقية، مزدوجة المهام، فهي من جهة تسعى إلى دولة إسلامية... ومن جهة ثانية يشغلها الهم القومي الكردي.. صص 367.... وينظر للتوسع في المصدر نفسه، صص 368-389.

د. محمد زكي أحمد البرواري: اسهام علماء كردستان العراق في الثقافة الإسلامية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، دار الزمان، دمشق، ط1، 2008. ص 363-364-381..

د. محمد زكي البرواري: الكرد والدولة العثمانية «موقف علماء كردستان من الخلافة العثمانية في عهد السلطان عبدالحميد الثاني»، 1876-1909 م، دار الزمان، دمشق، ط1، 2009، في صص 60-62، كذلك صص 198-2010، وص 383...وص 450...

د. أحمد محمد أحمد: أكراد الدولة العثمانية «تاريخهم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي 1880-1923»، سبيريز، دهوك، ط1، 2009. اطراوحة دكتوراه في الجامعة اللبنانية، بيروت، كما في ص: 116-117-122-125... الخ.

لا أدلّ على هذا التأكيد المضاعف عن أن العامل الديني، وأكثر من أي عامل آخر، أسهم ومازال يسهم في ببلورة وجدان الكردي في الاتجاه الذي يبعده عما يتردد في وسطه، وربما من قبله بالذات، وهو يتلمس في الديني ورموزه شفاعة خلاص مما هو جار في الواقع، وباستدعاء المتخيل الإيماني، والتمسك بحبل المناجاة الغيبية، ربما شعوراً آخر لديه، عن أن ليس من خلاص من هذا الوضع الصعب الذي ينوء عليه بكلّكله من المسلك، وهو شاهد على عنف المتوارث، وبذلك فإن مقولة من نوع (للعائلة عند الأكراد مظهر ديني يأتي قبل مظهرها الاجتماعي والاقتصادي)⁽¹⁾، كما أطلقها الفرنسي توماس بوا ذات يوم، لا تفارق يوميات الكردي مهما كان موقعه، ونوعية القناة التي يعيشها في داخله.

وربما هي من باب البدايات حين يشار إلى العائلة بالحضور القيمي هكذا، لأنها من حيث التعريف وكذلك التوصيف «الخلية الاجتماعية الأولى»، وبالتالي، فإنه من الصعب بمكان، إن لم يكن مستحيلاً، العثور على ولادة قوة اجتماعية في التاريخ دون وجود عائلي بداية، أي حين يأتي الحديث عن دور الأشخاص كأفراد لهم خصوصية استثنائية «بطولية ما» فيما بعد طبعاً. سوى أن تسليط الضوء على العائلة الكردية وربط التاريخ الكردي بها بالطريقة هذه، ربما كان من باب التركيز على علّة تاريخية، على «قصور في النمو» التاريخي، وعدم «هضم» العائلة كمفهوم اجتماعي أول، والانتقال إلى صيغة المجتمع وقد صهر داخله العائلات مؤسساتياً، أي حين يكون مفهوم «الشرف التاريخي بعائده الاجتماعي متقدماً على» الشرف

وحديثاً، بالنسبة إلى تركيا، ما أسهم محمد نورالدين في إيضاحه، من خلال العديد من كتبه، كما في: حجاب وحراب «الكماليّة وأزمات الهوية في تركيا»، منشورات الرئيس، بيروت، ط1، 2001، كما في

الإسلام السياسي في تركيا: الأزمة المزدوجة، صص 215-226، و كتابه الآخر: تركيا «الصيغة والدور»، منشورات»، منشورات الرئيس، بيروت، ط1، 2008، والدين والسياسة في تركيا، صص 71-86... الخ.

إنما الأهم، وفي مجال التغطية التاريخية والسياسية في تركيا، ينظر في كتاب برنار لويس: ظهور تركيا الحديثة، ترجمة: قاسم عبده قاسم - سامية محمد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2016، القسم الأول، الفصل السادس: الاستبداد والتتوير، ص 221، وما بعد ...

(1) بوا، توماس: مع الأكراد، ترجمة: أواز زه نكّنه، مديرية الثقافة الكردية العامة، دار الجاحظ، بغداد، 1975، ص 51.

العائلي» وليس أن يكون «الشرف العائلي» شاداً إليه» الشرف التاريخي ببعد السيادة والمجتمعي العام، وهو ما يشكل الداء المزمن الذي يعاني منه الكرد، ويزكّونه هنا وهناك عنوان انتماء لهم تاريخياً .

كما لو أن لعبة الصراعات الأسرية بُعد آخر من أبعاد هذا الحصار، وترجمة دقيقة لخاصيته الأخطبوطية، وتحديدًا من خلال طبيعة العلاقة القائمة بالأرض، وتلك القيم الزراعية الطابع، حيث إن الأرض في صورتها المقررة مسندة إلى ما هو إلهي «الله هو الواهب، هو المعطي وهو القدير والرزاق... الخ»، وأن الألقاب التي يحملها ذوو السلطان، لا تتفصل عن الارتباط بالأرض إدارة أو تملكاً أو عملاً فيها، بدءاً من الإقطاعي، فالأمير، فالآغا، فالفلاح... الخ، وليكون مشهد النزاع الذي يتنوع ويتنقل من هيئة إلى أخرى جارياً في فسحة جغرافية، كما لو أن الدماء المسفوكة مطلوبة أرضياً، ووفقاً لهذا التصور تغدو العائلة أو الأسرة الكردية محكومة بهذه السلطة الرعائية أو المرجوعة إلى الأرض والتعليمات الخاصة بها .

صراعات لا تستثني أحداً :

وفقاً لهذه الصورة وهي تضيق وتتسع، يمكن متابعة تاريخ الكرد وكيف يجري تدوينه من خلال الأرض التي ينتمون إليها، الأرض التي باسمها يتصارعون، ومنها ينطلقون، وإليهم يرجعون، وبسببها يجري تقاسمهم، كما يتم التحكم فيهم.

وأحسب أن كتابة تاريخ المنطقة، والكرد في المتن طبعاً، قياساً إلى نكباتهم وفجائعتهم وطرق تمثيلهم لبعضهم بعضاً وفي بعضهم بعضاً، تكون مغرية وذات مدخل مضاء ومثرٍ لو أنها جعلت الأرض نقطة بداية ونهاية حتى الآن لها، إنها كتابة صيرورات حيث تتغير الأسماء، والألقاب، ومن ثم المواقع، وكذلك الوجوه، لكن الذي يبقى في الواجهة يكمن في الأرض، لتكون لدينا بالتالي سيرورات ذات عائد أسري مختلف قليلاً أو كثيراً، بالنسبة للأسرة الواحدة أو أكثر.

ليست هفيران استثناء كاتحاد قبائلي، ولا أسرة آل حاجو آغا، كما سنرى، إنما هو درس التاريخ للتاريخ ولنا طبعاً ككائنات نتنفس تاريخاً وفي أمكنة أو جهات جغرافية، ونعاين تاريخياً حين ننكب عليه قراءة، ونتحرى مقامات اعتبارية، والربط بين صفحاته وسطوره في اتجاهات مختلفة، أو تبين أوجه التشابه والاختلاف: ما يجعلها تقدماً وما يجعلها كبجاً !

أي حين وجدت نفسها محكومة بحدود أرضية، ومتنقلة من جهة إلى أخرى أرضياً، ولكل جهة طابعها الاجتماعي، وهي في معاشتها لمستجدات ومفاجآت جراً وعي منقسم على نفسه، أو وعي محكوم هو الآخر بالظروف وملابساتها.

هنا أستعين بدرس في الجغرافيا الطبيعية، حيث الأرض تكون المحك والرهان، المسرح والمكافأة والسلطان، ومقدم هذا الدرس هو حنا بطاطو السالف الذكر، ولو أنه من جهة المسافة، بعيد عن إحداثيات جغرافيا هفيركان وتموضعها على الأرض، ومن خلال آلاف الكيلومترات، لكن العبرة في محتوى الدرس، وما يمكن أن يتممذج ويعلم من خلاله، والمحتوى يتركز على آل الأطرش، من السويداء المدينة الدرزية تمييزاً، والواقعة في الجنوب السوري، وما كان عليه وضعها قبل الانتداب الفرنسي على سوريا، أو كيف كان موقعها الاجتماعي، ومن خلال أدوار قيادية لاتنفصل عن مصالح معينة، لا ينبغي رفع سقفها الائتماني: الاجتماعي، واعتباره سقفاً لا يرى بصبغته الأسرية أو القبلية، وليس الوطنية كما يتردد في بطون الكتب المدرسية الرسمية، وأبعاد هذه الدمغة من الناحية السياسية وحتى الإعلامية، وفيها من إسقاطات الإيديولوجي الكثير الكثير طبعاً (كان قادة الثورات أحياناً، في أصلهم على الأقل، قريبين من الفلاحين، أو ليسوا أعلى منهم على نحو ملحوظ في وضعهم الاقتصادي أو مكانتهم الاجتماعية. مثال على ذلك اسماعيل الأطرش «المتوفي في عام 1869»، زعيم الحركة ضد آل الحمدان الذين توارثوا المشيخة والزعامة في جبل الدروز منذ أواخر القرن السابع عشر. واستناداً إلى مخطوطة من تلك الفترة مجهولة الكاتب، لكنها دُوّنت بقلم خوري مسيحي مناوي، فإن إسماعيل الأطرش «لم يتحدر من عائلة مهمة مثل آل الحمدان» بل كان في البداية راعي قطع، يؤجر نفسه على أساس سنوي، وأثبت ما بعد أنه رجل شجاع ومن بين أشد قطع الطرق في البلد عزماً. يربط كاتب من القرن العشرين أسلاف إسماعيل- استناداً إلى معلومات قدمتها المصادر الدرزية أو عائلة الأطرش كما هو واضح- بعبد الغفار، وهو أحد سكان قرية تليثية في منطقة حلب ومن نسل الشيخ علي العكس الذي كان يوماً ما مقدماً أو رئيساً إدارياً للجبل الأعلى. ويزعم الكاتب نفسه أن سلالة عبد الغفار استقرت أخيراً في جبل الدروز، ومنحها آل الحمدان ثلاث قرى، بما فيها القرية التي شغل منصب المشيخة فيها إسماعيل الأطرش عندما حقق الهيمنة في منتصف القرن التاسع عشر بفعل مآثره ضد البدو

وتحديه العثمانيين؟ ومن ثم لاحقاً: بعد أن تمكن آل الأطرش من السيطرة على مساحة واسعة من الأرض وفي شخص ابراهيم شيخ المشايخ...تحركت ثورة ضدهم: كانت مقدمة ثورة العامية سلسلة من الاجتماعات السرية التي عقدها في عام 1889 زعماء العشائر الأقل شأنًا، وسعوا فيها إلى توحيد صفوفهم ضد الشيخ الأكبر ابراهيم الأطرش الذي كان العثمانيون في هذا الوقت قد عينوه رسمياً نائب الحاكم والمدير الإداري الفعلي للجبل. ولدى وصول أخبار هذا الاجتماع إلى شبلي، شقيق ابراهيم الذي كانت أهدافه مغايرة لأهداف أخيه، بدأ يثير مشاعر الفلاحين، على أمل أن يضع نفسه على رأس الحركة الوشيكة... في ذروة ثورة العامية، وبما أن ابراهيم الأطرش وغيره من المشايخ أخذوا يفكرون في طلب العون من العثمانيين، تدخل العقل خوفاً من فقدان جبل الدروز وضعه الخاص المستقل ذاتياً، وعرضوا التوسط في النزاع⁽¹⁾.

العثمانيون همو العثمانيون، والأرض التي انبسطت أمامهم تحت مطرقة القوة السلطانية لقرون طوال، في أكثر من جهة قارية، هي ذاتها، أرض واحدة، مع فارق اللغة والجهة الجغرافية طبعاً، والذين يتبعون السلطان، وإن اختلفت ألسنتهم، وإن توزعوا في شعاب أرض هائلة المساحة مختلفة التضاريس، مختلفة المناخات، ومدى تأثيرها النفسي والذهني، سوى أن القانون السلطاني كان يشمل الجهات الجغرافية التي دانت له بالقوة، ويخضعها لمنطق سلطاني واحد.

حيث القبائل الموجودة كانت تصرف تبعاً، وبحسب الظروف، بما يتناسب ومآثر السلطة القائمة في التغيير والتحوير الهيكليين، وتخضع الأسماء لنظام مراقبة قبائلية ومندوبين، وموظفين يسجلون كل تغيير في الأرض ومن وما عليها .

هذا يسمح لنا إثر مكاشفة بنيوية متشعبة بالحديث في نطاق سوسيولوجيا الأرض، وسياسة الأرض، ومفهوم «الخراج» ومن يعملون فيها، وأن كل إخراج لرقعة منها، ووضعية حدود معينة، كانا يستجيبان لمنطق المستجدات وبأوامر سلطانية⁽²⁾.

(1) بطاطو، حنا: فلاّحو سورية: أبناء وجهائهم الريفيين الأقل شأنًا وسياساتهم، المصدر المذكور، ص223- 225.

(2) ينظر مثلاً، في كتاب جنكيز أورهنولو: إسكان العشائر في عهد الامبراطورية العثمانية، ترجمة: فاروق مصطفى، دار الطليعة الجديدة، دمشق، ط1، 2005.

إذ بناء على العملية الحسابية لجعل الأرض الواحدة إقطاعات، وتسوير كل منها، كان إسكان أي مجموعة بشرية فيها، أو توزيعها على مجموعات قبائلية تنتمي إلى أرومة واحدة، يخضع لنظام المؤثر السياسي وهو في كيفية تحويل الحدود إلى أكثر من كونها جغرافية أو جامدة، أي تسخينها من خلال تفعيل العداوات لتتخرط في الصراعات الجانبية، وتضعف فيما بعد، مما يسمح بتدخل السلطان العثماني، أو لعدم إعطاء فرصة كافية لالتقاط الأنفاس في حدود مكلفة، كما لو أنها تمارس دور الغائب: السلطاني في حضور يُبقي نار النزاعات مشتعلة، وحتى الحيلولة دون تحقيق استقلالية كافية، كما في وضع الإمارات الكردية، وحتى اللحظة، حيث يمكن التقابل بين هذه الحدود القطاعية والمتداخلة في بعضها بعضاً، ومثيلتها على مستوى الأفكار وتديرها، على مستوى الاجتهاد الفكري في تحديات تعني الكرد جميعاً: من الإقطاعية العملية على الأرض إلى الإقطاعية المدشنة والمصانة في جغرافيا النفوس والرؤوس المنهوبة والمضروبة كذلك، فتشكلت جرّاء ذلك طوائف وجماعات مذهبية ونحل يكون القاسم المشترك فيما بينها هو كيفية التبادل العنفي فيما بينها بصورة دورية، وهذا ما نتلمسه في تلك السياسات السلطانية على مدى عقود طويلة من الزمن، وفي القرن التاسع عشر بصورة صارخة، أي لحظة الحديث عن الأراضي المسجلة باسم السلطان في مجموعها، وكيف يتم شحنها بصور شتى من البغضاء وانعدام السكينة (كان تحقيق كيانات إقليمية للأرمن والنساطرة والأكراد يصطدم بعقبات كأداء، نظراً إلى أن هذه الطوائف نادراً ما كانت تشكل جماعات ديموغرافية متجانسة، بل كانت عناصرها السكانية مشتتة ومتداخلة مع عناصر أخرى).⁽¹⁾

الأرض الخادمة- المخدومة :

بالطريقة هذه، تصبح الأرض مخدومة، وليست خادمة، فاعلة وليست منفعة، مزكّية عنف وليست واهبة أمان، لأن وجود السلطان في هذه الامبراطورية الواسعة الأرجاء، كان يتطلب أعمال سياسة تقوم على التفريق والتلفيق، وتفعيلها، بحيث يصعب وجود من يمكنها الخروج من هذه الدائرة الجهنمية والتي يحرسها

(1) قرم، د. جورج: تعدد الأديان وأنظمة الحكم» دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة»، دار الفارابي، بيروت، ط4، 2011، ط1، 1979، ص 345.

زبانية الباب العالي بالذات، بالأصالة أو الوكالة، وأن هذه السياسة لما تزل تعطي أكلها إلى يومنا هذا، وهي لا تتفصل عن سياسات سابقة ولاحقة عليها، بوجود أنظمة، تختلف في أسمائها، لكنها تتشارك في الجانب العملي: ضبط العلاقات المجتمعية وهي رعوية بصورة صارمة، أي من خلال ما هو مركزي، يصل الأبعد عن موقع الحاكم بالأقرب منه، وما في هذه السياسة من ضغوط ومآس بالمقابل، وفي نطاق كيفية تأييد الضامن لسلطة الحاكم، واستحداث ما يعمق هيبة السلطة هذه ونجاعتها في النفوذ والاحتكار، أي إن ما استقر عليه وضع السلطنة لم يكن إقامة في عراء مفتوح، وإنما في نطاق ثقافة تقبل الإضافة وتكون النوعية ذاتها، مما يسهل مهام أولي الأمر فيها إقطاعياً بالذات، إذ (لم يكن نظام الإقطاع في بلاد الإسلام بدعة عثمانية، وإنما كانت جذوره تمتد إلى أزمنة إسلامية أبعد، فقد شاع منح الأراضي للمحاربين منذ أيام ضعف الخلافة العباسية في بغداد)⁽¹⁾.

ومن باب التنوير الجغرافي السياسي، ينوّه إلى أن خدمة الأرض، لا تعني إمكان «استعبادها» كما لو أنها مادة خام تعالج علمياً في مختبر، إنما تكون مخدومة في الوقت الذي يكف المقيم أو المتحكّم أو المستبد فيها عن النظر إليها على أنها ليست «عجينة» بين يديه، إذ إن رد فعلها يظهر بمقدار ما يُنظر إليها كقيمة، حيث إن تقطيع الأرض مثلاً، والابتزاز الزائد لها، يعنيان قصر صلاحية الاستخدام، والتضييق على العلاقات عبرها، فالأرض نفسها رحالة بمعانيها ودلالاتها ومن يسيطرون عليها ويديرونها.

وعلينا في وضع كهذا أن نراعي أي علاقة تنتمي إلى هذا الحقل البحثي، بتحديد جغرافيته في زمانها ومكانها، حيث نبعد قدر المستطاع عن استخدام معايير تنتمي إلى الراهن أكثر، ومفاهيم تسيء في فهم بنية هذه العلاقة ومقوماتها الاجتماعية.

(1) جيب، هاملتون - بوين، هارولد: المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة: عبدالمجيد القيسي، دار المدى، دمشق، 1997، ج1، ص 92.

قارن القول المقتبس في المتن، بما ورد في كتاب: خليل إينالجبك: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، تحرير: خليل إينالجبك بالتعاون مع دونالد كواتر، ترجمة: د. عبداللطيف الحارس، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2007، م1، وهو (إن الإجراءات الاقتصاديةية العثمانية لم تتأت من نظرية نظامية متماسكة كما كان الحال في الغرب، وإنما، كما هو حاصل في مجالات نشاطات أخرى، فإنها اتبعت الممارسات المجربة منذ وقت طويل والتقاليد الموروثة عن مجتمع الشرق الأوسط وثقافته. ص 106).

ولعلنا فيما استرسلنا فيه، لم نكن نبتغي من وراء ذلك توسيعاً زائداً لنطاق البحث، أو خروجاً عن نصه، كما يقال، إنما مراعاة طبيعته، وهي أنها تتطلب رؤية ذات طابع بانورامي أحياناً، طابع فيه من المحاكاة لتجارب قائمة: جماعية وشخصية في التاريخ الكردي تحديداً الكثير الكثير، وأخلاقية الأمثلة/القدوة الغفل من الاسم الكثير أيضاً، بحيث إن الذهاب إلى ما وراء المنظور، قد يكون خير وسيلة لمعرفة ما هو في متناول اليد أو مائل للنظر مباشرة، لكنه على مستوى العمق بالمفهوم الجيولوجي، يسمي أحقاباً، بمقدار ما يوجه الأنظار إلى ثقافات متداخلة ومتراكمة، تستوجب الحفر فيها، للحصول على صورة تأريخية أكثر شفافية وواقعية !

هل كانت هفيركان محكومة بمنطق التاريخ، أم بمنطق المبادرة الذاتية في علاقاتها الاجتماعية والسياسية ؟

لا بد أن تدقيقاً في الفاصل بينهما، يظهر لنا مدى التداخل القائم في بنية العلاقة، حيث إن منطق التاريخ يسمي من هم أهل القوة المتنفذة على الأرض، بدءاً من السلطان ومن يتبعونه، أو يأترون بأمره! لكن هذا المنطق لا ينفلق على نفسه، لأن التحديات التي يوجهها السلطان على حدود امبراطوريته الكبرى، تجد نظائر لها في نقاط موزعة في الخارطة السياسية والداخلية لها أيضاً، مهما ضؤل مستواها، وهذا يعني أن ليس هناك من حساب دقيق: كمّي، يمكنه ضبط العلاقة هذه، سوى أن جانباً من المبادرة الذاتية يشد إليه المنطق المذكور على قدر المهمة الموجودة، أو قوة النبذ أو الطارد للسائد بعوائد قوته غير المحتسبة. بالطريقة هذه، تُفهم أعمال التمرد، أو العصيان بالمنطق السلطاني، والثورات الداخلية بالمقابل، وهي أعمال تخضع لمراقبة من زوايا شتى، لكنها «أي المراقبة» ليست ميكانيكية، وهي تسجل ما يحصل من تغير، كما هو حال التأكد المباشر من ارتفاع منسوب المياه في سد أو حتى أي حوض مائي، أو ارتفاع درجة الحرارة في مكان معين، لكن ثمة ما هو خفي، يصعب التحكم في منطوقه الداخلي، حيث لا يُتنبأ به، ولا يعرف بأمره إلا بغتة، كما في حال الصراعات القبلية، أو الاقتتال بين أفراد القبيلة الواحدة، أو قبيلتين، للسلطان أو ولاته أو موظفيه يد في افتعاله أو تنشيطه لغايات محددة سلطانياً بالتأكيد، ليحدث ما ليس في حسابان السلطان أو مسؤوليه بالقرب من مسرح الحدث أو على تخومه، كما في انتقال سلطة الزعامة من أسرة إلى أخرى، أو حيث تمكّن هفيركان من الصعود باسمها، أو فرض سلطتها على

الجوار، ومن خلال فرد امتلك قوة ذاتية، لتزداد رقعة الأرض التي تخضع له على حساب القبائل الأخرى، وما يغيّر في حسابات السلطان جهة التعاطي معها، أي ما يمكن أن يجري من اتصال أو اتفاق، تكون التبعية للسلطان في المقام الأول، والتحرك القبلي ضمن حدود معينة .

من المؤكد أن لدى الباب العالي أرسيفاً كاملاً لمجموع القبائل الموجودة في نطاق الإقليم الامبراطوري العثماني، حيث ثمة سجل لكل جماعة أو عشيرة أو قبيلة، تسجل فيها يوميات تهم موظفي السلطة، وهي تدرّس وتقيّم أمنياً، والعملية أشبه بالكشف عن مدى سوية الجسم، وأوجه الخلل فيه، حيث المهم بالنسبة للمعنيين بالسلطنة، جانب الخلل الوظيفي الموجه، أو المستحدث والمحروس كذلك، والذي يعزّز من مكانة السلطة، تبعاً لعلاقة عكسية على وجه التحديد، دون نسيان أو تناسي الأدوار المختلفة للدول الأوربية عبر قنصلها وخلافهم في رصد كل ما يجري بدقة، كما في (عريضة مرفوعة من أهالي جبل لبنان وسوريا إلى السلطان عبدالمجيد بتاريخ تموز سنة 1840، طلباً للمساعدة في محاربة محمد علي بعد الديباجة: نرفع بتمام الخضوع هذه العريضة إلى أعتاب ديوان السلطان العظيم الرؤوف العادل ذي السلطة المحترمة الأسد الغضنفر صاحب السيف والقلم ظل الله على الأرض سلطاننا المعظم عبدالمجيد خان أيّد الله أيام ملكه الزاهر آمين)⁽¹⁾.

أو في (عريضة المسيحيين الفارين من حاصبيا إلى قنصل روسيا العام في 16 منه: إن سعادتكم قد علمتم بالنكبة العظمى والكارثة الجلى التي حلت علينا بقتل الدروز رجالنا ونهبهم مدينتنا... إن بيوتنا أمست رماداً وجثث القتلى ركاماً وإذا ما نجا النساء والأطفال من سيف الدروز فإنهم يظلون عرضة للموت جوعاً وبرداً وذعراً...)⁽²⁾.

أو كما في هذه النماذج الدالة على هذا السجل المتحرك بين الباب العالي والجهات التابع له:

(1) مجموعة المحرّرات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من سنة 1840 إلى سنة 1910، م1، من سنة 1840 إلى سنة 1860، تعريب: فيليب وفريد الخازن، دار نظير عبود، بيروت 1996، ص 19.

(2) مجموعة المحرّرات السياسية والمفاوضات عن سوريا ولبنان، من سنة 1840 - 1910، م2 من سنة 1840 - 1860، تعريب: فيليب وفريد الخازن، دار نظير عبود د.ت، ص 80 - 81.

(الإبلاغ عن تمرد أحد الزعماء المحليين في ولاية حلب ولجؤته إلى أبو ريشة ثم إلى أمير سنجق حمص والاقتراح بالتكليف به) «959هـ - 1552م» ص 227.

عن التجارة: حكم سلطاني بتسهيل مهام التجار الفرنسيين في الأراضي العثمانية بناء على طلب ملك فرنسا وعدم التدخل في شؤونهم «951هـ - 1545م» ص 243.

يوميات حملة السلطان سليم الأول على بلاد الشام ومصر ص 299: بدءاً من 4 جمادى الأول 922هـ / 5 حزيران 1516 ص 304 - ص 352، أي الاثنين في 17 رجب 924 هـ / 25 تموز 1518.

م2: فساد إداري: اتهام أحد سباهية الشام بالتجاوز على المال الميري وقيامه بأعمال الفساد والقتل، والأمر بحبسه مع أخيه والتحقيق معه ومعاقبته في حالة ثبوت تهمة القتل عليه: حكم إلى دفتردار حلب: أرسل بكلر بكى الشام رسالة يذكر فيها أن قاضي قره لر أبلغه بأن سليمان بن برق وأخاه وهما من سباهية الشام مطالبان بمال ميري ص 34.

تعرض قافلة خان التتر إلى السرقة قرب دمشق واتهام شيخ فرقة ذوي الرايات الحمر» اليمانية» بذلك والمطالبة بحبسه أو نفيه خارج البلاد ص 38.

صراعات وتمردات: كشف بأسماء الزعماء المحليين وشيوخ العشائر البدوية وأمرأ السناجق في بلاد الشام ص 95.

الإبلاغ عن قيام نصر الله بنقل الحجاج وطلب زيادة عدد السباهية المطلقين بحماية الحجاج في الطريق ص 144.

قيام أمير سنجق حمص باعتراض سبيل زوجة أمير سنجق السلمية والأمر بقيام قاضي حمص بالتحقيق في الموضوع ص 196.

في الأمور الصناعية: الاستفسار عن إنتاج الصابون في مصابن طرابلس الشام ومقدار الرسوم المستوفاة منها، والأمر بإعفاء مصبنة زوجة السلطان من هذه الرسوم ص 231.

شمول ولاية الشام بقرار منع حياكة الأقمشة المطرزة بالذهب وتحميل البكلربكي مسؤولية التجاوز على القرار ص 235.

الإبلاغ عن تهريب النقود المضروبة في حلب إلى بلاد الشرق لاختلاف عيارها عما يضرب هناك، والأمر بقطع النقود المضروبة في حلب وآمد وبغداد على العيار المعتاد عليه منذ القدم. ص 237.

العشائر والزعامات البدوية: الإبلاغ عن إصرار أهالي بعض القرى والعشائر في ولاية الشام على الامتناع عن أداء الالتزامات المالية وقيامهم بأعمال الفساد والأمر بالتحقيق. ص 255.

الإشادة بالدور الذي قام به أميرلواء السلمية بالتنكيل بعشيرة آل صبيح البدوية وتكريمه وتكريم ابنه. ص 269.

الإبلاغ عن إقامة الزعيم البدوي المتمرد أبو ريشة عند عثمان بن محمد زيادة، وتحقيق اللأمن والأمان في منطقة سلمية، والشروع في زراعة الأراضي المتروكة في أراضي البرية. ص 273...⁽¹⁾.

ذلك كان جزءاً من المنظومة السياسية والاقتصادية للسلطنة، بمقدار ما كان تعبيراً عن صور الفساد وسبله في الجسم الهائل والمترهل للامبراطورية، والذي كان يُرى من زوايا كثيرة جداً، على قدر الصراعات الموجودة، وابتداع الأساليب التي تنشطها بالمفهوم الثوراني البركاني، وما في ذلك من تنافس متنوع التواتر بين العاملين في الأرض ومن يشرفون على إدارتها، والولاة والموظفين الكبار وحتى على مستوى رجال الدين والقضاة والعسكر، حيث إن هذه الملزمة السياسية، إن جاز التوصيف كانت تتداخل مع ملزمة الطبيعة والمخاطر التي تتفتق قريحتها عنها، ربما كرد فعل على ذلك الاستهتار بها وابتزازها دون مراعاة «رد فعلها، أي ما يمكن للطبيعة أن يؤول إليه أمرها جرأ العسف بها، والتداعيات السياسية إثرها (شكلت القوى الطبيعية والاقتصادية والسياسية جميعاً نمط الاضطراب الريفي ومعدلاته في القرن التاسع عشر. إذ إن حالات الجفاف، أو المجاعات أو إغارات الجراد، التي كانت جزءاً مألوفاً من الحياة في معظم الأوقات في هذه الفترة، غالباً ما سببت

(1) البلاد العربية في الوثائق العثمانية «النصف الأول من القرن 10هـ - 16م»، إعداد وترجمة ودراسة: فاضل بيات، تقديم: خالد أرن، استانبول، 2010، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

حالات الشغب سعيًا وراء الخبز لكنها لم تصل عادة إلى العنف أو التمرد المتواصل⁽¹⁾.

هذه التغطية البانورامية تتجاوز مع التعليمات الصارمة للباب العالي، إنما تبقى الإصابة بعدوى الاختلال أو الغفلة عن خطر ما، أو التحضير لعمل يخل بأمن الامبراطورية واردة، جرّاء تضارب المصالح، ونخر الفساد في بنيتها.

لحظة غير مقدّرة في التاريخ :

في لحظة ما، هي المعبرة شاردة في الزمن، أو لا يدقّق فيها، أو لا يُتنبّه لها، يحصل ما لا يؤخذ في الحسبان، تلك لحظة الغفلة التاريخية، أو كما تُسمى بـ«الفلتة»، حيث يتوفر وضع اجتماعي، طبيعي ونفسي، لظهور تحول مغاير لسابقه، أو حتى طارئ، بنوع من الانفجار الصادم للمعنيين بالوضع، إنها اللحظة التي تشكّل واقعة تاريخية أو حدثاً تاريخياً، يكون في المتن شخص ذو فعالية من نوع خاص أو أشخاص أو أكثر مؤهلون لأن يدشنوا عبر هذه اللحظة التاريخية التي يكون لها حساب جديد بمفهوم الزمن، تلك التي يدوّن فيها هذا المختلف، أو المخالف لإرادة الحاكم، أو السلطان«السنّيّة»، كما الحال في كل المنعطفات أو التحديات التي تطرق بوابة الزمن الصلدة الكبرى، ولا يعود الزمن كما كان.

والأشخاص الذين لديهم حساسية تجاه الزمن، ممّن يحوزون وعياً يقظاً ما بميزان الزمن الاجتماعي وهو محمول بثقل أي صراع اجتماعي، أو وطأة وضعية معينة تحفّز على لزوم التحرك، لتغيير نوعية ثقل ما في كفة الزمن، ولو في الإطار العائلي أو الأسري، يمكنهم أن يتوافروا في كل مكان أو زمان، أو يغيّروا في نبرة الواقع، كما لو أن طبيعة ما تتطلبهم، أو واقعة تاريخية تشير إليهم لتحمل بصمتهم، بنوع من التفاعل غير المدرك إلا من قبل من يعيشون حيوية هذا التحول. تلك الواقعة المسجّلة بمفهومها الاجتماعي، والتي ينظر فيها في الآن عينه من الزاوية النفسية، ومعرفة الحافز النفسي، وكيف تبلور ليصاغ في هيئة قوة

(1) إينالجك، خليل: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، تحرير: خليل إينالجك بالتعاون مع دونالد كواترت، ترجمة: د. عبداللطيف الحارس، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2007، م2، ص 648.

ملموسة، ومفصّل عنها كلامياً، هي التي ترسم إحدائية واقع تاريخ يتأرشف في صدور أناس معينين، أو تصبح نزيلة ألسنة تهدج بها في المجالس أو في أماكن معينة، لتصبح أكثر ثباتاً في الذاكرة، ولا بد أنها في الحالة هذه تُمزج مع مشاعر وخيالات ورغبات الذين يروونها أو يكسبونها قيمة جمالية واعتبارية معينة، لا بد أنها وهي قد تجد مسار أكثر حيوية لها لتعاین أكثر من خلال أغنية، وهو ما يهتم به الانتروبولوجي وينقله إلى قرطاسه.

بروينسن الذي يشغل بهذه اللحظات التي تعاش في النفوس، خارج الزمن التقليدي بالنسبة لذوي السلطة، يرى فيها جدارة في التدوين، كما في الواقعة الأسرية لآل حاجو آغا، وهي تتلون بمؤثرات الزمن، وأصوات الذين تفاعلوا معه وأكسبوه حضوراً باسمهم إذ يتابع قارئاً (في العام 1896 اغتيل حاجو الثاني بتحريض من زعيم الدكشورين، جيمو، فانتقلت الزعامة إلى عليكي بطي وجليبي، وهما من فرع العائلة الأصغر عمراً. ورغم أنهما كانا على خلاف دائم بينهما، فإنهما جمعا جميع الأفخاذ تحت سيطرة عائلتهما. فواصل عليكي، الشجاع، ذو الجاذبية الشعبية، وبطل القرية الأسطوري، حرب عصابات ضد الحكومة لأكثر من عشرين سنة. وأقدم على قتل جيمو بيديه هو انتقاماً لمقتل عمه. وفي خلال الأيام المضطربة التي أعقبت هزيمة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى، استولى على بلدة ميديات وحاول أن يقيم حكومة مستقلة هناك. ويومذاك لم يكن مسيطراً على الغالبية العظمى من الهفركانيين فحسب، بل على قبائل مجاورة أخرى أيضاً. وتطلع المسيحيون، الذين كانوا قد تعرضوا للقمع على يد الأتراك والقبائل الكردية الأخرى، إليه بصفته حاميتهم، بل إن مقاتلين مسيحيين أشداء أسهموا في ازدياد نفوذه» في الهامش رقم 99، نقرأ: حول عليكي، وثوراته وحمانيته للمسيحيين، هناك أيضاً بعض الملاحظات الموجودة في ملفات وزارة الخارجية البريطانية.. إن أخا عليكي في السلاح، المسيحي شمعون حنا هو موضوع العديد من الحكايات البطولية التي يرويها مسيحيو طور عابدين . ص 232) .

تلك لحظة مكثفة وشديدة التأثير، جهة بنية العلاقات الكردية- الكردية المتوترة، حيث يظهر أشخاص أو يبرزون، ويختفي آخرون، ليكون هؤلاء بدورهم، ومن خلال فعلهم التاريخي مرصودين من الخارج، لأنهم لا يعودون بالمفهوم

الاجتماعي كغيرهم ضمن حافظة الأعراف أو السكينة التي يداوم المتنفذون في المجتمع، كما لو أن فعل القتل وهو الذي يتم على غفلة أو ما يُسمَّى بـ«غيلة» ليس أكثر من حركة منتسبة إلى تلك اللحظة الزمنية والتي تخرج الناس من روتينية حياتهم اليومية بالشكل الذي ينبههم إلى أن هناك ما يجري في الخارج، أو ما يحدث أحياناً خارج حساباتهم النفسية والاجتماعية كذلك .

في الحديث عن اغتيال حاجو الثاني نكون قد أصبحنا في إحدى حلقات التاريخ الأسري الأكثر حمولة بالتوتر، أو بمأساة تلقي بظلالها على المناخ الأسري، وما تحمله اللحظة هذه من شحنات عداوة تجعل العنف قاعدة يحتكم إليها أشخاص، في أنفسهم رغبة تشدهم إليها أو كما لو أنها متشكلة وفق هذه الرغبة أو تلك، لأنهم يجدون أنفسهم معنيين بها في الصميم، بما أن الاغتيال لا ينظر في أمره كمفهوم اعتباطي أو عادي، وإنما ما يشكل بلبله في المحيط الاجتماعي بالنسبة لجماعة كانت تعرف من خلال من تم اغتياله، وهو المهود في نطاق الصراعات القبلية الكردية، في دولة ترى فتوراً فيها خطراً عليها .

لحظة الاغتيال وبمقدار ما تكون نافذة الأثر، ومشهد الحداد النفسي وعنف الحدث وألم المصاب مؤثرات محتسبة بالنسبة لأهل المقتال، لكنها من جهة الذين يتفاعلون معها، تكون حافزاً لبروز لحظة أخرى، وهي في معرض إعادة الأمور إلى نصابها، أي حين تتشكل حركة اجتماعية، من قبل مبادرة شخصية تصدم هذه المرة من أحدثوا صدمة في لحظة الاغتيال، كما الحال مع عليكي بتي، هذه الشخصية التي تستدعي أكثر من مقارنة اجتماعية ونفسية لإضاءتها من الداخل، وهي التي وسَّعت مفهوم التعايش الاجتماعي الذي يتعدى المذهبية الضيقة تلك التي كان موظفو السلطان يسخّنونها لمصلحتهم.

لنتابع فيما بعد، اللحظة التي كانت مخاضاً تاريخياً في إثره كان ظهور حاجو الثالث الأكثر فاعلية تاريخية بالنسبة ليس إلى أهليه أو قبيلته فحسب، وإنما أيضاً إلى الوسط العام الذي تعرف به القبيلة أيضاً، وكيف أن المكان يحمل بصمته، وأن إرادة تمثيل الذات المغايرة لأي إرادة أخرى، كما يقولها أهل الاختصاص في تشخيص النفوس، هي التي تعدُّ لذلك، تلك اللحظة التي تأخذ حيزاً زمنياً وتجرب في إثرها أحداثاً وتصورات، بمقدار ما تمنح هفيركان مكانة من

نوع آخر من خلال شهصية أريد لها أن تكون زعاماتية، وأن تتقدم هفيران
بمكونها الاثني والديني المختلف، أعني حاجو آغا «الثالث» طبعاً (وفي العام 1919
اغتيال عليكي في ظروف غامضة، فانهارت وحدة القبيلة. وأنداك قام جلبي
وسرحان الثاني، اللذان كانا قد كوَّنا لهما في هذه الأثناء حاشية زاد تعدادها عن
مائة رجل «وهو حجم هائل لأي حاشية»، ببسط حكمهما على جزء من قبيلة
الهفركان، في حين بقيت بعض الفروع مستقلة يحكمها قادة من بينهم، بينما
اعترفت فروع أخرى بحاجو الثالث، بطل هذه القصة، زعيماً لها.

كان حاجو أنداك لا يزال يافعاً جداً، غير أنه كان يمتلك الصفات التي تؤهله
ليكون زعيماً قبلياً عظيماً- كان يمتلئ جسارة ويمتلك فكرة واضحة عما كان
يريد، لا يقف في وجهه أي حائل يحول دون الحصول عليه. وكان خبيراً في شن
الغارات وتمكناً من التكتيكات العسكرية. وشرع، وفي معيته حفنة من الرجال
المخلصين، بمضايقة أتباع جلبي، محاولاً في الوقت نفسه تجنّب الدخول في أية
مواجهات مباشرة مع الرجل نفسه. ولم يستهدف في البداية لباً مجموعة أتباع
جلبي، بل من كان أقل التزاماً تجاهه. فعلى سبيل المثال، إذا وجدت قرية كانت
تدعم جلبي لكنها بعيدة بعداً كافياً عن مراكز قوته الرئيسية، فإنها كانت ستهاجم
بقوة فائقة. فلم يكن حاجو ليهاجم إلا إذا كان متأكداً بنسبة 100 بالمائة من أن
رجالها كانوا أقوى بكثير من رجال القرية. فلا يقامر رجل فيما لا ضرورة له،
وليس لطامح أن يسمح بإنزال أي هزائم به. وكان، علاوة على ذلك، كثيراً ما
يمتطي، وزمرة من أتباعه المسلحين جيداً، خيولهم إلى داخل إحدى القرى ثم
يسوقون جميع الحيوانات التي استطاعوا العثور عليها، عائدين. «في البدء، بدا لي
عسيراً على الإدراك أن يكون هذا هو السبيل الذي ينتهجه زعيم للحصول على
الأعلوية في قبيلته هو، ولهذا فإنني توجهت بالسؤال إلى ابن حاجو، واسمه جميل:
«هل تعني أنهم كانوا يسرقون القطعان؟»، فأجابني جميل وهو المدرك لحقيقة أن
الأوربيين يصنّفون هذه الأشياء على نحو مغاير، بأن حاجو كان في الحقيقة
يستولي عليها فعلاً، غير أن ذلك لم يكن سرقة، بل «تالان: غنيمة»، وهذه تنتمي إلى
صنف مختلف كلياً: فاللص يأتي ليلاً ويأخذ الأشياء سراً، أما الرجال الحقيقيون
فهم يأخذونها علناً، وهم بذلك يتحدّون الجميع، ويظهرون أنفسهم بأنهم الأقوى،
السادة. كان حاجو ماهراً في شن الغارات، بينما لم يستطع جلبي حماية جميع

القرويين بشكل فعال، ولهذا أصبح العديد أتباعاً لحاجو لأسباب براغماتية جداً. وفي الكثير من القرى كان جزء من السكان موالين لحاجو، وجزء لجلبلي. وفي مثل هذه القرى كثيراً ما كان يحدث تبادل لإطلاق النار بين الفصيلين. وكانت هذه عادة عبارة عن قرى قد جرى تقسيمها سابقاً، وجاء صراع القوة بين حاجو وجلبلي ليذكي النزاعات القائمة» في الهامش 100: هذه هي الظاهرة نفسها الموجودة وقت الانتخابات في كردستان التركية. فالفصائل المحلية للفروع القبلية المتنازعة تتحالف مع الأحزاب السياسية المتضادة. ص 234»).

قبل التعليق على ما تقدّم، كتبت مفردة «تالان Talan : غنيمة»، إنما تعني» النهب والسلب أيضاً، سوى أن المهم هو مدى ارتباطها بمفردة كردية أخرى على غاية من الحساسية والاستقطاب الدلاليين «تول: Tol: الحيف/التأثر»، كما لو أن من يغير/يهجم، إنما ينتقم وينهب، فكأن الهجوم خروج إلى عالم تصفية الحسابات، وتطبيق لمبدأ القوة الفارضة، وأن أي غلبة تحدّد الانتقام القائم بصورة ما، وبتوافق مع «تالان: الغنيمة»، في سيستام العلاقات القبلية المرتبط بالأرض والمنافع، وما يتعداها، أي إن عامل الغلبة يسمّى أشخاصاً دون سواهم، حيث الزعامات نفسها، من حيث التقييم: تالانية- تولية، لأنها تقوم بمنطق الغلبة، وسيادتها إقرار بغنيمة، وقد تم الانتقام، لتعود القوة إلى سابق عهدها: مخفية !..

ماذا يمكن القول في رواية بروينسن المنقولة؟

ثمة نقل لرواية طويلة، ومتقطعة، إن نظرنا في بعض لحظاتها بالنسبة لواقعة ظهور حاجو الذي يلخص في اسمه ما عدا، من منطلق الزعاماتي بالذات، وكذلك حين يربط مصير القبيلة بحياته، وهو ينتقل من وضعية ابن القبيلة هذه وفي حدودها إلى «خارج» على الدولة، أي حين يكون حاجو هذا متحركاً ضمن مساحة جغرافية تشمل الأراضي المقسّمة بالمقص الحدودية السياسية بين كل من تركيا وسوريا وبمخطط سايكس- بيكوي، حيث تكون فرنسا المشرفة والمنتدبة في هذه اللحظة التاريخية، يكون حاجو أكثر من كونه شخصية قبلية، رغم انتمائه إلى قبيلة، من خلال تحركاته التي ستأخذ منا وقتاً طويلاً على مستوى المقاربة التاريخية والمكاشفة الاجتماعية فالسياسية، حيث نسمع كلاماً كهذا من بروينسن لاحقاً (بالإضافة إلى الوسائل الاعتيادية المستخدمة لتحقيق التقدم السياسي «كالتنازع وشن الغارات، والعلاقات الجيدة مع الدولة» كانت لدى حاجو وسيلة

ثالثة لزيادة نفوذه: بصفته قومياً كردياً. فقد غدا أحد أبرز أعضاء عصبة خوييون الكردية التي كان لها نصيب كبير في التخطيط لتمرّد أراارات في الفترة «1929-1930». وحينما هددت الجيوش التركية المتمردين الأكراد في منطقة أراارات راح حاجو يشن غارات داخل الجزء الجنوبي- شرق من تركيا، في محاولة لحرف اتجاههم. ص 238)، وهو الذي دفع به لأن يمارس توصيفاً لما حدث وفي الصفحة ذاتها، وفق تصور نفسي بعمولة سياسية أكثر عمقاً في دلالتة(وهكذا أصبح حاجو الزعيم القبلي الكردي الأقوى والأشد نفوذاً في أرجاء منطقة واسعة. وجاءته المنية قبل أن تستطيع التطورات الاقتصادية والسياسية زعزعة موقعه، فظل في ذاكرة الناس يحتل مكانة آخر الزعماء العظام).

بالطريقة هذه نكون قد عبرنا مسافة زمنية طويلة، كما أننا طوينا أحداثاً كان ينبغي التوقف عندها، لأن كلاً منها، يشكل لبنة صلبة ومرئية في المعمار الاجتماعي والسياسي لهفيران، حيث يحفرها طموح لأن تكون خميرة كيان سياسي دولتي، وهو ما سنتابعه بالتفصيل، إنما على أرضية التحليل النفسي، إلى جانب المؤثرات الاجتماعية والتأريخية كذلك، عندما نعاود البحث فيما سبق قوله، ليس رجوعاً إلى الوراء، وإنما هو النظر فيما جرى، ونظراً لفاعلية مداه المستقبلي «صوبنا»، من خلال روايات أخرى، تصلنا بهذه الرواية المنقولة بقلم بروينسن وهي مترجمة، ليكون في الواجهة بناء تأريخي أكثر قبولاً، أكثر أهلية لأن يهتم بموقعه.

أي حيث يكون زعيم من نوع آخر، إزاء كلام متردد من نوع آخر، وبقاء المنظور الزعاماتي في الواجهة، بمفهومه المركزي عرفاً متفقاً أو شبه متفق عليه، لهذا يظهر أن حياة المعتبر زعيماً وقتذاك كانت على المحك، فعلى قدر تمكنه من مواجه العدو أو كسر شوكتة، يكون ذبوع صيته، أي بما أنه زعيم فهذا يعني وجود من يتحداه وينازله على الحدود، ومن يكمن في الداخل يناوره أو يتربص به، وهو من جهته متيقظ لتأكيد زعامته.

لكن نقطة نظام تاريخية تُستدعى هنا، بخصوص «يفاعة» حاجو الثالث، كما ذكر بروينسن، وهو ما نتلمسه في كتابات كثيرة، ستوضح تالياً، وهي أن العمر المقدّر لحاجو آغا حينها «سنة 1919»، كانت تتعدى الـ «30» عاماً: في هويته، كما سنرى، ترتد سنة التولد إلى 1878، وفي كتاب باروت : 1880، وفي رواية شفاهية

1885... الخ، أي إنه لم يكن يافعاً، إنما ناضجاً تماماً، فكيف يمكن إيجاد حل لهذا اللغز؟ أين كان وقتذاك ؟

لدينا ، لحظة العودة إلى كتابة بروينسن، جملة زعامات وروايات شتى!

إنها روايات أشخاص آخرين تُعدّ على مستوى التمثيل من صنع التاريخ الشفاهي وتهبّ الواقعة التاريخية قيمة معرفية ومن ثم اعتباراً أكثر أهلية بالتبني، أي معرفة تعلّم، وتعلّم يعرف بكل جزيئة تاريخ في حياة شخصية مكثّفة، وكيف يلتقي فيها الوحشي بالأهلي، الشديد الوضوح، بالهائل الغموض، تبعاً للألسنة التي تنسج أقوالها، ومن زوايا غاية في الاختلاف قبل أي حديث عن الائتلاف، لأن القبيلة المركّبة هذه «هفيركان» لا تعانٍ إلا من زوايا عديدة في تعدد مكوناتها أو الأصوات التي تعرّف بلغاتها ومذاهبها وأمزجتها كذلك، لتمحيصها أكثر، والتي قال فيها ضابط الاستخبارات السوري محمد طلب هلال ذات يوم، وفيما بعد، على مستوى تبني «دعوته» إلى كيفية الحذر منها، وهو في معرض تقييمه لها كعشيرة هذه المرّة، إنما ليؤكد جهوزيتها في النيل من الآخرين، بمعايير لا تتطابق مع تصوراته وهو في موقعه السلطوي النابذ لنشاط أو أكثر يحمل سمة الكردية المضادة للجاري، وما يترتب على قوله من تسجيل قيمة مغايرة لما ذهب إليه (عشيرة الهفيركان الكردية: لقد تمرست هذه العشيرة في أعمال الشقاوة وقطع الطريق على مر تاريخها..)⁽¹⁾.

(1) هلال، محمد طلب «ملازم أول»: دراسة عن محافظة الجزيرة من النواحي القومية والاجتماعية والسياسية «وثيقة»، منشورات كاوا، بيروت، ط1، 2001، ص 39. ينظر ضمناً، ما يثيره غشر ديشنر عنه في كتابه: الكرد «شعب بدون دولة: تاريخ وأمل»، ترجمة: د. جورج كتورة، دار الفارابي- بيروت، دار آراس- أربيل، ط1، 2014، ومن باب التعريف (أما كاتب هذه الورقة فهو رئيس مخابرات هذا الإقليم المدعو هلال، الذي سيصبح لاحقاً وزيراً في الحكومة بدمشق، وفي هذه الورقة المكتوبة يبرهن المؤلف أولاً، أن الكرد لا يشكلون شعباً قائماً بذاته، بل إن ما يتعلق بهم لا يتجاوز كونهم مجرد برابرة يقومون بأعمال عنفية. بعد ذلك يقترح في برنامج تضمن 12 نقطة، القيام بإجراءات جذرية ضد الكرد، بل إن هذه النقاط كانت جد راديكالية بحيث إن المؤرخ الكردي عصمت شريف وائل وصفها باعتبارها الموازي لـ «كفاحي» السوري، من أجل إيجاد حل نهائي للقضية الكردية. ص 375). وما يعنيه ذلك من ذبوع صيت كتاب عروبي، مؤدّج، يحفّز على ارتكاب أكثر من إبادة جماعية في شعب مختلف، تحت وهم تمثيل المكان..!

كتاب ليس بمفرده :

يشكّل كتاب نذير جبو الذي اهتم بهذا المشترك القبلي تاريخياً قبل كل شيء لحظة ثقافية مهمة في هذا السياق المتشعب، حيث إنه يعرض نقاطاً كثيرة، كما أنه لا يخفي تأثيره ببروينس، لكن ما يرويه ويثيره يمنحه حضوراً شخصياً لافتاً، حيث إن هذا الكتاب «سلاطين هفيركان»، رغم أنه في جزئه الأول، يكاد يشكل المرجع الأوحّد حول الموضوع في حدود معلوماتي ذات الصلة، أو وهو في قلبه التركيبي يوفر لقارئه الكثير مما يبحث فيه، ويعرضه للمناقشة كذلك⁽¹⁾.

كيف يمكن الدخول في إطاره، وما الذي يمكن التوقف عنده، حيث ينفّث على أكثر من تاريخ، أكثر من لحظة زمنية فيه؟

ربما كان الاستهلال بقولته هذه (بقدر ما أن تاريخ الكرد هو تاريخ الانتفاضات ضد جيوش الاحتلال والدول الامبريالية، فإنه أيضاً تاريخ الخيانة والصراعات الداخلية... ففي مقابل كل انتفاضة تحدث نلاحظ وجود خيانة والصراعات الداخلية. ففي مقابل كل انتفاضة تحدث نلاحظ وجود خيانة. ص 25)، مفيداً لنا ونحن في مواجهة أكثر من مشهد مضاعف من الداخل اجتماعياً وسياسياً، أي حين تصبح هذه الكلمة ذات دلالة أخرى لا تقتصر على مجتمع الكتاب بالذات، وإنما تشمل تاريخ الكرد عموماً، كما لو أن لحظة الخيانة هذه، تمثل ارتكاسة زمنية، وبلبلّة وعي المهتمين به والحريصين عليه، إنما في الوقت نفسه إشارة مكثفة إلى لزوم مراعاة هذه اللحظة الدقيقة والخطرة بوصفها انزلاقاً تاريخياً عن محوره، إن جاز التعبير، بالنسبة لكل مقارنة تاريخ كردية، حيث إنه من المستحيل تحريره أو استقصاؤه أو التنقيب في حقله الاجتماعي دون ملازمة هذه الفكرة الصادمة لما عداها، كما لو أن كل سلوك طريق يحذر السالك بوجود التنبه إلى عائق، قنبلة، أو لغم حيث يتجه، ليكون متنبهاً أكثر، قبل أوانه، وجبو إذ يتحدث هكذا، فلا بد أنه سعى إلى تقديم المتأخر، وتأخير المتقدم، كون الخيانة، كمفهوم اجتماعي، سياسي وأخلاقي ليس كردياً الولادة أو الأوصاف تحديداً،

(1) أتعامل مع هذا الكتاب «سلاطين هفيركان» في مصدره المذكور، تعاملي مع كتاب بروينس وغيره، حيث يتكرر ذكره كثيراً وبصورة متسلسلة، فأكتفي بتثبيت رقم الصفحة في المتن دون تهميشه وما في ذلك من عبء مجّاني.

تعمل بمبدأ الصدمات التي تخرج كل شيء عن مساره، وعما هو مألوف، نظراً لأنها ثقيلة الوطاء طبعاً، وربما لأن هناك تأسفاً من قبله، حين ينشغل بموضوعه، ويصطدم هو الآخر بما كان يرفضه، أي ما تستحقه هفيران بالذات، ما كان يجب ألا يحصل في تاريخها من انقسام ومن ويلات جرأ هذا الفعل «الشاذ» أخلاقياً، سوى أنه وكونه متعدد الجنسيات أساساً، وليس ناطقاً بالكردية بالمقابل، ومختلف الأماكن، وفي جهات شتى، فإنه من حيث التكوين لا ينظر إليه أخلاقياً، إنما كفاعل تاريخي، ومحرك لمحضرات تعمل على تطويب التاريخ بأكثر من صيغة طبعاً.

ذلك ما سنتعرض له بدوره فيما بعد، سوى أن الممكن قوله، إذا كنا باحثين في التاريخ، ومفتتحين إياه بمثل هذه الكلمة التي لا أظنها بمريحة حتى بالنسبة للقائم بها، لأنه يعتبرها فعلاً بطولياً أحياناً، كما أفصح عن ذلك ريكور ولو بعبارة أخرى تتمثل تلك في المضمون (الأحداث تعني للبعض المجد في حين أنها تعني للبعض الآخر المذلة)⁽¹⁾، وبالتالي، فهي من حيث المقام صنعة تاريخ وفاعل تاريخ معاً، حيث إننا من الصعب قراءة وقائع تاريخية كثيرة دون رؤية دور كهذا، والأبعد من كل ذلك، حين نسمي ما وردنا من المدخل الديني لتاريخ البشرية، استناداً إلى قتل قابيل لهابيل، فتلك هي واقعة سفك الدم الأولى، وتلك هي المواجهة الأولى بين طرفين، وهما توأم، كما أشير إلى ذلك، وما قام به قابيل الذي مازلنا ندفع الكثير ثمن جريرته، في حق أخيه، لم أكثر من عمل خياناتي، أو خيانة مرتكبة، أي بما لم يتوقعه أخوه هابيل، وما في هذا التحيين من إعلام من وراء الغيب باعتبار العنف عراب التاريخ الأتم وفي مختلف محطاته ومنعطقاته الكبرى.

وبعيداً عن استرسال جبو في هذا المنحى، وهو يشدد على موبقات هذا الفعل، ربما تأثراً بواقعة بحثه وكونه هفيركياً كما أشار إلى ذلك في المقدمة «ص 21» وساعياً إلى ذم الجاري، ورفضاً لما يحصل وهو يحصل وسيحصل كما حصل مراراً وتاريخياً، فلا تكون العاطفة مفيدة في هذا الانشغال البحثي، بعيداً عن ذلك، يمكن النظر إلى هفيران كغيرها، وهي في تكوينها القبلي، كخلطة اثنية ودينية شكلت اسماً كهذا ذات يوم .

(1) ريكور، بول: الذاكرة، التاريخ، النسيان ، ترجمة وتقديم وتعليق: د. جورج زينات، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، 2009 ، ص 138.

ولكنه وهو يعرف بنفسه، يعرف بمدى قربيه من سلطة أصحاب القرار ومن لهم مكانة في نفسه، وفي الصفحة السالفة ذاتها (لعل أكثر الحكايات التي تركت أثراً في نفسي هي حكاية حاجو الثاني، أحد قادة عشيرة هفيركان)، شعوراً منه كباحث وكمستم إلى هفيركان، أن هذه الشخصية كانت تمتلك قدرات قيادية وربما كاريزما بمفهوم ماكس فيبر على صعيد استقطاب الآخرين، وأهليته لأن يتعدى بهيبته حدود هفيركان بالذات، وليكون التخلص منه، ربما، تأكيداً على هذه الأهمية.

ولا بد أن نفوره من الخيانة، استند إلى ما جرى، أي كيف قضى على حاجو الثاني غدرًا، وعلى يد من اعتبر من هفيركان وهنا الطامة الكبرى، جهة التسبب أو رفضه (حاجو الثاني، استلم زعامة عشيرة هفيركان من والده. وكان أكبر منافسيه من الأقارب هو جمو Cimo الذي ينتسب إلى العائلة نفسها .)، حيث إننا نقرأ في الهامش ما يناقض هذا التسبب، بلسان الدكتور بنكي حاجو ويذكر عن (أن جمو ليست له أية قرابة مع آل عثمان وبطبيعة الحال مع آل حاجو، وكان يرأس عشيرة صغيرة فقط وتعامل مع الدولة التركية». وكان الاثنان في نزاع وقتال مستمر.. وفي المعركة الأخيرة تمكن جمو الذي كان يحظى بدعم من القوات الحكومية، من أسر حاجو بعد أن نصب كميناً له، ولم يكتفي جمو بأسره بل أنه ذبح حاجو الذي كان مربوط اليدين.. ص22).

سوى أن جميل حاجو «1906-1990»، يورد معلومة تثبت صحة نسبه إلى هفيركان في اتحادها القبلي (كان جمو بن فارس من نفس عشيرة حاجو آلكا، وكان يرافق الجنود في بحثهم عن حاجو..⁽¹⁾).

فما الذي دفع بينكي سليل حاجو آغا إلى هذا الرفض؟ أهى محاولة لنبذ فعل شائن، يسيء إلى سمعة القبيلة، أم أن هناك أسباباً أخرى مازالت مغيبّة؟ أم إنه كان يعني بالقرابة، ما يصلها بما هو عائلي، أو من صلب هفيركان؟

على كل حال، أن يكون جمو منتمياً إلى هفيركان، ويكون صاحب «الجرم» ذاك، فهذا ليس بمستغرب، أولاً لأن تاريخ الكرد مشهود له بمثل هذه الوقائع، وما أكثرها، ولأن هفيركان المنقسمة على نفسها شهدت عداوات داخلية، حصل انقسام

(1) هفيركي، جميل حاجو: مذكرات جميل حاجو هفيركي، المصدر المذكور، ص 35.

جرأها، ومن ثم سفكت دماء من الجانبين، وهي عداوة لا أظنها مختفية، وتركت أثرها في بنية تاريخها كما سنرى.

لا يخفي جبو تأثره بما يكتبه، وهو يعرض تمنياته بمرجعيتها النفسية في صفحات تترى في الكتاب، نظراً لأنه رأى في هفيركان نموذجاً اجتماعياً صالحاً لأن يكون حاضنة كيان سياسي، أو متحولاً اجتماعياً متجاوزاً للقبلي فيه، وتحديدًا حين يتخذ من أسرة عثمان «نقطة انطلاق له أو» عثمان سلو»، إنما أيضاً لأنه يرى في هفيركان ما يسوّغ له عملية البحث هذه، وحضوراً يستحقّ عناء البحث كذلك (يُعدُّ اتحاد عشائر هفيركان أحد أكبر الاتحادات العشائرية في كردستان الشمالية أيضاً). ونعتقد أن اتحاد عشائر هفيركان هذا مثير للاهتمام إلى حد كبير، ويستحق الدراسة لأنه يعرض لنا بنية محلية ذات جوانب عديدة غير معروفة. إن الموضوع الأساسي الذي سنتناوله هذه الدراسة هو البنية الاجتماعية للاتحاد وإحدى الأسر التي تولت القيادة فيه وهي أسرة آل عثمان المعروفة في المنطقة باسم «سلاطين هفيركان». (ص 33).

أن يكون المرء سلطاناً أو يصبحه ليس كأن يكون أميراً، أو باشاً، أو وزيراً... الخ، لأن اللقب هذا يحمل طابعاً استثنائياً على مستوى السلطة ومأثرة الفعل الداخل في بنية المفردة: اللقب، وتلك شارة أخرى على الأهمية المعطاة لموضوعه.

مفهوم «سلاطين هفيركان» علامة فارقة في بنية الكتابة، وهي بمفهومها التاريخي تبحث عن يضيئها من الداخل، أي ما يدخل في نطاق كيان سياسي، محرراً إياها من خاصية القبيلة الضيقة، حيث الجغرافيا والتاريخ يشجعان على ذلك.

ومن اللافت بمكان أنه يستعين بأحد أكبر المنظرين للقومية التركية، وهو كردي الأصل، ويعتبر باحثاً اجتماعياً معروفاً، في إضاءة جانب من حياة هفيركان من الناحية الجغرافية، أعني به ضياء كوك ألب «1876-1924»، والذي قيل فيه الكثير، جرّاء «خيانتته» هو الآخر، إنما من معبر آخر في التعامل، حين يتحدث عن هفيركان هكذا (إن أراضي مديات وعرة عموماً. أما قرى المحلية الواقعة على طريق مديات - ماردين فهي أقل وعورة نسبياً. لا توجد هنا جبال مرتفعة والأراضي متشكلة من مرتفعات طولانية والوديان التي بينها. وعند التوجه من هذه المنطقة نحو الشرق، والشمال الشرقي، والشمال ترتفع التلال المؤلفة من

الصخور الصلبة، وفي بعض المناطق تأخذ شكل سلسلة. والأراضي التي يقطنها الدكشوريون بين سلسلة اليليكسر داغ وهي عبارة عن وديان عريضة تتوافر المياه الجارية في بعض مناطقها. أما المنطقة التي يقطنها الهفيريون فهي حجرية جداً وأكثر وعورة، واليكسر أراضي لا تتوافر فيها المياه. ص 38) .

آلب كان دقيقاً في تشخيصه الجغرافي لهفيريكان إلى جانب القبائل الأخرى، وما يمكن أن يكون الصراع حاملاً مؤثرات هذا التموضع في المكان، ورأساً خطوطاً لتحدي المكان من داخله، أي بالنسبة لهفيريكان وقد تشكل لديها رد فعل تجاه ما هي عليه، وما هو عليه وضع القبائل الأخرى، وتحسين المكان لا يتم بمجرد التفكير المباشر، في أرض مقسمة، وتتوزع عليها عشائر أو قبائل تحتفظ بحدودها، من خلال عامل القوة، لتكون صلابة المكان عامل تحفيز قوة إضافية للبقاء.

لعله مفهوم الاتحاد فاعل فعله في أنشطة هفيريكان، وهي باعتبارها اتحاداً، تجد في نفسها ذلك الدافع للتحرك، لتكون أكثر من غيرها على مستوى الاستثارة بالمكان، وفي التعامل مع العالم الآخر، بمفهومه القبلي وأكثر من ذلك، أي حين يكون الاتحاد في تركيبه خطوة اجتماعية مضافة إلى جسد القبيلة ذات اللون الواحد، أي ليست حمولة، كمجتمع مصغر، وهو يتضمن تنوعاً دينياً واثنيّاً، وما يتطلبه ذلك من مرونة في العلاقات واعترافاً متبادلاً فيما بين أفرادها وتعزيزاً لعلاقاتهم.

مسوغات لا تفوت :

إنما علينا أن ننظر في الموضوع هذا من زاوية أكثر انفتاحاً، وهي المتعلقة بالمسوغات التي تتجسد في بناء مثل هذا النوع من التركيبة السكانية، وأهمها يتعلق بالفاعل السياسي الخطير والذي يرفع سقف الحماية عن الكرد، وهو في مجمل محطات التاريخ مرفوع عنهم، كونهم يخضعون بالقوة لسلطات لا تمثلهم، وهذا من شأنه التمهيد لنزعات وخصومات، ومن ثم توترات وإخضاع كل مجموعة كردية جرّاء البعثة المكانية إلى أقل منها، أو اعتماد سياسة التفريق بين مكوناتها وإسكانها في مناطق شديدة التباعد عن بعضها بعضاً أحياناً، لئلا يكون هناك تمرد أو عصيان أو وقوف يتخوف منه في وجه السلطة المتحكمة، أو فرصة إعادة لحمة المجموعة المسماة عشيرة أو قبيلة، وإن كان للبيئة أحياناً دوراً في ذلك.

بالصورة هذه، يسهل التعرف على آلية عمل النسب في إطاره الكردي أكثر من ذي قبل، حيث إن الذين ينسبون أنفسهم إلى أصول لا تمت إليهم بصلة في الصميم، إنما هو على سبيل البحث عن مظلة محسوبة على ما هو سلطوي، أو معرّبة لصالح سلطة لا شأن للكردية بها مباشرة، وما في ذلك من إحياء بأن هؤلاء المنسبين أنفسهم إلى أب غريب واقعاً، لم يعد في مقدورهم القيام بعمل عصياني، وكأن تبني أبوة الغريب تأكيد على تحللهم من أي صفة مجابهة، ومن ثم يكون لدينا باراديغم نسب آخر، إن جاز التعبير، أي نموذج يُعتدُّ به، وقد لعب دوراً كبيراً في التاريخ عموماً، وفي التاريخ الكردي على وجه الخصوص، حين تصبح الحمولة ذاتها، وما فيها من جابع رضاعة محوَّلة واشهار انتماء من باب الاضطراب، خشية الاندثار أو الانتثار في المكان، يفقد فيه كل مقيم صفته النسبية وقد جرى صهره، أو تعرّض للنسيان.

الحمولة فعل اقتداء بأبوة لا تخلو من فتنة ومن إثارة بالمقابل، دعماً لعقد اجتماعي يقرب المنتمين مما هو مدني أكثر.

ولما يذهب إليه الهولندي المعروف بكردولوجيته بروينسن يعزّز هذا الطرح بصدد الكرد، أو الأكراد بتعبيره (فالأكراد لا يتذكرون سلاسل أنسابهم بالدقة التي يتذكرها بها العديد من الشعوب القبلية وغيرهم، وهكذا، بالنسبة لأقارب أبعد من أبناء العمومة/الخوولة من الدرجة الثانية، على سبيل المثال، لا يشغل المرء نفسه بمشقة تقصّي علاقته الدقيقة بهم. ويغدو الولاء السياسي الفعلي للحمولة أهم من صلة القرابة الفعلية... ولاحقاً: يلحق بعض الناس أنفسهم بحمولة، ويعرّفون أنفسهم بصفاتهم أفراداً منها، من خلال السلوك المتناغم معها حينما تنشأ المناسبة، وبعد جيل أو جيلين تُقبل سلالتهم بصفاتهم أفراداً كاملين في الحمولة، وأنذاك لا يكاد أحد يتذكر أصولهم الأجنبية...) ⁽¹⁾.

طبعاً، ثمة ما يجب توضيحه أو تصحيحه في كلام بروينسن، وهو أن أفراد الحمولة، وباعتبارهم قادمين أو مستقدمين من جهات نسبية مختلفة أصلاً، وأن ظروفًا معينة فرضة عليهم مثل هذا الاشتراك في التنسيب، أو أن عشيرة/ قبيلة وجدت نفسها مهية لأن تقبل بوافدين من الخارج، أو داخلين في جسمها السياسي،

(1) بروينسن، مارتن فان: المصدر المذكور، ج1، ص 119.

كما لوأنهم أفراد منها بالمفهوم العضوي، فذلك يرتبط بنوعية التقدير، لأن ثمة مشاكل ترافق هذه العملية، قد لا تكون أهلاً لأن تذللها، أو ترفض مثل هذا الانتماء، شعوراً من أولي أمرها أن ذلك يقلل من مكانتهم القبلية مثلاً، وبعض آخر يجد في ذلك فرصة تفيد الأطراف جميعاً، ولتكون عملية هذا الارتباط، ربما بما يشابه أخوة الدم، بحاجة إلى بعض الوقت، ليحدث انصهار طوعي من جهة، وتبذل الذاكرة التي تحتفظ بنسب سابق جهداً للتخلص منه، أو نسيانه حرصاً على النسب الجديد، والذي يتعزز قيمةً عبر الحمولة تحديداً، أي إنه نسيان وظيفي، ويكون الولاء السياسي ضامن أمان لكل الفرقاء من جهة أخرى، وأي انشقاق ربما يعبر عن فشل عامل التوحيد أحياناً !

ذلك يسمح لنا إزاء هذا التصور بمتابعة الخط المتعرج فالمنكسر والمتقطع لمفهوم النسب بمرجعياته الكردية، بالترافق مع خاصية الحمولة الكردية، والأخذ بعين الاعتبار ما يرتبط بعملية الانشقاقات المستمرة أو الدورية فالمباغته أيضاً في الجسد الكردي المصاب بالكدمات والطعان الكردية، على خلفية من هذا الاحتمال الأنف الذكر، والذي يلعب دوره الجدير بالدرس من زوايا شتى، حيث إن وثبة فرد ما من داخل العشيرة أو القبيلة أو الحمولة، أو أكثر بدافع التمرد أو الخروج عليها، إلى جانب الاتصال مع عدوها وهزيمتها بتأثير منه، قد ترتد إلى عوامل نفسية مكبوتة في اللاشعور الجمعي، إن استأنسنا قليلاً بالذخيرة الثقافية والتحليل النفسية لأقطاب التحليل النفسي: فرويد، يونغ، ادلر، وما في ذلك من تعبير حي عن استحالة التوحيد إلى جانب أن التوحيد هذا قد لا يكون أكثر من مخطط مبرمج بطريقة للنيل من الحمولة، أو تعزيزاً لذات هي محل تفاخر.

يصلنا ذلك بمنعطف خطير وفي عراء التاريخ الثقافي والاجتماعي للآخرين، وهو أن هذا الشبيه المورث أو المتوارث وهو موضوع دراسات كردية كثيرة، ويشار إليه في مناسبات كثيرة أيضاً: الخيانة، أو تمزيق وحدة صف الجماعة، وليس مجرد الاكتفاء بلعنة قدرية أو عقوبة قدرية تحول دون ممارسة الجهود اللازمة، وربط القول بالفعل، المجرّد بالمحسوس.

وإذا كانت هفيران مطروحة للنقاش من هذه الزاوية، فإن الواجب المعرفي يقتضي عدم الاقتصار عليها، حتى لا تكون المثال الذي لا يكون مثلاً بالمعنى

الفعلي للكلمة، لأن هذا القول يعني وجود سواء، الأمر الذي يحتم على الباحث توسيع دائرة النظر في حالات تشكل ما يشبه الظاهرة، ليكون المطروح للنقاش أو في الكتابة مكتسباً صفة علمية أكثر، أي وجود التحري عن أمثلة بالترافق مع هذا البحث لمعرفة أوجه التشابه والاختلاف، حيث إن الظاهرة وحدها جديرة بالتوقف عندها، وأن معاينة هفيركان صحبة أمثلة أخرى، على الأقل من باب الإشارة إلى وجود حالات أخرى تندمج معها، أو أنها تتقابل معها، تكفل التقدم بخطوات أكثر ثباتاً وتوازناً، خاصة وأنا إزاء موضوع متعدد الأبعاد وضمن حيز زمني مديد، إلى جانب اشتماله على خطوط جغرافية تتقاطع حدودياً، مثلما أنها تدخل في مضمار سياسات متخاصمة، أو تتنافس فيما بينها على مستوى أهلية التمثيل والسيطرة، والأسبقية في احتواء الآخر: الكردي، وهو موزع حدودي، ومحكوم بأكثر من سلطة تمارس فيه عنفها، كما أنها تخضعه لتعليماتها من موقع التحكم بالمصير على أكثر من صعيد، وذلك من خلال ما أورده مارك سايكس وكذلك إيفلتون وحتى ادموندز في مؤلفاتهم حول هذه النقطة .

سوى أن اللافت هو في وجوب تحرّي الدقة، ونحن نتعرض للقبيلة الكردية أو المشترك القبلي الكردي بالدراسة من جوانب مختلفة، وتتبع صيرورتها وسيرورتها، كحال هفيركان، وما يصاحب هذا البحث المتشعب من إضاءات مرافقة، وهو ما يشدنا إلى إثارة مجموعة من النقاط المسبقة، باعتبارها داعمة لبنية الفكرة ومنحها حضوراً تاريخياً .

أولى هذه النقاط، وكما أشرنا سابقاً، تتمثل في مراعاة الظروف التاريخية والبيئية، وما يغيّر في بنية القبيلة أو ينوع في تركيبها الديموغرافية ويلوّن في علاقات أفرادها مع بعضهم بعضاً، لنزداد فهماً لحقيقة هذا التناظر البنيوي داخلها .

إن إيفلتون يعطي إشارة مهمة في هذا المنحى، حين يقول (وليس لكل القبائل نظام متماثل، إن البنية الكلاسيكية «التقليدية» تبدأ بالظهور مع الأسر الممتدة التي يكثر أفرادها، أو الوحدات الصغيرة، أو الفروع التي يرتبط أفرادها فيما بينهم بالقرابة السلالية أو التزاوج... ولاحقاً: وفي القبائل الأضخم عدداً تصبح العلاقات أكثر تعقيداً، وحينما تتنافس فروع القبيلة على السيادة فقد تبقى النتيجة غير محسومة، وفي حالات كثيرة تتركز المنافسة بين فرعين متضادين، وإذا تطلع أحدهما إلى الزعامة

بالتعاون مع الحكومة المركزية، فإن الفرع الآخر يستفيد من الكرد المعارضين للحكومة، وقد تنتزع الزعامة من الفرع الآخر في فرصة مناسبة⁽¹⁾.

هذا يقربنا إلى حد كبير من طبيعة التجاذبات السياسية الخاصة بقبيلة أو حمولة كردية، وصراعاتها الداخلية على الزعامة، أي ما تكونه أصول الزعامة،

(1) إيغلتن، ويليام: القبائل الكردية، المصدر المذكور، ص 21.
جهة الحديث عن القبائل أو العشائر، ومن خلال الوارد في النص، حول حضور أي اسم القبيلة أو العشيرة أو غيابه وحلول آخر محله، نقرأ مثلاً، في كتاب الباحث د. إبراهيم الداوقي: أكراد تركيا، دارالمدى، دمشق، ط1، 2003، في تناوله للقبائل، ما يعزّز هذه الفكرة، حيث توجد مئات الأسماء للقبائل، وليس من أثر لهفيركان، إنما هناك (قبيلة زاخوران، وهذا التعريف المكاني: مقاطعة ديار بكر، سيواس، الرقة، اردهان ص 103)، وزاخوران مبتدأ هفيركان.
سوى أن الباحث د. أحمد محمد أحمد، في كتابه: أكراد الدولة العثمانية 1880-1923، سبيريز، دهوك، ط1، 2009، يقدم لنا معلومات أوفر بما لا يقاس، معتمداً على أكثر من أرشيف ومصدر، فثمة إشارة إلى هفيركان، هكذا (إلى جانب هؤلاء «الهافركا» Haverka يوجد مجموعة عشائرية كردية، شرق مدينة مدياد وغرب جزيرة ابن عمره وهم قسمين: الأول من مجموعة عشائر تحت قيادة عثمان آغا، والثاني لكل منهم آغا عشيرته، والقسم الأول لعب بعضاً منه دوراً في مسار الحركة الكردية الاجتماعية، وسياسياً برز علي بطة وحاجو، وقد برز من هذا القسم:

عثمان آغا

غير معروف	غير معروف	غير معروف	غير معروف
سرحان	شليبي	علي بطة	حاجو
سرحان	محمد صالح	يوسف	

ونقل حاجو سرحان وشليبي عام 1916 من قبل الأتراك بعد قلائل. ص 192
وهناك لائحة العشائر الكردية في كردستان الغربية 1922
ومنها

حاجو وشليبي ابنا عم علي بطة ومركزهم، سكن: ماردين
بيوت أو خيم: 8420-خيالة 300-مشاة 3700-مجموع 400- سلاح جديد 200- قديم 200- لا
ذكر لأي قرية» ص 193.

وضمناً ثمة معلومة عشيرة، مثلاً، تنتمي إلى اتحاد هفيركان، وهي:
عليكا: السكن: حطو، البيوت أو الخيم 600- ملاحظات: عندهم 15 قرية إنها لليعاقبة، 2
للمسيحيين، 3 يزيدون. ص 193.

إلى جانب تعريف شخصي، في العودة إلى هفيركان: حاجو: رأس الهافركه مع شليبي، ومعلومة تاريخية: سجنه الأتراك بين 1914- 1920، وكان أخوه سليمان أفندي مساعداً لقائمقام نصيبين عام 1920. ص 195...الخ).

وكيف تتم، ومن الذي يتقدم على الآخر، وما تكونه مكانة العشيرة/القبيلة/الحمولة من خلال القوة أو النفوذ في الوسط الجغرافي والاجتماعي، بحيث إن دراستها تاريخياً تقدم لنا معلومات ذات أهمية قصوى لمعرفة اللحظة الزمنية التي طرحت فيها مسألة الزعامة، أو تشكل صراع عليها، أو حصلت خلافات داخلها أيضاً.

هذا يسهل علينا رفع الغبن عن أي عشيرة/ قبيلة/ حمولة عندما توجه إليها الأنظار من باب التأثيم أو النقد المركز، بشكل يفوق نظيره إلى واحدة أخرى سواها، دون معرفة الأرضية الاجتماعية والسياسية التي تتحرك عليها، والنظام السياسي العام الذي يسيطر على المكان في محيطه الجغرافي العام، وقائمة القوى القبلية الأخرى المنتشرة فيه وطبيعتها: مستقرة، شبه مستقرة، رحالة بين الحين والآخر، زراعية أم تعتمد على أعمال الرعي أم تجمع بين الصفتين على الأقل⁹.

ذلك يسمح لنا بتعقب ما هو روتيني، وما هو مستجد على صعيد الخلافات أو الصراعات الداخلية أو الجانبية، أو جهة الارتباط بقوة غربية: في الدولة ضداً على مجموع القوى الموجودة في محيطها، أو ضداً على إرادة أغلبية أفرادها، لأن تثبيت الروتين يغفال عن حركة الزمن المباشرة، كما هو الحال في مكاشفة ثورة، انتفاضة، قيادة شخصية استثنائية بكيونتها.

يبدأ هذا التحديد من وعي المفهوم/ المصطلح الذي يغير في صورة أي منها: عشيرة أو قبيلة أو حمولة، ووظيفتها، لأن هذا الوعي هو أول ما يحتاجه العلم، أو ينبغي إبرازه في أي تناول للموضوع من زاوية علمية: تاريخية واجتماعية طبعاً، أي إن كل وجه فيه يسمي وجوهاً ضمناً.

في ملاحظة فائقة الوصف يقول بالاندييه بخصوص السلطة وهويتها السياسية عن أن (السلطة هي دوماً في خدمة بنية اجتماعية لا يمكنها المحافظة على نفسها بتدخل «العرف» أو القانون فقط، أو بنوع من التقيد التلقائي بالقواعد...وعليه، فإن وظيفة السلطة هي الدفاع عن المجتمع ضد نقائصه الخاصة والمحافظة عليه، إذا جاز القول)⁽¹⁾.

(1) بالاندييه، جورج: الانثروبولوجيا السياسية، ترجمة: جورج أبي صالح، منشورات مركز الإنماء القومي، بيروت، ط1، 1986، ص 37.

ما يمكن قوله هنا، هو أن السلطة موجودة لا لتحمي ما هو إيجابي، أو لتحرص عليه، إنما تحمي السلبي فيها، خوفاً من التدخل الخارجي، أو ظهور من ينل من هيبتها منطلقاً من سلبية معينة، وبالطريقة هذه، يمكن النظر إلى السلطة على أنها داء معد، وثمة من يحرصون على دوام التذكير به، أو الإشارة إليه، أو الرغبة في الاستعداد به، لأنهم مفتونون بهذا الداء الذي يكون السلطة بالذات، كما لو أنها وجدت لذاتها، ولا تحتاج إلى ثمن معين مقابل التفكير فيها أو الطلب عليها، وهذا هو الخلط الكبير بين من يشددون عليها لأنهم يشعرون بنقص في داخلهم، بفراغ يرمز إلى حياة دون قيمة، أو اتجاه لا خير يُرتجى منه، وأن حيازتها تعني التستر عليها، أو التغطية على الفراغ نفسه، ومن يسعون إلى السلطة ليس في ذاتها، وإنما بغية الحيلولة لئلا تقع في أيدي من يعانون من نقص في وجداناتهم أو صورتهم للعالم المحيط بهم، وأن الذي ينشغل بقتل الآخر، أو ذمه، أو السعي ما استطاع إلى كيفية إيذائه، تعبيراً عن نقيصة داخله، وليس بنية الإصلاح.

فحوى الكلام، أن الذين يحيون السلطة ويستبقونها مقصدهم هو هذا الداء المستفحل فيهم، كونهم تقليديين، وما يمنحهم التقليد من شعور بنشوة ترتقي بهم أو تعلي مقامهم، وتحفزهم على التماذي تعبيراً عن حق مشروع، وما في ذلك من لزوم الفصل بين السلطة حين تكون «لأجل»، والسلطة حين تكون «حرصاً على»، حيث يختفي المجتمع في الحالة الأولى، أو لا يعود بذی قيمة أخلاقية ضمناً، قيمة تشجع على العمل الخلاق، بينما يظهر في الحالة الثانية، ولا بد أن للسلطة قيمة مركبة من هذا القبيل، أي حين تكون مستوحاة من واقع الانانية بكل ضروبها، أو مستخلصة من وحدة إرادات معينة، بحيث إن التحدث باسم إرادة معينة لا يعني البتة أن بقية الإرادة قد ذوّبت ونامحت في ظل تلك السائدة بالمقابل.

هذا يقربنا من مفهوم النسب وكيف يكون انقسامياً داخل المجتمع الواحد، وهو في بنيته شديد التفكك جليّه، وعلى وجه الخصوص المجتمعات الأقرب إلى البرية أو المتاخمة لها لأن ظروفها اقتضت ذلك، وما يلعبه النسب من دور غير ثابت في تشطير المجتمع: القبلي، جرّاء سوء الاستخدام أو سوء فهم الوظيفة المحددة له، وما يترافق ذلك من قهي وغلبة، أي ما يتردد بشأن المجتمعات المسماة مجزأة، أو التي جزّئت، عن أنها ليست (مجتمعات مساواتية ومجرّدة من علاقات السيطرة أو الخضوع). فالعشائر والأنساب ليست كلها متساوية. يمكن أن تكون الأولى

متميزة... ويمكن أن تمنح الثانية حقوقاً غير متساوية حسبما ترجع إلى الولد البكر أم إلى الولد الثاني⁽¹⁾.

مفارقات النسب :

ينطوي النسب على كم هائل من المفارقات، وهي في بنيتها ترتد إلى السطح اللامستوي، أو المتموج للمجتمع الذي يضمه، حيث إن الأفراد المنتمين إلى النسب ذاته، وهم موزعون على نقاط متساوية البعد عنه بالمفهوم الرياضي، إلى أن المسافة الاجتماعية وبمؤثرها القدراتي ومدى تقدير المسافة الرياضية تلك، تغيّر فيها بشكل مختلف لدى متموقع.

لعله درس النسب للمجتمع الذي يتصور أنه يراعي المساواة في ذاته بالنسبة إلى عموم أفرادها، وأن الكرد الذين ينتمون أو يشعرون أنهم ينتمون إلى دائرة أنسابية، هم قائمون على خط التماس النسبي، أو في محيطه، ولكن الملعب، إن جاز التعبير قد يضيق بأحد لاعبيه أو يتسع، أو لا يثبت على حالة واحدة، استناداً إلى مواهبه أو إرادة المبادرة الذاتية، حيث تقبل الآخر أو رفضه، أو الميل إلى احتوائه، أو نفي الدخول معه في طراد عدواني، أو مجرد تنافس بغيض، وإنما لأن ثمة رؤية أوسع للمحيط المجتمع، ولو على مستوى القبيلة ذاتها، والشعور بأنه منذور لها، من موقع القوة المملوكة.

في وسعنا اعتبار كل الذين ينشغلون بالنسب الواحد على أنهم عاملون في السياسة، وأنهم يمتلكون الحق لأن يشعروا هكذا، غير أن لعبة السياسة ما أن يُعلن عنها، ويشار إليها، حتى لا يعود للنسب الذي يضم إليه جميع أفراد السلسلة، موصوفاً بقابلية الاحتضان عينها، والشغف الروحي ذاته، بمقدار ما يتحدد النسب كقيمة من خلال تفعيل أثر القدرة الذاتية، وما يمكن للفعل المجتمعي أن يؤتي ثماره، وما يمكن أن يؤدي إليه هذا الشعور المتفاوت بين الأشخاص إلى التضارب، ومن ثم تفجير خزان العنف الجانبي وجرف المجتمع نفسه، وأنا بغية فهم ما تبني عليه القبيلة/العشيرة/الحمولة الكردية في مهب المؤثرات التاريخية والتحديات السياسية، علينا التبصّر والتدقيق في فاعلية علاقة من هذا النوع:

(1) المصدر نفسه، ص 54.

كيف أن فرداً ما، يحتكر النسب لنفسه، باعتباره الأجدر بتمثيله حتى لو كلف ذلك دماراً لعائلته أو قبيلته، حتى لو كان المقدم عليه هو الدخول في حلف بغيض مع العدو الخارجي وهو المتربص أصلاً بأسرته أو حمولته، فيكون هو الطعام، انجراراً وراء غواية النسب الذي يُستبدّ حتى به، وفرداً آخر لا يفكر في النسب إلا تقديراً منه، أن ثمة ما يقتضي ذلك حياً بمجتمعه.

وهذا يعني من ناحية التقدير واقعاً كتركيب متعدد القوى، ومن حيث المآل القيمي أو المردود العملي (أن المجتمعات النسبية هي موضع تنافس غالباً ما يضرّ بالسلطات القائمة ويجعل التحالفات بين الجماعات غير ثابتة).⁽¹⁾ 30 .

هذا يشير إلى دوام اضطراع النفوس أو المشاعر والأحاسيس والأفكار، تجاوباً مع فاعلية القانون الفيزيائي في الكون، أو مفهوم الحياة في الطبيعة، فالبيولوجيا شقيقة الكيمياء، وهذه توأم الفيزياء، والثالث هذا يعلمنا بما لم نعلم وهو أن أي دعوة مشدّد عليها من قبل جماعة بشرية، والتعرّف بها، وقد صيغت قانوناً، أو صنماً خلواً من أي حركة، تخرج بالمنادين بها من التاريخ في الحال، أن الحديث عن العرف، أي عرف يخص المجتمع، مهما ضوّلت مساحته، لا يعني البتة الخول في قمقم مرمي في قاع البحر، إنما الرضوخ الفوري لقانون المتغيرات والتي تلتقي فيها الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا :

الأولى تتمثل في قانون السقوط في التاريخ، أو الارتقاء به، أو التحليق في فضاء واسع، جرّاء قوى مملّكة، كما الحال مع أفراد يتفاوتون في انتماءاتهم الاجتماعية وسلطاتهم السياسية.

والثانية تتمثل في معادلة التفاعلات بين العناصر، حين ليس للأقوى من قيمة استثنائية، لأنه يسمى من خلال المتفاعل معه، وأن الحصيصة هي حملّ الجسمين وقد توحدّا وتمازجت قواهما، إلى درجة صعوبة تحديد نسبة كل قوة أحياناً، كما في مفهوم الماء المكون من الهيدروجين والأكسجين. والثالثة تتمثل في قانون الحياة ونمو جسم ما أو ميله إلى الانحدار، ولا بد أن الناظر في المجتمعات البشرية، يتلمس مثل هذه المتغيرات والتفاوتات، وأن من يشدّ الحمولة إليه، ليس كمن يعمل لها .

(1) المصدر نفسه، ص 61.

في إشارة منه، وفي مصدره المذكور، يرى بروينسن مدى العسف في استخدام أي مصطلح دال على تجمع بشري معين في كردستان دون التنبه إلى مخاطره، أو التغافل عن نتائجه التي قد تبعد الباحث عن مساره الفكري المخطط له (يبدو أن المصطلحات الدارجة في الاستعمال الانتروبولوجي القياسي، «القبيلة» و «العشيرة» و «الحمولة»، لا تتناسب والواقع الاجتماعي في كردستان ج.1، ص 140)، وهي إشارة تأخذ مواقعها الدقيق من لعبة الكتابة الانتروبولوجية، جرّاء اختلاف الجغرافيا الكردستانية والمقيمين فيها إلى جانب الفاعلين فيها على الأرض، وربما المتحكمين بمصيرها، حيث يفصح كل مصطلح أحياناً عن مسقط رأسه في جهة خارجية، ويدقق ميدانياً في بعض المصطلحات المحلية، ومنها: «البابيك»، ونحن في منطقتنا «قامشلو محيطها»، نتهجّها هكذا «بافيك» Bavik، وهذه الكلمة مصغرة من «باف» أساساً «Bav»، وفي مدينة دهوك، مثلاً، يقولون «Bab»، وفي الحالتين، نغني بهما: الأب، أي النسبة إلى الأب، ومن المعلوم أن النسب على وجه العموم أبوي، وليس أمومياً، والزعامة إجمالاً تكون مرتبطة بسيطرة هذا النسب جنسانياً، وتوضيحاً لما تقدم يقول بروينسن عن أنه «أُتفق على أن مصطلح «بافيك» أو «بابيك» الذي يستخدمه الأكراد المتوطنون في هذه الأرجاء، ليس مناسباً لمثل هذه العشائر. ص 147»، طبعاً تلك التي تعتمد على (تيره - تايفه. ص 146)، بماذا؟ (ذلك أن «البابيك» عبارة عن حمولة سطحية إلى حد ما، يمكن تعزيزهما بموالين لا رابطة تضمهم)، وفي الصفحة ذاتها، يشير إلى («مال» بمعنى «البيت» قريباً جداً من مصطلح «بابيك» وهو يشير إلى حمولة خالصة «أي أن الموالين غير مشمولين»، ولا يطلق هذا الاسم إلا على حمولات تتحدر من أشخاص أقوى جداً. ص 147)، وفي السياق ذاته، ثمة المصطلحات الدالة على (أصغر الوحدات حجماً: «هوز»، بابيك»، «مال». ص 147).... الخ

والمنتمي إلى ثقافة من الخارج، أي يكون وافداً، دون الأخذ بعين الاعتبار، بأن نسبة معلومة من المفاهيم أو المصطلحات هذه قد تبيّنت «أي انصهرت في البيئة الكردية» كما لو أنها من جنس الكردية كلغة وثقافة، وذلك بتأثير من عمليات كثيرة، ومنها الغزو الذي يشهد على وجود حدود مكتسحة بامتداد التاريخ، عدا عن أن «هوية» العشيرة أو القبيلة أو الحمولة الكردية تكتسب قيمة اجتماعية وسياسية لها فضاؤها الثقافى الخاص جرّاء الأعمال التعسفية، والقرارات التي كانت تصدرها

الحكومات المحتلة لكردستان، وهي تمارس ترحيلاً وتهجيراً للكرد، بحيث يصعب العثور على قبيلة أو عشيرة كردية واحدة مستقرة في مكان واحد، دون أن يكون لها امتداد أو بقايا في جهات متباعدة وعديدة خارج كردستان.

ولعل مراعاة هذا الوضع التاريخي، تسمح بالتعرف على مأساة المصطلح الكردي المتعلق بما تقدم، إن جاز التوصيف، أي ما يكون الاعتماد على مصطلح دون آخر اضطراراً، جرّاء الحجر على اللغة وثقافتها، وحتى لجّم اللسان الكردي، وحظر التحدث بالكردية كذلك، بالإضافة إلى نوع من الاسترسال الاضطراري مع خيال محرّر لصاحبه من طغيان الواقع وعنفه المهور بطابع السلطات المتحكمة به، عندما نمضي صوب أصول القبيلة أو العشيرة أو الحمولة، وكيف لعبت النوازع الاجتماعية والسياسية ممثلة بشخصيات مختلفة في ميولها ومآربها أدواراً مختلفة في تاريخها المحلي.

ذلك سمح، كما يسمح حتى الآن بالبحث في الخلفية الرمزية لتلك النصوص الأسطورية المنشأ والتي تشبّط متخيل أمة ما قبل نشوئها، أو ذاكرتها الجمعية لتسكن إلى نفسها أكثر، وهي النصوص التي توحدتها مع ذاكرات شعوب وأمم أخرى، بمقدار ما تميّزها عنها بالمقابل نظراً لاختلاف الزمان والمكان والثقافة، فالجماعة المحرومة مما يسندها في حياتها كجماعة ويضفي عليها ميزة خاصة تعنيها هي وحدها، من باب التعويض التأريخي تستعين بإرادة متخيل كي تستقيم نفسياً.

ذلك ما استوقف بروينسن، وهو يتحدث عن ثنائية الانشطار ذات الصلة بالأصول وحتى بالنسب (في ثنائية الانشطار هذه، هناك صدى لأسطورة معروفة ومنتشرة على نطاق واسع حول أصول القبائل الكردية، مفادها أنه كانت هناك في الأصل قبيلتان، زيلان وميلان، كانتا مختلفتين ثقافياً، ومنهما تحدرت جميع القبائل التي تلتها. ص 176)، ويتكرر هذا الكلام في مكان لاحق وهو يتعقب الحراك النسبي لأصول الكرد قبائلياً على وجه التحديد واختلاف مسمياتها، إنما مع إضافة (ولا تزال الكثير من القبائل تعترف بانتمائها إلى واحدة من هاتين المجموعتين، اللتين يفترض أنهما قد جاءتا من الجنوب ومن الشرق، على التوالي. ودأى إبراهيم باشا أن عائلته كانت تمثل السادة الأعلى لجميع قبائل ميل ص 410)⁽¹⁾.

(1) طبعاً بالنسبة إلى هذين الاسمين «زيلان وميلان» أو «ميل وزيل»، لا يعرف مدى دقتهما، أو كيف تم اعتمادهما، ومن كان وراء ابتداعهما، أو تخيلهما ومنحهما حضوراً لهماياً وشحمياً،

تلك بدعة متخيل، وأحياناً ابتداع التاريخ العائد إلى ما هو وجداني، نفسي بالنسبة إلى سيرورة الجماعة المقيمة على أرض معينة وهي تجد نفسها وسط جماعات أخرى، وهي تردد على مسمعيها ما يتعلق بنسبها، أو أصولها التاريخية، وتحديداً بالنسبة للجماعات المحرومة من الكتابة، والمحصنة نفسها بالثقافة الشفاهية، فيكون لديها ذلك الاستعداد النفسي لأن تجتهد بحثاً عن جرثومة ماضية، أو موعلة في القدم، ومن ثم تعمد إلى تطويب هذا المبتدع وهي تتفنن في تجميله، ومن ثم إلى تكليف رواة أو من يتفنون به، داخل الجماعة ذاتها، ومن ثم نشر المبتدع في الخارج، والتأكيد عليه واعتباره حقيقة، وليس ما يمكن نفيه أو دحضه أو اعتباره حقيقة تاريخية عبر اللجوء إلى برهان ملموس نظراً للأثر الغائر في الزمن لما تقدم !

لنفتح هنا صفحة في الزمن غير المرئي، صفحة مطلوبة لملء فراغ مطلوب، ونحن نضيئها بقولة أحد الباحثين المميزين في هذا المضمار (ما من تغير عميق في

سوى أنهما من حيث الإيحاء، ربما يرتبطان بنوعية الانشطار، أو الشائبة القائمة على تبادل العداء، من نوع: محمودكي، عتمانكي، وامتداداتهما، وفي وسع الباحث أن يمضي بهذين الاسمين إلى الجهة التي تحتفظ بنظير مركب لهما، وكما ورد في كتاب الليدي درور: على ضفاف دجلة والفرات، تعريب: فؤاد جميل، الوراق، لندن، ط1، 2008، حيث نقرأ (في النجف طائفتان بينهما عدا: الزقرت والشمرت ولكل منها قادتها، كالصراع بين طائفتي «الكلف» و«الغبيلن»، في فلورنسا خلال القرون الوسطى.. ص73.. وفي الهامش للمؤلفة: بمجرد ظهور الصراع بينهما تعطل الأسواق وتسد أبواب البلد فلا داخل يدخل ولا خارج يخرج فتكون البلدة في حصار وتغلق أبواب الحرم العلوي.. والانقسام هذا موجود اليوم.. فثمة محلات في النجف «زقرت» وسواها «شمرت».. والزقرت هو الصقر، وفي العامية الدارجة «أنا زقرتي» يعني أنه خفيف المؤنة لا عدة له ولا عيال، والشمرت من «الشمر دل» أي الفتى السريع.. وسبب النزاع عشائري حول امرأة.. والشمرت بالتركية تعني الموسر، والزقرت عكس ذلك. ص 74.... والشائع أن الزقرت أشجع من الشمرت، وهناك طائفة معتدلة ثالثة هي «الشقرت، ص75»)، وقد ورد ذكر الأخيرين أيضاً في كتاب د. طارق نافع الحمداني: التدوين التاريخي في العراق، دار الوراق، لندن، ط1، 2010، بقوله (وفيما يتعلق بأحداث الصراع بين طائفتي الشمرت والزقرت في النجف، فقد كانت هذه الأحداث مما يحفظه الناس ويلهجون بذكرها في القرن الثالث عشر الهجري وأوائل القرن الرابع عشر الهجري.. ص184). ذلك يعني مدى نفاذ فعل الأسطوري في وجدانات الناس في مجتمعات معذبة بمثل هذه الصراعات حول الأصول وفكرة النسب بالذات.

الوعي إلا ويجلب معه، بحكم طبيعته ذاتها، ضروباً مميّزة من النسيان. ومن ضروب النسيان هذه تتبع، في ظروف تاريخية معينة، روايات وسرديات. ⁽¹⁾.

إذ على مستوى الجماعات كما الحال على مستوى الأفراد، تكون الحاجة ماسة إلى ترميم الذاكرة عند الشعور بعطب أو خلل معين يعيقها عن القيام بمهامها في الاسترجاع المعلوماتي الكافي، وفي مواجهة تحدي الزمن، ولا بد أن هذا الإجراء يتوقف على جملة من التحديات المتعددة والمتفاوتة، إذ على قدر التحدي تكون الحاجة ماسة إلى قوى أكثر حيوية، لوضع الذاكرة في موقعها الصحيح، أي حين يصبح النسيان آفة، ومحفزاً على الحيلولة دون طغيانه، كما لو أنه بديل الذاكرة، وحيث إن الأمم وبدءاً من الجماعات الصغيرة، تتلمس صورتها وهي في مهد تاريخها وتنتظر فرصة نموها ورعايتها ومن ثم حضانتها بالقدر الكافي من الاهتمام، وبعد ذلك بالدفاع الكافي عنها، لتكون جديرة بحمل اسمها، أو جالبة اعتراف بها، وما في ذلك من حيلة الذاكرة في الالتفاف على النسيان بحالات وثام

(1) هاملتون جيب- هارولد بوين: المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة: عبدالمجيد القيسي، دار المدى، دمشق، ط1، 1997، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز، من الجزء الأول، ما عدا المقتبس الأخير، فهو من الثاني.

وينظر أيضاً فيما أورده د. أحمد محمد أحمد في كتابه: أكراد الدولة العثمانية 1880-1923، المصدر المذكور، عن (الأكراد والنظام الضرائبي العثماني، بالنسبة لمناطق شرق تركيا: غياب القيادة السليمة للعمليات الاقتصادية... حيث كان الاقطاعيون يبدلون قوانين الحكومة المركزية ويطبّقونها بما يتلاءم مع توسيع سلطاتهم وتعزيزها ص 261... وعن الضرائب الكثيرة التي لم تستثن شيئاً: الضرائب على المواشي، مثل: ضريبة عن كل خروف، وعن كل حيوان، يملكه المواطن، فضلاً عن أعمال السخرة بتكليف الفلاح بأعمال دون مقابل، ومن الأتاوات ما يسمى «آغاتي، أي حق الآغا وهي نسبة يقدمها المواطن إلى رئيس العشيرة من القمح والشعير، أو الغنم ثم هناك ضرائب على ما ينتج من الزبدة أو دهن الطعام، أو البيض، وضرائب لتغطية تكاليف خدمة وحراسة رئيس العشيرة وضريبة زواج أحد أقرباء رئيس العشيرة، وضريبة المراعي» بوسان، وبعضاً من المحاصيل مثل «رونان: ضريبة عن السمنة المحصّلة» وهي عن محصول «هيكان: ضريبة على البيض»، وضريبة على كل نوع من أنواع الإنتاج، وضريبة على المالكين من الناس على ما يحملون معهم من مواد غذائية... الخ، ص 262... وما كان في النتيجة بالنسبة للكردي: لقد عانى المواطن الكردي البسيط الأمرين على يد الأمير الإقطاعي، وكأنه سلطة فوق سلطة السلطة، فكان هذا الإقطاعي يأخذ الثلثين عند توزيع المحصول.. وكان الفلاح يدفع ضريبة للدولة إلى جانب كل ما يدفعه للآغا ص 265... الخ).

تكفل نوعاً من السكينة والتناغمية الموسيقية بين مكونات الجماعة، أي أصولها المفترضة، بالطريقة التي تجد كل جماعة صغيرة من خلال المشترك الاتي بالذات صورة لها داخلها .

أترانا ابتعدنا عن موضوعنا «هفيركان» أم أننا في «صلبه» كما يقال؟

ربما كان هناك مجال للمزيد من التعاطي الحواري أو المعلوماتي حول نقطة كهذه، سوى أن نقطة أخرى في انتظارنا، وهي أن التعامل مع موضوع يتقدمنا وليس يتخلف عنا، بما أنه يشغلنا، ونشغل به، يفرض حضوره بالطريقة هذه، والتي تتمي إرادة التوسع في الفكرة، وما يصل ما بين النسب والجماعة، أو القبيلة أو العشيرة أو الحمولة لصالح الفكرة بالذات، ومن ثم فإن نقطة ثالثة، وهي تخص العجلة التي تتحرك عليها الزعامة، وطريقها، وحمولتها بالمفهوم الاجتماعي، ومدى أهليتها لأن تمضي بنا إلى طريق أوسع: اوتوسترادي ذي اتجاهين، بالمفهوم السياسي المرتبط بجوهر المشترك المدني !

جبّو، يتعرض للأصول التاريخية لهفيركان من موقع حضورها الجغرافي والتاريخي، القريب والبعيد، ولا بد أن علامات فارقة أخرى، تلمسها في عملية الاهتمام بها، ليكون لها هذا الموقع، أو هذا التركيز، وقد يكون لامتدادها حتى في الوقت الحاضر، وانتشارها في الجهات الأربع من خلال المنتمين إليها، أو من أحفاد سلاطين هفيركان تأثير آخر في الاهتمام، وما في ذلك من تداخل مع أصول هفيركان بالمفهوم النسبي وليس الجغرافي، والبدء من آل عثمان وليس آل سلو بدءاً من جينالوجيا قوة لها حسابها الانعطا في التاريخ، أو ما يبقياها قوة متقدمة في التاريخ الأسري في المنطقة كردياً (ولا توجد معلومات قاطعة حول المكان الذي جاءت منه أسرة آل عثمان، الأسرة الأخيرة التي تزعمت الهفيركانيين، وحسب قول جاجان أنهم جاؤوا من أطراف مدينة تبريز، ويقول البعض أنهم جاؤوا من منطقة عابدين... ويقول البعض الآخر أنهم جاؤوا من سنجار «شكال» وجبل عبدالعزيز... إلا أن هناك اتفاقاً على أن أول مكان استقروا فيه هو قرية زاخوران Zaxuran، ثم استقروا فيما بعد في مزيرخ التي كانت قرية سريانية قديمة. ومزيرخ هي أول قرية تقع على يسار الطريق عند الذهاب من مديات إلى كربوران... ويقال أن أصحاب القرية الأصليين هم أسرة «آل» شفقاتا» الإيزيدية،

ويعيشون في القرية حالياً. ص45... ويكتب جميل حاجو في مذكراته عن كيفية استقرار أسرة آل عثمان في مزيزخ قائلاً: ظهر خلاف بين أهالي القرية الذين كان قسم منهم من الإيزيدية والقسم الآخر من المسيحيين، ولم يجدوا حلاً لذلك. وفي النهاية اتفقوا فيما بينهم على دعوة جدنا الأول عثمان سلو المقيم في قرية زاخوران ليكون حكماً فيما بينهم. وكان عثمان سلو يتمتع بنفوذ واحترام كبيرين في العشيرة، ولهذا أرادوا مجيئه إلى مزيزخ لحل المشكلة الموجودة فيما بينهم.. فحلها.. وأصرروا على أن يعيش بينهم... وقد وافق.. واستقر في قرية مزيزخ.. ص46).

هذا التباعد بين منطقة وأخرى، يشدنا إلى لعبة التكهّنات، ومن خلال روايات غير مؤكدة، ولكنها من حيث المكانة، تضعنا في صورة الحدث الهفيريكاني، إن جاز التعبير، وهو أن هناك امتداداً متشعباً لأصول هفيريكان ومناطق انتشارها، وما في هذا الانتشار من لعبة السياسات التي تترك بصمتها في التوزيع والانتشار، وتحولات مواقع القوة ومن آل حاجو بالذات، وأن المشهد الديموغرافي لهفيريكان، بوصفها حمولة، أو في عدادها، يغري بالتحري، كما يشجّع الباحث التأريخي على تحفيز بصيرته ليكون أكثر تمكناً من المعلومات التي ترتبط إليها، ومرجعياتها، والحراك السياسي في نطاقها، إلى جانب العنف الداخلي الذي لا يقتصر عليها وحده، كما سنرى، إنما يضعها في الدائرة الأوسع للكرد في انتماءاتهم القبلية، بمقدار ما يرسم خطوط تمايزات، وأوجه التشابه والاختلاف، وفكرة الكيان السياسي الكردي المطروحة في هذا النطاق، وهي التي تبلورت مع الزمن، وبصورة خاصة في أعقاب الإعلان عن اتفاقية «سايكس- بيكو»، وتداعياتها السياسية .

سوى أن ذلك يهيء الباحث لأن يعيش احتمالات كثيرة في تسمية الجهات أو المواقع، استناداً إلى التاريخ الكردي نفسه، وأن الإشارة إلى أي نقطة جغرافية، إنما تعتمد على تقدير ثقافي واعتباري معين، دون تقديم التفاصيل، بما أنها تحتاج إلى أكثر من تدقيق في المسافة وطبيعتها الجغرافية ونوعيتها بيئة ودلالة بالمقابل.

إن جميل حاجو حين يتحدث عن هفيريكان في مذكراته، يشير إلى حدودها مسمياً إيّاها في الغالب بما هو عشائري، وهذه نقطة لافتة على مستوى التمثيل القبلي للأرض، رغم وجود خلط بين كل من القبيلة والعشيرة، وكأن حديثه يستغرق حدوداً سياسية (حدود العشيرة والعشيرة: من الشمال عشيرة الدكشورية،

ومن الغرب قضائي نصيبين ومديات وعشائر المحلمية وكوجكا وأومريان، أما جنوباً فيحدها عشائر الشيتية، قسم منها من هفيركان، وعشيرة آليان، ويحدها من الشرق نهر دجلة. ص (33) .

ذلك يعني أيضاً مدى قابلية العشيرة للتعاطي الحدودي، والتعارف الحدودي والتفوق الحدودي من خلالها بالذات، وأن التقسيم العشائري أو القبائلي للأرض من ناحية أخرى، يضعنا في مواجهة ظاهرة سياسية المصدر، حيث حكم العشائر لا يكون مصدراً للطمأنينة، بما أنها تضم داخلها تمييزاً يقوم على النسب المغاير، وليس الانتماء إلى الأرض أو البلدة أو المدينة .

في العودة إلى جميل حاجو هفيركي مجدداً، نلاحظ على أرضية التشابكات في العلاقات كيف يتداخل التاريخ بالجغرافيا لديه، كيف أن الجغرافيا تطوّب بقوة تاريخية، وأن القوة التاريخية أكثر من كونها مشاعر وأفكاراً، إنها علامات تاريخ سلطة. ولست في معرض تفكيك ما أودعه مذكراته الشخصية واللاشخصية طبعاً من معلومات، إنما ما يصل الشخصي بالتأريخي، وما يحرر التاريخي مما هو ذاتي أو عائلي أو قبلي كذلك، حيث إنه يورد معلومات تفيد لمن يتحرى ما هو تاريخي وكيف يصبح الكاتب في مقام الراوية والمؤرخ، لا بل والمقيم لما يتحدث عنه، ويُسميه في الزمان والمكان بطريقة ما، ولو أن الذي أورده يأخذ حيزاً لا بأس به من المساحة الورقية، ولكن المساحة هذه تثير جوانب مختلفة من هذا التوجه البحثي الذي يشغلنا .

تعريف يحتاج إلى تعريف :

على مستوى التعريف بالعشيرة وعالمها، حيث إن الكلام يتعرض لما هو مألوف، ومن المؤكد أنه قوله، من جهة يفصح عن أن تعقيدات اليوم، حيث كانت كتابته، مقارنة بما كان يجري بالأمس «أمسه» لا يمكن تحملها، أو تبليبل وعي المرء، وتلك حقيقة ملموسة، لأن ليس في العشيرة ما يستجد إلا ما يكون مدهماً أو مبالغتاً، كما في حال غزو من الخارج، لكن الذي يجري في الخارج، وبالمفهوم الاجتماعي والثقافي هو أنه مفتوح، وربما جميل لديه حنين إلى ذلك العالم الذي يعرف كل امرئ الآخر، وحدوده، ومهامه كذلك، ومن جهة أخرى، يشي باغتراب نفسي، وضغوط يومية ومستمرة من الواقع عليه كما في هذه الكلمات (كانت

الحياة الاجتماعية للعشيرة بسيطة إلى درجة كبيرة، وكانت هذه البساطة تشمل جميع الأفراد كبيرهم إلى صغيرهم، وكان هم حاجو الأول يتركز على الزعامة والاحترام من قبل الآخرين ولم يكن يعر الأمور المادية أهمية تذكر، وحياته الخاصة ما كانت تختلف عن حياة أي شخص من العشيرة بل كان الجميع يعيشون حياة متشابهة في بساطتها ودون تكلف أو تصنع إذ أن أساليب الحياة العصرية لم تكن موجودة في ذلك الوقت، فأتذكر عندما اقتنى والدي «مصباح كاز» أن الناس صاروا يتحدثون عن ذلك ويقولون أن حاجو يملك شيئاً يضيء كالشمس. أما لباسنا فكان يتألف من الكلابية Kiras وإيلك Elek وهو في مقام الصدرية وعمامة الرأس المؤلف من صوف مدقوق بشكل جيد يسمى Kum ويلف بقطعة من الحرير الملون Desmal وقد ظهر في المدة الأخيرة موضة العباءة salik التي يُعتقد أنها انتقلت من جبال سنجار. ص 48).

من جهة التوصيف لعالم العشيرة وما يعتمد عليه اجتماعياً واقتصادياً معاً، وهو توصيف لا أظنه يعرف بكل ما يجري فيه، إنما هي إشارات تتطلب تعمقاً فيها (وكان أفراد العشيرة يعتمدون في معيشتهم على الماشية والغنائم التي يحصلون عليها من الغزو بشكل أساسي، ثم يلي ذلك الزراعة تألفت من القمح والشعير والذرة وكانوا يزرعون السمس والرز أيضاً ولكن بشكل قليل، هذا رعم امتلاك بعض فروع العشيرة مثل كاسكا، محوكا، وأفسي لأراضي خصبة حيث لم يهتم الناس بالزراعة، وبدلاً من ذلك كانوا يغزون قرى السنجق للحصول على سنابل القمح والعشير التي يسمونها «بالقرافة» وكانوا يفقدون سنوياً عشرات من رجالهم في تلك الغزوات دون أن يفكروا باستغلال أراضيهم الخصبة. ص 48).

أي ما يتعلق بالأرض وكيف يتعامل معها، أي هي حدود العلاقات بين أفراد العشيرة انطلاقاً منها، كيف هو الانتاج، وهل من انتاج فعلي، لتكون التسمية حقيقية، أم أنه اقتصادي رعوي، أو زراعي بسيط، بساطة الموصوف أنفاً ؟

ثمة نقطة ذات أرضية تاريخية وثقافية، أعتقد أنها تتطلب مساءلة عنها، وهي تتعلق بعدم الاهتمام بالزراعة، ولماذا الغزو وليس الزراعة؟ لعلي أجد هنا علاقة طردية لم تسم، إذ على قدر إهمال الزراعة، والأرض خصبة، كما قرأنا، يكون الغزو في ازدياد، والسؤال الذي يجد نفسه مطروحاً، هو: لماذا إهمال

الزراعة؟ أليس لأن هناك ما يثقل على الزراعة ومن يهتم بها، جهة المتابع التي تتطلبها أعمال مختلفة في الزراعة، بدءاً من التحضير للبذار، وحتى الحصاد وإعداد مؤونة الشتاء من سليقة وبرغل وسميت وطحين....الخ، لا بد أن الغزو، في مجتمع يراهن عليه، يترجم هذا الجانب الغفل من الاسم، وما يولده الغزو بالمقابل من عداوات شتى، لأن الإغارة تطال ما هو حيواني وما هو نباتي في آن، فالغزو نفي للاستقرار، وذاكرة رحالة .

وأعتقد أن المعلومة المقروءة تالياً، تعمق هذا القول أكثر (ونظراً لأن والدي كان يعتبر أملاك العشيرة ملكاً له لذا اكتفى بذلك ولم يحاول توسيع الأملاك ولم يهتم بالأمور المادية لكنه بدأ في الفترة الأخيرة من وجودنا في تركيا بشراء بعض القرى مثل Girê Mîra بمشاركة آل مليكو، و Gundkê dêrê بالاشتراك مع آل شكرو واستلم Xerab Reşk وكانت قرية قديمة ودون ملاك واشترى أيضاً قسماً من Til Minarê أما عمي عليك فقد اشترى قسماً من Kertwên ولم تتجاوز أملاكنا العشرون ألف دونم، أما سرحان فقد كان شديد الاهتمام بالأراضي فكانت له قرى عديدة مثل Sirwan, Şêx Hadir, Qolkê» Girê Piya», Mêrbab شراؤها من أصحابها ولم تؤخذ بالقوة. ص 49). وهكذا بالنسبة لبقية المعلومات المتعلقة بكيفية زراعة الأرض وإدارتها وسواها (كان صاحب الأرض يحصل على نسبة «12 بالمائة» من المحصول في حال استثمار الأرض من قبل الفلاح، أما إذا أراد الملاك استثمار أرضه فكان يستأجر لهذه الغاية شخصاً يدعى Mereba يقوم بأعمال الحراث والبذر مقابل «خمس» المحصول بشرط أن يقدم له الملاك الثور وآلة الحراث والمربيا شخص مستقل لد داره وأملاكه إذا وجدت وكان لكل شخص في العشيرة الحق في استخدام المربيا ولك يكن ذلك مقتصرأ على زعيم العشيرة أما علاقة السلطات بالعشيرة فكانت تتم بشكل غير مباشر، حيث كان حاجو أو جليبي يقوم بدفع الضرائب المفروضة على العشيرة ثم يقوم بفرض ضريبة على العشيرة أكبر مما يدفعها للدولة وبذلك يحقق لنفسه فائضاً من المال، والحقيقة أن ذلك كان مدعاة لسرور أفراد العشيرة ما دامت السلطات لا تتدخل في أمورهم الخاصة مما يجبر عليهم المضايقات والتعسف في حال تدخلها بشؤونهم. لقد فرضت الدولة على العشائر عدة ضرائب مثل ضريبة الحبوب»2-3 بالمائة» من المحصول وضريبة المواشي وضريبة الأشجار المثمرة. كان زعيم العشيرة

جلبي أو حاجو يحصل الضرائب المذكورة بدقة من أفراد العشيرة بينما يدفع للدولة كمية أقل وحسب الأرقام التي يقدمها للدولة. وبالنسبة للمحاصيل الزراعية فكانت الضريبة المفروضة من قبل زعيم العشيرة تختلف من قرية لأخرى حسب حساسية المنطقة ونوع العلاقات القائمة حيث كانت تلك الأمور تؤخذ بعين الاعتبار أثناء تحصيل الضريبة بغية كسب البعض ومعاقة البعض الآخر. ص 50).

وأحسب أن الذي يأتي تالياً يأخذ منحى آخر في الكلام أو التوضيح أو الاستفسار (لم يكن الوعي القومي لدى الأكراد في ذلك الوقت قد ظهر بعد بل كان الجهل عاماً، كما لم تكن الأفكار القومية لدى الشعوب المجاورة قد ظهرت أيضاً حيث كان العصر عصر امبراطوريات لا عصر القوميات. ص 50).

الضرائب هي التي تجيبنا على سؤال صامت، أو عالق في منتصف المسافة، لحظة شعور الفلاح أنه مثقل بها، أو يجد نفسه في حالة سخرة، وبالكاد يحصل على الرمح، فيكون ترك الزراعة، أو حتى الهجرة تهرباً من هذه الأعمال التي ترهقه هو وعائلته وآخرين، كما لو أن الهجرة الذاتية احتجاج على الجاري، وربما تكون مفاجئة، حتى لا يلاحق، وأرى أن ملاك الأرض الكرد بالذات، حين يتحدثون عن الأرض كقضية يتحملون مثل هذه المسؤولية: وجود أرض موات، أو مهملّة، أو حالات نزوح جماعية، أو هجرة جماعية إلى المدن، وتحمل مصاعب الإقامة في المدينة رد فعل على ما كانوا يتعرضون له، عدا عن أن هؤلاء يشكلون تحدياً لأولئك الذين يديرون الأمور في قراهم أو في المدن القريبة، وما يترتب على ذلك من اختلال توازن سكاني، لا بل ومن مستجدات، كأن ينخرط المهاجرون في أعمال شقاوة يكون المعنيون المباشرون بالأرض من الملاك وغيرهم، وكل الذين لهم صلة بها لاعتداءات، لا يُستبعد عن أن تكون انتقامات منهم بالذات، أو أن يندمج أولئك المهاجرون في تنظيمات أو جماعات مسلحة تتبع الدولة، ويجعلون من المناطق التي تركوها خلفهم أهدافاً لهم بصور شتى، وهذا ما لا نجد له أثراً في الدراسات التي تتعلق بما هو تاريخي، أي ما له صلة بالوعي القومي الكردي، بالعكس، ثمة من يتحدث عن تلك الأيام وهو في موقع القوة من باب المدح، وذم عمالهم أو فلاحهم، أو السخرية منهم، لأنهم لا يحسنون التكيف مع الواقع، ولا يطيعون «أسيادهم» أو يتجاوبون مع تعليمات من المشرفين عليهم... الخ، وتلك قضية لا تخص الكرد، إنما جملة الذين يلتقون في هذه الدائرة، دائرة ملكية الأرض وكيفية إدارتها، والكرد خصوصاً.

في إضاءة هذا البحث الزراعي- الاجتماعي وفي الحاضنة العثمانية، يسهل تلمس ما كان متداولاً فيها، من ذلك :

على مستوى إدارة الأرض (يبدو أن حكام الأقاليم كانوا يختارون أصلاً من الطبقة الإقطاعية نفسها ص 189)، وهناك أصناف من الأراضي: الغابات- المراعي- الأراضي الزراعية- أراضي البساتين والكروم- أراضي جمع التبن- مواضع القرى وبضمنها مزارع الخضروات. ص 274.... وهذه الأصناف تواجه رسوماً وضرائب: الرسوم والضرائب، الصنف الأول على الأرض وحاصلاتها، الثاني على الفلاحين أنفسهم.. ص 278... ولمالك الأرض سلطة مباشرة ومجازة : كان مالك الأرض مخولاً حق جمع الأعشار من الحنطة والشعير والتبن.. وكذلك من الفواكه والخضروات التي يزرعها الفلاحون في الأراضي الأميرية.. ص 279... والنتيجة ليست مبشرة بالخير : كان انتشار ملتزمي الضرائب أكبر عامل في خراب النظام الذي كان متبعاً سابقاً في الأقاليم. ولكن ما جعل الاستمرار في الزراعة مستحيلاً في أكثر الأحيان هو الفوضى التي انتشرت في الأقاليم نتيجة ضعف سيطرة الحكومة المركزية وظهور أمراء الطوائف. ص 292... ولنجد أنفسنا جرّاء زيادة الأعباء هجرة الفلاحين لقراهم إلى المدن.. ص 293... أي كيف أن : يؤس الفلاحين المتزايد أدى بهم لأن يهجروا قراهم.. ص 45... الخ (1).

قبل ذلك، ثمة ما يعيننا في تتبع حركة الانتقال من جهة إلى أخرى، وأحسب أن الانتقال من زاخوران، حيث نجد حتى الآن من يعرف بنفسه على أنه زاخوراني كنسب جهوي، له دالة عشائرية، الى مزيخ القرية الجديدة، حيث لا تشكل علامة فارقة في بطاقة التعريف المفصلية والائتمانية كسابقتهما كمسقط رأس للعشيرة أيضاً، يتحدد من خلال حدث له بعد تاريخي، مع الإشارة إلى الجد الأول: عثمان، وإضفاء مسحة من الحكمة أو رجاحة العقل بالذات، وفي بيئة جغرافية محكومة بالتفاوتات العشائرية، أي ليفضّ خلافاً، أو يصلح ما بين متخاصمين في قرية لا تخلو من هذا الحضور العشائري. أي انعطافة تاريخية عشائرية هنا؟

(1) أندرسن، بندكت: الجماعات المتخيلة «تأملات في أصل القومية وانتشارها»، ترجمة: ثائر ديب- تقديم: عزمي بشارة، منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط1، 2014، ص 304.

إنها تلك المتعلقة بخاصية الاحتكام، كما لو أن مجرد الاتصال بالجد الأول، يعني تفخيمه مكانة، وذبوع صيته، ولا بد أن على الباحث أن يدقق في المقابل الذي أمكن هذا الجد في أن يستقر في القرية، وما إذا كان بمفرده، أو مجموعة من أفراد أسرته أو عشيرته، وكيف تشكلت العلاقات فيما بين القرويين الأوائل والوافدين الجدد ؟

ما الذي تركه هذا الجد خلفه؟ وتبعاً لأي تقدير، تخلق عن قريته، واستقر في قرية جديدة؟ ما الذي كان يخفيه في نفسه، وهو في وضعية إقامة جديدة؟ ألا يعني ذلك التشديد على تحول آخر في حياة الأسرة، من خلال هذا الانتقال، كما لو أن هناك تزكية له ليكون زعيماً ما للقرية وربما للجوار بالمقابل؟ حيث اكتسبت أسرته حضوراً اجتماعياً أكثر، ليكون أكثر من زعيم مكاني!

في التأريخ للأب الأول كما رأينا في شجرة النسب لدى بروينسن، ثمة مكاشفة لفضيلة الموقع، بشهادة هذه الواقعة، واقعة قرية مزيزخ، والتي، كما يظهر، ما كان لخلاف أهلها أن يحل لولا استدعاؤه، وكأن استقراره ضامن أمان للقرية، وهو أول الخطو في زعامة تتم خارج نطاقها العشائري، أو زعامة تسمى من الخارج، مهما فسرت من الخارج، طالما أن الاحتكام إليه، يعني الاعتراف بسلطته، أي اعتباره في الموقع الذي يستحق أن يكون فيه زعيماً، أهلاً للتقدير!

ولعل الذي يأتي جبو على ذكره يفيدنا في التأكيد على نقطة مهمة في كل عملية توسع خارج القبيلة أولاً، وسطوع نجم الزعيم في القبيلة، أو الاتحاد ثانياً، وضمن مساحة جغرافية تترجم طبيعة الالتفاف حوله من قبل آخرين ينتمون إلى قبائل أخرى في المنطقة، وما يضيفي على الزعامة قيمة إضافية تتعدى حدود الأرض المملوكة، زعامة رمزية، أي ما يمهد لفصل تدريجي بين زعامة مصادق عليها عبر ملكية أرض، وزعامة أبعد منها، وهو ما يمنحنا أكثر من إطلالة بحثية لمكاشفة الزعامة وقد توجهت إلى سلطة لها هيبتها (تكاثر عدد أفراد قبائل هفيركان على مر الزمن وانتشروا على مساحة واسعة من الأرض، ورغم أنهم يتركزون في المنطقة التي تشكل القسم الأكبر من هضبة طور عابدين، أي في مدن «مديات، نصيبين، كرجوش، كربوران»، والتي تعرف بطور عابدين الصغرى، إلا أنهم انتشروا من حدود ولاية بطمان Batman الحالية شمالاً حتى مناطق القامشلي وعامودا وتربه سبيه في الطرف الآخر من «الحدود السورية» جنوباً،

وكان انتشارهم واسعاً في المناطق الريفية في هذه الأنحاء. وتوجد في هضبة عابدين عشائر أو لاتحادات عشائرية غير مرتبطة باتحاد هفيركان . ومن العشائر المهمة الأخرى في المنطقة عشائر أومري Omerî، ومحمودكي Mahmûtkî، وعيسى بكي Îsa Begî و خليل بكي Xelîl Begî، فضلاً عن أكبر منافسي الهفيركان ، وهو اتحاد عشائر دكشوري. ص 46 (1).

أي إن هذا التحول يعلمنا بوجود من ينضمّون إلى هفيركان، في الاتحاد، اعترافاً بقوتها، وما يعنيه ذلك من تحد متصاعد للعشائر والقبائل أو الاتحادات العشائرية الأخرى في المنطقة، وهي منافسة أو معادية لها، أي بروز خاصية الزعيم، في مضمار عالم يتعدّى حدود القبيلة الضيقة، وهو مال سنجد أثراً له عبر خطوط تحركات حاجو آغا إلى صعيد الممارسة السياسية، لتحل هفيركان في أكثر من مكان، أقرب ما يكون إلى «جزر» عائمة في محيط برّي عبر حدودي.

في العودة إلى بروينسن، وهو يطرح سؤالاً مهماً، ولا بد أنه يتعلق بمتابعته لموقع الزعامة في «العالم الكردي» إن جاز التعبير، أي حيث يتواجد أو ينتشر الكرد، ويختلف الزعيم في صفاته من منطقة إلى أخرى، يقول (هناك في كل قبيلة، عادة، عدد من المتنافسين على الزعامة، إذ لا توجد قاعدة فريدة تنظّم مسألة من يتوجب جعله زعيماً. فالبنية القرابية متساوقة من حيث إن جميع الأفراد، ضمن جيل واحد، يحتلون بنوياً مواقع متماثلة. ص 182)، وثمة توضيح آخر لهذه النقطة، وهي على تماس مباشر بموضوعنا (إن زعامة الحمولة أو القبيلة يجري توارثها، عموماً، ضمن العائلة نفسها، بيد أنه لا توجد قاعدة ثابتة للخلافة.... أما في واقع الحال، فإن هناك عناصر أخرى تدخل في العملية في غالب الأحيان هي: القوة المطلقة والقدرة على التلاعب الذكي. ويتبدى ذلك بقوة حينما تتولى عائلة ثانية الزعامة من عائلة ، كما حصل تكراراً في القبائل الأكبر حجماً. ص 183)، ويبدو أنه من خلال متابعته الميدانية، لاحظ فروقاً ملموسة في المواقع التي يبرز فيه فرد ما داخل القبيلة أو المجتمع الملاحق لها في الوسط الكردي، من ذلك العلاقة بين كل من «البيك- الآغا» (وقد كان لقب «بيك» غالباً ما يستخدم للإشارة

(1) يلاحظ في كتابة أسماء الأعلام، في تركيا، كيف أن حرف «الدال» يكتَب «تاء» كما في «محمودكي»، هكذا الحال مع «آزاد» «آزات»، فرهاد «فرهات»، وهو المعتمد في الأبجدية التركية والسياسة الرسمية للدولة.

إلى الأكراد المتمدنين المتبوئين مناصب إدارية، وهم في الوقت نفسه ملاك أراض غائبون..)، وفي إشارة من أحدهم أفادته إلى أن (الآغا هو الزعيم القبلي الذي يعيش في الجبال بين أفراد قبيلته، أما البيك فإنه يعيش في البلدة، وقد يكون أولاً يكون زعيماً قبلياً أصلاً، والبيك متحضر ويشارك في السياسة، أما الآغا فيحارب، والبيكوات غالباً ما يملكون أراض واسعة في السهول، يزرعها فلاحون لا قبليون»، أما آغا الجبال فليس مالك أرض رجال قبيلته، فهؤلاء يملكون قطع أراضيهم الخاصة بهم. ص 186).

ثمة ما أتينا على ذكره سابقاً، ونحن نستعرض أقوالاً لبروينسن عن هفيركان، ومن هذا المنطلق، وكما كنا نستعرض ما يهمنا في كتاب جبّو، نلاحظ أن هناك مفهوماً مطاطياً حتى للآغا أو الزعيم في تنوع أوصافه، إذ في وسع الآغا أن يتجاوز حدود قبيلته أو اتحاده من خلال انتماء آخرين إليه، وهنا تتشكل الحمولة، أو عبر الغزو الذي كان قريباً من القانون وهو عُرْفِي، أي تقليد متبع، وذلك استناداً إلى مفهوم القوة وسواها: القوة من خلال عملية السيطرة المباشرة في الغزو، وسواها، حين يبدي آخرون استعداداً في الانتماء أو تقديم ولاء الطاعة، ولا بد أن حلول عثمان جد هفيركان في مزيخ يستند إلى القاعدة «العرفية» الأخيرة.

إلى جانب أن بروينسن في تفريقه بين الآغا والبيك، وهو مهم وضروري، حيث البيك يوجّه نظرنا إلى المدينة، أما الآغا فيالريف، القرية، وحتى الخيمة أو في الجمع بينهما: الخيمة والقرية، فإن ذلك قد يكون هناك تحول آخر، وهو أن الآغا قد يحمل صفة «المُتعلّم» وهو في المدينة، أو يكون في المدينة وصاحب أملاك في الريف، أو يوزع أنشطته بين الحالتين، وذلك من شأنه التعرف أكثر على طبيعة التحولات في المجتمع الكردي ونوعية العلاقات المتشكلة، رغم أن لقب «سلطان» الاستثناء هنا يغيّر جذرياً في بنية هذا التقابل بين الآغا والبيك، ويمنح خط تاريخ خاصاً للزعيم السلطان، كي لا يكون هذا أو ذاك، ربما هما معاً ومتعديهما.

رغم أن الفاصل بينهما غير قطعي، أي ثمة تماذج أحياناً، من جهة الربط بين ملكية ريفية ومدنية معاً، وأن الحديث عن ذلك يوجّه أنظارنا، أو يجب أن يوجّه أنظارنا بتركيز ذهني إلى حاجو آغا بالذات، وكيف أن هذا الآغا الذي ينسكن بالأرض، بالقرية، بالكونفدرالية القبلية، كان يعيش في داخله هاجس التحول نحو المدينة أو الانتقال إليها، مثلما سنجد كيف أن هذا الآغا المُتَّهَم بالأمية من

متخوفين منه، أفصح عن قدر كبير من أدبيات التذوق المدنية، وسكنى المدينة وقيمها كثيراً، من خلال طبيعة العلاقات، وتهذيب الإقامة على صعيد البناء السكني ونوعيته المغايرة، وتعلم لغة المدينة في النظرة إلى الآخر، ومفهوم الضيافة في المدينة، دون أن ينسلخ عما كان عليه ذات يوم كعائد قبلي، لا يطوّح به بسهولة، بوصفه لازماً .

هناك إشارة أخرى وهي ذات قيمة استعارية، وتتمثل في أن جبو يستشهد ببروينسن وهو يؤرخ لهفيركان وتبعيتها لبوتان، كما رأينا سالفاً، غير أن جبو يورد معلومة تفصح عن أقدمية أو حتى عراقية هفيركان أكثر من ذلك واستناداً إلى بروينسن نفسه (واعتباراً من القرن الثالث عشر بقي الهفيركان تابعين للأيوبيين لسنوات طويلة. ويفهم بأنهم أصبحوا تابعين لأمرأ بوتان بعد سقوط السلطنة الأيوبية في حزنكيف عام 1524 ... ص 47).

تُرى لما تردّ هذه المعلومة في كتاب بروينسن؟ وهل هي كذلك، كما أوردها جبو؟ ما يبقى مهماً هنا هو عراقية هفيركان وهي في امتدادها التاريخي، ويعني ذلك أن انتشارها في المكان يحمل دمغة هذه العراق، ولهذا تكون تحت الأنظار، بمقدار ما يكون هناك أكثر من تحد بينها وبين القبائل الأخرى والدولة أيضاً.

إن الإتيان على ذكر العشائر التي يتألف منها الاتحاد يعطينا فكرة أوسع عن الموضوع، كما وردت في كتاب جبو:

- 1-عليكا Alika، 2- شميكا Şemika، 3- دوماننا Domana، 4- دلمكان Delmemikan، 5- عربيان Arabiyan، 6- صالحا Saliha، 7- دوريك «دورिका» Dorika، 8- داسكا Dasika «إيزيدية»، 9- خليل بكى من عشيرة Mihelmî، 10- حجي سليمانان Hecî Slêmanan، 11- جوميرا «جومرا» Comera، 12- أليكا «ألكا» Elika، 13- برافي Beravî، 14- باسكيلي «باسيقي» Baskili، 15- رايت Rayit «مسيحيون»، 16- شفقيتا Şefqeta، 17- جلكا Celka «إيزيدية»، 18- محوكا Mahoka «إيزيدية»، 19- باجولا Bacola «إيزيدية»، 20- كليكا Kelika، 21- بوتا Buta، 22- ساليكا Salika «إيزيدية» 23- اومركا Omerka، 24- ديرنا Dera . ص 48 .

طبعاً، ومن باب الضرورة، ينوّه إلى أن أسماء العشائر التي أوردها جميل حاجو في مذكراته أقل، إنها تسع عشرة.

وقد وردت مختلفة في صيغتها في بعض منها، في الكتابتين: العربية واللاتينية، وبالترتيب في الكتاب:

- 1- دوماننا Domana «قسم منها مسيحي»
- 2- سالها Saliha «قسم منها مسيحي»
- 3- باسقلي Basiqlî
- 4- عربيا Basiqlî
- 5- آلكا Alika
- 6- دل ممكا Delmemika «قسم منها مسيحي»
- 7- دوركا Dorika
- 8- حمكا Hemika
- 9- بوتكا Botika
- 10- داسكا Dasika «إيزيدية»
- 11- محوكا Mahoka «إيزيدية»
- 12- افشي Efşî «إيزيدية»
- 13- سموكا Simoka «إيزيدية»
- 14- جومرا Çomera
- 15- بوتكا Buta «إيزيدية»
- 16- رايت Rayit «وهي ست قرى مسيحية» يذكرها بالتسلسل
- 17- بونسرا Bunisra
- 18- بعجولا Bunisra «إيزيدية»
- 19- شمكا Şemika «قسم منها مسيحية». ص 32 .

الملاحظ هنا هو أنها أقل من العدد المتداول «أربع وعشرون عشيرة» في كتاب جميل حاجو، والأمر الآخر وهو لافت للنظر أيضاً، يتمثل في وجود أسماء في قائمة جميل حاجو لم ترد في قائمة جبو، ويعني ذلك حسابياً أن العدد الأكبر مما ذُكر. أتراها أسماء مختلفة لاسم واحد بالنسبة للعشيرة الواحدة ؟ ولماذا لم يؤت

على ذكر هذه العشائر الـ «24»؟ أم تراها بالنسبة للأخيرة عبارة عن فروع لعشيرة واحدة كما وردت في كتاب جبو؟

على سعيد التهجئة، يلاحظ وجود اختلاف في الكتابة، وفي الحالتين، كما تقدم، ولعل التقدير في ذلك يفسّر هذا الاختلاف، وثمة أسماء توحى بأنها في الأصل أسماء أشخاص «عليكا: علي، صالحا: صالح، خليل بكي: خليل، حجي سليمانان: حجي سليمان، محوكا: محو.

أما الملاحظة الثانية، فهي تتمثل في تصغير الاسم كما هو معتاد في منطقتنا، عبر إضافة «كا: عليكا، آليكا، محوكا، ساليكا، اومركا ..

ولا ندري «لا أدري» هل راعى في حساب انتشاراته لخارطة القبائل، كل امتداداتها وتوزعاتها تحت وطأة الملاحظات من على حدود بوتان، ومدياد ونصيبين وتربه سبي، ومشرقاً: شنكال وزمار، كما أعلمت القبيلة أو الاتحاد القبلي من خلال آل حاجو بـ «اكتشافات» حديثة العهد لأفراد من صميم هفيران وأقرب، لأن بحث المصادفة- ربما- تكفل بمعرفة كهذه ؟

ذلك يتطلب دراسة قد تبعدنا عن الموضوع، ولكنها، ولو باختصار، تفيد في معرفة الخلفية الثقافية والنفسية للکرد في إطار تعاملهم مع أسماء العلم، وما يحصل في إشكال في عملية المتابعة البحثية، تبعاً للمناطق والمتواجدين فيها .

يمكن هنا التوقف عند مثال، يتعرض له ادموندز، وهو يتناول قبيلة «هماواند» ذات الصيت في التاريخ (إن نواة قبيلة «الهماواند» هي أسرتهم الحاكمة التي تدّعي أنها نسل الأب الأكبر «خوادي» الذي ربما عاش في القرن الثامن عشر. ومآثر القبيلة وذكرياتها لا تتعدى الجد الأعلى «حمه- همه» الذي اتخذت القبيلة اسمه. فالأسرة الحاكمة تنقسم إلى أربعة فروع منها ثلاثة تنحدر من صلب ثلاثة من أبناء «خوادي» الأربعة وتدعى بأسمائهم وهي «راماوند» من رمضان و «سفارواند» من صفر و «ره شاواند» من رشيد أما الفرع الأكبر والأوسع فهو من نسل الأخير وهو الابن الثالث «يادكار» إلا أنه يعرف باسم «به ك زاده= بكزاده». ص 80)، وللتوضيح أكثر وبالنسبة لموضوعنا الرئيس (هناك مسألة أخرى تلفت النظر في شجرة أسرة «الاله ماوه ند» وهو شيوع اختصار أسماء الأشخاص عند الأكراد، أو استخدام الاختصار للتعبير. إن بعضها يبتعد عن الأصل ابتعاداً كبيراً ما يختلف

اسم التحبب «ديك» عن أصله «ريتشارد»، ف«حمه» هو من «محمد» و «رمه» من «رمضان» و «ره شه» من «رشيد». وهناك مختصرات مشابهة ك «عبه» من «عبدالله» و «أحه» من «أحمد» و «بله» من «بهرام» و «فه ته» من «فتاح» و «خوله» من «محمود» و «مجه» من «مصطفى» و «ناله» من «نادر» و «بيزه» من «بيروز» اسم فتاة، و «قاله» من «قادر» وشفه» من «شريف» و «سه له» من سليمان... الخ⁽¹⁾.

ذلك ما يعرف به القول في مناطق محددة، ولكنه ليس كذلك في مناطق أخرى، كما في حال «عليكا، محوكا، اومركا».

في الجانب الآخر، وبالنسبة لتصريف الأسماء، فإن ذلك يتبع قاعدة اجتماعية ومراتبية بالمقابل، إذ من السهل التلاعب باسم من مثل «محمد» فيبقى «محمد» بالنسبة لشخص في موقع مهم: آغا، بيك، مسئول متنفذ... الخ، ولكنه يصبح «محمود» بالتصريف الشعبي، وينوع من التحبب أحياناً، أي كون الاسم لم يُسأ إليه، كما في حال «سعيدو، رشيدو، جمالو... الخ، أو يكون معرضاً لإضافة تقلل من مكانة الشخص: محمكدو، رشيدكو، رمدانكو» من رمضان»، أحمدكو، لطيفكو... الخ، أو محوكي «من محمد»، وسعيدكي «من سعيد»، ولقوكي «من لقمان...»، ويمكن أن تكون هناك عملية قصصية وتصغير أكثر للاسم ومكانة صاحبه: حامله، كما في لطو» من لطيف»، وعطو» من عطية»... الخ.

وفي العودة إلى قائمة الأسماء الواردة، كما أسلفت، ثمة حاجة إلى متابعتها في أصولها، لمعرفة مواقعها، وبالتالي، التعرف على حدود كل منها جغرافياً، سوى أن ليس لدينا المادة المتوفرة للنظر في هذه النقطة، وكما تبين، فإنه حتى بالنسبة لهفيركان، ثمة حاجة إلى المزيد من المعلومات اللازمة لسد ثغرات تخص الجانب التاريخي والاجتماعي... الخ.

حيث إننا نجد في لائحة أسماء العشائر أسماء أشخاص أشير إليها، وأسماء أخرى تشير إلى أمكنة، أو تتطلب التروّي للتعرف عليها أكثر، مثل «شميكا، دوماننا، دلمكان، داسكا، ديرا... الخ»، حتى بالنسبة لاسم حاجو الشخصي هنا، ليس هناك أي توضيح لا للاسم ولا لخلفيته، أو أي معلومة تضيئه، وهو قليل التداول أو

(1) ادموندز، سي. جي: كرد وترك وعرب، ترجمة: جرجيس فتح الله، دار آراس- ومنشورات الجمل، أربيل، ط1، 2012، ص 80.

الانتشار ، وذلك يضيف غموضاً آخر لآعلى نقاط من هذا النوع، إنما تكون هذه النقاط مرتبطة بنقاط أخرى لها صلة بالتاريخ الكردي والصراعات الدائرة فيه .

زعامة بلغة مركبة :

وأما على صعيد الزعامة، فلا بد أن قدرات ذاتية خاصة توافرت في حاجو ليكون في هذا المقام، وهي موصولة بما يمكن اعتباره الأب الأول«سلو» الذي لا نعرف ما هو أبعد منه، رغم أن هفيران أقدم، وتلك بداهة، رغم أن بروينسن سجل اسم الأبعد في شجرة العائلة وهو «عثمان» كما رأينا ص 233 ونقل عنه جبو هذه الشجرة باسم«شجرة نسب ملا عثمان، ص 324»، ولكن، وكما يظهر في سلسلة النسب الهفيريكية/ الهفيريكانية، ثمة مجموعة أنساب تقرّبنا من خاصية الزعامة في هفيران، وكل زعامة كانت تتحدد بمدة زمنية، وبالطريقة هذه يكون عثمان هو الحلقة الأولى في السلسلة النسبية لآل حاجو آغا بالذات، وتبعاً للرواية المتداولة وكما وردت سالفاً، حيث إن والد حاجو الأول، أي حسن، اشترك في انتفاضة يزدان شير ضد العثمانيين، وكان ذلك في أواسط خمسينيات القرن التاسع عشر، وقبله كان اوصمان، ويعني ذلك أن أسرة حاجو تعرف بمكانتها منذ قرابة مائتي عام، أو تتعدى الـ «150 عاماً» ابتداءً بحسن اوصمان، ولا بد أن الانتساب إلى حاجو، كما سنرى لاحقاً أكثر يحمل مدلولاً اجتماعياً وسياسياً، أي انطلاقاً من تاريخية الاسم«حاجو» !

حاجو الاسم اللغز - ربما- من حيث المعنى أو التركيب، ومرجعيته، ومن الذي كان وراءه، وكيف قيّض له أن يكون وارث أجيال وحامل كأس النسب الأشهر في محمية هفيران، ليكون في ذلك تعميقاً لمغزى فيه ، أي حين تكون القوة خاصة زعاماتية مسجلة.

ولا بد أن تجلّي الزعامة وفي وسط كردي غير متناغم، إنما تخصمي، ومن جهة الدولة يكون مراقباً، لا بد أن ذلك يشدد عليه الحصار في الداخل والخارج، وهذا من شأنه الزيادة في عملية تفعيل أثر الزعامة أو البروز، أو النهاية طبعاً، أي إن مفهوم الزعامة يرتبط بالمتغيرات، وأنه بمقدار ما يكون ذبوع صيت يكون الالتفاف حول الزعيم أكثر، ويحصل تخلخل في الوسط العشائري جهة الانقسامات وما تتركه الانقسامات من التفافات أخرى، ومن مواجهات وتصفية

حسابات، وذلك حين نراعي هذا التنوع في الانتماء: كردي، مسيحي، إيزيدي، حتى عربي، مثل «عربيان: عربان»، وأن أهم جبهة ساخنة لعبت دوراً في عملية الاستقطابات تمثلت في اتحاد هفيركان واتحاد دكشوري، حيث القوة كانت تزيد عدد هذا الاتحاد أو ذاك تبعاً لمكانتها أو المخاطر التي تشكلها بمفهومها السياسي، حيث تتعلق بالدولة، وجبو يستعين بآلب مجدداً حول خاصية هذه التحولات جهة الارتباط بأي اتحاد أو فكه (... ومن بين هذه العشائر فإن جيزبيني Cizbini وحصار Hisar، وorman Reman، وكرجوش Gercuş، وارناس Arnas، وشميكا Şemika عشائر دكشورية، وعشائر Derhav، وسيدان Seydan، وعربيان Arabiyan، وباسيكلي Basikli، و مزريكا Mezrikah، و دوريكان Durikan، و كالمكيان delmemikan«Dallmakiyan»، وصالحان Salihan، و دومانان Dumanan، و عليكي Aliki عشائر هفيركية.. ومع أن عشيرة محلي خارج هذه، إلا أن كافة العشائر في قضاء مديات مقسمة إلى قسمين، وكذلك عشيرة محلي، قسم مع هفيركان وقسم مع دكشوري. ص 49) .

هذه التقسيمات لا يجب أن تغيب عن البال، ولا للحظة واحدة مدى لحيادية العلاقات التي تقوم بين عشيرة وأخرى، وأين تتجاوز، وفي ظل أي سلطة تتحرك أو تتعامل مع بعضها بعضاً، وبصورة خاصة بالنسبة للکرد، وهم في وضعية انقسام وسيطرة من قبل أعداء لا يريدون لهم أي سيرورة سوية في العلاقات تلك، ومن جهة أخرى، فإن بنية العلاقات تتغير بدورها، وهي على الأرض، جرّاء تحول في المواسم، لأن الأرض تصل بالرعي والزراعة، وبين القبائل أو العشائر تنافسات لا تنتهي، كمنظومة دفاعية بينية، أو حتى ثقافة عرفية تميّز إحداها عن الأخرى، وهو ما أعطى السلطات القائمة فرصاً ثمينة لكي تبرز قوتها أو جبروتها جهة التحكم بمصائرهما مجتمعة، أو ضرب الواحدة بالأخرى، كما الحال حتى الآن، بالنسبة للأحزاب الموجودة في المدينة، حيث إنها رغم كل تسمياتها التي تدرجها في خانة المدينة بطابعها المؤسساتي، سوى أن الواقع هو كونها محسوبة على الخارج، على عالم خيماتي«من الخيمة»، أو تضاربات القبائلية بالذات، جهة النظر في بنية الصراعات وسبل التواصل أو التحاور وعلى أي قاعدة اجتماعية وقيمية تتم، أي إننا لن نخسر شيئاً، إنما نضيء نطاق بحثنا أكثر، عندما نقابل- ولو لبعض الوقت- بين لائحة العشائر ونظيرتها الأحزاب، ووهم المؤسساتي فيها. تلك

ملاحظة لا تنطبق على ما هو كردي، وإن كانت تؤكد أنها أكثر، إنما حتى على العرب في المنطقة كما الحال في طبيعة الانتقادات التي يوجهها الكتاب، ومن زوايا مختلفة إلى أحزابهم العربية، حتى ذات الطابع القومي وما دون :

لنقرأ ما أورده باحث تركي بهذا الصدد (أما في الأناضول وفي سورية، فقد عمدت الدولة وبفعالية كبيرة إلى إسكان وتوطين العشائر فيهما... فاعتباراً من ربيع عام 1691، تم إسكان القبائل المتنقلة في الديار الخربة، بهدف إعمار الأراضي البور التي لا صاحب لها... ص 25... اعتمد العثمانيون في أوائل أيام حكمهم لسورية، على العشائر العربية القوية، لتأمين الأمن والنظام في البلد. فعاشت عشائر فضل وموالي والحكومة مع الأتالي المقيمين في إطار نظام متناغم ومتوازن جداً. لكننا نرى هذا التوازن قد اختل في النصف الثاني من القرن السابع عشر لصالح الزحف القادم من الجنوب. إذ تمكنت قبيلتا شمر وعنزة من إضعاف قوة عشائر فضل وموالي، وإخضاع شرق سورية بكامله تقريباً لسيطرتهم ونفوذهما ص 60... وأفرزت أرجاء ديار بكر كساحة لإسكان بعض العشائر فيها، حيث أسكنت هنا عشيرة دونبالي، كما أسكنت عشيرة ميلللي في عام 1707 في ناحية ماردين التي كانت تتواجد فيها منذ القدم، حيث كانت بعض قرى ناحية ماردين ملكاً لهذه العشيرة ص 157... وبالسيطرة على جبل الأكراد شكلت عشائر أوقجو عزالدينلي وعميقي وشيخلي المتواجدة هنا قضاء شمل ناحية كفرنديز أيضاً سمي قضاء عزيّة. ص 165...)⁽¹⁾.

(1) أورهنولو، جنكيز: إسكان العشائر في عهد الامبراطورية العثمانية، ترجمة: فاروق مصطفى، دار الطليعة الجديدة، دمشق، ط1، 2005 ، وقد وردت أرقام الصفحات في المتن للإيجاز. وما يعمّق هذا الجانب، ما كان يجري في المنحى التعليمي والتربوي وحتى العسكري وتحت أي إشراف نوعية وقيمة وغاية من قبل العثمانيين، فالباحث يوجين روغان، في كتابه المهم: مدرسة العشائر في اسطنبول، ترجمة: د. نهار محمد نوري، دار الوراق، بيروت، ط1، 2014 ، ينبّه إلى هذه النقطة، بقول (لم تكن مدرسة العشائر مؤسسة خيرية صمّمت من أجل تعليم الفئات المحرومة ولكن أداة سياسية لكسب ولاء القبائل. ص 28.. يوم الافتتاح: فتحت مدرسة العشائر أبوابها في الموعد المحدد الموافق يوم مولد النبي في 4 تشرين الأول 1892، وألقى وزير المعارف خطاب الافتتاح باللغة العربية، احتراماً لجمهوره الذي لا يعرف من اللغة التركية إلا النزر اليسير. وسعى للتأثير على جمهوره من خلال القول بأنهم قد تركوا خلفهم عالماً من الشقاء حيث الصراع اليومي من أجل البقاء وكيف أن عرب الصحراء لم يكن لديهم

لنقرأ ما يقوله الملك فيصل، أو ورد باسمه في مقدمته لكتاب عبدالرزاق الحسيني «تاريخ العراق السياسي الحديث»: (العراق مملكة تحكمها حكومة عربية سنية، مؤسسة على أنقاض الحكم العثماني، وهذه الحكومة تحكم قسماً كردياً أكثرية جاهلة، وأكثية شيعية جاهلة... ثم: أخشى أن أتهم بالمبالغة، ولكنه من واجبي أن لا أدع شيئاً يخامرني، خاصة لعلمي بأنه سوف لا يقرأ هذا إلا نفر قليل ممن يعلمون وجائبهم ومسئولياتهم.... أقول وقلبي ملآن أسى: إنه في اعتقادي لا يوجد في العراق شعب عراقي بعد، بل توجد كتلات بشرية خيالية، خالية من أي فكرة وطنية، متشعبة بتقاليد وأباطيل دينية، لا تجمع بينهم جامعة، سماعون للسوء، ميالون للفوضى، مستعدون للانتفاض على أي حكومة كانت... وإني أحب أن أرى معملاً لنسج القطن، بدلاً من دار حكومة، وأود أن أرى معملاً للزجاج بدلاً من قصر ملكي.. بغداد 15 آذار، 1932)⁽¹⁾.

وكذلك ما أفصح عنه علي الوردي في مصدر سالف، حيث يقارن بين أخلاق كل من البداوة والحضارة، بقوله (أما نحن العرب فالقيم البدوية تكاد تؤلف جزءاً لا يستهان به من نظامنا الاجتماعي. وفي رأيي إننا لا نستطيع أن نفهم الأخلاق العربية في وضعها الراهن قبل أن ندرس أخلاق أجدادنا البدو وكيف كانوا ينظرون في شؤون الحياة)⁽²⁾.

وقت للتعليم والدين وفوائد المدنية. ص 40.. إن المؤسسات التي تفتتح بتباهي وزخرف غالباً ما تغلق بهدوء.. وطبقاً لعثمان إرغن الذي كتب بروح عدائية واضحة تجاه «الشباب العربي المدلل، والرحل، والألبانيين والكرد الأشرار»، فإن المدرسة قد أغلقت في شباط 1907، في أعقاب مسألة تمرد طالب أثيرت نتيجة شكوى قديمة: تمحورت بشأن سوء الطعام. ص 71).

(1) الحسيني، عبدالرزاق: تاريخ العراق السياسي الحديث، دار الرافدين، بيروت، ط7، 2008 ج1، ص 11-12-16.

ينظر أيضاً ما يقوله في كتابه الآخر: العراق في دوري الاحتلال والانتداب، مطبعة العرفان، صيدا، سورية، 1938، جهة استمراريات هذه العشائرية المستحدثة وفي هيئات على قياسها، عبر مفارقات عن الأحزاب السياسية (كانت الأحزاب الحكومية تتلاشى في البلاد بعد سقوط الوزارات التي ألفتها إلا حزب التقدم.. وكانت الأحزاب المعارضة تتوقف عن العمل كلما صارت الوزارة إلى المعارضة إلا الحزب الوطني.. وكان معظم النواب ينتقلون من حزب إلى حزب أو ينتمون إلى كل حزب تؤلفه الوزارة الجديدة ليسندها غير مبالين باختلاف نزعات هذه الأحزاب أو تباين خططها... ص 255).

(2) الوردي، د. علي: الأخلاق «الضائع من الموارد الخلقية»، دار الوراق، لندن، ط1، 2007، ص 11.

وفي السياق نفسه نسمع ما يقوله سواء مؤكّداً فاعلية هذا الافتئات في المجتمع العراق (وخصص الحكام السياسيون رواتب ضخمة لبعض رؤساء العشائر العربية والكردية ولبعض المشايخ والعلماء إرضاء لهم ولاستمالتهم إلى جانب الحكومة البريطانية. فأصبح فريق ممن كان فقيراً ذا ثروة وأملاك)⁽¹⁾.

وغيرهما، حين يقول (إن التناقضات البنيوية في المجتمع العراقي قد تبدو أنها أخذت تتجه لتظهر بشكل عميق، غير أن القيم والمبادئ الاجتماعية القائمة على أساس الولاءات العشائرية والعائلية، كانت تعمل على أن تخفف من حدة هذه التناقضات، أو على الأقل جعلتها تسير بالاتجاه الذي أصبحت معه صورة الوعي الطبقي في المجتمع غير واضحة، أو حتى زائفة)⁽²⁾.

وثمة آخر بقوله (إن لجوء النخبة للعنف من خلال العشائر أو القوات المسلحة للوصول إلى الكراسي الوزارية أو حمايتها أدى إلى توليد شعور طبقي لديهم، أي الشعور بانتمائهم لشريحة اجتماعية ذات مصالح مشتركة)⁽³⁾.

وفي سوريا بدورها، كما في قول هشام شرابي عن أن (الصفة المميزة للعائلة هي استمرار الأنماط الأساسية للروابط العشائرية في تنظيم العائلة وعلاقاتها).⁽⁴⁾

وما يعبر عن الأحداث الجارية في سوريا من خلال باحث حدائي نسبياً (لا ينبغي أن نعلق آمالاً كبيرة على الربيع العربي على الأقل في المدى المنظور، فالعصبيات الطائفية والمذهبية لن تختفي من الساحة بعده بضربة عصا سحرية).⁽⁵⁾

تلك مجموعة إحالات تخص ديمومة الوقائع التاريخية في المنطقة في العراق حديثاً» وكذلك في سوريا، وكيف أن الذهنية ما قبل المدنية تمارس طغيانها

(1) الموصلي، محمد طاهر العمر: تأريخ مقدرات العراق السياسية، دار الراية البيضاء، بيروت، ط1، 1925، م3، ص5.

(2) الجمال، د جبار ابراهيم: بنية العراق الحديثة «تأثيرها الفكري السياسي 1869-1914»، مراجعة: أ.د: كمال مظهر أحمد، بيت الحكمة، بغداد، 2010، ص53.

(3) الحسو، د. نزار توفيق سلطان: الصراع على السلطة في العراق الملكي «دراسة تحليلية في الإدارة والسياسة»، دار آفاق عربية، بغداد، 1984، ص24.

(4) شرابي، هشام: مقدمات لدراسة المجتمع العربي، الدار المتحدة، بيروت، ط3، 1984، ص35.

(5) صالح، هاشم: الانتفاضات العربية على ضوء فلسفة التاريخ، دار الساق، بيروت، ط1، 2013، ص219.

الفئوي أو النَّحلي وبشكل مدمر، وتمزق في الجسد المجتمعي بالمقابل، وفي الوقت الذي توقفنا سابقاً عند سياسة العثمانيين مع العشائر في المنطقة، والكردية منها خاصة، وهذا ينطبق حتى على الدولة التركية، كما سنرى، وهي تتمم «مفاسد» الأخلاق الأتاتورية بالطريقة التي تعمق صفة التناحرات بين الكرد هنا وهناك.

لتكون الانقسامات تلك مرتبطة بتلك التفاوتات في الوضع المعيشي، ومتغيرات الحالة المعيشية من جهة إلى أخرى، ومدى استعداد عشيرة وسواها لحالة الضنك أو شظف العيش الباعث على القلق، وقدرتها في الانضباط الذاتي، وفي ضوء التحاسد أو المكائدات، وكذلك الغيرة والدعاية التي لا تهدأ في إبقاء نار العداوات مشتعلة، وما يعمق في مفهوم الخصومة الجانبية، وعملية الانتقال من عشيرة إلى أخرى «ألا نلاحظ ذلك حتى بين الأحزاب على أرضية البحث عن مكان «أدفاً» خصوصاً ؟

ألسنا نجد مشاهد من هذا القبيل في مختلف المراحل التاريخية ولدى مختلف العشائر الكردية وهي في أوجه مجابهتها للعدو المشترك سواء العربي أو الفارسي أو العثماني فالتركي فيما بعد ؟ خصوصاً إذا علمنا أن التركيبة السلطوية للنظام والتي تتمحور عشائرياً بصورة ما، أو لا تتفصل عنها، لا تتدخل جهداً حتى بالنسبة لمن يتكلم بلسانها، وربما ينتمي إلى بطانتها وعن قرب في الجهات الثلاث، فكيف الحال مع المعتبر غريباً عنها ومعادياً لها في الصميم: النموذج الكردي؟

هنا يمكن إيراد بعض من أقوال جكرخوين نظراً لأهميتها، كونها تمثل في جانب منها وجهة نظر «طبقيّة» بالمعنى الذي عُرِف به وفيه الشاعر الكردي الكبير، رغم أن الطبقيّة ليست سوية في ترجمة مفهومها، كما هي لا سوية الصّلات بين موقف وآخر في «نظامه» القيمي والشخصي، أي في تقييمه لمجريات أحداث المرحلة التي عاشها، دون المفهوم القومي ولو بالمفهوم المحدود، وهي وجهة نظر يمكن تتبعها في خيوطها الكبرى لاحقاً، من خلال إضاءتها بأمثلة تتشابه معها، وذلك في مذكراته، بمصدرها المذكورها حول قريته هسار، يشير إلى وجود العداء الدائم بين العشائر (الأربع أو الخمس بينها، وبتحريض من القائمقام في «مدياد».

ص23- ويعتبر الأكراد: البكوات والآغوات فيهم مسئولين بالدرجة الأولى. ص23... وكان كل آغا يرى نفسه سلطاناً. ص24... في نصيبين: كنا فقراء، كنا مساكين وبؤساء تحت وطأة الضرائب والمصائب. ص30.

وتحت عنوان: انقسامات ومنافسات بلادنا

في بلادنا أو في منطقتنا كانت هناك عدة عصابات قبلية. فكان بين الأومريين المحمودكيون والعثمانيون، وكان بين المحلميين العيسابكيون والخليل بكيون، كما كان بين الهفيريكيين والدكشوريين والهفيريكيون والدكشوريين، وكان الهفيريكيون ينقسمون إلى طائفتين أحياناً: الدكشوريين والهفيريكيين، لكن كان الدكشوريون حلفاء الدولة دوماً، أما الهفيريكيون فكانوا أعداء الدولة في أغلب الأحيان. ص 45.

وكذلك: كان رئيس الهفيريكيين منذ القدم أسرة علي رمو. وكانت أسرة خليل سليمان أسرة محترمة إذ كانوا يطالبون بالسيادة. لكن أسرة «حاجو» أو أسرة «عثمان» قد صاروا رؤساء الهفيريكيين منذ قرون. وهم لا يتفقون على أصل عائلتهم. فبعضهم يقولون إنهم من أهل قرية «باتي»، وبعضهم يقولون: إنهم من العرب «الطي». كما أن بعضهم يقولون إنهم من أتراك ماردين، من أسرة قاسم باشا. لكن من أي مكان كانوا فإنهم قد صاروا رؤساء الهفيريكيين ويقولون عنهم «سلاطين الهفيريكيين». وهم صاروا قسمين أيضاً: أسرة حاجو، وأسرة جلبي، وأسرة حاجو هفيريكيون دوماً، وأسرة جلبي دكشوريون. ص 46.

وعنوان آخر، وهو: واقعة حاجو السابق

يقول حسن آغا: «كان حاجو قد سيطر على ثلاثة وعشرين فخذاً من الهفيريكيين بالقوة وكان قد وضع عينيه على «سنجق الآشيتيين»، لكن أسرة يوسف حسن الذين كانوا يطالبون برئاسة الآشيتيين وقفوا في مدخل طريق حاجو ولم يتركوا الآغا الكبير أن يصل إلى مأربه. وكانت أسرة يوسف حسن في قرية «تل منارة» وكانت «آزناور» وبعض القرى الأخرى أيضاً تحت أيديهم... داهم حجو مع فرقة ثقيلة «تل منارة» في أحد الأيام، وعلى الرغم من أن أسرة يوسف قاوموا ببطولة، لكن عسكر حاجو كانوا كثيراً، فلم يستطع الكاسكيون الصمود أمام هذا السيل العارم، وقد قتل بعض الرجال الأفاضل من كلا الطرفين... نهب حاجو قراهم وعاد إلى الدكشوريين، واستولى على بعض قراهم أيضاً بالقوة ونهبها، وإلى أن أعد الدكشوريون جنودهم وصل جند الدولة أيضاً للنجدة واتجهوا معاً لمحاربة الهفيريكيين. وجعلوا قرى الأكراد الهفيريكيين عرضة للنهب والحرق وقتلوا الكثير منهم واعتقلوا الكثير. ووقع الهفيريكيون من جديد تحت الضرب والنهب والتحطيم.

وبعد عدة أشهر لم يبق أحد مع الآغا، وبقي بعضهم أو شخص واحد فقط معه إذ لجأوا مكرهين إلى قمم الجبال واختفيا. (ص46).

هذه الرواية المركّبة، والتي لا بد أنها ربّبت إثر التقاطها من أفواه آخرين، أو «أفواه خيالاته الذاتية» كما هو المستقرّ من سيرة حياته الغربية، ومن ثم نسجها في قالب يتناسب ووعي الشاعر الطبقي الخاص أو العام، حيث يختلط الاثنان بشكل يبعث على الغرابة، وهي تفصح عن نقاط لا تخلو من إسقاطات تاريخية، وتحميل المسؤولية جملة وتفصيلاً أولئك الذين كانوا يتحدثون باسم بني جلدتهم أو «شعبهم»، إلى جانب الإغفال عن أمور من صلب المرحلة وهي معمّمت بشأن مجمل العشائر الكردية.

جكروخين، رغم معرفته التامة أو المقدّرة هكذا بالوضع العام للتاريخ الكردي على صعيد ألأعيب أعدائه، إلا أنه في كتابه يعتمد أسلوباً في السخرية، بمقدار ما يعبر عن استئثار طبقية ومن موقع الخارج عن هذا التاريخ الذي يدرسه، وما في ذلك من جنوح عاطفي شعري غالباً.

وإن أتينا على ذكر التصدعات في البيت الكردي، سوف نلاحظ أن ليس من «منزل» إلا وهو متصدع، أو مشقق، أو يشكو من انهيار معين، أو يجلو «عيباً» عمرانياً معيناً لا يعدُّ بـ «طول» العمر، إن جاز التعبير:

حين يتحدث الديمولوجي «1880-1956»، عما كان يجري بين الأمراء الجليليين من تطاحن في الجوار الجغرافي، وبالنسبة للكرد بالمقابل (وإذا قرأنا تاريخ إمارات الأكراد نجد أن الحروب بين الأسرة الواحدة كانت تبلغ حد الوحشية، كما في حال الأمراء الجليليين والفتن التي سادت فترة حكمهم وهي 120 سنة)⁽¹⁾.

(1) الديمولوجي، صديق: «إمارة بهدينان الكردية أو إمارة العمادية» يبحث عن حياة الأكراد التاريخية والسياسية في بهدينان وما يتعلق بهم من أخبار وحوادث، تقديم ومراجعة الدكتور عبدالفتاح بوتاني، آراس، ط2، 1999، ص 33. ينظر في قوله الآخر أيضاً، مثلاً (إن الخلاف القائم بين الإماراتين الجليلية والبهدينانية منشؤه التحاسد والتباغض والتنافس في السلطة وحب الاستئثار بالجاه... ص22... وكذلك الحديث عن خلافات تاريخية بين اليزيدية والمزورية. ص 38).

وربما لهذا الغرض، أو السبب، أورد جبو في «سلاطين هفيركان» تلك الرباعية المنسوبة إلى السلطان العثماني سليم الأول والمعتبر شاعراً، وهي عبارة عن دعاء على الكرد:

(إلهي أسألك أن لا تمنح الكرد فرصة
وأن لا يكونوا سلاطين أبد الدهر
وأن يضيق النعال على رجله) «أي الكردي»
وأن لا يفلح أصلاً
اضرب «الكردي» بالهراوة، وخذ خبزه
وأن لا تشبع بطنه أيضاً
ليشرب الكافر من ذلك النبع

وأن لا يكون ذلك النبع من نصيب الكرد.. ص143).

طبعاً بغض النظر عن مدى مصداقية الرباعية، حيث يشير مترجم الكتاب الدكتور خليل علي مراد متأسفاً، وفي الصفحة ذاتها إلى أن المؤلف لم يورد المصدر الذي وردت فيه هذه الرباعية للتثبت من أن سليم الأول هو منظمها، يبقى المؤثر في بنية إيراد الشاهد الشعري، كما لو أنه بذلك لا يكتفي بإدانة الكرد ممن يتقاتلون فيما بينهم، وإنما هفيران أيضاً، وإنما آل حاجو بصورة أكثر خصوصية بالذات، وبالتالي، فإن مجرد إيراد الشاهد الشعري بالطريقة هذه غاية في الدلالة، كما لو أن المؤلف نفسه يريد قوله، في الوقت الذي نعلم جميعاً بالمقابل أن الغازي، السلطان «ياووز: المظفر» كما لقّب نفسه: سليم الأول «1470-1520»، أعمل السيف في أفراد عائلته: أخوته وأولاده وغيرهم ليرتاح في كرسي عرشه ويضمنه، وليكون الشاهد الشعري موصولاً بما هو سابق عليه، وربما بأحد أسلاف حاجو بالذات عبر البدرخانين، كما هو وارد بالمقابل في كتاب الأمير شرف خان البدليسي «1543-1599»: شرفنامه، ترجمة: محمد جميل الملا أحمد الروزياني، دار المدى، دمشق، ط3، 2007، على خلفية المزج بين الديني والدنيوي، تأكيداً على شقاق الكرد، من وجهة نظر (وقد جبل الأكراد على التنافر والشقاق.. ص43)، وما يحيل على كتاب تركي ربما له صلة بالموضوع السلطاني وعن قرب، ومن خلال المذكور طبعاً (في الوقائع العثمانية بالعودة إلى شخص قبيح المنظر صير وجيهاً لهم لمقابلة الرسول فكان قوله أن لا يوقف الله هذا الشعب للاتفاق بينهم.. ص44)، حيث لا ينفع الرد أو التوضيح، إنما هو إشعار بالخاصية الشقاقية الكبرى للكرد، كما هو مشار إليه في المتن لاحقاً، وهو الحد الأقصى من لغة المفارقة، عندما ينبري علامة حكيم كردي بوصف الكرد هكذا، مروراً بخلف بدليسي الشاعر أحمد خاني «1651-1707»، وهو يشدد على شقاقية الكرد.. الخ.

وبالتوازي مع مشهد اصطراعي كهذا، كيف يمكننا قراءة المتعلق ببنية عائلة قدري جمل باشا، وهي بأصلها العريق، وما ورد بلسان أحد أفرادها، في كتاب مالميسانز «تأليف وإعداد»: عائلة جميل باشا الديار بكري والنضال القومي الكردي، الترجمة من التركية: فيض الله برايم خان- دلشا يوسف، المراجعة اللغوية والتقديم: فدان آدم، مؤسسة بير، ديار بكر، ط2، 2007: (يروي لنا محمد فريد جميل أوغلو «وهو أحد أحفاد جميل باشا» المعلومات التي تناقلتها الأجيال المتلاحقة بحق العائلة منذ قدوم أجدادهم إلى ديار بكر، كالآتي (يعود أصلنا إلى منطقة سلوبي «وهي منطقة تابعة لشرنخ»، بمعنى آخر أننا بوتانيين. تقاتل أبناء

العمومة في ما بينهم في صراع عائلي وقتلوا بعضهم بعضاً، قدموا إلى ديار بكر برجالهم واستقروا في 20-30 منزلاً في منطقة علي باشا، محلة خوجه أحمد. حينها كانت توجد نزاعات عشائرية في ديار بكر. ص 15 (9

وهذا ما نتمسكه كذلك في كتاب عبدالرحمن إدريس صالح البياتي: الشيخ محمود الحفيد «البرزنجي»، والنفوذ البريطاني في كردستان العراق حتى عام 1925، دار الحكمة، لندن، 2005. «أطروحة جامعية لنيل درجة الماجستير»، كما في قوله (وإذا كانت عشائر كردية عدة قد تحالفت مع الشيخ محمود الحفيد بدوافع العوز الاقتصادي، أو الانصياع إلى نفوذه الديني، فإن عشائر أخرى في كسري وكركوك وبعض سكان مدنها لم تكن راغبة في أن تكون تحت زعامته، مرجحين على تلك الزعامة البقاء تحت الحكم البريطاني المباشر.. ص126). الخ.

قارن ما تقدم، بما أفصحت عنه المس غيرتروود بيل، في كتابها: فصول من تاريخ العراق القريب «كتاب يبحث عن العراق في عهد الاحتلال البريطاني بين سنتي 1914-1920»، ترجمة: جعفر الخياط، دار الكتب، بيروت، د.ت، وهي تقييم جداراً قيمياً على طريقتها، تجاوباً مع السياسة الاستعمارية البريطانية حينذاك (إن منزلة الشيخ محمود تستند في الدرجة الأولى، فضلاً، عن نفوذه الديني، على الرعب الذي كان قد فرضه على الناس قبل الحرب وعلى القتل الجماعي والسلب للذين كانا يجريان باسمه. ص187... ولاحقاً: الإعجاب بعادلة خانم «زوجة عثمان باشا المتوفي سنة 1909، ابن محمد باشا الجاف رئيس قبائل الجاف المقيم في حلبجة- شرح المترجم» تلك التي كانت في عون الحاكم السياسي.. ورأها امرأة عجيبة، التي كانت سلطتها لا ند لها.. ص202..). إنها دفعة اعتبارات سياسية موجهة هنا ! وموقفها يتداخل مع السياسي الانكليزي السر أرنولد ويلسن «وكيل الحاكم الملكي العام في عهد الاحتلال البريطاني»: الثورة العراقية، ترجمة وكتابة حواشي: جعفر الخياط، دار الرافدين، بيروت، ط2، 2004، حيث يتحدث عنه (كان الشيخ محمود مشكلتنا الصعبة جداً. فقد كان طفلاً لا عن براءة بل عن جهل عنده، مع أطماع كبيرة وكثير من المكر الطبيعي، وكان يقع فريسة لنوبات فجائية من العاطفة والهيّاج الوحشي. ص187)...

ورغم كل ما تقدمت به، أرى فيما كتبه شهيد الثقافة الكردية موسى عنتر «1920-1992»، في كم وافر من حكاياته اللاذعة ذات العمق السياسي والمتعة الموجهة، والتي تتركز على واقع الكرد وتناذبهم، مفيداً جداً هنا، وأكتفي بإحداها من مجموعته المسماة «شجرة دليبي»، منشورات آفستا، ستانبول، 1999، باللغة الكردية، أنقل إحداها وهي قصيرة، وتحت عنوان «والآن، لا أحد يستطيع دق الإسفين بيننا لنأكل لحم بعضنا بعضاً (على مر مئات السنين، كان العمل الرئيس لأعداء الكرد هو في كيفية الإيقاع بيننا. حيث إنهم جزأونا، إلى درجة أنهم جعلوا من كل عشيرة كردية اثنتين، ثلاثاً، كما في حال كردستان، فبعد عشيرة البارزانيين، تأتي عشيرة أومريان. ثمة تسعون قرية، في مجموعها أكبر من لوكسمبرغ، سوى أن الحكومة العثمانية، ومن بعدها الحكومة التركية، جزأت هذه العشائر وجعلتها تعادي بعضها بعضاً. فمحمودكي وعثمانكي بأغواتهم كافة كانوا أبناء عمومة، إلا أنهم كانوا أعداء لبعضهم بعضاً جميعاً، كما في حال آل اوصمان، آل سليمان، آل اسماعيل، وآل طاهر.

وبالتوازي مع ما تقدّم، هناك ما يرد بلسان الرحالة والسياسي البريطاني جيمس بيلي فريزر «1783-1856»، في بعض من مشاهداته عن الميرالكردي الراوندوزي محمد باشان، بأنه (بالقوة أزاح والده)، و تبعاً لما يقوله فريزر عن دكتور يعرفه، وهو في أصله أجنبي (إن طبيعة الكردي مجبولة على الحرب)⁽¹⁾. وحتى في شهادة الضابط الانكليزي والاس ليون كما وردت في مذكراته في العراق «1918-1944»، (حول رانيا 1922: في كل هذه المناطق الكردية الحدودية

وأرى، أن علّة حكومتنا الراهنة تأتي من هذه النقطة. لقد استيقظ الكرد، فلا يعودوا يمشون في ركاب الملالي، ولا في ركاب العشائر أيضاً، لقد أصبحوا متوحدين، أصبحوا أمة، واستحالة العداوة فيما بينهم أخوة.

سابقاً، عندما كنت أمعن النظر في حالة الشعب الكردي، أذكر- دائماً- الحكاية التاريخية، وهي على النحو التالي: يقال عن أنه في بلد انتشرت الفئران الكبيرة«من نوع الجرابيع» بكثرة غير معقولة، حيث أنها أتت على الزروع والبساتين، ولقد أعيت الحاكم، فقدم صوفي إليه، وهو يقول له: في مقدوري القضاء على هذه الفئران. فرد عليه الحاكم ساخراً: ألا فلتعض من هنا، كيف ستقضي عليها؟ فأجابته الصوفي: اسمع، أنا لم أطالبك بنقود، إنما أريد شيئاً واحداً، وهو أن تصنع لي قفصاً كبيراً من الحديد، وعلى القرويين الإتيان بالفئران وهي حية، فيبيعونها إليك، وسوف نضعها حية في القفص. وهكذا يتم صنع قفص كما هو مطلوب، فوضع الصوفي ألف فأر داخل القفص، وأغلق عليها الباب، وما هي إلا عدة أيام حتى جاعت الفئران، وبدأت بالتهام بعضها بعضاً، في البداية، بدأت الصغيرة والقوية منها بالتهام الكبيرة والمریضة، ومع الزمن تناقصت أعدادها. وفي بعض الأحيان، يرمي الصوفي فئات طعام بينها، فتتلقفه في الهواء، حتى أتى يوم، لم تعد الفئران تأكل ما يأتيها من طعام من الخارج، إلا أن الصوفي عندما يقتل فأراً في الخارج، ويرميه بينها، تنقض عليه في الحال وتلتهمه، فتبين للصوفي أن الفئران اعتادت التهام لحم بعضها بعضاً. ففتح باب القفص، ليرى، أنه من أصل ألف فأر كان المتبقي «40-50» فأراً، إلا أنها اكتسبت طبيعة القلط، وهكذا انطلقت إلى داخل المدينة دفعة واحدة، فلم تهرب منها الفئران في الخارج، طناً أنها فئران مثلها، لكنها ليست فئراناً، إنما أصبحت قتلماً بالطبيعة، وبالطريقة هذه، لاحقت فئران المدينة، وقضت عليها بالكامل.

كلما تخيلت تاريخ الكرد، بدءاً من أيام الأمويين، العباسيين، السلاجقة والعثمانيين، كان الكرد يتعرضون لهذا الشرک، حيث علمونا كيف نأكل لحم بعضنا بعضاً، وكما أشرت سالفاً، فإن عجز كل من الأتراك، العرب والفرس هو في هذه النقطة، حيث لم نعد نلتهم لحم بعضنا بعضاً. في 18-24 نيسان 1992، ص 28).

سوى أن السؤال المطروح: هل حقاً، أننا لم نعد نلتهم لحم بعضنا بعضاً، ولو بنسب متفاوتة؟ (1) فريزر، جيمس بيلي: رحلة إلى بغداد سنة 1834، ترجمة: جعفر الخياط، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، 2006، ص 14-22.

فمن المعتاد أن تجد كل عشيرة مقسمة سياسياً.. بهذه الطريقة فإنه بغض النظر عن القوة التي تصبح لها اليد العليا في المنطقة، فإنه دائماً سيكون هناك جزء موال من القبيلة، في موقع تستطيع فيه تتوسط نيابة عن هؤلاء الذين سقطوا مع الطرف الخاسر⁽¹⁾.

وفي معرض تعليقه على انقلاب يزدان شير على بدرخان بك لصالح العثمانيين، نقرأ تعليقاً لباحث كردي ومترجم حصيف جاء فيه (اسم ذلك الزعيم يزدان شير، وهذه واحدة من السليبيات التي مارسها بعض القادة الكرد ضد الحكومات والثورات الكردية، بدءاً من هارباك كبير القادة الميد الذي خان استياك «استياجيس» آخر ملوك الميد، وتآمر على الدولة الميديّة مع كورش الثاني الأخميني سنة 550/549 ق. م»، وانتهاء بزعماء القبائل الكرد الذين خانوا ثورة شيخ سعيد في شمالي كردستان سنة 1925»، وخانوا جمهورية مهاباد الكردية سنة «1948م» في شرقي كردستان، وخانوا الثورة الكردية التي قادها المرحوم ملا مصطفى بارزاني في جنوبي كردستان «إقليم كردستان- العراق» خلال ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، وما زالوا يتعاونون مع الجهات التي تقهر الكرد، ويعملون معها جنباً إلى جنب لقمع المشروع التحرري الكردي⁽²⁾.

مثلاً يعلق أكاديمي آخر على تباهي بدليسي وهو ينال من «أعدائه» الكرد لصالح أعداء الكرد، حيث يقول (ويتفاخر الأمير شرفخان البدليسي بجده الأمير شرفخان ويبيدي إعجابه بشجاعته لقيامه بدحر أعدائه من القبائل والعشائر الكردية والانتقام منها)⁽³⁾.

(1) مذكرات والاس ليون في العراق 1918-1944: الكرد والعرب والبريطانيون، مراجعة وتقديم د. فيلد هاوس- ترجمة: عماد جميل مزوري، سبيريز، دهوك، ط1، 2010، ص 184.

(2) سافراستيان: الكرد وكردستان، ارجمة: د. أحمد محمود الخليل، سردم، ط2، سليمان، 2008، الطبعة الانكليزية، 1948، الهامش «1» ص 121.

(3) توفيق، د. زرار صديق: القبائل والزعامات القبلية الكردية في العصر الوسيط، مؤسسة موكرين، أربيل، ط1، 2007، ص 14.

وثمة ما يناظر ذلك، حين تكون محاربة «أعداء» السلطنة دعماً لها، وفي وجه محكومين بها بصورة ما أو بأخرى، كما ورد، وكمثال، حول ذلك بلسان أكاديمي كردي مخضرم وهو د. عماد عبدالسلام رؤوف، في كتابه: دراسات وثائقية في تأريخ الكرد الحديث وحضارتهم طبعة مزيدة بدراسات جديدة، دار الزمان، دمشق، ط1، 2012، وضمن مقال: كرد في أهوار

ذلك ما يمكن قوله، وكما سنرى لاحقاً أيضاً، في حيثيات انتفاضات وكذلك ثورات كردية تعرضت لصدمات كهذه.

وما يستوقف الدكتور بوتاني في تقديمه لكتاب جبو، في جزئه الأول، في الترجمة العربية المشار إليها بصدد ذلك (إذن العشيرة كانت وما تزال العقبة الرئيسة أمام وحدة الكرد القومية وأمام ولادة الشعور والوعي القوميين، وهذا يفسّر تشجيع تكاثرها من قبل الدول التي تتقاسم كردستان، والتي كانت وما تزال حريصة على إظهار الكرد على أنهم مجموعة عشائر وقبائل متنازعة فيما بينها. فقد كان عدد العشائر الكردية في أواسط القرن التاسع عشر نحو «250» عشيرة، وبدلاً من أن يتراجع هذا العدد بحكم التطور...، بلغ عددها في مطلع القرن العشرين نحو «379» عشيرة في الدولة العثمانية، وبالإمكان القول أنها تجاوزت الآن هذا الرقم، ففي كردستان العراق فقط، وبموجب دراسة موجهة من الحكومة، بلغ عدد العشائر الكردية سنة 1993، نحو «83» عشيرة رئيسية تتألف من «835» فرعاً وفخذاً وأسرة. ص 9).

صدوع الاسم الواحد :

ذلك لا يدعو إلى الاندهاش بالتأكيد في ظل التصدعات الفالقية على مستوى التناوب البنيوي في العشيرة، وانعدام اللحمة الوجدانية كردياً، جرّاء تشطّي مفهوم «العشيرة» لأكثر من مرة في الداخل وبينها وبين غيرها، كما لو أن حَزَم المشاكل الكبرى «بالمعنى القومي الموسوم» تلك التي يعانيتها الكرد بالذات، فيما بينهم،

العراق، صص 229-242، ومن ذلك (كيف أن المقاتلين الكرد هم الذين تمكنوا من القضاء على «تمرد ابن عليان» في القرن السادس عشر، لصالح السلطان العثماني الذي أعياه التغلب عليه، وفي بيئة مغايرة للبيئة الكردية ذات الطابع الجبلي حيث تعد حروب الأهوار والمستنقعات من أكثر الحروب ضراوة وصعوبة بين أنواع الحروب الأخرى. ص 231).

وفي السياق نفسه، ولو في منحى آخر، إنما ما يخدم فكرة الكردي الذي يدافع عن العرب والعربية أكثر من العربي نفسه، ما أورده السياسي العربي توفيق السويدي في مذكراته، بيروت، 2011: جاء التالي على خلفية في التبليل في الآراء والتشويش في الأهداء في العراق (إلى درجة أدت بالمجلس النيابي العثماني سنة 1911 إلى المناقشة، إذ ظهر خلالها أن قسماً من نواب بغداد كان يقول بأن العراق غير عربي بما فيه بغداد. وقد كان موقف المرحوم جميل صدقي الزهاوي في تلك المناقشة جديراً بالتقدير، إذ دافع بكل حماسة عن عروبة العراق وبغداد على الأخص. ص 35). الخ.

وبينهم وبين أعدائهم وتنامي خيبتهم، تجد مسقطاً هندسياً، معزّزاً في فعاليات العشيرة المعاكسة لما هو قومي كردي كثيراً.

وهذا يدفع بنا إلى التروي ونحن نتعقب الشبكة الكبرى من الوقائع الدقيقة وغير المسماة كما هي، والضرورة في معرفتها لنحاط علماً بالخارطة الكبرى لأي حدث تاريخي، أو المسيرة غير المرئية كما ينبغي لشخصية تستقطب الانتباه، سوى أنها متلبّسة بإشكالية ما، تقلل من طابعها الكاريزمي، أو حضورها البطولي تماماً، الأمر الذي يستوجب مضاعف التعمق في الجانب الأفقي لمسيرتها، وما يحيط بها من حدود جغرافية وتحديات سياسية واجتماعية في الوقت نفسه، أي ما يبقى المشهد المرسوم لقبيلة ما أو حمولة أبعد من كونه تشريحياً، وفي منطقة الزلازل الكبرى تاريخياً، الدائمة التوتر، وفي الإطار الكردي خصوصاً، دون تجاهل أي حركة قد تفيد في معرفة بعد من أبعادها، وهذا ينطبق على القبيلة والعلاقات من جهتها تخضع لنوع من الرجرجة المستمرة، وأحياناً يصعب حصر هزّاتها، كما في واقعة تشترك فيها أطراف كردية عدة، وكما في كيفية التدقيق في الحدود الفاصلة وغير المستقرة فيما بينها، وكيفية التناوب بين انتقال وآخر عكسياً.

ورغم أننا في الوقت الذي نشدد فيه على العشيرة، نجد أن «المكرمات» ذات الطابع القومي هي ذاتها ترتدّ إليها، أي تكون حاضنتها، وفي الحالة هذه علينا النظر في الاتجاهين المتعاكسين باعتبارهما يمثلان الخط نفسه.

وجبو حين يكرّر اقتباسه من آلب، فشعوراً منه بفداحة العلاقة البينية: الكردية- الكردية، وإن كان المشتّم منها أن آلب لا يريد كشف الحقيقة باسمها، وهي موجعة، وإنما التشديد على أن الكرد لا يستحقون وجود كيان سياسي باسمهم، بمقدار ما يحتاجون إلى سلطة تمثّلهم، أو تعني بأمرهم، وتدير أمورهم، كما لو أنه يعيد على أسماعنا ما أعلم به أدريس أمير بدليس بلسان شرف خان بدليسي قبل أكثر من أربعة قرون، سلطانه العثماني، وهو يقيّم عموم الأمراء الكرد في الجوار (إن هؤلاء الأمراء كثيرو العدد، وفيهم الأنانية وحب الذات، فلا يتطاولون بينهم... فليختر من المقربين إلى بابه العالي رجلاً يعهد إليه بهذا المنصب المهم لينقاد لأمره الأمراء الأكراد، فيسيروا بإمرته لانجاز المهمة المذكورة)⁽¹⁾.

(1) البدليسي، الأمير شرف خان: شرفنامه، المصدر المذكور، ص 648.

هذا التوصيف الآلبي «نسبة إلى آلب»، يراد منه- أو هكذا يفهم من وجهة نظري- إعلام المعنيتين بأمور الدولة السياسية في تركيا ما هو عليه وضع الكرد بوصفهم من حيث التكوين أو المعيش اليومي عشائر أو قبائل لا تتنازع فيما بينها فحسب، وإنما تأتلف النزاع والتطاحن فيما بينها، وتجد في ذلك التعبير اللافت عن استمراريته في الوجود، وما يقتضيه إقرار من هذا النوع بما يجب اتخاذه من قرارات دولية/سلطوية بهذا الغرض، كما في (إن مجموعة هوفيكوي) يقصد هفيريكي- جبو» متحدة مع جماعة محمودكي من عشيرة اومريان في سافور Savur . أما مجموعة دكشورية فهي متحدة مع جماعة أتمانكي atmankî في عشيرة اومريان. أما في ناحية محلي فيطلق على المجموعة المؤيدة لدكشوري اسم «عيسى بكى»، والمجموعة المؤيدة لهفيريكي اسم خليل بكى. (ص 50) .

وهذا التوزيع الحسابي، وربما الهندسي الدقيق والمتحول مع الزمن، لا يكون محل غرابة أو استغراب من متابع لما يجري في بنية السياسة الداخلية العثمانية، وفي ما بعد التركية، وغيرها من دول المنطقة، جهة التعامل مع مجتمعاتها، فهي لا تتجاوب مع متغيرات الواقع، وفي العالم الخارجي، كما يكون في مصلحة المجتمع/الشعب، وإنما تمارس اختزالاً في بنية كل علاقة تكون نتيجتها التقليل من هيبة السلطة ونفوذها، واعتبارها خدمية، وليس العكس، أي بجعل المجتمع ملحقاً بالسلطة وما تراه مناسباً ليكون أكثر طواعية لقوتها التي تقوم على سياسة القهر والغلبة، وذلك من خلال ابتداع الأساليب التي تكون ناجعة، أو أكثر إثماراً للسلطة وقد أصبحت مع الزمن متعالية ومن ثم ضاربة في نفوذها، حيث تتدخل في ذلك قوى أو عناصر ذات صبغة تصريفية من أجل هذه السلطة المتنفذة: كل ما يجعل المجتمع شقاقياً، ومفكراً فيه إنما بالطريقة التي لا يتنفس ولا يعبر عن شيء إلا عن طريق تمثيل خارجي: سلطوي بامتياز.

وبصدد القبائل الكردية وهي تتحارب فيما بينها، لا بد أن يعلم هنا ما يكون عليه وضعها، وهي تأتي في الدرجة الثانية من ناحية المقام أو الاعتبار، أي بعد الذين يتكلمون بلغة السلطة مباشرة: كحال العثمانيين أو الأتراك بالنسبة إلى الباب العالي أو تركيا، أي كيف يمكن إيجاد الأرضية الأنسب لممارسة «بلقنة» ضمن بلقنة في داخل كل قبيلة أو عشيرة، كيف يمكن الاجتهاد ما أمكنها ذلك في التعرف على العناصر الأكثر كفاءة ومردودية على مستوى كتم أنفاس الجميع، وبما يلزم

الجميع هؤلاء لأن يكونوا تابعين أو إمعيين، إن جاز التعبير، للسلطة القائمة، أو الحيلولة دون وجود ما يشذ عن هذه القاعدة السلطوية والتي ترى في سياسة التلويح باستمرار، بالقوة، أو التهيب والترغيب الدرس الأبلغ للثبات.

وكل ذلك لا يعني البتة «تبييض» صفحة أي كردي يستمرى أي نوع من أنواع العلاقات مع عدوه وهو جمعي أولاً وأخيراً، أي عدو بني جلدته عامة، ولا تبرئة ذمة أي كان، مهما كانت المبررات، ولا التخفيف عن الطبيعة اللاأخلاقية لتلك الأعمال الشائنة التي تمثل كرادياً وهو يرفع تقريراً، وخفية، لجهة سلطوية بقصد إيلام أي من كرده، وذلك من حيث المبدأ، سوى أن بلاغة الواقع، وعلى مستوى التحديات الاجتماعية، وحجم المصاعب وقساوة الظروف، وتلك الخطط الجهنمية التي توضع باعتبارها فخاخاً قاتلة أو مريعة تنصب للکرد تاريخياً، وما يعتمد من أساليب إكراهية بغية إلحاق الكرد جميعاً بالسلطة، حيث يكون التجويع والتهديد المتعدد الصور في الواجهة، هذه البلاغة لا يجب أن تبعدنا عما يجب النظر فيه، ودراسته، حيث يستحيل أن يكون الكرد سواء من ناحية التماسك النفسي، والثبات في الموقف، أو تحمل الإهانة وليس التنازل أو الخنوع أو الرضوخ، وليس التحول من قبل أي كردي إلى عين مراقبة على كرده، يستحيل وضعهم في خانة وجدانية، اجتماعية وثقافية واحدة، حيث الظروف المعيشية تختلف، وفي الوقت الذي نجد أن ثمة كراداً يتحينون فرصاً للإيقاع ببعضهم بعضاً، قبل أي تفكير في العدو، ولو بشكل مجاني، جرّاء أحقاد متبادلة تاريخية مزمنة كذلك.

وهذا يعقد عملية البحث في هذه الخطوط المتداخلة والتي تشمل الكرد، ممن يتنازعون فيما بينهم، وممن يتنافسون فيما بينهم وإنما حياً بالعدو الرئيس لهم كکرد، وممن يعرفون بـ«يدهم الطولى» في دعم العدو بأشكال مختلفة هنا وهناك، ولا بد أن إجراء كهذا يبلبل وعي الكردي الآخر، وهو في مسلك الرؤية الدقيقة لسيرورة الأحداث، وأين يمكنه أن يضع قدمه، أين يمكنه الثبات في المكان، ومع من، وتبعاً لأي معيار اجتماعي، أو حلف سياسي، تأكيداً لموقف مضاد للآخر كعدو.

ويظهر جبو مدى تأثيره بعامل الانشقاق الداخلي في الصف الكردي، رغم أن التعبير الأخير ليس دقيقاً، لأنه يشير إلى وجود وحدة صف، وداخل مجتمع متراس، مجتمع متناغم منفتح على بعضه بعضاً، وتعرض لهذا الانشقاق، وهو ما لم يحصل، وهذا يحتم علينا لزوم التفريق بين الرغبة النفسية مجدداً، وما عليه

الواقع الفعلي، ولعل انتماء جبو إلى هفيركان قد يكون حافظاً على هذا التأثير من جهة، وعلى هذا الربط بين الساعي إلى وحدة كردية تتعدى نطاق مضارب العشيرة أو القبيلة، من جهة أخرى، وفي منتصف المسافة، كما هو مستقراً، يرى في الطرف الأبعد شخصية بدرخان بك، وقد ملأت عليه وعيه وتفكيره، بكاريزميتها، كما يظهر، وفي الطرف الأقرب شخصية حاجو الأكثر شبهاً بالمير البوتاني، سوى أن انتكاسة البدرخاني من الداخل، ومن خلال قريبه يزدان شير، وانتكاسة حاجو الثاني قبل كل شيء، من خلال جمو الكردي والمعتبر في بعض الروايات منتمياً إلى هفيركان، كان لها دور مؤلم لا بل ومفجع في تمكن العدو العثماني من الإمارة الكردية في الأمس القريب، ومن حلم حاجو الثاني بداية من تجاوز الخطوط الحمراء للعدو العثماني، وتالياً العدو العثماني في امتداده التركي من حاجو الثالث، وما في ذلك من نسج سياسي للعلاقة وبناء حلم كردي قومي النزعة.

هذا التصور رغم رحابته، لكنه في مداه الوجداني، يحتاج إلى أكثر من ضبط تأريخي، وحتى تشذيب واقعي أيضاً.

جبو، يقتبس مقطعاً أدبياً من رواية الكاتب الكردي محمد اوزون «1953-2007»، ذات الصيت «بئر القدر، والتي تشكّل بانوراما سيرية متمحورة حول حفيد بدرخان جلادت، حيث كانت نهايته في بئر شامية الموقع، وذلك من خلال مناجاة بلسان حاجو الثالث، والي زار قبر الأمير بدرخان في دمشق في عام 1934، وقال ما يأتي :

(أصبح كل أجدادي عشيرة هفيركان مع أميري العزيز ومستعدون لتنفيذ أمره. وقد سمعت من أجدادي عن ذلك الأمير القوي والمعظم أنه كان يقول، إن دعائي الوحيد إلى الله هو أن تكون بطون أبناء قومي شبعي، وأن لا تنقص شورية العدس في المطبخ، والخراف أمام الباب، وأن تحلّق طيورنا بحرية في السماء، وأن تتجول أسودنا ونمورنا بحرية. وحكى لي أجدادي، أنه كان يحب صوت المزمار كثيراً، وكانت لديه مكتبة كبيرة، وكانت أبواب قصره «Birca Belek» مفتوحة دائماً لأهل العلم والمعرفة. إن كل واحد من اليهود الأرمن والكلدان والإيزيدية كانوا من قومك، وكان له على الدوام عرس «حلقة الرقص Govend» على ضفاف دجلة، عند ساحل الماء الرائق، ولم تكن شعلة نوروز تنطفئ على قمة جبل «هه ره كول» Herekol. وكان شريفاً ونبيلاً، وعاشقاً لنفسه وأولاده وأرضه وقومه، كما كان إنساناً يحب الله

ورسوله، وفيأ أو صادقاً في قوله، يده خفيفة وسيفه ثقيل. أنت الآن ميت لا تعرف شيئاً عن الدنيا، ولكنك أمير كردي خالد يا أميري . ص 55⁽¹⁾.

هذا المقتبس مؤثر بحق، ويظهر نوعية القراءة الأدبية الطابع التي يمارسها اوزون لتاريخه الكردي، كما أنها تتطوي على ضرب من التقدير للذين أصبحوا رموزاً لشعبهم الكردي، كما في حال بدرخان بك، والذي تعلق به الروائي كثيراً، ولا بد أنه من خلال حاجو الثالث، أو حاجو اختصاراً والذي يشد إليه أنظار أهل التاريخ الكردي قبل سواهم، حاجو الهفيريكي، وحاجو البوتاني في النسب الأوسع، يمرر تصورات أو

(1) المشكل في مراجع الكاتب نذير جبو أنه يورد اقتباساته دون تحديد المرجع بدقة ولا رقم الصفحة، بغية المزيد من الاطلاع، والتأكد من صحة المقتبس، وبالنسبة إلى هذا القول المنسوج روائياً بلسان حاجو الثالث، ورد في رواية محمد اوزون، وباللغة الكردية:

Bîra Qederê, Nefe, Stockholm, 2002, r: 211.

حيث إن المقطع أكثر من المذكور:

(كان آبائي وأجدادي، وعشيرة هفيريكان، وأهل جزيرة بوتان طوع أمرك، وفي خدمتك. كان آبائي وأجدادي يرددون عن أنك كنت قوياً، مقداماً، كان جيشك قوياً، وكنت ملء العين، ولحيثك طويلة ممشطة.. كنت امرئاً بسيطاً/متواضعاً، وكنت تردد: لتكن بطون أبناء قومي شيعي، وأن تكون مطبخ قرويي ساخنة دائماً، وأن يكون العدس على النار دائماً، والخبز على التتور جاهزاً دائماً، وأن تكون النعاج والأكباش، الخراف والجداء أمام الباب «من أجل الضيوف، ملاحظة من ابراهيم محمود»، ولتخلق طيورنا بحرية في السماء، وتتجول أسودنا ونمورنا بحرية. هوذا كان دعاؤك الأوحى لرب العالمين فقط.

كان آبائي وأجدادي يرددون عن أنك كنت تحب صوت المزمار، وكان لديك مكتبة، وكان قصرك Birca Belek، مفتوحاً على مصراعيه أمام أهل العلم والمعرفة، وكنت تعتبر اليهود والمسيحيين، الكلدان والإيزيديين في عداد قومك. وبالقرب من نهر دجلة، وعلى ضفاف مائه الزلال، كانت تقام الأعراس وحفلات الرقص، وما كانت نار نوروز تخدم من على قمة جبل «هركول، وكان ملوك إحساساً ونبلاً، وكنت محباً لنفسك وأهلك وأولادك وموطنك وأرضك. وأنت كنت تحب كما تطيع الله ورسوله، وكنت تقرر القول بالفعل، كنت سريعاً إلى حمل سيفك الثقيل، وما أنت الآن ميت لا تدري بما يجري من حولك، سوى أنك أصبحت أمير الكرد الخالد يا أميري.)

إزاء ما تقول به حاجو آغا، هل يمكن التأكيد على ما ذهب إليه الباحث اليوناني جوردي غورغاس، في كتابه: الحركة الكردية التركية في المنفى، ترجمة: جورج البطل، دار الفارابي-أراس، بيروت- أربيل، ط1، قائلاً (يشكل الهفيريكان، وأصلهم من «بوتان: ميديات» اتحاداً مؤلفاً من أديان مختلفة، مسلمين، ويزيديين، ومسيحيين «يعقوبيين». ص 80)، ومن خلال الارتكاز إلى بروينسن ؟

أفكاراً له، بما أنه يجد في ذلك حافزاً وجدانياً، ومجالاً متاحاً أمامه ليقول ما قاله على لسانه، حيث يلتقي المنفي حاجو بالذي توفي بعيداً عن عاصمته والأثيرة إلى روحه: بوتان، كما لو أن حاجو يناجي عبر بدرخان ما كان يفتقده، ويرثي ما هو عليه، وبدقة أكثر: يشكوه همه. ذلك تعبير جمالي عن لقاء شخصيات لا تقف المسافات الزمنية حجر عثرة فيما بينها، لأنها في هيئة أرواح، سوى أن الذي يتقدم به النص الأدبي وعماده متخيل الكاتب أو الأديب، وما في ذلك من تراكيب وجدانية ومرونة خيال، يختلف عما يحتاجه التاريخ ليكون في واقعه تاريخاً، أي ما يسندة ويمنحه حضوراً فعلياً من ناحية الدقة في المعلومة، وما إذا كان المتردد هكذا أم لا .

هذا يدفع بنا إلى التحرك ضمن دائرة أوسع، واستعادة تاريخ شائك، على الأقل من خلال المنشور في ثنايا الكتب، حتى بالنسبة لعلاقة بدرخان بك بقريبه يزداد شير، أو بالعكس، وما كان عليه بدرخان بك نفسه في صلاته بالعثمانيين، ومن ثم ما كان يتردد في الجوار، أو يمكن تسميته في علاقات بدرخان بك من الكرد في محيطه عملياً .

أولاً، وكما تردّد سابقاً، فإن أي حديث يتضمن نقداً ويتوجّه إلى بدرخان بك، لا يمكن أن يقلل من مكانته في التاريخ الكردي الحديث «أسميه بالحديث، رغم أن الذي أتوقف عنده يرتبط بالقرن التاسع عشر، لكنه على مستوى التركيز على ما هو قومي، أو مؤشرات على ظهور وعي قومي كردي، كما هو الملموس في الكثير من الدراسات الكردية، ومنها ما مر ذكره سالفاً، وكون القرن التاسع عشر عدّ قرن القوميات، فإن هناك مبرراً لاعتماد هذه التسمية، لأن الحداثة تشدنا إلى داخل مجتمع مؤسساتي، بغض النظر أيضاً عما يتحقق أولاً يتحقق فيه»، بمقدار ما يضيء ساحته، ويسمح بالمزيد من التعرف إلى حياته التي لم تعد شخصية، إنما مندرجة في إهاب تاريخ يرفع الحماية أو الحصانة الذاتية عن أي كان، جهة الدراسة التي تهمها الوقائع، أو الأحداث، وما هو مسطور، ومتردد حتى على ألسنة الناس المعنيين، أو يشاع، حيث يمكن الاستفادة من كل ذلك، وهذا يعزّز ثقتنا بأنفسنا بوصفها معمورة بالتاريخ المدعم بالوثائق وليس بمنطق العاطفة .

ثانياً، بصدد بدرخان بك، وكما أشير إليه في صفحات مضت، فإنه من حيث البنية أصبح أكثر من شخصية إشكالية، حتى من جهة الذين يتعرضون له بحثاً

وتنقيباً ومساءلة هوية تأريخية، وأين يتحدد موقعاً بين القومي والعشائري، وهي إشكالية في الكثير منها تترجم حيازة الحقيقة التاريخية من قبل نسبة غالبية من الكتاب أو الباحثين الكرد خاصة، إذ يتنصرون له على طريقة «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، طالما أن شعور المظلومية يملك مجمل نفس هذا الباحث أوذاك.

ثالثاً، استناداً إلى ما تقدّم، فإن من الظلم بالذات في مكان، هو الاستمرار في تعقب مفاصل التاريخ عموماً، والكردية خصوصاً، والنأي بالنفس عن مجمل ما يُشعر الكردي وهو باحث أو دارس تاريخ أو ناقده أو يكون مؤرخاً، بأنه في قرارة ذاته مغبون، مسلوب الحق جهة الاعتراف بالهوية الذاتية والقومية تحديداً، فيتناول التاريخ من زاوية جانبية موجهة.

ذلك يصلنا بموضوعنا وهو القائم على مفهوم «دولتي» وكيف تتردد هذه المفردة «الدولة» مرفقة بصفة لا تخلو من غواية استقطاب، وحتى أهلية استهواء واسترخاء نفسي جرّاءها: الكردية «الدولة الكردية»، وما تعنيه هذه الجملة في خاصيتها الدلالية من تحفيز لإرادة مقدرة، وشعور بالأنفة وحتى الإيحاء الذاتي بأنها واقعة محققة .

بصدد بدرخان بك، والذي يضيء التعرض له شخصاً وتاريخاً نقاطاً عالقة في موضوعنا هنا، وفيما بعد كذلك:

أحسب بداية أن وديع جويده الذي استشهدنا به لأكثر من مرة، كان متوازناً كثيراً، على صعيد الاجتهاد الفكري ووضوح الرؤية التاريخية، وهو يتعقب مفاصل حية ومعتمدة في هذا الجانب، وهو يمارس إنصاف الكردي من نفسه وفيها، قبل أن يمارس إنصاف المسيحي من الكردي الكردي قبل أن يكون المسلم، الذي كثيراً ما نقرأ ونسمع ما يتردد بلسانه من نقد حاد وجارح أحياناً ما يخص هذا الاسم، كما في علاقة بدرخان بك بالنساطرة وحملته عليهم، وعنف القتل الدامي بحقهم تاريخياً.

أرتب هنا نقاطاً أخرى من باب قراءتها وهي قراءة التاريخ بالتاريخ، في كتابه، وثبت رقم الصفحة في الداخل للتسهيل.

ما هي هذه النقاط التي تعيننا في مكاشفة الملتبس بدرخانياً، إن جاز التعبير؟ إنها النقاط التي أتلّمسها خلل قراءة سابرة لدقائق نصه التاريخي:

يرى جويده ضرورة في تأكيد المكانة الاستثنائية لبدرخان بك، جرّاء أعمال كبرى قام بها لإثبات شخصيته التاريخية، ومن خلال علاقته بالباب العالي وبقية الأمراء الكرد «ص 168» وهذا التعظيم والتفخيم أكثر «ص 172»، كما أُشيرَ إلى ذلك سابقاً، استناداً إلى تلك الحنكة السياسية والسيطرة على مناطق واسعة شكّلت إمارته الموسعة «بوتان».

ثمة إشارة إلى نقطة عمريّة تخص بدرخان بك، وهي تذكّرنا بكل من عليكي بتي ومن ثم حاجو «الثالث» وكيف أن الثلاثة أثبتوا وجودهم وتحولوا إلى شخصيات محط أنظار المحيطين بهم (تسلم بدرخان مسؤولية الإمارة وهو لا يزال صغير السن «في الهامش استناداً إلى رواية، تردد أن عمره كان ثمانية عشر عاماً، حين أصبح أمير بوتان»، ولم يبرز اسمه إلا مع بداية مرحلة الإصلاحات العثمانية التي تجلت في القيام بحملات إلغاء كل ما كان يتمتع به الكرد مما يشبه الحكم الذاتي. ص 169).

أحوال القرابة وأهوالها :

ثمة نقطة تعتبر في غاية الأهمية والخطورة، نقطة نظام جديرة بالتسمية وبخط عريض، وهي تخص مسألة القرابة والوراثة في السلطة والانتقام، من خلال علاقة الأمير بيزدان شير، وفاقاً مع رواية مهتم بهذا التاريخ سنة 1835، وهي لأوستن هنري لايارد (إن الأمير كان يحكم باسم الأمير سيف الدين الوريث الشرعي لإمارة بوتان، وظل كذلك لوقت طويل من دون إعلان ذلك) كان الأمير سيف شير الوريث الشرعي لإمارة بوتان وباسمه حكم الأمير بدرخان، وكان ابن الأمير أسد الدين «أردشير» محط اهتمام جميع الحكام الترك «يصحح جويده المعلومة قائلاً عن أن الصحيح هو : يزدان شير»، أما الأمير بدرخان فقد أصرّ ألا يعلم أحد من أتباعه الكرد باسم من يحكم. ص 169).

هذه قضية «جنائية» لحظة النظر فيها، وقابلة للتداول، وإخضاعها لمنطق التاريخ طبعاً، أي فيما إذا كان الذي يتفوه به لايارد صحيحاً أم لا، ما إذا كانت الرواية قد لفّقت من قبله، وبتحريض من جهة أجنبية: انكليزية أو غيرها، إذا راعينا مدى التدخل الأوربي في الشؤون الداخلية للمنطقة، وبصورة خاصة في تلغيم العلاقات بين السكان المحليين، لاستثمارها في خدمة المصالح السياسية للقوى المتنفذة وقتذاك.

لا بد أن جويده مدرك لهذه النقطة الحساسة جداً، حين يقول (إذا كان ما جاء على لسان لا يارد صحيحاً فإنه يلقي الضوء على أمور لا تزال غامضة حتى اليوم. أولاً: تشير إلى أن السنوات الأولى من حكم الأمير بدرخان والتي كانت هادئة نسبياً استغلها الأمير لإعداد نفسه للمستقبل آخذاً في عين الاعتبار الصعوبات التي تحيط به. ثانياً: تساعد على فهم التطورات المهمة المتعلقة بهزيمة بدرخان خصوصاً إلى خيانة عزالدين شير في الوقت الذي كان فيه الأمير يخوض معركة حياة أو موت في مواجهة العثمانيين.... ولقد فعل «يزدان شير» ذلك انتقاماً من بدرخان على معاملته لوالده سيف الدين الذي كان يحكم باسمه وأبقاه بعيداً عن الأنظار. ص 170).

ذلك يتطلب مزيداً من ضبط النفس «القومي المقياس»، ليس انتصاراً ليزدان شير الذي يشكّل هنا وهناك «بكو» كردياً من نوع آخر، ونموذجاً في الخيانة، وما يترتب على تركيز كهذا لتبرئة ذمة بدرخان بك فيما كان يقوم به .

في الجانب الآخر والقريب منا والموازي لهذه القضية «الجنائية» العالقة، نقرأ عن (أنه عام 1838 كان مستعداً للقيام بحملة ضد عبدالله آغا شقيق محمود خان. وعين عالم 1839 ضابطاً في الجيش العثماني وشارك على رأس قوة من إمارة بوتان في معركة نيزيب التي انتصر فيها المصري ابراهيم باشا وألحق بالعثمانيين هزيمة نكراء. ص 170).

طبعاً، كلفته هذه الحملة الكثير من التضحيات، إلى جانب الشعور بالخذلان والانكسار النفسي كذلك، عدا عن أن ذلك يرسم له صورة أخرى من الداخل، ليس في أعين أهله وكرده في الإمارة، وإنما من يحيطون به من الكرد الآخرين، وحتى بالنسبة لأقربائه إزاء علاقة كهذه، أي مع الباب العالي وما كان يتوخى منها، حيث إن بناء «كيان سياسي كردي مستقل» لا يمر عبر الانخراط في الجيش العثماني أو التعاون مع العثمانيين الذين كانوا وراء بلبلة وضع الكرد والنيل منهم.

وهذا ما يفيدنا عندما نقرأ ما يكتبه جويده ومفارقة التصرف (بعد تلك الهزيمة انكفأ بدرخان مع رجاله إلى جزيرة ابن عمر وأخذ يعزز قواته مستغلاً ضعف العثمانيين. ص 170).

لا نعلم هنا، ما الذي وعد به بدرخان بك في حربه مع العثمانيين ضد جيش ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا الكردي الأصل، كما أننا لا نعلم بما كان يجري

على خلفية من هذا التوجه بجيش جرّار، ومن خيرة كرده، وما إذا كان هناك من تمرد عليه، برفض الذهاب، واعتبار ذلك أيضاً خيانة أم لا. ثمة أكثر من جواب تتطلبه أسئلة كهذه.

أكان في وسع بدرخان بك أن يحقق مرتجاه؟ وهو مثخن الجراح، ويواجه سلطة غاشمة رغم ضعفها، عدا عن أنها تدرك كيفية تطويق هذا التوجه البدرخاني الجديد من خلال دعاية فيها جانب من الحقيقة، بالنسبة لخصومه الكرد: انتبهوا إلى ما يرمي إليه، فقد كان مع العثمانيين، وها هو ضدهم، ولا يعرف ما حقيقة توجهه هذا، وما يخفي في جرابه. ذلك ما يمكن أن يتردد، ويلقى آذاناً صاغية (ولا ينكر أحد أن الظروف ساعدته على تحقيق ما كان يصبو إليه. إذ تمكن محمد باشا الراوندوزي من قمع التمرد في الجنوب، والقضاء على إمارة سوران مما أدى إلى إضعاف إمارة بهدينان. كذلك تمكن الأمير الراوندوزي الأعور من سحق الإيزديين في شيخان.... والجدير بالذكر أن ما من حاجة إلى إنكار أنه كان هناك اتفاق ضمني بين بدرخان والعثمانيين. ص 171).

ذلك كان تمهيداً لاستتباب أمن في إمارة بدرخان بك، ولكنه أمن مشروط كما يظهر، فما أفصح عنه العثمانيون للأمير بوصفه عملاً لقي قبولاً منهم، لا يعني إرخاء العنان له، ولعل ذلك أوحى لبدرخان بك في أن يمضي وراء غايته (اندفع بدرخان وراء طموحه من دون الأخذ في عين الاعتبار الظروف التي تحيط به، فعل ذلك اقتناعاً منه أن لديه القوة الكافية لردع كل من تسوله نفسه التحرش به. ص 172).

ومن ذلك ما ترتب على حملته ضد النساطرة والكارثة الإنسانية التي جرت بسببها (تضارب المصالح بين الأفراد والرغبة في اتساع مناطق النفوذ، أدت إلى الصراع من أجل البقاء، ولو على حساب إنهاء الآخرين. الأخطاء القديمة، التعصب الديني، الطمع، الجشع، والرغبة في اكتساب المزيد من النفوذ والقوة... ص 176).

ذلك يحتم علينا التركيز على جملة شُدد عليها كثيراً من قبل الباحثين الغربيين، كما الحال في بحث جويده: الجانب الديني، كما في (بدرخان، مثله مثل الكثير من ذوي الشخصيات الساحرة، في ذاك الزمان، كان الدين يلعب دوراً مهماً في حياته، وفي تفكيره، ووفقاً لرايت وبريت «كان يمضي وقتاً طويلاً في التعبد لله، يصلي الصلوات الخمس في مواعيدها، حتى ولو أثناء العمل، وكان دائم التضرع

والدعاء». ص 175)، وإذا تم الربط بين هذه العلامة الفارقة، وتلك الخاصة الأخرى في الشجاعة ومواجهة خصومه، نجد أنفسنا إزاء خلطة لا تتناغم مع بعضها بعضاً في المركب النفسي، حيث أشار جويده سابقاً إلى هذا النوع من التناقض، عندما تصبح الشجاعة تهوراً والتقى تعصباً أعمى «ص 172»، ولا بد إجهازه على الإيزيديين والنساطرة يركز إلى قاعدة بيانات نفسية من هذا القبيل، لا بد أن تعاونه مع الباب العالي يركز إلى الصفة الإسلامية للباب، وكون السلطان أمير مؤمنين، خليفة المسلمين، وأن الخروج عليه إثم، وفي بعض الحالات ضرورة تبعاً للموقف من ممارسات السلطان، لتكون المعالم المشكّلة للشخصية في النهاية مدمرة لها في النهاية.

هذه النقاط التي أثرتها من داخل كتاب جويده، حيوية، نشطة مع الزمن، تواجهنا حتى الراهن، وهي تنطوي على قدر كبير من مصداقية المؤرخ والباحث التاريخي، إلى جانب موضوعية الذات، كما أسلفت، وإن كان هناك ما يفصح عن رغبة ناطقة بلسان كاتب يقلل من مفهوم الموضوعية أحياناً، وهي التي تتمثل في منحه فسحة أكبر لتعامل بدرخان مع النساطرة بصورة لافتة «صص 176-188»، مع التأكيد المرافق لجانب يتطلب مراعاته، وهو يمس علاقات النساطرة أنفسهم مع بعضهم بعضاً، وبالزعماء الكرد والمبشرين الأميركيين وغيرهم» ص 178-179-182... الخ»، كل ذلك لا يضعف الأثر النقدي الحصيف لجويده والذي أتمسه جهة القيمة وأهلية الاستعارة حتى اللحظة في تعاملنا مع أنفسنا وغيرنا.

إن شعور الكردي بالمظلومية، ومواجهته لمن ينتقد أي معاملة كردية تجاه الآخر: غير الكردي في الدين والقومية، انطلاقاً من سلطة هذا الشعور، أي اعتباره مظلوماً، فكيف يظلم المظلوم مظلوماً وهو يشاركه في الألم؟ لا يفيد هنا كثيراً، كما هو ملاحظ في سياقات تاريخية ونقد تاريخية كثيراً، بالرغم من أن الكردي هذا، وهو ينتقد العربي من خلال بيت شعري عربي يفصح عما هو تصارعي بين العرب:

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

حيث إن الكردي - إجمالاً - يكون على أخيه الكردي قبل الغريب، جرّاء ملاصقته له، وتشاركه في مصير يلتبس عليهما معاً، وهو عداً مأخوذ بمجموعة مؤثرات تبقي الكردي ماثلاً أمام سمع الكردي وبصره كما لو أنه عائق أمام تقدمه.

لعل بروينس في مصدره هو الآخر «ج1»، يعزز هذا المشهد البدرخاني كما في قوله (حكم بدرخان كامل الإمارة، بيد من حديد.. واستناداً إلى ما أفاد به زائرون أجانب فإن المير، كلما كان عليه اتخاذ قرارات مهمة، كان يجمع كبار الآغوات ويستمزج آراءهم. بيد أنه، وحده، كان الذي يتخذ القرارات. ص388).

ذلك يؤثر في طبيعة تعامله مع المستجد، ونوعية نواياه، وما إذا كان يعمل بدافع من «كرديته» أم بكويته بالذات، كما في الجاري على خلفية من هزيمة العثمانيين المذكورة، وضمناً لجيش الأمير، وسعيه إلى اعتماد سياسة جديدة مضادة للعثمانيين، أي بشأن إقامة كردستان مستقلة، كما أفصح عن ذلك قوميون كرد (ولا يمكن إيجاد تأكيد على هذا في المصادر المعاصرة. فلقد تمرد بدرخان فعلاً، ولكن هذا التمرد كان ربما لأسباب أخرى وبنيات أكثر محدودة. واستولى على الأراضي المجاورة مستغلاً الانكفاء المؤقت لعملية المركزة العثمانية... ص390).

إن ما استوقف بروينس، مثلاً، في حديثه عن النيات، يمكن أن ينطلق من النيات عينها، وهي تقترن بالواقع العملي، وذلك من خلال خطوط متقاطعة، ومتقطعة، ومنكسرة، وأحياناً غائبة عن الرؤية المباشرة، ناحية صلاته المختلفة بسلطة الباب العالي، والأدوار المختلفة، أي المتناقضة التي كان يتمثلها، والتي أغفل عنها من جسّدوا فيه حلماً قومياً كردياً، أو بالغوا في مدحه، ربما تجاوزاً مع فراغ سياسي، للعاطفة دور «النفخة» الغريزية في إبرازه، ولكنه يتلاشى على محك التاريخ.

بالنسبة لباحث أميركي، لا يخفي تعاطفه التاريخي مع الكرد، وهو روبرت أولسن/ اولسون، نجده متحمساً، وبمنطق عقلاني لافت، للبحث في موضوعات تاريخية كهذه، ولعلّي أجد في ربطه بين كل من عبيدالله النهري وبدرخان بك، والحراك الكردي ما يفيد على مستوى الطروحات الكردية ونوعيتها، والشخصيات الداخلة في نطاقها، حيث إن دينية النهري لم تحل دون تماديه، وكذلك فإن فورة الدينية الأقل لدى بدرخان بك لم تحل دون مراعاة المحيطين به والمختلفين عنه من الكرد، وحتى في الموقف من الآخرين (وأكثر تلك الفروق بروزاً هو الألقاب، فعبيدالله شيخ، وهو لقب يحدّد وظائفه الدينية كزعيم للطريقة النقشبندية، وباعتباره شيخاً فقد مارس عبيدالله التأثير حتى في المناطق الواقعة تحت نفوذ زعماء آخرين، وأن منصب عبيدالله كزعيم قوي سمح له بأن يوظف أسلوبه الكلامي المليء بالعبارات الدعوية والرموز الدينية، لخدمة قضاياه

القومية، بطريقة عجز عنها بدرخان بك الذي لم يكن زعيماً دينياً، مع أن هذا الأخير كان الأمير الأعلى لاتحاد قبلي)، وما بدا في مقام الشراك، أو الفخ المنسوب أمامه بمزيد من التموه (ومن المحتمل أن مساعي بدرخان بك لتوسيع نفوذه، وحروبه ضد النساطرة المسيحيين سنة 1843 وسنة 1846 هي التي أتاحت للعثمانيين عرقلة الجهود الكردية، أكثر مما كانت تفعله سابقاً، كما أنها شجعت الكرد على منع هذا التدخل والتلاعب مستقبلاً... الخ)⁽¹⁾.

(1) أولسون، روبرت: تاريخ الكفاح القومي الكردي: 1880-1925، ترجمة: أحمد محمود الخليل، دار الفارابي-آراس، بيروت - أربيل، ط1، 2013، ص 18. وينوه إلى وجود خطأ تاريخي وقع سهواً، بالنسبة إلى «1843-1846» وهو التأريخ الصحيح، وليس المسجل في الكتاب «1943-1946».

ومن باب الإغناء، فإن الذي أورده جلادت بدرخان بك في كتابه «قبلي يا ابنة العم Were Dotmam» من منشورات آفستا، ستانبول، 1998، مفيد لنا، وهو يأتي على ذكر عشائر بوتان، وما يمكنه الربط بينها وبين بعض من الأسماء الخاصة بها والتي ذكرت سابقاً، حيث يصنّفها المير البوتاني (إن عشائر بوتاني تصنّف إلى رحالة ومستقر/غير رحالة، وأما الرحالة فهي بدورها قسمان: Coxsor، وÇilit، أما Çilit، فهي: ميران، أليكان، دديران، داووديان، سوران، كارسان، أما Çilit، فهي: باتويان، تيان، خيركان، كيجان، موسرشان. عشائر دشتا: سهل سلوبي: هويري، زيوكي، سبيرتي، رشكان. أما المستقرة، فهي: من جهة متاخمة الماء: برواري، أروه، كارسان «مر ذكرها ضمن قسم الرحالة أيضاً، فاقتضى التتويه، ولعلها هكذا- ملاحظة من إبراهيم محمود»، ولات كلهوك، ولات كفر، ولات كليس، شوفان، جيرليان، ديرشوي، حاجي آليان، خيران، هارونان، سلوبي، حاجي بير، شرخ، كويان Goyan، حيث إن عشائر بوتان جميعها سليفية. ص28). وهي من حيث المكانة، تعلمنا بنوعية التصنيف وثقافة هذا الإجراء من قبل جلادت بك، والمقارنة بين محتويات تصنيفه والعشائر الأخرى تلك التي مرت معنا، وأي قيمة تأريخية لكل ذلك، وبشكل خاص على مستوى التقابل أو التداخل، أو الانتماء العشائري المشترك، ومن ناحية هفيركان بالذات، ومدى أهمية ذكر كل عشيرة وموقعها، لحظة الإتيان على تسمية واقعة تاريخية. وأي العشائر شاركت فيها، أو عارضتها، وما إذا كانت عشيرة ما مقسمة في داخلها، قسم رحلة، وقسم مستقر، وحتى على صعيد الانخراط في عملية انتفاضة أو أعمال تمرد أو ثورة ضد الدولة، مع طرف معين، في أي جهة كردستانية، أو معها، وكيف... كل ذلك يضيء ما نحن فيه.

وللتوسع أيضاً، ينظر في كتاب الدكتور أحمد بشير محمد: دراسة حول عشيرة الهسنيان «بحث تاريخي سياسي عن عشيرة الهسنيان وسيرة بعض رجالهم وظروف ترحيلهم وعودتهم إلى ديارهم»، مطبعة دهوك، 2013، كما في قوله (كان أمراء بوتان يعتمدون على الهسنيان في إخضاع العشائر القاطنة ضمن حدود إمارتهم وفي معاركهم ضد أعدائهم الخارجيين وفي فتح القلاع والحصون التي كانت تعصى على جيش الإمارة... وتتوزع قبيلة الهسنيان بين عدة دول: العراق وتركيا وسوريا، وفي الأخيرة مثلاً، ثمة سهل الهسنيان «ده شتا هه سنا» شرق

لا شك أن لدى أولسن مبرراً تاريخياً ليمارس تقييماً من هذا النوع، وأن يمارس جس نبض بنية الشخصيات الكردية التي تتردد إلى أزمنة تاريخية متفاوتة ولها مواقع مختلفة، وطرق شتى في تعاملها مع جغرافيتها المحلية، ومع العالم الخارجي، وما يترتب على كل علاقة، أو تتفق عنه قرية كل شخصية سلباً أو إيجاباً، وربما بنوع من الألم لا الأمل، حيث يماثل بين مرحلتين تاريخيتين بينهما ثلاثة أرباع القرن (إن الظروف التي حالت دون قيام دولة كردية في العشرينات تشبه حالة التسعينات حين برزت ظروف جيوسياسية لا تسمح بقيام دولة كردية)⁽¹⁾.

هذه الملاحظة لا ينبغي أن تفوت دون مكاشفة لأهميتها، أي ما يخص الكرد في تاريخهم حيث يتعايشون وإياهم، وحين يصبحون رواة له، وحين يتحولون إلى كتاب عنه أو باسمه، دون أن يشبوا عن طوق الوعي الهلامي له إجمالاً، إذ إن هذا التطابق بين مرحلتين، وأكثر من ذلك، بينهما وما يجري راهناً، يرينا ما لا يراى النظر فيه جرأً بؤس المطلع والمختتم، أي حيث يكون الكرد داخلين في التاريخ، في غابته، في غيبوبة الذات، ويلقون إثم الحالة على الآخر وهو فيهم تبعاً.

في العودة إلى بدرخان والبدرخانيين، في استعادة بعض من «شرائح» البحث الحية والتي سميت سابقاً، يمكن التشديد على مفارقات المعيش الكردي وهو يجمع ما بين الديني المتباهى به، والقومي الذي يتردد كإعلان عابر، أي لحظة التذكير مجدداً بخاصية النسب، وهي لا تغفل عنا ما هو متكرر بالسنة كثيرين، وكيف أفاد أعداء الكرد أكثر من الناطقين باسمهم.

وأنا أشير إلى المعتد باسمه، أي رائد الصحافة الكردية مقدار مدحت بدرخان، وهو يدرشن الصحيفة الحاملة لكامل جغرافيا الكرد «کردستان» حين يعرف بما هو مقبل عليه، وما يدعو إليه، في كلمته الموجهة إلى أولي أمر الكرد، مفتتحاً إياها بالبسملة :

مدينة القامشلي في قرى زهيري، خراب رشك، باعوس، ديرك، بليسي، موزلان، سي كرك، كرك، مام شير، زغاطا، عمر آغا البشكي، خان مشك،...بيداري....، حاجي هارون...، تليلون...ص13)، وهذا يعطينا فكرة عن مدى وساعة السلطة السياسية لبوتان، ومن ثم العلاقة القديمة حينها بين الهسنيين، مثلاً، وهفيركان..

(1) أولسن، روبرت: المسألة الكردية في العلاقات التركية- الإيرانية، ترجمة وتقديم: محمد إحسان رمضان، دار آراس، أربيل، ط1، 2001، ص 13.

(يا علماء وأمرء وأغاوات الكرد!

أنتم جميعاً تعلمون أصلي ونسلي، فجدِّي هو خالد بن الوليد رضي الله عنه
(كل أمرء وشيوخ الكرد، بل المسلمين، يعلنون انحذارهم من أشرف العرب لأسباب
دينية وسياسية - المترجم)، وعشيرتنا (بوطان) وشهرة نسبنا (عزيزان)⁽¹⁾.

(1) مقدمة مقدار مدحت بدرخان لجريدة كردستان، ترجمها عن الكردية: جان كرد، «موقع
بنكي ولات».

للتوسع أيضاً، يمكن الرجوع إلى كتاب د. أحمد محمد أحمد: أكراد الدولة العثمانية 1880-
1923، سبيري، دهوك، ط1، 2009، حيث يسمِّي أكثر من واقعة تاريخية، وأكثر من شخصية
مندمجة في المشروع «الاتحادي» ومن ثم حتى الأتاتوركي، وقبل ذلك تشدد على أهمية البقاء
على الباب العالي العثماني، كما في قول عبدالرحمن بدرخان في جريدة «كردستان» القاهرية
المصدر، 1898، ع 16، وهو مهيء نفسه للدفاع عن العثمانيين، وبمنطق المسلم المخلص
لسلطانه أو راعيه من باب الدقة، وفي صحيفة تحمل اسماً من المفترض أن يكون الإخلاص
لها (كل مسلم يرغب أن يطول عمر الدولة العثمانية، عندما يلاحظ أن الوهن يصل إلى
جسد الدولة بسبب الداء، وعلينا أن نمدّها بالدواء وإزالة أسباب المرض من الميدان، لأن
صحة الدولة صحتنا، وموتنا في موتها. ص 302)، وهذا ما ينطبق على موقف إبراهيم باشا
وانخراطه اللات في الفرسان الحميدية، ص 310...وما يوضّح كل ذلك كيف (.. أبدت
الدولة التركية محاولات جادة لجعل الأكراد آلة طيعة بين يديها. ص 317..)، وكيف اندفعت
(عشائر كردية عديدة في الفرسان الحميدية، ص 321-322)، تعزيزاً للوصول ما بين
العثماني اللاكرد، والأتاتوركي المكل للعثماني في الصميم.

والحديث عن الاتحاديين (والاتحاديون فئة بورجوازية غير متجانسة، وهزيلة، وطغاة، ومستبدون
في نفس الوقت، ومغامرون ووهميون تبنا الطورانية كعقيدة لهم. ص 324-... ممن كانوا في
جمعية: تركيا الفتاة، الخاصة بالاتحاد، ومن الكرد القوميين المؤيدين: أمين عالي بدرخان،
سيد عبدالقادر، شريف باشا، أحمد دول، وغافل باشا وغيرهم. ص 329... تباهي الاتحاديين. ص
341-342... ومن أبرز من ساهم ببناء الاتحاد والترقي من الأكراد يوجد عبدالرحمن بدرخان،
وعبدالله جودت، واسحق سكوتي الذين عملوا بنشاط في حركة «تركيا الفتاة» منذ البداية، غير أنهم
بدوا وكأنهم يعتبرون أنفسهم أتراكاً، أو عثمانيين على الأقل. ص 343... الخ).

وكذلك الحال مع كتاب. إبراهيم الداخوي: أكراد تركيا، دارالمدى، دمشق، ط1، 2003، والحديث
عن محاولة الاتحاديين (كسب ود بعض الأكراد. ص 149.. واستغلال الدولة العثمانية
المشاعر الدينية في الحرب العالمية الأولى «سفر برلك، من عندي» باسم الجهاد المقدس ضد
الأجانب، فأدى ذلك إلى تعطيل الجمعيات وإيقاف صدور الجرائد بسبب سوق القائمين
عليها إلى جبهات القتال. ص 153-... وما يخص خداع أتاتورك للأكراد. ص 155....
ووجود شخصيات كردية في مؤتمر أضرروم في 24 تموز 1919، حيث كان بداية لنشوء تركيا

أكان مقدار واعياً لما يقول، أم عن قناعة، أم لالتفاف على المسلمين قبل كل شيء، أم كسياسة؟ إن أي تبرير لهذا الاعتراف، وهو بخطه العريض، وفي مدينة مثل القاهرة، لا يمحو وزر المتلبس بالنداء، أو الكلمة الثقيلة الوطء، وما يمكن أن نمضي إلى الداخل «الكردى» وهو في تمزقاته، أو اعتباره مجموعة مضارب تعصف بها رياح التاريخ.

في حال جليلي جليل، يجدر بنا الربط بين التوزع الأرضي باسم الكردي، وكيفية الإطاحة بوحدة الكردي من خلال هذه اللعبة المستمرة من قبل الذين أدركوا مدى حيوية «جني ثمار» لعبة كهذه، قديمة العهد ومتجددة في آن.

عند الحديث عن البنية اللامدنية للکرد، وما ينشغل الكرد به، ويشغلهم عما يتحداهم زرافات ووحداً، وما يبقوهم طوع أمر الآخر: الحاكم المتجبر، وكثير من تجبره معزز بهم، ومستمر بهم (إن البنية الاجتماعية للسكان الأكراد في الامبراطورية العثمانية وخارج حدودها كانت تتسم بحفاظها على رواسب العلاقات العشائرية والتي لم تنحصر فقط في السكان الرحل وشبه الرحل فحسب، والسكان الحضر وفي مناطق محددة أيضاً وبالتالي فإن مصطلح «عشيرة» يجب فهمه هنا بمعنى أكثر شمولاً. ص 18.. في شمال شرقي الامبراطورية العثمانية كانت تمتد إيالة أرزروم التي باتت منذ بداية القرن التاسع عشر منطقة حدود بين تركيا وإيران وروسيا ص 27. إن الأعباء المضاعفة على الفلاحين كانت قاسية للغاية في ظروف الفوضى العامة، عندما كان كل شيء يتقرر بإرادة وقوة الإقطاعيين الأكراد. ص 34.. ولقد زاد من تشتت الأكراد النزاع الداخلي بين القبائل، وعملت السلطات العثمانية، مستفيدة من هذا الوضع، إلى تأجيج روح العداء بين القبائل الكردية، وبهذه الوسيلة فقط استطاع الباب العالي فرض سيطرته الشكلية على الأكراد. ص 34.(1).

وثمة باحث كردي يهتم إعلاء شأن بدرخان بك، أكثر من سقف التاريخ الواطئ بالنسبة إليه، ربما في ترجمة ذاتية عما يمكن للكردي أن يكونه قيمة، وما يجب التأكيد عليه، خدمة لحاضر، من خلال علامات فارقة تنطق بالخارجي، أي ما يضعف روايته، وبدقة أكثر بنية درايته لمنطق التاريخ (أطلق على الأمير بدرخان

الحديث: رائف أفندي- الشيخ فوزي أفندي، سعد الله أفندي. ص 160.. وكان دعاية للأتراك، ص 165.. الدور السلبي للاتحاد والترقي على الكرد. ص 186... الخ).

(1) جليلي جليل: من تاريخ الإمارات في الامبراطورية العثمانية، دار الأهالي، دمشق، ط 1، 1987، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

خلال حكمه العديد من الألقاب، منها: أمير، بك، خان، ميرميران، باشا، فلقب الأمير، ورثه من الأمراء الذين حكموا الإمارة بدءاً من مؤسس الإمارة، أما لقب خان فقد حمله أمراء من قبله، ويعتقد أحد الباحثين أن هذا اللقب جاء من علاقة الإمارة بإيران سابقاً، أما لقب بك، فيدل على تبعيتهم للدولة العثمانية، ولقب الأمير بـ «ميرميران»⁽¹⁾.

وحتى بالنسبة لباحث آخر مختلف في توجهه، وهو ديني على أكثر من صعيد (ينتمي الأمير بدرخان عبد الخان إلى السلالة العزيزية البدرخانية التي كانت تحكم إمارة بوتان لأكثر من خمسمائة سنة. ص 31... كان الأمير بدرخان شخصية قيادية من الطراز الفريد «يستعين بجويدة لهذا الغرض» ص 32... وكان بدرخان صارماً وحازماً في تطبيق القوانين الإسلامية الخاصة بالحدود «العقوبات» داخل إمارته⁽²⁾).

أي سواء، تعلق الأمر بهذه المقتطفات، أو بالمقتبس السالف، فإن التعريف ببدرخان بك من ألقابه أو أوسمته، أو تميزه بالصرامة، لا يجب أن يقينا عن استتقاق هذه الألقاب، وهي من حيث المبدأ لا «تشرف» لأنها على خلفية خدماتية لمن يستبد بالكرد بصورة كاملة، ولا تناسي مساءلة الصرامة، وفيمن وعلى من، وكيف، وهو في وضعه المعروف تاريخياً.

إن هاكان أو أغلو، رغم اتصافه بالتحيز لصالح التاريخ الرسمي: العثماني- التركي تالياً، وأن هذا التحيز يصعب التعرف عليه لوجود ثقافة عالية لديه، ومتابعة لأدبيات تاريخية مختلفة، ومرونة في التعامل، أقصته عن شخصية الباحث الممثل للإيديولوجيا الرسمية للدولة تلك التي يركّز عليها اسماعيل بيشكجي المفكر التركي الكبير، وأبقته قريباً من الحقيقة ذات الصلة بالتاريخ، وهو يدقق في «خطايا» بدرخان بك، وما يترتب عليها من تفرغ شخصيته من القيمة الرمزية له كردياً، وهو ما يتوجب علينا الانتباه إليه، طالما أن ذلك يبيّصنا أكثر بما هو معاصر لنا ويوجهنا إلى الآتي (لقد كان بدرخان نفسه يحمل لقب متسلم «أي متحصل ضرائب» الأمر الذي يوحي بأنه كان جزءاً من الإدارة العثمانية... وقبل

(1) هروري، د. صلاح: إمارة بوتان في عهد الأمير بدرخان 1821-1847 «دراسة تاريخية سياسية»، مؤسسة موكرياني، أربيل، ط1، 2000، ص 49.

(2) علي، د. عثمان: دراسات في الحركة الكردية المعاصرة 1833-1946 «دراسة تاريخية وثائقية»، المصدر المذكور، ص 31-32-33.

عام 1847م كان بدرخان مخلصاً للعثمانيين ويساعد الحكام المحليين في حكم الأراضي الكردية «من عندي ربطه بشرفخان». ولهذا كان شخصية معروفة ومحترمة في الهيكل الإداري العثماني في الولاية. ولذا يجب عدم الاستغراب من أن بدرخان لم يُحكم بالموت، حتى بعد قمع انتفاضته، بل وضع على قائمة الذين يتقاضون الرواتب من الدولة العثمانية. ...بعد نفي بدرخان إلى كريت في عام 1848م مع اثنين من إخوانه وثلاثة من أطفاله، كان أكبرهم حامد البالغ من العمر 11 عاماً. وقد أمضى بدرخان عشرة أعوام في كريت، وكان دوره فعالاً في التحكيم في النزاعات المحلية بين المسيحيين والمسلمين بالنيابة عن الحكومة المركزية. ومقابل خدماته مُنح بدرخان، إثر عودته إلى اسطنبول لقب «باشا» بمرتبة أمير أمراء» مير ميران في عام 1858م ... لهذا لا يجب النظر إليه كشخصية في التاريخ الكردي...⁽¹⁾.

لن ندخل في عملية شرح الاقتباس، ولا إضاءته، وإنما طرح أسئلة توسّع علينا أفق رؤيتنا للتاريخ، ومن ذلك: أليس هذا الارتباط، وليس فكه، بالباب العالي، يبقى بدرخان بك تحت مرمى السلطان، وبين يديه؟ كيف يمكن تقييم هذا الكم اللاف من الألقاب أو المنح السلطانية، دون النظر في المقابل: الخدمات المقدمة، وصلتها به ككردي قبل كل شيء؟

أي تحفة منطقية هذه التي تملؤنا بالدهشة، حيث نهل لقائمة ألقاب أو أوسمة كهذه، باعتبارها شهادة عيان على مدى نباهة الكردي واتصافه بالحيلة والفتنة، بينما هي ليست أكثر من طوق على طوق أو قيد يضاف إلى سواه؟

كيف يُجاز البحث في تاريخية البوتاني وفي اتجاه واحد دون معاينة الشعب في العلاقة، أي ما يخالف هذه الرغبة التي «تقود» منطق العقل، وليس أن تخضع الرغبة لهذا المنطق والذي يتموقع تاريخياً، من خلال الانفعال بمأثرة السلطان؟

أغلو، لم يبتدع شيئاً من عنده، كما أرى، أو أعتقد، إنما بحث في أرشيف السلطنة، مثلما أنه تعقّق المسار المتعرج لهذا الأمير الكردي الكبير، وتلك التلوينات في حياته، وهو يحاول التنصل من مسئولية ما يجري، من خلال الإيحاء إلى أنه

(1) أغلو، هاكان أوز: أعيان الكرد والدولة العثمانية «هويات متطورة... وولاءات متنافسة... وحدود متحوّلة...»، المصدر المذكور، ص 117.

ليس كما يقيمه أعداؤه، أو يجري تقييمه حتى من داخل بيته «من يزدان شير، مثلاً»، إنما هو أمير كردي وكفى ؟

أي عبرة في تسمية هذا الإثم المعطوف على يزدان شير، باعتباره مجسّد صك براءة لبطولة بدرخان بك، كما لو أن هذه «الخيانة» كانت السبب القاتل لهزيمة بدرخان بك، دون التدقيق في ملابسات العلاقة أو المعثّم فيها ؟ تلك وصفة مشرّعة بأيدي كثيرين، يُلَوّح بها حتى اللحظة، بمجرد حدوث انتكاسة كردية معينة، أي تجريم جهة معينة، مقابل جهة أخرى ؟

إن هذا الذي يسطّره أمامنا أغلو، يحثُّ على الاحتكام إلى التاريخ لتبين مدى دقّته، وهو كذلك، لأن بدرخان بك لم يكن ذلك «العاصي/الشقي» دفعة واحدة على إرادة السلطان «السنّيّة»، ولا كان يجول في خاطره مثل هذا التصور، انطلاقاً من جملة إحداثيات تاريخية تسمّيه، وتقربّه من السلطان أكثر مما تبعده عنه، ولا بد أن الذين جاؤوا من بعده راعوا هذا النوع من السلوك الأميري، من أبنائه، أو عائلته، لحظة معرفة أن الذي أحدث البينونة الكبرى/القطيعة اللافتة بين البدرخانيين، هو ما ترتّب إثر نهاية الحرب العالمية الأولى، و «سيفر» وبروز مصطفى كمال وتخطيطه لإدخال العثمانيين إلى عهد تاريخي جديد تمهيداً لنشوء «الجمهورية التركية» التي كانت «سيفر» تلك أو محك اختبار لقوتها قبل تسميتها، كانت «لوزان» من أولى ثمارها، في إخراج فكرة أي كيان كردي من التاريخ التركي الرسمي إلى يومنا هذا.

لعل مالميسانز، من خلال ضبطه لمحاضر اجتماعات العائلة البدرخانية، يعزز هذه الفكرة :

(وحسب ما يفهم من المحاضر فإن البدرخانيين يتخذون قراراً بتأسيس جمعية عائلية في مايس العام 1920 من الأمير أمين عالي بدرخان ص9... إن محاضر الجمعية المدونة للاجتماعات الثمانية عشر قد تواصلت من مايس العام 1920 حتى تشرين الثاني، ومما يلفت النظر أن اجتماعاتها استمرت طيلة أكثر من أربعة أشهر- خلال اجتماع أو اجتماعين- بصورة منتظمة من دون أي تلكؤ، كل أسبوع مرة ص10... إن محاضر اجتماعات الجمعية العائلية هذه من حيث أنها تعكس اهتمامات الأمير أمين عالي بدرخان وأبناؤه وأخوته بنوع القضايا العائلية التي كانت

تشغل بالهم... كذلك من حيث كونها تعكس أيضاً مدى مطالبة البدرخانيين المدونة أسماءهم في هذه الوثائق بملكية ما ينتج من التوفيق بين مصالحهم والقضية الكردية للذات أهمية استثنائية. ص 11... قبلها أفصح أمين عالي بدرخان عن انقسام الكرد إلى تيارين: أغليبيتهم تريد الانفصال عن تركيا، والقليل يريد البقاء داخل حدود تركية، والدعوة إلى تطبيق الأول من أوربا... ومن الدال على الجمع المركب أن أمين عالي بدرخان كان رئيس الجمعية العائلية، ونائب رئيس جمعية تعالي كردستان في الوقت نفسه.. وبعد أن ساد هذه التحلل والتفكك.. ترأس جمعية التشكيلات الاجتماعية الكردية التي تأسست يومئذ. ص 10... مثلاً في التوزيع، في الاجتماع الأول: كان الحضور ثمانية الرئيس فيهم أمين عالي بدرخان، والأخيران جلادت وكاميران ابناه، والبقية أخوته. ص 11، أي أكثر من الثلث.. الموضوعات المطروحة على بساط البحث في الاجتماعات: في الاجتماعات الأولى يتم البحث، بقدر ما يمكن فهمه، في الأكثر حول جزيرة ابن عمر المتعلقة بوراثة إمارة بوتان التي تنتسب إليها الأسرة البدرخانية وعن العلاقات السياسية والدبلوماسية المتصلة بكردستان. ص 13... كان البدرخانيون يتقاضون رواتب بدلاً من أملاكهم. ص 14..... ويفهم من محاضر اجتماعات الجمعية أن الأمير ثريا بدرخان كان في تلك الفترة في القاهرة والبدرخانيين المقيمين في استانبول تهمهم قضية «الأملاك المحجوزة» الموضوعة البحث وهم منهمكون في المطالبة بها، فإن الأمير ثريا مثلاً، حسب محضر الاجتماع السادس للجمعية إنما يراجع قبلئذ الإدارة الانجليزية من أجل قضية هذه الأملاك. ص 14... الخ (1).

في هذه الأقوال المتسلسلة، يمكن التعرف على مواقع أبناء/أعضاء العائلة البدرخانية جهة العلاقة مع السلطنة قبل كل شيء، ولا بد أنهم، وفي الواجهة كبير العائلة: أمين عالي بدرخان بك، حيث إنهم لم يشأوا أن يحيدون قيد أنملة عن سياسة مؤسس هذه العائلة، أو الإمارة التي تحمل اسم العائلة بالذات، وأن التلويح باسم العائلة في العاصمة العثمانية: ستانبول، وليس في العاصمة التركية أنقرة فيما بعد، لا يعدو أن يكون اعترافاً بصحة مسلكيات الأب المؤسس، وأنهم من خلال تنوع أنشطتهم، ما كانوا خارجين عما هو مشدد عليه من خلال المتغيرات في

(1) مالميسانز: بدرخانيو جزيرة بوتان ومحاضر اجتماعات الجمعية العائلية البدرخانية، ترجمة: شكور مصطفى، وزارة الثقافة، أربيل، 1988، وقد وردت أرقام الصفحات في المتن، للإيجاز.

السلطة، حتى إبان طغيان سلطة الاتحاد والترقي، طالما أنهم كانوا في مقام «موظفي» الدولة» الانتقالية، إن جاز التعبير، أي وهم محسوبون على ما كان، ويتدارسون فيما بينهم ما يمكن أن يحصل لاحقاً، وأن القطيعة تمت لحظة إعلان أتاتورك نفسه القطيعة مع ماضى امبراطوري تداخل فيه الديني مع القومي بالمعنى المحدود للكلمة، وما ترتب على ذلك من فقدان كل أمل بأي تسوية أو حتى «مصالحة»، وفي الوقت نفسه، بدت فكرة هذه الجمعية كما لو أنها التعبير عن مكبوت عائلي، ولو بحذر، جرّاء سخونة الأحداث، والخوف من المستجدات، وكيفية الحصول على تعويض العائلة، شعوراً من أعضائها أن لذلك قيمة مقدّرة من قبل رموز العهد الجدد في تركيا، أي كون بدرخان بك، لم يدّخر جهداً في مساعدة دولة آل عثمان، وهذا ما لم يحصل.

وربما في تناول مسعود محمد لبنية هذا التناقض، ما يفيد، بين اعتبار يزدان شير خائناً، وكونه بطلاً، بين كون المهتم به كردياً ناقماً عليه، وكونه مادحاً إياه، طبعاً حتى على مستوى الأغنية الشعبية الكردية «Ez Xelef im Xelef im»، ومن خلال رموز الأدب الكردي وغيره، وفي مقارنة نقدية تصل إلى حد الإيلام ومفارقة المشهد الثقافي والنفسي الكردي، وهو بصدد موقفه من الشاعر الكردي المعروف حاجي قادر كوي: سبقني طبعي إلى الالتزام بتناول الشيء على حقيقته فإذا أعيتني فيه الحيل صارحت الناس بعجزي. «ص27»، وفي الهامش (أقول من باب المثل أني لازلت منذ سنين في حيرة من التفسير الذي يمكن به رفع التناقض فيما يأتي: فقد أجمع القول والكتابة على خيانة أحد وجهاء عائلة بدرخان» هو المدعو «عزالدين شير- أي عزالدين الأسد» للقضية الكردية بانقلابه على بدرخان باشا زعيم الثورة الكردية بكرديستان تركيا في أواسط القرن الماضي وإضعافه لها بما مكن السلطة العثمانية من إخماد نارها، وقد حدث ذلك قبل انتقال حاجي إلى استانبول. لكن صعوبة تصديق هذه الخيانة تنهض في واحدة من القصائد الوطنية لحاجي قادر في معرض حوار مع شخص مستيأس من المصير الكردي حين يقول فيها أن أمل الأكراد منوط برجل هو «أسد» كاسمه فإنه لمن الواضح أن دلالة هذا القول تنحصر في شخص «عزالدين شير» اشتهر بـ «يزدان شير» ونحن نعلم من أمره أيضاً قيامه بثورة أخفقت بعد عقود من إخفاق ثورة قريبه بدرخان باشا «من عندي: أقل من عقد»، ولكن لا أعلم العلة في أن جميع الكاتبين في شأن يزدان شير

سهواً عن هذه الحقيقة الكبيرة في شعر حاجي قادر، ولا أعلم أيضاً الأحوال والظروف التي حملت على الإيمان بعز الدين إذا كان ملاحقاً بتهمة خطيرة ترقى إلى مرتبة الخيانة قبل أن يثبت في العمل جدارته بهذا الإيمان العريض فيه، أم ترى أن تهمة الخيانة ألصقت به فيما بعد على يد الكتاب دون تمحيص كاف. خيال هذه الأحجية لا يزال يراودني بعد تمام ثلاثة أجزاء من كتابي وأنا أوشك أن أُلج المرحلة الأخيرة من حياة حاجي باستانبول حيث علقت أسباب حاجي بأسباب عز الدين شير فلا مهرب لي من مواجهته على نحو من الأنحاء المقبولة في مذهبي⁽¹⁾

أليس هذا ما انطلق منه بيشكجي، وهو يمارس قراءة اجتماعية وسياسية لبدرخان بك في محيطه، وكيفية تقييمه لنفسه، ولمن حوله، وكذلك بالنسبة للدول الكبرى حينذاك، وسوء التقدير منه والذي يرتبط بتفكير إماراتي، زعاماتي مؤطر؟ في مقاله عن بدرخان، ينسب صاحب «کردستان مستعمرة دولية»، و«النظام في الأناضول الشرقية»، و«إرهاب الدولة في الشرق الأوسط»... إلى وجود ثغرات في المسيرة الحياتية له وهي ذات منحى سياسي، وتتعطف على طبيعة وعيه، أو طبيعة إدراكه لشخصه والظروف المحيطة به، لعل الضعف الأول، هو في عدم معرفته بأنه محاط بمجموعة قوى فاعلة في المنطقة، ليس في الشرق الأوسط فحسب، وإنما في يوميات الباب العالي، وحتى في النظم السياسية للإمارات الكردية، ومنها إمارته، باعتبارها أكثر من مكون كردي، وحتى لو افترضنا بالمكون الوحيد فهو غير متجانس، ولا يستطيع التنفس إلا بوجود رئة سياسية مؤثرة في

(1) محمد، مسعود: إعادة التوازن إلى ميزان مختل، مطبوعات المجمع العلمي الكردي، بغداد، 1977، ص 28.

ربما في السياق نفسه، وعلى مستوى التاريخ العلائقي للکرد، وكيفية نيلهم من بعضهم بعضاً، حيث يختل ميزان التاريخ، يجد قارئ الكتاب البحثي والوثائقي الضخم والمخيف بمعلوماته الموثقة للدكتور عبدالفتاح علي البوتاني: منطقة بادينان 1925-1970 «دراسة في الوقائع والتطورات السياسية»، تقديم: د. عدنان عودة عباس، منشورات الأكاديمية الكردية، أربيل، 2017، في مجلدين، في أكثر من «1400» من القطع الكبير، يصطدم قارئه بوجود كم هائل ومرعب من القوائم الاسمية لأشخاص ذوي وجاهات ومقامات معروفة في المجتمع المذكور، كانوا يتلمسون في الاتصال بعدوهم القومي اشتهاً نيل من الآخر: من شعبهم، وأحسب أن الفترة المحصورة للدراسة مفيدة في الطرف الآخر: التركي أيضاً، وباقتدار.

عملية شهيقة وزفيره، ولو من الخارج أيضاً، منشؤها: القوى تلك، ولا بد أن نهايته المأسوية والتي عرفت به منفياً، مهزوماً، كانت حصيلة وعي كهذا.

يضاف إلى ما تقدّم، وجود ضعف آخر، وهو بنيوي، ويترجم سلوكه ككردي، وبنيته، وهو أنه لم يتقن قراءة لغة الكردية، وبأي نبرة مثلى يمكن تهجئتها أو التعرف بها، أي ما يخرجها من نطاق كونه أميراً بوتانياً محصوراً داخل أنا متعالية.

وثمة ضعف ثالث، ولا ينفصل عن الضعفين السالفين، وهو أنه لم يكن يحيط علماً بلغة الإشارة السياسية، وهو يتبدى في واقعه فالحاً فيها، أي جهة إقدامه في التعامل وحتى التحالف مع العثمانيين، ومن ثم الإحجام عن ذلك، وتأثير ذلك على الجوار، وحتى على أقرب المقربين منه، وعدم التنبه إلى أن أي خطوة كان يخطوها تسجّل خارجاً، وتدرّس، كما أنها تقيّم في ضوء المردود الاجتماعي والنفسي بالمقابل، ومن داخل منطق الباب العالي السياسي، ومن قبل القوى المتنفذة آنذاك.

لا يرى بيشكجي غضاضة من تسجيل اسم يُمحور حوله ما يمكن اعتباره الخط الفاصل بين كونه المنغلق على نفسه، واعتباره الطامح إلى كيان سياسي يعزّز موقعه، ويثبت شخصيته وولاء الكثيرين له سياسياً في إمارته وخارجها، وهذا الاسم هو «أحمد خاني : 1651-1707 م»، أي كيفية تمثله بالمفهوم القومي مبكراً، ليتجاوز الشقاكات الداخلية، والتي لطالما شدد عليها صاحب «مم وزين»، وهي كما لو أنها «فالج لا تعالج» قائمة إلى هذه اللحظة هنا وهناك.

ولا بد أن البدء بمشاركته في جيش العثمانيين ضد جيش المصري ابراهيم باشا والهزيمة الساحقة التي تعرضا لها كلاهما، كان إيذاناً بحدوث صدع في جدار الثقة البنيوية في إمارته هذه، حيث الضحايا مكلفة بشكل صادم :

(لقد اندلعت الحرب بين كل من ابراهيم باشا والعثمانيين سنة 1839 في «نيزيب»، حيث شكّلت تحولاً خطيراً. إذ إنه في الحرب هذه، أخذ بدرخان الأمير بدرخان موقعه في جبهة الجيش العثماني في مواجهة جيش ابراهيم باشا. وفي هذا الوقت كان ابراهيم باشا بن محمد باشا والي حكومة مصر والياً على سوريا.

ولقد انهزم الجيش العثماني في نهاية الحرب هذه. وأنا على قناعة أن الهزيمة هذه تركت تأثيرها على الأمير بدرخان. إذ إنه إثر ذلك، نرى، كيف أن الأمير بدرخان يباشر إقامة اتصالات وتحالفات ما بين الأمراء الكرد).

ولم يكن تمكنه من النساطرة وهو ينال منهم، مبالغاً في القتل إلا هزيمة داخلية ومقررة من نوع آخر، هزيمة تمثل توأم سابقتها (إن إغارات الأمير بدرخان ضد النساطرة ما بين 1844-1446، أدت إلى مقتل عشرة آلاف في المرة الأولى، وثلاثين ألفاً في المرة الثانية).

وهذه الواقعة ليس لأنها تسيء إلى كردستان فكراً وخيالاً، إنما لأن الذهنية التي تحرّض على قتل النساطرة، والاستيلاء على أموالهم وممتلكاتهم، إلى جانب بيع نسائهم وأطفالهم كأسرى في الأسواق، لا يمكنها أن تبني كردستان مستقلة).

وما جرى ترتيبه بالتالي، والخلل الذي أفصح عنه انكساره لا بل اندحاره، إلى جانب طعنة قريبه الموجهة إلى خاصرته لحسابه غريمه العثماني «خيانتة» كما سميت (ما يعرف في هذا السياق، هو أن بريطانيا وفرنسا قد فعلت كل قواها، بغية أن تفرض الدولة العثمانية عقوبات صارمة على الأمير بدرخان. إن مسئولاً كردياً، وهو يجعل من كردستان المستقلة ملء تفكيره، لا بد أن يأخذ بعين الاعتبار نفوذ كل من بريطانيا وفرنسا، وكذلك روسيا في الوقت نفسه، حيث تتمتع هذه الدول بثقل سياساتها الموجهة في العالم، إن في الشرق الأدنى، أو الشرق الأوسط. حيث إنه لا يعلم ما إذا كان الأمير بدرخان مطلعاً على أحمد خاني أم لا، إن ما يعرف هو أن الذين دخلوا المدرسة، مطّلعون على أحمد خاني، ملا جزيري، فقي طيران. سوى أنه لا يعرف ما إذا كان الأمير بدرخان قد نال تعليماً في المدرسة أم لا)⁽¹⁾

(1) ينظر مقاله: أفكار حول بدرخان بك، في كتابه: الدولة والكرد: اللغة، الهوية، الوطنية، والقومية «مقالات 2005-2013»، ترجمة من التركية إلى الكردية: روشان لزيكين- أحمد خاني، منشورات وقف اسماعيل بيشكجي، ستانبول، 2016، ص 441-442. ويمكن النظر في النص التركي، والصادر عن الوقف نفسه، 2013، 385-386. ضمن هذا الإطار، ينظر فيما كتبه عن تسلط بدرخان بجيشه على النساطرة، في كتاب الميجر نوثيل: ملاحظة في الوضعية الكردية، تقديم: أ. د. عبدالفتاح علي البوتاني، مركز الدراسات الكردية وحفظ الوثائق، دهوك، 2009، ص 15، وهو شبيه بالكُرّاس/الكتيّب، ولكن الإحالة عليه، تفيد في معرفة تداعيات علاقة داخلية من هذا الجانب المركّز عليه، ومدى تأثيرها في القوى المتنفذة في المنطقة والعالم.

وينظر أيضاً فيما كتبه جرجيس فتح الله، في: يقظة الكرد، دار آراس- أربيل، منشورات الجمل، ط1، 2012، وفي معرض المقارنة بين مسار عائلتين كرديتين، وإشكالية مسلكتهما: دينية، وعلمانية، الأولى سادة النهري «شمدينان» والثانية أمراء بدرخان.. وبالنسبة للثانية يقول

ما يبقى خفياً جدير بالمتابعة :

هذا يفرض علينا ما يشبه ثمة الحقيقة: ضربيتها، في وجوب الإصغاء إلى الصوت الخافت أو حتى الخفي والمموه والمؤثر في اللعبة، وهي على أتم علاقة بمقام القبيلة بوصفها قوة لا تتحدد تبعاً لإرادة من يدعي تمثيلها، بوصفها حساسة وخطرة، ذات بعد ناري حارق محرق، أو مائي جارف مخرب، لحظة الاستخفاف بالقوة الكامنة في داخلها، لأنها تعتبر النسيج غير متناغم الخيوط ومن ثم الألوان التي تتشربها خيوطه، مثلما أن النسيج هذا لا يغطي الجسم كما هو مرغوف فيه نفسياً، ولا بد أن المنطلق من القبيلة/العشيرة/الحمولة، وكله يقين أن زعيمها، وقادر على ضبطها، أو يجرها خلفها، أو يكون منها ما يريد، وأهم، أو أكثر من ذلك: متوهم، لأنها كالنص المكتوب في غوره غير المرئية، أي مليء بالثغرات التي تسمح بالتدخل فيه وحتى «جره» إلى الخارج، وبالطريقة هذه، تكون الديموغرافيا داخلها متعدية لمفهومها الحسابي «الرقمي»، لأنها ثلاثية الأبعاد، وربما أكثر: القوة العددية، والنوعية، وما يتحرك بينهما، ولا يعمل في السرد، ويكون مفاجئاً .

لعل حميد بوزرسلان كان مصيباً في تشخيص هذا المركب الصعب لها، وكيف يصعب التحكم بها أحياناً (القبيلة ليست مشروع حليف للحركات التي تتحدى السلطة فحسب، بل هي مشروع حليف للسلطة أيضاً ضد من يتحداها)⁽¹⁾.

تُرى هل روعي هذا الجانب الخارج عن السيطرة، من قبل الذين يعرفون بأنفسهم زعماء أو قادة أو رؤساء في قبائلهم، وهم يستلّفون أو يتلقون منها القوة أو المدد؟ كيف تكون أو تتم مراعاة هذا الجانب المكشوف أو العصي على الانضباط؟ لعله الجانب الذي يسمّى فيه فلّاح الرجل القبلي أو الزعيم القبلي والذي يريد النيل من القبيلة بالذات، وبالتالي، فإن تتبع طريقة أو أسلوب تعامل رجل القبيلة، مثلاً، مع جماعته، ينطوي على إحساس بالمغامرة ضمن غابة، وشعور الطرب الذي

(ولأمراء آل بدرخان سجل سياسي قلق تتخلله محاولات غير ناضجة آلت إلى الفشل. إن أبناء الأمير بدرخان البوتاني الشهير العديدين لم يقبلوا قط بهزيمة والدهم.. ص 52)...الخ.
(1) ينظر مقاله، ضمن المؤلف الجماعي: الاثنية والدولة: الأكراد في العراق وإيران وتركيا، إعداد وإشراف فالح عبدالجبار- هشام داود ترجمة: عبدالإله النعيمي، معهد الدراسات الاستراتيجية، بيروت، ط1/2006، ص، 226.

يتملك المنتمي والمختتم بالنشوة والتي تنسيه حساسية موقعه، ولزوم عدم بلوغه هذه الدرجة حرصاً على موقعه ذاك.

ذلك يحفز فينا إرادة اليقظة العقلية صوب الداخل، وفي أكثر من اتجاه، فأن نشخص أبصارنا إلى الذين كانوا يشكلون سنداً لمن كانوا سبباً فاعلاً في عدم اعتبارهم شعباً وضمن كيان سياسي، أي أعداء الكرد ممن شكّلوا أكثر من عائق بنيوي بينهم وبين أنفسهم في الداخل، بينهم وبين الاتصال بأن عامل خارجي يمكنهم من التقارب، وأي «عاهة» عضوية» فيما لو وجدت، أي آفة ذهنية، فيما لو شوهدت، أي نشوة لاواعية جمعية الطابع، فيما لو ظهرت نتيجة التنقيب الداخلي، أن نقوم بكل ذلك، لا بد أن يغني أرشيف التاريخ النفسي والذهني للكرد ويؤخذ في الحسبان أكثر .

أن يكون تركيزنا على المفارقات التي بدلاً من أن تقيم وثاماً بين الكردي واسمه وليس جدار بين، هو الأجدى عملياً .

كأن يُدرّس مثال من هذا النوع، والكرد على عتبة الألفية الثانية، إي على وقع انهيار جدار الباب العالي المنخور، وتداعي صدى حطامه، وسعي من رفضوا هذا «النعي» من الكرد بصورة ملموسة، واستفظعوا تلاشيّه، كقول جويده (لعل أكثر الأفعال إثارة من زعيم كردي دعماً للسلطان المخلوع هو الإجراء الذي اتخذه ابراهيم باشا رئيس اتحاد العشائر المللية وقائد الأفواج الحميدية. عندما وصلت أنباء سقوط عبدالحميد إلى ابراهيم باشا في نيسان/أبريل، 1909، زحف على دمشق على رأس خمسمائة كردي واحتل المدينة باسم السلطان. إلا أنه سرعان ما أرغم على الانسحاب، وفي طريق عودته إلى معقله في فيران شهر، قتل في منطقة جبل عبدالعزيز أثناء اشتباك مع قبائل شمّر الذين أرسلتهم حركة تركيا الفتاة للإغارة عليه)⁽¹⁾.

وما جرى لاحقاً، إثر احتلال فرنسا سوريا، جهة تعمق هذا النوع من المفارقات الكردية في التاريخ، وتعامله مع الآخر طبعاً (يبدو أن الفرنسيين قد فازوا بثقة الكرد سريعاً بعد احتلالهم سوريا. ففي شباط/فبراير، عام 1921، عندما تطور الانشقاق بين فرنسا والكماليين إلى صدامات مسلحة، تعاون كرد المللي مع

(1) جويده، وديع: المصدر المذكور، ص 269.

فرنسا في صد قوة تركية غير نظامية حاولت أن تنتزع دير الزور، التي تقع على الأجزاء المنبسطة العليا لنهر الفرات الأوسط من الفرنسيين»⁽¹⁾.

وهكذا بالنسبة للرقعة التي لولا همة قوات المملي ، لكنت الرقعة الآن جزءاً من الخارطة السياسية التركية الراهنة⁽²⁾

(1) المصدر نفسه، ص 350.

(2) أنوه إلى أهمية قراءة مقال «هكذا انضمت الرقعة إلى سورية»، والمنشور في موقع «كلكامش»، بتاريخ 8 أيار 2006، وأنا أورد ما هو إلى جانب الوثيقة المتعلقة بالاتفاقية الموقعة بين الفرنسيين وآل إبراهيم باشا:

(كان دور القوات العسكرية الكردية حاسماً في ضم الرقعة إلى دولة حلب، التي أصبحت فيما بعد جزءاً من سورية. فلو لم تكن القوات الكردية المملية لكنت الرقعة مدينة تركية، و لكنت دير الزور و الميادين و البوكمال مدناً عراقية .

فبينما كانت المعارك ضارية في عام 1920 في مناطق كيليكية و عنتاب، بين العصابات المدعومة من قبل مصطفى كمال من جهة، و القوات الفرنسية التي خلفت القوات الانكليزية من جهة أخرى، إذ تعاون بعض رؤساء العشائر العربية مثل الأمير حاجم من العنزة ورمضان شلاش مع السلطات التركية المتقهقرة، و تعاونت عشائر أخرى مثل العكيدات مع السلطات الانكليزية في العراق، فلجأت السلطات الفرنسية، بقصد ضم حوض الفرات إلى دولة حلب، إلى توقيع اتفاقية مع آل إبراهيم باشا، زعماء عشيرة الممليين الكردية في الأول من شهر كانون الثاني عام 1921، و بموجب هذه الاتفاقية تعهدت العشيرة الكردية بتشكيل قوة عسكرية مقرها الرقعة لحفظ الأمن في الجزيرة، بينما تعهدت فرنسا بتقديم بعض الأسلحة لهذه القوة .

مضمون برقية الجنرال غارنية دويليسيس إلى وزارة الحرب الفرنسية، بخصوص الاتفاقية التي تم توقيعها في الأول من شهر كانون الثاني عام 1921، بين الفرنسيين و الممليين ، بقصد ضم الرقعة إلى دولة حلب .

في الخامس من شهر كانون الثاني عام 1921

من غارنية دويليسيس

إلى وزارة الحرب - هيئة الأركان العامة للجيش

المكتب الثاني - الفرع الشرقي - باريس

لي الشرف أن أفيدكم، بأنه ضمن إطار التعليمات المعطاة من قبل القائد العام، المفوض السامي، قد وقع مؤخراً الجنرال دو لا موت اتفاقية مع أبناء إبراهيم باشا، من عشيرة المملية، و نصوص هذه الاتفاقية هي التالي :

تشكل عشيرة الممليين اعتباراً من الأول من كانون الثاني من عام 1921، قوة عسكرية من الجندارمة مؤلفة من أربع مئة خيال و من خمس مئة من المشاة. سيكون مقر هذه القوة الرقعة، و ستكون تحت تصرف حكومة حلب لضمان الأمن و القيام بمهام الشرطة في الجزيرة، و من المحتمل أن تشارك هذه القوة في العمليات العسكرية التي سنتمكن من القيام

بها على الضفة الشرقية من نهر الفرات . تصرف النفقات من الاعتمادات السياسية. و لن يتم الدفع إلا بعد التأكد من التشكيل الفعلي للقوة. الحصة العائدة للجيش (من النفقات) هي على شكل منح خمس مئة بندقية ذات الإطلاق السريع، و أربعة رشاشات، مع الذخائر المناسبة . تؤخذ هذه المواد من ما تم جمعه من غنائم الحرب، و من ما تم جمعه من عمليات نزع سلاح السكان . يحتفظ الجنرال دو لا موت حالياً بهذه القوات في منطقة الرقة لمهمة مقاومة أنشطة حاجم بك، و للمساهمة في توطيد الأمن في حوض الفرات. و بالفعل تشكلت القوة الكردية، و التحقت بها قوة من العنزة التابعين للأمير مجحم، و سرية آشورية، و استطاعت القوات المشتركة قهر القوات التركية و العشائر العربية الموالية لها و للانكليز، و بذلك تم ضم حوض الفرات حتى البوكمال إلى دولة حلب التي اتحدت فيما بعد إلى اتحاد الدول السورية، ثم أصبحت ضمن حدود الدولة السورية التي تشكلت من دولتي حلب و دمشق. و فيما بعد انضمت إلى سورية دولتي العلويين و الدروز).

ويمكن النظر في كلمة وردت في كتاب المستكرد م. س لازاريف: المسألة الكردية 1917-1923، ترجمة: د. عبيد حاجي، دار الفارابي- بيروت، دار أراس- أربيل، ط2، 2013، حين قال (وقد أبدى الأكراد حمية أكبر في النضال ضد التدخل الفرنسي في جنوب شرق الأناضول في عام 1920-1912، وهذا مفهوم لأن السكان الأكراد قاموا بالدفاع عن ديارهم الأصلية وواجهوا العدوان الاستعماري وجهاً لوجه.. ص 421)، أي ليس دفاعاً، وبالحرّف «عن وطن الأتراك أو وطن العرب، وتلك علامة تاريخية ذات مغزى في الربط بين نباهة التاريخ ووضوح الجغرافيا في وعية الكردي وإن لم يمتلك فلسفة مكانية لإبراز العلاقة هذه بقدّمها التاريخي.

في السياق ذاته يكتب الباحث والمترجم الكردي خالد عيسى مقاله الموسوم بـ «من تاريخ الحكم الذاتي في الجزيرة» في موقع «كلكامش» السالف ذكره، بتاريخ 9 آذار/مارس 2010، منوهاً إلى هذا الجانب، ومستفيداً، طبعاً «من الأدبيات الوثائقية الفرنسية، كما هو ملاحظ في بنية المقال، سوى أن اللافت والمهم هو ما يتخلل المقال من معلومات عما جرّأ إبان دخول الفرنسيين إلى دمشق، وفيما بعد، وكيفية انقسام الناس في جماعات واصطفافات حول هذه المسألة، من ذلك ما هو وارد في المقال ذاك (كان الكثير من وجهاء المسيحيين في الجزيرة يعترفون، أثناء الانتداب الفرنسي، بانتمائهم إلى القومية الكردية، و كان يساهم أغلبهم منذ الثلاثينات من القرن الماضي في النشاط السياسي من أجل نيل الحكم الذاتي للجزيرة أسوة ببقية المناطق الخاضعة للانتداب الفرنسي)، ومن ثم ما يجري من تحول سياسي وفي مضمون العلاقة بين كل من فرنسا وتركيا (بعد تخلي السلطات الفرنسية لسلطات أنقرة عن القسم الجنوبية لشمال كردستان، تخلت نهائياً عن مساندة مشروع عام 1920 المتضمن إنشاء دولة كردية تضم الجزيرة العليا و كيليكية، وتم الشروع في تنفيذ مشروع إقامة كيان سياسي مسيحي في الجزيرة. و كان من المخطط أن يتم فيها توطين المسيحيين من الطائفة الكاثوليكية الذين تلقوا تعليمهم على يد المبشرين الفرنسيين.)، وفيما تلا مضمون الاتفاقية الموقعة بينهما (بعد الاتفاقية الفرنسية- التركية الموقعة في 20/10/1921، دخل إقليم غرب كردستان إلى حدود دولة حلب، ولم تتم السيطرة الفعلية على المنطقة الكردية الواقعة بين الفرات و دجلة إلا بعد اتفاقية الصداقة و حسن الجوار الموقعة بين الفرنسيين و

وهو ما يتداخل مع نموذج آخر، أكثر تبييناً بالمفارقات، حيث إن بطل المفارقات الكردي الأصل أحمد شوقي «1868-1932»، وهو المعتبر أمير شعراء العرب، في تعبيره عن المصاب الجلل والمتمثل في انهيار «خلافة آل عثمان»:

سل «ييلدزا» ذات القصور هل جاءها نبأ البدور
لو تستطيع إجابة لبيك بالدمع الغزير

....

الأتراك في عام 1926، و أصبحت هذه المناطق داخل حدود دولة سورية التي تشكلت عقب توحيد دولتي دمشق و حلب، بينما دخلت المنطقة الكردية الواقعة بين جفجغ و دجلة داخل حدود الدولة السورية بعد الاتفاقية الموقعة في عام 1929، و استمرت لجان الحدود أعمالها إلى بعد هذا التاريخ لسنوات .

سيطرت السلطات الفرنسية على حوض الفرات في عام 1921، بقوات كردية (مللية)، و عربية (العنزة التابعين للشيخ مجحم بن مهيد)، و السرية الآشورية المشكّلة في حلب بناءً على أمر من الجنرال غورو. وأثبتت السرية الآشورية عدم فعاليتها في العمليات العسكرية التي قادتها القوات المشتركة ضد فلول القوات العثمانية، و العشائر العربية (و خاصة العكيدات) التي كانت تريد ضم البوكمال و ميادين و دير الزور إلى العراق بدعم من الهاشميين و الانكليز)، ثم الأهم ما ورد في تقرير فرنسي على خلفية من مسح جغرافي ميداني فرنسي للمنطقة «الجزيرة»، والحديث عن التواجد الكردي فيها، وهذا يشكل رداً على الذين يتحدثون عن فراغها، أو خلوها من السكان، وخصوصاً، على مستوى كتاب وباحثين لهم حضورهم الثقافى والفكري العربي أمثال محمد جمال باروت في تناوله للجزيرة «السورية» وهدفه «الأسمى» كيفية إثبات سيطرة الكرد عليها أو اعتبارهم لاجئين، أخذاً في الاعتبار مفهوم اتفاقية «ساكس-بيكو» ومناقضاً نفسه ومعتقدَه الإيديولوجي بصدد المنتقد فيها من قبل منظري الفكر العروبي والبعثي أساساً عن أنها جزأت المنطقة العربية، كما لو أن الكردية لا صلة لها بها إطلاقاً (قامت الاستطلاعات العسكرية الفرنسية بجولات استخباراتية في مناطق الجزيرة العليا خلال عامي 1921 و 1922، تبين بأن هذه المنطقة لم تكن خالية تماماً مثلما كان يوحي به مخطط التوطين المسيحي في الجزيرة. فكانت هذه المناطق عامرة بالقرى الكردية، و إلى الجنوب منها كانت مناطق سهلية وشبه صحراوية تستخدمها العشائر العربية و الكردية لرعي مواشيتها .

في ظروف الصراع السياسي و العسكري بين الفرنسيين و الأتراك شمالاً و الانكليز شرقاً، و ضعف الإمكانيات القتالية للعناصر المسيحية (السرية الآشورية)، و بعد معرفة الجغرافيا الطبيعية و السكانية في الجزيرة العليا، تم تعليق تنفيذ مشروع إنشاء كيان مسيحي في الجزيرة، و تم فيما بعد تغيير الصيغة الأولية لهذا المشروع). وكل ذلك يبرز مفهوم توازن القوى في المنطقة، وهو ما يجب التوقف عنده.

عبدالحميد حساب مث	لك في يد الغفور
سدّت الثلاثين الطوال	ولسن بالحكم القصير
دخلوا السرير عليك	يحتكمون في رب السرير
أنعم بهم من أسيرك	وبالخليفة من أسير.

سوى أن شاعراً تركي الأصل يريه ما ليس فيه أو ما يجب أن يراه شوقي
المفتون برمز متحفّي، ماض، وأعني به ولي الدين يكن «1873- 1921» وهو
المعروف شاعراً في العربية

وبكيت بالدمع الغزير	لباعث الدمع الغزير
ولواهب المال الكثير	وناهب المال الكثير
إن كان قد أخنى على	رب الخورنق والسدير
فلتأهلن من بعدها	آلاف آلاف القصور.. ⁽¹⁾

هذه النوعية من المفارقات بمثابة «ملح» التاريخ في «جرح» جسد الجغرافيا
المنفتح والملتهب في آن، والذي يمكن من المعنى بأبعاده ما حقيقة مصابه، وعمق
المصائب، وخلفيته، والمبتغى منه بالمقابل.

في العودة إلى جبو بعد أن أوقفنا العمل المباشر بنصه، وابتعدنا عنه نسبياً،
إنما لنزداد قريباً منه، ونحسن تفهم آلية كتابة هذا النص، وكيف يكون تحرك
حاجو، سواء في صلاته بالسلف الزعاماتي المأتي على ذكره، أو ما ينتظره من

(1) فتح الله، جرجيس: نظرات في القومية العربية مدأً وجزراً حتى العام 1970: تاريخاً
وتحليلاً، دار آراس، أربيل، ط1، 2004، ج1: مخاض عسير، ص 287.
في هذا السياق، لا غرابة، أن ينوّه السياسي المختلّف عليه في نسبه، والمخضرم في السياسة
خالد العظم، أن يقول ما ينوّه إلى مرجعية تاريخية في النسب وسياسية في السلطة، جهة
الاسم وجهة التقييم اللافت لزمن الدولة العثمانية، وذلك في: مذكرات خالد العظم، الدار
المتحدة للنشر، بيروت، ط3، 2003، م1- تولد 6 تشرين الثاني 1903، وكيف سمّي خالد نذراً،
على اسم خالد بن الوليد. ص3... وقوله عن انقلاب 1908 (وأجزم بأن هذا الانقلاب الذي
حصل في الدولة العثمانية كان بدء الهزات التي استمرت منذ 1908 ولا تزال تحول دون
الاستقرار في الشرق الأدنى. ص5: تعدد الانقلابات والحوادث من هذا التاريخ حتى تاريخ
الانفصال بين سورية ومصر 1961. ص6، وفي المنطقة عموماً.. ص8)، وفي ذلك نظر!

عمل وهو مشروع زعيم لا ينحصر تأثيره على محيط حملته، وإنما يتعداها ونوعية الصدى المرتسم خارجاً، ماذا يقع في اليد ؟

يقول جبو مشيراً إلى صلة حاجو بأمر بوتان، وأي محرّك عاطفي يقوّي صلاته به (ربط حاجو الثاني مصيره بحركة بدرخان بك، وكيف أن القضاء عليها من قبل العثمانيين أضعفه أيضاً: كانت الأيام الصعبة ستبدأ بالنسبة لحاجو الثاني الذي ربط قدره بقدر حكومة بوتان. وكانت قوات الهفيران في حالة استعداد وتسيطر على كل منطقة هفيران ودكشوري... وكانت قوات عبدالحميد الثاني المعروف بالدهاء تقوم بالتحشد في المنطقة. ص 66).

من حقه أن يشدد على هذا الخط المستقيم في صلاته القرابية: القبلية تلك، لكن الخط المستقيم غير موجود حتى على مستوى الجغرافيا الطبيعية، إلا كمفهوم حسابي يحرف في الجسم الطبوغرافي من «فوق»، ويغفل عن النتوءات إلى جانب المنحدرات، والانكسارات... الخ، وهو الذي يضع الفارق بين الحالتين.

وحين نوّكّد على صلاته تلك، نشدد أيضاً على كون الزعيم البوتاني هو الأقرب إليه، ولا غرابة في ذلك، إنما إلى أي درجة راعى في ذلك الطبيعة غير المتماسكة في صلات بدرخان بك بمحيطه وعالمه الخارجي؟

ربما كان الذي تفوّه به حاجو مناجياً «أميره» بدرخان بك، صحبة المقربين منه، وبقالب أدبي، وبينهما مسافة زمنية تقدّر بقرن كامل «إن استرجعنا حيثيات عام 1834 تقريباً»، وكان له حضور متألق حينذاك، ويقاربه عمراً، ولعل الذي قرأ عنه محمد اوزون في كتب تناولت إمارته أفاده في بناء معمار روايته، وإسناد هذا الدور المركّب لحاجو فيما ناجى به.

في نقطة تالية، يعلمنا جبو المنتمي إلى هفيران بما يؤرقنا معرفياً، وفي مقطع طويل نسبياً (تشكل عشيرة سيدان فرعاً مهماً من فروع اتحاد هفيران، وزعيمهم هو آل «مالا» جبو. وبجيرمان، التي هي مركز سنجق عشيرة، تعني في اللغة الكردية «بلا ضريبة». ويعتقد أن أمراء بوتان لم يكونوا يأخذون ضريبة أبداً من القرية المذكورة بسبب كون أهاليها «سادة»، وأن أمراء بوتان هم الذين أطلقوا اسم «بيجرمان» على القرية. وكان أمراء بوتان يعتقدون أنهم من ذرية الرسول «محمد ص...» وهذا هو سبب المعاملة المتميزة التي عاملوا بها السادة. ولكن حسب بعض

المصادر الرسمية كان هذا هو نفس سبب المعاملة المتميزة التي عاملهم بها السلاطين العثمانيون. وقد ورد هذا الأمر في تقارير الدبلوماسيين السويديين في القرن التاسع عشر... ص 67).

أي ما يشد الطرفين إلى بعضهما بعضاً، مهما كان محتوى الدعوى هنا أو هناك بالنسبة لأمرأ بوتان، حيث يشار هنا إلى ما يؤخذ به من قبل الباب العالي، أو ذوي السلطان، ويكون له مردود إيجابي، إنما يترتب على هذا الإجراء ما يسيء إلى بنية العلاقات الاجتماعية، بالمفهوم «القومي»، أي ما يقدم الديني على الاثني على الأقل، ولا بد أن ذلك كان يمثل نوعاً من الرصيد السياسي الساحر وسريع التأثير من جهة السلطة في سعيها إلى بليلة المجتمع المرصود وتأكيد خاصيتها.

إنه البعد الخفي والأخطبوطي على مستوى تحريكه أو تميمته بصيغ شتى، والتغلغل إلى الداخل، للحيلولة دون تعاظم قوة الراغب في التمرد أو شق عصا الطاعة، ومن خلال جيش من المدربين أو المؤهلين للقيام بعمل ردعي كهذا.

وبالنسبة لهفيركان، وهي في محيط جغرافي متنوع، ومفتوح أمام المؤثرات، ما كان لها أن تحمي نفسها، وكما تريد، وهي، كما تقدم، عصية على الحماية من جهاتها كافة، وجراء التنوع الاجتماعي، وبين خصوم وغرماء كثر كذلك، خصوصاً، حين يكون بعض من هؤلاء يرتبطون بها قرابياً، وحين نأخذ علماً بأن جموع لا ينفصل عنها، أو ما يحدث فيما بعد، ومن داخل القبيلة لحظة النظر في عداء ابن العم بالمقابل : سرحان الأول مقابل حسن الأول وهما من حاجو الأول، كما لو أن هذا الترتيب التسلسلي نفسه كان مدروساً، أي مقصوداً لغاية لا تتم عما يفيد الهيكل النسبي لهفيركان، إذ يذكر ساروخان ابناً لسرحان الأول، ومن ساروخان هذا كان سرحان الثاني وجلبلي وهما أخوان، حيث يمثل الثاني خصماً عنيداً لا بل وعدوداً لدوداً لحاجو الثالث... ما كان لها أن تثبت أقدامها في أرض لم تثبت جراًء مؤثرات سياسية، كانت تدفع بكل جهة إلى التوتر ومواجهة الآخر، وأن هذه البنية العصبية المنقسمة على نفسها استولدت منغصات وحتى آفات، وهي لم ولن تكون استثناء، لأن ثمة تاريخاً طويلاً لشعوب وأمم، يقدم نماذج من هذا القبيل، قد يكون معاوية بن أبي سفيان النموذج الأقرب إلى هذا الاستثناء بالسلطة، ولو أنه بسياسته خاض حروباً جانبياً وتصفيات، سوى أن نجاحه في بناء امبراطورية

وليس دولة عربية، أسقط عنه في أعين الكثيرين الكثير من الذنوب، والأقرب في مديحه هذا هو ابن خلدون»، كما هو معروف داخل النسق الثقافي العصبوي «الأموي». ولو أن حاجو أفلح بالمقابل، مع فارق المسلك، حيث ينعدم المثل الكلي، في بناء إمارة كردية فعلية، أو كيان سياسي كردي، لكان ذلك مدعاة لكيل مديح تفيض به صفحات الكتب، وهي تغفل عن الكثير مما يعتبر راهناً سلبياً تسميه ؟ أي عصبية «هفيركية»: حاجوية في مناشدة كيان سياسي باسمه، أو ما يكون لاسمه مقام الخميرة الشخصية في العجينة التاريخية !

وربما عدوى «الخيانة» انتقلت إلى داخل هفيركان، أو كانت تعيش مخاوفها، وهي تابعة لإمارة بدرخان، إلا أن اقتباس جيو قولاً لأحد الباحثين، من مؤلف له بالتركية «تاريخ كردستان»، يغمُّ كما أنه يقلق الباحث المتحرّر من «لوثة» معممة كهذه، وربما بنوع من القطعية (وهكذا: وبسبب الخيانة التي تعد من أهم أسباب هزيمة حركات التحرر الكردية، انتهت حركة بدرخان بك أيضاً في عام 1847. ص 59) .

ما الذي يستقرّ في هذه الكلمة البالغة الدلالة والحاسمة ؟

لعلها حساسية الكرد إزاء بعضهم بعضاً، وعدم انتشارهم في المكان بطريقة تسمح لهم في أن يقيموا علاقات فيما بينهم من موقع الندية أوجدت مثل هذه العلاقات، ومارست شروخاً في نفسية كل منهم، ولو بشكل متفاوت، ولو أن هذا المفهوم عمق، وعمّم بالطريقة هذه، فهذا يعني استحالة التخلص من ريقته، بما أن الخيانة هذه من الداخل، وهي تستثير العاطفي أكثر من العقلي، وفي اتجاه واحد، لأن الخيانة، إن أمعنا النظر فيها، لا تنطلق من جهة، وتسدد كالرمية إلى جهة أخرى، إنما تكون الجهة الأخيرة معنية بها، أي تتحمل مسئولية معينة في نشأتها وانتشارها كذلك.

ربما وفق هذا التصور، يمكن الربط بين هذا المسلك ونظيره المشدّد على ما هو خارجي «الحجل» بالذات، وهو ما نجد اسمه منبوزاً، مذموماً كلما أتى على ذكره، رغم انتشاره في جهات مختلفة من كردستان، وفي إقليم كردستان العراق بالذات، أو في البيئات الجبلية، كما في مقطع مقتبس من مذكرات موسى عنتر، وهو في طبيعته قابل للطعن في مصداقيته أو حقيقة أمره، لكنه مؤثّر بمغزاه طبعاً (يقال أن بدرخان بك كان يتجول في قصره بورجا به لك، فرأى في يد أحد أبنائه قفصاً فيه حجل [قبح]، فسأله بدرخان بك: ما هذا يا ولدي؟ فأجابه ابنه علي

شامل «الذي صار باشا فيما بعد»: أبي هذا حجل ذو قيمة كبيرة جاءني من سنجار. فسأله بدرخان بك: ومن أين جاءت قيمته يا ولدي؟ فأجاب الابن: أبي سآخذ هذا الحجل إلى الجبل وأضع الشراك حوله، وعندما يبدأ بالتهليل تبدأ بقية الحجول بالمجيء إليه من الجبل وهكذا يقعون في الشراك التي نصبته لهم. فأخذ بدرخان بك الحجل من القفص وفصل رأسه عن جسمه ورماه على الأرض، وعندما رأى الابن ذلك أخذ بالصراخ وإلقاء نفسه على الأرض من مكان إلى آخر، فحمل بدرخان بك ابنه من الأرض وربت على رأسه وقال له: يا ولدي، يجب قطع رأس الذي يخوف بني قومه سواء كان إنساناً أم حيواناً. (ص 60).

هل حقاً أن الحجل طائر خؤون، ورمز للخيانة؟ أوجد، لكي يتحمل وزراً إنسانياً لا دخل له فيه؟ لماذا يحمل مثل هذا التفسير والذي وجه في إطار محدد، يتجاوب مع رغبة صريحة إنسانياً، ولدى الكردي أكثر؟

أهكذا يريد الحجل إيذاء بني «جنسه»، ويدفع بهم إلى الانقراض أو الوقوع في شرك العدو؟ ماذا يمكن أن يقال، لو أن أحدهم أوضح طريقته على أنه الضرب الاجتماعي الأبرز لهذا الطائر الجميل في «مأساته» وتنبئيه إلى الجاري؟

ومن جهة أخرى، أليس هذا الطائر مرتبطاً بما هو جبلي، فإذاً، كان الأمر كذلك، وإذا الجبل مثار مديح الكردي، باعتباره الصديق التاريخي العريق وملاذه الآمن، والحجل مرتبط به، لماذا لا يصار إلى اتهام الجبل نفسه، وهو يرمي بالقيم فيه إلى العزلة، أو استحالته الغريب على مجتمعه الإنسي؟

يظهر أننا في وضعنا هذا غير قادرين على ضبط معنى قول كهذا، نظراً للملتبس عليه والمقحم في الموضوع، وبالتالي، فإن المفيد هو التقدم خطوة أخرى إلى ما هو اجتماعي في الكرد، وما يعيدنا إلى المكمل لهذا التصور، حيث الصراع يشتد بين الهفيركيين أنفسهم والحكومة العثمانية، وهو صراع على السلطة التي تستنزف دماء كثيرة، وفي غمرة هذا الصراع، كانت الغلبة لأسرة «آل عثمان» (وبغض النظر عن كونها معروفة باستبدادها وسلوكها الفظ في المنطقة إلا أنها عرفت كيف تواصل فعاليتها. ص 62).

تُرى، كيف تفسّر هذه الفظاظة؟ لعل التنويع في تحديد النسب، كما رأينا، بين كونها من قرية «بات» أو عربية: طياوية، أو تركية من ماردين، منشؤه – ربما – هذا

السلوك، وليس ما يمكن من وضع تفسير آخر، أو بذل مجهود مختلف، لتتبع سردية حياة هذه الأسرة. ومن جهة أخرى، فإن نقصاً في «الجملة التاريخية» يرد إلى عدم ثبات المجتمع الكردي، وذلك الانتقال القسري، أو التهجير المستمر من جهة إلى أخرى، والتحديات القائمة، إلى درجة الفظاظ تعبيراً عن بقاء ما، أو لأن وضعاً مألوفاً بالصورة هذه، يرجح كفة اتهام الآخر، أو التعريف به مما يقلل من مقداره كحيلة نفسية إجمالاً .

ولا بد أن متابعة لما أعقب هذا السقوط، تضعنا في مواجهة أصول مشكلة جلية، هي سلطة مقاومة ومقاومة بالذات، وسط صراعات داخلية وخارجية (في عام 1847، وهو العام الذي سقطت فيه حكومة بوتان كان زعيم أسرة) آل: عثمان» هو حسن الأول. وكان قائداً قوياً جداً، فمع سقوط إمارة بوتان أمسك بزمام قيادة الهفيركان، واستطاع أن يعزز التنظيم المشتت ويؤسس مجدداً وحدة الاتحاد [الهفيركاني]، وبعد وفاته حل محله ابن أخيه سروخان الأول، وقد اصطدم سروخان مع قوات الدولة والاثوريين المريدين لها، وفي إحدى المعارك وقع في كمين نصبه له السريان المؤيدين للدولة وقطع رأسه وأرسل إلى والي ديار بكر، وبعد ذلك تولى حاجو الثاني، ابن أخيه حسن الأول، زعامة العشيرة في عام 1875.... بعد مقتل حسن قام فرد آخر من العائلة هو خلفي جرجو بطرد كل أبناء حسن من القرية، وأصبح هو الآغا. وبعد نزاعات ومعارك استمرت سنوات طويلة تمكن حاجو الثاني ابن حسن من قتل خلفي جرجو وتولى الزعامة. ص62).

نحن إزاء مسلسل الدم المسفوك، حيث المزيد من سفكه يؤدي إلى المزيد أكثر منه، كما لو أن فعل القتل، ومن الداخل، بوصفه «إرهاباً» يتهدد الجميع، لا يهدأ إلا بسفك دم السافك، وهذا يدفع بمن يجب عليه سفك دم الأخير، وهكذا .

أعلينا أن نعمن النظر في ميكانيزم عنف، من النوع الأسري، أو الداخلي هذا، وعلام يقوم، والام يؤدي أيضاً؟ كيف يمكن التعرف على جرثومة العنف هذه، وهي تتفعل في النفوس، لأن مسلسل التصفيات الجانبية تكاد تكون دون نهاية، أي ما يجعل المشهد الدامي أقرب إلى العيشية، والجاري طبعاً أبعد ما يكون عن نطاق العيشية في بنيتها وغايتها ؟

ومن المعروف، والحالة هذه، لمن يتابع حيثيات هذا النوع من العلاقات، أن السلطة

كلما ضاقت دائرتها، كلما أمكنت رؤية أدق التفاصيل، ومن ثم تلمس العنف المعمول داخلها، بحيث إن الدم الذي يكون نتيجة عنف، يصبح سبباً لعنف أيضاً.

على الصعيد السياسي، يجب ضبط العلاقة بين العنف والسلطة، أي عدم رؤية العنف بعيداً عن أي مؤثر اجتماعي أو سياسي، فالذي يواجه المعوج وهو ينصب نفسه سلطة، هو شعوره أن ثمة خطأ قد يتضاعف، للحيلولة دون سريان فعل عنف قد يودي بالكثيرين في الوسط الاجتماعي، وبالطريقة هذه، يختلف العنف من وضعية إلى أخرى، تبعاً لموقعه، أو الجهة التي تعتمده، في سبيل ما هو مشروع أم لا، عندما نعلم أن كل سلطة، وكونها سلطة، يحركها عنف معين، يشتغل في أي لحظة، عندما تجد أنها مستهدفة، سواء بصورة مصغرة أو على مستوى مجتمعي، وربما هذا ما تعنيه أرندت بقولها عن أن (العنف يظهر حين تكون السلطة مهددة، لكنه إن ترك على سجيته سينتهي الأمر باختفاء السلطة... أي بإمكان العنف أن يدمر السلطة)⁽¹⁾.

وفق هذا التصور المأتي على رسمه بالكلام، يغدو العنف بحاجة ماسة إلى متابعة وتقعيد بياني أيضاً، وتسميته نوعاً وجنساً وجهة، ومقصداً، والسعي ما أمكن إلى رصد له صالحي المجتمع، وليس جهة معينة، وخاصة في حالة المعتبر ثاراً، حيث العنف يكون مثقلاً بالدلالات، ويحيل كل شيء إليه، لأن الثأر يضع كل شيء نصب عينيه، ويشمله بالعنف، كما الحال في المجتمع الضيق ف (يشكل الثأر، إذًا، سيرورة لامتناهية، فلا يكاد ينبجس من نقطة معينة داخل الجماعة حتى ينزع إلى التفشي في الجسم الاجتماعي بكامله، منذراً بإحداث سلسلة من ردود الفعل التي تتداعى عواقبها الوخيمة سريعاً في مجتمع ضيق الأبعاد)⁽²⁾.

صاحب هذا القول يجمع بين المنشأ النفسي للعنف وآلياته ومرامييه، والبعد الاجتماعي له، لأنه في مفهومه مجتمعي، وفي حال المكاشفة التاريخية، نجد هذا الاختلاف، لما يتوضع عليه قانونياً من مجتمع إلى آخر، أي طالما ينتقي القانون الضابط وبالمفهوم السياسي: الدولي الدقيق للعنف، فإنه يمارس دوره بشكل

(1) أرندت، حنة: العنف، ترجمة: ابراهيم العريس، دار الساقي، بيروت، ط1، 1992، ص 50.

(2) جيرار، رينيه: العنف والمقدس، ترجمة: سميرة ريشا، مراجعة: د. جورج سليمان، منشورات المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2009، ص 39.

عشوائى، إلى درجة إخضاع الجميع لمنطقه، كما هو وضع المجتمعات المغفلة عن أي حماية قانونية دقيقة، بالعكس، ثمة مغذيات عنف تردُّ من الخارج، وتشجع كما تنبّه العنف الكامن لينفجر، ويتحرك في اتجاهات مختلفة، يكون الجميع في مقام الجلادين والضحايا .

لا بد أن الكرد مثال حي في هذا المقام، أي حيث إنهم يفتقرون إلى سلطة فعلية ذات سقف عال، يظللهم، كما ينذرهم هذا السقف بأن تجاوزه ليس في مصلحتهم، وما في ذلك من تعميق الوعي بالمصلحة العامة، وهذه السلطة التي تعتبر أكثر من كونها حالة طارئة، أي معاشية وتكيف وتمثّل لزمن قد يطول تبعاً للمستجدات، وأن التمهيد لسلطة ثم الاصطدام بسلطة أكبر لا ترى فيها إلا العنف الموجه إليها، أي ضد مصلحتها، نكون إزاء «طاحونة» وقد كبرت رحاها ونزف الدماء .

ولا بد أن هذا الحديث عن الثأر ينطلق من داخل المجتمع المحكوم بسلطات خارجة عنه، وتعمل على الضد منه .

هذا يعني إن حصر الكردي، لفهم نفسيته من خلال تفسيرات قدرية، أو طبيعية، إخلال بمبدأ وحدة البشرية، وتسليط الضوء عليه باعتبار ما هو فيه يستحقه وهو دون مجتمع يحمل بصمته، أو حدود سياسية ترتد إليه ودولة تمثله سياسياً .

لنتوقف عند الروسي- الفرنسي باسيلي نيكيتين «1885- 1960» وهو المعروف باحتكاكه بالكرد، ودراسته لهم عن قرب، نجد أن بعضاً مما يتفوه به يقربه مما ألمحنا إليه، بمقدار ما يعبر ذلك عن قلق معرفي كان وراء تفسير أو توصيف من هذا النوع (كما أن الطبيعة لا ترحم الكردي، فإنه لا يرحم بدوره خصمه أيضاً، فالأخذ بالثأر والميل إلى الانتظام يسيطران عليه، إن قانون الأخذ بالثأر هو الذي يحكم الصلات بين العشائر. ص 120).⁽¹⁾

(1) نيكيتين، باسيلي: الكرد «دراسة سوسيولوجية وتاريخية»، تقديم: لويس ماسينيون، نقله من الفرنسية وعلق عليه: د. نوري طالباني، سبيري، دهوك، ط1، 2008، ص 120.
ينظر أيضاً ما يقوله مارك سايكس، في كتابه: القبائل الكردية في الامبراطورية، المصدر المذكور: (والأكراد يتميزون بالطيش في مخالفة قوانين الحرب المتعارف عليها، وسفير العدو لديهم لا يكون معصوم الدم. ص 37).

أي حين يجعل من الطبيعة ذات مسئولية في العنف الممارس من قبله، ليكون فعل العنف المحكوم به في بعض منه مردوداً إلى الطبيعة، وبالشكل المتقدم هذا لا يعود في الإمكان البحث في خلفية ما يقوم به أو يجري في وسطه، وتحديدًا، لحظة الحديث عما يسميه بـ «قانون الثأر» فهو ليس كذلك إنما من رفعه إلى مقام القانون، وهو ليس قانوناً، إلا لأن هناك قوة غاشمة، طبيعية، قدرية تستبد بالكرد عموماً، وهو ساري المفعول ما بقي دهرهم.

نيكيتين، إزاء ما يريه إيانا فيما بعد، يعرفنا بأن ثمة اصطلاحاً وضعياً، وليس وليد الطبيعة، أي جهة الثأر «توله»، وكيف يمارس دوره في مجتمع لا يحرر مما هو قدرى، لأن ثمة من يريد له بقاء كهذا، وهو لا يفيد الكرد بالتأكيد، لأنه يحرص على لزوم ديمومة هذا القانون، وهو في مفهومه مراتبي، أي يخضع الثأر وفعل العنف فيه لتقديرات اجتماعية عاملة وفاعلة كجراثومة مستزرعة تاريخياً في جسد العشيرة (وفيما يتعلق بالنظام العام وتحقيق العدالة لدى الكرد، يتوجب علينا أن نقول حول عادة الأخذ بالثأر «توله» ومن تقاليد الكرد أن يثأروا لدماء أقاربهم، والثأر حق يكتسبه أهل القتل، ويطرد القاتل من عشيرته لمدة خمس سنوات أو أكثر، فإذا تمكن أهل القتل من أخذ الثأر منه خلال هذه الفترة، فإن القضية تعتبر محلولة، وإذا بقي حياً بعد انتهاء هذه الفترة حق له العودة إلى عشيرته بعد استشارة زعيم العشيرة ومسنياها بهذا الشأن وموافقته على رأيهم، وحتى في هذه الحالة لا يفقد أهل القتل حقهم في الأخذ بالثأر)⁽¹⁾.

أبعد من المجتمع التقليدي :

في الحديث عن العشيرة أو القبيلة أو الحمولة، نتذكر ما هو تقليدي، أي ما يبقى المجتمع في وضعية ثبات، فالיום شبيه الأمس، والغد كما هو اليوم، ولا شيء يقبل التغيير وفقاً لقانون عري في موضوع بإرادة مشيخية أو زعاماتية معينة.

من جهته يرينا وديع جويده، وهو يتحدث في فقرة معنونة بـ «خصومة الدم والأخذ بالثأر» عن رعب المتداول باسم الثأر (كما في المجتمعات القبلية، تعتبر خصومة الثأر، الحالة الأكثر انتشاراً في كردستان، ومدتها تختلف من مكان لآخر

(1) المصدر نفسه، ص 207.

وفاقاً لعوامل متعددة ومتنوعة... ص102.. والزواج بين أفراد العائلة الواحدة، والقبيلة عموماً، يغذي الإحساس بهذه الخصومة.. ص102.. استناداً إلى نيكيتين: ال تولا وتعني الانتقام إحدى أهم ركائز الفكر السائد في المجتمع الكرديستاني. ص103... توكل مهمة إجراء تسوية خصومة الدم، إما إلى أحد وجهاء المجتمع وإما إلى مجلس زعماء القبائل أو شيوخها.. ص104.. وهناك عادة متصلة بإيجاد حل لخصومة الدم، تركز على منح الحماية «بانه» للمعتدي، وأي خرق لشروط هذه الحماية، يجعل المعتدي عرضة للانتقام من الشخص الذي منحه الحماية. ص105.. لا تقتصر الخصومة أحياناً على العائلتين المعنيتين فقط، بل تتعداها إلى الحلفاء والأنصار.. ص 107.. والانتقام قد يطال الحيوانات وغيرها: رواية عن محمد باشا الراوندوزي الذي أمر بقتل الذئب بعد تعذيبها، انتقاماً لقتلها أحد رجاله.. ص108⁽¹⁾.

لعل المنظور لاحق على الحدث، وليس سابقاً، كما أنه في جوهره، يبقينا بعيدين عن الدور الرئيس للثأر باعتباره عنفاً، ويرتبط بسلطة تصان من جانب، وتنتهك من جانب آخر، وأن على الذين يريدون وعياً أكثر عمقاً وشمولية بحالة الثأر والعنف المتداخل معه، أن يتنبه إلى أداء كل منهما، فالثأر هو ثأر في المجتمعات المتداخلة، والتي تكون سلطاتها محلية، عرفية، أي حيث تنتفي سلطات تنظر في العنف، أو القتل مثلاً، وهي قضائية، لتأتي التشريعية فالتنفيذية، ولا يعود في مقدور أي كان أن يتحرك وباسم القصاص، متصرفاً كما يريد، لأن الذي تعمد إليه السلطة القضائية وبمفهومها المؤسساتي، هو أنها تقاضي المعتبر متهماً بمعزل عن أي توجيه من أهل القتل، وكذلك فإنها تصدر حكماً معيناً عليه دون الرجوع إليهم، انطلاقاً إلى قانون العقوبات، مشكّلة جدار فصل بين كل من رافعي الدعوى، أو أهل القتل، والطرف الآخر، وهذا من شأنه تغيير مسار العنف، أي تكون الدولة وحدها معنية بإدارة شؤون العنف وتصريفه، أو تسميته عنفاً أو لا: دفاعاً عن النفس وفق تقييم دقيق، أو خلافه، أو ثأراً، وهو لا يعود من حيث البنية

(1) جويده، وديع: المصدر المذكور، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز. ضمن هذا الإطار، ويتأثر منه كذلك، ينظر ما أفصح عنه بروينسن، ج1، عن عداوة الدم والنزاعات الأخرى، صص 151-158 !

عائداً إلى أي جهة، سعيًا إلى ضبط العنف، فالسلطة في هذا الوضع تحتوي العنف، أو أنها فيما تقوم به تسعى جاهدة إلى عدم التذكير به جرّاء تداعياته النفسية، وفي مجتمع معطل حيث لا تكون السلطة إلا طرفية، يمكن للعنف أن يبلغ أقصى مدى له، لأنه يتشبط بمؤثرات مختلفة، أي أكثر مما هو قائم في الوسط المباشر، من أطراف من مصلحتها أن يندلع هنا وهناك.

هنا، أجد أنه رغم إعطاء إشارات إلى مكانة اسماعيل بيشكجي في أي دراسة اجتماعية وسياسية وتاريخية عن طبيعة العلاقات في المجتمعات الشرق أوسطية، وفي تركيا كمثال له كونه تركياً، ودفع أثماناً غالياً على مواقفه: بدمه وعمره ومعاونة قرابة عقدين من الزمن عدا التهيب والتعذيب، فإن التعرض لبعض من مواقفه مهم جداً، ولو تبدى ذلك طويلاً بعض الشيء نظراً لأنه يستحق هذا الإصغاء والقراءة، ولمكانته الفاعلة فيما نحن عليه وفيه:

إن كتابه الرئيس والنفيس «النظام في الأناضول الشرقية»، والمنشور في نهاية ستينيات القرن الماضي، في عداد حجر الزاوية البحثية والعلم الاجتماعية وفي نطاق المنهج العلمي، في تركيا كنظام وايدولوجيا رسمية، وكيفية اصطناع هذا العلم في مؤسساته العلمية والمؤسسية وأومركز البحث العلمي لديها وحتى المدارس في أولى خطواتها التعليمية، وبصدد الموقف من الكرد وكيفية البحث عن مختلف السب لصهرهم «تريكهم»، وما كانت قدوة لدول الجوار في التعريب والتفريس، ولو أن لأن منها طرقها، وتقديراتها في هذا المجال، ولكن القاسم المشترك بينها هو السعي إلى محو كل أثر للكرد كشعب وحتى كأقلية «مصغرة» في تركيا بالذات، والعنوان ينبّه إلى كردستان الشمالية «في تركيا» هذه.

إن إيراد مقاطع ذات صلة، وفي جزئيه/قسميه، وفي الأول منهما على وجه التخصيص :

(إن إهمال الأناضول الشرقية من لدن السلطات السياسية كان أيضاً من متطلبات السياسة ذاتها ص21..هما سؤالان رئيسان: هل بإمكان المؤسسات الإقطاعية أمثال الأغوية والمشخة والسيادة ورئاسة العشيرة أن تقف على قدميها لو أنجزت إقامة الخدمات التحتية وتم توجيهها للعلاقات الرأسمالية في الأناضول الشرقية؟- لماذا اتفقت السلطة المركزية مع الإقطاع وحققت اندماجه مع

الطبقات الحاكمة في الأناضول الغربية بدلاً من تطوير العلاقات الرأسمالية وتصفية الإقطاع في الأناضول الشرقية؟ ص 22.

إن الشخص الإقطاعي الذي يتولى الهيمنة على الملكية وعلاقات الإنتاج السائدة في الشرق هو الآغا ورئيس العشيرة. ص 42

إن واحداً من أهم خصائص مجتمع الأناضول الشرقية هو استمرار حياته البدوية فعلاً وكونه لا يزال يعيش رواسب الحياة العشائرية وذهنيتها في الأنحاء التي انتهت فيها الحياة البدوية ما برحت حتى اليوم بدوية في منطقة الأناضول الشرقية تعيش بأعداد كبيرة. ص 50

إن بين الآغوات صراعاً مستمراً لا ينقطع من أجل التفوق والتغلب، ومن هنا فإن قسماً ممن يسمون الشقاة الذين تحشر أسماؤهم في أعمدة الصحف رجال لم يصعدوا إلا لتعجيز رجال آغا آخر. ص 153.

إن العلاقات الأساسية بين الآغا وبين القروي لا تجد تعبيرها في أي قانون من قوانين الجمهورية بل يجري التعامل معها وفق التقاليد والأعراف المحلية تماماً وما يضعه الآغوات من القوانين، أي طبقاً للعادات الإقطاعية. ص 154.

على أن الشقاوة ظاهرة أخرى إنما ولدها تحول الإقطاع، أي التحول الطبقي في الأناضول الشرقية، ولا شك أن ظهور الأشقياء بوصفهم إفرازات النظام الاجتماعي-الاقتصادي وإلجاءاته لحقيقة كبرى. ولكن بما أن قوة القائمين على رأس النظام لا تزال مؤثرة حتى الآن فإنهم يقومون بهذه الحركات الموجهة أصلاً ضد النظام من زاوية مصالحهم الطبقيّة أيضاً... وكلما تفاقمت تناقضات البنية الاجتماعية الأساس تعاظمت الصفة الشعبية للشقاوة في الساحة بوضوح أكثر. على أن الأشقياء الذين يصطنعون في الصراعات الدائرة اليوم بوصفهم قوة ضاربة سيتخذون في جبهة واحدة حينئذ، ضد الآغوات ورؤساء العشائر مباشرة. وعند ذلك فإن الصراع سيكون بين الآغوات - القرويين وبين رؤساء العشائر- العشائر، وليس بين الآغوات - الآغوات وبين رؤساء العشائر- رؤساء العشائر. ص 312. ج 2:

والتزوير للثقافة الكردية، كما في تحويل «مم وزين» إلى حكاية تركية، وبلسانم أحمد فائق، سنة 1969، ومنع ظهور ترجمتها بالتركية من قبل محمد أمين بوز

أرسلان سنة 1968. ص 276... وقد ورد في النص الشعري الملحمي كيف جاء رفض والد زين تزويجها من مم، أي باعتباره تركياً في الترجمة. ص (276)⁽¹⁾.

حتى الآن، ومن خلال ما تقدّم يتضح لقارئ بيشكجي أنه يمارس مسحاً اجتماعياً، اقتصادياً وسياسياً ومن ثم تأريخياً لفئات المجتمع، وهذا الإجراء لا يغفل البعد القومي، وإلا لفقدت الدراسة فاعليتها أو جديتها، أو حتى لما كان هناك رجل علم وبحث وتأريخ هو بيشكجي:

إن تهميش جهة جغرافية معينة، يستند إلى وعي ممنهج، اقتصادي، قومي وتسلطي، لكنه اعتراف في الصميم بمن يكونون هؤلاء الذين يقيمون فيها، أي الكرد، وهذا ما يناقض المسؤولين في الدولة: من أكبر سياسي أو رجل أمني إلى أصغر سياسي وموظف يخدم الجهاز الإداري للدولة ويتفاعل مع تعليماتها : أوامر ونواه :

المكان لا يعود واحداً، لأنه ينشغل ببشر غير مصنّفين كسواه، ممن هم ترك أو في منزلتهم، أو يزعم أنهم ترك بالقسر.

(1) بيشكجي، اسماعيل: النظام في الأناضول الشرقية «الأسس الاجتماعية-الاقتصادية والبنى القومية»، ترجمة: شكور مصطفى، دار آراس، أربيل، ط1، 2000، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

تأكيداً على هذا الكلام، يورد مالميسانز ما نص عليه في كتابه: عائلة جميل باشا الديار بكري والنضال القومي الكردي، المصدر المذكور، بصدد تبليغ سري للغاية، من وزارة الداخلية للجمهورية التركية بتاريخ 1930، جاء ما يلي:

(ينبغي أن لا ننسى بأن الزي الشعبي، الأغاني، الأفراح، والعادات الاجتماعية لها دور حيوي في إحياء الروح القومية وربط الجماعات بماضيها، بناء عليه يجب محو هذه الأمور إلى جانب اللهجات وإظهارها على أنها مضرّة ومكروهة، وعدم الترغيب والتشجيع بذلك بأي شكل من الأشكال، تشهيرهم على أنها أمور عادية بدائية، قبيحة، تغيير أسماء وألقاب الأفراد والعائلات التي تتحدث بهذه اللهجات. كلما سنحت الفرصة، يتوجب تصحيح ألقابهم وسجلاتهم وتسميتهم بأسماء تركية، مثال، يجب أن لا يتم استخدام ألقاب مثل «بوشناق، شركسي، لاز، كرد، أبازا، جورجي، تركمان، تاتار، آقشار وبوماك، وتغيير أسماء القرى بهذه اللهجات. عدم منح الترخيص لتسمية القرى بـ «شركس» مثلاً، تعويد الأهالي والناس على هذا الأمر. عليهم الحديث فيما بينهم باللغة التركية، جعلهم يحبون أصلهم التركي. خلاصة الأمر، يتوجب عليهم تغيير لغاتهم، عاداتهم، وأمانيتهم إلى التركية، ربطهم بتاريخ ومستقبل الأمة التركية. تعتبر هذه الأمور من أهم واجبات كل تركي له توجهات قومية. ص (112).

والمكان ينتقل من حيث الطبيعي، الجغرافي إلى النطاق الواسع للتأريخي والسياسي الأمني، ومحط اهتمام ومراقبة على مدار الساعة، حيث إن أي قرار تصدره الدولة تكون له خصوصيته، ولوجود محاكم استثنائية خاصة وأحكام عرفية في الولايات الشرقية والتي تعني لكل من هو مهتم بالموضوع على أنها كردستان .

في الإجراء الثاني والمترافق مع هذا التخصيص والتمحيص، هو السعي الدولي بطابعه الأمني المتشدد، إلى كيفية إخضاع السكان: الكرد بفئاتهم المختلفة إلى بشردون بشر، وقد جردوا من كينونتهم، من لغتهم، وتأريخهم، إنما في الجهة الطبقيّة: الإقطاعية، لأن الأرض هي الرهان، وهي الخميرة الشديدة السميّة، المعمولة لتسميم العجين: ثمارها، والمقدمة لمن يعيشون عليها رغم صرامة الإجراءات الممارسة ضدهم، في الابتزاز والنهب والإهانة، لكن فتنة المال والسلطة والوجاهة الطبقيّة هنا، ممثلة في الإقطاعي تصبح بالنسبة للكرد مطرقة ثقيلة على رأس كل كردي، وكيف يعدّ في الإقطاعي هذا ما يعده تابعا لها، أي حين يصار إلى إلزامه، أو الدفع به بالترغيب والترهيب لأن يكون رجل الدولة الضاربة على أهليه: فلاحيه، وهو الأسلوب الأمثل لفككة المجتمع الكردي، وضرب بعضه بالبعض الآخر، إلى جانب إضعاف الروح القومية والاجتماعية في داخل كل كردي. أوليس فعل التفكير هذا يعني تميع مفهوم السكان كوحدة ديموغرافية، وليكون الكردي رقيباً من نفسه على نفسه تلك، وفي حالة خوف وتخوف من كل ما يرى ويسمع ويفكر؟ أليس هذا الإجراء عصا سحرية، ولكنها واقعية، لإحالة كل كردي إلى مذنب أو متهم، ليعترف للدولة بما لم يقيم به، مع أبسط حدث، والذي يدل ذلك على العنف المستشري في روحه، وفي وسطه، وحتى في الهواء الذي يتنفسه. أوليست السرقة المباشرة، وفي وضوح النهار لثقافة الكردي الشعبية، لروحه التاريخية في فنه المتمثل في الغناء والموسيقى واعتبار إبداعه تركياً، لا بل إغراء ومن إلزامه في أن يغني بصوت التركي، وما في ذلك من إماتته وهو حي .

ذلك ما يوقعه في أسر الآخر، حيث تقوم أو تتشكل عبودية منشودة في أكثر صورها تشويهاً للذات، أي ما يبقى التركي في وضعية السيد الذي لا يطال ولا يقاوم، ولا يحاور، جرّاء أشكال العنف المختلفة،: من تجويع وإفقار وتهجير وسجن

وصور إهانات ومطاردات ومحاكمات... الخ، وهو السيد المطاع، وما يبقى الكردي في مقام العبد المبتهج بعبوديته، أي ليس الذي يعارض أو يحتج على ما هو مافيه، المعذّب من قبل السيد المتغطرس والمالك مصيره، وإنما المفتون به.

ذلك يواجهنا بكردستان دون اسمها أو أهلها، حتى على مستوى الخيال بالذات (يراد للأمة الكردية أن تبقى إلى الأبد دون هوية وفي وضع العبيد مقسمة ومجزأة ومشتتة. ومع ذلك، فإن الوضع السياسي لكردستان لا يرقى حتى إلى مستوى المستعمرة فكردستان ليست ولا حتى مستعمرة، ولا توجد هوية كردية إذ لا هوية لكردستان)⁽¹⁾.

أي إنزال صفة الجغرافيا الكردية إلى حالة العدم، والعدم دون التذكير به، عبر مسح الذاكرة المكانية الجمعية، والذي تعني أول ما تعني إمكان الاستسلام إلى الأبد.

إذ إن تسمية كردستان باسمهما، مهما كان نوع التجنيس الجغرافي، يعني إبقاء الاسم دون تهجئة مع وقف التنفيذ، ولو إلى إشعار آخر، أي تأمل التنفيذ بإحلاله على الأرض، ومن إلغاء العقد اللاإنساني بين الاثنين، والموجه من السيد.

تبعاً لهذا النوع من الممارسات اللامتناهية في طغيانها وهمجيتها، يمكن النظر في بنية النظام التركي، بطابعه الأتاتوركي، أي حيث يجرد من أي فرصة لحوار ما أو استئنافه، تعبيراً على أبعديته، من خلال «طوبى لمن يقل أنا تركي»، في كل اجتماع صباحي في المدارس وغيرها، وعذابات هذه التهجئة ممن لا يعرف سوى لتفه الأم : الكردية، أي ما يجمع بين الذاب النفسي والجسدي، حيث الرقابة الصارمة قائمة، والعنف غير مشروط، أي طالما لا مساءلة عن ممارسه.

يصبح الإقطاعي المحافظ على مرتبته وصلته بمن حوله، لا وفقاً لمقاييس الدولة حالة نادراً جداً، وبالتالي، فإنه بات، أو هكذا يبدو الوضع، أن الذين كانوا يقومون بأعمال تمرد أو عصيان أو شقاوة أو ثورات إلى جانب آخرين ضد النظام في تركيا، والذين يترددون، أو يندفعون في هذا المسار، وثمة ما يبيتون له لصالح

(1) بيشكجي، اسماعيل: كردستان مستعمرة دولية، ترجمة: زهير عبدالمالك، APEC، السويد، 1998، ص 37.

الدولة، وما يؤدي إلى ضعضة الصف الكردي أوتنامي الشكوك المتبادلة داخله، ينتمون إلى قطاع عريض من الطبقة، وهي في تنوع وجوها بالمقابل، حيث إن حاجو الإقطاعي لكنه المنفتح على المدينة، وعلى ما هو أبعد من عالمها، من بين هؤلاء، ومن نوعية لافتة في الإقدام يكون.

وبشأن موضوعنا، يظهر أن المسمى عنفاً، أو فظاظاً، قد يكون تمهيداً إلى إحلال علاقات تكون مدعاة إلى الشعور بالسكينة، أي مداواة العنف بالعنف، ومن ثم توقيف العمل بمفهومه ما أمكن.

يدخل آل حاجو دوامة عنف يضعهم في مواجهة عنفهم الخاص والدفاعي من جهة، وعنق مقابل لهم: أهلي، وعنق شرس ومتجبر: دولتي، وهو ما يعلمنا بأنهم قد انتقلوا إلى طور جديد من العلاقات الاجتماعية والسياسية كذلك، أي الانتقال إلى حاضرة «الشرف القومي»، وهي التي تشكّل الرهان الأكبر في تأكيد وعي الكردايي فالإنساني⁽¹⁾.

(1) أنوّه هنا، إلى أن تعبير «الشرف القومي» يرتد إلى قائله اسماعيل بيشكجي نفسه، والذي تفوّه به من خلال كلمة ارتجالية أثناء افتتاح المركز الذي أعمل فيه، وباسمه «مركز بيشكجي للدراسات الإنسانية» في دهوك، وذلك بتاريخ 20-4/2017، وهو يتحدث عن طبيعة العلاقات القائمة بين الكرد أنفسهم وخصوماتهم «ليس لدى الكرد شرف قومي»، وأحسب أنه كان يشير بذلك إلى انحباسهم في «الشرف العائلي» و«الفنوي» بأضيق معنى له.

أكثر من رأس في سلّة الجغرافيا الساخنة

«إن الانتقام في أيامنا هذه لا يظهر للعيان بشكل جلي، ولا أحد يريد أن يحتمي به، ولكن هذا لا يعني أن الانتقام فعل غريب عن البشرية، حتى حين نضفي عليه مظهر العدالة» .

تزفيتان تودوروف: الأمل والذاكرة «خلاصة القرن العشرين»، ص 235 .

صورة داخل صورة :

نتحدث عن صورة معينة، وانتباهنا يتركز إجمالاً على صورة واحدة، سوى أن ليس هناك صورة واحدة كمفهوم، إنما ما لا يحصى منها، ولأشخاص، وربما لشخص واحد نفسه. إن السلطة هي ذاتها صورة متخيلة، وإن أرجعنا إلى واقع معين، وصورة عيانية بطريقة خاصة، وإن حفّزنا على التذكير بعدد هائل من السلط البشرية، فثمة سلطات، وليس سلطة واحدة، ونحن نتهجها مفردة، سلطة تعادي أخرى، أو تربص بها، أو متشابكة معها، أو تتخر داخلها أيضاً.

وفي بدء تكوين سلطة معينة، وكونها جديدة، لا يُستبعد أن يكون هناك حَرَم وضبط وحتى عنف، قد يظهر للبعض أنه قرين الاستبداد، أو تعبير عن ذات متغطسة، ولكنها من حيث المفهوم، صادمة، أو غريبة نظراً لجذتها، وأنها تتطلب وقتاً لكي يكون في مقدور المعنيين بها تقبلها، وبصورة خاصة حين ينظر إليها وقد فرضت من «فوق»، وأنها مستحدثة، ولكنها كسلطة، تتعامل مع الآخرين من عل، ليس من موقف السيطرة في ذاتها، إنما لأنها سلطة بالتحديد، بطابعها الاستشرافي، ويتطلب التفاعل معها، واعتبارها تعني من ينفرون من سلوكها بداية، بعضاً من الوقت، ليكون هناك تغيير في الحالة.

تلك الصورة التالية على الصورة الأولى للسلطة، وهي في داخلها، أي تعقبها بعد أن أدت الأولى وظيفتها كما يجب.

في عمليات القتل المتبادلة، لا يُتعرّف إلى السلطة إلا من زاوية ضيقة، أي بوصفها عدواناً، طالما أن أفراد المجموعة لا يجنحون بأنفسهم إلى دائرة وعي أوسع، ويتخلّى كل منهم عن بعض من عنفه الخاص بوضعيات اجتماعية:

عشائرية، حتى يستتب الأمن، أي يكون هناك تفويض ما لشخص مخوّل بإدارة أمور الجماعة، ودون ذلك لا تكون السلطة سلطة، أي وهي تكتسب صفة أقرب إلى التجريد منه إلى التشخيص، وتلك هي البداية الأولى لمجتمع يبتعد عن الشخصنة.

جبو، فيما يكتبه، يقربنا من وضع من هذا النوع (مع انتقال حكم العشيرة إلى حاجو الثاني ازداد نشاط «آل: أسرة عثمان» قوة. وبدأ حاجو أولاً بترك السلوك المستبد الذي كان يسير عليه آل عثمان، وقام بتغيرات كثيرة لأجل تنظيم العلاقات بين العشائر، ووضع حد لقضايا الثأر، والتوصل إلى تسويات للمشاكل. كما حدث تغيير في أمر آخر، إن هدف حاجو لم يكن زعامة عشيرة الهفيران فقط، فبعد أن أمسك بزمام الأمور في يده اتجه نحو عشيرة دكشوري، التي كانت عشيرة كبيرة ومعروفة بتأييدها للدولة، وفضلاً عن ذلك كان ضمن أهدافه إقامة دولة، إن سياسته المعتدلة والذكية في إدارة الأمور الداخلية جعلته يحصل على دعم قوي من قسم كبير من أعضاء الاتحاد «الهفيران». ولم يتردد في استخدام الشدة ضد بعض العشائر التي لم ترغب في الانضمام إلى ذلك الاتحاد. ص 63).

يبدو لي أن جبو يتحدث عن حالة انتقالية، كما تقدم، إلى مجتمع لا يعود ينظر إلى السلطة الممارسة وكأنها قائمة في خدمة من يطبقها، ومن جهة أخرى، فإن هذه الشدة التي تحضر وتغيب، ذات صلة بوضعية الاستقرار في الوسط الاجتماعي، لذلك لا غرابة أن تعتمد الشدة هذه بصورة دورياً، طالما أن هناك تهديداً لأمن الجماعة: المجتمع، وهنا ينبع جوهر القانون الذي يتركز على قاعدة علاقات اجتماعية توضع في واجهة اهتمامات المعنى بتنظيمها، بحيث تكون أوضح، فلا يكون هناك تعدد من شخص على آخر، وأي تعدد يتطلب حزمًا، أو شدة معينة، لأن ثمة ما يهدد الجميع.

وإذا كنا نريد علماً أكثر بطبيعة العلاقات الاجتماعية بين أفراد العشائر وبين العشائر، فربما المطلوب هو النظر من هذه الزاوية، حين يتصرف طرف ما في تقييمه للطرف الآخر بأنه يهدده في سلطته، أو لا يرى مناصاً من مواجهتها، شعوراً منه بالتهديد، عبر الاستعانة بقوة خارجية، وما يعنيه ذلك هذا الإجراء من تبعية، واعتبار إيذاء الطرف المعتبر متعبداً أقرب ما يكون إلى الغاية، وليس لاستقرار الأمن أو السكينة.

الغريب قريباً :

وكما رأينا سابقاً، فإن الصراعات العشائرية في المنطقة قامت على هذا الأساس: كيفية الدخول في عداوات متبادلة، والأنكى من ذلك: الاستعانة بالغريب: العدو، والذي يدفع هذا التدخل إلى مزيد من شحن الأحقاد .

هنا نجد أنفسنا أمام مستجد آخر من هذا النوع، كما يكتب جبو (ومثلما كان الدكشوريون في حالة صدام مستمر مع الهفيركان، فإنهم لم يكونوا تابعين في أي وقت للحكومة الكردية في بوتان. وقد دعموا بقوة الجيش العثماني في حربه ضد بدرخان بك. ولهذا السبب كان الهفيركان يكتنون بغضاً وغضباً ضدهم. وفي عهد حاجو الثاني كان زعيم دكشوري هو يوسف حسن شمدین. وكان يوسف هذا يهاجم قرى هفيركان وينهبها، ولهذا السبب سار حاجو الثاني ضد يوسف حسن شمدین...ص 64)، حيث يصف حسن حاجو حفيد حاجو الثاني عملية الإغارة على سنجق «آشيت»، كما تحدثنا عن ذلك لحظة الاستشهاد ببعض من أقوال جكرخوين، وعلى ذمته طبعاً ودائماً، وفي العودة إلى جبو نقراً (في ختام هذه المصادمات الشديدة تم إلحاق الهزيمة بيوسف الذي وقع في الأسر وهو جريح، إلا أن حاجو عفى عن يوسف، وبعد ذلك انسحب أفراد أسرة يوسف ووجهاء العشيرة إلى سوريا . ص 64) .

أولاً، بالنسبة لعلاقة الإغارة والنهب، يكونان وجهين لعملة واحدة، في مجتمع رعوي- زراعي، حيث كل طرف مباح للآخر من هذه الناحية، ولا بد من وجود ثقافة تشجع لهذا الجانب، أي ما يجعل الإغارة تعبيراً عن مدى زعامة الشخص الذي يقود الهجوم، وأن النهب ليس أكثر من ثمرة لعملية الإغارة والغلبة، وإذا توسّعنا في مفهوم الإغارة في سياقها التاريخي، وبمنطق زمانها طبعاً، نجد أن أي غزو تمثله دولة معينة على أخرى، بدوافع مسجلة ومشركة من قبل تلك الدولة، لا يخلو من نهب بالمقابل، مع فارق مميز، وهو أنه في عملية الإغارة ذات الطابع العشائري، يلعب الاقتصاد الرعوي دوراً في ذلك، وهو مرتبط بمكانة الزعيم القبلي حيث الرهان يتمثل في الأرض، وكيف أنه محط إعجاب وتقدير أتباعه على قدر تمكنه من السيطرة ونفوذه في محيطه، وبتعبير باحث روسي مهتم بهذا الشأن (لا تُعتبر أعمال السلب والقرصنة جرائم لدى الأكراد، بل على العكس فإن ذلك

حسب مفاهيمهم يليق تماماً بالرجل الشجاع، ولا يوجد شعب آخر لا يرتبط ذلك ارتباطاً وثيقاً بطبيعة ونمط حياته وعاداته بمثل هذا القدر.^(١)

(1) ليرخ، ب.: دراسات حول الأكراد وأسلافهم الخالدين الشماليين، ترجمة: د. عبيد حاجي، مكتبة خاني، حلب، دمشق، 1994، ص 22 .

ينظر أيضاً ما ورد في كتاب ماكس فون أوبنهايم: من البحر المتوسط إلى الخليج «العراق والخليج»، ترجمة : محمود كبيبو، مراجعة وتقديم: ماجد شبر، الوراق، لندن، ط1، 2009، الطبعة الألمانية الأولى برلين 1900: (ممارسة السلب علناً واحترافه يعتبره كل بدوي حقاً طبيعياً له..ص124.. ينبغي على الشيخ الذي يحرص على سمعته القيام بغزوة أو غزوات كبيرة كل عام تدوم الواحدة منها في كثير من الأحيان أسابيع أو ربما أشهر..ص126.. يحرص البدو على المحافظة على حياة خصومهم ولذلك يحاولون التسلل إلى مقربة العدو من أجل مباغتته..ص126.. الخ) .

ينظر في مصدر أقدم، ونوعية الثقافة المسماة أو الفاعلة ومتخيلها النفسي والسياسي، لدى ماركو بولو قبل سبعة قرون في كتابه المعروف رحلات ماركوبولو، ترجمها إلى الانجليزية : وليم مارسدن- ترجمها إلى العربية: عبدالعزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1995 . ماركو بولو الإيطالي البندقي «1254-1324»، هوامش مارسدن ج1، كما في (ويسكن الأجزاء الجبلية جنس من الناس يُسمى بالأكراد، بعضهم مسيحيون من النساطرة أو اليعاقبة، وبعضهم الآخر من المسلمين. وجميعهم قوم لا مبدأ لهم، صناعتهم سلب التجار..ص57... وضمن هذا الإطار وحديثه عن مدينة «توريس: تبريز»: والسكان المسلمون قوم اتصفوا بالخيانة والغدر والتجرد من المبادئ. وهم يعتقدون أن ملتهم ترى «كذا..» إن كل ما سرق أو نهب من أبناء الديانات الأخرى، فهو أخذ حلال، وأن السرقة ليست جريمة، بينما يعد كل من لقي مصرعه على يد النصارى شهيداً..ص 65... وما ورد لدى واضع الهوامش هنري كورديار: الهامش ه، ص 196، وبنية القول وخلفيته التاريخية: إن كردستان، التي كانت تؤلف الجزء الشمالي من بلاد آشور القديمة، منطقة جبلية تقع إلى الشرق من نهر دجلة وراء أقاليم الموصل ونصيبين وماردين مباشرة وتتكلم أغلبية السكان بلهجة فارسية محرفة، وإن ماثلوا في عاداتهم وأحوالهم البدو الأعراب، كما يشبهونهم في ممارسة سلب القوافل التي ليست لها حراسة كافية، وينعتهم كارترايت بأنهم «شعب لص سراق إلى أقصى حد»، وتتفق جميع بيانات كل من أعرفه من الرحالة في وصفهم بأنهم نهابون (محترفون)، وهو وضع لمجتمعهم ينجم عن موقعهم المحلي، وذلك نظراً لأنها منطقة جبلية لا بد للرحالة بالضرورة من اختراقها في عبورهم من إقليم غني إلى آخر..الخ، وما يبقي المكان تجسيدا حياً لأهليه بجلاء.

ويشير ديفيد ماكداول في كتابه: الكرد «شعب أنكر عليه وجوده»، المصدر المذكور، إلى واقعة السرقة كعمل بطولي طبعاً، وعُرف متفق عليه لدى شعوب وأمم وكذلك جماعات كثيرة، لعلها مرتبطة بالشح الاقتصادي، وبالتنافس المشرعن على الثروات، وتأكيد الزعامة...الخ(مهما بلغ التعصب بهذا المسافر الأوربي في القرن التاسع عشر فإنه أصاب

ذلك يمهّد لفتح صفحة جديدة، ليس بين أبناء العشيرة الواحدة أو الاتحاد الهفيريكاني وإنما بين هؤلاء وعشائر أخرى، جهة التعريف بالشخصية المتزعمة لهذا الطرف أو ذاك، وهي في موقف الاعتدال، أي ما يحتاجه إلى قوة بدنية وذكاء عقلي ومهارة في تفعيل زعامته .

ونضطر هنا إلى التوقف عند نقطة أخرى، ومعرفة واقعة سياسية وعسكرية تمثلت في هزيمة العثمانيين في حربهم مع الروس سنة 1878، ورضوخهم للشروط المفروضة عليهم في اتفاقية «سان ستيفانو» وغيرها .

ما يهم هو المترتب على هذه الواقعة، حيث ضعفت الدولة العثمانية، فما كان من منفيين من أبناء بدرخان بك في ستانبول، إلا واستحثا خطاهما، وتوجها إلى «جزرة : بوتان» عاصمتها، ومن خلال تحالفات واتصالات مع آخرين «ضباطاً وغيرهم» تم انتهاز فرصة ليعلنوا استقلالهما سنة 1879، وتنصيب عثمان باشا أميراً في احتفالات صاخبة .

وعلى خلفية هذا المستجد، أعاد الهفيريكانيون/الهفيريكيون الأضواء إلى ما كانت عليه، عندما كانت إمارة بوتان في قوتها، وهم يسندونها، وربما الآن بصورة أقوى، حيث إنهم أنفسهم، كما يظهر بدوا في الواجهة، وهو ما أثلج صدور البدرخانيين، وهو ما سنتعرف عليه لاحقاً، عندما نتوقف عند نشاط كل من الأخوين: جلادت وكاميران بدرخان بك، بصورة رئيسة في سوريا، ومع حاجو آغا، وهم يحضرون لأكثر من عمل مشترك، ووجهتهم: بوتان، أو كيفية التمكن من السلطة التركية، كما تبين ذلك في ثورة آغري/أكري سنة 1927، والتي ترافقت مع تأسيس جمعية خويبون، وكان لآل حاجو آغا ثقل ملحوظ: عددي، ونوعي في المنطقة بوجود سلطة فرنسا المنتدبة، وهو يتصرف كسياسي هذه المرة وليس كزعيم عشيرة.

كبد الحقيقة في وصفه وتقديراته. فاللصوصية وقطع الطرق على المسافرين كانا يُنظر إليهما على أنهما أساليب مشروعة لكسب المال من قبل بعض العشائر. وكان الكرد في الجبال مصدر تهديد دائم لسكان المنطقة السهلية. ص 43). أترى، أليس لهذا التهديد من تقليد تاريخي وإشهار بملكية جغرافية عائدة إليهم، ومن ثم للتعبير عن ذات، ما كان لها أن عرّف بنفسها إلا بالطريقة هذه؟

ولا بد أن في دعم حاجو الثاني للبدرخانين أكثر من دلالة، أي إنه كان ينشد إقامة أكثر من كيان سياسي كردي بالمفهوم المتداول حينذاك، دون نسيان الطابع الزعاماتي الموجود كتأريخ لا يمكن تجاهله، وربما بنوع من المزج (قدم حاجو الثاني دعماً كبيراً لعودة البدرخانين مجدداً إلى كردستان وإقامتهم حكومة كردية مستقلة. ومرة أخرى أصبح الهفيركانيون بمثابة القوة الضاربة لبوتان. وقد انسحبت القوات العثمانية الموجودة في المنطقة أمام هجمات الهفيركان، وأصبحت المنطقة كلها تابعة لأمير بوتان عثمان باشا. ولم «يحقق العثمانيون أية نتيجة من إرسال العسكر ضد جزيرة مرات عديدة، وقد وسع الأمير عثمان حدوده وأدخل ضمنها جولميرك وزاخو وعمادية وماردين ومديات ونصيبين». ص 65).

بعض مما يقوله جبو، وبعض مما هو مقتبس، كما في الأخير «من محمد أمين زكي» في تاريخه، تأكيداً على أن العلاقة تتأصل من خلال وجود كيان سياسي يطمح لأن يكون أكبر مما كان عليه سابقاً، وهو ما تبين آنفاً .

ولا أظن أن القاري، أي قاري، بحاجة إلى فطنة أو نباهة، ليكون في صورة المستجد، أي حين يكون مدركاً بنوعية الخطر أو التحدي والذي يتمثل في الداعم الأكبر: حاجو، خصوصاً وأن رقعة بوتان اتسعت من جهة، وأن العثمانيين قد ذاقوا مرارة الهزيمة مراراً، وأن الهفيركانيين لعبوا دوراً استثنائياً في هذه المواجهة العسكرية معهم، فاستحقوا لقب العدو الاستثنائي بالمقابل، أي في كيفية النيل منهم، ومن زعيمهم بنصفه القبلي ونصفه السياسي، إن جاز التوصيف .

ذلك يحفز على معرفة أوسع بأنشطة الهفيركانيين/الهفيركيين، وكيف أن حاجو الثاني، ومن ثم عليكي بتي وبصورة لافتة: حاجو الثالث سعوا إلى تأكيد وجودهم خارج نطاقهم القبلي، وحتى العائلي بالمعنى الضيق للكلمة، ولماذا صرف بعض الباحثين الأنظار عن مقام هذه العائلة، كما في حال مالميسانز، حين تعرض في كتاب معد من قبله ومؤلف عن عائلة جميل باشا دياربكرلي، وقد كتب في مدخل كتابه ما يلي (كل من قام بالبحث والدراسة حول الحركة القومية الكردية، يعرف أن بعض العائلات الارستقراطية والإقطاعية الكردية كان لها دور بارز في هذه الحركة وبالتحديد في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين)، وفي الصفحة ذاتها يكتب (ينبغي معرفة التاريخ الكردي المعاصر بصورة

جيدة ومعرفة هذه العائلات أيضاً، أمثال البدرخانين، جميل باشا، ومن بعدهم البابانيين والنهرين (1).

لماذا لا تذكر هنا عائلة حاجو آغا؟ من خلال موقعها الاجتماعي والسياسي، رغم أن حاجو آغا يذكر في مجمل الأنشطة ذات الصلة بالقضية الكردية على مدى أكثر من عقدين من الزمن، وفيما بعد في الدراسات التي تعرضت لهذه الحقبة «1919-1940» حيث توفي حاجو آغا الثالث ١٩٠٠ من جهة المجابهة والسيطرة على الأرض والتأكيد على الوجود الكردي والدعوة إلى كيان كردي.. ألا يمكن القول أن حركة حاجو آغا كانت أول حركة وآخر حركة ذات صبغة استهضائية ومقلقة للفرنسيين والسلطات المحلية في سوريا؟، وهو ما سنشدد عليه تالياً.

ألم يسع حاجو آغا في قرارة نفسه، ومن خلال محاولاته المستميتة في فرض زعامته بنشاطه المتواصل ودهائه السياسي أن يجعل من «تربه سبي» هذه القرية/البلدة الصغيرة نموذجاً مقابل لبوتان عاصمة البدرخانين، وهو يعرف بالهفيروكانين، ويستقطب عموم الكرد إليه؟ وأن أي تناول لأخطاء مرتكبة، وهي متفاوتة من شخص إلى آخر، وتبعاً لمقامه وموقفه أو موقعه من ناحية القوة والفعل والعلاقات بالمفهوم التاريخي، هو تحصيل حاصل، أي مرتبطة بنشاطه ذاك، وليس في أن يجري التعريض بها، كما لو أن فاعلها يساويها مجردة عن سياقها العملي العام.

أو ليس الناظر التاريخي فيما قام به حاجو آغا، وكما سنرى أكثر، على مستوى الانشغال بالقضية الكردية يرى ما ينسب إليه «الأمد الطويل» للزمن، بمفهوم الفرنسي فرناند بروديل، ويعني بذلك إمكان استمرار أثر معين لواقعة، لحدث، باسم شخص معين في الزمن، متجاوزاً حدوده الزمنية، على خلفية من الفعل النافذ في الزمان والمكان، وهو ما ينبغي التوقف عنده؟!

لا شك أن ذلك يتطلب مزيداً من التمهيص والمقارنة والمتابعة إلى جانب الحفر في المغيّب تاريخياً، كما لاحظنا حتى الآن، وكيف أن حضور هفيروكان ومن خلال حاجو، يفصح عن تأثير مجسم على الأرض ومعتبر حتى من قبل الأعداء بالذات، ولا بد أن العثمانيين يأخذون ذلك بعين الاعتبار، أي يقدّرون هذه

(1) مالميسانز «تأليف وإعداد»: عائلة جميل باشا الديار بكري والنضال القومي الكردي، المصدر المذكور، ص 9 .

المتغيرات، وسُبل التعامل معها، ومن موقع سلطوي، وما يجعل الكرد في موقع التابع سياسياً، وفي وضعية المأخوذ بالسلطة العثمانية طوعاً أو كرهاً بالمقابل، وربما هو الدرس المستعار والمستدام من قبل الأنظمة التي استبدت بالكرد فيما بعد تاريخياً.

السلطة الامبراطورية :

إن سلطة ذات امتداد امبراطوري، وهي على قدر وساعتها، لا تتسى من يمسها بسوء، كما تصف هي، حيث إن ردها يتنوع تبعاً لنوعية الخطورة، وهي بوضعها المحيطي الهائل، وكما في التعامل مع الكرد تحديداً، أي رفض الاعتراف بالهزيمة، وهي سليلة أمجاد وفتوحات كما تعرّف بنفسها، وهذا ما يجب التعرف إليه في دراسة السلطة ونوعيتها، ومن ثم نوعية «الاعتداء» عليها، لأن الخيارات على قدر الإمكانيات ومردودها الاجتماعي والسياسي .

ولعل طريقة تعامل السلطات العثمانية، ومن قبل الباب العالي مع الكرد، أكثر من غيرهم، انبنت تاريخياً على كيفية التسلل إلى الداخل الكردي، واعتماد سبل الترغيب والترهيب، أو الكلام المعسول، ودق الإسفين، إلى هذا اليوم، حيث يجري تعميق هذه الروابط البنيوية، إلى جانب «ترميم» ما تم استهلاكه كثيراً وإضافة جديد إليه ليكون أصح، كما في تعامل السلطان عبدالحميد، حيث (استخدم دهاءه ضد أميربوتان، إذ أقام علاقات ودية معه وكان يقول للأمير عثمان «إنه مستعد لقبول كل مطالب الباشا والاعتراف باستقلال كردستان». وعن طريق هذه الأقوال والوعود كسب ثقة الأمير عثمان. ثم وضع فيما بعد خطة مأكرة تم بموجبها إلقاء القبض على عثمان باشا وأخيه ونقلهم إلى ستانبول، وبعد بقائهما في السجن لفترة أطلق سراحهما، ولكن منعا من مغادرة ستانبول مدى الحياة، ومع أن بعض المقاومة استمرت في بوتان التي بقيت بلا أمير، إلا أن المقاومة لم تنجح ودخلت المنطقة تحت السيطرة العثمانية في عام 1889 م. ص 66).

طبعاً، تلك أساليب الأنظمة الحاكمة في التعامل مع شعوبها، والذين تشتم منهم رائحة تمرد أو عصيان أو مجابهة، وفي الحالة الكردية، يكون الوضع مختلفاً، على قدر التحدي والمطالب، يكون التصرف، وكما رأينا، فإن المتعلق بمفهوم بات شائعاً، وهو «الحيلة» أو «المكر» أو «الخداع»... الخ، يلفت النظر، كما لو أن المتوخى

أو المتوقع هو أن تتم مكافأة هذا الذي ثار في وجه السلطان، أو «شق عصا طاعته»، إذ إن قولاً كهذا، ولو أنه يأتي في سياق التغطية التاريخية لسلطين هفيركان، سوى أنه لا يخفي ملمحاً مؤثراً ومأسوفاً عليه من هذه الإشارة، أي ما كان يجب أن يحصل خلاف الجاري، إذ في بنية علاقات غير متكافئة بين طرفين، بحيث يصعب - حتى - التقابل بينهما، نظراً لأن الطرف المسيطر: وهو الذي يمثل السلطة يرفض الآخر من موقع القوة، لأن النظر يعني نوع من المساواة، وهذا يتطلب اعترافاً معيناً، ليتحقق فيما بعد نصاب التقابل أو التناظر، أي وجود طرفين بينهما تكافؤ ملموس بصورة ما، وهذا ما لم يحصل على الإطلاق، في كل عصور التاريخ، من خلال علاقة الكرد بالأنظمة التي استبدت بهم، أو فرضت سلطانها عليهم تباعاً، حيث إنه لطالما كانت عبارات ذات سحر شبكي من نوع «الأخوة في الدين الواحد» قبل كل شيء، تلعب دور التنويم المغناطيسي في احتوائهم، وتفريغهم من كل قوة أو حضور، وهم يصدقونها، أو يرونها متجاوبة مع مشاعرهم أو رغباتهم التي لا تكون موحدة أساساً، إنما ينظر إليها في إطار التناظر الكردي داخلياً، وهذا يضيف على هذه العلاقات أكثر من صفة المأساة والمهزلة معاً.

في الجانب الآخر، لوحظ تاريخياً، أن جل أفراد العائلة البدرخانية كان يجري نفيهم أو إبعادهم عن عاصمتهم الأم: بوتان، ولم يُنل منهم بطريقة تعسفية، أو تصفوية، كما هو المعتاد فيما بعد على أيدي الأنظمة المعتبرة حداثية، في القرن العشرين وحتى الآن، من خلال إنزال مختلف العقوبات الصارمة، وارتكاب ممارسات دموية مريعة من قتل مباشر وإعدام... الخ، وهذا يدفع بالباحث إلى اعتماد تصور مختلف، أو مغاير أحياناً تجاه أسماء معينة كالبدرخانيين، كما رأينا، فالمتوقع فيما قام به الأخوان البدرخانيان، عثمان باشا بالذات، هو القتل المباشر، أو الإعدام، كون المسلك معادياً، أو اعتبارهما خائنين، لكن ذلك لم يتم، وهو ما يعاين عن قرب، أي ما يترتب عليه من ردود أفعال أخرى، تكون السلطة أكثر مقدرة في تطويق الموقف، من خلال الكرد أنفسهم، حيث السلطة تبرز في موقع «الأب الرحيم»، والذي يسامح «ابنه» العاق هنا على غلطة مرتكبة، أو جنحة معينة، وما يعنيه هذا الإجراء من كسب ود الآخرين ولزوم عدم الوقوع في خطأ مماثل، أو جنحة لافتة، في سجله الشخصي والاعتباري .

إلى جانب خبث السلطة العثمانية وهي تزجُ بالذين سخطت عليهم كالبدرخانين وغيرهم في «محمية» المدن ذات المكانة كستانبول، أولاً ليكونوا أمام أنظارها، وثانياً، ليكونوا بعيدين عن مؤثرات القوة الخاصة بهم كردياً، وثالثاً، حيث تمارس المدينة بمغرياتها وهيبته السلطوية تأثيرها بطرق شتى في البنية الذهنية والنفسية لهؤلاء، حيث هواء المكان، ماء المكان، طعام المكان، وحلم المكان ينطق بالعثمانية إجمالاً.

أما عن هفيركان، وفي شخص حاجو الثاني، فالأمر مختلف، إذ إنه من خلال متابعتي لموضوعه، كان التعامل مختلفاً مع هفيركان، ومع الذين واجهوا العثمانيين، هل لأن طبيعة المواجهة مغايرة لتلك التي تجسدت في الحالة البدرخانية ؟

وماذا نسَمِّي نفي حاجو آغا مع أبنائه الثلاثة: حسن، جميل، جاجان إلى دمشق لبعض الوقت، ومن ثم في إثر فشل ثورة «آارات 1930»، نفهه إلى الحسجة/الحسكة، بعيداً عن «عاصمته» «تريه سبي» تحت ضغط التركي، ولتخفف فرنسا ذاتها هذا الضغط من قبل حاجو، دون إيذائه جسدياً، ودون أن يتوقف عن نشاطه السياسي في مواجهة أعداء كثر له هنا وهم يتربصون به، أي كونه لم يخف كرديته، ولا رايته المرفوعة فوق داره، ولا حلمه بكيان كردي مستقل... ١٩٠٠

إن للسلطة تقديراتها الخاصة، وهنا تستعاد اللحظة البدرخانية، ولو لبعض الوقت، حيث يشار إلى الخدمات الجليلة التي قدّمها بدرخان بك للدولة العثمانية حتى وهو في منفاه الكرיתי، وهو شعور لا صلة له بنبل الأخلاق السلطانية، إنما بطبيعة السلطة وتنوع أدائها الوظيفية أو أدوارها مع الذين يواجهونها، ولهم خدمات مسجلة لصالحها، بينما في حال حاجو الثاني، أو عليكي بتي أو حاجو الثالث، فلم يحصل أن كان لهم خدمات تذكر، أو رصيد «يشفع» لهم، ولهذا السبب نجد هذه المواجهة السلطوية، عبر استمالة حلفاء كرد، من عشائر مجاورة لهفيركان أو داخلها، كما حصل في عملية مطاردة الهفيركانيين، وإلى جانب الدكشوريين: الخصم التاريخي لهفيركان، والنيل من حاجو بالحيلة هذه المرة .

وهذه الحيلة، تضاف إلى حيل أخرى معتمدة فيما بين الكرد، ومن جهة الحكومات في المنطقة في التعامل مع خصومها، أو أعدائها كأشخاص، وكثيراً ما تتصل بمفهوم «الشرف» العائلي أو الاجتماعي، مثلاً: أسر امرأة ما، بغية تسليم

المعني بها تسليم نفسه، نظراً لمعرفة الجهة الآسرة في الدولة وغيرها أن ذلك الإجراء فعّال، وهذا ما ترتّب على مواجهة مسلحة بين قوات حاجو الثاني، والدكشوريين، ممن كانوا متحالفين مع السلطة، وهي معركة «جبل مافا»، وفي الختام يستغيث الدكشوريون بالدولة، وهو ما انتظرت كما يظهر، وبعد مجابهات ومطاردات تتمكن من حاجو الثاني .

ظلال الأعداء المعتمدة :

نقرأ هذه المقتطفات من جبو (لا يوجد في المنطقة من لا يعرف شيئاً عن معركة جبل مافا التي جرت بين حاجو من جهة والقوات الدكشورية وقوات الدولة من جهة ثانية.. ص68.. ويروي طاعن في السن واقعتها وعمره «90» عاماً: «كان ذلك في أشهر ربيع عام 1896. ص68... ووفقاً للأخبار التي وصلت زعيم عشيرة سيدان محمد جبو: جاء فيها عن أن القوات التي يقودها حاجو مطوقة من قبل الدكشوريين وقوات الدولة، وأنهم كانوا في وضع صعب جداً، وأن الوحدات العسكرية القادمة من ديار بكر وماردين تضيق الطوق عليهم، وأن قوات الهفيران تشتتت، وكان حاجو والقوة القليلة التي بقيت معه يرفضون الاستسلام. ص69.. وبالحيلة، وبحسب مشورة أحد الدكشوريين استدرج حاجو إلى الجيش العثماني فسلم نفسه وقد أوحى أنهم يأسرون زوجته، وكان متسلمه عدوه اللدود زعيم دكشوري: جمو والقاتل أيضاً. ص70) .

أي حيث يجري قتله ذبحاً سنة 1896، كما هو مؤرّخ له في أكثر من مصدر ! وقبل الانتقال إلى إضاعة هذه الواقعة، ثمة ما ينبغي إيرادها أيضاً، ليكون المشهد أكثر وضوحاً بتفاصيله، أو على الأقل، أكثر قابلية للقراءة ومن ثم للنظر العقلاني بالمقابل أيضاً.

من جهة، حين يعلم القائد العسكري العثماني أعداء حاجو الثاني من الدكشوريين، ولجمو بالذات (لقد قتل هذا الرجل أشخاصاً كثيرين منكم ، ونهب قراكم، لذا فإنني أكلفكم أنتم بمعاقبته. ص70) .

ثمة ذكاء عملي، سياسي من قبل القائد العثماني، أي ترك أمر الانتقام للطرف الكردي، ليس لأنه كان عاجزاً عن قتله هو وغيره، وإنما لأنه يريد إظهار

مدى رأفته حتى بالذ أعدائه، وأن الدولة عموماً أكثر رأفة من الكرد الذين ينالون من بعضهم بعضاً بالطريقة هذه، ولكي يزيد القتل بالتالي في عمق العداوة بينهم وينميها أكثر، من جهة أخرى.

ومن جهة ثانية، يظهر أن جمو تميّز بخاصية عدا مضاعفة أكثر من الآخرين، ومنهم أحد قادة دكشوري وهو اسماعيل آغا الذي عارض قتله (إن رجلاً باسلاً مثل حاجو يجب ألا يقتل. ص 71)، طبعاً، وكما يقول جبو، لوجود صداقة بين آل شمدين التي ينتمي إليها اسماعيل آغا، وبين آل حاجو، سوى أن جمو أصر على النيل منه، وفي المختّم يذبحه بالخنجر، إلى جانب اثنين من رفاقه، وهما من الإيزيديين (وقام جمو بوضع الرؤوس الثلاثة المذبوحة في خرج وألقاه على ظهر الحصان. إلى أين؟ لأجل أن يسمع الأصدقاء والأعداء بالنصر الذي حققه !!، وخصوصاً أعدائه الهفيران لتخويفهم سيما وأن معه قوة عسكرية كبيرة تدعمه .. ص 71).

ما يمكن قوله فيما تقدم تقدم:

أولاً، بالنسبة لجمو، تردّد سابقاً، أنه غريب عن هفيران، ولسان الدكتور بنكي، أي باعتباره معدوم القرابة مع آل عثمان، أي مع آل حاجو (وكان يرأس عشيرة صغيرة فقط وتعامل مع الدولة التركية. ص 21)، وحيث أشرنا سالفاً أيضاً، ومن خلال مذكرات جميل حاجو، إلى أنه كان (من نفس عشيرة حاجو- ألكا- وكان يرافق الجنود في بحثهم عن حاجو. ص 35)،، ذلك يعني استبعاده إلى الخارج، أي من عشيرة متحالفة في نهاية المطاف، رغم أن رواية كهذه لا تبعده كثيراً، عن القرابة العشائرية، استناداً إلى رواية جميل حاجو هفيري. عدا عن ذلك، كما لاحظنا، فإن خط النسب ليس دقيقاً، كما هو جدار الفصل العازل في نطاق جغرافيتين، إنما هو مصطنع، إذ لا يُستبعد أن ترجع مجموعة عشائر دكشورية وهفيرانية إلى أرومة واحدة، وأن العدا المستفحل في لحظة ما، مارس تشظيراً بينهما، كما الحال في الانشطار العدائي داخل عائلة عثمان بالذات، جهة التفريق بين كل من عائلة حسن الأول وعائلة سرحان الأول، وهما من حاجو الأول، وتالياً، وبصورة معمقة بين جلبي وحاجو الثالث، وهو انقسام لم تبطل به عائلة عثمان وحدها طبعاً، إنما مجمل العائلات الكردية، وحتى في الجوار: العربية وسواها، سوى أن التركيز على هذا الانقسام يرتبط مباشرة بالوضع ما دون الدولتي للكرد، وإصرارهم على بنائها !

ثانياً، إن إزاحته جانباً، وبالطريقة هذه، يكون قد أضعفت القبيلة، أو هفيران بالذات من عضه الضمير، أو إثمه، لأن أحد أفراد الاتحاد الهفيرانى كان وراء قتله بالطريقة البشعة تلك.

ثالثاً، صحيح أن الدولة لم تردّ قتله مباشرة، سوى أنها ارتاحت لطريقة قتله، ولا بد أن ذلك تم على مرأى من أعين معنيين بها مباشرة، وهذا يضاعف من «نشوة» هؤلاء، ويطلق في أجلها، انتظاراً لـ «حفلة» الدم المسفوك بثارات متلاحقة.

رابعاً، بالنسبة لإسماعيل آغا، صديق حاجو الثاني والذي امتنع عن قتله، أكان حقاً غير قادر على منع جمو من القتل، أو أن يدع القتل على القتل يتم من قبل أعداء الكرد العثمانيين، وبطريقة لا تكلفه كبير جهد، خصوصاً وأن جمو وكما يعرف به، ينتمي إلى عشيرة محدودة الشأن، فمن أين يأتي الحذر المبالغ فيه إذا؟

خامساً، وهذه النقطة على صلة بتلك الطريقة المعاملاتية بين العشائر أو القبائل أنفسهم، وهي تكون متفاوتة في القوة، وهذا التفاوت يبقى الأقل قوة في منزلة التابع أو الأدنى مرتبة، مع ما يتبع ذلك من مقام محدود أو شأن ضئيل، وفي حالة واحدة قد تكتسب العشيرة الصغيرة مكانة، وهي أن تبرز في موقف معين من خلال قوة مضاعفة، أو عمل مرهوب الجانب، ويظهر أن جمو كان يفكر من هذه الزاوية، وبطريقته تلك، اعتقاداً منه، أنه بذلك يكسب المكانة المنشودة تلك، رغم أننا قرأنا في المسطور في كتاب بروينسن «ج1، ص232»، أن جمو هو زعيم الدكشوريين .

ما الذي يفصح عنه فعل قطع رأس الإنسان من قبل سواه: ذبحاً؟

من المعلوم، لمن يهمه موضوع كهذا، أن الذبح أسلوب حيواني، أي ينعطف على الحيوان بالذات، ويعني ذلك أن ذبح إنسان، ليس أكثر من إنزاله إلى مرتبة الحيوان، وما في ذلك من إهانة لا تقتصر عليه وحده، إنما على أهله بالمقابل، وكل من له صلة قرابة به، وبالمقابل، فإن لذلك صلة مباشرة بذخيرة الحقد المتعاطمة عند الذابح بالذات، كما لو أنه بوضع كهذا يتمكن من تهدئة نفسه المحتقنة، وبالتالي، يستطيع أن يهرب طرف الخصم أو أهل المذبوح بالذات.

لا يعود المذبوح ممتلكاً لصفة الإنسان في الحالة هذه، وقد فصل رأسه عن جسده، كما أن فعلاً كهذا يستجيب، كما تقدم، لميكانيزم العنف المكبوت والتاريخي لدى الفاعل، وتوهمه أنه بالطريقة هذه يمكن أن يعوّض عما كان يفترقه.

لكن فعل الذبح في الوقت نفسه ترجمة ذاتية لدونية الذابح، لأنه عندما يأتي على ذبح آخر، إنما يقيم علاقة حيوانية معه، وهو ما يتنافى مع كونه إنساناً سوياً، مهما تردد في ذلك من كبت أو ضغينة، والإيحاء بأن ما قام يعلي مكانته⁽¹⁾.

أين الخلل ؟ :

إنما ثمة ما يجدر التوقف عنده، حيث إننا نجد في رواية جكرخوين توصيفاً آخر لعملية القتل.

جكرخوين، وبعد العبارة التي يشير فيها إلى اختفاء حاجو الثاني في الجبال هرباً من الملاحقة، يقول (لكن حاجو رأى يوماً امرأة محمولة بين عساكر العدو، يسرون بها إلى مدياد. وخيل إليه أنها امرأته عائشة..) «والصحيح، كما يظهر، كما ذكر الاسم في كتاب جبو، وذكر في مذكرات جميل حاجو، هو أنها: زينب، ولعل جبو

(1) من باب المفارقات الكبرى، والتي تظهر فظاعة عملية الذبح بالسكين أو الخنجر، أستعيد إلى الذاكرة العمل الموسوعي للباحث العراقي عبود الشالجي: موسوعة العذاب، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط2، 1999، وهو في سبعة مجلدات، حيث يندر وجود إجراء مماثل من هذا النوع «الذبح» فثمة إيذاء الناس، والشتيم، مثلاً، في المجلد الأول، والضرب والصنع في المجلد الثاني، والحبس والقيود في المجلد الثالث، والتعذيب بالطعام، والرش على الملح، والسمل في المجلد الرابع، والقتل غدرًا في المجلد الخامس، وكتم الأنفاس والإحراق والتعذيب بالماء المغلي في المجلد السادس في المجلد السادس، والقتل بالجوع والعطش والمثلة... الخ، في المجلد السابع... بينما يندر أو ينعدم ما أشير إليه في المتن.

ومن المفيد هنا النظر فيما أثاره الباحث الإيراني خافار، فرهاد خسرو، في كتابه: الأصوليون والعمليات الاستشهادية، ترجمة: جهيدة لاوند، معهد الدراسات الاستراتيجية، بيروت، بغداد، أربيل، ط1، 2007، كما في قوله (يعرض القتل كعمل ذبح مقدس) كما يذبح الخروف» ويميد ليشمل عدو الإسلام. العدو كحيوان يحلل ذبحه، اللجوء إلى السلاح الأبيض، يهدف، من جهة، إلى تعزيز هذه الفكرة، ومن جهة أخرى، إلى التذكير بوقائع مسلمة لأبطال في الإسلام. ص 116).

ومن المؤكد أن الذي لجأ إليه جمو لا صلة له بما هو متردد في كتاب خافار، وأن فصل الرأس عن الجسد في الحالة الأولى ترجمة بليغة عن عدائية، لا بل همجية سافرة، وعلى مستوى أرضي، بينما في حالة خافار، وهو يركّز على أصوليي اليوم المتشددين، فهم يذبحون الآخرين من باب المثلة جوازاً لهم لترهيب «أعدائهم»، ولاعتقادهم أنهم بذلك يعبرون عن نظرتهم إلى المذبوح وأنه ليس في مستوى الإنسان الذي يركّزون عليه، إنما في مقام الحيوان، فيذبحونه، ويبعدون الرأس عن الجسد، لخلق المزيد من الرعب، ويدفن الجسد بدون رأس، أو مفصولاً عنه... الخ.

هو الذي أخذ الاسم المسجل خطأ من جكرخوين تبعاً للتسلسل الزمني»، ولنتابع قوله (ولذا ودّع صديقه وقال: «الموت أفضل بعد الآن، كان الشرف قد بقي وها هو أيضاً وقع في قبضة العدو. سأسلم نفسي إلى أيدي الأعداء، لئلا يقع شرفي في أيديهم...»)، تالياً يكتشف أنه خدع أوتوهم، وهو وسط الأعداء (لكنه لم يستطع أن يتراجع واعتقلوا حاجو وأصدروا أمراً بقطع رأسه. ورئيس بعض قرى تورباني «جمو» الذي كان يسكن في قرية «هيشترك» وكان عدو حاجو، قطع رأس الآغا.). ويذكر بدوره رئيس الدكشوريين هذه المرة: الآغا اسماعيل، ساعياً إلى منع قتله، لكن حاجو قتل.. ويقول والذي استفاد في المحصلة هو (فقط عدو الشعب الكردي)، في الصفحة ذاتها، يشير إلى هوية جمو القبلية، لحظة الإشارة إلى أن القاتل لم يكن تركياً، وهنا المأساة الممتدة في الزمن بفجيعتها (فالذي قطع رأس الآغا كردي، وهفيريكي من «تورباني» إنه «جمو». كيف سنأخذ بثأرنا ؟ أفواحد مثل جمو يقتل آغا الهفيريكيين ص 47) .

رواية أخرى، تستدعي النظر، ومن خلال ما تقدم، والأخذ بالمقارنة تحديداً، ولا بد أن الموقف يختلف في كل حالة، وربما كان الأقرب حتى الآن، للحقيقة، هو أن جمو وإن كان غير منتم إلى هفيريكان كقبيلة مباشرة، سوى أنه داخل في حلف معين: عشائري، أي من خلال عشيرة معينة، كتلك التي ألح إليها جميل حاجو بالذات، حيث يسهل هنا تقدير دافع البغضاء في نفسه وخلفيتها في نفس جمو، وما الذي كان يخفيه الدافع ذاك، وهو الذي انتهى بمثيله: أي قتلاً، ولو بطريقة أخرى، كما يتردد أحياناً !

أعني بما تقدم حتى الآن، أننا إزاء حرب الذاكرات، وليس المدونات التاريخية، وجكرخوين يمثل المشكل الأكبر في هذا النطاق، حيث يستند إليه ليس لأنه رواية ثقة، وإنما يتجاوب مع رغبات الذين يريدون روايته أن تكون بمثل هذا الاقتحام للواقع، جرّاء عداوات موجّهة، يبرز فيها آل حاجو وحاجو آغا الأول في التعريض به جكرخوينياً، وحيث إن المكتوب يسمّي رواية شفاهية في مجمل الأحوال، وفي كل رواية يحضر الشخص الراوية وموقعه وثقافته، ومن يكون في علاقته بمحتوى روايته.

في رواية جميل حاجو هفيريكي، ثمة تنوع في سردية الرواية، إذ عدا عن تبعية جمو للعسكر العثماني، يكتب استناداً إلى أسلوب الرواية الشعبية، وهو لا يخفي

عاطفيته، لا بد أنها مرتبطة بطبيعة الموصوف (ولما يئسوا من العثور عليه، أي حاجو، لجأ هذا الخائن إلى طريقة خسيصة للقبض عليه، فقد دس بعض «بعضاً» من أزالاه بين الناس وأشاعوا خبراً كاذباً مفاده أن إحدى الوحدات العسكرية قد ألقت القبض على زينب زوجة حاجو التي كانت مختبئة في مكلن ما، نظراً لعدم تمكنها مرافقة زوجها لأنها كانت حاملة «حاملاً» بوالدنا حاجو... فما كان منه إلا أن قرر تسليم نفسه حرصاً على إنقاذ عرضه وشرفه حسب تقاليد الأكراد، وتم ذلك بالفعل.

ثم: كان جمو يعرف حق المعرفة أنه إذا لم يعدم حاجو فإنه سيكون في عداد الأموات، لذلك بذل كل جهده لإقناع قائد الحملة بإعدام حاجو فوراً، وفي المكان الذي سلم نفسه لخشيته من أنه إذا أرسل إلى القضاء قد لا يعدم... الخ. ص 36).

كما قلنا سالفاً، ما عدا هذا التوشيح العاطفي، فإن هذه الرواية أقرب إلى المنطق التاريخي، وهي في محتواها، تقربنا من نفسية جمو بالذات، كونه أدرك أن ما قام به لن يغفر له، وعلى يد حاجو بالذات، وأنه لا يمكنه الرجوع عن قرار القتل، وهو تابع للجيش العثماني، فلم يجد بداً من القتل، سوى أن قتلاً بالطريقة السالفة «ذبحاً» تضعه في مواجهة السؤال الأخلاقي، وما كان يخبئه في نفسه من ضغينة أو كراهية وتشفّ ناحيته، وتوق إلى سلطة مفقودة .

وربما كان الذي أورده جبو تالياً بصدد تمادي جمو في استفزازه للمعنيين بحاجو الثاني تأكيداً على هذا الغل، حيث إنه ، وبعد أن أحدث صدمة كبيرة وسط هفيركان، وأعلنوا حداداً ص 72» خاطب محمد جبو وهو في بيته ومع جمو مسلحوه عن أن يحمل ما يفرحه من باب السخرية (رقية حلوة من رقي مديات . ص 73)، وفي خرجه وقصده رأس حاجو المذبوح، وعلى إثرها طرده جبو.

جكرخوين الشاعر، وسارد الرواية التاريخية بخيال شاعر، يشير إلى أن زوجة حاجو كانت حاملاً، (وبعد مقتل الآغا ببضعة أشهر وضعت حملها وأطلقت عليها اسم حاجو على ابنه. ص 48) .

يقولها، أو سطرها، وكما سنرى، دون السؤال عن حقيقة ما يقول مقارنة بما هو تاريخي، في الفصل العُمري بين حاجو وأولاده، مثلاً، أي إنه كان يستمرى استرسال خيالاته في أهوائها النفسية.

هنا علينا التوقف عند نقطة أخرى، تتعلق بالنقاط المذكورة سابقاً، وهي خلافية، أي بسيرة التاريخ العائلي، حيث إن جميل حاجو هفيركي يسمعون رواية تلفت نظرنا مغايرة للمتعدد عن جمو ومن يكون.

إذ بعد ذبح حاجو، نقرأ (انتقلت رئاسة القبيلة إلى حمد، أخ حاجو الأكبر وله أخ آخر اسمه بطي/بتي، وبدأ الصراع بينه وبين جمو الذي أصبح ذو «ذا» نفوذ قوي في القبيلة وذلك بدعم مباشر من الدولة العثمانية بالإضافة إلى دعم عشيرة الدكشورية له.... لاحقاً، وبدعم من جلبي وسرحان ابن ساروخان وقد بلغا سن الرشد لعمهما حمد، وعرف عن جلبي بأنه كان ذا: إرادة قوية وذكية.. وبدأ يمسك الأمور تدريجياً، فتنازل له حمد عن سلطته لهذا السبب و: شعر جمو أن حياته أصبحت في خطر بعد أن تخلى عنه القسم الأكبر من أنصاره فلم يبق «يبيق» أمامه سوى الفرار إلى خارج حدود القبيلة والالتجاء لعشيرة الدكشورية هارباً من انتقام جلبي منه لمقتل حاجو...ص37) .

هذه الرواية تلفت أنظارنا إلى واقعيتها أكثر، من جهة الصراع الدائر داخل القبيلة بالذات، وعلى مستوى درجة القرابة، حيث إن القرب هو الأكثر أهلية ومطالبة للقيام بما يلزم:

جهة الصراع بين حمد أخ حاجو الأكبر وجمو المنتمي إلى القبيلة.

جهة الصراع بين جلبي القريب المباشر لحاجو الثاني، أي باعتباره ابن ساروخان الذي يعد ابن عم حاجو الثاني.

تنازل حمد عن زعامة القبيلة/الاتحاد لجلبي باعتباره الأكفأ، وللتذكير، فإنه جاز أن الذي أفصح عنه بروينسن عن تصريف الزعامة في القبيلة أو الحمولة، أشار عن أن التراتبية ليست شرطاً مفصلياً، إنما قد تُسمّى الزعامة شخصاً من مرتبة أخرى، تتوفر فيه صفات لافطة، من فطنة وشجاعة وعدل، وحنكة...الخ، وسمّى ضمناً «قبيلة هفيركان. ج1، ص 183»، أي كونه انطلق من دراسة ميدانية، وما قاله آنفاً يشدد على ذلك.

ولكن، أهي مصادفة أن برز سرحان فيما اختطه لنفسه خارج المستساغ كردياً في عائلة عثمان، وقد التحق بمجموعة من فرسان هفيركان الفرسان الحميدية، وقد لبسوا الكوفية والعقال وليس اللفة والطاقيّة، كما هو لباس رجال القبيلة

(وبالرغم من هذه التدابير لم يحصل على لقب الباشا أما السبب فإني أجهله. ولكن الملفت للنظر هو التنظيم في ذلك الزمان الذي كان غريباً على المجتمع الكردي العشائري .. ص38)⁽¹⁾.

ربما لو أننا توقفنا عند نقطة النهاية، لجاز القول عن عدم حصول سرحان على لقب «الباشا» لأن خدماته المقدمة للسلطان لم تكن بالمستوى المقبول، ويعني ذلك أنه كان هناك تنافس بين رؤساء بعض العشائر الكردية وليس جميعاً، في كيفية تقديم الخدمات المطلوبة من قبل السلطان، وأن سلوك سرحان نفسه ربما كان محتمماً عليه هذا الفشل، أي لأنه في قرارة نفسه لم يكن ذلك الفطين إلى ما يجري، إنما كان غير مصدقاً، كما لو أنه ينافس من هم في قبيلته ليثبت مكانته، وبصورة خاصة الطرف الآخر من عائلة عثمان، أي: من حسن الأول هذه المرة .

لعل الذي بلغناه من متابعة ومكاشفة وتعرّف يمكّننا من التعمق في البحث، إلى جانب تنامي التوتر الجغرافي بالتوازي مع التاريخي، بالنسبة للکرد، ولهفيركان، وتآلق عليكي بتي الذي يمهّد لظهور حاجو آغا الأكثر شهرة، ومن ثم تعزيز فكرة أكثر قابلية لتحريّ أبعادها الاجتماعية والسياسية، فكرة دولة كردية كاستقراء، ودولة كردية كطرح سياسي حينذاك .

(1) في كتابه: الحركة الكردية التركية في المنفى، المصدر المذكور، يقول جوردي غورغاس (وفي عام 1896 اغتيل حاجو الثاني، وقد اغتاله ابن عم له يسمى سرحان. ص81)، وهذه الإشارة تمثل رواية أخرى، لها صلة بطريقة تتبع الواقعة، وإن كان الجاري، هو أن هناك من يعطي اعتباراً لدقة الرواية، بمقدار ما يعطيها لبنية الواقعة، أي الصراع القبلي أو العائلي من الداخل، كما يظهر.

عليكي بتي: حرب بطل ريفي داخل مدينة مكتومة الأنفاس

«الانتقام مثله كمثل الصفح، أمر شخصي، أما العدالة فليست كذلك، حيث إن القانون لا يتعامل مع أفراد».

تزفيتان تودوروف: الأمل والذاكرة «خلاصة القرن العشرين»، ص 236.

ولادة رمز بطولي كردي :

أن تأتي على ذكر شخص وفي مقام محمود أو حسن دون أن تعرف حقيقة تاريخه، فذلك لا يعدو أن يكون تعبيراً عن درجة الشهرة التي حققها لنفسه، أو ذاع صيته من خلال أكثر من عمل بطولي يكتسب صفة شعبية فعلية حقاً ، في وسطه وخارجه كذلك.

ثمة شهرة شعبية وتاريخية لهذا الرجل، والمعروف بأكثر من صيغة «عليكي بتي/عليك/أليك...الخ»، وكذلك «بطي/بتي/به تي/باطي/باتي...الخ»، ونحن نعتمد صيغة عليكي بتي، وهو ابن أخ حاجو الثاني وابن عم حاجو الثالث الذي يكون ابن حاجو الثاني، وهي شهرة تستند إلى الجانب الإقليمي في شخصه، حيث انتقم لعمه من جمو، كما أنه كان وراء فتح سجن نصيين وإطلاق سراح المساجين، إلى جانب تحدي السلطة المحلية في المدينة والجوار، ليكون بالطريقة هذه نجم هفيركان باقتدار، ومن ثم السبب لكسب الكثيرين من الكرد في المنطقة ليكونوا حلفاء لهفركان، أي من باب التشديد على أن منطق الغلبة، أو المبادرة الذاتية، يمهّد الطريق واسعاً أمام انطلاقة صاحبها، ويرفع من شأنه في أعين الآخرين.

في صفحة مؤثرة تظهر مدى إعجاب بروينسن نفسه «ج1»، من خلال طريقة الكتابة لديه، ولو بشكل مكثف واقتصادي جهة العبارات المنتقاة بالذات، نقرأ صوراً تترجم مما استهلينا به هذه الفقرة (في عام 1896 اغتيل حاجو الثاني بتحريض من زعيم الدكشوريين جمو، فانتقلت الزعامة إلى عليكي بطي وجليي وهما من فرع العائلة الأصغر عمراً. ورغم أنهما كانا على خلاف دائم بينهما، فإنهما جمعا جميع الأفخاذ تحت سيطرة عائلتهما. فواصل عليكي، الشجاع، ذو الجاذبية الشعبية، وبطل القرية الأسطوري، حرب عصابات ضد الحكومة لأكثر

من عشرين سنة، وأقدم على قتل جيمو «جمو» بيديه هو انتقاماً لمقتل عمه. وفي خلال الأيام المضطربة التي أعقبت هزيمة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى، استولى على بلدة ميديات وحاول أن يقيم حكومة مستقلة هناك، وبومذاك لم يكن مسيطراً على الغالبية العظمى من الهفركانيين فحسب، بل على قبائل مجاورة أخرى أيضاً. وتطلع المسيحيون، الذين كانوا قد تعرضوا للقمع على يد الأتراك والقبائل الكردية الأخرى، إليه بصفته حاميتهم، بل إن مقاتلين مسيحيين أشداء أسهموا في ازدياد نفوذه، وفي العام 1919 اغتيل عليكي في ظروف غامضة، فانهارت وحدة القبيلة. (ص 232) .

بروينسن، كما أسلفت، لم يتطرق إلى معلومات أخرى تكون مهمة لمعرفة أمور أو جوانب أخرى من حياة هذا الشخص الشجاع وهو في أوج فتوته، كما في حال طريقة انتقامه من جمو «وما يمكن أن يقال فيها نفسياً»، ومداهمته لسجن نصيبين ورهبته في أعين الحراس ومن في المكان، إلى جانب انتشار صيته في المنطقة، وتحديدأ، في الوسط العشائري وخصوصاً بالنسبة إلى الطرف الآخر من آل عثمان، وهم يراقبون كل صغيرة في هذه السيرة : البطولية .

وفي الجانب الآخر، لا تعدو عبارة «ظروف غامضة» أن تكون تعبيراً عن المناخ البوليسي المتشدد، والسلطة التي هي غاية في المركزية الصارمة، حيث إنها تعتمد أساليب ضغط، وإكراه وملاحقات، إنما تمارس تصفيات بصور شتى، وفي واجهتها : القتل الذي ينسب إلى فاعل مجهول، وهو دأب مختلف الحكومات في المنطقة، حين تتخلص من المعتبرين أعداءها أو خصومها، دون أن تكشف عن ذلك، أو ملابسات الحالة، بمقدار ما تخطط لأكثر من دور لأكثر من جهة في هذا المقام، ومن ذلك، حين تحيل المجتمع إلى قوى متصارعة، فيكون أي عمل إجرامي منفذ من قبل الدولة هذه أو تلك، وقد نسب إلى فاعل مجهول محفزاً للناس لأن يبحثوا في أمر هذا الفاعل المجهول، وأن يتساءلوا فيما بينهم عما يجري في أوساطهم، وتصبح الدولة، وإن كانت أصابع الاتهام توجه إليها، إلا أن هناك أطرافاً أخرى في المجتمع لا صلة لها بالسلطة، توضع ضمن دائرة الاتهام وينسب متفاوتة من جهة إلى أخرى، وقد يحصل ذلك، جراء نزاعات جانبية، أي حين تكون البغضاء والكراهية وتبادل الأحقاد والتصفيات الجان «ية» شغالة في المجتمع، تكون الدولة

الشمولية، والتي تمثل مجموعة محدودة في المجتمع هي المستفيدة الأولى في ذلك، وتحرص على تنمية مؤثرات هذه الصراعات.

البحث عن أعداء دائمين :

دون أن ننسى دلالة عملية النيل من أحدهم، بطرق عنف بليغة، كما في تركيا بالذات، وتجاه الكرد، وقبل قيام جمهورية «أتاتورك» التركية بالذات، على جانبي الحدود، وفي مناطق مختلفة، ناحية إبقاء الجثة مكشوفة أو وهي عرضة للصواري والتفسخ وتهديد كل من يقترب منها بالقتل، وتحديدًا في الشريط الحدودي المغموم، كما يمكن تتبع ذلك في كتب كثيرة، ومن ذلك ما أثاره لالش قاسو في روايته الكردية «ثلاثة أيام بلياليها» إزاء حالات كهذه، وما أودعته الباحثة الكردية أصليخان يلدرم عن مشاهد مرعبة كهذه، في كتابها الكبير «كردستان والحدود في القرن العشرين»، أما عن المفكر التركي اسماعيل بيشكجي، فيصعب وجود كتاب له، دون التطرق إلى أوجه إرهاب تجسدها الدولة التركية، أو تلجأ إليها الحكومات التركية المتعاقبة، كوريثة «شرعية» لسلطة عثمانية وقد قلصتها تناسبها مع سياسة التتريك فيها.

لقد حاولت تعقب خيوط هذه الشخصية التي امتزج فيها التاريخي والحكائي، العلمي والفولكلور الشعبي، ولا شك أن ذلك من البدايات، لأنها من حيث البنية أو النشأة، ربما تكون صالحة لحمل مثل هذه المقومات المختلفة، وفي الوقت الذي يمكننا العثور على أكثر من مسوغ واقعي، يشدد على ما كانت عليه، فهي، وإن كانت من لحم ودم، إلا أنها، وجرأ خلل واقعي، على مستوى تردّي الأوضاع، وحجم الضغوط على الناس، والكرد كنموذج، حي، كان هناك انتظار لمن يمكنه تمثيل همومهم، أوجاعهم، الآلامهم وآمالهم، وبطريقة تعينهم في تحررهم من أثقال الواقع، أو جعلها أخف.

وأن يكون التصوير مبالغاً فيه، فربما لأن الذي يعيشه المقهورون، لا بل والمهدورة قيمتهم بأكثر من معنى، لا يجدون غضاضة في نسج شخصية تتناسب وقسوة ما هم عليه، بمعنى أن المبالغة في وضع كهذا، لا تعدو أن تكون تقريراً حياً عما هو مبالغ فيه جهة وطأة الأوضاع، أي: ما كان يجب أن يحصل عنف بالمنوال الذي يتهدد حياة الناس في الصميم.

لعل التصوير الشعبي، كما سنرى في أكثر من مثال فني «غنائي عن عليكي بتي» هنا، يمثل صورة فاعلة، وأحياناً تكون أصدق من أصدق رواية تتسب إلى التاريخ، لما

لهذه من صلة مباشرة بطبيعة الراوية ومغزى روايته ومنحائها، سوى أن الأغنية التي تسمي شخصاً، بطلاً، طرفاً معيناً، ودون تحديد واضح الكلمات بجلاء، تصبح التسمية محررة من المسألة التاريخية ذات الصبغة العلمية المعتادة، أي استنطاقها عما إذا كانت صائبة، دقيقة، أم لا، إنما العمل يتم من خلال نوعية التسمية، وكيف تشكلت هكذا، وماذا تمثل بمفهومها الفني ومداه المعنوي، وبعدها الجمالي... الخ .

وعليكي بتي ليس شخصية شعبية، كما يُسمَع عنها هنا وهناك، بمقدار أنه شخصية تاريخية قبل كل شيء، وثمة وقائع مسجلة باسمه، وأناس عاشوا حرارة هذه الوقائع وتوتروها، ثمة أناس كانوا معه عن قرب، وقاوموا العثمانيين وحتى الأتراك وهم في تعددية لغاتهم ومعتقداتهم: كرداً، سرياناً، أو مسلمين، مسيحيين، إيزيديين، وهناك وثائق تتحدث عنهم كذلك .

وهذا الأمر، بمقدار ما يضيف على البحث جانباً من الإثارة والتشويق، أو الفضول، لمعرفة هذا المزج، وحدود التلاقي بينهما، أو نوع الفصل القائم بينهما أيضاً، وبالترافق مع المعلومة التاريخية التي تركز إلى أحداث، وشهود عيان، ومن كانوا في الأمكنة التي تواجد فيها عليكي بتي ومن معه، وخاصة رفيق حياته البطل السرياني شمعون حنا، أو شمووني في بعض الروايات، وما لذلك من أثر في نفوس من غنّوا ومن أصغوا، ومن اهتموا بوقائع كهذه، ومآلاتها كذلك .

وأحسب، من خلال قراءتي التاريخية الخاصة لواقعة الشخصية، أن متابعة مركبة من هذا النوع، تفيد الباحث التاريخي في أمرين :

كيف يتدرب على فك رموز التاريخ، ويصل فيما بينها، ويرتقي بمستواه المعرفي : الأرشيبي إلى ما هو أفضل .

وكيف يعيش حرارة الكلمة وقد انسابت بمَعْلَم وجداني، تذوقي، وهي توسّع دائرة المتخيل، ورؤيا العالم خارجاً .

ذلك ما ينطبق على الشعوب المحرّمة من لسانها: لغتها، ومن صوتها وهي تقرأ بلغتها، ومعدّبة من سلطة غاشمة، أو واقع مشهود له بعنف متعدد الأبعاد، وفي كل ذلك يكون امتحان المؤرخ والباحث في التاريخ معاً، أو على انفصال .

ومن جهة أخرى، فإن الحديث عن البطل بمفهومه الشعبي، إلى جانب مفهومه التاريخي، يتطلب بعضاً من التحري في تلك الوشائج بينهما، وكيف يمكن للبطل

التاريخي نفسه أن يصبح بطلاً شعبياً، أو ينتقل الأخير إلى مصاف الأول، أو يجمع في لحظة ما بين خصلتين، أي توأم المفهوم الواحد، حيث السياسي يلتقي بالاجتماعي الشعبي، وتحديدًا بالنسبة للشعب الذي يفتقر إلى التاريخ الذي يعنيه أساساً، أو يتلمس فيه حضوراً يحمل بصمته، بمقدار ما يدرك أن المدون يعنيه حقاً.

أي حيث يكتسب التراثي ما هو أبعد من المتعارف عليه لدى آخرين يسهل التمييز بين تاريخ معرف به، وله علاماته، في مجتمع معرف بدولة أي كيان سياسي وحدود، وهنا: كردياً، لا يكون هذا الشيء متوفراً، وذلك من شأنه اعتماد آليات تعبير عن الذات بمفهومها القومي والإنساني بغية التعويض، كما لو أن التاريخي يتوسل الشعبي ليمتص منه ما يلزمه ليكون في مستوى المأمول، أي ما يجعله تاريخاً، وإن كان يتطلب وقتاً كافياً، ليعرف كسابقه باسمه بدوره، وهذا يحتم علينا ألا نطلق القول/الكلام على عواهنه لحظة اقتباس كلمة، عبارة، مقطع من مصدر ما، دون التأكد في مدى قابلية النص الذي نشغل عليه، أو يعمل به لامتصاصه، أو هضمه «اجتيافه» بالمعنى النفسي، واستحالاته بعضاً منه .

الكرد المهمشون وليسوا مهمشين :

أحسب أننا في الوضعية هذه، نتحدث عن أولئك الهامشين في التاريخ، والمحسوبين مهمشين وسطحيين على قارعة طريق المجتمع، ولم يكتسبوا بعد شهادة حسن سلوك ليكونوا أهلاً بالدخول إلى التاريخ والمجتمع والثقافة بوجوههم الفعلية، أي اعتبارهم طارئین بأكثر من معنى (يتم تعريف الهامشين بالنسبة إلى المجتمع المهيمن بصورة سلبية: إنهم ممن «ليس له مقر دائم»، وهم «يوجدون في كل مكان»، وهم «ممن ليس له اعتراف»، و«وهم ممن لا يصلح للعالم»)⁽¹⁾.

والكرد من خلال أدوارهم التاريخية، وإلى يومنا هذا هم في سعي دائم أو دائب لأن يكونوا في الجانب الآخر من التاريخ، أي غير هامشين، وهم يعرفون بأنفسهم مقصيين عن التاريخ، أو محرومين من هوية تعنيهم تاريخياً، كما لو أن

(1) مقال تاريخ الهامشين Marginaux، لجان كلود شमित، في كتاب التاريخ الجديد، تأليف جماعي، إشراف: جاك لوغوف، ترجمة وتقديم: د. محمد الطاهر المنصوري، مراجعة: د. عبدالحميد هنية، منشورات المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007، ص 467.

أي صوت يلفت النظر وهو محمّل بنبرة شجن، أو صرخة قهر، كما يقال، لأهله، ناسه، شعبه، خطوة صوب الأخير.

في شخصية عليكي بتي يمكن المضي بالاسم إلى نقطة بعيدة في أفق الرؤية، وفي محيط جغرافي متداخل بقواه الحية .

إنها القوى التي لا تتفصل عن محيطها الاجتماعي، مثلما أنها حصيلة مجموعة من العلاقات غير المتناغمة، جرّاء كان هذا الظهور لاسمه كما يعرف به الآن، بدءاً من عائلته بالمعنى العام لكلمة «عائلة عثمان»، وموقعه داخل عائلته باعتباره ينتمي إلى حسن الأول، وصراعه مع وسطه الاجتماعي والعشائري، ومن ثم مع الدولة، وهي عبارة في بنيتها مجموعة مؤثرات مزوبعة، إن جاز التوصيف، أي متعددة الاتجاهات، متداخلة، ومتشابكة كذلك .

ولا بد أن تحرّي أصول شخصية بمفهومها البطولي، ومن خلال معاينة وسط اجتماعي بالصورة السالفة، قد يضعنا إزاء حقيقة ذات صلة بموضوعنا الفرعي هذا، وهو أن عليكي بتي كشخصية تاريخية وشعبية نتاج تناقضات تمتد ما بين الحد الأدنى من الوسط الاجتماعي الضيق الذي كان يعيش فيه، والحد الأقصى من المجتمع وهو في تنوع اثنياته، وما فيه من تجاذبات سياسية واجتماعية وسياسية، وعوامل نفسية.

لقد قال غوستاف لوبون ذات يوم عن أنه (لولا الحروب الأهلية في رومة لاستحال ظهور القياصرة ..)⁽¹⁾، ولعله في قولته الذكية هذه، مايفيد في إنارة هذا الجانب الدقيق، أي اعتبار عليكي بتي حصيلة واقع من النوع الذي نوّه إليه، وهو ما سنحاول التعرض له، وكيف أنه مثّل الخطوة الرئيسة في لفت الأنظار إلى هفيركان، والشخصية الكاريزمية الطابع، والتي- بدورها- شكّلت تنويراً لحاجو الثالث، أو تحفيزاً له ليخطو إلى الأمام بصورته المعروفة كسياسي .

يقول جويده في إشارة منه إلى تداعيات نهاية الحرب العالمية الأولى، وتأثيرها على الكرد عن أنه (كان توقيع الهدنة في مودروس عام 1918 إشارة لانفجار نشاط الحركة القومية الكردية في تركيا . لم ينجم هذا التطور عن جهود القوميين الكرد

(1) لوبون، غوستاف: فلسفة التاريخ، نقله: عادل زعيتر، دارالمعارف، مصر، 1954، ص 11.

الذين عادوا من المنفى أو الإقامة في تركيا فحسب، بل من الدعم التركي النشط أيضاً⁽¹⁾.

قول يفصح عن أن نهاية الحرب هذه نبّهت الناس إلى مرحلة جديدة، ولزوم التحرك بتصورات وأفكار جديدة، حيث إن الدولة العثمانية التي كانت تضم داخل حدودها أعرافاً وثقافات ولغات، قد انهارت، وتشكّلت دول على إثرها، ليجد الكرد أنفسهم، من ناحية في عراء التاريخ، ومن ناحية أخرى، محط أنظار العالم، ومهب المصالح الدولية بالمقابل، ولا بد أن وضعاً جديداً كهذا كان يفصح عن غليانات جرت قبل ذلك، وأن الهدنة السالفة الذكر ثبتت جرائها.

ربما توضيحاً لما تقدّم، يقول جويده مجدداً (في كردستان الشمالية، وسريعاً بعد توقيع الهدنة، أخذت الحركة القومية الكردية شكل اضطراب واسع النطاق. قيل إن الحركة نظمها وأدارها المسؤولون الترك ذوو النفوذ وأعضاء جمعية الاتحاد والترقي بهدف إحراج الحلفاء. إذ يتقدّم بأن علي إحسان باشا، القائد السابق للجيش التركي السادس، كان منظم الحركة الرئيس في المناطق الواقعة شمال المنطقة المحتلة البريطانية، وقد اتضحت نتائج تلك النشاطات سريعاً. ففي كانون الثاني/يناير، عام 1919، جاء في التقارير أن أعضاء جمعية الاتحاد والترقي الذين كانوا في خاربوط حتّوا الكرد على المطالبة بالاستقلال في مؤتمر السلام. وفي الوقت ذاته تقريباً، يبدو أن علي إحسان باشا انخرط بنشاط في اضطهاد العناصر المعادية للترك في ديار بكر ومناطق أخرى. يقال إنه حرّض قبيلة البرازي في منطقة سروج على مهاجمة قبيلة الكيتكان بسبب موقفها المؤيد للبريطانيين،⁽²⁾ أنه سجن أحد رؤساء قبيلة القرقليلي).

برج بابل كردي :

ولعلي أرى في هذا المشهد المركّب ما يشدد على هذا المقام «غير المحمود» بالنسبة للكرد، والبلبلّة التي شملت جلهم، بمقدار ما دفعت بهم في اتجاهات شتى، لحظة النظر في القوى الكبرى وتلك التي تأتي في المرتبة الثانية بعدها على الأرض، إلى جانب تلك التي تشكّلت أو شكّلت في إطار أنظمة سياسية حديثة ضمن دول

(1) جويده، وديع: الحركة القومية الكردية «نشأتها وتطورها»، المصدر المذكور، ص 325 .

(2) المصدر نفسه، ص 328 .

معترف بها، وحدود سياسية أحالت الكرد في مجموعهم العام فيما بعد إلى أقليات أو حتى ما دونها داخلها حال تركيا، إيران، العراق وسوريا، ولا غرابة في الحالة هذه أن نجد الكرد كما لو أنها في سفينة «تيتانيك» من نمط خاص، تتلاعب بها أمواج محيط عاتية، حيث المؤثرات الدعائية المتضادة، ومسعى كل جهة سياسية غير كردية، إلى جانب القوى الاستعمارية، إلى تشتيت شمل الكرد، وكذلك إلى الدفع بهم لأن يتحولوا إلى شيع وأطراف منقسمة على نفسها: بعض مع هذه الجهة، وبعض مع الجهة المقابلة، وبعض يبحث عن جهة ثالثة، وبعض في وضع حرج وهو في مفردة، وبعض محدود يحاول الاعتماد على «ظله» ولفت أنظار الآخرين إلى وجود لعبة متشكلة من الجميع لإنهاء كل وجود قومي للكرد .

ربما كان عليكي بتي نفسه متأثراً بهذه المناخات، وخصوصاً جانب الدعاية العثمانية الموجهة بتأثير من الاتحاد والترقي، في مواجهة المعتبرين أعداء المسلمين، وهم غاصبو أرضهم، والمطلوب هو الوقوف في وجههم، أي دفاعاً عن تركيا، حيث نتحدث حتى الآن عن المنطقة تلك، وبدافع ديني، إيماني، والزعيم بأنها وطن الجميع، وهي السياسة التي لم يدخر مصطفى كمال باشا/أتاتورك جهداً في استثمارها لمعرفته الكاملة بأنها خير وسيلة لجعلهم طوع أمر مخططة التركي!

والذي لا يشك فيه، أو هكذا أرى مجدداً، هو أن عليكي بتي من النوع الحساس والمتنبه إلى الطابع الانقسامي في محيطه، وتجاه أقرب المقربين منه، على الأقل من ناحية كيفية تأكيد الذات، كما هو المطلوب للزعيم في أن يكونه ويستمر به .

عليكي بك كشخصية متمرسية، كما يظهر، قبل أن تخوض غمار هذه المجابهة مع الذات: كيفية إثباتها قدرةً وقابلية مرونة، وانفتاحاً على الآخرين، ومع الذين يعرفونه عن قرب، وهو محل ثقتهم، وما تعنيه الثقة هذه أحياناً، لأن يكون أكثر مما هو كائن، أي بما يتجاوب وصورة الرغبة المستحيلة أحياناً، أو الصعبة التحقيق، استناداً لوضع مأسوي يعينهم، وتجاه الذين يعرفهم ويعرفونه كذلك، سوى أن بينهما عداوات، أو متابعات دقيقة، حيث انتهاز فرصة النيل: كل منهما من الآخر، على مدار الساعة، وفي مجابهة الدولة وأعوانها، وهي النقطة الأكثر ثقلًا وتكلفة وإقلاقاً للبال، ولا بد أن هذه الأمور مجتمعة تستدعي المزيد من الطاقة واليقظة والحسابات التي يُدقَّق فيها من قبل من أتينا على ذكرهم، أي

حين تتحقق الشجاعة الخاصة كمصير وحيد، وواحد لا مفر منه: إما- أو، وهي المشكلة الامتحان الدائم للنفس في معرض التحدي خارجاً .

في فقرة تواجهنا بتلك المصالح المتباينة، على مستوى الجماعات المحلية، والدول وأتباعها، وهي «محاولة لتشكيل مقاومة ضد القوات البريطانية بين الكرد» يشدنا جويده إلى مكاشفة بؤرة توتر جغرافية تمتد في اتجاهات مختلفة ، أي على خلفية من الهدنة المأتي على ذكرها، حيث أورد مجموعة من المقتطفات الواقعة على خط الرؤية السياسية نفسه تقريباً، وموقع الكرد فيها (في هذا الوقت، قاد الحركة الكردية في ديار بكر بلا شك علي بك الذي شكّل حزباً من أجل «الاستقلال التركي- الكردي».. ص 329.. وبغية مقاومة الاحتلال الأجنبي، أطلق سراح كل من محمود بن ابراهيم باشا ، شيخ قبيلة المللي الأكبر، وعبدالقادر بن درعي، رئيس قبيلة القرقشلي اللذين كانا في السجن بتهمة عدم الإخلاص للحكومة... وعرضوا مساعدة لشيخ قبيلة المللي: إذا وافق على قيادة قواته والقبائل المجاورة لدفع الحاميات البريطانية إلى خارج أورفا وعبر الفرات . ص 330 .. وقد دعم شيخ المللي. ص 331.. وثمة من لم يلب نداء الأتراك.. ص 331... في هذا الوقت تقريباً، قيل إن علي بطي، رئيس قبيلة هافركان، التقى مع عبدالرحمن، رئيس قبيلة الشرنخ، ورمضان رئيس قبيلة صالحان، وتوصل هؤلاء القادة الكرد الثلاثة إلى اتفاق على مقاومة التقدم البريطاني التالي.. ص 331)⁽¹⁾.

جدل الديني - القومي :

هنا نتلمس ما يفضي بنا إلى الاختلاط التقديري للعقل حيث التشابك بين بين الديني: الإسلامي، والاثني: الكردي، أي ما يبقى الاثنية خلف الديني، وبالمقابل ما يضيء ارتباك المعاش لما هو جديد : من يكون العدو؟ رغم أن العدو حتى الأمس القريب جداً كان هو هو: الباب العالي، وما يمثله على الأرض سياسياً واقتصادياً وعسكرياً، وليكون العدو المشار إليه، والذي يجب تحديده هو الخارجي، وما في ذلك من إشكالية أخرى، ولو أنها متممة للإشكالية السابقة: الداخل والخارج، حيث الداخل أقرب إلى صورة الذات، وطمانينتها، أكثر أهلية للتعامل معه، لأنه مألوف، خلاف الخارج وخوف المخبأ فيه، وهي الإشكالية المزمنة التي تستمر إلى يومنا

(1) المصدر نفسه، وقد وردت أرقام الصفحات في المتن للإيجاز .

هذا: وحدة الداخل، بزعم مقاوم الخارج الذي يعتمد سياسة فرق تسد، مع العلم أن الداخل كثيراً، ومن خلال الملموس، يعتمد هذه السياسة أكثر من الخارج من جهة، وأنه يمهّد للخارج من جهة ثانية، بالإضافة إلى أنه يلح عليه لأن يبقى في الواجهة المرئية لإلهاء الداخل، وعدم التفكير بما يجري ضمناً.

لهذا، تبدو الدولة ككيان سياسي في غاية الغموض والالتباس، من ناحية من تمثّل، ومن تعبّر، ومن تسمّي أيضاً، لأنها في واقعها العملي ملحوظة في حدود وعلاقات وأجهزة أمنية ولغة سائدة، أو تعليمية وقوانين وضوابط مرعية، وهي في جوهرها لا تتجاهل من يكون الأقرب إليها، ومن ناحية من تريد التشويش على وعيه والمكر به قولاً وفعلًا.

هنا أجدني مستدعياً مثلاً حياً ضارباً بأثره في التاريخ الكردي وهو مصرف لصالح أعدائه، أي قبل خمسة قرون، أعني بذلك ما تردد عن إدريس البدليسي وما أنجزه لصالح السلطان العثماني سليم الأول، حيث نقرأ في كتاب يعنى بالتاريخ ومقام الكرد فيه انطلاقاً من ديار بكر «وليس آمد» من جهة الدلالة، وما ينبغي على الكرد أخذ العلم به طبعاً (كانت ديار بكر من أهم القلاع والمدن الواقعة في جنوب شرق الأناضول وكانت كغيرها من القلاع واقعة تحت الحكم الصفوي. ويرسم المؤرخ العثماني خوجه سعد الدين أفندي صورة عن أوضاعها في هذه الفترة قائلاً: وكانت هذه المنطقة معظم سكانها من الأكراد وكانت الأقوام الكردية يعجبهم العيش متفرقين وباستثناء كلمة التوحيد لا يتفقون في أي موضوع... وبعد معركة جالديران مباشرة جنّد السلطان العالم والمؤرخ الكردي المشهور إدريس البدليسي لإخضاع المناطق الشرقية والجنوبية الشرقية من الأناضول للدولة العثمانية. وكان إدريس يعمل كاتباً في ديوان دولة الأقيونلي قبل أن يسيطر عليها الصفويون. وبعد معركة جالديران دخل في خدمة الدولة العثمانية، وسعى إدريس بكل ما أوتي من قوة للقيام بهذه المهمة. وفي بادئ الأمر تمكن من إقناع أمراء بعض الأقاليم بالخضوع للسلطان العثماني. ثم التقى بحاكم صوران الأمير سيد بن شاه علي وأخضعه للسلطان ورغبه بتخليص بلاد أربيل من أيدي الصفويين. كما كسب الأمير سيف الدين حاكم العمادية وابنه الأمير سلطان حسين إلى العثمانيين وقدم له الهدايا التي أرسلها السلطان إليه. وتمكن إدريس في نهاية المطاف من كسب 25 أميراً من أمراء الكرد وبضمنهم أمراء جزيرة عمر وحسنكيف وسعد وتبليس وحيزان وأخضعهم للدولة العثمانية. ولم يكتف

الأمراء الأكراد بإعلان الولاء للسلطان العثماني بل سعوا إلى تصفية الحكم الصفوي في المنطقة واستبداله بالحكم العثماني... علاوة على هذا كان عالماً فاضلاً معروفاً بين الأكراد بشخصيته الفذة وقدرته على التأثير والإقناع، ومن هنا جاء اعتماد السلطان سليم عليه في تنفيذ ما عهد إليه....⁽¹⁾.

أترى واقعة جغرافية وتاريخية كهذه، بقبالة لأن يُذكر بها دون المزيد من النظر في بنيتها؟ وكيف ينبري رمز كردي، وعلى خلفية من شاهد تاريخ وهو علم تاريخ ليس كردياً، يتحدث عن الكرد أو يصفهم بما يحيلهم إلى العرّض التاريخي؟ أي ما لا يجدر النظر في أمره، لأن التاريخ لا يشار إليه إلا لأن فيه ما يستحق النظر، أو ما يستحق تنسيبه إلى التاريخ، كقوة رمزية تفرض نفسها، وهي من حيث القيمة تعلّمنا، إن أردنا العلم حقاً، وبغض النظر عمّن نكون ما لم نعلم، وتحديدًا في سياقات انحدارية كهذه .

لقد أحسنت الألمانية حنة أرندت صنيعاً بقولها عن أن (مهمة السياسة وغايتها تتمثل في ضمان الحياة بالمعنى الواسع للكلمة)⁽²⁾، لكنه الصنيع الذي يحثنا على تنويره من الداخل، وهو أن هذه المهمة تكون هكذا، عندما تكون الحياة المعنية مسمّية أناساً يستطيعون تقبل هذه المهمة، لأنهم تخصصهم جميعاً، وليس في أنها تحجم البعض، وتلجم البعض، كما أنها تبقي الطريق مفتوحاً إلى آخره للبعض، وهذا ما يقرّبنا من جغرافيا المنطقة، وكيف تعيش السياسة غيابها، بؤس اختزالها .

في العودة إلى المتداول عن عليكي بتي، وما يكونه رد فعله في كل مستجد أو خطوة، نجد حضوراً لهذا المتضعع: مفهوم السياسة، وكيف أن العنف، لا بل والدامي والكارثي والمأسوف عليه كذلك، ينخر في ذاته بأكثر من معنى.

عليكي بتي جكرخوينيا :

كيف تكون رواية جكرخوين في مصدره المذكور عنه؟، ثمة ما يحثنا على السير وما يستوقفنا بالمقابل:

(1) بيات، د . فاضل مهدي: دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني «رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية»، دار المدار العثماني، بيروت، ط1، 2003، ص 19-20-21.

(2) أرندت، حنة: ما السياسة؟ ترجمة وتحقيق: د. زهير الخويلدي - أ. سلمى بالحاج مبروك، منشورات ضفاف- الاختلاف، الرباط، ط1، 2014، ص 34.

إن رواية جكرخوين تسلك مسلكاً آخر، أي خلاف الروايات الأخرى كما رأينا سابقاً، وكما أنها في بنية تشكّلها تثير ظنوناً أكثر في الوقت نفسه، حول كيفية نسجها وتدوينها، وما يكونه الشاعر في تعامل مع هذا الاسم «هفيركان» وهو يشير إلى أن الهفيريّين كانوا ينتظرون فرصة الأخذ بالثأر من قاتل رئيسهم (وفي أحد الأيام وقف علي ابن بطة أو علي بطة- أحد أبناء عمومة حاجو- مع بعض الرجال في طريق جمو وقتلوه وابنه حسين وأخذ بثأر عمه .

يقولون: قال علي وهو فوق جسد جمو:

أنا فرخ الكبش يا جمو، وأقتلك وهذا ثأر لحاجو!

لكن جمو قال له: لقد همرمتُ ولا أصير ثأر حاجو، لكن إن كنتم قتلتم ابني حسينا أيضاً، فقد أخذتم بثأر حاجو.

قال علي له: افتح عينيك لترى جثة ابنك أيضاً وليطمئن قلبك.

أغمض جمو عينيه وقال: إذا أخذت بثأر عمك، وصحيح أنك فرخ الخروف، لكنك لست- والله- ابن الكبش، فوالدك ليس جديراً بأن يكون كبشاً .

«وفيما بعد يشير جكرخوين إلى معتمر العمامة» والخضرة مقدسة»، ويستجيب له: وعم الخبر البلاد وهو أن علي بطة أخذ بثأر حاجو، ومنذ ذلك اليوم اشتهر علي. ص 49) .

أولاً، لا ندري من كان في المكان لينقل إلينا رواية كهذه، هل كان لألسنة الناس واختلاف لهجاتها الاجتماعية دور في هذا الذي نسمع به ونقرأه؟ هل يُعقل أن بتي هو من يمكنه أن ينشر بين الناس رواية كهذه؟ أي نص حوار ساخن، استفزازي كالذي تقدّم؟ وأي عبرة في مجابهة مميتة في النهاية، وبتي كان متحمساً لقتل قاتل عمه؟

وبالترافق، ماذا عن رؤية لابس الأخضر في المكان؟ وهو ذو معنى ديني، وربما استلهامي. هل أفصح بإدخال هذا المشهد الفرعي الآخر عن خلفية خيرة لبتي، لتكون نهاية جمو وولديه كما علمنا بها سابقاً؟

بين المشهدين الفرعيين، ثمة أكثر من حافز على المساءلة أو الاستفهام، ثمة حاجة إلى عدم ترك أي مشهد كهذا أن يثبت أو يأخذ موقعه في سياق النص دون تمحيصه أو استنطاقه من خلال مجموعة من المقاربات النقدية، أو التروي والتدقيق.

في رواية جكرخوين، وحتى الآن، يظهر جمو، في موقع المستهزئ بمصيره، وهو يشير إلى أن الذي يحدث لن يغير في بنية ما قام به، وهو أنه ذبح حاجو الثاني، إلى جانب أنه كان متمالكاً نفسه من الداخل، ويستفز بتي، ودون أن ننسى أن بتي نفسه في موقع الضعيف أو المهزوم، وهو يشدد على هذه العلاقة ذات المآثرة التاريخية «العائلية» في المتن .

تُرى هل كان جكرخوين يتوارى وراء هذه الرواية، وكونه راسماً موقفاً سلبياً من الآغوات والبكوات والباشوات... وضمناً آل حاجو؟ أي ما يدفع بالرواية لأن تكون رواية تاريخ موثقة، وليس من سقط المتاع ، أي بما أن الرواية لا تستند إلى رواية باسمه، أو يمكن الاهتداء إليه، كما في «يقولون»، ولا ندري من هم هؤلاء، وأين كانوا حينها .

وربما بالصورة المختلة ذاتها، يمكن تلمس غياب هذا البعد الثالث «العمق المطلوب»، في الرواية المتعلقة ببتي وهو يغير على سجن نصيبين، ويفتح بابه على مصراعيه لجميع المساجين (من المعروف أن «عليا» كان يريد أن يتدخل في شؤون الأومريين بحجة أسرة عثمان آغا، وأن عزالدين وعليا التقيا ولم يكن بينهما وئام. والتقى علي وأحمد سليمان فيما بعد أيضاً ولم يكونا على وئام. نزل علي إلى نصيبين وحطم باب السجن وأطلق المساجين كلهم. وفي اليوم التالي طوق جنود الأتراك المدينة. جعل علي وجهاء المدينة أمامه وخرج من المدينة. وعندما وصل إلى وسط الهفيركيين تعقبته نجدة الأومريين والدكشوريين والهساريين مع جنود الأتراك، وبدؤوا بالنهب والحرب، وقد قتل علي في أثناء الحرب وانتهت هذه الحرب. لكن بعد هذه الحرب دخل بيت عثمان قرية «جالي»، وجرح أحمد سليمان ولجأ إلى محمد أحمد اسماعيل ثم عادوا إلى جالي وأخرجوا بيت عثمان من القرية... ص 83).

إن هذه الجملة التي يبتدىء بها القول، وكما هو القول المكتوب هنا، تفصح عن أن الذي تعلمنا به يعلم به الناس جميعاً، ومن خلال «من المعروف»، وأن الإتيان على واقعة مقدمة وهي تخص بتي وتدخله في شؤون الأومريين، في واقعه ليس لصالح بتي طبعاً، لأن ثمة عدوانياً في التركيب، وأن ما تلا ذلك يؤسس لضروب من العداء القائم، أي ما يزيّف الواقعة البطولية المسندة، والمتغنى بها في وسط جكرخوين بالذات وأبعد، كتاريخ من نوع آخر، دون أن تغفل عن حجم الفوضى المستحدثة وإرعاب الناس والنهب ومن ثم المطاردات، وهي في مجموعها ليست لصالح أي سمعة حسنة له.

اللافت هنا أيضاً، واعتماداً على الاقتباس، هو أن مجموعة المنتمين إلى العشائر المذكورة، وبينها «هسارى، ولا أدري هل هي عشيرته أم لا»، تتداخل مع الجنود الأتراك، وهذا يخل بمفهوم المشهد المنسوج من لدن شاعرنا .

في واقع الأمر، لم أتمكن من العثور ولو على «علامة/درجة واحدة، من أصل عشر» يمكن تسجيلها في ورقة سلوك بتي بصدد دخوله إلى نصيبين وهو دخول اقتحامي، ولا محاولته إطلاق سراح المساجين، لأن ما قبل هذه العملية، وما بعدها ثمة مناخ سديمي يحول دون الرؤية السليمة، والارتياح للذي قام به بتي، أي باعتباره عملاً بطولياً، وكونه لم يأت على ذكر جنود أترك لم يتمكنوا من مواجهة بتي، كما يقتضي التنويه إلى ذلك، أتراها واقعة سهو حقاً ؟

صحيح أن جكرخوين يكتب سيرة حياة، لكن الذي يضمّن السيرة هي أسماء أشخاص ووقائع، وهي تتفاعل مع بعضها بعضاً، وثمة مساءلة عن مدى الإخلاص لما هو تاريخي، أي كونه برز أميل إلى تحوير الوقائع والتعتيم عليها .

وجهة أخرى طبعاً :

نقرأ في رواية تظهر ملتقطاً بصورة أكثر إخلاصاً للواقع، يرويه من يحمل اسماً حركياً «شرفخان جزيري»، يقول المطلوب هنا (عندما تتدلح الحرب في «تاتى»، حينها كان عليك في بيت حاجو جنوب الخط «binya xetê»، فترسل عائلة عثمان آغا من يبلغ عليك، لكي يأتي لنجدتهم ، فيستعد عليك في الحال، ويجهّز معه حوالي مائة من الرجال، فيتجه بداية إلى نصيبين، وهناك يتجه بداية أيضاً لملاقاة قائممقام نصيبين، وعندما يجالس القائمقام، تتجه إليه امرأة من «طور»، وتخطبه من بين مائة رجل «ابني في سجن نصيبين، وأنا وحيدة، وفقيرة. فإن لم تستطع إخراج ابني من السجن، ليكن وشاحي على رأسك» لتكن بمنزلة المرأة». على إثر سماع هذه الكلمة يثور عليك، وبغير على سجن نصيبين، حيث يطلق سراح المساجين، وبعدها يتجه إلى وسط أومريان. وقتذاك، كان في صحبته شمووني حنا الرجل المسيحي المقدام والذائع الصيت، حيث كان هدفهما: نجدة عائلة عثمان في تاتى. وقد تغنى المطربون/المغنون بهؤلاء الأبطال بالمقابل، والذين كانوا يخوضون حرب تاتى أخبروني عن أن كل واحد من رجالات عليك كان يحمل معه خرطوشين من الرصاص، وهو عدد ليس بالكثير في حرب كبرى... الخ⁽¹⁾.

(1) جزيري، شرفخان: سيرة حياة جكرخوين، مجلة «Nûdem»، العدد « 18 »، 1996، ص 111.

ذلك ما يمكن التعرف إليه من خلال الواقع الملموس، أي إمكانية ورود ذلك، لحظة معرفة صيت بتي في الوسط الكردي، أو ضمن رقعة جغرافية كان لبتى حضور مميز فيها .

واللافت، كما نوهنا سالفاً، أن جبو يقتبس من جكرخوين الكثير ودون حساب، حيث إنه في بعض الحالات يورد معلومات توحي بأنها من صلب رواية جكرخوين، أو تدعم بوجهة نظره في الصميم، لكنها ليست كذلك، في محاولة من مؤلف «سلاطين هفيركان» على تقديم مشهد حركية أكثر إثارة، أو قابلية للتعامل معه، إلى جانب الأخذ به أيضاً، بمعنى آخر، يظهر الشاعر في موقع غير محسود عليه، كناثر، وهو ملحوظ طبّاح حكايات غاية في المفارقة، لكن «كتافتها» تفسد «الطبخة» كثيراً، بمقدار ما تشهد على افتضاح محتواها جرأً ذلك .

ربما هناك خلل في الرواية جهة الدقة في هذا النص، عندما يمعن فيه النظر من زوايا مختلفة، أو استناداً إلى تقدير مركّز على وجود ثغرة ما، وتحديد نوعية العلاقة، أي باعتبار بتي ابن أخ حاجو الثاني، ومن جهة أخرى، يغيب في مقتبس جبو الرجال الوارد ذكرهم في المقتبس السالف، ومن ثم فإن حواراً كهذا لا يخفي طابعاً من المسرحة للحدث، في غياب شهود العيان، كما لو أن هناك من يريد وضع القارئ في نطاق عملية مناظرة أو تقابل بين حدثين ساخنين .

فما دار بين بتي وجمو، والذي يثير تساؤلاً حول صحته، وتحديدًا بالنسبة إلى جمو إذ يطالب بتي بقتل ابنه ليكون الثأر متوازناً، وما في هذا الطلب من استغراب «كأنه حاضر هناك بشحمه ولحمه»، يذكّرنا بما تردد من قول بين كل من حاجو الثاني وهو يتعرض للقتل ذبحاً وجمو قاتله، ففي كتاب جكرخوين أشير إلى أنه عندما قطع رأسه من قبل جمو أخطأ في استعمال الخنجر (لكن الآغا قال له: يا ضرطة! إن الأكباش تذبح من الخلف: الرقبة، أيقطع الناس مثلك رؤوس الرجال الأفاضل... 9... ص 72).

هذا المشهد أوردناه والمبتغى هو ربطه مجدداً بما تقدّم، لكي يكون في مقدورنا التقدم إلى «الأمم»، أو صوب نقطة أخرى في هذا المضممار التاريخي غير المستقيم طبعاً، وذلك يستدعي منطق التاريخ في ملابسة مشهد ساخن كهذا، وكيف جرى تركيبه، أو للنظر في حقيقته. إلا أن المتردد على لسان حاجو الثاني وهو في معرض

ذبحه على يدي عدوه أقرب إلى الصواب حتى وهو يهينه بعبارة «ضُرْطَة»، ومن جهة ثانية، يبقى السؤال المتعلق بحقيقة قول جمو لبتى بصدد كيفية التخلص منه، وهو يذكّره بأن عمه لم يكن كبشاً، وقد كان يهابه .

وفي الوقت نفسه، ما يمكن السؤال عنه، وهو ما مدى صحة عدم معرفة جمو في استعمال الخنجر؟ وهو كثير الاستعمال؟ أليضفي طابعاً من المفارقة المضاعفة على الجاري؟ هذا فيما إذا كان الراوية هناك، أم أن راوية مجهولاً أطلق العنان لخيال كهذا لتعميق المفارقة تلك ؟

وعلينا أن نتابع مع جبو، أيضاً، بصدد ما أورده من معلومات على علاقة مباشرة مع بتي، وهي مهمة في بحثنا :

(مثلما يلاحظ من شجرة نسب أسرة آل عثمان، فإن علي هو ابن به تي واسم أمه فصله Fasle ، وأن به تي وحاجو الثاني أخوين «أخوان». ويقال أن الاسم الأصلي لبه تي والد علي هو عثمان، وأن والد أمير بوتان كان ضيفاً عند حاجو الأول في الليلة التي ولد فيها به تي وأن والد أمير بوتان هو الذي سماه. ووفقاً للتقليد الأبوي في المجتمع الكردي فإن الابن يُعرّف باسم الأب ولذا كان يُسمّى عليكي به تي «أي ابن به تي». وعلي هذا هو ابن أخ حاجو الثاني ... ص74).

في هذا الاستهلال، أو كما نراه مناسباً هكذا، يقدم لنا جبو معلومة فاعلة في تاريخ العلاقات بين بوتان وأمرائها، وآل حاجو آغا بالذات، ممثلين في آل عثمان الهفركانيين، والتسمية لقب، واللقب نوع من التعميد والتشديد لقيمة تفخيمية مائزة، وهو لا يتم إلا حين يكون هذا الإجراء ذا طابع طقوسي خاص، أي إن الاسم هو علي عثمان، وربما لهذا الاسم جانب تركيبي، وهو يقربنا من تصور ديني تليد بمعنى ما، حيث يذكرنا باثنين من الخلفاء المسلمين: علي هو الرابع، وعثمان هو الثالث «قبله»، وأن مناداته بهذا الشكل دوام تذكير بالمسمّى الأول: أي والد أمير بوتان، ولا نعلم من يكون هذا الوالد، إنما تعطينا هذه العلاقة فكرة عن قوة العلاقة أو عراققتها من جهة، وأن آل عثمان بالذات يحتفظون بميزة استثنائية ضمن هرمية العلاقة هذه، ولهذا فإن مناداة عليك بتي بـ «عليكي بتي» تبعاً للتصريف الكردي، وفاء بعهد وتعظيم لمناسبة غير مسجلة كذلك، من جهة أخرى .

فإن يسمّى أحدهم من قبل والد أمير، وليس أميراً فحسب، وهو في بيته، إنما

تأكيد تشريف استثنائي، وإبقاء هذا التشريف بصورة زمنية، أي تأبيده، وهذا يدخلنا في نسيج علاقة تقليدية لا بد أنها دارجة وضمن مستويات اجتماعية محددة.

ولا أدل على أهمية هذا «الترسيم» النسبي أو تعزيز محتواه، ومن لدن والد أمير لا يستهان بأمره، مما جرى تالياً، أي على صعيد مكانة والد علي، كما لو أن المدرك بين الناس، وكما هو المتداول تاريخياً، هو ربط الكرم بالمكانة بالتأكيد .

الاسم المختلف عليه :

غير أن سؤالاً آخر، يطرح هنا، لم أجد لجوابه أثراً في المصادر المتوفرة لدي، وهو : هل من صلة بين الاسم الوارد هنا : عثمان/عثمان/اوصمان، والنسب الأول للعثمانيين: عثمان اورطغرل ؟ إن اعتبرنا «عثمان» هو أول السلالة للعائلة؟

أليس من إمكان التوقف عند الأمير بوتاني، حيث يكون «عثمان» ذا صلة بعثمان ذي السلطان، وليس ارتباطاً باسم له موقع تاريخي ديني؟ وحتى وإن وجد له من أثر، ألا يمكن الربط بين الجهتين، أي تعزيز علاقة دالة هنا وهناك؟

جبو، وفيما بعد، يقدم معلومة تاريخية تفيدنا إزاء ما تقدم (كان به تي والد علي يمتلك قطعاناً كبيرة من الغنم والماعز، وقد انشغل علي منذ سن مبكرة بهذه القطعان، وكان لديه العشرات من رعاة الغنم والبقر. وكان علي يخرج، ويبيده بندقية الماوزر، على رأس قطعانه شتاءً مع الرعاة إلى السهول الواقعة في جنوب طور عابدين، أما في الصيف فيخرج معها إلى مراعي الأماكن المرتفعة: بعكس أبيه، كان علي شخصاً لا يمكن التحكم فيه من حيث المزاج، كما كان معروفاً في المنطقة بالشهامة والمروءة، وكان زعماء العشيرة المنافسين يتحفظون منه. فقد كان محبوباً جداً بين الهفيركانيين العاديين...ص74).

ثمة شيء من التقليد السالف تاريخياً: الرعي وما له من دلالة رمزية، وهو خاص بآل بتي، أي آل عثمان، وليس رعي الآخرين، إلى جانب حمله «الماوزر» كعلامة فارقة دالة على بسالة ما، على سلطان مبین، وكيف أن هذه البسالة كانت مرفقة بنزق معين، أو ربما بفعل غير متوقع، تعبيراً آخر على أنه مرهوب الجانب، وهو لما يزل يافعاً، أو صغير السن، وأنه موعود بما يهيئه لشهرة خاصة:

اليقظة، الشجاعة، المروءة، الحيطة والحذر، علامات مشتركة في هذا المقام: البطولي !

لعل هذا الوصف، يذكرنا بما عرّف به جميل حاجو نفسه، أي وهو في ميعة الصبا وقبلها، في مذكراته السالفة الذكر(كنت شرساً وأنا في العمر بين 6 و15 سنة وقد مضت هذه المدة وأنا في قتال مستمر مع الأولاد الذين كانوا من جيلي ومع أهلي والناس وخلاصة القول كنت عبئاً ثقيلاً على أهلي من حيث الإزعاج، وبعد هذه الفترة من العمر توجهت ميولي إلى الصيد وأسباب الفرح ما كنت أزعج الناس صرت أحب المعاشة وأجلب حب الناس إلي وأتجنب تأذيتهم.. ص238)، أي كما لو أن جميل حاجو يكرر تجربة عليكي بتي، وكل من يكون على شاكلته، إلى جانب أمر آخر له طابع نفسي، وهو أن بنية نفسية كهذه تضع الشخص المعني ضمن دائرة مرسومة بلون مغاير حيث تفصح عن وجود كائن مختلف بصفاته النفسية، فما كان شقاوة أولاً، انقلب حلاوة وطلاوة، وما كان إزعاجاً انقلب توادداً، وهكذا!

ولكي يضيء جبو ما تقدم، لا يتردد في ذكر العديد من الروايات التي التقطها، كما يظهر من ألسنة المعمرين، أو من كانوا شهوداً على مرحلة تاريخية ساخنة، أو بالتواتر، وضمن فسحة اجتماعية وتاريخية تصل ما بين يومه وأمس، للحفاظ على حيوية زمن لا يجب نسيانه، من خلال التشديد على مفهوم الكرم، والذي يقابل سخاء ومقدرة ذات، ومن ذلك هذا الوارد (تردّد حكايات عن كرمه من الهفيركانيين: مثلاً: كلما يأتي ضيف إلى بتي كان علي يقوم بنحر عشرات الخراف والماعز، وبهذه الطريقة يقدم الضيافة للأهالي أيضاً. ص 74) .

بالنسبة إلي كمتعامل مع وقائع تاريخية مختلفة، وكمتابع لما يجري، يصعب علي تقبل رواية كهذه، أي بوصفها رواية واقع فعلي حقاً، وبالتالي، فإن ثمة خطأ في النص أو المنقول لا بد من تنقيحه أو تصويبه، جرّاء الربط بين طرفي العلاقة: الضيف والمضيف، أي إمكان ذبح خروف أو شاة وما شابه لكل ضيف ينزل عليه، وليس بالعشرات، حيث إن رقماً كهذا، يمكن العثور على مكان له في حيّز معلوم«الأغنية الفولكلورية» بغية التشويق والحفظ بالمقابل .

وعلي أن أنوّه هنا، بمقدار ما أشير إلى ملاحظة كهذه مراراً، تأكيداً على مقولة اعتبرها رئيسة، وهي أن كتابة جبو، وكتجنيس لا تدرجه في خانة المؤرخين أو الباحثين في التاريخ كذلك، وإنما على تخومهما إلى جانب المرويات الشعبية، دون نسيات وجود لمسات سريعة ومؤثرة عن موقفه مما كان يجري، وما هو عليه وضع الكرد في آن، كما لو أن الكرد في بنية تكوينهم، أو جبلتهم بالذات هم شعب لا هو بالتأريخي ولا

بالشعبي ولا بالجدير لأن يجري نقده من زاوية الباحث التأريخي، مراعاة لوضعية خاصة بهذا الشعب، أي شعب اللاجرفيا واللاتاريخ واقعاً.

أقول ذلك ومن باب التيقظ إلى الممكن القيام به وأنا أضع نصب عيني مقول أحد الباحثين المختصين في التاريخ وكيفية «فلترته» حياً به وبالْحَقِيقَة (إن مهمة المؤرخ في احترام حقائقه لا تستنفد بالتزامه في أن يرى حقائقه صحيحة. فيجب أن يذهب إلى إظهار جميع الحقائق المتعلقة بموضوعه قيد البحث وبالتفسير المقترح في الصورة)⁽¹⁾.

وفق هذا التصور يمكن إقامة علاقة تأريخية واجتماعية وثقافية مع «بطلنا» السالف الذكر:

حين نقرأ عن مكانته حتى في عين غريمه من داخل عائلة عثمان (وتردد أن جلبي عدوه اللدود كان رغم عداوته يقدره ويعرف مدى صدقه. ص75)، وما جرى إثر مقتل/ذبح حاجو الثاني، ومن ثم الصراع الدائر في العائلة غير المتناغمة داخلياً (مع مقتل حاجو الثاني انفرط عقد وحدة الهفيركان وبدأت الفوضى، وقد تسلّم قيادة العشيرة فرد آخر من أسرة آل عثمان، وهو جلبي، إلا أن علي به تي لم يعترف بهذه القيادة وخرج ليقا تل ضد جلبي.. ص75)، وما تكونه عملية الذبح من رسالة تهديد إلى كل من يحاول السير على «منهج» المذبوح، ولهذا كانت الصدمة كبيرة ومفجعة (إن مقتل حاجو الثاني ذبحاً، وهي نفس الطريقة التي قتل بها ابن عمه سرحان الثاني الذي كان قد تولى زعامة العشيرة قبله، لم يكن من نمط الحوادث التي يمكن نسيانها بسهولة فقد أجم نزع الانتقام لدى الهفيركانيين... وكان كل المنافسين يعرفون أن من الطبيعي أن يتولى الزعامة الشخص الذي يثار لمقتل حاجو. وهكذا بدأت عملية مطاردة بلا هوادة لجمو وأفراد عائلته. إلا أن جمو، الذي يحظى بدعم من الدولة، جمع الكثير من عشائر المنطقة حوله، وكان في ذروة قوته... ص76)، حيث يذكّرنا جبو هنا باعتماده على بروينسن أيضاً.

تم ذلك، في الوقت الذي يستدعي هذا القول، ما أثّرناه سابقاً، وهو: كيف كان وضع آل حاجو، وتحديداً، حاجو الثالث،، وما إذا كان حاجو الثالث، وقد كان عمره

(1) كار، ادوارد: ما هو التاريخ، ترجمة: ماهر كيالي- بيار عقل، المؤسسة العربية، بيروت، ط2، 1980، ص 30 .

وقتها يتعدى العشر سنوات على الأقل؟ إنه سؤال يطرح هنا، بمقدار ما يتكرر طرحه، كلما أشير إلى مقتل حاجو الثاني، وعن أن زوجته حينها كانت حاملاً بحاجو الثالث؟ وهو ما سنتعرض له تالياً!

صدمة عائلية :

وكأن الصدمة الكبيرة أو المرعبة أو ما يشبه الشلل في البنية العصبية للعائلة تلك، وجدت طريقها إلى الألسنة أو التعبير الذاتي ومن ثم إلى القُرطاس، إيداناً بوجود من يتهياً لمواجهة هذه الصدمة، أو من كانوا سبباً لها أو فاعلين فيها، وليكون العمر الصغير والمقدام ترجمة لروح جسور أكبر من العمر الزمن الحقيقي لجسد غض أو صبي يافع كذلك، وأن استخفاف أفراد العائلة ومن في القبيلة بما تفوه به عليكي بتي أو بتي اختصاراً بأنه سينتقم لعمه، إنما تشديداً على هذه المفارقة من جهة، وكون الصدمة ثقيلة الوطء، وليس بالبساطة المتصورة التحرر من وقعها أو تجاوز محتنها، ليكون الجاري إيعازاً حريضاً على أن شيئاً يحدث خارج المتوقع، وهو ما استحق الاحتفاء به (ومن جهة الأخذ بالتأثر من قاتل حاجو الثاني، كان علي الشخص الأكثر إصراراً على الأخذ بتأثر حاجو... وقد استهزأ به آغوات هفيركان مستصغرين شأنه، وكونه راعياً.. لكنه أكد أنه سوف ينتقم، وبدأ يتربص بقاتله.. حتى أعلم ذات يوم أن القاتل صحبة ابنه واثنين آخرين في سفر، وخرج له علي من مكمته قائلاً: «تهياً يا جمو» أو جيمو كما تردّد.. «جئت لأخذ روحك». وقد فر الرجلان اللذين «اللدان» كانا بصحبة جمو بعد أن شاهدا علي أمامهما وتركا جمو وابنه لوحدهما. وهكذا قبض علي على جمو وابنه حسين الذي كان شاباً يافعاً. وقد قتل حسين أولاً على مرأى من والده، ثم قتل جمو الذي كان العمر قد تقدّم به كثيراً، وكان ذلك في عام 1912. ويقال أنه بعد أن قبض عليهما جاء بهما إلى نفس المنطقة التي ذبح فيها حاجو، أي منطقة سيدان. وكان غرضه ذبح جمو بنفس الطريقة، وفي نفس المكان الذي ذبح فيه حاجو. وعندما همّ بذبح الابن والأب والابن، مر من هناك سيّد ذو لحية ويرتدي عمامة خضراء وقال له: «أقتل الاثنين، واكتفي بأخذ الثأر، وما يزيد عن ذلك لا يليق بك»، فتخلّى علي عن فكرة ذبحهما واكتفى بقص أذنيهما من رأسهما. ص 77)، وفيما بعد (ألقى علي أذني جمو وابنه أمام أفراد العشيرة وقادتها دليلاً على أخذه بالتأثر، وقد انفجر هذا الطرف مثل القنبلة... وصار علي الآن أكبر آغوات هفيركان... السلطان الحقيقي لهفيركان، وبدت شخصيته بتعبير ضابط الاستخبارات الانكليزي المقدم

نوئيل مثل شخصية روبن هود الانكليزي ص 78)، أي، وكما أسلفنا سابقاً، فإن جكرخوين الحاضر نسبياً في نصه، يتراجع عنه، كونه جاء من بعده، وتابع معلومات وجدت طريقها إلى ألسنة تمكنت من إطلاقها وقد أمنت على نفسها بعد زمن طويل نسبياً على الواقعة، بمقدار ما أن أهمية الواقعة تفرض نفسها لأن يشار إليها، أو تتقل إلى أكثر من لغة، نظراً لندرة ما جرى، وليكون لهذا المروي مساره وحلوله في أرشيف تاريخي ما .

كما لو أن بتي، ولعله هكذا، لم يشأ في العمق، أن يجاري خصمه اللدود/ عدوه، ولا أن يتنازل إلى مستواه، أو أن يتدعم بآخرين غير مرغوب فيهم، بالنسبة إلى أعداء الكرد من العثمانيين قبل كل شيء، سوى أن فعله أريد منه أن يكون شهادة مادية على أنه انتقم لعمه، كما وعد أهله.

في تعليق أورده جمو في كتابه، يلفت نظر قارئه، ويغمه، إن أراد المقارنة بين سلسلة الوقائع التأريخية والمأسوية الكردية، وكيف أن «الخسران المبين» من نصيب جل الكرد، نقرأ ما يتطلب توقفاً ومكاشفة قيمة تأريخية هذه المرة (ومن اللافت للنظر أنه بينما كان الكرد في هذه المنطقة مشغولين بقطع رأس وقص أذن، أحدهما الآخر، كان الباشوات العثمانيون منهمكين في الوقت نفسه بقطع الرؤوس وقطع آذان الكرد العصاة، في منطقة أخرى من كردستان . ص 78).

تلك مفارقة تضع التاريخ الكردي في مفترق طرق تواريخ الآخرين، وكيف يفكر الكرد في بعضهم بعضاً، كيف يهيئون أنفسهم للتفكير في ساعات الشدة، وتبعاً لأي مقياس عقلي/ منطقي، ويديرون دفعة التاريخ، وربطة سبطانة «مدفعه» وهي بهول المودع فيها إلى بعضهم بعضاً، ويتباهون بالمحقق جرأ الإصابات المباشرة وحتى تهليل الأعداء لهم.

لكن ذلك يظل في مضمونه حصيلة تاريخ هو الآخر، أي إن من يسيء إلى فهم التاريخ يساء إليه، إنما يتطلب النظر في الجاري بعضاً من حمية التاريخ في نوع من التمييز، والمقارنة، ليكون في المقدور بلوغ نتيجة تنشيط الوعي التاريخي.

لا يتردد جبو في فتح ملفات تاريخية وعلى مدى واسع جهة النظر في الجاري في الجبهة التركية تاريخياً، وما كانت تحاول القيام به درأاً للوقوع في المزيد من الأخطاء أو الأخطار أو التعرض للويلات، وهو ما يمكن اعتماده كدرس رديف

بالنسبة للکرد الذين اختل توازنهم، وقد شعر كثيرون منهم بـيتم تاريخي، إثر سقوط الباب العالي، حيث كانوا يتحركون ضمن مساحة جغرافية واسعة، وشعورهم مشدود إلى الإسلام، ونفسهم منتظم إجمالاً، خلاف ما تم لاحقاً :
(من ذلك أن الدولة التركية كانت تتحرك على جبهتين، وهي مثقلة بأعباء الحرب العالمية الأولى:

جبهة المعادين لها في الخارج، متمثلة بدول أوربية، في الحرب العالمية الأولى، وهي تعاني حزمة مشاكل خانقة.

جبهة المعتبرين أعداءها في الداخل، وللکرد سهم وافر في هذا النطاق، واعتمدت على سياسة الاحتواء والإغراء والبعثرة للقوة الكردية للتمكن من الكرد عموماً: دعمها من ألوية الفرسان الحميدية، واعتقالها لوجهاء الكرد الذين اعتبرتهم «خطراً عليها»، وكان لهفيركان نصيب من هذا الاعتقال، وقد أرسلوا إلى سجن خربوت، كما في حال: خليل بتي وهو أخ عليكي، وحاجو الثالث، وجلبلي سرحان، ومعهم الزعيم السرياني البطل شمعون حنا حيدو: وبعد فترة قصيرة فر علي بتي وشمعون حنا وجاؤوا إلى هفيركان في عام 1913 أو 1914. ص79).

وهي خطوة متقدمة في تاريخ ترسيم الشخصية بطولية، وهي ومن في مستواها، كما هو المقرر في النص !

في معلومة إضافية تعلمنا بالرقعة الجغرافية التي بدأ بتي يتحرك فيها، أي أكثر من كونه رجل قبيلة، حيث يستدعي ذلك درساً على مستوى الهم المقلق للدولة بالذات (كما أن قوتها العسكرية في المنطقة كانت غير كافية ولهذا توقفت عن مطاردته. ص 80).

أجدني هنا متحمساً لإيراد بعض مما يذكره جميل حاجو في مذكراته، وهو بعض قليل، مقارنة بتقدير المعلومات التي يفترض أنها موجودة في جعبة جميل، إلى جانب وجود تفاصيل تهم هذه الواقعة ومعها وقائع أخرى، إلا أن المفيد، وكما هو مقدّر هنا أيضاً، هو أن جميل أراد الاختصار، كما هو ممكن تقديره في نقاط أخرى، تجنباً لأي تباه، وأحسب أنه في هذا السياق الذي يسلط فيه الضوء على صراعات جانبية، وداخلية بالمقابل، لا يخفي توجعه، أو رغبته في عدم التوغل في التفاصيل، لأنها لا تبعث على المفخرة، إنما ما هو مطلوب الإتيان على ذكره من

باب الاضطراب، وأقتطف ما يضيء هذه النقطة من باب توسيع الرقعة الجغرافية للحدث بالذات (اعتقال رموز من آل حاجو: جلبي، سرحان، حاجو، عليك، خليل أخو عليك... وإيداعهما السجن... في مديات. ص 39... هرب عليك من السجن.. ص 40... تلبية عليك دعوة شيخ الطي محمد عبدالرحمن بقصد ختان ابنه في نصيبين، وذهابه إلى السجن وإطلاق سراح المساجين.. ص 42.. صراع بينه وبين قوات جلبي مع العسكر، فأصيب عليك برصاصة طائشة، وعندما علم رجال جلبي بذلك فروا هاربين تاركين جثته، وأخذت الحكومة جثتها معلقة إياها أمام دار الحكومة لمدة 24 ساعة تأكيد كراهيتها لعلبك..... ليصبح جلبي بعدها الحاكم المطلق لعشائر هفيركان.. ص 43.. في الهامش من الصفحة نفسها إشارة إلى عليك وكيف انتقم لعمه حاجو من جمو، حين نصب له كميناً، ويتردد هنا أن عليك أطلق النار على جمو أوقعه عن الدابة أما ابنه فلاذ بالفرار إلا أنه قتل برصاص أحد رجال عليك فأرداه قتيلاً، وقطع عليك أذني عليك وانتهى جمو بذلك. ص 44).

ثمة إمكانية قراءة الواقعة بصورة منطقية أكثر، أي جهة القتل: قتل عليك بتي في صراع عائلي، وأن هذا الصراع كان خاضعاً للمراقبة، بمقدار ما كان يُدار عن بعد، ويستثمر من قبل أعداء جميع المتصارعين الكرد، وهو ما أفصح عنه جميل فيما بعد (إن الفرد الكردي لا تنقصه الشجاعة والخبرة القتالية ولكن مع الأسف يستعمل هذه الشجاعة والخبرة في الاقتتال مع أبناء قومه ناسياً عدوه المغتصب لأرضه ووطنه والذي يذيقه الذل والهوان يومياً. ص 61)، وما في ذلك من ارتهان إلى وضع تقليدي يبقي الزمن بمفهومه السلبي، والكرد منشغلين ببعضهم بعضاً، وما يترتب على صراعات كهذه من دوام حساب الخسارة أو العودة المستمرة إلى الوراء مع كل خطوة إلى الأمام إيجابياً.

ولا بد أن علاقة كهذه تحفز على التحرك في جهة الداخل وتوسيع نطاقه، وكانت فرصته في «ضبط» «قبيلته» والتوجه صوب ما كان يريد: كيفية الحفاظ على توازنها الاجتماعي، حيث يتعايش الكردي المسلم والإيزيدي والمسيحي.

كان مواجهاً لخصومه من داخل القبيلة والقبائل الأخرى المتحالفة مع الدولة كالدكشوريين، سوى أن تركيزه على الداخل جهة تقوية العلاقات الاجتماعية هو الذي منحه صيتاً، من ذلك (إن الكثيرين من رؤساء العشائر الكردية، الذين وقعوا تحت تأثير دعاية الجامعة الإسلامية، اجتمعوا في منطقة إيستل في مديات وكانوا

يتهيأون لشن هجوم على السريان، إلا أن علي بتى أبلغ المجتمعين: عهد بدمتي. كل من يقوم بأي هجوم، مهما كان صغيراً، على المسيحيين، سيجدني واقفاً ضده..ليكن هذا معلوماً..ج، ص 85).

النار الداخلية :

ربما تضعنا هذه النقطة في قلب المعمة التاريخية، وهي كيفية اللعب بنار الدين، وحرق ما لا يجب المس به، والابتعاد عما يجب تنويره، من قبل الذين يديرون أموره، وفي الوقت الذي نجد في هذه النقطة الدقيقة ومكثفة أدواء تاريخية ومتراكمة إلى هذه اللحظة، حتى بالنسبة للمنتمين إلى المذهب الواحد، والفتوى المستخلصة مما هو ديني للنيل من الآخر، كما في عنف المعتمد في إيلام الآخرين من نهب وتخريب، والأفطع هو في قطع رؤوسهم وأمام العالم ودلالة ذلك نفسياً، أي ضمن ما يُسمى بـ «تنظيم الدولة الإسلامية».

وربما كان للديني الدور الأخطر في حياة الكرد جهة تفهمه بالعكس مما هو عليه لدى آخرين، وهو ما كان يفيد خصومهم أو المتربصون بهم في السلطة، وخصوصاً في تركيا، وفي شخص رجل داهية، جدير أن يلقَّب بـ «أتاتورك» بالنسبة للأتراك، من خلال دوره أو أدواره، وهو يناور، وربما كان الكرد في مركز اهتمامه، وكيف يبقي الديني بما يعينه في احتوائهم، كما سنرى، وكما رأينا سالفاً، ناحية استثمار الديني من قبل جهات مختلفة للتلاعب بالنفوس.

ويظهر أن بتي نجد كثيراً في مسعاه، وهو في ضبط العلاقات بين أبناء مجتمعه في تنوع مذاهبهم ومعتقداتهم، وهو في ساح مفتوحة، واعتمد عقلاً يستجيب لتحدي المرحلة (إن هذا الشاب وريث سلاطين هفيركان، ترك التقاليد الاستبدادية التي سار عليها أجداده، وكان متواضعاً إلى حد كبير، وقد توحد مع أفراد العشيرة وكسب محبتهم واحترامهم، وكان نموذجاً للقيادة. ص 86).

ومن ذلك، ما يذكرنا به جبو، وهو مفيد (ومما يلفت النظر أن حاجو عندما ذبح في جبل مافا كان برفقته إيزيدي هو قاسمي تاقى، الذي ذهب معه إلى الموت، وعندما قتل علي بتى في مديه «ميده» كان برفقته سرياني من مديات ذهب معه إلى الموت، وهو بنويا قلجي. ولا يوجد في طور عابدين من لا يعرف شمعون حنا المسيحي الذي كان رفيق علي في السلاح، والذي صارت شجاعته موضوعاً لكثير

من الحكايات والأغاني الشعبية . ، ص 87)، وكذلك ما ورد في مكان آخر (إن المصادر الرسمية للدولة تعز موقف علي تجاه السريان ومحافظة عليهم إلى تأثير الانكليز عليه، وبسبب دور علي في إحباط مشروعاتهم فإن موظفي الدولة نشروا دعايات بين الناس لإظهار علي بمظهر العميل الانكليزي الذي يأخذ الأوامر منهم «الانكليز»...ومن المعروف أن القيادة الانكليزية قد استخدمت سلطة علي بتي فقد أرسلت رسالة إليه تطلب فيها بإيقاف هذه الهجمات على السريان. إلا أن هذا لا يعني أن الصداقة الكردية- السريانية بدأت منذ عهد علي بتي، فالتاريخ يسجل لنا أن هذه العلاقات أقدم بكثير. ص 89).

وبناء على هذه السلوكيات المثمرة وعلى أكثر من صعيد نال ما يستحق: أن يكون بطلاً، ليس كالذي ينصبّه آخرون بمفهوم تعبوي، ولا أن يخرج من عامة الشعب في هبة معينة حصراً، وإنما هو هذا التوزع بين جبهتين، إن جاز التوصيف، وجدارة ذلك بالمزيد من المكاشفة.

ولهذا أن يقول جبو(لا شك أنه كان زعيم عشيرة، وكان هو أو من سبقه من سلاطين هفيكران ممثلين لبنية اجتماعية صاغت على مدى مئات، وربما آلاف السنين أعرافاً وتقاليد تعد متخلفة ج، ص 90)، فهو محق، من خلال عملية التتبع والتفاعل الوجداني كذلك مع مسيرته.

ذلك يتطلب مرونة في العلاقة، في التفكير في المقاييس بين شخصية مشابهة وأخرى، في القصص الشعبي، أو في الحياة اليومية، أو حتى على مستوى الروايات التي تشيد ببطولات أشخاص وطنيين أو قوميين، ولذلك فإننا في هذه الحالة نكون في مواجهة أدوار يسهل خرقها حدودياً، أي بغية التعرف إليها وسبر عمقها، وعند تمثيل قيمة بطولة، والتصدي للذين يحافظون على بقاء الوضع على ما هو عليه، تجاوباً مع مصالحهم، أو بما يتناسب وما يتوقعون إليه ويشددون على بقائه في الآن عينه، وأدوار تبدو أقرب إلى الاستحالة عملياً وهي في متانتها وصلابتها، حيث يكون حكم الجزء مقابل الكل نسبياً: بتي ماذا عليه أن يفعل، وهو في قوة محدودة، مهما كانت نبرة المغامرة لافتة بجسارتها، فثمة محيط يطوقه.

بدءاً من داخل العائلة بالذات، فقد كان (في وقت ما في منافسة مع زعيم آخر من العائلة وهو جلبي وقد عرف كيف يمسك بزمام الأمور في الاتحاد بيديه..

وأخذه بثأر حاجو كان لصالحه إلى حد كبير مقابل جلبي في السباق من أجل زعامة الاتحاد (ج، ص93)، ومن ثم، ما يعمّق في أثر المضاء فيه (وإذا كانت حرب الأنصار التي شنّها ضد القوات العثمانية قد جعلته بطلاً أسطورياً في هفيركان، فإنه كسب تعاطف الكثير من العشائر المجاورة، خارج هفيركان، والتي لم تكن على وئام مع الدولة. ، ص94).

وعليّنا أن نشير كذلك إلى جهة الاستثثار بتلك النوعية من المشاعر الدينية التي تمارس صدوعاً في الوعي الكردي، صدوع لا يمكن تجاوزها بسهولة، ومجابهة الكرد بالكرد بالذات، بغية تمكين إيديولوجيتها الرسمية التركية المتشددة منهم بالذات، وتجريد هم مما يعنيهم ككرد.

(ولهذا الغرض أعلنوا أن علي بتي «عميل انكليزي»، وكما نعلم فإن هذا الموقف سيتكرر في انتفاضة الشيخ سعيد بيروان، ويدافعون عن هذه التهمة بإصرار حتى اليوم. ص99).

وهي تهمة يمكن أن نجد نظيراً أو أكثر في امتداد التاريخ الكردي، من خلالبنية التناقضات التي تقوم بين طرف كردي وآخر، أو حين يكون الكرد في أكثر حالاتهم ضعفاً، لا يجدون غضاضاً من اعتماد أساليب من هذا النوع، أو لحظة توافر فرص لحمة أو قوة، وبروز من يحاول الحيلولة دون ذلك، كما لو أننا إزاء دورة تاريخ خلدونية، إنما بما يدمر هذا السعي الوحدوي.

تهمة مخدرة :

والمؤسف أنه حتى الآن، ثمة من يجد في اعتماد تهمة كهذه رصيذاً يفتتن به، وهو قابل لأن يتجدد، ويستجيب لرغبة لا تنفصل عما هو غريزي، رغبة قطيعية محدودة بإقطاعها كذلك، الأمر الذي يفرض على باحث التاريخ أن ينقّب في المؤثرات الضامنة لرغبة كهذه بالبقاء.

هذا المشهد المتكرر بصورة أكثر من المهزلة، نجد حضوراً صارخاً اليوم: الآن، جهة اتهام الجاري في إقليم كردستان العراق بصدد استفتاء «25-9/ 2017»، على أنه بتحريض من الخارج: أميركا واسرائيل، وما في ذلك من مصادرة للوعي الكردي وإرادته.

سوى أن هذا التوجيه يمكن التعامل معه، واعتباره منطقياً لأنه يخص من لا يريد خيراً بما هو كردي، أما أن يكون توجيه التهمة وتجميلها من الداخل، فتلك غواية مدمرة من الداخل .

جبو، وهو يتابع حركة بتي، يشير إلى نقطة مهمة، صحيحة وخلافها حين يقول عن أنه (مهما كانت مساعي أو جهود علي بتي موجهة نحو أهداف قومية تحررية، إلا أنها بقيت من حيث الجوهر بعيدة عن التحول إلى بنية قومية عصرية. ج، ص 100)، أي وهو ينظر إليه كمنتم إلى القبيلة، أو إلى ذهنيته المؤطرة، حيث تتعارض مع ما هو عصري .

وجبو لا أظنه يخفي موقفه منه، وهو يقوم على الإعجاب، كما لو كاتب سيري له هنا، حين يسرد واقعة السجن، من خلال إشارة إلى مجهول ما (ويقال أن علي ورجاله صاحوا على المسؤولين عند باب السجن: افتحوا الأبواب وأطلقوا سراح المعتقلين. إلا أن المسؤولين قالوا: هذا ممنوع يا علي بك.. القانون لا يجيز ذلك، وجواباً على ذلك ، قال علي : القانون يأكل الغائط. ما هو القانون؟. ص106).

وهو بذلك يعبر عن الحد الأقصى من البطل الريفي الذي يهز جدار المدني الهش، ودون تجاهل رفيقه في قضية مشتركة، أي شمعون/سيمون حنا، والعمل البطولي الذي قام به، في معركة حامية الوطيس، أي في موقف بطولي، سينمائي بالتأكيد (وقد هجم على الضابط الذي يستخدم المدفع وقتله، ودحرج المدفع نحو الأسفل وارتفعت معنويات الهفيران جداً. ج، ص 108).

لكن جبو، كما يظهر لا يتناول الموضوع في تنوع أبعاده أو مكوناته ومن زاوية مفتوحة/كاملة، حيث إن مجرد التفكير في دولة كاملة، لا تستحضر أجهزتها الإيديولوجية ومناوراتها، وصلاتها بالداخل والخارج، وإنما الجيش وتلك القوة المادية، والتغطية الإعلامية في الخارج، ومن يدعمها بمعان شتى، ومن ذلك كيفية إلحاق الأذى بالطرف الخصم، أو استغلاله بالطرق الممكنة، بحيث إن شرعيتها تكون قائمة، طالما أنها ذات قوة وسيطرة على الأرض، كما في حالة بتي والذي قتل في ظروف غامض، كما تردّد، واستغلال ذلك لمصالحها بعد مجابهة ساخنة ومديدة (وفي مساء اليوم التالي «18 آب 1919» جلبت جثة علي الذي قتل في المعركة إلى مديات وعلقت أمام مقر الحكومة على كُلاب Cengel من النوع الذي يستخدمه القصابون، وبعد

مضي أسبوع أخذ أقاربه الجثة «مقابل كمية من الذهب» ودفنوه في قرية مزيزخ، واضطربت مرة أخرى وحدة صفوف الهفيركانيين. (ص 109).

لا بد أن ذلك يحتاج إلى وعي مضاعف للإحاطة به، أي تجاوز السؤال الأخلاقي، كما هو المتردد أحياناً، جهة توصيف السلطة القائمة من منظور أخلاقي، إذ لا عقد اجتماعياً موقعٌ عليه بين أي سلطة، ودون استثناء بين السلطة، وأي عمل يمكن اعتباره جريمة لا تغتفر، إن هذا التوصيف ومتى يكون عمل ما جنحة أخلاقية، ومتى ينظر في أمره، ومتى يحال إلى قضية ذات طابع دولي، ومتى يعتّم عليه... الخ، فتلك وضعية توافقات، ويخضع لمنطق العلاقات تماماً، ولا ينفع في المكاشفة أي منطق، مهما جرى مدحه، لأنه مغفل من التسمية، وممنوع من التغطية خارجاً.

لنقرأ بصدد واقعة مقتل بتي التالي، كمثال (بعد بضعة أشهر من معركة تينات قتل علي بتي في معركة وقعت في قرية ميديه بين اثنين من أقربائه وهما: آل حاجو وآل سروخان، ومثلما يقول الكثير من الرجال الذين لا يعرفون بواطن الحادثة فإن علي لم يقتل على يد الجنود الأتراك، بل على يد أحد أقربائه يدعى بهرامو في نزاع عائلي داخلي)، وفي رواية أخرى تشير إلى قاتل آخر وهو كردي أيضاً واسمه «مرادي شيركو»، وفي رواية على لسان حفيده علي بتي الثاني أن قاتل بتي هو (إمويأ أفوكي من عشيرة أوميركا، ثم قتل هذا الشخص فيما بعد. ج، ص 110)، لاحقاً، يشير مؤلف «سلاطين هفيركان» إلى رواية جميل حاجو هفيركي، وهي أن بتي قتل جرّاء هجوم من جلبي الهفيركي على قرية «عليك» كان فيها بتي، وفي المعركة الليلية (قتل علي برصاصة طائشة أصيب بها. وعندما سمع رجال جلبي بذلك تركوا جثته وهربوا. وفي الصباح أخذ العسكر الجثة وجاؤوا بها إلى مديات وقد علقت الجثة 24 ساعة أمام مقر الحكومة تشهيراً به. ص 111).

ثم: (وكما لاحظنا، فإن هناك روايات مختلفة جداً عن الحادث، إلا أن الأمر المؤكد أنه لم يقتل على يد العسكر كما ادعى المسؤولون الرسميون، بل على العكس من ذلك فإنه قتل في معركة عائلية، أو بين الكرد في وقت كانت الدولة قد كفت فيه عن ملاحقته، بعد أن يأسست «يُست» من إلقاء القبض عليه، إلا أن المسؤولين العسكريين، الذين لم يستطيعوا اعتقال علي بأي شكل، وضعوا اليد على الجثة

وأعلنوا بأنهم قتلوه، وذلك طمعاً في الحصول على المكافأة المرصودة لرأسه، واكتساب الشهرة والحصول على ترقية.. ص 111).

مع الرواية الأهلية :

الرواية الأهلية هي الأقرب إلى الصواب، غير أن الجهة التي يجري إهمالها أو تتسنى، هي التي تكون في خدمة من يتربص باللعبة الدائرة، وذلك عند اللزوم، حيث الدولة رأت في ذلك ما تبحث عنه منذ زمان: إهانة مضاعفة، إلى جانب الابتزاز، أو فرض الأمر الواقع، وإعلام ذوي العلاقة بمدى نفوذ الدولة، وترهيب المعارضين لها .

ولعل قارئ كلمات من هذا القبيل يعيدنا إلى بتي مجدداً، ويبقىنا معه، ويضعنا في واجهنا اليقظة الفكرية، لأن المعمول يتطلب ذلك ، بحيث يفترض في القارئ أن يقيم وشائج قرى في الحال بين أول الكلام وآخره، وما هو على تماس تأريخي واجتماعي بالموضوع، وهنا، يكون من المفيد، والمهم جداً، إبراز جانب تعبوي في الجهاز الإعلامي العثماني، أو الذين كانوا وراء تعليق جثة بتي بالطريقة السالفة تلك، وهي أن لها صلة مباشرة وقوية بتلك الهيبة والرغبة ومن ثم الخاصة الشعبية التي حققها في نطاق جغرافي واسع تعدى حدود هفيركان والقبائل المنجورة لها، إلى أن أن بتي كان مرعب السلطات العثمانية في المنطقة، أو جنودها وضباطها ومسؤوليها، وطوال هذه المدة الزمنية. ويكون المشهد ذاك من موقع إعادة الاعتبار، ولو من زاوية نفسية، إنما قبل كل شيء، على مستوى الإعلام ووقتذاك، لرفع معنويات ساسة العثمانيين والعاملين في مؤسساتهم ومجالهم العسكري، على أنهم قد قضوا على «أسطورة» بتي، وفي الطرف الآخر، وهو الكردي: على أنهم قد أعدموا في نفوسهم الأمل الذي كانوا يعيشون عليه، وما كان يتداول من أقاويل، أو من ضروب دعايات في مخاض المنطقة العسير: الاتحاد والترقي، والتخطيط لما هو صادق الآخرين: للتركية، وضمناً، بالنسبة للكرد الذين لعبوا دوراً مؤثراً فيه، وهم يتخوفون من الجاري، ويسعون إلى شد «الحبل» التاريخي ناحيتهم ليبقوا ثابتين .

لا شك أن بتي يستحق أن ينادى هكذا «عليكي بتي» جهة التأكيد على موقعه كبطل ألقى أعداءه على أكثر من جبهة.

إنه في أسلوب بنائه يذكرنا بشخصية شعبية وتأريخية في آن، شخصية لا تخلو من نجومية في الذاكرة الكردية: بشار جتو، حسبي أن أقتبس بعض الإشارات من كتاب تأريخي عنه، وهو كتاب لا ينفصل عن تصورات شعبية: فولكلورية :

(إن بشار جتو آغا محارب له قلب أسد الجبال، كان الزعيم الأكثر احتراماً وشهرة لاتحاد خمس من العشائر الكردية، التي يمكنها في حالات الطوارئ حشد ثلاثة آلاف فارس مسلح، وكان بشار جتو رابضاً في معقل عائلته الواقع على جرف صخري شامخ في جبال طوروس، إنه معقل بعيد عن الدروب السالكة ويصعب اقتحامه. ص 17... لم يكن بشار جتو يقبل أي قانون سوى قانون قبيلته.. ص18... جتو وكيف أنه خطف زوجة الحاكم التركي في بدليس لإبراز تحديه له، ولإطلاق سراح حفيده السجين لدى الحاكم وتم له ذلك. ص 23... بقي الزعيم الأسطوري بشار جتو متحصناً في معقله الجبلي، وخلال الحرب الكردية- التركية عام «1930- 1931 م»، التحق مع كل قواته بالمعركة من أجل استقلال كردستان، واستطاع أن ينهك القوات التركية النظامية في الجبال الواقعة شمالي مدينة ديار بكر طوال أشهر عديدة، وعلى أية حال فقد غرّر به سنة «1931 م»، وجُر في ظروف غامضة إلى فخ نصبه له الأتراك، وقتل بشكل بشع مع ثلاثة من أبنائه. ص 23.. لاحقاً: إن حياة هذا الزعيم المجهول تماماً في العالم الخارجي أعجوبة بحد ذاتها، وهي ذات أهمية عظيمة، لقد كان شخصية أسطورية في شبابه، وكان سيد واديه، يلبي كل نداء قومي كردي.. ص24)⁽¹⁾.

واقعة تناظر أخرى، مع فارق في نوعية المواقف أو المشاهد، وخط تحرك كل منهما، وهو ما يجب التفريق بينهما، وأن واقعة مشابهة أخرى، سوى أنها كوقائع استأثرت باهتمام وجدانات الناس، وكان هناك من يذكّر الذاكرة الشعبية هذه في نفوسهم، ومن يلونها، ومن يشدد على الإصغاء إليها، وتداولها، تعبيراً عن تفاوت في العلاقات وكتنافس، سوى أن النهاية الصادمة لا تبعدنا عن أساليب الأعداء في رموز الكرد، أو الذين لعبوا أدواراً في مواجهة أعدائهم وباعتبارهم كرداً، كما في حال

(1) سافراستيان، أرشاك: الكرد وكردستان، ترجمة: د. أحمد محمود الخليل، سردم، ط2، سليمان، 2008، والطبعة الانكليزية، 1948، وقد وردت أرقام الصفحات في الطبعة العربية، في المتن، للإيجاز .

التعامل مع اسماعيل شكاكي وغيره، في أي انتفاضة أو ثورة أو حركة تحد أعقبها عنف دولتي مريع، وليكون هذا التعبير الذي كثيراً ما نصادفه في تدوين أي واقعة مأسوية «ظروف غامضة»، خارج سياقه، لأنه يحتاج هو الآخر إلى مقارنة نقدية، تتيح لنا قراءة ذهنية مختلف الأطراف الداخلة في اللعبة وموقع كل منها فيها .

كأن نقرأ ما يكتبه صحافي متمرس في الكتابة، وقبل عدة عقود من الزمن عن تاريخ الكرد عموماً، وعن إقليم كردستان العراق في الواجهة، كتابة حديثة العهد، وقد أشرنا إلى نماذج منها في صفحات سابقة، سوى أن هذه لها اعتبارها أو أهميتها جهة المراد التركيز عليه، وهو العائد إلى عالم الكردي ونوعه وفصله، وعلى أرضية تخرجه عن العالم الحيوي للآخرين بكثير(الصراعات القبلية في كردستان قوية إلى درجة أنه في حال انضمام زعيم إحدى القبائل إلى الحركة القومية، فإن زعيم القبيلة المنافسة له قد يقف على الحياد، أو قد يأخذ أموالاً وأسلحة من الحكومة للقتال إلى جانب قواتها)⁽¹⁾.

أي حين ينقسم الكردي على نفسه، ولا يعود في مقدوره إجمالاً أن يحدّد وجهته: أين ينظر، والام ينظر، وكيف ينظر، ووفق أي مقياس يدقق في محيطه، ومن يقيم بجانبه/جواره، وأي كردي يتعامل معه، وكيف يحذر منه، وإلى أي درجة يمكنه توزيع اهتمامه وحذره بينه وبين المقيم خارجاً...الخ؟ كلها أسئلة تعرّف بالعالم الكابوسي للکرد، وأن تسمية أحدهم بطلاً، لا ينبغي أن ينظر إليها باعتبارها عامة، أي مصادق عليها من قبل جميع الأطراف، أو يمكن أن يهتّف باسمها في جهات شتى، إذ من الصعب حتى الآن، ونحن في نطاق موضوع فرعي مهيب، إن لم يكن مستحيلاً، التذكير بأي اسم، سواء لشخصية ما، أو لرمز معين «كالعلم» وثمة اتفاق عليه بالإجماع، إنما نتلمس خلاف ذلك، وهذا يبقينا على مستوى التعامل مع أنفسنا غرباء الأنفس، غرباء الهوية الذاتية، وأن حديث الذات ليس أكثر من حديث الآخر، هذا إذا ما كان هذا الحديث الآخر في مستوى الآخر من حيث القيمة، إن لم يكن دونه مقاماً أو أهمية، وما يترتب على هذا الوضع من انخساف المكانة، أو استحالة المنظور الكردي لذاته وللآخرين ولقضيته ولما يواجهه، جغرافيا منقسمة على نفسها، كما هي طبيعة

(1) راندل، جوناثان: أمة في شقاق «دروب كردستان كما سلكتها» ترجمة: فادي حمود، دار النهار، بيروت، ط2، 1999، ط1، 1997، ص 45 .

الكرد الجغرافية التي تعتبر في تقديرات نسبة كبيرة ممن يدرسون تاريخ الكرد، على أنها عامل رئيس في تباعد الكرد عن بعضهم بعضاً، أو عن استمرارية سوء الفهم المتبادلة، أو عن صعوبة توحيدهم...الخ، كما لو أن الجغرافيا الكردية هي الاستثناء الوحيد في العالم، وأن الكرد لم يوجَدوا داخلها إلا ليظلوا في حكم الفرق «الضالة» فيما بينهم، حتى لو أن أحدهم غادر هذه الجغرافيا منذ عقود زمنية طويلة وفي عالم الغرب «المتحضر»، حين يمارس أساليب تصرف مع الآخرين من بني جلدته، وفيما هو عليه أداء تفكير، وكأنه مرمي في أقصى زاوية طبيعية «موحشة» كردستانياً. تُرى، في وضع كهذا، من يركب الجغرافيا أو يظهرها هكذا: أهو الكردي، أم الجغرافيا هي التي تركّبه على طريقتهما؟

أعلينا أن نحكم على بتي على أنه قبلي تجاوباً مع السائد، أم بطل على تخوم المدينة، لنحسن رؤية العالم أكثر؟ من وجهة البحث الذي أعمل عليه، تكون الحالة الثانية أنسب لمصلحة التاريخ عموماً، وتاريخ الكرد خصوصاً بالتأكيد، أي ونحن نتقدم صوب المزيد من منعطفات الطرق، وما تعنيه من أنا في عالم يتطلب منا المزيد من الانفتاح، لنكون أهلاً للحقيقة !

ثمة لزوم أن نوسّع دائرة النظر علّنا نتعرف على مفارقات المرحلة، ليس من باب «تبرئة» بتي من خطأ ما وقع فيه، أو أخطاء معينة ارتكبتها، وهي واردة، وإنما بغية إنارة ساحة الخطأ أو أكثر إن وجدت، وذلك في ضوء الظروف التي كانت مستجدة، وكان بتي جزءاً منها، وعلى أساسها يمكننا التعرف إلى شخصيته في حياتها اليومية، وكما تفكّر وتدبّر أمورها في وسط عائش، ملغوم، مضطرب، ومضطرب، وحقيقة هذه الشخصية، ومكانة الكردية في فكره وفيما قام به واقعاً .

أقول ذلك، وكلّي علم أن الذين يهتمون بموضوع كهذا، هم على بينة من مطلع القرن العشرين شهد تحولات هائلة، وخاصة في أرجاء الامبراطورية العثمانية، وفي مناطق تواجد الكرد، أي في نطاق الجغرافيا الكرداستانية، وأن التعرض لأي شخصية مهما بلغت من الكاريزمية أو قوة الحضور وانتشار الصيت، يستحيل التعرف إليها، ومن ثم التعريف بها ولو في بضعة أسطر لها دلالتها، دون وجود أو استدعاء تلك «الخلفية» المعلوماتية الداعمة لـ «بطاقة» التعريف تلك، وتحديدًا من خلال جملة الأدوار التي تمثّلها الاتحاد والترقي ومقام الكرد فيها، ولكل نشاط تأثير وانعكاس على الوضع.

يلتقي في بنية المتابعة الديني بالسياسي، كما يتداخل الاجتماعي بالاقتصادي، وكذلك التاريخي بالنفسي، أي ما يحضر كل ما له صلة بالبنیان الاجتماعي، لأننا نتحدث هنا، ونحن نؤرخ في الآن عينه، لمنعطفات تاريخ، وانكساراته، ومجابهة بين تاريخ وآخر، لحظة التوقف عند الذين يقومون بهذه المهمة:

من يحاربون على الأرض بسلاحهم، وهم في خنادقهم، أو في ساحات حروب شتى.

من يعدّون أنفسهم لحروب ونزاعات واشتباكات على أطراف المدن وفي داخلها أحياناً، ولأهداف مختلفة.

من يخططون لكل ذلك، وعلى أكثر من صعيد، وضمن تجمعات قوى مختلفة، وشعارات مرافقة.

من يتنافسون فيما بينهم، من منظور زعاماتي، بالنسبة للكرد خصوصاً، ومن يحاولون توسيع دائرة الحوار، أو ساحة المجابهة مع العدو، لأن الخطر يتهدد الجميع، وليس من استثناء بالتالي.

من ينكفيء على نفسه، أو يحجم عن المشاركة في أي نشاط ملتزماً ببيته، أو متوارياً عن الأنظار.

من يمارس أدواراً سلبية بحجج أو مسوغات شتى، بنيةً بليلة الوضع، بنوع من الدعاية المضادة، أو دفاعاً عن مصلحة، أو شعوراً أنه بذلك يؤتي حسناً، أو تعبيراً عن ضعف نفسي، أو استجابة لدافع مجهول، أو بإيعاز من أطراف معينة... الخ .

يهمني أن أتوقف أولاً عند رفيق حلمي الذي تعرّض لهذا الجانب وفي فترات تاريخية مختلفة ومتباعدة، ومن خلال خطاطة تتضمن مقتبسات من هذا المدى التاريخي الواسع، بدءاً من نهاية الدولة العثمانية وكيف ينقسم المعنيون بالوضع على أنفسهم، وفيما بينهم، وحتى في داخلهم، جهة المستجدات وما عليهم القيام به قبل فوات الأوات (ثم يشرع المتملقون ذوو وجهين من الكتاب والشعراء والمؤرخين، يكيلون المديح والثناء لأولئك الذين كانوا بالأمس القريب، يسمونهم مجانين ومتمردين، بل كثيراً ما كانوا يتركون الإنصاف والمروءة جانباً، ويرمونهم بالخيانة الوطنية والعداء للأمة والبلد. ص13...ثم: بعد أن قبلت كردستان الاتحاد مع تركيا في السياسة الخارجية، والتأمت بموجبها بالدولة العثمانية، هب أمراء

الأكراد بكافة قواهم وجيوشهم ينحازون إلى جانب «السلطان سليم» ويعلنون الحرب على «اسماعيل الصفوي» شاه «إيران» مما أدى إلى انتصار «سليم» في موقعة «جالديران» الشهيرة... منذ ذلك اليوم، لم يأل الأكراد جهداً في التضحية، ولم يبدوا معارضتهم في أمر من الأمور... بيد أن الأتراك، قد نسوا أو تناسوا: أن الشعب الكردي كان قبل أن يلتئم ويتحد مع الأتراك وكان ينحاز في كل فتنة يثيرها الأتراك، قد تذوق الحرية والاستقلال وعاش عيشة العز والسعادة، ولم يكن قد عرف «العبودية» والذل والأسر؟ ص28... وما يعيدنا إلى الماضي للعبرة: والسلطان سليمان القانوني «ابن السلطان سليم»... كان يتحين الفرص لإلقاء العداء والبغضاء بين الأمراء وكان ينحاز في كل فتنة يثيرها بين اثنين، إلى جانب أضعفهم، وأقلهم عدداً وعدداً، ليعزز القضاء على الجانب المقابل، وهكذا أخذ يقضي على الأمراء العظام الأقوياء الواحد تلو الآخر، ويريق دماء الأكراد الأبرياء ظلماً وعدواناً. ص30... وفي سياق تاريخ شخصية عن الشيخ محمود: هو ابن الشيخ سعيد حفيد كاك أحمد الشيخ قدس سره.. ص37... وظهر نبوغه وتجلت موهبته، منذ حادثة سنه. ص38... وعن فرع «حزب الاتحاد والترقي» في السليمانية كان يتألف بصورة خاصة من خصوم أسرة «الشيخ سعيد» أي من صنوف التجار وبعض الضباط الذين تخرجوا حديثاً من المدرسة الحربية، وهم يميلون إلى التحرر، ومنافسة المتنفذين.. لذلك أعلنوا مخاصمتهم لأسرة «الشيخ»، وأخذوا يوشون بهم إلى الحكومة ويؤلبونها عليهم. ص42...و: محاولة الإنكليز الإيقاع بين الشيخ محمود وقريبه «الشيخ أمين سندولان» الذي عين قائم مقام «رانية» براتب مناسب، لتأليبهم على الشيخ محمود.. ص102... الخ⁽¹⁾.

(1) حلمي، رفيق: مذاكرت، ترجمها إلى اللغة العربية: جميل بندي الروزياني، مطبعة المعارف، بغداد، 1957، وقد وردت أرقام الصفحات في المتن للإيجاز.

ينظر حول هذه الإزدواجيات حديثاً، في مصادر مختلفة، كما في:

العراق في رسائل المس بيل 1917-1926، طبعة مزيعة ومنقحة ترجمه وعلق عليه: جعفر الخياط، تقديم المؤرخ عبد الحميد العلوجي، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، 2003، وقراءة الأهم (في 27 تموز 1917): (لقد كنت أكره الأكاذيب دوماً، وما زلت أكرهها أشد من أي شيء آخر.... وكلما ازدادت معرفة المرء بالشرق وأحواله، تزداد حاجته إلى تعلم الصفح - أحسب أن ذلك تنطبق عليه قاعدة «تفاض عن جميع ما تعرف». وقد كان نصف الناس الذين هم أصدقاؤنا الحقيقيون الآن هنا يكتبون مقالات عنيفة ضدنا حينما كان الأتراك

حلمي من موقعه كخبير ومعايش لأحداث تترى في مجتمعه، وفي محيط جغرافيه وثقافيه وسياسي، وقارئ تاريخ، يقدم هذه اللائحة المعلوماتية، كما لو أن أمس الأمس هو اليوم، وربما سيكون غداً نظير اليوم، إذ ليس هناك بؤادر، أو مؤشرات، تعلم بأن هناك ما يعدُّ بالتحول النوعي، والانتماء إلى حادثة التاريخ حقاً.

صوت المصلحة الذاتية :

وثمة ما ينطلق من المصلحة الذاتية أولاً، المصلحة الذاتية أخيراً، كما في قول باحث مهتم بهذه المرحلة (لم يستطع خصوم النظام الدستوري، دوماً وفي كل مكان، التعبير عن مشاعرهم بكل صراحة، حتى أن جزءاً من إقطاعي سورية والعراق الكبار حاول التكيف مع الظروف الجديدة، ولكن الزعامة الإقطاعية السنية استقبلت الثورة بصورة عدائية... هناك من حاول الاستفادة من النظام الجديد، مع «الاتحاد والترقي»: فمثلاً في الولايات السورية اتخذ موقف الوفاء

يمسكون بخناقهم. وأن كونهم يكتبون بمثل ذلك العنف ضد الأتراك في يومنا هذا، ولو من دون أن نجبرهم نحن على ذلك، لا يمكن أن يكون سبباً لاقناع المرء رضاه بما يفعلون . فالكلمات في الشرق هي مجرد كلمات عارية- لا تعني أي شيء » يعلق المترجم في الهامش بأنه حكم فج»، إذ يمكنك أن تتخذ احتياطات مكتومة وتقول ما تريد وتنتهي من الأقوال ، وليس هناك من يقول لك أين ينطوي ذلك التحوط...9..ص38).

د . علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج4 ، من بداية العهد العثماني حتى منتصف القرن التاسع عشر، دار الكتاب الإسلامي، ط1، 2005، كما في (ظاهرة القلب: الملاحظ أن أكثر الأدباء الذين نشروا قصائدهم أو مقالاتهم في جريدة «العرب» كانوا أنفسهم ينشرون القصائد والمقالات في جريدة « صدى الإسلام العثمانية..ص427).

د . يوسف عز الدين: الشعر العراقي الحديث والتيارات السياسية والاجتماعية، دار المعارف، القاهرة، 1977، كما في :

(والانتهازيون في كل عصر وفي كل زمان يحتفلون بالقدام الجديد، ويمجدونه حباً في مناصبه وماله.. ولا يهمهم غير أنفسهم وجيوبهم. ص101)، وكذلك كتابه الآخر الشعر السياسي الحديث في العراق «دراسة أدبية تاريخية»، دار المدى، دمشق، 2008، وقوله (ما كنا نعرف بأن الساسة لهم وجهان وجه يدعون فيه الوطنية والقومية وكراهية الاستعمار ووجه يصانعون الانكليز فيه ويسايرون رغباتهم سراً. ص32... إنها ظاهرة ازدواج الشخصية في العراق.. كان الساسة والطامعون في الحكم يقولون ما لا يعتقدون وكان النفاق يوصلهم إلى الوزارة وفي كسب رضا الانكليز.. ص33). الخ.

أحسب أن إمعان النظر في وسطنا الاجتماعي والثقافي يواجهنا بأمثلة لا تحصى حول ذلك .

والولاء للجنة كل من الاقطاعي الدمشقي الكبير محمد فوزي باشا العظم وزعيم الأقلية الكردية في الولاية السورية عبدالرحمن باشا اليوسف وممثل أحد أكبر بطون فلسطين أسعد الشقيري...الخ⁽¹⁾.

وجه آخر في قائمة الوجوه السياسية في بنائها الاجتماعي، إنما يرتد هذا الوجه إلى جسده الفئوي أو الاجتماعي المعلوم بسمة تمايز وافتراق عن بقية المجتمع تعبيراً عن حالة التماهي مع المكانة التي تعني الاسم، أي المصلحة، وما تؤديه هذه المصلحة من أدوار تنقسم على نفسها، أو تكون طيات كل طية تلي الأخرى، لا يُكشَف عنها إلا بزوال فاعلية الظاهرة، وهذا من شأنه التعرف أكثر على نوعية المجتمع وموقعه في التاريخ، وكيف تسخر القيم المثلى من أجلها بجلاء.

وتأكيداً على خطورة هذه المرحلة التاريخية، وحساسيتها، وتداخل قوى في تلوينها، ثمة حاجة دائمة إلى النظر فيها، وفق تصورات مختلفة في كل مرة، وذلك في ضوء المكتشفات الحديثة، أو رفع الحظر عن أرشيفات كانت في وضعية منع حتى الأمس القريب، وبالنسبة للكرد خصوصاً، كما يرى أكاديمي كردي، وهو مشدود كما يظهر إلى هذا الجانب، بشغف بحثي (ليس التأريخ الكردي غير مدروس وحسب، بل وإن قسماً كبيراً من المواد القليلة المدونة عنه قد خصص لتشويهه وليس لدراسته...وتالياً، وللتأكيد: لقد عانى الشعب الكردي محناً ومصائب كثيرة من جراء الحرب العالمية الأولى، فلم تكن هناك أسرة ليس لها ابن في معمعان القتال أو لم يتشرد في الجبال خشية سوقه إلى سوح الوغى)⁽²⁾.

ذلك يشكل درساً آخر في فضاء التاريخ الرحب، ينظر فيه من زاوية تحليلية وحتى تأويلية، ولو أنه يراهن في طريقته على مصداقية الواقعة أو الوثيقة، وبنيتها، لكنه يحفز على متابعة المزيد ومن خلال مقاربات نقدية بالمقابل.

وثمة المختلف، ثمة التشهير دون التسمية، وخلفية اللامسمى، في شهادة أكرم جميل باشا «1891-1974»، وهو الذي عاش سخونة هذه الحقبة وتدايعاتها

(1) كوتلوف، ليف: الحركة العربية في المشرق 1908-1914 «دراسة سياسية تاريخية اقتصادية»، ترجمة: زياد الملا، قدم لها: عبدالله حنا، دار الكنوز الأدبية، دمشق، ط1، 2001، ص 114-121.

(2) أحمد، د. كمال مظهر: كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى، ترجمة: محمد الملا عبدالكريم، بغداد، ط2، 1984، ص 15-358.

لعقود من الزمن، لا بل إن قارئه يتلمس مدى استمرار هذه الحقبة في وجدانه، كما لو أن الزمن التالي مشدود إلى سابقه، أو أن الحقبة تلك جرّاء حملتها التاريخية ومحتواها السياسي، حيث يقول، ما يضيء هذه النقطة مثلاً (لم يكن الوضع في كردستان عموماً وفي ديار بكر خصوصاً كما نتوقع قطعاً، لأن مصطفى كمال وحاشيته كانوا فطناء ومكرة وشجعاناً وكانوا على علم كيف يخدعون الكرد الجهلاء الذين هم مستعدون لأن يجعلوا كل شيء فداء لدينهم)⁽¹⁾.

القول مخاض معاشية، والمأخوذ من واقع تجربة، مهما اختلف حولها، إلا أنها تجربة تصلنا بتاريخ يعيننا، كما هو الاسم الذي استوقفنا ومازلنا نتحرك في ركابه، حيث مسار البحث ليس خطياً، وليس منكسراً، أو دائرياً، أو متعرجاً كذلك، ولا إهليجياً... الخ، إنما له طابع المشهد الذي يتنوع في هيئات شتى، كمجتمع حياة، وكتابة تترجمه .

إن مالميسانز في كتاب له، مهم جداً في هذا المقام، يمضي بدوره إلى داخل «مطحنة» هذه الحقبة الكبرى بآثارها وأطوارها وعمرها المديد، عمر عميق بمفهومه، ومن خلال مشهديات المرحلة، بدءاً بالملتطف من مذكرات السلطان «الأحمر» عبدالحميد، وما يعصف بالمرحلة كردياً (إن تقوية العنصر التركي في روم إيلي، وبخاصة في الأناضول وقبل كل شيء هي عجن الكرد الذين يعيشون بين ظهرانينا وجعلهم ملكاً لنا، شرط أساس ص7... كما جاء بأفراد بدرخانيين إلى استانبول بغية صهرهم في التركية. ص8... ومقام فرد معروف من العائلة البدرخانية: كان عبدالرحمن بدرخان بك وزيراً للمعارف سنة 1900.. ص13... وما يصلنا بعبدالله جودت وطبيعة علاقته بالكرد: مخاطبة الكرد: أيها الكرد! إن هذا العصر هو عصر العلم. لقد مضى زمن الجهل والتقوقع داخل مجاهل الجبال.. ص18- ثم: إن السلطان حميد ليس بخليفة ولا ببادشاه، إنه ليس أكثر من مجرم يقول لكم اقتلوا الأرمن، ولكن لم لا تقولون أنتم، إننا لن نقتل جيراننا. ص19.... وفي نقطة أخرى، عما جرى للبدرخانيين: ألقى القبض على البدرخانيين الذين كانوا حتى العام 1906 يتصدرون مناصبهم بين المسؤولين الرفيعي المستوى،

(1) باشا، أكرم جميل: مذكراتي، الترجمة من التركية إلى العربية: د. قدرى الدياربيكري، المراجعة اللغوية والتقديم: فدان آدم، مؤسسة بير، ديار بكر، ط3، 2007، ص 41.

مسؤولية عن اغتيال رضوان باشا ص27... وحيث إن: جودت كان يدافع عن الكرد ويفكر وكأنه قومي عثماني. ص29... والأهم ضمناً، ما يخص ضيا كوك آلب، وقولته ذات العلاقة المباشرة بطبيعة انتمائه، وموقفه من الكرد والعثمانيين والدولة التركية الواعدة: لقد ألغى الدستور الهوية وأبطلها. فمذ اليوم لا فرق بين الحمّال والبيك، لا آغوية بعد اليوم. لا عشائرية بعد. كلا كلا. إن العشيرة قائمة، ولكن ليست كما كانت قديماً... ونحن عشيرة العثمانية، فلا مللي ولا سلفي ولا زريقي ولا بجناري ولا رشكوتي بعد اليوم.. إنا نحن العثمانيين جميعاً أخوة ورفاق بعضنا البعض، فلا دكشوري ولا هويركي من الآن فصاعداً.. ص35⁽¹⁾.

ثمة الكثير مما يستحق التعرض له، أو التعليق عليه، أو إنارته، إلا أن الذي يلفت النظر في المتن، هو ما تفوّه به آلب بصدد المجتمع التركي الموعود، وهو الذي عمل طويلاً نسبياً، لصالح القضية الكردية، ولكنه بدءاً من عام 1909، أصبح في منحى مغاير سياسياً تماماً، مفتوناً بسياسة الاتحاد والترقي، أي حيث يسمّي مجموعة قوى كردية كانت على الأرض، وهي قبائلية في بنيتها، كما لو أنه يقول عن أنها جديرة بأن تنسّق على عتبة التاريخ، وأن تدخل التاريخ وقد أصبحت في حلّة ديموغرافية جديدة، أي في البوتقة التركية حرصاً لمصلحتها .

ضمن هذا الإطار، وداخل المنظومة الثقافية الإسلامية، في هذه المرحلة بالذات، وقبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، كان تحرّك صاحب «كليات النور» بديع الزمان النورسي الذي غادر الحياة قبل نصف قرن، وهو في أحد جوامع دمشق، ويقف بين يدي العرب ممن يريد استنهاضهم، ويعرّف بهم ليس نفسه فحسب، وإنما اثنيته: كرده أيضاً، كما في مقتطف يصلنا به، وهو بدوره يتطلب إلى مكاشفة بحثية واستقصائية لأرضية المتردد فيه، أو البعد النفسي أيضاً لكلامه (في خطبة له في المسجد الأموي سنة 1911، يهيب بالعرب لأن يتحركوا:.. نحن الأكراد صبيان بالنسبة إليكم، وأنتم أساتيدنا.. ثم إني تعلمت من زماننا أن الذي أوقفنا في القرون الوسطى- مع طيران الأجانب في الترقّي إلى الاستقبال«سنة أمراض»: حياة اليأس، موت الصدق، محبة العداوة، الجهل بالرابطة النورانية.. ثم: يا معشر

(1) مالميسانز: القومية الكردية ود. عبدالله جودت في مطلع القرن العشرين، ترجمة: شكور مصطفى، آراس، أبيل، ط1، 2000، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

العرب/إن أول من يخاطب بهذا الكلام أنتم بأنكم أساتيدنا، وكنتم أنتمنا، وحماة الإسلامية، فذنبكم أعظم وأعظم، وحسنتكم هي العليا..⁽¹⁾.

تحفيز مطلوب :

ذلك يحفز على القراءة، إنما إلى جانبها ما يمكن عملية القراءة من تفكيك النص المقروء، وكيف جاء بهذا المنوال، دون أن يكون هناك «خدش» لشخص الناطق، بمقدار ما يستدعي المقروء التحرر في بنيته، ولماذا عرّف بنفسه هكذا، لماذا خص العرب في المسجد الأموي» وهو مقام له دلالة الرمزية، بالنسبة للعرب بالذات من الزاوية القومية وليس الدينية لحظة الربط بين فضائه التاريخي، وما يعوّل عليه لاحقاً، ومن قبل المهتمين بالمرحلة الأموية في التاريخ. تُرى، هل كان النورسي بحاجة إليهم، ليقول ما قاله، أم كان يريد إعلامهم بأمر آخر، في مواجهة العثمانيين؟ أكان يتوقع منهم، فيما لو ثاروا، سيقومون صلاتهم به على أنه «أخ في الإسلام» أم يكون على الهامش بالمقابل؟

إنها إشكالية أخرى، شديدة التعقيد، ملتزمة بمستجدات الخمس الأول من القرن العشرين وحمى رهاناته الكبرى !

أليس هذا الاتكاء على ما هو ديني وبشكل لافت، يضع الكرد في مهبط ريح الآخرين؟ أليس هذا الجانب هو الذي لفت أنظار الباحثين عموماً إلى الجاري باسمه، وبصدد الكرد خصوصاً، ويقصصهم عما يمنحهم تلك الصورة التي تخص سواهم؟ كما في حال بروينسن (يبدو أن الدين، وهو المكون المركزي الآخر للثقافة، يميل إلى تفريق الكرد لا توحيدهم: هناك الكرد السنة، وهم الأغلبية، والشيعية الكرد والعلويون الكرد حيث لا يجوز الخلط بينهم، والإيزيديون..الخ)⁽²⁾.

(1) سمو، د. آزاد سعيد: سعيد النورسي «حركته ومشروعه الإصلاحية في تركيا 1876-1960»، دار الزمان، دمشق، ط1، 2008، والكتاب في أساسه أطروحة جامعية للدكتوراه في جامعة الأزاعي بيروت، وتقدير ممتاز، كما يذكر المؤلف، ص 92. ربما هذا التقدير ذاته، وفي الجامعة المذكورة، يفيد في استنطاق مغزاه، حيث جرى التعريف بالنورسي، بالمعايير التي تتجاوز والذاتة العربية السائدة حينذاك .

(2) بروينسن، مارتن فان: الأكراد وبناء الأمة، ترجمة: فالح عبد الجبار، معهد الدراسات الاستراتيجية، بغداد، بيروت، ط1، 2006، ص 15 .

ولا أعتقد أن هناك من يمكنه مخالفة بروينسن فيما تفوه به وهو الذي احتك بالكرد، وكتب عنهم الكثير، حتى لو أنه اختلف في طريقة تحليلاته أو مشاهداته أو مقارناته ونتائجه، إلا أن ذلك لا يحول دون التقدير لذلك الرصيد المعلوماتي الكبير لديه، وتاجاه أدق الأنشطة التي تميز الكرد فيما بينهم، أو وهم متراوحوين بين جدلية الحياة والموت .

كأنني بهاليداي، وقد اختبر الواقع المعيش للكرد ومن هم يجاورونهم في المنطقة: تركاً وخلافهم، وقرأ بروينسن، من باب التقدير أو الافتراض، وعلى مستوى السياسات الكبرى، كان قوله الموصول بالواقع في تركيا (يحصل الإسلاميون في تركيا على نسبة كبيرة من أصوات الأكراد وإذ يُسالون عن القضية الكردية يكون الجواب المعهود أن المواطنين الأتراك كلهم مسلمون وبالتالي لا توجد مشكلة)⁽¹⁾.

وحتى فيما أفصح عن بوزرسلان، الباحث الكردي في باريس، وهو يتعقب خطى المتحولات في النشأة القومية في تركيا، وكانت العثمانية هي الحبل المشيمي الذي يشد اثنيات بالجملة إلى حاضرة الباب العالي، ليلاحظ كيف أن إيجاد خانة لها بعد تأريخي، طهراني، فوق قومي «بان ناشينال»، إيقاعاً بالكرد، ورفعاً من مقام الأتراك وتهذيباً لوضعهم (الافتخار بالانتماء إلى أصل الإنسانية والتاريخ كان من شأنه أن يعوض في الأذهان فقدان الامبراطورية والطورانية)⁽²⁾.

تلك مجموعة من المقتطفات أو الاقتباسات التي تهيب بالقارئ لأن يمعن النظر، كما يغذي بصيرته بالمزيد مما هو ثقافي تاريخي معاً، ويلتفت إلى الجهات الأربع، كي يكون في مستطاعه بلورة صورة أدق عن طريقة التفكير لدى الكرد، أو يكون العدو، وأين، ومتى في وعيته، وبالمقابل، من يكون الكردي، وكيف، وأين، ومتى؟ هذه الأمثلة، كما أرى، تقرّبنا من شخصية بتي، وهي في تحركاتها المختلفة، أي وقد بدت أكثر تميزاً بهيئة إنسانية: كائناً من لحم ودم، بمقدار ما تكون شخصية ديناميكية وهي تنجح إلى الجهة التي تعنيها وتختبرها أكثر: كرديتها، دون أن نجزم،

(1) هاليداي، فريد: الأمة والدين في الشرق الأوسط، ترجمة: عبد الإله النعيمي، دار الساقى، بيروت، ط1، 2000، ص 192.

(2) ينظر مقال حميد بوزرسلان: حول «الأطروحة التركية في التاريخ»، ضمن مجلة «دراسات كردية»، المعهد الكردي، باريس، ع3-7، 1992، ص 36 .

لا في ذلك، ولا حتى اللحظة، عن أن هذه المفردة «الكردية» محملة ضمناً بصفة «القومية» تجنباً لأي منزلق إيديولوجي، إنما تلبسها ببعض من هذا التمايز أو الاختلاف، وهي في ميسمها السياسي، وصراعاتها الداخلية والخارجية معاً.

أقولها، وأنا محاطٌ علماً نسبياً بتلك الفورة الحدثية، وانتقال المعرفة، رغم فقر الوسائل بين جهات شتى حينذاك، ولكنها، وعلى وقع انتقال الأسلحة المختلفة إلى ساحات المعارك، وتحركات الجنود، والأحصنة التي تخص فرسانها المحاربين، إلى جانب تنقلات السياسيين والدبلوماسيين، فالرحالة، والمكلفين بأداء أكثر من مهمة... الخ، أدرك في حدود تقديري، أنه كان هناك انتقال لمعلومات ذات ترددات سياسية واجتماعية وثقافية، وحتى أوهام، وتطلعات، وإحباطات، ومخاوف، وكذلك آمال، وهواجس، تبعاً للرقعة الجغرافية، بين الريف والمدينة، من خلال ما عرف عن المرحلة تلك .

وليس من مبالغة، إزاء ما نحن فيه أو عليه، في قول مختص بالتاريخ الكردي آنذاك، وهو (معظم أساطير ورموز النظرية القومية الكردية التي تم وضعها في النصف الأول من القرن العشرين، تشكل تراثاً ثقافياً وسياسياً يمكن تشييطه على الدوام مع تكييفه لحاجات كل لحظة تلبية لحاجات القضية)⁽¹⁾.

ليس مبالغة أن قال قائل، لقد كان هناك، وربما خلال أقل من ربع قرن، هو الربع الأول من القرن العشرين، أن الكرد شهدوا أكثر من حالة قياماتية من خلال صراعاتهم المختلفة، من خلال من ادعوا تمثيلهم، أو عبر أنشطة تخصهم، وحتى كتاب ذلك العصر طبعاً، وشهدوا انتكاسات، مثلما عاشوا أحلاماً وردية، وتلك حدودهم أو آفاقهم الثقافية والنفسية، بمعنى أنهم عاشوا ربيعهم ضمن محطات صغيرة، سرعان ما جاء قطار الزمن، وهو ينفث دخاناً أسود أحال بينهم ورؤية سكّته، وحتى صعوبة ركوبه، بما أنهم كانوا منتشين بما كانوا يعدون به أنفسهم، وتلك كانت فرصهم المتلاحقة خلال هذه الفترة، وقد أنجبت خونة وأشقياء وسفهاء وقتلة ومنحطي أخلاق، ومزيفي أفكار، وتجّار بشر من بني جلدتهم، إنما في الوقت ذاته شهد كرد المرحلة هذه أبطلاً بحق، وشهداء قضية بحق، ومتفانين

(1) غورغاس، جوردي: الحركة الكردية التركية في المنفى، ترجمة: جورج البطل، دار الفارابي- بيروت، دار آراس- أربيل، ط1، 2013، ص 405 .

من أجل قضية بحق، ومقاتلين أشداء بحق، ونزلاء أرشيف تاريخ حي بإقدامهم بحق، وغير هيّابين للموت بحق، وهذا ما يجب على المختص مراعاة ذلك⁽¹⁾.

حيث الحديث عن الجمعيات والصحف والانتساب إليها وإلى «الاتحاد والترقي» والرغبة في تجاوز التاريخ العثماني إلى تاريخ منفتح على الخارج، يدرجنا في دائرة مفتوحة على حياة من نوع مغاير، وربما أمكن القول، أن الكرد الذي يقرؤون تاريخهم، كما يقارنون أنفسهم بسواهم، كما يمعنون النظر في صورهم في المرأة، كما يتحرون سبل تحقيق الشعوب الأخرى لما كانت تصبو إليه قومياً، كما يعبرون عن انجراحاتهم الروحية، وخيبات أملهم، وفقدان ثقّتهم بالقوى الكبرى، وحتى يأسهم بما هو متعال، بالمعنى الديني، وتأوهم جرّاء ذلك، وتخوفهم من أن ما يتعلق باستقلال قومي يعنيهم، ربما يكون أقرب إلى الاستحالة من غيرها... إن كل ذلك مشدود إلى مخاضات تلك المرحلة ونتائجها الكارثية بمعان شتى طبعاً، على الأقل عندما نقدّر المسافة الاعتبارية، أو القيمة، ومردودها الاجتماعي والسياسي وهي تتلخص في ثلاث سنوات بين «سيفر» و «لوزان»، حيث إن مآثم «لوزان» لا زال يتقدم على فرحة «سيفر»، وهول المصاب .

إزاء هذه النقطة المكثفة بفكرتها وتداعياتها التاريخية، يمكن سرد مئات الصفحات عن مآسي الكرد، أي حين يكونون بين منتهى الأمل والشعور بأنهم على

(1) أحيل مجدداً إلى ما مهّد لهذه المرحلة، ولو بإيجاز من خلال كتابي جليلي جليل :

من تاريخ الإمارات في الامبراطورية العثمانية، المصدر المذكور.

و: نهضة الأكراد الثقافية والقومية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، المصدر المذكور.

في سياق تأمل الرواية التاريخية وتداعياتها، ثمة تخريج آخر للنهية المتوقعة لعلكي بتي، يوردها قادر سليم شمو، في كتابه: موقف الكرد من حرب الاستقلال التركية 1919-1922، سيريز، 2008 (عندما كان مصطفى كمال باشا في طريقه إلى سامسون خرج عليه علي بطي في ميديات وذلك في 11 حزيران 1919، وادعى أن هدفه تأسيس كردستان مستقلة، وقد اتّسع نطاق الحركة وشمل ماردین، سارو، جزيرة ونصيبين، قاتل خلالها فرقاً عسكرية تركية، وألحق بهم أضراراً جسيمة، إلا أن القوات التركية تمكنت من إخماد الحركة في 18 آب 1919، بعد أن أصيب علي بطي بجراح خطيرة وقد أعدم فيما بعد، وقيل أن علي بطي هتف وهو على منصة الإعدام بعبارة «حياتي فداء لاستقلال كردستان. ص 138)، وهذه السردية مغايرة لما تقدّم بتركيبتها، وربما مرجعيتها الشعبية.

وجه الأرض حيث الجهات تنفتح لهم وأمامهم، وأن في وسعهم النظر ملياً دون أي تهيُّب من قوة معادية، لأنهم ضمن حدود تعنيهم، أي بوصفها كردستانية، مهما ضوّلت مساحةً، وأنهم بدءاً من هذا المحقّق في وضعية الانفتاح على الآخرين، من خلال علاقات سياسية ودبلوماسية، كما هو وضع شعوب وقوميات أخرى، أفلحت في الحصول على استقلالها القومي بمساعدة القوى المتنفذة، وتأييد منها، كما هي «العجينة» السيفرية «سيفر»، وانغلاق العالم عليهم، وهم في سرداب الآخرين، محكومين بالآخرين، وملزّمين بأن يكونوا طوع أمهرم سياسياً، دون أي إمكانية تعريف بأنهم شعب، أو أمة، أو قومية، إنما أقلية في الحد الأقصى، ليكونوا في الحالة هذه أمام خميرة «لوزان» والتي أحالت حياتهم بالوعود المرسومة لهم ولو جزئياً، إلى سجن كبير، في عجينة سمّت لهم، لم ينسوا مرارتها حتى الآن، ولا بد أن فعل العجينة اللوزانية المعدّة من قبل القوى المتنفذة تلك وقد لاءمت «التور» السياسي لدول المنطقة المتقاسمة لبلادهم قبل غيرهم، أفادت أنظمتها، بمقدار ما رأت فيهم أكثر من إمكانية لابتزازهم والتحكم بهم على طريقتها وكما تريد.

ربما في هذا النطاق، يكون الذي حمّل به عليكي بتي من آمال، يتجاوب مع ما هو سيفري «من سيفر»، وأن التمثيل فيه كان يشكل نسخة لوزانية مسبقاً، وأن الصوت المترنّم الذي عالج هذه اللحظة كان متبهاً لحساسية محتواها وقيمتها تاريخياً.

ذلك ما يفيدنا، ونحن في دوامة هذا اللحظة التي تحمل في داخلها أكثر من زمان وصنعة مكان مركّب سياسياً، في التقريب بين الوقائع المتداخلة والمتفاوتة، إنما المتلاحقة والتي تقوم بينها فواصل زمنية، يجدر النظر في الشروخ القائمة بين الفاصلة والأخرى، كما لو أنها حلقات تنتمي إلى السلسلة التاريخية ذاتها، ولا بد أنها كذلك لنحسن التفاعل معها، أي كأن كل شخصية، وبما أنها شخصية من لحم ودم، تقوم بالسאלفة عليها، وتعرّف بها، مثلما أنها تمارس نوعاً من التمايز، استناداً إلى خصوصية كل واقعة، وهي كذلك، تجنباً للنسخ وزيف المتحصّل منه، وبنية كل شخصية وبيئتها كذلك، وما في هذا التقريب من حكمة وحدة المعنى، رغم التباعد الزمني، ومن إمكانية للكشف عن عمق الذهنية التي أفصحت عن حقيقة الشخصية الظاهرة في الساحة ودورها التاريخي والملموس بحرارة. أي حين نكون

على بَيِّنة أن شعب الفن، الشعب الذي يحتضن تاريخاً خاصاً به، وليس مباحاً أمام الآخرين، من يريد نهبه، أو هتكه، وهو يودعه قواه النفسية، إذ يعلن حداداً على تاريخ مفروض عليه، خلاف شعب التاريخ: الأول متعال على تمزقه، مأساته، والثاني مفتت في عضده.

فن الرجل الكبير :

وأنا أتوقف عند هذه النقطة، يترأى صوت الفن المشبع بحرارة التاريخ وبلاغته المعتبرة، وهو المتجذر في وجدان هذا الذي يحيا ولا يموت كاسم، أي: الشعب، والفن الذي ينعطف عليه، ويشار إليه من خلاله، أجدني منوهاً إلى أنه هنا يبرز دور المفرد الفرد في الفن، إن جاز التعبير، وله سياسته الخاصة أبعد من حدود ما هو محتكر لجهة دون أخرى، وكيف يمكنه إظهار تلك الفعالية الكامنة وتوقع انفجارها القيمي والجمالي، واستثمارها ليكون المردود هذا الأثر النفيس بمفهومه الشعبي، أي هذا الحراك الشعبي داخل الجاري تبنيه، وهذا الجاري تبنيه في خدمة البعيد عن القوالب أو القواعد المولفة: الشعب، كما هو الممكن التعرض له في مقاييس خارج المناهج الأكاديمية الطويلة الأمد أو المفروضة من الأعلى .

ذلك ما ينير، بمقدار ما يعزز عالم المعرفة التاريخية ومستوياتها بأشكالها وتلويناتها جهة التفاوت القائم بين واقعة وأخرى من ناحية، وكيف يمكن لأي منها أن تلتقي بسواها وتعرف بها وتعرفها، وتفيد في زيادة معرفة التاريخ، والمختلف عليه قيمياً بالتأكيد من ناحية أخرى، كيف أن شعب الفن يقلق التاريخ السائد ويخرج المعنيين به استدعاء لتاريخ من نوع آخر، هو الذي يجد نفسه في إطار حدوده الجغرافية، شأنه في ذلك شأن أي شعب آخر.

ولعل المزيد من إضاءة هذا الجانب على قدر الماكشفة التاريخية ومقاربة ما هو شخصي، قائم في الجملة الفنية، وامتدُّ له في تجذره الشعبي طبعاً، وهو يسهم في التعرف أكثر على ما هو ملتبس أو غامض في التاريخ، وكيف يتسرب بتأثيره إلى الوعي الشعبي ووجدانه أيضاً، وأنه عن طريق هذا التوأم يكون في مقدور المعني استشراف جمالية المغنى الشعبي.

يمكن لنا أن نتحدث عما هو فولكلوري، أو ما يصعد بأغنية لأن تتجنس فولكلورياً أو أن يحتضن الفولكلور أغنية تترنم بها السنة، دون معرفة من ناظم

كلماتها، من واضع لحنها، وهو يتنوع هنا، أن يكون لها أكثر من مناخ نفسي، سوى أن المقدّر هو أنها تتنسب إلى الشعب بالطريقة هذه، ليمرّز لنا عمق الدور الفاعل للفولكلور، بوصفه إبداعات شعبية أو ألوان الطيف الشمسي الشعبية تحديداً، أو ما يرتد إلى التراث واختلاف معناه ودلالته من جهة إلى أخرى، وذلك يتطلب النظر في صلات كل شعب بجغرافيته وتاريخه، وكيف ينعطفان على بعضهما بعضاً، شعبٌ معرّف بوضعه الاجتماعي والسياسي، وفي واجهة هذه المكونات تأتي الأغنية التي ربما تكون «الأم الكبرى» للمعتبر تراثاً والذي يمتد إلينا ويتعدانا كذلك، لأنه يفتح على ما هو وجداني، وبالتالي يؤكد لمصادقية مضمونه الذي يعنيه أمره أو موضوعه، في تحفيز ما هو حيوي ومؤثر في الذات، وهذا يحفز على الاهتمام به، لأنه يهمننا خارج التأطير الزمني.

بناءً عليه، تمثّل الشخصيات التي لعبت أدواراً مقاومة في هذا التاريخ مكانة ملهمة للمعنيين بها، وتحديدًا حين نلاحظ، كما سيوضح معنا فيما بعد، كيف أعطى للخيال الشعبي القيمة، ذلك المجال الواسع لتحرير الشخصيات من نطاق التاريخ المحدود، والارتقاء بها إلى رموز تمتد إلى الأمام، كما لو أنها لم تمت، تأكيداً على مدى الحاجة إليها كجبهة صاعدة لنسيان يجد من يعزّزه من قبل متقاسمي الكرد، وتلويحاً لتاريخ محتفّى به يلتقي فيه الصوت المنغم والكلمة ذات الإيقاع، أي ما يعطي مدداً للكلمة ويخصبها بجعلها ثلاثية الأبعاد، وتلك هي خاصيتها الفنية وبدعتها، أي ما يبقى التاريخ مرثياً، لأن جوهر الفن هو تشريف المغنى بأبدية معتبرة.

ولعل محمد أوزون كان من بين المهتمين بما هو فولكلوري، ومن خلال تركيز الأخوين: جلادت وكاميران عليه، بعد أن شعرا بأن ما كانا يطالبان به لم يفلح فيه سياسياً، فكان الغوص في الجذور بحثاً عن أسس جديدة لمعرفة ما هو خفي في الأعماق كما لو أن الانشغال بذلك اعتراف بوجود خطأ كان يجب تداركه جهة استمداد القوة ومواجهة الأعداء، وكما هو ملموس في أعمال مختلفة له، هكذا مع روايته «Rojek ji rojên Evdalê Zeynikê»: يوم من أيام عفاكي زينكي»، وما يبقى جلادت ويثبته عملياً ونفسياً في واجهة التحدي للنسيان القسري، النسيان الذي يؤلم، والنسيان الذي يعلم التذكر ويحبذه طبعاً، أي ما يقيم للتاريخ حضوراً

آخر، وهو الذي يحتاجه الكردي ذاك الذي يريده جلادته (يقول فرمان بلسان المير جلادته حيث يقيم هو وأخوه كاميران في الشام: إن أغاني الكرد وحكاياتهم، هي وجودنا وغنانا الأعظم مقاماً. يتغير الزمن، ونحن، إذا لم نعطيها اهتماماً، فإنها سوف تندثر، لهذا يجب أن تسطر في السجلات)⁽¹⁾.

الفن بمقدار ما يكون تاريخاً ينفصل عنه، ولا يعود يتعرف عليه، كلما أفصح عن التعريف بسجله المحيطي العميق، لأنه في جوهره لا يتوخى تلغيم الكون، الإنسان، والمجتمع، من حيث المتوخى، إنما ما يرمم كل ذلك، وما ينشد بطولات تخدم ما هو خير، فيكون اتجاه الفن معاكساً لحركة التاريخ، ومن ثم لا يعود له من علاقة قربة معينة بالسياسة، فأن يكون هناك من وازع سياسي، أو عصب معتقدي وإيديولوجي للفن، إلا أنه يبقى ليبرز ويغيبه داخله، إنه يعمل ضد السياسة، بما أنه يمارس نوعاً من التطهير الروحي للتاريخ وضمناً السياسة، ويكون العالم بكل رحابته هو عنوانه العريض الذي ينتمي إليه كما يتشكل من خلاله، والذين يصبحون رموزاً فيه، لهم حضور إنساني، كما هو احتفاؤنا المؤكّد عليه بما هو فولكلوري عموماً .

الفن يطرب ويراهن على الطرب، وكل شخصية تفتقر إلى الطرب تتحجّ جانباً، والأغنية الشعبية طروب، كشرط ريس لكي يقيّد اسمها، وقد انتهى اسم المؤلف والملحن الفعليين، وهذا هو المجال الأرحب للفن، ومجاله الحي بالتأكيد .

ذلك ما يعززنا روحياً، ما يقربنا بصورة مضاعفة من طرق تمكّن الشعب، دون تحديد، من تاريخ يجعله مقرباً منه أو إليه، ويجذّر فيه قواه الحية، وهي التي تكون عميقة، رحة، مفتوحة على جهات عدة كرمى الأبدى، خلاف ضروب العسف التي تنال منه وهي غالباً ما تكون سلطوية، ولا بد أن الأغنية هي في مقدمة أساليب التعبير عن كينونته، ليس من ناحية تأكيد وجود معين، وإنما ترجمانه الروحي، لأن الأغنية التي تحمل بصمته، لا تعدو أن تكون روحه التي تصهر في بنيتها كل الذين ينتمون إليها، أي حين نجد أنفسنا أمام لا تنتهي المعنى لهذه الفن المعهود به إلى الشعب، أو هذا الشعب الذي لا يحاط بقواه، وهو يعرف

(1) اوزون، محمد: يوم من أيام عبدال زينكي، أفستا، ستانبول، ط3، 2002، ص 15:

Mehemed Uzun: Rojek ji rojên Evdalê Zeynikê, avesta, Stenbol, ç3, 2002, r: 15 -6

بهويته كما هو مقروء في ثنايا التاريخ، وكما هو الجمال الأمثل في محتوى فن مسنود شعبياً، أي ما يبقى الجمال بنسب شعبي لقاء تفانيه في خلوه من اسم يحتكره لجهته تحديداً.

أي ما يسمح بتدخل الفعل الجمالي المتجدد بتاريخ يعنيه طبعاً والسمو بالكلمة بما يتناسب ووقع الحدث، ومن ثم تضمينه بما يعزّز فيه تلك القيمة المقدرة: البطولة، التفاني، رفض الظلم، وهي تقرب مما هو إنساني، الأمر الذي يسمح للمغني في أن يهب ما هو وجداني عام أهلية استمرارية وإقبال عليه، حيث إن الواقعي لا يعود كما هو، لأن وجود رمز محتفى به، يحيله إلى مثال يُتغنى به، ودون هذا التغني يكون ثمة إقحام فيما لا جدوى منه بالمفهوم الاقتصادي في الحالة هذه .

لهذا، فإن الأغنية تلك التي يُراد منها حفظ رموز الأمة، أو الاحتفاء بتاريخها على قدر المواهب الموجودة، تمارس دورها الخطير والمثير في هذا المقام، وتمنح التاريخ بهاء فاعلاً.

ولعل ما تنوّه به الناقد الأميركي المعروف هارولد بلوم ، وهو (الشعر الغنائي، في أقوى حالاته، يعلمنا كيف نتحدث إلى أنفسنا أكثر من الحديث مع الآخرين)⁽¹⁾،

(1) بلوم، هارولد: كيف نقرأ ولماذا؟ ترجمة وتقديم: نسيم مجلي، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، 2010، ص 242.

في مقاله: بوتان والبوتانيون والأغنية الكردية التاريخية، المصدر المذكور، العدد «28»، يورد الدكتور البوتاني رأياً لفيلجيفسكي، فحواه هو أنه (يعزو سبب ثراء وغزارة التراث الشعبي والأدب اللفظي عند الأكراد إلى جهل العامة باللغة الأم «قراءة وكتابة» ويعتقد أيضاً بأن عنصر الغزارة الزائدة في القصائد الشعبية يرجع في البدء إلى طبقة الاقطاعيين الذين كانوا يحاولون بها السيطرة على العامة ص153)، وهو خطير، كونه يرتد إلى موقف متشدد مما هو سوفيتي سابق، ولا يعمّم بمحتواه هكذا، وإذا كان فيه ما يعزّز وضعيات معينة في محيطنا الكردي تاريخياً، وهو ما يمكن التأكيد عليه، فإنه من جهة ثانية، يفقد قيمته الإيجابية، لأننا بالطريقة هذه علينا إعدام جانب تاريخي مهم مما هو كردي، وكان للرواة، ومن ثم للمغنين الشعبيين في مجالس «الإقطاعيين» ومضافاتهم دور يشابه دور المؤرخ، ولا مهرب من هذا الاعتماد، ويبقى للباحث في التاريخ الكردي الفصل بين الحالتين طبعاً، كما الحال هنا، وأهمية مقال الدكتور البوتاني تنحو هذا المنحى الاعتباري للأغنية الشعبية الكردية.

وهنا أنوّه إلى أن البروفيسور السوفيتي المذكور نفسه، وفي كتاب نيكيتين «الكرد» المصدر المذكور، والذي اعتمد عليه الدكتور بوتاني، يشير تفسير (النضج الشديد للفولكلور الكردي بالصفة

يكاد ينطبق على الأغنية نفسها في بدعة تكوينها الفعلية، ومضاء أهميتها، إن أعطيت المكانة اللائقة بها حقاً.

ولا بد أن الذي يراهن على الأغنية تلك التي تمثل ما هو نابع من أعماق الإنسان، وتجسّد ما يعنيه عميقاً، يأخذ بعين الاعتبار قدرتها على مغالبة الهامشي أو العرضي، وإشعار الإنسان وهو يستجيب لنشوة الأغنية ويقظتها أن ثمة شيئاً يصعد به من الداخل هو عين وجوده، فيتنبّأ بها.

ذلك ما يمكن الأخذ به عندما نحاط علماً بأن الشعر في أصله مغنّي، وأن الأغنية في بنيتها لا تفارق حيوية الشعر، إنما لها كينونتها الخاصة في التشكل أو التبلور وممارسة حياتها الفنية.

وفي الجانب الآخر، وهي توسّع ساحتها، على قدر الإمكانيات المتوفرة، ومنحها دفقاً أكثر.

الطبقة العليا في المجتمع الكردي. ص 424)، ولا بد أن تفسير هذا النضج ومن ثم الربط يرتبطان بطبيعة المجتمع، وضغوط القوى المعادية للشعب الكردي في الحيلولة دون تعليمه، فيكون الفولكلور جبهة دفاعية محمولة في الداخل، ويذكر نيكيتين بخطأ فيلجيفسكي في موقفه، وتناقضه المقدّر، إذ يشير إلى أنه هو نفسه اعتبر أن (نظام الإقطاع هو الذي مكّن من أن تظل محتقطة بخصائصها الوطنية المتميزة. ص 425)، ويظهر أن فيلجيفسكي يشكّل مصدراً رئيساً في تعرّضه لنظام الإقطاع بصورة رئيسة في كردستان النصف الأول من القرن العشرين، ومثال ذلك أيضاً أنه يفصح سابقاً عن الدور المركّب لهذا النظام وهو أنه (ساعد على إبقاء كردستان بمنجى من مطامع الغزاة الأجانب ومكّنها من أن تحافظ على شخصيتها، إلا أن كردستان لن تتمكن من أن يتحول شعبها إلى أمة وقيم دولة خاصة به ما لم تجتز هذه المرحلة من حياتها. ص 253)، ولعلّه يذكر هنا بقانون جدلي ماركسي، وهو تحول الكم إلى كيف، أي كيف يذوب/ ينصهر نظام سابق في لاحق، وهو بذلك يقرّر نهايته منتقلاً إلى عهد جديد، شأن أي مجتمع، وبالتالي، فإن أي نظام حين يستغرقه زمن طويل، ولا يتحول فإنه يعيش انهيارات من الداخل، ويصبح هدفاً سهلاً أمام الغزاة أو الأعداء وحتى ساحة صراعات جانبية، وربما هذا ما نألفه في محيط كردستان أولاً، ولعلّي أرى أيضاً، أن حاجو آغا ومن خلال تركيبة هفيركان سعى إلى تجاوز هذا النظام الداخلي المنغلق ثانياً، لكن القوى الكابحة على شاكلته وبنسبة الكبرى أحال دون ذلك، وأن ما جسّده من أنشطة أو فعاليات سياسية، كما سنرى، ما بين 1926-1940، خصوصاً، كان في هذا المسار، ومن ثم، فإن الذين سعوا إلى التعميم عليه حتى من قبل الأحزاب الكردية إجمالاً كذلك، ينتمون إلى تلك المرحلة في نوعية تفكيرهم، والبنية النفسية ذات النسب الإقطاعي الانقسامية والانهدامي في العمق.

وفي موضوعنا الذي حاولنا التطرق إلى أهم نقاطه الرئيسية، تبين لنا أن عليكي بتي شخصية قابلة لأن ينظر فيها على صعيد التاريخ، وهي تمتد بظلالها في جهات شتى، على مستوى التلقي التاريخي والاجتماعي والسياسي، أما بالنسبة إلى الفني، فهو المتعلق بأهلية الشخصية لأن تتحول من اسم خارج الأرشيف أو المتحف، والمدونات التاريخية، وعهدة المؤرخ تحديداً، عندما يتلقفها الذوق الشعبي، ويتناولها بمقاييس مغايرة، لتكون أكثر ديمومة من جهة، وأكثر تأثيراً في النفوس من جهة ثانية، وتعبيراً عن تاريخ قاعدي مضاد للتاريخ العالم: الرسمي، من جهة ثالثة، وهي الجهات المتكاملة والتي تقربنا من مرونة الشخصية وثرء الدلالات فيها .

وللأغنية عنوان لافت :

ومن جهة أخرى، فإن أغنية كهذه، وكما رأينا في أكثر من مفصل تاريخي، تنفتح على تلك الفسيفسائية الديموغرافية، والتي تظهر الثراء الاجتماعي والإنساني، حيث تكون تعددية الأصوات، أو ما يمكن اعتباره بالجانب «البوليفوني» للكلمة ذاتها، والتي تكتسب قيماً شتى جرّاء تداولها من قبل ألسنة لها مرجعياتها الاثنية والفونيتيكية، سوى أن الشعور المشترك بما هو موحد المعنيين بهذا الشعور هو الذي يضفي على الحياة قيمة مضيافة، تحفز على التمسك بها .

وكما أشرنا بداية إلى أولئك المغنين المعتبرين شعبيين، وهم يدلون بدلوهم في تمثيل من يرونهم أو يشخص إليهم للتغني بهم، فإنهم لم يدخروا جهداً في رفد التاريخ بتاريخ آخر، بقدر ما شكلوا جبهة حرب قيمية أو نفسية رفضاً لتاريخ مدون بصفة رسمية .

ذلك ما تأكد بقدر ما تبين مثلاً في (تبليغ سري للغاية، من وزارة الداخلية للجمهورية التركية بتاريخ 1930، جاء ما يلي: «ينبغي أن لا ننسى بأن الزي الشعبي، الأغاني، الأفراح، والعادات الاجتماعية لها دور حيوي في إحياء الروح القومية وربط الجماعات بماضيها»⁽¹⁾ .

(1) مالميسانز «تأليف وإعداد»: عائلة جميل باشا الديار بكري والنضال القومي الكردي، المصدر المذكور، ص 112 .

حيث إن المأهول بجذوة الفولكلوري/التراثي، وما يصله كوسيط بالشعبي، قادر عند نقطة معينة أن يمارس قلباً في المعيش اليومي بالنسبة لمن يعنيه أمره وانقلاباً ما على سلطة قامعة .

وهذا التأكيد يعزّز مدى مخاوف هذه الدول التي تتقاسم الكرد وبلادهم، وترى في كل محاولة للفصل بينهم وما يصلهم بوحدتهم اللغوية والقومية والجغرافية الأسلوب الأمثل للنيل منهم، لكن المتعارف عليه هو أنه في مختلف عصور التاريخ كان صوت الشعب أقوى من دوي مدافع الأعداء، بقدر ما كان أثر الكلمة المعبرة عن وجدان الشعب أمضى من سيف أي عدو له، ومن هنا كان التنويع في الأغنية تعزيزاً لروابط روحية، وإعلاء من شأن التاريخ الآخر، وهو مدوّن بالصوت والكلمة، مثلما أن الأغنية تعيد للتاريخ المغيب قوامه الفعلي وأكثر. إن ما يفصح عن المؤثر الفني بمفهومه الوجداني لعليكبي بتي ناحية من أحواله إلى شخصية محورية في أصوات مغنين كرد، باعتباره بطلاً شعبياً كردياً، وعلى طريقتهم في نسج واقعة بطولته، يلفت النظر.

بالنسبة إلى كل من محمد عارف جزيري، حسن جزيري، سعيد آغا جزيري، صبري محمد، سليمان ساوري، عسكر جزيري، وعبدالكريم هزخي... الخ، ليس في الإمكان تجاهل قيمة المغنى لدى هؤلاء، ومن قبل الثلاثة الأوّل خصوصاً.

في صوت حسن جزيري، وأدائه العالي الصدى والعميق ثمة ما يفتح على عالم ملحني، وما في الصوت من تجسيد للواقعة البطولية ومآثرتها :

Lê lê li minê

Gulê sê qaçaxa digota heyla li mine dêrane

Lê lê li minê

Ezê bi kavlê di gora şewitî diketim

De min dî Eliyê Betê siwarê civanekê şîn bû

Sofî Brahîmê Gejalî bisê denga li Eliyê Betê dikirgazî

Heçê ji min û te ber kozik û çeperê xwe rabe

Biçe male şûna xwe dewsa keça xwe de bibe..R86.

ولعل الذي يتغنى به الشاعر والمغني الشعبي الهفيركاني/الهفيريكي مرادو
بكمنجته، يثري الجاري:

Wey lê dayê, wey lê dunyayê

Wey lê dayê, wey lê dayê, wey lê dunyayê

Wey lo lo Axayo ez çûme geliyê Tinatê

Ezê deynê xwe didimê gelekî bilinde

Lo lo bira zinarekî gelekî zalime

Şmûnî Hena Heydo bavê Gorê sê cara dikir gazî li Elîkê Betê bavê
Ûsiv û Mihemedê Nezîr

Axayo bila Xwedê ji te razîbe

Bila Rebê alemê ji te razîbe

Di der heqa Elîkê Betê bavê Ûsiv û Mihemed Nezîr

Sultanê Hevêrka

Bila xwîna min beherke wek şêrekî û mezribi

Roja şerê Tinatê bila serê min qurbana wî serî be....Hud.R: 88.

تلك استعادة لروح الأغنية السابقة، لكنها تعزّز من فاعلية المعنى للاسم،
وتمضي بنا إلى ما هو أبعد من التشكّل الدلالي داخل الأغنية، كما هو المحسوس
المباشر طبعاً، وهي السّمة التي تترجم مدى مرونة الفن وتموجاته لمن يحسن تدبير
أمره، وثراء المعجم القيمي والجمالي للصورة الفنية، لمن يتمكن من تحسين إدارتها
وتعميقها، وهذا يعود باستمرار إلى المنبع المتدفق في متخيّل المغنّي الشعبي أو المهتم
بوضع كهذا، هذا يشدنا إلى عالم يحرّرنا من وطأة الراهن، مثلما أنه يؤاسينا
ويغنيا روحياً، حيث تقول الأغنية كلمتها الخاصة وعلى طريقته نبرة صوت
وتماوج أنغام، وعلى قدر امتلاء المغني بالآخر.

وحسبنا أن نقتبس أبياتاً من أغنية أخرى تصبّ في هذا المحيط النهري
المفتوح «معركة تينات»، إعلاماً بقيمة ما تقدّم، وما تعنيه الشخصية المركّبة تاريخاً
وفولكلوراً:

Hey lê dayê, hey lê dayê, hey lê dayê
 Dilê min de wayê
 Ehmed Axa xwe berda bajarê Nisêbînê
 Cem qayimeqamê Nisêbînê
 Gotî qayimeqamê Nisêbînê dilê min wayê sed cara min wayê
 Elîkê Betê bavê Ûsiv û Nezîr ferxê mala Haco sultanê Heverk
 qaçaxbû kete dunyayê

Hezar esker lawê dewletê bi topan û xîvet û çaranvel
 Dewra qesra Tinatê
 Le dewra Eliyê Betê bavê Ûsiv û Nezîr ferxê mala Haco
 Girtine û berê topa dane qesra Tinatê
 Elîkê Betê digo gelî xulama lezê bikin bilezînin hewara
 Şimûnî Henê Heydo kakê Melkê bavê Gorê ji min re bînin
 Hewara
 Hewara şemdînê Çolê ji min re bînin...Hwd.R102.

ويمكن إيراد مقطع من أغنية لها صلة بهذه الواقعة، وكيف تبرز بطولة
 شمعون، وبصوت خلف شنگالي:

Ez Naçima qesra Mala Haco li wî banî Şerê Hevêrkan û sofîyan
 Şerê sofî Birhîmê Gijalî dostê Romîyan e
 Çûma qesra Mizîzexê we bi şîkêr e
 Na wela ez çûma qesra mala Haco du kanîn e Sgfiyan
 riha xwe di devê xwe Dora Elîkê batê û xortên hevêrka girtine
 Elîk gazî xortekî dike û dibêje;
 Haware me bighîne Egîd û mêrxasên Hevêrkan e
 Na wela haware me bighîne Şemhonê Hannê
 Hayo bavê korê Wî Şemdînê Çolî li qelaçê Dasikan e

Me micala şerê sofiye nîne Bila werin herdu Şêrên Hevêrkan

Dest birakê min Şemhonê bavê korê Qasabê serê sofiyane ⁽¹⁾

وعلى هذا المنوال تتشكل بطولة عليكي بتي، ومعها بطولة شمعون/شمونى حنا⁽²⁾

إنها مشاهد حية، ساخنة، وهي تترى، وهي بطريقتها تعبر من حيث الأداء عن تلك التقنية العالية على مستوى التجسيد الحركية للقيمة، والتي يعتمد عليها ذوق المغني الشعبي، وطريقة أدائه للأغنية، ونوعية تمثله لمحتواها وهو يتوحد مع نفسه، أو يركز على نقطة معينة، كما لو أنه يثبت جسده في المكان، ويتابع من قبل الآخرين، ومن ثم كيفية إيصاله للمعنى الروحي إلى المستمع، دون السؤال عما يكون، لأنه يشكل عالمه الخاص، وعلى المستمع أن يرتقي إلى مستواه ليعيش لحظاته الوجدانية، وتلك الطريقة في تحريك الكلمة وكأنه يحييها، ولعله في وضعه هذا يشاطر المؤرخ نفسه، بقدر ما يدخل معه في تناقض كبير، في تمثيل الشخصية خميرة المغنى، حيث إن الحدث الذي يميز المغني هذا هو بعض مما علمه من محيطه، ليتكفل بالباقي، أي جهة رواياته التي تنصهر داخل ملكة الذوق الفني، وهي ملكة لها فسحة خيال، ومسرح صور وتأكيد اللعبة الأدائية التي يمارسها المغني «أي مغنٍ»، وهو يعيش وضعية اندماج مع الواقعة المغناة .

أترانا ، جرّاء ما انشغلنا به حتى اللحظة تمكّنا من تقديم أو إبراز صورة فاعلة، صورة مؤثرة في تأكيد توأم العلاقة بين التاريخي والفولكلوري وذلك من خلال الشخصية المحورية التي يفصلنا عنها أقل من قرن من الزمان ؟

(1) نقلاً عن صحيفة «القلم الجديد» باللغة الكردية، العدد 40 أيلول 2015 .

(2) أنهو إلى أهمية مقال منشور انترنتاً لموسى لحدو غريب، يتعرض فيه إلى شخصية شمعون حنا والطابع الأسطوري لها، وكذلك مواجهته للدولة التركية إلى جانب رفيقه علي بتي، وما في ذلك من وثام في المصير المشترك، ومأثرة وجدانية تتعدى نطاق المذهبي أو الاثني المنفصل، بما أن الخطر يتهدد الجميع، كما في قوله (الاسم شمعون حنا «لقب شمعوني حني»، من قرية باسبرين بطل من ابطال الطور الذي لم تستطيع سيوف العداة ان تشقفه لان ارادته كانت اقوى من السيف وحتى هذا اليوم يضرب المثل به في قوله فلان انت صرت شمعوني حني..)، والمقال في بنيته لا يخلو من ضعف تركيبه اللغوي، ولكنه من حيث المحتوى يبقى مفيداً ومهماً في مضمونه، وذلك في نطاق هذه العلاقة المتعددة الأبعاد، وتحديداً لحظة التلاقي بين قول أحدهم لسواه: هل أصبحت عليكي بتي؟ وبالمقابل: هل أصبحت شمعون حنا؟

أعتقد أننا بالصيغة هذه نكون قد أخطأنا علماً أكثر بعليكي بتي، باعتباره رجل تاريخ، ورمز فن غنائي، وإنه، وإن كان يشاطر كثيرين يعرفون من خلال أغانيها الشعبية، وعبر مغنينا الشعبين طبعاً، إلا أن مقام بتي، أو عليكي بتي، من خلال مآثره المختلف، وما فيها من شهامة، ونبل، وكرم أخلاق، وتфан، وصبر وجلد ومرونة تعامل، وصلابة موقف في الوقت نفسه، يكون في مقدمة معظم هؤلاء الذي نقرأ عنها في شايا كتب التاريخ، كما نسمع عنهم عبر السنة العامة، وأن هذا التداول، ليس أكثر من اكتساب جوهرية الفن، ماسة الحياة المتألقة، وولادة ما يلي الحياة وقد انتهى أمره بالنسبة لشخصية لعبت دوراً مؤثراً، سوى أن عمرها الروحي، الجسد الذي لا يبلى شيء آخر، أي ما يخرج الحياة الممتدة خارج الحياة المحكومة بما هو عضوي، وأن ليس في مقدور أي كان الحصول على جواز عبور من هذا النوع .

أن ندرس شخصية في مجتمع، وأن ندرس مجتمعاً في شخصية، ذلك ما يضعنا في الاتجاهين المتقابلين، إنما ما يغدينا بما هو مثرٍ لحدود هذه العلاقات المتعلقة بالطرفين، حيث لكل منهما ما يتميز به، إنما له قانونه البنيوي والحيوي الخاص في الوقت نفسه، ولا شك أن استشرافاً من «الأعماق» على «الآفاق» هذه يضعنا في موقع غير مسبوق، وهو الذي يتيح ما تكون عليه السياسة كقوة فاعلة في المجتمع، ولكنها ليست غريبة عنه، ولا هي بمفروضة عليه، أو إكراهية، إنما ذات صلة بسلطة تتشكل هي الأخرى من الداخل المجتمعي، وتثيره بمقدار ما تعلم الجوار بال اللحظة التاريخية التي تكون بنية التفاعل متعينة منهما معاً، وبالصورة هذه، فإن عليكي بتي كشخصية فنية، يمثل إسهاماً معنوياً معززاً بالروح، يتكفل بجعل التاريخي نفسه أكثر انفتاحاً على داخل عميق لا يعبأ به، لأنه مرسوم خطياً، منزوع العمق، وأننا بهذا الأسلوب نحسن التعامل مع الفني والتاريخي، ونستمد العون من هذا اللقاء المشترك، أو الهجنة بمفهومها الحيوي الخلاق، عون ليس من طبعه الزجر، أو التعتيم، أو مقاطعة صوت لأن يُسمعنا نبرته، وإنما لأن يتردد صده في الجوار، وكأنني بهذا الصدى ليس أكثر من صدى ما كان مكبوتاً، أو وقد قطع اتصاله، وأن الفن يهيب بالقوة المتشكلة داخله، لأن ينزاح التاريخ نفسه من مكانه، ليكون أكثر اغتناء بهذه الشراكة، وما يترتب عليها من حافز معنوي للباحث في التاريخ، وكذلك الذي يؤرخ للحظات، لأن يمضيا معاً لتعقب هذا التنوع

في الاتجاهين، وكل منها مأخوذ بحضور الآخر، كما لو أن التاريخ يكون أقدر على
مكاشفة الخفي فيه، وهو أكثر سوية أبعاد جهة تنوع الأصوات: أصوات أشخاص
فعليين، ومن يمكن تقديرهم بأولي أصوات، وهو أكثر مضياً بمفهومه، وقد تعدى
نطاق الوثيقة، أو المادة الكتابية، جهة التحري عما هو مغيب أو ممكن العثور عليه،
كما هو حال الضمير المستتر، أي ما هو أبعد من ظل عليكي بتي ورفيقه شمعون
حنا، أبعد من جموع الكرد بتنوعهم والسريان بالمقابل، وما ينمّي وعينا ويثريا على
وقع الفن والذي لا يخرج عما هو قائم، سوى أنه لا يبقيه كما هو، كدرس جمالي
ومعرفي، ويستعاد بصيغ شتى، وهو السند الأكبر لوجهي العلاقة بين التاريخ والفن.
عليكي بتي، يشكّل فاتحة حياة سياسية وشعبية إلى كيان سياسي كردي، ولو
أنها لم تكتمل، سوى أن الذي عهدته إلى نفسه، كما عرفه المحيطون به، وهو مجتمع
كامل، يبقيه في تاريخ من نوع آخر، ولا أعتقد ولو للحظة واحدة، أن هذا الذي
انتقل من بيئة محدود جغرافياً إلى بيئة رحبة، خصبة بدلالاتها، يمكن تجاهله
موقعاً، أن لولاه لما كان الذي حمل هذا الكتاب باسمه بأكثر من معنى، والذي لا
يتكرر هو الآخر لمعروفه المهيّب، وأعني به: حاجو الثالث/ حاجو آغا ودولته
الكردية التي نجتهد في البحث عنها أبعد من حدود المدوّنة في السطور، وفي
السجلات، أو الوثائق، إنما حيث يمتد ظله السياسي إلى الأمام، ليكون له سهم
مفخّم فيها، في من شدّد عليها أو كان شريكاً في صنعها، بمقدار ما كان مأخوذاً
ببذاتها البطولية !

الفصل الثاني

على تخوم كيان دولة كردية

«تحتاج كل المجتمعات إلى إثبات هويتها والدفاع عن مثلها العليا وإيجاد حل فعال لمشاكلها، ومع ذلك تصبح تلبية هذه الحاجات إعاقة في حياتنا عندما تتحول إلى مبادئ نهائية»

تزفيتان تودوروف: الأمل والذاكرة «خلاصة القرن العشرين»، ص 430 .

أكردي هو، أي كردي هو؟

«إنني أفضل شخصياً أن نخلد في ذاكرتنا، الوجوه المضيئة لهؤلاء الأفراد الذين قدّر لهم أن يعيشوا مأساة هذا القرن المظلم، والذين ما زالوا يعتقدون، لصفاء ذهنهم، أن الإنسان يجب أن يبقى هدفاً للإنسان، مهما كلف الأمر» .

تزفيتان تودوروف: الأمل والذاكرة «خلاصة القرن العشرين»، ص 12.

ملاحظات لقراءة هذا القسم :

أدرك أنه ربما لم يكن هناك من مبرر لتثبيت هذه الملاحظات، وربما تثير حفيظة من يتحسس من طريقة كهذه بأن في ذلك أسلوباً تلقينياً في درس القراءة، وربما هو اعتبار آخر، تنويعاً كهذا تعالياً على أصل القراءة. كل ذلك جائز، سوى أن الذي لا أتردد في التأكيد عليه، هو أن ليس للمكتوب هنا من صلة بكل ما تقدّم، إنما بتصور بحثي، واعتبار البحث، أي بحث ليس سطحاً مادياً أفقياً تماماً، ولا شاقولياً بالحرف، إنما هائل التنوع، وأن هناك، كما أرى في العلاقة، وهو من جنس التصور الأنف الذكر، وأعني بذلك أن ما سيلي القسم الأول، بمقدار ما يتداخل معه، ويحال عليه أحياناً، كما أنه يتدعم ويتضح به أحياناً أخرى، إلا أن أنه يحتفظ بخاصية تعنيه وتسميه في العمق، وأعني به إمكان النظر في هذا القسم باعتباره أعرض مجرئ، وأعمق قاعاً، وأكثر هدير كتابة، كما أنه أسرع جرياناً، وإن كان لا يشبه سرّيان فعل الماء اللاهث في مجراه، إنما يتوزع في نهيرات، ويلتقي في نهره مجدداً، وهكذا، كما هو المفهوم الشجري للنص، يكون الفراغ مناظراً للجذر وبالعكس، بغية المزيد من التروي وقراءة صيغ التداخل بينهما ونسب التداخل، بحسب الواقعة التاريخية، وبالتوازي مع الاجتماعية والسياسية، والمزيد من التدقيق في الشخصية الرئيسة والمحورية للكتاب: حاجو آغا، وكيف أن أول الكتاب يتجه إليه، وآخره يرتد إليه بالمقابل، وأنا في وضعية رهان على مقولة/عنوان: دولة حاجو آغا الكردية، إذ لا بد من تكافؤ ما بين اسم الشخص والمكان، وإلا لتعذرت الكتابة أساساً، لا بد من فسحة جغرافية ومعها فسحة كتابية أكثر، تجاوباً مع التخصيص الموسع، ولأن حاجو آغا الذي نهجى اسمه، ويحمل اسم شجرة العائلة رغم أنها أقدم عمراً، ما زال يطرح علينا سؤال تاريخه، وأن علينا كمهتمين وباحثين ومن أهل التاريخ في آن، نجدنا متحفزين للجواب، وهو يستغرق مئات الصفحات طبعاً .

إزاء ذلك لا أسهل من القول بأن حاجو الذي كان، لم يزل حديث نسبة معلومة من المعنيين بتاريخ لم ينل حظه من الإضاءة البحثية، ولا أحيل إلى موضوع مفتوح على أكثر من جهة، وهو يناقش بمزيد من العمق والتروي، حيث إن حاجو المشار إليه ليس الاسم الشخصي وربيب عائلة، أو نزيل مكان معين، ومتنقل بين أمكنة معينة، وكفى، وإنما في نطاق المكتوب عنه، ثمة ما يرافقه أو يتأخر عنه أو يتقدمه باعتباره المعطوف على ما هو كردي، وكما يلاحظ جيداً، فأنا لا أستخدم صفات، أو نعوتاً في هذا التقديم، أو ما يشبهه لهذا القسم، إنما أنوّه إلى هذه الفسحة الجغرافية التي تحتفظ بالكثير من آثار حاجو وهو يعبر الحدود المصطنعة، كما هو الدال بـ «جنوب الخط- أعلى الخط»، أو «جنوب الخط- شمال الخط»، ومفارقة التسمية الآنية والتي تبرز هشاشة المرسوم كحدود .

أن نتعرض لحاجو الذي قدّم سابقاً، إنما هو أن نستدعي ما كان، وما هو نظير الآن، أو نمضي إليه، ومعنا أكثر من صورة طبوغرافية، وواقعة ديموغرافية، ومدونات عما جرى حتى العهد القريب جداً، وما يقابلها، أو يتداخل معها في تلك الفترة التي عاشها الرجل الهفيركي أكثر من منتم إلى اتحاد قبلي، أكثر من مرتبط بنسب عائلي تحديداً، أي ما يقربه من الكردية، وبأي معنى، وما يقلقه وهو يتفاعل معها، وبأي معنى أيضاً، وما يتأخر عنها أحياناً أخرى، وبأي سبب ومعنى كذلك، وهي تداعيات اللحظة الزمنية، ومتحولات الوضع الضعب والمكثف تاريخياً حينها .

هوذا الاسم الذي يطرح نفسه بجدارة، ليس لأنه حاجو الثالث حاجو الثاني حسن الأول حاجو الأول عثمان سلو، وليس هناك ما يعلمنا بالأقدم منه، وإن في ذلك ما يفيد في تحريّ الأصول، كما هو مقتضى العادة بغية التمييز بين أفراد المجتمع وهم ينتمون إلى عائلاتهم، والعائلات ذات نسب قبائلي، وهكذا، بمقدر ما يعيننا حاجو بالذات، وما فيه من مغزى تهجئته دون أي صفة «حاجو الثالث مثلاً»، كأن حاجو، أو حاجو آغا لتفريقه عن سواه، هو الذي يفي بالغرض، أي من يأتي في إثره، كسلالة لاحقة، وأن هذا الاكتفاء «الذاتي» إن جاز التعبير، بعبارة كهذه لا يعني مجرد الإيجاز، إنما لأن إجراء كهذا ينطوي على تقدير ضمني، لم يوضع اعتباراً، بمقدار ما أفصح عن كونه حتى اللحظة ليس هناك من أمكنة أن يجاريه مكانة، أو يجسّد ما هو قيمى يعني مجتمعاً عريضاً من حوله، وإلا لكان السؤال التالي في محله: لماذا لا يكون الانتساب إلى عثمان/اوصمان، أو سلو، أليس لأن الذي دشّن لتسيب كهذا، كان قد تناول هذا الخيار الاسم وأطلق عناناً لخياله لبعض الوقت، بغية معرفة

الأفضل، وهذا يعيدنا إلى الجانب المتعلق بالزعيم: مَنْ يكون، وكيف يكون، وأين يكون، ولماذا يكون، كاعتبارات اجتماعية رمزية تحديداً.

أي إنه إذا كان من يلمح بوجود حاجو الأول، إلا أن المقدّر، وهذا لا يحتاج إلى نباهة، هو حاجو «الثالث»!

لعلّي على وعي عميق بأن اعتبار حاجو حامل العلامات لكل المنتمين إلى آل حاجو، نتيجة مداولة قائمة، أو قدر هذا الانتساب مسبقاً، على وقع التقدير الممنوح قيماً أو تاريخياً وحتى استراتيجياً لهذا الاسم وليس سواء، لعلّي أتلّس في ذلك خياراً ذكياً من قبل من ثبّته كتعريف نسبي، شعوراً من مجسّديه أن هناك كردية تتجاوز النطاق العائلي للاسم.

من المستحسن هنا، جرّاء ذلك أن نحسن تدبير التاريخ الذي يتلبسنا بالكثير من إشكالاته وتعقيداته وملابساته، وقد ازددنا وعياً بما أغفلنا عنه شعوراً منا أننا بذلك نوّمن حماية التاريخ بالتاريخ، وقد أردناه نفسياً ولزمن طويل، ومن المستحسن أن نفتح أعيننا على داخلنا، وما نصبنا فيها دلاليّاً طبعاً مضارب ومشارب ومذاهب ومراتب:

مضارب، جهة الانتماء إلى ما هو خيمي، حيث نسي الكثير من العالم من حولنا ليس شكل الخيمة، فحسب، وإنما البيوت العادية، وأمّنوا دخول البيوت الطوابقية المصاعدية والمجهزة بكاميرات المراقبة، وما أكثرنا ونحن مازلنا نداول فيما بيننا أحاديث عن الخيمة ذات الخمسة أو ستة أو سبعة أو تسعة أعمدة، وعالم الخيمة المهيب، وقهوجي الزعيم أو الآغا، أو خادمه، وسخرة البيت الريفي.... الخ، وما في ذلك من تقسيمات تأصلت في نفوس ورؤوس.

مشارب، حيث تتقاسمنا أهواء لا أضواء، نزاعات لا إبداعات، تنافرات لا مؤانسات بأكثر من معنى.

مذاهب، ليس بالمعنى الديني، إنما ما يجعل المنتسب العقائدي التحزبي في مقام المذهب والطائفة، وما يترتب على ذلك من صنوف مكابدات، ومعوقات عن بلوغ الحد الأدنى من المرغوب، وبناء على ما هو نقدي.

مراتب، حيث الارتقاء في معطف الماضي المهترى، وليس درسه أو تقليبه على وجوهه للتعلم منه.

ولا بد أن الذي يثيرني هنا هو هذا التنوع وليس التبسيط في الموضوع إزاء اسم لا

أبالغ أن هناك من يريد الإتيان على ذكره، لأن هناك من أعلمه أو أوصاه بذلك، أو أوصى جده وهذا أباه وصولاً إليه وهو يوصي ابنه وهكذا .

لهذا أتعقب أنشطة الذاكرة من خلال ما هو متردد هنا وهناك، وكيف تكون هذه الذاكرة، وهي تحتفظ بكمية ثرية من المعلومات التي تخص رقعة جغرافية أمضيت في جنباتها عقوداً من الزمن، وانشغل بكل ركن فيها، وأنا أقرأ تواريخ أمم وشعوب، فشغلتي فترة مثيرة ومهمة كهذه، ومن خلال الاسم السالف الذكر، وحيث تتأكد في واعيتي أهمية الذاكرة التي تستدعي شعباً لما يزل شعب الذاكرة في تنوعها، والأصل الذي يتشكل قاعدياً، كما هو المرجو لمن يستهدف تاريخاً مضى من الداخل (إن الذاكرة التاريخية مكون أساسي في إنشاء أساطير الأصل)⁽¹⁾.

ليُدقّق في هذه العبارة ومدى انطوائها على عبء تاريخ لم أبلغها بعد، لأنني لم أعش هذه النقطة المتاخمة لعتبتها المطللة على الجهات الأربع، كي أحسن بلاغة المعرفة التاريخية في تراكميتها، طالما أن مفهوم «الأصل» على مستوى التاريخ يطرح نفسه بنوع من الاستحياء أو الخجل أو التبكّم أو الحيرة، لعدم وجود ما يمنحه استقامة قامة أو وضوح محيا، على خلفية من تاريخ لم يجد من يدوّنه، أو يفتح روحه فيما هو مختلف عليه بوصفه خميرة تاريخ.

تدقيق مركز:

على المنوال نفسه، تُرى، كيف أحدد علاقتي بالتاريخ، والذي يُسمى مجتمعات حق تسمية، ويعرّف بها فيما بعد كذلك، إزاء مؤرخ وباحث عربي مخضرم، التبس عليه موقعه في التاريخ كعربي، وبالنسبة للعرب عموماً، حيث قال (في علاقتنا نحن العرب بالتاريخ، التباس تبدو معه ذاكرتنا وكأنها مخزن مشاعر، لا مرصد معرفة. ص 39)⁽²⁾ ؟

من جهتي، أنوّه إلى الجهات الأكثر انخفاضاً في جغرافيا التاريخ الذي يهمني أمره، ما يضع الشعور في نقطة ما دونه، وكذلك العقل النقدي في موقع ليس كفوّاً

(1) دافيس، أريك: مذكرات دولة «السياسة والتاريخ والهوية الجماعية في العراق الحديث»، ترجمة: حاتم عبدالهادي، المؤسسة العربية، ط1، 2008، ص 55 .

(2) كوثراني، وجيه: الذاكرة والتاريخ في القرن العشرين «دراسات في البحث والبحث التاريخي» دار الطليعة، بيروت، ط1، 2000، ص 39 .

للتعريف بنوعه أو جنسه، أي حين يشار إلى الذاكرة من خلال تمرّج رأس مأخوذ بالعاطفة وهو يترنم بحالة تاريخية ماضية، أو ينبري أحدهم وهو متخّم بالمشاعر، ويسمي كتابته تاريخاً، وحين يتصدى آخر وهو يلوح بدرجة «علمية» تبرّر له، مانعاً من الكتابة في التاريخ، كما هو مطلوبه، فنكون في مهبط أي تاريخ لا نصمد أمامه، بما أننا لم ندفع استحقاقاته من التضحيات في الاجتهاد والمعاناة ومغالبة الذات الضيقة وغيرها.

لا أعني بذلك أن حاجو آغا وأنا أربط ما بينه ومفهوم «كيان دولة»، هو الأكفأ من غيره في هذا التوجه البحثي، ولا أنه مظلوم في التاريخ، وأن مظلوميته وراء هذه الكتابة، إنما لأنه يتضمن مؤثرات فاعلة في كتابة تاريخ، لا أخاله بمهمش أو عرضي، أو يمكن الاستخفاف بشأنه، إلا إذا رفضنا سماع شيء قبل التأكد منه، ورغم أن الكفاءة نسبية في حدودها.

لأقل بطريقة تعينني هنا، وهي أن البحث الذي أنشغل به وهو في كمة اللافت، ولا أقول بنوعيته، أردته لمن يغفل عما هو متداول في نطاق الاسم الذي يحمله، أن يأخذ الكم أحياناً بعين التقدير، حيث لا يعقل أن يكون مجرد أقوال جيء بها من هنا وهناك، إنما أقوال تتنادى وتآتمر تحت «قيادة» فكرة واحدة توأمية: جغرافية وتاريخية.

أستعين باسم هو علم تاريخ، تناول شخصية هي علم تاريخ/مادية بالمقابل، ومنذ تسعة عشر قرناً، أي بلوتارك، وموضوعه، أو اسمه المؤثر في متخيله الثقافي واهتمامه هو الكيبيادس الروماني، حيث أوجز بعضاً من العلامات التي تعرّف به، ولا أظن أنها بسيطة، لا أظنها بقبالة للقراءة هنا، ومن قبل نوعية معينة من القراء، إلا ويعقبها تعقيب كهذا: إلى هذه الدرجة تكون المبالغة؟ أي انحراف عن التاريخ؟ لا بأس أن أعرض وصفه أولاً، وبعدها يمكن متابعة الكلام، سرده، تفكيكه، وتركيبه بالتالي ثانياً، لمعرفة المفارقات الشخصية (وبدا في سلوكه مفارقات ومتناقضات بحسب تقلبات الزمن العجيبة المتعددة له. على أن الطموح ورغبة الاستعلاء كانت من أبرز النوازع التي تدمغ شخصيته بطابع قوي، وبدت منها لمحات في أقواله وتصرفاته أيام كان صبيّاً. فمرة ضايقه خصمه في مباراة مصارعة، ولما تبين أنه سيطر أرضاً عض يد خصمه بكل قوته فأرخى في الحال قبضته عنه وقال «أراك يا أليكيبيادس تعض كالمرأة» فرد عليه «لا بل كأسد»، وفي مناسبة أخرى كان يلعب الزهر مع أتراب في

عرض الشارع وهو بعد صبي يافع، فأقبلت عربية حمل نحوهم، وكان قد حان دوره لإلقاء الزهر فأهاب بالسائق أن يقف لأن رميته ستكون في طريق مرور العربية، فلم يكثرث الرجل بقوله وواصل السير فأفسح بقية الصبيان للعجلة وانسحبوا إلا «الكبييادس» فقد انبطح على الأرض أمام العربية ووجهه إلى أسفل متحدياً السائق أن يمر ان استطاع ففزع الرجل وبادر إلى شد أعنة الخيل لإيقافها، وشالغ الخوف في نفوس المستطرقين، وأخذوا يتصايحون وهرعوا لإقالة الصبي⁽¹⁾.

ربما كان في ذلك نزعة أسطرة للكتابة أحياناً، كما تقدّم، إنما متى كانت الأسطرة بمفارقة «الجماعة» التاريخية؟

أعني بذلك، التساؤل عن المبالغة ومكانة الأسطرة في القول المسطور؟

لم أقل ما سطرته إلا بدافع من معرفة تستغرق حدود تواريخ وأمم وشعوب وشخصيات متعددة انتماؤها، وأن هذه المعرفة ترتبط بالبنية النفسية للذين قيّض لهم أن يكونوا في موقع الخارجين على واقعهم، وحتى بالنسبة لعائلاتهم، أو جوارهم الجغرافيين، أو نطاقهم الأهلي، من خلال طاقات ذاتية، ومؤهلات نفسية تدفع بهم لأن يكون أهل نظر من وسطهم قبل أن يصبحوا أهل كلام، حيث تكوينهم الجسدي وحركته اللافتة مسرح لهذا المثار، وأن يمثلوا مواقف على مستوى العائلة وحدود المدينة ما يستحق التعمق في خلفيتها، ولا بد أن حاجو «هكذا أسمىه بمفرده، لأحسن تدارك ما يمكن قوله من خلاله»، ما كان له أن يكون حاجو آغا، أو الاسم الشخصي المرفوع بمقامه، أن يكون نسب عائلة أكثر من نسب كان يعرف به قبل ذلك، وأن يكون له حضور داخل عائلته وفي محيطها وخارجها، وبصورة مضطربة، دون هذه المبادرة الذاتية من الحركات أو الأفعال وهو في ميعة الصبا، مذكراً إياناً مجدداً شأنه قرينه في البأس والجرأة والجسارة: عليكى بتى، كما لو أنه كان موعوداً مع اسم يعنيه، كما يعني التالين عليه، وما يدل عليه هذا التحكم بمصير في وسط اجتماعي صاخب، وسط يشهد له بغليانات، هي محك كل ذي نفس بارزة، أي ما يعتمد عليه حاجو من قوى خفية، ومستثمرة داخله، وهو يقرر مصيراً لا يقتصر عليه إنما كرده تدريجياً!

(1) بلوتارك «فلوطرخوس»: السّير، ترجمة: جرجيس فتح الله، دار آراس، أربيل، ط1، 2005، ص 432.

وإذا كنت أشدد على ما هو فني، فلا أخفي أنني وجدت في هذا الاسم والحامل للرقم «3»، بتلك السلسلة ما يقربه من عالم الروايات العالمية الأكثر شهرة في النصف الثاني من القرن العشرين، أعني بها مناخات رواية الكولومبي «مئة عام من العزلة» وتقلباتها، وسعي الكولونيل بوينديا إلى الاشتراك في حروب كثيرة، وسوء حظه، حيث بوينديا يتكرر في السلالة الطويلة منذ عدة قرون، وتعرف من خلال قرية اكتسبت شهرة من خلال عائلته، ومنذ الصفحة الأولى، إن ناظرنا بين «تربه سبي: قبور البيض» و «ماكوندو»، حيث استقرت فيها بحثاً عن أمان من العالم المضطرب، كما لو أن زاخوران كانت نقطة مأساة عائلية أورثت عائلة عثمان وجعاً كبيراً، وأن قرية تالية لم تكن له، ثم عرفت به «مزيزخ»، لتكون نقطة جامعة بين أقصى الحزن وأقصى الفرح، للصراعات الداخلية، لنسم خلف جرجو ابن عمه، بينما باكوك «الجبيل» وبادب، وهما إحداثيتان جغرافيتان تسميان متأثرة شخصية فاعلة في الجوار له، باعتباره المعزز بهيبة عسكرية، وفيما بعد لتكون نصيبين والخط الحدودي المصطنع والصاعد صوب الشرق الملتهب، حيث جثمت تربه سبي بعدة بيوتها، لتكتسب حضوراً، وقد أخرجها حاجو من عزلتها، هامشيتها لتستحيل علامة جغرافية فارقة (كانت ماكوندو آنذاك قرية من عشرين بيتاً من الطين والقصب، مشيدة على نهر ذي مياه صافية، تتساب فوق فرشاة من حجارة مصقولة، بيضاء، وكبيرة، مثل بيوض خرافية)⁽¹⁾.

أكان ماركيز ماراً بتربه سبي، أم وصفت له، أو قرأ عنها، لتلمس مثل هذه التشابهات؟ لست في معرض المقارنة، وليس هناك من رغبة في ذلك، إنما ما يدخل في إطار لعبة المصادفات، وللتاريخ أكثر من خاصية مصادفة، وهي لا تعرف من قبل أي كان، أي بوجود أسباب ومسببات، هي التي تربط ما بين سلو الذي لا يعرف مسقط رأسه، وبين تحركات حاجو بين المحيط الجغرافي المسمى بـ «الجزيرة السورية العليا»، ولدى المعنى بالشأن الكردستاني بجنوب غربي كردستان، وتبقى التسمية معبرة وهي بامتدادها لنصيبين، والمحيط المتعدي للجزيرة صوب الشام «دمشق»، حيث تتراجع العائلة بمفهومه القبلي إلى الوراء، أو لا تكون كسابقتها.

(1) ماركيز، غ.غ: مئة عام من العزلة، ترجمة: صالح علماني، دار المدى، دمشق، ط1، 2005، ص7.

في السياق نفسه، يظهر في مضممار دراما جغرافيا واسعة المدى، وأصوات من لغات ونبرات شتى، بالنسبة إلى تلك المرحلة التي امتدت إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، أعقبتها مرحلة جديدة، حتى «الوحدة السورية» عام 1958، فالانفصال 1962، فاستلام البعث السلطة 1963، ثم مجيء حافظ الأسد إلى الحكم 1970، وهكذا، والذي يتطلب الاهتمام به هو في الدرجة الأولى هو المد الزمني المحمول ببصمة حاجو، وما هناك من شعارات، وما كان هناك من التفافات، وتحالفات، ومطالب بكيانات سياسية مصغرة، كانت الحقبة تشفع لها، ولو لبعض الوقت .

في كل ذلك ثمة لزوم لمكاشفة من نوع مختلف، والدخول في حوار مختلف مع التاريخ وضبطه، أو البحث في ثنايا ما هو مبثّر فيه، أو ما يتطلب تعديداً أو تنقيحاً أو إعادة بناء أو طلب المزيد من الإيضاحات راهناً .

إنه تاريخ اسم، وهو معبر إلى تاريخ أمم وشعوب مبثّرة في المكان الواحد، وتبحث عن مستقر لها .

ذلك ما يمكن العبور إلى ساحته غير المسطحة، وحاجتنا إلى اليقظة، حياً بتاريخ لا يراد له أن ينسلت منا .

ذلك ما ينشط فضيلة التعرف أكثر، وإن كان الاسم يختبرنا في علم معاني الأسماء، ومرجعياتها، أي ما يخص «حاجو»، ومن أين جاء، أو جيء به كذلك، حيث لا معلومة البتة حوله، وهو اسم لا يخفي سهولة تهجئته، في حروفه الأربعة، لكنه ينطوي على سرّ المعنى الفعلي غير القابل للجرم به: ماذا يعني اسم حاجو، ولماذا حاجو، لماذا حاجو حاجو وحاجو؟ وباللسان الكردي تتشكل صعوبة الحرف الدخيل «الحاء»، أم ثمة تكريد الاسم «حاجو، حجّي، حجّيو»، أم رفع اسم كردي إلى مصاف العربي «هاجي: هو ذا المكان، هاجو HA çû : أقرب إلى : ها هو قد مضى، ها قد ذهب، أو: قريب المكان: هاجي... الخ؟» .

أي حيث المعنى العربي يتربص بالاسم بتأثير من لغة الدين العربية، لكن الاسم القليل، وربما النادر الاستعمال، يظل معلقاً في فضاء الرهانات، الأمر الذي يوقف الاسترسال في البحث، حتى ينبري ما يطمئن المقابل: ما يعنيه حاجو بالفعل، وبذلك- أيضاً- يضاف إلى الاسم بعد لغزي، كصاحبه، فيما عرف به بداية، وفيما بلغ به أوج القيمة الشخصية في حاجو آغا ...!

صناعة الاسم، أهي صناعة حقاً ؟

«يبدو التباين الموجود بين الشاهد» عن حياته الخاصة «والمؤرخ» لأحداث العالم «مكتملاً، فالأول تحركه مصلحته الشخصية، أما الآخر فيدفعه حرصه لبلوغ الحقيقة».

تزفيتان تودوروف: الأمل والذاكرة «خلاصة القرن العشرين»، ص 178 .

رقة ملاحظة :

ماذا يعني أن تكون شاهداً على الآخر وعلى نفسك، وأنت في معرض الكتابة عن تاريخ مضغوط داخلاً وخارجاً؟

ربما كان في المستطاع الآن التوقف عند السؤال المتعلق بالاسم الذي نريده، وقد أصل مبناه ومعناه: حاجو «الثالث»!

في العودة إلى ما تقدمت به في مستهل القسم الثاني حول حاجو آغا ومقترح الدولة الكردية، يمكن إبراز بطاقة تسمية الشخصية من الداخل جهة مؤهلاتها، وما كانت عليه في وسطها الاجتماعي، وأنا أقتطف قولاً لنورالدين زازا عنه أو فيه، حين التقاه في بيت في دمشق هو ملتقى منفين كرد من جهات كردستانية شتى، إنه بيت علي آغا زلفو(وأما المتميز من بين كل تلك الشخصيات في بيت اللاجئين وأكثرهم بروزاً فلقد كان حاجو آغا الذي كان رجلاً ذو «ذا» قامة طويلة وسحنة فاتحة وعينين زرقاويتين كما تميزت حركاته بالاتزان والهيبة لانحداره من عائلة آغا قادت عشيرة هيرفيكان المتمركزة في منطقة ميديات ، شرق مادن، وقيامه بألف مغامرة ومغامرة)⁽¹⁾.

هو نص لغوي: اجتماعي وسياسي ونفسي بالمقابل، سوى أنه عبارة عن شهادة من رجل علم ومعرفة، في رجل خبرات حياتية وحنكة سياسية، بالرغم من أن زازا ليس ببعيد عن ممارسة السياسة، سوى أن لحاجو ذاك شأنًا تاريخياً آخر.

(1) زازا، نورالدين: حياتي ككرد، ترجمة: خسرو بوتاني، آراس، هولير، ط1، 2008، ص 91 . من المعلوم، وهذا ما يشير إليه زازا، بالنسبة لعلي آغا زلفو، أنه كان حمو «والد زوجة» رجل سوريا القوي ورجل الاستخبارات الرهيب عبدالحميد السراج، وهذا يستدعي المزيد من التفكير في مفارقات العلاقات وتوجهاتها في السياسة وقتذاك .

زازا له صلة «طبقية» به، إن تحدثنا عن الأرضية الاجتماعية والاقتصادية، سوى أن زازا ينعطف في حياته والجهة التي خرج منها على ما هو أرستقراطي، وهو خريج جامعة سويسرية، وأن السياسة التي احترفها انطلقت من العين عبر القراءة، والقلم عبر الكتابة، وكيفية المزج بينهما في نطاق مجتمع لكل منهما نظرة مختلفة عنه، وأن حاجو يرتكز في حياته والجهة التي تخرّج فيها هذه المرة، إلى ما فارس ساحة، ونصف اقطاعي ربما، ومفتون بوعيه بالسياسة، ومقدّر لبنية الصورة التي تثير فيه خياله الكردي وقد ازداد مدنية مع الزمن، وحساباته حسية من نظيره زازا، وربما كان إعجاب زازا به من هذا المنطلق، وهو الذي تغلّب على نفسه «الأمية» ومارس الكتابة، وكذلك تعلم القراءة بالتركية والكردية، وكان له في ذلك ما يعينه، ويهذب فيه نفسه ليكون أكثر تفاعلاً مع المستجدات، وانخراطاً في لعبتها، إلا أن ديناميكيته اليومية أثارت أكثر .

إنما ثمة نقطة أخرى شديدة الأهمية والخطورة في نطاق بحثنا هنا، وهي العائدة إلى مفهوم، لطالما كان محط تعليق ومن موقع السخرية أحياناً «الآغا»، إذ رغم أننا حاولنا مكاشفة الاسم/اللقب في أمكنة أخرى، إلا أن الضرورة التاريخية تفترض إنارة خاصة له في العمق:

ما يصل حاجو آغا بعلي آغا زلفو، وكيف أن الاثنين يخرجان عن «قمقم» المفهوم المعتاد .

من المتعارف عليه كثيراً، وكما يتردد هنا وهناك أن الآغا يذكّر بالإقطاعي، وفي اللغة اليومية أو في بعض الحالات تستخدم المفردة الأجنبية «الفيودال» تعبيراً عن التخلف وحتى الرجعية في المحتوى الاعتباري له، غير أن الحقيقة التي تعرّف به في مكان ما ليست هكذا في مكان آخر، ومن ذلك: كيف لآغا، هو علي آغا زلفو أن يصبح بيته قبلة أقطاب الفكر والسياسة الكرد، وممن يعتبرون ببيكوات وباشاوات، لولا أنه متمتع برصيد من الوعي المميّز له، وبالتوازي مع حاجو آغا نفسه، القادم من برية مزيزخ، أو مدياد، لابس العباءة، لكنه حامل فكر من نوع مغاير؟

أليس الإعجاب مرتبطاً بمفارقة المتداول، وعدم دقّته، وهو يرى نماذج استثنائية؟ كيف أمكن لهذا الآغا: الإقطاعي الأقل رتبة «أرضية» من آخرين، في أن يكون الأكثر رتبة اعتبارية ولفت أنظار من خريجي جامعات وكليات حربية، مناورة ومواجهة خصوم ؟

إنها دقة ملاحظة رئيسية في معرض مكاشفة مجموعة الخيوط التي تكون شخصية هذا الزعيم القبلي، الريفي، العابر للحدود، المدني والمتنقل بين الأمكنة ودأبه ألا يكون نسخة عن أسلافه في التقليد، لأن زمنه ليس صورة طبق الأصل عن زمنهم، ولا الذين يتعرض لتهديداتهم هم كالذين كانوا يهددون أسلافه ومن كان يرتبط بهم مصيرياً في بوتان، كان في بنية النفسية رجلاً مفتوناً بالمدينة، وما بني في تربه سبي من قصور على طريف الشارع الذي يقطعها إلى شطرين، من الغرب إلى الشرق أو بالعكس، كما لو أن التقابل بين هذه البيوت الحجرية الباقية إلى يومنا هنا، تصميم هندسي، جغرافي للخط الحدودي المصطنع والذي يعني : جنوب الخط وشماله «بنختي وسرختي». تلك صورة تشبيهية قد لا تكون دقيقة، أو لم يكن مدشن القصر الأول، مأخوذاً بحالة/هيئة كهذه، إلا أن النظر في المشهد المعماري جائز لأن يعرفنا بذلك، وحين نعلم في الوقت نفسه، وكما سمعت كثيراً من كثيرين ممن التقيت بهم، ممن جاؤوا بعدها قبل تسعينيات القرن العشرين وبعدها، وأسست القياد لخيالات أمكنة في الجوار كثيراً، في بعض من هاتيك البيوت الحجرية/القصور، أن كثيراً ممن كانوا يعرفون على مدى عقود من الزمن في النصف الأول من القرن العشرين، لا بل وفي ثلثه خصوصاً حيث كان حاجو على قيد الحياة وهو في تمام قوته وبأسه، كانوا رموزاً للحركة الكردية، أو ممن نقرأ أسماءهم في سجلات تاريخية وغيرها، كما سنرى .

لنأت على إيراد رواية سليل عائلة حاجو: شاهوز حاجو الأحدث في السرد التاريخي، والذي يُذكر لأول مرة، وفي وسع المهتم التدقيق في المختلف عليه بين رواية وأخرى في هذا المسار البحثي المتشعب، والسبب الفاعل في ذلك، رغبة في توسع دائرة التاريخ العالق هنا، وأن استعادة البداية ذات الصلة بالأصل أو النسب، ومن ثم الانتقال إلى نقطة تالية، بداعي الربط، وتكوين صورة أكثر تماسكاً، إلى جانب إثارة الذهنية التاريخية عند قارئه، بالنسبة لم تفصله عن بؤرة الحدث أكثر من قرن من الزمان⁽¹⁾

(حاجو آغا هفيريكي «hevêrkî»، هو ذا الاسم الذي لقّب به حاجو، أي عُرف باسم عشيرته. والهفيريكية بدورها تتكون من المسيحيين، المسلمين والإيزيدية،

(1) ينظر في مقال شاهوز حاجو «حاجو آغا» باللغة الكردية، في موقع «آارات» الإلكتروني، والرابط هو : <http://ararat-welat.blogspot.com/2010/11/haco-axa.html>

ومؤلفة من «24» عشيرة صغيرة. لكل عشيرة رئيسها، والجميع في المحصلة مرتبطون برئاسة عامة لهم. الآغا، أو رئيس هذه العشيرة هي أسرة اوصمان، حاجو، سروخان، خلف جرجو Circo وعليكي بتي Elîkê Batê ... والهفيركي مثلها مثل الكثير من العشائر والقبائل الكردية الأخرى، بدورها ترتبط بأمير بوتان.

والعشائر ذات الصيت وسط الهفيركية هي: أليكا Alike ، برا في Beravî، بوتكا Bûtik، جومرا Çomera، دلمكا Delmemika، ديرال Dêral، دومانا Domana، دوركا Dorika، أربيا Erebiya، اومركا Omerka، رايت Rayît، أليكا Elîka، صالحا Saliha، شمكا Şemika... الخ...).

الكاتب لا يعلمنا منذ متى تم هذا الربط: التنسيب إلى العشيرة، إلى جانب أنه لم يأت على ذكر الراوية، أي مصدر معلوماته: هل من السنة محيطيه، ومن هم، وأين هم، ومنذ متى؟ أم من الكتب وأي منها؟ إذ إن أول ما يُذكر في حدود المعلومات المتوفرة لدي كتاب بروينسن. ربما هنا يجدر التذكير بأقرباء معمرين له أفادوه ببعض المعلومات، ليحسن كتابة هذه السردية الهفيركية، وبصورة خاصة: سردية حاجو آغا بالذات .

وفي قائمة أسماء العشائر ذات الصيت أورد أسماء عشائر، قسم منها مسيحية، كما رأينا في لائحة جميل حاجو: دومانا - صالحا - دلمكا - رايب- شمكا، والسؤال: ما الذي أبعده عن ذكر حتى ولو عشيرة إيزيدية، وقد أورد جميل حاجو أسماء ست منها؟ أهي مغمورة ليتم تجاهلها؟

فيما بعد، كيف يوضح السلسلة الشبكية لأسماء العائلة، كاجتهاد وشعور بأن الذي يقوم به واجب عائلي؟

(حاجو هو ابن حاجو، لأن حاجو الأول كان استمرارية سلطة أمير بوتان في المنطقة، وقاوم السلطة «العثمانية طبعاً»، وأصبح محكوماً. وقد قتل حاجو وقُطع رأسه من قبل جمو بتحريض من الدولة «العثمانية» سنة 1880، وقبل حاجو يقتل ججان Çeçan معه بدوره .

وعندما قتل حاجو الأول، كانت زوجته حاملاً بحاجو الثاني، والذي يبصر النور في مدياد، وهناك يترعرع. ويثار عليكي بتي Elîkê Batê لمقتل عمه حاجو، حيث يقتل جمو بنفسه .

وعندما يكبر حاجو، كان هناك سعي إلى استلام رئاسة العشيرة إلى جانب ابن عمه عليكي بتي. من جهته يقوى حاجو في منطقة توري Torê، أما عليك Elîk من جهته هو الآخر إلى جانب أخيه خليل فيقويان بين كل من الأومرية والمحلمية .

لتصبح العشيرة فيما تحت سلطة كل من حاجو وعليكي بتي، ويكون لقوتهما شأن، ولن يعود هناك من يمكنه الوقوف في وجههما في منطقتهما).

بالنسبة للمعلومات المقدمة حتى الآن، لا يظهر أن هناك من جديد، إلا ما يعتبر منقولاً، أو شائعاً، وحتى بالنسبة لجملة المعلومات اللاحقة على الأولى، من حيث الدلالة (وبعد تأسيس جمهورية مصطفى كمال «1920» وانهيار الامبراطورية العثمانية، اتجهت الجمهورية التركية وهي بكل قواها إلى كردستان، ساعية إلى كسر شوكة الكرد .

ليقتل عليكي بتي سنة 1919 في مدهي Midihê، من قبل الجيش التركي-العثماني وأعوانها. بهذه العملية تعرضت حركة هفيركان إلى انتكاسة كبيرة، سوى أن مواجهات حاجو وهفيركان في المقاومة لم تتوقف إذ كان هناك بين القوات المسلحة لهفيركان محاربون ينتشرون ما بين حدود دجلة Ava Mezin، إلى قامي سلهي Qamê Selhê، ووادي هدلي Newala Hedilê، من مجموع «24» عشيرة من الكرد، المسلمين، الإيزدية، والسريان، حيث كانت تتدلع اشتباكات في أمكنة كثيرة، وكانت تاقا Taqa من بين تلك الجهات التي شهدت حرباً حامية في مستهل عام 1923، والتي تقع شمال مزيزخ Mizîzexê، في مثلث خرابي، أورتى ومزيزخ Xerabya، و Êwertê، Mizîzexê.

(وكان مقر حاجو وقتذاك في باكوك Bagokê، وبادب Badibê، إذ يستقر هناك. وكان خلف جرجو ابن عم حاجو في مزيزخ يمارس الكثير من الظلم والجور على قروبي المنطقة، وهو ما لم يرض عنه حاجو) .

صحيح أن وضعاً متردياً من الناحية الأمنية أشير إليه، وهو ما كان ينغص أفراد العائلة ممن يقلقون في حالات من هذا النوع، إلا أن المفيد قوله، هو وجود ما يتحدى كل محاولة لضبطها، أو تجاوزها بالذات، وإلا فالقوة:

(وعندما يتجه حاجو إلى مزيزخ بناء على شكاوى وتظلمات هفيركان والقرى المجاورة، يغير عليه الجيش التركي بقوة كبيرة، ويعرض قرية مزيزخ من ديار باجني

Diyarê Bacinê لنيران مدافعه، وجراً هذا القصف تصاب كل من كوجري Koçerê أم محمد كوجري وفرحو فرزي Ferzê ، في أسرة اوصمان.

لقد ضعفت قوة حاجو وهفيران بعد مقتل عليكي بتي قليلاً، سوى أن هذه القوة كانت تستعاد تدريجياً، وكان هناك خطط بين أيديهم لتوسيع رقعة المقاومة، لهذا، فإنهم ما كانوا يرغبون الدخول في مجابهة عسكرية تستمر أياماً مع الجيش التركي، فما كان منهم إلا أن تراجعوا بقواتهم من مزيخ متحركين صوب تاقا).

هي عودة أخرى إلى ما كان، إنما تقدم إلى الأمام كذلك، إنما مساع مكثفة للسيطرة على الأوضاع، وفي كل مرة كنت لغة العنف تطغى على ما عداها، عدا عن أن «لعنة» إن جاز التعبير أحالت دون تهدئة الأوضاع، وهذا ما يدفع بنا إلى سؤال من نوع آخر، لم يطرح حتى الآن: هل كان من ميزة خاصة، تبقي هفيران نصب أعين الذين تاحموها والسلطة العثمانية في المنطقة من خلال وكلائها أو موظفيها، لتتغلغل بعنفها الهفيري دورياً ؟

زمن التحديّ المعلوم :

ربما كان هناك شيء من هذا القبيل، ليكون التحدي مضاعفاً، إلى جانب إخضاع الاتحاد لمراقبة مضاعفة، نظراً لأن حيثيات العنف كانت تنبّه العشائر الأخرى، وتحرضها، أو تثيرها على رؤسائها وعلى السلطان كذلك !

شاهوز، لم يقدم إلا ما هو محدود، إلى جانب ضعف التحليل والسبك والدقة بالمفهوم التاريخي، ووساعة الرؤية، حيث عملية الترابط بين جوانب الموضوع تحفز على وضع نقاط استناد، لها صفة المنطق العقلاني بصورة ما، وذلك من خلال تأريخ ولادة حاجو الثالث بالذات، لهذا، أستعيد كتابة بروينسن، في بعض منها⁽¹⁾، لأن ثمة حاجة إلى هذه الرؤية البانورامية، وقد أضيفت إليها «شريحة تاريخية من سيرة حاجو الثالث، وما يمكن مقارنته نقدياً، أو استنتاج ما يستحق ذلك، حيث المزج بين التاريخ والاجتماعي والثقافي وحتى التحليلي النفسي، حيث إن عملية المسألة التاريخية عن نقاط تخص سنة الولادة وتداعياتها تأتي لاحقاً :

(1) بروينسن، مارتن فان: الآغا والشيخ والدولة...، ج1، المصدر المذكور، وقد وردت أرقام الصفحات في المتن للإيجاز.

(وأنذاك قام جليبي وسرحان الثاني، اللذان كانا قد كوناَ لهما في هذه الأثناء حاشية زاد تعدادها عن مائة رجل «وهو حجم هائل لأي حاشية»، ببسط حكمهما على جزء من قبيلة الهفركان، في حين بقيت بعض الفروع مستقلة يحكمها قادة من بينهم، بينما اعترفت فروع أخرى بحاجو الثالث، بطل هذه القصة، زعيماً لها . ص 232) .

في هذا المقتبس المحدود هناك مجموعة من التوازنات في بنية العلاقات العشائرية، وهي محكومة بسلطة غاشمة، أو سلطة لا تتردد في استعمال العنف ضد معارضيه أو المتمردين عليها، وثمة من يصطف معها، خوفاً أو لغايات شخصية أو مصالح محدودة، أو نكاية بهذه الجهة أو تلك طبعاً، ويرى آنفاً، كيف أن القبيلة الواحدة يمكنها أن تفرز مجموعة رموز تتمثل في أشخاص يتنازعون فيما بينهم، كما أنهم يركزون أبصارهم على كرسي الزعامة، وبنوع من لعبة شد الحبل أحياناً بتحريض جانبي من هذا الطرف أو أكثر، وأن توزيع النسب يخضع لميكانيزم القوى داخل القبيلة أو العشيرة أو حتى الاتحاد، ويعني ذلك أن الصراع يستمر على مدار الساعة وبطرق شتى، حيث أن حلبة الصراع هذه ليست مرسومة ضمن خارطة المكان الضيقة: العشائرية مثلاً، وإنما ذات علامات خارجية، وبالتالي، فإن أي انكماش، أو تمدد يفسر في ضوء ما هو مستجد في الخارج، حيث الضغط على الداخل يزداد أو يخف تبعاً للضغوط الخارجية على السلطنة، الأمر الذي ينعكس في الحال على المعارضين لها في الداخل، ومن ثم على تناقص أعداد المتحالفين مع الدولة بالذات.

بالطريقة هذه، تكون صورة جليبي وسرحان، من جهة، وصورة المنتمين إلى حاجو، والمتعاونين معه من جهة أخرى. وعلينا أن نتخيل ولو للحظة واحدة أي تنافس يجري بين الطرفين، وما نوعه، أي استماتة تظهر في عملية الحفاظ على المواقع، ولعل إشارة بروينسن إلى حاجو الثالث، بصفته بطل القصة لا تعدو أن تكون إعلاماً مباشراً على أنه يتفوق على غريمه من أي كان من الطرف الآخر، وهو إعلام مسبق، وما في ذلك من تغطية لها صفة اجتماعية وميدانية، كما أعلمنا بطبيعة عمله سابقاً، وأن هذه التغطية تركز إلى ما هو نفسي وسياسي وقد استقطبا أفراد الجماعة العشائرية أو القبلية مثلاً، مثلما أنهما أشغلا الجماعات الأخرى في الجوار، أي من العشائر والقبائل الأخرى، وكيف كانت تتم متابعة هذه التحولات، كما لو أن الأرض نفسها لم تهدأ، ولا كائناتها كانت تهدأ،

ولا أحلام الرجال، ولا مخاوف النساء، حيث لكل منهم نصيبه من الآمال والآلام في سباق تنافسي يتداخل فيهما الموت والحياة، وكأن أي توقف من أي كان، يعني إعلان هزيمته في الحال .

(كان حاجو آنذاك لا يزال يافعاً جداً، غير أنه كان يمتلك الصفات التي تؤهله ليكون زعيماً قبلياً عظيماً- كان يمتلك جسارة ويمتلك فكرة واضحة عما كان يريد، لا يقف في وجهه أي حائل يحول دون الحصول عليه. وكان خبيراً في شن الغارات و متمكناً من التكتيكات العسكرية. وشرع، وفي معيته حفنة من الرجال المخلصين، بمضايقة أتباع جلبي، محاولاً في الوقت نفسه تجنب الدخول في أية مواجهات مباشرة مع الرجل نفسه. ولم يستهدف في البداية لباً مجموعة أتباع جلبي، بل من كان أقل التزاماً تجاهه. فعلى سبيل المثال، إذا وجدت قرية كانت تدعم جلبي لكنها بعيدة بعداً كافياً عن مراكز قوته الرئيسية، فإنها كانت ستهاجم بقوة فائقة. فلم يكن حاجو ليهاجم إلا إذا كان متأكداً بنسبة 100 بالمائة من أن رجاله كانوا أقوى بكثير من رجال القرية. فلا يقامر رجل فيما لا ضرورة له، وليس لطامح أن يسمح بإنزال أي هزائم به. وكان، علاوة على ذلك، كثيراً ما يمتطي، وزمرة من أتباعه المسلحين جيداً، خيولهم إلى داخل إحدى القرى ثم يسوقون جميع الحيوانات التي استطاعوا العثور عليها، عائدين. «في البدء، بدا لي عسيراً على الإدراك أن يكون هذا هو السبيل الذي ينتهجه زعيم للحصول على العلوية في قبيلته هو، ولهذا فإنني توجهت بالسؤال إلى ابن حاجو، واسمه جميل «هل تعني أنهم كانوا يسرقون القطعان؟»، فأجابني جميل وهو المدرك لحقيقة أن الأوربيين يصنفون هذه الأشياء على نحو مغاير، بأن حاجو كان في الحقيقة يستولي عليها فعلاً، غير أن ذلك لم يكن سرقة، بل «تالان: غنيمة»، وهذه تنتمي إلى صنف مختلف كلياً: فاللص يأتي ليلاً ويأخذ الأشياء سراً، أما الرجال الحقيقيون فهم يأخذونها علناً، وهم بذلك يتحدثون الجميع «من عندي: لهذا يظهر أن حياة المعتبر زعيماً وقتذاك كانت على المحك، فعلى قدر تمكنه من مواجهة العدو أو كسر شوكرته، يكون ذبوع صيته»، ويظهرون أنفسهم بأنهم الأقوى، السادة. كان حاجو ماهراً في شن الغارات، بينما لم يستطع جلبي حماية جميع القرويين بشكل فعال، ولهذا أصبح العديد أتباعاً لحاجو لأسباب براغماتية جداً. وفي الكثير من القرى كان جزء من السكان موالين لحاجو، وجزء لجلبي. وفي مثل هذه القرى كثيراً

ما كان يحدث تبادل لإطلاق النار بين الفصيلين. وكانت هذه عادة عبارة عن قرى قد جرى تقسيمها سابقاً، وجاء صراع القوة بين حاجو وجليبي ليدكّي النزاعات القائمة» في الهامش 100: هذه هي الظاهرة نفسها الموجودة وقت الانتخابات في كردستان التركية. فالفصائل المحلية للفروع القبلية المتنازعة تتحالف مع الأحزاب السياسية المتضادة». (ص 234).

قد يقول قائل إن بروينسن يلتزم بمهنته وهو يورد معلومات تاريخية، ويطعمها ببعض الأوصاف التي تظهر بنية التطورات إلى جانب التحولات في حياته الشخصية والاجتماعية، وبحيادية، سوى أن التدقيق في مدوّنته الاجتماعية والثقافية، إن جاز التعبير، يرينا جانباً من الإعجاب والتقدير بشخصه، ليس لأن بروينسن هذا كان مفتوناً بما هو قبلي وبرجل خرج من القبيلة وأرادها أكثر من القبيلة، وإنما لأن هناك قدرات قيادية فيه، إلى جانب نزعة تفرد بالزعامة، إقدامية، لا تتوفر في سواه في المنطقة، طالما أن ليس الأقوى بمؤهلات جسمية هو من يسود فقط، وإنما التحكم بالذات والجسارة، وهذا ما كان حاجو يتميز به، وذلك حين تلمس في شهادات الذين يستمع إليهم، ومن خلال الربط بين الواحدة والأخرى، وما يشعر هو نفسه به جهة حرارة القول أو سخونته وتوتره كذلك، فيكون للنقد التاريخي ومدى ارتباطه بالثقة العلمية الطابع مقامه وكلمته الفصل، عملاً بقول مفكر فرنسي معروف، اشتغل كثيراً في هذا المجال، أي دراسة المسافة القائمة بين قول الآخر ومدى تأثيره، والمتابعة له من المهتم به، وما في ذلك من تاريخ واجتماع وتخيل شخصية وجوانب حية فيها كذلك (إن ما يضعه النقد التاريخي موضع تساؤل، على مستوى البرهان الوثائقي هو طابع الثقة بالشهادة العفوية، أي الحركة الطبيعية بوضع المرء ثقته بالكلمة التي يسمعا، بكلمة إنسان آخر)⁽¹⁾.

وفي طريقة بروينسن ثمة هذه العلاقة، أي التأكيد على أن حاجو الثالث استحق أن يكون حاجو بدون استخدام هذه الصفة «الثالث» في اللحظة التي يتم فيها التحدث عن مجموعة من الأعمال، هي مواجهات عسكرية، والتفاقات على الخصوم والأعداء، ومحك اختبار للشخصية وهي بمظهرها الزعاماتي وتأثير في الوسط الذي كان يتسع.

(1) ريكور، بول: الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة وتقديم وتعليق: د. جورج زينات، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2009، ص 275 .

وفي استعادة لحظة «شن الغارات، وجلب/حمل الغنائم»، يمكن الإضافة هنا، أن ذلك، وفي حينه كان جزءاً رئيساً في سياسة التعامل مع الآخرين، أو نوع من التقليد البنيوي الذي تقوم عليه الحرب البينية، وعلى المكشوف، لأن الذي يمارس مثل هذه «اللعبة» كان على بينة من الآخر هو هكذا أيضاً، وسلب الآخر ما يقتاد به، أو بدقة أكثر، ما يكون مصدر قوته الحسية أو الملحوظة على الأرض وحتى خيلائه، وشهرته بين الناس: حيواناته، قبل كل شيء: الغنم، كما لو أن هذا السلب هو إعلان هزيمته الساحقة، وتجريده من كل علامات القوة، وفي الوقت ذاته، فإنه لا يعود في مقدور إطعام تابعيه، أو القيام بواجبات الضيوف الذين يقصدونه، واللحم يكون من الوسائط الاجتماعية الرمزية التي يعتمد عليها المضيف لضييفه لإظهار مكانته الاجتماعية، أي ما يجعل الكرم بالطريقة هذه متناغماً مع القوة، وهذه مدمجة بهية محسوبة .

لهذا لا غرابة البتة، من وجهة نظري، أن نقرأ ما يترتب على هذا الحضور المتنامي للرجل (وبشكل متدرج، إنما ثابت، ازدادت أعداد الذين اعترفوا بحاجو زعيماً للهفركانيين، وبحلول العام 1925 كانت الغالبية العظمى تؤيده. ص 235).

وأحسب أن ما حاول توضيحه فيما بعد لم يكن تأريخاً، وإن انعطف عليه، وإنما ما يتعلق بتوصيف وضعي اجتماعي وتاريخي لا يقتصر على شخصية حاجو، وكيف تتقدم في الزمن لإكمال ذاتها بمزيد من علامات القوة وفرض الذات، ومن ثم علو الصيت، إنما على محيط اجتماعي محلي وفي العلاقات المختلفة مع المجاورين له في سباق محموم (وعلى النقيض مما يتوقعه المرء من ظاهرة التشظي في صفوف القبائل، فإن حاجو لم يؤسس سلطته في حملته هو وبعد ذلك في وحدات أكبر بشكل متعاقب، بل كان ناشطاً في جميع الأفخاذ في الوقت نفسه. وفي كل فخذ كانت له بعض الفروع الصغيرة التي انضمت إليه، تلتها فروع أكثر في وقت لاحق. وكان بالإمكان استخدام النزاعات الثانوية التي كانت تقع داخل جماعات لا تزال خارج نطاق قبضته من أجل استقدام أحد الفرقاء للتحالف معه. وقبل أن يمتلك السيطرة على كامل الاتحاد القبائلي لوقت طويل - وهو الشيء الذي لم يحققه بتلك الدرجة، أبداً - انخرط حاجو في السياسة على نطاق أوسع بكثير. فحاول أن يشكل تحالفاً وطنياً كردياً - تحت قيادته طبعاً. ص 235).

أبعد من حدود العشيرة :

عند النقطة الأخيرة، يظهر أن هناك عبارة تشبه خروجاً على النص، وعلى تاريخ الشخصية الزعاماتية القبلية، أي مدى الاهتمام بالسياسة، وما يدفع بحاجو إلى ما هو أبعد من حدود هفيركان: التحالف الوطني، وهذا يعيدنا إلى ما انطلقنا منه بخصوص مفهوم «الحمولة» أو «الاتحاد القبائلي» باعتباره كونفدرالية مؤسسة على الأرض، كنموذج مصغر لمجتمع واحد، حيث يتم التدريب عليه، والتوجه نوه، وبناء عليه، فإن من السهل القول في ضوء المتقدم حتى الآن، أن هذا الاتحاد، ومن ثم التحالف ليس أكثر من إرادات أفراد هم في مراكز قوى ضمن مواقع على الأرض، تتفاعل فيما بينها، ويتم اعتراف ضمني من قبل المعنيين بها، بأن تمثيلها، وهي موحدة في شخص قيادي من النوع القادر على استيعاب كل هذه القوى، ليس في مقدور أي كان القيام بهذه المهمة وتحدي الآخرين، وتوقع المخاطر، وهذا ما كان عليه حاجو، أي ما يجعله رجل سياسة مجتمعياً أكثر من تأطيره بعلامة فارقة هي «القبلية»، كما سنرى .

يقول روهاث آلاكوم عنه، ما يؤكد هذه المعلومات وصحتها، أو ينبّه إليها، على مستوى بحث الزعامة ذاتها عمن يليق بها تمثلها (حياته دراما كردية خالصة بدءاً من كونه جنيماً في رحم أمه حتى مماته، وكيف يثار لأبيه بقتل سرحان ابن خاله الذي قتل أباه، ويتوارى عن الأنظار خمس سنين، ثم يمضي إلى بيت خاله جليبي ليلاً مسلماً له نفسه فيعجب بشجاعته ويعفو عنه، ويطارده الأتراك حيث يسجن فيتعلم التركية قراءة وكتابة في السجن ويهرب بعد ثلاث سنوات..)⁽¹⁾.

وهذه الشهادة من جهتها، سوف تشبع بالمزيد من المعلومات ذات الصلة بالتحركات السياسية والعسكرية على الأرض، سواء من خلال توضيحات أو متابعات في أكثر من اتجاه من قبل آلاكوم أو غيره ممن سلطوا أضواء تاريخية على تلك الحقبة الصعبة و الثرية بأحداثها وتداعياتها .

وإذا كان هناك من حديث بما يوسع قاعدة المعلومات التاريخية هذه أو يضيف عليها حركة أكثر من جهة الدلالة والقيمة، فذلك ممكن من خلال متابعة ابنه

(1) آلاكوم، روهاث: خويون وثورة آكري، ترجمة : رابطة كاوا، مراجعة: شكور مصطفى، بيروت- أربيل، ط1/2001، ص 47 .

جميل الذي يتحدث عنه في مذكراته وبشغف ملحظو، إنما دون توصيفات تقلل من حيوية القول، وإدراجه في خانة التأريخ، وليس المديح الجانبي، أي ما كان عليه حاجو الذي تظهر صورته في أكثر من موقع ووضعية ضمن العئلة والاتحاد وفي المنطقة ومن ثم خارجها، بالمفهوم القيادي السياسي هذه المرة:

(بعد وفاة عليك أصبح جلبي الحاكم المطلق لعشائر هفيركان إلى أن وصل الوالد إلى الديار «وكان سجين الدولة» وبدأ صراع شديد بينهما على الزعامة. ومع مرور الزمن خلال سنتين تقريباً استقطب الوالد معظم القبيلة الأمر الذي أدى إلى ضعف جلبي. لكن جلبي لم يستسلم للواقع وأخذ يستخدم ذكاه في سبيل الإيقاع بالوالد واختار الطرق الملتوية للوقوف بوجه خصمه القوي. فاتصل بأغوات عشيرتي الدكشورية والأومرية وأقنعهم بأنه لا سبيل في الوقوف ضد حاجو الذي أصبح قوياً إلا بالاتحاد. فاتفقوا على تدابير خطة مشتركة وعليه فقد تقدموا بشكوى جماعية إلى السلطة قائلين بأن حاجو أصبح في مركز قوي على رأس قبيلة كبيرة فإذا استمر الحال على هذا الشكل فلا بد أنه سيهاجم العشائر المجاورة كما هاجم والده عشيرة الدكشورية وابن عمه عشيرة الأومرية. فاقترعت الحكومة بهذا المنطق وتم تشكيل قوة عسكرية وعشائرية مشتركة لمهاجمة حاجو في مقره في مزيخ. ص 44).

تلك هي مأساة الكرد المشتركة فيما بينهم، كما في حال جلبي ابن العم وجلبي الغريب والخصم بالمقابل، ولعلها الحالة/الظاهرة القائمة إلى هذه اللحظة، ولو بمعنى أوسع وداخل المدينة من خلال الصراعات الحزبية ومدى تمازجها مع ما هو قبلي، إنما في العلاقة مع سلطة قائمة، وهي صراعات تمثل العائق الأكبر أمام نشوء أي أرضية مؤسساتية للمجتمع بالذات، وتعطي دعماً للسلطة القائمة، بطابعها المحسوبياتي .

وقبل أن أنتقل إلى نقطة أخرى لها صلة بطبيعة الصراعات القبائلية، إلى جانب القيم التي يشدد عليها، أو تتفعل بين الحين والآخر، من قبل أفراد، أو زعامات، وما تتطوي عليه تلك من مناقب ذاتية، والموضوع له صلة بعملية خروج من الخصمين اللدودين لبعضهما بعضاً: سرحان وحاجو، وقبلها كان عليك قد هرب من السجن، كما ذكرنا، وحمد توفّي، ليكون كل من الخصمين المذكورين على محك القيم/المناقب تلك أو نقيضها، حيث إن نقرأ في مذكرات جميل حاجو، ما

يخص هذه العلاقة، مع التنويه إلى تعبير لغوي خاطئ، وهو أن هناك بدلاً من التنثية يكون الجمع (أما سرحان وحاجو فقد تقرر إرسالهم «إرسالهما» إلى أنقرة التي أصبحت العاصمة بعد سقوط ستانبول على أيدي الحلفاء. تم ترحيل سرحان وحاجو من سجن العزيز إلى أنقرة وبسبب كبر سن سرحان ومرضه اضطرت الجندرمة إلى استئجار دابة له وكان يتم تبديلها كل فترة، أما الوالد فلم يسمح له بامتطاء دابة فكان يمشي على الأقدام. وهكذا تابعوا الرحلة إلى أن وصلوا إلى قرية قريبة من أنقرة وكان الوقت مساءً، باتوا تلك الليلة في بيت المختار، ولما انتصف الليل غفا الجندي الذي كان يحرسهم فما كان من منهم إلا اغتنام الفرصة والهرب. ساروا لمدة ثلاثة أيام متواصلة يختبئون في النهار ويتابعون السير ليلاً. كان حاجو يحمل سرحان على ظهره أحياناً بسبب مرض الأخير، والحقيقة أنها لغرابة فروسية في نفس الوقت أن يكونوا أعداء لدودين ولكنهم يعرفون الأصول وتبقى الأخلاق الأسمى والأصفي في هكذا مواقف. ساءت أحوال سرحان وخشي أن يؤثر بذلك على الوالد أيضاً لذا أشار على الوالد أن يتركه ويذهب في حال سبيله ويتدبر هو أمره بالذهاب إلى إحدى القرى واستئجار دابة يمتطيها والقدر وحده هو الذي يحدد مصيره. لم يتقبل الوالد أول الأمر باقتراحه، ومن جهة أخرى قال الوالد له أنه يخشى أن يتهموه عند عودته بقتله وذلك كونهم أعداء، كما ذكرت، ولكن سرحان أصر أن يتركه الوالد، وهكذا كان.

تابع سرحان السير إلى أن وصل إلى أضنة ومن هناك ركب القطار الذاهب إلى نصيبين ونزل قبل أن يصل إلى نصيبين بمحطة ومن هناك واصل السير إلى أهله في قرية مرياب، أما الوالد فقد تابع السير ليلاً لمدة ثمانية عشر ليلة وعند وصوله إلى إحدى القرى في منطقة ملاطيا تذكر أنهم في رحلتهم مع الجندرمة من العزيز إلى أنقرة باتوا ليلة عند أحد وجوه القرية واسمه عبدالقادر وهو جركسي الأصل، ولما كان التعب قد أنهكه قرر الذهاب إليه مرة أخرى لعله يساعده في أمر سفره. وعند دخوله إلى داره تذكره عبدالقادر وساعده فعلاً حيث أعطاه الوالد مبلغاً من المال ليشتري دابتين ولبس الوالد لباس الجركس زيادة في التمويه ورافقه عبدالقادر في رحلته. بعد أسبوع من السفر وصلوا إلى خيم معمو باشا الموجودة في ويران شهر ولما عرفه معمو أكرمه ورحب به أجمل ترحيب وفي اليوم التالي جهز معه سرب من الخيالة لمرافقته حتى يصل إلى أهله . (ص 41) .

لا بد أن القارئ يعلم جداً أن ما يقرأ هو اقتباس طويل نسبياً، غير أن ثمة مبرراً له، كما أرى، وهو أن إirاده يفيد في معرفة مجموعة من العلاقات والقيم المختلطة مع بعضها بعضاً، ما كان لها أن تتضح إلا بالطريقة هذه:

الأمر الآخر الذي يستحق التنويه، والذي لم أتعرض له سابقاً، هو أنني لم أعثر على روايات أخرى، وبنوع من الكافؤ، ذات بهذه الصراعات المذكورة، ومن قبل من اقتبست منهم، أو توقفت عندهم، كما في حال بروينسن، خصوصاً، كأن يورد شهادات آخرين من قبائل أخرى تغني البحث، وتعطي لما هو اجتماعي حقه في التسمية والاعتبار طبعاً.

من أولى النقاط التي تستوجب النظر فيها هي صلة القرابة بالصراعات القائمة وكيفية التقابل فيما بينها ؟ إنها الصراعات التي تضعنا في واجهة اعتبارات تشدد على وساعة مفهوم القرابة من جهة، وضيق مفهوم الصراعات الجانبية من جهة أخرى، في بعض الحالات أو الأحيان بالتأكيد، وفي أوضاع معينة بالذات، وهي بمثابة التفريق بين مجموعة القيم الذاتية، كما رأينا آنفاً في صلة كل من سرحان وحاجو، أي ما يرجح كفة التقدير والاحترام والمساعدة على نازع الخصومة أو العداوة، ولا شك أن جميل حين استخدم عبارة «غربة فروسية» يلفت النظر إلى خلفيتها، ولا أدري ما مدى تقديري الفعلي لها، أي الأرضية التاريخية للعبارة. من أين تتأتى الغربة الفروسية؟ لا بد أنها كامنة، قبل كل شيء في تلك القيم المتداخل، والمتضادة تماماً، أي حين يكون في مقدور الفارس الإجهاز على غريمه، وهو سهل قتله، فيتركه في حال سبيله أو يعفو عنه، أو يتراجع عن قتله لسبب أو أمر ما، وفي موقف كهذا تعان القيم الموجودة وبنائها المرصوص.

العالم المرئي وخلافه :

بالتوازي مع هذه العبارة، فإنها تمضي بنا إلى مجتمع رعوي، وإلى عالم الخيالة وحرب الخيل، فتكون العبارة السالفة غير مفارقة لعالم كهذا أبداً، سوى أن غرابتها تتمثل في العداء المستفحل نسبياً، بين طرفين العائلة، وكيف أن نار هذا العداء لم تفلح في تعميقه، ومن جهة ثالثة، يكون هناك تأكيد بالمقابل على جدارة حاجو في أن يكون زعيماً بامتياز.

في السياق نفسه، لا يعرف لماذا كان جميل يسمي سرحان وهو الطاعن في السن، وعم له «لجميل» ولا يتجهز هكذا؟ لا شك أن هذا النوع من التعامل لا

يدخل في سياق سرد الواقعة هذه أو تلك، وإنما في إبراز مجموعة من المشاهد التي تشكل سردية تاريخية موحدة، وهي تتضمن تصورات أو قيماً مختلفة، وأحسب هنا بالتالي، أنه لو سبق الاسم بعبارة «عمنا» لأضفى على القول مسحة من الكرم النفسي أو المناقبية الموازية لمناقبية والده.

ضمناً، لا إشارة إلى مصير الجندي المرافق «أكان واحداً أم أكثر؟»، أو ما جرى بعد ذلك، إلا أن حدثاً كهذا يظهر بعضاً من العلاقات التي كانت تتم في وضعيات كهذه، حيث لا سيارات ولا تكثيف حراسة، تأكيداً على الاكتفاء بجندي واحد، لأنه مرهوب الجانب، ومحسوب على الدولة، أو لأن الدولة كانت تدرك مدى تخوف الناس منها ومن عناصرها، إلى جانب أن هرب كل من سرحان وحاجو، يرتبط بوضع أمني ليس له صلة بما نحن عليه في يومنا هذا، حيث لا وسائل اتصالات أو مواصلات، وحيث كانت الدولة ذاتها في حالة يرثى لها.

في السياق نفسه، ثمة إشارة إلى فطنة حاجو تجاه قريبه، وهو التخوف من أن يتهم بقتله فيما لو تركه وتعرض لحادث ما، وهو محتمل تماماً، ليكون للإلحاح جانب آخر، ولا بد أن سرحان في قرارة نفسه كان يحفظ بهذا الجميل ويريده سالماً.

في مختلف الأحوال، فإننا نستطيع تناول نقاط أخرى، مثل شخصية المختار وكرم ضيافته، وكرم أخلاقه في مساعدته لحاجو، ومن ثم ما يكون عليه وضع حاجو كشخصية كانت محط أنظار محيطه.

لعلنا في قراءتنا لما يكتب عنه الآكوم في «جمعية خوييون» إلى جانب شخصيات أخرى أسستها، كما سنتعرف عليها تالياً، نحتاج إلى أكثر من مبضع جراح تاريخي وتقييمي في بنية المتردد من الأقوال، وتحديداً عند ربطها بالفكرة التي يتمحور حولها الكتاب: كيان دولة كردية، أو شخصية حاجو السياسية وتركيزها على كيان سبق ذكره.

قارئ الآكوم يحتاج إلى ترتيب لأقواله، حيث يوجز سيرة حياته ومن موقع تقييم، كما في حال الاقتباس من جكرخوين دون التوقف عند البنية الاجتماعية لأقواله، ومن ثم ما يلي ذلك وهو يرسم صورة سوداء للحركة الكردية، وقد تم إلحاقها بالعشائرية الموجودة، كما في (إن القياس الاقتراني لزعماء العشائر المتأرجح بين الشخصية العشائرية والشخصية القومية يلف بتأثيره الشديد حاجو

آغا، أيضاً، فيمنح حاجو آغا، النازح إلى كردستان سورية، بعد ثورة الشيخ سعيد، أراضى كبيرة هنا . ص (46).

هذا الترتيب في الكتاب يوحي بأن ثمة ثمناً لما آل إليه وضعه، وذلك في ضوء خط تحرك حاجو، إلى جانب أن رؤية هذه التحركات من «عل» تمكّنا بأكثر من معنى أكثر من التعرف على الجهات الأربع المحيطة بها، ومعرفة حدود كل من العشائري والسياسي فيه، ومتى يحضر السياسي، ويتنحى العشائري، وبالعكس، ربما لأنه في الواجهة، وربما لأن الذي يردده عنه له صلة بموقعه وهو يتشبط على أكثر من جبهة، غير أن ذلك يتطلب تروياً في عملية المتابعة .

ما يلي في الكتابة عنده، يري إقراراً شخصانياً، أو جانب الاهتمام بشخصه، ولو بشكل مكثّف ومباشر (كان حاجو آغا مازال في رحم أمه عندما قتل أباه أحد الأشقياء وكان يدعى سرحان . ص46) .

أغلقت القوس هنا، فقط للتنبيه إلى الخطأ الوارد هنا وهو أن هذا «الشقي القاتل» يعتبر من عائلة حاجو بالذات، وبالتالي تأخذنا الصيغة هذه إلى جانب آخر من تصور العلاقة بين الكاتب والاسم، أو ربما يكون للمترجم دور في ذلك، ولكن كان في وسع اعتماد صيغة أخرى في الإشارة إلى الصفة الشخصية للقاتل، وتداعياتها بالمقابل.

نقرأ فيما بعد (كان والد القاتل جلبي يومئذ هو الذي يترأس العشيرة. وبعد مرور خمسة عشر عاماً على هذه الجريمة يقتل حاجو آغا البالغ سن الرشد سرحان ثأراً لأبيه ويعتصم بالجبال... ويتعرض حاجو آغا إلى تعقب رجال جلبي ليل نهار، غير أن حاجو آغا يستطيع أن يفلح طيلة خمس سنين في الخلاص من شر مئات الكمائن التي نصبها له المعقبون. في شتاء قارس البرد خارج المستطاع وبعد نفاذ صبره على الاستمرار في الحياة والعيش في الكهوف والمغاور يستجمع أخيراً كل قواه، فيهبط من الجبل في إحدى الليالي إلى قريته ويدخل بهو مضيف الدار التي يقصدها، ويرتمي على يدي خاله جلبي ماداً رقبته بين يديه. تتجه يد جلبي نحو خنجره، إلا أنه في اللحظة الأخيرة يسحب يده من خنجره رافة بشباب ابن أخته والإعجاب بشهامته، مهيباً به أن ينهض ويجلس إلى جانبه قائلاً له: إنك إنما ولدت لتعيش، لا لتموت. وإني أعفو عنك، رغم أنك قتلت ابني، أقدم إليك يد ابنتي، وأريد منك أن تتزعم

العشيرة من بعدي. فاذهب إلى أمك التي طالما بكتك وذرفت عليك الدموع منذ سنين، وما عليك إلا أن تحضر مراسيم النيشان «عقد القران»..

وعلى هذا فقد أصبح حاجو آغا ذلك الرئيس الذي بلغ من البأس وقوة الشكيمة ومحبة الناس له مقاماً، بحيث أثار في قلوب مسؤولي الحكومة العثمانية من الحقد ما جعلهم يصممون على إلقاء القبض عليه وإبعاده من المنطقة. أما حاجو آغا الذي لم يكن يعرف شيئاً من القراءة والكتابة فينتهز الفرصة خلال سنتين في سجنه بسجن أضنة ليتعلم اللغة التركية فيتقنها كما ينبغي، وفي رأس السنة الثالثة من سجنه يجد طريقاً للفرار من السجن فيهرب... ويواصل السير عبر الجبال والمسالك الوعرة ليل نهار، ويفلح في الوصول إلى قريته.

وبعد أن يفر حاجو آغا يختفي لفترة ما في بيت أحد الوطنيين الكرد، الحاج بدر آغا «1872-1928»، الذي انتخب نائباً في الدورة الأولى والثانية عن ملاطية وفي الدورة الثالثة عن قارس، وهو جد حمرش رشو أحد المثقفين الكرد. ص 47).

هذا الاقتباس الطويل نسبياً بدوره، يثير أمامنا مجموعة من الإشكالات ذات الصلة بالتاريخ وكيفية تعقّب الشخصية،

أي مدى دقة الرواية المنقولة، حيث إنه في المقطع الأخير يحيل على زازا في سيرته.

من جانب آخر، يعلمنا جميل حاجو في مذكراته عن أن سرحان (توفي بعد وصوله من السجن بستة أشهر. ص46)، فوفقاً لهذه الرواية، لا يمكن الأخذ بالرواية التي أوردها آلاكوم، أي بصدد مقتل سرحان من قبل حاجو واختفاء الأخير لسنوات ثم العفو عنه من قتل «خاله» جلبي وهو والد سرحان تقديراً منه لشجاعته ورجولته.

لنتوقف عند مجموعة مقاطع من كتاب جبو، وضمناً ما يخص بعضاً مما تقدم، وما في ذلك من تكرار لمقاطع للربط وحيث إننا سنتوقف عند كل منها بدواعي معرفية وتنويرية لمفهوم الوارد في النص طبعاً :

(بدأت مغامرة حاجو الثالث قبل ولادته، إذ كان جنيناً في بطن أمه عايشة «زينب» خان، عندما قتل والده حاجو الثاني على يد جموع المدعوم من قوات الدولة

في معركة جبل مافا . ويقال أن الدكشوريين حاصروا قصر حاجو في مزيزخ بعد مقتلته لغرض قتل وريثه قبل ولادته، وفي تلك الظروف الصعبة انبرى الإيزيديون الهفيركان لنجدة زوجة حاجو وجنينها أن الإيزيدي خلف ميشو كوخه لي وأقربائه قاموا بإخفاء زوجة حاجو الثاني الحامل، وخرقوا الطوق الذي فرضه الدكشوريون بدعم من قوات الدولة، وهربوا المرأة. وهكذا تم إنقاذ حياة حاجو الذي لم يكن قد ولد بعد. إن هذه الحادثة مثال على شجاعة الكرد الإيزيديين المعروفة جيداً في المنطقة، فضلاً عن أنها نموذج جميل عن الصداقة بين الهفيركان المسلمين وغير المسلمين. (ص 117).

ثم يتوقع المؤلف أن تكون ولادة حاجو الثالث في قرية مزيزخ (التي كانت مقراً للأسرة.. يجب أن يكون ذلك في أواخر 1896 ص 117).

هذا المقطع له صلة بما هو مغامراتي، أي التذكير بوقائع أو قصص وحكايات من هذا القبيل، حيث إن موعوداً بمجد ما، أو ذيوخ صيت، ثمة ما يدعم هذه الواقعة، ومن ذلك السعي إلى القضاء عليه وهو ما يزل في رحم أمه، بعد النيل من أبيه، حتى ينفرد قتلته بالسلطة أو الزعامة:

من ذلك (حالات القتل الموجودة لدى الصفويين: لدى الشاه عباس وقد قتل أولاده الأربعة خوفاً على منصبه...وشاع القتل المتبادل في أواسط الأسرة الصفوية...⁽¹⁾).

وفي مثال آخر (بعد أن أحمد السلطان سليم الملقب بـ«ياووز سلطان» لميوله العسكرية، في مطلع القرن السادس عشر تخلص من والده، وإخوته.. ومن ثم قضى على كل الشيعة في الولايات المتاخمة لبلاد العرب وذلك بقتلهم، ليضمن انتصاراً على شاه إيران).⁽²⁾.

(1) المشهداني، سعدون: الإسلام السياسي «من الخوارج إلى المنطقة الخضراء»، دار ورد، عمان، ط1، 2009، ص 137-139.

(2) التونجي، د. محمد: بلاد الشام إبان العهد العثماني، دار المعرفة، بيروت، ط1، 2004، ص 131.

نقرأ أيضاً في كتاب حلمي النمنم: جذور الإرهاب «أيام سليم الأول في مصر»، دار النهر، القاهرة، ط1، 1995، بعضاً من هذه الإضاءات (كان صعباً علي أن أعتبر «سليم» فاتحاً..

إلى جانب مرويّات كثيرة عن رموز دينية وغيرها في التاريخ، كما في واقعة «موسى» وكيف وضعت أمته في سلة ورمته في مياه النهر، خوفاً عليه من يد الحاكم، وهي أمثلة يمكن إيجاز نظائر لها في أمكنة مختلفة في الكتب وعلى ألسنة الناس، تعزيزاً للقيم المتناقضة ومتغيرات الزمن، حيث نجد أنفسنا إزاء نوع من التبشير بمقدم شخص سوف يغيّر الواقع الذي عاشه أهله، ويمارس تأثيراً غير مسبوق في النفوس، عدا عن أن تشديد الخطير عليه يرتبط بالذي قبله، أي بأبيه، ومن داخل العائلة القرابية، وكيف أن لعبة السلطة تمحو القرابة وتفسخ أي صلة من شأنه تجنب إيذاء القريب .

عدوانية القريب :

السلطة تضيف على القريب لحظة الصراع عليها طابعاً من العداء والعدوانية، ربما أكثر مما لو كان غريباً، لأن الغريب يقيم ضمن مسافة، ولا يستطيع تجاوزها، حتى عن كونه مراقب، أو يبقى خارج دائرة المعرفة المباشرة بالجهة المعادية، وإزاء ذلك تتداخل مجموعة من المؤثرات النفسية في رسم صورة القريب العدو، وما فيها من ضغوط، وطرق «تفسيره» من حقل القرابة العائلية، إلى حقل التغريب والرفض، وحاجة ذلك إلى جهد مركّز/وتحديداً عند الدخول معه في صراع مباشر، والعنف المبدول في الحالة هذه، وهو عنف يستحق المزيد من الاهتمام، أي كيف تمارس القرابة المعكوسة دور المزكّي لعنف غير مسبوق، على قدر الرهان على ما هو مشترك، بالنسبة للسلطة، وهي الخاصة بالزعامة، وربما يكون لغواية السلطة القائمة وهي في حدود قوتها والذين يخضعون لها ما يبقى

ص12... لم تكن الحروب العثمانية في أوروبا تحتاج إلى تبرير أو تفسير أمام الجنود المقاتلين، فيكفي أن هذه المناطق الأوروبية هي «ديار الكفر»، ومن ثم فإن قتالها نوع من الجهاد الواجب على المسلمين. ص17... أصبح قتال المصريين غزواً وجهاداً وقاتلهم مرابط، أي في الدرجة العليا من الجهاد والإيمان، أما المقتول فسيكون شهيداً. ص20... طبعاً بعد نيل الفتوى في 1516، حيث القضاء على الغوري.

وفي الواقع، فقد كانت هناك مشكلة حقيقية تعيشها الدولة العثمانية، منذ أن أصدر السلطان محمد الثاني المعروف تاريخياً بلقب الفاتح قانونه والذي ورد فيه نص خاص بوراثة العرش وأن يتاح لمن يتولى السلطنة أن يقتل باقي أخوته، أي من يمكن أن يطالب بالسلطنة. ... وفي مصر كان هناك شقيق لسليم، حيث قبض عليه «أمسك به الجند، وتم خنقه ثم قطعت رأسه وأرسلت إلى استانبول. ص30... الخ) .

الصراع قائماً، أي جدارة السلطة بخوض صراع من أجلها وعليها، ودور الخيال في تزيين كل خطوة في العملية وهي تشغل الجميع بها، وقد تكون هفيراكان من حيث الحضور العددي وموقعها بين القبائل، والمستقبل المرسوم لها، بالمقابل، من الأسباب الوجيهة والمزينة للصراع .

وعلينا بالتالي، تصور الأطراف التي أسهمت في التخطيط للصراع، وأين، وكيف، ومن هم الذين نذروا أنفسهم لأن يغدّوا الصراع، ومن يكون المرشّح لأن يكون الزعيم/الرئيس، من يكون القريب منه، من يكون المبعد الأول عنه... الخ .

لنتابع مجدداً حيثيات الولادة مع إضافات تعمّق سردية الولادة والنمو :

(ولد حاجو الثالث في قرية مزيزخ التي كانت مقراً للأسرة.. وكما هو معروف فإن للأبناء الذكور قيمة كبيرة في العائلة الكردية الأبوية، أما بالنسبة لآل عثمان فإن هذا الطفل الجديد كان ذو «ذا» قيمة أكبر لأنه الوريث الوحيد لأبيه. لا شك أن الأسرة كانت كبيرة إلا أنه لم يكن لحاجو الثاني أولاد يحملون اسمه من بعده، ومن التقاليد السائدة لدى الكرد تخليد ذكر الكبار، وهكذا تمت تسميته باسم أبيه حاجو قبل ولادته، وبهذا كان ثالث ذكر في العائلة يحمل اسم حاجو ولأجل تمييزه عرف بحاجو الثالث.. ص118).

لكن حاجو الثالث هو ما جعله حاجو الذي لم يُبق سواه في الساحة، بتأثير ذاتي منه، وتجاوباً مع تقاليد مرعية في الوسط الاجتماعي ومن ثم العائلي، ولأن الذكر يبقى اسم الأب، وهو ما ينبغي التشديد عليه باعتباره ذكراً.

الذكر غير الأنثى، فمنه وإليه يكون النسب إجمالاً، والبداية تتلخص في الذكر، وكذلك النهاية، وعلينا ألا ننسى أنه لا في العشائر أو القبائل الكردية ولا في سواها، كانت المرأة زعيمة، أو هي التي تنصدر الساعة إلا في حالة نادرة جداً، وتشير مجموعة من المفارقات والتندرّات .

ثم (ومنذ صغر سنه تم تدريبه على الفروسية واستعمال السلاح... كان حاجو الثالث منذ أن كان شاباً يافعاً صاحب إمكانيات تؤهله للزعامة، فقد كان إنساناً جريئاً، ويعرف جيداً ما يريد ولا يتردد في سبيل تحقيقه... باختصار: كانت لديه كل الميزات المطلوبة بصفته من سلاطين هفيراكان.. ص118).

وهي نقطة نظام أخرى في عالم القبيلة، أو جهة التأكيد على شخصية تتردد حولها أقوال قبل أن تبلغ سن الرشد، وتلك من تلك النبوغ في القيادة، ولا أدري ما إذا كانت جملة أوصاف رسمت فيه، قد قرّرت وقد مضى على رحيله زمن طويل، أم أن الذي يتردد منها ترافق معه وهو غض طري العودة. وفي الحاليتين، فإن ثمة ما يمكن التوقف عنده، أي من قبل الذين عرفوه عن قرب، ومن ثم تابعوه وهو يكبر وينضج ويستلم مناصب قيادية معينة، أي حيث نجد أنفسنا بين لعبة مختلّل الرواة الشعبيين، ومن استساغوها- ربما- من آل حاجو بالذات، ومهنة التأريخ الشاقة في الضبط المنطقي للوقائع، خصوصاً في الثلث الأول من عمر حاجو آغا .

ولعل الاختبار الأول، وهو التحدي الأكبر، ما تمثّل فيها وهو يواجه سلطان العادات في القبيلة، وتحديداً وهي منقسمة على نفسها، لتزيد العملية النارَ أواراً (إن أول مغامرة عاشها في حياته تبدأ بأحداث الافتتان [العشق] . فبعد وفاة أبيه بخمسة عشر عاماً، أي عندما كان في الخامسة عشر من العمر، عشق بيروزة ابنة سرحان آغا، أحد أقربائه المقربين، وكانت بين عائلتيهما خصومة تقليدية، فقد كان سرحان من وجهاء دكشوري ورفض بشدة تزويج ابنته من زعيم هفيركان...وعندما لم تبق وسيلة لحاجو خطف الفتاة وصعد بها إلى الجبل. ومن المعروف أن خطف الفتاة لدى الكرد يؤدي إلى معارك دموية...وفر حاجو إلى الجبل، غير أن قساوة فصل الشتاء دفعت به إلى بيت جمو قاتل والده، وقد فتح له جمو بابه واستضافه لديه، وقد بقي في ضيافته مدة طويلة، وخصص له غرفة خاصة، وجعل تحت إمرته خدماً خصوصيين، وأحاطه بعناية كبيرة جداً. وبعد ذلك تم اقناع سرحان والد الفتاة، وتم تزويج الشابين.

ولاحقاً، في رواية فحواها: ويقال أن جمو وجلبى أخذوا معهم عدداً من وجهاء المنطقة وجاؤوا إلى بيت سرحان. ولم يكن سرحان قد رأى حاجو منذ طفولته، وعندما رآه قال «والله إن ابنتي لم تكن مخطئة، إن حاجو شاب جميل جداً، والفتاة التي لا تغرم بهذا الجمال لا بد أن تكون عمياء» وصفح عنه .

بقي الزوجان الشبان فترة طويلة ضيوفاً في بيت جمو. ص (119) .

فقط، من باب التتويه، فإن التاريخ يشهد عن أن قصص العشق والزواج كانت معمّدة أدوار مختلفة فيه: بإثارة مشاكل، وحلّها في الوقت ذاته، بما أنها على

مستوى المجابهة تكشف عن معدن «العاشق» البطل، ومن ثم تؤدي إلى الاعتراف بمكانته، ودخوله تحت الأضواء.

لدينا مقطع مواز، وهو يتضمن أكثر من مشهد يثير فينا ذائقة الخيال، إن جاز التعبير، كما أنه يلزمنّا معرفياً بالتعرض لهذا الذي قرئ آنفاً، ومن ذلك علاقة حاجو بنفسه، أي مدى ثقته بها، وتماسكه الداخلي لهذا الغرض، ثم ذلك العشق التاريخي والذي يذكّرنا بعشرات القصص في التاريخ ولدى مختلف الشعوب والأمم، وفي الأفلام والمسلسلات التلفزيونية وغيرها، وكيف أن عائلتين تتخاصمان، وهما عائلة واحدة في الأصل، إذا بقصة أخرى تضاف إلى قصص العشق التاريخية، وتمارس توتيراً مضاعفاً في مناخ العلاقات بين عائلي العاشقين، وأن ذلك من شأنه تسخين الحدود القائمة، وفي الوقت نفسه ما يكون عليه الحب الجانبي وهو يقوى عوده، ويتحول إلى شغف، ومن ثم إلى إرادة فاعلة في النفس، وكأنني به في وضعه يؤكد أهميته في رسم جوانب حية ومستجدة في التاريخ، أي تعميق العداء، أو تسويته، بعد اللقاء المفروض، وفي الإطار الكردي تكون «الخطيفة» تحدياً للخاطف قبل كل شيء، لسلطة الأعراف وللطرف الرافض للزواج، وفي الوقت ذاته، فإن خط الحب يعاكس خط العداء المستفحل، كما لو أنه يسخر منه، أو يعلن حرباً عليه، وأنه لازم للتاريخ، وهو في نمو قوته الكامنة، ليتعدى بأثره «أي الحب» كل ما هو صلب وحدودي، وتلغيمه، دون أي اعتبار لردود الأفعال.

إن أول سؤال يطرح هنا، هو: ما الذي ذكر حاجو بقاتل أبيه وليس سواء ليلوذ به؟ أكان يعتقد أنه سيهتم بأمره؟

مهما اختلفت الأجوبة، إلا أن الذي يعزز ثقتنا بجواب: لا بد أن حاجو «الفطين» يعرف أن في جمو صفات تهيئه لأن يحميه من الخارج، ويقوم بما يلزم في حدود الإمكان، وربما ما هو أكثر إثارة وطرافة في الموضوع، هو أن حاجو المحتمي صحبة خطيفته ببيت عدوه اللدود، وقاتل أبيه، والمتحالف مع الدولة، ما كان له أن يعيش ويعرف بما عرف به، لولا ضيافة جمو بالذات، أو أننا، مهما تقدمنا بتفاسير وسواها، نجد جمو حامل قيم تعزز صورته في المجتمع، وليس كما تردد عنه تماماً.

ثمة تصور آخر، لعله يضيء نطاق العلاقات الاجتماعية وهو يتعلق بالتالي: ربما اكتشف جمو خطأ القاتل، وأراد مخرجاً، أو حلاً يخفف عنه هذا الوزر النفسي،

ويطلب من له علاقة بالموضوع لإيجاد حل للمشكلة القائمة ، وبناء عليه كان تكريمه بصورة لافتة إلى جانب خطيفته، وهي ابنة حليفه في الوقت نفسه جهة التعامل مع الدولة.

تصور ثالث، وهو أن حاجو، اضطر لأن يحتمي بعدوه، وهو يعرفه، لأنه ينتمي في رواية سألقة إلى هفيركان، وكان يدرك أنه سيجد في بيته ما يطمئنه، دون ذلك من الصعب التقدم بمسوغ آخر لهذا التوجه، ومن شخص يتميز برجاحة عقل.

وربما من باب تعزيز هذه الرواية وتفخيم العلاقة والرغبة في بناء غد أفضل، كما ورد في الرواية التالية، كان اتصال جمو بأخ سرحان وهو سرحان الثاني ليتم تذليل المشكلة مع سرحان، وقد تم ذلك، إلى جانب المضاف إلى الرواية، والعائد إلى شخصية حاجو والذي تعلّق به والد الفتاة نفسه، أي خاله، كما سمّي ومن عائلته أساساً، وربما هي إضافة لجعل الرواية أكثر قابلية للتعاطي معها، أي ما يخفف عبء ابنته، ومن على لسانه، وقد يكون الوضع كذلك، إذا وضعنا الموضوع في قالب العلاقة الأهلية، أي إن سرحان بصفته القريب المباشر، يكون قائل الكلام المذكور، ولو كان غيره ربما لما تقوه به، لأكثر من سبب اجتماعي قبل كل شيء، حتى يقلل ذلك من مكانة الرجل بالذات.

لاحقاً، نعلّم بأنه يحتمي بقاتل أبيه جمو، وهي من المفارقات الكبرى، ومعه خطيفته، حيث يستضيفه جمو، كما هو واجب الضيافة والتكريم كذلك:

(وبسبب وجوده في بيت قاتل أبيه حصل نزاع، فأدرك الخطر المهدد له من جهة شقيق جمو الذي لم يكن يعاملهما معاملة جيدة، إنما أسمع زوجة حاجو كلاماً سيئاً، وبسبب هذا أقدم جمو على قتل أخيه طعنًا بالخنجر، وقد أقلق هذا الحادث حاجو وقال مع نفسه «إن العدو القديم لن يصبح صديقاً، وإن الذي يقتل أخيه «أخاه» يقتلني أيضاً» فترك بيت جمو ولجأ إلى يوسف حسن، وهو من آغوات دكشوري، وقد قدره يوسف تقديراً كبيراً وأعطاه غرفة في قصره، وتعرف هذه الغرفة إلى اليوم بـ «غرفة حاجو» دلالة على التقدير الكبير الذي حظي به وحفاظاً على ذكرى تلك الأيام. ولم يكتف يوسف حسن باستضافة حاجو، فقد أيده فيما بعد في النزاعات داخل العشيرة، وساهم مساهمة كبيرة في حصوله على زعامة العشيرة «أي عشيرة الهفيركان»... يتبين مما سبق أن الحدود بين الصداقة والعداوة

في البنية العشائرية الكردية لم تكن واضحة... حيث إن يوسف حسن دكشوري ، بينما حاجو هفيركاني وهناك عداوة أزلية بين «العشيرتين»، إلا أن المودة التي أظهرها تجاه حاجو من ذلك النمط الذي يظهره أصدقاء الروح... ص120) .

هذه الواقعة تلزمننا بواقعة ضرورية، لأنها تصلنا جهة الرجوع إلى الورا، أي إلى ما جرى سالفاً بين جمو وحاجو الثاني وعملية ذبحه، وما كان عليه جمو وهو مع العسكر، وما هو عليه هنا في بيته، ثم ما جرى بينه ويوسف حسن الدكشوري، وهي مفارقة من نوع مواز، ولو أنها في مرتبة اعتبارية أخرى، أي تذكر بالمقابل بما كان عليه اسماعيل الدكشوري في سعيه إلى الحيلولة دون قتل حاجو الثاني والد حاجو الثالث، وهنا يأتي نظيره الدكشوري الآخر بالمعروف عينه، وما في هذه العلاقة التاريخية من توافقات جهة القيمة والاعتبار، كما لو أننا إزاء حدث حكاوي أو قصة مركبة لهذا الغرض، سوى أن جمو الذي كان في الحالة الأولى هو نفسه، مع فارق المعاملة، وما يترافق معها من مؤثرات نفسية وخباياها .

نحن إزاء ثنائيتين، لهما تأثير في الأعمال الفنية، لتحريك المشاعر، والدفع بالقارئ أو المتابع إلى التفاعل معها أكثر، ولكن الذي ورد ينتمي إلى التاريخ ويحمل صفة الفني في الصميم، ولا غرابة في ذلك، فليس بغريب أن يكون هناك حدث تاريخي وفيه من المفارقات الكثير، أكثر مما هو قائم أو ملموس في الأعمال الفنية، وهي في اصطلاحها أو توليفها، وفي الجانب الذي يعيننا هنا يُذكر ما يجب التوقف عنده، وهو متعلق بموقف جمو من أخيه وقتله له، ومن خلال إشكال لا يظهر أنه أضيء من الداخل، كما ينبغي، وذلك من خلال أكثر من سؤال بشأن موقف حاجو اليقظ تماماً، وما إذا كان هناك ما أغفل عنه .

هل من شك أُنر في نفسية حاجو تجاه شقيق جمو، من خلال نوعية الكلام السيء وحقيقته؟ وما هو هذا الكلام، الذي يثير في حاجو حفيظته، غير ما نبه ما هو عليه؟ أليس الذي أقدم عليه جمو يستحق التقدير، وهو بمثابة نوع من طلب المغفرة، وأنه ليس كما يُظن، إنما قد تغير كما تقول الواقعة الأخيرة؟ أم أن حاجو استفاق فجأة على ما هو فيه وتملكه قلق آله ؟

لئلا نذهب بعيداً في التأويلات، نحسن بنا مراعاة حساسية حاجو، وهو نهب ما كان قبل سنوات، وعامل الغيرة على الزوجة التي أحبها وخطفها، وحرصه عليها،

وتقديره في لحظة كهذه على أنه ليس في الموقع الصحيح له، أي إن اضطرابه للا يجب أن يأخذ متسعاً من الوقت أكثر مما وصلت إليه الأمور، وقد قتل جمو أخاه، حيث لا بد أن يثير هذا القتل نزوعات نفسية جانبية يكون من شأنها تحريك أضغان أو أحقاد من داخل العشيرة بالذات، ويجد نفسه في وضع أصعب من ذي قبل .

الأمر الآخر الذي يحتاج إلى إضاءة من الداخل، هو لزوم عدم تصور الحدود بين هفيركان ودكشورية على أنها محكّمة، إنما متداخلة، وهو ما لوحظ من خلال هذه العلاقة، وهذا التقدير الذي يرتبط بتلك القيم المثلى التي يحرص عليها وجهاء القبائل .

جبو في معرض المقارنة بين رواية جكرخوين التي يسمي فيها قاتل والد حاجو وهو جمو وليس سرحان كما ورد اسم الأخير في رواية زازا، وأنه بسبب خطفه لابنة عمه سرحان صعد الجبل، كما ذكر جكرخوين، وليس لأنه قتل سرحاناً، وأن حاجو قصد بيت جمو حيث لم يتحمل قسوة الجبل، وكان قد خطف ابنة سرحان، حسب رواية جكرخوين أيضاً.... الخ، ويؤكد على ذلك من خلال شهادة علي بتي الثاني. «ص121-122» .

طبعاً يمكن قراءة رواية جكرخوين كذلك ، وكيف إن الإكراه هو الذي دفع بحاجو لأن يحتمي ببيت جمو، وبعد ذلك توجه (بلا حيلة إلى الدكشوريين، بيت رئيس الدكشوريين يوسف حسن شمددين.... وبقي عند الدكشوريين حتى قويت طائفته بين الهفيركيين. فأخذوه بقوة إلى عاصمة الهفيركيين «مزيزخ» وجعلوه آغا...)، ويشير الشاعر إلى صحة هذه الواقعة من خلال لقاء مباشر بينه وبين يوسف آغا، وقد أطلعته على حجرة حاجو، ليعلق (كان يوسف آغا عظيماً وحكيماً. ص 48).

هنا أيضاً، نجد أنفسنا في مواجهة أكثر من سؤال، وبداية بصدد رواية زازا، حيث يذكر جبو أن ما سمعه زازا من حاجو كان سنة 1930، وأن كتاب مذكراته الذي تضمن الواقعة (طبع لأول مرة بالفرنسية في عام 1982... ولذا أعتقد أن هناك احتمال كبير بأنه أغفل عن بعض النقاط، أو خلط فيما بينها، أو أن بعض النقاط قد أغفلت أثناء الترجمة. ص 121).

من المؤكد، أن هذه الملاحظات تكون في محلها، عندما نؤخذ علماً بأن حياة زازا كانت صاخبة، وأن فاصل نصف قرن ليس بالأمر السهل، هذا إزاء أضفنا إلى هذه المدة الزمنية نوعية الضغوط والمعاناة التي عاشها زازا وهو يعبر حدوداً تلو أخرى،

سوى أن السؤال الممكن طرحه: هل أجل زازا كتابة مذكراته حتى الفترة تلك، ودون أن يسطر حرفاً قبل ذلك؟ مقارنة بذلك، نجد أن جكرخوين بالمقابل، لم يكتب سيرة حياته عن قرب، حيث إنها نشرت في السويد في مطلع ثمانينيات القرن الماضي، وهو يشير في أكثر من مكان، في التقديم إلى أنه سيتجنب الأوهام والأكاذيب، وكما في (فشعب كردستان قد تيقظ وهو يحب الصدق والوضوح دوماً، ولم يعد يريد أن يتبع الأكاذيب والأوهام . ص 14)، فأي دليل يمكن أن يصادق على ذلك ؟

من وجهة نظر منطقية، يكون لجوء حاجو إلى بيت جمو بسبب خطف ابنة سرحان معقولاً، لكن الذي يترتب على وجوده هناك، ومن ثم ذهابه إلى بيت آغا الدكشورية، هو وضع حاجو في خانة المساءلة عن بنيته الشخصية، جهة المقارنة بينها، وما صدر عنه من رد فعل تجاه جمو، وحتى بالتقابل مع الآغا الدكشوري الذي مدحه جكرخوين، أي ما يقلل من مكانته، إلى درجة إثارة الشك في حقيقة ما كان يتردد عنه، باعتباره ليس أهلاً لهذا الموقع، لحظة قراءة أسلوب الكتابة، وهو أنه أسلوب لا ينطوي على ود مقدّر، خلاف حتى جمو، خلاف الآغا الدكشوري بصورة أبرز، وما في ذلك من تعاطف ملموس .

بالمختصر المفيد، يبدو حاجو وسط الذين ذكروا : جمو، سرحان، جلبي، أكثر مدعاة للشفقة، وهم محل تقدير ملحوظ، وما ينطوي عليه وضع كهذا من أن حاجو ليس في المقام الذي أراده أو حل فيه: سلطان هفيركان التالي.

من الناحية التاريخية، يلاحظ أن الواقعة تلك سبقت الحرب العالمية الأولى من خلال الوارد في كتاب جبو (أخذ نجم حاجو يلمع في سماء هفيركان بعد هذه الحادثة. وسيعيش مغامرات جديدة، كان فيها حالتها اعتقال. الأولى كانت في عام 1913، عندما اعتقلت الدولة العثمانية عدداً كبيراً من وجهاء الكرد على سبيل الاحتراز من قيامهم بنشاطات قومية. ومثل الكثير من وجهاء هفيركان تم اعتقال حاجو أيضاً وأودع في سجن خربوط... ليتعلم القراءة والكتابة باللغة التركية، ويهرب... ويختفي بعدها في بيت وطني كردي هو حاجي بدر آغا « 1872-1928، وكان برلمانياً لثلاث دورات.. ص 122).

يقين خبر الداخل :

أحسب هنا، أنه من الضروري التنبيه إلى بعض النقاط المضمرة، تلك التي تفيدنا

في الاقتراب أكثر من العالم الداخلي من شخصية حاجو، والنظر فيه بعمق أكثر، وليس مجرد التحرك الظاهري، حيث إنني أرى أن الاكتفاء بما هو مقروء في جل ما كتب عنه، دون غوص في الداخل، لا يكون شخصية حاجو آغا بذلك الصيت الذي عرف به، وحتى بالنسبة لما يتردد عنه في صفحات متفرقة «في كتاب جبو» من أن نجمه كان في صعود، لا بد من مساءلة سطوع نجمه وكيف؟ حيث يشعر قارئه أن هناك وقائع ومشاهدات ومجابهات يومية، هي محكة النفسي، وتسجيل «درجات» يومية له، يكون لها اعتبار لدى الآخرين، دون ذلك أيضاً يستحيل علينا أن نبصر طريقنا المتعرج والمغموم أو السالك بصعوبة، والذي يمضي بنا تدريجياً فيما بعد إلى «بنختي»، وهناك يكون لقاءه اليومي مع نزالات أخرى، ومعايشات يومية أخرى من الطراز الثقيل بالمفهوم السياسي، ولا بد أن جبو حين يكتب إثر اختفائه لأكثر من مرة، أو جرّاء الاختفاءات هذه (وتبدأ مغامرة [أخرى من مغامرات] حاجو بعد أن عاد إلى هفيركان. فقد اختفى لبعض الوقت في أماكن متفرقة من هفيركان، وعجزت الدولة، التي كانت تعيش أواخر أيامها، عن ملاحقته. وفي هذه الأثناء سعى [حاجو] إلى لم شمل العشيرة مجدداً، وواجه عدداً كبيراً من المشاكل، فمن جهة كانت هناك مشاكل داخلية تخص اتحاد [هفيركان]، والنزاعات على الزعامة داخل الأسرة، ومن جهة أخرى كان هناك القمع والاضطهاد من جانب الدولة. إن هفيركان التي كانت سابقاً تحت سيطرة علي باتي صارت الآن تحت سيطرة الدولة تماماً التي مارست عمليات قمع وإرهاب واسعة غير معهودة سابقاً. (ص 122)، كان يراعي هذا الجانب. من المتوقع أن تكون وتيرة الاضطهاد في اضطراد، طالما أن ما قبل ذلك حالة المجابهة للدولة والنيل منها، كما كان الوضع بالنسبة للإمارات الكردية، إذ جرّاء كل تحد للباب العالي، كان ثمة أكثر من غزو للإمارة والمناطق المجاورة، وفرض الأمن بالقوة، إلى جانب ترويع الناس، ومن ثم نهب ممتلكاتهم، عدا الضحايا، وكما هو حال الثورات اللاحقة، كما سنرى .

ذلك، وبالمفهوم النفسي، يوضّح لنا إلى أي مدى تكون الدولة في وضع لا تُحسد عليه، فيكون رد فعلها شرساً، عنيفاً، مدمراً، كما لو أن ضربة تعدّ الأخيرة بالنسبة، من باب «التشفي» وقد أظهرت كل ما لديها من قوة، شعوراً منها بنهايتها كما رأينا، وأن علاقة الدولة في حالة كهذه، كوضع أي شخص متغطرس، يستشعر نهايته، فيكون رد فعله رهيباً ومروّعاً كذلك .

من ذلك، أنه (في نهاية القرن التاسع عشر واجهت السلطنة العثمانية تحديات غير مسبوقة: فالسلطنة مهددة بالتفكك الداخلي نتيجة تطور حركة القوميات: تحركات رعايا السلطنة في المناطق البلقانية» الرومان، والبلغار، والصرب، وسكان الجبل الأسود، واليونان»، وكذلك تحركات الأرمن والأكراد واللبنانيين، وبلاد ما بين النهرين وسوريا).⁽¹⁾

وكما في تحميل باحث عربي العثمانيين مسئولية تخلف العرب إلى يومنا هذا، ومغزى المبالغة في ذلك (لقد ساد الوطن العربي منذ الاحتلال العثماني عهد من التأخر والفساد كانت له نتائج خطيرة على مستقبل الأمة العربية وما زلنا نعاني منها إلى الوقت الحاضر وخاصة في النواحي السياسية والإدارية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية.... أما في بلاد الشام فكانت الدولة العثمانية هي صاحبة جميع الأراضي الأميرية وصاحبة الحق في الإعشار والرسوم المفروضة على جميع الأملاك والأراضي الخاصة في الامبراطورية..)⁽²⁾.

وربما كان أعنف نقد هو ما عرف به عبدالرحمن الكواكبي، ومثاله الحي في الاستبداد السلطان عبدالحميد ومن معه، ومن حوله من بطانته والذين يسوسون الناس بالقوة والجهل والاستبداد (ما أشبه المستبد في نسبته إلى رعيته بالوصي الخائن القوي، يتصرف في أموال الأيتام وأنفسهم كما يهوى، ما داموا ضعافاً قاصرين، فكما أنه ليس من صالح الوصي أن يبلغ الأيتام رشدهم، كذلك ليس من غرض المستبد أن تتنور الرعية بالعلم)⁽³⁾.

الكواكبي الذي كان من بين أكثر الذين شرّحوا الاستبداد العثماني عموماً واستبداد عبدالحميد خصوصاً، إن لم يكن أكثرهم وضوحاً في تعريته، ربما كان الشاهد الأخير على نظام لفظ أنفاسه الأخيرة، إنما ليعقبه نظام حورّه لصالحه، ولا بد أن الذي ركّز عليه من جهة جبو يخص هذا الضرب من الإرهاب (استمرت زوبعة

(1) توبي، جاك: الامبريالية الفرنسية والولايات العربية في السلطنة العثمانية 1840-1914، نقله إلى العربية فارس غصوب، راجعه وقدم له د. مسعود ضاهر، دارالفارابي، بيروت، ط1، 1990، ص 28.

(2) ابراهيم، محمد محمد: مقاومة العرب للاضطهاد العثماني، دار الجواهري، بغداد، 2011، ص 31-45.

(3) الكواكبي، عبدالرحمن: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، دار كلمات، القاهرة، د. ت، ص 35.

الإرهاب بدون توقف منذ قمع الانتفاضة في 1919 وحتى عام 1921. وفي هذه الآونة كانت الوحدات العسكرية الجديدة التي شكلتها الحركة الكمالية تخوض حرباً حامية ضد الجيش اليوناني المدعوم من بريطانيا وفرنسا المنتصرتين في الحرب العالمية الأولى. فبعد نزول القوات اليونانية في «ميناء» أزمير نجحت في التوغل في «الأناضول الغربية». وفي الوقت نفسه كانت هناك معارك بين القوات المرتبطة بنظام الحكم العثماني القديم وبين القوات التابعة للحركة الكمالية التي تسمى «القوى القومية...». ولقد تم نقل جميع الوحدات العسكرية إلى الغرب، الأمر الذي أدى إلى التخفيف من حدة القمع الذي كان يمارس في هفيركان، وارتاحت المنطقة نسبياً وتنفس أهلها الصعداء. ص 123).

علينا أن نتوقع كل ما هو مسيء إلى الكرد، ولم يتبهاوا إليه، لأنهم تجاوبوا مع طيب نواياهم، وخصوصاً مع من تمرسوا في السياسة ميدانياً، كما الحال مع أعضاء الاتحاد والترقي، ممن كانوا ينتظرون الفرصة المناسبة للبدء بتنفيذ مخططهم، والذين كانوا من حيث المحتوى يناظرون، كما أرى، ما خطط له كل من سايكس وبيكو سنة 1916، وانتظروا اللحظة المناسبة لنقله من القرطاس إلى الواقع، أي لإخضاع الجغرافيا المسييسة للتاريخ السياسي، وهمو بدورهم، ربما مع خبراء سياسة من الغرب، وبصمت، كانوا يخططون لهذه اللحظة، إثر الإطاحة بالسلطان الأحمر، ولتنطلي حيلتهم على «أخوتهم» في هذا المسمى بـ «الاتحاد والترقي»، كما انطلت حيلة «الغازي» الآخر: أتاتورك على جمع غفير من رجالات الدين قبل غيرهم، ومن كانوا متحالفين معه من الكرد ممن اطمأنوا إلى نبرة صوته، ووووعوده، مثلما أن سلفاً آخر، هو عبدالحميد كان يزكي نار العداوات بالوقود الديني، ويزج بالذين وجدوا فيه خليفة المسلمين، وأمير مؤمنينهم، وسلطان الدين الإسلامي، في معمعة ذات نسب عثمانلي وضد الحركات التي حاربتهم من سريان وأرمن وغيرهم، ونسوا أنهم وقود اليوم ضحايا الغد. أليس هذا ما أفصح عنه أكرم جميل باشا قائلاً، وهو يرسم صورة للحرب ذات السنوات الأربع تعصف بالكرد ووطنهم عصفاً (وكانت الحرب التي استمرت أربع سنوات قد أذت كردستان كثيراً وخاشتها وأضعفتها جداً..)⁽¹⁾ ؟

(1) باشا، أكرم جميل: مذكراتي، الترجمة من التركية إلى العربية: د. قدرى الديار بكر، المراجعة اللغوية والتقديم: فدان آدم، بير، ديار بكر، ط3/2007، ص 26.

إن مسيرة هذه السنوات الأربع، هي مسيرة تجربة تاريخية طويلة، أبرزت مدى تأثر الكرد بتجارب الآخرين، وهم يتحركون في «سلّتهم»، أو يسلسلون القياد لمشاعر جياشة ذات نسب ديني، أو يصدّقون سريعاً ما يسمعون من عدو لدود لهم، أو ممن يعدهم بما فيه خيرهم المزعون لنصرتهم، والسعي إلى منحهم حقوقهم المشروعة في بناء كياسي كردي يخصصهم، وهم يغدون في وضع المسترخي، والمهيأ للوعد المنتظر، أو الحق المرسوم بالكلام أو الورق، دونما أرضية لكل ذلك عموماً .

ولا بد أننا نستطيع التأكيد أو التشديد على هذه المقولة، انطلاقاً من هذا التقابل بين مفهومي القوة والضعف، حيث إنهم لا أكثر من المناسبات والأحايين التي يشيرون فيها إلى القوة الضاربة للأعداء، أي ليس من تكافؤ قوى بينهم وبين أولئك، سوى أنهم لم يحاولوا طرح السؤال التالي، وكما يجب على أنفسهم، وهم في موقع المسؤولية: ألا تكون قوة الأعداء معايينة ومسماة، لأن الكرد يعرفون بأنفسهم ضعافاً؟ أليس ضعفهم هذا يرتد إلى عامل نفسي تاريخي والذي يحبطهم قبل أعدائهم، إذ يقوون عليهم حيثما كانوا؟ أو ليس مفهوم القوة منبئاً على تناظرات ومتابعات ومعايشات، وليس تهيؤات، وخروجاً من الواقع؟

ثمة شيء وحيد يبرز فيه الكرد في غاية اليقظة، بشكل يكادون يفوقون فيه أكثر أعدائهم حذراً ويقظة: هم أنفسهم، فيما بينهم!

في العودة إلى مشهد صراعي آخر بين حاجو وطرف آخر من عشيرته، أو عائلته بالذات، وتدخل آخرين وهم كرد صحبة الدولة ثمة ما يرفع من شأن هذه الكوميديا الكردية السوداء، بدءاً من النقطة التي توقفنا عندها في كتاب جبو (وعلى أية حال...سرعان ما بدأت المعارك بين جلبي ، وهو فرد آخر من أسرة «آل عثمان» سبق وأن وقف مع قوات الدولة أثناء حركة علي باتي وبعدها أيضاً، وأخيه سرحان الثاني من جهة وبين حاجو من جهة أخرى. وفي البداية وقفت قوة عشائرية قليلة جداً مع حاجو، لأن جلبي كان مع الدولة ومدعوماً من قبلها، ولذا رجحت الكثير من العشائر، ولأسباب براغماتية، الوقوف معه . ص123) .

ومما لا شك فيه أن جبو المنتمي إلى هفيركان مشغول بما يكتب، لكنه، وهو يكتب مشغول بالتاريخ الذي ينتظر الكتابة، أي ما يجعل التاريخ عديم النفع، كونه يصلنا بالماضي، سوى أن الماضي ليس ماضياً بحرفيته، وأن طريقة تلقيه للمعلومة

ذات النسب التاريخي تؤلم المسطور، ولا تريح الكاتب، حيث إن مناخها لا يخلو من مؤثرات ولها تداعيات تصل بالقائم، أي تحفز القارئ لي طرح سؤال الثقافة، وهو: هل أن الذي يعيشه الكرد حالياً، مفارقون لكرد الأمس في تفكيرهم وتديبرهم واقعاً؟ هل ثمة ما يطمئن الكرد على أن الذي يُقرأ يسجل تاريخاً حقاً، ويستفاد منه، أم يبلبل وعياً ينسف التاريخ كمفهوم؟

كأنني بالكاتب يفصح عن أن الذي يجري في التاريخ لا يدع أحداً في وضعية أمان مع نفسه، وهو منتم إلى عائلة، أو وهو يمعن النظر في المسطور وكيف أنه موصول به، لأن المدون هنا، يشكّل في بعض مؤثر منه خطاب ما كان للراهن، وما إذا كان الراهن مغايراً لما كان، ما إذا كان هناك من تغيير أثر في الذهنية المتلقية للمعلومة، أم في وضعية مفارقة لبنيتها .

كأنني بجبو، وهو يسرد تاريخاً لا يفصح تماماً عما يريد قوله جهة الموقف، من خلال تكتّم معين، على صلة بأسلوب كتابته أي ما يخص وضعية الصراعات التي تبدأ من العائلة ولا تفارقها، أي تدور في «رحابها» دورياً (وفي غضون ذلك كانت هناك عشائر حافظت على نهجها المستقل ووقفت بعيداً عن الطرفين، وبالرغم من ذلك استطاع حاجو، الجريء الذي يعرف ما يريد، وبالقدر نفسه صاحب ذكاء، وفكر ثاقب، أن يغير الموقف لصالحه. فقبل الدخول في معركة مباشرة مع جلبي كان حاجو يهدد بين الحين والآخر القرى الموالية له، ويقوم بهبها ويثبط عزيمتها. وكان يختار القرى التي بلا دفاعات، وبعبدة عن حماية جلبي كأهداف لهجمات، وبهذه الطريقة كان يصل إلى هدفه خطوطاً خطوة، وبدون تقديم خسائر كبيرة، إلا أن استخدام السلاح لم يكن السبيل الوحيد الذي اعتمده للوصول إلى هدفه، بل كان يستخدم بمهارة أساليب سياسية سليمة أيضاً، ولا سيما تنمية العلاقات الجيدة مع العشائر المحايدة، والسير باتجاه كسب تلك العشائر إلى جانبه، وكان يحقق نجاحاً كبيراً، ولم يكن يخاطر في المواقف التي لا تكون عواقبها مأمونة، فقد كان منطقياً لا يحب المجازفة، ولا يقدم على أي عمل ما لم يكن نجاحه مضموناً، ومن خلال تطبيق هذه التكتيكات العقلانية والصائبة كانت قوته تزداد يوماً بعد آخر، وبحلول عام 1925، كان بمثابة أقوى زعماء الاتحاد الهفيركاني إن لم يكن زعيمه الأوحد. ص 124).

هذه الكتابة التي تظهر زعامة حاجو لا تخلف إلا دخاناً وصدى حطام تاريخ في الطرف الآخر، لأن الحدود داخلية، وهي من المستحيل بمكان الحرص عليها، كونها تخترق نطاق العائلة الواحدة من الداخل، وتلغم نفوس الجميع بالمقابل، وأن اليوم الذي سطر فيه كالיום الذي أستشهد منه، وربما كالذي سيقراه أحدهم لاحقاً، في ضوء الأفق المنظور .

وفق المتقدم به حتى الآن، يبرز لنا حاجو آغا شخصية طموحة، على تماس مباشر بالاحدودي، كما لو أنه يريد أن يعيش ألف مغامرة ومغامرة وهي على قيد الحياة، وهو أنى اتجه يلقي عثرة أو تحدياً، أو عدواً ومن مستويات مختلفة بالمقابل، ولا بد أن شخصية كهذه منذورة للإقامة في منطقة العواصف الكبرى، لا بد أن المضطلع على تاريخ كردستان، ومن ثم على خارطة كردستان، ويعمل رابطاً يومياً يصل ما بين الاثنين، سوف يكتشف أنه مقذوف بين عاصفتين لا تهدآن: ما هو تاريخي، لوجود أكثر من قوة تتدخل في نطاقها، ونطاق منسوب ومنكوب، عبر صراعات متفاوتة، وما هو جغرافي على وقع القوى تلك، لأن الاسم نفسه جارٍ تقسيمه، وضمناً الكرد، وأن ليس من جهة حدودية، ليس من رقعة داخلية فيها، إلا وهي في هيئة البركان النشط الذي يغلي من الداخل، وهذه الثورانات ليست أكثر من نزاعات وشجارات وحروب تسفك دماء على مدار الساعة :

أي حيث لا يكون له من صلة بأشخاص من مثل جمو قاتل والده .

وحيث يقطع صلته بمن ينتمي إلى العائلة الرئيس «مالا اوصمان»، أي جلبي، وفي محاولة حثيثة للانفصال عن الخط النسبي المشترك .

وحيث يكون اسم حاجو هو المؤسس لعائلة لـ «آل حاجو» لا تحرك بعدها، ربما تأكيداً على جملة من الحسابات العائلية، بنسب لا يعرف إلا بذاته .

محضر ضبط تاريخي حول حاجو آغا :

آثرت تأجيل نقطة في غاية الأهمية والخطورة إلى الآن، وبعد الذي أثير حول حاجو آغا ولادة وملابس الولادة، بغية إيصال المعلومة إلى ذهن من يهتم بالموضوع بصورة أفضل وأسهل وأعمق، والنقطة هذه تتمثل في حقيقة ميلاد حاجو وما كان عليه الوضع حينذاك، ومدى دقة كل ذلك .

إذ لم أتمكن من إيجاد أي جواب، لا من قريب، ولا من بعيد، لدى كل هؤلاء الذين تعرّضوا إلى سيرة حياة حاجو «الثالث»، واستفسروا عن دقتها، لأن مجرد التأكيد على تاريخ محدد للولادة، يعني النظر في مدى دقة التالي.

إذ، سواء أكان جكرخوين، أو نورالدين زازا، أو بروينسن، أو حتى ابنه جميل حاجو، أو جبّو، استوقفهم السؤال عن كيفية الربط بين سنة الولادة، وما تردّد من وقائع أو أحداث لا تتفصل عنها، إذ إن أي تغيير فيها، يؤدي إلى تغيير في مجمل ما كان يقال ويتردد، ويؤثّر في صورته، وقد أثرت هذا الموضوع، ولو باختصار شديد مع أحفاد لحاجو آغا .

لا بل إن عليكي بتي نفسه لا نعلم بأمره، حول حقيقة عمره شيئاً صحبة حاجو الثاني، وليس من هناك من تأريخ لتحديد سنة ولادته بالنسبة لبتّي، حتى يمكننا إضاءة جوانب تاريخية تخص حياته والذين من «جيله» كما في حال «حاجو الثاني»، إلا أن حاجو الثالث مشكل كبير في هذا السياق، لأنه يمثّل العصب المركزي للكتاب، وكل معلومة دقيقة تفيدنا في معرفة شخصيته بصورة أفضل.

فجميل حاجو في مذكراته والذي عاش بين عامي «1906-1990»، يذكر أنه في سنة مقتل حاجو الثاني، كانت زوجته «زينب» حاملاً بالولد «حاجو الثالث. ص 36»، ولاحقاً، يشير إلى أنه توفي سنة 1940، عن عمر يناهز الـ «63 عاماً، ص 75»، ويعني ذلك أنه من مواليد «1877»، وهذا يسبّب مشكلة كبيرة تجاه وقائع أو أحداث رويت داخل العائلة وخارجها، حيث إن إن ولده «ولد جميل»: فرهاد جميل حاجو هفيريكي، في تقديمه لكتاب والده لم يشير إلى حالة كهذه .

وبدوره، فإن جكرخوين يربط بين سنة مقتل حاجو الثاني وولادة حاجو الثالث في سيرة حياته «ص 91» .

ومن جهته، أورد بروينسن في كتابه عن «الآغا والشيخ والدولة. ج 1»، معلومة من هذا القبيل، أي يربط بين سنة اغتيال حاجو الثاني، وولادة حاجو الثالث «ص 231» . وهكذا الحال مع نورالدين زازا في مذكراته (كان حاجو جينياً في بطن أمه حينما قتل والده بيد ابن عم يدعى سرحان ... ص 91)، وهي رواية من جهة تسمية القاتل، كما رأينا غير صحيحة، إنما القاتل هو جمو كما ذكر سابقاً .

وكذلك جبّو، إذ يشير إلى تاريخ ولادة حاجو الثالث في مزيخ سنة 1896 «ص 117».

ويأتي آلاكوم، حيث لا يتطرق إلى عمره «ص 43»، إنما يسمّي تاريخ وفاته بسنة 1940، ويكرر الواقعة الآتفة الذكر (كان حاجو مازال في رحم أمه عندما قتل أباه أحد الأشقياء، وكان يدعى سرحان. ص 46)، ودون أن يحدد درجة القرابة، كما يُلاحظ.

إن الأقرب إلى الحقيقة التاريخية هو ما ذكره محمد جمال باروت في كتابه المذكور عن «الجزيرة السورية» ومن خلال مصدر أجنبي «فرنسي» عن تجربة الإدارة الفرنسية في المنطقة، محدداً عمره بين عامي «1880-1940، ص 153»، رغم كراهيته الشديدة له، كما تعلمنا كتابته... الخ، إنما ومن باب المفارقات الكبرى، والمتعلّقة بعدم التدقيق، هو أن باروت في الهامش «89» من الصفحة «400» في كتابه المذكور، يتحدث عن أبناء لحاجو آغا بما يلفت النظر تاريخياً (كان ابنه الأكبر حسن المتوقع أنه ولد في عام 1889 رقيباً في خيالة الحرس السيّار الفرنسي، ومتزوجاً ابنة الحاج بركات الذي هو في الوقت نفسه ابن عم عبدو المرعي زعيم عشيرة الآليان الكردية. بينما كان ابنه الثاني جميل «لا يأتي على ذكر تاريخ ولادته؟» عريفاً في الكتيبة الفرنسية، أما الابن الرابع يوسف «ولد عام 1904» الذي كان عريفاً سابقاً في الكتيبة الفرنسية، فكان زوج ابنة أحد الزعماء الذين قتلهم حاجو آغا لخصومته معه، أمنا ابنه محمد شريف شريف «لا يذكر تاريخ ولادته هو الآخر؟» فكان زوج ابنة سليمان عباس- نقلاً عن كتاب فرنسي حول الإدارة الفرنسية في الجزيرة..)، وذلك يزيد الطين بلّة أو الوضع تعقيداً، الأمر الذي يبقينا حيارى إزاء حقيقة وقائع تسعينيات القرن التاسع عشر، وكيف جرت، ومواقع الشخصيات التي تسمّى هنا كحاجو آغا مثلاً.

وقد أشيرَ سالفاً إلى شاهوز حاجو عن أنه أرخَ لسنة ولادته هكذا «1880»، لكن هذا التأريخ ينشط إرادة طرح الأسئلة عما جرى لاحقاً، وأين أقام، حيث لا يعود في المستطاع القول بأن هفيركان اضطرب وضعها إثر مقتل عليكي بتي، لأن عمر حاجو الثالث حينها كان يقرب من الأربعين وأكثر، فما الذي عتّم عليه، أو شوّش على هذه الفترة بالذات؟

تجاه المثار، أرى أنها نقطة صعبة المراس جرّاء الوقائع المرتبطة بها أو المنطلقة منها، أي حقيقة الولادة، وما يسبقها، وما يلحق بها من أحداث:

ضمناً، ذكر أن ولد حاجو آغا: حسن الذي توفي سنة 1963، وعمره «63»، أي إنه من مواليد 1900، فلا يعقل أن يكون حاجو آغا من مواليد 1896، وحتى بالنسبة لجميل حاجو آغا «مواليد 1906».

وإذا نفينا العلاقة بين سنة الولادة وواقعة مقتل/اغتيال حاجو الثاني «1896»، فإن ذلك يعني أن الإيزيديين لم يهربوا زوجته وهي حامل بحاجو الثالث، أي إنه حينها تبعاً لعمره، كان ابن «19 عاماً»، فأين كان؟

ذلك يستدعي السؤال عن طبيعة الصراع بين كل من عليكي بتي وجلبى، أما عن حاجو الثالث، فأين يمكن تحديد موقعه؟

هذا يعني وجود أكثر من ثغرة في التاريخ المتعلق بحاجو آغا .

ذلك يتطلب مسحاً أفقياً للوقائع التي جرت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وآخر عمودياً، لتسمية كل واقعة وربطها بذوي النفوذ في العشيرة.

هنا، يمكن القول أن شاهوز التقط المعلومة التاريخية الصحيحة نسبياً، سوى أن الأوضاع التي عاشتها هفيركان، وآل حاجو بالذات، لا تستقر على حال من العلمية، أو الوضوح، عندما نتذكر عليكي بتي ومكانته في العشيرة:

أين كان حاجو الثالث؟ ولماذا التعتيم عليه بالمقابل؟

بصورة أخرى، إن الممكن قوله هو ما يسبق «1900» يشكّل نموذجاً لجملة من الوقائع ذات الصبغة الحكائية في تداخلها، إذ إن يعني أن مقتل حاجو الثاني كان في حدود 1880، وليس 1896، وأن بتأكيد تأريخ كهذا يستقيم مسرد التاريخ اللاحق بأكثر من معنى، إلا من جهة عليكي بتي والتأثير السلبي الذي تسبّب به مقتله، لأن حاجو الثالث كان أربعينياً، وليس يافعاً .

ذلك يعني استدراكاً، أن الرواة الكرد، وهم شعبيون، ساهموا إلى حد كبير في إخراج صورة لحاجو الثالث، خلاف ما هو عليه في بداياته، وثمة من استساغوا ذلك وأطربهم هذا التركيب، والتاريخ الحدثي يقول ما هو مختلف، لحظة القيام بجرده تأريخية للوقائع، وكما ورد بلسان ابنه الثاني في مذكراته «جميل حاجو»، وأن بناء التاريخ الكردي لهم مقام مختلف في تداعيات الزمن، وموقعهم في التاريخ الأكثر شفاهية وله منطق خاص، وهذا ما ينبغي تحرّيه بأصوله الكبرى .

وبمقدار ما نستطيع متابعة الكثير مما هو تأريخي وحي في حياة حاجو إثر غزو الفرنسيين لسوريا، وبعد واقعة بيان دور، حيث أصبح حاجو آغا تحت الضوء، كما لو أنه شهد ولادته التاريخية الفعلية، وذلك من خلال متابعة كل من الحكومتين: الفرنسية والتركية، وحتى الانكليزية في الطرف الشرقي لنشاطاته، ونشاطات كل رجالات السياسة الكرد وغيرهم في المنطقة، وعلى أكثر من صعيد، بمقدار ما نجد أنفسنا أمام تحديّ الذاكرة الشعبية أكثر من التأريخية، على الأقل في الثلث الأول من حياته والذي ينتمي إلى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وهو عاصف حقاً.

بطريقة أخرى، يمكن تقسيم حياة حاجو آغا في عمره الستيني ونيف إلى ثلاث مراحل، جهة التقييم على مستوى التاريخ وما ينحّيه جانباً:

اعتبار الثلث الأول مقروءاً كما أنه يمكن سماعه من خلال الرواة الشعبيين ومغنيهم إجمالاً، وربما بُذلت جهود كبيرة في هذا المجال لجعل هذا الثلث أقرب إلى ما هو أسطوري، أو حكاوي، حيث تبرز صعوبة إدراك التأريخ الدقيق، لأسباب اجتماعية وثقافية قبل كل شيء.

اعتبار الثلث الثاني مزجاً بين الجانبين: الحكائي والتأريخي، فإشارات التاريخ تظهر وامضة، وليس من رابط قائم «نسيجي»: تاريخياً يقرّبنا من حياته بجوانبها المفصلية، وكما يليق به، وربما أمكن الدفع بحادثة «بيان دور» الأكثر إفراجاً لحياته ليصبح كائن التاريخ القابل للدراسة.

واعتبار الثلث الآخر، وربما أقله هو الجدير بمكاشفته من زاوية تاريخية، لا بل يمكن تأكيد العمر الفعلي لحاجو، والذي يزكّيه الكائن الأكثر انتساباً إلى التاريخ وبشكل لافت، هو من لحظة حلوله في «سرختي»، وقد أصبح مرصوداً من أكثر من جهة: فرنسية، تركية وانكليزية ومحلية أيضاً، وهو ما حاولنا الإفصاح عنه ولو بصيغ شتى في أكثر من مكان من هذا الكتاب.

بالطريقة هذه، تصبح الإشارات ذات الصلة بالحكايات أو الأغاني العائدة إلى الفترة تلك معرّضة للمساءلة تاريخياً، وكيفية ربطها مع بعضها بعضاً، أي ما يخص حاجو الثالث، ووجود الكثير من الغموض عن حياته وقتذاك، وكيف يجري الارتباط وفك الارتباط بين الحكاية والتاريخ.

ربما ذلك يفيدنا في إضاءة سيرة حياته أكثر، لاحقاً.

إنما ما ينبغي طرحه من سؤال: لماذا أغفل من أتينا على ذكر أسمائهم حالة تأريخية كذلك وردت معنا؟ وهي ليست عابرة بالتأكيد !

يظل السؤال سؤالاً، يصعب البتُّ في جوابه، من خلال «معروضاتهم»، أعني قائمة المعلومات السيرية ومرفقاتها من الوقائع والمفارقات، وتحديدًا، عملية الربط بين ساعة مقتل حاجو الثاني والبحث المباشر عن زوجته وهي حامل بحاجو الثالث، لمحو كل أثر لحاجو، والجانب الحكائي في الموضوع، حيث إن أي تأخير أو تقدير في الواقعة تلك، يغيّر في بنية المسطور عنه «من ذلك، أغنية محمد عارف جزيري عن عليكي بتي، وهو يتحدث عن صوفي إبراهيم كجالي، ومحكوميته من قبل مصطفى كمال لمدة «عشرين عاماً»، وحينها كان منشغلاً بـ«حرب الاستقلال الوطني» ضد اليونان والانكليز وغيرهم، وقد أطلق سراحه بعد ذلك، فعاد إلى قرا «الست» أي ثمة إقحام في الموضوع من قبل رواة لا صلة لهم بالدقة التاريخية»، أو أنهم حوّلوا بعضاً من وقائع التاريخ بصفة عامة إلى جزء مكوّن من الأغنية مع التصرف فيها، ولا أساس لها كلياً، في محاولة لإضفاء سخونة درامية على مستوى التركيب الغنائي، وهي أغنية يمكن سماعها انترنتياً بسهولة .

فهل كان الطابع الشفاهي بخاصيته الشعبية، وسحر المفارقات، مانعاً دون التدقيق في التواريخ مجتمعة، وفي مدى صوابية واقعة الولادة ؟ أي حيث لا يعود العمر هو نفسه، ولا الذين يتم تحديدهم في نقاط معينة بأوصاف معينة، وعلاقات معينة، استناداً إلى الأعمار المقدّرة، أو المقبولة على الأقل.

ذلك يحفّز على المسألة عما جرى، وما يجري، ليضيف إلى أرشيف حاجو آغا بالذات غموضاً، هو إشكال تاريخ، ويزيد في حجم المتداول عنه أكثر.

إزاء ذلك، يمكن أن يقرأ حاجو بعيداً عن كثير مما أفصح عنه من نصوص نوه إليها، أي خارج ما هو غير محقّق تاريخياً، ومن خلال تاريخ أقوم.

ملاحظة:

بعد محاولات بحث في هذه النقطة، إلى جانب نقاط أخرى، عثرت على صورة لهوية حاجو آغا الشخصية في موقع/صفحة «عشيرة هفيركان»، وقد ورد فيها، كما

هو منشور في الهوية، أنه من مواليد «1878»، وفي الحالة هذه، يكون حساب «1878» ضمناً، ليكون العمر «63» عاماً.

ومن جانب آخر، فإنني في مفاتيحي للدكتور بنكي حاجو حول هذه الإشكالية وما توصلت إليه بصدد مخرج لها، أعلمني أن تاريخ الولادة بشكل أدق يرجع إلى عام 1885 تقريباً، وهذا يظهر مدى التحدي الذي يواجهه الباحث التأريخي، إن حاول الربط بين الواقعة التاريخية وعمره.

وإذ إنشر صورة عن الهوية من باب التأكد، تبقى جملة الأسئلة المتعلقة بولادته المؤرخ لها فيما تقدم «سنة 1896»، محل درّس خاص، والمفيد في الهوية، هو أنها صادرة عن «دولة سورية» وليس عن «الجمهورية العربية السورية»، وهذا بحث آخر يتعلق بالتنوع الاثني وليس أحاديته:



بيان دور وخروج حاجو آغا إلى العالم الخارجي

«ما يشغلني هو التفسير الحقيقي للوقائع، التي تأتي غامضة في كثير من الأحيان».

تزييتان تودوروف: الأمل والذاكرة «خلاصة القرن العشرين»، ص 7.

نقطة صغيرة تشغل صفحة بالكامل :

هل يمكن لقرية صغيرة في مساحة جغرافية مترامية الأطراف أن تلفت أنظار كثيرين من المؤرخين والجغرافيين والسياسيين في أكثر من لغة، ومن أكثر من زاوية؟ هذه القرية التي اكتسبت سمعة عالمية ما ذات يوم، هي «بيان دور» الكردية، والمجاورة للحدود «التركية» السياسية، والتي تقع إلى الشرق من قامشلو مسافة 10 كم»، وقد أصبحت مسرحاً لمواجهة عسكرية وسفك دماء بين قوة فرنسية استعمارية في تموز 1923، وعناصر أهلية كانت أفراداً محاربين بزعامة حاجو آغا الذي قدم من «سرختي» لنجدة من أرادوه، هي التي أثارت ردود أفعال لها دويها في المنطقة، كما لو أنها في جوهرها من خلال مجريات واقعها، لخصت كل ما يعمل في نفوس أهالي المنطقة من كرد وعرب قبل كل شيء من مشاعر وأفكار ومخاوف وتصورات، معركة، أو واقعة بيان دور كلفت الفرنسيين كثيراً جهة الخسارة المعنوية، وقد قتل ضابطها ذو الصيت في المنطقة : روغان، تنافس في زعم قتل كثيرين، وما يترتب على ذلك من استعراض وأكثر من ذلك: تحدي الأجنبي وكسر شوكرته .

بيان دور شكلت تعبيراً عما كان لدى الآخرين، وإلى يومنا هذا، أي رغم مرور قرن تقريباً، والاجتهادات مستمرة، بين اعتبارها قضية تار ليس إلا، أو مسألة أهلية وأجنبية، أو «وحدة وطنية» على المستوى السوري، وهو الحد الأقصى من التعبير عما هو موجّه إيديولوجياً، أو انتقاء شعبياً، أو سبقاً عربياً أو كردياً.... الخ.

ويمكن التعرض للائحة هذه المواقف والتصورات بمجرد كتابة الاسم «بيان دور» أو للدقة أكثر «معركة/واقعة بيان دور» من خلال إسهامات الذين أرادوها بصمة لهم في «الويكيبيديا» أو عبر تعليقات مختلفة، أو في مواقع التواصل الاجتماعي وبصورة مختلفة، أو انطلاقاً من مقالات ودراسات وردود وردود على

ردود... الخ، ولأقل، عن أن الذي جرى، وما يتم تداوله من كلام، أو يقرأ من كتابة، في المجمل ضرب من الهواية الذاتية وزعم تأكيد الذات بالمقابل⁽¹⁾.

تُرى كيف يمكن النظر في هذه الواقعة في حدودها التاريخية، وبحجمها، مع الحفاظ على التوازن في الكتابة الموضوعية؟

الأهم من كل ذلك، وكون الموضوع يتركز على حاجو آغا، ما دوره في هذه «المغامرة» وهي التي دفعت به لأن يقطع حدوداً لمن وجههم، وإن لم تكن بمفهوم اليوم حراسة، ويواجه الأتراك والفرنسيين، ويقتل من يقتل ومن ثم يرجع من حيث أتى؟ أي هي المغامرة التي وضعته بين أكثر من قوة سياسية، وأفصحت عن قوته ونوعيتها ومستقبلها ؟

أهي نخوة قبائلية، أو عشائرية، أو تقليدية في عرف أهل المنطقة، أم صيحة المظلوم ضد الظالم ونجدته لنظيره؟

كوجهة نظر بحثية، أقول بداية، أن حاجو الثالث، أو حاجو آغا، كما يعرف اختصاراً، هو بطل واقعة/حادثة بياندر، بكل المقاييس التي توصف أو تعرف بها البطولة من إقدام، ومن روح المغامرة، ومن خفة حركة، إذ لولا حاجو هذا لما كان هناك ما بات يعرف بـ «واقعة/معركة/حادثة»، وحتى: مذبحة بياندر في بعض الروايات، في نهاياتها الكبرى، وبمقدار ما أخرج حاجو بياندر من حيز المتناهي في الصغر إلى حيز الإحداثية السياسية والعسكرية، إلى جانب «الوطنية» عند الراغبين في ممارسة إسقاطات تاريخية، والشهرة خارج حدودها بما لا يقاس، بمقدار ما كان لبياندر هذه فضيلة إنارة ساحة حاجو، واعتباره/طرحه اسماً استثنائياً لدى أهم طرفين فاعلين في الحدث الكبير بجغرافيته الكردية أساساً، وهما: الأتراك والفرنساوية.

(1) ينظر مثلاً فيما قيل في بياندر: القرية وموقعها، والتعليقات عليها، وأهم حدث «معركتها»، وردود الأفعال الجانبية عليها، سوى أن الأهم هو الاسم «معنى بياندر: إظهار البيانات أو الأوراق الشخصية، ربما من بيان- دور».

وموضوع آخر «قرية بياندر... ملحمة وطنية»، وثالث يسميها «ملحمة في تاريخ الجزيرة السورية»، ومعركة بياندر في الجزيرة السورية العليا، ومعركة بياندر بين العشائر الكردية والعربية، وانتفاضة بياندر، وثورة بياندر في الوثائق الفرنسية، وبياندر ثورة منسية من نضال الجزيرة السورية، ومن نضال الكرد ضد الفرنسيين في الجزيرة السورية، ومعركة بياندر من معارك إقليم الجزيرة... الخ.

مما لا شك فيه أن هناك روايات كثيرة، كما تقدم، إلا أن المفيد كما أرى، هو أن التأكيد على أن بياندور كانت محك حاجو الأول في اختبار قوته الشخصية وتجاوزه لحدود لم يكن له قد تجاوزه بالطريقة هذه، وهو مقبل على مواجهة مميتة، أو كان من الممكن أن تكون قاتلة له ولكل خيالاته. كانت بياندور عتبة رؤيته للعالم الخارجي، وأبعد من ذلك، أي إن الذي شارك فيه لم يكن صراعاً قليباً، ولا مواجهة مع العسكر التركي، بمقدار ما كان دخولاً في اشتباك مع أكثر من قوة عسكرية: تركية وفرنسية، وتوغلاً في جغرافيا مرسومة سياسياً بين قوتين: امبريالية فرنسية، ومحلية متواطئة معها، وهي تركيا قبل كل شيء، إلى جانب أول تعريف باسمه إظهار وجهه بهذا الشكل خارج «حدوده» المعروفة أكثر، وبتوجيه منه.

أعتقد، وقبل مباشرة الكتابة الفعلية في الموضوع، أن واقعة/ حادثة/ معركة بياندور، تستحق أن تدرس من قبل كل من له إلمام بما هو ثقافي، سياسي، تاريخي، جغرافي ونفسي في المنطقة، وأبعادها في ضوء كل مستجد، ذلك يشكل ملفاً عصياً على الإغلاق، لأن كل إضافة بمقدر ما تمثل إضاءة للموضوع، تعم عليه وتشكل عليه من ناحية أخرى، وذلك بوجود دوافع مختلفة، وحتى لطرح تصورات جديدة مع معلومات جديدة، يكشف عنه أرسيفياً أو وثائقياً.

من المعلوم أن فرنسا بسطت سيطرتها على «الجزيرة السورية العليا» سنة 1922، وواقعة بياندور كانت بعد سنة، كيف يمكن عرضها من خلال بضع روايات وهي كثيرة، ويصعب الإحاطة بها كلها، في هذا المبحث؟ ثمة أمثلة مختلفة، ولعلها تقدم صورة أكثر تكاملاً عنها، وفي الوقت الذي سأتوقف عندها مقارنة ومساءلة عن دقتها.

في مذكرات جميل حاجو نقرأ التالي، حيث الحديث يشير إلى مشاركة حاجو آغا المباشرة فيها (حضرت أول وحدة عسكرية من الجيش الفرنسي إلى قرية بيان دور بقيادة ضابط فرنسي برتبة كبتين اسمه روغان في عام 1923، وكان فيها متطوعين من المسيحيين من قرية محركا المجاورة لقرية دوكر وكانوا في خلاف مع سليمان عباس مختار دوكر بسبب ملكية قرية محركا... فأرسل الكبتين دورية إلى دوكر حيث جلبوا سليمان وعباس إلى بيان دور فأمر الكبتين بحبسهما حالاً ولما حل الليل أخرج الجنود عباس من السجن وقتلوه بناء على أمر الكبتين، وكان يأتي دور سليمان أيضاً فيما بعد ولكن في نفس الوقت حضر نايف عبدالرحمن شيخ

الطبي لزيارة الكبتين حيث كان مؤيداً لفرنسا ولما علم نايف بمقتل عباس أظهر أسفه لدى الكبتين وطلب منه راجياً الإفراج عن سليمان فلبى الكبتين «الكابتين» طلبه وأخلى سبيله، وعلى إثر هذا الحادث كتب سليمان رسالة إلى والدي طالباً منه أخذ الثأر لمقتل عباس وذلك لما بين عائلتي من صداقة قديمة وبناء على طلب سليمان شاوور الوالد الحكومة التركية لأخذ رأيها في الموضوع فكان موقف الحكومة مشجعاً له، وذلك عن طريق ضابط الاستخبارات اليوزياشي حقي كوندوز، وعلى هذا الأساس جهز الوالد حوالي ثلاثمائة مسلح من رجاله وذهب معهم إلى قرية تل شعير القريبة من بيان دور شمالاً، ولما حل الليل أفرز مائة رجل من هذه القوة وعلى رأسهم ابن عمه خليل بطي وأخي جاجان وأمرهم أن يتوجهوا إلى بيان دور وأن يهاجموا القرية من ناحية الجنوب حيث مساكن أهل القرية وقد تمت العملية بدقة بهجوم مفاجيء... ولما أصبح الصباح اشتركت عشيرة الجواله وعشائر الشيتية معدا وعشير كاسكا لبيت أحمد اليوسف وظل الجنود الفرنسيين محاصرين من كل الجهات ... وهكذا تم القضاء على معقل بيان دور وفي هذا الوقت كان الكبتين روغان في دورية إلى منطقة دجلة على رأس جنود الهجانة وبعد انهاء مهمته عاد راجعاً إلى بيان دور ولم يكن يعلم بما حدث هناك وبعد الانتهاء من عملية بيان دور توجهت هذه العشائر إلى موقع قبور البيض لتلتقي ب روغان هناك عند عودته من الدورية، ولما وصل روغان وجنوده إلى موقع قريب من قبور البيض قامت هذه القوات بالهجوم عليه فأناخ جماله هناك وقاوم مقاومة مستميتة لمدة ثلاث ساعات تقريباً إلى أن جاءت رصاصة قاتلة وعندئذ سلم الجنود الذين نجوا من الموت، وهم عدد قليل، أنفسهم إلى ابن عمنا ساروخان الذي كان مشتركاً في الكمين وقد حماهم من القتل من قبل الغير. ص 55 .

نقطة ليست على السطر :

هذه الواقعة المروية تبدو متماسكة، وليس فيها من مبالغة، إنما هناك ما يستحق السؤال، وهو: كيف شاوور حاجو آغا الحكومة التركية؟ ألم يكن في مقدوره عبور الحدود دون أخذ الإذن منها؟ ألم تكن تمثل طرفاً معادياً، بل وعدواً، وثمة تاريخ قريب جداً حول مبلغ عدااء الدولة للکرد، فكيف يكون أخذ الرأي؟ ولا بد أن حاجو آغا يعلم أن مجرد الاتصال بالعدو التاريخي يعني أن هناك من سيوجه إصبع الاتهام إليه بأنه يتعاون مع تركيا؟ ولعلنا في رواية جكرخوين، كما سنرى،

وفي الوثائق الفرنسية نقرأ إشارة كهذه، وفي أكثر من نقطة؟ هل كان حاجو آغا، يمهّد لنزوله إلى «بنختي» قبل هذه الواقعة، أم كان يتوقع ذلك؟

ليس هناك من جواب قطعي يمكن الركون إليه، سوى أن الجواب الاحتمالي، هو أنه لم يجد من بد من ذلك، رغم أن طلب المشورة أو أخذ الرأي مكلف، وفي وضع كهذا، أي تسجيل نقطة على تركيا لصالحه، واعتبار ما قام به رد فعل مسبقاً له ضد فرنسا، تجاه موقفها من الكرد، ومن ذلك ما يتعلق باتفاقية «سايكس-بيكو»، و«سيفر» تحديداً .

لكن في الوسع تسمية خط اتصال بما كان، ومكاشفة ما كان يجري حينذاك، وهو الخط الذي يزيدنا معرفة ببنية العلاقات في الوقت ذاك، أعني بذلك طبيعة العلاقات التي كانت تقوم بين مختلف القوى على الأرض ونوعيتها .

ففي رواية جميل حاجو، رأينا إشارة إلى نايف عبدالرحمن وهو يجالس الكتبتين الفرنسي، أو باعتباره متعاوناً معه، وهذا النوع من التعاون الذي سنتعرف على ضروب منه، وفي أكثر من اتجاه، وبأكثر من صفة لاحقاً، يدفع بنا إلى النظر فيه، ومن ثم تقييمه، ليس من منظور السائد، أو راهناً، باعتباره: عمالة، وإذا قلنا هكذا، فإن أول ما يُسأل هو: عمالة مع من، ولصالح من وضد من؟ لا بد أن هذه التسمية، من حيث النشأة تواجهنا بنوعية ثقافة اجتماعية وسياسية قائمة، كان المعنون بها غير ما هو الحال عليه في يومنا هذا، وتحديداً، بالنسبة لمفهوم الانتماء، وما يعنيه الانتماء هذا إلى جهة أو مكان، أو صفة مكانية متميزة جرى عزلها واعتبارها ماثرة أخلاقية، مثلاً، وكل متعدد لحدودها يكون أثماً.

أعني بكل ما تقدم: الوطن، حيث كان حديث العهد جداً، ولعلنا فيما نحن مقبلون على إثارته بصورة تصاعدية وأكثر توسعاً في بنية القول، هو هذا الذي يتداوله الناس فيما بينهم، ويتهمون بعضهم بعضاً استناداً إليه، في الوقت الذي تكون سمة «الوطنية» بعيدة عن التبلور بطابعها الاجتماعي السياسي الحديث تماماً، بالعكس، ومن دون الإحالة على مرجعيات في هذا المجال، لا أكثر من المؤلفات التي تتصدى لهذا المفهوم، وهي تتناظر وتتجاوز حول ما إذا كان هناك مفهوم فعلي لـ«الوطنية» ما إذا كان هناك «وطن» بالمفهوم السياسي، ما إذا كانت المعارك التي تسمى في العالم العربي، وفي أمكنة مختلفة، وضد المعتبر استعماراً دائرة حقاً في خانة : الثورات التحررية أو الوطنية أو القومية؟ ما إذا كان هناك

وضوح في الرؤية الفلسفية أو الفكرية بالنسبة لمفاهيم شديدة الخطورة من نوع «الوطن: الوطنية» وذلك انطلاقاً مما يجري من تصارعات، وصعوبة النهوض بالواقع، أو بناء المجتمع الحداثي، وسلطة سياسية قانونية، أو دستور يؤخذ بعين الاعتبار من خلال مجموعة القوانين والأنظمة التي تكفل للمنتمي إليه كمواطن حقوقه وتحدد له واجباته .

تلك صدمة أومباغته لمن لم يهيء لها نفسه، ولكنها صدمة وعي غير محتسبة، أو غير مفكّر فيها، لحظة التدقيق في وضعيات من هذا القبيل، وكيف ينقسم الناس: أفراد المجتمع، على بعضهم بعضهم، ويعادون بعضهم بعضاً، ولا يجدون غضاضة في أن يتصل أحدهم بطرف ما، خفية، وهو مقبل على مغامرة سياسية الطابع، جرّاء عدم نضج هذا المفهوم .

أما عن اعتبار بيان دور بمثابة «أخوة الدم» فليس أكثر من خيانة التاريخ نفسه، لأنه يرغم بقبول تسمية لا تناغم بينهما، ليس أكثر من إساءة إلى المفهوم الفلسفي للمعنى، لأن يفقد صفته الدقيقة كمفهوم لا يستخف به ...

رواية جكرخوين وهي ليست روايته :

تأخذ رواية الشاعر الكردي جكرخوين مكانها الرئيس هنا، أولاً لأهميتها، وثانياً، لأنها من باب التأكيد لهذه الأهمية، كان قريباً منها كتاريخ حياة، وكان شاباً «في العشرين من عمره»، وثالثاً، وهو الأهم جداً، أن روايته تم تداولها كثيراً، ويمكن أن تفسّر، وحتى أن تؤوّل من زوايا مختلفة، ويلتقي فيها منظور اليوم «أيام التذكير بها قبل رحيله في السويد» من جهة التدايعات السياسية أو مواقفها، إلى جانب حزبيته الفاعلة في بنية الرواية تلك، وما جرى حينذاك بالمعنى السياسي : سورياً وكردياً .

وقبل إيرادها، أنوّه إلى أنني لم آت على ذكر أي منها «من الكتابات التي أوردتها أو اتكأت إليها» تجنباً للإطالة، ومن ناحية ثانية لأنها انتهجت أسلوباً عرضياً وعرضياً، أي دون مسألة ما أشرت إليه.

تعتمد الرواية على رواية أخرى، وهي ذات مغزى، أي على رواية فرنسية، يوردها بدورها، وفي إثرها يعلّق ويقيم على ما يجري، حيث يوسّع دائرة التقييم، ولعلها المقاضاة الأخلاقية، إن جاز التعبير أكثر، ومن منظور طبقي ملموس، ودون أن يعطي الرواية الفرنسية وهي تتقدم برؤيتها الإيديولوجية أي بعد معرفتي: تقييمي بالمقابل.

ما ورد في سيرة حياته تحت عنوان «حادثة بياندور، تموز 1923»، ولمفردة «حادثة» معنى آخر ومحدد، أي لا نجد أثراً هنا، وبصورة مباشرة لمعركة، إنما ما يدعو إلى التفكير في التاريخ في الحال، على صعيد التفسير، وربما كما ورد الاسم: التعبير في النص الفرنسي المنقول.

يشير جكرخوين إلى أنها نقل روايته «من الكتاب الذهبي الذي ألفه قائد جيش الشرق هوتزنجر بين عام 1918 إلى 1923، حيث طبع في شباط 1938» طبعاً لا نعلم «لا أعلم أنا» كيف تمت عملية النقل: من النص الفرنسي، أم وهو مترجم إلى العربية أم لغة أخرى، جاء في النقل:

(في شهر تموز عام 1923، أو عام 1921-1923 استولى جيشنا على الجزيرة. وفي شهر أيار عام 1922-1923 صار مركز الحسكة تحت سيطرتنا. وزّعوا جنود العقيد بيجو وغرانت في الجزيرة العليا «منقار البطة»، وهكذا وقعت حادثة بياندور المؤلمة.

كان قائمقام بياندور حليف فرنسا، ولهذا قتل: قتل في شهر حزيران في بياندور. وقد بنينا للضرورة ثكنة لنا في أعلى تل بياندور. وقد استقر فيه جنود الهاغانا. ومنذ ذلك اليوم كانت عصابات الأكراد تهاجمهم. كان لنا مفرزتان من الجنود فقط في شهر تموز بقيادة الملازم روبرتو وكارير، وفي 26 من هذا الشهر وصلت مفرزة الملازم موريل إلى بياندور لتحل محل مفرزة كارير... من بقوا أثناء الهجوم كانوا ثمانين شخصاً مع مدفعيتين رشاشيتين .

في اليوم الثامن والعشرين من هذا الشهر هاجم قرابة ألف شخص مدجج بالسلاح ثكنة بياندور، وحاصروا جنودنا، ... وقُتل واحد من جنودنا وجرح أربعة. سد العدو الطريق إلى الماء عليهم، وبسبب العطش هاجموا برؤوس الحراب «بالسلاح الأبيض» عدة مرات للوصول إلى الماء، وملؤوه عدة قراب لأنفسهم. قتل أربعة منهم... أراد الملازم موريل الانسحاب خلفاً، وأن يوصل نفسه إلى تل ناصر. ليستطيعوا بلوغ الماء ولتقدم العشائر الموالية لنا العون لهم.. وبلغوا تل ناصر ببطولة.

في تلك الأثناء استطاع الملازم روبرتو الوصول إلى الجزيرة... لم يكن يعلم بأحداث بياندور شيئاً، في التاسع والعشرين من هذا الشهر، وصلوا إلى رميلان... وفي اليوم التالي توجهوا إلى بياندور... وفي الساعة 30 و 19 هاجم مجموعة

فرسان مؤخرة المفزة لكنهم انهزموا بسرعة، توجه جنودنا إلى بياندور، وعند نهر جراح بدأت المعركة الكبرى... أراد الملازم كارير والملازم ريغار والرفيق آدم جمع شتات الجنود، لكن الكابيرال «محمد صالح» قتل، وبمقتله دب الذعر في نفوس الجنود وفقدوا الثقة بأنفسهم، لذا لم يجد الملازم كارير بداً من التوجه إلى مفزة روبرتو واستطاع قتل بعض الأعداء، لكنه قتل في النهاية، أما ريغار فقد اعتقلوه وقتلوه بالخناجر، وكذلك قتلوا الرفيق آدم بالخناجر، لكن روبرتو ومن أعلى التلة كان يحارب بواسطة المدفعية، أما كارير ومفزرته فقد أبيدوا وقتلوا جميعاً، حتى أنهم كانوا يجهزون على الجرحى» .

كان العدو يقارب الـ 3000 شخصاً... هذه المعركة الكبرى كانت بقيادة حاجو آغا- زعيم الهفيران، الذي قدم من كردستان المحتلة من قبل الأتراك، بقرار من اسماعيل حقي لمحاربة فرنسا وعشيرة آشيتا الكردية، وكانت عشيرة «الجواله» العربية إلى جانب الآغا، وقد قام حاجو آغا بعدو معارك في الجزيرة. مرة حارب عشيرة «طي» العربية، وعدة مرات حارب فرنسا، مرة قدم إلى عامودا، إلا أنه عاد دون قتال، كانت هذه المعارك تجري بتدبير ضابط تركي، ولم يكن الآغا يدرك الكرد والكردياتية.

عندما قدم إلى عامودا كان برفقته حوالي ألفين من الرجال، لكن اليوم أمثال سعيد السيد، يقولون:

لقد قدم الأكراد إلى الجزيرة من الخارج .

يبدو أن سعيد هذا تخيل أن الجزيرة كانت لأجداده منذ القدم، لم يحارب الأكراد فرنسا في منطقة الجزيرة فقط، لا بل كذلك في حلب وحماة كان الأكراد يقفون في وجه فرنسا...

على الجبال الحصينة كان هناك بعض الجنود الأتراك بقيادة العقيد «بدري بك» وبعض العصاة بقيادة «ابراهيم بك هنانو».

وكان بدري بك يقود الفرقة الخامسة التي تشكلت كالآتي:

لواء المدفعية ومجموعة خيالة، وثلاثة مجموعة بطارية، وكان تحت أمرهم ابراهيم هنانو سبعة ألوية من العصاة، لواء من الخيالة بقيادة ابراهيم هنانو نفسه، ولواءان من جبل صهيون، ولواء من جبل الأكراد، ولواءان من الكرمانج «الأكراد» ولواء من جبل الزاوية».

لكن التاريخ السوري لا يذكر شيئاً من دور الأكراد في هذه الأحداث، إنهم يعدون الأكراد من أعدائهم.

وكما تبين لنا كيف أن المقاتلين الأكراد قاموا في بياندور، مقاومة بأسلة، وفرقوا الفرنسيين، وقتلوا قائمقاماً عربياً موالياً لفرنسا في بياندور... وعلى الرغم من ذلك لا زال الشوفينيون العرب يقولون «الأكراد قادمون من الخارج».... باختصار: حاجو آغا مع عدة آلاف من الرجال جاؤوا لمحاربة فرنسا وأحرقوا بياندور، وقتلوا قائمقاماً عربياً فيها... خرجت فرنسا من الجزيرة أو الجزيرة العليا... وبقيت الجزيرة عدة سنوات تحت سيطرة الأكراد.

ولكن لعدم وجود الطلائع الكردية الواعية آنذاك، لم يكونوا يدركون معنى الاستقلال، وبدأت أعمال السلب والنهب من كل حذب وصوب. فالأتراك نصبوا «قدور بك، زعيماً على الجزيرة، ومن جهة أخرى أرسلوا لسعيد آغا الدقوري: إذا قدم عبدالقادر بك إلى عامودا أطلقوا عليه النار ونحن إلى جانبكم».... وهذا ما تم... لقد أسدل التاريخ ستاراً أسود على هذه الأحداث وأصبحت في طي الكتمان... وأصبح الأكراد أعداء بعضهم بعضاً.... وجاء حاجو آغا لنجدة سعيد آغا، إلا أنه لم يدخل المعركة، عقد الصلح بين سعيد والكابار، ثم قفل راجعاً.

لو كان حاجو آغا مدركاً للأمور لكان باستطاعته تزعم المنطقة، ولكن تحركاته كلها كانت بتدبير الأتراك، حيث أنه قال لي شخصياً «حتى الآن أملك تلك الوثائق التركية، وبواسطتها استطعت التخلص من الفرنسيين». حيث أن حاجو آنذاك لم يكن يعي الكردية بعد.

مرة أرسل بعض أصدقائي كتاباً بخط «الملا يوسف قرتميني» إلى حاجو، يطلبون فيه أن يتصالح مع ابن أخيه «صاروخان». وما إن وصل إليه الكتاب، أرسل للأصدقاء قائلاً «لا يوجد أحد يعرف قراءة رسالتكم على كاتبها أن يحضر ويقرأها لي».... وهناك- بعد حضوره- سلمه للأتراك..

لم يكن حاجو آغا الوحيد الذي لم يكن يعي الكردية، لا بل معظم آغوات تلك الفترة، وإن كان هناك من قد تشكل لديه بعض الوعي الكردي، كان ذلك يعود لنجباء الكرد.

عندما عادت فرنسا مرة أخرى إلى عامودا، لا أذكر بالضبط ذلك العام، ولكنه في حدود 1922 و1923، جمع الجنرال الفرنسي جميع الآغوات في بيادر عامودا وسألهم:

- أنتم أبناء الجزيرة، ما هي مطالبكم لنحققها لكم ؟

رد بعض الآغوات قائلين :

- نريدكم ألا تجردونا من بنادقنا .

وغيرهم قال:

- نريدكم أن تعفونا من ضرائب الأعوام السابقة.

وبعضهم قال:

- نريدكم ألا تجردونا من ثبوتيات ملكيتنا لأغنامنا .

عندها ضحك الجنرال هازناً وقال :

- لن تجردك فرنسا من أي منها!

وذهب الجنرال، لكن لو كان آغوات الأكراد على قدر من الفهم لقالوا:

- نريد أن تبقى الجزيرة تحت سيطرتنا، ولكن يا للأسف.

قائد الجندرمة.... كان مركزه في عامودا، سألته ذات مرة:

- بالله عليك لماذا لا تجندون بعض أهالي الجزيرة في الجندرمة ؟

وفي الرد قال:

- طالما كان هناك حتى أعمى من دير الزور، لن نجند أحداً من الجزيرة. لم يكن الأكراد قد وصلوا بعد إلى ذلك المستوى الذي يؤهلهم كجندرمة، فما بالك أن يعوا ذاتهم كأكراد الخ، صص 1180-125) .

كما يلاحظ، لقد نقلت الكثير مما أورده جكرخوين: رواية الضابط الفرنسي، وتعليق جكرخوين، وهما يتعالقان، أو يختلطان ببعضهما بعضاً، أو وهما متداخلان، وأعني بذلك أن توصيف الضابط الفرنسي، أو العسكري الفرنسي الغازي للبلد، للذين هاجموهم كرداً وعرباً، وما فيه من ذم، يناظره توصيف «الضابط الكردي، أو العسكري الكردي المخرج نفسه من تاريخه الدقيق حينذاك، وما فيه من ذم مضاعف لكرده عموماً، ووجهاتهم خصوصاً»، وأقولها هكذا، من باب تقريب المعنى، إلى جانب الكشف عن الحالة النفسية بالنسبة لشاعرنا جكرخوين، الذي لا أشك في صحو روايته، بالنسبة إليها باعتبارها

تترجم رؤيته لما كان يجري ويحدث، وليس كما هو الحال عليه حينذاك، وفي طريقة تناوله لرواية الضابط الفرنسي، وقد انتفى فيها هذا العنصر المطلوب تذكيره «الغيرة الكردية» بالمفهوم الأخلاقي، على الأقل ليكون في مقام الآخر، وكيف يفكر في منطقته وكرده، وكيف يكون أكثر إدراكاً للكردانية هو نفسه قبل سواء، أي إنه تعامل مع منطق الأحداث، وقد وصفت من خلال عملية ضبط للكلمات من جهة الضابط الفرنسي وتلك هي حرفته وخبرته، في كيفية كتابة التقارير وهي تتضمن وقائع أو أحداثاً كهذه، وعلى ماذا يحرص في عملية النقل، أي ما يجب أن يكون عليه النقل في لزوم إبراز أخلاقية الغازي، وتجريمية الطرف الآخر، وحيث إن جكرخوين يفتقد مثل هذا الوعي المناظر، فإنه مارس توقيعاً بـ «العشرة» على تقييم الضباط الفرنسي وغيره، على مدى «دونية الأكراد»...؟

أي إن الفرنسيين ممن يجابهن من قبل الآخرين، يكون توصيفهم لهم جاهزاً «العصاة»، وهي مفردة تحمل من الدلالات الكثير الكثير، ففيها مما هو أخلاقي الكثير الكثير، قبل كل شيء، أي من شق عصا الطاعة، أي إنه تمرد، وخرج عن جادة الصواب، فصار في خانة المجرم، أو المذنب المطلوبة محاكمته، ومن عصا، فكأنه افتقد عقل جماعته ومن يحكمه .

ألا يعني كلام جكرخوين شيئاً وأكثر مما تقدّم؟ أي كون الذين يتحدث عنهم عصاة في الطرف الآخر، حيث لم يلتزموا بـ «عقل الجماعة القومية»، أو ما يجعلهم أهلاً لهذه العبارة؟ وبذلك صح فيهم ما صح قول الفرنسيين فيهم ؟

تاريخ ينتظر تأريخاً :

سأشدد هنا، على نقطة رئيسية، حتى لا أحاسب بما لم أنوّه إليه كما ينبغي وفي وضع هذا، وهو أن في كلام جكرخوين الكثير مما يؤكد التاريخ، ولطالما أكّدت عليه في الكثير الكثير مما كتبت: مقالات، دراسات وكتباً، وأن الذي يعلمنا به التاريخ، وما لم يدوّن حتى اللحظة، هو أن أنايتهم بطابعها الفئوي، القبلي، والتحزبي كامتداد للسالف ذكره، كان وما زال أكثر من حجر عثرة يحول دون التعريف بهم كرداً، أو في نطاق وعي الكردانية، كما تقدّم هذا التعريف مرتين .

سوى أن مقام العبارة يختلف من وضع إلى آخر، وبدقة أكثر من سياق إلى سواء، وما قام به صاحب «نار وجمر» و«من أنا»، و«أمل» و«سلام»... الخ، وهي

عناوين لمجموعات شعرية له، ما قام به صاحب «تاريخ كردستان» وهي محاولته في تأريخ الكرد، يخرج المعنى عن معناه، بالنسبة إلى رواية الفرنسي المتطابقة مع إيديولوجيا سلطته، وبالنسبة إلى موقعه من سير الواقعة في الزمان والمكان، والذين شاركوا في الحادثة كردياً وغيرهم، وما انتهى إليه قوله كحكم مبرم أخلاقياً، وسوف نزيد هذا الجانب عمقاً، وخصوصاً بالنسبة لعلاقته بأهله، ومنهم ساروخان/ صاروخان، والذي رأيناه في رواية جميل حاجو مشاركاً في الإغارة على العسكر الفرنسي، في قوة حاجو آغا، وهذا ما يجب التنبه إليه.

أي ما يظهر نبرة «التشقي» من تاريخ مركّب من جُح الخيال، وما يعزّز صحة مقولة تجعل من التاريخ فورة عاطفة خاصة، تفقد الواقعة ميزتها .

كما أشرت منذ البداية، إن استخدام مفاهيم: الوطنية، القومية، الشعب الكردي، كما هو الحال راهناً، ليس بمنطق سديد، لحظة الرجوع إلى قرن من الزمان، ولحظة النظر في بنية التشكيلات الاجتماعية للذين كانوا يمثلون مفهوماً هو الآخر يتطلب الكثير من التروي في تهجئته ناحية الدقة «المجتمع»، وكيف يكون علاقات، ثقافة، مؤسسات وسلطة إدارة.

جكرخوين، ومن موقعه الطبقي «وليته التزم الطبقية لهان الأمر، ليته التزم النقيض لهان الأمر، ليته زواج بينهما لهان الأمر، لكنه لا من هذا ولا من ذاك ولا من الذي قبله»، إذ يمارس تقييماً إيديولوجياً على مرحلة تاريخية تتطلب أدوات تتناسب وطابعها التاريخي، أي ما يبتعد به عن أدوات كهذه مثل الطبقية المتداولة إيديولوجياً فيما بعد، الوطنية والقومية... الخ. أكثر من ذلك، فيما لو تجاوبنا مع منطقته في نقد تاريخ كان، إن صح اسمه في قاموسه، والذين مثّلوا تلك الفترة، كيف يبرّر انتسابه إلى أول حزب قومي كردي في سوريا سنة 1957، حيث إن المعلوم هو أن مؤسسيه في مجملهم إن لم يكونوا كلهم في خانة «الطبقية» التي عناها بكلامه ؟

وبتحديد أكثر: كان حزب الآغوات والبكوات والمتنفذين، أي كانوا أبعد ما يكونون عن الوعي الطبقي لشاعرنا، وأخشى أن أكون مبالغاً إذا قلت عن أنه يذكّرنا بما تعمد إليه مجموعة المسلسلات المحلية «في سوريا» تلك التي تخص تاريخ تواجد المستعمر العثماني في البلد، أو فرنسا الاستعمارية، خصوصاً «باب الحارة، نموذجاً»، واعتبار المتعامل معها على أنه «عوايني/زاسوس، كما يقال محلياً»، أي عميل فرنسي، بلغة

السائد، وما في ذلك من أسفاف بالمعنى، عبر عملية إسقاط الحاضر، وما يترتب على إجراء كهذا من سخرية حتى من قبل الفرنسيين، وهم يتابعون ما يجري، من باب تأكيد «الوحدة الوطنية»، وفي الوقت الذي يكون المجتمع «السوري» في غاية التشرذم والانقسام الداخليين. دون أن يعني ما تقدّم تحسين «العوانية»، وإنما الطريقة المبسطة في التصريف والتعريف بمفهوم العلاقة الخاصة تلك .

ومن جهة الرواية الفرنسية وتعليقه، كان ينبغي النظر في الرواية تلك، وكيف تمارس تأثيرها في الوسط العام، وهي تصف الذين هاجموا، وتظهرهم من خلال عنفهم بالوحشية، أو الهمجية والعصيان وحرق بياندور ورعب التعبير، مقابل بسالة الفرنسيين ومن معهم؟!

لم تكن هناك حدود مرسومة على الإطلاق بين علاقة وأخرى: بين الذين يتعاونون مع الأتراك أو الفرنسيين، خصوصاً بعد «سيفر» وقد أصبح الكرد في واقع آخر، وصدمتهم بما جرى، وأنهم رأوا أنفسهم مشدودين إلى تكيف من نوع مغاير لا ينفصل من ناحية عما كان، جهة النزاعات العشائرية، ولكنه يكتسب صفات جديدة في تنوع العلاقات من ناحية أخرى.

ولا بد أن حديث الضابط الفرنسي «مؤلف الكتاب» وهو يتعرض للذين حاربوهم، كما في حال ابراهيم هنانو، لا بد أنه متداخل مع حديثه عن أي كان واجه فرنسا، ومن هؤلاء يكون حاجو آغا وخلافه، أي حين يكونون بين هذا الطرف وذاك بالنسبة إلى قوتين متنفذتين: فرنسا الاستعمارية، وتركيا بوصفها متحكمة بالكرد وغيرهم: جغرافياً وتاريخياً .

ذلك يمنحنا فرصة التقاط الأنفاس ليس على طريقة «الثوريين» الذين يجري وصفهم أو كيل المديح لهم هنا وهناك باعتبارهم وطنيين، أو ممثلين حباً وطنياً وساعين إلى «الوحدة الوطنية»، وهو ما لا يمكن تمريره كحكم قيمة في زمانه، ما لا يمكن رؤية ما يؤكده على الأرض، إنما مصالح جانبية من نوع آخر، من الصعب اعتبار الوطنية حاملها الرئيس.

وفي الواجهة سيكون لابراهيم هنانو بالذات المقام اللافت، لأنه محل اعتبار وتذكير به، كلما أشيرَ إلى «الثورة السورية الكبرى» والذين حاربوا الفرنسيين، وهو أول من أشعل فتيل «الثورة» في جبل الزاوية، ومدى دقة ذلك.

في الخليط الاجتماعي وهو مجموعة مكونات «الجيش الفرنسي»، نجد أنه داخل المفرتين الفرنسيتين كان هناك عناصر من السكان المحليين، عدا المنتمين إلى جنسيات أخرى، وهذا أمر له دلالة، إلى جانب نقطة مهمة، وهي تذكرنا بما قاله جكرخوين ذاته، وبلغة المتسائل للفرال الفرنسي، عن عدم تجنيد أكراد في الجندرية الفرنسية «لفظ: أهالي الجزيرة»، فكان الجواب بالرفض، إعلماً له أنهم ليسوا في مستوى وعي المنتمي إلى جندريته.

هكذا يفهم من كلام جكرخوين وهو يأتي تعليقاً على جواب الفرنسي.

هذا يستدعي أمرين اثنين، لا أعتقدهما لصالح ما توجه إليه الشاعر أو تصوّره:

أولهما، بالنسبة للجنرال الفرنسي، لا يعقل أنه رفض تجنيد أكراده، لأنه دون الوعي المطلوب، لأن ليس من المنطق بمكان أن يكون وعي الكردي، بالصورة هذه، دون وعي ذلك «الأعمى الديري» المذكور، إنما لأن هناك تخوفاً من تجنيد الكرد بالذات وفي منطقة حدودية، وجرّاء التعامل مع تركية وهي بدورها استعمارية «محلية» كذلك، ومخافة أن يكون هذا التجنيد مصدر قلق لفرنسا، أو لعدم وجود ثقة بالكردي حيث لا يكون مخلصاً لحكومة فرنسا.

ثانيهما، من ناحية جكرخوين، كيف يمكنه توجيه هذا السؤال إلى الفرنسي، وهو بوعي «الوطني»، أو الرفض لوجوده بمعيار ذلك الزمان؟ أم تراه اعتبر الكردية التي يتداولها في وسطه، أو بينه وبين نفسه، غير كردية أي كان، على طريقة «ما لا يجوز للشاعر لا يجوز لغيره»؟ معنى الكلام، أنه في المستطاع الإصغاء إلى جكرخوين وهو يستشعر، وأن من حقه على كرده أن يصفقوا له حين يدخل ما هو كردستاني وإنساني في شعره، وليس كل ما اعتبر شعراً قومياً كردياً، وأنا أشير إلى عشرات القصائد التي يستهل فيها بطريقة نظمية إلى الحذر من التعامل مع المشايخ والآغوات والبكوات والملالي... الخ، ومن منظور طبقي، إيديولوجي ساي، وليس من منظور قومي كون الأخير يتطلب تعاملاً من نوع آخر مع هذه الشرائح الاجتماعية، وهي كردية، وكونه هو نفسه كان يجالسهم، لا بل أصبح رفيقاً حزبياً لأغلبهم، من ناحية الآغوات والبكوات في الحزب، ولا أدري ماذا حقق في انتمائه الحزبي ذاك، وكيف كان موقعه تأثيراً أو نفوذاً، وبالتالي، فإن الكثير من كلامه في الشعر، يمحو فاعليته ودقته حتى القليل من كلامه في النثر، حال ما تقدم.

في الوقت نفسه، يلاحظ أن شاعرنا يسترسل في الكلام، ويأتي على ذكر واقعة ضمن أو تلو أخرى، دون السؤال عما إذا كانت صحيحة أم لا، دون مساءلة ما إذا كان هناك من سيعنى بقوله جهة التوثيق أم لا، حيث إن أقوالاً كهذه، وهي تعتمد عليه، أي يكون هو نفسه القائل والراوي، ليس من السهل أخذها باعتبارها وثيقة تاريخية، أي تجد صورة لها في الواقع، كي يجري تحويل كل قول فيها إلى مادة معينة في الدرس التاريخي، أو التحليل الثقافي، أو حتى النقد بالمفهوم السياسي... لا مكانة لاعتبارات كهذه في وعي الشاعر، وثمة نقاط بصدد عدم فعالية من أشار إليهم من المتنفذين الكرد، وحاجو آغا في الواجهة هنا، لاحقاً، عندما تنتقل إلى نقطة أخرى، أي حيث يكون حاجو هذا في إطار الجغرافيا «السورية» ويتعامل مع الفرنسيين مباشرة، ونوع كردايتيته .

في بعض من الوثائق الفرنسية، ثمة ما يضيء ما توقفنا عندها حتى الآن، أي بالنسبة للغتها ومحتواها:

(بيان دور في 20 تموز 1923)

الملازم روبيرتو

قائد مفرزة بيان دور التابعة للسرية الثانية للهجانة

إلى النقيب قائد السرية

الحسجة

لي الشرف بأن أرسل لكم فيما يلي تقريراً حول الهجوم الذي تعرض له
المعسكر في ليلة 18-19 تموز 1923 .

إن التهديدات المموهة قليلاً الآتية من طرف الضباط الأتراك، والمعلومات التي
وصلتنا حول العصابات المشكلة من قبل عدونا حاجو، كانت، منذ عدة أيام، تجعلنا
أن نتوقع هجوماً أكيداً على مخفر بيان دور .

كانت مجموعة كارير، حسب رأيي، ذي دفاعات بالغة الهزالة، ففضلاً عن أنها
كانت كثيرة البعد عن التل، كانت قد استرجعت إلى الخلف، * (....)

في ليلة 18-19 تموز، في الساعة 23 والدقيقة الثلاثين، كان الموظف العريف
المحلي شمس الدين يذهب لأخذ مناوبته في المحرس الواقع في الجبهة الغربية

للمعسكر (المجموعة رقم 5). وعندما وصل إلى المحرس رقم 2، ولكي يبين بأن الوقت قد حان، أخرج ساعته وبدأ بإشعال عود كبريت .

ما أن بدأ العود بالاشتعال، حتى استقبل العريف و الحرس وكل الجهة الغربية برشقات من طلقات البواريد المنطلقة من حوالي البئر و من الحفر الصغيرة. (انظر الخارطة المرفقة بالتقرير).

الحراس التابعون للعريف، ردّوا فوراً، ودخلوا المعسكر، من أن يتوقفوا من إطلاق النار، كي يتسنى للمعسكر من أن يستيقظوا ويتجهزوا للقتال .

كنت يقظاً، وكنت أتمشور على الجبهة الشرقية للمعسكر. توجهت فوراً نحو المجموعة الخامسة. و لحقت بي مرافقتي، بعد أن أعطيت الأمر للرفيق آدم بعدم إطلاق النار إلا إذا تمّت مهاجمته أيضاً. كان الملازم كارير، وكان قد أعطى الأمر بفتح النار. وخلال لحظات تم تبادل كثيث لإطلاق النار بين الطرفين .

التحق بي الملازم ريفارد، وأفهمني بأنه لمح رجالاً كانوا يحاولون التقدم. يبدو أن هؤلاء الرجال قد خرجوا من المواقع القديمة التي كانت تحتلها جمال المجموعة الخامسة، وكانوا بالتأكد يريدون التمرکز خلف كومة القش والرمي على مجموعة كارير .

ألحقت كل مرافقتي بالملازم ريفارد، هذا لضابط، بعد أن وضعته في شرق الملازم كارير، أمر بفتح النار، وبعد لحظات كان يشاهد بعضاً من الرجال يهربون. في الوقت الذي كان الرشاش يفتح النار، من فوق التل، على الحفر والبئر. بعد ذلك بدأ العدو يتوقف عن الرمي .

أخرجت فوراً دوريتين (واحدة من كل مجموعة) بإمرة الرقيبين آدم و ابراهيم، بمهمة تفتيش أطراف التل دون الانسياق إلى الابتعاد عن مجموعتنا. عادت الدوريتين في الساعة 10 و 35 دقيقة وأفاد رئيسا الدوريتين بأنهما سمعا نداءات خفيفة حول المعسكر ورأيا عدداً من الرجال يتوجهون باتجاه سكة حديد بغداد. عادت الأمور إلى حالتها، لكن بقيت القوات مستترة. وبحلول النهار، جمعت أنا بالذات من حول البئر والحفر 124 ظرفاً، وأربعة طلقات غير مستعملة، وطلقة فاشلة، وطلقة دوم- دوم .

خلال المعركة، كان لي شعور واضح بأنه تم مهاجمتنا من قبل قوات نظامية لأنه ليس لأن النار كان مسدداً جيداً، لكنه كان ينفذ رشاً أيضاً .

من طرفنا كان نظام النار تاماً، كان لا يتم الإطلاق إلا بأمر الملازم كارير وتوقف بالأمر. وتجب ملاحظة إن المجموعة الأولى لم تطلق أية طلقة بارودة. وانطلقت الدوريات بدون أي تردد .

إذا أنا راضي جداً من سلوكية العسكر. أقترح المكافآت للعسكريين التالية
أسماءهم:

«م هؤلاء محليون كما يظهر»

-2073 شمس الدين (...)

-264 عبد العزيز بن عبد الله (...)

961 - نايف حمود (...)

عبد الله عواد...⁽¹⁾.

هذه الوثيقة تعرّف بتاريخها الدقيق، إلى جانب كل المتطلبات/الشروط التي تجعل منها وثيقة، معتمدة .

أي إن هناك ترتيباً لكل من وما في المكان، حرصاً على التوثيق، لكن هذا التدقيق كان يسمّى فرنسا وضبطها للأمور إلى جانب مدى إخلاص جنودها أو ضباطها لها، ومدى استبسالهم في الدفاع عن دولتهم أو حكومتهم، في مواجهة من يحتلون أرضه، ويعتبرون من يقف في وجهه مذنباً، أو يجري تجريمه .

ولا بد أن مفردة «العصاة» تشكّل القاسم المشترك الأكبر لكل الذين ينتمون إلى المؤسسة العسكرية الفرنسية، وهي تقيّم متحديها بالخارج عن جادة الصواب، كما في حال «حاجو آغا» ومن معه، سوى أن جكرخوين أولاً، وبدلاً من النظر في خلفية تقرير توصيفي فرنسي كهذا، وتعزية بعده السياسي والأخلاقي، ها هو يتماهى مع مضمونه إذ «يجهز» عليه .

(1) أنوّه إلى أن الوثائق المتعلقة بـ«بياندور»، مترجمة عن الفرنسية، عن طريق الباحث الكردي المقيم في فرنسا خالد عيسى، وهي في مجموعها منشورة في موقع «كلكاش» الكردي، ويسهل الرجوع إليها، إلى جانب مجموعة ضخمة من الوثائق الأخرى، ذات الصلة بوقائع أخرى تخص الكرد: آغري، الحركة الكردية، شخصيات كردية...الخ، ولذلك، فإن أي إشارة لأي وثيقة، تكون مرتبط بـما نوّه إليه آنفاً، ما لم يكن هناك جديد، في المصدر وصاحب العلاقة .

في وثيقة تالية، نزداد قريباً لبنية هذا الهجوم، وتلك التغطية الخيرية الواضحة للواقعة، يجدر إيرادها بالكامل، لأهميتها :

(الحسجة في 4 آب 1923)

تقرير الليتونانت موريل من الفرقة الثانية للخيالة، قائد مركز بياندور حول سيرالهجوم على المركز في 28 و29 تموز 1923

- في 26 تموز 1923 حوالي الساعة العاشرة صباحاً وصلت مع كتيبة الخيالة إلى بياندور، وكان معنا أيضاً الرقيب لياندرى مسؤول الرشاش المتريوز. ليأخذ مكان الكتيبة الخيالة للكاربير والرشاش للرقيب كوهون. (تبادل روتيني للكتيبتين، المترجم).

- في 26 تموز 1923 حوالي الساعة 24 أي منتصف الليل، الليوتنانت روبيرتو قائد مركز بياندور ذهب برحلة إستكشافية ابتجاه الشرق حتى دجلة وابن عمرو.

أخذ معه القوة التالية :

أ - كتيبة الخيالة لروبيرتو .

ب - كتيبة خيالة كاربير .

ج - وحدة الرشاش متريوز لرقيب كوهون .

الليتونانت روکار ضابط المخابرات في المركز، كان مع عدد من جنوده خارج المركز بمهمة خاصة .

الليوتنانت روبيرتو كلفني بقيادة المركز عوضاً عنه، وحدثني عن عودته في 29 تموز. في ليلة 26 تموز : لاشئ يذكر .

- في 27 تموز لاشئ يذكر من الناحية العسكرية، وقد إستقبلت كل من

مشعل الباشا شيخ الشمر ونايف عبد الرحمن شيخ عشيرة الطي الذين كنت أعرفهم سابقاً وهم بزيارة للترحيب بي .

لم نتطرق في حديثنا إلى المسائل السياسية الداخلية أو الخارجية، أو نصائح... ولاشئ عن خطتي في العمل ... وفي أثناء حديثي معهما كنت أتجنب الخوض في الأمور السياسية، حيث كنت على علم مسبق بالتنافس بينهما وأيضاً تاريخهما وورغباتهما .

- في 23 تموز وحوالي السادسة والنصف صباحاً، نقطة الحراسة أخبرتني عن مجموعات كثيرة للخيالة وهي تتجول بين حلوة وبياندور

فكرت في البداية على أنها غزوة تركية لسرقة جمالي التي كانت ترعى جنوب المركز، لذا بعثت مجموعة راجلة من ثمانية عناصر لحماية القطيع وجلبه إلى المركز فوراً .

وأيضاً فكرت في نفس الوقت، بإحتمال هجوم عشيرة سورية موجودة في تركيا (يقصد : عشيرة دوركان، المترجم): حيث كان هناك مع أولئك الفرسان قطعان من الماشية . لذلك قدت ثمانية خيالة (جندرمة) لتفتيش منطقة حلوة على وجه السرعة : على بعد ثلاثمئة متر إستقبلوني بنيران حية وغزيرة آتية من جهتين حلوة وطريق حلوة وتل الشعير .

نزلت من الخيل وقمت بالرد على النيران وساعدني في ذلك المجموعة التي خرجت لحماية الجمال، وبنفس الوقت القطعة الرشاشة متريلوز فتحت النار عليهم باتجاه تل الشعير، فرجعت بالسرعة الكبيرة على ظهر الخيل تحت نيران كثيفة ودقيقة حيث كان هناك تحركات كثيرة لأشخاص وقطعان من الحيوانات بين حلوة وتل الشعير تحت حماية) .

في السياق نفسه، ومن خلال الوثيقة، هناك تقدير للذين انخرطوا في سلك الجندرمة الفرنسية، وهم محل مدح، وكما تشير الوثيقة، يظهر أنهم من أهل المنطقة، أو ليسوا فرنسيين بأسمائهم قبل كل شيء، وأن مغزى مكافأتهم من باب داعائي.

في وثيقة أخرى، نلاحظ نسبة المشاركين في الجيش الفرنسي أو جندرمته :

(الجيش الفرنسي في المشرق

الفرقة الثانية

اللواء السوري الثالث المختلط

مسجل في مكب وزير الحرب في 30 آب .

ومدون في فرع إفريقيا في 31 آب 1923

رقم: 4158

الموضوع: بخصوص مقتل الملازمين روبرتو وكارير والرفيق آدام من الجيش الاستعماري.

تقرير النقيب دو جيفرال قائد السرية الثانية للهجانة بخصوص مقتل الملازمين روبيرتو وكارير والرقيب آدم.

أثناء العودة من الاستطلاع على الدجلة و جزيرة ابن عمر (سورية) مفرزة روبيرتو - المجموعة الثانية للهجانة (مساعدون سوريون)، ووحدة رشاش (قناصون جزائريون)، تعرضن لهجوم عدو يفوقهن عدداً خمسة عشرة ضعفاً .
كانت المعركة شرسة ودامت 3 ساعات .

أثناء هذه المعركة، استقتل بشكل بطولي كل الفرنسيين والقناصة الجزائريين .

الملازم روبيرتو (من ملاك المشاة الاستعماري) تم قتله بطلقة، في 31 تموز في الساعة الثامنة .

الملازم كارير (من ملاك المدفعية الاستعمارية) تم قتله يمكن في نفس اليوم ونفس الساعة، ونفس الطريقة .

الرقيب آدم (من ملاك المشاة) تم قتله في 31 تموز في الساعة الثامنة والنصف بطعنات سكين) .

وهكذا الحال في وثيقة أخرى، تزيد الواقعة وضوحاً، وتأتي على ذكر جوانب أخرى، جهة المشاركين في الحادثة، وسيرها، وطبيعتها، وطريقة تعامل الحكومة الفرنسية مع الجاري، ومن ذلك قصف بيان دور بالطائرات، وقصفها بالمقابل من جهة المدافع التركية في الطرف الآخر من «الحدود» :

(برقية مشفرة)

الحرب - باريس

رقم 191 إلى 194

أولاً: خسائر الاعتداء على بيان دور هي كالتالي :

آ- القتلى

الفرنسيون : 3 ضباط - 3 صف ضباط - 1 عسكري .

الجزائريون: 1 عريف - 10 عساكر

السوريون من العساكر والجند رمة: 1 عريف - 22 جندي .

ب- المفقودون: السوريون من العساكر والجند رمة : 15 .

ج- الأسرى - من العساكر السوريين 2 .

د- المصابون بجراح خفيفة 17 منهم ضابط فرنسي .

ثانياً: إن قصف منطقة بيان دور بالطيران من 7 حتى 9، ضمن ظروف برقيتي رقم 184-186، قد أعطى نتائج مادية جيدة، وآثار معنوية بالغة. قد يطلب بعض رؤساء تشييتية الأمان .

أثناء برقيتي، ظروف برقيتي 184-186، أطلقت مواقع تركية النار على الطائرات. بعد الاعتداء على بيان دور، قامت مظاهرات الابتهاج في ماردين. مفاوضات مع شمر الهادي الذين يحتجزون أسرى سوريين (٠).

وثمة ما يفصح عن طبيعة العلاقة مع الجانب التركي، وما في تحذير الوثيقة التالية والموجهة إلى المعنيين بالحدود، أو وهم يتحركون بجوار الحدود من الفرنسيين، كيف ينبغي أن تكون العلاقة، والحفاظ على سلامة أتباعهم :

(علاي في 2 آب 1923)

برقية مشفرة

من الجيش الفرنسي في المشرق

الى الفرقة الثانية - حلب

رقم البرقية 3/232

رقم 4688

مسجل في 8/2 الساعة 12

الموضوع: نُفذ

وصلت برقيتكم المؤرخة في 2 آب

- أوافق على نشر الإعلانات بالطائرات. لكن لا تقوموا بأعمال انتقامية إلا

بتروى جيد .

- أمركم بالاحترام التام للإقليم التركي والمناطق المتنازع عليها حالياً .

- انتبهوا كثيراً كي لا تقصفوا المناطق السكنية والتجمعات التي يمكن أن يتواجد فيها أنصارنا أو عناصرنا الإداريون وعساكرنا الباقون في أيادي المنتفضين .

يمكن أن تُقصف القطعان بشكل فعال .

-أعلموني يومياً .

بالأمر . رئيس هيئة الأركان

التوقيع

أرسلت بالشفيرة

في 23/8/2 الساعة 13 و20 د) .

إنما الجانب الأهم في الموضوع، وهو ما لم ينتبه إليه جكرخوين، ولا الذين يفكرون فيه، كما يظهر في اتجاه واحد في تناول موضوع مركّب بمثل هذه الخطورة. في التعامل بين دولتين مذكورتين آنفاً، هو الأسلوب الحضاري بشكل لافت، من قبل فرنسا كدولة استعمارية، وما في معناها من عنف موجه إلى الآخرين، وكدولة تستند إلى مجموعة من المنطلقات الفكرية وضمناً الاعتبارات الاجتماعية والأخلاقية، أو جانب المسؤولية ومحاسبة الذات والتدقيق في الأخطاء، وكيفية تفاديها، وفي الوقت نفسه، تحميل الذي بدوا محاربين من أجل دولتهم، وقتلوا أو أصيبوا أو هزموا مسؤولية هذه الأخطاء وبصورة صريحة بالمقابل، ومن خلال وثيقة تاريخية، يمكن مراجعتها مستقبلاً :

(المفوضية العليا)

الجمهورية الفرنسية في سوريا ولبنان

دولة حلب

النائب العام

رقم و/ 1549

سري جدا

حلب 24 آب 1923

الجنرال بيلوت (Billote) قائد الوحدة 2- الكتيبة لوفات:

نائب المفوض العام في دولة حلب .

إلى السيد الجنرال - المفوض العام للجمهورية الفرنسية في سوريا و لبنان -
القائد العام للجيش الفرنسي «لوفان»
العالیه (مدينة في لبنان) .

وهذا ينطبق على وثيقة أخرى، تبرز مدى التدقيق في الحادث وكيف وقع :
(وهو تقرير خاص بمعركة بيان دور وسوف نقدم لكم ترجمة هذه الوثيقة
الموجودة في الأرشيف الفرنسي.

حامية المركز في بيان دور تصرف بشجاعة كبيرة قائدها الليوتنان موريل
يستحق التقدير، خلال 42 ساعة أظهر هذا الضابط قدرة كبيرة، وعند قراءة
تقريره يثير الإحساس بذلك.

الليوتنان تمكن على حفظ النظام وفرض الأمر على رجاله وأيضاً على
اللاجئين، حيث قاد معركة طويلة بشكل قدير وبحسن تصرفه لم يتنازل لأعداء
أكثر منه بعشر مرات عدداً، حيث ينقصه الماء ولم يستطع الحصول عليها والمركز
محاصر من قبل المتمردين عن قرب، وبدون أمل بالنجدة من القطع التي ذهبت
للاستكشاف، وبدون مساعدة من العشائر الذي طلب منهم ذلك .

الليوتنان موريل عمل الشئ الوحيد الذي كان بيده، هو حماية الحامية من
الدمار الكامل، فتراجع في ساعة مناسبة نحو خيم عشيرة صديقة .
بالمخلص هذا الضابط الشاب أبدا تصرفات حميدة بشكل جيد وأيضاً رجاله.
إقتراحات على التهئة سترسل فيما بعد. بالنتيجة بعد هذا التقرير، هناك
نقطتين يجب قولها :

- إنه من غير المفهوم كيف الليوتنان روكار وروبيرتو وكارير إبتعدوا من
بيان دور مع قطعتين من الجمالة في وقت هم كانوا على معرفة بالهجوم،
مسؤوليتهم سترس (مدونة في تقرير آخر)

- تصرفات العشائر التي تقال غالباً أنها صديقة لفرنسا، يجب أن نفكر فيها
في المستقبل، ولا أحد من هؤلاء الشمر والطى لم يبحثوا لكي يساعدوا مركز بيان دور.
الشمر إستقبلوا اللاجئين منهم، ولكن لم تقدم خطوة واحدة لإنقاذهم في
المعركة، ثقتنا بهم يجب أن تكون محدودة.

حسجة في 6 آب 1923

الكولونيل أندريا - قائد قوات حدود الفرات) .

وهو أمر في منتهى الدقة، أي بالنسبة لنوعية أو طبيعة صلات أهل المنطقة بالفرنسيين، وكيف كانوا يتغيرون .

ذلك مرتبط بظاهرة «التقلب» كما توقفنا عندها سابقاً، ولا بد أن لطبيعة المجتمع الهلامية من تأثير في ذلك، أي لم تتم عملية الصهر المدنية بين مكونات هذا المجتمع، بالعكس، كان هناك حرص على إبقاء هذه الفجوات أو التمايزات لغايات عملية أو مصالحية تخدم السلطة القائمة، مذ وجدت إلى يومنا هذا، ولو بصيغ شتى. وعلى خلفية الحادثة، وانطلاقاً من الوثيقة السالفة، ثمة تعيين معلومات إضافية من خلال ما هو وثائقي، وأن في وسع أي باحث في الوثائق، أو كيفية ترتيبها تاريخياً، وعبر نماذج محددة، كالتى اعتمدنا عليها، معرفة ذهنية الآخر وأنشطته، ورؤيته للآخرين، وهم في مقام الأعداء، ومن ثم التعريف بالذات، مهما منحت من حصانة أو مكانة اعتبارية، وهذا هو جوهر الترميم المعرفي الذي يفيد في كيفية الجمع بين المعارف، والاستفادة من التجارب السابقة، بسالها وموجبها .

وضمناً ما يخص هذه الجزئية «بعض» من الوثيقة التالية :

(صفوف الجنود التابعة للكولونيل كرانروت(Granrut) ، التي كانت تدور في الجزيرة خلال شهر أيار، كانت قد غادرت كرو (Kerou) في 2 حزيران، وتمركزت في الحسجة من 5 إلى 8 من الشهر نفسه، ومن هذا التاريخ توجهنا نحو الجنوب للتمركز على الفرات .وبأمر مني تم تشكيل قوة من كتيبتين (رقم 2 خيالة و17 من الفرقة الخامسة الأجنبية) كانت موضوعة تحت إمرة الكابتن جرفال (Girval) وفي نفس الوقت مسؤولاً عن المنطقة المحررة حديثاً .

حوالي الساعة 21 في 5 حزيران، في نفس اليوم الذي كنا مجتمعين في الحسكة، جرح قائمقام بياندور بطلقات نارية على شرفة دار المختار، وكان جرحه بليغاً والخبر نقله أحد أفراد الجندرية .

وفي 6 حزيران ظهراً، ذهب الكابتن جرينكور بصحبة دكتور رويار بالسيارة إلى بياندور .

حسب قوله، الأهالي كانوا قلقين جداً. لا يمكن تجاهل الحقيقة بأن قتل القائمقام كان بالتحريض من إسماعيل حقي (ضابط المخابرات التركي). وكان الأهالي قلقين يتسائلون، عما سيفعله الفرنسيون بهم بعد هذا الحادث .

بسبب هذا الحادث، فرض على أهل المنطقة بتقديم الطعام لكل الكتيبة جنود الخيالة بالتناوب...2

«مشكلة بياندور يحثي على إعطائك الأوامر التالية:

- تجنب الدخول في صدام مع الأكراد، سواءاً داخل تركيا أو داخل الأراضي السورية، لكن نستطيع القول بأن تلك الحادثة المؤسفة هي من عمل العصابات .

-تجنب التدخل بشكل مطلق بالقوات النظامية حتى لاتتفاقم الأوضاع .

-تعامل فقط وبشكل رئيسي بالقوات الجندرمة (الشرطة) ويمكنك أن توحدهم في مركز واحد إذا تتطلب الأمر .

قام الكابتن جرينكورت (Grincort) بإجراء تحقيق دقيق في أسباب مقتل القائمقام، وعندما إلتحق بوحدته، تأكد واقتنع بمسؤولية المختار، فقرر بأن هذا الموظف يقتل رمياً، ولضيق الوقت، ترك للكابتن جريفال أمر خطي لتنفيذ الإعدام (موقعة من الكولونيل قائد منطقة الفرات، والذي أخذ ذلك على مسؤوليته، من قائد قسم المحابرات).

من الغير المتوقع، أن يكون الكابتن جرينكورت قد تجاوز مسؤولياته في إعطاء أمر غير قانوني .

على كل حال، حاول الكابتن جريفال (Grival) أن يفكر من جديد ولم يطبق فوراً أمر صديقه وحاول أن يكمل التحقيق بتوقيف وتحقيق مع أربعة أشخاص قيل أنهم على دراية بالموضوع، من بينهم خليل ابن أخ المختار .

والشواهد التي حصلت عليها من خلال التحقيق لم تكن متطابقة .

وحسب أقوال محمد أفندي: (من أجل إجباره على الإعراف ضرب خليل بشكل وحشي على راسه وعلى أعضائه التناسلية، ثم ربط بعامود في الحوش تحت الشمس، وهكذا مات تحت التعذيب، ثم أعطوا جسده لأهله .

هذه التصرفات الوحشية، ستكون لها تأثيرات سلبية على أهل المنطقة .

لهذا السبب أخذ أخ خليل معه 30 شخصاً كردياً من طرفي الحدود، وهم الذين هاجموا كتيبة الليوتنان جرافيل الذي كان حينذاك لوحده في قلعة بيان دور (حسب رأي محمد أفندي) .

- كرو (Kerou) ذكر مراراً هذا الموقع، والحقيقة هي تلة تسمى قيرو وتبعد 4 كم جنوب قرية دوكر على نهر سوبلاخ وهي كانت مركزاً للإستخبارات الفرنسية (المترجم .) .

- وصلني نبأ مقتل قائم مقام بيان دور في 7 حزيران ببرقية من الكولونيل جرانروت (Granrut) من الحسكة بتاريخ 6 حزيران، وارسلت له فوراً كتاباً ب t.s.f برقية (رقم 867/ب7 حزيران) .

قبل كل شئ الحوادث التي حصلت في الجزيرة في أواخر تموز، كانت نتيجة لمطالب الأتراك وأعمالهم العدائية العنيفة وبشكل خاص من قبل ضباطهم وعملائهم، التي إتسمت بالسرعة وقوة الهجوم ونجاحها، يجبرني أن أفكر بوجود عوامل أخرى لا أعرفها؟ ولكن من المهم أن أعرفها. وبذلت جهدي في معرفتها خلال أبحاثي ومراقبتي أثناء مروري بدير الزور والحسكة وأجريت دراسة دقيقة تمت تحت إشرافي والقائد مورتية - (Mortier) قائد القسم السري S.R بالفرقة 2 الذي كان مرافقاً معي باستجواب جميع الضباط والجنود والرجال المهمين من اهل البلد، .. الخ، الذين يهمهم الأمر في تلك القضية .

جميع الشواهد هكذا أثمرت عن أيضاًحات متعددة والتي تأكدنا منها هي :
سرقة، نهب، قسوة وظلم ... الخ..... والمسؤولية تقع على عاتق قواتنا وضباطنا .
وهكذا تمكنت أن أوضح لكم لعدة مرات كيف تمكن إسماعيل حقي من الإستفادة من هذه الأخطاء، التي ساعدته بتحضير وتنفيذ مناوشاته في الوقت المناسب .
الأخطاء المنسوبة إلى جنودنا بإمكاننا حصرها بأربعة نقاط أساسية :
- السلوك العام لخيالنتا «ميراريسست»: إساءات، سرقات، عنف
- موت خليل Khali ؟ ابن أخ مختار بيان دور .
- إعدام عباس محمد أغا والضريبة الكبيرة التي فرضت على عمه سليمان .
- رحلة روبيرتو Roberto الى نهر دجلة وجزيرة بن عمر) الخ.

وحسبي- أيضاً- أو أورد وثيقة فرنسية، تخص عامودا، وهي على صلة بواقعة/حادثة/معركة بياندر، نشرها خالد عيسى مترجمة في موقع «كلكامش» بتاريخ «3 أيلول 2008»، وهي مهمة بالتأكيد، وقد أبقيت على المطلوب فيها :

سري(هذه الكلمة مكتوبة باليد- المترجم)

حلب في 31 آب 1923

برقية مرسلة

من القائد المؤقت للفرقة الثانية نائب المفوض السامي

إلى الجنرال المفوض السامي في المشرق (المكتب العسكري. نسختين)

عالية

لي الشرف بأن أرسل لكم بعضاً من التفاصيل التكميلية حول الأحداث في الجزيرة العليا في هذه الأيام الأخيرة .

آ- منطقة بياندر (....) :

ب- منطقة عاموده :

حسب المعلومات الواردة في يوم 24، قد تكون عاموده قد توقفت عن مقاومة الأتراك. في ليلة 23-24، يعتقد أن مبعوثين قد أرسلوا من قبل إسماعيل حقي إلى زعماء الأومريين، خليل غزالي ومحمد آغا، ليخبروهم بأنه قد أُعطي لهم الأمان، وبأنهم يستطيعوا العودة إلى قراهم، لكن يجب عليهم مسبقاً الانضمام إلى عصابات حاجو التي تعمل ضد الفرنسيين .

قد يكون قد استجاب زعماء الأومريين، ولحق بهم قسم من الزعماء السوريين، وخاصة سعيد آغا من الدقوريين .

فضلاً عن ذلك إسماعيل حقي وحاجو قد يكونا قد خططا، بعد ردة عاموده، الزحف على الحسجة مع كل المتمردين المتحدين .

في السادس والعشرين، معلومات جديدة وصلت لتقول التالي :

في مساء الثالث والعشرين، محمد سعيد الحسو (ورد في الوثيقة رقم2 الملحقة- الحصاد- وليس حسو. المترجم)، وهو وجه من عشيرة الطي، مدير ناحية

جارجارية (قضاء بيان دور سابقاً)، أتى إلى عاموده برفقة 15-20 فارساً، وقال للمدير ما يلي :

« جئت إلى عاموده لأخبركم بأن عشائر التشيتية وعصابات حاجو يريدون مهاجمة عاموده في الليلة القادمة، لا تتخذوا بمواقف أهل عاموده، لقد أرسل أغلب القرويين طلبات إلى إسماعيل حقي واتفقوا مع حاجو».

بعد هذه الزيارة وعدد من المقابلات بين المذكورين أعلاه مع زعماء عشائر الناحية، قدم هؤلاء (الزعماء- المترجم) إلى المدير مضبطة يفيدون فيها بأنهم كانوا يتنازلون مؤقتاً أمام ضغط الأتراك بانتظار وصول القوات الفرنسية إلى المنطقة، ويدعون المدير و الجندمة إلى العودة إلى الحسجة. (نرفق ربطاً المضبطة المذكورة: الوثيقة رقم 2 نسختها الأصلية هي بين يدي).

أمام هذه الحالة، و عندما رأى نفسه متروكاً من قبل عناصر الجندمة الهاربين بدون إذن إلى الحسجة، اختار مدير عاموده اللجوء إلى قرية سنجق (قرية مليه على بعد 15 كم. جنوب عاموده) عند الزعيم سعدو آغا، وكان عنده أيضاً الشيخ عبد المحسن من الشمر، ابن عم مشعل. وقدم هذا الأخير حمايته للموظف السوري .

حسب رأي المدير، يجب أن لا يُحكم على ردة زعماء الناحية كأنه وضع نهائي. فتحت تهديدات العصابات التركية، وعندما رأوا بأن القوات الفرنسية التي طلبوها لم تأت، فتجنبوا صراعاً يعرضهم لخطر الغلبة. وهذا ما يُستتبط من طلبهم المذكور أعلاه. يعتقد حالياً على الأقل أنه ليست لهم النية في الالتحاق بالعصابات وسيعودون إلينا إذا ما عادت الأمور لصالحنا).

هذه الوثيقة، تتمثل بخطورتها، في كونها كغيرها، تعلمنا بما يجري على الأرض، وضمن منطقة جغرافية واسعة، وكيف يتم الاهتمام بها على نطاق واسع، أي يجري تحليل كل صغيرة وكبيرة، كما يقال، فيها، وهو من اختصاص أجهزة غاية في التقنية والسرية والمتابعة: استخباراتية في الصميم، عدا عن أن وضعاً كهذا، يعاين من قبل مختلف الحكومات التي ترى نفسها معنية بما يجري في الجهة التي تعتبرها مهمة لها، أي باعتبارها تقع على خط الزلازل السياسي، ومن زوايا شتى، ضمن مجال الاهتمام، وتقدير كل واقعة من هذا المدخل: تركيا قبل غيرها، فالعراق، حيث الانتداب الانكليزي، وهناك إيران، عبر التركيز على ما هو

كردستاني، ولست مغالياً، أو هكذا أفترض، أن أي حجرة يستعد كردياً ما، أنى كان موقعه في النطاق الكردستاني، مهما كانت متناهية الصغر، وكان حاملها صغيراً، سرعان ما يبادر كل مسئول أمني في هذه الدول أو تلك من الدول التي تقاسمتها، إلى تحريك جسمه لاشعوباً، ورفع رأسه خشية أن تصيبه هو، وما هو قائم في الوثيقة تحدد الدور الطبير والخطر للمخابرات اعتماداً على أجهزتها الخاصة ومن هم مجندون في خدمتها، والعمل ليل نهار على تغطية كل واقعة في نطاق حكمها، وما يتأخمها حدودياً، وتقدير درجة التأثير عليها أمنياً... الخ.

في إطار التعامل مع الوثيقة، ينبّه تيلور إلى بعض الحقائق المتعلقة بها، باعتبارها ضرورة معرفية للباحث :

(السجل الدبلوماسي نفسه يجري توظيفه محركاً للدعاية والنشر.

مع أن وثائق معينة قد تتعرض للكتمان بين الحين والآخر، فليس ثمة ما يشي بأن أي وثيقة جرى اصطناعها أو «فبركتها» بعد وقوع الأحداث » *ex post facto*، رغبة في تضليل الباحث .

في معركة الوثائق: كيفية سعي البلاشفة إلى تشويه سمعة حكومة القيصر وحلفائها، متبرئين من الامبريالية.

اللعب بالوثائق جرى في دول مختلفة في ألمانيا- فرنسا..⁽¹⁾.

وصايا مرايا :

لعلها أشبه بالوصايا عند التدقيق في أرضيتها الفكرية وجانبها التنويري، لأن ما يصدر من وثائق، ويكشف عنه في هذا المضمار، لا بد أن يُراعى فيها جانب تاريخ محدد، وما يفيد سياسة الدولة المعنية، لأن ليس من وثيقة إلا وتتطوي على سر اجتماعي أو سياسي، في نطاق العلاقات بين دولة وأخرى، أي خاصية الجانب الأمني، وأن بعضاً يظل حبيس العتمة، والحراسة المشددة، طالما أن هناك علاقات قائمة وتستند إلى الكتمان ذاك، وبناء عليه، فإنه من الجائز النظر فيما هو مفرج عنه، عما إذا كان «ملعوب» ما، عما إذا كانت الوثيقة، وكونها وثيقة وذات نسب سياسي عالي المستوى،

(1) أ.ج.ب. تيلور: الصراع على سيادة أوروبا 1848-1918، ترجمة: فاضل جتكر، منشورات كلمة، أبو ظبي- المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2009، ص 760-762-763 .

قد أخضع لنوع من الترميم أو المعالجة الداخلية، وأطلق سراحها، ولكن وفق تصورات تتناسب وسياسة الدولة ومستقبلها الأمني، وبعض منها يكون قد فقد صلاحية التعميم عليه فلا ضير من أن يبدأ الباحثون أعمالهم بالاشتغال عليها كما يريدون، خلاف وثائق أخرى، لها صلة مباشرة بسرّيان فعلها الأمني الدقيق والذي يتوجب منعها من الكلام، كما في تركيا بالذات، ولا شك أن كثيراً مما هو مقروء، يبقى أقرب إلى الصحة منها إلى إمكان التلاعب بها، أو تقديمها ناقصة، وقدج «أدت» واجبها!

ثمة من ينظرون إلى ما كان، كما لو أنه معاصرنا، وأن من كانوا هناك، مشابهونا في طريقة تفكيرنا، وهنا يكون البلاء الأعظم في التعرف، والتوصيف، دون التنبه إلى الفارق الزمني، كحال موضوعنا، وضمناً هنا!

تبقى الوثائق الفرنسية في إضاءتها لعالم بيان دور مفيدة، على مستوى العلاقات القائمة بين أهل المنطقة، ممن هم مع فرنسا، وممن هم ضدها، وهذا الاختلاف ليس ثابتاً، إنما يخضع لتحولات ومصالح بالمقابل، إلى جانب أن هناك ظروفاً تاريخياً تضعنا في مواجهة اعتبارات اجتماعية تلزمنا بالنظر فيها وتقديرها قبل أي مساءلة .

أي: ما الذي أحدث هذا الانقسام، من كان وراءه، ما الذي كان ينوّع فيه، ويغيّر في بنيته بالمقابل؟

لا بد أن وعياً انقسامياً كهذا يتلبس كتّاباً يشتغلون في التاريخ الكردي، وهم بنظرة أحادية يقيّمون ما كان .

أنوّه في هذا المضمار، ولأهمية هذه النقطة، إلى مثال حول ذلك، وهو يتعلق بمقال لأكاديمي كردي الأصل، حيث تردّ معلومات معتبرة تاريخية من خلال صيغتها، وهي تتطلب كغيرها من معلومات أخرى إلى تمحيص تاريخي، ومساءلة الحقيقة التاريخية بنوعها فيها، لحظة النظر في جملة العلاقات التعارضية القائمة على الأرض، وصراع الأهواء كذلك:

(قام الشريف حسين بثورته ضد العثمانيين مدعياً بإنشاء دولة خلافة على غرار الخلافة الإسلامية. لم يقدم الشريف على هذا إلا بعد ارتباط متين مع الغرب بعهود ومواثيق. تم له ما أراد؛ حيث دخل ابنه الأمير فيصل إلى دمشق بمساندة حليفته انكلترا. وتوج ملكاً على سوريا.....

ماذا عن هذا الشعب الذي ضُم جزء من أراضيه إلى أراضي أخيه؟ وكيف يعامل اليوم؟ يحتفل البلد في كل سنة بذكرى الاستقلال عن فرنسا؛ وتزخر الصحف والمجلات وتدوي محطات الراديو والتلفزيون بالخطب الرنانة عن بطولة الشعب العربي في محاربة المستعمر ودحره؛ بينما يسود صمت قاتل عما قام به هذا الشعب المجزأ أرضا وسكانا بين عدة دول. فلا ذكر لنضال ولا تذكير صريح بشهادته. فيبدو وكأنه لم يشارك في تحرير هذا الجزء، وكأنه تعاون مع المحتل الفرنسي. ..

انتدبت فرنسا نفسها على سوريا بعد المرحلة الفيصلية وتقدمت نحو الشرق والشمال الشرقي، وقع اختيار حاميتها على قرية بياندور كمركز لها. لم ترق لسكان المنطقة التواجد الفرنسي هذا، فصارت تثير لها القلاقل، ولم تقصر هي الأخرى في إيذاء السكان .

تم اغتيال قائمقام سلطة الانتداب من أصل عربي في هذه القرية لكونها كانت مركزا إداريا لها. على إثرها استشهد خليل حمي ابن أخ مختار القرية تحت التعذيب على يد رجال الحامية انتقاما لمقتل المذكور. وتلا ذلك الاغتيال فرض ضرائب وأعمال السخرة وغيرها من الإجراءات الانتقامية ضد السكان. ... قبل أن ندخل في التفاصيل لا بد من تبيان مكانة هذه العشيرة التي أبدت حامية الانتداب الكثير من المخاوف تجاهها .

تعتبر هذه المنطقة التي تقع فيها مركز الحامية من ضمن دوركان العشيرة الكردية، وقد استقرت بشكل نهائي في تلك السهول أوائل القرن السابع عشر الميلادي وبنيت فيها العديد من القرى، قبل ذلك كانت تلك السهول مرعى لحيواناتها. يمر ذكر ما بنته من قرى في كتب وأوصاف الزوار منذ بداية القرن السابع عشر .

يذكر أبناء العشيرة عن زعيمهم المدعو أصلو أنه نزل بهم إلى هذه السهول بدلا من ارتيادها بسبب المواشي كما مر آنفا. ولا تزال المنطقة تزخر بأبنائها أكثر من غيرها. يشتهرون بالشجاعة وفن القتال وقد بسطوا سيطرتهم من مدينة مدياد إلى حدود جبل سنجار. وبعد مرور ثلاثة قرون من الزمن بدأت بعض العشائر الرحل من العرب في ارتياد المنطقة، مرة في السنة، بحثا عن الكلاً لأغنامها؛ وذلك من جهة الجنوب. أثناء ارتيادها كان أولئك العرب الرحل يستبيحون مزروعات السكان دون أية مراعاة عما يعود هذا بالضرر على أصحابها

الكرد . نتيجة لذلك جرت صدامات مسلحة بين الرحل والعشيرة فكانت الغلبة للأخيرة وألزمت العرب الرحل باتفاق يقضي بارتياح المنطقة لإذن مسبق والالتزام بما يسمح لها . . . من هم دوركان؟ هي عشيرة كردية يتزعمها آل عباس وتتسبب في جذورها إلى بدليس مركز الإمارة الكردية المشهورة. كانت من الركائز المهمة أيام الدولة الدوستكية وإمارة بوطان. استطاعت في تلك العهود الغابرة حماية المناطق الموكلة بها بجدارة تامة. ففي عهدي الدولة الدوستكية وإمارة بوطان امتازت هي بمركز خاص. وأثناء التحضير للثورة الكردية الكبرى في أوائل القرن الماضي اتصل ممثلي الشيخ سعيد بيران بها . كانت الزعامة متجاوبة تماما، ولم يرق هذا للحكومة الكمالية فنبهت فرنسا على مخاطرها في استتباب الأمن والاستقرار هناك .

كما مر معنا أن آل عباس كانوا من مناصري الثورة الكردية بقيادة الشيخ سعيد بيران. عند إعلان الثورة عام 1925م هاجمت عشيرة دوركان مخافر الكماليين في القرى المتاخمة للحدود وقد أسرت أفراد المخافر مع بعض ضباطها، كما هدمت تلك المخافر وأخذت عدتها وتم لاحقا توزيعها على الأهالي. بعد فشل الثورة أدرك سليمان عباس أن الأتراك لن يتركوه بسلام، فابتعد بالعائلة عن القرية بحجة البحث عن الكلاً للأغنام، وكان توقعه في محله فقد قصف الكماليون جوا قرية دوكر وألحقوا بعض الأضرار بالمواشي وجرح أحد الرعاة. بعد فشل الثورة تحولت القرية إلى مركز للعديد من الثوار الناجين من مشانق الكمالية. وصارت همزة تواصل بين كرد سوريا وتركيا والعراق. فيها عقد اجتماع كبير للكرد حضرته أغلب زعماء العشائر الكردية في سوريا تشير وثائق تلك الحقبة عن تخلف عائلة إبراهيم باشا الملي عن الحضور بالإضافة إلى ممثلين عن كرد عراق وتركيا. بعد هذا الاجتماع كنتيجة تم الإعلان عن جمعية خويون في بحدون بلبان عام 1927م لم يستطع آل عباس حضور مؤتمر التأسيس بسبب العداوة القائمة بينهم وبين فرنسا .

اقتضت فرنسا بعد ربح من الزمن من مقتل محمد عباس حدوث واقعة بياندر، من آل عباس؛ حيث توفي سليمان عباس ومن بعده بسنة ولده شلال كلاهما في بيروت وفي ظروف غامضة...

لنعود مرة أخرى إلى الحامية الفرنسية وتعاملها مع السكان. لم تكتف الحامية بقتل محمد عباس فحسب، بل اعتقلت عمه سليمان وأرادت أن تنفذ فيه

حكم الإعدام كما فعلت مع ابن أخيه، إلا أن شيخيّ عشيرتي الشمر والطي العربيتين حذرتا الحامية من مغبة إعدامه... لم يدم وقت طويل على إطلاق سراحه؛ حتى جهز حملة لمواجهة المنتدبين الفرنسيين بلغ تعدادها عدة آلاف مقاتل شاركت بجانب العشائر الكردية العديد من العشائر العربية وعلى رأسها عشيرتي الشمر والطي؛ كان التآلف والتآخي بين الشعبين سائداً، ولم يكن هذا التفريق العنصري الذي جاءت به الناصرية البعثية العفלקية موجوداً، بل كان الكل يدا واحدة في مواجهة الطوارئ والملمات⁽¹⁾.

المقال مكتوب من منظور إسلامي مع نفحة قومية كردية، ولكنه، وباعتباره مسطوراً بقلم أكاديمي، ويتحدث فيه عما يخص الإنصاف التاريخي، وما يجب أن يكون كحقيقة تاريخية، هل تجاوب مع منطق الحقيقة؟ ألم يكن الدكتور البرازي هو نفسه واقعاً في محذور ما سمّاه وشدّد عليه، جهة الاستئثار بالتاريخ وفق تصور خاص به؟

من المهم، أن يشدّد على مكانة آل العباس، حيث أعرفهم، وكما سأعرض لهم لاحقاً، ومن خلال معرفة متينة، مع شخصيات معروفة من بينهم، وفي الواجهة الدكتور والباحث محمود عباس، من المهم أن يضيء ما هو معتم، سوى أن أمراً مهماً بالمقابل عثم عليه أو أغفله، وهو المتعلق بدور حاجو آغا في الموضوع، هل كان حقاً غائباً عن إحداثيات تلك الواقعة؟ هل يمكن التذكير بواقعة كهذه، دون التذكير بالمقابل بدور حاجو آغا، كما هو مثبت عند الفرنسيين؟ أم أن الوثائق الفرنسية مختلقة في الحالة هذه؟ وما مدى دقة هذه الواقعة التي قرأناها آنفاً بالنسبة لمواجهة الفرنسيين وحقيقة اجتماع خويبون؟ ثمة الكثير من النقاط تحتاج توثيقاً في ضوء أحداث التاريخ، أي ما إذا كان هناك مصادر موثقة تؤكّد هذه المرويات وليس استرسالاً لها.

ذلك من شأنه أن يعلمنا ربما بما لا نريد أن نعلم درءاً للمزيد من ألم التاريخ وحرقته ومنغصاته الجانبية، ولا بد أن الكرد عانوا الكثير في المجال هذا، أكثر مما عاينوه وإلا لما كان الذي كان، وحرصاً على ألا يصبح الكرد في «خبر كان»، كان يفترض، وكما يفترض أن يكون مقول الكلام على ما يعزّز من ذائقة التحول إلى الآتي، وليس التباهي الجانبي.

(1) المقال بعنوان «واقعة بيان دور وشهداؤها» للدكتور محمد أحمد برازي، وهو منشور في موقع «كلكاش» بتاريخ 26 يوليو 2009.

من المهم التركيز على أخطائنا عندما نرى فيها ما يبصرنا بحقيقتنا، لنكون أكثر معرفة لما نحن عليه، حال الضابط الفرنسي الذي لم يكن ينسى التنويه إلى أخطاء الحادثة، رغم «انتكاسة» فرنسا فيها، لكن الدائر فيها، وهو في سخونته يجب الإفصاح عنه في حينه، والتعلم منه، لمن يرى في نفسه أهلاً للحياة، وأكثر قدرة في إرادة البقاء.

كرد المفارقات :

من المفيد، على صعيد التاريخ التقابل بين مفارقات الكرد وكيف توجه كما هو الرصيد المسجل إلى الآخر، وهم يفيدون أعداءهم في أكثر الأوقات حرجاً، أي أكثرها مدعاة للدرس والتحول إلى الأمام وقد تناقصت مسافة تناقضاتهم الذاتية. ومن ذلك، ما أوردناه سالفاً عن أدوار ابراهيم باشا ذي المكانة في تاريخ الآخرين: العثماني قبل سواه، وحتى على مستوى سوريا، حين كان أكثر من قوة عثمانية صلابة وجبروتاً وإخلاصاً، وهو يقود قواته إلى داخل دمشق، وفي العودة، يتعرض له من كانوا في المنطقة: الحسكة، من عرب شمّر، وهذه المرة بتحريك من الاتحاد والترقي، فتكون نهايته، بينما كان لمقاتلي المللي الدور الكبير في رد قوات الاتحاد على أعقابها، وهم يدعمون فرنسا هذه المرة، كما لو أنهم ينتقمون لزعيمهم القتل، وليس لأنهم كانوا يمثلون فكرة قومية، أو وطنية، كما يحلو للبعض أو أكثر ترداده⁽¹⁾.

(1) تأكيداً على هذه المفارقة، أنوّه إلى أن سليل هذه العائلة اسماعيل باشا المللي، والذي التقيته ذات مرة في تسعينيات القرن الماضي، وهو يشرفني بزيارة إلى بيتي في قامشلو «أجهل التاريخ» وصحبة آخرين، حين توفي وأريد دفنه، كما تنهى إليه بجوار الزعيم المللي رفض أهل المنطقة من العرب، ولسان حالهم يردد «كمال تنهى إلي أيضاً»: ما خلصنا من واحد لنصير في اثنين.

وفي الإطار نفسه، إنما ضمن الدائرة الخلافية كردياً، بصدد الحديث عن واقعة بيان دور، ومن يسعى إلى التعتيم على دور حاجو آغا في مجريات أحداثها، يمكن قول الكثير، حتى على مستوى شعبي كذلك. حسبي أن أشير إلى ما تفوه به رجل معمر هو «حجي عبدالحكيم سوار» بعمر الثمانين عاماً، كما عرّف به، ومن سكان «تربه سبي» وفي مقطع فيديو مسجل، من خلال مقابلة معه، وهو يتحدث عن جانب من الواقعة تلك، مشيراً إلى دور حاجو الكبير فيها «ربما هو من قتل روكان أو غيره من رجاله»، ثم ينوّه إلى أنه بعد الواقعة تلك جاءت أخت روكان في طائرة هليكوبتر، وحطّت بالقرب من منطقة الحادث مستفسرة عن قتل

ولعل المثير قوله، هو ما بات يؤكّد على المعزوفة «الوطنية» بمفهوم السوري الضيق، والتخلص ما أمكن مما هو عائد إلى الحضور الديموغرافي والكردي بالذات في بنائه، ومن الزاوية العروبية بصورة خاصة، كما في مقال منشور في هذا المسار المدروس دراسة جيدة، بعائده الأمني الداخلي، وأنا أقتبس هذا الكلام منه بحرفه :

(كان نفر من المواطنين القاطنين في أعلى الجزيرة قد استأثروا من قائمقام هذه الناحية بسبب تعاونه مع الفرنسيين وتنفيذه لأوامرهم، فقاموا باغتياله في شهر حزيران 1923، ولجأت السلطة الفرنسية لإقامة مخفر دائم في قرية بياندور «التابعة لمركز القحطانية حالياً»، رغم معارضة سكانها المحليين من عرب وأكراد لهذا الإجراء، وكان يشغل هذا المخفر، في أواسط شهر تموز 1923، رعيان Pelotons من الهجانة الفرنسية، أحدهما بقيادة الليونتان روبرتو Roberto والثاني بقيادة الليونتان كارير Carer، وكانت القيادة للضابط الأول، وفي 26 تموز وصل رعيان ثالث، بإمرة الليونتان موريل Maurel، وقد اغتتم الليونتان روبرتو وصول هذا الرعيان الإضافي لكي يقوم بتبديل رعيان الليونتان كارير ولكي يقوم بجولة تفتيشية في جزيرة ابن عمرو، مصطحباً معه أفراد رعيان كارير، وكذلك الليونتان روجار Regard، ورشاشاً مع سدنته برئاسة السيرجان جوهون Gohon، بينما بقي الليونتان موريل الذي وصل لتوه إلى المنطقة في بياندور مع رعياله، بالإضافة لرشاش مع سدنته برئاسة السيرجان لياندري Leandre وحوالي عشرين دركياً، أي أن عدد من بقي في بياندور كان 80 رجلاً تقريباً، مع رشاش .

وفي 28 تموز تمّت مهاجمة المخفر المذكور من قبل جماعة من الثوار تضم حوالي 500 خيال، قامت بتطويق المخفر ومحاولة إبادة عناصره، ودامت عملية التطويق يومي 28 و29، وسقط رشاش السيرجان لياندري بين قتيل وجريح، وزاد

أخاها، وبعدها، كما يقول هذا الرجل، اقتيدَ حاجو إلى فرنسا، ليقول بعدها عن أن من في المنطقة «ممن كانوا خصوصاً لحاجو» تنفسوا الصعداء، وقالوا: «خلصنا منه»، لكنه بعد عدة أشهر «ثلاثة أشهر»، جاء، ومنحته فرنسا ثلاثين قرية في المنطقة «يسمى بعضها منها .. من المؤكد أن هذا السرد عبارة عن رواية لها طابع شعبي، ولا يمكن اعتبارها تاريخاً للواقعة تلك، ولكنها على تماس مباشر بها، إذ في ظلها أو بتأثير منها وجدت نفسها منطوقة في لسان شعبي، حيث لا تخفي ما هو تأريخي على مستوى الخصومات القائمة، وعلاقة حاجو بفرنسا أو بالعكس، ومكانته اللافتة، أما عن موضوع الطائفة المذكورة، فهي جنحة خيال شعبي، أي غير صحيحة، كما أفصح عن ذلك الدكتور بنكي حاجو، حين استفسرت منه عن الموضوع.

الوضع سوءاً بالنسبة للجند المحاصرين قيام الثوار بالسيطرة على نبع الماء، وعدم وجود خزانات ماء إضافية ضمن المخفر، ولما حاول المدافعون اقتحام خط الثوار للترود بالماء لم ينجحوا إلا بإملاء عدة أوعية صغيرة «زمزميات» بينما خسروا أربعة قتلى مقابل ذلك، وبعد ظهر يوم 29 تموز قرّر الملازم موريل الانسحاب من الموقع باتجاه تل ناصر، الذي يبعد حوالي 8 كم إلى جنوب بياندور، فكلف هذا الانسحاب الرعيل المنسحب تسعة قتلى وخمسة عشر جريحاً ومفقوداً، وكان رتل روبرتو الذي وصل إلى جزيرة ابن عمرو، قد عاد فبات ليلة 29/ 30 تموز في وادي الرميلان، وسار باتجاه تل عباس فوصله الساعة 30 و19 من مساء اليوم التالي⁽¹⁾.

هذا المقال لا يخفي الأرضية الأيديولوجية، ولا الأسماء المقحمة تاريخياً في احتواء المكان، ونهب ما كان ماضياً، فهو في صناعته يُري ما هو مرغوب فيه، دون الإشارة إلى الذين كانوا السبب المباشر في عملية الاستفزاز، ولا تحديد من خطط لعملية الهجوم، ولا تفاصيله، وبطريقته هذه يحكم على نفسه بالخروج الفعلي من تاريخ سياسي واجتماعي لأشخاص لم يُسموا في الكتابة، وهو ما نجد أكثر من شبيه له في كتابات مماثلة في اختلاق وقائع باسم بياندور.

لعل هذا يصلنا بما تردد من ناحية في مقال البرازي، وبما يفارقه، من جهة إغفاله ما كان يجب التنبه إليه من ناحية أخرى، وحيث تظهر حدود في المكتوب تلفت النظر إلى ما لم يثبت في نطاق التدافعات السياسية وكيفية تقاسم الأرض من نقاط مختلفة، كما في «ابن عمرو» التي أشير إليه، المرتبطة حينها بمنطقة النفوذ الفرنسي في سوريا، لتصبح تالياً ضمن الحدود «التركية»، على وقع المجابهات ومن ثم التعاطي الدبلوماسي والعسكري على الأرض.

غورغاس وشعرة معاوية في يد حاجو آغا :

لنتوقف عند المعلومات التي يوردها اليوناني جوردي غورغاس، في كتابه البحثي المهم جداً، فثمة الكثير مما يقربنا من تفاصيل لا تخلو من تلك الإضاءات اللازمة لنقاط سالفة، وتقريبها إلى الأذهان، أو تحفيز نشاطها النفسي، حيث التحرك البحثي يغطي فسحة جغرافية واسعة، وفي فضاء تاريخي يخص أكثر من قوة عسكرية وسياسية على الأرض.

(1) معركة بياندور «الجزيرة السورية العليا، موقع» وزارة الدفاع في سوريا.

ذلك ما يمكن متابعته في فقرة معنونة بـ «الجزيرة العليا في كنف سلطات الانتداب»:

ثمة ما يضعنا في مواجهة الخارطة السياسية وهي الخاضعة لمنطق الشد والجذب، منطقة القوة ورجحان كفتها في هذا الاتجاه أو ذاك، تبعاً لنوعيتها، والطرف الممثل لها، إنما أيضاً تبعاً للرهان التاريخي المحرك للعبة :

(ظل الوجود العسكري التركي في الجزيرة العليا العقبة الكبرى أمام بسط فرنسا سلطتها على كامل التراب السورية. فقد كان دور الضابط التركي اسماعيل حقي غوندوز حاسماً، طوال سنوات، في إعاقة احتلال الجزيرة العليا . وقد استخدم بنجاح القبائل الكردية والعربية في المنطقة، لعلمه باستحالة شن حرب، ما حال دون سيطرة القوات الفرنسية على الحسكة حتى أيار/مايو 1922 . ص 57) .

هذه المعلومة، تثير رقعة جغرافية وهي أن سيطرة الفرنسيين على الجغرافيا السورية بمفهومها الراهن، لم تتم دفعة واحدة من جهة، إنما كان هناك تحديات ومناورات، أو حسابات تكتيكية واستراتيجية بالنسبة للمكان، أو ما يعيدنا إلى المتضمن في اتفاقية «سايكس- بيكو» وكيفية تطبيقها على الأرض، والعوائق التي كانت تحول دونها .

ولا بد أن الأمر المتعلق ببيان دور «بهندور» كما هو مكتوب تالياً، له صلة مباشرة بالحسابات الدقيقة على المكان، إذا أخذنا في الاعتبار ذلك الصراع الضاري بين كل من تركيا «الكمالية» والقوى الأوربية في المحيط التركي، ومع القوات الانكليزية بصورة خاصة، وخشية فرنسا من الاحتدام المباشر معها، وما يمكن أن يغير في حساباتها ليس فيما بينها وبين تركيا بالذات، وإنما بينها وبين انكلترا، وكل دولة بمفهومها السياسي والاستعماري هنا، كانت منجرحه بما فيه الكفاية، من وطأة الحرب العالمية الأولى، وهي لم تستعد عافيتها كما يجب، ولوجود حسابات احتياطية أخرى لها .

ومن هنا فإن الآتي يخبرنا بخصوصية التوقيت وما كان يُتوخى منه (بعد ذلك اقتحم طابور يقوده الجنرال بيغو قاعدة بهندور غرب ساموريسي، ملجأ اسماعيل حقي الذي بادر إلى البحث عن دعم بين القبائل الكردية في محيط الجزيرة العليا، كما فعل سابقاً في منطقة الفرات. وكان حاجو بن حاجو من هفركان يمثل الصورة

المثلى بين المرشحين للحصول على دعم القائد التركي، للقائد الطموح المستعد مجدداً للقيام بمغامرات حربية. ص 57).

حاجو آغا هنا بين نارين، ولعله كان يفكر كسياسي وليس كرجل قبيلة أو عشيرة، بمعنى التعريف بنفسه من داخل الفضاء القبلي ليس إلا، والبحث عن موقع يناسبه، وتقديراته الشخصية والعملية على الأرض، أي بصفته قوة عسكرية، أو يمكن أن يؤثر في متغيرات المكان بالذات، من خلال تربص كل قوة بالأخرى.

لا بد أن المعلومات الاستخباراتية كانت تتدفق من الجهتين وهي تعبر الحدود المصطنعة والهشة، وبشكل دائم، من خلال من يعملون في المسارين، وأن فرنسا في تقدمها من الحدود «التركية» كانت حذرة من أي صدام بالقوة التركية:

(وقد تقرّر، بعد عدة مصادمات، مضاعفة عدد حامية بيهندور، فألحق بها ضابط مخابرات من دير الزور هو الملازم الأول ريغار، الذي تسلّم منصبه في فصيل الملازم روبرتو. وقد أثارت بعض الأعمال الطائشة التي قام بها الأول السكان المحليين، وأدّت إلى رد فعل تركي باعتبار أن قرار الضابط ريغار يشكل تغييراً في السياسة الفرنسية في الجزيرة العليا. وقد دخل اسماعيل حقي بصحبة عدد من الفرسان، إلى الأراضي التي صارت رسمياً سورية وفرض ضرائب في بعض القرى .

وقد فضلت فرنسا الحفاظ على موقف متأن في مواجهة الاستفزاز التركي. لكن روبرتو قرر تشديد الاحتلال الكامل للجزيرة العليا. مستنداً إلى خبرته الاستخباراتية. فتوجه من بيهندور إلى جزيرة ابن عمر مع مجموعة من 95 رجلاً. وقد وصلت المجموعة إلى ضفاف دجلة لعدم وجود مقاومة حقيقية. في هذه الأثناء هاجم رجال اسماعيل حقي، قاعدة بهندور ما دفع بالمسؤول عن المركز الفرنسي، إلى إرسال كتاب يطلب فيه رجوع الملازم روبرتو بأسرع ما يمكن. ودون انتظار روبرتو قرر الضابط موريل الجلاء عن بيهندور فكانت خسارته تسعة رجال و14 جريحاً ومفقوداً واحداً.

وفي موازاة ذلك، تعرضت مجموعة روبرتو وهي تهم بالرجوع، لهجوم من تحالف قبائل كردية «هفركان، وتشيتييس: وشيتية» بقيادة حاجو. وقد انتهت مغامرة الملازم روبرتو بالتوافق مع الضابط ريغار إلى فشل ذريع وفقدان 21 جندياً. إن عملية بيهندور، بمعزل عن طابعها العسكري التام، قد أدّت إلى زيارة

الفرنسيين من اهتمامهم بأراضي وسكان الجزيرة العليا . ورغم أن المفوضية العليا لم ترسل إمكانيات عسكرية ومالية إضافية للمناطق المتمردة، فإن الضباط الفرنسيين أدركوا أن رفض الانخراط بصورة واضحة في أراضي الشمال الشرقي السوري يجعل كل الجهود الرامية إلى احترام الإدارة الانتدابية، غير ذات جدوى. «ص59» في الهامش الواحد والتوضيحي لهذه النقطة نقراً: قدم حاجو للفرنسيين الأدلة عن تورط الترك في الاضطرابات التي حلت في الجزيرة العليا منذ بداية العشرينيات. وتفيدنا الرسائل «13» الموجهة إلى حاجو آغا وزعماء عرب من النقيب محمد شوقي، والتي تتهم بشدة حاجو بأنه فوت موعداً مع مقاتلي قبيلته. وينصحه شوقي ببذل المزيد من «الاهتمام» مقابل تزويده بالسلاح. وأخيراً فإن الرسائل من 5 إلى 7 تؤكد بأن اسماعيل حقي هو الذي أثار أحداث بيهندور عام 1923. ص 59 ..).

آثرت إيراد المتبقي، كما أرى، والمتعلق ببيان دور، للإحاطة بالفكرة عموماً، وبغية المقارنة بين ما هو مستجد هنا، وما سبق أن أشير إليه في صفحات سابقة، وكيف أن كل دولة كانت تراقب الأخرى عبر الحدود المنخفضة، حيث ينعدم أي عائق طبيعي، كما هو معلوم بالنسبة للمقيمين في المنطقة. وفي ضوء هذه المراقبة كانت تعزز مكانها على الأرض، سوى أن الأهم هو أن الأرض التي شهدت تحركات من الجهتين، لم تكن حيادية، أو سهلة العبور في بعض الأحيان، لم تكن آمنة في الجوار الحدودي، وأن القوتين الرئيسيتين، كما هو وضع الحروب الجانبية ومن هذا النوع، تتحاشى الصدام، وتعتمد على قوى محلية، كما لو أنها تختبر قوتها وقوة الأخرى من خلال القوى الواقعة في الوسط، وما يحدث من تغيير على الأرض أو في المسار السياسي جرّاء ذلك، ولا بد أن حاجو آغا، كان يجد في نفسه قوة من نوع آخر، وله ما يريد، أو ما يسعى إلى تحقيقه: كيفية الاعتماد على تركيا، فدونها لا يمكنه التقدم، وهو طريدها حتى الأمس القريب جداً. ولعله طريدها بشكل دائم حينها، لكن الواقعة الحدودية، أوقفت هذه العملية «المطاردة» لأن هناك ما هو أهم: كيفية الاستفادة منها، كرأس حربة موجه إلى الفرنسيين بالذات، وهي لن تخسر شيئاً على أرض الواقع في المحصلة، وحاجو آغا بدوره، كان يرى أن لا بد من الاستفادة من هذه «الهدنة» المؤقتة وإثبات أنه قوة معتبرة في لعبة لم يكن صانعها، لكنه منحها روحاً نطقت باسمه كثيراً، ولعله بذلك يؤكد حضوره أكثر،

وينال عرضاً أكثر قيمة من هذا الطرف أو ذاك، وقد أبان له عن قوته الفاعلة على الأرض، سوى أن قوته كانت مرتبطة بالجانب التركي، وأنه من خلالها كان يرمي إلى رمي شبكته في «ماء الآخر» في انتظار صيد ثمين له.

قد لا يحتاج حاجو آغا إلى كل هذا التركيز في البحث ومقارنة قوته القبلية عموماً بقوة أي من الدولتين، وهذا حق، لكن ذلك لا يخفي الوضع الاستثنائي الخاص للعبة، وأن الدخول في الحرب، أن الاستمرار محارباً ومحارباً في آن، ربما يعطي فكرة أكثر حيوية عن أنه رجل لا يستهان به، وهو يسعى إلى البروز في هذا النطاق المحروس أو جانبي الحدود المتوترين شأن علاقاته بالطرف التركي، وبالمقابل شأنه إغارته على الفرنسيين في الموقع المذكور.

والذي لا يُشك فيه، هو أن حاجو، من خلال المتحقق في الواقعة/الحادثة أثبت أنه رجل حرب، لا بل وسياسيها كذلك، ومن ثم أسهم ذلك في زيادة أسهمه في الاعتبار والقيمة، إنما ما لا يجب التغافل عنه، هو أن علو الشأن أو القوة، ليس لمصلحته إن أمعنا النظر فيه، لأن الطرف الذي يراه مجرد «أداة» كما هو الضابط التركي «اسماعيل هنا»، إذا به يرى أنه أكبر من ذلك، وهذا يدفع به إلى التريص به، والبحث عن مغامرة من مستواه أو لعبة على قياسه، بالدفع به بعيداً، ليكون المنتقل من حرب إلى أخرى، أو مجابهة إلى سواها، حتى ينال منه التعب، أو تضعف قوته أو ينتهي أمره، ولا بد أن تفكير أي سياسي في الجانبين في التعامل مع قوة محلية، مهما أوتيت ضراوة، وكونها قوة داخل قوة، ينصب على هذا النوع من الحذر والإلهاء لمصدر الخطر، وهذا ما كان يريد الطرف التركي من حاجو، ولعل جكرخوين أراد لفت النظر إلى هذه النقطة الحساسة حيث يلتقي فيها التاريخ بالجغرافيا، السياسة بالدهاء، ويكون هناك نزال من نوع آخر، إلا أن حساب الشاعر يتوقف عند حرارة الكلمات وليس إلى حيوية الفكرة وهي تشمل رقعة جغرافية واسعة، كون حاجو لم يكن ألعوبة في يد الضابط التركي اسماعيل حقي أو غيره كما يمكن التفكير، بمقدار ما كان لديه حساباته هو الآخر أيضاً.

كان يبحث عن منفذ ليعزز موقعه، وهو في كل مرة يحصل على عتاد عسكري في حروبه المختلفة، ولعله كان مدركاً تماماً أن الأتراك لا يريدون له خيراً، أنهم وهم يقيمون علاقات معه، لا ينسون أنه من حيث التسمية: حاجو بن حاجو بن حاجو... وصولاً إلى إمارة بوتان، وربما إلى معركة جالديران ذاتها قبل خمسة

قرون، إن أعطينا للتاريخ مدأً، وأنرنا ساحة اللاوعي الجمعي السياسي التركي والذي يصل نفسه بسلالة آل عثمان وحروبه الامبراطورية.

يمكن للقارئ أن يشتم رائحة تاريخ من هذا الجانب، أو تقديرًا من هذا النوع، وهو أن حاجو آغا، دخل ممرًا تاريخياً غير آمن، ولكنه أضرط للعبور إلى الطرف الآخر، وفي نفسه حسرة مما يعجز عن تحقيقه، وفي كل جهة ثمة انكسارات ولأهله من أفراد في عائلته، وعشيرته أو اتحاد الهفيران نصيب في هذا المصاب التاريخي، وهو بما قام به، كان يراهن على حياته، في محاولة منه لإشعار الذين آثروا التعاون مع أعدائه أنه وهو مصاب في وضع أفضل منهم وهم معافون .

بياندر وخرزة كبيرة في مسبحة التاريخ:

بين أن يسهم أحدهم في كتابة التاريخ، وأن يسهم التاريخ في نموّه النفسي والعقلي، ثمة مسافة كبيرة تستحق المتابعة إلى جانب المكاشفة الدقيقة: في الحالة الأولى، يبرز ما يشبه الجوهر الفرد في الإنسان، فلا يعود أحدهم، إنما إنسان باسمه الذي يميّزه عن سواه: علم في رأسه نار، أو ما يشبه ذلك، فالتاريخ بمفهومه البحري أو المحيطي لا يحاط به، إنما يجري خوض غماره، وطوبى لمن يقاوم جاذبية الأعماق وهو مرفوع على «أكف» الأمواج، والتاريخ هائل الأكف، حيث إنه في اللحظة التي ينبري فيها أحدهم باسمه الثلاثي يتراءى مرفوعاً أمام الآخرين، هم ملأ التاريخ، خلاف من يحزم أمره، وهو يتفاعل مع التاريخ، فيدرسه، ويهبه إرادته البحثية، ليقم وصلاً عريضاً بين عمقه وأفقه المنبسط .

أحسب أن جبّو أراد، أو هكذا يخيّل إليه، أن يقدم صورة أخرى لحاجو آغا، ربما أن يقدمه لتاريخ غير عرّضي.

هناك أكثر من بياندر، وهناك بياندر أيضاً، وفي الحالتين، يكون اختبار الذات، لأن بياندر لا تتعزل عن محيطها الجغرافي، وما فيه ومن فيه من السنة وتحديات، حيث الجزئي متداخل مع الكلي، وفي الحالة الثانية، يأتي الكلي إلى الجزئي ليعرف كل منهما بالآخر. على الأرض: تلك هي القرية الصغيرة، والتي لا شأن للخارطة السورية حتى الآن بها، إلا في حالات خاصة جداً، إن أهل المكان، وفي الجوار حصراً يعرفونها، لكنها ضربت مثلاً وأعلت من شأنه، ووصل صدى المثل إلى حاضرة فرنسا، ونزلت واقعة تاريخية في أكثر من لغة، في أكثر من

أرشف ووثيقة، بمقدار ما أنها وجدت مستقرًا ما على مستوى الحدث التاريخي لها في الجهة المقابلة: تركيا. أليس هذا المثل الحركي، من مكرّمات الحادث تاريخياً؟

جيو يقرب الصورة ويبعدها، يصغرها ويكبرها، ليس من إشارة معينة، محددة، ومسار طولاني معين، إنما عرضاني، وعمقي، واعتباري: البعد الرابع كذلك، وعلى قارئ المدون بيان دورياً أن يقرأ سوريا وأكثر في هذه الواقعة، عليه أن يركّز على هذه النقطة المتناهية الصغر جغرافياً، وكيف قيّض لها أن تستثير كل هذه المشاعر والهواجس، أن تفتح أكثر من باب تأريخي على مصراعيه السياسيين والثقافيين، كما لو أن فتحه والعبور منه، من ضرورات معرفة المكان «السوري»، وخشية «انتهاب» المكان، أو السطو عليه كرمز تأريخي كردي، من جهة آخرين: عرباً أكانوا أم سرياناً أم غيرهم، وحتى داخل التجاذبات الكردية، لحظة السؤال عن نسبة حضور كل ذي نسب «عشائري»، أو فنوي، إن أصغينا قليلاً إلى حسابات جارية باسم الذاكرة العشائرية، واصطفافات قائمة داخلها، كما يلاحظ ذلك حتى الآن .

جيو يعنون الواقعة السالفة الذكر بـ «المقاومة الكردية للاحتلال الفرنسي وحادثة بيان دور» :

لا بد أن قارئه يلاحظ تخصيصاً للعنوان بمفهومه الديموغرافي أو الاجتماعي، وتخليصاً له مما عدا، وكان هناك آخرون لهم حضور في حركية الحادثة كالعرب طبعاً، ولعله بذلك ضيق واسعاً، أو اختزل التاريخ، وهذا يفقد الأخير حرارته .

هناك مفارقات داخل الاتية الواحدة، كما هو وضع الكرد طبعاً (عندما جاء الفرنسيون إلى الجزيرة قابلهم بامتنان زعيم عشيرة شمر مشعل باشا الجربا . فحصل بذلك على دعم الفرنسيين واستفاد من ذلك في مواجهة طي المنافسة والكرد . وبتحريض من زعيم عشيرة شمر زاد الفرنسيون من اضطهادهم للكرد، فقد اعتقلوا زعماء العديد من العشائر الكردية، ودفنوا الكثير هؤلاء حتى رقبتهم في قرية بيان دور، ثم أطلقت عليهم الكلاب الجائعة فقتلوا جميعاً... ص 166) .

هذا القول يستدعي مثيله والمذكور في الصفحات السابقة، وفي الوقت الذي يتوجب التركيز على سؤال «أينية» الوطنية وحدودها وإعرابها في كتاب التاريخ، أي جهة الموقع، والاعتراف، ومن يكون هؤلاء المعترفون بها طبعاً .

في ضوء هذا التحديد، لا يعني أن الذين ساندوا فرنسا، كانوا عملاء لها، والذين خاصموها كانوا فرنسيين، إنما الواجب من قبل الباحث في التاريخ، أن يلم بجغرافية الصحراء والواحات المتناثرة فيها، وكيف أن القوى البشرية «البدوية» تحدد كل منها «قبلتها» من خلال نوعية الواحة كملاذ أمان، ومصدر حياة، وليس لأي اعتبار آخر، حيث إن البدو يرتبط بما يعينه ويؤمن عليه حياته، فهو بالتالي مثل مناخات الصحراء، أي إنه لا يعرف كمفهوم، أين تصرّف الوطنية أو القومية، لأن ذلك يرتبط بموقع خيمته، ومن ثم بالكلاً والماء المتوفرين لغنمه وجماله إجمالاً، ولا بد أن المدينة العربية حملت الكثير من سمات هذه التقلبات الصحراوية، وأن القبائل أو العشائر اللعربية، ممن تعرّف بالأصيلة لا تخالف هذا العرف الاعتباري في إقامة أي علاقة «تحالفية» عائدة إليها مع أي سلطة، من خلال «مدفوعات» معينة. ولهذا (كانت السياسة في الصحراء السورية وشمال جزيرة العرب موزعة قبل انفجار الحرب العالمية على النحو التالي: استمر التناقض في الشمال بين البشر «فدعان والسبعة» وبين الضنا مسلم بقيادة الرولة، وهو تناقض غذاه الأتراك وعملوا على إبقائه حاداً. وتواجه الرولة وابن رشيد...و: لاحق زعماء عنزة مصالحهم بحنكة كبيرة، أثناء لعبة الدسائس التي انصبت على تركة الامبراطورية العثمانية، فاتخذوا موقفاً يتسم بانعدام الثقة بمملكة فيصل الوليدة...أما نوري.. فأعلن تأييده للفرنسيين...بدورهم بقي العمارات موالين للانكليز، حتى عندما كانوا في وضع حرج خلال ثورة العراق صيف عام 1920، ووجد الفدعان أنفسهم حيال قرار صعب، وبسبب حرب الحدود التي نشبت عام 1920 بين الفرنسيين والقوميين الأتراك شمال سورية. حيث راهن شيخهم مقحم «مجم» مهيد على الورقة الصحيحة، أي الورقة الفرنسية، في حين راهن خاله حاكم «حاجم» على الورقة التركية.. الخ) (1).

(1) ابونهايم، ماكس فون- برونيلش، آرش- كاسكل، فرنركا: البدو، ما بين النهرين، العراق الشمالي وسوريا، ترجمة: ميشيل كيلو- محمود كيبو، تحقيق وتقديم: ماجد شبر، دار الوراق، 2004، ص 134-135.

لاحقاً، سوف نجد كيف يتم تجيير مثل هذه المواقف في «الشریان» الإيديولوجي العربي: المسدود إجمالاً، من زاوية القومية أو الوعي الوطني القومي العربي الراض للاستعمار في بعض كتابات منظريها، كما في حال محمد جمال باروت، في كتابه الضخم: التكوّن التاريخي الحديث للجزيرة السورية «أسئلة وإشكاليات التحول من البدونة إلى العمران الحضري»،

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط1، 2013، وهو في بنيته كان وليداً سياسياً موجهاً من رحم التشظي السوري سنة 2011، وعلى ضوئه، وهذا ما سنتعرض له لاحقاً، وبصورة خاصة في طريقة تعرضه للتأريخ الكردي، والتواجد الكردي في المنطقة، وموقع حاجو آغا السياسي فيه، ومن ذلك، وهو يورد واقعة القبائل العربية، حين يأتي على موقف كل من مجهم المؤيد للانتداب الفرنسي على سورية، بوصفه مذمة، ضمناً، وموقف (عمه حاجم بن مهيد «1858-1927» الذي رفض التحالف مع الفرنسيين، وظل متمسكاً بالولاء للحكومة العربية التي منحتها رتبة الباشوية. ص135، وكأنه مديح، فهو نفسه، كما يأتي على ذكره لاحقاً، كان متحالفاً مع الأتراك (الذين دعموه مالياً وعسكرياً ضد الفرنسيين. ص 136)، وهو ما يلتقي به مع شخصيات أخرى موزعة في الخارطة السياسية السورية، كحال إبراهيم هنانو، مثلاً، الذي حارب الفرنسيين، ليس رفضاً لوجودهم، وتحت راية الوطنية السورية التي لم تكن سوريا آنذاك، حتى «متوحمة» بها، إنما تعبيراً عن مصالح معينة، كان الأتراك داعميه الأول وغيره.

وأنتوه في هذا السياق، إلى ما أفاض به الباحث الكردي الأكاديمي محمد علي الصويركي، في مقاله «مساهمة أكراد سورية في مقارعة الاستعمار الفرنسي وصناعة استقلال سورية الحديثة!!!»، والمنشور في موقع «كلكاش» الإلكتروني، بتاريخ 9 تموز 2009، وهو يتحدث عن أبطال الثورة السورية كما سماهم، مأخوذاً بما هو راهن من جهة، وبما يعزّز انتماء الكرد إلى وطن واحد، تشكل بمفهومه السياسي على مضض، ولما يزل قيد التشكل، وتراجع إلى الوراء حتى بمفهوم الأولي على خلفية الأحداث المتفجرة بدءاً من آذار 2011، حيث يستهل المقال هكذا (في البداية أذكر بأبطال أكراد سوريا المشهورين: سليمان الحلبي: قاتل الجنرال كليبر في مصر. وعبد الرحمن الكواكبي: المفكر التنويري. ويوسف العظمة: بطل معركة ميسلون.

وإبراهيم هنانو، محو ابيو شاشو، احمد باراي، احمد الملا، إبراهيم الشبخاني، علي آغا بن زلفو، علي بوظو، خليل بكر ظاظا، قدري جميل باشا، أديب الشيشكلي، خالد البرازي، نجيب آغا البرازي، خير الدين الزركلي... الخ من أبطال الثورة السورية الكبرى 1926م...).

ذلك ينطبق على مقال تقريظي للدكتور بدران السندي، وهو: قراءة كردية في تاريخ الثورة السورية، مجلة كاروان، إقليم كردستان العراق، العدد «29» شباط 1985، صص 145-147، من خلال مديح لكتاب الدكتور محي الدين السفرجلاني، وقد صدر في سبعينيات القرن الماضي، لأنه يتحدث عن الدور الكبير للكرد باعتبارهم ثوار الثورة السورية الكبرى، بدءاً من : إبراهيم هنانو، ومن ذلك (أما ما جرى في شمالي الإقليم السوري فإن الزعيم الكبير المغفور له إبراهيم هنانو قام بالواجب المقدس فألف العصابات وجاهر بمقارعة الفرنسيين ومقاتلتهم.. ص145- ثم يسرد لائحة بأسماء هؤلاء الثوار الكرد الوطنيين السوريين بتعبيره: الشهيد أبو دياب البرازي «ص 593»، و «الشهيد توفيق خالد عليكو» ص 595، والشهيد توفيق الديركي «ص 596»، والشهيد رشيد برايف «ص 604»... والشهيد عمر علي زازا «ص 639»... والشهيد محي الدين عمر جمو «ص 639» أيضاً... ص147)،

ويظهر أن مفهوم «العصابات» كان له معنى مختلف في ذلك الوقت، عما هو عليه الآن.

هذه اللاتحة من المجابهات الصراعية بين قبائل عربية لها وزنها في السياسات العربية حتى اللحظة بصيغ شتى، هي التي كانت تشكّل مداخل إلى العصر الحديث، وكانت محط اهتمام السياسات الغربية والاستعمارية في كيفية عجن طحينها ومن ثم خبزها في «تنورها» السياسي الخاص وإلى إشعار آخر.

لا بد أن الذي جاء جبو على ذكره يدخل في هذا السياق، أي كيف أن المصالح هي التي تحدد في وضعيات كهذه، حتى ما يستحق العبادة في بعض الحالات، وقابلة للالتهم تالياً، كأصنام مكة المصنوعة من التمر، وأن الذي يتعرض له جبو إنما ما يشبه الصنم التمري، الذي اعتاش عليه كثيرون ممن لم يجدوا بداً من الإيمان به، لأنه يحميهم من جوع ما، وبه يرتزقون أيضاً !

وفي السياق الآخر، لا أسهل في أن يكون هذا التحالف المصالحى: الفرنسي-الشمري، تعبيراً عن عقد سياسي، ولزمن مؤقت حيث لا تكافؤ بين طرفيه، إنما هو آني، حيث يكشف التاريخ ما يصل يومه بأمسه، جهة الصراع بين شمر وقوات ابراهيم باشا المملّي في مطلع القرن الفائت، وتداعيات المجابهة تلك، وما رآته شمر في فرنسا فرصتها للإجهاز على كرد المنطقة سعياً إلى الاستيلاء على مناطقهم، ولتجد فرنسا عينها في هذا الميل الشمري فرصتها هي الأخرى، أو بغيتها، لأن هناك في الطرف الآخر: تركيا، فلا بأس من أن تتحصن وراء شمر وهي تحاول التوغل في المنطقة، ولا بد أن حاجو آغا الذي سيأتي حديث من نوع آخر عنه تالياً، كان على علم بهذه المعادلة التحالفية، وقد مارس دوراً كبيراً من على مسرح السياسة «الجزراوية»، ساعياً إلى أن يمنح الأرض صفة كردية أكثر مما يجب، وهو في تحالفه مع فرنسا هذه المرة .

أعتقد أنه آن الأوان أكثر من أي وقت آخر، في أن يمارس المعنيون بكتابة التاريخ عموماً، والتاريخ الكردي خصوصاً، أن يحرروا أنفسهم من سكرة الإيديولوجيا التي نصبها ونصبها غيرهم كما في حال الوطنية، الوطن الواحد، وحيث لا يدخر هؤلاء في تأكيد هذا الوطن من خلال ما يعزز مواقعهم الأحادية الجانب، ليبقى الوطن ما دون اسمه، ويكون أولئك المعتبرون «ثواراً» استدراجاً لأخلافهم في أن يقتدوا بهم دون أي مقابل يُذكر.

إذ ما الفرق بينه والذي قبله وبين ما كتب عنه في كتاب: د. نزار كريم جواد الربيعي: دراسات في تاريخ سوريا المعاصر، دار ضفاف، بغداد، ط1، 2012، في أكثر من صفحة من عدا اعتباره «من أصل كردي يتبع عشيرة البرازية. ص 66؟ وما عدا ذلك يفخم بوصفه «بطلاً وطنياً سورياً» كما هو محتوى المثار باسمه «صص 66-74».

لاحقاً، يستعين جبو بمقال منشور في مجلة «دراسات اشتراكية» وفيها مقال يتحدث فيه عن واقعة بيان دور، وكيف أن الفرنسيين عذبوا وجهاء كرداً، بعد قتل أحدهم، ودفنوا آخرين (وكان من بين الذين دفنوا في التراب عباسي محمد) مختار قرية بيان دور» وعبدى تيمار رئيس فخذ دورىكا من عشيرة هفيركان، وحسوي عبدالله وحاجي حسوي تيا. ص 167).

إنها مشاهد مخيفة بحق، وتظهر الطابع السينمائي الهوليوودي المتقن، وهي تثير خيالاً ومشاعر شديدة السخونة، إلا أن الذي يستدعي النظر فيه، هو ما الذي كان يُراد من هذه المشاهد، وبتحريض من الشمر؟

أليست قضية الأرض هي «بيضة القبان» التي تصارعت عليها أطراف مختلفة؟ أليس لآل عباس دور كبير في توجيه مثل هذه اللعبة القاتلة والمبلقنة لمنطقة جغرافية بالكامل؟ أي يكون آل عباس متواجدين في المنطقة، ومنتشرين ضمن مساحة جغرافية واسعة، منذ مئات السنين، ربما شيوخ شمر استفزهم هذا التواجد والانتشار، فاستعانوا بفرنسا وقوتها.

ومن المفيد بمكان إيراد خارطة معلوماتية مصغرة عن آل عباس، من كتاب بروينسن المذكور «ج 1»، وهي في محتواها تسلط الضوء على مثل هذا الحراك السياسي، أو التبرص بهم وكسر شوكتهم وهم على أرضهم وبين أهليهم (من بين أول المستوطنين كانت العائلة المتسيدة لقبيلة دورىكان، وكانت يومذاك قبيلة رحالة تنتمي إلى اتحاد هفركان القبائلي. ومنذ ذلك الحين استوطن أغلب عوام هذه القبيلة في مناطق تقع على مسافات أبعد باتجاه الشمال، بالقرب من مراعيهم الصيفية، ولكنهم لا يزالون يرسلون إلى زعمائهم الهدية التقليدية، المكونة من أغنام، في الأعياد السنوية، واستقر بعضهم بصورة منفردة في الجزيرة بصفة فلاحين. وكان أول من استوطن من هذه العائلة عباس، ولا بد أن هذا حدث حوالي العام 1850، وفي حياته كان أول تسجيل للأراضي. وكانت له أرض واسعة جداً مسجلة بأسماء أكبر ثلاثة من أبنائه «أصغرهم شويس، لم يكن مولوداً بعد»... ومن الطبيعي أن عباس لم يكن وحيداً حينما استوطن هناك. لم يفعل أي زعيم قبلي كردي ذلك مطلقاً. إذ كان معه بعض أقاربه الأبعدين، وحاشية، ورعيان لقطعانه الكبيرة، وفلاحون تابعون من أصول متنوعة جداً. وهذه نسبة كبيرة «ربما الأغلبية» من مجموعة الفلاحين هذه مسيحيين يعاقبة «سريانين» من جبال طور عابدي،

وليس واضحاً ما إذا كان هؤلاء اليعاقبة من سكان ذلك السهل أصلاً قبل أن يقيم عباس فيه... ويبدو ألا أحد من الدوركيين أنفسهم، في ذلك الوقت، قد بدأ بممارسة الزراعة، لأن هذه كانت، في نظر أغلب البدو، عملاً يحط من قدرهم.... وحينما توفي عباس خلفه ابنه البكر محمد. بيد أن العائلة كانت في تلك المرحلة قد تبنت بعضاً من أساليب رجال القبائل العرب، فرسخ محمد لنفسه اسماً عظيماً بين الزعماء العرب- وهؤلاء منافسون على السلطة والمكانة أخطر من الأكراد الآخرين آنذاك- من خلال إقامة ولائم لم تشهد المنطقة مثيلاً لها في البذخ على امتداد سنين عديدة. فكانت تذبح في كل يوم مئات الخراف، وكانت دماؤها تسيل جداول حقيقية في تلك الحفلات التي كان يُدعى إليها كل رجالات منطقة الجزيرة العظام.... وحتى يومنا الحاضر لا يحتاج أفراد سلالته سوى أن يذكروا اسمه لكي يقف كل زعيم قبلي عربي على قدميه ويبيدي لهم أعظم الاحترام. ص 221... الخ).

لعلنا نجد أنفسنا أقرب إلى العالم الرعوي وأخلاقيته، وليس الزراعي، ومدى حاجته إلى ثقافة متجاوبة مع الأرض وكيفية استثمارها، وهو ما يتطلب وقتاً إضافياً بغية إدراك القيمة الفعلية لها والاستقرار فيها وزراعتها.

من جهة أخرى، لا شيء يضاهي الحسد بمفهومه الاجتماعي، ولا شك أن اعتباره فاعلاً في الصراعات الجانبية، يرتقي به إلى مستوى أكثر أهلية للتدمير، والدفع بصاحبه إلى ممارسة سلوكات عدوانية، أو حبك دسائس بغية التمكن من «العدو» المتصور، لا بد أن وعياً مركّزاً على دافع نفسي بغض ومعتل في الداخل كهذا، من أن يؤدي دوره التخريبي مع الزمن، وهو ما يمكن تلمسه على مستوى الصراعات القبائلية، كما في المشاهد التي سلط عليها الضوء، وما جرى لاحقاً .

لاحقاً نقرأ في كتاب جبو (إزاء هذا الظلم طلبت عشيرة طي والعشائر الكردية المتحالفة معها في الجزيرة المساعدة من حاجو زعيم الهفيركان. فانحدر حاجو نحو الجزيرة مع قوة مؤلفة من «2000» رجل «ومن ثم يتم النقل من مجلة : دراسات اشتراكية، المصدر السالف الذكر»: .. وهكذا سار حاجو على رأس قوته تلك من مديات إلى جبل باكوك ونزل نحو الجزيرة، وفي المرحلة الأولى هاجم الثكنة العسكرية في بيان دور... وبرغم نصائح موجهة إلى حاجو بعدم الاشتباك مع الفرنسيين لأن لديهم أسلحة قوية، فإنه أصر على المتابعة: وهكذا وبأمر من حاجو وقعت معارك قوية في كل مناطق «شمال سوريا» بين الكرد والقوات الفرنسية.

وجرت بين الطرفين معارك ضارية قرب قرية «كُري توبى Girê Topê الواقعة بين تربه سبي وديريك. وكانت عشائر هفيركان قد اتخذت قراراً بعدم التراجع حتى لو تعرضت للإبادة. وقد تكبد الطرفان خسائر تقدر بمئات الأشخاص، وقتل روكان Rogan كبير القادة الفرنسيين، وتم الاستيلاء على ثكنة بياندر، وانسحب الفرنسيون نحو جنوب سوريا، أما حاجو والهفيركانيين فقد عادوا إلى مديات» (1924، ص 168).

تلك لوحة جغرافية - تاريخية أخرى، عن سير المعارك بالفعل، وعبر حدود كانت تخترق بسهولة، قبل ضبطها فيما بعد، ومن جهة أخرى، فإن حاجو آغا وهو على رأس قوته، كان يعتمد على قواه الذاتية، ومبادرته الذاتية في الإغارة أو رسم خارطة تحرُّك وكيفية مجابهة ومن ثم العودة من حيث أتى، وهذا يقلل من عملية التبعية للمضابط التركي المذكور، إذ، وكما نوّهت في أكثر من نقطة سابقاً، ويبدو أن هناك نقاطاً كثيرة أخرى في الانتظار، في هذا السياق، أنوّه هنا إلى مشكلة قائمة بين المعنيين بما جرى، كما لو أنه يجري اليوم، ومن داخل الذهنية الكردية المنقسمة على نفسها في الداخل، لحظة التعبير عن تجنيّها على ما هو تاريخي تعبيراً عن صعوبة الاعتراف بما جرى، ولو بعناد نفسي يمحو تاريخاً كاملاً، وليس أن يعترف به، ويخضع للنقد، أي من خلال الموقف من حاجو، وكيف تصبح الصورة ضبابية ومشوهة كذلك .

لاحقاً، ينقل جبو من كتاب جكرخوين السالف الذكر، وهو يعتمد على الكتاب «الذهبي» الموسوم آنفاً، واللافت أن عدد مهاجمي حاجو آغا للثكنة الفرنسية هنا ينخفض إلى «ألف» من (الرماة الماهرين الكرد . ص 168)، ولعله لم يكن متأكداً، ولا يمكن أن يكون متأكداً وهو في وضعية مواجهة وخوف من الأعظم «أن يُقتل»، فكيف يحسم في العد، إلى جانب أن هذا العدد يوحي بجانب نفسي وإعلامي، أي إن حاجو آغا المهاجم بقواته ليس لديه قوة بهذا العدد، طبعاً، تم التذكير في مكان آخر بـ «3000 مقاتل»، وهو رقم كبير، ودال على مركز حاجو في المنطقة بالمقابل، ولا بد أن إبراز رقم حسابي بهذا الشكل لا يفيد أياً من الذين كانوا يخاصمون حاجو: لا القوة الفرنسية ولا التركية، ولا خصوم حاجو آغا نفسه من جملة العشائر والقبائل التي تتاخم حدود اتحاد هفيركان، أو تقع في «مرمى ناره» إن جاز التعبير.

المفارقة التي يتوقف عندها جبو من جهته، تخص كتابة جكرخوين في سيرته حياته، وهو يحدد تعداد القوة الفرنسية بـ «3000» رجلاً، وقوة الكرد بـ «90»

رجلاً.. وقائدها هفيران، وبإمرة من الضابط التركي اسماعيل حقي..» إلى آخر القائمة الطويلة من اتهامات الشاعر لحاجو وتبعيته للأتراك ومحاربتهم باسمهم للعشائر الكردية، إلى جانب ذم المدعين، ومن هم ضد الشعب ويمارسون التخريب... «طبعاً، يكون حاجو في الواجهة..ص170»، ويستغرب جبو منطقاً كهذا، كما يستقرأ من كلامه، ويعود ليظهر تناقضه مع نفسه، حيث أظهر بطولة الكرد ضد الفرنسيين «ص 171».

لاحقاً، ثمة إشارة تستحق التوقف عندها (ومهما يكن، أبدى حاجو والكرد مقاومة قوية وأخرجوا الفرنسيين من الجزيرة، وكيفما كانت هذه الحقيقة رغم كل ما حدث، فإن الحقيقة الأخرى هي أن الكرد كانوا الطرف الخاسر، ومثلما لاحظنا هذه الحقيقة فيما بيّنه بشكل جلي، فإن المسؤولين الفرنسيين بالذات يعرفونها، وهكذا فإن الفرنسيين الذين كانت علاقتهم مع الكرد متباعدة جداً، اقتربوا أكثر من العلويين والمسيحيين والدروز.ص 172) .

بصدد هذا التحليل، أرى أنه يجانب الصواب على الصعيد التاريخي نفسه، وهو يصادق على كلام جكرخوين، وكان سابقاً ينتقده، مما يحدث بلبله في بنية الموقف إجمالاً، إذ إن فرنسا كدولة استعمارية اتبعت خطتها في التوافق مع انكلترا، وهي شريكها في حربية «ساكس- بيكو»، وثانياً، حرصت على أن تكون الدول المسماة والتي تقاسمت خارطة كردستان في النطاق الجغرافي- السياسي كما هي إجمالاً أيضاً، نظراً لوجود استراتيجية امبريالية لما تزل فاعلة إلى الآن، وثالثاً، لم تقدم فرنسا أي شيء يستحق الذكر لمن وردت أسماؤهم في نصه، بمقدار ما كان هناك توزانات، ونظراً لأن الكرد لهم ثقل ديموغرافي وامتداد جغرافي أكثر، وبما لا يقاس مقارنة مع الآخرين، ممن كانوا يطالبون بحقوقهم كالسريان مثلاً، فقد بذلت أكثر من خطة سياسية ليست بمفردها إنما مع سواها، للحيلولة دون حصول الكرد على ما يريدون، وإزاء ذلك، فإن وسع أي ناقد تأريخي أن ينتقد الكرد في أمور كثيرة على مستوى علاقاتهم الاجتماعية قبل كل شيء، وكيفية تعاملهم مع بعضهم بعضاً، واعتبار قضيتهم واحدة، ولكن الحصول على الاستقلال ضمن كيان سياسي، فهذا يتعدى حدود قوتهم كثيراً بالمقابل، وهذا ما نتلمسه في تحركات الدول الكبرى، وكيفية إدارتها لأزمات المنطقة، ومنها ما يخص الكرد.

في مقال شاهوز حاجو السالف ذكره، والذي قرىء، كما يلاحظ من ردود أفعال موجهة ضد مضمونه، والخلاف الأكبر يتركز على حاجو آغا وعن عدم مشاركته في معركة بياندور من جهة، إلى جانب تبعيته للأتراك من جهة ثانية، لا يخفي شاهوز تقديره لحاجو آغا، ناحية نشاطه السياسي والعسكري على الأرض، سوى أن كتابته لا تظهر تلك الحفاوة المجانية بشخص حاجو لأن ثمة ما هو أكبر من اسمه وشخصه وحتى عشيرته، ولو أن التعرض لما هو كردي ينطلق منه، نظراً لمكانته في تسيير دفة التاريخ على الأرض المهتزة جرّاء أحداث ساخنة ومواجهات عسكرية ومن قبل أكثر من قوة:

(..... لقد ضعفت قوة حاجو وهفيران بعد مقتل عليكي بتي قليلاً، سوى أن هذه القوة تمت استعادتها تدريجياً، وكان هناك خطط بين أيديهم لتوسيع رقعة المقاومة، لهذا، فإنهم ما كانوا يرغبون الدخول في مجابهة عسكرية تستمر أياماً مع الجيش التركي، فما كان منهم إلا أن تراجعوا بقواتهم من مزيخ متحركين صوب تاقا. حرب الثلاثين يوماً وما بعدها :

كان جلبي Çelebiyê ابن عم حاجو مذ عرف متعاوناً مع الدولة، وفي تلك الفترة كان يقيم عند شابو مريد Şaboyê Mûred، حيث كان له علاقات نشطة مع قوى الدولة، وقد حاولت قوة دكشوريان «كرسوزي Kercosî» وجلبي بدعم من القائم العائم الجنرال التركي سد الطريق في وجه حاجو، وحمي الوطيس بمجيء القوة العسكرية التركية.

اتخذ حاجو من قصر سيخو Seyxo في تاقا مقراً له، وعلى مدى ثلاثين يوماً تقريباً كان يقاوم الأتراك. وفي هذه الأثناء جاء لنجدة تاقا كثيرون من جهات كثيرة لتوري Torê، وكذلك قوات هفيران لبت نداء الاستغاثة، كان على أثرها هزيمة القوة التركية والمتعاونين معها، وتتحرك صوب ثكنة مدياد .

كانت حصيلة هذه الحرب قتلى من أسرة اوصمان: اوسي فرحو«أخ حسين فرحو» وسعيد حسين انزي عزيز، ومن سريان مزيخ: حدو برصي «سطيفو بسكي»، ومن ساليكا تاقا أيضاً: حمو بورتى، محي، حجي اوسف سقت «الأعرج، فليت، خليل محما كذلك، والمجموعة»12«رجلاً»، بطريقة أخرى: لقد امتزج دم كل من أسرة اوصمان، الإيزيدية، والسريان في سلكا مامدور .

وبعد هزيمة الجيش التركي، يدخل حاجو من تاقا إلى هلهخي Helexê ، ومن هنا يرجع إلى باكوك، وبادبي. لتصبح عملية المجابهة والحرب في تاقا، نقطة ارتكاز في استمرارية حركة هفيران، وانتعاش آمال المستقبل أكثر.

وكانت فرنسا في سورية وقتذاك. وبعد زمن قصير يلبي حاجو نداء «بنختي» جنوب الخط» منجداً وفي الحسيلة كان وقوع حادثة بيان دور).

هذه المعركة/الحادثة، يُقرب بها من رؤية جميل حاجو، أي ما يعتبرها إعلاء من شأن حاجو آغا من جهة، وتعبيراً عن نسَب عشائري دون أن نسيان ربطها بطابع قومي كردي، وربما كان متأثراً برواية ما سبقوه في هذه النقطة :

كيف جرت واقعة بيان دور؟

لقد أُلقي القبض سنة 1923 على حليف وصديق ومن عشيرة هفيران من قبل فرنسا، وتعرض للتعذيب ومن ثم للقتل. وبلغ صوت النجدة أسماع حاجو لكي يغيثهم، هؤلاء الذين تمكنوا من الوصول إلى مزيزخ بمساعدة بعض وجهاء المنطقة من جنوب الخط للقاء حاجو.

وأعلموه عن أنهم ما عادوا يطيقون ظلم فرنسا، وأنهم جاؤوا إليه طالبين النجدة منه. فما كان من حاجو إلا أن أعلمهم قائلاً: انهضوا وامضوا من حيث أتيتهم، وبدوري سأتي لنجدتكم. وقد لبى حاجو نداء استغاثتهم سريعاً، حيث أنهم عبر الخط الحدودي وأصبحوا أدناه صحبة «300» رجلاً له. وقد وضع حاجو في تل شعير خطة الإغارة على قاعدة بيان دور، متخذاً من اثنين مستطلعين، أحدهما كان خليل بتي ابن عم حاجو، أما الثاني فقد كان من جهته ابنه ججان .

خليل وججان برجالهما تمكنوا من تخريب القاعدة، إلى جانب قتل بعض العساكر فيها. وقتذاك كان اسم الحاكم الفرنسي فيها روكان، والذي كان، أثناء عملية الإغارة، على طريق ديركا حمكو للقيام بعمل ما، وقد أعلم بما جرى في بيان دور، فما كان منه إلا أن يرجع على أعقابها. سوى أن حاجو في نقطة تسمى بـ«ديار توبي» كان يترصد له في طريقه، وأعلن مواجهته، وقد قتل روكان نتيجة هذه المواجهة، وحيث شارك الكثيرون في هذه الواقعة، إذ من عدا الكرد كان هناك بعض عرب المنطقة كذلك، حيث إنهم اعتبروها فرصة لهم، لكي ينتقموا من فرنسا، وبغية التحرر من ظلمهم.

تبعاً لقناعتي واعتقادي، كانت الحرب هذه ثأراً عشائرياً، إلى جانب كونها انتفاضة قومية أيضاً، كانت انتفاضة ضد استبداد السلطة، إلا أن مقصد حاجو من ناحية أخرى، كان أكبر من الثأر إلى حد ما. كان حاجو يريد أن يقوى هو وعشيرته، وأن يذيع صيته، لأنه لم يكن من اليسير بمكان أن يضع حاجو عشيرته بمفردها في فم المدفع، ولأن الوقوف في وجه فرنسا آنذاك لم يكن بالأمر السهل، أما عن «الوطنية» فتخريج قسري للحدث .

لقد كانت كل من فرنسا وتركيا أثناء الحرب العالمية الأولى عدوتين لبعضهما بعضاً «توحدهما المصالح، بمقدار ما تفرقهما، بمقدار ما تبقيهما متبھتين لبعضهما بعضاً، في شراكة إثم، مؤامرة، جناية أرض وشعب، لأمد قد يطول في زواج قسري للتاريخ على الجغرافيا: الأرض»، حيث إن سوريا حتى الأمس القريب كانت تخضع لسلطة الامبراطورية العثمانية، وربما لم يستطع حاجو الفصل في هذا التداخل، إلا أنه- في اعتقادي- تمكن أن ينال ما يفيد هو وعشيرته من عملية التدخل هذه، ولست على يقين عن أن حاجو لم يكن يعرف- وبصورة جيدة- كلاً من فرنسا وتركيا آنذاك، إنما أنا على يقين في أن حاجو استطاع استثمار الفرصة المناسبة له، وهذه الواقعة سبقت ثورة الشيخ سعيد بسنتين، وما أعتقد هو أن الجانب القومي لم يتضح بعد لديه، إنما اتضح ذلك بعد سنة 1925⁽¹⁾.

ومما يؤسف له أن من بين الذين أفصحوا عن موقفهم الرافض لحاجو آغا، وعن أنه لم يشارك في معركة بيان دور، وأنه كان على صلات مع الأتراك من موقع التبعية، هو الكاتب المعروف عباس عباس، وكما تابعت في مقال آخر، وهو يستعرض تلك النقاط الخلافية «والمؤسفة بحق»، جهة الرفض والردود، وتداعياتها، وكيفية تناول التاريخ بعيداً عما يؤكده، أي ما يمكن النظر فيه خارج سياقات التنامي النقدي من الجهتين .

والمقال الذي كتبه عزالدين زاخوراني، وفي موقع «زاخوراني» كما أعتقد، معنون بـ «جواب عباس على قتال حاجو في بيان دور» حيث انهزمت القوة الفرنسية، إلى جانب القائم مقام العربي الخائن، كما جاء وصفه هكذا.

(1) ينظر في مقاله: حاجو آغا، باللغة الكردية، المصدر المذكور.

رد الكاتب عزالدين زاخوراني في الموقع المذكور كان عنيفاً، وربما كان عنفه جواباً على عنف مقال الآخر: عباس عباس، وإن كان في ذلك ما يحبط فينا إرادة الانفتاح والقدرة على حوار أنجع، كمال تقدم، وأنا أسمى بعض النقاط:

(إن هجوم عباس على حاجو مثل من يضرب بقبضة منه جبل باكوك «أي باعتبارها بائسة»، كون حاجو معروفاً بصيته في مجال الكرداتي بين الكرد وفي كردستان، وفي الجهات الأربع من كردستان، وسوف يظهر ذلك على خلفية واقعة بيان دور في كتب التاريخ .

في الرد يظهر أن عباس أشار إلى أن حاجو عرف به في الوثائق على أنه كان رجل الأتراك «تابعهم» وبعد ذلك تبع الفرنسيين، ورد زخوراني هو أنه لو كان الأمر هكذا، فلماذا صدرت تعليمات تركية بالقبض عليه؟ ولماذا قتل حاجو العشرات من جنود الأتراك، وانتصر في حرب تاقا، حتى نفذت ذخيرة قوته؟ ولماذا رافق حاجو جلادت بك المير البوتاني ماضيين إلى محاربة الأتراك، وقاوم حرس الحدود، وعبر باكوك، وبلغ حبابHebab؟ إلى جانب وجود وقائع أخرى، سوف تتشر في الكتاب.

في نقطة أخرى من رده، يظهر أن عباس يتساءل عن مغزى استماتة عائلة حاجو دفاعاً عن الأغوية؟ وأنه ضم الكرد السوريين إلى العشيرة من عدا آل حاجو. ويطالبه بتقديم ولو إثبات حول صحة هذا الزعم.

وفي نقطة ثالثة، يرد عليه لأنه أشار إلى أن آل حاجو ليسوا وجهاء عشيرة هفيركان، ويوضح أنهم كذلك منذ أيام علي رمو كانت عائلة اوصمان من العوائل المعروفة بمكانتها ..

ونقطة رابعة تتم سواها وتثيرها محتوى، عن أن حاجو لم يشارك في معركة ديار توبي، وينبّه ناقده زاخوراني بالرجوع إلى الوارد حول ذلك في وثيقة الجنرال الفرنسي، وضمناً، عن أن قوة حاجو كانت مكونة من «32» من الخيالة، ويرده إلى الضابط الفرنسي أيضاً وتحديد القوة بقراءة «3000» رجلاً...الخ⁽¹⁾.

(1) كما نوهت سالفاً، فإنني وأنا أورد نقاطاً من المقال المذكور، ما كنت أسمى ذلك لولا أهمية الموضوع، وكوني حاولت التأكيد على نقطة رئيسية، وهي أنه بالإمكان التحاور على أرضية أخرى، وأنا أكن تقديراً للطرفين، وحيث إن الذي أسعى إليه هو هذا المجال الرحب للكتابة، والتي أتابع فيها- قدر المستطاع- ما يهمني البحث هنا وهناك.

إنما من الجدير بمكان هو التوقف عند نقطة مهمة جداً تعني موضوعنا، وهي تخص باحثاً كردياً مرموقاً، وله كتابات مهمة في الشأن الكردي، وعلى مستوى نقاشاته مع كتاب عرب وغيرهم، وأعني به الصديق محمود عباس، والمقيم في «أميركا»، حيث إنه كتب سلسلة من الحلقات النقدية التي تدور حول كتاب باروت المخصص عن «الجزيرة السورية»، وقد نشر حتى الآن «30» جزءاً «في مواقع الكترونية مختلفة، وتحت عنوان» مصداقية الباحث العربي محمد جمال باروت مثلاً»، وأنا أنوّه إلى موقع «الحوار المتمدن» الإلكتروني ضمناً، وهي تستحق القراءة والتوقف عندها، وتبيان تلك الثغرات المنهجية والأخطاء التاريخية التي وقع فيها كتاب باروت ذاك، وهي تدل على جهد بحثي وتاريخي جدير بالتقدير حقاً.

إلا أن الملاحظ هو أن هذه الأجزاء لا تلتزم بخط منهجي تصاعدي أو توسعي في التعامل مع الكتاب، وذلك من خلال نقاط مفصلية تميّزه، ومن ذلك أنه كتب أكثر من عشرة أجزاء عن التزييف التاريخي لجغرافية الجزيرة هذه، مشيراً إلى أوهامه التي يسعى بها إلى تأكيد «عروبة» المكان، وهي الدراسة التي انشغل بها كرد فعل من أحداث سوريا في آذار 2011. كما في الجزء الأول، في «11-5/ 2016»، وفي مستهل مقاله (تدرج النوايا السيئة ضمن المخالفات، ويكون جناحاً حينما يراد القيام بتنفيذها، وتحسب جريمة إذا تحولت إلى فعل، وهذه تعتبر في نظر القانون جريمة مع سبق الإصرار؛ كون الفاعل قد خطط لها من قبل، هذا إذا كانت ضد شخص أو جماعة، في حين هي من الكبائر إن خست شعوباً أو دولاً).

وما ورد في الجزء السابع من بحثه، في «11-6/ 2016»، حيث يقول (توسعت جغرافية ترحال وتنقل القبائل العربية الشمالية نحو الشمال في الفترات المتأخرة من الفتوحات الإسلامية، ونعني القبائل التي أرادت المنطقة كمراع، وليست الراضخة للجيش العربية الإسلامية، وهؤلاء بلغوا جنوب منطقة سنجار من أجل الكلاً وفي المواسم التي اجتاحت فيها الجفاف شمال الجزيرة العربية، أو بسبب الغزوات الآنية، ولم يذكر أي مؤرخ إسلامي أنهم بنوا تجمعات سكنية واستقروا فيها في المناطق المحتلة أو المجتاحة حديثاً حتى بعد الغزوات الإسلامية، أو كان لهم أفخاذ حضرية فيها، وما يسميه الباحث مستنداً على صفحات التاريخ الحديث، بمناطق ديار بكر وديار بن ربيعة وديار مضر).

وكذلك في الجزء التاسع، في «7-10/ 2016»، حيث يشير في موضوع الجزيرة وصلة العرب بها، إلى أن (القبائل المصنفة الشمالية المستعربة، أسمائها، ووجودها، كرحل أو حضر، لم تذكر أبعد من شمال الجزيرة العربية وجنوب البادية السورية إلا بعد الغزوات العربية الإسلامية المتأخرة).

لكن المشكل أنه في تركيزه على الجانب الجغرافي وتداخله مع التاريخ، يختار نقاطاً معينة دون أخرى، مما يخل بالأهمية البحثية والنقدية للكتاب، مثلاً، حين يخصص جزءاً على «ثورة الشيخ سعيد» وكيف أن باروت يعتمد اسم «سعيد النورسي» بدلاً من «سعيد بيران» وخلفية هذا الإجراء، في الجزء «19» في «23-7/ 2017»، كما في قوله (تعرض التاريخي الكردي لموجات من النشوية، والفبركة، والغزو الفكري، وبشكل ممنهج، والكتاب الذي نتناوله، يتوضح بأنه تم من أجل هذه الغاية، والحدث الذي نأتي على ذكره هنا، خير مثال عن

ربما لا أجد في نفسي تلك القابلية للحديث في هذا الجانب أكثر مما أشرت إليه، ولعلي كررت هذه الملاحظة أكثر من مرة من باب التألم لما يجري وفي وضع كهذا، وأن هذا الذي أشدد عليه، يقودني إلى نقطة أخرى على تماس مباشر بما

التحريفات التي طالت تاريخ الثورات الكردية، والتي يقوم بها الكاتب المعنون، عضو المركز العربي للأبحاث التابع لدولة قطر، ويمكن اعتبار هذا التبديل من أحد أبشع المغالطات والأخطاء التي سقط فيها الكاتب محمد جمال باروت في كتابه، فعملية تقديمه لتاريخ ثورة الشيخ سعيد البيراني (1876م-1925م)، وإحلال العالم المسلم الكردي، ابن عشيرة أسباريت، الشيخ سعيد عبد الله النورسي (1877م-1960م) كقائد للثورة، وتسمية ثورة بالو ب (ثورة النورسي) بـدرج في خانة التزوير، فلا أضنه يجهل موقع وأسم قائد هذه الثورة).

وفي الجزء «22» يركّز على العلاقة بين «العشائر والزراعة»، وفي الجزء «23» على الحدود والذين عبروها من الشمال إلى الجنوب، ثم التركيز على الإحصاء، وفي الجزء «24» يركز على التعريب والمغمورين، وفي الجزء «25» يركز على مدى طعن باروت في القضية الكردية، وفي الجزء «26» على الحركة الاحتجاجية في آذار/مارس 2011، وفي الجزء «27» يعود إلى الجغرافيا مجدداً، وفكرة «الهلال الخصيب وتاريخه، والحدود، وفي الجزء «28» يتوقف عند المطلب القومي الكردستاني، وكيف يتعرض له باروت، وفي الجزء «29» عن هجرة الكرد من الجزيرة، ومفهومها، وفي الجزء «30» عن الهجرات والديموغرافيا ...

لقد أثرت عنوانة هذه الأجزاء من باب التنويه إلى أن الباحث محمود عباس تحاشى الدخول في نقاط رئيسة ومنذ البداية، بعد موضوعة الجغرافيا «السورية» وما يتردد حولها، ونسب الكرد والعرب، حيث الدخول في العصر الحديث، وإشكالية عبور الحدود، وحادثة «بياندور» وكذلك «خوييون»، وقد شدّد باروت عليهما كثيراً، من خلال تناوله لشخصية حاجو آغا وهفيران، وصلاته بالمعنيين على طريفي الحدود، وهو ما لا ينبغي غض النظر عنه، خصوصاً وأن باروت، كما تعرضت لذلك، أظهر حساسية دوره وما يصله بالكرد والكردايتي، وإجراء كهذا من قبل الباحث عباس يصدم قارئه، خصوصاً، وأنه هو نفسه ينتقد باروت في نقاط لها سمة مزاجية، نقاط تاريخية يتجاهلها، وهي تعنيه بالمقابل.

أقول ذلك في الوقت الذي يمكن قراءة أكثر من مقال للصديق الباحث عباس وهو ينتقد سلبيات قائمة في كل من الحركة والثقافة الكرديتين، كما في مقاله «لنتحرر من روايتنا» والمنشور في «15-9/2017»، كقوله (عدم تقبلنا النقد، وكثيراً ما يتم الرد بالتلاسن أو التخوين، وهنا نقصد في البعدين الفردي والجمعي، والأحزاب الكردية، وخاصة المهيمنة أصحاب السلطة، خير من يمثلها، فعداوتنا المقيتة للأحرار المعارض أو المختلف فكراً أو سياسية، تظهر عند أول بادرة نقد، وهي من أحد الأسباب التي تضعف موجات التغيير إلى الأفضل بين أطراف الحركة الثقافية والسياسية).

أليس في ذلك ما يستحق المسائلة عن كيفية الإصرار على تنوير حقائق التاريخ، والعمل بما يخالف هذا الإجراء، كما في المثال المذكور، وهولاً يستهان بموقعه التاريخي أبداً.

نحن فيه بيان دورياً، أي جهة التوثيق وموقع حاجو آغا في العملية برمتها، وقد رأينا حضوراً له في أكثر من وثيقة فرنسية، سوى أن ما سنعرضه، في وثائق أخرى، وتخص الواقعة ذاتها وملابساتها، يدور في نطاقها، والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل ثمة بيان دور أخرى؟ هل هناك أكثر من شخص كتب هذه الوثائق؟ رغم ورود أسماء الضباط الفرنسيين أنفسهم.

أشير هنا إلى بعض من مقالات وترجمات البروفيسور الكردي رشو عباس، حول ذلك، وأنا أكتفي بالثبوت حصراً، حيث نجد هنا «وقائع معركة بيان دور، وهي في أربعة أجزاء، ونشرت بالتسلسل⁽¹⁾، منوهاً إلى أنني لم أَدْخُل في بنائها اللغوي:

ثورة بيان دور في الوثائق الفرنسية 1-1

المفوضية العليا

الجمهورية الفرنسية في سوريا ولبنان

دولة حلب

النائب العام

رقم و/ 1549

سري جدا

حلب 24 آب 1923

الجنرال بيلوت (Billote) قائد الوحدة 2- الكتيبة لوفات:

نائب المفوض العام في دولة حلب .

إلى السيد الجنرال - المفوض العام للجمهورية الفرنسية

في سوريا و لبنان - القائد العام للجيش الفرنسي «لوفان»

العاليه (مدينة في لبنان)

(1) نشرت في موقع «كلكاش» سالف الذكر، وبالتواريخ التالية: 24 آب- 28 آب- 4 أيلول- 9 أيلول 2009 .

إلى جانب «ثورة بيان دور في الوثائق الفرنسية» وهي بدورها في عدة أجزاء، وبالتسلسل : 11 آب- 31 يوليو- 4 آب- 20 آب 2009، وهناك مقال له طابع وثائقي كذلك، بعنوان «وقائع معركة ديارى توبى» المشهورة، في «1 ديسمبر 2009». إن في وسع قارئ ما تقدّم وما يلي ذلك في النص، مقارنته بما سلف ذكره، وتبيّن المشكل التاريخي في ذلك:

قبل كل شئ الحوادث التي حصلت في الجزيرة في أواخر تموز، كانت نتيجة لمطالب الأتراك وأعمالهم العدائية العنيفة وبشكل خاص من قبل ضباطهم وعملائهم، التي إتسمت بالسرعة وقوة الهجوم ونجاحها، يجبرني أن أفكر بوجود عوامل أخرى لا أعرفها؟ ولكن من المهم أن أعرفها. وبذلت جهدي في معرفتها خلال أبحاثي ومراقبتي أثناء مروري بدير الزور والحسكة وأجريت دراسة دقيقة تمت تحت إشرافي والقائد مورتية - (Mortier) قائد القسم السري S.R بالفرقة 2 الذي كان مرافقاً معي باستجواب جميع الضباط والجنود والرجال المهمين من اهل البلد، .. الخ، الذين يهمهم الأمر في تلك القضية .

- جميع الشواهد هكذا أثمرت عن أيضاحات متعددة والتي تأكدنا منها هي :
 - سرقه، نهب، قسوة وظلم ... الخ.... والمسؤولية تقع على عاتق قواتنا وضباطنا .
 - وهكذا تمكنت أن أوضح لكم لعدة مرات كيف تمكن إسماعيل حقي من الإستفادة من هذه الأخطاء، التي ساعدته بتحضير وتنفيذ مناوشاته في الوقت المناسب .
 - الأخطاء المنسوبة إلى جنودنا بإمكاننا حصرها بأربعة نقاط أساسية :
 - السلوك العام لخيالتنا «ميراريسست»: إساءات، سرقات، عنف
 - موت خليل Khali ؟ ابن أخ مختار بيان دور .
 - إعدام عباس محمد أغا والضرية الكبيرة التي فرضت على عمه سليمان .
 - رحلة روبيرتو Roberto الى نهر دجلة وجزيرة بن عمر .
- وقائع معركة بيان دور 1-2
- الحسجة في 4 آب 1923

- تقرير الليتونانت موريل من الفرقة الثانية للخيالة، قائد مركز بيان دور .
- حول سيرالهجوم على المركز في 28 و29 تموز 1923 .
- في 26 تموز 1923 حوالي الساعة العاشرة صباحاً وصلت مع كتيبة الخيالة إلى بيان دور، وكان معنا أيضاً الرقيب لياندرى مسؤول الرشاش المتريليوز . ليأخذ مكان الكتيبة الخيالة للكاربير والرشاش للرقيب كوهون. (تبادل روتيني للكتيبتين، المترجم)
- في 26 تموز 1923 حوالي الساعة 24 أي منتصف الليل، الليوتنانت روبيرتو قائد مركز بيان دور ذهب برحلة إستكشافية ابتجاه الشرق حتى دجلة وابن عمرو.

أخذ معه القوة التالية :

أ - كتيبة الخيالة لروبيرتو .

ب - كتيبة خيالة كارير .

ج - وحدة الرشاش مترليوز لرقيب كوهون .

الليتوانانت روكار ضابط المخابرات في المركز، كان مع عدد من جنوده خارج المركز بمهمة خاصة .

الليتوانانت روبيرتو كلفني بقيادة المركز عوضاً عنه، وحدثني عن عودته في 29 تموز .

في ليلة 26 تموز : لاشئ يذكر .

- في 27 تموز لاشئ يذكر من الناحية العسكرية، وقد إستقبلت كل من مشعل الباشا شيخ الشمر ونايف عبد الرحمن شيخ عشيرة الطئ الذين كنت أعرفهم سابقاً وهم بزيارة للترحيب بي .

لم نتطرق في حديثنا إلى المسائل السياسية الداخلية أو الخارجية، أو نصائح... ولاشئ عن خطتي في العمل... وفي أثناء حديثي معهما كنت أتجنب الخوض في الأمور السياسية، حيث كنت على علم مسبق بالتنافس بينهما وأيضاً تاريخهما وورغباتهما .

- في 23 تموز وحوالي السادسة والنصف صباحاً، نقطة الحراسة أخبرتني عن مجموعات كثيرة للخيالة وهي تتجول بين حلوة وبياندور .

فكرت في البداية على أنها غزوة تركية لسرقة جمالي التي كانت ترعى جنوب المركز، لذا بعثت مجموعة راجلة من ثمانية عناصر لحماية القطيع وجلبه إلى المركز فوراً .

وأيضاً فكرت في نفس الوقت، بإحتمال هجوم عشيرة سورية موجودة في تركيا (يقصد : عشيرة دوركان، المترجم) : حيث كان هناك مع أولئك الفرسان قطعان من الماشية. لذلك قدت ثمانية خيالة (جندرمة) لتفتيش منطقة حلوة على وجه السرعة: على بعد ثلاثمئة متر إستقبلوني بنيران حية وغزيرة آتية من جهتين حلوة وطريق حلوة وتل الشعير.

نزلت من الخيل وقمت بالرد على النيران وساعدني في ذلك المجموعة التي خرجت لحماية الجمال، وبنفس الوقت القطعة الرشاشة مترليوز فتحت النار عليهم باتجاه تل الشعير، فرجعت بالسرعة الكبيرة على ظهر الخيل تحت نيران كثيفة ودقيقة حيث كان هناك تحركات كثيرة لأشخاص وقطعان من الحيوانات بين حلوة وتل الشعير تحت حماية مجموعات مسلحة صغيرة ولكنها كثيرة جداً وهي موجودة حتى ماوراء سكة الحديد وعلى بعد 500 متر من المركز .

وقائع معركة بياندور 2-2

إجتماع الشيتية والشمر والطى في قرية الدكشوري :

جائني أحد عبيدي مشعل ليخبرني أنه بعد لقائنا البارحة توجه ليحضر إجتماع آغوات الشيتية في دكشورية .

حيث قرر أهالي حلوة ودكشوري وتل الشعير الإلتجاء إلى المناطق التركية تحت حماية الشيتية .

حوالي الظهر تراجعنا مجموعات العدو من حولنا، لهذا أمرت دورية راجلة تحت إمرة الكابتان جيلون لإستكشاف حركة مجموعات الأعداء، وكانت المجموعة محمية بنيران المترليوز الموجودة في أعلى التل، رجعت الدورية بدون خسائر والمعركة إستمرت كل النهار .

حوالي الساعة السادسة مساءً تم إطلاق نار كثيف من قريتي حلوة ودوكر، وقمت بإطلاق نيران رشاش باتجاه قرية حلوة، وبعدها تلقيت زيارة كل من مختار قرية السيحة ومختار قرية تل الخرنوب الذي ترك قريته من قبل الشيتية .

أهالي كرسوار قالوا لي سيظلون أصدقاء لي ولكنهم يخافون من هجوم الشيتية خلال الليل .

هدوء في المعركة بين الساعة 7 و10 مساءً، وتوقعت بهجوم ليلي لذلك أخذت إستعداداتي حيث أغلقت بشكل كامل الفتحة الموجودة في القلعة الصغيرة، ووضعت الماء في القلعة (ملأ كل أدوات الأكل وبرملين للنبذ فارغين وبراميل الحديد وأيضاً معها الأكل والذخيرة .

أرسلت إلى الناييف بنفس الوقت رسالة حيث طلبت منه أن يأتني مع مجموعة من الخيالة عند شروق الشمس الغد .

حيث كنت أريد من ذلك أن أذهب معه أو إرساله أمام الكتبتين على طريق دمر قابو لينبههما، حيث كان كل من مشعل ونايف يتوقعان الهجوم عليهما .

حوالي الساعة العاشرة مساءً، انفتحت نيران غزيرة وبشكل مفاجئ على التل من قبل حوالي مئة مشاة من مسافة ألف متر تقريباً من جهة الشمال، وردت على ذلك بنيران الرشاش مترليوز وبعدها عاد الهدوء ثانية، إلا أنه شعرت بتشكيل حصار من حولي.

أقسام الحراسة يتشكل من :

- إثنان حرس من جندرمة على المطلة الرئيسية للسراي، لمراقبة جنوب القرية وسطوح البوت حيث كانت قريبة جداً من المركز .

- ثلاث حراس من الواجهة الشرقية للمركز، ثلاث حراس للوجهة الغربية للمركز .

هؤلاء الحراس يتواجدون في خط الأمامي للمركز (حيث يتواجد داخل المركز أغلب القوات) وأخيراً أربعة حراس فوق التل: المجموع 12 حارساً .

أعمال القيادة تدار من قبل :

- ضابط وصف ضابط فرنسي .

- إثنان عريف خيالة .

قوة المركز يتكون من :

- القيادة (سراي، وفيها الجندرمة بقيادة العريف المترجم)

- حامية بقيادة الضابط الصف (من أهل البلد) وستة رجال ليساعدوه،

وفي المقابل ستة حراس .

- الخندق: رشاش مترليوز وف م وف ب تحت إمرة صف ضابط فرنسي

.....

وقائع معركة بيان دور 2-3

وقائع سيطرة مقاتلي الشيتية على بيان دور .

(ملاحظة من المؤلف «ابراهيم محمود»: هنا يتساءل المرء عن حقيقة المهاجمين، ومن كانوا فعلاً، ولماذا لم يشرَ لا من قريب أو بعيد إلى العناصر

الأخرى: الهفيركان وغيرهم؟ ولماذا التضارب بين هذه الرواية وهي تحصر المهاجمين في الشيتية وليس سواهم، ورواية توثيقية ترجمها خالد عيسى).

بشكل مفاجئ وحوالي الساعة العاشرة والنصف مساءً، بدأ إطلاق النار علينا من كل الجهات، الجندرمة يفتحون النار من فوق السطوح والدكاكين على مجموعات كثيرة كانت تتقدم نحو القرية .

رشاش المترليوز كانت بإستعداد بنفس الإتجاه وخاصة بإتجاه الأخطر، حيث قام بفتح النار عليهم أجبر المهاجمون عن التوقف .

خلال نفس الوقت فتح النار بكل الاتجاهات تحت إمرة مسؤول .

رؤية نيران العدو أظهر لي أن الحصار يشتد بشكل أكبر ويتقدمون كثيراً، وفي الشمال يتواجد قوتهم الأكثر نظامية وخطورة، وكما أنهم يحتمون وراء المرتفع لسكة الحديد، فقصفتها ب .م ف . م، وكما أن العدو كان يستفيد من وادي متعرج كثيراً ليقترّب من التل، فقصفتها بالسلاح ف . ب فتراجعوا، ولم يتقدموا أكثر من 500 م على الجهات الشرقية والغربية والشمالية، أثناء الليل كله .

وحسب إعتقادي، الخطة الرئيسية للهجوم على المركز سيتم من جهة الجنوب، بعد أن لاحظت إحتلال قرية حلوة من قبل المئات من المقاتلين الشيتية التي إنطلقت من دوكر (كان يعتقد أن قرية الحلوة ماتزال تحت سيطرته - المترجم).

على الرغم من القصف الكثيف من قبل الرشاش مترليوز ونيران من السراي القيادة، إلا أن المهاجمون دخلوا القرية وتمركزوا على سطوح البيوت وفي بيادر القش، ووصلت أصوات أفراحهم وصراخهم العالي، وفهمت أن الجندرمة ليس لديهم أية حماية في السطح وحول المركز السراي، فأعطيت الأمر بإخلائهم إلى القلعة الصغيرة ومعهم الموظفون وبعض المسيحيين اللاجئين، وبعد ذلك وتحت إمرة صف الضابط إنتقلت قوة الحامية أيضاً إلى المركز .

قتل أثنان من الجندرمة قبل ذلك في مكانهما، العريف المترجم عبد الكريم أنكسرت ساقه فنقل إلى داخل القلعة الصغيرة .

بعض أهالي القرية وصلوا حتى جدار القلعة وحاولوا الدخول من عليها، فأجبرتهم على التراجع بأخمص البنادق، حيث المركز يتواجد فيها الكثير من الناس، أكثر من مئة شخص ولم يعد هناك متسع

الوضع أصبح سيئاً داخل القلعة لضيق المكان والجدران منخفضة والتي لم تسمح لنا التنقل بحريتنا، وطريق تنقل الحراس ضيق جداً، حيث لم يكن يسمح للضابط أو المسؤول بالتنقل بالسهولة .

مركز القلعة الصغيرة عالية قليلاً حيث كان يغطيها ويحمينا .

شكوى اللاجئين، طلبات الجرحى، ندائات الأهالي، وفرحة المهاجمين الوحشية وصرخاتهم الساخرة حيث كانت طلقاتهم الدقيقة من على 60 م، وقد حطموا الحاجز الرئيسي، والفكرة من تحطيمهم للحاجز هي أن الشيتية يدخلون المركز لنهبه.

لهذا فقد الجنود لأعصابهم وأصبحوا يطلقون النار بكل إتجاه وبدون نظام .

ثم جاء الهدوء، وساد الصمت على القلعة الصغيرة وعلى كل خطوط العدو، وخفف إطلاق النار ومن ثم توقف، ومن ثم بدأت من جديد وبشكل جنوني، وأظن أن العدو يخافون من شئ ما أثناء الليل، وخلال ذلك الوقت، بقي الحرس والضباط يقظين وأنا أداوي الجرحى، وأتداول بعض النكات، وذلك خلال نصف ساعة وبعدها المحاصرون أصبحوا هائجين ومتسائلين، أعتقد أن النهب والسلب قد بدأ .

قبل مغادرتي الحسجة بعدة أيام إنتبهت لضرورة أخذ بعض ال (ف ب - قاذف قتال) معي وأيضاً بعض الصواريخ الخاصة بالطيران، لهذا أشكر جداً ودوماً صديقي الكابتن ديمونفورت الذي نبهني إلى ذلك .

العريف جون الضابط الصف عندي، بهدوء ودم بارد أخذ يقصف القرية بدقة خلال نصف ساعة، حيث تمكن بحرق السراية والمنازل المحيطة حولها .

ولكن المهاجمون «المهاجمين» أخذوا ينهبون المنازل رغم الحريق، وبدون خوف وتحت قصف القنابل ونيران الرشاشة، وأثناء ذلك في لحظة صغيرة تحت ضوء صاروخ ضوئي، لاحظت أن الجمال قد تفرقت في المرعى رغم ربطها بالعقال، ومن خلال الفتحة (حيث كان الحائط غير منتهياً) التي منها خرجت الجمال، وأسفل المنحدر الخفيف للتل يتواجد عدة رجال من الشيتية (الدوركان - المترجم) وصاروا يطلقون علينا النار بدقة من على بعد 30 م، وهم يحاولون الزحف نحونا .

أعطيت الأمر إلى الصف الضابط من أهل البلد ليأخذ 10 أشخاص حسب رغبتهم لسد تلك الثغرة التي خرجت منها الجمال، وقد أستجابوا للأمر فوراً، لكي يصدوا هجوم المجموعة الشيتية التي كانت تزحف نحوهم من خلال تلك الثغرة .

....

وقائع معركة بياندور 4-2

خلال المعركة كانت الواجهة الشرقية والغربية والشمالية كلها تحت نيران العدو الذي لم يقترب بعد . ولم أرد على ذلك إلا بشكل متقطع وكل مرة بنيران غزيرة ومرتين فتحت النار بشكل عام وباستعمال الرشاشات (المتريوز) والبنديقية الرشاشة (ف - م) والمدفعية (ف - ب) وأيضاً الصواريخ وذلك لتخويف العدو وأيضاً خداعه بإظهار قوتنا .

لم يتجرؤا على هدم أوكسر باب الإسطنبول صالة (السراي) حيث كنت أحميه بنيران البنادق الرشاشة (ف- م) والذي كان يتواجد أمامه عدة جثامين منهم، فانتظروا حتى وقع الباب تحت النيران، فعند ذلك دخلوا بكل هدوء وشجاعة رغم نيران البندقيّة الرشاشة و15 بندقيّة أخرى، وأخذوا الخيول الثمانية التي أخذناها كضريبة على سليمان عباس آغا، وأخذوا خيلي وأيضاً خيول كل من الليتونان روبرتو وكارير .

المعركة دامت بهذا الشكل كل الليل وأحياناً كانت حامية جداً .

ثم جاء ضوء الصباح ليغطي سواد هذا الليل الحزين، لينتقل الأمل بيوم هادئ، لندفن قتلانا ونعتي بجرحانا، ولتقويتنا من أجل الليلة القادمة أيضاً، وأيضاً تمنياتي برؤية شيخ الطيّ الذي أرسلت ورائه وذلك لينقل إلى أصدقائي الذي كنت أتصورهم يغادرون الدمر قابو بإتجاه بياندور .

ولكن في ذلك الوقت كانوا مايزالون على ضفاف الدجلة ولم يأتي إليّ الشيخ نايف والحصار حولنا دام طوال النهار . .

....

....

وراء مرتفع خط الحديد، ومجموعة منها حمت البير الذي بين التل وخط الحديد بنيرانها .

بالغرب لايتواجد أية مجموعة بالقرب ولكن على بعد 2 كم هناك حركة كبيرة بقرية بويرة .

بالشرق كانوا هناك عدة قناصة يختبئون في الحفر، وأيضاً تواجد مجموعات عديدة في قرية حلوة .

بالجنوب قرية بياندور محتلة بكثافة أيضاً وفيها حوالي 100 من الشيتية يأكلون ويشربون القهوة تحت حماية القناصة المختبئين على أسطح المنازل ووراء الستائر أو القصبات وأكوام القش وذلك أصعب علينا كل النهار لمراقبة الواجهة الجنوبية وأيضاً حماية جنوب القلعة الصغيرة .

وبجنوب بياندور وعلى بعد 2 كم ونصف تقريباً على تل السوار (قرية صديقة) رأيت خمسون شخصاً وهم فقط مشاهدون ليس إلا، وحاولوا التحرك أمام الشيتية وخمسة خيالة منهم أتجهوا نحو بياندور فاستقبلوا بعدة طلقات فترجعوا .

بالشرق مجموعة من 15 خيالة إقتربوا بسرعة وعلى بعد 2 كم رجعوا إلى الورا تحت نيران بنادق الكردية وكانوا حسب توقعاتنا هم من رجال الشيخ نايف الذي أشرت له بالصواريخ نارية (فتاشات) ولكن بدون جدوى .

وفي كل الاتجاهات يتواجد ويدور مجموعات من الخيالة الكرد والترك والشمر والطي ولا أميز بينهم (لا أستطيع أن أتعرض لهم) (لا يميز الصديق من العدو. المترجم)

حوالي الساعة التاسعة، مجموعة من عشرون «عشرين» خيالاً شكلوا رتلين على خيول رائعة بجنوب حلوة متجهين إلى قرية السوار بالسرعة الخفيفة، فتلقوا نيران البنادق من هذه القرية ويبدو أنهم مترددون ومن ثم تقدموا ولكنهم بعد أن ترجلوا وساروا مشياً، ثم إختبأوا تحت الحفر ووراء المرتفعات، وبالقرب من القرية بحوالي عدة مئات من الأمتار بشمالها، يظهر أن القرية لا تستطيع أن تدافع عن نفسها، المهاجمون فتحو النيران عليهم، فتصورتهم أنهم قد يكونوا رجال شمر المشعل، وبعد لحظات من مراقبتهم للمركز، ركبوا خيولهم واتجهوا نحو بويرة ومن ثم فجأاً وبحركة مرعبة وسرعة كبيرة توجهوا نحو جمالنا التي كانت ترعى بحرية نحو 300 - 400 من التل، لأنني لم أكن أعرف ماكان يحدث فمكنت إطلاق النار عليهم، بهذا الوقت كان يأتي من الخزنة وبسرعة كبيرة عدة مجموعات من الخيالة (تصورتهم أنهم من المسنين من الشمر).

المجموعة الأولى المحتمل أنهم كانوا من الأتراك النظاميين وذلك لحركتهم النظامية المدروسة .

ضربتهم بالرشاش متركز خلال إنسحابهم بإتجاه الأراضي التركية ومعهم حوالي 15 جملاً (أي أخذوا الجمال وتركوا أرض المعركة - المترجم)

المجموعة الثانية كانوا بالتأكد من الشمر جائل وأخذوا 6 - 7 جمال بعد أن إقتربوا من التل ومن ثم ذهبوا بإتجاه قرية خزنة، ولكنني لم أفتح عليهم النار، وذلك لأنني كنت أعلق عليهم بعض الأمل، ولكن بعد هذه الغزوة لم أراهم بعد ذلك قط .

خلال هذا الوقت، المعركة كانت تدور مع المتواجدين في القرية (الشيتية - المترجم) حوالي 50 شخصاً جاؤوا من حلوة وبويرة لتقويتهم وكان من بينهم عدة نساء .

وبشكل مفاجئ إرتفعت أصواتهم وأغانيتهم، والمهاجمون كانوا يحاولون الهجوم ولكن نيران الحامية أدت إلى هدوئهم، وفي هذا الوقت خرجت مجموعة من 8 - 10 رجال وبينهم رجل طويل القامة نحيف لابساً عباية خاكي صفراء ومن المحتمل أن يكون مختار قرية حلوة (يقصد علي العيسى - المترجم) إقترب حوالي 15 إلى 20 م من القلعة من وراء الحائط صاح بحديث، فتوقفنا عن إطلاق النار واستمعنا .

المعركة دارت بشكل رئيسي بعد الظهر تقريباً بواسطة الرشاش متركز التي غيرت المكان عدة مرات والتي إستعملت بشكل عظيم ودون توقف من قبل الرقيب لياندرى التي أصيبت بعدة شظاي (يقصد الرشاش - المترجم)، وفقدت قاعدتها (المثلث لإرتفاع الرشاش) وفقد الرقيب من بين رجاله : 1 قتيل و4 جرحى بشظايا من النحاس أتت من البندقية الرشاشة / م- ف / التي لم تتوقف واستعملت بشكل بطولي، فتحت النار بكل الأوقات وبكل الإتجاهات حسب الأوامر المعطية، وب 3 أو 4 قناصة على كل إتجاه وخاصة بالجنوب حيث كانت المعركة تدور من 60 م، كانوا بقلب قوي وعيون حادة النظر ولكن للأسف إثنين منهم قتلوا بطلقات في الرأس وآخرين جرحوا أو إحترقوا في رأسهم وذلك من لمسات الرصاص .

.....

.....

في البعيد الخيالة كانوا يخرجون من القرى، والمرابطين خلف خط سكة الحديد كانوا واقفين وهم يرددون الأغاني والتشجيع المتبادل للتقدم نحونا، وعندها

أعطيت أوامري بإطلاق نيران كثيفة، والقلعة أيضاً أطلقت ضرباتها الأخيرة للمدفعية قاذفة القنابل (ب- ف)

المتريوز والبنادق الرشاشة (م - ب) و60 بندقية، كل ذلك أطلقوا بدون توقف خلال 5 دقائق . الخيالة تراجعوا وكل شئ عاد إلى الهدوء بطرف العدو .

المحاصرون في القلعة أنشدوا غناءً بشكل صارخ، ليعلنوا للعدو على إرادتهم بالصمود، ثم طلبت الراحة خلال نصف ساعة، عدت طلقات قطعت هذا الصمت، وذلك ليدلي إلى العدو بأننا سنرتاح وسنأكل، والمهاجمون عملوا نفس الشئ .

بهذا الوقت أتلقت الأرشيف الذي كان الليتونان روكار (ضابط الإستخبارات في المركز وقاتل عباس آغا - المترجم) والذي كان يتوقع الهجوم على المركز، فأتى بها إلى القلعة قبل مغادرته. (ملاحظة: درجت العادة في فرنسا أن تحتفظ لكل ضابط غير حي بمذكراته وتقاريره تحت إسمه، إلا أنني وخلال بحثي في الأرشيف الفرنسي تبين أن عدد قليل من ضباطهم لا أثر لمذكراتهم أو تقاريرهم، وكان الليتونان روكار من ضمن أولئك الضباط، وهنا الليتونان موريل الضابط المحاصر يفسر سبب ذلك - المترجم)

خلال هذا الوقت كان هناك عدد من الرجال كادوا يموتون من العطش، فإنكبوا على صفائح الماء الثمانية التي كانت إحتياطنا الأخير من الماء، ولم أعر إلا على ثلاثة صفائح فوزعتها كالتالي: 1 للضباط، 1 للرقيب جيون، و1 للرقيب محمد أمين (جزائري)

ضمناً، أنشر هذه الوثيقة والمتعلقة بـ«ثورة بياندور في الوثائق الفرنسية، 3/1»، والمترجمة من قبل البروفيسور رشو عباس، والمنشورة بدورها في موقع «كلكامش في» 14 آب 2009»

حيث إن الإشارة إلى سليمان عباس في الوثيقة وهو يرأس أهله ومعارفه في الطرف الآخر من الحدود «سرختي»، تخلو من تسمية أي كان، وقد رأينا في رواية جميل حاجو، أن المقصود بالأهل، أو من طلب منهم النجدة، هم هفيركان في شخص حاجو آغا :

ثورة بياندور في الوثائق الفرنسية - 1-3، في 14 آب 2009

كثرا الحديث عن أسباب وشخصيات ثورة بياندور، وفي هذه الوثيقة التي هي بين أيدينا تظهر للقراء والمتابعين الحقيقة الموثقة .

فقدوين التاريخ مسؤولية، ولكي يرقى ما يدون من تاريخنا إلى المستوى الذي تتشرف به الأجيال، لابد من توثيقه بإخلاص وأمانة .

إعدام عباس محمد عباس والضرية الكبيرة المدفوعة على عمه سليمان .
قبل مغادرة الليوتنان روكار الدير الزور في 27 حزيران للذهاب إلى بياندور، حيث كان هناك الكولونيل رئيس منطقة الفرات، تلقى من الكابتن جرينكور رئيس القسم السري (المخابرات) في منطقة الفرات كل المعلومات وجميع الأوامر اللازمة في مهمته .

التي بإمكانه الإستفادة منها وإستخدامها لمهمته في موقعه الجديد (البياندور) لفت إنتباهه بشكل خاص حول نشاطات إسماعيل حقي وعلى المكانة التي يتمتع بها داخل كل المنطقة الحدودية. الكابتن جريكور نبهه أيضاً و بنفس الدرجة من الأهمية حول عائلة العباس المقتدرة والغنية والقوية التي تملك قرى كثيرة ومن أعضائها المهمين والبارزين سليمان عباس آغا وابن أخيه عباس محمد بالتأكيد . ويبدو ربما متحدون مع الأتراك وإسماعيل حقي وذلك لخوفهم أولمنافعهم أو حسب إعتقادهم وقناعاتهم .

الليوتنان روكار كان محسوباً على الملاك القسم المركزي للمخابرات في دير الزور حيث كان ضابطاً محنكاً في المسائل السياسية للمنطقة التي كان يعرفها جيداً، ومن جهة أخرى كان يتكلم العربية، لذلك كان إختياره لهذه المهمة جيداً . وصل إلى بياندور في 2 تموز بنفس الوقت الذي وصلت فيه كتيبة الخيالة بقيادة الليوتنان روبيرتو الذي وصل ليحل محل كتيبة جرافيل .

واحدة من أوائل أعماله هي التأكد على طلب الكابتن جيرفال وذلك ليترك القلعة والمركز العسكري حسب طلب الكولونيل رئيس منطقة الفرات بالنقل المؤقت للمسكن والمركز العسكري إلى خزنه (قرية خزنة تبعد 7 كيلو متر جنوب غربي بياندور _ المترجم)

حوالي منتصف الشهر أوقف السيدان سليمان وعباس عباس حسب أقوال كل من : عزت القائمقام الجديد لبياندور ومحمد ((مدير العلاقات)) بالشكل التالي:

في 18 حزيران أتى شخص مسيحي من دوكر ليشتكى إلى الليوتنان روكار بأن بندقية قد سُرقت، الضابط أرسل وراء محمد عباس وأوقفه : لمسؤوليته عن

المشكلة لكونه مالك القرية، رغم عدم الإعتراف بالموضوع ونفيه وأيضاً طرحه لحل المشكلة بتعويض المسروق أكثر مما خسره .

أيضاً أوقفوا شخصاً آخر المسمى -الشرابي - يقال أنه مسؤول عن السرقة، ثم في 19 حزيران أوقفوا عمه سليمان : وأوقفوا الثلاثة في السراي .

في الليل هوجم المركز ؟... لكن الليتونان روكار كان مخبراً بالهجوم، فجمع كل الناس (أهل القرية) فوق التل وأيضاً الشرابي والعباسين

من الصعب معرفة ماذا حدث خلال الليل، إلا أن الليتونان روكار حسب نفسه تحت الهجوم ولذلك أعطى لنفسه الحق بأن يعدم العباسين بدون المحاكمة حيث يعتبرهما الأعداء ... فأعطى الأمر بقتلهم وأيضاً المسمى بالشرابي، الضابطين الآخرين كانوا موافقين بالتأكيد .

تنفيذ الأعدام لم يكن كاملاً: عباس أعدم بطلقة في رأسه، الشرابي جرح بالحربة وتمكن من الهرب، أما سليمان لم يقتل ؟ لسنا متأكدين كيف لم يعدم هو الآخر؟... عباس دفن على التل .

في الصباح قرر الليتونان روكار إجتماع يشبه محكمة عسكرية لمحاكمة سليمان عباس، لتنفيذ حكم الأعدام المقرر حتماً في حقه. ولكن وعلى الطلب الشديد من : القائمقام «عزت و عبد الرحمن النايف رئيس عشائر الطيّ ومشعل الجربا رئيس عشيرة الشمر، المحكمة قررت تأجيل الحكم بانتظار غرامة إعجازية: 200 ليرة ذهبية، 8 أحصنة، 4 ثيران وقد أعطيت فوراً كفدية .

هذه المشكلة صار لها صدى كبيراً وأعطيت طابعا سيئاً لنا. الشعب الكردي «المواطنين الأكراد» لا يعرفون قوانين الحرب، وخاصة التجسس، لا يوجد عندهم التخطيطات السيئة والحسابات الدقيقة ... الذي عرفوه وقدره هو موت عباس محمد عباس أغا، والضرية الكبيرة التي وضعت على عمه وجرح الشرابي، أعدائنا ردودها وعمل منها كسلاح ضدنا .

بعد ذلك ومن المؤكد ودون أدنى شك أن سليمان عباس أغا هو الذي قام بالتحضير والتجهيز والاتصال مع أقربائه وأعوانه في طريق الحدود للهجوم الذي سوف يحصل في الأيام الأخيرة من الشهر. (المقصود معركة بياندور ودياري توبي - المترجم).

- وضع القلعة والمركز العسكري لبياندور صعب وذلك لقربه من الحدود، الجنرال قائد القوة كان قد قرر خلال زيارته إلى قيرو في 31 أيار بنقل المركز إلى تل عيد بالجنوب، لكن يجب لذلك الكثير من الأعمال وابتظار ذلك قرر الذهاب مؤقتاً إلى خزنه .

الكولونيل كراوت أرسل بالأمر برقياً في 21 حزيران إلى الكابتن جيرفال الأمر لم ينتقد من قبل جيرفال حيث أرسل برسالة 29 إلى الكولونيل قائد منطقة الفرات .

بياندور، الدفاع عنها سهل وإن الذهاب نحو الجنوب يقلل دفاعنا وسيؤخذ كضعف من قبل أهالي المنطقة .

رغم ذلك أمر بالذهاب إلى خزنه، أوكد في 30 حزيران ببرقية من الكولونيل كرانروت ولكن وبسبب الحوادث المذكورة في بياندور، بقي المركز في بياندور بقيادة روكار ولم يعطى الخبر إلى الجنرال قائد الفرقة .

ذلك ينطبق على وقائع معركة «ديار توبي» إذ ليس هناك تسمية بالمقابل للذين هاجموا القوة الفرنسية، ولا لمن استسلم ممن نجا من المعركة، وهو قد ورد بالاسم في رواية جميل حاجو السالفة الذكر، أي لابن عمه «ساروخان»، وقد ترجم البروفيسور رشو عباس هذه الوثيقة ونشرها كذلك في موقع «كلكامش»، في تاريخ «1 كانون الأول 2009»:

معركة ديار توبي. وهو تقرير حول الإستطلاع في جزيرة بن عمرو ومعركة بياندور من قبل الليتونات روبرتو - روكار - وكارير

كتب التقرير بتاريخ 6 آب من قبل الكابتن دوجيرفال قائد كتيبة الجمالة الثانية.

الليتونات موريل مع مجموعته (أ: 14) وقطعة ميترايوز من الفئة المرافقة بأمرة الرقيب لياندري وصلوا إلى بياندور في 26 تموز ليحل محل مجموعة

الليتونان كارير (الخامسة) مع القطعة الرشاش ميترايوز بأمرة الرقيب جوهون.

الليتونات روبرتو : قائد المفزة أعلن له عن رحيله بنفس المساء مع مجموعة الأولى ومجموعة الليتونان كارير الخامسة مع قطعة الرشاش للرقيب جوهون وأيضاً الليتونان روكار ضابط المعلومات.

كان يريد الذهاب حتى جزيرة بن عمرو ويترك له حراسة المركز العسكري في بياندور .

بيان ذلك الإستطلاع (التفاصيل) أذكرها وفقاً لما أدلى بها الخيالة الذين شاركوا في الإستطلاع ورجعوا (نجوا من معركة ديارى توبي)

الإستطلاع بدأ بتاريخ 26 تموز الساعة 24 وخيموا يوم 27 في رميلان في الساعة 20. وذهبت خلال الليل لنصل إلى فيش خابور في 28 بالساعة 9 .

وذهبت من جديد في الساعة 23 فوصلت في 29 من الشهر الساعة الواحدة إلى قرية تسمى قره براشيد حيث قال لأهلها (الليتوان روكار) بانهم يجب ألا يعطوا الضريبة للأتراك .

فصعدنا للإستطلاع نهر الدجلة، وبساعة قبل وصولنا إلى الجزيرة، الليتوان روبرتو وضع لنفسه أربع نجوم، وأعطى الأمر لرجاله ليقولوا بأنه القائد .

أوقفت المفزة في الساعة الخامسة من قبل مركز تركي، فكتب الليتوان روبرتو إلى المسؤول التركي، فقبل المركز عبورهم ووصل الاستطلاع على قمة تشرف على مدينة الجزيرة فأوقفت عليها .

جاء ضابطين تركيين للقائهم وأصطحبهم إلى الجزيرة .

أعلن الليتوان روبرتو إلى القائد التركي بأنه جاء إلى الحدود الفرنسية حسب أوامر رؤسائه وبأنه سوف لن يعطيه أية معلومات أو حساب، فجأوبه الضابط التركي بأنه سيظل مع قواته حتى إستقباله معلومات جديدة من مسؤوليه .

فجأوبه الليتوان روبرتو بأنه سيعمل مايشاء لأنه لن يقبل أية أوامر منه .

تلقى الأتراك هاتفياً الأمر بضيافة الضباط الفرنسيين، فأخذوا الغذاء معاً .

ذهبت المفزة في الساعة 15 مصطحبين بضابط و12 جندي وقائماًم الجزيرة حتى نهر سافان .

التخميم الأخير للقوات حصل في وادي خور رميلان (وادي يقع على بعد ساعتين من دمر قابو) - بضعة من دجيش (من شمر الهاسي) كانوا يخيمون على هذا الجسر .

بدأت المغادرة إلى بياندور في منتصف الليل بيوم 30 تموز .

أوامر المشي: بالمقدمة المجموعة الأولى: الليتونان روبيرتو، 5 رجال في المقدمة و4 رجال من المجموعة الولي على الطرف اليمين .

من المجموعة وعلى الطرف اليسار أربعة رجال من المجموعة الثانية (السرية الأولى) الرشاشة ميترايوز والحقائب وراء السرية الأولى، والسرية الخامسة تحمي الخلف ومنها رجلين لمراقبة الورا، ثلاثة رجال على بعد 500 متر لليمين بنفس المستوى، وايضاً ثلاث رجال بنفس المسافة على اليسار

دار المشي بشكل طبيعي حتى تل عباس (4 ساعات ونصف من نقطة الإنطلاق) بعد عبور الوادي المراقبين للأطراف لاحظوا وجود الكثير من الخيالة يسيرون مع الرتل، وفجأة وخلال تلك اللحظة دوت أصوات طلقات النار أتت من بعض الرجال المشاة المختبئين على مسافة بعيدة .

الليتونان روبيرتو أوقف السير ووجه نار الرشاشة ميترايوز على قسم من الخيالة الذين كانوا يريدون القتال مع القوات في المؤخرة .

بعد 5 دقائق من الرمي، بدأ المشي من الجديد نحو بيان دور وخلال 40 دقيقة لم يحدث شئ .

وفجأة بالقرب من التل بدأ الرمي الغزير أجبرت القوات الأمامية على التراجع. الجمال علقت، ومشيت السرية الأولى نحو التل وذلك تحت حماية نار الرشاشة فوصلت إلى هدفها بدون صعوبة .

بحوالي 50 م من الوادي بدا رمي غزير للنيران فوق الفوضى في القوات، وبدا هجوم كبير من قبل الخيالة والمشاة على الجمالة فذلك فاجئ القوات، ومجموعة أخرى قطع طريق .

الليتونان كارير وروكار والسرجان آدم حاولوا بجهد جميع القوات .

فجمع الليتونان كارير مجموعة صغيرة وبينهم الكابورال (عريف) محمد صالح حيث قتل سريعاً بعد لحظات، بعد ذلك قضى ذلك على ما تبقى من شجاعة عند المقاتلين.

كان الليتونان كارير يطلق بالبندقية ويحاول مع ذلك الوصول إلى السرية الأخيرة، كان يلاحقه مجموعة من الخيالة، فواجههم وقتل بعضاً منهم وقتل بدوره بالقرب من الفئة الحارسة للحقائب .

الليتونان روكار أخذ حياً ثم قتل بالسكين (هو الذي أعدم عباس آغا في بيان دور، ذبحه بالسكين كان ثأراً لعباس) المترجم .

السرجان آدم مات بنفس الطريقة بعد دفاع شجاع، ولكن الليتونان روبيرتو عندما رأى إنكسار السرية الخامسة، وجه بنفسه نيران الرشاش على المهاجمين وأيضاً على اللذين كانوا يستسلمون لهم .

ربما يكون ذلك هو الذي قضى على السرية الخامسة، فالعدو لم يلتقي أية نيران لا على اليسار ولا على اليمين، فهاجموا على آخر المدافعين .

فهم الليتونان روبيرتو ذلك ولكن متأخراً جداً، فقتل وهو يقاتل بالبندقية، السرجان براما قتل بنفس الوقت مع الفئة المراقبة للحقائب .

بعد هذه الخسائر من القتلى، أخذت الحقائب والناجين الفرنسيين ومعهم الرقيب جوهون واستسلموا فرداً فرداً .

إنتهت المعركة في الساعة التاسعة

....الخ.

غربة تاريخ :

ثمة الكثير مما يمكن قوله ومسار هذا التعارض بين وثيقة وأخرى، ولهما صلة بالواقعة عينها، وذلك يعيدنا إلى ما لا نريد التركيز عليه، أي الجانب الخلافي، والذي أبدي أسفي عليه مراراً وتكراراً، نظراً للتأثير السلبي له، وهذا ما يعلم به أي كان، حيث لكل طرف مكانته المعتبرة، واسمه المعتبر، وتاريخه المتعدي لنطاق الرقعة التي أقام فيها يوماً، وأصبح لكل ذلك حضور في التاريخ وبأكثر من لغة، وجل ما أتمناه، هو ألا تكون كتابتي هذه خاضعة لتأويل جانبي، وأنا إزاء موضوع تاريخي، أو تاريخ هو موضوع، ومثلما تناولت موضوعات مماثلة، أو بالمقابل، تعرضت لأسماء بحثية كردية لها حضورها، كحال الصديق الباحث محمود عباس، هكذا أجدني منشغلاً بموضوع لا أظنه سهلاً تناوُلُهُ، وأن ليس في وسع أي كان التعرض له ببسر وهو متشعب، ومثار في لغات مختلفة، وهي أهمية تعني الكرد عموماً وآل حاجو خصوصاً، وأن ما يكتب هنا لن يرضي كل أفراد عائلة حاجو آغا بالتأكيد، وهي حالة طبيعية، إنما هي كتابة تتسبب نفسها إلى التاريخ وليس إلى هذا الاسم أو

ذاك، وأن من المتوقع أن يظهر من سيتناول المسطور هنا بالنقد، وهذا ما أنشده في النقد، أي تتبع المرجع الفعلي لكل وثيقة، ولماذا لا نجد نماذج من ذلك في أدبيات المرحلة تلك، حتى بالنسبة لجكرخوين نفسه الأميل إلى روايات مضادة لحاجو آغا؟

أي ما لا ينبغي أن يكون هذا الخط الحدودي والوهمي والمصطنع والموجه بين الكرد والكرد، العائلة والعائلة نفسها، منتقلاً إلى نفوسهم وأدمغتهم وذاكراتهم ومجالس أنسهم، وبذلك يصادقون على قول ألد أعدائهم فيهم، من السلبيات طبعاً! وربما كان في ما أثاره الباحث السوري محمد جمال باروت في كتابه السالف الذكر يستحق وقفة بحثية بالمقابل، لوجود عدة نقاط تتخلل هذه الفقرة البيان دورية، ولعلها ذات صلة بمجمل ما أثير حتى الآن في فضاء التحوار الكردي . العنوان صارخ، وربما يترجم نزوعاً عنيفاً في أسلوب الكاتب «مذبحة بيان دور: سطوع نجم حاجو آغا وبسط آغائيته» :

دلالة العنوان لا تخفى من جهة التهويل على القارئ العادي، وهي أنها إعلامية بمقدار ما تكون دعائية سلبية الطابع بحق حاجو، حيث إن مفردة «مذبحة» تعرّف بأن هناك من قام بفعل الذبح، ولا بد أن الفاعل متعطش للدماء، ومنذ الوهلة الأولى، وأن هناك علاقة وثيقة بين اعتبار حاجو آغا ساعياً إلى نجومية تتمثل في آغائيته، أي ما يخرج من أي حضور اجتماعي، أو يجرده من أي قيمة اعتبارية لقاء عمل يستحق عليه لقباً من هذا النوع وهو أن يكون له شأن، أي يعتبر ذا شأن على خلفية من أعماله، وليس لأنه يبحث عن شهرة جانبية، وتلك هي البداية الأولى في خطاطة عنوانية جلية، حيث المفردة «المذبحة» ابتداء فرنسي، ولكنها هنا محرّك باروت البحثي في المسار الذي ينسبّه إلى الجهاز الأيديولوجي الفرنسي، وليس المعرفي تاريخياً، بمقدار ما يفقده تلك «الوطنية» الغيور التي حفّزت فيه - أساساً - شهوة استيلاء كتاب مؤدّج ككتابه.

والأهم في المتعلق ببيان دور، هو أنه يكاد يعتمد على الوارد في سيرة حياة جكرخوين، في الترجمة العربية، وما في ذلك من تعبير نفسي محتقن للشاعر يستهوي باروت ذاته، وليس تاريخياً برز «تل شعيراً» في رقعة ذاكرته الساخنة، أكثر من بروزه «تل كردياً»، بالمعنى التاريخي الأوسع للكلام والواقعة، وقد وجد

باروت فيه بغيته، كما تقدّم، أي باعتبار كلامه وثيقة تاريخية وليت الأمر توقّف عند هذه النقطة الزلقة، إنما حتى ما تردد في الأدبيات التركية والفرنسية حول أعمال قام بها «الأكراد» في المرحلة تلك ضد هؤلاء وأولئك، فإنها تتدرج في أعمال شقاوة، وما يعنيه قول/حكم كهذا من نسف لمقولة التاريخ، من جهة سلطة «السيد» المشرّعة في مواجهة «العبد» الخارج عليها، لا بل ويرتد على باروت نفسه بأثره، لأن ليس من عمل موجّه إلى العثمانيين في أي بلد عربي مهما كانت مشروعيته، إلا واعتبر شقاوة.

ذلك ما يتأكد من خلال العنوان الفرعي الأول «حاجو آغا من السجن إلى الآغاتية إلى» مذبحة بيان دور. ص 153، وما في ذلك من تربص استعدادي بالاسم والمنحى الذي يوجّه فيه كتابته، أي قبل البدء بأي كتابة، ومنذ التعريف به وتحديد العمر الممتد ما بين عامي «1880-1940»، فكما رأينا، كانت سنة الولادة «1896»، أي سنة اغتيال، أو مقتل والده سنة 1896، في أغلب الروايات وليس سنة «1880»، حيث لا يلتزم بتسلسل الأعمار لولادة أبنائه، كما سنرى «الابن الأكبر حسن، ولادة متوقعة سنة 1889»؛ يقول باروت (كان حاجو آغا «1880-1940» ينتمي إلى سلالة زعماء الهويركية «الهفيركية، طبعاً» الذين لقوا جميعاً حتفهم إما في المعارك أو في الثأر. وأعدم العثمانيون والده حاجو آغا عام 1885 بسبب أعمال الشقاوة التي كان يقوم بها في المنطقة الممتدة من طور عابدين إلى ماردين. وطوال الحرب العالمية الأولى تخوّف الأتراك من شغبه فرموه في السجن ثلاث سنوات. وحين خرج منه كانت السيطرة الآغاتية لعائلة أبناء عثمان آغا، آلت إلى عمه الشقيق علي بطة. وفتح موت علي بطة في أوائل الاستقلال التركي في عام 1923 الباب أمام حاجو آغا بدعم من «معتمد» نصيبين اسماعيل حقي كندس للسيطرة على العشيرة، حيث سيبدأ حاجو آغا سلطته بالعمل لحساب الكماليين بعملية بيان دور في تموز/ يوليو 1923 التي ستكرّس الحوليات الفرنسية اسمها تحت عنوان «مذبحة بيان دور».. ص 153).

قارئ ما توقفنا عنده في الصفحات السابقة، ومن خلال ما هو وارد في هذا المقطع، لا بد أن يستفزع كتابة تشهيرية بمحتواها كهذه، وفي كتاب ضخم كهذا «أكثر من ألف صفحة» كما يظهر في «غرفة عناية تاريخه المشدّدة» على خلفية من

انفجار الوضع في سورية، وفي «جزيرته»، وهو يعزّز في كل جملة أو حتى كلمة يسطرها هنا حرصه اللاتاريخي عليها، وهو يتابع سعي الكرد إلى احتوائها، أي إخضاعهم لسيطرتهم، ويحتاج الباحث إلى قلم دقيق وهو يضع خطوطاً مختلفة ألوانها تحت طائفة كبرى مما أشرت إليه، وتصويب أخطائه، أو رده إلى صواب التاريخ، ليكون المصحح أكثر من كتابه:

بدءاً من العنوان، كما ذكرت، وهو كما تبدى مستأف من الأرشيف الفرنسي الاستعماري، ومفارقة الاستلاف. تُرى، في المسار نفسه، أليس جائزاً استعمال عبارة «مذبحة» في محاولة لـ «مواطنيه» السوريين، وباعتبارهم «ثواراً»، وهم ينالون من جنود فرنسا، على أنهم يمارسون «مذبحة» فيهم؟ وبدءاً من ميسلون؟ ليكون «صديقاً صدوقاً» لـ «مستعمر بلده» جرّاء اعتماد تعبير مستأف من وثيقة فرنسية.

في الجانب الثاني، حين يتحدث عن النهاية «الوخيمة» لسلالة الهفيركيين، من آل حاجو، وفي الوقت الذي يخطئ منذ البداية، أم يعتمد الخطأ: قتلاً في المعركة، أو جرّاء الثأر، دون تمحيص لما يقول عن تاريخ رموز هذه السلالة، منذ ما قبل البوتانيين، وحين حاربوا العثمانيين إلى جانب أميرهم البوتاني «أكان ذلك موتاً مخزياً أم مشرفاً، أم دون اعتبار؟»، ودون اعتبار للأوضاع التاريخية التي تعيشها القبائل أو العشائر الكردية، وكيف كانت دولة الباب العالي تحرّكهم في هذا الاتجاه أو ذاك، كما تتصرف بعشائره العربية، من خلال ولائها وموظفيها في دمشق وغيرها.

وفي الجانب الثالث، ما يكذب روايته التي يوردها كما هي كونها تتجاوب مع نزعته الكيدية من تاريخ كردي يتحدث بلسان حاجو الكردي الذي لا يستسيغه في تاريخه الرسمي، لأن الحد الأقصى مما أمكن قوله، ومن باب الترجيح هو أن والده حاجو الثاني قتل في ظروف غامضة، والأصح إجمالاً في معركة أهلية سنة 1896، كما رأينا.

وفي الجانب الرابع، وهنا تكمن مفارقة مضاعفة تجاه توصيف ما كان يقوم به بأنه في باب «أعمال الشقاوة» وهو توصيف مأخوذ من أرشيف العدو العثماني قبل كل شيء، وإن كان الوضع كذلك، فهذا يعني، قياساً على ذلك، أن كل ما قامت به المجموعات القبائلية العربية إزاء «الدخلاء» في مقام أعمال الشقاوة، وهي تتحدى شقاوة ولالة السلاطين العثمانيين وموظفيهم، وفسادهم؟! وفي السياق نفسه،

بالنسبة لسجنه، كما لو أنه سجن جرّاء هذه الأعمال، وقد هرب من السجن وواجه العثمانيين كما كان عليكي بتى في واقعة نصيبين وغيرها، وأنه جاء بعد مقتله هو الآخر في ظروف غامضة، حيث استغلّتها الدولة لمصلحتها لإرهاب الكرد، وكما هو معروف، فإن موت بتي/بطة، كان سنة 1919، وبالتالي فإن حاجو الثالث هذا من بعده، لم يستلم وثيقة/ورقة تعيينه من الوالي العثماني أو التركي، وهو يتحرك إما محارباً الدولة العثمانية، ومن ثم التركية، أو يهادن، بناء على مصلحة لا تكون على حسابه، كما حصل في واقعة «بياندور» بالذات، فكل طرف كان يبحث عما يهمه، في جدل الصراع بين كل من تركيا وفرنسا، ويظهر أن باروت نسي ما تعنيه «سوريا» له، وصلتها بفرنسا، وما آل إليه وضعها حينذاك وراهنأ، لينتقم باسم حاضر يصدمه، من ماض لا أظنه يفلح في تغييره أو تحويله وهو نزيل بطون الكتب والوثائق التي يستحيل عليه التلاعب معها كما حصل آنفاً !

ولو أنه تابع سردية حياة حاجو آغا، في علاقته بتركيا، والكماليين أنفسهم، ومن ثم بالفرنسيين، كما سنرى، وتنبّه إلى هذه الأخطاء التي يحرص كل متحل بالحد الأدنى من الذكاء على تجنبها، لأنها فاقعة ومخجلة بسهولة تبينها، لما اعتمد طريقة كتابة بالطريقة الأنفة الذكر، حيث لا يعود القارئ يعرف لصالح من يكتب: فرنسا، تركيا، إيديولوجيا دولته ؟

وان توقفنا عند ترتيب الأحداث التي كانت واقعة بياندور نتيجة لها، لرأينا خطأً خطاً، وهو يستعين بجكرخوين كثيراً وغيره، دون تدارك فخ الاقتباس والمنحى التاريخي، أو مدى دقته، للقول:

بياندور، مركز مستحدث من قبل فرنسا، وتنكيلاها بزعماء كرد في المنطقة ذكر دون السبب الحقيقي، كما رأينا، وقتل الأكراد للقائمقام العربي للمركز وهو مع الفرنسيين «وهو لم يأت على ذكره هكذا، ثم محاكمة مختار القرية وتحميله مسؤولية قتل القائمقام» ص 153.

وهذا غير صحيح تاريخياً، إنما قتل فيما بعد .

المشكل الأكبر أيضاً، أنه يظهر كما لو أن تنكيل فرنسا بأولئك تجاوب مع رغبات الأكراد وهو أنهم تمنوا، وهم بحقد هم عليهم، مجيء (يوم مناسب ليأخذوا بتأثرهم منهم. ص 153)، بينما في الكتاب، حيث الترجمة من الكردية إلى العربية

غير دقيقة لغوية، وناقصة، وحتى في الحالة هذه، فإن الذي حقد عليهم الأكراد هم الفرنسيون ممن تتكلموا بزعمائهم، كما وردت العبارة هكذا في سيرة جكرخوين، هكذا (جاءت فرنسا إلى الجزيرة مرة عام 1920، وأنشأت معسكرها في قرية «قيرو كر» وبدؤوا بالعنف والظلم، وقد أساءوا إلى بعض الزعماء الأكراد كثيراً، وكانوا يزرعونهم في التراب، وكان الأكراد يحقدون عليهم كثيراً، وكانوا يتمنون لو يأتي يوم مناسب ليأخذوا بثأرهم منهم. ص 118) .

باختصار، فإن الهجوم على المركز وقتل من فيه، ومن ثم ملاحقة روغان/روكان وقتله، كان على خلفية من الظلم الفرنسي والذين تعاونوا مع فرنسا، بدءاً بقاءمقام المركز العربي، وبعيداً عن أي دافع «وطني»، إنما هو ثأر أهلي غالباً. والخبط الجلي هو أن تقوم الحامية الفرنسية بقتل مختار القرية محمد عباس، على إثر هجوم العشائر الكردية والعربية على الحامية تلك... «ص 154»، إنما هو هجوم على إثر مقتل المختار. ضمناً يخطئ باروت في ترجمة اسم القرية «دوكر» بـ «تتين، بالكردية»، والصحيح كما هو معروف «تلان».

في السياق نفسه، فإن العفو المشروط عن سليمان عباس بتدخل من شيخ شمر الزور: مشعل باشا، وشيخ عشيرة طي نايف عند الضابط الفرنسي روغار: روكان «ص 154»، وخروج سليمان من هناك، هو الذي دفع بالآخر لطلب النجدة المذكورة، حيث انتقم حاجو آغا لمحمد عباس «ص 154».

وهنا أيضاً، غاب عن ذهن باروت مجدداً، قياساً على أسلوبه في الكتابة أن يتساءل عما كان يفعله كل من شيخ شمر الزور وطي عند الضابط الفرنسي محتل «أرضه»، أليس لوجود تداخل في العلاقات ذات الصبغة العشائرية، وليس لأن هناك أي انتماء من صفة «الوطنية» أو «القومية العربية» أو «الحزبية البعثية» التي تتقدم لسان حال باروت ؟

ولا بد أن الذي تعرض له باروت بخصوص بيان دور، أو عملية بيان دور واعتبارها (جزءاً من الصراع التركي- الفرنسي الذي اشتد على طول الحدود السورية- التركية... ص 156) .

ذلك صحيح، إنما ليس كما يتمنى باروت هذه المرة أيضاً، فعملية ترسيم الحدود كانت تتبع إرادة أهم دولتين عظميين حينذاك في المنطقة، وهما منتدبتان

عليها: انكلترا وفرنسا، وتبقى تركيا في الموقع الوسط بينهما من ناحية القوة، فهي وريثة امبراطورية مهزومة مثخنة الجراح، وتعيش وهم عظمتها وتسعى إلى التنفس برئتها، وهذا ما كان يرضي كلتا الدولتين، ليس حباً فيها، وإنما تقديرًا لمصالحهما، رغم الصراعات على الأرض، وبالمقابل، كان كل من العراق ومن سوريا وهم في غرفة التشريح السياسية للدولتين، يخضعان للقصص من هنا وهناك، وكيفية ترسيم الحدود السياسية حباً بمستقبل لا يغفل عن البصمة الامبريالية لهاتين الدولتين، بمقدار ما تعيش الدول الأربع والتي تقاسمت أرض الكرد والكرد ضمناً: إيران، العراق، تركيا وسوريا أوجاعاً في خاضعتها السياسية ونزف دماء على وقع هذا التقسيم، ولا بد أن الذي يحظى بالانتباه من رجل سياسة وباحث في التاريخ، هو ما يخص بنية (الخلاف الفرنسي - التركي الحدودي و«القضية الكردية»)⁽¹⁾.

خلاف حدودي، وليس مجرد حدود، وإنما ما تظهره الحدود على طرفيها، وما تحمله الحدود من أبعاد سياسية، حيث إنها تشكل أرشيفاً جغرافياً استعمارياً دولياً ومحلياً مفتوحاً وهو في طابعه التقسيمي والفاصل بين أمم وشعوب، وهنا، يكون الحديث عن الشعب الكردي، ونسبة كل طرف من مآثرها، ومن مكاسبها، ومن الإمكانيات المستقبلية، وما يكون عليه وضع الكرد في عراء هذه السياسات، وسبل تعبيرهم عن هويتهم الممثل فيها بإقرار دولي ومحلي موجه .

إنما، وقبل أن أنهي هذا البحث الفرعي، من المهم جداً لفت النظر إلى مقال الباحث الكردي، سليل آل حاجو، وهو الدكتور بنكي حاجو والمقيم في السويد، شأنه شأن العشرات من أفراد هذه العائلة هناك وفي دول أخرى، يشدد في مقاله على أمر في غاية الأهمية، وهو أن أي حديث عن الوطنية في غير محله، لأنه لم يكن هناك من نادى بها، أو وجود لها، حيث المنطقة كانت ممزقة، وفي الوقت الذي كانت العشائر العربية تتنافس فيما بينها في التعاون مع القوى الاستعمارية، فكيف يمكن أن تكون الوطنية «لصقة» خاصة بالكرد، وهم الذي تعرضوا لاستعمار مضاعف: من جهة الذين قسّموا جغرافيتهم وبعثروهم حدودياً، ومن قبل الذين سيطروا بإرادة استعمارية على الأجزاء المقسّمة، طبعاً، في كلام بنكي حاجو ما يبقينا في عالم من المفارقات، ومن ذلك، أن الوطنية مقررة في حالة كون الكرد

(1) هو عنوان فقرة فرعية لها دلالتها في كتاب جوردي غورغاس، المصدر المذكور، ص 66- 67 .

وحدهم معنيين بها، أي باعتبارهم يقاومون الاستعمار بدرجاته المختلفة، لأنهم ينشدون وحدة جغرافيتهم، سوى أن ذلك من المحال، إذا لا شيء مما تقدم إذاً.

ثمة تأس في مقال، وتعبير عن معاناة وهو يتوقف عند هذه النقطة وواقعة بياندر، وكيف أنا أخرجت من سياقها التاريخي والسياسي، ودون أن ينسى التأكيد على أنه يتكلم بلسانه وليس كممثل لأي من آل حاجو، وفي الوقت نفسه، فإن المتردد فيه هو شحنة مقدرة من السخط والغضب إزاء تقويلات وتحميلات مما لا وجود له وما لا يثبت تاريخه كذلك:

(قبل كل شيء أريد توضيح نقطة هامة وهي أنني عند كتابة هذا المقال لم أخبر أحداً من من أفراد عائلتي آل حاجو، ولم أطلب من أحد منهم العون أو المشورة، وبذلك أتحمّل كامل المسؤولية شخصياً عن محتوى هذا المقال.

ليس هناك شيء أصعب من أن تكتب عن الأقربين، وإنه عمل شاق لا يتصوره العقل. فقد يظن البعض أن هذا العمل هو نوع من النفخ في الذات وعبادة «الأنا» المرضية و البشعة والمموجة. إلا أنني اضطررت لذلك نظراً لما يجري من التجني على التاريخ وشخصه. وترددت كثيراً وتساءلت هل أترك ذلك للمستقبل وأنا تجاوزت الستين من العمر؟ وأخيراً كتبت.....أرجو حلمكم.

الموضوع يتعلق بالفترة الزمنية ما بين 1926 . 1940 وهي فترة حياة حاجو في جنوب خط الحدود الفاصل بين سوريا وتركيا، ذلك الخط الذي تم ترسيمه في العواصم الأوروبية كما هو معروف .

لقد كثر الحديث في السنة الأخيرة حول حوادث (بياندر) 1923، والموضوع هنا ليس قطعاً ذلك الجدل العقيم حول تاريخ تلك الحوادث وتفاصيلها، وإنما هو التطرق الى الآراء والتحليلات والنتائج التي بنيت على معركة (بياندر) والتي صدرت من عدة جهات - مع الاحترام لكل الآراء - والتي تقضي الى أن تلك المعركة كانت نتيجة للشعور ب«الوطنية السورية».

حادثة (بياندر) في عام 1923 بالنسبة لحاجو لم يكن الهدف منها محاربة الفرنسيين، وكذلك لم تهدف للدفاع عن الوطن السوري الذي لم يكن قد تشكل بعد، ولا عن «الوطنية السورية» التي لم تكن معروفة لدى العرب والكرد حينها،

وليس من حقنا أن نسجل بطولات مزيفة على أخواننا العرب الذين نشاركهم الوطن وكذلك الوطنية السورية حالياً بأننا حاربنا الإستعمار الفرنسي.

في عام 1926 كانت عائلة حاجو مهددة بالتهجير الى المناطق التركية في الأناضول [انظر كتاب الشاعر جكرخوين النسخة الكردية ص156] لتتشتت وتندثر. الفرنسيون كانوا في جنوب خط الحدود. هذه الحدود الغربية تتشكل قسم كبير منها من الخط الحديدي للقطار والذي شيده الألمان في العهد العثماني وكان عمر هذا الخط لا يتجاوز عشر سنوات حينها. أين هو الوطن السوري وأين هي الوطنية السورية هنا عندما يصبح خط حديدي في أراضي زراعية مسطحة ليس فيها أية تضاريس حدوداً لدولة؟ لقد كنا سكان المنطقة جميعاً عبارة عن متفرجين لما كان يقوم به الكبار والاقوياء من الأجانب.

حاجو كانت له إتصالات مع الإنكليز في العراق للجوء - ليس فقط لعائلته بل لكل أفراد عشيرة هفيكا - إليها لتفادي خطر الفرنسيين، إلا أن شروط الإنكليز كانت مستحيلة ومن بينها إلقاء السلاح على الحدود عند دخول الأراضي العراقية، والشرط الآخر هو إسكانهم في المناطق العربية الى الجنوب من بغداد، وكان طلب حاجو هو الإقامة في المناطق الكردية، وكانت له إتصالات سابقة مع بعض الزعماء الكرد في العراق بهذا الصدد. لذلك إتخذ حاجو القرار الصعب وهو الإنتقال الى منطقة تواجد الفرنسيين - على الرغم من أنه كان مطلوباً من الفرنسيين بسبب معركة (بياندور) وكان هناك خطر على حياته - وفضل ذلك على الكيد التركي المبيت للتهجير الى الأناضول. من ناحية الجد حاجو فإنه كان يطمح الى دولة كردية مستقلة بالدرجة الأولى. في تلك الفترة لم تكن هناك وجود لأية دولة سورية لها حدود حسب ما أفضى به المؤرخ القدير الدكتور خالد عيسى على فضائية (روج تي في) الكردية - معتمداً في ذلك على وثائق الخارجية الفرنسية حينها - فإن الحدود السورية الحالية أخذت شكلها الرسمي والحالي لأول مرة في 1933. وحتى نكون واقعيين فإن العرب السوريين لم تكن «الوطنية السورية» قد نضجت لديهم بعد. في معركة (بياندور) نفسها كان العرب يشكلون العمود الفقري للقوات الفرنسية، وقد قتل من الهجانة فقط حينها خمسة عشرة فرداً من أصل تسعين فرداً كانوا ضمن القوات الفرنسية [الوثائق الفرنسية. د. خالد عيسى]. أما النخبة

العربية فكان طموحها دولة عربية كبيرة وواحدة وكان ذلك حقاً طبيعياً لهم، ولم تكن الوطنية السورية موضوع الحديث قد تبلورت لديهم.

إذاً كيف يكون الكرد السوريون هم من إكتشفوا «الوطنية السورية» في حين أن العرب وخاصة العشائر العربية في الجزيرة لم تكن تعرف عنها شيئاً. بل كانت بعض تلك العشائر تقف في صف فرنسا في صراعها على النفوذ مع جيرانها من أبناء جلدتهم، وهذا ليس بسر، ونفس الصراع كان دائراً بين العشائر الكردية أيضاً .

كل المنطقة كانت في حالة عدم إستقرار والحدود كانت في حالة مد وجزر وكل شعب كان يطمح الى الإستقلال عن الدولة العثمانية المنهارة ويحاول توسيع رقعة أرضه.

لماذا إذن نستصغر من شأن شعبنا الكردي ونلصق به بعض المواقف التي لم يكن يطمح إليها في يوم من الأيام، أي عدم سعيه الى وطن مستقل كباقي الشعوب؟ هل نحن دونيون الى هذه الدرجة في إننا لم نكن نريد وطنناً مستقلاً ؟ في إحدى الوثائق التي نشرها د.خالد عيسى والعائدة الى إدارة المخابرات الفرنسية في دير الزور والمؤرخة في 24 شباط 1930 يأتي ما يلي: «في 6 شباط قدم حاجو آغا الى ضابط إدارة القضاء مضبطة محررة باللغة الكردية، ومترجمة الى العربية، يطلب فيها من السيد المفوض السامي أن يأخذ في الإعتبار منطقة الجزيرة العليا الكردية، وأن يدرس إقامة حكم ذاتي من أجلها».

نعم إن حاجو آغا في تلك الظروف الموصوفة أعلاه كان طموحه هو اقامة دولة كردية مستقلة، وقد سعى الى ذلك بكل ما كان يملك من طاقة. لكنه لم يفلح في توحيد كلمة الكرد من جهة، ومن جهة أخرى منعتهم الظروف الدولية القاهرة. وكان حاجو قد تقدم أيضاً بطلب الى عصبة الأمم يطالب فيها بدولة كردية، ولولا الظروف الدولية التي واكبت الحرب العالمية الثانية واكتساح المانيا لفرنسا وانقسام الفرنسيين على بعضهم وانتقال ذلك الى مستعمراتها، والأحوال التي حلت بالأوروبيين لكان طلب حاجو قيد الدرس في عصبة الأمم حيث كانت فرنسا قد أعطت موافقتها المبدئية على الطلب حين تقديمه. في كتاب الشاعر جكرخوين، النسخة العربية ص292 نقرأ ما يلي: «فيما بعد وقع الأكراد والمسيحيون على

كتاب كي يرسلوه الى إجتماع الأمم[يقصد عصبة الأمم]بعدهما قرأتها قلت للأغا: إنها جيدة لكن يلزمها شيء مهم باعتقادي وهو أنكم لم تبينوا لغة هذه الدولة، يجب أن تكتبوا أن لغة الدولة هي الكردية كي لا نخدع في المستقبل....حين جاء رد الرسالتين - من عصبة الأمم - كانت باسم حاجو آغا ومضمونها يقول«لقد وصلتنا مطالبيكم وندرسها الآن، قريباً سوف تتحقق».

وقد لا يعلم الكثيرون أن حصة اللغة الكردية كانت موجودة في مدرسة الحسكة والكتاب المدرسي المقرر كان بالحروف الكردية اللاتينية وتمت الدراسة به حتى وفاة حاجو عام 1940. هل كان كل طموح الإنسان الكردي[بل أي إنسان من أية قومية أخرى] هو أن يحصل على هوية مواطنة في أية دولة ما في المنطقة؟ لونجحت أية ثورة من تلك الثورات الكردية العديدة التي حدثت في تركيا - مثلاً ثورة الشيخ سعيد 1925 - لكانت الدولة الكردية موجودة الآن ... (1).

تلك وجهة نظره، وتلك فكرة قابلة للنقاش، لأن ثمة ما يمكن تعزيزه من وقائع على أن الماضي بالقول التاريخي إلى أن الوطنية كمفهوم مطروح راهناً، دون وجود ما يدعمه، تحويل للتاريخ، وافتتان بالمطبب الإيديولوجي إجمالاً، إلى جانب أن الباحث، وهو بادي الضيق جرّاء هذه «التطاولات» على تاريخ متوهّم، والدفاع الملحوظ عن فترة زمنية صاخبة، تشاركت في تكوينها وتلوينها قوى سياسية متفاوتة، وحاجو بدوره كان ساعياً إلى تعزيز موقعه الكردي بالمقابل .

كما نوّهت سالفاً، فإن الحديث عن بيان دور، هو أشبه بالحديث بلغم أرضي وفي منطقة حساسة، أي له وفيه أكثر من جانب سياسي، يستقطر التاريخ وراءه، بحيث يمكن تصور لعبة أخرى هنا، كما رأينا نماذج ألعاب كهذه سابقاً، سوى أن لكل لعبة تصميمًا يتناسب وجغرافية الرقعة الجغرافية والمستهدف منها، ومن هم الذين يتكفلون بها، ومن هم الذين يشكلون قرابين لها بالمقابل، وإلا لما استحق هذا الذي أشير إليه جغرافياً كل هذا الاهتمام وهذا التداول في أقاويل شتى، على أكثر من منعطف طرق .

ولا بد أن مضي قرابة قرن على على الواقعة/ الحادثة/ المعركة/ الثورة/ المذبحة....الخ، والتي تظهر مجتمعة مدى قابليتها لما لا نهاية من التفسير

(1) حاجو، د. بنكي: حاجو كان يريد إقامة دولة كردية، موقع«كلكاش»، 31 أيار، 2009 .

والتقويّلات، لا بد أن ذلك يضعنا في صورة تاريخ لم يوضع له لا خط بداية ولا خط نهاية بالمفهوم الدقيق، في جغرافيا تتعدى حدود ذاتها ومسمياتها، من قبل جماعات بشرية كبرى مصدومة بالذين يوجّهونها، أو يتحكمون بمصائرهم، أو يفرّقون ما بينها، وتستهلك طاقاتها على مذبح شهوات الذين رسموا سياسات ذات مسحة دولية تعتبر المنطقة داخلة في لعبتها المدمّرية، والذين لا بد أنهم اسمرأوا تلك السياسات فخضعوا لغوايتها وأصبحوا وكلاء لها، والذين يحاولون توقيف هذه اللعبة التي تعتمدها السياسات تلك، وهي تستنزف الأرض ومن عليها وما فيها من إمكانات، ولا بد أن الكرد هم في عداد هذه الشعوب، وربما في مقدمتها، لأنها حتى اللحظة لم تتم في التاريخ إلا وعانت على مدار نهارها وليلها من كوابيسه .

إيلام أهليّ :

الأكثر من ذلك، حين أتلّمس الطابع الشقاقي فيها، على طريقة «الأقربون أولى بإيلام بعضهم بعضاً»، وليس بالمعروف»، حال من يعيد التاريخ من زاوية تأكيد تصارعات الكرد، حتى لو بإخفاء وثيقة دون سواها، أو تجاهل الوارد في وثيقة عما جرى، وفيها ذكر لحاجو...الخ.

هنا، لا أراني ببعيد عما تحدثت فيه وعنه لا جغرافياً ولا تاريخياً، لا أراني بمبالغ فيما أثرته بصدد رسم خطوط أو تعقب حركتها وهي تحمل ظلال حاجو آغا، أو الذين كانوا معه، ومن جاؤوا بعده .

حسبي أنني تمكنت، وكما تبين لي أن حاجو آغا، وهو يثير كل هذا «الضجيج» التاريخي، أو هذا التنوع من المواقف: مع، ضد، بين بين، لا هذا ولا ذاك، ومن قبل كتاب ينتمون إلى السنة شتى، وبالمقابل إلى ثقافات بينها غاية التباعد وحتى التنافر أيضاً، لا بد أنه يشغل مكانة معتبرة في التاريخ، من قبل من يعترف به شخصية تاريخية، أو أقل من ذلك، ومن قبل يتجاهل كل حضور له، سوى أن تتبع أثر كتابته أو أحاديثه يعرف بحضوره في متن نصه أو كلامه استقراءً أو استنتاجاً .

ربما بالطريقة هذه وهي متشعبة، لم يكن حاجو صانع تاريخ، هكذا دون تحديد، لكنه، استناداً إلى محفوظات التاريخ كتابة ووثائق وأقاويل عنه، يكون قد اكتسب صفة الشخصية التاريخية بجلاء، وهذه يكون فيها من التاريخ الكثير، إنما - وهذا ما يجب مراعاته - يكون حاجو آغا مرجعاً ما، وركناً ما في جداره .

وفي غمرة صراع الوثائق، والتعارض الكبير بين حضور حاجو في كم كبير من أدبيات «بيان دور» حتى أكثرها خصومة سياسية منه، ونفي أي إشارة إليه، فيما رأينا «كما في حال نماذج الأكاديمي رشو عباس»، أجدني إزاء إزاحات تاريخية للاسم، دون المقدرة على إخفاء أثره سلباً أو إيجاباً طبعاً، وهو ما ذكرنا بتعليق صادم لأحدهم «وهو باحث معروف»، إزاء الحضور اللافت لحاجو آغا في سجلات الفترة تلك: ما الذي «فعله» ليشار إليه بهذا الشكل من التكتيف ؟

ربما كان السؤال الصحيح: هل يعقل أن يكون وراء تكرار اسم حاجو هذا في أدبيات الفترة تلك، أمر آخر، وهو اعتباره ذا مكانة تاريخية يستحيل تجاهلها، وهي تتعزز أكثر بالتقادم الزمني؟

حاجو آغا ومغص «ثورة» الشيخ سعيد بيران

«مهما كان الشكل الفلسفي الذي نضفيه على المبرر، فإننا نجد أنفسنا مرغمين على القبول به، حيث إن الكل يتصرف على افتراض وجود جرعة حرية في داخله، وكلنا لا نتوانى عن إطلاق الأحكام على تصرفات غيرنا.»

تزيفيتان تودوروف: الأمل والذاكرة «خلاصة القرن العشرين»، ص 186 .

الرأس الرخو والرقبة الصلبة :

من المؤكد أنني فيما لو استعرضت ما كتب عن الشيخ سعيد محمود علي بالوي النقشبندي «1865-1925» للزممتي صحائف تترى، أي قائمة طويلة جداً بأسماء المؤلفات والمقالات التي تناولته من زوايا عدة، وبلغات مختلفة، وهذا، إن تم ولو بشكل محدود، فلا بد أنه سيمارس تحريفاً في بنية بحثي، يقصيني عن محتواه الدقيق والذي يشد إليه أكثر من جهة جغرافية، وأكثر من حقبة تاريخية، جرّاء هذا الاختلاف اللافت حوله، كما لو أننا إزاء رأس لا يستقيم، وهو مشهود له برخاوته، ورقبة صلبة بفعل فاعل مجهول، ولهذا، سأحرص على إبراز ما يصلني عبر «ثورته» بموضوعي هنا، وأعني به تحديداً، ما يمكن أن يقال حول علاقة حاجو آغا بها من خلاله، أو به من خلالها، والذي بات في حكم التاريخ، ولكنه ليس كل التاريخ، طالما أن هناك ما يضاف إليه، ويصوب منه، أو يستدعى للمناقشة والمحاورة في آن، وربما أرى في إيراد أمثلة لها صلة مباشرة بما أشتغل عليه، مجدياً، ومحضراً على توسيع نطاق البحث، وهي أمثلة لا يمكن النظر إليها باعتبارها متساوية في محتواها الفكري أو البحثي التاريخي، إنما على أنها مختلفة عن بعضها بعضاً، لا بل وقد ينعدم التشابه بين أي منها وسواه في نقاط دون أخرى، وهو ما يمكننا من أعمال الذهن بصورة أكثر ديناميكية.

إن أي سؤال عن التاريخ وفيه، بصدد ما يجب أن يكون عليه هذا التاريخ، أو لماذا لم يكن بهذه الصيغة أو تلك، أو كيف لا يكون بهذه الصيغة وليس بصيغة أخرى سواها، يندرج في دائرة السياسة، وليس من طريقة تدوين للتاريخ، إلا على أرضية سياسية، حتى وإن لم يكن المؤرخ على علم بذلك، أو لا يدور في خلد سؤال

من هذا النوع، سوى أنه فيما يقوم به، ومن خلال اتباع أسلوب معين في الكتابة التاريخية، إنما يعتمد وجهة نظر معينة، يكون بها سياسياً بطريقة ما، وإن أغفل عن نقطة أو أكثر بغير قصد، كما يتردد أحياناً، سوى أن لذلك حساباً واحتساباً، ولا بد أن الذين يتوغلون إلى داخل التاريخ العميق ويجعلون ظاهره باطنه وبالعكس أحياناً، إنما جواباً على سؤال طرحوه علناً أو ضمّنوه سير بحثهم، أو كان عالقاً في ذهنه، حيث إن السؤال من طبعه أن ينوع في التفكير، ويحفّز على النظر في أكثر من اتجاه، بمقدار ما أنه يقلق التاريخ نفسه وهو نزيل جغرافيا معينة، بطريقة معينة، وما هو دائر هنا، وبكثافة، إنما هو ثقل التاريخ، وإن أردت الدقة في التعبير، إنما هو سوء استخدام التاريخ في تغطية ما هو جغرافياً ليضاء من الداخل، أو يكون أكثر توازناً.

وتاريخ الشيخ سعيد بيران، أو ثورته لدى نسبة غالبية من الكتاب الكرد، بغض النظر عن طابعها، ما أكثر ما يحمل ويوضع على عتبة السياسة التي تختزل التاريخ نفسه، جهة المحتوى، والذين شاركوا فيها، والذين لم يشاركوا فيها، وذلك تحت تأثير من الحماس الوجداني، ولعله نفسي عميق، وربما لتصفية حسابات سياسية بالمقابل.

أي حين نجد أنفسنا إزاء حقيقة قائمة، تتمثل في أن الاسم يسبق المسمى، تحت وطأة الشعور النفسي المنتفض داخلياً، أي يتأخر سؤال الاسم: ما يكون، وكيف يكون، وماذا يكون، وإلى أين يمضي...؟ الخ.

لا بد أن هذه النماذج تقوم على أسئلة خاصة، أو تقدّر من خلال آلية عملها وطبيعة تعاملها مع الحدث.

بروينسن كما تعرفنا إليه في صفحات سابقة، يقدم هذا المشهد الموجز والمفيد، وفيه ما يخص موقع حاجو آغا:

(في العام 1925، كانت ثورة قومية كردية قد اندلعت بقيادة الشيخ سعيد. وكان معظم المشاركين فيها ينتمون إلى القبائل الموجودة إلى الشمال الشرقي من ديار بكر. فحاولت الحكومة التركية تطبيق استراتيجيتها القديمة القاضية بإرسال قبائل أخرى لمجابهة المتمردين. ومن بين تلك القبائل التي تلقت أوامر بالزحف على ديار بكر لمقاتلة الثائرين قبيلة هفركان، التي كانت قد أخضعت رسمياً عن طريق الغزو في العام 1921 أي بعد مرور عام ونصف العام على وفاة عليكي بطي،

وعدت آنذاك قبيلة «إنقاذية». فتوجه حاجو ورجاله طائعين باتجاه ديار بكر، تحدوهم الرغبة في عدم الخوض، بعد، في مغامرة المواجهة مع الحكومة، لكنهم حرصوا على البقاء بعيداً عن المتمردين. وفي أواخر تلك السنة، وبعد أن حلت الهزيمة بالجزء الرئيسي من الثائرين على يد الجيش التركي، استطاعوا العودة إلى ديارهم دون أن يلحقهم عار خيانة القضية الكردية. ومن المؤكد أن حاجو كان يمتلك خياراً بديلاً: فقد كان بإمكانه أن ينضم إلى الثورة، التي كان من المحتمل أن يكون لديه علم سابق بها «بل ربما يكون قد دعي للاشتراك بها».

لكن التخطيط للثورة وقيادتها كانا بيد أناس آخرين، ولم يكن قادراً، في أحسن الأحوال، إلا على لعب دور ثانوي فيها، وأظن أن هذا هو السبب الذي جعله يقرر التريث.⁽¹⁾

من المؤكد، بداية، أن قارئ توصيف بروينسن والمعروف بإسهاماته الكردولوجية، لا بد أن يلاحظ نقطة رئيسة فيه، وهي في أنها «ثورة قومية كردية»، والتي تمحور حولها أفكاراً من نوع خاص، حيث إن الثورة القومية تعني ثورة شعب في المكان والزمان، رغم أن بروينسن يحدد رقعتها من قبل المشاركين فيها: جهة جغرافية معينة «الشمال الشرقي من ديار بكر»، ويعني ذلك أنها لم تكن عامة، وأن صفة «القومية» تتطلب حصرًا دقيقاً في المعنى، وتحديدًا للمفهوم، مثل «ماذا تعني القومية» هنا؟ لا بد أن الجواب سهل: الكرد هم المعنيون بها، ولكن وفق أي معيار وكيف. وتالياً، نجد كيف أن هفيران، كقبيلة، وضعت تحت الأضواء، وتعرضها لمساءلة تاريخية، وهي، كما يظهر، بين مطرقة الدولة التركية التي طالبت حاجو بمحاربة «المتمردين» وما في ذلك من تحدٍ للإرادة الكردية، لا بل وخيانة للكردايي، وسندان القائمين بـ «الثورة»، وأضعها بين مزدوجتين، من باب التحفظ، واستناداً إلى ما تقدم، والطلب إلى حاجو آغا بأن يقوم من جهته هو الآخر بدوره «القومي»، وما في ذلك من صعوبة مهمة، جرّاء الوضع غير المستقر على الأرض.

وما ظهر، هو أنه حاول من ناحية، عدم الانخراط في «الثورة» ومن ناحية ثانية، وبالمقابل، لم يدخل في حرب عليها.

(1) بروينسن، مارتن فان: الآغا والشيخ والدولة....، المصدر المذكور، ج1، ص236.

أجدني هنا متحمساً لما أكد عليه عالم الاجتماع الألماني نوربرت إلياس بقوله (لنكن صريحين ونعترف أن ما ينقصنا هو نماذج تفكير، بالإضافة إلى رؤية شاملة نستطيع من خلالها أن نوائم بين تصوراتنا لذواتنا كأشخاص أفراد وكأشخاص في مجتمع، ونجعل هذه التصورات في تناغم أفضل).⁽¹⁾

مقصد القول أن ما يجري ليس مرئياً، ولا مقررّاً بالتفاصيل، إنما ما هو متناثر هنا وهناك، ومن زوايا محددة، عدا عن صلة الاسم المفرد بالمجتمع، وما يكونه المفهوم الجمعي جهة فاعلية الإقناع أو الأداء الوظيفي للمعنى، وكذلك جهة الممكن اعتباره بـ «توكيل الحقيقة»، واعتبارها مشكّلة حصراً عموماً في هذا المفهوم، ليكون للاسم المفرد ما لا يريده، أو ما لا يتمنى سماعه: العصيان، أو التحجّي جانباً، ومدى سلبية هذا الانشقاق أو الابتعاد عن هذا «الجمع» القائم.

هل كان حاجو آغا فيما أقدم عليه، ولم يستجب لهذا أو ذاك؟ رغم أن هناك من يشير إلى أنه تجاوب مع الأتراك، وأكثر من يرى فيه هذا التركيز هو- ربما- أكثر من شدد على آل حاجو، وحاجو آغا بالذات كموقف، وإلى درجة الشخصية في بعض الحالات، وفي الوقت الذي يعزّز بروينسن موقفاً يدعو إلى التفاوض باسم الحقيقة، أي في عدم «تجريم» حاجو وقوته، بل البحث عن مبررات معينة، ولا تمنحه من حيث المبدأ، في ضوء المتردد هنا وهنا «براءة ذمة / غير محكوم» بصورة كاملة، بمعنى أن حاجو آغا يظل في واقع الأمر في موقع المساءلة عن تقصير، وهو أنه كان يمتلك قوة عديدة، وكان في إمكانه التأثير في مجرى الحرب الدائرة، وعدم مشاركته، غير في هذا المجرى لصالح الدولة.

ربما كان ذلك وارداً بالتأكيد، ولكن حساب المتوقّع- ربما - ليس كحساب الواقع إن كان هناك من يدقق في ملابساته، على الأقل جهة إبقاء السؤال عالماً، وعدم الزج بحاجو آغا في دائرة الشبهة بأنه تجنب خوض الحرب لغاية في نفسه.

نقطة مجهرية مكبرة :

في دراسته الموسعة عن ثورة الشيخ سعيد، يخبرنا الباحث الأميركي أولسون عن كم هائل من ملابساتها، رغم أنه يظهر من أشد المدافعين عنها، ذلك من حيث

(1) إلياس، نوربرت: مجتمع الأفراد، ترجمة: هاني صالح، دار الحوار، اللاذقية، ط1، 2014، ص 104.

المبدأ وحتى التعاطف، لكن محتوى دراسته يفصح عن خلل في التحليل، جرّاء الانقسام في الصف الكردي، وما هو مهم هنا بالمقابل، أي باعتبار أن ليس كل من يدعو إلى ما يشبه الثورة، أو أي مسعى من نمطها: انتفاضة، حركة تمرد، يكون في الموقع الصحيح، ويستحق تجاوباً معه في الحال، حيث إن أكثر من نصف كتابه، وهو أقل من «350 صفحة فعلية»، أي قرابة «مائتي صفحة فعلية»، محاولة بانورامية لإضاءة الخارطة السياسية للمنطقة عموماً وتركيا خصوصاً، وتلك القوى الفاعلة فيها: فرنسا، تركيا، روسيا واليونان... الخ، وكل دولة كانت تحاول التأثير في اللعبة وفق مصالحها، ليكون الكرد في عراء سياساتها، وأولسون في تتبعه لحثثيات هذه الثورة، ومن موقع التعاطف، حتى لو كان هناك خطأ، ومن قبل رجل في الستين من عمره، أي الشيخ سعيد بيران، ينوه إلى الطابع الانقسامي الكردي، لا بل والمذهبي: سنّية أغلب المشاركين في الثورة، ولهذا كان حضور العلويين قليلاً فيها جداً، جرّاء انتقامات سابقة، وما يعنيه هذا الانقسام من قبلية من نوع آخر.

في مشهد مؤثر ولافت، يتحدث أولسن عن الذين دخلوا مدينة العزيز «الازيغ» وما جرى إثرها، يمكن تقريب محتواه، بمقدار ما يكون تعريفاً بطبيعة الذين قاموا بالعمل، وبالثورة ولو في نسبة منهم انطلاقاً من تقرير يصف الجاري (وقد ذكر التقرير أنه بينما كان الثوار يحاصرون الأزيغ في 23 مارس/ آذار، حاول موظفو البنك حماية النقود في المصرف الملكي العثماني. وفي 24 مارس: آذار وُجد الوالي في سيارة مرافقة بخمسة وعشرين من الدرك «الجندرم» الجبلين، وبعد ذلك، مباشرة دخل ثلاثمئة كردي المدينة، وشرعوا يسلبون وينهبون دار الحكومة، ودار التجارة، ودائرة العدل «القضاء»، وفتح السجن، وقام السجناء بإرشاد الثوار إلى بيوت الموظفين والأغنيا، فنُهب، وإن كثيراً من الحمّالين وحملة السواطير «الذعران» في المدينة- تقريباً معظمهم من الكرد- انضموا إلى النهّابين⁽¹⁾.

أولسون، فيما أضاءه تاريخياً، يقلق قارئه في إيراد الأمر ونقيضه، ولا يحسم، فعلى سبيل المثال، ينوه إلى أهمية تقييم بروينسن للموضوع وقوله (الهدف الجوهري للشيخ سعيد ولقادة جمعية آزادي هو تأسيس كردستان مستقلة)، ويقول بعد ذلك مباشرة :

(1) أولسون، روبرت: تاريخ الكفاح القومي الكردي... المصدر المذكور، ص 237.

(فالشّيح سعيد هونموذج للرجل القومي المتحمس والمؤمن الملتزم في آن واحد...)، ويقول في صفحة أخرى (إن ثورة الشّيح سعيد كانت قبلية، وإن نسبة عدد القبليين الرحالة الذين شاركوا في الثورة كانت أعلى بكثير من نسبتهم في الثورة العراقية والثورة الجانكالية...)، ولاحقاً (إن الثورة لم تُظهر كثيراً من التعاون العشائري مع سكان المدن، وإن ديار بكر ذات الأغلبية الكردية لم تبادر إلى مساعدة الثوار، كما أن عامة الناس في الآزغ استسلموا في البداية دون قتال، إنهم وقفوا ضد الثوار حينما أفرطوا في النهب والسلب...)، وفيما بعد يقول أيضاً، وربما كخلاصة (إذاً إن ثورة الشّيح سعيد هي نموذج للحرب القومية التي تلت الحرب العالمية الأولى، وإن ضعفها كان متوقعاً، فالمنافسات القبلية، والاختلافات السّنية- الشيعية...أسهمت في إضعاف فرص نجاح الثورة...)، ويقول لاحقاً (إن ثورة الشّيح سعيد تمثّل القومية البدائية التي ووجهت بقومية تركية قوية كانت قد تمّت تعبئتها طوال الثلاثين سنة الماضية...) ⁽¹⁾...الخ.

هذه المقتطفات المتلاحقة والتي تشكّل تقييمات عريضة وواضحة المضامين، لا أظنها بقادرة على تقديم فكرة منسجمة من داخلها، أو التوحد في كيان فكرة تريحنها، بصدد تاريخ لعله يفتقر إلى اسمه الدقيق، كما هو الوضع بالنسبة إلى إطلاق اسم «الثورة» لأن هناك من يقول أن لا بد من ثورة، وقبل القيام بها، وأن أولسون فيما قام به، لا يخفي روعة العاطفة، سوى أنه يتقدم بعقل غير موحد في رؤيته، كما في الأمثلة التي أوردناها وهي تتعارض مع بعضها بعضاً، كما في مثال يتعلق بعمليات السلب والنهب، والذين قاموا بها، ومدى قرابتهم بمفهوم الثورة، وأين تكون الثورة وإعرابها الأخلاقي، ومن أي مصدر جرت تغطية وقائعها.

إزاء ذلك، لا أظن أن المتعلق بحاجو آغا، وفكره عن الثورة، أو القومية الكردية وقتذاك، أو الاندماج بها، يمكن أن يصار إلى إقراره باعتباره مداناً، أو قابلاً لأن ترسم حوله دائرة، تبقيه نهب أسئلة عما قصر فيه، وذلك بالتناظر مع ما كان يجري على الأرض، حيث إن كثيرين نهبوا، وتراجعوا وبرز الشّيح سعيد قبل غيره شهيد «ثورته» الخاصة، وفي الوقت الذي لا إشارة أبداً إلى هفيركان أو حاجو، وهو ما يدعو إلى التساؤل، ولماذا أغفل هذه الإشارة.

(1) المصدر نفسه، ص322-324-325-326.

لنتوقف عند مثال آخر، وهو يخص الباحث اليوناني جوردي غورغاس، كيف يقيم موضوع الشيخ سعيد؟

لا شك أنه أكثر وضوحاً، كأني به استفاد من كتابات بروينسن أو سواه حول ما تقدم، حيث يشير إلى مدى قرب حاجو آغا من السلطة الكمالية، ودون تجاهل صفة مستخلصة من قوله: مكر حاجو آغا، ومحاولته تجنب القتال، ليسلم مما توقعه كما يظهر، وهو الذي جرب جبروت الدولة كما يظهر وطغيانها، واتهام كرده بعدم المشاركة في ثورة سعيد بيروان، لكن، وكما يظهر مجدداً، ليس هناك ما يطمأن عليه بأنه في منجى من سؤال التقصير إجمالاً (عند انطلاق انتفاضة الشيخ سعيد في شمال ديار بكر عام 1925 لجأت الحكومة التركية لطلب العون من الهفركان لقمع الانتفاضة. وكان على حاجو إظهار حسن النية لارتباطه بالنظام الكمالي من خلال التحالفات التي سمحت له باستعادة زعامة الاتحاد القبلي. فتوجه، إلى ديار بكر مع حرصه على تحاشي صدام حقيقي مع المنتفضين، أو مع قبائل أخرى معادية لمصطفى كمال. كان يمكنه، بالتأكيد، الالتحاق بالمنتفضين وفتح جبهة في الجنوب الشرقي من كردستان التركية ضد الحكومة التي ظهرت مؤشرات عن عدائها للعالم القبلي الكردي. إلا أن حاجو فضل البقاء على ولائه، ولم ينتفض على مصطفى كمال إلا بعد عدة أشهر. ويمكن رغم ذلك، أن نجد للسلوك المتناقض لزعيم الهفركان بعض التفسيرات.

أثار الموقف الملتبس لحاجو خلال انتفاضة الشيخ سعيد ارتياب الحكومة التركية التي قررت القطيعة معه. وهو في الواقع صار أقل ضرورة بعد فرض «الأمن» على كردستان التركية. وإضافة إلى ذلك انحازت أنقرة إلى الكتل المعادية لحاجو، وبهذا بدأ صراع جديد للحصول على السلطة في اتحاد الهفركان. وعندما قرر النظام التركي إرسال فوجين من الجيش لإسناد خصوم حاجو، لجأ هذا الأخير إلى التمرد في أواسط آذار/ مارس 1926، وهاجم المواقع التركية الممتدة على خط نصيبين- مصطفىوية⁽¹⁾.

غورغاس يستند فيما يذهب إليه من تصورات وأفكار وتقييم إلى تلك المرويات المتعلقة بحاجو آغا والتي تحصره في زاوية التاريخ الضيقة، حيث تدفع به

(1) غورغاس، جوردي: الحركة الكردية التركية في المنفى، ص 82.

صوب السلطة الكمالية، وربما كان التحليل قليلاً لديه في هذه النقطة، إلى جانب تصور آخر، وهو تأويلي، ومن باب الافتراض، أن يونانيته لها تأثير في هذا التوجه بصدد التشديد على النظام التركي أو الدولة التركية وموقفها من اليونان، وهو تاريخي قديم، حيث إنه لا يظهر «تعاطفاً» مع زعيم هفيركان، بمقدار ما يسمي تلك البراغماتيكية القبلية التي تبقي لها «قبلة» تقيم ناحيتها «صلاتها» في اتصالها بمصلحتها الخاصة.

لعل الفرصة مؤاتية هنا، أو الآن، لأن نتوقف عند جكرخوين وأهمية ما قاله، أو رواه وأفصح عنه بالتالي فيما تقدم.

غير أن هناك ما يمكن قوله بداية إزاء ما تم وحتى ما سيتم التعرض تالياً، وفي أكثر من موقع وواقعة، وهو أنني حين أتحدث عن جكرخوين، يخيل إلي أن مجمل ما تفوه به جكرخوين يقدر في لحظات سخط لا علاقة حرفية لها بمنطق العقل التاريخي، في موقفه من حاجو آغا، وهو في مجمله تشهيري، أغلب المعتبرين «رجعيين: إقطاعيين» بصورة رئيسة، تشهير وجد طريقه ليس إلى أسنة العامة والخاصة فحسب، إنما الأهم، هو أن كتاباً لا يعرفون الكردية إلا من خلال المكتوب عنها، باعتباره تأريخاً للكرد، تلقفوا هذه الكلمات الجكرخوينية، وجعلوها خميرة تصوراتهم غالباً، لا بل جعلوا منها منطلقاً لمواقفهم، وتقييماً رئيساً لعموم آل حاجو غالباً أيضاً.

واقعاً، ما مدى دقة جكرخوين في الموقف من الشيخ سعيد وثورته، وما موقعه فيها ؟

في البداية يباغتنا، أو هكذا يبدو لي، بما يعرض تقييمه لما هو ساخط عليه للتناقض، وهو يتعقب الذين كانوا مع أو ضد الثورة، إذ يبرزون في روايته وكأنهم سواء لحظة التقابل بين الحالتين، حين يقول (وعندما يتحدث رجال الثورة فيما بعد عنها، لم نكن نملك إلا الأهداف الدينية، أما الكرد والكردايتية فكانا شبه مغيبين، وإن الرجال الذين التجأوا إلى سورية أثبتوا أنهم كانوا أعداء الشعب، كانوا يعملون على نهب وسلب شعبهم، والشعب الكردي كان يريد الخلاص من ظلم رجال الثورة....ويكره عودة الأغاتية من جديد، وقد عمل الجنود الأتراك على حماية الناس من الثوار أحياناً).

فأمثال حاجو آغا وجميل باشا الذين كانوا يطالبون بالزعامة كانوا ينهبون ويسلبون الشعب باسم الوطنية والكردايتية، وفي حفلات المجون والعريضة كانوا يرفعون نخب الكرد وكردستان قائلين: «يعيش الكرد وكردستان...» ص 177.

لم يكن في الثورة عسكري متعلم، كلهم كانوا شيوخ وبكوات وآغوات... ص 177... أمين أحمد الذي كان حليفاً للأتراك، لكنه ما إن قدم إلى سوريا حتى أصبح أحد أعضاء جمعية «خوييون»، وكذلك «حاجو آغا»، كما أن عائلة «جميل باشا» كان بعضهم حلفاء للأتراك، وما إن أصبحوا في سوريا حتى كانوا من الأكراد الوطنيين. إن أولاد «حاجو آغا» ومحمد بك جميل باشا وأحمين أحمد والزعماء الذين قدموا إلى سوريا كانوا يغيرون على أكراد تركيا ويجردون المساكين منهم ويخطفون نساءهم والفتيات ويقدمون كل ذلك للزعماء الأكراد والضباط الفرنسيين... ص 179... ويعتبر البدرخانين ومن معهم ومن هم أمثالهم رجعيين.. «ص 180» وأن الشيخ محمود، مثلاً، لم يكن ذلك الرجل القادر على قيادة ثورة شعبية... لأنه كما يقال فإنه عندما قدم إليه ضابط انكليزي فإنه لم ينهض لمصافحته، وذلك كونه غير مسلم. ويقال أنه قلع أسنان وزيره لأنه خالفه في الأمر... ص 180... ويستعين برواية حاجو آغا وهو في محكمة الشيخ سعيد، حيث أخبر الحاكم أنه لا يعرف حاجو: حقيقة لا أعرف هذا الرجل، لكنهم كانوا يقولون إنه من قره داغ فإن حاجو اليزيدي يحارب رجالي... الخ. ص 182.

يشير جكرخوين إلى أن الشيخ سعيد لم يذكر في محاكمته كردستان كما يجب: ولكن لو أن الشيخ ورفاقه قد نادوا باسم كرد وكردستان عالياً وأوضحوا مطالبهم بكل رجولة وقالوا: «يعيش الكرد وكردستان، ولتسقط الفاشية الطورانية التركية» لكل ذلك أكثر فخراً وإباء، إنهم في كل الأحوال سيعدمون، كان الأجدر بهم أن يعدموا باسم الكرد وكردستان.... ما أريد أن أصل إليه أن رجال الثورة لم يكن بمقدورهم أن يوصلوا مطالبهم إلى أعدائهم وأصدقائهم ويعرفوا العالم بها، أقول هذا كي يقف المناضلون من الجيل الجديد أمام المحاكم بكل رجولة ويدافعوا عن مطالبهم ومطالب حركتهم... ص 183⁽¹⁾.

(1) جكرخوين: سيرة حياتي، المصدر المذكور، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

أحسب، أم أزعج، أن جل كلام جكرخوين ينم عن وعي شقي إلى أبعد الحدود، وانتقام من ماضٍ، ما كان يريده أن يكون بطريقته تلك، حيث كان رجل دين «ملا» أو «سيدا» وقد رافقه هذا اللقب وهو يعرف به حتى الآن، ولعله من حيث الدلالة يعرف به أكثر، أي بصفته «مُلاً»، وما يكون عليه وعي «الملا» حينذاك على مستوى تمثّل العالم الخارجي غالباً، وهو يمارس في كل شاردة وواردة دور المقيم، إنما باعتماد كلمات حادة تنتمي إلى قاموسه الشعري الساخن، دون أن يتبته إلى علامة التفريق، وهو مفهوم «الشيخ» أو «الإقطاعي» كمرحلة تاريخية، شيء آخر، ويستحيل إطلاق حكم عام على كل منتم إلى هذه الصفة، وكونه هو نفسه، ما كان في وسعه أن يصبح جكرخوين، إلا عن طريق هؤلاء الذين لم يتوقف عن ذمهم، والنيل منهم، بأكثر من طريقة، وهو انتقام يعكس مضموناً نفسياً معكوساً: أن يكون منهم، إذ بدون وجود نوعية معينة من هؤلاء، ما كان لدينا هذا الكم الكبير من الأدبيات السياسية والأدبية التي تعيدنا إلى سنوات خلت، وأن الذين نعرفهم بأمراء الكرد، ومن برزوا أعياناً ومتقفين، ومن حاولوا التأثير في الثقافة الكردية، وتمثيل نهضة الكرد الثقافية، والتعريف بالكرد خارجاً، خصوصاً في النصف الأول من القرن العشرين، لما كان هناك جكرخوين نفسه كما يعرف الآن، وقد كان يتعامل معهم، أو يعتمد عليهم، وهم الذين يسمعون صوته، أو يمكنونه من التحرك.

وللتوضيح، فإن الذي أشدّد عليه هنا، هو أن قولاً كهذا لا يعفي أحداً من النقد، كما هي محاولاتي المختلفة في هذا السياق، إنما بعيداً عن إطلاق القول أو تعميم الحكم.

منعطف ملغوم في الذاكرة :

وإزاء ما تقدم، لا أظن أن واعياً لكرديته، وحريصاً عليها، حين يقرأ ما اقتطفناه، إلا وينعقد عليه لسانه بطريقة ما، وهو يتساءل عن خلفية هذه الأحكام، ولماذا يشنّ من سمّاهم هكذا ؟

أنقول عن أن العلة الرئيسة في وعي جكرخوين كامنة في طريقة تلقّيه لمؤثرات الخارج؟ أم تُراها علة ذاتية تحول دون إدراك التنوع في محيطه، والفراق بين الممكن والمستحيل واقعاً؟

جكرخوين يرى الواقع كما هو تمثله في ذهنه، وليس ما هو عليه وهو أوسع وأعماق من صورته التي تستقر داخل نفسه. في منظوره، ليس هناك من رجل سوي، بالنسبة للذين اشتغلوا في مجال السياسة حينذاك، أو مارسوا الكتابة، إذ من الصعب العثور على اسم يسلم من سلاطة لسانه، وهي في غير محلها بالتأكيد، حيث إنه يحكم حتى على الشيخ سعيد بدونية الوعي، هو وكل الذين كانوا ينتمون إلى عالم الدين، وكما في نقده له، أو تقريع موقفه، لأن لم يستعر لسانه وهو يهتف في محكمة الكماليين بـ «يعيش الكرد وكردستان»، ومن ثم ليساق كل الذين وردت أسمائهم في قائمة «العار التاريخي: الجكرخويني تقييماً»، إلى مبتذل التاريخ، مهانين جملةً.

تُرى، في الحالة هذه، أي إنجاز تاريخي حققه جكرخوين بقوته، أو رباطة جأشه، وهو يهتف كما تقدم بـ «يعيش الكرد وكردستان» في ساحة المواجهة لأعداء الكرد؟ أين كان وقتذاك إزاء أنداده ؟ أظنه هنا قاطع طريق كردستان من خلال طريقة «تأريخه» المزعومة لما جرى في مرتبات ذاكرته، ليكون لدينا ما يهول: الكثير من جكرخوين الناصر ضد جكرخوين الشاعر.

ومن المؤكد أن الفرق كبير في أن تنتقد أحدهم، أو تدينه، وأن تعريه كما لو كانت قاطع عليه طريقه في البحث عن اسمه الاجتماعي والشخصي، وبمنطق العداء المكثف، أو ما يغلق عليه طريقه ذاك، فلا يكون حاجو آغا مشمولاً وحده بهذا «التقريع»، وإنما كل الذين ذكروا ومن لم يتم ذكرهم، وهم في خانتهم الطبقية المؤدلجة، وهو لم يتساءل ما يكونه العنف الذي يشير إليه، ما يكونه البحث عن بدائل للمواجهة، أو إمكان الجلوس مع العدو أحياناً، ليس حياً في رؤيته وسماع حديثه، وإنما حياً بحياة يمكن بناؤها ومن ثم التحرك من جديد من أجل مواجهته.

بالنسبة إلى جبو يقف بين كل من جكرخوين وهو يستعير منه كثيراً في بعض الحالات ويلتفت إليه، كما لو أنه يخاطبه قائلاً: عليك بالانتباه إلى خلو كلامك من التناقض، وبذاءة القول أحياناً، ومن يوجه إلى حاجو نقداً، أو ما يقرب من النقد، كما في حال بروينسن، وهو يعنون فقرة من كتابه السالف الذكر هكذا، ليمضي في «سوق» الكثير مما يعني أمره هنا

(حاجو والموقف من حركة الشيخ سعيد بيروان 1925:

لم يكن الهفيركانيون مهيين بعد لهذا الوضع الجديد الذي فوجئوا به. فبعد الحركة الأخيرة [حركة علي بتي] دخلت المنطقة تحت سيطرة الدولة تماماً، وقدمت خسائر كبيرة... في مثل هذا الموقف كان القتال ضد حركة الشيخ سعيد يعني انتهاك تقليد كردستان سارت عليه آل عثمان لمئات السنين... وبصراحة كان زعيم الهفيركان في مأزق لا يمكن الخروج منه: أي كيفية دعم الدولة ضد الشيخ سعيد، وعدم الدعم دون إثارة غضبها في آن: سيستجيب لنداء الدولة ويجمع قواته نحو ديار بكر، ولكن يجب اختيار مسار أو طريق بحيث لا تتقابل قواته مع قوات حركة الشيخ سعيد، من خلال بروينسن..ص 127... هناك من أشار إلى وقوف حاجو وآخرين إلى جانب الدولة عند جكرخوين وكاتب تركي..ص 131... عن كيفية محاكمة سعيد بيروان وإحضار حاجو إلى قاعة المحكمة للتأكد ما إذا كان سعيد يعرفه أم لا.. فتذكر له، سوى أنه قال عن أن حاجو الإيزيدي قاتل ضدنا، جواباً على سؤال قاضي المحكمة..ويشار إلى أن مناورة حاجو لم تعفه من الاتهام..ص 133-134... واستعان بقول جوان حاجو عن جده بأنه نفع الدولة..ص 134... وتكتيكه في عدم الاحتكاك بقوات سعيد..ص 137- إبراز حقد التركي، بلسان يشار كمال، ص 142... وشعر منسوب إلى السلطان سليم الأول والدعوة بعدم فلاح الكرد..ص 143 «ماذا يعني ذلك؟»... رحلت الدولة بعد انتفاضة سعيد حتى الذين تعاونوا معها..ص 147... وتقريع جميل جتو لنفسه وقد ساعد الدولة ولم تقدّرهُ: (ص 148-149)⁽¹⁾.

(1) جبو، نذير: سلاطين هفيران، المصدر المذكور، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

في السياق نفسه، يورد نورالدين زازا في كتابه: حياتي ككرد، ترجمة: خسرو بوتاني، آراس، هولير، ط 1، 2008، هذه الواقعة (كان قدرني أفندي حاكماً على مادن «مسقط رأس زازا» وكان انتهازياً، متقلباً، ومحباً للفضيحة، فرض نفسه ناطقاً باسم الحركة القومية الكردية، إلى درجة مطالبته بالاستقلال التام لكردستان وإزالة كل ما يمثل الترك عن الوجود: بعد سحق انتفاضة الشيخ سعيد صدر حكم بالإعدام على قدرني أفندي أيضاً وبينما كان الجلاد يضع الحبل على رقبته صاح بأعلى صوته: عاشت الجمهورية التركية، ولكن هذا التغيير في الاتجاه لم يسعفه ولم يزح الموت عنه ولا عن آخرين من الكرد. ص 39).

جبو إذ يورد مجموعة من الأقوال، ليس قارئه مطالباً بأن يسلم بصدقيتها، أو صوابه، إنما هي في تنوعها مطروحة للنقاش، ولو أنه يحتاج في الحالة هذه لأن يكون أكثر حيطة وحذراً من درس التاريخ القاسي، ومن يتولى أمر إدارة التاريخ، وكيف، وكيف تسمى الحقيقة حقيقة ؟

أي ما يكونه قول أحدهم عن سواه، كانطباع، أو كحكم تاريخ، أو بحث في أمر منه بالمقابل.

إن النظر إلى التاريخ من مسافة قصية، من أكثر العمليات إمتاعاً للنفس، سوى أن الذي يتأخمه وهو في رعب مشاهد، وكيف يتحرك بأحداثه، وبناء على أي نوع من العنف يكون صوته، ومن ثم أسلوب تعامله مع المنتمين إليه، لا يتخلّى عن الفرح ومظاهره، فحسب، وإنما يشد نفسه من الداخل تجنباً لانهايار ما، أو يحاول التماسك، لأن التاريخ يتبدى هنا في مختلف أبعاده.

أعني بما توقفتُ عنده، ما كان يجري، وحسابات المشاركين في الحالة هذه، وفي مواجهة سلطة طاغية لا تدخر جهداً في استئصال شأفة معارضيها، حيث تجنبها أحياناً أسلم من محاربتها، وحيث إن مجالستها أكثر صواباً، بالنسبة للمستقبل، أحياناً، من مقاطعتها، وتوقع المؤذي.

أتراني بدأت «أبيض» صفحة حاجو آغا، ومن ذكروا أنفاً، أو أدافع عنهم؟ لا أعتقد ذلك، إنما أتحدث فيما هو عام، ولم أسمّ حاجو آغا باسمه، ولم أقل ضمناً أن صفحته «سوداء» وهي ليست كذلك بالصورة الجكرخوينية قبل أي كان، عند تقصّي الحالة المرسومة من خلال تقابلات بسيطة جداً بين مجموعة من أقواله، إنما أنوّه إلى ما يجب مراعاته في مواجهة مثل هذه الأوضاع، وعلنا نسلم أكثر من أرزاء ما كان، علنا لا نعيش أوخام «تصفيات الحسابات»!

هنا، يمكن التوقف عند تقييم زازا لقدرتي، وليس أن يأخذ به، مثلاً: ما وجه انتهازيته؟ لا بد أن هناك أعمالاً تترتب عليها مثل هذه الصفة الأخلاقية، وإن ذكرت، يجب أن تكون موثقة وليس من بناء الخيال دون إسناد تاريخي، كما في حال جكرخوين في نسبة كبيرة مما أوردته من وقائع في سيرته، انطلاقاً من متابعة تاريخية، أو على الأقل، عبر مقارنة أقواله بعضها بالبعض الآخر. مقصد القول: تجنب الأحكام القطعية، وكأن المحكوم بصفة ما، هو حصيلتها بالمطلق.

وما يتطرق إليه روّهات آلاكوم، يكون أقرب إلى جكرخوين، وهو مشدود إلى كلامه، أو متجاوب مع حكمه بالمقابل هنا وهناك، أي بإظهار حاجو متواطئاً حرفياً مع النظام الكمالي التركي، ويرى أنه كان في وسعه أن يستقطب أعداداً هائلة من الناس حوله لمواجهة أعداء الكرد «كما في مواجهة الحكومة التركية، إلى جانب ثورة الشيخ سعيد»، وهنا يكون وزره أكبر، باعتباره القادر والمتخلي عن هذه القدرة فيه، حيث يخصص عدة صفحات عن حاجو، من خلال تناوله لجمعية خوييون، ومن فيها، وكيف يكونون أنشطة وثقافة. مثلاً (أما أمين الراماني فيعرف بين مؤسسي خوييون رئيساً لعشيرة راما. وشأنه شأن حاجو آغا حين تفجرت ثورة الشيخ سعيد العام 1925 ينحاز إلى جانب قوات الحكومة. ثم يهرب إلى سورية، فينخرط في صفوف مؤسسي خوييون...) ⁽¹⁾.

في الربط بين الاسمين، ما يعمّق في مأساة الحرف، وفضاعة الحكم بالتأكد، خاصة وأنه يستعمل مفردة لها معناها المباشر من جهة القيمة «الهرب»، وهي لا تؤوّل منطقياً، إنما تتفعل على أرض الواقع باعتبارها إدانة لسلوكية الهارب في الحال، وما يترتب على فعل الهروب، من إفلاس قيمي، إنما أكثر من ذلك، من تجريمه بأكثر من معنى في «محكمته التاريخية»!

هل علينا أن نأخذ بقول دون آخر، والتاريخ كم هائل من الأقوال/ الروايات وهي في غاية التعارض أو التنافر أحياناً، وبالنسبة إلى موضوع كالذي نتعرض له، أو نتحرى أمره ؟

مكدول المهتم بالشأن الكردي يشير إلى عدة نقاط تقرّبنا أكثر مما نحن فيه:
(لقد استعملت أنقرة الثورة كحجة لضرب الكثير من أعدائها، فقد أعدمّت كلاً من يوسف ضيا بك وخالد بك جبران، المعتقلين من قبل في نيسان/ أبريل. ص 308... لقد وسمت ثورة الشيخ سعيد بداية «الكمالية المتصلبة». ص 310... حاول ممثلو «خوييون» تجاوز الإطار التقليدي للثورات السالفة. ص 318... رغم دعم بعض القبائل للقوات الحكومية، تشجع القوميون بشن الهجمات على القوات التركية في أجزاء مختلفة من كردستان، في ساسون وبوتان وبدليس في أواخر

(1) آلاكوم، روّهات، جمعية خوييون، المصدر المذكور، ص 45-49، وبالنسبة لتناوله لجمعية خوييون، فمحصور بين صص «43-48».

1927، وكذلك بهجمات شنها حاجو آغا رئيس عشيرة هفيركان على الحدود السورية في عام 1928 ص 320.....الخ⁽¹⁾.

إنه مشهد موسّع، أو واسع الأبعاد بالنسبة إلى انتفاضة، أو ثورة كردية لا ينبغي النظر إليها من زاوية واحدة، وهي تبرز من ناحية، سعي كرد إلى التحرر من ربقة المستبدين بهم، ومن ناحية أخرى، سعي كرد آخرين إلى التحرك في الاتجاه المعاكس، وخلافهم في موقف المتردد.

ثمة عنف ملحوظ لا يمكن تجاهله، يفصح عنه قول مكحول، ممارس من قبل السلطة الكمالية، عنف يمضي بنا إلى الموقف الحدي الاستثنائي الذي سعت إليه، وما كان عليه الكرد حينها من انقسامات، وأن الذين قاوموا يذكرون بالذين حاولوا المقاومة، ولكن فكرة المقاومة لا تبرز كما نراها الآن، إنما في أكثر من اتجاه، ربما هي مقاومة تيار دون آخر، أو السير في منحى غير الذي يشار فيه إلى خط «الثورة السعيدية» كحال حاجو وغيره، وهو موضوع الدرس.

إن النظر إلى الثورة، ومن كان معها، ومن لم يكن معها، ومن التزم الحياد، أو كان في موقف المتردد، لا ينبغي التعامل معه من منظور أخلاقي، بطريقة «إما - أو»، ليس بمعنى التساوي بين الجميع بالقيمة ذاتها، وإنما عدم الزجّ بمن لم يكونوا مع «الثورة» في خانة «التخوين»، بمقدار ما يتطلب ذلك المزيد من الدراسة، كما لو أن كردية المرء توجب عليه رفع يده إشارة النصر، حتى لو علم أنها سوف تقطع، دون السؤال عن المناخ أو المستجدات، وفي الوقت الذي جرى، وما زال يجري تقييم ثورة الشيخ سعيد، وما إذا كانت ثورة أم لا، وكيف جرت وقائعها، وأوجه الخلل فيها. علينا أن نبتعد عن ثنائية «ثوري - لا ثوري»، لنحسن تفهم تاريخنا أكثر.

ويبقى سؤال: لماذا لم يشارك حاجو آغا، زعيم، أو بصورة أدق: سلطان هفيركان في قتال الشيخ سعيد وثورته ضد أعداء الكرد الكماليين، أو الدولة التركية المعادية للكرد؟

سؤال مكثف من الداخل، وكثافته تتأتى في بنية الجغرافيا التي كانت قوة حاجو آغا تقيم فيها، وإمكان تأثيرها من خلالها في مجرى العمليات القتالية،

(1) مكحول، ديفيد: تاريخ الأكراد الحديث، ترجمة: راج آل محمد، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2004، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

وربما تغييرها كلياً لصالح الكرد عموماً وليس كرد «تركيا» خصوصاً، وما كان يمكن أن يترتب على هذا التغيير من تحول انعطافي في سيرورة التاريخ الكردي، لا بل وفي المنطقة الشرق أوسطية في آن.

لكن الحكمة العملية تتطلب النظر الدقيق فيما كان يجري، استناداً إلى الذين منوا أو يمتنون أنفسهم على إمكان ترجيح كفة التاريخ الكردية: كان في يد حاجو آغا، لو أنه أراد المشاركة، وكان في مقدوره المشاركة، ولم يشارك، لأنه ببساطة، لم يرد المشاركة، كما هو التحول المنطقي في الكلام، هل يمكن أن يكون بمثل هذه الطريقة مشاركة وحسم معركة؟

قبل أن أجيب على هذا السؤال، من المفيد إيراد بعض مما ورد حول هذه النقطة في مقال شاهوز حاجو، والذي يتمحور حول «حاجو آغا»، وما يمكن أن يثير من نقاش، أو يوسع في مفهوم التاريخ، وكيف يتم التعامل معه أو حتى به، وهو يقارن بأقوال أخرى، سائلة وغيرها:

(إبان ثورة الشيخ سعيد وقف حاجو وأبناء عمومته من أسرة «بتي» وحلفائه أيضاً في وجه الأتراك. سوى أنهم لم يخوضوا الحرب مباشرة، ولم يعادوا الأتراك وجهاً لوجه، لكنهم لم يقدموا أي خدمة للدولة بالمقابل، وكان ذلك يعني بالنسبة إلى الأتراك على أنها تعبير عن أنهم يساندون حركة سعيد، ولهذا كانت الدولة التركية تنظر إليهم على أنهم أعداء لها، إلى درجة أن حاجو لم يجد مفرّاً من مغادرة مقرّه والارتحال من هناك. وفي «18» شباط 1926، تحرك كل من حاجو، خليل بتي وأبناء عمومته وأنصاره هاريين من الدولة، ليجدوا مستقراً لهم في ظل حكومة فرنسا جنوب الخط، وتصبح الجمهورية التركية دولة، لتباشر مع الدولة الفرنسية عملية ترسيم الحدود مجدداً.

كان حاجو محكوماً من قبل فرنسا، على خلفية من واقعة حادثة بيان دور عام 1923، حيث إن حاجو كان قد حارب الجيش الفرنسي، وقتل ضابطاً فرنسياً اسمه روكان في هذه المواجهة.

بسبب هذه الواقعة، حاول حاجو التوجه إلى العراق كان محتلاً من قبل الانكليز، ولهذا الغرض يرسل صاحبه كلاً شابو المسيحي الأصل ومن عشيرة هفيركان، إلى الموصل، لكي يفتح الانكليز بحثاً عن مكان في العراق، سوى أن كلاً شابو يرجع في

خَفِّي حنين «دون نتيجة». إذ إن الانكليز اشترطوا عليهم شروطاً قاسية، وكان في مقدمة هذه الشروط: أن يسلم حاجو ورجاله أنفسهم للانكليز مجردين من السلاح، أما الشرط الثاني فهو أن يقيموا في جنوب العراق، وكان ذلك تعجيزاً على حاجو، فكان أن أعطى قراراً بالتوجيه إلى الفرنسيين وتسليمهم أنفسهم لهم.

فما كان من فرنسا، بعدها، إلا أن وجَّهت حاجو إلى بيروت، وهناك يعفى عنه. وفي إثر العفو استقر حاجو وأولاده وأبناء عمومته وأنصاره جنوب الخط في ظل فرنسا.

وبعد استقرار حاجو جنوب الخط، أوضح لفرنسا صراحةً أن ليس له من عداء تجاه فرنسا أبداً، وما دار بينهم من قتال لم يقتصر عليه هو وحده، إنما من خلال تشجيع من تركيا أيضاً تم ذلك. حيث إن الأتراك كانوا يريدون منه القيام بعمل حدودي ضد فرنسا، سوى أنه لم يتجاوب أبداً مع توجه كهذا، إذ إن حاجو لم يخض هذه الحرب واقعاً باسم أي كان، إنما وجد نفسه مضطراً لأن يقوم بتحريك من هذا النوع ضد جبروت فرنسا (...).

أهو استسلام لفرنسا، وقبلها اعترافٌ بالنصر الكمالي التركي، وهزيمة للکرد في شخص حاجو آغا واتحاده ؟

إنه سؤال مركَّب يضاف إلى جملة الأسئلة ذات الشأن، والتي تتكرر في أمكنة مختلفة، وفي كل تكرار، يكون للسؤال بعد آخر، منحى آخر، مقصد آخر، إيحاء آخر، ورد فعل نفسي وعقلي آخر، من خلال بنية النص، بمقدار ما يتطلب إقراراً معرفياً بأن الزج بقيمة معينة في متن الكلام، واعتبارها علامة فارقة لحاجو، ليس أكثر من إعلان كلي لما هو مطروح للقراءة وإبداء حكم معين، ولا شك أن الكرد كقراء اعتادوا وما زالوا معتادين بحكم التربية التقليدية، الكثير من الأحكام القطعية، وهي إن دلت على شيء فإنما على ضيق النفس المعرفي، والعجز عن النظر في الاتجاهات كافة، أو تحت وطأة رغبة نفائذ بذاتيها، إنما أيضاً هو التعبير عن أن الجواب يكون بصيغة/منطق الثالث المرفوع «إما-أو»، وهو إجراء خاطيء من أساسه:

إن حاجو لم يكن مصيباً فيما أقدم عليه: ذلك قول قابل للطرح، ويمكن التفاعل معه، وإن حاجو كان محقاً فيما أقدم عليه: ذلك قول جدير بالطرح والتجاوب معه، وإن حاجو ليس من هذا ولا ذاك: ذلك طريق آخر من طرق البحث عن المعرفة التاريخية، أي ما يحرر أي اسم، أو شخص من أي تقييم أخلاقي، كأنما هو حقيقته.

موضوع النظر :

في وسع أيّ كان، أن يشير إلى عشائرية حاجو، ولا أظن أن في ذلك اكتشافاً، لأنه في الأساس يعرف بعشيرته، بمكان خرج منه هو مسقط رأسه، كما هو شأن كل الذين عرفهم التاريخ الكردي، وهذا ليس جديداً في ساحة القول، إنما هو تشديد على حقيقة غائبة، أو مغيبّة لحظة تناول موضوع كهذا، وهو أنه حتى يومنا هذا، يندر وجود من يتعرض لحياة شخصية سياسية كردية، إلا ويكون السؤال عن عشيرته أو قبيلته، أو طائفته في صدارة الحديث عنه، وتلك مسئولية الذين يرون أن التاريخ الكردي معترف به في هذا المسار. كما أنه في وسع أي باحث في التاريخ، أن يتحدث عن حاجو ويصفته حاجو، إنما لا بد أن يكمل الاسم ليعرف من يكون باسمه الثلاثي ومكانه، وما استطاع أن ينجزه أو يقوم به باسمه حصراً في مسيرته الحياتية، ليجد من يسأل: نسيّت التذكير باسم عشيرته، سوى أن ذلك لا يعني أنه ليس أكثر من منتم إلى عشيرة، إنما ما يبقيه بمكانه، وأن التحرك إلى الجنوب، وهو قرار اضطراري، لم يكن من قبيل التوق إلى خوض غمار مغامرة غير مسبوقة، وإنما هي رحلة حياة، ومواجهة تحديات أخرى.

وأن أكون مع عاطفتي، مع رغبتني في المشاركة وإمكان الغلبة على السلطة الكمالية ومن معها - حتى - من الكرد، وهم نسبة لا يُستهان بها في نطاق الحدود السياسية التركية وقتذاك، فهذا ما أشدد عليه بكل وعي، ما يجب أن أشدد عليه من منظوري البحثي التاريخي بالتأكيد، إنما أن أكون مع وعيي، أو عقلي والذي لا يرفض المشاركة، لأن ثمة قضية شعب، أمة، قومية مضطّدة، ففي ذلك منحى آخر من الكلام، وهو في مضمونه ليس إقراراً بحق حاجو آغا الذي لم يشارك، وإنما بسلطة واقع تمتد إلى ما وراء المرئي عملياً، أي ما يكون في ذلك من بُعد انتحاري، ولعل الذي جرى في المحكمة، بصدد تتكّر الشيخ سعيد بيران المأسوف عليه حقاً، لمعرفته حاجو حتى لا يكون مصيره كمصير من انتهوا إعداماً من قبل الأتراك، شعور مقدّر من الشيخ على أن حاجو آغا، ليس في خانة من يمكن تجريده من انتماء الكرداييتي على طريقة جكرخوين، والذي أفصح عن ذلك كما لو أنه كان المتواجد في المحكمة، أي: ما مصدر رواية جكرخوين هذه التي أشير ويشار إليها بتركيز، باعتبارها حجر الزاوية في «محاكمة» حاجو» ومن معه ٩ وإلا، فما الذي كان يمنع الشيخ الستيني من أن يقرّ بمعرفته له، وربما يخشّن له في القول،

ليلقى جزاءه غير المدح عليه طبعاً؟ عدا عن ذلك، ما الذي دفع بحاجو في التوجه إلى قاعة المحكمة؟ أكان يضمن أنه سيخرج برأسه سالماً، أم أنه كان يتوقع قراراً بالحكم عليه بالإعدام؟ أم تراه كان واثقاً من نفسه، باعتباره ساند الجيش الكمالي التركي، ودون وجود دليل مادي يثبت هذا التوجه؟ إن الموجود، هو عبارة عن تقديرات، ومزاعم، أي في المجمل: التزام نوع من الحيادية، جرّاء معرفة مسبقة بأن هناك توقعاً للهزيمة مسبقاً بأكثر من معنى؟ ذلك من خلال متابعة ميدانية للقوة العسكرية للنظام، إلى جانب الحضور العددي للشيخ سعيد.

أي حين نجد أن القوى المتنفة في المنطقة وفي الجوار، والتي أتينا على ذكرها: الانكليزية، الفرنسية، الألمانية والروسية، وكل من موقعها، ما أرادت أن يكون هناك أي تكوين سياسي لدولة كردية، حتى لو في هيئة إمارة مصغرة، نظراً لتعارضها مع مصلحتها، بما أن ظهور «تركيا» ضمن الحدود السياسية التي أبرزتها مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى، وفي المدى المنظور، لا بل والاستراتيجي، كان يترجم دفعة واحدة مصالح متوازنة لها تيك القوى وغيرها.

ثمة ضحايا دول، سلطات، حكومات امبريالية، استعمارية، بمستوى شعوب، أمم، ترشح لتاريخ قادم، وربما لزمن يطول، دون إبطال مفعوله السلبي، لأنها تستجيب لمنطق المصلحة السياسية!

في مجموعة من الوثائق الفرنسية التي تخص هذه الثورة، وباسم «ثورة الشيخ سعيد في الوثائق الفرنسية» والتي ترجمها الأكاديمي الكردي خالد عيسى، ونشرها إلكترونياً قبل عقد من الزمان⁽¹⁾، وهأنذا أورد بعضاً منها، مكتفياً في كل منها، بتلك النقاط الأكثر لفتاً للنظر على مستوى التحضيرات ونوعيتها، وصلة فرنسا بها، حتى تغطيتها، وتوقع نظيرتها في الدول الأخرى «الأوربية» واليونانية، وفي الجوار الجغرافي، تأكيداً على أهمية هذا الحدث، حيث أكتفي بالوارد من حيث الكليشيه في نص الوثيقة، بعد نشرها في الجزء الأول: جهة الصدور، المكان وبمقدار ما آمل تحرّي العلاقة بين فقرة وأخرى، أو التدقيق في المواقع، وأسماء الشخصيات، ومن تكون، وأين تكون، وما الذي كان يدفع بها لأن تقوم بمثل هذه

(1) تجد هذه الوثائق وغيرها مما يتصل بالوضع الكردي على مدى عقود من الزمان، مترجمة، ومع مقدمات، وأحياناً تعليقات وإضاءات، ومنشورة في موقع «كلكامش» السالف ذكره.

هؤلاء الأكراد المحرّضون من قبل الشيخ سعيد، وهو من وان، مستثمرين المشاعر الدينية العميقة لجمهور جاهل، يطالبون من جديد بالاستقلال الذي كان قد منحهم إياه اتفاقية سيفر .

حسب مداولات المجلس الوطني الكبير(التركي- المترجم)، التمرد منظمٌ بشكل قوي . اتخذ الأتراك إجراءات جديّة لقمع الانتفاضة: قصف قرى شيخ سعيد بالطيران، ومركزة القوات تحت قيادة كاظم باشا، قائد فرقة المشاة الثانية(سيرت- بيتليس)، و الإرسال الفوري لوحدات خفيفة، خاصة القادمة من نصيبين وجزيرة ابن عمر، إلى النقاط المهددة بشكل أكبر، وإعلان حالة الطوارئ في الولايات الشرقية، والأمر بالتجنيد الجزئي للفتات من 1310 حتى 1315(الرجال من 26 حتى 31 عاماً) وذلك في الولايات القريبة من بؤر الانتفاضة .

سيكون القمع بلا شك الأكثر شراسة، ومع ذلك، فبسبب الطبيعة الوعرة للبلاد، وشجاعة.

«2»

(وارد) هيئة الأركان العامة- قسم الدراسات

رقم 1153. تاريخ 28 آذار 1925 .

سري تام

النشرة الأسبوعية للمعلومات رقم 594

أسبوع 01-07 آذار 1925

(خاص بضباط المخابرات)

خاتم هيئة الأركان العامة

يُجلب الانتباه بشكل خاص في هذا الأسبوع إلى انتفاضة كردستان .

حسب المعلومات المحصول عليها، قد يكون سبب الانتفاضة هو توقيف قائدين قوميين كرديين، هما يوسف ضياء بك و حج موسى .

يبدو أن الانتفاضة تخص حالياً منطقة تجاباقشور، و خربوط، و كينج، و موش، و آرغانا، ودياربكر، وبيتليس. وتقع بؤرة الانتفاضة بشكل أساسي في آرغانا، و تجاباقشور وموش .

الزعيم المنتفض الوحيد المعروف حالياً هو المدعو شيخ سعيد الذي لا يمكن معرفة هويته بشكل جيد . فباسم شيخ سعيد، توجد في كردستان ثلاثة شخصيات دينية معروفة بأفكارها الاستقلالية. شيخ سعيد مذهبي (ربما مهدي-المرجم) الخليفة، من سلالة احد الخلفاء، وهو معاد بعمق للأتراك وموال للانكليز. و شيخ سعيد من وان، و شيخ سعيد توها (كلمة توها مكتوبة على الهامش- المترجم)، ابن عم هذا الأخير، من سليمانيه، هذان الأخيران هما على علاقة بالانكليز .

وحسب عدة معلومات، على ما يبدو، المقصود هو (شيخ سعيد- المترجم) الذي هو من وان، القادر على أن يصّف وراءه ثلاثة أو أربعة بندقية. وتبقى له (للشيخ سعيد- المترجم) في الكواليس العائلات الكبيرة في كردستان مثل بدرخان وجميل باشا، جاهزة للتدخل فيما إذا بقت الانتفاضة سيدة الموقف .

مهما يكن في الأمر، فما دامت الجيوش لم تصل بعد إلى المنطقة، فرغم عدة قصفات بالطيران، يتمتع المنتفضون بالحرية، وعلى ما يبدو فان كل الريف معهم، وأنهم لا يلاقون مقاومة إلا عندما يهجمون على سكان المدن ذي الغالبية التركية. وهكذا تم إخراجهم من خربوط و من بالو المحتلة لعدة ساعات .

إنهم احتلوا للتو أرغانا، ووصلوا إلى عدة كيلومترات من دياربكر حيث نقل موظفو الحكومة فيها الأرشييف إلى مالاطيا .

خلال هذا الوقت اتخذت الحكومة عدة إجراءات من أجل قمع التمرد بأسرع وقت، فرغم الهدوء الظاهر للحكومة يتسم التمرد مع ذلك بأهمية أكيدة .

«3»

لقد لبّت الحكومة الفرنسية طلب إذن المقدم إليها لنقل الجيوش (التركية- المترجم) على السكك الحديدية المارة عبر الأراضي السورية .

وهكذا يتوجب مرور من 20 إلى 25 ألف رجل عبر سورية. بدأت عمليات النقل في 6 آذار. والقطعات الأولى المنقولة كانت تنتمي إلى السرية الخامسة من سلاح المدفعية (قونيا)، و إلى اللوائين 23 و 41 (الفرقة السابعة للمشاة في كيليكية)، و رئيس هيئة أركان السرية الخامسة مع التجهيزات، ويجب أن يتبعها أيضا الجيش الرابع من أسكي شهر .

فضلاً عن ذلك، فكل القطاعات العسكرية المتمركزة في مناطق ماردين، ونصيبين، و جزيرة ابن عمر، قد نفذت تحركاً نحو الشمال .

أما الجنرال مورسلي باشا، قائد السرية السابعة التي كانت قيادتها في جزيرة ابن عمر منذ انتفاضة الكلدو- آشوريين في العمادية في الخريف الماضي، فهو (الجنرال- المترجم) سيلتحق ببتليس .

لم يبق على الحدود سوى بعض العناصر، وكثائب حراسه الحدود المكلفة بتأمين الحراسة بشكل عادي .

فيما يتعلق بالعلاقات التي يمكن أن توجد بين حركة الانتفاضة الكردية مع أكراد سورية ومع السكان الكرد و الآشوريين و الكلدان في شمال العراق، لم يلاحظ بعد أي اضطراب .

في سورية، تتم متابعة المسألة عن قرب شديد بسبب أهميتها، لأن العشائر الكردية الحضر تشكل تجمعات كبيرة، وهي تتمركز على طول الخط الحديدي من بغداد إلى نصيبين و إلي ميدان اكبس.

«4»

يبدو أن الوضع في كردستان هو كالتالي :

بسبب الضغط من كل صوب على المتمردين، وبسبب قلة عددهم، تم دفعهم إلى الجبال. حيث يجهزون أنفسهم لشن حرب الأنصار. و ما أن تذوب الثلوج ستمت متابعة العمليات ضدهم .

متمتعين بالحرية من جهة الشرق، قد يلجأوا إلى التراجع نحو بلاد فارس . جرت بعض الأحداث غير الخطيرة في منطقة موش غير المحروسة جيداً من قبل السلطة العسكرية. إلا أن القوات الحكومية استعادت من أيدي المتمردين بلدة فارتو الصغيرة (100 كم شمال ديار بكر).

تم تخليص مدينة ديار بكر بشكل تام، وذلك بمجيء الجيش الخامس من سلاح المدفعية. انتهت القوات من التنقل على السكة الحديدية سى ان.اس. منذ 27 آذار .

مر في سورية 55 قطاراً من 7 حتى 27 آذار. تم نقل 665 ضابطاً و 22324 رجلاً (عسكرياً- المترجم)، و 4226 حصاناً، و 843 جملأً، و 20 مدفعاً، ومعدات مختلفة .

استعداد النقل التجاري على السكة الحديدية حركته بشكل طبيعي، لكن قطارات الإمدادات العسكرية متوقعة يومياً، فضلاً عن حوالي 3000 عسكري تابع للواء الثاني من سلاح المشاة، ومدفعية الفرقة 41 للمشاة، إضافة إلى القوافل التي تحركت براً، بهذا يبلغ إلى 25000 عدد أفراد الجيش الخامس من سلاح المدفعية .

بعض المعلومات ذات المصادر الجيدة، تؤكد، من ناحية، بأن الفرقة الأولى من سلاح الخيالة التي انخرطت منذ البداية ضد المتمردين، قد سُحقت بشكل تام. ومن جهة ثانية، تؤكد هذه المعلومات بأنه قد وصل إلى 50000 رجل عدد القوات المحتشدة من أجل القمع، فضلاً عن عدد من غير النظاميين (الميليشيات- المترجم). يجري الحديث أكثر فأكثر عن أنه قد يُستهدف من هذه القوات استعمالها عند الحاجة ضد موصل .

«5»

حسب عميل جدي مؤقت، في هذا الأسبوع لم تلاحظ مواجهات جدية بين الأتراك والأكراد . ومع ذلك حدثت بعض الاشتباكات بين المتمردين والقوات الحكومية الأمامية .

قد تكون القوات الحكومية قد استعادت قادي كوي (شمال دياربكر)، وخاني (غرب لجه، و سليفان (شمال شرقي دياربكر). وقد تستمر المعارك في كينج، وفي جاباكشور و ليتجه. بينما خاربوت و آرغانا قد سبق وأن تم تخليصهما سابقاً . فالتقوات النظامية، المدعومة بالميليشيات المحلية، قد لاحقت المنتفضين حتى شمال بالو .

وقد يكون السلام التام قد عاد إلى منطقة موش، وقد تمت السيطرة إذا على الانتفاضة في كل كردستان الشمالية. (وتستعمل كلمة كردستان في التقرير للدلالة على القسم الخاضع للدولة التركية فقط- المترجم .

ولكن تأتي معلومات متضاربة حول منطقة سيوراك وحول موقف الميليشيات. على ما يبدو أن الانتفاضة تميل إلى التوسع نحو الشرق، مناطق وان و بيتليس، و جبال شمال العراق، وحدود فارس .

يعتقد أن زعيماً من كردستان فارس قد بدأ بالتمرد، مجبراً حكومة طهران لاتخاذ بعض الإجراءات .

وضع الأتراك رأس الشيخ سعيد قيد الرهان (مقابل 1000 ليرة ذهبية).

وصل إلى أعضائه أعضاء محكمة الاستقلال للولايات الشرقية في السابع (من نيسان - المترجم) ويتوجب نقلها إلى ديار بكر بالسكك الحديدية اعتباراً من كيلر (الكلمة مصححة بالقلم، ربما المقصود هو كيليس - المترجم).

رغم تحسن الوضع الحكومي، فعمليات النقل العسكرية مستمرة. 32 ضابطاً و 2871 عسكرياً، 96 حصاناً، 32 جمللاً، عبروا من سورية بالسكك الحديدية سي.ان.اس من 30 آذار حتى 6 نيسان، وصلت كدعم للجيش الخامس. بوصول هذه القوات يصل عدد هذه القطعة العسكرية إلى 30000 شخصاً. «8»

قسطنطينوبل في 24 سباط 1925

الرقم: 71/آ.م

من

الليوتان كولونيل كاترو

الملحق العسكري في تركيا

إلى

السيد وزير الحرب - هيئة أركان الجيش - المكتب الثاني

باريس

المرسل إليهم :

-هيئة أركان الجيش - المكتب الثاني

-هيئة أركان الجيش - إدارة المخابرات

-هيئة أركان الجيش - فرع أفريقيه

-المفوض السامي في بيروت

السفارة، في قسطنطينوبل

الملحق العسكري في أثينا، أثينا

الأرشييف

حزب الشعب

قضية الكينج

جرى حدثان اثنان في تركية، و لا تزال أسبابهما غير معروفة، لكن تدعوان إلى الشبهة في أن حزب السلطة، حزب الشعب، يتعرض إلى أزمة داخلية، و أنه يتوجب عليه من جهة أخرى التصارع مع محاولة ردة الفعل المناهضة للنظام المشيد من قبله .

من جهة، و بدعوة من مصطفى كمال، قطع عصمت باشا استجمام الاستراحة التي كان يقضيه في هالكي، و جاء مستعجلاً إلى أنكورا (أنقره - المترجم)، و من جهة ثانية، أعلنت الحكومة في 23 من الجاري حالة الطوارئ لمدة شهر في الولايات ذات السكان الأكراد، ابتداءً من أوفره و حتى وان، و من ماردين حتى أرزروم. لنحاول تفسير هذين الحدثين اللذين لا يبديان مجردين من بعض الصلة بينهما .

ماذا حدث في المنطقة التي تخضع الآن لحالة الطوارئ؟ المعلومات حول الموضوع مجزأة، فعرض الأحداث، كما يظهر في الصحافة منذ حوالي عشرة أيام، يظهر بشكل واضح غير كاملاً، و لا يبني العلاقة المنطقية بين السبب و النتيجة، بين الطبيعة المحلية للحوادث، التي تسردها (الصحافة- المترجم)، و الإجراء العام الذي اتخذته الحكومة .

إذا اعتمدنا على معلومات الصحافة العامة، فيقال بأن بؤرة عصيان قد اندلعت في ولاية كينج (قصة واقعة إلى الشرق من أرغانا و إلى الشمال من دياربكر). يقال بأن شخصية دينية باسم شيخ سعيد استنهض السكان ضد السلطة القائمة، عن طريق التبشير لصالح إعادة تنصيب الخلافة، و تشكيل حكومة قومية كردية .

يقال بأنه تم إرسال قوات لخنق الحركة التي تم إعلانها بدون قوة كبيرة و بدون وسائل، و و يتوقع انتظار استسلامها بسرعة. هذه هي الفكرة التي أُعطيت منذ البداية، و يُعاد منذ ذلك الحين إنتاجها كل يوم، ولكن بدون أن تتم القدرة على الإعلان، حتى الآن، بأنه تمت إعادة النظام بشكل نهائي .

«9»

يتضح من بعض التصريحات التي تسندها جريد «أخشام» إلى وزير الداخلية بأن الحركة كانت قد تم تحضيرها منذ أشهر طويلة و بكفاءة فائقة. و مهما يكن،

فالوسط الكردي هو المشتبه به، وذلك ليس بدون مبرر، فلقد تم التأكيد على ميوله الفئوية في ظل كل الأنظمة، و روابطه بالتقاليد الدينية تسهل وصول الدعاية المناهضة للحكومة العلمانية إليه .

واقع ثابت، الفوضى مستديمة عند الكرد، الزعماء الكرد اعتادوا على المساومة بخدماهم، و البعض منهم، هل من اللازم التذكير، كانوا مؤخراً في خدمة قوة أجنبية كانت تركية في منافسة على الإقليم معها . نعرف بأن ولاية موش كانت مسرحاً لهذه الأحداث، و تركت خلفها غلياناً لم يهدأ بعد .

كثير من العوامل التي جعلت أنكره تقرر فرض مراقبة خاصة على البلاد الكردية، في وقت يجري فيها تأثير الخارج، و مطلوبة (الانتفاضة - المترجم) من الداخل. إذ يمكن، بفعل انتفاضة متسعة تهديد وحدة تركية و تسهيل فصل ولاية الموصل .

هكذا يمكن شرح الإعلان الاحتياطي لحالة الطوارئ، كإجراء يؤكد صرامة الحكومة التي من الممكن أن تخونها العصبية و بالتأكيد قليل من الخوف . يتقرر، على ما يبدو، إعطاء مثال (بمفهوم عبرة- المترجم) و ضرب التخيلات عن طريق قمع حركة الكينج بكل صرامة. و لكن بهذا العمل لا يراد فقط إخماد منتفضي الشيخ سعيد، و إنما كل هؤلاء المنتشرين في الإقليم، الذين يناهضون قليلاً أو كثيراً القوانين العلمانية و حزب الشعب .

قسطنطينوبل و كيليكية و لازستان، لا يمكن اعتبارها آمنة. يقال بأن الحزب الديني المُمثل بشكل ضعيف في المجلس الوطني التركي الكبير قد تلقى وعداً بالدعم من قبل التقدميين، وخطيبه الخوجه ضياء الدين أفندي، بمناسبة مناقشة الموازنة، اتهم الجمهورية بإفساد عقلية الشعب. و يراد إقامة علاقة بين هذا الانتقاد و إرشادات الشيخ سعيد، نفس الموضوع، نفس الميول، نفس التهديدات. عندها، رد فعل فوري يفرض نفسه، بهدف إعطاء تحذير لكل أعداء النظام). الخ

ماذا تقول محتويات هذه الوثائق المختارة، وكعيّنة عن طبيعة العلاقات بين الدول وصلتها بقضية: الكرد وكردستان؟ وكيف رتّبت وأسندت إلى تاريخ مستقبلي شاهدة على تاريخ فائت؟

كيف يمكن للباحث دراستها، أي تشريحها في المختبر التاريخي، وهو مختبر يشمل أكثر من جغرافيا قارية، طالما أن عبارة «لوغو» الاستعمارية والامبريالية في

العمق، أي «سايكس - بيكو» أرادتها شراكة فوق أممية، فوق حدودية، ولكنها تعنى بأمم دون سواها، ومن قبل أنظمة استعمارية تخص دولاً دون سواها، بمقدار ما تركز على جغرافيات شعوب وهي تصيبها بالعطالة والتمزيق لكيانها الحيوي والرمزي، لأن ذلك يعبر عن مصالح قارية بالمقابل، كما تقدم، وفي حمى التسابق الكولونيالي وما بعدها، وإلى يومنا هذا، وبتنوع طبعاً، على طريقة تراتبية:

ثمة القوة الأولى، وهي التي تلعب دور السيد الأمر والنهي، والتابع للسيد، ويعطى بعض الامتيازات، ولكنه لا يجب أن ينسى أن ثمة من يسوده وإن زعم أنه بكامل حريته وسيادته، والمستباح في سيادته وحريته، وهو ما نجده في قائمة الدول التي قسّمت المنطقة، وأعلنت دولاً حدودية، ومنحتها سيادات جزئية، وحكمت على شعوب بأن تعيش حالة اللاسيادة واللاحرية وهي محكومة بأنظمة الفئة الثانية، وما في ذلك من عنف التصريف ورعب التكليف.

علينا أن نتحرى الدقة في اقتفاء المعلومات، وبمقدار ما يجب علينا إمعان النظر في لعبة القوة ومن يمثّلها، وما في ذلك من تنويع علاقات من قبل الأقوى، كما في حال الفرنسيين وأنماط تعاملهم مع الكرد، ووعودهم المتحولة تبعاً لأحوالهم، ومن ثم تقديراتهم للمستجدات، كما لو أنهم يعدون ولا يفون بوعودهم، والمسألة أبعد من ذلك في بعض الحالات، على خلفية من تعقيدات الأوضاع، فيسمى ما لا يستحق أحياناً بلغة الغدر والخيانة أو ما شابه ذلك⁽¹⁾.

(1) هناك واقعة تاريخية يأتي عزالدين زاخوراني على ذكرها في موقع «زاخوراني» الإلكتروني، وفي حلقة معنونة «ماذا حدث بعد انتفاضة الشيخ سعيد؟ ج3-4»، جدرة بأن تنشر هنا، وهي مترجمة عن الكردية، عبارة عن طبيعة ما أشرنا إليه في بنية كل علاقة وزمانها ومكانها، والوارد هنا مقتطفات من الحلقة تلك:

(ذات يوم قدم حسين بن نواف، وهو من زعماء عشيرة الملّان ضيفاً إلينا، أثناءها كان هناك التقسيم القسري للكرد وكردستان، فقال ليحسين: لقد توافرت للكرد فرص كثيرة، لكنهم للأسف لم ينتهزوها، لوجود حساسية الأنانية بين الكرد، وبسببها، لم تتحقق وحدة الكرد، وعندما جاء حاجو إلى بنختي، كان - هو - وجلادت بك مي ربوتان وآخرون من وجهاء الكرد، يناقشون الفرنسيين حول حقوق الشعب الكردي في سوريا.

وكذلك كردستان الشمالية التي تسيطر عليها الدولة التركية، وكان أبي نواف حسن أول من أيد حاجو في دعواه، سوى أن الكثير من العشائر الكردية في سوريا سعت إلى إعاقة حركتهم، وهي تقول عن أن حاجو وهو معتمر الكم والكولوز «قبعة كردية» قد انحدر من سرختي،

ويريد ممارسة الأغاتية علينا أيضاً، وجرّاء ذلك كانت تتعاون مع شيخ العرب دهام الهادي، وبسبب هذه العقلية العشائرية لم تحقق وحدتها.

ولنعد الآن إلى تقسيم أمين عالي بريخان، حيث إن حاجو بعد أن علم أن أمين بريخان قد أرسل أخاه عبدالله آغا إلى كردستان الشمالية وسط رمان، أرسل إليه حاجو مستدعياً إياه وقال له: ليكن خيراً، لقد سمعت أنك أرسلت أخاك برفقة «6-70» من الخيالة، ترى ما الأمر؟ فرد أمين على حاجو قائلاً: قسماً برأس أبيك لا ليلي ليل ولا نهاري نهار، لقد أباد هذا الزنيم علي شامل بك آلاي حاكم ماردین، عشيرة رمان، وأنه عن طريق عملائه يفرض ضريبة على بيوت وجهاء رمان، حيث إنهم قبل شهر أو شهرين قتلوا رجالاً أشداء من رمان، وبقيت جثث دون رؤوس في الأنحاء، لهذا السبب أرسلت أخي إلى هناك، بغية قتل علي شامل إذا صادفه أخي، فقال له حاجو: قسماً برأس أبيك، مثلاً أن ذلك الزنيم علي شامل قد مارس التخريب بين رمان، هكذا شأنه أيضاً بين هفیركان، سوى أنه قبل فترة أقبل قائد من فرنسا وأسمعني قوله: لو كان هناك رجال يتمكنون من علي شامل لكان ذلك مفيداً، كونه قتل بعض الجنود الفرنسيين أيضاً، وتابع حاجو قائلاً: ألا فلنمض إليه، ولنقل له، وسنعلمه بناءً على ما قلت أنك أرسلت أخاك عبدالله آغا إلى رمان لينال منه، ولكي تستجيب فرنسا لطلبنا في حقوقنا الكردية.

فقال حسين نواف آغا: وذهب والدي بدوره مع حاجو وأمين بريخان إلى القائد الفرنسي، حيث أعلمه حاجو قائلاً: لقد أخبرتني قبل فترة، لو كان هناك من يمكنه النيل من ذلك القائد المارديني علي شامل، لكان ذلك مفيداً جداً، وبناءً على كلامك، أرسلنا عبدالله آغا برفقة «60-70» من الخيالة المسلحين إلى سرختي، وإذا صادف أن لاقوا علي شامل فسوف ينالون منه، وعندما أعلم حاجو آغا القائد الفرنسي بذلك، كاد أن يطير من الفرح، ووجه نظره إليهم قائلاً: بشرف دولة فرنسا، وبهذه النجوم التي تعلقوكتفي، سوف لن ندخر جهدنا من أجل حقوقكم أنتم الكرد، وأن حقوقكم دائماً في بالي، لأن من هم أكبر يتحدثون عن قضيتكم، وعلى هذا نهضوا من عنده، وتوجهوا إلى بيت حاجو سيراً على الأقدام، وهناك كتب أمين بريخان رسالة وأرسلها إلى أخيه عبدالله.

وفي المحصلة يتمكن عبدالله ورجاله من قتل علي شامل، وبعض رجاله، كما جرّحوا آخرين، ومن بقوا سلّموا أنفسهم.

كان عدد القتلى «12» قتيلاً وعلي شامل ضمناً.

وجيء برأس قائد ماردین، حيث توجه الرجال إلى بلدة الحسجة، وسلّموا رأس علي شامل إلى حاجو آغا، وهذا بدوره أخذ موعداً من الجنرال الفرنسي، مصطحباً ذلك الرأس معه، وعندما أبصره الجنرال فرح كثيراً، وقال غداً سوف أعلمكم بالخير.

وسيرهم الضابط الفرنسي إلى الجنرال الفرنسي في دير الزور، ولكن هذا الجنرال عندما سمع بذلك احتد، مستفسراً عن كلفهم بذلك، فأخبروه بالتفاصيل، وتهيأ الرجال لكل الاحتمالات، ومن ذلك أن الجنرال إذا ضغط عليهم أكثر فسوف يأسرونه، وأعلموه أن ما تم

وجوب السؤال :

في محتوى الوثائق ما يحقّزنا على الكثير من الكلام ذي الصلة، ومن ذلك: ما الذي دفع بفرنسا لأن تغطّي هذه الواقعة، وهي تنتمي إلى جغرافيا سياسية أخرى؟ لكنه سؤال يدفع بجواب من جنسه: وما الذي لا يدفع بها لئلا تهتم بما يجري، وثمة حدود تعنيها في طابعها الاستعماري، وثمة شراكة معتبر: سياسياً بينها وبين تركيا، إنما أيضاً بينها وبين دولة، هي توأمتها في الإثم الاستعماري تقيم في الجهة الشرقية من حيث تنتدب: بريطانيا، وأن تركيا وهي التي استولت على القسم الأكبر من المساحة الجغرافية كردياً، أو أعطيت إياها، تكون محل اهتمام أكثر، في موقعها، وليس لأنها في مقام «الأخت» المدللة الكبرى، أو غير الشقيقة مباشرة، مقارنة بكل من إيران، العراق وسوريا. إنها تقديرات منحتها هذه المناقب لا حياً فيها، كما نوّهت، وإنما كراهية في الإحداثيات الجغرافية بمعالمها السياس حيث تقيم روسيا في الجوار، ولهذا كان هناك أكثر من خط تحرك، أكثر من تسهيل لمهام العنف المتعددة الأبعاد لهذه الدول الإقليمية ضد الكرد، ومن ذلك تلك التسهيلات المقدمة من فرنسا لتركيا، لقمع حركة الشيخ سعيد، وتعرف أي حصاد رعب لها⁽¹⁾.

كان بأمر منكم، ومما قال له حاجو وهو يخاطبه: أظنونها لعب أولاد، لتتهمونا هذا التهم، وكأننا تصرفنا من عندنا، فاستعاد الجنرال هدوءه. وأخبر الجنرال الفرنسي حاجو أن الدولة الفرنسية في حالة حرب، ولا تريد لأحد أن يعلم أن علي شامل قد قتل بإيعاز منا، ذلك خطأكم، إنما خطأ الجنرال الذي دبر لكم هذا التدبير).

تُرى، هل كان الجنرال الفرنسي مخادعاً أم يقول الحقيقة، أم محكوماً هو الآخر بأوامر الأعلى منه، أم أن هناك أمراً آخر، لم يفصح عنه؟ كل شيء جائز، سوى أن المهم في الموضوع هو مراعاة كل جزيئة في الموضوع، أي موضوع، لئلا يكون هناك شطط أو لغط في أي قراءة أو موقف مما يُقرأ، أو يكون عليه الشخص موضوع البحث.

(1) من مناحات الرعب قبل المحكمة وبعدها بصورة أكثر، ما استوقف نورالدين زازا في مذكراته (إن المحاكمات الفورية لهذه المحكمة الاستثنائية وقراراتها والعقوبات التي نطقت بها وأمرت بتنفيذها على عجل خلقت جواً من الرعب والهلع. وفي مقابلاته مع الصحافة كان علي صائب، رئيس محكمة الاستقلال لديار بكر، يمجّد نفسه ويتباهى «بتزيينه للمشائق برؤوس المتمردين»... ولم يطلق هذه الكلمات جزافاً على الإطلاق، ألم يقيم علي صائب بشنق 55 قائداً للثورة بعد مرور شهر على اعتقالهم ومن بينهم الشيخ سعيد، زعيم الثورة

تُرى، هل كان تصرف حاجو آغا، فيما أقدم عليه، في وسطيته التقديرية، في غير محلّه، أم أنه فيما قام كان يقدم الاستراتيجي على التكتيكي، مدركاً أنه بذلك، وإن خسر بعضاً من سمعته عن قرب، لكنها كسب مكانة عن بُعد ولما هو بُعد.

وهو في الثمانين من عمره؟ وبدلاً من تسليم أجساد الشهداء إلى عوائلها قامت السلطات التركية بتكديس الجثث ودفنها في مقبرة جماعية، قرب المشنقة مقابل المدخل المعروف باسم «باب الجبل» لقد كانت المحكمة تكتفي بإضبارات قديمة وتقارير الشرطة أو الوشاة العاديين للمطالبة بإعدام أطباء ومحامين وشعراء وعلماء دين (ص44).

للتصحيح طبعا، بصدد حياة الشيخ سعيد، فقد عاش بين عامي «1865-1925»، أي كان عمره «60» وليس «80» كما ذكر زازا، وهذا ينطبق على عدد المعدّمين، إذ كانوا دون الخمسين، كما سنرى...!

وللتأكيد على عنف الجاري أيضاً، نقرأ على خلفية ما تقدّم ما أورده جرجيس فتح الله، في كتابه: بقطة الكرد، دار آراس- أربيل، دار الجمل-بيروت- بغداد، ط1، 2012، عن أن محكمة الاستقلال أصدرت (حكماً بالموت شنقاً على اثنين وخمسين خلافاً للشيخ محمود، ومن بينهم السيد الشيخ عبدالقادر ابن عبيدالله النهري، العضو السابق في مجلس الأعيان وأحد رجال الدولة الكبار في الحكومة التركية، وثمانية شيوخ قبائليين وروحانيين آخرين تم إعدامهم في أواسط نيسان ولحق بهم الشيخ سعيد مع ستة وأربعين آخرين في 4 أيلول 1925)، حيث علّق المؤرّخ الانكليزي توينبي على ذلك وفي الكتاب نفسه عن أن الحكومة التركية كانت بارعة (في القضاء على الثورة إلا أنها أظهرت غباء وسوء تقدير وافتقاراً إلى الحكمة السياسية في التعامل مع الكرد بعد الثورة، وكشفت عن حماقة في ضروب القسوة التي استخدمتها بروح ثأرية شخصية لا كدولة بعيدة النظر.. ص297).

كل ذلك، طبعا، يستحق التوقف عنده، وما كان عليه موقف الكرد حينذاك تجاه آلة الإرهاب الكمالية، وحقيقة المعدّمين حقاً، فثمة اختلاف في عددهم من رواية إلى أخرى، كما في حال رواية زازا وجرجيس...

الرحيل إلى بنختي Bin xetê: ولادة سياسي كردي اسمه : حاجو آغا

«إن تبجيلنا للذاكرة لا يخدم في كثير من الأحيان التاريخ بالشكل المطلوب، وكذلك الأمر بالنسبة للعدالة عندما تتوقف عن كونها مصدراً للوثائق التي تقدم للتاريخ من أجل تحليلها، وتصبح إخراجاً للمعرفة التاريخية».

تزفيتان تودوروف: الأمل والذاكرة «خلاصة القرن العشرين»، ص282.

درس الجغرافيا أولاً :

السياسي عدا عن كونه بحاجة إلى إجابة لا بد منها بخصوص لغة السياسة «قراءة وكتابة» ليقبل به سياسياً، وهي في تقلب مناخاتها، وتدرجاتها الاعتبارية طبعاً، وظروفها الزمانية- المكانية، فإنه في الإطار نفسه بأمر الحاجة لأن يكون على بيّنة من المعرفة الجغرافية: كيف يتفاعل مع الجغرافيا وهي خارج امتدادها أو انتشارها الطبيعي، أي من خلال تنوعها التضاريسي، أبعد مما هو مرئي فيها، ليتسنى له الإصغاء إلى المتداول في باطنها، وما يمكن أن يحدث، كما هو المتعلق بكل من الزلازل والبراكين، ما يتعلق بالمفاجآت، ليكون أقدر على الانتماء إليها، وألا يكون سلبي الانتماء بالذات.

ولا بد أن الناس يتفاوتون فيما بينهم داخل المكان الواحد، وفي النقطة الجغرافية الواحدة، وفي اللحظة الواحدة، لأن البناء النفسي يتضمن ذخائر جغرافية وتاريخية، وهي كعملية تراكمية تجعل حاملها كائناً مختلفاً في آن وحين، وهذا ما يميز بين فرد وآخر، ما يجعل أحدهم اسماً ذا شأن، وقد تجاوز في كل إضافة زمنية جديداً ما، أو لا يحاط به ميكانيكياً .

ذلك ما يتعلق بتحويل الجغرافيا إلى علم باطني وتاريخي، بقدرة الإنسان على إعادة برمجة تبعاً لنوعية إرادته.

وكي لا أبتعد كثيراً عما أريد الانطلاق منه، أشدد على المهم في حياة الإنسان الذي يتوالد في الزمان والمكان، كما لو أنه هو وليس هو، إنسان ما كان، ولكنه ليس ما كان، وإنما ما يريد أن يصير إليه، أو يكونه.

ولعل ما دفعني إلى هذا القول، وأنا أجدني في مواجهة مشكلة الحديث عن حاجو آغا وقد أصبح أكثر قابلية للنظر فيه، بوصفه شخصية مؤهلة لأن تقبل بها

الجغرافيا وقد احتفظت بأثر له، والتاريخ، وقد أفرد له أرشيفاً، والسياسة ما بينهما، وقد رأت فيه، ما يراه المعلم في تلميذه وقد استوعب درسه، وأصبح هو نفسه درساً، أي حيث يعترف به سياسياً .

كيف يمكن التأريخ لهذا الحدث، وهو يستدعي الزمان والمكان؟ وأي مسوِّغ ليكون هناك تأكيد على أهمية هذه اللحظة ؟

إنها هذه اللحظة التي نسميها بالحدث الانعطافي والذي يغيّر فيه مجرى حياة الواحد/المرء/الإنسان، ولكنها اللحظة التي تكون في الكتابة، إلا أنها كعملية تعبير وتوقيت ليست أكثر من مخاض زمني، ربما يتعدى حدود العمر الفعلي للإنسان، على مستوى المعاناة والمكابدة، ووشائج القربى مع ما هو شخصي، وأهلي، ومحلي وحدودي وتاريخي قديم، وهو ما يبقى أياً كان في وضعية صيرورة على قدر إمكاناته وتفهمه لما يجري في محيطه النفسي والاجتماعي والسياسي كذلك.

ولعل الذي حوّل بحاجو، لأن يكون حاجو آغا، أكثر من محمية هفيركان، ومنطقة جغرافية، هي منطقة تحركاته، هو حاجو نفسه، هو حضوره في المكان وتقلباته، وانفتاحه على التحديات، ورهاناته، وحتى مجابهاته ذات الطابع المغامراتي هنا وهناك، حتى بالنسبة لعلاقته مع أقرب المقربين إليه، ومع جملة العشائر والقبائل الأخرى في المنطقة التي لا تعترف بالحدود بالمفهوم الكردي العام، وفي ظل تحديات ومستجدات، خصوصاً إثر واقعة بيان دور، كما لو أنها أذنت بالانتقال إلى اعتماد سياسة جديدة، والتي اكتسبت صفة أكثر نمواً «لحمياً وعظماً» ودماً وملامح» في مطلع عام 1925، حيث كانت الثورة المعتبرة للشيخ سعيد وأهوال الحادث في إثرها، أي باعتبارها نذيراً له، لأن يغيّر مساره، ويكون حاجو آخر.

بعض مما جرى، كان صنيع الأحداث، وبعض مما جرى كان صنيع يد حاجو آغا وتفكيره ومن يحيطون به .

لا بد أن مجريات محكمة الشيخ الستيني، والموقف الذي اعتمده في التعامل مع ما جرى عنوان بارزاً في متن علاقته بالزمان والمكان، إن من جهة علاقته بالسلطة مباشرة، وهو العامل الأهم، والتحدي الذي شكّله موقفه، إذ كان عليه أن يكون أكثر وضوحاً، وهو الذي تمثّل في أن يكون هذه المرة مرثياً فيما يقوم به، وليس أن يناور، كما ناور قبل ذلك، أو من جهة علاقته مع المكان الذي يقيم فيه وهو في وسط كردي

غير منسجم من الداخل، دون ذلك كان انتحاره، حيث إن تركيا لم تدخر جهداً في إيلام الكرد وهي تستخدم كل صور العنف المادية والمعنوية ضدهم.

فاذا كانت «سيفر» 1920 في مقام المولود المنتظر للكرد أجمعين، وبعد انتظار طويل، كانت «لوزان» الحكم بالإعدام على ذلك المولود وهو في المهد، أو لم يلقم ثدياً بعد، كتهديد لكل من يفكر ولو لسنوات طوال تالياً، بانتظار شبيهه له، وكأن العنف الكمالي قبل سواه، جاء بمثابة البرهان على هذا التأكيد الرهيب، وبشكل متواصل، كما لو أن النظام الكمالي كان يرى أن مجرد الركون إلى التهدة، أو حتى التقاط الأنفاس يعني أن «العفريت الكردي» سيخرج من قمقمه ويتهدده، وربما إلى هذا كان توجه أولسن/أولسون السالف ذكره (والحق أن الحكومة التركية شنت، منذ 1925، حرباً مستمرة على الكرد. فقامت حروب كبيرة مرة أخرى في الأعوام 1930 و1937 و1938. وكان قمع المقاومة الكردية في درسيم خلال حرب 1937-1938 من القسوة ما جعل الباحثين يعتبرونه إبادة جماعية أو إبادة عرقية. وأحد العوامل التي جعلت الحملة هذه تنجح في إبادة الثوار الكرد منذ 1930 حتى الآن هو تطور سلاح الجو التركي الذي كان منذ وقت مبكر «1930» يملك 300 طائرة ..⁽¹⁾ .

أي إن عبارة «لغة الحديد والنار»، وهي متداولة من قبل السياسيين ممن يشهرون بها في أعدائهم بارتكاب فظائع في حق شعبهم/شعوبهم، إن كان لها من مقام لأكثر من مرة، ربما كانت كردستان المكان الأكثر تعريضاً بها وكوارثها، حيث إن الأكراد أنفسهم وغيرهم يؤكدون هذه الكوارث/الفظائع. إذ مهما قللنا من طابع المبالغة فيها كردياً، يبقى المعلَن مرعباً في واقع الحال (وبالاستناد إلى مصادر كردية، فقد وصلت الخسائر في صفوف المدنيين وممتلكاتهم «أي بعد ثورة الشيخ سعيد وفشلها» إلى 206 قرى مدمرة، و758 و8 منازل محروقة و206 و15 قتلى من رجال ونساء وأطفال. بعد سنتين من هذا التمرد زعم ثريا بدرخان أن مليون كردي قتلوا أو رُحّلوا، وبعد خمس سنوات، زعم شيركوه بالمقابل، أن أكثر من 500000 جرى ترحيلهم خلال شتاء 1925-26 و1926-27 و1927-1928، وأن أكثر من 200000 من هؤلاء المرحلين فقدوا حياتهم في إطار ترحيلهم القسري إلى الأناضول الغربية. هذه المصادر ذاتها أن الكرد تكبدوا 400 و2 إصابة ميدانية بين

(1) أولسن، روبرت: المسألة الكردية في العلاقات التركية-الإيرانية، المصدر المذكور، ص 27 .

قتيل وجريح في حين تكبدّ الترك 50000 إصابة بين قتيل وجريح، وقد ذكر بأن الحملة كلّفت الخزينة التركية 60 مليون ليرة تركية⁽¹⁾.

طبعاً، حول ذلك يمكن الرجوع إلى كم هائل من أدبيات الفترة المذكورة، وهي من حيث المرجعية تحديداً تعلمنا بمدى تردّي الأوضاع، ورعب أن يسمّي أحدهم نفسه كردياً بسهولة، فكان على الكرد أن يبحثوا عن مخارج أخرى للتعبير عن ذواتهم، وكيفية حضورهم، في الوقت الذي تخبرنا كتب التاريخ أن الكرد لم يهادنوا أعداءهم وهم يقتلون ويقتلون ويقتلون .

ربما كان حاجو آغا من هذه النوعية التي كان عليها أن تبحث عن مسار آخر للتعريف بمن تكون، وبصيغة مختلفة .

لكن عملية العبور من قبل حاجو وهفيران للخط الحدودي، لم تكن بالأمر السهل، ليس لصعوبة العبور، وإنما لأن ما قيل ويقال حتى الآن يكاد يلخص تاريخاً كاملاً من الصراعات والمكائد، وربما لوجود ردود أفعال على سبب عدم مشاركته في ثورة الشيخ سعيد، وأنه لم ينتقل إلى الجانب الآخر «بنختي» إلا بحثاً عن زعامة تعنيه، وأكثر من ذلك، لأنه من منظور الذين كانوا يختلفون معه حينها وبعدها كذلك في ضوء ما يثار من أسئلة لا صلة مباشرة لها بالواقعة كواقعة، وإنما بالموقف من الشخص على خلفية حساسيات قائمة ومحسوبة، أو حصل اختلاف وأكثر منه، إثر نزوله واستقراره في رقعة جغرافية واسعة، ومن ثم تمكّنه من السيطرة واكتساب الشهرة في علاقته بفرنسا بالذات، ليكون أكثر من منافس وخصم لنظرائه من الكرد، ومن سبقوه أو نزلوا معه إلى «جنوب الخط» الحدودي، أي حيث اللاحق يفسّر السابق، أو أن الأخير يثقل على الأول.

جكرخوين لا يؤرّخ لما جرى إذا افترضنا أهليته للتأريخ واقعاً، إنما يحيل الجغرافيا الكردية إلى مشرحة ومن فيها ممن يتهمهم بالمسؤولين عن فشل الثورة تلك بالخيانة، باسمها أو بدونها، ليعمق في بنية الحالة النفسية المتشنجة مما جرى، ودون تحليل (خلال سنة 1925-1926 التجأ الكثير من رجال الثورة إلى كردستان سوريا، على اختلاف مشاربهم «شيوخ، بكوات، ملالي، آغوات...» منهم المتعلمون وغير المتعلمين، اللصوص والقتلة وقطاع الطرق، وكذلك الكثيرين من

(1) جويده، وديع: الحركة القومية الكردية: نشأتها وتطورها، ص 489 .

الوطنيين، منهم من قتلوا رفاقهم مقدمين خدمات جليلة للأعداء... ويتابع لاحقاً: فقد التجأ إلى كردستان الواقعة تحت السيطرة الفرنسية الكثير من الرجال أمثال: كور حسين باشا حاج موسى ختي، أمراء خرزة، أمراء بالو، أمراء دارهين، عائلة الشيخ سعيد، شيوخ جاني، شيوخ خربوت، شيوخ بدرالدين حاج علي، اسماعيل حمد، عائلة جتو، عائلة علي يونس، البدرخانيون، د. أحمد نافذ بك، شوكت زولفي، أوصمان صبري، رشيد كرد...).

ويبقى لحاجو آغا حساب آخر، ضمن كل عملية تصفية نفسية ممن يعتبرهم مسئولين عن أي هزيمة كردية، في تنمة سرده (وان الكثير من هؤلاء يحتاج إلى عدة كتب، ولقد نزل الكثيرون منهم عام 1925 إلى سوريا كما ذكرنا، لكن حاجو بقي في كردستان الواقعة تحت السيطرة التركية حيث أنصاره الهفيكران... ص 184).

ذلك يشير إلى أن الكتب التي عنى بها، يكون حاجو ربما في مقدمة من هم بحاجة إلى تأليفها لتبيان «تَهْمَه»، وفي السياق نفسه، فإن اللائحة الاسمية تلك، وهي متنوعة، كان في الإمكان التعرف عليها، لولا التقديم لها، أي ما يضعنا في مواجهة خلط الأسماء ببعضها بعضاً، ومن منظور طبقي ضيق، وحتى عمى تاريخي، وما يمضي بنا إلى ما هو أبعد من حدود توجيه الاتهام: تلبس التهمة، وليس في الإشارة إلى بقاء حاجو في الأخير، إلا ليغمز من قناته، أي كونه لم يبق إلا ليوحي أنه بقي صامداً، وليس لأنه كان يقيم علاقاته مع أعداء الشعب الكردي من الكماليين.

طبعاً، ليس في الوسع هنا، الدخول في تفاصيل خلافاته مع قريبه «صاروخان/ سروخان» وهو محل مديح الشاعر بشكل لافت، رغم أنه هو نفسه آغا، وإبراز مدى تجنّي حاجو عليه، كونه الهارب منه «ص 184»، وفيما بعد، ما قام به حاجو من عملية «مسرحية في محاربة الأتراك ومخاطبة الأغوات للوقوف معه ضدهم (ولكن كما يقول المثل الكردي: بعد المطر وضع البردعة على الحمار. ص 186).

أي حيث ثبتت التهمة عليه، وهو يحاول تبرئة ذمته منها، لكن بروينسن يضعنا في صورة أخرى، وهي متسلسلة بالنسبة إلى تداعيات أحداثها، خلاف جكرخوين وفوبيا ذاكرة المكان الخاصة ومن يديره، إثر الثورة المذكورة، وما قرّره حاجو، أو قام به (وبعد عام حان أوانه: ففي أواسط آذار/مارس 1926 احتل رجاله مواقع للشرطة وأخرى حدودية، وطردوا جميع الموظفين الحكوميين، وطلبوا مساعدة فورية من جميع الزعماء البارزين في الجوار، بما في ذلك ما كان قد أصبح يعرف

بسوريا والعراق. كانت الثورة سيئة التخطيط، وليس واضحاً الآن، لدى استعادة الماضي، السبب الدقيق الذي يمكن أن يكون قد أدّى إلى إفشالها. فربما كانت الحملات الانتقامية التركية ضد الأكراد، هي الأخرى، ذات أثر على المنطقة. ولربما كانت هناك خطة ما مدروسة، لكن تنفيذها جاء ناقصاً، فقد حدثت في الوقت نفسه ثورات صغرى في أجزاء أخرى من كردستان الوسطى. أما الاستجابات للمناشدات التي أطلقها حاجو من أجل القومية الكردية فلم تأت إلا من بعض القبائل المجاورة التي كانت واقعة تحت سيطرته أصلاً، ومن عدد من الأفراد من قبائل أخرى. ومن بين هؤلاء الأفراد كان شقيق الشيخ سعيد، مهدي، الذي كان قد التجأ إلى العراق أول الأمر. فقد كان معظم الزعماء القبليين يخافون من إلزام أنفسهم. وظل حاجو مسيطرًا لوحده على كامل المنطقة لمدة تقرب من العشرة أيام، ثم أجبره الجيش التركي على الانسحاب إلى داخل سوريا، ولم تكن السيطرة الفرنسية على أقصى الجزء الشمالي- شرقي من سوريا سيطرة كاملة بعد، فكان بإمكان حاجو ومضطهديه معاً أن يدخلوا المنطقة ويغادروها ثانية بسهولة. ومنحت قبيلة طي العربية اللجوء لحاجو، الذي بقي متمرداً بعضالوقت، بشن غارات داخل تركيا تصحبه زمرة صغيرة «جته» على طريقة حرب العصابات، ويهاجم الدوريات التركية، إلى أن أوقفه الفرنسيون⁽¹⁾.

على النقيض مما يفكر فيه، لحظة التذكير بمفهوم «العصابات»، حيث إن حاجو اعتمدها في مناوشات متقطعة له، وكان كغيره، قبله وبعده، ضد قوة نظامية ومدرّبة تمثل الدولة، كما في حال ثورة الشيخ سعيد، لأنها تعتمد على المباغته، وكون أي اشتباك مع العدو لن يكون لمصلحة مشكّلي قوة عددية محدودة، وسلاح خفيف كذلك، وحتى يومنا هذا، فإن الحديث عن البيشمركة، يعيدنا إلى قوتها وهي كانت تباغت أجهزة النظام العراقي وعلى مدى عقود زمنية، وقواته، لأنها من حيث البنية فالحلة أكثر، أي إمكان إنزال إصابات مباشرة، وفي زمن قصير، ومن ثم الانسحاب، سوى أن المفصّل عنه، هو ما يخرج «العصابة» عن سياقها التاريخي، أي بوصفها مكوّنة لنهب بني جلدتها وسلبهم ممتلكاتهم، وما في ذلك من خلط بين حالة وأخرى، أي حين نستعيد الكلمة في معناها، بالنسبة لحاجو باعتباره عدو «قومه» ليس إلا، وأكثر من ذلك، حيث يشير إلى أنه هرب من عدو واحتمى بعدو

(1) بروينسن، مارتن فان: الأغا والشيخ والدولة، ج1، المصدر المذكور، ص 237.

وسلم نفسه لعدو، كما يبدو، في رواية جكرخوين طبعاً، وهو يأتي على ذكر أخيه صاروخان/سروخان ومشاكله مع كرد «بنختي: كالشيتية» (أما حاجو آغا فقد التجأ إلى شيخ «طي» العربي منقذاً نفسه من براثن الموت، وبمساعدة شيخ الطي «محمد عبدالكريم» وصل إلى الفرنسيين، الذين هربوه بدوره بالطائرة إلى لبنان حيث القائد الفرنسي الذي يحكم سوريا ولبنان. باركوا قدومه ورحبوا به وخصصوا له راتباً... الخ . ص 187) .

ثمة تعارض كبير بين هذه الرواية والرواية السالفة، أي ما يجرد هذه الرواية الأخيرة من كل قيمة تاريخية، وبالعكس من ذلك، ما يثبت التهمة الموجهة إلى حاجو آغا، وما كان يخطط له، وما أراد أن يقوم به وهو يعبر الخط الحدودي أيضاً .

وبالمقابل، فإن ما يقوله الباحث الكردي العراقي عثمان علي هنا، وهو (وبرز هاجو بيك زعيم عشيرة هافرنيكي قائداً للمجاهدين العاملين في منطقة الحدود التركية السورية ..)⁽¹⁾ إنما يصب في هذا المصب التاريخي الذي يقوم على الطابع الاجتماعي السياسي والنفسي للآخر، ومن خلال جملة مؤثرات فاعلة في الساحة، ومن تقديرات تقرب الباحث من حقيقة من يتحدث عنه، وإنما أيضاً ما يدفع إلى التروي في إطلاق حكم قطعي، لا يخلو من تسفيه .

بصفتي قارئاً للتاريخ وباحثاً فيه، أرى أنه في الكثير مما أقرأ مما يخص هذه الفترة «الربع الأول من القرن العشرين خصوصاً»، تتوافر مجموعة من الثغرات التي تحول دون رؤية المقروء بتمامه، أي في مواجهة أكثر من سؤال، ليس لأن الذي أقرأه يفتقر إلى الوضوح، وإنما لأن ما يتم تحديده في المقروء، وبلغات آخرين، يجري تحويله، أو يقرأ في كتابات كتاب كرد من زاوية مختلفة، حيث تصبح صورة السياسة مهلهلة، ضحلة غير مشجعة على القراءة:

إن ما سطره لازاريف، نيكيتين، ادموندز، وديع جويده، بروينسن، أولسن وغورغاس... الخ، يترك أكثر من فرصة أمام القارئ لكي يفكر بينه وبين نفسه، ويمضي بتفكيره في أكثر من اتجاه، وليس أن يدخل في اشتباك مباشر مع موتاه تماماً .
ففي الحديث عن الصراعات القبلية إشارة بلزوم التعرف إلى مجتمعتها في ضوئها، وكذلك التاريخ الذي يكتب عنها، ومما لا شك أن مدونات الآخرين»

(1) علي، عثمان: الحركة الكردية المعاصرة «دراسة تاريخية وثائقية 1833-1946»، ص 523.

كالعرب، مثلاً، لا تخلو من مناوشات جانبية من هذا القبيل، كما يتحدث عنهم ككتاب مرموقون مثل عبدالرزاق الحسني، علي الوردي، وحنا بطاطو، بينما في حال الكاتب الكردي فالتحليل يكاد ينعدم، وإن وجد فهو بالكاد يلمس تحت وطأة الاشتباه، أو تعكير ماء التاريخ ذي العلاقة.

إن القارئ، مثلاً، لا يحتاج إلى ذكاء مضاعف ليدرك إلام يرمي آلاكم، حين يسطر هذا التاريخ مأخوذاً بلغة جكرخوين، حول حاجو، وما قام به بعد النهاية المأسوية للشيخ سعيد (فيمَنَح حاجو آغا، النازح إلى كردستان سورية، بعد ثورة الشيخ سعيد أراضي كبيرة. ثم هو بعد أن يطور علاقاته مع الفرنسيين يتحول إلى قوة يحسب لها حسابها في سورية، ويعمل أبنائه حسن وجاجان ومسعود، أيضاً، في صفوف خويبون)⁽¹⁾.

هل الكلام المدوّن هنا يحتاج إلى تفكيك دلالي؟ ألا يعني التذكير بقولة «هذا الولد من ذاك الوالد»؟ إنما سلباً، وإلا فإن الذي يُسأل هو: ما الذي يثار في بنية هذه العلاقة التي يفلح حاجو في نسجها دون الآخرين، أو يكون تحت الضوء أكثر من الآخرين؟ أليس لأن هناك طاقات ذاتية تحفّز فيه إرادة التفاعل مع المكان وتأكيد وجوده، وليس مجرد الارتهان للآخرين؟

جبو، في متابعة سينمائية يسلط الضوء على عملية الانتقال وما حدث في رواية تستغرق عدة جهات، وتبقي رواية شاعرنا جكرخوين جانباً، أو في الخلف، أو معرّضة للمساءلة عن جانبها الاتهامي، ولعلّي وأنا أورد رواية جبو الذي لا بد أنه هو الآخر تابع هذه التحركات من خلال قراءات معينة، ومشاهدات معينة ومرويات شخصية معينة، وربطها معاً، أي وهو يخضعها لترتيبات تعنيه، ولو أنه أحياناً يورد رواية بتسمية صاحبها، وما يترتب عليها من تأثير أو تحفيز ما هو نفسي، أو عقلي تبعاً لسوية المروي، بين رواية تنشّط الخيال وتشجّع على المتابعة مع بروينسن، وتحبط العزيمة، وتعكّر صفو البال مع جكرخوين، إلى جانب أنه يسرد ما سمعه دون الإشارة إليه، وبوصفه تاريخاً في تنوعه، وبعد أن أصبح الوضع في تركيا جحيمياً (كان حاجو يسعى إلى توحيد الكرد ضد الدولة من خلال لم شمل العشائر وهو يرسل نداءات إليها.. وعندما كان حاجو منهمكاً في

(1) آلاكم، روها: خويبون وثورة آكري، المصدر المذكور، ص 46 .

هذه المساعي حدث خلاف بينه وبين أحد أبناء عمومته وهو سروخان، وجرت بينهما معارك. وبعد هزيمة الأخير ذهب مع أفراد العشيرة التابعين له إلى جنوب «الحدود»، أي عبر إلى «سوريا». ونتيجة لهذا الحدث، ومع تآكل قوة هفيركان العسكرية تدنّت المعنويات أيضاً، بيد أن زعيم الهفيركان لم يكن من نمط أولئك الذين يستسلمون بسهولة، فقد واصل استعداداته وزاد منها. ص 153... في غضون ذلك كانت قوات الدولة تراقب تحركاته عن كثب من خلال أعوانها.. ويقال أن أحد الذين كان يقدم معلومات للدولة بانتظام، كان حسين بن جليبي. ص 154.

ثم ما يلي ذلك: بدأت عملية مراقبة حاجو وعائلته أولاً، وبقية وجهاء العشيرة عن كثب، بشكل مستمر، وقد جرت عدة محاولات فاشلة لاعتقال حاجو، ولكن مع مرور الزمن كان الطوق يضيق.. ص 154... فالتحضر لعمل يتناسب ومستجدات المرحلة الجديدة: بدأت حركة [حاجو] في شهر آذار عام 1926، وقد بدأت من مركز الاتحاد في قرية مزيزخ التابعة لمديات، وامتدت على طول الشريط الحدودي في نصيبين... لقد قامت قوات هفيركات بالهجوم على مخافر الشرطة في المنطقة، وخاصة المخافر الحدودية... واللافت في حركتها وجود نقاط ضعف مهمة جداً، كعدم القيام باستعدادات كافية، والتوقيف غير المناسب... كيف حصل ذلك؟ وهنا تبرز الاستفادة من كل من بروينسن وجكرخوين: ص 154 - 155.

ولنجد أنفسنا إزاء القرار التاريخي، وهو المتعلق ب: انسحاب الهفيركانيين إلى سوريا:

(عند هجوم قوات حاجو كانت سوريا تحت الانتداب الفرنسي، حيث استطاع حاجو السيطرة على المنطقة لمدة 10 أيام في مواجهة الجيش التركي الذي أجبره [بعد ذلك] على الانسحاب إلى سوريا).. ص 157... وما حضر له نفسه لهذا الغرض: إن زعيم الهفيركان الذي أدرك أنه لم يعد له ملاذ في كردستان الشمالية أصدر قرار الانسحاب إلى «سورية». وقد أخذ معه الكثير من الموظفين الرسميين المدنيين كرهائن حتى عبوره «الحدود». وقد عبر إلى الجنوب مع كل أقربائه وأصدقائه المقربين مع 400 أسرة من العشيرة، من ضمنها أسر إيزيدية وسريانية كثيرة... وبصورة عامة فقد عبر الشباب المسلحون مع زوجاتهم وأبنائهم وما استطاعوا حمله من مقتنياتهم. ص 157... وما يتوقع أن يحدث جرّاء هذا الذي قام به: وعندما عبر الهفيركيون الحدود كانت الطائرات تقصف جميع القرى

على طول» الحدود» واستمر القصف لأيام، وكانت القرى تسوى مع الأرض.. ص 157... وما جرى في الطرف الآخر: والذين عادوا تلبية لنداءات الدولة كانت المدافع والطلقات تحصدهم، أو يهجرّون إلى مناطق غير معروفة لئلا يعودوا مجدداً... ص 158... ثم البعد النفسي لمن انتقلوا: ومن عبروا الحدود لم يرتاحوا.. فالهفيريون كانوا بعيدين هذه المرة عن أرضهم ووطنهم... ص 158... الخ) .

هذه القراءة، من خلال مروية متشعبة، تستدعي النظر النقدي تجاوباً من حدودها، وهي تستغرق مساحة جغرافية واسعة، لا تقتصر في مستجداتها على خطوط تحركات هفيركان وزعيمها حاجو آغا، إنما ما أوسع من ذلك، بالنسبة لواقع الكرد، وكيف كانوا يواجهون مصيراً بائساً في الفترة تلك، وهذا الأمر يتعلق بحاجو وما ارتسم أمامه من مصير يصله بغيره، لكنه يمهره بطابعه الخاص، كونه لم يتجاوب مع الأحداث سلبياً، وأعتقد أن مراعاة جدل الداخل والخارج في بنية الشخصية وموقعها الزماني- المكاني في غاية الأهمية للتعرف عليها في مكوناتها النفسية.

علم السياسي ومعرفته :

أستدعي هنا، مجدداً، قولاً لعالم الاجتماع الانكليزي بادي، يتركز على علاقة من هذا القبيل، وهو (إن معرفة السياسي ومعرفة خصوصيته، ضمن كل تاريخ، تفترض تجاوز الصيغ الإيديولوجية للوصول إلى كشف العناصر المتواترة التي تؤسس الممارسات والاستراتيجيات)⁽¹⁾، حيث إنه في محتواه يضيء المساحة المعرفية بين الشخص موضوع البحث والآخر ممن يعمل بصفة الباحث، إذ يتجنب، كما هو مقروء آنفاً، ما هو مخل بكينونة الآخر، أي كما لو أنه غير موجود، وقد أخرج من نطاقه اليومي، الاجتماعي والنفسي، وتناوله بطريقة لا تقيم للآخر اعتباراً، وفي المقاربة النقدية، تلمست الكثير من الاختزال الذي يستهين بالتاريخ ومجتمعه وأفراده الفاعلين فيه .

في نطاق المسح الجغرافي بطابعه السياسي، والمكاشفة الاجتماعية بعائدها النفسي، ثمة ما ينكشف، لحظة استشراف مساحة التحرك، والأشخاص الذين يتحركون واتجاهاتهم، والقوى الفاعلة على الأرض والمؤثرة فيهم، وتلك التحديات

(1) بادي، برتران: الدولتان «الدولة والمجتمع في الغرب وفي دار الإسلام، المصدر المذكور، ص 20.

التي تفرض عليهم استجابات معينة، وهم مختلفون فيما بينهم، أشد الاختلاف أحياناً، يتطلب ذلك من الباحث أن يكون أكثر حذراً، وهو مقيم في هذا الخضم، ومتابعة ما يجري في العمق، ولعل الكرد كانوا على أكثر من صعيد، وقد تقرر تقسيمهم جغرافياً، كان لا بد أن يقابله تمزيق وجداني، ديموغرافي، وأن يصار إلى تحويلهم إلى قوى متعارضة مع بعضها بعضاً، وإمكان الدفع بها فيما بينها، والحيلولة دون بروز دورها، ولا بد أن ما أعقب فشل «ثورة» الشيخ سعيد، كان جزءاً من حركات وحالات فشل أخرى، ومآس موازية لها في الأطراف الأخرى كردستانياً، ولعبة القوى الدولية فيهم، ولعبتهم في بعضهم بعضاً، وسعي بعضهم إلى مقاومة هذه اللعبة وتأكيد حريتهم⁽¹⁾، ومما لاشك فيه أن إضاءة بانورامية تصل ما بين الانتشار الجغرافي الكردي وتوضع القوى السياسية من الخارج فيه إلى جانب القوى المحلية المعمولة في ظلها، تلك التي قام بها لازاريف، وبصدد حركة حاجو آغا وكيفية مراقبتها تكون بمثابة تعرف من نوع مختلف بشخصيته (أثارت انتفاضة عشيرة هفيريكي بزعامة حاجو في آذار 1926 ضجة كبيرة على الحدود العراقية- السورية- التركية وانضمت إليها عشائر الجواله، والكوجيكيان، ودقوري، ودكشوري والأشيتية، وشرنخ وبوطان ورماني. شملت الانتفاضة منطقة شاسعة بمحاذاة الحدود التركية- السورية في أطراف عامودا- نصيبين، وشملت الأراضي المتاخمة لحدود العراق وسوريا وتركيا، وهددت بالانتشار في جميع أرجاء الجزيرة. وأظهرت العشائر المجاورة بما فيها كونددرالية ملي القوية عن تعاطفها مع حاجو وقدمت له الدعم المباشر.

فيما بعد وحاجو مطارد، صار بين أكثر من نارين: مطاردة الأتراك له، وعدم رغبة الفرنسيين فيه، والزام الانكليز له بتسليم سلاحه. ص 119- ليخرج من العراق مضطراً، ويعود إلى دياره، وفي صيف عام 1926 عاد ثانية إلى دياره

(1) ذلك ما يمكن تعقبه في كتاب وديع جويده، في صفحات مختلفة، بدءاً من الفصل السادس «سياسة روسيا الكردية»، ص 283، وكتاب لازاريف وآخرين: تاريخ كردستان، ترجمة: عبيد حاجي، سبيريز، ط1، 2006، الفصل الخامس من الباب الثالث «التاريخ المعاصر»، وكتاب أولسون: تاريخ الكفاح القومي الكردي...، المصدر المذكور، بدءاً من الفصل الثالث: سياسة بريطاني إزاء الكرد، ص 117، وما بعد... الخ.

الأصلية في تركيا بعد أن قام بتنظيم الهجمات في ضواحي نصيبين ، مدياد، الجزيرة، وماردين، وفي محاربة الأتراك له استخدموا أيضاً سلاحاً إضافياً معه وهو عدوه صاروخان حاجو⁽¹⁾.

هذا الكلام، لا يعني لزوم الأخذ به، وإنما منحه اعتباراً تاريخياً وربطه بالأقوال السالفة، والنظر بعد ذلك في المفهوم الحسابي لعملية الكتابة التاريخية عما كان يخطط له حاجو آغا، كرجل قبيلة وكسياسي، وكيف تم التعامل معه عملياً.

في هذا السياق، والمتعلق بالتحدي الجديد والضابط على الكرد زعماء، وجهاء، وأناساً عادياً، يقول مالميسانز (كانت الانتفاضة الكردية «1925» بمثابة نقطة انعطاف لعائلة جميل باشا وكثير من العائلات الأخرى وذلك بسبب نفى الكثير من أفراد هذه العائلات أو فرض الإسكان الإجباري عليهم)⁽²⁾.

في مذكراته، يقول أكرم جميل باشا كيف أن الذين كانوا يريدون التوجه بالكرد صوب المنتظر: تحقيق الاستقلال، إلا أن أعداء الكرد، والذين كانوا يتعاملون معهم، ويمثلون قوى أخرى فاعلة على الأرض، في تركيا، كما تصرف أتاتورك بمكر مع وجهاء الكرد، إنما أيضاً بما يخدم مصالح القوى الكبرى في المنطقة، ويكون الكرد بمجمل فئاتهم الضحية، وحاجة ذلك إلى بحث متعدد الأبعاد، فنقرأ في مذكراته تلك، ما جرى بدءاً من 1921 (لم يكن الوضع في كردستان عموماً وفي ديار بكر خصوصاً كما نتوقع قطعاً، لأن مصطفى كمال وحاشيته كانوا فطناء ومكرة وشجعاناً وكانوا على علم كيف يخدعون الكرد الجهلاء الذين هم مستعدون لأن يجعلوا كل شيء فداء لدينهم. ...

نعم، كان مصطفى كمال اعتباراً من «1926» يقوم بمظالم وحشية في كردستان فنفي الأسر الكبيرة في المدن إلى الأناضول بشكل عائلي ثم نفى بعدهم زعماء العشائر وأخيراً نفى عوائل....

(1) لازاريف: المسألة الكردية 1923-1945 «النصر والإخفاق»، ترجمة: د. عبيد حاجي، مؤسسة موكرياني، أربيل، ط1، 2007، ص 119-120 .

(2) مالميسانز «تأليف وإعداد»: عائلة جميل باشا الديار بكري والنضال القومي الكردي، المصدر المذكور، ص 108 .

نحن أولاد جميل باشا قبل أن نلجأ إلى سوريا كان عدد كبير من الكرد باسطنبول وكردستان قد فروا من بطش مصطفى كمال وهاجروا إلى سوريا⁽¹⁾.

ولا بد أن الذي تقوّه به سابقاً، وهو (وإذا استثنينا نحو عشرة من العلماء المحترمين أمثال خواجه حمدي أفندي وخواجه كومرجي، كان هناك مئات الملالي في زي العلماء والمشايخ اللصوص والملعونين والخائنين)⁽²⁾، يعزّز فكرة جكرخوين، من جهة التعامل مع السلطة الكمالية، أو مع أي سلطة تعادي الكردي، إلا أن صيغة الكلام تبقى محتفظة بطابعها الأدبي، وقيمتها الاجتماعية، لأنها لا تسمّي أحداً، بمقدار ما تعرّف بواقع يُتأسّف عليه كردياً .

في رواية نجل حاجو آغا، جميل حاجو، وضمن مذكراته، نزداد تعرفاً على ما تقدم (كان الانسحاب من تركيا عشوائياً وأخيراً تمكنت العشيرة في قرية دوكر ولم يكن سليمان عباس آنذاك فيها بل كان يعيش في الخيم في موقع كري بري، فأرسل لوالدي وعائلته يطلب الالتحاق به، فذهبنا إلى مخيمه حيث هاجمتنا بعد عشرة أيام طائرتان تركيتان أدى ذلك إلى جرح طفل وقتل حمار. انتاب الهلع أفراد العشيرة عندما بلغهم نبأ الهجوم التركي ففروا نحو تل شعير حيث كان ساروخان/صاروخان وفي الطريق هاجمهم رجال عشائر الشيتية «السنجق»، ونهبوهم قبل وصولهم إلى تل شعير... مكث والدي في Girê pirê إلى أن أرسل له رئيس عشيرة الجواله سلومي الحميد من أجل الابتعاد عن الحدود التركية والاستقرار عنده.... وأشيع أن سلومي كان يريد الإيقاع بوالدي لصالح الأتراك مقابل فدية، فطلب ضيافة شيخ طي محمد عبدالرحمن فاستجاب له ص53... ورفض تسليمه إلى الفرنسيين، والوالد سلّم نفسه للفرنسيين في القامشلي شارحاً الوضع فغفا عنه الضابط. ص56... بعد مضي زمن: حيث سعى حاجو إلى الابتعاد عن المشاكل العشائرية ومكر الدولة التركية، ليقول: فاستقر والدي في «قبور البيض» Tirbespî ، وكانت عبارة عن أطلال وسكنت أنا أيضاً مع أخوتي محمد شريف ويوسف في قبور البيض، أما أخي حسن فقد سكن بالبداية في كركي شامو Girkê Şamo ، وبعدها انتقل إلى قبور البيض. أما جاجان فقد استقر

(1) باشا، أكرم جميل: مذكراتي، الترجمة من التركية إلى العربية د. قدري الدياربكري، المراجعة اللغوية والتقديم: فدان آدم، بير، ديار بكر، ط3/2007، ص 41-46-47 .

(2) المصدر نفسه، ص 27.

في قرية مزكفت وكانت هي أيضاً عبارة عن أطلال. ص57...وفيما بعد: كان والدي قد أرسل أخي حسن إلى قسم من عشيرتنا في تركيا بغية الاتفاق للتعاون ضد الأتراك وكان يتزعم العشيرة هناك آنذاك أبناء عم ساروخان الذي سبق مقتله عام 1927 بإيعاز من والدي بسبب تعاونه المطلق مع الأتراك، وتم الاتفاق مع كبيرهم، حسين جلبي لمحاربة الأتراك. ص59... عند عودتنا إلى سوريا قام الفرنسيون بإبعاد والدي مع ثلاثة من أولاده، حسن، جاجان وأنا إلى دمشق لتنفيذاً لتحذيرهم، إن قام والدي بأية حركة ضد الأتراك. ص59...الخ).

هذه الرواية تفيدنا في معرفة الآتي:

طلب رأس حاجو آغا، لأنه يشكل خطراً على الدولة التركية جرّاء أعماله ضدها. الصراع العائلي فالقبلي لم يهدأ، بمقدار ما تعقّد من خلال المستجدات، خصوصاً بعد الانتقال إلى بنختي.

إن التذكير بسليمان عباس الزعيم الدوركي يفيد في إضاءة وجود علاقات قديمة، وكون سليمان يحتفظ بود لحاجو ودين له عليه، عدا عن اعتبارات عشائرية أخرى، وهي المتعلقة بالمكانة والسمعة.

التحالفات العشائرية هنا تلعب دورها، كما في علاقة حاجو آغا بسلومي ومحمد عبدالرحمن من شيوخ العرب، والقيمة الاجتماعية والاعتبارية للضيافة مقابل صراعات مع عشائر كردية، ومنها الشيتية.

لنقلها صراحة :

لا بد أن انتقال حاجو إلى جنوب الحدود، أثار حفيظة وجهاء المنطقة، لأنه كما كان في «سرختي: أعلى/شمال الخط» منافساً لآخرين، وداخلاً معهم في صراعات، سوف يكون وضعه هكذا، وذلك من شأنه تعريض مصالحهم للخطر، عدا عن أن هذا العداء العشائري يمتد إلى فترات سابقة، ولكنه أخذ طابعاً ميلودرامياً «متلفزاً» في ظل الوضع الجديد، وفي الوقت الذي كان يقدر أن حاجو آغا سيحسن وضعه مع الفرنسيين، وهذا يزيد في تقليص نفوذهم الزعاماتي.

ربما في ظل هذه الاعتبارات المحسوبة يصبح جلّ الحديث عن ثورة الشيخ سعيد في غير محله، أي حجة للإجهاز على الشخص، وليس من موقع الكردايتي، وما في ذلك من قلب مواقع، وتغيير وجهة التاريخ نفسه.

من المفيد أيضاً، إيراد مقتطفات من مذكرات حسن شيار الشاهد على المرحلة، وهو يضع لائحة طويلة نسبياً من الذين كانوا متنفذين، وأصحاب مكانة، ومن كانوا باشوات وبيكوات وغيرهم، ومتتورين، ومن هم من الشعراء حيث يتداخل القدماء مع الحديثين والمعاصرين في زمانه، ومن «خانوا» القضية الكردية حديثاً، وما يخص الثورات الكردية، وثم من لجأوا إلى «سوريا»، وهي مروية أخرى، تغني موضوعنا:

(هناك أولاً قائمة من الباشوات، أمثال: بدرخان باشا-عبدالرحمن باشا بابان- محمد باشا راوندوزي- سيف الدين باشا زركي «ص130».

ومن البكوات: علي شن بك كوجكري- خالد بك جبيري- حقي بك لجي- جلادت، كاميران، ثريا بك أبناء بدرخان بك باشا- أكرم جميل بك جميل بك باشا .. ص130.

ومن المشايخ: شيخ أحمد خاني- شيخ عبيدالله نهري- شيخ محمود برزنجي- شيخ سعيد وشيخ عبدالرحيم، بهاءالدين وضياءالدين- قاضي محمد رئيس الجمهورية. ص 130.

ومن المتتورين: معروف جياووك- خليفة سليم- خليل خيالي- حمزة أفندي مكسي- كمال فوزي- أمين بروسك- محمد علي عوني- رشيد كرد- عثمان صبري- دكتور بليج شيركو- صالح يوسف- د. نور الدين- عصمت شريف- علي سيدو كوراني- أحمد رامز. ص131.

من الشعراء: أحمد جزيري- فقي طيران- أحمد باتي- بيكس- عبدالله كوراني- جكرخوين- تيريغ- ملا أحمد بالو- ملا نوري هساري.. ص 131.

من الأغوات ذوي النفوذ والسلطة والقوة: سمكو- جور آغا- عباس مامند- سليمان ورشيد سندي- محمد آغا خليل ختو- فرزند حسني- فارس شمي حيان عبدالرحمن ومحمد من أغوات قومي جيا- حاجو آغا هفيركي- يعقوب آغا أروه- محمد آغا كلي... كل هؤلاء كانوا يعملون من أجل شعبهم ويضحون في سبيله. ص131.

ولائحة طويلة بالثورات الكردية، وتبعاً لمراحلها وهي ثلاث، بدءاً من عام 1785: عند قيام عشيرة جيهان بك في الجنوب الشرقي من ملاطية ضد الدولة العثمانية.. ص 132- حتى عام 1979، عند قيام الجمهورية الإسلامية ومطالبة الكرد هنا بالحكم الذاتي فرفض طلبهم وقام عبدالرحمن قاسمelo بثورته ضد الدولة. ص 137.

ومن هم متتورون سياسيون: خليل خيالي أفندي «أولاً» وهو من بدليس- عبدالقادر أفندي شيخ عبيدالله نهري- الدكتور البروفيسور عبدالله جودت- أكرم بك وقدري بك جميل باشا- جلادت بك- بديع الزمان النورسي- الجنرال شريف... الخ. ص 140.

ومن أدخل من وجهة نظره في خانة الموت رذالة وخيانة: هذا المقضي «جميل جتو» آغا عشيرة بنجنار pencenar ، حيث آخى مصطفى كمال سنة 1919، وإبان قيام ثورة الشيخ سعيد 1925 ومطالبتها بحقوق الكرد ، تعاون كل من جميل جتو، أمين بريخاني، رسول محمد، وكامل بك عوني إلى جانب عشائريهم مع الدولة وأصبحوا تابعين لهم، وبعد القضاء على الثورة أعدم مصطفى كمال «أخاه» جميل، وسجن أولاده وتشردت عائلته وصارت تخدم بيوت الأتراك. أما رسول محمد «أمين بريخاني فقد هربا إلى سوريا كلاجئين ثوريين وقبلتهم فرنسا، أما صاحبهم كامل بك، فقد تم نفيه صحبة «15» ألف من عصابته إلى ستانبول.. ص 362-.. ولا ذكر للانتقال القسري لقسم من عشيرة هفيركان إلى «أسفل: جنوب الخط: سوريا» وهو يأتي على ذكر غيرها، ص 441-443- يذكر مثلاً: آل علي يونس قومي جيا كثيراً، كما في ص 473-474)⁽¹⁾.

هذه القائمة، وبالطريقة هذه، لا بد أنها تستثير وتستثير البعض أو أكثر لاحقاً، على خلفية ما كان يجري، جهة التقدير، أو جهة التهميش، أو جهة التخوين، وما يمكن أن يقال في ذلك، حيث التاريخ ينبري في تعددية ألوانه، وفي مناخ سياسي ملبد، لا يساق إلى خانة الكتابة والتسمية ببسر، إنما يضاء المناخ، وتدرس الملابس، ولا تُسهل عبارات متداولة، دون أي تفكير غالباً في تداعياتها، من نوع «خائن، عميل...».

لكن، في ضوء الاتفاقيات السرية والمعلنة، تظهر لعبة السياسة بين الدول وهي في مواقع قوة مختلفة، في أكثر حالاتها تميزاً بالعنف الداخلي، وتلغيم المستقبل، لأنها، وكونها تعرف بسلطات فوق شعبية، وأوطان معروفة حصراً

(1) حسن هشيار: مشاهداتي وذكراياتي «1907-1985»، ج 1، مطبعة أميرال، بيروت، 1993.
Dîtin û bîrhatinên min: 1907-1985, p1, çapxana Emîral, Beyrût, 1993

وقد وردت أقام صفحات الكتاب، وهو باللغة الكردية، كما هو مبين، في المتن للإيجاز .

باسمها، على غاية من التلاعب بمصائر شعوب وأمم، وليس الكرد ببعيدين عن التمزق بين كلاليتها وتداعياتها، ومن يتحرّأها، يجد كيف أنها تشبه مشهداً تضاريسياً مختلف الأبعاد، بمرتفعاته ومنخفضاته، وأوديته السحيقة، ومنعطفاته، وربما كانت مفردة السياسة في محركات أنظمة شمولية ذات نسب تضاريسي، وحسبي القول أن المدقق في هذا الوضع، وما سيردُ تالياً، وبلسان اليوناني غورغاس، في كتابه المعروف، سيكون هناك أكثر إحاطة بموقع الكرد في نطاق اللعبة المركّبة، وهذا الذي يحمل الكتاب اسمه، أو يعرف به (كان للاتفاقيات والمعاهدات التي وقّعها الحلفاء بعد انهيار الامبراطورية العثمانية نتائج أدّت إلى تصغير هام لمنطقة النفوذ الفرنسي في الشرق الأوسط. واختزلت المناطق التي عهد بها إلى فرنسا المنتدبة عام 1920، إلى خط عينتاب بروجيك «Bregick»، ماردين وجزيرة ابن عمر. وحدّ الاتفاق الفرنسي التركي الموقع في العشرين من تشرين الأول/أكتوبر 1921، أيضاً، من النفوذ الفرنسي في المناطق الكردية وأوصلها إلى خط بياس «Payas» ميدان أكبس، وجندب كيليس، وتشوبان بك وسكة حديد بغداد نصيبين، حتى الطريق القديم بين نصيبين وجزيرة ابن عمر باستثناء هاتين المدينتين الأخيرتين. وخسرت فرنسا من جديد جزءاً من الأرض الكردية في سنجار يسكنها كرد يزيديون، وتم إعطاؤها للعراق بموجب اتفاق سوري عراقي في 3 تموز/يوليو 1933. ص 45).

ولعل غورغاس في متابعته لهذه النقطة يضيء الكثير من خطوط تحركات حاجو آغا الذي يظهر للمتابع أحياناً، أنه واقع بين المطرقة التركية والسندان الفرنسي، أو رجل تركيا سابقاً، ومن ثم رجل فرنسا فيما بعد، غير أنه لم يكن لا هذا ولا ذاك، لم يكن عجينة مطواعة في ضوء المقروء عنه، إنما أقرب إلى «العجينة المنصهرة» وهي تنتظر صورتها الكردية المرتقبة، لأن ما كانت ترمي إليه تركيا، حتى قبل انتقال حاجو إلى سرختي هو في كيفية إبقائه في شبكتها، ليس بمعنى تجريده من قوته، وإنما في الاستفادة منه، وهي بطريقتها هذه، تلفت نظرنا «نظري» إلى نقطة مهمة جداً، وهي ما كانت تراه فيه بأنه يمكن أن يكون عيناً لها على هفيركان القوية، وعصا ضاربة على قبائل أخرى، وفي الوقت نفسه تهديداً للعمق الفرنسي في سوريا، والقوى المناهضة لها هنا، وهي عشائرية كذلك، سوى أنها لم تصب فيما راهنت عليه ذاتياً، إنما كان متجاوزاً لتوقعاتها، وصادماً إياها،

فنرى كيف أنها حاولت استمالته بطرق شتى، حتى وهو في سرختي، ومراقبته من خلال من قاموا بدور جواسيس لها «وهم كرد طبعاً»، وعبر ضغوط على الحكومة الفرنسية بأن تقلّم أظافره، وتبعده عن الحدود الفاصلة، وفي الحالتين، لم يكن بين المطرقة والسندان بالمعنى الذي يوحي بالاختناق وفقدان حرية التصرف الذاتية.

فحاجو، كما رأينا سابقاً، عندما أغار على قبائل أو عشائر بينهما خصومة، لا بد أنها كانت متاخمة للحدود(وعندما قرر النظام التركي إرسال فوجين من الجيش لإسناد خصوم حاجو، لجأ هذا الأخير إلى التمرد في أواسط آذار/مارس 1926، وهاجم المواقع التركية الممتدة على خط نصيبين-مصطفوية. وكان زعيم الهفركان يعتمد على دعم القبائل الكردية المحلية الشيتية وآليان وميران. إلا أن النقص في التنظيم وفي الإمكانيات جعل القضاء على الانتفاضة سهلاً، ويمكن أن تدرج انتفاضة حاجو، في هذا السياق، بمنطق الصرع التقليدي من أجل السلطة القبلية. ولا يجوز استبعاد أسباب أخرى لتفسير انتفاضة حاجو. فحكومة أنقرة قامت سابقاً بحملة نزع سلاح كل القبائل في طور عابدين والهفركان أيضاً، حسب قول البريطانيين. إن هذه التدابير التي اتخذت في مناطق كردية أخرى أثارت، أيضاً، انتفاضات القبائل المتعلقة بشدة باستقلالها العسكري. في السياق نفسه، دفعت تدابير مصطفى كمال، ضد المؤسسات الدينية، إلى اتحاد القبائل المحلية بزعامة حاجو. ورغم أن صلات حاجو آغا مع المنظمات القومية الكردية ليست مؤكدة قبل آذار/مارس 1926، فثمة وثائق تشهد بأن زعيم الهفركان قد شارك في نوع من الشبكات الكردية المناهضة لمصطفى كمال. ...لاحقاً، نقراً: في تشرين الثاني/نوفمبر 1926 كتب زعيم الهفركان شخصياً إلى زعماء الكرد اللاجئين في العراق بواجبهم إزاء «الأمة الكردية»: نحن بحاجة للنجاح إلى الاتحاد والتضحية لإنقاذ وطننا من استعباد هؤلاء الأوغاد الترك، هذا هو دورنا، وإنني من جهتي أعمل ليلاً ونهاراً لهذا الهدف، وبعد أن استقر حاجو آغا في سوريا، أخذ يبتعد بالتدريج عن نشاط لجنة إنقاذ كردستان ليقترّب من رابطة خويون... (ص 83).

التقابل بالتفاوت:

يمكن للقارئ أن يقارب بين مجموعة العشائر الكردية وهي في مواجهة بعضها بعضاً، وبصورة خاصة إثر ثورة الشيخ سعيد، حيث تمّت تصفية حسابات،

كما ذكرتُ، إنما تقديرات مستجدات للأمور، وتحديدًا حول موقف السلطة الكمالية من الكرد، ولا بد أن السلطة نفسها كانت واعية من زوايا مختلفة لهذه المستجدات، حيث مارست عمليات تدمير وحرق لقرى، وتهجير للكرد بمئات الألوف، وما ترتَّب على كل ذلك من بلبلة الأوضاع، سوى أن عبور الحدود كان مقلقاً لهذه السلطة، ومن قبل وجهاء كرد وأشرفهم ورؤساء عشائر وشيوخ، وقد قدموا إلى سرختي وأبعد، حيث كانت فرنسا هناك، لا بد أن هؤلاء الذين نزحوا اضطراراً، حملوا معهم صوراً من مآسيهم، وفضائع النظام التركي، وحتى بالنسبة للذين وجدوا أنفسهم في أتون اللعبة التركية مكتوين بناها، رغم تعاونهم معها، تحولوا إلى الطرف الآخر، أو تربعوا بها، إلى جانب من كانوا ينتظرون الفرصة المناسبة للنيل منها، وحاجو آغا كان في واجهة الذين استشعروا عنف المرحلة دون نسيان خبرات تم اكتسابها على مر سنوات، ومعرفة أعمق بطبيعة النظام التركي هذا، وفرنسا في الوقت الذي كانت تحاول تجنب الصدام مع تركيا إلا أن ذلك لا يعني البتة أنها لم تكن تسعى إلى لوي ذراعها، تلبية لمصالحها في المنطقة .

وبرز حاجو رجلاً قوياً، وأظهر أن في مقدوره اعتماد أكثر من أسلوب لإحراج تركيا وصورتها عبر الحدود ومن ورائها في الكرّ والفرّ خاصة .

وفي العودة إلى حاجو وشأنه، وما كان يعرف به، أو يمكن أن يقال فيه، ثمة إشارة إلى ديناميكية نفسية كان يعرف بها، ليس بالمعنى الحياتي، إنما متابعته لما كان يجري حوله، ودخوله في معترك الحياة، وألّا ينظر إليه كزعيم عشيرة، ودون أن يُنسى أنه رئيس عشيرة في آن، وما في هذه العلاقة من إشكالية: أين تبدأ رئاسة العشيرة وتنتهي، لتبدأ زعامة من نمط سياسي تصبح العشيرة في الخلف، وأين تنتهي أو تتوقف، ليمر تأثير رئيس العشيرة، وفي بنية التداخل بينهما، أي صورة لدولة كردية تتشكل ومن ثم تبرز لديه، كما هو السؤال الممكن طرحه إزاء زعماء كرد آخرين عاشوا حالات كهذه .

في تعليقه على وثيقة فرنسية، للباحث والمترجم الكردي الأكاديمي خالد عيسى، يشير إلى نجومية سياسية، وبروز أهمية حاجو آغا، كما تابعته السلطات الفرنسية، أو استخباراتها، ومدى تنوع صلاته مع أكراد آخرين، ممن لهم باع في تاريخ الحركة الكردية، وخصوصاً في جنوب كردستان، في الفترة الفاصلة بين

1920-1930، وهي التي شهدت تطورات، ومن ثم تغيرات عاصفة، كوارث تعرض لها الكرد من قتل وتشريد ونزوح ومجاعات، والتحديد التاريخي في المقال، يأتي على خلفية من بيان دور، كما لو أنها كانت بمثابة جرس إنذار مدوّ بصداه ومدها، حيث إن حاجو لم يعرف في «العُرف» الفرنسي السياسي مجرد منتّم إلى الخيمة، إنما إلى عالم المدينة كذلك، وفي ذهنه حدود سياسية وتصور يجتهد من أجله، له منحى سياسي، أي: الحدود الكردية، لكيان سياسي كردي، وأن الإشارة إلى الشيخ محمود برزنجي ذي الصيت في جنوب كردستان، ليست بالأمر السهل، ومن خلال التشديد على ما يجب التوقف عنه:

(بعد مرور شهر كامل من الانتفاضة الكردية في بيان دور، شعرت السلطات الفرنسية بصعوبة السيطرة على الجزيرة عبر الوسائل العسكرية والأمنية، فلجأت إلى محاولة استعطاف العشائر الكردية .

اعتبرت السلطات الفرنسية، في البداية، انتفاضة بيان دور مجرد تمرد عشائري كردي، حدث نتيجة لتحريض تركي من جهة ونتيجة سوء تصرف المسؤولين المحليين من جهة أخرى. فلجأ الفرنسيون إلى ممارسة الضغط الدبلوماسي على حكومة أنقره (كانت اسطنبول مازالت محتلة)، وإلى شن العمليات العسكرية ضد العشائر المنتفضة .

و نتيجة لتعاظم نفوذ حاجو آغا ومؤيديه، وانتشار هذا النفوذ في المناطق الكردية الأخرى، خشيت السلطات الفرنسية من فكرة تشكيل كيان سياسي يمتد من الفرات إلى الموصل. وترسخ هذا الاعتقاد لدى السلطات الفرنسية العليا عندما سمعت بأن الشيخ محمود البرزنجي (ملك كردستان) قد زار نصيبين في الوقت الذي كان حاجو آغا يتخذ من منطقة نصيبين مركزاً لنشاطاته) .

وبعد ذلك يورد نص الوثيقة الفرنسية في الزمان والمكان:

(المفوضية السامية للجمهورية الفرنسية

في سورية ولبنان

دولة حلب

الجنرال المفوض

— —

حلب في 30 آب 1923

وارد إلى سكرتارية المفوضية في 3 أيلول برقم 1615

برقية مرسلة

من الجنرال القائد المؤقت للفرقة الثانية إلى الجنرال المفوض السامي

(إدارة المخابرات و المكتب العسكري) . عالي

— —

أولاً : إن العشائر الكردية المتواجدة ضمن المنطقة السورية في شرق وغرب نصيبين، أي الآليان والتشيتية والميرسنية والدقورية والملية والكيكية، يبدو أن جميعها قد ارتدت .

(إنها تراجعت عن قبولها للخضوع للفرنسيين-المترجم)

ثانياً : الشيخ محمود، الزعيم القومي الكردي الذي كافح لمدة طويلة في السنجق الكردي في العراق، قد يتواجد حالياً في نصيبين لتحريض عشائرننا إلى الانتفاضة .

ثالثاً : حسب المعلومات الآتية من مصادر مختلفة، لمواجهة فرقنا المدربة، لقد وُضِعَ تحت تصرف حاجو آغا العديد من العساكر الأتراك المتكرين بالأزياء المدنية .

رابعاً : بتأثير من حاجو، وإسماعيل حقي ووجهاء نصيبين، بقي محمد عبد الرحمن في جنوب الحدود مع قسم من عشيرته .

خامساً : وُضِعَ تحت تصرف قائد تخوم الفرات كلاً من: الرائد مورتية، رئيس المخابرات، والنقيب برفته فيرنو، رئيس المكتب 3 في الفرقة الثانية للمشاة. لقد ذهبوا البارحة، ونقلوا إليه الأمر رقم 1608/ج المرفق، والذي أعرض فيه على العشائر الكردية في الجزيرة العليا، الملحقة بسورية بشكل اعتباطي كبير، أعرض عليها استقلالاً ومكاسب ذات طابع سياسي ومادي، ما لا يستطيع الأتراك على ما بيد من تقديمها لها فعلياً .

سادساً : سأعود إلى هذه المنطقة عندما أنهي هنا مسألة الانتخابات⁽¹⁾.

هذه الوثيقة، كما هي قراءتي لها، تنبهنا إلى الأمور التالية:

أن نظرة الإدارة الاستعمارية الفرنسية إلى الكرد، باعتبارهم مجموعة عشائر متفرقة، ليست دقيقة.

أن هذه العشائر التي اعتبرت طوع أمرها، انفعالية دون تمييز، ويمكن التصرف بها بصورة آلية، يخلافها الواقع.

أن هناك اهتماماً بالمتغيرات، أو المستجدات، ولا بد أن تسميتها للعشائر تلك، عبّرت عن هذا التحول غير المرغوب فيه، بالعكس من ذلك، ثمة تخوف أن تشكل خطراً يهدد وجودها ليس في سوريا، فحسب، وإنما في المنطقة عموماً.

أن الزعيم العشائري/القبلي حاجو آغا، إن سايرناها في توصيفها له، أو كما هو مقدّر، أكبر مما هو مؤطّر بعلامة سياسية أو اجتماعية وثقافية مؤطرة، إن من جهة التحرك أو طريقة التفكير فيما يجري حوله.

أن الكرد بالرغم من كونهم متباعدين عن بعضهم بعضاً، إلا أن هناك ما يجعلهم على تواصل وتفاعل رغم وجود الحدود السياسية المصطنعة، وأن أي ضعف أو إضعاف لأي طرف فيها، لا يعني حدود قطيعة فيما بينها.

ولا بد أن حاجو آغا فيما اختط له، قد سمعت به فرنسا وحسبت له حساباً، بصدد كيان سياسي كردي ما.

تلك هي مجموعة من النقاط المترتبة على موضوع البحث، وهي نقاط تضيء ما حولها كدياً، وترفع من شأن حاجو باعتباره رجل سياسة، ولا بد أن عبور الحدود كان أكثر من كونه نقلة جغرافية، أي نقلة تاريخية سياسية لصالحه.

ضمن هذا الإطار، أورد مجموعة من المقتطفات التي تضمنتها الوثائق الفرنسية حول الحركة الكردية، كما سمّاها وترجمها الباحث خالد عيسى⁽²⁾، مركّزاً على ما صله بشخصية حاجو ونشاطاته السياسية، في الفترة السالفة الذكر:

(1) عيسى، د. خالد: من الوثائق الفرنسية: حاجو آغا وملك كردستان في نصيبين، موقع «كلكاش»، 2 أيلول 2008.

(2) ينظر حول ذلك بالتفصيل: حول الحركة الكردية في الوثائق الفرنسية، في موقع «كلكاش» المصدر المذكور، في عام 2008.

الممثلة الفرنسية

لدولة سورية

الشعبة السياسية

المعلومات

دمشق في 5 تشرين الأول 1926

سري

نشرة المعلومات رقم 198

-:-:-:-:-

القسم الأول

-:-:-:-:-

ملحة عن الوضع العام

آ- الخارج :

تركية :

-لازالت الحركة الكردية نشطة في الولايات الشرقية .

- قسم من الجيش غير موافق على سياسة مصطفى كمال، وهذا ما يقلق الدكتاتور .

....

(آ)- أولاً- المعلومات السياسية الخارجية .

تركية :

-حول الحركة الكردية :

تستمر عمليات تهجير الأكراد في منطقة ماردين ولن يتم التهجير في

قضاء ساجور إلا بعد جني المحاصيل (المصدر: شرطي تركي من ماردين)

والطرق بين ديار بكر و خربوط مهددة بشكل دائم من قبل العصابات الكردية، ولا يمكن للمسافرين التنقل بدون حراسة هامة من قبل الجند رمة أو المفارز .

محكمة الاستقلال في أنقرة مستمرة في محاكمة الأكراد المتهمين بالتمرد . وفي 21 أيلول تم شنق متهمين اثنين أمام ساحة الساعة . (إدارة المخابرات.حلب- 26/09/29)

أرسل مصطفى كمال عملاء سريين إلى كل أنحاء تركية لمراقبة السكان سراً، وليخبروه عن توجهات السكان. تُنقل له كل المعلومات عن طريق الأمن .
(...)

في الجزء الثاني، ومن المصدر نفسه، بخصوص الحركة الكردية:
-الحركة الكردية :

أكراد العراق يقلقون الأتراك الذين يستشفون من تصرفاتهم آثاراً للدعاية الانكليزية .

تستمر الحكومة التركية في اتخاذ الإجراءات ضد الانتفاضة، كالتجهيز والاعتقالات والإعدامات، وتسليح القرى الحدودية، ونقل الموظفين .

ضد مصطفى كمال، لازالت المعارضة نشطة، تهدد الاضطرابات بالانفجار في قسطنطينوبل. تمت الإشارة مرة أخرى إلى تأسيس لجنة سرية ذي ميول إرهابية .

العراق :

يتم الحديث عن استشارة سكان سنجار من أجل تحديد جنسيتهم .
(...)

الجولة الاستطلاعية التي تم تنفيذها بين 18 و 23 أيلول، في منطقة عاموده، خلقت أفضل الآثار السعيدة لدى الزعماء والعشائر .

السلطات التركية التي لا تزال تسعى لأن تجلب إلى مناطقها العشائر اللاجئة إلى سورية، تبدو أنها تحتفظ بالضغينة للملّين، بسبب رفضهم لعروضها، ويبدو أنها ستتخذ إجراءات ضد أموال ابن إبراهيم باشا .

تركية :

- الحركة الكردية :

نشرة المعلومات رقم 199 تاريخ 1926/10/07 - القسم الأول (إدارة المخابرات. الحسجة-26/09/24 .

(آ)- قد ينتظر الأتراك استئناف غارات كردية آتية من العراق. فالانكليز، بقصد عدم تطبيق البنود الاقتصادية للاتفاقية الانكليزية - التركية، قد تلجأ إلى إثارة الفوضى من جديد في كردستان.

يعتقد بأنه توجه نحو الحدود التركية - العراقية 35000 رجل من القوات التركية .

(ب)- (إدارة المخابرات. خير-26/09/24)

لا زالت ديرسم هائجة. إن اللجنة التي أرسلت حديثاً من أنقره للبحث عن أرضية للاتفاق مع الزعماء الكرد، يعتقد بأنها قد فشلت . فالأكرد قد رفضوا تسليم أسلحتهم. تمت الإشارة إلى عدد من عمليات العصابات في مختلف المناطق .

-التهجير :

نشرة المعلومات رقم 199 تاريخ 1926/10/07 - القسم الأول (إدارة المخابرات. الحسجة-26/09/24)

ستون عائلة، التي توجد أفراد بعض منها في الإقامة الجبرية في أناضول، تركت ماردين والمنطقة المجاورة لها والتحقت بأقربائها في المنفى. بعد هذه الهجرة، ترى الحكومة في ماردين بأنها واثقة من سكان المنطقة .

-الدعاية الانكليزية :

نشرة المعلومات رقم 199 تاريخ 1926/10/07 - القسم الأول (إدارة المخابرات. الحسجة-26/09/24)

مبعوث اللجنة الكردية- الأرمنية في الموصل، الدكتور أحمد صبري، تمت الإشارة إلى تواجده في منطقة عاموده. ويعتقد بأنه قبل مغادرته، كان قد أخذ التعليمات من رئيس إدارة المخابرات الانكليزية في بغداد . وقد يتواجد عند حاجو أعضاء آخرون من اللجنة الكردية الأرمنية.

أندرس هو في سنجار حيث قد يكون مكلفاً من قبل إدارة المخابرات الانكليزية .

- حول الحركة الكردية :

سجن دياربكر مليء بالمساجين الكرد، ويتم شنق من اثنين حتى ثلاثة منهم في كل أسبوع .

في الجزء الثالث:

أكراد الولايات الشرقية يحضرون لانتفاضة عامة. قد تكون لجنة استقلال كردستان قد اتفقت على هذا الموضوع مع الانكليز والمعارضة .

(د)- تتأسس الأحزاب بهدف تنظيم دعايات فعّالة ضد مصطفى كمال. ستفجر الاضطرابات قريباً في قسطنطينوبل. حالياً يجمع مصطفى كمال القوات الموالية حول المدينة لمواجهة أي حدث .

(...)

سادساً- منطقة الفرات :

- منطقة الحسجة :

نشرة المعلومات رقم 199 تاريخ 1926/10/07 -القسم الأول (إدارة المخابرات، خيرو-26/09/24)

- منطقة نصيبين هادئة. العملية الاستطلاعية التي تم تنفيذها من 18 حتى 23 أيلول في منطقة عاموده- درياسية، أعطت الانطباع بالقوة والأمان، بإظهارنا للجميع عن إرادتنا الحاسمة بتأمين النظام .

- لازال حاجو و أمين آغا في دوكر- دوكر (6 كم شرق بيان دور). منذ مقابلة الجنرال بيلوت في 7 أيلول، لم يُلاحظ أي اعتداء من طرفهم على شمال الحدود .

- الوضع في شرق نصيبين :

نشرة المعلومات رقم 199 تاريخ 1926/10/07 - القسم الأول (إدارة المخابرات، الحسجة-26/09/24)

بقي الوضع ايجابياً جداً. أثناء عملية 18-23 أيلول في عاموده، كتب زعيم الطي محمد عبد الرحمن إلى ضابط إدارة المخابرات في خيرو، يقول أنه جاهز لأن يضع تحت تصرفنا عدة مئات من فرسانه.

- أكراد لاجئون في أراض سورية:

نشرة المعلومات رقم 199 تاريخ 1926/10/07 - القسم الأول (إدارة
المخابرات. خيرو-26/09/24)

اثر تنفيذ عملية الاستطلاع التي تم تنفيذها من 18 حتى 23 أيلول، في
منطقة عاموده من قبل مفرزة مكونة من الفصيلة المتحركة رقم 32 ، والفصيلة
رقم 2 التابعة لجيش المشرق، والمجموعة رقم 2، ومجموعة الرشاش التابعة للسرية
الأولى من الكتيبة السادسة التابعة لجيش المشرق، بعد هذه العملية اضطر أربعة
من أخطر المهيجين إلى مغادرة المنطقة. وفهم الآخرون بأنه منذئذ يجب أن
يتقيدوا بشكل مطلق بالأوامر التي تعطى لهم من قبل السلطات الحكومية .

-تصرف الأتراك مع اللاجئين الكرد:

نشرة المعلومات رقم 199 تاريخ 1926/10/07 - القسم الأول (إدارة
المخابرات. خيرو-26/09/24)

لا تزال السلطات التركية تسعى إلى الاتصال مع الزعماء الأكراد اللاجئين إلى
الأرض السورية(المنطقة الكردية جنوب الخط الحديدي- المترجم)، بغية إقناعهم
للعودة إلى الأرض التركية (المنطقة الكردية في جنوب الخط الحديدي- المترجم)

أثناء المقابلة التي تمت في 16 أيلول في ماردين، حيث كان يتواجد الجنرال عز
الدين باشا، والجنرال نظمي باشا، والعقيد عبدي بك، و والي ماردين و والي
أورفة، قد يكون (هذه الخبرة غير مؤكدة لدى محرر النشرة- المترجم) عبد الله
سليمان من الأومريان الذي عبر منذ فترة قريبة إلى شمال الحدود، قد يكون قد
تم تكليفه بتأمين الأمن في منطقة ماردين- نصيين .

قد يكون قد حصل على هدايا هامة. قد يكون قد وضعت تحت تصرفه
أسلحة وذخائر.

لا يزال أحمد، شقيق عبد الله، موجوداً في توز عند الميرسنيين .

يوسف أوصمان، أحد زعماء الأومريين(عشيرة كردية كبيرة تقع في جنوب
شرق ماردين) الذي كان قد لجأ إلى الأرض السورية في قرية جورنك (غير محمولة
على الخريطة، تقع على بعد 5 كم غرب- شمال- غرب من عاموده)، اثر العروض

التي قدمتها له السلطات التركية، عاد إلى الأرض التركية في 21 أيلول، بينما كانت مفرزة مونديللي تقوم بعملياتها في منطقة عاموده .

في المساء كان ضابط إدارة المخابرات في خيرو قد دعتة لإعادة الأموال المنهوبة من قبله في شمال الحدود .

- أبناء ابراهيم باشا :

نشرة المعلومات رقم 199 تاريخ 1926/10/07 - القسم الأول (إدارة المخابرات، الحسجة-26/09/24)

حسب السلطات التركية، قد يخذي المليون الهجمات ضد المخافر التركية على الخط الحديدي، حوالي رأس العين. لحين الحصول على معلومات أكثر، يجب اعتبار الادعاءات التركية غير صحيحة .

حسب تصريح غير مؤكد لأحد سكان رأس العين، قد يكون الموظفون الترك في المنطقة الحدودية قد تلقوا التعليمات لنشر الاتهامات ضد أبناء إبراهيم باشا .

أثناء جولته عند المملين في رأس العين، ذكر ضابط إدارة المخابرات في الحسجة زعماء هذه العشيرة بأن السلطات الفرنسية تمنعهم من الانخراط في أي فعل عدائي في شمال الخط الحديدي. جدد محمود بك الوعد الذي كان قد أعطاه سابقاً، ووعد بأنه يعطي اللجوء لأي من المهيجين الكرد وخاصة لأي من أقرباء الشيخ سعيد .

في الجزء الرابع ، نقرأ معلومات مثيرة حقاً :

54- استطلاع في الجزيرة العليا :

نشرة المعلومات رقم 199 تاريخ 1926/10/07 - القسم الأول (إدارة المخابرات، الدير-26/09/29).

كانت مفرزة بقيادة النقيب مونديللي وبمساعدة ضابط إدارة المخابرات في خيرو الملازم تيريه، مكلفة بالتجول في المنطقة الواقعة بين نصيبين والدرباسية، للاتصال بالسكان وزيارة القرى للتأثير على الأكراد اللاجئين من أجل منعهم من الانخراط في أعمال عدوانية في شمال وجنوب الحدود .

انطلقت المفرزة من زهرة خزنة في 18 أيلول الساعة 17، خيَّمت في هيمو(5 كم جنوب غرب نصيبين)، وهي قرية زعيم (عشيرة) بينار علي، طاهر آغا، الذي

قدّم نفسه مع مخاتير عشيرته. وفي هيمو قدم نفسه عبدي آغا و عدد من مخاتير الميرسنيين.

البنار عليون و الميرسنيون مطيعون تماماً و مستعدون جيداً.
في صباح 19، انتقلت المفزة من هيمو إلى عاموده مارّين من:
هرّم شيخو: (غير محمولة على الخريطة) قرية (من قرى- المترجم) بينار علي.
تل شَعير- تل الشعير: غير محمولة على الخريطة. قرية بينار علي.
باب الخير: غير محمولة على الخريطة. قرية الميرسني
رنكو: دُ دُ. (هذا الحرف يشير إلى الموقع على الخريطة المعتمدة- المترجم
بريفا: دُ دُ.

وأيضاً تمت زيارة القرى التالية:

نجموك: غير محمولة على الخريطة تابعة لعشيرة بينار علي.
توبز: دُ. ميرسنية (قرية عبدي آغا).
تل المال: مللية

قدّم مخاتير هذه القرى أنفسهم، وأكدوا طاعتهم
في عاموده تمت دعوة جميع مخاتير الملليين والدقوريين
جدد هؤلاء الزعماء، في اجتماع، موقفهم بالولاء التام والطاعة
وكان قد تمت دعوة الزعماء اللاجئين:

علي الأحمد من الأومريين
يوسف الابراهيم أوصمان من الأومريين
نوري بن عيسى حمو من الديرفرين (ابن عم توفو)
علي خدرو من الدايشيين

تمت دعوتهم حول العديد من أعمال النهب التي ارتكبت ليس في شمال
الحدود فقط، وإنما في جنوبها أيضاً، كان يتوجب على هؤلاء الزعماء أن يلتزموا
نهائياً بالهدوء، تحت طائلة العقاب، وأن يلتزموا بإعادة الأموال التي انتزعوها من
المسافرين والقوافل. فقط المدعو إبراهيم أوصمان من الأومريين قدم نفسه، وهو

لاجئ إلى قرية جورنك (الدقوريين) الواقعة على بعد 7 كم شمال غرب عاموده «قبل ذلك 5 كم، تعليق من ابراهيم محمود». أعلن إبراهيم أوصمان بأنه مستعد لتنفيذ ما تمت المطالبة باسترجاعها. بعد السماح له بفعل ذلك، وبالرجوع إلى جورنك، خان التزاماته، وبالاتفاق مع السلطات التركية عبر إلى شمال الحدود مع عائلته وجميع الأموال. أمّا بالنسبة للثلاثة الآخرين من زعماء الكرد المذكورين أعلاه، فقد هربوا مع أموالهم نحو الغرب.

ضمن هذه الظروف، أصبح الأمر عاجلاً للتصرف ضدهم، لعدم ترك المجال لخلق بؤر لعدم الطاعة وللصوصية في المنطقة.

في صباح 22، غادرت المفزة تل أيلول، حيث قضت الليلة في عاموده.

زارت الفصيلة قريتي ديكي (تقع في جنوب غرب عاموده، على بعد 2 كم منها) وقزلاتجك (تقع في غرب القرية السابقة، على بعد 6 كم منها)، حيث كانت قد تمت الإشارة إلى تواجد نوري وعلي خدرو فيهما. واختفى هذان الأخيران منذ عدة أيام، ولا أحد يستطيع القول ماذا حدث معهما.

في الثاني والعشرين مساءً، اجتمعت أغلبية زعماء و مخاتير المللين والدقوريين في عاموده. تم إنذارهم بأنه، في المستقبل، كل قرية تعطي اللجوء لأفراد يقومون بالصوصية، سواء في شمال أو في جنوب الحدود، ستلقى العقاب.

وعد الزعماء بالتقيد بوفاء بهذه التعليمات

في الثالث والعشرين، تحركت المفزة نحو زهرة خزنة، عبر:

حاصده فوقاني: (عشيرة الميرسنيين)، و تقع في شرق عاموده، على بعد 8 كم منها.

تجامورلو: (عشيرة بوبلان)، و تقع في شرق حاصده، على بعد 4 كم منها.

شورك: (عشيرة بوبلان)، و تقع في شرق حاصده

توكه: (عشيرة بوبلان)، و تقع في شرق حاصده

سادا: (عشيرة محلمية، حلفاء عشيرة بينارعلي).

تل شعير: عشيرة بينارعلي

هَرَم شيرو(هرم شيخو- المترجم: هناك هرم شرو أيضاً، تعليق من ابراهيم محمود): عشيرة بينارعلي

هيمو: عشيرة بينار علي

فضلاً عن ذلك، فقد زار ضابط إدارة المخابرات: دودان (الواقعة على بعد 10 كم في جنوب نصيبين)، حيث كان يتواجد سابقاً يوسف قاسو الذي عبر إلى شمال الحدود مع أمواله.

السكان البوبلانيون القاطنون في المنطقة السورية كانوا في خلاف مع الميرسنينيين والبينارعرييين، لكن ضابط إدارة المخابرات صالحهم. والتزموا خطياً بالعيش بعدئذٍ بوئام، وبأن يلتزموا بالأوامر التي تعطى لهم من قبل السلطات السورية. التزم مخاتير البوبلان، من بعد الآن، بعدم استقبال يوسف قاسو وأقربائه الذين عبروا إلى المنطقة التركية.

عادت المفزة إلى زهرة خزنة في الثالث والعشرين، وفي الساعة التاسعة والدقيقة الثلاثين.

كان الانطباع الذي نتج عن هذا الاستطلاع ممتازاً. انه أظهر فعالية قواتنا وإرادتنا القصوى في إشادة النظام في هذه المنطقة التي بقيت لمدة طويل متروكة لنفسها.

55- جولة نائب الممثل في الدير:

نشرة المعلومات رقم 199 تاريخ 1926/10/07 - القسم الأول (إدارة المخابرات.الدير-1926/09/25-رسمي)

المقدم، نائب الممثل في سنجق الدير، ذهب في 23 أيلول إلى منطقة نصيبين. انه توقف في الدرياسية، ثم في مخفر نصيبين الجنوبي حيث مضى النهار. انه حلّق فوق بيان دور و دوكور. المنطقة هادئة جداً.

في السادس والعشرين، استقبل في الحسجة الموظفين وبعض الوجهاء. استغرب زعيم الجبور، مسلط باشا من تأخر الانكليز في حل مسألة البيضة.

تتحرك دورية من الهجانة بين البيضة والفدغاني للقيام بمهام الشرطة هناك.

لم تتم بعد المباشرة ببناء مخفري الدرياسية وعاموده.

التوقيع

الرائد مورتية، رئيس ادارة المخابرات

في دولتي سورية وجبل الدروز.

في الجزء «5»:

دمشق في 9 تشرين الأول 1926

سري

لمحة عن الوضع العام

تركية :

الحركة الكردية :

نشطة جداً، بشكل خاص في ديرسم حيث دارت العديد من المعارك التي

خسرت فيها القوات النظامية .

معارضة مصطفى كمال :

لا زالت المعارضة نشطة . يقال أنه تم إرسال عرائض إلى عصابة الأمم

للمطالبة بعودة الخلافة .

(...)

الفرات :

منطقة هادئة .

يبدو أن الأمير مجحم، بناء على نصيحة السلطات في الدير، قد تخلص عن

الغزو الذي كان قد أعده في المنطقة التركية .

وقوع بعض الغزوات الشمرية على العنزة والخرصة .

(...)

آ - المعلومات السياسية الخارجية :

تركية :

- حول الحركة الكردية :

نشرة المعلومات رقم 200 تاريخ 1926/10/09 - القسم الأول (الأمن - حلب-26/10/04)

- (كل الجنود من أصل كردي الذين يخدمون في القطعات العسكرية المتمركزة في الولايات الشرقية، تم تجميعهم في ديار بكر، ومن هناك سيُرسلون إلى أناضول الغربية .

- يقال بأن الكثير من الأكراد من مناطق السليمانية وكركوك قد أتوا بشكل جماعات إلى منطقة وان، لالتحاق بعصابات سمكو.

- (يقال أن ملا يوسف أوغلو عبد القادر، زعيم عشيرة خرتاوي الكردية، والنائب السابق عن روم كله، كان قد دُعي إلى أورفة في 24 أيلول، وقد تم اعتقاله فور وصوله، وذلك بأمر من الوالي. (بتحفظ)

- (إدارة المخابرات- جرابلس)

أكراد أقضية تجارמוש، وكازاك، وأربا كر وتجار- سنجق، وكوغي، وكاماخ، قد انسحبوا إلى جبال ديرسم للالتحاق بالمتمردين. في الماضي القريب جداً، تم نهب الكثير من قرى هذه الأقضية ، وتم حرق المخافر ومقرات الجندرية، وأبيد الكثير من السكان الأتراك .

بعد أن علمت الحكومة بهذه الأحداث، حشدت الحكومة القوات في منطقة خاربوت من أجل القمع .

دارت معارك عدّة، لكن بسبب وعورة الأرض، لم يتمكن الأتراك من التقدم. جاءت طائرات عديدة من سيرن ومن أنقره، وقصفت الطائرات التجمعات الكردية، وبذلك سهلت دور المشاة .

- (إسماعيل آغا، سمكو، و هو على رأس 5000 مقاتل (2000 من المشاة و3000 من الخيالة)، يقال أنه اجتاحت ولاية هكاري (وان)، مغتماً كل شيء على طريقه، و مبيداً القرويين. (مدير منطقة عرب بينار)

- (تستمر العصابات الكردية في الإساءة في منطقة وان، والإجراءات المتخذة من قبل الحكومة التركية غير كافية، والهجمات الليلية تتضاعف. (حسين بك، من سمسات)

- (على ما يبدو أن الحكومة التركية وعت لتوسع الانتفاضة الكردية. يقال أنه تحرك نحو قسم من ثكنات الولايات الشرقية نحو خربوت التي قد تحولت إلى المقر الرئيس العام للقوات المنخرطة في العمليات. أرسلت بعض التدعيمات إلى بيتليس و وان. (المصدر: أحد سكان مالاتيا/ملاطية)

- المعارضة المناهضة لمصطفى كمال :

نشرة المعلومات رقم 200 تاريخ 1926/10/09 - القسم الأول (إدارة المخابرات. حلب-11/02). (هناك خطأ في الشهر- المترجم - يزداد التذمر ضد مصطفى كمال، في مدن عنتاب و مرش و أليستان، وفي كيليكية. تأسس العديد من الأحزاب السياسية المناهضة لمصطفى كمال، ويزداد عدد منتسبيها كل يوم. يتم الحديث سراً عن مؤامرة جديدة وعن اغتياالات مقبلة).

(أمن حلب)

يقال أن عبد الرزاق بك نائب ماردين، قد وصل إلى هذه المدينة في 24 أيلول، وهو مكلف من قبل الحكومة خصيصاً لتهدئة السكان، يقال أن له تأثير شخصي كبير على السكان. وقد يكون قد أهدأ الهيجان الذي نشأ بسبب الدعايات المحلية ضد الدكتاتور مصطفى كمال .

3- (في بعد ظهر الرابع والعشرين من أيلول، انفجرت قنبلة في دار حاج شفيق في سويراك، خلق الانفجار ذعراً كبيراً في المدينة. تم تحري منزل صاحب العلاقة، فتم العثور على عدد من القنابل وكمية من الذخائر الحربية. تم توقيف حاج شفيق فوراً. (الأمن العام)

(...)

- اتفاقية التجارة :

نشرة المعلومات رقم 200 تاريخ 1926/10/09 - القسم الأول (إدارة المخابرات. حلب-26/10/4).

السفير السوفييتي في تركيا، الرفيق سيريتش، من المفروض أن يتوجه قريباً الى أنقره لاستئناف المفاوضات من أجل اتفاقية تجارية جديدة بين روسية وتركيا.

كانت المفاوضات حتى الآن جيدة، و تأمل وزارة الشؤون الخارجية(التركية-المترجم) في أن يتحول التفاهم قريباً إلى اتفاق تام .

سنجق حمص :

- التعاون الفرنسي- الانكليزي :

نشرة المعلومات رقم 200 تاريخ 1926/10/09 -القسم الأول (إدارة المخابرات،حمص-26/10/4)

إن الموقف الذي، على ما يبدو، يتبناه الانكليز تجاه المتمردين يؤثر على معنويات القوميين في حمص. فالتعاون الانكليزي- الفرنسي على الحدود الجنوبية يزعزعهم . ملاحظة إدارة المخابرات في حمص: إدارة المخابرات تستثمر هذا الظرف الايجابي من أجل تطوير العمل السياسي .

- الوضع في قضاء الحسجة :

نشرة المعلومات رقم 200 تاريخ 1926/10/09 - القسم الأول (إدارة المخابرات، الحسجة-26/09/28)

نفذ ضابط ادارة المخابرات في الحسجة جولة في ناحية الشداده. المنطقة هادئة. عملية بناء مخفر الجندرية ستبدأ بدون تردد. قدم الجبور 100 ليرة ذهبية من أجل هذا البناء. مفرزة الحراسة المتحركة عادت من جولة في منطقة السفح، بدون أن تعثر على أي أثر للهاربين من طابور موندللي في عاموده .

- الغزوات :

(...)

ه-(إدارة المخابرات،الدير-26/09/20 - رئيس مخفر مادان)

الشيخ دهام الهادي وبرفقتة 1800 هجاناً، توجه نحو تل أبيض لغزو العنزة .

37- نشرة المعلومات رقم 200 تاريخ 1926/10/09 - القسم الأول (إدارة المخابرات،الدير-26/10/02).

وصل دهام الهادي إلى قرية مركده و معه حوالي 2000 خيلاً. وهم من الشمر و الجبور مع أبناء ستام الحريث. عبّر هذا الغزو الخابور في معبر جانا بالقرب من

مركده. وهو ينوي مهاجمة فدعانة الجزيرة، ويخيم حالياً في أوركوبه، وفي عين عيسى وفي فضه، التابعة للركة.(مدير سوار).

تركية :

-حول الحركة الكردية :

نشرة المعلومات رقم 200 تاريخ 1926/10/09 -القسم الأول (إدارة المخابرات.حلب-26/10/02).

(آ) - يستمر تنظيم الجندرمة التركية المتحركة في الولايات الشرقية. تم حشد القوات التي تمت تعبئتها في هيفيك، وفي قره جورون، وفي سويراك وفي أورفه .

في الجزء «6»:

تركية :

-حول الحركة الكردية ::

نشرة المعلومات رقم 201 تاريخ 1926/10/11 - القسم الأول (إدارة المخابرات - جرابلس).

(بعد أن علم السكان الأكراد في منطقة ماردين بالنجاح الذي حققته حركة الانتفاضة في وان و بيتليس، هم أيضاً يجهزون أنفسهم للقيام بانتفاضة عامة. ولهذا الغرض، اجتمع زعماء عشائر المنطقة .

- (جميل جتو رئيس عشيرة بنجناري من قضاء سيرت، الذي كان قد حكم عليه من قبل محكمة الاستقلال، تم شنقه. ومنذئذ، أولاده الذين يرأسون العديد من العصابات الكردية المشكلة من عشيرتهم، يقومون، انتقاماً له، بعمليات قطع الطرق على الطريق المؤدية من دياربكر إلى سيرت .

- (البكوات والآغاوات من هنسا- منصور الموقوفون من قبل الحكومة والمعتقلون في سجن ميرسين، تم السماح لهم منذ شهرين بالعودة إلى بيوتهم بإجازة لمدة شهرين. والمدعو شريف آغا ابن بدر، قد عاد هو أيضاً إلى بيته .

سكان ملاطيا وحسنني منصور مجردون تماماً من السلاح. وكل مواطن يعثر لديه سلاح يدفع غرامة قدرها 5 ليرات ذهبية .

- حج خليل أوغلو رحمو آغا، زعيم كريشان من قضاء سروج، الذي كان قد طُرد إلى قونيا، يُقال أنه نجح في الفرار واللجوء إلى سورية. (المصدر: الأمن العام في حلب- 26/10/07)

(الأمن -حلب- 26/10/07) في حوالي 26 أيلول، جرت معارك هامة في ديرسم بين القوات النظامية التركية و الأكراد المعارضين. يعتقد أن هؤلاء قد نجحوا في احتلال المدن الصغيرة مثل تجميش-كيزك (30كم جنوب غربي خوزات)، وخريك (80كم شمال شرقي خربوت)، وكلاهما مركز لقضاء، وقد هرب منهما الموظفون الأتراك. خط التلغراف في شمال خربوت مقطوع .

(سمكو، الزعيم الكردي الذي كان قد تمكن مؤخراً من الاستيلاء على وان لعدة ساعات، يعتقد أنه يتواجد في منطقة بحيرة أرتاي (شرق وان). ويعتقد أنه يتلقى المال والسلاح من بلاد فارس ومن أرزروم. الانكليز الذين كانوا قد ساعدوه في 1925، أعلموه بعدم الاعتماد عليهم، وبعدم اللجوء إلى العراق، تحت طائلة التوقيف والتسليم .

-آ/س أحمد روتو :

نشرة المعلومات رقم 201 تاريخ 1926/10/11 -القسم الأول (إدارة المخابرات - إعزاز)

أحمد روتو، الذي هو بالأصل من قضاء إعزاز، وهو رئيس سابق لعصابة مناهضة للفرنسيين في عام 1920، كان قد حصل لقاء خدماته للأتراك على أملاك في كيليس تقدر قيمتها بما يزيد عن 2000 ليرة ذهبية .
في الجزء «8»:

في منطقة عاموده، البويلانيون السوريون والميرسنيون والبينارعليون تصالحوا ويعيشون بعقلانية جيدة. لكن وقعت بعض الحوادث عند الأكراد اللاجئين الذين يتأثرون بالدسائس التركية .

تركية :

-حول الحركة الكردية :

نشرة المعلومات رقم 202 تاريخ 1926/10/13 -القسم الأول (إدارة المخابرات-خيرو- 26/10/30)

- حركة كردية جديدة قيد التحضير. يتم السعي من أجل الاتفاق بين مختلف اللجان، في تركية، وفي العراق، وفي سورية .

يعمل الدكتور أحمد صبري بشكل فعال لتحقيق هذا الاتفاق، وهو موجود حالياً في دوكر(عشيرة التشيتية)، تلك القرية التي لجأ إليها حاجو وأمين آغا. دعا أحمد صبري إلى اجتماع لمختلف زعماء الكرد اللاجئين إلى سورية، بما فيهم أبناء إبراهيم باشا. انعقد اجتماع في 27 أيلول في دوكر، ولم يشارك فيه أبناء إبراهيم باشا .

وفي هذا الاجتماع تمت مناقشة الظروف التي يجب أن يستمر فيها النضال من أجل الاستقلال الكردي. ولأنه تقرر بأن دعم إحدى الدول الأوربية ضروري، فتقرر مناشدة فرنسه. تم تحرير مضبطة في هذا الاتجاه، وسيتم إرسالها حالاً إلى ضابط إدارة المخابرات في خيرو، لكي ينقلها بدوره إلى السلطات العليا .

- (في 26 أيلول، في دوكر، رأى ضابط إدارة المخابرات في خيرو، الدكتور أحمد صبري، وحاجو، وأمين آغا. فنصح هؤلاء الزعماء بالامتناع حالياً عن أي اعتداء في جنوب وشمال الحدود، وذلك تحت طائلة العقاب من طرفنا. فتعهد الزعماء الكرد بالالتزام التام بتعليماتنا. الأتراك، وهم على علم بهذا الاجتماع، يبدوون قلقين .

في الجزء «9»:

العراق :

- اللجنة الكردية-الأرمنية في الموصل :

نشرة المعلومات رقم 202 تاريخ 13/10/1926 - القسم الأول (إدارة المخابرات-حسجة- 26/10/01)

عضو اللجنة الكردية - الأرمنية في الموصل، آريس شانييس مور، الذي كان قد تم طرده من سورية منذ زمن قريب، قد يكون حالياً عند حاجو .

لا يحظى نشاطه بموافقة المخابرات الانكليزية، فهذه الأخيرة كانت قد حاولت توقيفه في سنجار، حيث كان قد لجأ إليها. وانه يعلن صراحة بأن هدفه هو التحريض على الانتفاضة لدى العشائر الكردية في تركية وسورية .

ويشار أيضاً إلى أنه يتواجد عند حاجو شركسياً قادماً من الموصل ويدّعي بأنه من رعايا إيران، بينما قد يكون ضابطاً عراقياً كبيراً. وحسب مخبرين آخرين، حاجو هو في وضع يجعل منه شخصية هامة .

في الجزء « 12 »:

دمشق في 13 تشرين الأول 1926

سري

نشرة المعلومات رقم 202

:-:-:-:-:-

القسم الأول

:-:-:-:-

(...)

يتأكد، من ناحية أخرى، بأنه قد تم إرسال رسائل من قبل والي ماردين إلى أغلب زعماء الكرد اللاجئين، ليلزمهم بالرجوع إلى تركيا، وقد أُعطي لهم الوعد بالأمان التام (العفو- المترجم).

في شرق نصيبين، يتم البحث عن إجراءات لمواجهة تهديد حاجو، العدو اللدود للأتراك .

بعد مقتل صاروخا(صاروخان-المترجم)، ابن عم حاجون كان قد تم تعيين محمد لطيف رئيساً للهفيركية. وهذه الشخصية بدورها قُتلت في حوالي 22 أيلول، وذلك من قبل الهفيركية المتواجدين في المنطقة التركية الذين بقوا أنصاراً لشيخ الشيخ حاجو القديم. تخلق الأتراك عن محاولة إيجاد منافس لهذا الأخير من بين عشيرته، توجهوا (الأتراك-المترجم) إلى عبد الله سليمان من الأومريان. وتحت أمرهم، ذهب عبد الله سليمان إلى جبل باكوك (شرق نصيبين، منطقة قرى هفيركية حاجو)، وهو على رأس حوالي مئة من الأنصار مدعومين من قبل القوات النظامية. من الصعب أن يتمكن عبد الله سليمان البقاء في هذه المنطقة، و من المرجح أن يلقي نفس المصير الذي لقيه كل من صاروخان و محمد لطيف .

في الجزء «14»:

- أكراد لاجئون الى سورية :

نشرة المعلومات رقم 203 تاريخ 1926/10/15 -القسم الأول (إدارة
المخابرات-خبرو).

ممثّل اللجان الكردية في ديرسم، الدكتور أحمد صبري، الذي يقوم بجولة
دعائية في المنطقة الشمالية، و الزعيمان الكرديان اللاجئان في دوكر عند
التشيتية، حاجو وأمين آغا، قدموا إلى ضابط إدارة المخابرات في خبرو، طلبين
موجهين إلى الجنرال بيلوت ممثّل المفوض السامي في حلب، للمطالبة بدعم فرنسا
لحركة الاستقلال الكردي .

ملاحظة: تعبير «أكراد لاجئون» وكما أوضح المترجم «هم الكرد الذين كانوا
يتنقلون بين طرفي الحدود .

في الجزء «18»:

- الإجراءات المتخذة من قبل الأتراك :

نشرة المعلومات رقم 204 تاريخ 1926/10/18 -القسم الأول (إدارة
المخابرات-خبرو- 26/10/08)

يسعى الأتراك ليستعيدوا زعماء الأكراد المنتفضين الذين لجأ قسم منهم
إلى الأراضي السورية تلقى هؤلاء رسائل وقُدمت لهم عروضٌ مغرية حاجو،
بالذات، قد يكون قد تلقى رسائل من والي ماردين(بتحفظ)

تأكد تماماً، بأن الزعماء الكرد الذين كانوا قد لجئوا سابقاً إلى الأراضي
السورية، براهيم أوصمان، و براهيم اليوسف قاسو، و عبد الله سليمان، تم استقبالهم
والإعفاء عنهم رغم آثامهم الماضية. حوالي 30 أيلول، شوهد العديد من بينهم،
وخاصة براهيم أوصمان و عبد الله، وهم يتجولون في ماردين مع ضباط أترك .

- الأكراد الفارّون :

نشرة المعلومات رقم 204 تاريخ 1926/10/18 -القسم الأول (إدارة
المخابرات-خبرو- 26/10/08).

علي الأحمد، و نوري بن عيسى حمو، وعلي خدرو، اللاجئون إلى عاموده والملاحقون من قبل مفرزة موندبيلي من 18 حتى 23 أيلول، لا يزالون في الجبل، لكن يقال بأنهم قد دخلوا في علاقات مع السلطات التركية في ماردين، وأنهم قدموا خضوعهم الفوري. ويقال بأنه سيعطى لهم الأمان قريباً، وبأنهم سيستعيدون أوضاعهم السابقة كزعماء للعشائر أو للقرى .

-أكرد لاجئون إلى سورية :

نشرة المعلومات رقم 204 تاريخ 18/10/1926 -القسم الأول (إدارة المخابرات-خيرو- 26/10/08).

بغية التأثير على الأكرد اللاجئين في الأراضي السوري، لا يكتفي الأتراك بأن يرسلوا إلى هؤلاء الرسائل و المبعوثين وتقديم الوعود لهم. إنهم (الأتراك- المترجم)ينشرون في كل مكان خبراً يقول بأن الفرنسيين مجبرون، بموجب الاتفاقية الأخيرة، بتوقيف كل الأفراد المطلوبين من قبل تركية وبتسليمهم إياها . ونشر هذا الخبر بكفاءة، ليس بدون أثر حاد على من يهمله الأمر بشكل خاص. اللاجئون الكرد يظهرون قلقهم الشديد من هذا الأمر. حاجو بالذات، جاء ليقدم نفسه إلى ضابط إدارة المخابرات في القامشليه وعبر عن مخاوفه في هذا الموضوع، وعمل نفس الشيء أمين آغا من الرمان .

في الجزء «27»:

في شرق جفجغ، الشيخ الطائي محمد عبد الرحمن لا يزال مستمراً بالاحتفاظ بأحسن العلاقات مع ضابط إدارة المخابرات في خيرو. ونفس الشيء بالنسبة لأغلبية زعماء التشييتيه الذين جاء بعضهم يقدم نفسه لضابط إدارة المخابرات. زعيم الآليان، عبيد المرسي(المرعي- المترجم)، أرسل من جديد مبعوثاً ليطلب إرسال مخفر إلى مناطقه .

عند مختلف العشائر لا يوجد ما يقتضي الإشارة إليه .

-آ/س عن مقتل تمور بك :

نشرة المعلومات رقم 207 تاريخ 25/10/1926 -القسم الأول (إدارة المخابرات-حسجه- 26/10/15).

محمود بك، زعيم المليلين، وفي رسالة موجهة إلى ضابط إدارة مخابرات الحسجه، يوعد بأنه سيبقي وفيّاً لكلمته، وسيمتنع عن أية أعمال انتقامية. يقول بأنه متأكد بأن سليمان بك، زعيم الشراكس، هو أحد المحرضين الأساسيين لاقتراف الجناية. هذا الأخير ذهب إلى الدير ويقال أنه قد أخذ معه الكثير من المال وأنه قد تعهد بإنقاذ المتهمين من يد العدالة .

يقال بأن الشراكس قد حصلوا على عروض و وعود من طرف الأتراك، و بأنهم قد قرروا الهجرة إلى تل أرمن .
-السياسة التركية تجاه الأكراد :

نشرة المعلومات رقم 207 تاريخ 1926/10/25 - القسم الأول (إدارة المخابرات-خير- 26/10/15)

لازال الأتراك يستعملون الإقناع .

ثلاثة من الزعماء الكرد الذين كانوا قد لجئوا مؤخراً إلى الأراضي السورية، علي الأحمد اسماعيل من الأومريان، و علي خدرو من الدايشيه، و تاجر آغا(طاهر آغا- المترجم) من الهاسبه (حافزبني-المترجم)، تم العفو عنهم مؤخراً .

يشرع الأتراك في سياسة كبيرة، فأرسلوا المبعوثين والعديد من المراسلات إلى أغلبية الزعماء الأكراد اللاجئين إلى الأرض السورية، وذلك بغية إقناعهم للعودة .

عبور طاهر بك من الهاسبه إلى المنطقة التركية هو نتيجة لهذا النشاط (التركي- المترجم)، و من المحتمل أن يتبعه في ذلك زعماء أكراد آخرون .

يبدو أن هذه السياسة لا تلقى أي نجاح لدى حاجو وأمين آغا اللاجئين إلى دوكرك عند التشيتية، ولا زالت خصومة هاذين الزعيمين مع الأتراك لا رجعة فيها .

ولجأ الأتراك، أيضاً، إلى وسائل أخرى لمواجهة حاجو وأمين آغا- المترجم). فلأن الأتراك لا يستطيعون، بواسطة قواتهم، الوصول إليهما مباشرة ، فيشكلون (الأتراك - المترجم) العصابات التي يرسلونها عند الحاجة إلى جنوب الحدود. إحداها بقيادة عبد الله سليمان من الأومريان اشتبكت مؤخراً مع أنصار حاجو في حوالي أزناور. والبحث مستمر لتحديد مكان المواجهة بدقة .

خلال أحاديثهم مع ضابط إدارة المخابرات، الضباط الأتراك في مخافر الحدود، و في ماردين و في نصيبين، يتهمون وبدون توقف حاجو و أمين آغا بكل الأعمال السيئة. حسب أقوال الملازم رشدي من نصيبين، أحد أولاد حاجو قد يكون قد خطف مؤخراً 200 رأس غنم من سكان إحدى قرى الهفيركية (عشيرة حاجو) الواقعة في المنطقة التركية .

في الجزء « 42 »:

-المفوض السامي في حلب :

نشرة المعلومات - سورية رقم 214 تاريخ 12/تشرين الثاني/1926 - القسم الأول (إدارة المخابرات-حلب 8 تشرين الثاني1926).

في بعد ظهر السادس من تشرين الثاني، عاد المفوض السامي من أنطاكية إلى حلب، ماراً بحارم .

و في المساء تم استقباله في الدائرة العسكرية حيث نُظمت له حفلة شاي راقصة من قبل ضباط ثكنة حلب .

في السابع من تشرين الثاني، الجنرال القائد الأعلى للقوات في المشرق، وكبير الأطباء دوكيه، مدير الخدمات الصحية في المشرق، ورئيس إدارة المخابرات في المشرق، غادروا حلب ظهراً للذهاب إلى جرابلس عبر باب و منبج. وسينقلهم قطار خاص إلى نصيبين في 8(تشرين الثاني-المترجم) صباحاً .

رئيس إدارة مخابرات دولة سورية وصل إلى حلب في الخامس من تشرين الثاني، ثم غادرها إلى اسكندرون في الثامن صباحاً .

-آ/س عن محمد عبد الرحمن :

نشرة المعلومات-سورية رقم 214 تاريخ 12/تشرين الثاني/1926 - القسم الأول (إدارة المخابرات-خيرو 28 تشرين الثاني1926)

عبر زعيم الطي محمد عبد الرحمن عن عدم رضائه لضابط إدارة المخابرات في خيرو الذي كان يرفض أن يدفع له سلفة من النقود . معلناً بأن الوضع الذي خُصص له غير كاف، عاد الزعيم الطائي إلى بيته وهو مزعوج جداً، وعمل على نشر خبر يفيد بأنه لم يعد ممكناً الاعتماد عليه بعد الآن .

ويقال بأنه أرسل مبعوثين إلى مختلف عشائر وقبائل القضاء يدعوها إلى تغيير موقفها تجاهنا .

عاد ثانية، بعد ذلك، إلى أفضل المشاعر، محمد عبد الرحمن كتب من جديد إلى ضابط إدارة المخابرات في خيرو وبلهجة من الأكثر ودية .

سيتم القيام بزيارة إلى مخيمه في تل الغرسة .

في الجزء «47»

-إدارة المخابرات- خيرو 4 تشرين الثاني 1926 .

عبد الله بريخان، أحد زعماء عشيرة رمان (عشيرة أمين آغا) لاجئ إلى قرية خراب كوب تحتاني(غير محمولة على الخريطة)، الواقعة في حوالي عاموده، كان قد ذهب برفقة بعض من أنصاره إلى المنطقة التركية، وذلك، على ما يبدو، بهدف النهب تم تبليغ مغادرته إلى ضباط الأتراك في مخافر الحدود .

عبد الله بريخان هو شقيق أمين بيرخان، لكنه على علاقة سيئة بهذا الأخير و لا يطيعه .

في منطقة نصيين، لا يزال حاجو يشكل الفزاعة الأساسية للأتراك. التحقيقات التي أجريت حول الاتهامات الموجهة إليه من قبل هؤلاء الآخرين، لن تسمح بالتأكد من صحة هذه الاتهامات .

حاجو، جاء إلى قامشليه يقدم نفسه إلى ضابط إدارة مخابرات خيرو في الرابع من تشرين الثاني، وجدد وعده بالتقيد الكامل بأوامرنا، واعترض على الاتهامات الباطلة الموجهة إليه من قبل الأتراك .

في الجزء «52»:

- حول الحركة الكردية :

نشرة المعلومات - سورية رقم 218 تاريخ 24/تشرين الثاني/1926 - القسم الأول (إدارة المخابرات-جرابلس).

(...)

(ج)- (تاجر من سروج).

زعيم عصابة الكردي حاجو آغا، الذي كان قد توقف عن الأعمال العدائية منذ عدة أشهر، يقال انه جمع قواته من جديد للقيام بعمليات في منطقة ماردين، وذلك بأمر من اللجنة الكردية للاستقلال .

-آ/س عن الثورة الكردية :

نشرة المعلومات-سورية رقم 218 تاريخ 24/تشرين الثاني/1926 -القسم الأول (إدارة المخابرات- دمشق-المدينة 21 تشرين الثاني 1926)

حسب المعلومات الأكيدة التي وردت إلى دمشق، عقدت اللجنة الثورية الكردية عدة اجتماعات في بغداد، وذلك خلال شهري نيسان و أيار عام 1926. شارك في هذه الاجتماعات أكثر من 150 ممثلاً، وتم اتخاذ قرارات على درجة كبيرة من الأهمية بخصوص الثورة .

ستتخذ هذه الثورة توسعاً كبيراً جداً، وستشمل أيضاً مناطق الشمال و الجنوب. أكراد بلاد فارس سيساعدون الثوريين .

سيكون زعماء الحركة الثورية من ضباط هيئة الأركان الذين كانوا قد خدموا في الجيش التركي، ويعرفون بشكل تام الولايات الشرقية حيث ستقوم الثورة .

يأمل الثوريون الأكراد كسب تأييد قسم كبير من الجيش المتواجد في الأناضول .

- الزعيم الكردي المتمرد - سمكو :

نشرة المعلومات - سورية رقم 218 تاريخ 24/تشرين الثاني/1926 - القسم الأول (إدارة المخابرات - دمشق- الصحافة 21 تشرين الثاني 1926)

حسب خبر قادم من أربيل، ومنشور من قبل فتى العرب (جريدة سورية- المترجم)، الزعيم الكردي المتمرد سمكو، قد يكون قد وضع نفسه تحت حماية الحكومة العراقية، وهذه الأخيرة قد تكون قد قبلت ذلك .

في الجزء «57» نقرأ التالي:

نشرة المعلومات - سورية رقم 223 تاريخ 30/تشرين الثاني/1926 - القسم الأول (إدارة المخابرات- خيرو 18 تشرين الثاني 1926).

نتيجة لخلاف نشب بين السلطات المدنية و العسكرية التركية في نصيبين و ماردين، تم تغييرات هامة في ملاك نصيبين. تم نقل كل من الملازم رشدي بك،

قائد مخفر حراسة الحدود، و القائمقام. تم استبدال الأول بالنقيب مصطفى أفندي، والثاني بالمدعو جازي بك ابن حاج جيرديس .

النقيب مصطفى، شخصية ذو عقلية فظة، معروف سابقاً، وهو بطل حادثة نصيبين التي وقعت في نهاية أيار 1926، (منع الضباط الفرنسيين من دخول المدينة). أمّا القائمقام، لم تظهر حتى الآن مشاعره تجاهنا . سيبين المستقبل فيما إذا كانت هذه التغييرات قد جرت بهدف تغيير طبيعة العلاقات معنا، أم فقط لضرورات الخدمة .

- فوج مركب من مختلف الأسلحة غادر خربوت حوالي 19 تشرين الثاني، وفي نفس اليوم فوج ثان غادر مزرا (20 كم. شمال-شرقي بالو). يقال بأن هذان الفوجان كانا قد هجما المواقع الكردية في ديرسيم في منطقة بري-تجاي، و بأنهما اضطرا إلى الارتداد نحو خربوت .

- كانت منطقة عشيرة التشيتية(الآشيتية) في تلك الفترة خاضعة بشكل فعلي للزعامات الكردية، مثلها مثل كل المناطق الكردية الواقعة بين جفجغ ودجلة. و الوثائق التي نشرناها، وخاصة تلك التي سننشرها فيما تؤكد ذلك. و كانت السلطات الفرنسية ضعيفة عسكرياً، و كانت راضية، قبل التحديد النهائي للحدود، من التواجد الكردي القوي في تلك المناطق للحد من التوسع التركي والعراقي- الانكليزي .

- كان أمين آغا بريخان(بريخان) من الزعماء الكرد القوميين، وكان يقيم مع حاجو آغا في دوكر، إلا أنه بعد تحديد الحدود بشكل نهائي، استطاعت السلطات التركية استدراجه مع بعض الزعماء القوميين و من ثم غدرت به و بهم فيما بعد .
في الجزء «65»:

يمثل الساخطون في تركية تقريباً كل السكان. يستخدمون جميع الوسائل لنشر الدعايات ضد الحكومة .

القرويون الذين التقى بهم المخبر على طريقه، كانوا يشتكون الضرائب المستحدثة على حيوانات الفلاحة...لأن هذه الضريبة لم تكن موجودة !!!
- الشرطة السرية :

في كل المدن الكبيرة في تركية توجد شرطة سرية. يتردد عملاء هذا الجهاز على جميع أوساط السكان و يرفعون تقاريرهم إلى الموظفين المدنيين المختصين.

تأخذ الحكومة في الحسبان هذه التقارير إلى درجة يمكن القول بأنه لم يعد توجد حرية الكلام و الرأي .

22 -أ/س عن مشعل باشا :

نشرة المعلومات-سورية رقم 227 تاريخ 8/كانون الأول/1926 -القسم الأول (إدارة المخابرات- خيرو 25/تشرين الثاني1926) .

يقال بأن مشعل باشا، كتب مؤخراً رسالة إلى زعيم الطي محمد عبد الرحمن، يعاتبه فيها موقفه المؤيد للفرنسيين، معبراً ذلك تقريباً بالكلمات التالية: «لماذا تركتم الفرنسيين يستقرون في منطقتكم؟ سوف ترون بأنه سيتم إلغاء راتبكم، كما سيلغى راتبي أيضاً»

يتم البحث عن تفاصيل. هذه الخبرية أُعطيت من قبل أحد خُدّامي زعيم الطي، لا يمكن الاعتماد عليه .

23- أ/س عن الطي :

معلومات - سورية رقم 227 تاريخ 8/كانون الأول/1926 -القسم الأول (إدارة المخابرات- خيرو 25/تشرين الثاني1926) .

المخاصمة الموجودة بين محمد عبد الرحمن و شقيقه طلال، خلقت مشاكل. يقال أن طلال قد خطف جملاً تابعة لأخيه، و أن أخاه قد ذهب إلى مخيمه فتم استقباله بطلقات بندقية .

يقال بأن الطي قد انقسموا إلى قبيلتين، إحداها مع طلال، وتضم فخذي راشد و حريتس، و قسم من الجواله (سلومي). والأخرى مع محمد عبد الرحمن، وتشمل الأفخاذ الأخرى .

معلومات-سورية رقم 227 تاريخ 8/كانون الأول/1926 -القسم الأول (إدارة المخابرات- خيرو 25/تشرين الثاني1926) .

علي الأحمد، زعيم الأومريان، الذي عبر مؤخراً إلى المنطقة السورية، التجأ إلى سنجار .

إبراهيم أوصمان، زعيم آخر من الأومريان، كان في نفس وضع المذكور أعلاه، يتواجد حالياً في قرية الطي، دعدوشية (8كم. جنوب شرقي نصيبين). تمت دعوة

الشيخ إبراهيم رئيس هذه القرية، و دعوة غيره من زعماء المنطقة لكي يرفضوا استضافته(يرفضوا استضافة إبراهيم أوصمان- المترجم) .

في زيارة لضابط إدارة المخابرات يعلن حاجو رغبته في التقيد بأوامرنا، و يستكر الاتهامات التركية الموجهة إليه. في الحقيقة يتمنى بأن يتم بموجب التحديد المقبل للحدود بين جزيرة ابن عمر و نصيبين، دفع هذه الحدود(نحو الشمال-المترجم) إلى الطريق القديم، الأمر الذي سيجعله يستعيد قسم كبير من ممتلكاته .

في الجزء «70» ، ثمة ما يعمق ما تقدم:

- تصرفات تركية تجاه اللاجئين الكرد :

نشرة المعلومات - سورية رقم 229 تاريخ 17/كانون الأول/1926 - القسم الأول (إدارة المخابرات - حسجه 2 كانون الأول 1926).

يستمر الأتراك في محاولة جذب الزعماء الكرد اللاجئين إلى سورية. منذ نهاية تشرين الثاني، تم لصق إعلانات في ويران شهر تدعو المعارضين إلى العودة إلى تركيا و توعدهم بالأمان. لكن هذا الإجراء بدأ يبدو بالياً، و يبدو أن المعنيين لا يدعون أنفسهم ينخدعون، و لاسيما يتزامن هذا الإجراء مع الأفعال المعاكسة له بشكل تام .

في الواقع، تم اقتياد عشرة عائلات من ديريك إلى ديار بكر. و كان قد تم سابقاً نفي رؤساء هذه العائلات إلى سميرن. (مخبر من ماردین)

تأكد بأن على الأحمد و ابراهيم أوصمان، زعيمى الأومريين، يتواجد الأول منهما في سنجار، و يتواجد الثاني عند الطي، و تم من جديد إنذار الجهتين المذكورتين بعدم السماح باستقبالهما .

أحمد سليمان الذي كان قد تم اعتقال شقيقه مؤخراً في ماردین، لاجئ حالياً عند الميرسنيين .

حاجو و أمين آغا، يستمران في الالتزام بالأوامر التي تلقوها بشأن منع ارتكاب أية اعتداءات في شمال الحدود .

.....الخ

أترانا نستطيع تجاهل نوعية الحركة الاستخباراتية التي تتعقب كل نشاط تقوم به الحركة الكردية في الزمان والمكان؟ أترانا نستطيع التأكيد على أن هناك

ناحية معينة، نشاطاً معيناً في الحقل الاجتماعي، محاولة تفكير معينة، تليها حركة عيانية ما، تجمعاً عابراً، لقاء ما يلفت النظر...الخ، ولم يكن هناك تعقّب سياسي، استخباراتي من قبل دول المنطقة بسلطاتها المختلفة، وخصوصاً بالنسبة للدولتين الاستعماريّتين: بريطانيا وفرنسا ؟

ولا بد ان حاجو آغا من خلال تكرار الإشارة إلى اسمه وصلاته بالآخرين، وهو يتنقل على طرفي الحدود، أو يتم تسجيل كل شاردة وواردة تحيل إليه، كان يعني أكثر من سواء في التأثير المحيطي: الجغرافي، والربط بين طرفي الحدود، باعتبارها سابقة تاريخية علينا الاعتراف بها .

في لائحة الأجزاء التي أوردّها، ومن خلال مقتطفات محددة، تضيء نطاق بحثنا، يتبين لنا إلى أي مدى تنتشط الجهات الاستخباراتية بفروعها المختلفة في دس أنفسها في كل شيء، لأن ليس من شيء، ولها شيء فيه، أو استفادة منه، دون أن ننسى طبيعة الوارد في هذه الأجزاء:

تحركات سياسية

لقاءات واجتماعات

التحضير لأعمال تمرد أو إغارة

أعمال تهريب وغزوات

الصراعات الجانبية بين العشائر في المنطقة، وداخل العشيرة الواحدة.

عبور الحدود من الجهتين، لغايات شتى.

تغطية أنشطة ذات طابع جاسوسي، جنائية، ومطارادات .

صلات مستمرة برموز المجتمع، بطرق شتى، بالترغيب والترهيب.

في الجانب الآخر، تبين لدينا :

مدى تنوع العلاقات بين كرد المنطقة .

وأن الحدود لم تكن عائقاً طبيعياً، كما هو متوقع بين طرف كردي وآخر.

رغم أن هناك من يتعرض للتهديد والوعيد سوى أن هناك من كان يقاوم ويقلق سلطات المنطقة.

ومما لا شك فيه، كما قلت، أن لحاجو آغا، ومن خلال كم معتبر من الأمثلة، السهم الوافر في هذه المتابعة على طرقي الحدود، تارة عبرالتسيق بين السلطات الاستخباراتية على طرقي الحدود، وتارة بما يخدم مصالح كل طرف دون إعلام الطرف الآخر، لأن ذلك يعزّز مدى حرص هذا الجانب أو ذاك على التكتّم، وإبراز قوته للطرف الآخر، وفي تعامله مع «زبائنه».

ومما لوحظ من خلال محتوى هذه الأجزاء سعي تركيا وبوسائل شتى إبقاء وجهاء الكرد أو رؤساء العشائر، أو من لعبوا دوراً في أوساطهم الكردية، حين كانوا في الطرف الآخر للحدود «سرختي» وإلى استدراجهم، ليكونوا خاضعين لمراقبتها، فهي كانت تعلم جيداً، أن ليس من ابن أنثى، وليس من لهم كلمة مسموعة في عشيرتهم، إلا ولديه معلومة، يمكن أن يسرّبها إلى الطرف الآخر من الحدود، بدوره، أي «بنختي»، لأن ليس كالتاغية من يدرك ما يكون عليه رد فعل المتعرّض لإيذائه، ولهذا كانت محاولاتها تتم في الاتجاهات كافة، بحيث كانت تتّم، بمقدار ما كانت تعلم بجبروتها وهيبتها، كل من كان له اسم في سجلاتها، وتحديداً على خلفية من الفظائع التي ارتكبتها بمختلف أجهزتها الأمنية والعسكرية، وأن ما يتسرب إلى الطرف المقابل: فرنسا من جهة، وبريطانيا من جهة ثانية، يمكن أن يفيد، مهما كانت العلاقات بينهما قوية، حيث يستحيل علينا التكافؤ بين أي طرف دولتي وآخر، إنما يسعى كل طرف لإثبات الأكثر نفوذاً وحنكة وقدرة على لوي ذراع الآخر، كما هي صنعة السياسة على مستوى القوى المتنازعة أو المتصارعة المحلية منها والحدودية والدولية: كيفية لوي الذراع بنسب مختلفة، وتبعاً لتوزع أسهم القوة.

لقد كان هناك نزوح لأعداد هائلة من كرد «سرختي» هرباً بجلدهم، وخوفاً على حياتهم، وقد فقدوا الكثير من أهلهم، أو من معارفهم وأناسهم، بمقدار ما نزحوا إلى المدن الكبرى، إلى جانب عمليات التهجير القسرية، كما رأينا، غير أن الذي كان يقلق تركيا الكمالية أشد القلق، هو أن «رؤوساً» كباراً قد نزحوا إلى «بنختي» أو إلى الداخل السوري: دمشق مثلاً، وأبعد من العاصمة السورية، ولم يتوقفوا عن ممارسة أنشطتهم، رغم كل الضغوط عليهم بالاتفاق مع فرنسا نفسها، كما سنرى، لأن الذي كانت تركيا تعلم به، ومن خلال سياستها التصفوية: التتريكية، الكمالية، هو أن مجرد التحدث بالكردية، وليس سواها، كان يترجم

وجود قوة تتهددها حاضراً ومستقبلاً، قوة تفنّد ادعاءاتها، بعدم وجود شعب اسمه الكرد فيها⁽¹⁾.

في مقال له، يشير باحث كردي إلى قائمة بأسماء الذين هربوا من بطش الآلة الكمالية، ووجدوا في «بنختي» الحزن الدافئ، والاستقبال الحسن، تعزيزاً على الألم المشترك، وربما من هذا المشترك الوجداني كانت تركيا تتخوف:

حاجو آغا هفيركي وعائلته

محمد علي يونس

عبدالرحمن آغا قوم الجبل

رسول وأخوه عقيد آغا، زعيما عشيرة جيركان

أمين بريخاني وأخوه عبدالله آغا من عشيرة رمان

الشيخ عبدالقدوس

جميل ومحمد سيّدا

نذير آغا بن عليكي بتي، من زعماء هفيركان

فصيح موشي، من زعماء معروفين في سرختي

آل جلقى من وجهاء ماردين

نذير آغا من زعماء اومريان

اوسفي اوصمان من زعماء اومريان

خالد كنجو، من رؤساء عشير غرزان

(1) أنوّه مجدداً، إلى أهمية مؤلفات بيشكجي في هذا المجال، من خلال العشرات منها، حيث شرّحَ الذهنية الكمالية في تركيا، في مؤسساتها التعليمية: من المدرسة الابتدائية وما قبلها حتى الجامعة، وفي الشارع والسوق، وتلك الأساليب التي بذلتها السلطة الكمالية ولما تزل تبذلها رغم الزعم بوجود نوع من الانفراج تحت وطأة الحضور الكردي المتنامي، للحيلولة دون التلويح بالهوية الكردية، كما في: التوطنين القسري للكردي، النظام في شرق الأناضول، المنهج العلمي، التاريخ التركي، رسالة إلى اليونسكو، كردستان مستعمرة دولية، إرهاب الدولة في الشرق الأوسط، والدولة والكرد... الخ، وهو ما تعرضت له في كتابي: الدرع الواقعي: اسماعيل بيشكجي وكتابة القضية الكردية «دراسة في سلوك وفكر رجل في العاصفة»، مركز بيشكجي للدراسات الإنسانية، دهوك، 2017، ينظر مثلاً، صص 11-37.

أهو من رؤساء رمان

بدرالدين آغا من آل ديبو- كور حسين باشا من حميدية

حجي موسى بك وأخوات قدرى بك وأكرم بك جميل باشا

عارف بك من أعيان آمد

د. نافذ بك، ونوري «الصحيح نورالدين» زازا، اوصمان صبري

الشيخ عبدالرحيم أخ الشيخ سعيد الخالد

أحمد سليمان آغا اومريان

توفو آغا ديرفريان

حجي شيخو من تل مناخ من رؤساء رشكوتان، وآخرون من بين هؤلاء⁽¹⁾

من المؤكد أن هناك أسماء أخرى، ولا بد أن تكون، إن قدرنا العدد الهائل من رموز الكرد: وجهاء، وبكوات، وآغوات، وباشوات، ورجال دين، كما تعرفنا على لائحة من أسمائهم أيضاً سابقاً، وأن السعي إلى ضبط هذه الأسماء عمل مجد من أعمال التاريخ، والذي يعقبه طبعاً عمل بحثي في الضبط والترتيب، أو في الجرح والتعديل، ليكون ممنهجاً فيما بعد ، ولا شك أن هناك الكثير مما يكتب في هذا المجال بدواعي مختلفة، سوى أن كتابة التاريخ تتطلب سلوكاً علمياً خاصاً هنا .

إن الفقرة التي يُعَنُونُها جويده في كتابه المعروف بـ «الوضع في سوريا، ومن ثم: موقع الكرد في سوريا» ضمن فصل هو «وضع الكرد في تركيا وبلاد فارس وسوريا بعد الحرب العالمية الأولى. ص 325»، إن دلّت على شيء، فإنما على هذا التناثر السكاني أو انفجاره كردياً، ويبدو أن الثقل الكردي في سوريا محدود مقارنة بالدول الأخرى، وضمناً العراق طبعاً، لأسباب طبيعية وسياسية واجتماعية، سوى أن هذا الباحث الأصيل حقاً، في الوقت الذي يتناول موضوع الكرد بمزيد من الحرفية والتقدير، ثمّة ما يغفل عنه، لحظة التقليل من فاعلية الجغرافيا في التاريخ الذي يشمل هذه الدول، وكيف أن تحولات السياسة وتلاعبها بالمساحات الجغرافية، أوجدت مثل هذه التفاوتات، إذ إن الحديث عن سوريا من خلال الوجود الكردي ومن زاوية كردستانية

(1) من مقال عزالدين زاخوراني: ماذا حدث بعد انتفاضة الشيخ سعيد؟ في موقع زاخوراني، السالف الذكر.

تتامي على خلفية الحرب المذكورة بعكس الدول الأخرى، كما لو أن كلاً من بريطانيا وفرنسا في وضعهما للاتفاقيات المغمومة تلك، أرادتاهما رباعية «بين أربع دول» ليسهل استثمار المشاكل أكثر، وليكون تواجد الكرد وقد تم تشييتهم ربايعاً أكثر قابلية للاستثمار، وإقلاقاً لأمن هذه الدول من خلالهم مستقبلاً .

في ملامح دقيق يقول عن أن الكرد في سوريا تأثروا (بعد الحرب العالمية الأولى كثيراً بالتطورات في تركيا . فالنشاط القومي بين السكان الكرد المدينيين في دمشق وحلب والبلدات السورية الأخرى كان صدى وامتداداً للنشاط الكردي القومي في تركيا . ص 348)، ولكنه ناقص ويتطلب توضيحاً، وهو أن ذلك عائد إلى الطبيعة السياسية لتركيا والتي جاءت وريثة للدولة العثمانية ودونها مساحة، إلى جانب أن الدولة العثمانية كانت تضم القسم الأكبر من مساحة كردستان، ومن التواجد الكردي، سوى نهاية الحرب تلك دشنت لبداية أكثر من حرب نوعية على الكرد داخل هذه الدول التي تقاسمت الكرد وموطنهم الكردي، والقسم الأكبر من هذه المساحة إلى جانب التواجد الكردي كانا في الجهة التركية، إلى جانب أن نسبة كبيرة من الكرد الذين انتشروا في المدن السورية المذكورة إنما ينتمون إلى الداخل الكردستاني «العثماني- التركي»، وأن زيادة النسبة هذه، ترتبت على تتامي أعمال العنف التركية عدا فظائع الحرب السالفة الذكر، وما يلي يعزز هذه المقولة (وكان هذا صحيحاً أيضاً بالنسبة إلى القبائل الكردية في سوريا)، طبعاً لا بد من ضبط الكلام هنا بالمقابل وهو أن أي حديث عن هذه القبائل يجب ألا يقصينا عن العمق الجغرافي لها في «الشمال، وما تشكل من شريط حدودي وما يليه إلى الجنوب امتداد لذلك العمق في الحساب القومي الكردي، أو في الاعتبار التاريخي الكردي القومي (لم يعن خط الحدود المرسوم حديثاً كثيراً في ذلك الوقت لرجال القبائل الكردية في مناطق الحدود الشمالية في البلد، لأنه على الرغم من أن الحدود الجديدة في حالات كثيرة وضعت أفراد القبيلة الواحدة في ظل إدارتين مختلفتين، فرنسية وتركية، هما اللتان فصلتاها لكنها لم تؤذ عملياً القسمين. فقد استمر الكرد السوريون في هذه المناطق على تواصل مع أقاربهم في تركيا» غالباً أفراد في العشيرة ذاتها» وخضعوا للتأثيرات ذاتها . ص 348) .

ذلك ما يمكن تفسيره بعدة أسباب:

أولها، أن الحدود هذه لم ترتسم دفعة واحدة، كما يتضح من خلال المفاوضات المستمرة بين الدولتين اللتين لا علاقة لهما البتة بسورية «الكيان السياسي»، بمقدار ما كانت مصالحهما هي التي تقرّر ذلك: فرنسا كدولة مندبة، وهي تسمية ملطّفة وفي محتواها معنّفة، وصلتها بسوريا هي زمنية، وتتركز على مد نفوذها ما أمكن، وكقوة استعمارية منافسة لدولة مندبة أخرى في الجهة الشرقية منها: بريطانيا العظمى واستعمارها للعراق، وتركيا التي كانت وليدة مخاض انهيار العثمانيين، ومن خلال حرب تركيا ضد القوات لأجنبية بقيادة أتاتورك، والتي كانت أكثر تصميماً من فرنسا للاستيلاء ما أمكن على أراض تمد بنفوذها هي الأخرى إلى الجنوب، حيث تقع حقول النفط، أو تكون «جنة الثروات، وحتى بالنسبة للموصل وإلى جانبها كركوك، ولكم استماتت بغية احتواء الموصل دون جدوى، لأن كلاً من بريطانيا وفرنسا كانتا تعلمان جيداً، أن أي عملية استيلاء على ما كانت تطمح إليه تركيا، تعني فقدانهما للكثير من الامتيازات .

ثانيهما، أن الذين كانوا يعبرون الحدود في الجهتين، وغالبيتهم الساحقة من الكرد، والأغلب من «سرختي» إلى «بنختي» جرّاء أعمال إبادة نفذتها السلطة الكمالية في الكرد، وما كان في الإمكان إغلاق الحدود نهائياً، نظراً لأن ذلك يتطلب وقتاً يكلف الكثير من وضع نقاط مراقبة، إلى جانب قوات حماية/حرس الحدود، والحساسيات التي تولّدها هذه العملية جرّاء الاحتكاك المباشر بالطرف الآخر، والجانب الأمني مهم جداً هنا، كما نلاحظ حتى الآن وبصورة جلية.

ثالثهما، أن الكرد، رغم كل ما يقال عن ضعفهم، كانوا واعين بأن شيئاً يتقرر، يسيء إليهم، وهو في تمزيقهم، وكان عليهم انتظار عقود من الزمن لكي يتكيفوا مع وجود ما هو مصطنع «الحدود»، وفي الوقت الذي رأينا كيف أن ضبط الحدود لم يكن يترافق مع ضبط الأمن، حيث كان هناك مناوشات ومقاومات ضد النظام الكمالي من قبل الكرد وبصيغ مجابهة شتى، وهو اعتراف بلاشعية الحدود، إنما في العمق برفضهم لها، كما هي تسميتهم للشائبة السالفة «سرختي- بنختي»، ولا أعتقد أنها تخرج عن نطاق ما هو كردي خاص، أي تحمل طابع الانتماء إلى وحدة جغرافيا .

(وهكذا فالقبائل الكردية في شمالي سوريا تأثرت كما تأثر أقاربها في تركيا بمراكز النشاط الكردي في أورفا وسيفرك «سويرك» وماردين وجزيرة ابن عمر.

ومثل الكرد في العراق وبلاد فارس ، شعر كرد سوريا بتأثير الاهتياج القومي الكردي الذي انطلق من تركيا، وكانوا في الحقيقة مشاركين فيه . ص 349) .

تلك رواية متممة للسالفة، وهي تترجم طبيعة العلاقات بين الكرد إلى يومنا هذا، حيث إن طول الزمن يترك بصمته على هذا التباعد جرّاء الحدود الفاصلة بين أهل وأقارب ومعارف، لكنه يبقّي جرح الذاكرة مفتوحاً وملتهباً ومتقيحاً بمعانٍ شتّى، وثمة أدبيات كاملة يمكن متابعتها على تماس مباشر بمآسي الحدود، وفي الوقت نفسه بتلك المحاولات التي تجري لنسفها⁽¹⁾.

ولا بد من التركيز بصورة رئيسة على الجهة التركية في كل عملية نقاش أو كتابة تعني القضية الكردية، نظراً للعمق الاستراتيجي لها، حيث إن الكرد لحظة تعقّب خطوط اتصاليهم بالعالم الخارجي، أو تنقلاتهم، يظهرون خارجين من الجهة تلك، وهذا عائد إلى وجود الامبراطورية العثمانية التي حكمت المنطقة أربعة قرون، ولعب الكرد فيها دوراً كبيراً، كتجار، وقادة عسكريين، وسياسيين بالمقابل، أو برزوا كأشراف، وهذا من شأنه إبقاء باب «الشمال»- وما أدراك ما باب الشمال الشمالي!- مفتوحاً على مصراعيه .

في النقطة هذه، يكون أي تقدم مفيداً جهة تناول موضوع كهذا، وهي فائدة تتفاعل كلما حفّزت على إعادة النظر فيما سبق، كي يكون هناك تفاعل من الجهتين، وتعميق للفكرة السابقة، وفي الوقت نفسه، فإن أي تناول لتلك العائلات الكبيرة والتي عرفها المجتمع الدمشقي، إنما يترد إلى الموقع السلطوي في الامبراطورية تلك، ومن هناك كان نفوذها قائماً، إلى درجة التنافس بين عائلة

(1) كما نوّهت سابقاً، فإن كتاب الباحثة الكردية أصليخان يلدرم: كردستان والحدود ، من بين أهم هذه الكتب التي وضعت بلسان كردي فصيح، وتطرقت فيه إلى مختلف الموضوعات الماسة بالحدود وفي إطار الدول التي تقاسمت كردستان، إلى جانب خلفية تاريخية ترجع بها إلى ما قبل خمسة قرون، بصدد الغزوات التي تعرضت كردستان، ودون نسيان تلك الحكايات، أو الروايات وبالصور الموثقة لمن أصبحوا ضحايا الحدود، وما نسمعه راهناً، وبشكل يومي عن العالقين على الحدود، أو من يعبرون الحدود، ويواجهون الموت، ويعتقلون، أو يقتلون عمداً، وفي الإطار التركي خاصة، تأكيد لذلك. ينظر في ترجمتي العربية للكتاب: الجزء الأول: تاريخ حدود قائمة في كردستان بلا حدود، حتى بداية القرن العشرين، صص 41-95. و: الجزء الثاني: ماذا جلبت الحدود معها؟ حدود القرن العشرين، صص 233-256، و: الألغام والحدود، صص 530-653... الخ.

وأخرى، وهما كرديتنا وعلى تواصل مع مراكز النفوذ في عاصمة الامبراطورية العثمانية .

مثال على ما تقدّم، كما يأتي على ذكره الباحث يوسف الحكيم عن أنه (كان في كل بلد سوري وجهاء عرفوا بإخلاصهم للسلطان أمير المؤمنين أو لأحد المقربين إليه من أخوانهم، والأقرب: عزة باشا العابد الدمشقي، ثاني أمراء سر السلطان، والشيخ أبو الهدى أفندي الصيادي، العالم الكبير، وسليم باشا ملحمة..... كان سعيد باشا، الزعيم الكردي المقيم في دمشق، أميراً للحج، ولما شاخ، انتقلت هذه الإمارة إلى حفيده عبدالرحمن باشا اليوسف، بفضل توسط الشيخ أبي الهدى الصيادي، فصعب ذلك على عزة باشا العابد، وهو ابن دمشق، فتمكن بنفوذه لدى المراجع المختصة من نزع الإمارة من عبدالرحمن باشا اليوسف، بيلة حداثة سنه، والعهد بها إلى كبير آل العابد، فغضب الشيخ أبو الهدى، وأخذ يواصل مساعيه بحكمة ودهاء حتى استحصل إرادة سنية بإعادة الإمارة إلى عبدالرحمن باشا.. وأخيراً تم الاتفاق بين آل اليوسف وآل العابد، بفضل زفاف الغادة الحسناء الزهراء أخت عبدالرحمن باشا إلى زين الرجال محمد علي بك نجل عزة باشا العابد)⁽¹⁾.

وربما يتضح ذلك أكثر لحظة توسيع قاعدة المعلومات المتعلقة بهذا الموضوع، وما يصلنا بموضوعنا بالذات، ما يفضي به مفكر لبناني ومؤرخ حول هذه النقطة، وتقاطعات المصالح التي تتحرك ديناميكياً في مساحة جغرافية واسعة (إن تاريخ السلطات المحلية في بلاد الشام في العهد العثماني، هو تاريخ عدد من الأسر القوية التي برزت في العديد من المناطق، على قاعدة قدرتها على القيام بهذا الدور الوسيط بين «الهيئة الحاكمة» من جهة، والرعايا، من جهة ثانية. ص 60... فالعصبية المحلية المتمثلة بادی الأمر بأسرة قوية وذات بأس تنمو باتجاه نصاب السلطة والتمهيد للدولة «الولاية» من خلال تحالفاتها واستتباعاتها المختلفة لقوى الجوار، ومن خلال تلبيتها للإرادة السلطانية «الضرائب في صيغة الالتزام والاستقرار»..... إن نطاق الدولة العثمانية كان نطاق مجتمعات مركبة من أديان وأقوام ومذاهب.... الحديث عن البيوتات الدمشقية واستلامها لوظائف إدارية

(1) الحكيم، يوسف: سورية والعهد العثماني، دار النهار، بيروت، ط2، 1980. ط1، 1966، ص

مختلفة بعد عام 1860: آل العجلاني، وعائلة العمرين، وآل الجيلاني، وعائلة الكزبري، وعائلة الأيوبي، وعائلة العظم، والعظمة، وآل اليوسف، وآل العابد، وبنو الأدلي، وبنو مردم بك، وبوظو، وشمدين...⁽¹⁾ الخ.

الدرس القادم:

تلك مختصرات من سَفَر العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والتي في ضوئها كانت عائلات ترتقي أو تغدو مشهورة، وأخرى تنخفض مرتبتها، أو تتعرض للإفلاس، في ضوء أشكال التواصل مع مراكز صنع القرار في الدولة، ولا أن كل سلطة جديدة تبحث عن نقاط قوة وسيادة وسيطرة معبرة عن تطلعاتها، أو توجهاتها السياسية، وهذا ما تلمسناه مع دخول الفرنسيين إلى سوريا كمحتلين، ما رأينا من تحولات في بنية العلاقات المستجدة والتي أظهرت وجوهاً جديدة، وأن الكرد الذين أشير إليهم في الفترة السابقة، برزوا مع مجيء الفرنسيين، ومن ثم عندما ثبتوا أقدامهم على الأرض، كان هناك صيغ تعامل من نوع آخر، نظراً لتحولات إقليمية غيرت معها ما هو اجتماعي واقتصادي وثقافي في آن .

ولا بد أن الذي يرد في هذا «التقرير» وما يتضمنه التقرير هذا من معلومات ذات صلة بأنشطة الكرد، ومواقعهم، أو المدن التي استقروا فيها، يمضي بنا إلى طبيعة هذه الأنشطة وكيف تدار الأمور من خلالها:

(في 19 آذار / مارس، عام 1919، نشر حيدر وخير الدين الزركلي صاحباً الصحيفة الدمشقية المفيد، مقالة طويلة عن الاستقلال الكردي بعنوان «رسالة مفتوحة إلى الكرد في شمال وجنوب كردستان»، كان الطابع الدعائي لهذه المقالة واضحاً من واقع أن النسخ المجانية من الجريدة وزعت في شوارع حلب. بدأت المقالة بنذب اللامبالاة السياسية لدى الكرد وذكّرت القراء بكلمات الرئيس وليس حول «إزاحة نير الأيام الماضية عن رقاب الأمم، النير الذي يخنق التقدم...» بعد الإشارة إلى ثورة العرب ومطالبتهم بالاستقلال، دعت الكرد إلى أن يحفزوا أنفسهم ويطالبوا بإرثهم، كردستان حرة، التي يجب أن تشمل أراضهم ووان وبدليس

(1) كوثراني، د. وجيه: السلطة والمجتمع والعمل السياسي «من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام»، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1988، ص 60-63-67-93 .

وخاربوط وديار بكر والموصل وأماكن أخرى كثيرة حيث يعيش ما مجموعه 3 ملايين كردي. وزع محرضون غير معروفين كراسات تحتوي هذه المقالة في حلب وميديات وآزخ وكويان والريف وشمال زاخو، ونصيبين وجزيرة ابن عمر وشرنخ والموصل وريف الزاب وأمكنة أخرى . ص (349) .

يكتب جويده كمؤرخ، ويوضح من منظور اجتماعي، وتارة تستوقفه عبارة، فيعلق عليها سياسي، وما في هذا التنوع من قابلية المادة للتجاوب مع أكثر من سؤال أو محاوره، إلا أن الأهم وكما هي قائمة أسماء الأمكنة ذات الطابع الكردي، وهو ما يلفت النظر، والموضوع يتركز على ما هو كردي أساساً، ما يلفت النظر هو أن الكرد وهم حيث كانوا، وهم حيث تحركوا، وهم حيث استقروا، كان يبحثون عن هوية ما، تكون معبرة عما هم عليه، دون أن يقطعوا صلاتهم بالمكان الذي قدموا منه، وأن أي تغيير في العلاقة لا بد أن يدفع بالباحث للسؤال عن السبب أو الأسباب وهي موجودة طبعاً .

إلا أن هذا الباحث: المفكر وعالي الشأن «جويده»، يباغتنا بمعلومة، لا أظنها في محلها، حين يتناول وضع الكرد وهم في سوريا، أو ما يخص الكرد السوريين، وهو يقارنهم استناداً إلى السؤال عن عرف من بينهم بآخرين في جهات أخرى:

(على الرغم من مساهمة الكرد السوريين في الحركة القومية الكردية، يجب أن نوضح أنهم مختلفون في نقطة هامة عن الكرد في تركيا والعراق وبلاد فارس. فسوريا لم تكن فيها مجموعات كردية كبيرة تامة بذاتها مثل تلك البلدان، ولا أي مراكز أساسية للحياة القبلية الكردية وتقاليدها يمكن أن يقارن ببديس وديار بكر وجزيرة ابن عمر في تركيا، والسليمانية وراوندوز والعمادية في العراق، وسنّه وصاوجبولاق «مهاباد» وأورميا في بلاد فارس. وربما لهذا السبب أخفقت كردستان السورية بتقديم أية شخصية وطنية كردية بمنزلة الشيخ محمود في العراق أو سمو آغا في بلاد فارس أو الشيخ سعيد في تركيا. كان القادة الأكثر شهرة لدى كرد سوريا هما الأخوان بدرخان، في الأصل كرد من جزيرة ابن عمر «بوتان» في تركيا، اللذان ينحدران من أصول أميرية، وكانا متقنين أكثر من النمط التقليدي للقائد الكردي الذي يتمتع بدعم قبلي جماهيري. لم يكن الوضع في كردستان السورية متفجراً كما كان في كردستان العراقية وكردستان الفارسية، ولم يفض إلى سلسلة من الاضطرابات التي حدثت في

هاتين المنطقتين. حتى السنوات الأخيرة، كان ينبغي على الكرد السوريين.. أن يظلوا هادئين أكثر من أقرانهم في تركيا والعراق وبلاد فارس. لكن المنطقة كان لها حصة صغيرة من الاضطراب . ص 350) .

ذلك سؤال جغرافي سياسي التوجه، وربما كان على جويده، تحاشي التصرف كرجل سياسة، لكن التعبير يخرج عن مسار المؤرخ، ويسميه سياسياً في المجمل ، أو المقيم دون مراعاة طبيعة التحولات في الجغرافيا الكردية، إذ إنه هو نفسه على معرفة ما تفعله السياسة بالجغرافية، وأن الكرد الذي أشرنا إليهم، وهم في مقام الوجهاء أو الأشراف، في دمشق، كانوا بارزين فيه، وعلى مستوى سوريا، إلى جانب أن الكرد وفي مجالات ثقافية وسياسية وقيادية كان لهم شأن في السياسة السورية بشكل لافت في النصف الأول من القرن العشرين خاصة، كما سنرى لاحقاً أكثر، بالعكس مما جرى في الجهة «الشمالية» التي شهدت تفوقاً أو بروزاً في القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، وأن رموز الحركة الثقافية الكردية والتي يعتد بها الآن في كردستان الشمالية نفسه «الأخوة البدرخانيون، خاصة»، لولا تواجدهم في سوريا، أو دمشق، لما عرفنا التاريخ الكردي بالطريقة هذه، وفي سوريا بالذات، وحتى بالنسبة لكردستان الشمالية من الزاويتين التوأمتين: السياسية والثقافية، لحظة النظر في الأنشطة المبذولة في «سوريا» باسمها، وحيث عرفت كردستان الشمالية وعلى مدى أكثر من نصف قرن، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية إجمالاً، جرّاء عنف مستطير في تركيا، ركوداً أو وضعية نوام، وأن ما اجتهد في كتابته أو إظهاره، بدءاً من كتابة الألفباء الكردية بالحروف اللاتينية في مطلع ثلاثينيات القرن الماضي، إلى جانب قدرتي وأكرم جميل باشا، ونورالدين زازا، وحتى جكرخوين نفسه، يرتد إلى تواجدهم في سوريا وقرب حدود «الشمال»، وتلك من مخاضات السياسة ولعبتها المحلية والإقليمية والدولية بالمقابل، وأن الواقع المعيشي بدوره مأخوذ بتوجهات اللعبة هذه .

ربما ما أشار إليه زازا، يعزّز هذه المقولة، وهو يسمّي أتاتورك وطبيعة سياسته في تركيا، وفي التعامل مع الكرد، وكيف كانت سياسة فرنسا مع تركيا وهي تراعي حرصاً على إبقاء «شعرة معاوية» في مكانها، وهي سياسة حتى مماته سنة 1938 ، ولم تدم السياسة تلك، إذ اندلعت الحرب العالمية الثانية سنة 1939،

بمعنى أن فرنسا كانت تنظر إلى كل حركة كردية في الحدود التي تتبعها سياسياً، من الزاوية المحققة لمصالحها، وأن إرخاء الحبل، إن جاز التعبير، لأي طرف كردي، في ممارسة أي نشاط كردي، كان يقاس في نطاق هذه الحدود وكيفية ضبطها (لتحقيق هدفه كان مصطفى كمال بحاجة إلى رجل حديدي وجلاد وفضّل القلب ولم تكن حاشية أتاتورك خالية من أناس من هكذا فصيل . . ولكن السياسة الفرنسية تجاه الكرد كانت تتموج تبعاً لحال العلاقات المتبادلة مع تركيا وكنا نجهل تفاصيلها)⁽¹⁾.

أكثر من ذلك، ربما كانت تركيا أتاتورك وهي تضع نفسها في موقع الند لفرنسا، أو أي دولة غربية معتدة بنفسها، وربما كان الوضع كذلك، وتكون فرنسا الأقرب إليها، وهي تتفاخر بزعم أنها علمانية، وغربية من الطراز الأول، حتى أكثر من الغرب بالذات، كما لو أنها تتمثل التجربة الفرنسية ذات يوم في أوروبا، وهي رائدتها في الحداثة الجمهورية، وهي على مستوى المنطقة: الشرق الأوسطية إنما دون أن تتمكن من «فرمته الذهنية السلفية لعثمانيتها وطابعها الاعتباري شبه المقدس: شامانيتها» بأكثر من معنى، وهي تفرض نظاماً صارماً وقطعياً على كل من يجابهها وربما كانت السعيدية «إن جاز التعبير بالنسبة إلى ثورة الشيخ سعيد»، فرصتها الذهبية التي انتظرتها، وإن أفصحت عن معاداتها ظاهراً، حيث إنها استخدمتها حجة لقمع كل صوت معارض، لا بل والالتفاف على أي كان تشك فيه، فيكون مطلع «الجمهورية» هذا الإنجاز الدموي ضد شعب كامل: الكرد، والذين كانوا يختلط لديهم الديني بالقومي (قام مصطفى كمال باستغلال انتفاضة قادها الشيخ النقشبندي سعيد في المناطق الكردية سنة 1925، لفرض قانون الحفاظ على النظام العام الذي أعطى سلطة شبه مطلقة لاثنتين من محاكم الاستقلال المزعومة لمحاكمة الخصوم السياسيين. لم يعد الرجل مستعداً لتقاسم سلطته مع أية جماعات اجتماعية أو سياسية أخرى سبق لها أن دعمت قضيته في حرب الاستقلال)⁽²⁾.

(1) زازا، نورالدين: حياتي ككردي، المصدر المذكور، ص 35- 80 .

(2) كرامر، هاينتس: تركيا المتغيرة تبحث عن ثوب جديد، تعريب: فاضل جتكر، مكتبة العبيكان، ط أجنبية 2000، العربية الرياض، ط1، 2001، ص 24.

ينظر أيضاً، ما يقوله الأكاديمي كمال حبيب أيضاً حول ذلك في كتابه: الدين والدولة في تركيا المعاصرة «صراع الإسلام والعلمانية»، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة، ط1، 2010 ، كتقييم

جويده، إذ يتعقب الكرد، فهو أشبه بمنقّب آثار في استقصاءات مختلفة، وكيف يتشطلون، وكيف يجتهدون، وربما كيف يتألمون، ويحلمون، ويمنّون أنفسهم بما يشدونه، دون أن يغفل عن الصدمات أو الانتكاسات الخارجية والنفسية التي يتعرضون لها، كما في حديثه عن «الكرد والاحتلال الفرنسي لسوريا»، وهي نقلة جهوية في الجغرافية المنجرحة بسهام تواريخ الآخرين ممن يتحكمون فيها، ولعل جويده حين يقوم بمقارنة بين بداية دخول الفرنسيين إلى سوريا وتالياً، يستشعر تحولاً، في الموقف من الكرد (يبدو أن الفرنسيين قد فازوا بثقة الكرد سريعاً بعد احتلالهم سوريا. ففي شباط /فبراير، عام 1921، عندما تطور الانشقاق بين فرنسا والكماليين إلى صدامات مسلحة، تعاون كرد المulli مع فرنسا في صد قوة تركية غير نظامية حاولت أن تنتزع دير الزور، التي تقع على الأجزاء المنبسطة العليا لنهر الفرات الأوسط، من الفرنسيين ص 350).

هذه اللقطة التاريخية المنشورة سابقاً، معادة هنا، لتقول لنا شيئاً آخر، وهي في موقع مختلف، ومرتبطة بزمان اجتماعي وثقافي وسياسي مختلف كذلك، إذ لا بد أن سؤال: لماذا حصل ذلك؟ ربما لأن فرنسا كانت قد عانت من مواجهات الكرد لها حتى قبل استقرارها في دمشق العاصمة، وعلى يد ابراهيم هنانو الذي حمل لقباً مهيوباً: الثائر السوري الطليعي، أو الثائر الوطني السوري ناحية ادلب، أي بالقرب من الحدود التركية، وعلينا ألا ننسى ما كانت العلاقات بين كل من تركيا وفرنسا حينذاك، وفرنسا المنتصرة تقابل انهيار الامبراطورية العثمانية، وبحث تركيا عن هوية تعنيها وهي تحمل طابع تركيا محضاً، وأتاتورك في مخاض محاربته لمن رآهم مهددين لحلمه القومي المتشدد، وثمة آخرون كانوا مسكونين بالميل إلى العثمانيين، وليس فرنسا لأسباب مختلفة تلعب فيها المصلحة والمعتقد والثقافة دوراً كبيراً، وليس بخاف أن يكون هناك من يحارب فرنسا ويعيق دخولها إلى سوريا، ويكون هناك من يزعم أن هنانو هذا يحارب باسم الوطنية، وهي ربما من قمة المفارقات التي تحرّك أو يروّج لها حتى الآن في السياقات الوطنية الشعبية والاستحوادية، بغية حصاد أكبر قدر ممن من النفوس التي تفكّر وتتحرّك

للأتاتورية تاريخياً (العلمانية الأتاتورية حملت في داخلها بذور تناقضاتها التي لا تزال تركيا تتحمل أعباءها في أزمت أخطرها أزمة الهوية ص 161). الخ.
زا، نورالدين: حياتي ككرد، المصدر المذكور، ص 35- 80 .

في اتجاه مغاير لهذه السياسة الشعبوية: العروبية بالذات، أي وطنية وليس هناك وطن يمكن أن يشار إليه ضمن حدود سياسية، والوطنية تقتضي وجود كيان سياسي ودولة، وليس لذلك من وجود، وبالتالي، فإن هنانو لم يكن يحارب إلا باسمه، باسم ما يحركه كنفوذ زعاماتي محلي، ومتأثر بسياسة تركيا.

نقرأ في كتاب صدر بعد انفجار الأوضاع في سوريا بسنة ونصف، من قبل وزارة الثقافة السورية، عن ابراهيم هنانو، جاء في التقديم، ومنذ الكلمة الأولى (ولد ابراهيم بن سليمان آغا هنانو في بلدة تخاريم بقضاء حارم في محافظة إدلب غربي حلب عام 1869، ونشأ في كنف أسرة غنية عملت على تربيته وتعليمه وتنشئته على أفضل ما يكون التعليم في ذلك الزمن... ثم لاحقاً: عاش هنانو في وقت ضعف الأمة العربية واستبداد خصومها بشؤونها، فعمل على نهضتها، وجهد من أجل نصرتها وإعادة الحق المسلوب لها، فوجد كل القوى الاستعمارية تعمل على تدميره، فقد احتل الفرنسيون سورية، وطنه الغالي... الخ)⁽¹⁾.

إن تدقيقاً في هذه الكلمات، يضعنا إزاء أكثر من توجه دعائي، لا أعتقد أن ابراهيم هنانو متشكّل كمحتوى قيمى، وتفكير كما هو مثار في الكتاب، وبدءاً من الاستهلال، إذ يفترض أن يشار إلى كرديته على الأقل، وذلك مهم، على الأقل، مجدداً، لاحتواء من هم كرد، ولكن حتى هذه الحيلة لم يفتن إليها، وما يعنيه إجراء كهذا من وجود حمولة ثقافية مختزلة، وفي الجانب الآخر ما يفصح عن

(1) ابراهيم هنانو، إعداد ماهر الأشرم، رسوم: بتول ماوردي، منشورات وزارة الثقافة السورية- منشورات الطفل، دمشق، 2013، ص 5-7 .

وينظر من باب التوسع، ما ورد عنه في كتاب هاشم عثمان: المحاكمات السياسية في سورية، منشورات الرئيس، بيروت، ط1، 2004 (حوكم ابراهيم هنانو من قبل السلطة الفرنسية، لكن ساحتها برئت: أما الزعيم هنانو فقد وجه، بعد قرار تبرئته كتاباً إلى الجنرال رونو قائد الفرقة الثانية مؤقتاً بحلب جائ فيه «سيدي سعادة الجنرال: أرى من الواجب علي أن أشكر للسلطة الفرنسية التي تجلت مرة أخرى بتبرئتي فقد صرت اليوم صديقاً صادقاً للحكومة الفرنسية وقد عولت على أن أقيم الآن في مدينة حلب إذا نويت الذهاب فيما بعد للاستراحة في لبنان أرى من الواجب علي إفادتكم عندئذ. وأرجو في الختام يا حضرة الجنرال قبول احترامي الفاتقة ص29» عن جريدة البرق، تاريخ 26 آذار، 1922)، أي أن المحفز على حربه ضد فرنسا قد انتهى، ومن قبل العلاقة بينه وبين تركيا وغيره، وعليه أن يعود إلى ممارسة عمله اليومي.

التعريف به، وصلته بالأمة العربية ووطنه سوريا وقتذاك، وهما كلمتان تنتميان إلى حقل الراهن بتوجهاته الإعلامية أو الإيديولوجية، وهنا يكون يكون حجم الخطأ كبيراً، وصدور الكتاب عنه في غير محله.

الفرنسيون يعتمدون ذكاء عملياً في تعاملهم مع خصومهم، حيث تكون الأرض هي الرهان والحلبة والجائزة المرتقبة والخوف التاريخي، كلٌ منهم على قدر قوته وتحديدها للسياسة الفرنسية، ولهذا فإن ما يسطّره جويده لاحقاً، يُسمّى زماناً ومكاناً مختلفين بأكثر من معنى

(في هذا الوقت، يبدو أن الفرنسيين قد عبثوا بفكرة إقامة إدارة كردية تتكون من أورفا ورأس العين وماردين ونصيبين وجزيرة ابن عمر يديرها ابن ابراهيم باشا الممللي. لكنهم تخلوا عن الفكرة قبل أن تنتهي السنة، وتوصلوا إلى تفاهم شامل على الكثير من المسائل غير المحلولة مع الترك. وقد تجسد هذا التفاهم في اتفاقية فرانكلين- بويون في 20 تشرين الأول/أكتوبر، عام 1921. وفاقاً لهذه الاتفاقية، وافق الفرنسيون على الانسحان من كيليكيا وأراض أخرى تطالب بها تركيا، بالإضافة إلى تعهد يعطي سنجق الإسكندرون نظام حكم خاصاً. لكن هذه التسوية لم تؤثر في استقرار الوضع على طول الحدود التركية- السورية، ولا سيما في منطقة الجزيرة، المنطقة الأكثر كردياً في سوريا. وقد أخفقت اللجنة المشتركة في عام 1925 والاتفاقية الفرنسية التركية في شباط/فبراير، عام 1926، في تسوية كل النقاط في هذه المسألة بين فرنسا وتركيا. ولم يتم تحديد الحدود السورية في الجزء الشرقي بشكل نهائي حتى عام 1930. والتسوية الأخيرة أعطت سوريا رسمياً منطقة الجزيرة، التي استولى عليها الفرنسيون وأداروها منذ احتلالهم البلد. ص 351).

الجزيرة، أي جزيرة؟

يبقى أن الأخطر في هذه النقطة، وربما ذلك لا يلفت أنظار كثيرين، هو إطار مجموعة نقاط تتعلق بالاحتلال الفرنسي لسوريا، إطار العبارة المتعلقة بالجزيرة والتي - كما يظهر- لم تكن تابعة لسوريا، وهو ما تؤكد الأدبيات التاريخية، تلك التي تتحرى كل جديد، أو تحوّل في بنية العلاقات بين كل من فرنسا وتركيا هذه التي كانت تسعى جاهدة، كما ذكرنا، إلى السيطرة على أخصب المناطق التي تميّز

سوريا قاطبة، ولا بد أن الجزيرة التي تسمى الآن «الجزيرة السورية العليا» لم تكن إلا هذه المنطقة التي تم التنازع عليها كثيراً، ولعل فرنسا لم تتنازل عنها لصالح تركيا، ليس لأنها حريصة على «وحدة» الأراضي السورية، كما يمكن أن يقال ذلك أحياناً، وإنما لحسابات استراتيجية في العمق، وحتى من جهة جملة علاقات لها مع نظيرتها الامبريالية: بريطانيا العظمى، لأن ذلك من شأنه اختلال موازين القوى، وخشية أن تتمادى تركيا الأتاتورية للمطالبة بمساحات أكبر، ومن ثم تتحرك صوب الشرق «شرق الجزيرة هذه» وتطالب بالموصل، وهي تلوح بالورقة السالفة: الجزيرة، وهذا يعلمنا الكثير، على مستوى التاريخ، أي ما يتعلق بمفهوم «الحدود السورية» وكيف تشكلت، أو كيف جرى تشكيلها، إذ إن فرنسا نفسها هي من تنازلت عن الاسكندرونة، عن كيليكيا، إن أردنا النظر في الأسماء أو المسميات التاريخية تلك التي تزيد هذه النقطة وضوحاً، والجزيرة ليست أعلى من الاسكندرونة كم منطقة بحرية واستراتيجية، إنما لها ميزة سياسية واستراتيجية أخرى، أرى أن التواجد الكردي فيه له دور معتبر، والأهم من هذا وذاك، ما تعنيه كردستان بالنسبة لمجموعة دول المنطقة والدول المستعمرة لها، وشعوبها بالمقابل، حيث إن بشراً بأوصاف معينين، لا يُشكُّ للحظة واحدة أنهم يغيرون في بنية المكان وتاريخه: يقللون من أهميته، أو بالعكس: يزيّدونها أهمية، ويلفتون أنظاراً معينة من خلال هؤلاء «البشر، فللديموغرافيا إذاً فضيلة الإنارة لمعلم جغرافية دون آخر، بمقدار ما أن لها رذيلة التعتيم للسبب ذاته وهو معكوس، وحتى على مستوى أشخاص ذوي قدرات يمثلون فيما يقومون به حضوراً عملياً لبشر من النوع المشار إليه، فيكون للمكان نفس يسميهم ويستبقيهم، وبالمقابل، تتخذ السياسة الأرضية طابعاً خاصاً بسببهم، كما هو وضع الكرد، ومن يتحركون بوصفهم أشخاصاً يُسمونهم كما يُسمون به كحاجو آغا هنا. وعندما نترؤى قليلاً، ونوجه أبصارنا إلى ما جرى لاحقاً، بصدد التحركات التي شهدتها الجزيرة هذه نزاعات، وخلافات، ومناوشات، وما هو جار الآن، هو في صلب هذه السياسة التي تفتقت عنها قريحة «سايكس - بيكو»، وبالتالي، فإن الكرد، ينظر إليهم وهم يتحركون على سطح كرة زلق وهي تدور أو تتدحرج في هذا الاتجاه أو ذلك، وما أشبه اليوم بالأمس كثيراً .

أي ما فطنت إليه فرنسا كبريطانيا، في كيفية توريث المنطقة جاهرة مشاكل وضحايا في اضطراد، لا تستقر على حال، رغم أنها ليست الوحيدة المعنية بهذا

التوريث، إنما ثمة شراكة، إلى جانب خصوصية كل سلطة استعمارية، في مهر كل رقعة جغرافية احتلتها بطابع خاص يظهرها إلى عقود طويلة من الزمن.

ومن ذلك ما يكون كلام جويده أكثر هضماً، لأن لدينا إضاءة، وعن قرب «لهذه التجربة» الاستعمارية وتوجهاتها، أو ما يكون أكثر تعبيراً عن استيعابها لما يجري على الأرض (سريعاً، بعد أن حلّ الفرنسيون محل نظام فيصل العربي في سوريا، اتخذوا إجراءات لترسيخ الاستقرار في هذه المنطقة الغنية وتطويرها. فشجعوا بكل السبل العرب والكرد والشركس والأرمن واليعاقبة والسريان الكاثوليك والمستوطنين الآشوريين أخيراً، على الاستقرار في المنطقة وزراعتها. وأهّلت بلدات الحسكة والقامشلي وعامودا بالسكان وغدت مراكز مزدهرة. ويبدو أن الفرنسيين، منذ البداية، حاولوا السعي والاحتفاظ بنبات طيبة وصداقة مع كرد الجزيرة، كقوة في مواجهة العرب في تلك المنطقة، فقد تنافست القبائل العربية والكردية لمئات كثيرة من السنين، على امتلاك هذه المنطقة، وعند منعطف القرن بلغ الصراع أشده في نزاع مريز بين اتحاد عشائر الملي الكردية بزعامة ابراهيم باشا وقبيلة شمر العربية الكبيرة. ص 352).

هذه الصراعات في وجه منها ترجع إلى عهود ماضية، حتى قبل الاستعمار الفرنسي، إلى لعبة سياسة الباب العالي، وليكون هناك تطعيم لها من قبل السلطات الاستعمارية الفرنسية، والسعي إلى إدامتها.

إن جوردي غورغاس من جهته، ينير هذا البعد التاريخي والسياسي، في كتابه السالف ذكره، وما يحفز إرادة التعمق في كل عبارة تحمل بصمة هذه المرحلة، بقوله (كانت الجزيرة، في العهد العثماني مكان تنقل القبائل العربية من شمر وطي وبكارة في جوار القبائل الكردية نصف البدوية، من مربّي الأغنام، من ملّس، ودكورية وهفركان التي كانت تنزل من الجبال لتمضية فصل الشتاء. وتعيش إلى جانب القبائل البدوية ونصف البدوية بين دجلة، وتلال كراتشوك، جماعتان مستقرتان من أصل كردي، الحسنان «هسنان» والميرامس «الميران». وقد تعزز الوجود الكردي في الجزيرة بوصول الفلاحين الجبليين، وسكان المدن الهاربين من كردستان التركية بعد فشل ثورة الشيخ سعيد عام 1925. وقد استقر هؤلاء السكان الكرد الجدد خلال الانتداب الفرنسي، ومارسوا تعايشاً هشاً مع القبائل

العربية التي ظلت بأكثريتها من البدو الرحل ومطارحها جنوب القامشلي، وزوروس
شمر خورسا . ص 50) .

وعندما يتقدم إلينا بلائحة النسابة الجغرافية والديموغرافية، فلعل المقصد هو
مراعاة أي حكم قيمة، قبل إطلاقه على الجهة الجغرافية المسماة ومن يقيم فيه
من التجمعات البشرية وتمايزاتها الاثنية والثقافية وغيرها، كما في «كرد داغ»:

(إن كرداغ هي الأكثر اكتظاظاً بالسكان في المناطق الكردية الثلاث في شمال
سوريا . ويصعب تحديد تاريخ وصول الكرد إلى هذه المنطقة، ويعتقد روجيه
لسكوت أن الكرد الذين كانوا موجودين في ظل الانتداب الفرنسي، هم من هجرات
قريبة. وتتقاسم منطقة كرد داغ خمس قبائل كبرى. ص 51) .

وكذلك الحال في جهة أخرى (ونجد بين القبائل الأقل أهمية الروبارية
والخارزيان والكوجر والآشيتية والخاستيان، وتخضع القرى اليزيدية البالغ عدد
سكانها 1140 نسمة لزعماء الروبارية. ص 52) .

وبالنسبة إلى جرابلس، وما يمكن أن يناقش عليه، ضمن مفهوم «الاحتلال»
ودقته، ومقارنة بالمناطق الأخرى والتي استقر فيها العرب أو الترك، في سياق
التنافس في الهيمنة على المكان وتحمله طبع المهيم عليه (لقد احتل الكرد في
أوائل القرن السابع عشر الضفة اليسرى من الفرات وبعض أراضي من الضفة
اليمنى وذلك بعد تهجير السلطان لهم وتشكل، على هذا النحو، التجمع البرازي
الكرد الذي كان يضم في الواقع جماعات متنوعة، بعضها يدعي الأصل العربي.
كان البرازيون قبل وصول الفرنسيين وترسيم الحدود التركية السورية، يمارسون
البدواة بين سهل سيروج، وجرابلس، وهي منطقة جبلية قليلاً... ص 53).

وهكذا هو الحال في حديثه عن كرد المدن الكبرى في سوريا ولبنان ، وقوله
(تركز كرد دمشق ، حوال 12000 نسمة في الثلاثينيات من القرن الماضي، في حي
منعزل في المدينة، هو حي الأكراد . وقد بني هذا الحي شأنه شأن حيي الصالحية
والمهاجرين على سفوح جبل قاسيون. إلا أن حي الأكراد ينفرد عن الآخرين بطابع
خاص فيما يتعلق ببناء المنازل «الواطئة» وفي النمو المديني «الأكثر اكتظاظاً»، أما
في الجانب اللغوي فإن كل زاوية تتميز عن الأخرى بمستوى الاندماج في الثقافة
العربية المحيطة. واستناداً إلى ملاحظة للمفوضية البريطانية في دمشق، فإن اللغة

الكردية هي الأكثر استعمالاً للتواصل بين الناس في ناحية جسر نحاس. في المقابل، لا يسود في ناحية شمدین لا اللغة الكردية ولا اللغة العربية، لا سكان الزينية قد تعربوا بأكثریتهم. ص 54) .

وفي خطاطة تاريخية مهمة وجديرة بالتثبيت عن أصول هذه الجالية، نقرأ (تعود الجالية الكردية في دمشق إلى أصل عسكري .

لقد تشكلت عناصرها الأولى، في الواقع، من كتائب كردية رافقت، في القرن الثالث عشر، صلاح الدين الأيوبي، وهو نفسه من أصل كردي، وذلك في قتاله للصليبيين. وقد استقرت هذه الكتائب الأولى في سوق ساروجا لترحل فيما بعد إلى جبل قاسيون، وقد تعزز الدور العسكري لكرد دمشق في ظل الامبراطورية العثمانية. وقد فرض عسكريون ودركيون كرد الأمن في المدينة، كما قاموا بحماية طرق الحجاج إلى مكة. ص 54)

وتلك التمايزات بين حي وآخر، ووضع الثقافة واللغة من جهة الكرد في كل منهما (إن تماثل الكثير من كرد دمشق مع المهام التي كانوا يقومون بها قد أسهم ، في الحفاظ على شعور عميق بالانتماء إلى مجموعة اثنية متميزة.

وقد جاء، فيما بعد، مهاجرون كرد من أصول مختلفة «ديار بكر، الموصل، كركوك»، ملتحقين بالعناصر العسكرية، وأدى وصولهم إلى توسيع الحي. ولم يندمج حي الأكراد تماماً، مع مدينة دمشق، إلا في ظل الانتداب الفرنسي بفضل إنشاء جادة مطلة تربط حي الأكراد بسائر أحياء المدينة. لكن قبل هذا التجاور المدني المتأخر، نجحت عائلات من الوجهاء الكرد، خلال القرن التاسع عشر، من احتلال أهمية سياسية واقتصادية في العاصمة السورية. فقد سمحت الإصلاحات المعروفة بالتنظيمات ، وقانون الأرض على الأخص، لوجهاء محليين بتملك مساحات واسعة في الريف المحاذي لدمشق. كما أن إعادة تنظيم الإدارة في المدينة بين أعوام 1840-1860، قد سمحت بتعزيز مواقع الأرستقراطية المالكة للأراضي على حساب السلطة التقليدية للرؤساء والدينيين. ص 55) .

وما يخص عائلتين، أشير إليهما سالفاً، من باب إظهار مدى تواجد الكرد في مناطق مختلفة في سورية من جهة، وإلى طبيعة علاقاتهم بأهاليها، وكيفية تعبيرهم عن أنفسهم، وربما، لمعرفة طرق تواصل الفرنسيين معهم من جهة

أخرى) وقد برزت عائلتان من الوجهاء المقيمين في الحي الكردي في مطلع القرن التاسع عشر وهما اليوسفيين والشمدينين الاول من تجار المواشي أصلهم من ديار بكر، أما أصل الآخرين فليس واضحاً. ورغم أن العائلتين قد اختارتا الإقامة في سوق ساروجا تأكيداً لصعودهما الاجتماعي، فإنهما حافظتا على شبكة علاقاتهما الزبائية مع حي الأكراد في دمشق. أما العائلة الثالثة من وجهاء دمشق من ذوي الأصل الكردي، فهي عائلة العبيد التي لا تمتلك قاعدة سلطوية في حي الأكراد. ص (55) ...

ذلك ما يدفع بنا من المنظور البحثي إلى هذا الزلزال الديموغرافي والتقسيم الجغرافي، وكيف تحالفت قوى على الأرض بغية التحكم في هذا المستحدث، أو الحفاظ ما أمكن على هذا العقد الذي يبقى شعباً دون اسمه وجغرافيا دون اسمها، وذلك بالطريقة التي تبصر فيها كل قوة متنفذة على الأرض، فاعلة في سياسات المكان، ما يقيها ثمرة للمعني بها، وهي التي كانت وراء هذا التلغيم التاريخي والذي لا أظن أن آتياً يمكن أن يعدّ بالاستقرار جرّاء هذا التلغيم السياسي الدولي أصلاً.

كيف يمكن النظر في شخص حاجو آغا، جرّاء كل هذا الذي تقدّمنا به، وقد آذن هذا الفصل الفرعي أيضاً ببلوغ نهاية مفترضة للانتقال إلى فصل فرعي آخر، يكمله ويكتمل به؟ أي ضعف يمكن إبرازه فيه، إن وجد، وهو ضعف يرتد إليه، وقوة لا بد من تسميتها بالمقابل، ونوعية العلاقة بينهما، والتفكير الذي يأخذ بهما ويوازنهما مع بعضهما بعضاً؟

بغض النظر عن أي كلام، تحليل، تفسير، أو تأويل، يظهر المدوّن حتى الآن أن حاجو آغا هو فاعل سياسي حقاً .

جغرافيا كردية وكرد الجغرافيا

«إن الرواية التاريخية لحدث ما لا تتصف بالحياد الأخلاقي، بل يمكن أن تتخذ طابع الخير أو طابع الشر.»

تزفيتان تودوروف: الأمل والذاكرة «خلاصة القرن العشرين»، ص 194.

تركيبيات جغرافية في قلب التاريخ :

أي حديث، مهما كان نوعه وفصله، عن الجغرافيا يحمل بصمة تاريخ، وفي بعض الحالات، يغيب كل أثر جغرافي وراءه بمقدار إقحامات التاريخ ومن يعمّم حكماً له، أو بتأثير من تلك البصمة التاريخية، والتي تخص سلطة شخص غير عادي، أو جماعة متنفذة، أو قوة سلطوية معينة، وفي الحالات كافة، ليس في مقدور أي كان الزعم بأن لسان حاله الجغرافي لا يتفاعل مع مؤثرات تاريخية، أو بإيحاء من قبله، بالعكس، إن المشكل هو في كيفية الفصل الحدودي، ولو نسبياً بين ما يبقي الجغرافيا بوضوحه، والتاريخ بحضوره أو غيابه تبعاً لقوته .

لقد قلت في البداية عن أنني لن أخصص فصلاً عن تاريخ «كرد وكردستان» كتمهيد للموضوع، كما هو المعتاد في الكثير من الكتب التي تتناول موضوعاً كردياً، سواء أكان مؤلفوها أجنبياً أم عربياً أم كرداً... الخ، ونوّهت إلى أن عدم القيام بذلك يستند إلى سهولة الرجوع إلى هذه النقطة في مواقع الكترونية مختلفة، ولئلا يتقل ذلك على البحث الذي أشتغل عليه، سوى أنني في هذا الفصل الفرعي أشير - فقط- إلى جانب تأريخي- جغرافي، أو جغرافي- تأريخي لا بد منه، لأن ما سيتردد في هذا الإطار يتطلبه، دون الإفاضة فيه طبعاً، وفي المستوى «السوري»، كون حاجو آغا، بعد انتقاله إلى الطرف الجنوبي من الحدود «بنختي» وهو التعبير الأمثل لكرد المنطقة حين يعرفون بأنفسهم جغرافياً، من منظور سياسي بات أقرب إلى التخريج الفولكلوري وتعزيزه من منظور جمعي مقاوم بالتأكيد، أي دون أن يكون لدى جل هؤلاء الكرد طبعاً أي قاعدة معلوماتية تفسّر - بدقة تاريخية- مغزى استخدام هذه العبارة التوأمية «سرختي- بنختي» والخاصة بهذه النقطة الجغرافية، أي باعتبارها خاصة بالكرد دون أن ينطبق ذلك على آخرين، حيث يقولون بسهولة «تركيا- سورية» أو بالعكس.

توجد هنا أرضية جغرافية متوافرة، و «غطاء» تأريخي ما أشبهه بالمناخ السديمي العاصف يتم التذكير به لتحويل الجغرافيا من حالة الطبيعي غير المسمى إلى حالة الثقافة التي تركزنا كبشر مستهدفين في نقاط من هذه الجغرافيا وهي بحدود معلومة معززة بعلامة فارقة كردياً.

لهذا أشدد بداية على أن هناك من ينكر وجود جغرافيا تدعى كردستان عموماً، وكردستان سوريا خصوصاً، ارتكازاً إلى مرجعيات تاريخية مقدمة ومن داخل الجغرافيا، لا بل ورفض وجود شعب كردي كما هو متداول باسمه هنا وهناك، والذين يتمسكون بموقف الرفض ينتمون إلى الجهاز السلطوي الرسمي لدول المنطقة التي تقاسمت الكرد ووطنهم الذي يعنون باسمه الكامل : كردستان، وسوريا ضمناً، من ممثلي الاتجاه القومي العربي بأطيافه الإيديولوجية المختلفة، إلى جانب أصوات أخرى تنتمي إلى اثنيات تعيش في المنطقة وفي سوريا بالذات، من السريان، كقولهم بصورة لافتة عن أن «كردستان سورية» أو «المناطق الكردية» ليست أكثر من أكذوبة صدقها الأكراد⁽¹⁾، لكن الذين ركّزوا على وجود الكرد وفي مناطق مختلفة يصعب

(1) كما في حال اسحق قومي في مقاله «المناطق الكردية، أكذوبة صدقها الأكراد»، مستل انترنتي، 4 نيسان 2016، موقع «أيام سورية» الالكتروني، ومقاله الآخر «الشعب الكردي وتواجهه في الجزيرة السورية»، وهو الأقدم، منشور انترنتياً بتاريخ 31 أيلول 2009، وهو يشير إلى أصول الكرد العربية والأرمنية والسريانية غالباً، من خلال مصادر محدودة ومختزلة ومن طرف واحد، رغم عدم وجود أي تماسك داخلي في مقاله هذا، كقوله بداية (الأكراد تاريخياً هم آريون نزحوا من الهند قبل الميلاد وسكنوا بلاد الشرق (إيران). ثم رحلوا إلى أوروبا. ومنهم من سكن جبال آارات أول ما قدموا إلى المنطقة، ثم انتقلوا إلى أوروبا في رحلات قبلية وسكنوا مقاطعة ترنسلفانيا في رومانيا ثم عادوا بعد بضع مئات من السنين. فسكنوا آارات وهضبة وان وأخذوا يتسللون إلى ديار بكر وبلاد ما بين النهرين ضمن حملات استيلاء، والأكراد عشائر لهم لغتهم الكردية وفيها عدة لهجات.)، لينوّه ضمناً إلى الحضور الكردي في أمكنة مختلفة، وفي سورية ضمناً، ومن خلال مقولة سياسية ليست لصالح منطق المقال، وهو يكتب تالياً (والأكراد في مجال بحثنا الجزيرة السورية: هناك الباشات هم فخذ من الأكراد يعيشون منذ مئات من السنين في رأس العين ومبروكة. وهم من عشيرة المليّة وهناك عشيرة العدوان: رئيسهم حلو المحمد مركزهم الجندية على الخابور تابعين للباشات. = الكيكية: مراكز تواجههم الدرياسية ومحيطها. من آغواتهم صبح درويش وعبد الوهاب. شيخموس. وإسماعيل حج درويش. ومنهم رشيد الذيب= المشكوية: من آغواتهم كمال حسو. ومحمد بن الكطنة قريته تل كديش.= السلاخين: تواجههم في الدرياسية منهم مجيد السلاخي أبو ملول وهو آغا السلاخية.= الطاطاوية: منهم الآغا سعيد الحمو وأخوه يوسف الحمو

حصرهم هنا، كما في حال مينورسكي وقوله عن أن (الأكراد يعيشون في الوقت الحاضر على أرض واسعة عند حدود تركيا وفارس من مدينة مندلي «في شرقي بغداد» حتى آارات حيث تتعدى أرضهم حدودنا فتدخل في قفقاسيا . يعيش الأكراد مع الأرمن في جميع أصقاع سلاسل جبال أرمينيا وتنتهي حدودهم الشمالية في تركيا بمحاذاة أرضروم، وفي الجنوب يسيطر الأكراد على مناطق واسعة إلى نهاية سهول ما بين النهرين. وفي الغرب حدودهم نهر الفرات، أو بصورة أدق قره سو...⁽¹⁾)، ونيكيتين

ومركزهم في قرية تل بيدري في عامودا: الأغا محمد بن سعيد . ونقيب الأشراف في عامودا الشيخ القادري. وفي منطقة قبور البيض هناك بيت حاجو وهو آغا تلك المنطقة. وهم من عشيرة الهفريكان وآل حاجو مشهود لهم بأنهم رجال عملوا لصالح القضية الكردية وأغلب شبابهم مثقف ويعيش قسماً منهم في ألمانيا ومنهم المترجم وما أكثر عددهم في هذا المجال وخدموا أبناء جلدتهم خاصة والسوريين عامة وهنا لابد من ذكر المترجم زرداشت حاجو...وعمه الذي عرفته شهماً مزوشا حاجو. وعشيرة الدقورية التي تتركز غرب مدينة القامشلي. وعشيرة الكاباره وعشيرة الكاباكا. وعشيرة سيدان وعشائر البرازية والكيكان والدوركان والجابية والحسناوهاونا والميران والبينار علي الموالية لبيت آل حاجو الذي يعيش في مدينة. وتربط القصورانة مع الأكراد علاقات تعاون وصداقات أساسها العيش المشترك. ولقد أصبحت القضية الكردية حديث الساعة في وسائل الإعلام كافة... الخ) ، وفي نقطة أخيرة ما يشدد على هذا الاختزال والافتقار إلى المنهج (والأكراد بحسب ما جاء في كتاب الأعلام الخطيرة ما هم إلا من القبائل العربية (بكر بن وائل) ومن بعض العشائر الآرية. كما أننا لو قرأنا كتب عديدة عن الأكراد نجد أنهم ينحدرون من قبائل أرمنية وآشورية وتركمانية. ولكن عددهم يزداد مع الفتح الإسلامي للمنطقة حيث قبائل عديدة من الشعب الآشوري (الكلداني، والطوراني)، والأرمن يصبحون أكراداً... الخ).

قارن أيضاً ما يذهب إليه الباحث السرياني سليمان يوسف: أكذوبة «كردستان سوريا»، مستل انترنتي، والمنشور أيضاً في موقع «إيلاف» الإلكتروني، رغم أن الباحث ينوّه إلى «قساوة التعبير، وهو يوجّه خطابه إلى أصدقائه وأخوته الكرد السوريين» ولا بد أني منهم، وأنا منهم طبعاً، كوني أعرفه جيداً»، سوى أن مغزى القول يفصح عما يتردد في إطار «كردستان سوريا» أي من موقع الفعل ورد الفعل، وليت أن الصديق سليمان يوسف، وقبله اسحق قومي، وغيرهما تطرقوا إلى كيفية نيل الأنظمة العربية من شعوب المنطقة بإلغائها لهويتها واختزالها إلى أقلية، وحتى السعي إلى تعريبها كما يتم تعريب المكان، بمواجهتها، كما يتصرف الساسة والكتاب الكرد، وليس أن يكون هؤلاء هدفاً رئيساً ومحورياً لكتاباتهم، حينها لا بد أن الوضع مختلف، والعلاقة ستكون مختلفة، وهذا ما لا يقومون به إلا نادراً جداً، ليكون لخطاب القول منحى آخر تماماً، أي في خدمة الإيديولوجيا السائدة قبل أي شيء آخر.

(1) مينورسكي: ملاحظات وانطباعات: الأكراد أحفاد الميديين، تر: د. معروف خز نه دار،

بغداد، مطبعة النجوم ، 1968، ص 15.

الذي يمزج ما بين الجغرافيا الواسع بمفهومه والتاريخي المديد بمداه، وكيف جرى ويجري تجاهل ما هو أبعد من العين المجردة لدى الباحث في هذا الشأن، كما في قوله (غالباً ما يطرح البحث عن أصول أي شعب كان مشكلة مستعصية، وبخاصة في مثل حالة الشعب الكردي، لأن الشواهد التاريخية تعوزها الديمومة، ويتعذر التثبت منها في بعض الحالات. .. وما ورد في أحد هوامش الكتاب قول لعالم الأجناس إبيتار في كتاب له: «إنني لأشعر بالحنق كلما فكرت بعلماء الآثار الذين استخرجوا من التربة القديمة لآسيا الغربية كل هذه الآثار الرائعة، لأنهم كانوا غير مكترثين بالبقايا الإنسانية التي عثروا عليها. إن استنكارنا لا يعبر بما فيه الكفاية عن هذا الهدم العلمي الذي ارتكبه رجال أطلقوا على أنفسهم «رجال العلم»-. لقد كانت القسطنطينية وحدها تستورد سنوياً من كردستان ما لا يقل عن مليون ونصف مليون رأس غنم أو بقر تصدر إليها مشياً على الأقدام من كردستان»⁽¹⁾.

وما يمضي إليه الكاتب الأرمني أرشاك سافراستيان بقوله (لا توجد، في النصف القديم من الكرة الأرضية، سلالة بشرية كانت عرضة للظلم باستمرار، وأسيء فهمها كالشعب الكردي، ومنذ فجر التاريخ ربما لا يوجد شعب في العالم يسكن في منطقة جغرافية محددة، كان ضحية النوايا السيئة على الدوام مثل الشعب الكردي)⁽²⁾.

وما أفصح عنه الباحث السرياني- الآشوري وديع جويده الأشهر من أن يعرف قائلًا (لعب الكرد كشعب موهوب ومفعم بالحرية دوراً أساسياً في تاريخ الشرق الأوسط. كأمة، الكرد، بالنسبة إلى العرب والترك والفرس، هم السكوتلنديون بالنسبة إلى الانكليز. وقوله عن أن ما كتبه جاء بناء على عمله الميداني في المحافظات الخمس الضامة للمناطق الكردية ما بين عامي 1943-1944.....)⁽³⁾.

وأخيراً، وليس آخراً، ما يمضي إلى قوله المؤرخ العربي العراقي عباس العزاوي عن الكرد (وهذه الأمة مجاورة للعرب، ومساكنة للعراق وهي من أعظم الشعوب

(1) نيكيتين، باسيلي: الكرد «دراسة سوسيولوجية وتاريخية»، تقديم: لويس ماسينيون، نقله من الفرنسية وعلق عليه: د. نوري طالباني، سبيريز، دهوك، ط1، 2008، ص 41-42-106.

(2) سافراستيان، أرشاك: الكرد وكردستان، ترجمة: د. أحمد محمود الخليل، سردم، ط2، سليمان، 2008، ص 27.

(3) جويده، وديع: الحركة القومية الكردية «نشأتها وتطورها»، المصدر المذكور، ص 21-29.

العراقية فالإنصاف يدعوننا أن لا نهمل أمرها..⁽¹⁾ الخ.

لقد أوردت هذه الطائفة من المعلومات، من باب التذكير بتنوع الكتابات أو الدراسات التي تعرضت للكرد في مجالات شتى تاريخياً، ولعلها من حيث البنية تدل على مدى حضور الكرد في مؤثرات التاريخ الديموغرافية والسياسية والاجتماعية، أي ما ينبغي النظر فيه، كقضية كينونة مختلفة بذاتها وليس ما يحيلها إلى عامل وكالة وليس أصالة، إلى تعريف بالغير وليس بالذات، إلى حالة اشتقاق وليس جوهرًا مفردًا، أو مرجعية قائمة بذاتها، والتغافل عن هذا الحضور رغم حضوره، كما في حال الإيديولوجيا الكمالية التركية التي تكثر لأي وجود كردي، أو لغة كردية، لتعترف هي لاحقاً وجرأً ضغط حقيقة التاريخ بهذا الوجود، ولو بحصر المعنى في حدود ضيقة كالأقلية وعبر منحه منابر تلفزيونية محددة⁽²⁾.

ولعل الناظر فيما يجري على مستوى الخارطة السياسية السورية وموقع الكرد فيها، يلاحظ حالة اللاتبات فيها جهة تغير معنى الاسم «سورية» والحدود، وقضية «الديموغرافيا» وكيف يجري احتسابها: أ بالمفهوم التاريخي أم السياسي؟ وبالطريقة هذه، كيف يجري تقييم الجغرافيا الطبيعية وانتشار اثنيات مختلفة فيها؟ إلى جانب ما تفعله السياسات الحديثة فيها، عندما تخرجها من مضمارها الطبيعي والسكاني لتجعل السكان ملحقين بها، إنما بعد تجزيئها، وإخضاعها لمنطق الحتمية وهي سياسية موجهة، وهو ما تؤكد أغلبية الكتابات العربية، ومن ذوي التوجه القومي العربي بالذات، لحظة دخولهم في أي مناقشة حول السياسات السكانية في «الوطن العربي» وهي تسمية ذات صبغة إيديولوجية، لأنه لم يحصل أن كان هناك وطن عربي بالصيغة المسماة، وما تحويه حدود هذه

(1) العزاوي، المحامي عباس: عشائر العراق، دار المحبة، بيروت، د.ت. ج2، ص224.

(2) ينظر فيما أثاره اسماعيل بيشكجي في كتابه: الدولة والكرد «اللغة، الهوية، القومية، الوطنية»، ترجمه عن الكردية وقدم له وعلق عليه: ابراهيم محمود، مركز بيشكجي للدراسات الإنسانية، دهوك، ط1، 2017، بحث «الهوية» مثلاً، صص 27-41، وكتابه: إرهاب الدولة في الشرق الأوسط، ترجمة وتقديم وتعليق: ابراهيم محمود، مركز بيشكجي للدراسات الإنسانية، دهوك، ط1، 2017، ص47، وكتابه: الكرد بين التاريخ والجغرافيا، ترجمة وتقديم وتعليق: ابراهيم محمود، مركز بيشكجي للدراسات الإنسانية، دهوك، ط1، 2017، بحث «الهوية الكردية، مثلاً، صص 87-98... الخ.

العبارة من تنوع اثني فيفيض على دلالة هذه الحدود يكون العرب في مناطق ومن ثم جهات مختلفة فيها ملحقين وليسوا أصلا في المكان، كالأقباط، والأمازيغ والسرانيان والكرد... الخ، أي حيث يمشون إلى تاريخ لا يشفع لأي مناولة إيديولوجية بحتة، صفته : احتواء الآخر، وتحت مسمى «الفتح الإسلامي» والذي جرى ويجري حتى الآن تفخيمه والترويج له، كما لو أن احتواء الآخر بالقوة واغتصابه وتطويبه بلغة المحتل ليس إلا، وتلقينه ما يجب أن يكون عليه لغة وثقافة ونظرة إلى العالم وعقيدة، تعبير فياض عن رغبة هذا الآخر، وخاصة كبرى إنسانياً، وقد صودرت منه لغته وهويته المكانية والزمانية، وهذا الإجراء ساري المفعول حتى اللحظة، جهة الموقف مما كان إسلامياً، وتحت راية العرب أساساً، ولتكون «سايكس- بيكو» رغم تأثيمها أو تقبيحها فتحاً مبيناً بالمفهوم الروحاني المستتر للدول التي عرفت بحدودها السياسية، من قبيل القوى الامبريالية في الشرق الأوسط في الحرب العالمية الأولى، وما في مزامع المنددين بها من كتاب التوجه القومي العروبي من انفصالية ذات سياسية لافتة طبعاً، حيث يجري تقبيح الفعل الاستعماري، وهو حقاً هكذا، وتحسينه أو تجميله لحظة استنكار من أخضعوا للمقص الاستعماري وتحولوا من صفة القومية أو الشعب الواحد «كالكرد بصفة رئيسة»، إلى أقلية وما دونها، وبمسوغات دينية وإيديولوجية محروسة ومعنّفة، ولعل الحال في سوريا مثال بليغ على هذا التوجه، رغم أن الجغرافيا وحمولتها الديموغرافية تقول نفيّاً لها بجلاء .

ما الذي تقدّمه الجغرافيا، ما الذي تظهره أو تعلنه الجغرافيا؟ إنها هي هي، حيث تمتد على مرمى النظر بمفهومها الطبيعي أو التضاريسي، وحيث يمكن لأي كان، إن استطاع أن يتحرك في أي اتجاه، وهي كأرض قابلة للتتحرك في جنباتها، وطالما أن ليس هناك ما يعيق حركته حدودياً، سوى أن انقلاب ظهر المجنّ في اللحظة التي تؤخذ كما هي المادة الخام، وتحول إلى مادة صالحة للاستعمال السياسي لا العلمي هنا، ليصبح الصالح أو السوي أو الطبيعي، ما هو متناغم مع هذه العملية السياسية، وليس ما كان، أي حين تجب السياسة السائدة وهي في أحادية إجرائها ما هو جغرافي، كما لو أنها من حيث الجوهر عصية على الرؤية أو التحديد: غير موجودة، وربما أكثر من ذلك، حين ترتقي في خانة الإيديولوجيا

الرسمية إلى مصدر لعنة، وآثمة، فيصار إلى التحكم فيها بمزيد من العنف الديموغرافي المختار، ومحاولة تأبيده ، وهو ما يسهل ملاحظته، أو الشعور به، حدودياً، ومن خلال ما هو قائم مؤسسياً لخدمة هذا التوجه.

الاسم المعلق :

بالنسبة لسورية بالذات، ومنذ البداية، لا يظهر هذا الاسم كما هو متداول الآن، كما هو حال أسماء كالعراق وغيرهما، إنما ثمة تغييرات لها صلة بالتحويلات السياسية وتطبيقاتها على الأرض، وليس مجرد فرض واقع مسيس، يقول لونغريغ في ذلك (عبر اسم سوريا في التاريخ القديم والحديث عن مناطق متفاوتة، وهو لم يكن يوماً لقباً لدولة مستقلة واحدة تشمل الأرض «السورية» الصرفة دون سواها من الأرض)⁽¹⁾.

ومن الناحية السياسية وتداخلها مع ما هو جغرافي، يقول جورج قرقم (خلال القرون العشرة الأخيرة، لم تكن سوريا، وعلى أية حال، سوى تجمع لولايات يحكمها ولاية يعينهم المماليك، ومن بعدهم العثمانيون، ويقيمون في دمشق أو في طرابلس وحلب وصيدا وعكا)⁽²⁾.

من جهته يعلمنا الباحث السوري الكيالي بجديد هنا وهو (منذ فجر التاريخ المعروف يرجع إلى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد، لا يوجد دليل على قيام حدود سياسية شملت كل سورية ولا شيء غير سورية في نطاق دولة مستقلة واحدة)⁽³⁾.

لكن لدى باحث آخر وهو مالكولم معلومة أخرى، وهو (خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، كان يطلق على المنطقة التي تضم الآن كلاً من سورية

(1) لونغريغ، ستيفن هامسلي: تاريخ سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ترجمة: بيار عقيل، دار الحقيقة- بيروت، ط1، 1978، ص 7.

(2) قرقم، جورج: لبنان المعاصر «تاريخ ومجتمع»، نقله إلى العربية: د. حسان قبيسي، راجع اللغة العربية: أنطوان الهاشم، المكتبة الشرقية، بيروت، ط1، 2004، ص 57. وينظر أيضاً فيما يقوله في كتابه الآخر: تاريخ الشرق الأوسط من الأزمنة القديمة إلى اليوم، شركة المطبوعات، بيروت، ط1، 2010) في التقسيمات الإدارية العثمانية ليس ثمة ما يشير إلى تحديد سوريا على هذا النحو وإنما كان اسم سوريا يطلق أحياناً على جزء صغير هو الولاية التي تضم أربعة ألوية: شام شريف وحماه وحوران وحمص (ص 5).

(3) الكيالي، د. نزار: دراسة في تاريخ سورية السياسي المعاصر 1920-1950، دار طلاس، ط1، 1997، ص 12.

ولبنان وفلسطين والأردن اسم «سورية»... واستخدم تعبير «سورية» خلال القرن التاسع عشر وبالتحديد بدءاً من عام 1864 للدلالة على ولاية دمشق التي أصبح يطلق عليها «ولاية سورية». إلا أن المنطقة التابعة لولاية دمشق لم تكن تماثل أبداً سورية في المعنى الواسع لها.⁽¹⁾

وهذا التنوع والاختلاف نتلمسهما فيما يمضي إليه باحث آخر (لم يكن لدولة سورية الحالية وجود سياسي قبل عام 1920، وإنما كانت عند الفتح العربي الإسلامي لبلاد الشام، تؤلف ولاية في خضم دولة عربية إسلامية كبرى، تتراوح عاصمتها بين المدينة ودمشق وبغداد والقاهرة. إلا أن الأمر اختلف بعد الحرب العالمية الأولى، ونشأ في «سورية الطبيعية»- لبنان، سورية الحالية، فلسطين وشرقي الأردن- أربع دول من هذه الأجزاء، رغم أنها لم تكن تشكل ولاية واحدة في العهد العثماني)⁽²⁾.

وربما كان الذي تفوّه به حسين عطوان، وبإيجاز شديد، حول كيفية نقل المفردة بإحداثيتها الجغرافية من رقعة معينة إلى ما هو أوسع منها مثل دائرة الماء المتسعة، وهي لا تتسع إلا بتأثير من قوة ضاغطة سياسية المنشأ، منوهاً إلى المختلّف عليه، لا بل والجاري الرهان عليه (أطلق اليونان اسم سورية على المنطقة المحيطة بمدينة صور، ثم توسعوا في استعماله، فأطلقوه على المنطقة الواقعة بين جبال طوروس في الشمال وسيناء في الجنوب، والبحر المتوسط في الغرب، والبادية في الشرق. ص 19 «إذاً سورية تسمية سياسية لسلطة متحركة فيها من الخارج، يونانية جرأً السيطرة عليها»- اتباع نظام الأجناد في تقسيم بلاد الشام.. ص 21- وأدخلت الجزيرة في أجناد الشام لأنها من فتوح أهل الشام، إلا الموصل والهييت. ص 23)⁽³⁾.

.....الخ.

(1) ياب، مالكولم: نشوء الشرق الأدنى الحديث 1792-1923، ترجمة: خالد الجبيلي، الأهالي، دمشق، ط 1، 1998، ص 148.

(2) سلطان، د. علي: تاريخ سورية 1918-1920: حكم فيصل بن علي، دار طلاس، دمشق، ط 2، 1996، ص 7.

(3) عطوان، د. حسين: الجغرافية التاريخية لبلاد الشام في العصر الأموي، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1987، ص 19-21-23.

إن ما ينبغي النظر فيه، لحظة إعطاء تقدير لمفهوم التاريخ، هو السعي إلى الخروج مما هو مؤطّر بعيداً عن متغيراته، وما يكونه بحدود دلالية معينة، أو تصورات معينة، وبعد زمن قصير بمعنى آخر، بتصور آخر، ولا شك أن قابلية المعدة السياسية لهضم ما هو جغرافي والتغيير في بنيته، تطرح الجغرافيا في كل مرة، كما لو أنها لم تكن بالصيغة التي عرفت قبل ذلك، كما لو أن السياسة تتكفل بتلوين التاريخ وليس في وسع الجغرافيا الممانعة، فهي محكومة بها .

ذلك ينطبق من جهة التغير على ما هو حدودي، أي الأطراف، والتي تتعرض لسياسة المساومات والصراعات التي تجعل ممال حدودي حلبة نزالات كبرى لها، عندما يتم عبورها، أو اختراقها، أو الدفع بها نحو الداخل، تبعاً لدرجة القوة التي تتميز بها جهة سلطوية دون أخرى، أو دولة وهي في حرب على جارتها، وتستضعفها، فتتصقص في حدودها .

ومن ناحية أخرى، فإن هذه التسمية: الجزيرة السورية العليا، ليست صنعة قديمة، إنما حديثة العهد، في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وتحديدًا جرّاء تساويات بين دولة تقاسمت المنطقة كما سنرى، وكما نرى حتى الآن، كيف أن تركيا بين الحين والآخر تتجاوز الحدود «السورية» والتي يعتبرها الكرد حدودها السياسية، وتتوغل عميقاً، أو تطوي مسافة منها، دون أن يكون هناك أي رد فعل يذكر في هذا الشأن، كأن تقاوم، أو تشتبك معها، تأكيداً على عدمية اعتبارها في نظر الدولة، وهذا ما يدركه المقيمون على الحدود في الجانب المقابل لتركيا من الكرد، وما تعلّم به تركيا بدورها بأنها: سورية، إنما كردية .

وأن تظهر الجزيرة السورية العليا بهذا الاسم، فليس أكثر من إخضاع الاسم لسلطة سياسية تبقى التوتر التاريخي على حاله، إلا أن الذي يؤدي إلى خفض التوتر، وربما التمكن من قوته المستقلة، هو ما جرى تاريخياً من محاولة إزالة كل أثر للاسم الذي كان يُتخوّف منه والذي يرتبط بالكرد، أكثر من أي اثنية أخرى حديثاً خاصة، أي كردستان .

وربما كان الذي اجتهد الكرد في إبرازه فيما بينهم هو ما يقيهم أكثر امتداداً وحدوياً من هذا التقسيم للاسم الواحد، لحظة تقابل مفردتين «بنختي: سرختي: أدنى: أعلى، جنوب: شمال»، غير أن الأدق في التعبير هو أن صيغة «بنختي» لا

تعدو أن تكون نزولاً من جهة الشمال، وهو ما يتذكره ابن المنطقة، أي بوصف «بنختي» في الواقع برية نصيبين، مثلما أن الاتجاه نحو الغرب، حيث تكون ناحية «عامودا» وجوارها برية ماردين/ ميردين»، لعدم وجود عمران في المنطقة، تأكيداً على أثرية «سرختي» وعراقتها، وأن جل المدن التي تقع الآن في الشمال الشرقي من سوريا، والتي ينسبها الكرد إليهم، إنما أبصرت النور في الثلث الأول من القرن العشرين إجمالاً، مقابل مدن معمرة في «سرختي».

حضورات تاريخية في قلب الجغرافيا :

يحلو للسياسي والرحالة الانكليزي مارك سايكس «1879-1919»، أن يضع وصفاً لهذه المنطقة، وكيف أن توصيفه لها يعبر عن مدى اهتمامه بالجغرافيا لصالح تاريخ سياسي، وصف يشكل مسحاً جيولوجياً وطبيعياً لهذه المنطقة، بنوع من التركيز، بغية تقريباً من أذهان الساسة الانكليز، ممن نشطوا في الجوار، ولا أنهم كانوا معنيين بكل كلمهم سجلها هذا السياسي أولاً، أي قد أحاطوا بها علماً، بما هو عليها وما هو في داخلها، وإن لم يُسم على وجه الدقة :

(إن اسم الجزيرة أو شبه الجزيرة يُشتق من حقيقة أن المنطقة موضوع الدراسة محاطة ومنعزلة بواسطة نهريْن كبيرين هما نهرا دجلة والفرات. وتخص الأرض الواقعة بينهما، وتعرف بهذا الاسم.

والمظاهر الطبيعية العامة للجزيرة بسيطة للغاية، ومن الشمال توجد سلسلة متصلة نوعاً ما من الجبال ممتدة في خط غير منقطع من جزيرة ابن عمر حتى المنحدرات الغربية في Karaja Dagh قره داغ - جبل يعتبر قمة موحدة وهائلة لكن الخرائط الحديثة قسمته لأجزاء منفصلة عديدة - ووراء المنحدرات الغربية في قره داغ هناك شق في هذه المرتفعات وهو مجرد هبوط في ارتفاع التضاريس من الجنوب للشمال، وسرعان ما يستقر في التلال والجبال الوعرة التي تمتد من Urfa أورفا إلى BIRAJIK بيره جيک، وسلسلة من التلال الريفية تطل على منخفضات الجزيرة تقريباً بطول الساحل القاري، وإطلاله على المحيط.

وفي بعض الأماكن كما بين ماردين وجزيرة ابن عمر، فإن الفاصل قاطع وبارز، والسهول الضخمة تمتد حتى قاع المرتفعات وهي على مساحة 10 أو 12 ميل تشير إلى إمكانية مشابهة خط غير منقطع من الشقوق الجبلية والمنحدرات

المرتفعة لسلسلة قره داغ على الجانب الآخر، تندمج تدريجياً من الأراضي المنخفضة في شكل جزيرة عظيمة، وتذكرنا بمناظر سانت فنسنت.

والامتداد الغربي للسلسلة كثير التقطع خلال التعرجات والخلجان والشقوق، ومظهره غير منتظم.

المظهر الثاني المهم في الجزيرة هو سلسلة سنجار وجبل عبد العزيز، وهما جبلان يمتدان لحوالي 125 ميل طولاً، وتوحدتهما كسلاسل يجعلهما يمثلان حائط نادر التكوين، ولا يزيد ارتفاعهما عن عشرة أميال، كما لا توجد بهما قمم مدببة أو حادة، ورغم أن قممهما تبدو ذات بروزات غير ملحوظة، لكن الانطباع العام أمام الناظر يشبه قطعة أرض شاسعة أو شريحة ذات أبعاد هائلة.

وننتقل الآن إلى سلسلة الأنهار، إن كل من دجلة والفرات بهما ظاهرة مشتركة، ففي كليهما نجد أن الروافد تصل لهما من ضفتها اليسرى، وبالتالي، فإن الجزيرة لا تساهم بشيء في دجلة وبكل شيء في الفرات.

والمياه الداخلية في الجزيرة يمكن تقسيمها إلى قسمين : الأول: يتدفق من اتجاه أورفا، وفي النهاية عند بليخ Belikh يمر بالفرات عند الرقة Rakka، والثاني: هو نهر خابور الأكبر Khabur، بمختلف روافده، والتي تتشأ عند قاع مرتفعات قره داغ وبطول تلال Mardin ماردين، ونهر البليخ Belikh

هو مجرى مائي فريد للغاية، وحيث إنه يطل على مدينتين كبيرتين مثل أورفا و حلب، فمن الغريب أنه لم يستكشف حتى الآن، إنه مجرى مائي عميق وطبيعي، عرضه حوالي 30 قدم وعمقه حوالي 8 أقدام ومجره معتدل، وذو ضفاف إسفنجية لينة، وهو ينشأ بجوار حرّان Harran، حيث يوجد عدد كبير من الينابيع، لكن مصدره الرئيسي للمياه هو عين العروس Ain el Arus وهو ينبوع وبركة تقع بين التلال المنخفضة المنحدرة، وعين العروس هي منطقة مقدسة شهيرة، وهي الموقع الأسطوري لزواج وزفاف النبي إبراهيم، وفي وسط البركة هناك ينبوع غزير المياه، يمتلئ بكمية وافرة من سمك الشبوط وسلاحف المياه العذبة، وهذه الكائنات إلى جانب فراخ المياه التي تملأ المكان تعتبر مقدسة وأليفة إلى حد ما، وينصح الشخص الذي يرغب في طقوس نادرة أن يصلي في مسجد عين العروس، ويقدم هدية للشيخ صالح Shaykh Saleh. واستعبدوا البدو الباقين. ص18.

والآن نناقش الوضع الحالي للجزيرة، إنها لا تزال أرض حدودية بين الشمال والجنوب بين عنصرين من السكان أولهما العرب، والثاني: الأكراد، وفي جبال درسيم Dersim سوف تجد الأكراد الأصليين الموحدين، وفي الصحراء تجد البدو من أعلى الأنساب وأنقى الأجناس، ولكن بين هذين الموضعين سوف تجد أنواعاً كثيرة من الشعوب المختلفة، ومجموعة قبائل وضعها العرقي محير للغاية وخصوصاً مع المسيحيين اليعقوبيين في Tur Abdin طور عابدين وعبدة الشيطان في سنجار؛ لأنه نظراً لنظام الحكومة في التجمعات الدينية والطوائف والملل لدينا موقف شديد التعقيد والاختلاط.

إن القسمين الكبيرين هما في الحقيقة العرب، والأكراد، والعرب يسيطرون في الجنوب والأكراد في الشمال، وطبائع هذه الشعوب متضادة بشكل جذري، والعربي الأصلي هو كائن غريب حقاً، وعقله معقد وملئ بالثقافة، وبالضرورة ينجذب للشعر والمناظرة المنطقية والبلاغية، والتمثيل الكلامي، ولديه نظرة واسعة للأمور في كل المواضيع، ويمكن مناقشتها، ونطاق خبراته واسعة، ولكن عند تناول أي موضوع مادي يبدو شكله ساخراً كمهرج، وهو يكره العمل ويبغضه، وقدرته على الجدل تزوده بالأعذار، وهو يصرح بأن العمل مهين، ويقلل قدره، وبالتالي فهو يتهرب من كونه غير كفء وكسول وعاجز. ص 28...

ونتحول الآن إلى الأكراد، وهم شعب صعب فهمه، يحتاج تاريخهم إلى التدوين، وحتى توزيعهم فهو غير معروف حالياً بما يكفي. وبخصوص توزيعهم العام على الامبراطورية العثمانية، واختلافاتهم العرقية، يجب إحالتكم إلى المذكرة التي ألحقتها بهذا البحث، والآراء التي أذكرها الآن تشير فقط لهؤلاء الأكراد المقيمين بالمناطق موضوع المناقشة حالياً، ولا تشمل أكراد الأناضول، و Pagans الوثيين وشيعة Dersim درسيم، و Zazas الزازا شمال Diarbekir ديار بكر، وأكراد Zilan الزيلان شمال بحيرة Van فان و Kizilbash القيزل باش بين Erzerum أرضروم و Erzincan أرزنجان وأكراد البابا على حدود فارس الجنوبية، وفرع Kochkiri الكوجري وغيرهم في الامبراطورية. ... (1).

(1) أدين بهذه المعلومة إلى الصديق والناشر سراج عثمان حيث قدم لي مخطوطاً مترجماً من الانكليزية لسايكس، وهو غير منقح بعد، دون أن أعلم لمن الترجمة، ولهذا اقتضى التنويه.

ثمة تركيز على الوصف الطبيعي، وما يجعل هذا الوصف بطاقة تعريف له، كما لو أن المنطقة مصوّرة من الأعلى»، دون نسيان البُعد الديني التاريخي، ومن ثم الذين يقيمون فيها، وكيف يتمايزون فيما بينهم، ربما كما هو المطلوب من الرحالة السياسي الالتزام به، إنما لا يخرج هذا الوصف أيضاً عن تنويه إلى مناقب الموصوف، وحيوية الموقع .

وإذا كان أحد طرقي الاتفاقية الاستعمارية المشؤومة في تقسيم المنطقة «سايكس- بيكو»، كما مر ذكره، مهتماً بتقديم ما لديه من معلومات وصفية لمن يهمه أمر رحلته الطويلة وذات الثمن، وهي تضعنا في صورة العصر الحديث القلقة غالباً، فإن ما يقدمه الألماني ماكس فون اوبنهايم السياسي بدوره، إنما يعزّز بموقعه جهازاً معرفياً، وهو في بنيته استقصائي استخباراتي من نوع مغاير، كما هي سياسة ألمانيا، وذلك في وصفه الدقيق والرشيّق إذ يحيلنا إلى سلسلة أعصر تأريخية وكيف أن هذه الجغرافيا ذات التسمية المتحوّلة، قد شهدت في جنباتها لغات وتشابك لهجات، وحتى تصارع أجندات وتجاوز اثنيات بالمقابل، وحسبي أن اقتطف بعضاً مما يلهم ويفهم في مآثرة المراد النظر فيه من أهل العلم والحلم، وهو الراوية والشاهد، ومن ثم المدوّن لما يراه ويسطر بلغته (بلاد ما بين النهرين هي الأرض الممتدة شرق سورية في الشمال الغربي من جبال قرجه وجبال طور بين نهري الفرات والدجلة ...ص17...الجزء الشمالي يُسمى الجزيرة، والجنوبي: العراق.ص18...يشير إلى خروج دجلة من امتدادات جبال كردستان.ص21...ينبع الخابور الأصلي عد قرجه داغ جنوب غرب ديار بكر ويوجد نبعه الرئيس عند قرية رأس العي الغرقة في القدم.ص29... تُعد المنطقة المجاورة للخابور ، للأسف، من أخطر أجزاء تركيا الآسيوية. فلأن النهر دائم الجريان يتيح المجال للغزو في جميع فصول السنة.ص31...

خروج دجلة من امتدادات جبال كردستان.ص21...استولى المسلمون على عربان وجميع مدن منطقة الخابور بالطريق السلمية. وفي المرحلة العربية أيضاً كانت عربان «مدينة قديمة» لم تزل عاصمة لبلاد الخابور والمركز الكبير لتجميع القطن. ص39- يبلغ مرتفع تل حسكة نحو 20 م ويمتد نحو الشمال ليلتحم بمرتفع بركاني صغير أقل ارتفاعاً. ص43- من تل حسكة تابعنا مسيرنا إلى نصيبين باتجاه شمال غرب في بادئ الأمر ثم باتجاه الشرق وأخيراً باتجاه الشمال

الشرقي حتى وصلنا إلى مقصدنا . ص46- وفي الساعة التاسعة والنصف أصبح على يميننا تل حمدة. في خريطة هاوسكنيشت رسم تل سمّي «تل الأحمدى». ص48... في الزاوية المتشكلة بين سيل أبو راسين والجفجف كان يقع على يمين طريقنا تل أثري كبير هو تل الذهب. ص49... في الساعة الثانية عشرة اجتزنا مجرى مائياً عرضه عدة أمتار اسمه خنيس وهو الذراع الغربي للجفجف الذي يتفرع عنه على مسافة قريبة من نصيبين شمال غرب المدينة. وقبل مسافة قصيرة من تقاطع طريقنا مع الجدول كان الجدول قد التفت في نصف دائرة نحو الجنوب حول هضبة مهمة إلى حد ما واقعة على يسارنا اسمها «تل أبو ذويل».. وفي حوالي الساعة 12 و20 دقيقة كان على يميننا بعيداً بعض الشيء تل الحاج بدر، وفي الساعة الواحدة، على اليمين أيضاً وإلى الشرق، هضبة تل طرطب وتل طراطب، وبعد عشر دقائق على يسارنا في الغرب تل فارس الذي تنتشر على سفحه قرية حديثة البناء. ص49... ووصلنا في الساعة الثانية إلى مدينة نصيبين التي كانت قد ظهرت أمامنا منذ فترة من الزمن مع أعمدتها القديمة المنطلقة من تلال ركامية ضخمة. ص49... يشير إلى كنيسة مسيحية، ومن ثم ضريح حجري كبير للقديس يعقوب ، وأنه كما الحال في الشرق فإن المسلمين أيضاً يكرمون هذا القديس المسيحي. ص50... يتفرع الجفجف فوق المدينة إلى فرعين يسمى الأول، خنيس، ويتفرع الآخر في الجزء الشرقي من المدينة القديمة «نصيبين». ص51... حسب الأبحاث التي أجريت حتى الآن ورد اسم نصيبين لأول مرة في العهد الآشوري. ففي القوائم الإدارية للمنطقة والعائدة لعام 816 ق. م. ص52... لا تتوفر لدينا سوى معلومات قليلة عن نصيبين في ذلك الوقت. كانت المدينة تشكل مع محيطها مستعمرة إغريقية مزدهرة ضمن المملكة السلوقية تحت اسم أنطوخية المقدونية... وفي القرن الأخير قبل الميلاد ظهرت في شمال ما بين النهرين فجأة امبراطورية كبيرة تصفها كتب التاريخ عادة بأنها أرمنية، على الأقل يحمل حكامها أسماء أرمنية. ص53.... وبعد انهيار السلطة الرومانية عادت نصيبين مع منطقة شمال ما بين النهرين إلى أيدي الفرس. ص55... في عام 640 م، خضعت نصيبين للقوة الصاعدة المتمثلة في الفتح الإسلامي والتي استولت خلال أعوام قليلة على بلاد الرافدين بكاملها بعد أن كانت عاصمة الامبراطورية الساسانية طيسيفون «المدان» الواقعة على نهر دجلة قد سقطت قبل ذلك بسنتين في يد المسلمين. ص56. (1).

(1) أوبنهايم، ماكس فون: من البحر المتوسط إلى الخليج «العراق والخليج»، ترجمة: محمود

إنها دقة جغرافية لا تغفل عما هو تأريخي من جهة المسح المكاني، ومن وجهة نظر الرحالة، وكيف أن المنطقة شهدت اجتياحات وانقلابات ومآثر حروب تترى بالمقابل، حيث إن الرجل لم يُرد أن يمنح «جزء» التاريخ الذهبية ليد أي كان ممن يراهن على أحقيته بالمكان، وإنما سعى إلى تقديم لوحة متعددة الأسماء مرتبطة بالمتحولات التاريخية وقواها السياسية، وما يمكن أن يقرأ ما بين السطور طبعاً، أي إنه، وبالرغم من الطابع التضخيمي في لغة ادوارد سعيد وهو يتعرض لكتابات كهذه، أبطالها، أو عرابوها، أو ممثلوها، في بنية معرفتهم الأصلية ينتمون إلى عالم «الغرب» الموحد والمميز، وهو يقابل الشرق المتيّم، كما يظهر، المستغرق في تلك الذكورية القدرية والعمياء، كما يُستنتج من محتوى هذه الكتابات، بالرغم من ذلك، فإن ثمة تسديداً للهدف، فيما يمضي إليه صاحب «الاستشراق» أو «الثقافة والامبريالية»، وكيف تحدث التبعية من شرق مغمور بالنور، إنما عالق في أتون صراعات بينية، لغرب يذكر بليل شهريار غربي إنما من دون لحية شعناء، ومخدر بأحاديث امرأة مختلفة من خيالاته ذات الذكورة المرصية، وتركيزه على السفلي فيه، غرب معزّز بالشمس هذه المرة، حين يقول (وقد وجد الشرق مكاناً معزولاً عن التيار الرئيسي للتقدم الأوروبي في العلوم، والآداب، والفنون، والاقتصاد والتجارة... الخ)⁽¹⁾.

لكن، إذا صح هذا القول بحمولته التأريخية السياسية الطابع، وليذكرنا بالغربي ومبضع جراحته المؤدج إن سايرنا كاتبه، أو مقاربتة البحثية للشرق، فماذا نقول في الشرقي وهو يقبل على وصفه: حين يكون للكردي وكردستانه ذلك الحضور الذي ربما لا يصدم الغربي فيما أفصح عنه بيسر، بمقدر ما يصدم الشرقي ممن يتحدث بلسان إيديولوجيته الرسمية، حال الدول التي لا تريد سماع من يردد كلمة تنتمي إلى التاريخ: الكرد، وإلى الجغرافيا: كردستان؟ ومنذ قرابة أربعة قرون من الآن، وأعني به العثماني أوليا جلبي «1611-1682»، وبدءاً من توصيفه لنهر الهرماس الذي طالما كنت أسبح أنا «أعني الباحث هنا» في مياه نهره وهو يعبر الحدود المصطنعة بين كل من نصيبين وقامشلو: الهرماس، ومن ثم

كيبو، مراجعة وتقديم: ماجد شبّر، الوراق، لندن، ط1، 2009، الطبعة الألمانية الأولى برلين 1900، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

(1) سعيد، ادوارد: الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء، نقله إلى العربية: كمال أبو ديب، المؤسسة العربية، بيروت، ط2، 1984، ص 217.

يوسّع دائرة النظر شرقاً وغرباً، وما يدفع بالمعني بمعلوماته إلى التروي في إصدار حكم تاريخه على جغرافية ثرية ، مشبعة بالطّعان المتعددة الأبعاد هكذا (نهر هرماس: ينبع من جبال «نصيبين» وبعد عدة مراحل يتّحد مع نهر «الثرثار» الذي يخرج من جبال العمادية ويتحد مع نهر «خطيب»، يخرج هذا النهر من جبال كردستان ويتجه نحو الجنوب، حيث يروي سهول جبل سنجار، ويتحد مع «دجلة» قرب قلعة «تكريت» القديمة...وعن حدود كردستان : يصل الطرف الشمالي لهذا البلاد إلى «أرضروم» وفيها وان وهكاري والجزيرة والعمادية والموصل وشارزور وحرير وأردلان وبغداد ودرنة ودرتلك، إلى أن تصل إلى البصرة، فهي بلاد يبلغ طولها «70» مرحلة سير، وكردستان هذه بلاد صخرية، تقع بين العراق العربي وبلاد عمان، وينتشر بين جبالها وفي مدنها ستة آلاف عشيرة وقبيلة... أما عرض كردستان فليس بقدر طولها. يحدها من الشرق حدود العجم، ومن حرير وأردلان وحتى بلاد الشام وحلب يتراوح بين «20- 25» مرحلة، والجزء الضيق من هذا العرض يكون خمس مراحل، ويوجد في هذا الإقليم خمسمائة ألف مقاتل من حملة البنادق وجميعهم شافعيون ولهم «750» قلعة وجميعها عامرة. وتنتشر بينهم عدة السنة مختلفة مثل «زازا لولو، هكاري، عونكي، محمودي، شيرواني، جزيري، بساني، سنجاري، حريري، أردلاني، صوراني، خالتي، جكواني، عمادي ورزكي»⁽¹⁾.

جلبي يفرض أسماءه على المعنيين بالجغرافيا ليأخذوا به بالتأكيد، لكنه، من وجهة نظر الحقيقة، يلزمهم أن يدركوا ما تعنيه حقيقة التاريخ، وما تفعله هذه الحقيقة بميزانها التاريخي في حقيقة الجغرافيا، وما يحيل البشر إلى أناس مختزلين بألسنتهم ووجودهم أيضاً، أي ما يجعل الباحث في الأمرين متنبهاً إلى أن تناول الجغرافيا بحدودها السياسية والتاريخ برواياته ليس بالسهولة التي يتم تصوّرها، وإنما هي سهولة المندفع والذي لا يقيم للأمر وزناً وقد اختلف لغة، وتميز حدوداً، على أكثر من صعيد .

جوردي غورغاس، في مؤلفه الأثير يتعرض لتوزع الكرد جغرافيا، ضمن الحدود السورية بمفهومها السياسي، دون نسيان تحفظاته على عبارة «كردستان

(1) رحلة أوليا جلبي في كردستان عام 1065هـ-1655، ترجمة: رشيد فندي، طبعة خاني دهوك، ط1 2008، ص 63 - 99.

سورية» انطلاقاً من تدقيقه في الجغرافيا عينها، ويظهر مدى تركيزه على عملية التوزع الديموغرافية للكرد وتأثير ذلك على نشأة الكردية، والثقل النوعي ليس للسياسة الكردية فحسب، وإنما لأي مطلب قومي كردي بخصوص العبارة آنفة الذكر، وهي عملية مطروحة للنقاش طبعاً (يسكن السكان الكرد الخاضعين للانتداب الفرنسي ثلاث مناطق ضيقة ومنفصلة عن بعضها، على طول الحدود التركية. لذلك لا يمكن الكلام عن «کردستان سورية» بل عن «مناطق كردية في سوريا». بيد أن هذه الأراضي الحبيسة الكردية تشكل امتداداً طبيعياً للأقاليم الكردية في تركيا والعراق.

الأولى، في الجزيرة العليا بين دجلة والضفاف الغربية لحوض الخابور، طولها 250 كيلومتراً وعرضها، في بعض الأمكنة ، 30 كيلومتراً . وهي شمال سهل الجزيرة ويحدها جبل نورالدين، وفي الجنوب مرتفعات جبل عبدالعزيز. وسلسلة الجبال الوحيدة التي تغير هذا المنظر الرتيب هي كرتشوك داغ «769 م» الممتدة غرباً من ليك داغ «710 م».. وتشكل التلال الصغيرة القائمة على أطلال قُرى قديمة، جزءاً آخر من طبيعة المكان. وفي حين لا يوجد في الجزيرة السفلى زراعة إلا على ضفاف الخابور، فإن الجزيرة العليا، المعروفة من الانتداب الفرنسي بـ «منقار البط» السوري، تمتلك، بفضل طبيعة أراضيها، أفضليات لتربتها الجيدة، ومياهها، ومناخها. وبفعل هذه الأفضليات تعيش هذه المنطقة منذ الانتداب وفيما بعد استقلال سوريا نهضة اقتصادية هامة تحولت إلى «إهراء» . وتنتج الجزيرة، إلى ثروتها الزراعية، كامل النفط السوري منذ 1956 . الثانية: على ضفاف الفرات، طولها 60 كم، وعرضها 40 كم. والثالثة في كرداغ «جبل الأكراد»، وفي لتشي غرب حلب، طولها 40 كم، وعرضها أكثر قليلاً، وهي منطقة جبلية يبلغ ارتفاع بعضها إلى 1200 م. ويتصل كرداغ بالسلسلة المقابلة لطوروس في كردستان التركي. وينعم كرداغ بمستوى هام من الأمطار، وبمجري مياه سيلية، وتنتج هذه المنطقة كمية وافرة من الفواكه المتوسطة «التين والرمان، والتفاح، والزيتون»، ومن الحبوب «قمح وشعير». وتلعب الماشية، في المنطقة الشمالية الغربية من الجبل، دوراً هاماً في الاقتصاد المحلي⁽¹⁾.

(1) غورغاس، جوردي: الحركة الكردية التركية في المنفى، المصدر المذكور، ص 47-48.

هذا التوصيف لا بد أنه يرتقي بنا إلى مستوى عال من الدقة المعلوماتية ليس في مضمار صحتها عند قراءته، وإنما بصدد ما تتضمنه من إشارات إلى حيوية الموقع، وفتنة الرقعة الجغرافية التي تمتد بين ذراعين مائيتين، تنتميان إلى جنة الخلد، تبعاً لأدبيات الجنة الإسلامية: دجلة والفرات، وهو إثراء للمعنى ولتعميق اشتهاء المكان بأهله من قبل من استولوا عليه، تحت مسمى «الفتح العربي-الإسلامي»، وتفخيم لهذه البلاد التي تتوسط نهرين يصلان ما بين سلاسل جبلية تعد بالماء كثيراً حتى الآن، وسهوب تعد بأساسيات الحياة كثيراً حتى الآن، والتموطن فيها، ومدى صحراوياً ينذر بالموت في كل آن وحين لحظة الربط بين هذه العناصر الطبيعية، أي إن الوصف المبدع للمكان وبإل على أهليه الأصليين، ومن يزعم أنه ينتمي إليه منذ أقدم العصور، ولا بد أن الكرد في عداد هذه الشعوب، وأن التشديد عليهم يتلخص في أنهم محسوبون خارجاً، لا احتكار النعمة.

جغرافيا مظلومة :

هذا الامتداد الطبيعي والجغرافي ما كان له أن يعيق مداه الرحب عائق سياسي إلا في العصر الحديث، ليصار بالسياسة إلى أن تكون أداة تفريق وتلفيق في آن، وقد جرّئت الجغرافيا، عبر مفهوم «اللاجئ/ المهاجر»، فهي مفردة ما كان لها أن تخضع لأي اختبار سياسي ومسألة المعني به إلا ابتداء من القرن العشرين، وإثر نهاية الحرب العالمية الأولى خاصة جرّاء فاجعة «سايكس بيكو»، ليكون مقيم الدار الجغرافية غريبها وطريدها، وهو يتنقل شمالاً- جنوباً، أي حين يتم تحكيم ما هو مستحدث، والإجهاز على ما كان، وهو غير قابل للاحتواء، كونه بمفهومه كاسم حديث العهد أيضاً، أي برز في أهميته، كحال بلاد ما بين النهرين، مع تنامي اهتمام القوى الدولية المتنفذة: الاستعمارية أصلاً بالمنطقة، وإطلاقها لأسماء على أمكنة مختلفة، كما لو أنها تستولدها بطريقتها، إذ بتعبير أحد المهتمين بالتاريخ نقرأ (يعد تاريخ ما بين النهرين اكتشافاً حديثاً، وحتى القرن الثامن عشر، لم يكن يعرف، في العالم الشرقي، سوى ما جاء به الكتاب المقدس أو بعض المؤلفين المتأخرين من اليونان والرومان، مثل بع الوقائع أو المشاهد، أو الذكريات المبهمة الخرافية).⁽¹⁾

(1) كلود مارغرون، جان: السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين وسورية الشمالية، ترجمة: سالم سليمان العيسى، دار علاء الدين، دمشق، ط2، 2006، ص 29.

الکرد الذين يميّزون سوريا وليس العكس :

استناداً إلى المدونات التاريخية عن الأقوام التي عرفت سوريا والألسنة التي عبرتها أو استقرت فيها، وتفاعلت معها، من الصعب، إن لم يكن مستحيلاً، اعتماد جهاز «فلتري» من نوع تأريخي نزيه، والإقرار بأن هذه المجموعة السكانية، أو الاثنية أعرق من تلك، لحظة المقارنة فيما بينها «أي المجموعات الاثنية التي احتضنتها سوريا بحدودها الراهنة، قياساً إلى الدول الأخرى، حيث تلاقت ألسنة، وتطعمت، واغتنت، وتفاعلت مع بعضها بعضاً، ووحدها شبكة الإيديولوجيا كانت تمثل الخطر الأكبر على مصنّعها أو حاملها، في التفريق بين هذه الاثنيات، وتلفيق خرافة «أهل المكان الأول»، وكما هو المتداول حتى بين الذين ينتقدون صفاء «العرق» الدم الأزرق مثلاً، سوى أن حامل الإيديولوجيا جرّاء افتتانه به ينسى أنه المعني بما تقدّم، وربما الأول في المحاسبة، لأنه يذكّر به، ليجد نفسه في وضع غير آمن قبل كل شيء.

بصدد الكرد، ما أكثر ما كتب وتردّد في هذا المجال، عن الكرد وخلافهم، مما استقروا في جهات جغرافية سورية مختلفة.

الدكتور الصويركي لا يخفي جهده البحثي، أو المسحي الميداني في هذا النطاق، حين يشير إلى تواجد الأكراد في كل من حلب ودمشق (الأكراد في ولاية حلب: بعد الإشادة بالبحث العلمي الموثق للطالب خضر عمران حول «الحياة الاجتماعية في ولاية حلب في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي/النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري»، اعتماداً على وثائق محاكم حلب الشرعية، وإثبات وجود الكرد في ولاية حلب منذ القرن الثاني عشر الميلادي..ص15.. وذكر الكرد كطوائف مثلما ذكرت البدو والتركمان، من ذلك: طائفة البزلية الكردية- دلكان- الهشتوانلية أو الهشتولية- الدنلية: في ناحية الجبول من خلال أفراد منها- الطوالية في قضاء كلس..ص17..البانوكية- السليمانية- العمليكية المالكانية الجاوقلية- الشنتواتية... ص18-19... من جاء متأخراً إلى حلب: الشيخان- الشيكافي..ص21...

ومن ثم الحديث عن أكراد الدولة العثمانية في سوريا، من خلال بحث علمي موثق به لابراهيم الداوقي..ص22... في كل من الرقة..ص23... في دمشق، مثل : أغري بوزي «أغريبوظ»: العنق الغليظ بالتركية- الإبيش..ص26 والأيوبي، ص27... وبدرخان . ص28... وبوظو، ص 28-29.. الزركلي، ص30.. والزعيم: وثمة أفراد

مشهورون منها كأسرة دمشقية عريقة: حسني الزعيم، مثلاً. ص31.. شمدین آغا «الدقوري». ص32.. العابد، نزل جد العائلة: محمد بن قانص سنة 1700 م، ص33.. ومنهم أول رئيس للحكومة السورية بعد الاستقلال محمد علي بك 1867-1939، ص34... عرفات، ص34.. كرد علي.. كفتارو، ص36..37... النقشبندی، ص38- اليوسف: أسرة دمشقية عريقة، ص39-42..⁽¹⁾.

ولا بد أن الدكتور الصواف حين يتحدث عن الأسر الدمشقية، ينوع في التسمية، ومن خلال الربط بما تقدم، كما في هذه الأسماء (ومن بلاد الأكراد أسر كثيرة أشهرها: بدرخان، وشمدین الدقوري، والبرازي، واليوسف، والازركي، والأيوبي، والديركي، وبوظو، وأغريبوز، والوالي، والأومري، والظاظا، وقوطرش، وشيخو، وأجل يقين، وعرفات. ص51- أسر كثيرة كان لها أراض زراعية في الغوطة والجزيرة وحوران تسوق محاصيلها داخل بلاد الشام وخارجها، ومن أشهرها: الصواف، والمهايني، واليوسف، والعابد، والجزائري، والإيبش، والعظم، والموره لي، والبارودي، والدالاتي، والكيلاني، والعجلاني، والصمادي، والعاني، والأيوبي، والقوتلي، والجلاد، والشلاح، والخياط، والمملوك، ونصري، ومردم بك، وقصاب باشي، والحلبوني، ودياب، والعسلي، والكزبري، والحفار، والأغريبوزي، والجاجة، والحلي، والعمرى، والسبيعي، والحسبي، والبكري، والمالكي، والموصلي، وغيرهم. ص55...)⁽²⁾.

غير أن القائمة الاسمية للباحث الملا، وفي مدينة دمشق، ومن خلال حي عريق من أحيائها «حي هو مدينة، حقاً» ما يستدعي تفكيراً معمقاً في هذا الحضور الكثيف، أي «حي الأكراد» (يقول المستشرق النمساوي الفريد كريم في دراسته عام «1917م» أن اسم حي الأكراد قد أطلق على المنطقة الممتدة بين سهلي برزة والقابون شرقاً ومنطقة أبي جرش غرباً وجبل قاسيون شمالاً وشريط من البساتين تواكبه مع نهر يزيد جنوباً. ص22- لقد ناصر الأكراد الجيش المصري وهو يلاحق فلول العثمانيين ويرعون النصارى والموسويين في دمشق ولبنان من

(1) الصويركي، د. محمد علي: الكرد في بلاد الشام ومصر، ترتيب ومراجعة: أ. د. فؤاد حمه خورشيد، دائرة الثقافة والنشر في وزارة الإعلام العراقية، بغداد، 2007، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

(2) الصواف، د. محمد شريف عدنان: موسوعة الأسر الدمشقية «تاريخها، أنسابها، أعلامها»، بيت الحكمة، دمشق، ط3، 2008، ج1، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

الفترة التي افتعلتها المؤامرات والمخططات الأجنبية الاستعمارية فكان لفصائل علي أجليقين وسعيد باشا الدقوري ومحمود باشا بوظو الذين رعوا الأمن ونشروا الطمأنينة في الظروف الصعبة، وكان شمدين آغا وكان عبدالرحمن باشا اليوسف حماة الحجيج الإسلامي الذي كان يتجمع في دمشق إلى الديار المقدسة ص29- الزعامات التاريخية والشخصيات الاعتبارية في حي الأكراد: وكيف يتم تقديرها كردياً من أيام صلاح الدين الأيوبي.. ص125.. من لهم مهمات سياسية: هولو باشا العابد، ت 1895م.. علي باشا بوظو، ت 1870م.. سعيد باشا بن شمدين آغا الدقوري، ت 1325م... محمد علي بن عزة باشا العابد، أول رئيس للجمهورية السورية، بين عامي 1932- 1936، وتوفي سنة 1949م.. ص130... عبدالرحمن باشا بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف، سليل العشيرة الزركية من آمد- ديار بكر.. ص130... علي آغا بن زلفو مدينة، ديابكرلي، ت 1957م.. ص133.. ما علاقة د. محمد مروان بن محمود شيخو، صص138-139، بالكردية.. والسيدة وصال فرحة غزالة.. ص139... مشاركة الكرد في أحزاب سورية، ص 152- 153... عائلات انتسبت إلى نساؤها ودعيت بأسمائها: زينادوو، زينة، عيسه، سيره، سعده، شمسكيه، عيشانه، غزاله، هديه، هلولو، وضحو، ورد، خزنا، برفه، نازيه.. صص177-179⁽¹⁾.

بدورها، نجد أن ليندا شليشر، تعيدنا إلى الوراء تاريخياً، وهي تتوقف عند دور الأشراف في مدينة دمشق، ومن يكون هؤلاء من حيث الاسم والمكانة، وفي صفحات تترى (كان للأشراف- على العكس من الآغوات بل وأكثر من العلماء- نفوذ يسري في المدينة كلها.. ص156.. عودة إلى الشريحة الأولى: الآغوات: آل العظم ودورهم الكبير في دمشق، صص 168-178.. آل شمدين من الكرد.. ص183-181.. آل اليوسف من الكرد أيضاً طاهراآمدي، ص200-201... صص184-186.. آل العابد، صص 186-188..)⁽²⁾.

(1) الملا، عزالدين علي: حي الأكراد في مدينة دمشق بين عامي 1250- 1979 م: دراسة تاريخية اجتماعية اقتصادية، ط1، 1998، وقد وردت أسماء الكتاب في المتن للإيجاز.

(2) شليشر، ليندا: دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ترجمة: عمرو الملاح- دينا الملاح، مراجعة: عطايف مارديني، دار الجمهورية، دمشق، ط1، 1898، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

وما يستوقفنا به كلام الدكتور النفزاوي في التقسيم الجغرافي الإداري والتنوع الديموغرافي والكرد في المتن (تضم ولاية حلب من الناحية العرقية والدينية أجناساً وديانات مختلفة ففيها الترك وفيها - كذلك- الأكراد من البدو أو المزارعين....ولا تختلف سورية عن ولاية حلب اختلافاً كبيراً في المساحة أو عدد السكان أو التنوع العرقي والديني والطائفي فقد ضمت الأكراد الذين «شكلوا أحد عناصر سكان دمشق، حيث تم امتصاصهم جزئياً ضمن الأكثرية العربية وحيث تعلموا العربية لغة ثانية.. إلى جانب بروز أسماء مثل محمد كرد علي «1853-1953»، وخير الدين الزركلي «1893-1976»، وعائلات إقطاعية، كعائلة اليوسف الإقطاعية المتنفذة التي تمتلك المزارع الواسعة...والإشارة إلى تواجد كردي في اللاذقية..⁽¹⁾.

إن ما استعرضناه كان في واقع أمره أكثر من الاستعراض، لأن المقصد ليس مجرد التذكير، وإنما التفكير ومن ثم كيفية الربط البنيوي بين مقتطف وآخر، أي ما يخص هذه الجغرافيا التي سميت «سوريا الحديثة» كدولة، وفرنسا هي المنتدبة عليها، وهي مثقلة بهذا الكم الهائل من المشاكل التي ترجع بنا إلى ما قبل أيام العثمانيين، سوى أنها زيدت إثقالاً، وليس علينا في الحالة هذه إلا أن نتحرى هذه الأوردة الدقيقة والتي تتقل المؤثرات داخل الجسد السياسي السوري، وكيف أنها على مستوى الأداء تظهر مشاكل مصاحبة لها وهي تضطرد جراً إبقائها أو إدامتها، أو إدارتها، لأن ليس من دليل فعلي، تاريخياً يمكنه أن يطمئنا على وجود سلطة قائمة وهي تبذل قصارى جهدها لحل هذه المشاكل، والاثنية منها في الصميم.

(تستطيع علاقات الزمان أن توضح لا أن تقرّر)⁽²⁾، لعلها عبارة في غاية الدقة بصدد ما نحن فيه، أي ونحن نواجه هذه الكثافة التاريخية ومن زاوية محددة، تتركز على ما هو كردي، واختزاله وعلى حساب التاريخ نفسه عموماً، وما حاولنا التعرض له آنفاً، أوضح العديد من النقاط على مستوى الجغرافيا السورية، وموقع الكرد فيها، الأمر الذي يفيدنا بالتعرف أكثر، وبصورة أكثر إحاطة بالموضوع، بما أثرناه حتى الآن ومآل دولة حاجو آغا الكردية وهي قيد التشكل .

(1) النفزاوي، د. محمد الناصر: التيارات الفكرية السياسية في السلطنة العثمانية 1839-1918، تونس، ط1، 2001، ص 25-31-38.

(2) هارتوغ، فرانسوا: تدابير التاريخانية: الحاضرة وتجارب الزمان، ترجمة: د. بدالدين عرودكي، المنظمة، بيروت، ط1، 2010، ص 321.

حاجو آغا مواطن مدينة

«إن الرواية التاريخية لحدث ما لا تتصف بالحياد الأخلاقي، بل يمكن أن تتخذ طابع الخير أو طابع الشر.»

تزفيتان تودوروف: الأمل والذاكرة «خلاصة القرن العشرين»، ص 194 .

طبيعي وليس طبيعياً :

طبيعي أن المرء حين يُتعبه التجوالُ من مكان إلى آخر، أو الطواف الاضطراري بين الأمكنة، ويستقر في مكان ما، يبدأ بترتيب الأحداث في ذهنه. ومحاولة ضبطها اجتهاد خاص به، في الزمان والمكان، سوى أن المجدي قوله، هو أنه قد يعجز عن الوفاء مع الزمان والمكان اللذين عاشهما بكامل جسده أو روحه، جرّاء كثافة أحداثهما، ولكن عجزه قد لا يفسّر أحياناً أخرى بوجود عائق عضوي «إرهاق الذاكرة»، وإنما هو عائق نفسي، يتمنى في الصميم ألا يأتي على ذكر بعض من وقائعه أو الحوادث التي كان شاهداً عليها أو مشاركاً فيها، ليس لأنها مؤلمة له، وهذا قد يكون موجوداً، وإنما، قد تكون مقلقة له، ومسببة إرباكاً في تعامله مع الآخرين، جرّاء مواجهته لتلك الأسئلة التي تريد منه أن يكون دقيقاً كما يريد الآخرون منه، أو كما يطلب منه، وفي وسط اجتماعي، لا أعتقد أن كل ما يعيشه المرء يريد تذكره، وثمة ما قام به دون رضاه، سوى أن الذي لا يختلف عليه اثنان، هو مجرد الاستقرار في المكان، تكون الذاكرة في سعي إلى نوع من أرشيف معلومات تسمي جملة وقائع شخصية أو جماعية من خلال صاحبها .

إن التحدي الأكبر في واقع الحال هو فيما إذا كان في مقدور الشخص أن يكون صريحاً في تسمية كل ما مرّ معه، وفي مجتمع مشهود له بالتوترات أو الصراعات، كما في حال الكرد وعلاقاتهم الاجتماعية .

قول أستهل به للدخول في نطاق بحث فرعي آخر، يخص حاجو آغا، وكيف بات نزيل مكان، وله عنوان، أكثر مما كان وهو في «سرختي»، حيث كان يتحرك على «خط النار» بأكثر من معنى، ولقد نوّهنا إلى بعض النقاط التي تخص عملية الانتقال، وكيف تهيأ للقيام بما هو مستجد، أي ليكون حاجو آغا آخر، كما هو

المكان الآخر، وبشر آخرون، وعلاقات أخرى، ونظام سياسي آخر طبعاً، ولكل عبارة طابعها الاجتماعي، وصداهها السياسي وأهميتها .

أستعين بعبارة لجميل حاجو في مذكراته، يقول فيها، منوهاً إلى ما كان وما هو حادث (لقد كنا في صراع قبلي مستمر، تارة مع العشائر المجاورة وتارة أخرى داخل العشيرة نفسها بسبب النزاع العائلي بين آل حاجو وآل ساروخان على قيادة العشيرة، وكان هذا النزاع القبلي والعائلي يسود جميع العشائر الكردية...ص63.. بعد استقرارنا في قرية دوكر أصبحت دارنا ملتقى الزعماء الأكراد من رؤساء العشائر والساسة الفارين من الظلم التركي ومنهم من سكن القرية المذكورة مع عائلاتهم، أمين آغا حزني آغا وآخرون ظلوا في ضيافة والدي.. ص 65) .

من حق قارئه أن يستوقفه، أو يطرح سؤاله الجامع بين مرحلتين زمنيتين، وما إذا كان هناك من تفريق فعلي بينهما: عن الصراع القبلي الجانبي والداخلي، وما إذا كان هذا القول اعتراف صريح بحقيقة ما كان يجري ونقد ذاتي، أم يحيل الخطأ إلى الآخر، وما إذا كان الذي تلا ذلك مغيراً له، أي ما كان مأخوذاً به في «سرختي» قد تم تطبيقه بـ «الثلاث» في «بنختي»، ما إذا كان جميل يقرُّ بحقيقة تأريخية وهو متألم في داخله، ودون أن يعد بأن التالي سلام أهلي كردي، أمن أنه يقول ما لديه، ولو من باب التصريح بما يجري، لأن الجاري أكثر سطوة منه تاريخياً ؟

ما يقوله جميل حاجو ليس أكثر من رواية ملطّفة للمناخ الاجتماعي والسياسي للمرحلة، وإن كان في مقدورنا القول عن أن حاجو آغا أصبح مواطن مدينة، أي وقد أصبح منتمياً إلى عالم «بنختي»، رغم أنه من المستحيل بمكان الفصل الحدودي بين الجهتين، وفيهما أهل وأقارب ومعارف، لا بل وحتى تصفية حسابات، بحيث يمكن القول عن أيّ كان، وهو ينتمي إلى عالم اليوم، حين يقرأ تاريخ المرحلة تلك، يعيش حرارتها وأوجاعها ومنغصاتهما، وأحسب أن حاجو آغا كان يسعى جاهداً لأن يكون متكيفاً قدر المستطاع مع مناخ السائد، ويثبت أقدامه فيه .

يقول شاهوز حاجو في مقاله عن حاجو آغا (أصبح حاجو جنوب الخط سنة 1926، وتغفو فرنسا عنه، ويباشر هو وعشيرته ببناء قرى في منطقة «جراح Cerihê»، حيث ينتشر فيها أبناؤه وأبناء عمومته وأفراد عشيرته فيها باسمه في البداية تكونت كل من هذه القرى من مجموعة محدودة من البيوت، إنما بدأت هذه القرى بالتنامي

تدرجياً. وكانت غاية حاجو من ذلك هي في كيفية للممة شتات عشيرته مجدداً من حوله، وفي الوقت الذي تحلق حوله كثيرون قادمين من أماكن أخرى، وكان من بينهم من يخلصون لوطنهم، كان لهم مكانة معتبرة عند حاجو.، وهو تأكيد آخر على أنه قد انتقل إلى نقطة جغرافية أخرى، ليعيش حياة أخرى، مع أناس آخرين .

تأكيد على أن الذي ينسب إلى الطبيعة كغيره، يميزه عنهم، في اللاتبيعي، وقد شيد لنفسه عالماً هو عالم حاجو آغو !

إن جبو، حين يتحدث عن هذا التحول والمستجد، يمدنا بطائفة من المعلومات ذات الصلة ، أي حيث أصبح الهفيريكانيون في سوريا (كان دخول حاجو الثالث إلى سوريا لمحاربة الفرنسيين، أما هذه المرة فقد جاء لاجئاً ولم تكن مهمته سهلة... كان المستنون والنساء والأطفال يذهبون في المقدمة، أما القوة المسلحة التي تتألف من «200» رجل فكانت تأتي في الخلف، وتعود أحياناً لشن هجمات مباغته ضد «مخافر» الحدود، كما تهاجم دوريات الحدود..استمرت هذه الهجمات إلى أن تدخل الفرنسيون بعد اتصالات دبلوماسية مع الحكومة التركية.ص 178... وكانت قوافل هفيريكان غير المحمية، والتي تتألف معظمها من النساء والأطفال، تتعرض للسلب من قبل بعض العصابات الكردية والعشائر العربية التي يعتمد نمط معيشتها على السلب والنهب..إن وضع «المهاجرين» الغرباء عن المنطقة، والذين لم تكن لديهم بيوت يلجأون إليها، كان يزداد سوءاً مع الهجمات المشار إليها، وتعرضوا للكثير من الحوادث المحزنة والمأساوية.178..سوى أن سرخان ابن عم حاجو وعدوه أيضاً لم يترك الهفيريكانيين في بؤسهم، حيث : رافق العشيرة ودخل في معركة كبيرة ضد مجموعة السلب والنهب «النهاية» وخرج منتصراً من هذه المعارك التي شهدت خسائر في الأرواح.ص 179... وانقسمت العشيرة: قسم مع سروخان وقسم مع حاجو الذي كان يلقي عداء له في وسطه، لكنه لم يستسلم، وقد سحب قواته من «حدود تركيا» واتجه إلى الجنوب صوب المناطق الداخلية من سوريا، بعيداً عن سروخان..ثم لجأ إلى عشيرة طي، وهي أكبر عشائر المنطقة، كما قدم اللجوء إلى الفرنسيين..بيد أن الفرنسيين رفضوا طلب اللجوء الذي تقدم به، مطالبينه بتسليم نفسه، غير ناسين ما ألحق بهم من خسائر..ويقول جاجان حاجو: بعد عبورنا الحدود لجأنا إلى شيخ طي، وكان الشيخ كريفا ورفض تسليمنا لفرنسا، وهو يقول: افعلوا ما بوسعكم سوف لم أسلمه «أي حاجو» إليكم..ص 180... بعد هذا التطور ركب حاجو حصاناً باقياً من الضابط

الفرنسي روجر الذي قتله، وذهب إلى مقابلة المسؤولين الفرنسيين بالذات. وقد أوضح لهم بأن الحكومة التركية هي التي أجبرته على محاربتهم، وهددته بإبادة كل أفراد عائلته إن لم يحاربهم... وبعد لقاءات.. قبل لجوءه.. وبينما كان حاجو يعقد صدقات مع عشائر المنطقة لأجل أن يتبوا مكانة، كان يسعى إلى إذابة الجليد بينه وبين الفرنسيين... ومن خلال مناورات دبلوماسية غير متوقعة من زعيم عشيرة تقليدي كسب «حاجو» ثقة الفرنسيين في غضون مدة قصيرة. فقد قام أولاً بإدخال قوات العشيرة المسلحة إلى الخدمة في الوحدات العسكرية الفرنسية... إن أفضل 30 محارباً من محاربي حاجو وثلاثة من أبنائه كانوا مستمرين على الخدمة في السرية العسكرية رقم 32، ومن جهة ثانية استطاع أن يقرب العشائر المؤثرة في المنطقة، وخصوصاً عشيرة طي وعشيرة ميران الكردية باتجاه الأهداف السياسية الفرنسية... وإقامة علاقات صداقة مع آغوات عشيرة دوريكوي وهي من العشائر المهمة في المنطقة.. ص 181⁽¹⁾.

ثمة ما يجمع بين التقليدي والحداثي، جهة مساعي حاجو آغا إلى التموطن في المكان، وما يصل أصدقاء الأمس بأصدقاء اليوم، حيث وجد من يهتم بأمره وعشيرته كرداً أم عرباً بصورة رئيسية، وتلك في حقيقتها سياسات محلية، لكنها في محتواها تتطلب قدراً كافياً من الكياسة واليقظة وحسن التصرف في واقع مغاير لما كان عليه سالفاً، إلا أن العقدة تمثّلت في العلاقة مع سلطة جديدة، وهي الفرنسية، وحاجو يدرك جيداً ما تعنيه فرنسا، وهي جديدة عليه، بالعكس من

(1) كما أوردنا كلاماً من هذا القبيل، جهة تقديم حاجو للسلطات الفرنسية أدلة عن ضغوط الأتراك عليه لمحاربة فرنسا، فإن غورغاس، يشير في الهامش «1» من الصفحة «59» من كتابه المذكور سابقاً إلى الآتي (قدّم حاجو للفرنسيين الأدلة عن تورط الترك في الاضطرابات التي حصلت في الجزيرة العليا منذ بداية العشرينيات. وتفيدنا الرسائل «13» الموجهة إلى حاجو آغا وزعماء عرب من النقيب محمد شوقي، والتي تتهم بشدة حاجو بأنه فوت موعداً مع مقاتلي قبيلته، وينصحه شوقي ببذل المزيد من «الاهتمام» مقابل تزويده بالسلاح. وأخيراً فإن الرسائل من 5 إلى 7 تؤكد بأن اسماعيل حقي هو الذي أثار أحداث بيهندور عام 1923)، وهي إشارة إذ ترد في هذا السياق، فإن دلالتها تتحدد في إطار كيفية تقييم شخصية زعيم هفيران من جهة، والزعيم الذي يودّع قبيلته، دون أن ينساها، إنما أن تدرك أنه قادر على الاضطلاع بمهام سياسية بمفرده، من خلال جملة مناورات والتفافات من جهة ثانية، إلى جانب مرونة في الانفتاح على المجتمع، وهو يشدّد على كلمة «الكردية» في كلامه، أي كمفهوم سياسي، أي في تعزيز مقولة تأمين كيان سياسي كردي في الظل الفرنسي .

ذلك، إنها على النقيض تماماً من سلطة ألفها لزمن طويل، حتى وهي مستبدة، أي سلطة الأتراك، حيث كان في إمكانه أن يتكلم بلغتها، وأن يحاور أولي أمرها، ولديه خبرة معينة بتاريخها وتفكيرها، وكيفية الدخول في علاقة معينة معها، سوى أن فرنسا ليست كذلك، وكيف يكون الوضع هكذا، وصورة حاجو آغا تقتزن بعدو قد «أهان» الحكومة الفرنسية، لا بل وهاجمها عبر حدود، ما كان عليها أن «يفعلها» ثم رجع من حيث أتى، وكأن شيئاً لم يكن، بأسلوب حرب العصابات، وهذا يضاعف من طبيعة التخوف منها؟

ولا أدل مما قيل فيه، ما يذكره غورغاس، وهو يتناول مشروع تريي الضابط الفرنسي، في (تسوية مع «أبغض الناس» إلى القوات الفرنسية حاجو آغا ص 78)، والذي سنتوقف عنده تالياً .

وأعتقد إزاء ذلك، أن ما تم فيما بعد، ومن خلال توجه حاجو إلى المركز العسكري الفرنسي تسليماً لنفسه، أو تقديماً، أو اعترافاً منها بسلطتهم، كان من حيث التصرف دليل دهاء سياسي، وقد دخل البيت الفرنسي من بابه الواسع، هذا من جهة، أما من جهة أخرى، فتتمثل في كون الفرنسيين، درسوا هذه الشخصية حتى قبل عملية الإغارة على بيان دور، وهي مهمة من بين المهمات الكثيرة التي يكلف بها من يتم تخصيصهم في هذا الشأن، بغية الإحاطة بقوة الطرف الآخر، وماهية الصراعات الدائرة وأين تجري وكيف؟ وإذا كانت السلطة الفرنسية لم تقبض عليه، قبضها على أي ملاحق، فلأنها رأت فيه ما يفيدها، وليس من ضير أبداً في أن تتسبب «جريمته» في حقها، أن تتجاهل الطابع الجنائي لفعله، لأن المواجهة العسكرية، وإدارة الأمور السياسية داخل الحدود، وعبرها، يصعب عليها أن تتم دون توازنات، دون كلف أو ضحايا، وهي تفكر في المكاسب عن طريقه، إنما أيضاً على الصعيد الداخلي، وكيف أن وصل الداخل هذا بالخارج، في الصراع مع تركيا التي كانت تقيم لحاجو وزناً واعتباراً على خلفية من تحركاته هنا وهناك، يمكن فرنسا من توطيد قوتها وفرض هيبتها أكثر، وليكون حاجو بمعنى ما، رجلها، ليس بمعنى التابع، بالمفهوم السلبي، وإنما القادر على القيام بأكثر من عمل لنفسه، ولمن حوله وفرنسا في آن، ولا شك أن عملية تلاقي المصالح بالطريقة هذه، قد يسهم من حيث الأثر في طمأننة مختلف الأطراف، ويكون الجو أكثر أماناً لها .

أهي مبالغة، إن قلت إن حاجو «ضرب ضربته» هنا، وبز الكثيرين من حوله بالمقابل؟

لكن وضعية الأمان ليست مطلقة، وضمن حدود، فلكل طرف مشاغله وهمومه ومخاوفه، ولعل حاجو أول من يمكن التذكير به في وضعية اللاأمان، وهو محاط من الجهات كافة بمن يتربص به، أو ينافسه، أو يتودد إليه، وفي الوقت نفسه، يعمل على إزاحته، إخلاصاً لقانون تليد، هو قانون الزعامة التقليدية بنسبها العشائري.

نقرأ في كتاب جبو، وفي جمل متسارعة، من خلال إيجاز الجاري (وقوى علاقاته مع الفرنسيين: مثلاً عندما كان الفرنسيون يحتاجون إلى عمال كانوا يطلبون ذلك من حاجو... ص181... حصل حاجو على قطعة أرض هدية من آغوات دوريكى بمساعدة من الفرنسيين، وبنى عليها البلدة التي سميت تربه سبي «القبور البيض»، وصارت أهم مركز للهفيركان في المنطقة، وتعد عاصمة ثانية لسلطين هفيركان بعد مزيزخ. ومع أنه انتقل فيما بعد إلى مقر إقامة الأسرة الذي بناه في الحسكة، إلا أن هذه البلدة «أي تربه سبي» استمرت في الوقت نفسه بوصفها مقراً سياسياً وعسكرياً له، وبحلول عام 1930 سجل حاجو القرى القريبة من قبور البيض، التي يعيش فيها القسم المسيحي من العشيرة باسمه، وعزل المختارين المسيحيين من مهامهم، وثبت أفراد عائلته في مناصب مهمة في الإدارة المحلية..... ووفقاً لما أوضحه علي بتي الثاني، وهو من أفراد العائلة المسنين، وما يزال على قيد الحياة، فإن «حاجو» بسط سيطرته تماماً على 35 قرية. إن حاجو لم يعد هارباً من أجل إيجاد مكان يلوذ به، وليس له مال أو تأثير، إنه «الآن» أحد القادة الأكثر نفوذاً، ومالك أراضى غني، وذو رصيد مهني ودبلوماسي.... ص182...

ومن ثم ما يخص النزاع على الزعامة داخل العشيرة:

أزعج النفوذ المتزايد لحاجو الجماعات الاثنية والدينية في المنطقة، حتى في الداخل، وخاصة سروخان آغا الذي خسر الصراع على الزعامة في الشمال وها هو يصارع عليها في الجنوب.. لكنه فشل في ذلك.. فجرأته لم تكف.. فهو مقارنة مع حاجو كان يمثل صورة الآغا الكردي المستبد. كان كل حلمه زعامة العشيرة.. ولم يكن يفهم في السياسة الحديثة. ص183... كان لدى حاجو كل الصفات التي يفتقد إليها سروخان... واضطر هذا ثانية إلى ترك المنطقة والهرب من الجنوب إلى الشمال.. دون أن يتخلى عن مهاجمة الكرد في سوريا.. ص184... وبدأ بالتهديد ودك الإسفين بين الإبن وأبيه، وخاصة بعد قتله لخليل بتي.. فخطط حاجو لقتله انتقاماً، وتمكن ذلك من قتله عن طريق شخص اسمه شمدين: بعدها

صار حاجو السلطان الوحيد لهفيركان دون منافس... لكن طريقة قتله لسروخان قبولت باستهجان وتحديداً لأنه كُلف إيزيدياً هو «شمدين» لقتله.. ولم يعباً حاجو بذلك... وانتقادات كهذه قائمة إلى يومنا هذا.. (ص187...).

كثير من الكلام قيل أو ثبت هنا، وكثير من الكلام يمكن قراءته بين كل عبارة وأخرى، وكثير أكثر من الكلام تردد ومازال يتردد في المجالس الخاصة والعامة، ويثار في السطور، وهو مدعاة لأكثر من مكاشفة نقدية، تأريخية:

جهة الذين رَووا كلاماً كهذا.

جهة الذين رَوَّجوا لكلام كهذا.

جهة الذين لم يكتفوا به وإنما إضافوا إليه.

جهة الذي غيروا فيه تجاوباً مع رغبات نفسية خاصة بهم.

جهة الذين يرون أن ما كان لما يزل يتجدد في النفوس والرؤوس، وفي مجتمع تقليدي، وهم يعترفون بطريقتهم هذه، أنهم أبناء الأمس وليس اليوم، أو أن الذي كان يصعب عليهم التحرر من وطأته، ومسوغات هذه الحالة.

ولا شد أن اختلاف الروايات بلغاتها وطبيعة الذين تسند إليهم، تلعب دوراً أيضاً في هذه العملية، إلى جانب أن نموذجاً كتابياً، كحال جبو، يتداخل فيه التأريخي والحكائي والاجتماعي والثقافي، هو نفسه قابل لأن يناقش ويحلل نقدياً. بالنسبة إلى حاجو «آغا»، لا أدري هل قرأ كتاب ميكيا فيلي «الأمير» والمؤلف منذ ثلاثة قرون، أي ما ينبغي أن يتحلى به الحاكم، أو صاحب النفوذ من صفات نفسية وعقلية، وهو يجمع ما بين القوة «الأسد» والمكر والخديعة «الثعلب»، حتى تجاه خلصائه، وفي وضع مضطرب، وتلك نصيحة تأريخية يقدمها مونتسكيو صاحب الكتاب، لمن يريد الحفاظ على مكانته وهو محل هيبة ورهبة.

قراءة كتابه لا تستساغ من قبل أي كان، ولا تعانٍ نقدياً بيسر في عمق المتخفي، خصوصاً، وأن مقولة «الغاية تبرر الوسيلة» تنتسب إليه، لكن عدم الاستساغة بالمفهوم القيمي «الأخلاقي شيء، وما يميز الواقع شيء آخر، ما يشدد عليه المرء في حياته، وهو يضيف صفة مثالية راقية على الإنسان وما يجب أن يكون من خلال» يجب أن.. وأن.. وأن.. وليس...»، وما يتخلى عنه، أو يتنكر له

عند أول مواجهة عملية مع مشكلة معينة، يكون طرفاً فيها، أو يجد نفسه معنياً بها، حيث إن الواقع يمنحه قدرة على التصرف، ومن ثم التحرك كما لو أنه في الوضعية هذه، ليس أكثر من قوة تفرض قانونها، وتخلص لتاريخها أكثر، وما أشبه ما يقوم به أشخاص معينون، بما تقوم به حكومات ودول، على مستوى القوة وتمثيلها، وفي واقع شديد الاضطراب .

ربما كان ميشيل فوكو دقيقاً في تشخيص حالات كهذه، وهي مرعبة ولكنها مؤرّخة (الحرب ليست مؤامرة، بل «قابلة» أشرفت على مولد الدول والقانون والسلم والتشريعات، فلقد ولد القانون من الدم ووحل المعارك... ثم في مكان تال: إن قانون التاريخ أقوى دائماً من قانون الطبيعة... وعلاقات القوة هذه تعمل في صالح التاريخ دائماً..)⁽¹⁾.

أتراني أستحسن كلام فوكو، وأبرّر للتاريخ فضائعه، وبالتالي، أسوّغ قائمة المحن التي تعرضت لها البشرية قاطبة؟ لا أظن أن الوضع هكذا، مثلما أن لا مونتسكيو ولا فرويد ولا فوكو أيضاً، بمهلّين للقوة عارية، ومشرعين لتلك الأعمال الإجرامية التي ترتكبها أنظمة في حق شعوبها أو الأمم الأخرى، حيث الأمثلة أكثر من أن تُذكر، إنما ثمة تشخيص لأكثر من واقع، لتاريخ مديد، وكيف ينبني، على طريقة «التاريخ يكتبه الأقوياء» ولا شك أن الذي يذمه بالمقابل، على بيّنة عن أن ليس في وسع أي شيء زحزحة هذه القوة، إلا بقوة من جنسها، وتبزهها، وهكذا تكون الحرية والعتلة التي تسندها.

هل كلا هذا الكلام يتمحور حول شخصية حاجو آغا، وقد أدخلت أسماء مفكرين ومؤرخين وأمم وأنظمة، للإيحاء بأن ما يجري هناك يجري هنا وبالعكس؟ مجدداً، ليس مسار القول هو هكذا، إنما ثمة ما يدعونا إلى بنية العلاقات بين من هم في مراكز القوة، بين أطراف تتجابه، أو من يجد نفسه في موقع التحدي، وإلى أي مدى يقاوم، وتبعاً لأي نوعية أخلاق؟

أي ما يدخل الأخلاق في القوة، كما يقول التاريخ، وليس أن يضيف القوة إلى الأخلاق، حتى بين أقرب المقربين !

(1) فوكو، ميشيل: يجب الدفاع عن المجتمع، ترجمة وتقديم وتعليق: د. الزواوي بغورة، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2003، ص71-165.

لا أظن أن سؤالاً من مثل: ألم يمارس حاجز آغا تصرفات لا تليق به كرجل يقدم نفسه للآخرين، كما لو أن ماضيه خال من المثالب؟ يكون في محله، ليس للاعتلائيته، وإنما لأنه لا يفضي بنا إلى معرفة ما يجري على الأرض، ولأن ما يجري بين الناس، من صراعات وخلافات جانبية، وحتى مشاهد قتل وتصفيات، يتطلب مكاشفة نفسية وتاريخية أكثر عمقاً .

مختصر الكلام هو أن حاجو كان أخلص لتاريخه، ولمن يحيطون به، حيث إنه بمقدار ما يمكن تحميله من أوزار، أو من تعريضه للنقد والجرح منه بجلاء، بمقدار ما نجد أن المحيطين به ودون استثناء يمارسون طرق تفكير من هذا النوع، وبالتالي، فإن مقولة «شر لا بد منه» ورغم أنه شر، يضطر المرء إلى الدخول في نطاقه، والخروج منه.

في السياق نفسه، كيف يمكن تقييم أعمال الحكومات، الأنظمة، الجماعات التي تعتبر نفسها فوق كل أشكال العنف، وحت على مستوى مدعي الورع الديني... الخ ؟ كيف نواجه بين الغاية والوسيلة، أو بالعكس؟ هل من جهة مما ذكرت، يمكن اعتبارها استثناء للدفع بالرجل ناحيته؟ واقعاً، وكما تابعت، لم أجد ما يشجّعني على تسمية أي جهة حكومية أو أهلية، أو فردية، في هذا الزحام من العلاقات المتوترة، أو العنف المتبادل، كما لو أن «وداو بالتي كانت هي الداء» جواب لذلك !

عملياً، يمكن قراءة سيرة حياة حاجو، وكيف عبر الحدود وهو لا يملك إلا معاناته، ومعه أفراد من عائلته، ومن هفيركان، وخلال زمن قصير تمكّن أن يغيّر في وضعه، والذين كانوا معه أو يحيطون نوعياً إجمالاً، ولا بد أن الذكاء العملي، ومن خلال مطالعة الجاري، وبنيّة العلاقات، كان يفيد في هذا المجال، لا بد أن هناك من كان يحول دون تقدمه، من كان ينافسه، وربما يتربص به، من المنطقة، ومن بين أقرب المقربين إليه، كما رأينا، ليكون مفكراً على طريقتهم، وهو يخوض غمار حرب متعددة المستويات، مرتكزاً إلى قوة داعمة له، ومادحاً إياها، بلغة التفاوض نوعاً ما .

نحن هنا إزاء مجموعة من القوى تتصارع على الأرض، ومن أجل المزيد من النفوذ، بحيث إن كل قوة تحاول استباق الأخرى، بمقدار ما تسابق الزمن، لتكون في صدارة البقية، في الحالة هذه، ما الذي كان يحصل، لو أن الأمور بقيت عما هي عليه جهة التوزيع الديموغرافي، أو على مستوى علاقات القوة، والذين يتحكمون بأمور الجغرافيا ؟

رمزية القوة والجغرافيا :

لقد بات واضحاً أن حاجو سيطر على مساحة واسعة من الأراضي: أخصبها وأكثرها استراتيجية، تصوروا لو كان محله رجل آخر، من اثنية أخرى، وفي مجرى النزالات الكبرى على المكان، على المدى الزمني ؟

لقد فرضت القوة نفسها، وأوجدت ديانتها، أو عقيدتها معها، حتى لو أن حاجو لم يكن ملماً بقوى التاريخ، أو مطلعاً على إحداثيات القوة ودلالاتها، كما يفصل فيها ذوو الخبرات التاريخية والزراعية والجغرافية... الخ، سوى أن طريقته مكنته من أن يكون رجل الساحة، أو الرقم الصعب في الحسابات الفرنسية نفسها، وبالمواصفات المطلوبة، ليكون في موقع الشريك النسبي لها، إنما المعتبر كذلك، بحيث إن المكانة التي أعطيت لحاجو من قبل فرنسا، لم يوهبها، وإنما اكتسبها من خلال مهارة سياسية متجاربة مع المصلحة الفرنسية في آن، وهذا يعني أيضاً، أن الحديث عما هو مذهبي، وما كانت السلطات تقوم به من محاولات «دق الإسفين»، إنما في السياق التي تعبر عن موقعها السلطوي، فيكون المذهبي لاحقاً.

هل علينا أن نوسع في هذه الدائرة الجغرافية والمقسمة دوائر داخلية وأقطاراً، كما هي خاصية الجغرافيا السياسية في سوريا على مستوى دولها المصغرة، وأي لعبة سياسية فرنسية الطابع فيها؟ وما موقع الجزيرة السورية العليا في نطاق هذه اللعبة السياسية الفرنسية؟ ما ردود أفعال المطالبة بكيان كردي، ومن قبل جهات كردية معينة، ومنها مطالبة حاجو، أو من خلال تشارك في إدارة محلية مستقلة عن سوريا ؟

لا شك أنها لعبة أخرى، ولا شك أيضاً أن هذه اللعبة أو سواها، ليس في استطاع أي كان الدخول في ساحتها، أو القيام بما هو متطلب منه ليكون في مستوى المنشود، أو الفالح في أداء دوره، ومن ثم فإن حاجو زكي من قبل الإدارة الفرنسية، مثلما أن شخصيته رفعت من رصيده السياسي ليكون اللاعب الماهر في هذه الساحة التي شهدت مباريات لا تخلو من عنف !

هذا يقتضي منا التوقف هنا، ومتابعة بعض من تحركاته التي تضيء هذا المعلم السياسي، أي كيف تسنى لزعيم اتحاد قبائلي أن يصعد في سلم النجومية السياسي وسط كم لاف من المنافسين ومن اثنيات مختلفة؟ ما الذي دفع به لأن يكون بالاسم الذي عرف به وحتى الآن، ليغطي بسمعته سمعة كثيرين كانوا في

المكان الذي استقر فيه؟ وما هي خياراته التي اعتمدها في علاقاته بالسلطة المحلية: المنتدبة، وهو يعزز هذه العلاقة؟ وهل كان يتحرك على خط واحد أم أكثر، ليزيد في لفت الأنظار إليه من جهة، ومن ثم ليكسبه هيبة في أعين منافسيه من جهة ثانية، وغموضاً جرّاء ذلك من جهة ثالثة؟

كما لو أن شاهوز يمارس توصيفاً له، من خلال تلك الانعطافات في حياته، وما تلقفه من الكتابات وألسنة المحيطين به، وما تمكّن من تسطيره على طريقته، حين يكتب طي مقاله الأنف الذكر، وتحت عنوان فرعي «حاجو مع بعض الضيوف الفرنسيين»، وهو (شهد عام 1926 انهيار الحركة الكردية في شمال كردستان، كانت سنة ألم الشعب الكردي، سنة سوداء كانت. إنما من الناحية الأخرى، فإنها كانت السنة التي كان الكرد يتحدثون فيها عن بطولات جديدة، ومن ثم السعي إلى توسيع رقعة الحركة الكردية بالتوازي مع التشديد أكثر على مطالبهم أيضاً، وهم يعتقدون اجتماعات، وكلهم سعيٌ إلى طرح قضيتهم وقضية وطنهم بشكل عصري.

لم يهدأ حاجو مذ وعى على نفسه حتى رحيله الأخير، وهو في قلب حركة دائمة. لقد نشأ حاجو في طفولته يتيماً، حيث إن أباه قتل سنة 1896، إذ إن جمو قطع رأسه بتحريض من الأتراك. ولقد أبصر حاجو النور في مدياد، كما أنه ترعرع هناك، إلا أنه لم ينس الأخذ بالثأر أبداً، إذ إنه بقي معادياً للأتراك داخله حتى آخر لحظة من حياته.

حاجو كان يقيم في قرية كركي شامو Girkê Şamo جنوب الخط، بينما كان ابنه الأكبر حسن في تربيته سبي Tirbespiyê، أما ججان فقد كان في مزكفت Mizgeftê. ولكم كان يوجّه ناظره إلى جبل باكوك قائلاً «أيها الجبل، يا جبل، أبي وأمي» Çiyayo, çiyayo bav û birayo. ولقد سمعت هذه العبارة كثيراً من كبار السن في عائلتي...).

حاجو، وقد استقر به المقام، رأى في الاشتغال على فكرة بناء كيان كردي من المهام البنيوية في حياته، وهذه الفكرة مثّلت جانب التحدي له كونها تتطلب متابعة وتوقعاً لمخاطر مختلفة وصداماً مع أوساط اجتماعية مختلفة.

لكن علينا تسجيل إشارة والتأكيد عليها، وهي أن فكرة تأسيس كيان كردي، كانت هاجس كل سياسي كردي، مهما كان توصيفها «وبيضتها»، وكانت تعرف

بنفسها في كل محاولة يجد الكرد فيهم أنفسهم مهيين للمطالبة به، من خلال حركة معينة باسم شخصية كردية مؤثرة في محيطها، وخالصة في العصر الحديث، وبصورة أخص إثر انتهاء الحرب العالمية الأولى.

وربما كان الربط بين النشاط المحموم لأتاتورك وهو يستقطب الأتراك وغير الأتراك، والكرد في الواجهة في سبيل مواجهة الأعداء الأجانب، والهدف هو بناء تركيا الحديثة والمستقلة يكون الكردي والتركي شريكين فيها، وتنامي البحث عن كيان كردي في أذهان ساسة الكرد ومتقنين وقتذاك ضرورياً، أي عدم نسيان مدى تأثير حركة أتاتورك بأكثر من معنى في أي حركة كردية مماثلة، حتى على مستوى تأكيد علمانية المجتمع، ومن ثم الثقافة واعتماد ألفباء لاتينية بدلاً من نظيرتها العربية. إن غورغاس حين يشير في كتابه عن الحركة الكردية إلى أنه (إبان محادثات السلام في باريس 1919، ادعى جلادت وكاميران بدرخان أنهما يمثلان الأمانى «الحقيقية» لـ «الأمة الكردية» وأعلنا للمندوبين البريطانيين بأنهما وعائلتهما على «استعداد لمساندة بريطانيا العظمى في مواجهة محتملة مع الترك» وذلك بفضل «نفوذهما» المفترض بين القبائل الكردية. إن آل بدرخان، الراغبون «الراغبين» في «استعادة» السيطرة على منطقة جزيرة ابن عمر، يرون أن أية محاولة لإقامة استقلال ذاتي كردي ينبغي أن تتم بقيادتهم. ص23)، من بين هذه الأمثلة، وهنا لا يجب نسيان التأثير الكبير الذي تركه أتاتورك في شعور رجل فكر وسياسة معاً: جلادت بدرخان، مهما كان الموقف منه، وسعيه إلى إحياء دولة كردية هي نموذج الإمارة البدرخانية، يدخل في هذا المضمار.

ولقد كان عبدالله جودت من الشخصيات الكردية المعروفة بعلمانيته، منذ عهد مبكر، وهو رغم كل ما يوجه إليه من تهم، بالإزدواجية، إلى جانب تعاونه مع قوى أجنبية، وهي الأكثر رواجاً وتوقعاً عندما ينبري أحدهما ويشدد على فكرة يشتغل عليها تكون صادمة لمحيطه، والهدف هو كيفية تغيير المجتمع من الداخل (كان عبدالله جودت حتى ما قبل قيام الشيخ سعيد بشهر، يوجه إليه التهمة في الصحافة التركية بأنه يحمل أفكاراً تدعو إلى «إقامة دولة كردية مستقلة» ص86... لقد كان عبدالله جودت، وهو واحد من بضعة مثقفين كرد، يكتبون منذ أواخر القرن 19 المقالات عن الكرد وكردستان في المجلات والجرائد.... وتوفي اثر

نوبة قلبية في استانبول في 9 ت1، 1932 وعمره 63 سنة ولقد: كان يؤمن بالتطور وليس الثورة والإصلاحى..⁽¹⁾.

وهي فكرة مرتبطة بدورها بالتغيرات العاصفة في المنطقة، سواء من جهة أوروبا وقواها الحية، أو في الداخل التركي، ويبقى «الاتحاد والترقي» وتناقضاته في الداخل، بين الدعوة إلى كوسموبوليتية في تركيا تسع الجميع، وفي الوقت نفسه إلى ناطقة بالتركية، ومن فيها يكون تركيا، فاعلاً في هذه اللعبة السياسية، لقد كان الوليد «الزنييم: غيرالشرعي» للدولة العثمانية، من صلبها، ولكن الولد هذا لم يعترف بأبوة الدولة تلك، إنما خطط ليكون هو نفسه أب نفسه، إن جاز التعبير، بينما وجد من انتموا إليه من الكرد، كما رأينا سابقاً، في طريق غير سالك، ليتبلبل عليهم وعيهم، بمقدار ما صدموا بما كان يجري، وهم يسعون إلى الخروج من هذا المأزق، كما في حال محمد شكري صكبان «1881-1960»، والذي تنكّر فيما بعد لكل ما هو كردي، إثر نشر كتابه «القضية الكردية» في باريس سنة 1933، وباللغة الكردية، سوى أن في بعض مهم مما تعلّق به وعرف من خلاله، هو حيويته وبلاغته في هذا المجال في مطلع العقد الثالث من القرن العشرين الفائت، ومن ذلك رسالته المفتوحة والمعنونة بـ (ماذا ينتظر الكرد من الترك؟ وهي موجهة إلى النائب الكردي والوزير الكمالي فوزي بك بيرنسي زاده 1879-1933، من ديار بكر، وقبل شهرين من توقيع معاهدة لوزان، وقد سرت هذه الرسالة الهجائية في تركيا وفي أوساط الكرد المنفيين. إنها الوثيقة الأولى العلنية التي كتبها قومي كردي ضد السياسة الكمالية إزاء الكرد. صكبان/ صكبان اقترح أربعة خيارات على حكومة أنقرة: إهمال الكرد كما فعل العثمانيون سابقاً، التترك، قتل الكرد وطردهم، أو الاعتراف بالكرد كأمة «ملة»، وإعطائهم الحق في تعليم لغتهم في المدارس إضافة إلى استقلال ذاتي إداري... وقد شبّه صكبان الكرد بالبولونيين والترك بالألمان ليؤكد فشل مشاريع استيعاب الأمة، والواقع أن الألمان عجزوا، رغم معارفهم العلمية و «ثقافتهم المتفوقة» عن استيعاب البولونيين فمكيف يمكن للترك أن يطمحوا إلى تترك الكرد، ويطالب المثقف الكردي، بلهجة ساخرة، فوزي بك أن

(1) مالميسانز: القومية الكردية ود. عبدالله جودت في مطلع القرن العشرين، ترجمة: شكور مصطفى، آراس، أبيل، ط1، 2000، ص 86-91-98 .

يستخدم نفوذه لإقناع مصطفى كمال بالتخلي عن تلك المشاريع وأن يعترف رسمياً بوجود الكرد في تركيا...⁽¹⁾.

تلك فكرة فاعلة في التاريخ السياسي التركي والكردى معاً، لأنها تتم عن وعي نقدي عميق ومبكر بالنسبة إلى محيطها أو بيئتها، لمكانة القومية، وكيف يجب أن تكون ناتجاً روحياً مشتركاً، والأرض شراكة جغرافية مؤممة من أي احتكار جانبي، وليس أن تكون تركيا للأتراك، أو أن يؤدي تفعيل القومية الواحدة إلى مزيد من سفك الدماء، وبالتالي، فإن الذي أفصح عنه سكبان/صكبان، باسمه يظل من جملة «الأحجار الكريمة» في العقد السياسي الكردي، جهة التعبير عما كان يجري على الأرض، أي افتضاح آلية العمل بمفهوم القومية التركية، وليس الشراكة الوطنية في تركيا، وأن المقارنة بين كل من تركيا وألمانيا، وما فعلته ألمانيا بالبولونيين، هي الحالة ذاتها والتي تظهر ما فعلته تركيا بالكرد، في وقت مبكر، من خلال قلم سيال بالقوة العقلية والعاطفة القومية الكردية، وجانب التحفيز في رسالته بالنسبة للذين صدقوا أتاتورك، وانخدعوا به .

وربما كان هذا الوعي الذي تأثر به من كانوا يشتغلون في مجال القضية الكردية، مترافقاً مع ما هو تاريخي وجغرافي، عندما انتقل من لاذوا بالفرار من جحيم أتاتورك إلى الطرف الآخر من الحدود، وليكون هناك عمران أو حركة عمرانية، غيّرت في بنية الجزيرة السورية العليا وتركيباتها السكانية، وحسب غورغاس (في مطلق الأحوال، إن لم يكن يوجد سوى زهاء 45 قرية كردية في المنطقة عام 1927، فقد كان يمكن، عام 1939، إحصاء بين 700 و800 بلدة بأكثرية كردية. وكانت الجزيرة تضم عام 1939، حسب إحصاء رسمي 158550 نسمة منهم 81450 كردياً مسلماً، و21500 كردياً يزيدياً. ص 65)، ويعني ذلك ما اشتغل عليه الفرنسيون جهة التعامل مع من فروا سريانياً وأرمناً وكردياً من حيث كان العنف الدموي التركي، ليجد أنفسهم في ظل سياسة أخرى، إنما ووجههم إلى «الشمال» كما لو أنهم ينتظرون لحظة الرجوع إلى مواطنهم وديارهم، وهي لحظة، كما يظهر، طالت، وربما ستطول أكثر في ضوء الجاري سياسياً.

حول ذلك، ومن باب التأكيد، يكتب أكرم جميل باشا الذي توفي سنة «1973» في مذكراته ما يفصح عن هذا الجانب التاريخي المهم (فقرة أستاذياتي: أستاذيتي

(1) غورغاس، جوردي: الحركة الكردية...، المصدر المذكور، ص 25.

الثالثة: قمت بأستاذيتي الثالثة في قرية تهلكي حيث قمنا بها مع عائلتي أي مع زوجتي وأولادي في تواريخ مختلفة صيفاً وشتاء ثلاث عشرة سنة مجموعاً وكنت ألقى الدروس الكردية على أطفال تلك القرية في كل شتاء. ص 51... في نهاية حزيران .. اشترينا أراضي تهلكي الواقعة على بعد «8» كيلومترات في غرب قصبة «الدرباسية» بشمال الحسكة على الحدود. وكانت الأراضي التي حول خرائب تهلكي وبمئات الكيلومترات عبارة عن صحارى فارغة تماماً دون أن يوجد بها عامر. أما اليوم فنرى أنه قد أسس في تلك الصحارى الواسعة أكثر من ألف قرية وتحرت فيها حوالي ألفين من الجرارات الزراعية. والمتطلع الذي أحدث في تلك الأراضي الواسعة التي كانت صحارى للكرد والأعراب أول عامر هو أكرم. والذي كان بفضلله قد عمر ألف قرية وسكن فيها من الكرد أكثر من مائة ألف نسمة هو أيضاً أكرم وبضعة آلاف من القطع الذهبية التي تركها قاسم بك. ثم مباشرة: عندما حضرنا الجزيرة سنة 1929 وأقمنا بالحسكة كان «250» كيلومتر من الأراضي التي تمتد من دير الزور إلى تهلكي صحارى فارغة تماماً. وكانت الحسكة قرية تضم «50- 60» بيتاً وما كانت قائممقامية القامشلي في الشمال أيضاً إلا قرية مكونة من «40- 50» بيتاً وكان في كل منهما من العلامات الحضارية مكتب البريد فقط، لا مدرسة فيهما ولا طبيب ولا مستشفى. ولذلك عندما غادرنا حلب كنا ندرك أننا نذهب إلى منفى بالصحراء هكذا. ص 53... وحتى اليوم الذي جاء فيه الأطباء إلى الحسكة فالقامشلي فالدرباسية كنت أنا الطبيب الوحيد لثلاثين قرية. ص 54... وفي سنة «1943» وقعت في حمى إيجاد بستان فاكهة. ولكن ومن بين حوالي ألف قرية في الجزيرة كان يوجد في بضعة قرى فقط ينابيع وأما أهل سائر القرى فكانوا يشربون مياه الآبار. وكان في تهلكى آبار كثيرة لكنها لم تكن عميقة وكان عمق آبار القرى يتراوح بين 80- 90 متراً وكانت مياه جميع الآبار بتهلكي باردة وعذبة.. «ثم يتحدث عن كيفية تنظيم المياه في الآبار إذ ربطها معاً، فزرع خضروات وكان هناك حديقة » فأكلنا خلال ستة عشر عاماً من سنة «1951» إلى سنة «1967» ألد الفواكه صيفاً وشتاء بوفرة ولكن لم نبهها قط.... أما اليوم فقد حرمت من هذه النعمة التي أظهرتها للوجود بك كبر خلال أربع وعشرين سنة من عام «1943» إلى عام «1967» ساعياً كعامل في بعض الأيام عشر ساعات. أنا وأولادي نعيش في الشام منفيين ومتذللين. ص (57)⁽¹⁾.

(1) أكرم جميل باشا: مذكراتي، الترجمة من التركية إلى العربية د. قدرى الديار بكري، المراجعة

والحديث عن السياسة هنا، لا يعني إمكان العمل بها من قبل أي كان، وإنما في حيّز محدد، ويخضع لمراقبة دقيقة، نظراً للعلاقات الحساسة والدقيقة بين كل من فرنسا وتركيا، كون أي حركة في الجوار الحدودي، كانت تؤثر مباشرة في الطرف الآخر، والذي كان يشدد من جهته عليها، ويصدر رد فعل عنه في الحال، وتبعاً لطبيعة الحركة تلك.

ولهذا حملت السياسة بصفة «الاستخباراتية» والتي كانت تحيل كل شيء إليها، وبدأت قضية البحث عن كيان سياسي كردي من حيث المفهوم تابعة لهذا الجهاز الاستخباراتي والذي كان يصل بحكومته الفرنسية مباشرة.

حول ذلك، من المهم تتبع ما يقوله غورغاس ومكاشفة ما يعنينا هنا، وهو يكتب فقرة فرعية معنونة بـ «نشوء» سياسة كردية (لقد ظلت السياسة الفرنسية في أكثرية مناطق المشرق، في بداية الانتداب على الأقل، أمينة على تقليدها في الحفاظ على «التعداد الهيكلي»، لكنها على العكس من ذلك، لجأت في شرق سوريا إلى تقسيم المدى الوطني السوري استناداً إلى مشروع «دولة البدوية» أولاً، ثم وضع المنطقة تحت السيطرة المطلقة لجهاز المخابرات، ص 73).

من المتوقع أن يتم الوضع هكذا، إذ إن المنطقة تحتل صفة استثنائية في الجغرافية السياسية، من خلال موقعها، أو من خلال طبيعتها وديموغرافيتها الناشئة، بحيث يسهل إدراجها ضمن «المناطق المتنازع عليها»، ولا بد أن الحالة كذلك في ضوء التجاذبات الاستعمارية جرّاء التركيز على الثروات وسياسة مركّزة على نقطة رئيسة وهي أنه بمقدار ما يكون مدّ في الحدود إلى الأمام يتحقق تفوق سياسي وعسكري ومنطقة نفوذ أكبر، أي حيث كانت برية كل من ماردين ونصيبين في مرمى النار التركية، والاستطلاعات التركية والهدف الرئيس إلى اللحظة للأطماع التركية، وفرنسا كانت معنية بحقيقة هذه الأطماع، لهذا لم تكن كالمناطق الأخرى في سوريا، وهي أكثر مرونة معها، أكثر انفتاحاً عليها، لاختلاف الوضعين: الطبيعي: الجغرافي والسكاني ومكوناته وتأثيره على الحراك السياسي فالأمني فيه.

اللغوية والتقديم: فدان آدم، بير، ديار بكر، ط3/ 2007، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

نقرأ في كتاب غورغاس (لو أراد الفرنسيون إصدار قانون حكم ذاتي للکرد لكان ذلك مستحيلًا قبل عام 1927، تاريخ السيطرة الكاملة للقوات الفرنسية على الجزيرة العليا، وذلك بسبب هذه السيطرة المتأخرة. غير أن المفوضية العليا عمدت بعد 1925 إلى ممارسة سياسة «استقلال ذاتي ارتدادي» ترمي إلى اندماج تدريجي للأقليات في الدولة السورية الجاري بناؤها وفي النتيجة لم يكن هناك أي قانون يرمي إلى حكم ذاتي للکرد . ص 73).

طبعاً، سيكون من المفارقات الكبرى، لو أعلنت فرنسا حينها عن قانون موقع عليه يخص حكماً ذاتياً للکرد، وثمة ما تنكرت له في لوزان قبل سنوات، إلى جانب أنه في ضوء المستجدات السياسية، لم تكن في بنية العلاقات الكردية، أو على مستوى الساسة الكرد، وإن كان هناك إمكان للحديث في التركيبة الهشة لتكوينهم السياسي والثقافي، لأن السياسة الفرنسية ليس فيها ما يشجع على إصدار قانون كهذا، وثمة ما تستند إليه، وهو تجنب أي حديث فعلي، قابل للتطبيق بهذا الصدد، وقد تم تقسيم المنطقة، تجنباً للدخول في اشتباكات وصراعات جانبية، وكونها قدمت للمنطقة اشتهاً لثرواتها، وليس من باب إنقاذ لأي شعب من الشعوب التي تعرضت لنوعي من الظلم: الاجتماعي والقومي، أي علينا أن ننظر فيما تحقق، وعلى أي أرضية اعتبارية كانت التكوينات السياسية مقامة في المنطقة: الفرس وقد استأثروا بإيران وهي أكبر من أن تكون فارسية، وتركيا وريثة العثمانيين، وهي بدورها أكثر من أن تكون بهذا الاسم الذي يلغي التنوع الاثني، وما يخص العراق وسوريا، وهما أكبر من أن يسميا بمفهوم قومي عربي، وثمة اثباتات متعددة هي كيانات قومية تجزأت، ولا بد أن التجزئة السياسية ترافقت مع القومية، لتكون الأخيرة مرتجع الحالة الأولى: السياسية، ومحالة على ما ينبغيها، وهي أن تكون ولا تكون، كما لو أنها لم تكن قائمة ذات يوم، أي القومية، أو الاثنية في اعتبار آخر، وفي أفضل التوصيفات، رغم الحذر منها، خشية أن تنبّه وتحفز على التحري والتقيب: الأقلية، أي ما يغذي إرادة الفضل المعرفية والبحث عن نسبة تواجدها، وهل هلي أقلية أم لا، ولهذا كان السعي إلى طمسها، أو التعتيم عليها على الصعيد الإعلامي وغيره.

البحث عن عصا التوازن :

بالطريقة هذه كان هذا الإسكان، ومن ثم العمل تبعاً للسياسة التي تستثمر هذا الحضور السكاني كقوة موجهة ضد نظام قائم هناك في «الشمال» أو كعصا

التوازن أمنياً للسلطة المنتدبة إجراءات دورية أو معتمدة عند اللزوم، وبناء عليه، يمكن تبين السياسة التي اتبعتها فرنسا مع الكرد في التساهل معهم ليسكنوا في الجزيرة، ووضعهم تحت اليد «أمنياً».

في هذا السياق، من المؤلم متابعة سرديّة الكيان الكردي المنشود والمؤجل وغير المحقق إلى الآن، وما عليه الواقع النفسي للكرد الذين تتابعوا في هذه السلسلة الطويلة من الملاحظات وفي الجهات الكردستانية الأربع سعياً إلى استقلال ما، وسياسة الجزرة والعصا نافعة لحظة التذكير بوضعيات كهذه.

يتابع غورغاس قائلاً بصد ما تقدم (كانت المطالب الأولى الصادرة عن مختلف الأوساط الكردية، المتعلقة بتوسيع حقوق الأكراد، أي بحكم ذاتي، تعود إلى عام 1924. فقد قدم النائب الكردي نوري كندي وأصله من كرداغ، إلى السلطات المنتدبة مذكرة تطالب بالاستقلال الإداري لجميع المناطق ذات الأثرية الكردية. أي على طول الخط الفاصل بين تركيا وسوريا)، ولا بد أن مرارة الحرف السياسي تبرز الكلف المدفوعة هنا لاحقاً مباشرة (وما يلفت النظر، أن نوري الكندي كان يعي بصورة شديدة الوضوح الدور الذي يمكن أن يلعبه الكرد لمصلحة الانتداب الفرنسي من جهة أخرى: إن المنطقة الكردية تقع على حدود تركيا ومن الواجب الطبيعي أن يعهد إلى هذا الشعب بالحفاظ على الحدود السورية، ما يؤدي إلى قيام «دولة فاصلة»، هذا من جهة، أما من الجهة الأخرى، فإن الاستقلال الذاتي الكردي يفيد في صد القوميين العرب، الذين يمكن بغض النظر عنهم، أن «يقيموا وحدة عربية ويطيحوا بإدارة الانتداب». ص 74).

أرأيتم نوعية الخدمات المطالبة، وما يمكن أن يكون عليه الكرد بين غزاة قادمين من الخارج ويتحكمون بإدارة البلاد وأمنها، وهم كانوا وراء تقسيم المنطقة عموماً وكردستان خصوصاً، ومن استفادوا منهم ليصيروا أولي أمر على أهل المكان، والكرد في الواجهة؟ أي أن يلعبوا دور «صادات الرياح»، وتأمين سلامة الغزاة، في صراع لا تعرف حدوده وأبعاده مع المرتبطين بالمكان بصورة ما أو بأخرى، كما أشير إليهم: العرب، وتلك أكثر الخدمات إغراء وإثارة، ولكن الشعب الذي تم تقسيمه، ومحاولة إضعافه من الداخل بحرمانه من السلطة، يكون أي سعي منه إلى التوحد تهديداً لمن كان سبباً في تقسيمه ديموغرافياً وجغرافياً، وتهديداً أعمق وأخطر لمن فازوا بالمكان وأهليه وأصبحوا سادة عليه: العرب وغيرهم.

إنها لعبة المساومات والاسترضاءات، ودونها من الصعب جداً فهم صور اللعب وأنواعها على مستوى السياسة، وخاصة في حالات من هذا النوع، حيث إن الآخر يكون مصيرك، أو اللاعب به من موقع القوة، وليس من سبيل إلى الالتفاف عليه أو التأثير فيه، أو مغالبتة، إلا بالدخول في طواعيته نوعاً ما، أي الاعتراف بأنه ذو فضل، وأن الذي يتقدم منه، طامحاً في فضله، لن يكون أي وهب له مجاناً إنما بمقابل، حيث ما كان وارداً التفكير في إجراء كهذا لولا الوضع ذاك، ورغم ذلك فإن ذا «الفضل» نفسه محكوم بظروف معينة، وبعض منها عائد إلى تقديره الذاتي، أو اعتبارات قد يغفل عنها المتقدم منه بطلب معين، كما في حال الكرد، وفي ضوء هذا الإقرار، لا إمكان لتوقع مآل اللعبة، أو نتائجها، أو نوع الخسارة هنا.

في تنظير لها، حول السياسة، تقول حنة أرندت، عن أن (السياسة «كما ندركها» هي ضرورة قهرية للحياة الإنسانية، سواء تعلّق الأمر بالوجود الفردي أو الاجتماعي)⁽¹⁾، ولا شك أن ثمة تنظيراً يضعنا في صورة الحدث/المأساة، أي يمكن لطالب حرية أن يتنازل مسبقاً عن جزء، وقد يكون كبيراً وكثيراً من حرّيته، بغية الحصول على حرية معترف بها لدى الآخر، وهي تكون مشروطة على كل حال. أي تكون هذه الحرية حرية وهي مرتبطة بمتحكم بها؟ هذا ما يعيدنا إلى التالي على التعبير العائد إلّاى السياسة ومدى ارتباطها بالقهر، أي بوصفها تحدد نقطتين وثمة علاقة أو علاقات بينهما، وهي ليست ثابتة غير أنها ليست متكافئة إطلاقاً،

(1) أرندت، حنة: ما السياسة؟ ترجمة وتعليق: د. زهير الخويلدي - أ. سلمى بالحاج مبروك، منشورات ضفاف - الاختلاف، الجزائر، ط1، 2014، ص 33.

قارن ما تقدّم بلسان أرندت «1906 - 1975»، بما يقوله ترفيتان تودوروف «1939 - 2017» في كتابه: الأمل والذاكرة، المصدر المذكور (لا مجال للاعتراض على تلك الحاجة التي تحثنا على امتلاك هوية خاصة بنا، مع الاعتقاد أن الأمر سيكون أفضل فيما لو كانت هذه الهوية مرنة ومتعددة. وليست فريدة وصارمة. بيد أن البشر كالجماعات يعيشون وسط بشر وجماعات آخرين، لذا فلا يكفي اعتراف كل فرد فينا بحق الآخر في العيش، إذ يجب معرفة كيف تكون وسيلة الدفاع عن الذات مؤثرة على وجود باقي البشر من حولنا. فالأعمال التي تدعم هوية الفرد وهوية الجماعة قد تعود بالفائدة عليهم، ولكنهم لا يملكون في داخلهم أية قيمة أخلاقية، لأن سياسة الهوية لا تختلط بخلق الغيرية. ص 229). إننا بقليل من التركيز، بقليل من التعمق داخل الوارد آنفاً، بقليل من المقارنة بينهما، نجد أنفسنا، وقد فقدنا الكثير مما نعرّزه من قيم مشتركة في الحياة، قيم ذات صبغة كونية، حيث إنها ما أن تهبط إلى الواقع، حتى تخسر حرارتها كثيراً بضغط السياسة وفيروسها الأخلاقي الذي لا تردعه أي «فرمته»: تطهيرية.

ذلك ينطبق على الفرد وعلى المجتمع، ومن يقيمون فيه، أو يديرون شئونه، وأحسب أن أردنت كانت تعيش تفاوتات السياسات ومفارقاتها في هذا الخط الفاصل بين أطراف ود فعلياً فيما بينها .

في الحالة الكردية، ثمة سياسة تعني الآخر، أما كردياً فهي تحيله على ذاك الآخر، وتبعده عن مركز قوته، لأنه مضطر لأن يمضي إليه، أن يكون في عرائه، مكشوفاً، إنه لاجئه ومفاجئه دائماً بطلب يتوقعه، وهو أنه في وضع خطر، وعلى ذلك الآخر أن يجد له حلاً، كونه فاعل مشكلة من موقع القوة، والسلطة التي تقوم على مفارقات واللعب بالمصائر .

بالصيغة هذه، يكون الآخر «فرنسا هنا» له حساباته، والتفكير في عام «1927» إنما هو توقيت زمني- مكاني، أي ما يحدث على الأرض، وما يكونه السكان في طريقة توضعهم وأعمالهم، وقوتهم، وكيف يمكن استشرافهم .

كما هو تتالي الموجات المرتبطة برمي حجرة في البحر، تكون مطالب الاستقلال، إنما تشير هذه إلى خاصية إلحاحية فيها بالتأكيد، حيث يتابع غورغاس (وصدرت العريضة الثانية المطالبة بالاستقلال الذاتي الكردي من القبائل المتحالفة بزعامة علاء الدينان من تجمع البرازي، ومن بوزان ومحمد شاهين. وهي تحتوي على الاعتبارات نفسها المتعلقة «بالهوية والاستراتيجية». والأخيرة صدرت عن زعماء من جرابلس أيضاً تطالب بالاستقلال الذاتي، ولهذا القضاء بصورة خاصة حيث «الكرد[...] يشكلون الأكثرية الساحقة.. ص 74)، وهي لائحة ثالوثية، أي ثلاثة مطالب، كانت متأثرة بقائمة المستجدات في المنطقة، والرغبة في التشارك مع آخرين بالنسبة لمفهوم الحقوق القومية وإيجاد قاعدة مكانية لها .

يضيق غورغاس موضعاً (والحال، إن هذه العرائض الثلاث كانت تعبر عن رغبة الموقعين في أن يشكلوا السند المحلي القوي للإدارة الفرنسية، أكثر من تعبيرها عن الرغبة في الحصول على حقوق ثقافية وسياسية للسكان الكرد ص 74)، وتلك مفارقة كبيرة بحق، وربما تكون مدعاة للسؤال عن مغزاها، أي جهة التبعية السياسية، لا بل والذيلية أيضاً، حيث تكون الرغبة في دعم الآخر تجسيدا للرغبة ذاتها، أي يكون الهدف في مجرد الرغبة بالارتباط الداعم، كما لو أن ليس من هدف يلي فعل التخديم، ولعل خطأ في التعبير، أو جانب الاستدلال يكمن في رسم العلاقة بين

الطرفين، حيث يستحيل وجود من يتقدم بطلب إلى الآخر، ليكون موقوفاً من أجل خدمته، وتلك هي حدود حريته، وإلا لجاز لنا أن نسأل: وهل كانت فرنسا تتردد في قبول خدمة كهذه، فيما لو كانت مجرد خدمة ولا يتعدها الطلب؟ وما سبق القول هذا، كان يضيء بنية هذه العلاقة التي لا تكون متشكلة هكذا، إنما تفاوضية، إذ مهما كانت حصة الآخر من الامتيازات، يبقى للطالب امتياز معلوم، أي بوجود شراكة تبقي اللعبة السياسية ذات الصلة بالمصالح قائمة، بنسب مختلفة.

حتى إزاء ما استدركه غورغاس، نجد أن نبرة الكلام، تفصح عن أن الطلب كان استهلالاً للتعبير عن الرغبة مسماة، وإن بدت مؤجلة، أو غير مصرح بها مباشرة (وقد تغير طابع المطالب الكردية بعد قدوم مثقفين كرد من أصول تركية. فقد نجح الزعماء السابقون للأندية الكردية في اسطنبول في اكتساب عدد كبير من القبائل الكردية لقضيتهم، وخاصة تلك اللاجئة في سوريا منذ العام 1920، فهذه الأخيرة تساند في الحقيقة الطابع السياسي والثقافي للمطالب. ص 75).

ثمة أكثر من خطأ تاريخي وجغرافي في الفقرة هذه، وأهم الأخطاء، تعبير «كرد من أصول تركية»، ولا أدري ما بنية الجملة الفرنسية، إلا أن الوارد في غير محله، فهم بدورهم كرد وقد نزعوا إلى رقعة جغرافية هي جزء من جغرافيا تعني الكرد كما هو سائد في الأدبيات السياسية للدول التي تقاسمتها «کردستان»، وفعل «اللجوء» وتسميته لجوء، إجراء في غير محله هو الآخر، إلا من زاوية محددة، إثر ترسيم الحدود، مع التشديد على ملاحظة كهذه، ودون ذلك، لما كان فرنسا تسعى جاهدة للتعامل مع القضية بالطريقة هذه، فهي في محتواها مركبة: قومية وجغرافية معاً.

إن التعاون الكامل مع السلطات الفرنسية كان يرمي إلى إنجاز الخطوة التي تترتب عليه: الاعتراف بوجود الكرد سياسياً.

ولا بد أن متحريّ الذهنية السياسية وتطبيقاته وفي وضع كهذا، يدقق في ممارسات القهر النفسية والمادية، سعياً إلى إلزام الطرف المطالب بالصمت، أو عدم التصريح بما يريد دون تحفظ، لأن المسيطر هو من يقرر ذلك، وأن عدم الرغبة في ذلك من السهل ربطه بمسوغات لا أكثر منها، طالما أن هناك رفضاً ضمناً للمشروع من أساسه، أي لا أسهل من تقديم أدلة أو ذرائع على أن مطالبتي الاستقلالي الذاتي لم يشبوا عن طوق الوصاية، أي عجزهم عن إدارة أنفسهم بأنفسهم.

كما يعلمنا غورغاس في هذا الإطار، حيث أفصحت عن استحالة المطلب السياسي تجنباً لمشاكل داخلية وخارجية، أي من خلال حسابات ذات طابع امبريالي وإقليمي بالتأكيد، حيث إن أي حل جزئي يستدعي الكلي وهذا مرفوض (إن جواب وزارة الخارجية الفرنسية هذا قد أدخل عنصراً جديداً هاماً، فالکرد برأي الفرنسيين لا يشكلون «أقلية متماسكة» ص 76).

تلك ذريعة أمنية في الصميم، وعلى تماس مباشر برقعة جغرافية، أستخدمت كبرهان على أن التبعثر السكاني في الجزيرة العليا لا يسهم في بناء كيان سياسي، عدا عن أن المسألة برمتها لا تناقش، لأنها غير مطروحة للنقاش، وكونها مجازة من دائرة الاستخبارات الفرنسية، وشديدة الوفاء لسلفها «بيكو» النصف الآخر من الارتفاقية السيئة الصيت «ساكس-بيكو» كما لو انتدابها مثل بريطانيا كان إنقاذاً لوضع سياسي خطير بالنسبة لدول المنطقة المتقاسمة للکرد وكونهم، وهو إنقاذ تمثل في إباحة هذه المنطقة، كمفهوم جغرافي يعرف به الكرد، وبنوع من التأييد القدري إلى أجل غير معلوم .

ومن المهم هنا، لفت النظر إلى أن غورغاس وغيره، حتى بالنسبة لجويده الباحث الكبير، يتجاهل بصورة ما، التواجد الكردي في المنطقة المسماة بالجزيرة العليا، قبل الثورة السعيدية، إن جاز التعبير، كما رأينا مع بروينسن في كتابه الذي يورد فيه معلومات مكثفة عن الدوركيين مثلاً «ج 1، ص 219»، وفي الوقت الذي يجب التشديد على نقطة أخرى لها صلة بمفهوم الجغرافيا، وهي أن «الجزيرة» هذه، والتي كانت تمثل برية نصيبين وماردين، كانت امتداد للشمال الجغرافي، وتتنقل فيها قبائل رحالة، إلا إذا أريد القول عن أنها تابعة لسوريا كما هو المتروك في أدبياتها السياسية الحديثة في المدارس والجامعات، والأدبيات الحزبية «البعثية» بصورة، حيث تمتد حدودها الشمالية إلى جبال طوروس، أي «ابتلاع» جزء كبير كذلك من أراضي كردستان الشمالية، وعدم اعتراف بالوجود الكردي .

الخلف الذي يتحدى :

ما الذي يستند إليه العمل الاستخباراتي عموماً، والفرنسي منه خصوصاً ؟ حيث يتوارى خلف تاريخ صاحب؟ الجواب في كتاب غورغاس (إن مهمة جهاز المخابرات هي القيام بالبحث وجمع المعلومات لحساب المفوضية العليا للقيادة

العسكرية، وكذلك الاشتراك في الرقابة السياسية والإدارية للسكان الخاضعين للاندتداب.ص 77).

إن نيكييتين، عندما يقول (عندما تتوسع أسرة ما وتخرج عن حدود القرابة الرحمية لتشمل نطاقاً أكثر سعة، فإنها تتحول بالطبع إلى عشيرة. إن الوشائج العاطفية والعادية التي توثق وتشد بين أفراد الأسرة الواحدة تضعف مع اتساع نطاق الأسرة لتحل محلها روابط الطقوس والتقاليد والمصالح المشتركة.... إن طرق اكتساب السلطة من قبل رئيس العشيرة تختلف باختلاف الظروف، إلا أنه يمكن ردها لأسباب محددة منها على وجه الخصوص عن طريق الوراثة أو الانتخابات من قبل العشيرة، أو نصبه من قبل السلطات)⁽¹⁾.

وكذلك مينورسكي حيث قال (إن الفرقة الجغرافية والسياسية، والرحلة من هنا إلى هناك تحت تأثير أنظمة ثابتة، والحياة المتصلة بالعلاقات العشائرية بصلة وثيقة هي التي حالت دون تطور الشعور الاجتماعي الواسع عند الأكراد)⁽²⁾.

بالإضافة إلى الكاتبة والسياسية البريطانية غرترود بيل في يومياتها عن جانب كردي (الفصل الثامن، سنة 1922، في 30 تموز: تبدو الشؤون الكردية أكثر تبشيراً بالخير تقريباً..وقد عرضنا من جهة أخرى معروضات سرية على أحد قطاع الطرق عبر الحدود، وهو السيد طه. إنه غير مهم جداً بحد ذاته، لكنه تابع رجل مهم هو سيمكو، وكان هذا يحارب الإيرانيين مدة أربع سنوات ويتخذ وضع الرئيس للحركة الوطنية الكردية. فإذا قبل السيد طه بما عرض عليه فسيقوم سيمكو بدعمه وإحباط الجهود التركية المبذولة لإقلاقه وإفلاقنا نحن.ص482)⁽³⁾، فعلى القارئ المهتم، أن يدقق في مغزى الكلام، حسنه أو قبحه، ففي الحاليتين، ثمة ما هو أبعد منه، لأن الذي يدون إنما نتيجة مشاهدات معينة في بلاد الكرد، أو سماع معين، أو تقدير شخصي جرأ متابعات سياسية أو ثقافية، وفي كل ذلك، فإن ما يكتب يحول إلى «معدة» سياسية في متروبول ما، فتكون «العصارات

(1) نيكييتين، باسيلي: الكرد «دراسة سوسولوجية وتاريخية»، المصدر المذكور، ص 185- 195.

(2) مينورسكي: ملاحظات وانطباعات: الأكراد أحفاد الميدين، ص 63.

(3) العراق في رسائل المس بيل 1917-1926، طبعة مزيدة ومنقحة، ترجمه وعلق عليه : جعفر الخياط، تقديم المؤرخ عبد الحميد العلوجي، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، 2003، ص 482.

الهاضمة» متناغمة مع طبيعة هذا المهضوم الاثنوغرافي أو خلافه، أي ما تكون الكلمة ذات الشأن الكردي متكاً للسياسي، كمسبار ما، كبوصلة استرشاد، ودليل عمل ما في التعامل مع المعنيين، وهو الذي يظهر لنا الجهاز الضخم اللذي يتعقب ما يكتب في هيئة/ قالب رحلات، أو استكشافات، أو أسفار تعبر الحدود .

هنا يمكن لنا أن نتوقف ونحن نتابع بعدئذ، متحرّين طبيعة العلاقة التي رسمها ضابط الاستخبارات الفرنسي المعروف وقتذاك «تريي Terrier» لا بل مشروعه بطابعه السياسي الموجّه، وصلته بحاجو آغا، أو ما كان عليه هو الآخر معه، من خلال نوعية المهام التي كلّف بها، أو قام بها في نطاق ما هو كردي، أو سياسي كردي بالذات، وحسبي القول أن هذا اللقاء المخطّط له، وليس العرضي، أثر كثيراً في ذهنية حاجو ونفسيته، وطبيعة أعماله ونظرته إلى العالم من حوله .

ذلك معروض في كتاب غورغاس، ويمتد صفحات، وهو مهم جداً في مضمار بحثنا .

إن البداية لافتة، أي بصيغة العمل وكيف جاء مثمراً، من خلال معرفة الآخر، والتفريق بين ما هو مهم وما هو أهم له، بين ما يثيره وما يوتره، ما يقتصر عليه شخصياً، وما يتعداه، ما هو عليه في الواقع، وما يكونه ضغط الواقع عليه (لقد أعطى استقلال جهاز المخابرات في الأجهزة الإدارية الانتدابية، نتائج مدهشة في الجزيرة العليا... وكان من بين ضباط جهاز المخابرات الملازم أول بيير تريي الذي تميّز بمشاريعه في الجزيرة العليا. فقد وصل إلى هذه المنطقة عام 1924، فقلب رأساً على عقب، على امتداد سنوات ثلاث وأكثر، سياسة جهاز المخابرات بشأن الكرد. ص 77) .

لعله في الكثير من الجوانب يذكّرنا في الطرف الآخر ، فهي التي عاشت بين عامي «1868-1926» سوى أن المعروف عنها هو أنها (من أهم الشخصيات البريطانية التي ساهمت في صنع الخريطة السياسية والجغرافية للمنطقة العربية عموماً والعراق خصوصاً في القرن العشرين..)⁽¹⁾، أي كونها مستشارة مؤثرة في

(1) رسائل جيرتروود بيل 1899-1914: فلسطين- الأردن- سورية، وحائل، اختارتها وصنفتها: ليدي بيل، ترجمة: رزق الله بطرس، مراجعة وتعليق وتقديم: ماجد شبر، دار الوراق، بيروت، 2008، ص 7 .

مكتب المندوب السامي البريطاني بيرسي كوكس في العراق ما بين 1917-1926، كما أنها (كتبت غرترود نفسها في مواضيع اختصاصية دقيقة في علم الآثار والتاريخ الكنسي، وفي نفس الوقت ألقت كتباً عن الرحلات وحياة الصحراء تعتبر تحفة أدبية في زمنها.... وتعكف حالياً جامعة نيوكاسل، المؤتمنة على أوراق بيل، على إطلاق موقع الكتروني شامل يضم كل أرشيف غرترود من الوثائق والصور الفوتوغرافية ص 15.. عالمة ومؤرخة وآثارية ومستكشفة وشاعرة ومتسلقة جبال وجنائية وموظفة بارزة في الدولة، ولدت هنا في 14 تموز 1868 وتوفيت في بغداد في 12 تموز 1926)⁽¹⁾، وما سطرته في رسالة لها ذات يوم، وهو (في 27 تموز 1917: لقد كنت أكره الأكاذيب دوماً، وما زلت أكرهها أشد من أي شيء آخر.... وكلما ازدادت معرفة المرء بالشرق وأحواله، تزداد حاجته إلى تعلم الصفح- أحسب أن ذلك تنطبق عليه قاعدة «تغاض عن جميع ما تعرف». وقد كان نصف الناس الذين هم أصدقاؤنا الحقيقيون الآن هنا يكتبون مقالات عنيفة ضدنا حينما كان الأتراك يمسكون بخناقهم. وأن كونهم يكتبون بمثل ذلك العنف ضد الأتراك في يومنا هذا، ولو من دون أن نجبرهم نحن على ذلك، لا يمكن أن يكون سبباً لاقناع المرء ورضاه بما يفعلون . فالكلمات في الشرق هي مجرد كلمات عارية.. لا تعني أي شيء «يعلق المترجم في الهامش بأنه حكم فج»، إذ يمكنك أن تتخذ احتياطات مكتومة وتقول ما تريد وتنتهي من الأقوال ، وليس هناك من يقول لك أين ينطوي ذلك التحوط...٩..)⁽²⁾، وأصبح قولها هذا معتمداً لدى كثيرين ممن يعرفهم تاريخ العراق السياسي والاجتماعي «علي الوردي في الصدارة»، لحظة تأكيده في الواقع من جانب، والتتبه إلى محتواه وخطورته من جانب آخر، جرّاء التعامل مع المنتمين إلى عالم المنتمين إلى الشرق، مهما ذكّرنا المقولة هذه بما تردد عما يسعى إليه المستشرق في تحويل الشرق كما يريد، سوى أن ليس كل ما يقال عن الشرق مقحّم

م: يُكتب اسمها بأكثر من طريقة عدا ما تقدّم: غرترود، غيرترود، جيرترود، المس بيل غيرترود... الخ.

(1) أ.ج. أف. ونستون: «حياة غرترود بيل 1868-1926» السكترية الشرقية للمندوب السامي البريطاني في العراق 1917-1926 ، ترجمة: صادق عبد علي الركابي، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2008 ، ص 24 .

(2) العراق في رسائل المس بيل 1917-1926، المصدر المذكور، ص 38 .

عليه، كما هو الجاري في أوساطنا حديثاً، أي ما يكون عليه العمل الاستخباراتي والذي يظهر أن مدسّن «الشرق الحديث» بصيغة ما، ولكنه الشرق الذي يستمر بذهنية التقليد، وما يظهر به يعرف به حداً وما بعد حداً .

إن مشروع «تريي» الفرنسي صنو مشروع المس بيل الانكليزية، وبينهما خيطان مستقيمان يشاهدان من خلال أفقيتهما .

مالذي رسمه عن الكرد، أو كيف تشكّل الكرد في ذهن تريي، وكيف مهدّ لعلاقاته معهم؟

في المسافة الفاصلة بين رفض الاهتمام بـ «اللاجئين» الكرد من تركيا واستقرارهم جنوب الخط، في الجزيرة، لأسباب سياسية وأمنية طبعاً، ورغبة في عدم الوقوع في مشاكل تكون فرنسا بغنى عنها، وفي شخص تريي بالذات، إلى الترحيب بهم، لأن ما كان حين اعتمد الرفض، غيره حين قبل العرض (فتحول تريي فوراً إلى نصير للاجئين» الكرد وللتوصل إلى اتفاق مع زعمائهم لوعيه ما يمثله الكرد من ثقل في سياسة استعمار الجزيرة، وفي حل النزاعات الحدودية مع تركيا . ص 77)، وهو ما ينبغي الكشف عن ملاساته، بتجاوز المرئي فيه، أي البحث عن الثمن الذي توافر لتريي قبضه، جرّاء مقارناته وتحرياته (إلا أن مقارنة تريي الجديدة، تطلبت جهداً لنسيان فصول مؤلة من الاحتلال الفرنسي في منطقة «منقار البط» أو بالأخص «قضية بيهندور: بيان دور». وقد حاول تريي إيجاد تسوية مع «أبغض الناس» إلى القوات الفرنسية حاجو آغا . ص 78) .

لماذا هذا الشغف بحاجو آغا، رغم «البغض الشديد» له ؟ ما المتحوّل القيمي في الحالة هذه ؟

لا بد أن حاجو «الشرير» ربما، ولقد كان يقيم هكذا في أمسه القريب من وجه نظر السلطة الفرنسية، لا بد أنه في وضع آخر بالنسبة للفرنسيين، ليمنح صك براءة ما، أو بطاقة «غير محكوم» طالما أن هناك متحولات جديدة تفرض مثل هذا الإجراء أو التوجه، ولعل جهاز الاستخبارات أقدر على الكتابة من اليمين إلى اليسار أو بالعكس، تبعاً لهوى معين له، وهو يتلمس في حاجو أكثر مما يظنه قائده أو رئيسه، وهو اعتراف بنفوذه، بقدرته على أعمال البلبلة أو تجاوزها نسبياً، وضمن محاور مختلفة: عربية وكردية وتركية، أي التحرك في هذه الاتجاهات

الثلاثة بطريقة ما، يقدّرُها الجهاز ذاك فيه، وهو يعلمه مباشرة، أي حاجو، أن لا بد من كيان كردي، أو الإلحاح على هذا الطلب بين الفينة والأخرى .

تربي درس موضوع الكرد والاستقلال عن كُتُب، بمعنى مقابلة السيئات بالحسنات، ولا بد أن القارئ حين يقرأ صيغاً لغوية من هذا النوع، وتحت وطأة عاطفة معينة، وكونه كردياً يستشعر نشوة داخلية، وهو ضمن كيان كردي مقرر، لكن الواقع لا يشجّع على ذلك، لأسباب جغرافية وتاريخية وغيرهما كما يظهر (فالظروف الجغرافية للمناطق الكردية، لا تسمح بتحويل كامل لهذه المناطق إلى ولايات ذات حكم ذاتي. وعلى هذا الأساس اقترح تربي على الزعماء والوجهاء الكرد التركيز على الجزيرة حيث يمكن وجود أمل بتطور إلى وطن كردي مستقل ذاتياً. أما بخصوص قضائي كرداغ وجرابلس فينبغي الاكتفاء ببعض الصلاحيات. ص 78).

لكن سؤالاً يفرض نفسه، وهو : هل يمكن لقول أن يجد/يبصر طريقه إلى الواقع العملي؟ هل يمكن لكلام استخباراتي أن يطمئن سامعه أو متلقيه أن يكون مصدراً للحقيقة ودليل عمل ؟

لعل تربي كان يرمي بإجرائه هذا إلى التحرك على أكثر من صعيد/على أكثر من حبل، أن يعرف كيفية استمالة الكرد من خلال وجهائهم وزعمائهم، أي البحث عن الطرق الأكثر اقتصادية ونتائج مضمونة، وتجنب المخاطر، ولأنه، أي «تربي» كان يتنشط في رقعة جغرافية، هي الجزيرة العليا، وقد ضُمَّت إلى سوريا في حدودها السورية لاحقاً، وكان يعرف من حيث التقدير طبيعة النشاط الذي يمارسه وجديته، ليس لأنه كان يبحث عن «قابلة/ولادة» لفكرته «الرحم» وقد تفتّحت عن «جنين» سياسي موعود باسمه: كيان سياسي كردي، إنما أن يعرف كيفية إدارة أمور هذه الرقعة في مواجهة تركيا .

ربما كان تربي جاداً، وربما كان يخطّط لشيء ما بصورة جدّية، سوى أن المخططات الاستخباراتية في وضع كهذا، ومقارنة بتداعيات أمس القريب، وملابسات الجاري، تبقينا متبهيّن إلى خطورة اللعبة، وحيث إن شيئاً مما أفصح عنه وخطّط له لم يتحقق، وهذا هو الإخراج الفعلي لما أراد ولم يشر إليه في الصميم.

هل أراد من حاجو أن يكون رجله «المقدام» أو كما هو متداول في المنطقة «زلمته» ؟ هل هذا يعني أن حاجو كان المزكّي بالطريقة هذه ليكون «زلمة» اسماعيل

حقى التركي في «سرختي» و «زلة» تريي» في بنختي؟ ودون السؤال عن حقيقة هذا التوصيف، وكيف يجازُ إطلاق قول كهذا؟ لا بد أن شيئاً من هذا مترسخ في الذاكرة المكانية لمن ينتمون إلى المكان، وعلينا ألا نذهب بعيداً بحثاً عن مثال، عن شخص ردّد ذلك، إذ لا أقرب من الشاعر الكردي جكرخوين فيما كرّره من صياغات كهذه في سيرة حياته، والذين رأوا في جكرخوين خير من يمكنه إطلاق العنان لعدوى أقوال كهذه، وليتحقق لكل من استساغ هذا «التأثيم» مرامه: الشاعر ليخفف من كبته، ووطأة تناقضاته الشخصية، والذين يشعرون بأن حاجو شكّل ويشكل خطراً عليهم، يزيحونه جانباً، وحتى بالمفهوم الحزبي الكردي، عندما يؤرّخ للحركة الكردية، ويعدّم كل أثر للنضال في سبيل الكردايتي قبل من يسمونها «ولادة الحركة السياسية» في أول حزب سياسي كردية «1957»، أي: بداية بلورة وعي قومي كردي، دونما سؤال عن أن تأريخاً كهذا ينسف حضوراً كاملاً ومؤثراً للذين تركوا بصمتهم في هذا المجال، وأن أبسط مقارنة بين المثار والمحقق كردياً، على الأقل في الفترة الفاصلة بين عشرينيات وثلاثينيات القرن ماضي، حين كان حاجو على قيد الحياة ومن كانوا معه، أو يعمل معهم من رموز الثقافة والسياسة الكرد، وما تحقّق وأنجز كردياً من بدء التأريخ للحركة السياسية تلك «1957» لكانت النتيجة بائسة إلى أبعد الحدود، وفي المجالات كافة، وأن تبتئس ما كان، وربما تسطيح الماضي الشخصي لمن لعبوا دوراً كردايتياً يترجم خبثاً ولؤماً تاريخيين في هذا المقام.

بمعنى آخر، إن عملية استقصاء لعلاقة حاجو بضابط الاستخبارات الفرنسي والمتعدد المهام، وهي بدورها استخباراتية في الصميم، تعني لمن يدور في فلك اللعبة الاستخباراتية أمراً واحداً، وهو أنه رجل «مكّار» ويجب التيقظ في التعامل معه، أشبه بلاعب دور الشرير في السينما ذات الطابع الهوليوودي الدقيق الصنع، كما هو الوجه الآخر للعبة تلك، غير أن الوجه المقابل للشخصية من خلال المتابعة، هو تنامي تأثيرها الإيجابي في نفوس «المشاهدين عموماً»، وهي «تمكّر» بمهندس الاستخبارات، إلى درجة التعاطف معها، اعترافاً بالدناءة الأخلاقية لبُنية اللعبة الاستخباراتية، والمعرفة الضمنية أنها تتصرف بعجرفة والتعالي على أهل المكان أنفسهم.

في نقطة أخرى نجد أن غورغاس نفسه، لحظة النظر في بنية كتابه، يشير إلى هذا الجانب، وحتى جبّو، وهو يستند إلى جكرخوين وغيره، وعندما يسأل

حاجو آغا، وما كان يعتمد من أساليب مختلفة لتحقيق ما يريد أو الوصول إلى هدف معين، فإنه يضيق عليه الخناق.

ماذا يمكنني القول هنا، وإزاء ما تقدم ؟

أرى أن التعريف به، كما هو شائع بنوع من السوقية اللافتة «زلة» فرنسا، في غير محله، وذلك عندما نعمن النظر فيما كان يجري أو يحدث وقتذاك، وإن التشديد على تعريف كهذا إخلال بمبدأ الالتزام بالحقيقة، أي ما لم يكن هكذا، وثمة من يمضي إلى المخالف أو المغاير له، حيث يصعب أو يندر إيجاد من يخرج عن خانة هذا التعريف، إن التزمنا به، ممن كانوا يتحركون في هذا الإطار، أو يتشطون من خلاله، وفي ظل سلطة مستشرية أو تطال أياً كان، أفرنسية كانت أم انكليزية، بمعنى أن إقامة علاقة ما مع السلطة لإنجاز مهام معينة، أو الدخول معها في شراكة معينة على الأرض، وثمة قضية ماثلة في الذهن، تعني التقدم من ممثلها، أو الاستجابة لطلبه، والنظر في إمكان ما يمكن تحقيقه بهذا الصدد .

حاجو لم يكن «زلة» فرنسا، كما يستسهل البعض هذا التوصيف حتى اللحظة، ودون ذلك يستحيل استيعاب أنشطته، حتى تلك التي يشكك في خلفيتها «عملية حصوله على أراض أو قرى وغيرها»، تدخل في هذا الإطار، إنما هناك بؤرة توتر ينبغي النظر فيها، وما الذي يتوافر للکرد، ليكون في مقدورهم التلويح به؟ أي عصفور كان في يدهم، ليقولوا عن أنه أفضل من «عشرة على الشجرة» ؟

الرحلة الصادمة لأهلها :

إن متابعة حاجو آغا منذ انتقاله إلى الجزيرة، إلى بنختي، وفي زمن وجيز، يصعب التعرف عليه، بوصفه يتطلب مرونة لافتة في الذكاء العملي، وقابلية للانفتاح والتحرك، وكيفية الاتصال بالشخصيات المتنفذة، والانتقال بـ «العدو» نفسه من حالة العداء إلى حالة «الصدقة» ولو أنها وقتية، أو مؤقتة، وما في ذلك من ثقافة محددة، لإنجاز ذلك، وثمة في الجوار، أو في المحيط كثيرون، وربما يتفوقون على حاجو بثقافته ولغته، إلا أن شيئاً واحداً يفتقرون إليه، من خلال متابعتي له، وفي تتبع محيطي/ بيئي قدر المستطاع، وهو أن ثقافته التي عرف بها، وإن كانت محدودة، لو قيّمناها، كانت تُعِينه فيما يريد بلوغه، وهنا مطلب «الكفاية الثقافية» ولفتها !

ولعل حاجو هذا كان يقدر هذه اللفتة في تريي، ومن خلال خبرة ميدانية، وعمل حدودي «أو على جانبي الحدود» إلى جانب الإغارات على مواقع ومن ثم الدخول في اشتباكات مختلفة مع الأتراك أو الفرنسيين، عدا عن زخم الصراعات العائلية والعشائرية ولا أكثر منها تنوعاً واشتقاقات ألوان وتخماتها كذلك، إنما يستوعب بنية هذه الإشارة في وجهها غير الملحوظ تماماً، كونه استخباراتياً بالتأكيد، وكان عليه أن يكون متنبهاً إلى ما يجب عليه القيام به، شاداً البساط ناحيته، وهكذا (قد بدأت السلطات الفرنسية، عملاً بمشروع تريي بالسماح لزعماء الحركة القومية الكردية بالإقامة في مدينة الحسكة، مركز الجزيرة. وكان من المفترض اتخاذ تدابير أخرى ذات طابع ثقافي وإداري حتى الوصول إلى استقلال ذاتي شبيه بدولتي العلويين والدروز. وقد تم إنجاز جزء من التدابير التي نص عليها مشروع تريي بين عامي 1928 و 1936، حسب تقرير للأمن العام كتب عام 1943. ص 79).

في هذا المقتطف، من المفيد الربط بين مشروع دولة كل من العلويين والدروز والدولة الكردية المقترحة، ولكنه اقتراح لم يجد طريقه إلى التطبيق، لأن الكرد عامة ليسوا هم الذين ينتشرون في رقعة جغرافية محددة «ضمن سوريا»، إنما هناك الكرد في الأجزاء الأخرى بالمقابل، عدا عن الجانب التاريخي لواقع الكرد، كما لو أنه حكم عليهم أن يظلوا طوعاً أمراً الآخرين، من ذوي السلطان، أو أن يظلوا «فوسفوريين فسيفسائيين: شعب هم شعوب، لينظر إليهم دون شعب»، وهو ما يمكن تلمسه في هذه الكلمات ذات الطبعة التريوية «الفرنسية»، سوى أن الكرد عبر من كانوا يمثلونهم، تجاوبوا مع تريي، كما يظهر، وهم على يقين أن المقترح ممكن، لم لا، والفرنساوية، كما هو معلوم، أهل الحل والعقد. فالذين تمكنوا أن يجزئوا وطناً جغرافياً إلى أربعة أجزاء، من السهل عليهم، وهم بالاقتدار ذاته، أن يعيدوا اللحمة الطبيعية إليه، أي في وضعه السابق الأقل تجزئة، هذا في حال إن أرادوا، وليس إن حاولوا، إذ إنهم لم يحاولوا البتة، وفي الوقت الذي لا يمكن استخدام مفردة «المحاولة» هنا، لأنها تعني أنه قد تفشل هذه المحاولة من جهة، وأنهم في الحالة هذه لا يعودون يتحملون المسؤولية كاملة، عما جرى، من جهة أخرى، وفي ضوء ذلك يكون البحث عن طرف ما، أو قوة خفية، لتحميلها - ربما - المسؤولية الأكبر، تخلصاً من أي نوع من أنواع المسؤوليات الجنائية بطابعها الدولي، بمعنى أن هؤلاء لم يكن في نيّتهم أن يحققوا ما نشده وجهاء الكرد وزعماءهم فيهم، لأن ما

خطّطوه استغرق زمناً، وبدا، بالنسبة إلى هؤلاء المقسمين لهذا الوطن، أن أي استعادة عما تم تنفيذه، وصار مسمّى عبر حدود تشطر الجسد الطبيعي الكردي أشطاراً، تشبه من يندفع في البحث «عن الزمن المفقود»، أي توقيف الزمن، وهذا ليس وارداً، إنما تلعب المراوغة دوراً كبيراً في الخلط بين الأزمنة، ليس لأن الحيلة هذه تنطلي على المعنيين بالمطالبة، وإنما لأنهم لا يجدون فكاً من التجاوب، ومن ثم تأمل المنشود، ولو كان مع التسوية كذلك .

بناء عليه، فإن ما يقترحه، أو يقرره تريي يظهر سعيه إلى الربط بين جميع المقيمين، وما يعنيه ذلك من تحقيق نوع من التوازن بينهم في مشروعه، وبإشراف فرنسي (ويمكن أن نذكر من تلك التدابير تعيين موظفين كرد في الجزيرة وتشكيل فوج في جيش المشرق يضم كرداً ومسيحيين يتكلمون الكردية، وفتح صف كردي في المعهد العالي العربي في دمشق، وإنشاء صف ليلي لتعليم الكردية في بيروت، والاستحصال على رخصة لصدور مجلة كرد هاوار «Hawar»، وتدخل جهاز المخابرات لإلزام الحكومة السورية بإعطاء بطاقة هوية للاجئين كرد يسكنون البلاد منذ سنين عديدة. ص 79) .

ربما كان الذي تقرّر آنفاً آنذاك إنجازاً، وتحديداً جهة التعامل مع الكرد، ومنحهم امتيازات ثقافية، نجد أثراً لها بعد عقود زمنية طويلة، أي منذ قرابة عقدين من الزمن، في تركيا على صعيد تعاطي القضية الكردية، وما يمكن منح الكرد من حقوق، من بينها ما هو لغوي «متلفز» وضمن مجالات معينة»، وطباعة كتب، إلى جانب السماح بالتحدث بالكردية، أي إن فرنسا حينها كانت فاعلة في قرارها ذاك، وهو الحد الأقصى الذي أمكنها تحقيقه في الحدود الإدارية والثقافية، وفي الوقت الذي نجد أن خطوة كهذه كانت بذرة سياسية لإنتاج ما هو مصالحي فرنسي في أرض شدد الكرد في المنطقة على أنها أرضهم، ولهذا كانت مطالباتهم بها، وبالإجراءات التي تؤكد ذلك «لتطويعها» باسمهم طبعاً، ويتضح هذا فيما بعد (كان مشروع تريي، صياغة «سياسة كردية»، يستجيب لطموحات فرنسا في الجزيرة العليا، أي إكمال احتلالها وخلق منطقة عازلة موالية لفرنسا . فالدعم الفرنسي كان حتى العام 1928 ينحصر بزعماء القبائل، فحوله مشروع تريي إلى دعم للمجتمع الكردي أيضاً، في مسار أهداف السياسة الفرنسية في المشرق . ص 79).

هذه الكلمات لا تخفي الوزن النوعي للکرد، حيث إن الإتيان على ذكرهم ينطلق من طبيعة تواجدهم الخاصة على الأرض، وهم في وضعية استقرار وفي الوقت نفسه مواجهة مع السلطات: التركية والفرنسية، خلاف الكثير من الاثنيات الأخرى في المنطقة، مما كان يعني لهذه السلطات الكثير الكثير، من بين ذلك: خطورتهم، واستحالة تجاهل الخطورة هذه، إن لم ينظر فيها ومراعاتها، أي استحالة تنحيها جانباً، لأن الخطورة هذه كانت تتجسد في أنشطة سياسية وعسكرية «حرب عصابات على الأرض»، وهي في مضمونها تخلق الطرفين، بمقدار ما تشغلها وتهيب بهما لأن تراعى الوضعية الخاصة لهم، وكيفية التصرف معهم، ليس بوصفهم سلبين، أو هشين، فيتم توجيههم على طريقتهم، وإنما الدخول في مفاوضات، أوحى مساومات، ولدى كل منهما، ما تلجأ إلى اعتماده، واستثماره من خلال الكرد، وتوجيه ضربتها إلى مرمى الآخر.

إن ما جرى تالياً، يضعنا في مواجهة حقيقة تاريخية، وهي تتمثل في القوة، بصدد التعامل مع الكرد، عندما (توقف التعاون الفرنسي الكردي منذ عام 1936، تاريخ توقيع المعاهدة الفرنسية السورية، التي كانت تنص على استقلال البلدان السورية وانسحاب القوات الفرنسية إلى خارج أراضيها. فقد دقت ساعة توحيد المناطق تحت سلطة الحكوم المركزية، إلى ذلك خفت الحاجة إلى استخدام الكرد في مواجهة الجار الشمالي بفعل الاتفاق الحدودي مع تركيا. حينئذ توقف مشروع تريي وجرى التراجع عن بعض التدابير التي كانت في مصلحة الكرد. ص 79).

يتضح مما تقدم، أن الكرد من ناحية كانوا يفصلون بين فرنسا وتركيا، وأن نشاطاتهم كانت تتحرك في الاتجاهين، من خلال سعي كل جهة إلى كيفية الاستفادة من «الحرية الكردية» ضد الآخر، وعلى قدر القوة المتاحة له في الزمان والمكان، وأن فرنسا من ناحية أخرى، وإن كانت تزعم أنها تساعد الكرد لوجستياً، وخدمياً، كما في إسكانهم في المنطقة، إلا أن ذلك لم يكن منةً منها، لأن المنطقة تلك كانت موجودة سابقاً، وأنها هي التي عمدت بالتعاون/ الشراكة مع نظيرتها الإدارة الاستعمارية الانكليزية إلى تقسيمها، وتقسيم الكرد أنفسهم، وبالتالي، فإن انتقال الكرد إلى «سرختي» لا يعدو أن يكون نقلة من نقطة إلى أخرى، لأنها تشكل امتداداً طبيعياً لحدودهم الأرضية بالذات، بالعكس، فإنها سعت جاهدة إلى لجم القوة الكردية بين الحين والآخر، وتخفيف الضغط على

تركيا، لتكون أكثر استقراراً في الطرف الآخر، إلى جانب أن هذه المنطقة التي لم تكن جزءاً من سوريا أبداً، كما رأينا سابقاً، أضيفَ إليها فيما بعد، ومن ثم تشكلت الجزيرة السورية العليا وتعنونت في الخارطة السياسية السورية الحديثة إثر معاهدة عام 1936، لتباشر سيطرتها عليها فيما بعد، وهو ما بات يعرف فيما بعد، عن أن أي محاولة بالاستقلالية عن العاصمة ضمن الرقعة تلك بالانفصال، أي ما يعيد إلى الأذهان ما كانت عليه «برية» نصيبين أو ماردين، وليس ما يتردد عن أنه الجزء المقتطع من سوريا أبداً .

وفي العودة إلى نقطة مهمة تعنينا في موضوعنا الفرعي هذا، وهي المتعلق بنوع التعاون بين حاجو وتريي، إذ نلاحظ ما تتأثر به السياسة جرّاء المتغيرات على الأرض، حيث (إن التغير في موقف السلطات المنتدبة من حاجو آغا والحماية الفرنسية التي أعطيت له هما على ارتباط مباشر بالعمل في كواليس الملازم الأول تريي، فهو قد نجح بفعل عدة مذكرات إقتناع المفوضية العليا بفائدة «ورقة حاجو» في الجزيرة العليا. فالهدوء الذي ساد المنطقة، وخضوع القبائل الكردية للسلطة المنتدبة منذ عام 1926، كانا البرهان على صحة رهانه. وقد تحملت المفوضية العليا، بدورها، مسؤوليتها في حالة زعيم الهفركان، ودافعت بحزم أمام وزارة الخارجية، عن السياسة التي اقترحتها الملازم أول تريي (ص 85).

لا أظن أن هناك من يلم بالحرف، في وسعه تجاهل الدور الذي قام حاجو آغا في المنطقة، أي ما يمكن أن يكون عليه الوضع لو لم يكن موجوداً، أي لم يتدخل لدى السلطات الفرنسية، بصدد كردية المكان، وليس ذكاء أو نباهة، إن ثبت هنا أن البعد الكابوسي لاسم حاجو في الذاكرة الجمعية السياسية السلطوية العربية حتى يومنا هذا، لحظة التذكير بهذه الفترة، أي عمر مشروع تريي السياسي وموقع حاجو فيه، وكيف كانت الأرض تدار، لا بل كيف كانت صفة الكردية كسياسة وثقافة، لا بد أنه يبرز في هذا الجانب الخطير الذي تركّز عليه السلطات العروبية بالذات، وحيث إن حاجو، يظهر العدو التاريخي رقم «واحد» في معادلة التاريخ الجزراوية، إن جاز التعبير.

مسامير صدئة في جسد ممزق:

فيما بعد، ومع مشروع الضابط الاستخباراتي السوري الملازم أول بدوره «ويا لها من مفارقة لافته»، وهو يحاول أن يقدم مشروع «أنتي تريي»، أي كيفية الانتقام

من ماضٍ ولّى ولكنه محتفظ بأثره ويصعب إن لم يكن مستحيلاً محو هذا الأثر، وهو الذي يحمل اسمه ومحوره محافظة الحسكة بالذات، في ستينيات القرن الماضي، أي ما مهدّ لظهور حزب البعث، كما لو أن هذا المشروع هو العلامة المثلة لمضمونه بالمفهوم الأمني قبل السياسي، وأن إحلال مئات الألوف من العرب عبر استقدامهم من الداخل السوري، ليس أكثر من الرد على مشروع تريي هذه المرة، وهي النقطة الاستخباراتية الأكثر خطورة وجلاء هوية في الواقع، والذي لا أظن أنه أُنْتَبِه إليه من قبل الكتابات التي تناولت هذا الموضوع، ومن خلال التقابل مع الثلث الأول من القرن العشرين، أي ليصبح العرب «المغمورون» كما جاءت تسميتهم المكانية بهذه الصفة من صوب الرقة قبل كل شيء، ليكون سداً فاصلاً بين الكرد المتاخمين للحدود التركية في الداخل التركي، والكرد المتاخمين للحدود السورية في الطرف المقابل، أي بين سرختي وبنختي، سعياً إلى عدم الاحتكاك أو التواصل المباشر بينهم في الجهتين، تقديرأً أمنياً من أن إجراء كهذا، يعني إبراز تيمة العنف السياسي وطبي الجغرافيا أمنياً، حيث لا يعود في مقدور الكردي في بنختي التواصل مع الكردي في سرختي أو التخاطب بينهما أحياناً، وهما مرثيان، ولهذا، لا غرابة أن نقرأ بعضاً مما يؤكّد هذا البعد المحوري في الموضوع في كتاب هلال الأمّني (هذه القطعة من وطننا الغالي التي حاكت لها الأيام ما حاكت ودس لها تعاقب الزمن ما دس حتى أصبحت بما ابتليت به من إهمال وغدر وتآمر ما هي عليه الآن من فوضى عنصرية ونزاع طائفي ووضع قبلي متخلف ومسرّحاً لبقايا قوميات مندثرة أكل الدهر عليها وشرب...ص11... وما يخص بعض العشائر وتوصيفها: من العشائر الكردية: عشيرة الهفيران الكردية: لقد تمرست هذه العشيرة في أعمال الشقاوة وقطع الطريق على مر تاريخها...ص39...الدقورية: في غرب مدينة القامشلي محتلة أكبر قطعة من الأرض في عامودا...ص41... سيدان: في قرية تابعة لعامودا.. سياستها بشكل عام هي العمل للوطن الكردي بأي شكل...ص42... وفي الجانب السياسي، في الفصل الرابع: الأحزاب السياسية داخل محافظة الجزيرة: تحقيق الآخرين، وضمناً الكرد بأحزابهم واعتبارهم ذيولاً للاستعمار وغيره. «خضراء الدمن»...ص95... وما ورد في المختتم: ترسيخ فكرة التعريب والحصار على من ليسوا عرباً، وبما يتناسب وقومنة وعربنة المنطقة تبعاً لذهنية أمنية مخابراتية...صص168-169...الخ).

في العمق يظهر حاجو آغا، في سردية تاريخ المنطقة مجسّد هذا الخطر المشار إليه، وإلا لما تردد هذا التعبير «أعمال شقاوة» مثلاً، وهو تعبير استخدم من خلال السلطات الأمنية الفرنسية والتركية كذلك، ولكنه مثلّ قوة مرهوبة الجانب، وليكون الهلالي على صعيد التماهي النفسي والثقافي محمد جمال باروت، إذ يتناول شخصية حاجو، استعادة لهذه اللحظة التاريخية، واعتماد تعابير تكشف القهر الداخلي للشخصية الكاتبة، وشعوره عن أن الذي يريح البال هو تعبير مما تقدم، وليس النظر فيما كان على مستوى التاريخ، وما كانت الجغرافيا وحدودها السياسية، كما سنرى .

حاجو آغا في واجهة الذاكرة السياسية والأمنية لهؤلاء الذين يمارسون مسحاً سياسياً للمنطقة، أي ما يريدون التفوه به، وهو أن حاجو كان ماضياً إلى بناء كيان سياسي كردي، وحتى بشكل موسّع كذلك لو امتد به الزمن مع فرنسا، وليس من ضير في علاقة كهذه، عندما نجد مدى هرولة سياسيين عرب أو زعماء أو وجهاء عرب من «الشريف حسين» إلى كل الذين يعرفون بأنفسهم ممثلي شعوبهم العربية في التجاوب مع أنظمة سياسية غربية قبل كل شيء، ليس حرصاً على مصالح شعوبهم تلك، وإلا لكان الوضع الآن مختلفاً، وإنما على كيفية تثبيت كراسيهم السلطوية، وحاجو لم يكن لديه كرسي مسمّر من خلاله في المكان، كما يمكن أن يقال بالطريقة هذه، ليدافع عنه، وإلا لكان محل مديح هؤلاء الذي يشنّعون القول فيه إجمالاً، دون ذلك لكان الاهتمام به أقل، كلما تم التذكير بفرنسا وتكرار عبارة «وأذناها» من قبل العاملين في الجهاز الإعلامي التبوي، أي ما يخل بمفهوم التاريخ نفسه، ويمنح الإيديولوجيا الصارخة كمال حضورها وحق القول الفصل في المستجدات .

وما ينبغي النظر فيه على المستوى الأمني بالنسبة لسوريا أو حتى العراق، هو غض الطرف عن أي اجتياح من قبل قوات أو عناصر أمن تركية إلى عمق أراضي أي منهما، دون إبداء أي احتجاج، أو الاعتراض عليها، وهو تأكيد لافت على أن أيّاً من هاتين الدولتين في واقع الأمر تعترف بينها وبين نفسها، وبالنسبة للمراقبة أن المسألة لا تعنيها، ليس لأن الذين «تطاردتهم/تلاحقهم تركيا ليسوا من بين «رعاياها» إنما لا تعترف بهم من جهة، والأخطر من ذلك، أو ضمناً، تقرّ عن أن الأرض التي يتم اجتياحها والتوغل فيها عميقاً، ليس من قيمة معينة لها في الاعتبار السياسي، ولو كان هناك الحد الأدنى من قيمة الوطن، أو «شرف الوطن»، لاختلف الأمر، على صعيد التصديّ وكسب ود «الآخر» على الأقل من جهة أخرى.

غورغاس يرينا، كما تقدّم، وفي متابعة أشبه بالأركيولوجية: الآثارية، مدى ارتباط حاجو بالجهاز المخبراتي الفرنسي، إنما كيف، وفي أي اتجاه؟ (إن التقارير والبرقيات عن أعمال زعيم الهفركان في المنطقة الحدودية تؤكد استخدامه من قبل جهاز المخابرات كأداة للضغط على تركيا على أرضية الخلاف الحدودي بين تركيا وسوريا. وقد أثارت السلطات التركية مراراً، العلاقات القائمة بين جهاز المخابرات وحاجو، وكان واضحاً لها أن «حاجو لا يطير بجناحيه الخاصين». كما أن تركيا قد اشتكت، أكثر من مرة، من دعم تريي بالسلاح والرجال للزعيم الكردي. ص 85).

حاجو آغا بين نارين حارقتين محرقتين، وأي سلطة لا تحرق ما حولها؟ أي سلطة جرّاء التعامل معها، لا تعرّف بنفسها نارية المحتوى وقادرة على الإحراق؟ سوى أن النار هنا ذات طبيعة إيلامية، تسيء إلى سمعة المرء، لأنه لا يرجو منها خيراً يعود بالنفع على سواه: أهله، معارفه، مجتمعه، إنما هي دائرة المصلحة الخاصة، وتحديدًا حين تتمثل السلطة في جهاز الاستخبارات، وتتنظر إلى التعامل معها، على أنه زبون سهل طيّه، أو اختزاله دون أخذ الإذن منه، وحاجو في وضعه ذلك محكوم بصاعق سلطتين، وخطرهما، إنما هل يظهر حاجو هذا من حيث نوعية العلاقة هكذا؟

ربما كان من طبيعة السياق أن يكتب غورغاس هكذا، أن يسمّي الشيء كما هو في الواقع، ولكن التلقّي تجاه الذي يمكن النظر فيه هل هو هكذا بظاهره؟ حاجو في يد فرنسا لتهدد تركيا به، أي تكليفه للقيام بأعمال تقلق فرنسا، أي تخل بأمنها الحدودي وأكثر من ذلك في الداخل. أهى خدمة أحادية الجانب؟ أليس فرنسا نفسها مطلوب منها أن تتجاوب مع مطالب له على أرض الواقع، وحتى توفير حماية معينة له؟ أليس إبعاده إلى الداخل: دمشق، أو الحسكة، استجابة لطلب تركيا، وتجنباً للصدام معها، وإنما إدراكاً من فرنسا أن حاجو قادر على خلق «مشاكل» للدولتين.

ليس أيّ كان بقادر على أن يكون مقلقاً لتركيا ورجل مهام صعبة وبالمقابل لدى تركيا، بعيداً عن التوصيفات الأخلاقية، أي إن حاجو لم يقدم خدماته لأي من الدولتين، كأن يقتل شخصاً سيم عدواً لأي منهما بمقابل مادي أو معنوي، كما هو سلوك أفراد عصابات مختصة في قتل على هذه الشاكلة، بالعكس، لطالما لاحق حاجو آغا أشخاصاً، أو دخل في صراعات مع عشائر أو أطراف كانت تتعاون مع الدولة التركية أو الفرنسية بالذات، وهذا يسقط صفة الشبهة الملحقة به.

لا بد أن تركيا وهي تشكوه إلى فرنسا رسمياً، تقدّر في حاجو قوته، وقدرته على الإخلال بأمنها الحدودي وأكثر من ذلك، وهذا يضيف عاملاً آخر إلى مجموعة العوامل التي تؤمّم حاجو من هذه الوضعية «الشائنة» .

يتجلى ذلك في مكمل غورغاس أكثر مما تقدم (وقد هدّدت الحكومة التركية، في مواجهة تواطؤ الضباط الفرنسيين، باتخاذ تدابير وقائية وبملاحقة حاجو في الأراضي السورية إن دعت الحاجة. ومرة أخرى ظهر تريي بوصفه المدافع الرئيسي عن حاجو وذكر المفوضية العليا بأن تركيا تلعب أيضاً بـ «الورقة الكردية» لخلق مصاعب لفرنسا في المنطقة المتنازع عليها في الجزيرة العليا، أي على طول الحدود المشتركة. ص 85) .

كل طرف يمارس لعبته بالورقة الكردية، ولكن هل الورقة الكردية قابلة للاشتغال والإتلاف كورقة، أم أنها في حقيقتها لاسعة ولاذعة وآلة في الوقت نفسه؟

ورقة لا تحترق :

على صعيد التعامل مع هذه الورقة، يمكن التذكير بالذين أوحوا لأنفسهم، أو تصوروا أنهم يقولون صحيحاً، وهم يحيلون الموضوع الكردي إلى شبيه «الورقة» وكيف أنها لم تُستهلك، كيف أن هناك قضية وإن آلت شعبها لكنها تستنزف اللاعب الذي تستهويه اللعبة بالورقة تلك، ولا يفكر في حجم الخسائر والتكاليف التي يدفعها جرّاء ذلك .

أي حين يتم تبادل الاتهامات، في الحالة هذه، من يلعب بالورقة أكثر، وهل تصبح الورقة ورقة لعب هنا؟

حاجو آغا يتعدّى نطاق عملية التشبيه هذه، في دراسة التاريخ، وما تتصوره السلطات في تعاملها مع خصومها في الطرف الآخر، ودون حساب الكلف، دون تقدير البعد الإنساني، أو الاجتماعي والسياسي الذي يخفف من وطأة التوترات .

ربما كان غورغاس وهو يمارس تأريخاً وتحليلاً وتنظيراً، يقلب اللعبة على أجليها، ويبقي التوتر قائماً، إنما - أيضاً - خط المشاحنات أكثر حساسية من ذي قبل (ولأن الحكومتين متورطتان في السياسة القبلية الكردية فهما تتفقان على أن الضغط الشديد على الآخر قد يولد ردة فعل دبلوماسية من المستوى نفسه. ص 86) .

وليس في الإمكان البرهان على أن سياسة التعامل بين الدولتين، كانت في موقع توازني، لأن اللعبة هذه ليست مشروطة، إنما تدار في كل طرف أو جهة، وفق قواعد خاصة به، وليس كما يشتهي الآخر، إلى جانب أن أي تحريك للعبة إنما يقوم على قاعدة توترات، حسابات مخاطر، توجسات من الآخر، فلا تكون اللعبة هذه للمتعة، وإنما اضطرارية، وهي بالتالي، تؤثر على النشاط العصبي لكل طرف: مدى أداء اللاعب، ومدى توتر الآخر وهو في وضعية المراقب والمعني، ومن ثم لا يكون من مصلحة أي طرف الاستمرار في اللعبة لزمن يطول، لأن نتائجها كارثية لهما معاً، ولعل القضية الكردية التي تسمى مشكلة، أو مسألة أو أخف من ذلك «الموضوع الكردية» مذ عرفت في البورصة السياسية الدولية والإقليمية والمحلية، وشهر فيها، والذين ينتمون إليها، ومن يتحدثون باسمها، كانت بمقدار ما أنها تتعب أهلها، تترك آثاراً جانبياً، أو في صميم المحركين لها، أو متجاهليها، وفي بعض الأحيان يكون الثمن المدفوع من قبلها أكثر وأرهب بالمقابل .

لنتحدث إذًا، وبعد كل هذا التجاذب الماراتوني عن صيغة أخرى للتعامل، وليس من منظور التابع والمتبوع حصراً، وهو ما تنبّه إليه غورغاس، كما لو أن يحرر نفسه بنفسه من سلبيات ما أثّر سابقاً عن سلبية حاجو آغا (إن تحالفاً استراتيجياً يفترض أن القائمين به يتأملون الحصول على منافع قريبة ومتوسطة البعد، وبعيدة. وعلى هذا الأساس، حصلت فرنسا، وحاجو آغا، أيضاً، على منافع هامة. وهذا يفسر طول زمن التعاون بين الفريقين، رغم ضغط الحكومة التركية، الشديد أحياناً، على المفوضية العليا، وعلى الزعيم الكردي. ولم تتخل حكومة أنقرة، في الحقيقة، عن محاولة التحالف مع حاجو ما يؤكد الدور الكبير الذي لعبه زعيم الهفركان في الجزيرة العليا حتى وفاته عام 1940 . ص 86).

كيف يمكن تقييم هذه الفسحة الجغرافية، التاريخية، السياسية والتحليلية للباحث اليوناني حتى الآن؟ في مجمل ما تم التطرق إليه، لم يكن حاجو آغا «محظوظاً» لأن ينال عبارة تقدير ما من خلاله، وتأكيد أهمية دوره السياسي والاجتماعي، حيث إنه في بعض الحالات يعرّي ورقة حاجو، ويصفّرها، إن جاز التعبير، جهة ربطه بهذا الطرف أو ذاك، بتربي مثلاً، وأنه في أفضل الحالات لا يصلح، كما يُستنتج لأن يكون محل تقدير كشخصية لها اعتبارها الذاتي، وهي مفتونة بمصالح ذاتية مفرطة أحياناً، تنسيه أنه زعيم تحالف قبلي له حضوره

الجغرافيا والديموغرافيا، والتحرك في ركاب الضابط الفرنسي «تريي»، كما كان يتحرك في ركاب الضابط التركي «اسماعيل حقي»، وما يترتب على مجمل المتردد من استشارة قارئه الكردي بالذات، والتقليل من مكانته، سوى أن الذي أفصح عنه، بدا، كما لو أن جل الذي أفاض به قلمه، إنما ليظهر وطأة الأقاويل، ما تكون عليه شخصية تاريخية في العاصفة، أي ما يكون عليه هذا القرين الفردي مقابل قرين سلطوي يتمثل في دولة: حاجو الذي يمثل نفسه، وامتداده في الشارع القبلي والاجتماعي، وتريي الذي يمثل سلطة مخبراتية، ومن ثم امتدادها في الشارع الدولي السياسي والأمني العالي المستوى، وفي ذلك إبراز لافت للاسم الأول.

لاحقاً، أليس الذي يختتم به غورغاس بحثه الفرعي حول هذا الاسم ومقابله تريي، مدعاة للتأمل وبعمق؟ أي ما يظهر حيوية هذا الأمي وقد بات متعلماً، والقبلي وقد بات رجل مدينة، والداخل في حوار مع الآخر، وإن كان هذا الآخر في موقع القوة القائمة، ليجد نفسه موقراً لهذا البري- المديني معاً (إن التهديد بالمصالحة مع تركيا هو أمر لا يمكن التغاضي عنه وعلى الأخص في سنوات 1920 عندما كانت فرنسا تجهد لاحتلال «منقار البط». وقد حصل حاجو، إضافة إلى الحصول على أراض لإسكان أعضاء قبيلته، على مبالغ من السلطات المنتدبة، أولاً، ومن السلطات السورية فيما بعد شأنه شأن زعماء البدو الآخرين. إلى ذلك، فإن تعاون حاجو مع الدولة المنتدبة قد سمح بتعزيز نفوذه في داخل قبيلته، وكذلك في «منقار البط». وقد تمكن حاجو بفعل حماية تريي، من التسلح والاستقواء على القبائل المنافسة الكردية والعربية. وحسب نيليدا فوكار فإن القبيلة ظلت أساس قوته السياسية والاقتصادية، وموقع نفوذه الاجتماعي. ولم تؤد نشاطات حاجو في لجنة خوييون ومختلف المنظمات الكردية إلا إلى تعزيز سمعته بين قبائل الكرد في الجزيرة. ص 87).

الأقوى هو الذي يعرف به، أو يفرض قانون قوته! ذلك ما يمكن التأكيد عليه، ونحن بصدد هذا المقتطف الأخير. ولعل حاجو فيما انتهى إليه أمره، وهو بذويو صيته أبعد من النطاق التركي- السوري، أبعد من حدود اتحاده القبلي، ليكون له أمر أو شأن آخر، ليس أكثر من حصاد إقامة في ساحة تاريخ واسعة، حيث يكون مكشوفاً، وهو بذلك يذكرنا مجدداً، بما قال فيه الراحل نورالدين زازا، أي كيف أن حاجو كان في وضعية الفاصل بين دولتين، بطريقة ما، وفي وضعية الشريك في علاقة دولة مع الآخر، وفي مقام الفارض سلطته الخاصة، ليكون المكتسب بما

خطط له، أو خاض غماره، وهو في مسعاه هذا، كأبي زعيم، أكثر من زعيم قبيلة، أعطى لاسمه إلى جانب اسم قبيلته مداً وربما تأمين مستقبل يتجهز في الزمان والمكان، ليس كما أقوم به الآن وحدي في بحثي الطويل هذا، وإنما سواي بالمقابل، وخصوصاً، جهة التعامل مع ضابط مخابراتي كان له سطوته في الجهاز المخبراتي الفرنسي وفي أكثر من مستعمرة فرنسية، أي ولديه رصيد من صور التعامل مع أشخاص مختلفين في مشاربهم وميولهم ومقدار تفاعلهم مع التحديات، وهو في معرض المقارنة بينه وبين هؤلاء الذين مروا عليه في اختلاف ألوأنهم وأشكالهم، فيحفظ في ذاكرته بعلامة شخصية فارقة بالتأكيد .

حسبي هنا أيضاً، أن أتوقف قليلاً عند تريي، وما يصل به في مؤلف آخر، مر ذكره سالفاً، وهو للباحث السوري محمد جمال باروت، والذي ينطلق من رؤية «مؤامراتية» للأسف لأي حدث يراه متعارضاً مع خطاطة القومي في ذهنه .

وحسبي أن أشير هنا إلى ما هو متداول في منظومته الثقافية المؤدلجة، عندما يحيل الماضي «في الفترة تلك» إلى ما هو معيش راهناً، ويتوقف عند فقره لا تخفي خبث المطالع ولؤم المقصد فكرياً «حدود العلاقة بين المستوطنات اليهودية في فلسطين والمستوطنة اليهودية الكردية النشطة في القامشلي»، وأعني بالخبث ما يكون مستهلاً العنوان وليس البدء بتأليه مدججاً بما هو استتفاري، أي صفة «اليهودية»: «الكردية»، وما في التسمية من تذاك، جهة التركيز على الكردي قبل سواه، أو في «أضعف الإيمان» في التداخل والتوحد بين اليهودي والكردي أو بالعكس، وفي أيامنا هذه، وما هو عليه وضع المنطقة، ووضع إسرائيل «أم تراه يريدني وضع الاسم بين مزدوجتين من باب التحفظ»، وليس هناك في نطاقه العربي من لا يعترف بإسرائيل ومكانتها في المنطقة وحتى في العالم؟ وفي الجانب الآخر، حين يتردد قول كهذا كلما أتى على ذكر الكرد وما هم عليه في ديارهم أو موطنهم الجغرافي «إسرائيل ثانية»، وزيف المطابقة كذلك .

ليكتب بعد ذلك، في كتابه السالف ذكره عن الجزيرة السورية، وفق النسق الثقافي الإيديولوجي السائد عروبياً (شكل اليهود الأكراد النصيبين إحدى أبرز القوى الديموغرافية الحيوية المهاجرة من نصيبين إلى الجزيرة، وأسسوا في الواقع مستوطنة يهودية كردية نشطة تعمل في مجالات التجارة والإقراض والوساطة الزراعية والتجارية، وهاجروا من نصيبين إلى القامشلي في إطار عملية انتقال

نصيبين إليها، عشية المذابح العثمانية «الاتحادية» في عام 1915 ضد الأرمن، حيث كان عدد اليهود يراوح بين 600 و650 من إجمالي عدد سكانها البالغ 2000 نسمة. وفي عام 1927 هاجروا في ضوء اتصالات الملازم تيريه «تري هناك»، ضابط الاستخبارات الفرنسية، مع حاخاماتهم وأعيانهم في ليلة واحدة وبشكل جماعي إلى القامشلي، وبلغ عددهم 130 عائلة، أو ما يعادل 650 نسمة، وأسسوا أول مستوطنة في شكل حي طائفي ديني على ضفاف نهر الجفجف. وفي حدود عام 1936 أحصت دوائر الاستخبارات الفرنسية 900 يهودي في القامشلي. (ص 316).

لا يكتب باروت من الذاكرة، ولا من الكتب في تعددية مصادرها، وإنما من الأرشفة الثقا في المختزل والأكثر تجاوباً مع نظرته والتي هي الأخرى تعني من يرى نفسه متحركاً في ظل سواه إيديولوجياً.

ففي تلك الآونة، كانت التنقلات لا تخضع لضغوط حدودية، وربما كان اليهود أكثر قدماً في المنطقة من عربه الذين قدموا في أغلبهم من شبه الجزيرة العربية، وفي الجانب الآخر، وهذا ما يغفل عنه باروت كلياً، أو نسي محتواه، وهو أن هؤلاء اليهود في مهنتهم أو الحرف التي عملوا فيها أسهموا في تطوير المدينة، بل كانوا رواداً في هذا المجال، وفي الوقت نفسه، وهذا ما لا يعلم به باروت، وهو أن نسبة كبيرة من زبائن هؤلاء اليهود، وفي محلاتهم التي اشتهرت بالعطارة خاصة، وفي شارع مجاور لكنيسهم القائم حتى الآن، كانت من العرب، وليس من سواهم.

أكثر مما تقدم، وهذا ما لا يستطيع أو لا يجرؤ باروت على تقديم تفسير له، وهو أن وجود دائرة أو «لجنة إدارة أملاك اليهود في القامشلي» ومكان تواجدها في القامشلي هذه، تقول شيئاً آخر، وعليه، حين يقرأ هذا الكلام ذات يوم أو يسمع به، أن المنطقة الأحدث وهي تجارية، تلك التي شيدت، بمحلاتها الكثيرة والمجاورة لبلدية قامشلو/ قامشلي، والمطللة على الشارع العام، كان متعهدها يهودي: تعرفت إليه، وقبل عشرين سنة، كنت أتردد إلى بيته الأنيق في حي القصور الملاصق للمشفى القديم، حيث كنت أعطي دروساً في مادة الفلسفة: البكالوريا لابنه موسى.

ولو أن باروت كان على دراية ما بالموضوع، لتجاهل هذا البحث كلياً، أو تناوله من زاوية مختلفة تماماً، حيث إن حي اليهود مازال على حاله، والشارع اليهودي على حاله، وليس في وسع أي قوة أن تمس أملاك اليهود، وهو ما ينبغي عليه مجدداً السؤال عن السبب، ومن كان وراء «تهريب» اليهود إلى فلسطين؟ من المؤكد

أنهم لم يكونوا كرداً. من إذأ؟ هو بدوره سؤال آخر، يتطلب انفتاحاً، والنظر في المتفذين في البلد وفي القامشلي ضمن البلد أيضاً .

أما المتعلق بتيري فإن ظن القاريء بتلميحة من باروت يمضي به إلى تواطؤه مع اليهود، وهو ليس تخريجاً آخر، أو حتى تقليدياً لفكرة اتهام الآخر أو اعتباره جاسوساً «صهيونياً مثلاً»، إنما التشهير فيه، وهو ما يبرع فيه الباحث بجلاء.

بالطريقة هذه يصبح التاريخ منبياً على ثنائية صارخة: أبيض- أسود، صالح- طالح، مؤمن- كافر... الخ، ولن يعود في وسع أي كان النظر في واقعة منه في تعددية وجوهاها، أو تنوع رواياتها، ومن ثم ليصار إلى الإغلاق عليه، كما في حال تريي الذي تعرضنا له، باعتباره طابق بين الكرد واليهود، أو بالعكس، وما يجب القيام به للرد عليهم .

في فقرة تالية، عن تاريخ بناء القامشلي، يجمع بين ثلاث عائلات: آل نظام الدين وقدر بك ومحمد عبدالرحمن، وهو يتحدث عما كانت عليه قديماً (كانت حتى أواخر العهد العثماني عبارة عن «بادية» يخترقها نهر الجفجغ «هرماس قديماً»، وتكثر فيها المستنقعات الأسنة الممتلئة ببعض الملاريا... بموجب اتفاقية أنقرة الثانية التكميلية «آب/ أغسطس 1926»، بين فرنسا وتركيا .. اعترفت فيها تركيا لفرنسا بالسيادة على الجزيرة.. ص 353)، ولاحقاً (.. وشرعوا منذ بداية تشرين الأول/ أكتوبر 1926 في تنظيم المدينة وفق مخطط الكابتن تيرييه...)، لاحقاً، يمارس خلطاً في الأوراق وتهرباً من الحقيقة (كان آل نظام الدين القيمون على وقف مسجد زين العابدين في نصيبين، يحوزون أراضي واسعة على ضفاف نهر الجفجغ في جنوب نصيبين..)، أي دون اثنيته، وهو كردي، (بينما كان قدور بك ينتمي إلى أعيان عشيرة المحلمية، وتتمذج هذه العشيرة التكوينات الاجتماعية العشائرية المركبة الهوية التي نتجت من تمازج الهويات في الجزيرة العليا... ص 354)، سوى أن ذلك لم يكن يعني يوماً، أن جرى تميع لهذه الهويات إلى يومنا رغم مختلف محاولات الحكومات السورية المتعاقبة ومن موقف عروبي تعريبها، وخصوصاً بالنسبة للكرد، ولو أن الوضع تم، لما جرى تأليف كتاب ضخ من هذا النوع أساساً، عدا عن قائمة التشكيكات التي يبيثها بصدد النسب الاثني الفعلي للقاطنين فيها .

تصوروا، ماذا يعني الحديث عن تيرييه/تريي الضابط الفرنسي «المتهود»، أو المأخوذ باليهودية السياسية، وهو واضح مخطط قامشلو/قامشلي، وماذا يعني أن تكون المدينة المخططة معنونة باسم ضابط فرنسي استعماري؟

ما يقوله التاريخ غير ما تقوله السياسة المضغوطة، حيث بدعة الهندسة المدنية تفصح عن مدى تفهم المكان وكيفية تقسيمه طبوغرافياً، ومن ثم كيفية تحويل مكان بري إلى مدني عرّف بالمدينة «كاليفورنيا الشرق» كثيراً حينها، طبعاً تعزيزاً لفكرة يوتوبية تحتضن خلائط من البشر، وتكون الجزيرة بذلك جنّة الأحلام لأناس منكوبين مهاجرين، يؤهلون للسكن فيها، وتلك سياسة أخرى، لم تغب حساسية الاسم الاثني رغم ضغوط شتى .

ومن الأخطاء اللافتة، حين يسرّب باروت الباحث خبثه إلى الداخل بصدد الحديث عن قدور بك ذي النفوذ القديم، والذي أطلق اسمه على حي «قدور بك» ذي التنوع السكاني في الشمال الشرقي من قامشلو، فهو (شأنه في ذلك شأن كثيرين من الأعيان الذين يجري في عروقهم «الدم الكردي» ، والذين بات ولاؤهم محاطاً بشكوك الكماليين، طاله في إثر إخماد ثورة النورسي الإبعاد من ماردين إلى القسطنطينية. واستناداً إلى الاتصالات السرية السابقة التي جرت بينه وبين الملازم تيرييه بأن يتولى قائممقامية القامشلي، عاد قدور بك إلى الجزيرة عشية وضع المخطط التنظيمي لمدينة القامشلي، وتبرّع بجزء من أراضيه لبناء المنشآت العامة التي لحظها المخطط ...ص 356) .

أي حين يظهر شخصية قدور على أنها متعاونة مع الضابط الفرنسي المذكور، وهنا لا يعود محلياً، إنما كردياً، وما يكون كردياً يسهل الإيقاع به من قبل الضابط الفرنسي المتعاون مع اليهود، والخطأ الأكثر فحشاً، جهة الإشارة إلى إخماد ثورة «النورسي» والصحيح: ثورة الشيخ سعيد، والنورسي «المتوفي سنة 1960»، الرجل الديني الورع مختلف تماماً، وكان مقاوماً لثورة الشيخ سعيد التي توقفنا عندها، رافضاً إياها لاعتبارات دينية، وأن استقدام قدور بك إلى قامشلو كما هو منوّه يدخل في إطار مؤامرة: مستوطنة كردية نظيرة مستوطنة يهودية، وليكون دور تيرييه مشبوهاً تماماً .

المرأة الوهمية للآخر :

وإذا ربطنا بين حاجو آغا وما اختتمنا به هذا البحث الفرعي، لظهر في الاعتبار الباروتي أكثر من «شقي» أكثر من «مرتكب جنایات»، سوى أنها جنایات من يعتبر كل من يتصرف خلافه، ويرفض أي تبعية له، وتلك مفارقة المفارقات .

في مذكراته يقول جميل حاجو ما يلي (بعد استقرارانا في قرية دوكر أصبحت دارنا ملتقى الزعماء الأكراد من رؤوساء العشائر والساسة الفارين من الظلم التركي ومنهم من سكن القرية المذكورة مع عائلاتهم، أمين آغا حزني آغا وآخرون ظلوا في ضيافة والدي..ص 65...ومن ثم: ومن جملة الذين استضيفوا في دارنا كان النقيب توفيق جميل أحد الضباط المرافقين للجنرال إحسان نوري والذي قام بحركة قومية ضد الأتراك مع وحدته العسكرية في منطقة بيت الشباب..ص 67...وكذلك: وإن من أبرز الشخصيات الكردية التي تم التعرف عليها من قبل والدي وأبنائه وأصبحت لعائلتنا علاقة مميزة ووثيقة بها هم الأميران جلادت وأخوه كاميران حفيدي الأمير الكبير بدرخان. إن علاقة عائلتنا بالبدرخانيين تعود إلى عهود قديمة حيث إن عشيرتنا تابعة لإمارة بوتان واشترك جدنا حسن في انتفاضة الأمير يزدین شیر ضد الدولة العثمانية بعد إبعاد الأمير بدرخان إلى استنبول - أعتقد أن يزدین شیر ليس من أبناء بدرخان بل من أقربائه، وقد يكون ابن عمه أو ابن أخيه. كان جدنا حسن قائداً بارزاً في جيش الأمير..ص 68... ومن جملة الذين لجأوا إلينا كانوا أولاد جميل آغا جتو وهما عبدي وجتو بعد مقتل أخوتهم الأربعة على يد الأتراك ..ص 71...و: طالبت إقامتنا في المنفى مع الوالد مدة سنة كاملة ثم انتقلنا بعدها إلى الحسكة حيث فرضت الإقامة الجبري على والدي من قبل الفرنسيين، إرضاء للأتراك الذين عارضوا إقامة الوالد في المناطق الحدودية لأسباب تتعلق بأمنهم وخوفاً وخوفاً من أن يخلق لهم مشكلات جديدة..ص 73....ومن أكبر خدماته لأبناء قومه هو تشجيعه لهم بالتوغل في المناطق الخالية من السكان الواقعة بين عامودا ودرباسية والحسكة وحثهم على تعمير القرى، وأخذ على عاتقه تسهيل إنشاء تلك القرى لدى السلطات الفرنسية والسورية مستغلانفوذه القوي لديها .ص 74..⁽¹⁾.

(1) في صفحة التقديم الأولى من مذكرات والده، يقول فرهاد جميل حاجو هفيكري موضحاً جانباً من خلفية المذكرات (فبالإضافة إلى ما ورد في مذكراته هناك ملاحظات مدونة في

لقد شدّدت على الفقرة الأخيرة لأهميتها بالنسبة لما أثّرَ حتى الآن، حيث إنه من حق الباحث باروت إبراز امتعاضه من حاجو آغا، تعبيراً عن نزعة استعرابية استعلائية استحواذية واستهوائية على التاريخ والجغرافيا اللذين يمهّرها بطابع عروبي، دونما نظر فيما هو دقيق على أرض الواقع، أي ما كان يجب أن يحصل، إزاء المذكور في قول جميل حاجو، لو أن حاجو آغا لم يقيم بهاتيك الأعمال، وهذا ما يقض مضجع باروت، وليس اختلاقه للوقائع، كما تقدّم، إلا التعبير الأوفى عن ذلك، ولو أن ذلك على حساب التضحية بكل ما هو معرفي محفّر على النقاش .

مفكرتين صغيرتين وصلت إلى أيدينا بعد أن كنا قد فقدنا الأمل في الحصول عليها . هذا بالإضافة إلى كراس صغير كان قد طبع عام 1956، ورصد ريعه لشراء الأدوات المدرسية للتلاميذ المحتاجين من مدارس منطقة قبور البيض «تربه سبي»... الخ، ص17)، أي ما يشدّ محتوى قول كهذا إلى الأنف الذكر في المتن، جهة الارتباط بما هو كردي، وما في ذلك من رد غير مباشر على ما يقول العكس !

في السياق نفسه، وما يوسّع دائرة اهتمامات حاجو بالمنطقة، ثمة مقطع فيديو، يتحدث فيه الشاعر الكردي هجار عن كيفية سطوع نجم حاجو آغا عندما حل في «تربه سبي»، ونوع كما وسّع علاقاته مع الجوار، بما ينم عن أهلية إرادة ذاتية في تعزيز مكانتها كشخصية تاريخية مغيرة لجل الشخصيات التي عرفتْها منطقة «الجزيرة» هذه، سابقاً، وشهدتها لاحقاً .

عصا الزان

حاجو آغا بين جمعية خوييون وثورة آكري

«نحن لا نستفيد من أخطاء الآخرين. إنما نقسو في حكمنا على جهلهم، وعلى سهولة انقيادهم للدعاية التي خدعتهم. ولكننا بالرغم من هذا، نحاكيهم في تصرفاتهم بتداولنا لتصريحات رؤسائنا أو رؤساء وزاراتنا التي تتناقضها بدورها وسائل الإعلان المنتشرة في كل مكان، من باب المجاملة.»

تزفيتان تودوروف: الأمل والذكرة «خلاصة القرن العشرين، ص 424.

أن تقسو وأنت معرض لقسوات :

التعامل مع التاريخ ليس كالتعامل مع الجغرافيا، رغم أن هناك الشخص نفسه، لكنها الحالة المختلفة هنا .

يحدث أن تكون جغرافياً، فتعيش مناخات شتى، وأنت ضمن مشاهد حية، بحيث يكون في مقدورك اختزان جملة معلومات ذات صلة بالطبيعة، بالطقس، وحين استرجاعها، يحدث أن ترتعش نفسياً، أو تتلبسك موجة حرارة ساخنة، أو تشعر بنوع من الارتخاء جرّاء ما شاهدت ذات يوم، سوى أن التاريخ وإن كان يتداخل مع ما هو جغرافي، فهو بدوره تعتمل فيه أجواء مختلفة من الحرارة والرطوبة والسخونة والجفاف وهبوب العواصف الرملية والأعاصير والكوارث، إلا أن التعبير عن ذلك يحتاج تجريداً واستقلالية معينة عن كل ذلك ليكون هناك إلمام بالحدث، فلا يأتي السرد مضطرباً أو الرواية متوترة من وضعية إلى أخرى، أو من شخصية إلى أخرى، فيلعب التحكم بالشخصية دوراً استثنائياً في ضبط المعنى.

مختصر الكلام هو هذا التفاعل مع أحداث واقعة، تاريخية بامتياز، ولكنها متنوعة في مواقعها، وجهاتها الجغرافية، أو أزمنتها، وحالات شخوصها بالمقابل، إلى درجة الاختلاف بالمقابل، وأن أي مقارنة لكل ذلك يتطلب قدراً كافياً ومن ثم حازماً من القوى النفسية وأدوات التعبير التي تعني الآخر ممّن يكون موضوع الكتابة، وعدم التعالي عليه، باعتباره ممتلكاً يمكن التصرف به، دون السؤال عن مسار القول، أو مختتم الكلام، وتحديد في واقعة ملتبسة، لما نزل تصلك بأكثر من

معنى، وتحرك فيك مشاعر وهواجس، وحتى أسئلة يختلط فيها الحار بالبارد، دون الفصل بينهما، ووهم الشعور بأن قوة تعينك فيما أنت عليه من بحث وتقصي أخبار، ومكاشفة حقيقة، ومعاينة وجوه، ومخاطرة ضبط كل ذلك.

أقولها، وأنا في شبه يقين على الأقل، من أن التحرك بين الجغرافيا والتاريخي، من قبل المعنى بهما، من الصعب أن يفلح في إيجاز تسوية إشكالية العلاقة بينهما: كيف يرد ما للجغرافيا للجغرافيا، وما للتاريخ للتاريخ، وكيف يحيل ما للجغرافيا عند اللزوم إلى ما هو تاريخي، لأنه من اختصاصه، وبالعكس، كيف يستبقي ما هو تاريخي لصالح الجغرافيا، كونه يُسمى من خلاله، وكيف يمزجها معاً، كما لو أن أياً منهما يتعزز بالآخر، ولا يتنافس إلا داخله أو بحضوره ؟

ربما كان الذي انطلقت منه الآن، أو حتى الآن غير مفهوم، جهة المراد منه، ولعله كذلك، بما أنه عمومي في محتواه، سوى أن المعزّز يتراءى في ضبط الكلام، وتشكيله في الزمان والمكان، ومن قبل الأشخاص المهتمين بهما .

في الحديث عن «خوبيون» عن جمعية/تنظيم «خوبيون»، يتداخل كل من التاريخ والجغرافيا، إذ إن الاحتفال بولادة خوبيون في رقعة جغرافية خارج كردستان، وبمسافة بعيدة نسبياً، له اعتبار جغرافي، سوى أن ذلك لا يعني أن التاريخ الذي يذكّر بما هو جغرافي، وعلى مبعده من «بحمدون» نقطة ولادة خوبيون»، لم يكن حاضراً بطاقمه الجغرافي، أن الحديث بما هو تاريخي لم يكن موجهاً إلى رقعة جغرافية معينة، بغض النظر عن حضورها وحضورها بالمقابل، ولكل منهم صورة عن جغرافيا خاصة به، ولعلها صورة ملتقطة بكاميرا سياسية، وربما إيديولوجية ضيقة الفتحة، أو نقيضها، إن تذكرنا الكرد والأرمن وطبيعة الشراكة بينهما: أهى تاريخية، وكيف؟ أهى جغرافية، وأين هي حدودها؟ حيث لا شيء يتم دون مقابل، وفي تلك الرقعة التي لا تخفي مدى نفوذ الحزب الأكثر تميزاً بأرمنيته «الطاشناق: الاتحاد»، ولا يعرف ما إذا كان الكرد الذين شهدوا لحظة الولادة هذه على وعي من كل ذلك، أم كان لهم حساباتهم كذلك؟

وتبعاً لأي مساومة مضمرة أو معلنة، أو بينهما، كان هذا الوليد الذي اختلف حتى حول اسمه، فالترجمة الكردية، تعني في الحال «الاستقلال»، كما هو شائع، وثمة ترجمة «كما سنرى» تصل الاسم بالأرمنية، ف «خوبيون» قليلة الاستعمال.

بين الوعيين: الجغرافيه والتاريخي، وتلك الخطوط التي تصلهما ببعضهما بعضاً، يمكن أن نتابع مسار موضوعنا هذا، مع التركيز على نقطة رئيسية، وهي أن المقصود، هو حاجو آغا بالذات، ولو أننا نتحدث عن «خوييون» كما افتتحنا بها بعد تمهيد، قدرناه ضرورياً، ففي كل محاولة إضاءة، أو اقتباس، ثمة ما يحيل عليه، كما لو أننا في مسعانا نواجه خطة عمل متعدد الأجزاء «كولاجية: لصقية»، أي ما يصل ما بين مجموعة النقاط التي تتخلل مجموعة المقتطفات، والمركّب الدلالي فيها .

ثمة الكثير من الرؤى التي تقارب «خوييون» اسماً وحملة اسم، وصفة كل اسم، نظراً لأهميتها أو مكانتها في التاريخ الكردي، وربما شهدت «خوييون» واقعة حربية «أغري» وكأنها مخاضها السياسي التطبيقي على الأرض، وتلك ميزة أخرى تجلوها، أو تدعم أي تركيز بحثي أو فكري عليها، أو تعاود النظر فيها، مع كل جديد يكتشف عنها .

التنوع فضيلة معرفية، وإنجاز معرفي تاريخي، عندما نجد أنفسنا وسط هذا المختلف عليه : خوييونياً، إن جاز التركيب.

ماذا يقول الباحث وديع جويده حول هذا الموضوع، فيه ؟

ثمة مقارنة تاريخية ونقدية، - «خوييون» تأسيساً وتمثيلاً وانتشار مهام، أو أدائها، وفي أمكنة مختلفة تعدّت حدود كردستان بالذات، ولهذا الانتشار ما يبرّره، وما يفسّره كذلك، جهة نوعية الذين كان وراء تأسيسه ودعمه بالذات

لجويده فضيلة حسابية النسب، على مستوى الدقة في كمية المعلومات، وربطها بما هو جغرافي وتاريخي، وهو مدرك صلة القرابة بين الاثنين، بمقدار ما يظهر نوعية المعرفة اللازمة لموضوعه، وهو ينتمي إلى جنوب العراق من ناحية، واستقر في الولايات المتحدة الأميركية في خمسينيات القرن العشرين، من ناحية ثانية .

يستهل حديثه بعنوان يربط فيه بين المنظمة والذين أسسوها «منظمة خوييون والنشاطات الكردية الأخرى للاجئين السياسيين في سوريا»، أي ما يعزّز الثقافة المرتبطة بمرحلة تاريخية، حيث إن هؤلاء المنتقلين إلى «سرختي» بالذات، هم من كانوا مساهمين في ولادة خوييون، أو كما لو أن خوييون لم تكن إلا التعبير الحريف عن رد فعل لما تعرضوا له من إيلاام وعنف تركيين، ليعدّوا عدتهم بغية الرد، أو الانتقام لضحاياهم ووطنهم، مع آخرين من اثنية أخرى: الأرمن:

(تم السماح للاجئين السياسيين الكرد في سوريا، في ظل الرعاية الفرنسية،

لينخرطوا في نشاط قومي مكثف وإنشاء مراكز سياسية وثقافية بارزة في دمشق وبيروت...وقد ساعدت التطورات في تركيا بعد الحرب العالمية الأولى هذه القيادة السياسية اللاجئة على إنجاز أهدافها...كان النشاط الأكثر أهمية للاجئين السياسيين الكرد في سوريا هو تشكيل منظمة الاستقلال الكردية، خوييون ، عام 1927، وهدفها الرئيس ترويج القضية القومية الكردية وإدارة النشاطات الكردية ضد الترك...لقد أرسى تأسيس خوييون الأساس لتعاون وثيق بين الكرد والفرنسيين في سوريا... وأثبتت هذه العلاقة أنها مفيدة لكل من الكرد والفرنسيين لم تفسدها أي خلافات جدية... وخلال الحرب العالمية الثانية.. طلبت السلطات الفرنسية من خوييون أن تمتنع عن الانخراط في نشاطات ضد الترك وقد وافقت الأخيرة على ذلك ص 353).

جويده يضع التاريخي في إطار السياسي، أو يشير إلى أن ما ما جرى لم يكن إلا جرأ سياسة تصفوية، أو استئصالية من قبل الكماليين ضد الكرد هنا، وإن لم يستخدم تعابير من هذا النوع، إنما يلطفها، تأكيداً على أنه يتجنب الاعتماد على نوعية صيغ كهذه، ليكون أكثر حرية، ومرونة، وقدرة على إيصال صوته إلى قارئه، بغض النظر عمّن يكون، خصوصاً وأنه أنجز أطروحة الدكتوراة هذه «أي المتعلقة بالقضية الكردية: الحركة القومية الكردية» عام 1960، وهو سبق زمني لا يخفي العمق الإنساني فيما اختاره، وهي أيضاً حالة نادرة أن يقوم باحث سرياني أو آشوري بكتابة بحث كهذا، وباللغة الانكليزية، وفي بلد هو بلاد مثل «أميركا» ويخاطب قارئه الأميركي بلغته، وما في ذلك من ثقة بالنفس، ومن تقدير لهذا المخاطب، ومن مغامرة، تترجم روحه النيرة وثقته بنفسه، وتأكيد على حيوية الكاتب وإمكان فلاحه في مهمته الكتابية والذاتية، دون أن يكون هناك من ينتظر منه، أو يكلف بذلك من قبله، أي باعتباره درساً لكل ذي قلم حر حقاً.

اللعبة المستمرة :

إن أول ما يستشف من كلامه، هو البارز في بنية المسطور، أي ما تراه فرنسا الإستعمارية مناسباً وليس مناسباً، تبعاً لمصالحها، أو تقديراتها، أي كما رأينا سالفاً، ما تعتمد أي دولة متنفذة، على شاكلتها، من سياسات ضاربة في العمق، في تعاملها مع حلفائها، أو زبائنهم، وكيف ينبغي أن تكون هذه السياسة أو تلك، بحسب اللحظة أحياناً، والكرد هنا، يمثلون النموذج التاريخي في التعامل، ليسوا كطرف، من باب الدقة، وإنما أقل منه، لأن الطرف المقابل، واقعاً، يتمثل في السلطة التركية، وإلا لكان

التحول مختلفاً، أو السياسات غير التي عهدناها في طبيعة فرنسا الدبلوماسية، فالكرد في عرفها، يظلون في أفضل الأحوال مرتبطين في زمان ومكان يسا لهم، أي دون جغرافيا معترف بها، وبناء عليه، كان هذا الجانب الحيوي في متغيرات العلاقة التاريخية التي تتلون بلغة المصالح، مهما كانت مكلفة بالنسبة للكرد.

وأن ننتقل إلى ما بعد مائة صفحة، لنشهد هذه المتابعة لدى جويده، إنما هو الآخر تقدير ثقافي للقوة السياسية في التاريخ وعلى الأرض، وهو يظهر لنا أن الكرد، وهم في عمق مأساة عنف الكماليين فيهم، يعدّون أنفسهم لمواجهة أخرى، وكان التحضير لخوييون لافتاً بثقله النوعي، حيث يشار إلى بيروت، وليس بحمدون نقطة اللقاء، ربما شعوراً أو تقديرًا من الكاتب حينذاك أن لا فرق بين الاسمين: بيروت أو بحمدون لبنانياً، أو هكذا تنأهى إليه (في تشرين الأول/أكتوبر، عام 1927، في اجتماع عقد في بيروت- لبنان، أعلن عن تشكيل منظمة خوييون بصورة رسمية. جرى انتخاب الأمير جلادت بدرخان أول رئيس للجمعية. ص501)، لاحقاً، نجد تغطية لأنشطتها (كانت منظمة خوييون وفروعها ناشطة للغاية في الدفاع عن قضية الكرد في تركيا أمام الرأي العام العالمي، وتم إرسال وفد إلى جنيف بهدف إطلاع عصبة الأمم على محنة أبناء بلدهم. ص506)⁽¹⁾.

جويده لم يتطرق إلى أسماء الأعضاء، ولا التفاصيل في برنامج الأنشطة السياسية لخوييون، وهو في تغطية متعددة لأنشطة كردية على مستوى كردستان، مكتفياً باسم «الرئيس»، وهو يواجهنا بالنهاية المأسوية لأكري بالمقابل.

لكن لازاريف له وضع آخر، حيث يتحرك في أكثر من اتجاه، معطياً الموضوع مساحة واسعة من الاهتمام والدرس، مظهرًا ما كان في مقدور الكرد حينذاك القيام به، وما لم يستطيعوا تحقيقه، وذلك في كتابه يخصص فيه صفحات تترى لهذا الموضوع في الفصل الثالث من الكتاب «نهوض القومية الكردية» خوييون «ص 171-256» حيث نقرأ التالي (كانت الانطلاقة العفوية هي السائدة في الحركة الكردية القومية قبل الفترة المدروسة، الأمر الذي كان السبب الرئيسي في هزيمتها. فالقومية الكردية كإيديولوجيا وكسياسة كانت ضعيفة التطور للغاية،

(1) جويده، وديع: الحركة القومية الكردية... المصدر المذكور، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

ومشبعة بتصورات المجتمع الإقطاعي التقليدي بما فيه من انقسام عشائري ملازم للمجتمع الكردي. ص 173... ومن خلال الاستناد في توثيق خويبون إلى ليوسين رامبو: توماس بوا في توثيق معلوماته، ثم ما ما يكون توصيفاً وتقييماً لبنية المنظمة: ومما لا ريب فيه أن خويبون شيدت على الرمال من وجهة نظر عملية. ص 175... وما يكون دعماً لها، جهة الاستفادة من حزب الطاشناق «الاتحاد» والذي كان أكثر التنظيمات الأرمنية القومية نفوذاً في الخارج يقف إلى جانب جمعية خويبون... كما كان أحد مصادر تمويل خويبون. ص 176... وما يستوقفنا عما تقوه به لازاريف وصلتها بالمرحلة: وكانت مجلة «هاوار»: الصرخة لسان حال خويبون مليئة بالشعارات القومية المتطرفة.. ص 176... دعوة الطاشناق في المؤتمر الحادي عشر والمنعقد في نيسان 1929 إلى ضرورة دعم الحركة لأجل حل المسألة الأرمنية والكردية. ص 187... و: في ربيع عام 1930، وفي معمعان ثورة آارات سمح الفرنسيون لأبناء جميل باشا وإبراهيم باشا وحاجو آغا تأسيس فرع لخويبون في القامشلي المركز الكردي الرئيسي في شمال شرق سوريا. ص 195... وكان الطاشناق يمثل مصالح القومية الكردية على الساحة الدولية، والذي كان عضواً في «الأممية الاشتراكية». ص 197... وما هو لافت: برز الكرد السوريون على ساحة النضال السياسي المستقل بعد أشقائهم في تركيا والعراق وإيران. ففي العشرينات جرى الحديث عنهم بسبب ما وقع من حوادث على الحدود التركية- السورية، عندما عبرت وحدات الثوار الكرد في تركيا الحدود من الشمال إلى الجنوب، ومن ثم تحركت في الاتجاه المعاكس بعد أن تزودت بالقوى والتعزيزات. ص 271... وبعض من ردود الأفعال: لوحظ التذمر بين الكرد السوريين منذ ربيع عام 1933 بين العشائر الحدودية واللاجئين من العراق المجاور، وبدأ هذا التذمر، كما كان مألوفاً عند الكرد، من الاقتتال فيما بينهم. ص 272... الخ⁽¹⁾.

هذا المشهد المركّب، والذي تشارَكَ فيها طرفان: كردي وأرمني، يمكن أن يعلمانا بما هو لافت للنظر، أي ما يصعب إنجازه، لأن كل طرف، كما يظهر، كان يحاول الدفع بالآخر في الطريق الذي يعنيه أمره، أي بالنسبة للطاشناق الذي كان

(1) لازاريف: المسألة الكردية 1923-1945 «النصر والإخفاق»، ترجمة د. عهدي حاجي، مؤسسة موكرياني، أربيل، ط 1، 2007، وقد وردت أرقام الصفحات في المتن للإيجاز.

وينظر أيضاً، ما ورد في السياق نفسه، وبمتابعة مختلفة، في كتاب يلدرم: كردستان والحدود في القرن العشري، المصدر المذكور، صص 280-292.

ينشغل بأرمنيته، وتلمّس في خويبون فرصة ما للانقضاض على العدو التاريخي: التركي، وحتى في الجوار الجغرافي: الاتحاد السوفيتي، والكرد وانشغالهم بما هو كردي، لا بل وجهوي بالمقابل، بالنسبة للبدرخانين الذين كانوا يركّزون على ما هو بوتاني، وإن كانت جهة «الشمال» هي المسماة، ولكنها تشير إلى عاصمة البدرخانين: بوتان، وربما لاءم حاجو آغا نفسه ذلك، فهو على مستوى التقييم السياسي يتحرك على هذا النسق التاريخي السياسي والجغرافي، كما لو أن خويبون كانت ملتقى لجملة متناقضات، وبالتالي، كانت آكري كثرة اجتماعية وسياسة تنعي نفسها كمواز عملي لما هو نظري وسياسي في المنظمة.

إن أكرم جميل باشا يقدم لنا قائمة معلومات مختلفة، من موقع الاختلاف السياسي مع رموز في خويبون هذه المرأة، وذلك عندما نقرأ تعريفاً باسمه أولاً، ربما كتمهيد يصلح للفكرة التي تعيننا هنا (نحن أولاد جميل باشا التجأنا إلى سورية في نهاية آذار 1929 أي بعد تأسيس خويبون بسنتين. واجتهدت الجمعية في السنة الأولى من تأسيسها بجدية بحيث استطاعت أن تدعم ثورة آكري ولكنها في السنة الثانية لم تقم بنشاط ذي بال)، وربما علينا، أو على القارئ السؤال عن حقيقة ما جرى، لا بد أن أكرم وهو يتقدم بمعلوماته هذه، كان يشير إلى ما يمكن قوله في النهاية، أي ما كان أوله خيراً، وهو ما حفّز في أفراد من عائلة جميل باشا لأن يخطرطوا في نشاط الجمعية/المنظمة، وما كان في نصفه الثاني خلافه على الأقل، أي مأساة، وكأنني به يلمح في الحال إلى أن الذين أرادوها لهم وليس لعموم الكرد سبب لمأساتها ومأساة الكرد في آكري بالذات، وهو يسمي جهة المسؤولية بقوله (أساء كاميران مالياً إلى خويبون، وسبب تجاوزات كثيرة، وفي صيف 1934 تم طرده وانفصل جلادت أيضاً من الجمعية. ورغم أن حاجو آغا كان من الذين دعوا إلى ذلك الاجتماع الطارئ إلا أنه أيضاً استعفى بعد جلادت بك... وبالطبع كانت المسؤولية بالدرجة الأولى على عاتق كاميران بك وبالدرجة الثانية على عاتق جلادت بك وحاجو آغا، وكان عثمان صبري وهو أصغرنا سناً قد منحناه ثقتنا فكان يحبه أطراف خويبون كافة ويهتمون بأن لا يعيش محتاجاً إلى أي شيء لكنه أيضاً قد استغل ثقتنا به طوال خمس عشرة سنة)⁽¹⁾.

(1) باشا، أكرم جميل: مذكراتي، الترجمة من التركية إلى العربية: د. قدري الدياربركي، المراجعة اللغوية والتقديم: فدان آدم، بير، ديار بكر، ط3/2007، ص 47-49.

ربما كان ذلك مدعاة للتساؤل عن حقيقة هذا الانقسام، أو الخلاف، وما إذا كان ذلك صحيحاً في واقع الأمر، وما إذا كان هناك ما لم يفصح عنه أكرم هو نفسه. أو كان أكرم وآخرون مخدوعين بحقيقة النشاط وبنيتة، أم أن الذي انبنت عليه الجمعية ذاتها، أفصح عن مكنون كل طرف، وتمنى أن يكون نشاطها مستجيباً لما كان يخفيه داخله، وإلا لما تأتي النهاية في كل محاولة تنظيم نشاط معين، أو تكوين جمعية أو تأسيس منظمة صادمة بالطريقة هذه، ومحل تبادل أكثر من اتهام، وما إذا كان حاجو مستقلاً في قراره أم لا، أي يعيش لعبة المفارقات ؟

والمؤثر إلى جانب المقلق للموضوع، هو المنبني في هذا التساؤل: لماذا نجد سعي كل طرف كردي عموماً، متمثلاً في شخص أو أكثر، إلى إعلان براءة ذمته في الموقف من «شراكة» حزبية، أو تكوين جمعية، أو تنظيم ما، لحظة ظهور بؤادر فشل معين، أو الإخفاق في المحصلة، إلى درجة التماذي أحياناً أخرى، في تقديم المبررات من أجل «البراءة» تلك، وتحميل البقية، أو أشخاص معينين وزرّ المشكلة؟ كما لو أن البدء لم يكن مسنداً بتلك الدعامة الفكرية والسياسية، كما يجب؟ أليس اعتبار الآخر «مذنّباً» بالطريقة هذه، اعتراف بقصور يسمي موجّه التهمة أحياناً ؟

أكثر من ذلك، من وجهة نظري، تحتاج هذه المشكلة «السرقعة» والتي تسمي كاميران بدرخان بك، وخاصية الأمانة، ليس إلى مجرد إطلالة من الداخل، أو إضاءة تاريخية لها، وإنما حفراً من جهات أربع، علّ ذلك يفيد في معرفة ما هو خفي، ليس لأن كاميران بك معصوم عن الوقوع في خطأ السرقة، وإنما لأن السرقة بالذات تثير لائحة كبرى من المسائل التاريخية والاجتماعية والأهم: القضية الكردية وما تحتاجه لتكون في مستوى اسمها: النزاهة في العمل، أي إن من يسرق، يكون أهلاً لأن يعمل موبقات تترى، وهذه مشكلة أكثر من كونها خلافية، وتتطلب بحثاً مستقلاً للإحاطة بها، حيث إن حاجو آغا نفسه ليس مقصياً عن نتائجها، لأنه تضامن مع جلادت الذي - يظهر أنه- تبع كاميران كرد فعل، وكأن المشكلة بقيت عالقة في الزمن، أي حيث تكون المشكلة هذه مؤثرة سلباً في الموقف من القضية، وإثارة الشبهات بالمقابل حول أهلية المعنيين بتبني موضوع كهذا. أي أكان كاميران في حاجة لأن «يسرق»؟ وهو في موقعه الأميري؟

ما مدى مصداقية المشكلة، ومن سمّاها، وماذا جرى... الخ ؟

الصواب المطارد :

لا بد أن الذي يتردد هنا، يتعلق بالنتيجة، ومنذ تسعة عقود من الزمن، سوى أن الذي يمكن قوله، هو هذا التناوب بين من ينسبون أنفسهم إلى عالم الصواب، لأنهم يتعززون في جهة جغرافية معينة، وأن الآخرين: من يناقضونهم، يقيمون في الطرف الآخر: أي من هم في خانة المعتبرين أنفسهم مدنيين، ومن يعتبرون في خانة المنتمين إلى عالم الريف، حيث لعبة البك والآغا، رغم أن التقابل هكذا في غير محله، فجالات نفسه «بك»، وحاجو آغا معه، أو في خانته، وأكرم ومن معه في خانة البكوية، وهذا يجعل النظر مركزاً على نقطة خلافية تلك التي جرت تسميتها؟ والجواب أحياناً يظل معلقاً، أي دون أن يجزم به، لأن لدينا طائفة من الأسماء، لحظة التعرف عليها، تبرز في مواقع ثقافية وسياسية فاعلة في تاريخ الحركة السياسية والثقافية الكردية، وذلك من شأنه توسيع دائرة الاهتمام والتعمق في بنية العلاقات في الاتجاهات كافة، وليس حاجو آغا طبعاً بمستثنى من هذه المقاربة التأريخية، أو السؤال عن طبيعة موقعه.

ماذا يقول قدرتي جميل باشا في ذلك، من جهته؟ ذاك هو علم سياسي وتاريخي كردي آخر، وهو ينبّه إلى واقعة جغرافية ومن ثم سياسية في العمق، وما في ذلك من خلاف في العلاقات الكردية- الكردية ومغزاها، أي تبين هذا الجرح الكردي المستمر أو المرئي كردياً، لكن الذي يستهل به بهذا الصدد بداية، يفصح عن وجود من يتريص بالكرد، واعتبار الجمعية إنجازاً قومياً، وهي صيغة إعلامية ودعائية على مستوى المضمون(إن جمعية «خويبون»، التي أسسها أبناء الشعب الكردي الشجعان، وعلاقاتها المحدودة مع منظمة طاشناق الأرمنية، تعرضت لتشويهه مدروس ومدبر لامن قبل العدو، الذي أعلن بأن «خويبون» تعمل لصالح الأرمن، محاولاً بذلك، وبمختلف طرق المكر والافتراء، خداع الرأي العام)، وهذا يظهر مدى ارتباطه بالجمعية، جرّاء الآمال العراض التي بُنيت عليها، وكيفية تعيينها بحماس إحسان نوري باشا ممثلاً لها (وقائداً لقوات آارات الوطنية..)،... لهذا (فهو لم ينظم القوات العسكرية فحسب، بل بنى أساس حكومة مدنية برئاسة ابراهيم حسكي باشا..)، ولهذا أيضاً، كان الصيت المذهل للجمعية وهي بطابعها العسكري وإرعاها للسلطة الكمالية، وسيّرت هذه قوات عسكرية مدججة بالسلاح ضد القائمين بالثورة، والقيام بإعمال إبادة للسكان الكرد حيثما بلغت

هؤلاء (في قرار حول الانتفاضة سنة 1930، ولزوم الهجوم من قبل أعضاء منظمة «خيويون» صوب الشمال على جبهة تمتد من الحدود العراقية وحتى جرابلس.. ثم نقد التقاعس ومن ذلك : أما القائدان الآخريان : حاجو آغا، وجلادت علي بدرخان، فقد صعدا مع رفاقهما جبال هفيركا، التي خصصت كاتجاه لحركتهما. وعندما اصطدم حاجو آغا بمعارضة الحسنان «ربما الهسنان»، ولم ينجز تقدماً ما، رجع أيضاً مع أنصاره إلى المركز. كان أسوأ من هذا وذلك موقف قائد المنطقة الرابعة، وهو زعيم قبيلة ميللي محمود بك ابراهيم باشا، وموقف قائد المنطقة الثانية بوزان بك: فرغم قراراتهما ووعودهما لم يتحركا من مكانهما)⁽¹⁾.

ربما يضاف هذا القول إلى سابقه، بمقدار ما يكون فاعلاً في تحفيز مشاعر متعارضة، ومن ثم في إرباك القارئ الذي يتخوف من صراعات جانبية وتداعياتها، ولكنها وقائع سجلت في التاريخ، وتبقى المحاولة الأم في كيفية تدارك أوجه الخلل فيها، والتحلي بشجاعة النقد الذاتي.

في السياق نفسه، وربما أكثر من أي مدونة تاريخية أخرى، يبقى الذي أثاره جكرخوين في سيرة حياته، استثناء، ولعل المتوقف عند بنية كل صفحة، أو ما دونها، وبلسان أي تاريخ تم تسطير سيرة الحياة هذه، يصطدم بكم هائل من المفارقات، ليس على مستوى ما يقرّر به هذا الوجيه أو الزعيم الكردي نفسه، ويقيم الآخرين من حوله بعد ذلك، وهو ما يسهل تعقبه في كتب لا تحصى، وإنما فيما جرى نشره في سياق السيرة الحياتية الواحدة بالنسبة لجكرخوين، فأن تقرأ سيرته، هو أن تعدّ نفسك لأكثر من إشكال في الكتابة والمعتقد، وليس أن تكون مع جكرخوين أو ضده، لأنه هو نفسه يبرز أكثر من جكرخوين: جكرخوين المنصف في الكتابة، وهو يعترف بجميل الآخرين عليه «في بعض من علاقاته مع آل حاجو، مثلاً» والمتجني على التاريخ في أكثر من سياق «مع آل حاجو، بالمقابل»، كما لو أن الحالة النفسية التي كان يكتب بها سيرته تلك لم تكن واحدة، إنما يعيش تقلبات مناخية في صميم الذات، ومن المؤسف، أنه على صعيد الوارد تأريخياً، تؤخذ «تسجيلاته» باعتبارها وثائق، أو شهادات عيانية حقيقية، حيث يُستشهد بها لحظة تناول حادثة تاريخية، أو شخصية تاريخية، كما لو أنه مستثنى من كل

(1) سلوبي، زنار: قري جميل باشا : في سبيل كردستان «مذكرات»: ترجمة: ز. علي، رابطة كاوا للثقافة الكردية، ط1، 1987، ص 130-135-152.

تشخيص نقدي من الداخل، أي ما وراء هذا الانقسام النفسي الذي توقفت عنده ملياً، وهانني حجم الانقسام، عندما يظهر قومياً كردياً، وشيوعياً كردياً، وليبرالياً، وغير هذا أو ذاك أو ما بينهما، مأخوذاً بنزعة نفسية تخرجه عما هو تاريخي، أي كما هي تقلبات الشاعر النفسية انتصاراً وانكساراً.

ربما كان مفتتح الحديث عن خويبون لديه، هو من خلال تناوله للذين خرجوا من «تركيا» إثر فشل ثورة الشيخ سَعيد، أي ما يمكن تسميته في عرفه الذاتي بـ «القائمة السوداء» (أمين أحمد الذي كان حليفاً للأتراك، لكنه ما إن قدم إلى سوريا حتى أصبح أحد أعضاء جمعية «خويبون»، وكذلك «حاجو آغا»، كما أن عائلة «جميل باشا» كان بعضهم حلفاء للأتراك، وما إن أصبحوا في سوريا حتى كانوا من الأكراد الوطنيين.. ص179).

وهي بطاقة يلوح بها الشاعر، من خلال متابعة معينة، وتقدير معين للأحداث والعلاقات، أي لأنه رأى أنه في مقدوره أن يرى مجريات الأحداث هكذا، وليس لأنها كانت هكذا.

بالطريقة هذه، تصبح «خويبون» من خلال هذه الرؤية محل تخوين أو شبهة إجمالاً، أي إنها لم تتشكل إلا للتغطية على عار تاريخي، أو إلقاء للكرد الذين يحيطون بأعضائها، ومن ثم ليجري التحكم في مصيرهم كما كانوا في سرختي، وهو يأتي على ذكر خويبون (كما ذكرنا سابقاً، فلقد التجأ الكثير من الزعماء والآنغوات والشيوخ الأكراد إلى الجزيرة «سوريا» إبان فشل ثورة 1925، حيث كان أكراد تركيا يعانون الأمرين خاصة الأكراد العزل الذين لا حول لهم ولا قوة. لكن بعض الواعين أمثال آل بدرخان باشا وبمساعدة الأرمن الطاشناق أسسوا جمعية «خويبون»، وقد أصبح الكثير من أولئك الآنغوات والظالمين أعضاء في هذه الجمعية.... وهكذا دانت الجمعية لحلفاء البدرخانيين. أمثال: حاجو آغا، أمين أحمد، يادو آغا، سعدالدين آغا، وكان كل منهم قد حصل على «سوط فضي كهدية... أما الطاشناق فإنهم من جهة كانوا يقدمون الدعم والمساندة للأكراد ومن جهة أخرى كانوا يطالبون بثلاثة أرباع كردستان في خريطتهم، وكانوا يقولون للأرمن: «حقاً إننا نأخذ منكم الأموال ونقدمها للأكراد، ولكننا ندفعهم إلى القتل...» وقد قال لي فهمي أفندي: إنك لا زلت صغيراً، لا تعي الأعياب ودسائس البدرخانيين، من الصعوبة جداً الاستمرار مع هؤلاء... لقد رحل هؤلاء، لكن حلفاء

البدرخانين «حاجو، أمين، يادو، سعدالدين، بقوا وقد خطوا خطوات جيدة، أصدروا عدة كتب بالتركية والعربية، أرسلوا يادو وسعدالدين إلى كردستان الواقعة تحت السيطرة التركية، وكذلك أرسلوا الشيخ عبدالرحيم وحلفاؤه الذين قتلوا، كان مدون على هدية بعض هؤلاء الآغوات «هدية خويون»... ص 207).

ربما كرد فعل نفسي غير مفصح عنه يتطرق جكرخوين في نقطة أخرى، لطالما أشير إليها في كتابات كثيرة، اعتمد عليها خصوم الكرد، أو من يريدون النيل منهم، استناداً إلى هذه التقويلات أو الروايات الموجهة، واعتبارها حقيقية، كيف لا والذين سطرّوها يشار إليهم بالبنان، حال جكرخوين في الواجهة، وهو يتحدث، مثلاً، عن الخلافات بين بيت حاجو وبيت جميل باشا، منبهاً «الكرد» إلى أخطاء قاتلة للذين يتزعمونهم، حيث يسمي كرداً واعين أدركوا «حقيقة» هؤلاء (كانوا رافضين أن يكون واحد مثل حاجو آغا الذي لا يعرف أن يكتب، في مقدمتهم ويعمل على تحقيق الأهداف الفرنسية، ولهذا كانوا يهاجمونه ويقولون: إن حاجو آغا يصادق الفرنسيين والمسيحيين من أجل راتبه... ص 290)⁽¹⁾.

طبعاً، يمكن أن يكون ذلك صحيحاً قليلاً أو كثيراً، ولكن كيف يمكن التفريق بين الخطأ والصواب في حال جكرخوين؟ وما الذي أخره ليكشف عن كل هذه «الجرائم» التاريخية؟ أبعد أن كان يعتاش على يد حاجو آغا الذي منحه قريتين ليصبح «آغا صغيراً» أي ملاكاً، وهو فرحان بذلك، ومن ثم التبس عليه الزمان والمكان، ولأسباب معتقدية، أو ربما رأى أن ما يقبضه حاجو من الفرنسيين، وما يحققه من مكاسب لم يشرك جكرخوين معه؟ كيف عنّ على باله أن يطلق العنان لخيالاته الجامحة والجانحة، وهي بطريقتها تخرج التاريخ من تاريخه، وتدفع مجمل الكرد الذين كانوا يعرفون وقتذاك، ودون استثناء أعياناً، وجهاء، آغوات، شيوخاً، بكوات، وبهم، أو من خلالهم كان الكرد يجري تمثيلهم، وحتى يومنا هذا بنسبة كبيرة جداً؟

ثمة خلل بنيوي في الذاكرة الثقافية لجكرخوين، ولا بد أنها تعاني قهراً نفسياً من داخلها، مرة أخرى، وذلك لحظة قراءة كل عبارة يكتبها، ولو أنه اعتمد موقف المخاصمة لحاجو وغير حاجو من الآغوات والبكوات والباشوات والشيوخ... الخ،

(1) جكرخوين: سيرة حياتي، الترجمة العربية المختزلة، المصدر المذكور، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

ودون انحراف، لكننت - ربما- من بين أكثر المشدّدين على أهمية نقد تاريخي من هذا النوع، ولكنه متقلب في أعماق تجلياته الكتابية، حيث إنه من الصعب، وربما من المستحيل إبراز مثال تاريخي وحيد في الخارطة السياسية الكردية، وفي أي جمعية سياسية أو ثقافية أو نهضوية كردية، دون إمكان التشهير فيها، أو على وجه الدقة: تعريتها والكشف عن «سوأتها»، لأنها تنتمي إلى عالم هؤلاء.

ولنشر إلى جواب «فهمي أفندي» عن البدرخانين، مثلاً، ربما لا يعرف قارئه من يكون فهمي هذا، وما موقعه في خانة خويبون، أو موقفه منها، ولماذا تفوه هكذا... الخ، غير أن جكرخوين يعتمد على قوله هذا تشهيراً في من يراه متجاوباً مع دافع مكبوت لديه، أو رغبته في «تأثيم» الآخر، حيث إنه، ومن خلال الرجوع إلى الآكوم، كما سنتطرق إلى موقفه من خويبون، أنه رغم تشدده في تقييم خويبون هذه، أو أعضاء فيها، حال آغا، إلا أنه من خلال نقاط فيما يذهب إليه، يضيء نقاطاً أخرى، ومن ذلك ما يشبه التعريف بفهمي أفندي أو «فهمي الليجي: 1887-1969»، فتعرف عن أنه كان عضواً في الجمعية بداية، وعمل سكرتيراً للشيخ سعيد، وكان مقرباً جداً منه «وربما من هنا» يمكن تقييم الموقف من حاجو، إن نظر إليه في علاقته بثورة الشيخ سعيد ويشير اعتماداً على شهادة سواء عن أنه (كان في ديانة فهمي الليجي بعض الأفكار من الغلو والتطرف... ويذكر «هكذا يتردد» أنه : كان في صف المضادين للاتحاد المعقود بين خويبون وطاشناق والتقرب إليه)⁽¹⁾، وهو ما يخفف من وطأة شهادته، ومن يقلل من قيمة كلام جكرخوين كثيراً.

شراكة في خانة المساءلة :

على سعيد خويبون، وصلتها بالطاشناق، ربما يصح توجيه النقد إلى طبيعة الشراكة بين الذين مثلوا الكرد فيها والذين مثلوا الجانب الأرمني، ولكن اعتبار الكرد مخدوعين دون تروّ خروج آخر عن التاريخ بالذات، على الأقل، عندما نشير إلى أن القضية الكردية من خلال الأرمن، وموقعهم خارجاً، أخذت بعداً آخر على الصعيد الدولي، وبالمقابل، فإنه إذا كانت أغري في مقام الفخ المنسوب عن طريق الأرمن «الطاشناق هنا»، والانتقام من الكرد، كما يزعم جكرخوين ودون أي إشارة

(1) آلاكوم، روها:خويبون، وثورة آكري، المصدر المذكور، ص 51، ينظر أيضاً في كتاب غورغاس السالف ذكره، ص 158.

إلى مصدر تاريخي، فهل كانت بقية الثورات أو الانتفاضات الكردية تتم على هذه الطريقة؟ أي لوجود أصابع طاشناقية فيها؟

بالتوازي مع الجاري، ماذا كان جكرخوين يفعل؟ أكان يراقب أم ينتظر إحساناً من آغا كحاجو بالذات أم بك كردي، أو متنفذ كردي في مرتبة أحدهما ويكتب حنقه على وضعه لأنه ليس منهم؟

إن كتابة التاريخ الكردي جكرخوينياً، إن جازت العبارة، تحيله إلى لعبة خلط أوراق وفرطها، بحيث لا يعود في مقدور أي كان النظر في الأوراق وحركتها، لأن أول ما يحتاجه التاريخ هو ما إذا كان الذي يعنى به أهلاً لأن يكتب في رواقه أو في نطاقه، ولديه الأرضية التي تمكّنه من تدوين تلك المعلومات التي تستحق التسمية: تاريخاً، أم مجرد هلوسات وما يرادفها عملياً؟

ربما المقارنة بين حسانات جكرخوين وسيئاته الكتابية هنا، تبرزه مداناً من التاريخ بأكثر من معنى، حيث تتردد رواياته من ذاته، أو بالسماع، وفي أفضل الحالات، كما أوجت إليه.

في مذكرات اوصمان صبري «1905-1993» شيء من التحسر، وشيء من الغضب، وشيء من الاحتقان، وشيء مما يجهله في وعيته العميقة الغور تجاه ما كان يؤثّق مسلكيته النفسية بمجاليه جكرخوين، فهو لا يخفي موقفه من طبيعة العلاقات الاجتماعية بين الكرد باعتبارها عشائرية (كان زعيم العشيرة في النظام العشائري هو رأس الهرم وبذهابه ينتهي كل شيء)⁽¹⁾.

ربما يطرح سؤال كهذا: ماذا يراد من قوله هذا؟

ربما - أيضاً - كان الذي سيلي هذا الكلام، كلام آخر، ولكنه يترجم موقفه مما هو جار في وسطه، أي نقده الحاد للبنية العشائرية لوسطه الكردي، فهو ينتمي إليه، وفي الوقت نفسه، لا يخفي تباهيه بالشعب الكردي، وبالنضال الكردي، وحين يصف نفسه ككردي، وفي واقع الحال، لا يمكن أن يكون الكردي إلا ما هو محدد في ذهنه «كردي مفلتر».

(1) مذكرات اوصمان صبري، ترجمة: هورامي يزدي، دلاور زنكي، مراجعة: توفيق الحسيني، منشورات عامودا للثقافة الكردية، 2003، ق1، ص 65.

يقول عن أنه كغيره يمضي إلى «سوريا»، وكيف يواجه «حقائق مرّة» والتي أفصح عنها سابقاً :

(توجهت إلى سوريا على أمل أن ألتقي بالوطنيين والمناضلين الأكراد، لقد سمعت من ابن عمي الذي زار سوريا من قبل أن هناك حزباً سياسياً كردياً باسم خويبون، ويهدف هذا الحزب إلى استقلال كردستان، ومن أعضائه عائلة بدرخان باشا وجميل باشا وإبراهيم باشا وأبناء شاهين بك، بوظان بك ومصطفى بك، وحاجو بك وأكراد آخرون، وكان الجميع، يعملون من أجل إيقاظ الشعور القومي وتحرير الشعب الكردي. يقول المثل الكردي «عذب صوت الطبل من بعيد»، يا ليتني كنت أسمع الصوت من بعيد ولا أرى الطبل والطبال. كنت أحترم جماعة خويبون كثيراً قبل أن أراهم، لكن بعد أن تعاملت معهم. وجدت أنهم ليسوا محط احترام وتقدير لدرجة أنني كرهتهم أضعاف مما أحببتهم. وكانت لها مكانة مرموقة وأهمية لا تقدر عندي، أعتقد لو أن رجال الجمعية يدركون كم أنهم كريهون، ولو أن الحياء وجد طريقاً إليهم لانتحروا جميعاً.. وجدت في سوريا أشياء غريبة، فوجود فرنسا المهيمن على البلاد، التي جاءت من مناطق بعيدة وحكمت سوريا مما جعلني أشمئز، لا أعرف لماذا كنت أراهم أكثر بشاعة من الاستعمار التركي ؟ ص 79).

طبعاً، من حق صبري أن يعبر عن رأيه، ولكنه بأسلوبه هذا، هل يفصح عن حقيقة ما جرى؟ ثمة زعم براءة يسندها إلى نفسه، باعتباره لا يعلم بما يجري حوله، كما لو أنه «تورط» في الانتماء إلى خويبون. طبعاً ما تردّد حوله بالمقابل، وهو كلام، بدوره، قابل للمناقشة، جهة الأمانة «أي الاختلاس» كما سنرى، إلا أن الأمر الآخر، وهو وجود طابع من اليسارية اللافتة في كتابته، وأن تقييمه لفرنسا من ناحية الأفضلية دون مقام تركيا، لا يبعدنا عن نوع ثقافته في معرفة الآخر، وما إذا كان الاستعمار التركي حقاً أفضل من الفرنسي، وهو الذي يسرد وقائع من لقاءاته مع مسئولين فرنسيين، يظهر خلاف ما يشير إليه، عدا عن أنه هرب هو الآخر بجملده من طغيان أتاتورك ورجالاته، فأى إيجابية في هذا النظام ؟

صفة البراءة تبرز في كلمته التالية أيضاً (عندما طلبت من جلادت أن أنتسب إلى حزب خويبون، هل كنت أعرف شيئاً عن الأحزاب والحركات وخاصة عن برنامج وأهداف والنظام الداخلي لخويبون، أو عن الوضع السياسي العالمي أو عن الوضع السياسي في كردستان أو عن الثورات الكردية وأسباب فشلها ؟ سأجيب عن جميع

هذه الأسئلة والاستفسارات بلمحة تاريخية لم أكن أعرف شيئاً عنهم. فقد كانت كردستان لدي هدف وايمان راسخ هو الدفاع والنضال في سبيله. ولم أملك أي معرفة غير ذلك، كنت متعطشاً للمعرفة، وأردت أن أتعلم من مؤسسي خوييون. لكن للأسف بعد أن تعرفت على رجال خوييون الذين كنت أحترمهم وأرهم مثلاً أعلى للمعرفة والنضال فقد عرفت أنهم لا يعرفون شيئاً عن الأحزاب والتنظيمات والسياسية بل كانوا أكثر جهلاً مني، لم يكونوا رجال نضال بكل معنى الكلمة. ص 81).

تُرى، طالما أنه يعرف ما تكونه العشائرية، يعرف ما تكونه الأحزاب السياسية، وأنه حين انتسب إلى خوييون، وفي ذهنه صورة عن الحزب والجمعية والنشاط السياسي، فكيف أمكنه أن يحدد هذا التمييز؟ وكيف كتب كلماته هذه، وبأي وضعية من «السلامة النفسية»؟ كيف أمكنه أن يعرف ما يكونه السياسي الفعلي عن المزيف؟ أم تراه يرمي الثقل «البعيظ» على أكتاف الآخرين، مبرئاً نفسه من أي تهمة يمكن أن تتلبسه؟ ربما اليسارية، تلك التي سميتها آنفاً، كانت إرثاً مؤلماً في تشدها، وهي تحول دون رؤية الجاري على حقيقته، ومن يكونون فيه كذلك، لهذا كان متوقعاً، ما أفصح عنه لاحقاً، وهو الذي يفيد أعداء شعبه وقوميته ووطنه غير المتشكّل بعد، ليس لأن توجيه النقد في غير محله، ولكن توصيفاً كهذا، يعني، وكأن الوسط الذي يعيشه الآخرون مغايرين في ذلك (لم يستطع مؤسسو خوييون أن يعملوا في السر، وكل ما هو سرّي يصبح علنياً خلال فترة قصيرة، وكان بين صفوف الحزب جواسيس يعملون لصالح فرنسا وتركيا)⁽¹⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 82 .

ينظر من باب التنوع، ما كتبه أكرم جميل باشا: مذكراتي، المصدر المذكور (أساء كاميران مالياً إلى خوييون، وسبب تجاوزات كثيرة، وفي صيف 1934 تم طرده وانفصل جلادت أيضاً من الجمعية. ورغم أن حاجو آغا كان من الذين دعوا إلى ذلك الاجتماع الطارئ إلا أنه أيضاً استعفى بعد جلادت بك... وبالطبع كانت المسؤولية بالدرجة الأولى على عاتق كاميران بك وبالدرجة الثانية على عاتق جلادت بك وحاجو آغا، وكان عثمان صبري وهو أصغرنا سنّاً قد منحناه ثقتنا فكان يحبّه أطراف خوييون كافة ويهتمون بأن لا يعيش محتاجاً إلى أي شيء لكنه أيضاً قد استغل ثقتنا به طوال خمس عشرة سنة. ص 49).

وربما كان الذي يأتي جكرخوين على ذكره صادماً، وهو يمّس جوهر سلوك أوصمان صبري، وتلك القائمة من مفارقات الزمالة أو الرفقة بينهما، لكن مثال جكرخوين يستفز الذاكرة، بمقدار ما يحفّز على ضبط النفس والتأكد من دقة المعلومة، لخطورتها، وذلك في سيرة حياته، وفي الفقرة التي تحمل اسم صبري، أي وهو: معجب به وساخط عليه أيضاً: وحسب

يا لـ «مرض اليسارية الطفولي» ومراهقتها السياسية !

لم يسمّ هؤلاء، وكان يحبّذ لو يسمّهم، أم إنه ترك ذلك لفطنة قارئه؟ سوى أن بنية كلامه تعني وجوب أن يشير إلى هؤلاء «الجواسيس»، طالما أنه حكم على الجميع بأنهم محل كراهية، ويتعاملون مع فرنسا، أم أن هناك «سراً» يعنيه هو بالذات وقد تكتّم عليه، كان وراء «فيض» الكلام الصادم هذا ؟

ربما يتقابل كل من جكرخوين وأوصمان صبري هنا، وإن كان الأول أكثر إيغالاً في خلط المعلومات، وعدم التمييز بين القول ونقيضه، لأن ما يسمّيه من خلال علاقاته بالآخرين، ومن آل حاجو بالذات شاهد حي على ذلك، وثمة الكثير من الإضاءات حول هذه النقطة، سوف تأتي لاحقاً.

بالنسبة إلى عبدالرحمن قاسم «1930-1989» شهيد قضية كردستان، يختلف الوضع معه، فهو من النوع الأكاديمي الذي يفيدك بمعلوماته، وإن انطوت على بعض من النقد الحاد، ولكنه ينتمي إلى الواقع، ويسهل مراجعته كذلك.

نقاط لا تحصى :

ثمة الكثير من النقاط يمكن التوقف عندها، أو أخذ العلم ببنائها التاريخي والسياسي بالذات، حيث نقرأ بصدد خويبون، وما يكون عليه طابعها الفكري والتنظيمي والذين كانوا أعضاء فيها، وبصورة خاصة عندما يتعرض لصلة الطاشناق بأنشطة خويبون هذه، بدءاً من الانتقال إلى الطرف الآخر من الحدود (والحقيقة أن سوريا تحولت إلى ملجأ للكرد الهاربين من تركيا عقب اندحار حركة الشيخ سعيد عام 1925. ولكن الخلافات بين تركيا وفرنسا حول الأموال والحدود سويت فيما بعد

ما أعرفه عن أوصمان فإنه كان يحب أصدقاءه جداً، ولكن ما إن يكره أحدهم حتى يهاجمه بكل الوسائل.

الأهم، هو التالي (كان بحوزته ملف يبين فيه رأيه عن رفاقه موجهاً إلى وزير الداخلية أكرم حوراني، عرضه علي في الدرياسية، فأحرقته وقلت له:

لو وقع الملف بين الأكراد، فإن ذلك سيسيء إليك كثيراً.

وفيما بعد أصبحنا أنا وأوصمان رفيقين وقد ساعدني كثيراً في طباعة ديواني الثاني. ص230). ترى، أي قيمة في الحالة هذه، تبقى لما ينسبّه إلى الآخرين من خلال لغة التسفيه أو التعطيل والتشهير؟

ذلك تاريخ آخر يتطلب البحث فيه، وكيفية الاندفاع في مسارات كهذه هنا وهناك !

وعقدت اتفاقية في أنقرة عام 1929 تنازلت تركيا بموجبها عن رقعة من أراضيها لفرنسا. ص 101)، وهذه نقطة تستعاد من خلال نقاط مشابهة وردت سالفاً عن لعبة المصالح الحدودية وذيلها ورموزها وتداعياتها.

ثم عنوان «المسألة الكردية والطاشناق الأرمن»، وهو الأهم والأخطر، والذي يستحق التعرف إلى محتواه:

(في عام 1927 توحدت جميع المنظمات الكردية القومية في حزب خوبيون الذي أسسه في الغالب عدد من المهاجرين الكرد المقيمين في الخارج وأكثريتهم من الإقطاعيين والملاكين والمتقنين، وقد انعقد المؤتمر الأول للحزب في مصيف بحمدون في لبنان عام 1927، وقد أسهم في أعمال المؤتمر زعيم من زعماء الأرمن اسمه ف. بابازيان. وبالنظر لضيق مصالح قادة الحزب لم ينشد الحزب، وما كان بإمكانه أن ينشد، الحلفاء الحقيقيين، بل اعتمد على تأييد الدول الاستعمارية، والتي كانت ترى في المسألة الكردية وسيلة للضغط السياسي على تركيا «كما الحال بالنسبة لبريطانيا وفرنسا».. وكان الحزب، إلى جانب ذلك يخضع مباشرة لنفوذ الطاشناق، وهم القوميون الأرمن المتطرفون الذين انحصر جهدهم في محاربة الاتحاد السوفياتي. ص 70... وينبغي أن نفسر لماذا ساند الطاشناق حزب خوبيون «التشديد من عندي هنا». والسبب الرئيسي هو أن الطاشناق لا يستطيعون بأنفسهم أن ينظموا أية حركة مسلحة داخل تركيا، ولهذا راحوا يستغلون انتفاض الشعب الكردي الموجهة ضد تركيا التي يعتبرها الطاشناق عدواً لدوداً... وينبغي القول أن الطاشناق كانوا يعتبرون غالبية أراضي كردستان التركية جزءاً لا يتجزأ من أرمينيا الكبرى، ولعل من الطريف أن نشير أيضاً إلى أن وفد القوميين الأرمن إلى مؤتمر باريس عام 1919 قد اعتبر أن منطقة الكرد تبدأ جنوب ديار بكر وأن بقية الولايات من تركيا الشرقية، إنما هي منطقة أرمينية. ثم أن الطاشناق قد ساندوا الانتفاضة الكردية، على أمل أن تؤدي إلى إضعاف تركيا تمهيداً لخلق فرصة لتلائم كفاح الأرمن في المستقبل... فقد كان الطاشناق يرون في الدولة الكردية المستقلة قاعدة لنشاطهم الذي يهدف إلى إنشاء أرمينيا الكبرى المستقلة... ومجمل القول، أن الرجعيين الأرمن ممثلين بالطاشناق حاولوا استغلال لهفة الكرد للاستقلال كوسيلة لمطامحهم المعادية للسوفيات. وحين خابت تلك الجهود أوقف الطاشناق مساعد/تهم لحركة التحرر الوطني الكردي، بل إنهم وقفوا ضدها إلى حد ما. ص 71... وبعد اندحار انتفاضة عام 1930 فقد حزب

خوييون نفوذه تدريجياً. وفي أثناء ذلك سويت النزاعات الرئيسية بين المستعمرين البريطانيين والفرنسيين من جهة وبين الحكومة التركية من الجهة الأخرى ص 74.... وثمة ما يتعلق بسياسة الكماليين في صهر الكرد، في ضوء الجاري صص 74-79.... وفيما بعد، وما هو صادم أيضاً: ذهب الفرنسيون إلى حد مساعدة حزب خوييون في كفاحه ضد الأتراك، وأرادوا استخدام الحركة الوطنية الكردية وفق نواياهم. ص 101⁽¹⁾.

أشدد ثانية على كل عبارة يكتبها قاسمelo من حيث المبدأ، أي ما حاول خصوم الكرد، ومن أرادوا أن يحيلوا الكرد هؤلاء إلى رأس حربة لهم ضد أعدائهم، فيكون هؤلاء أكثر خبثاً من أولئك، لأنهم يتوارون عن الأنظار فيما بعد، أو يكونون في أمان، غير أن ثمة أمراً آخر لا يجب علينا تجاهله، وهو أن تدقيقاً في طبيعة العلاقات بين الدول أو الأنظمة والشعوب، أو بين جماعات مختلفة، من المستحيل النظر فيه بعيداً عن تداخلات من جهات وعبر جهات شتى، وحتى خفايا في اللعبة، يستحيل علينا النظر في وضعية المقهور أيضاً دون مقارنة نقدية، وهو يحاول رفع القهر عنه، فيبحث عمّن يعينه، أو يشاركه في مواجهة قاهره، أو ظالمه، فيجد طرفاً يدخل معه في شراكة تاريخية وسياسية، وله، هو الآخر، غرض أو منفعة تعنيه أكثر مما تعني الكردي هنا. ولقد تلاقت أهداف، ومن ثم مصالح كل من الكرد والأرمن في هذه الجمعية، إذ تأسست ربما في رقعة جغرافية، كان الأرمن معنيين بها، من حيث القوة وليس الكرد، وأن معرفة العالم الخارجي، حتى في أميركا وغيرها، والتعريف بالقضية الكردية، وتشريح هوية الاستبداد التركي، كانت تعتمد على نفوذ الأرمن، ومن خلال الأرمن كانت تتم متابعة حيثيات قضيتهم كذلك، وليس بوارد هنا أيضاً إبراز الأرمن في مجملهم بمعادين للكرد، أو ما كانوا يسعون إليه، إنما ما هو محفّز على الربط العقلاني، أي ما يشد الجانبين إلى بعضهما بعضاً، وأن فشل خوييون لا يعني نهاية الكرد، ولا خسارة أغري اندحار الكرد كذلك.

نعم، يضطر المرء أحياناً إلى أن يجالس عدوه اللدود خوفاً من نهاية وخيمة، وتأكيداً على البقاء أكثر، وأن يكون الكرد دافعي الثمن الغالي تاريخياً، وهذه

(1) قاسمelo د. عبدالرحمن: كردستان والكرد، «دراسة سياسية واقتصادية»، المصدر المذكور، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

حقيقة، فذلك لا ينفي ما هو عليه أعداؤهم في كثرتهم وعنجهيتهم وعنفهم السلطوي المشترك، والأرمن ليسوا بمرتبة العدو طبعاً!

في مقال للباحث الكردي تيمور خليل، ثمة حيرة إزاء بنية المقال، ففيه من النقد الحاد، لا بل والجرح، الشيء الكثير، أي التعامل تحديداً، وفيه ما يستحق التأمل والتفكير، وفيه ما يشير الاستغراب، لأنه لا يخفي امتعاضه من «خوبيون» في مجملها كجمعية، وما فيها من أنشطة، أو ما عرفت به من أعمال، وفي بعض الحالات يلطف مناخ القول عبر الإشارة إلى علاقات خوبيون بالطاشناق، وهي النقطة الرئيسية - ربما - في مقاله، حيث إنه من خلالها يظهر مدى تهافتها، أو انجرار أعضائها إلى المصيدة الطاشناقية، سوى أنه يرى أن نار المقاومة الكردية في تركيا لم تخدم بعد فشل ثورة آغري - آارات أي استمرارية خوبيون بالذات، وفي ذلك ما يتطلب التوقف والسؤال عن الذهنية المؤلفة للمقال، وهو طويل، حيث أقتطف منه هذه المقاطع (ليس هناك من شك، بالنسبة إلى جمعية «خوبيون» عن أنها عملياً، قد بنيت على أساس هش «أساس من رمل»، حيث إنه - وقتذاك - لم يكن لها أي أساس سياسي، اجتماعي، وحقوقى، للقيام بحرب، من أجل كردستان مستقلة، على الأقل، ولو على الأرض التركية. وبخصوص كردستان إيران، نادراً ما كان يُتطرق إليها، بعيداً عن العقل، من أجل الحصول على حكم ذاتي لكرد كل من العراق وسوريا، حيث إن القوميون الكرد، وهم يشيدون «خوبيون» كانوا مرضى الخيالات. وحيث لم يتوفر في خدمة «خوبيون»، أي جهاز كاف، ليتمكنوا من وضع قواعد منشودة، وتحقيق مطالبهم العريضة.

أصبحت «خوبيون» خلال زمن وجيز، مركزاً استقطب وطنيين من تركيا والدول المجاورة، والأمر الثاني، هو ما أفلح فيه القوميون الكرد على التراب السوري واللبناني، في وضع أساس متي، ومن هناك باشرُوا بتسيير أعمال تنظيمية ودعائية، وثالثاً، هو أنهم أقاموا علاقات قوية مع الخارج، لأن ذلك كان مهماً جداً لهم، ومن ذلك علاقاتهم مع التنظيمات (الأممية الأكثر نفوذاً خارج الوطن «الطاشناق»، وقد شارك رئيس الطاشناق «ف. بابازيان» في مؤتمر «خوبيون» الأول، ووافق قاسمelo عن سيطرة الطاشناق على خوبيون ٩

كان الاتحاد السوفيتي ينظر بعين العداء إلى نشاط «خوبيون»، ويعتبره في مقام العمالة للامبريالية، والذي يرتبط بحزب «الطاشناق» المعادي للسوفيت.

لقد تبين في زمن وجيز، أن «خويبون» لم تكن ذلك التنظيم الذي يمكنه تزعم الحركة الكردية في وضع جديد، لكن ذلك استغرق وقتاً، ليكتشف ذلك، والأنكى من ذلك، هو أن الحالة في كردستان، وخاصة في الجزء التركي، كانت مبهجة للوطنيين الكرد، إذ إن فشل انتفاضة الشيخ سعيد، لم ينه القوة الكردية المقاومة، فقد كانت ولايات الشرق في وضع سيء، حيث إنه كان يؤدي أحياناً إلى القيام بانتفاضات ضد الحكومة.

استناداً إلى المعلومات الاستخباراتية البريطانية، كانت الرابطة القومية الكردية، قد أقامت علاقات مع بعض الزعماء الكرد في تركيا «حاجو، نايف، وغيرهما»، وقد أعدت نفسها لكي ترسل رؤساءها إلى تركيا استعداداً لانتفاضة في سمسون... الخ، لكنهم لم يحققوا المكاسب المرجوة في العراق.

لكن أعضاء «خويبون» فشلوا في حرب الاستقلال، سوى أنهم لم يرموا أسلحتهم، إنما استمروا في النضال من أجل الأجزاء الأخرى في كردستان، والتي تخضع لسلطة بريطانيا العظمى وفرنسا، والسعي إلى تقوية جبهتهم⁽¹⁾.

عدوى التشهير أو الاتهامية مشكلة قائمة في مقام معتبر داخل الذهنية الكردية التي تتعرض لتاريخ، ينظر إليه من زاوية واحدة، أي كما لو أنه منبسط ومائل للنظر، دون وجود انشاءات، أو منعطفات، وما يفصله بذلك عما هو جغرافياً، ومن ذلك ما يخص «حاجو وصاحبه» ومن يأت على ذكر أسمائهم، أي التعامل مع أعداء الكرد.

لو أننا طبقنا مقولة تيمور خليل بلزوم عدم التعامل مع أعداء الكرد، ماذا يحصل؟ لن يكون هناك أي تحرك أي استعداد للتحرك، عملاً بمقولة دارجة، لا تخفي صوفيته، أو رومانسيتها المفخمة بصداها ومداهها «لا أصدقاء للكرد سوى الجبال»، ولكن الجبال ليست بشراً، ليست علاقات يمكن التفاعل معها، ليست وجوهاً ينظر فيها، ومن ثم التعلم منها، وتعلم لغتها، ومن ثم نيل الإجازة والنزول إلى العالم.

أن تقاطع أعداءك بوصفك كردياً، يعني كل من له صلة بما هو سياسي وأمني في الدول التي تقاسمت كردستان، وكل من له علاقة بأمور أمنية أو استخباراتية في كل من فرنسا وبريطانيا «حينذاك»، ما عدا الدول السالفة الذكر، لو أننا دققنا

(1) ينظر مقال تيمور خليل علاقات «خويبون» والطاشناقيين في موقع «آارات» الإلكتروني،

في هذا المطلب/التحذير، فإن كل ساسة الكرد خونة، وعملاء لأعداء شعبهم دون استثناء، كونهم يقيمون علاقات مع تلك الدول التي كان لها دور كبير في تجرئة كردستان والشعب الكردي: فرنسا وبريطانيا وغيرهما الآن، أي كما لو أن من يقيم علاقة يرهن قضيته وشعبه بالكامل، ويسلم أمره لصاحب الأمر بالطريقة هذه.

مثال تنويري :

ربما كان المقال الذي كتبه اسماعيل بيشكجي ناقداً فيه تيمور خليل حول موقفه من كتاب مؤلف عن «صوت الكرد في إذاعة يريفان» مسقهاً كل ما جاء في الكتاب، وحتى تقديم بيشكجي له مفيداً لنا هنا. يقول بيشكجي عنه هو وأسلوبه (المفاهيم التي يستخدمها تيمور خليل تكون بصورة قطعية، علمياً وسياسياً. إنها ليست مفاهيم صحفية، وهو في سياق الهجوم يستخدم مفاهيم لا تتسجم البتة مع الأخلاق العلمية، ولا أخلاق النشر، إذ إنه اعتمد لغة التحقير، التسفيه، والاستصغار كأسلوب في الفصل العلمي المختار، ويعتبر ذلك علماً. فيسطر عن أن الكتاب، أن المعلومات الواردة في الكتاب، من ألفها إلى يائها خاطئة. إنه كتاب تنبغي تصفيته، وإزالة كل أثر له)، ويظهر عن أن الكتاب أنصف عائلة تيمور خليل، فلماذا هذا التحامل؟ يوضح بيشكجي قائلاً (مؤكد أن حرية التعبير، إلى جانب النقد الحر في غاية الأهمية، سوى أن لغة تيمور خليل، لا تنتمي إلى هذه الخانة إطلاقاً، ولا إلى لغة الصحافة، ولا تتسجم أبداً مع أخلاق العلم، أخلاق الصحافة، ولا سلوك المثقف، لغة تعتمد التحقير، عدم الاحترام، والاستصغار. لماذا يعتمد تيمور خليل لغة كهذه؟ لأنه عاجز عن التعبير عن أفكاره بمفاهيم علمية، وكذلك سياسية، ولأنه لا يستطيع تهدئة مشاعره الحسودة بالطريقة هذه، يجد لزوماً في استخدام لغة كهذه. إن الذين يسعون إلى التعبير عن أفكارهم بمفاهيم علمية، لا يهينون مخاطبيهم، وهم يتجنبون تحقيرهم واستصغارهم، بقدر ما ينتقدونهم بمفاهيم علمية وسياسية....الخ)⁽¹⁾.

ما علاقة هذا المقال بموضوعنا؟ ربما الفائدة، كما أشرت، تتعدى حدود المقال، لتشمل الكثير مما يكتب تحت اسم النقد بأنواعه، أي ما يكون نقداً وهو

(1) المقال مترجم إلى الكردية، ومنشور في موقع «روجناميا كردستان» :

Di Heqê Têmrû Xelîl da - Rojnameya Kurdistan

وبتاريخ 16 تشرين الأول 2017، ولأهميته ترجمته إلى العربية، ونشرته في موقع «ولاتي مه» الإلكتروني، في 12 تشرين الثاني 2017 .

ليس نقداً، وإنما ما يكون «تحاملاً» على الأقل، وثقافة التحامل لا تسهم في إنتاج المعرفة، وإنما تصحّرها، وربما كان مقال تيمور خليل مسمّى هكذا، أي في تقييمه الجانبي - جداً - لخوييون - وأعضاء خوييون.

وإذا كنا لنا أن نلتقط أنفاسنا، ونستشعر راحة نفسية، وبنوع من الصفاء العقلي، فأرى فيما أثاره جوردي غورغاس فاعلاً بآثره فيما سطره في كتابه المهم عن الحركة الكردية التركية، ومن ذلك ما يخص «خوييون»، رغم أن البدء لا يشجع جهة تحديد معنى خوييون، والذي ورد بترجمة حرفية «كن أنت نفسك»، وهو خطأ، إنما «الاستقلال» كما هو شائع.

ماذا يقول غورغاس؟ سوف أورد أهم النقاط التي اعتبرها جديرة بالتوقف عندها (كانت رابطة «الخوييون: كن أنت نفسك» أساساً لتكون فكر القومية الكردية المعاصرة في تركيا. فهذه اللجنة التي تشكلت عام 1927 تهدف إلى جمع الكرد كلهم في كردستان مستقل، دون تمييز ديني، لهجوي، أو طبقي اجتماعي.. ص 139... عقد المؤتمر التأسيسي للرابطة القومية الكردية، خوييون، في مدينة بحدون اللبنانية في تشرين الأول/أكتوبر 1927، وجمع ممثلي أربعة أحزاب ومنظمات كردية. ص 143... لقد عقد المؤتمر التأسيسي للرابطة القومية الكردية، خوييون، في مدينة بحدون اللبنانية، في تشرين الأول/أكتوبر 1927، وجمع ممثلي أربعة أحزاب ومنظمات كردية. وكان بين المشاركين، حسب فيديات «وداد» سادللي: جلادت بدرخان، وكاميران بدرخان، ومحمود سليم، ومصطفى شاهين، وفهمي لجي، ومهدي «أخو الشيخ سعيد» وكريم سليمان، وأمين آغا من رامان، وحاجو آغا، وخورشيد بك. ص 143... كان ممثلو حزب الطاشناق في بلدي المشرق يعملون للعودة إلى تركيا لتكثيل حكومة مستقلة ذاتياً، وهم أعداء للنظام السوفياتي الذي أسقط في القفقاس الجمهورية الأرمنية الفتية، والنظام الكمالي في آن معاً. والحال إن الأرمن لا يملكون، بمفردهم، وسائل النضال ضد تركيا.... وإن كان ثمة شك بأن خوييون قد شكّلت بـ «إلحاح» من الأرمني فاهان بابازيان 1868-1973، فمن الأكيد أن التقارب بين الكرد والأرمن قد تم بمبادرة من المناضل الأرمني المنفي، إلى باريس ص 146... تجسّد رابطة الخوييون «زواجاً ضد الطبيعة» بين مثقفين مغربين من جهة، وبين ممثلي العالم التقليدي الكردي من جهة ثانية. ص 147-.... كانت المنظمة التي نشأت عالم 1927 تشبه بصورة قوية الأندية الكردية التي نشأت في اسطنبول، وكان المثقفون الكرد الملتقون

حول رابطة خوييون من أبناء أكبر عائلات الوجهاء الكرد . وفي الواقع، سيطرت سلالتا بدرخان وجميل باشا على الحركة حتى اندثارها عام 1944...خوييون كانت أبعد من أن تشكل حزباً عصبياً مع قاعدة اجتماعية واسعة تدعمه ص 149 ... جلادت 1893- 1951 وكاميران بدرخان 1895-1978 ص 155- عثمان صبري 1905-1993 ... ورغم أننا لم نجد أي وثيقة تؤكد توقيع اتفاق رسمي بين الكرد والألمان، فإن بعضاً من ممثلي الكرد والأرمن، حسب أجهزة المخابرات، ومنهم جلادت بدرخان وهراتش بابازيان، وضعوا أنفسهم في خدمة ألمانيا لإعداد انتفاضة كردية في تركيا عام 1942. كما اتصل الألمان بشريف باشا الذي كان في فرنسا آنذاك ص 185... ولقد وضع الأخوة بدرخان، من جهتهم، المجلات الكردية في خدمة دعاية الحلفاء. وأخذت صفحات هاوار، وروناهي، وروزانو «اليوم الجديد» تعلن عن انتصارات الحلفاء، وتقل خطب جنرالات القوات الغربية الحرة.. ص 187.. وكان اهتمام مختلف أعضاء عائلة بدرخان بمم وزن كبير جداً. وليس في ذلك ما يثير العجب إذا ما تذكرنا أن أسطورة أحمد خاني تتطرق جذورها من بوتان، وبالتحديد من عاصمتها جزيرة ابن عمر التي ظلت تحت سيطرة عائلة بدرخان حتى منتصف القرن التاسع عشر. ويعتبر جلادت بدرخان أن مم وزن كتاب مهم قومياً، في كتاباته بعد هزيمة آارات ويجعل منه أثراً تاريخياً للحضارة الكردية، وأن أحمد خاني الرسول الحقيقي للقومية الكردية ص 214... سافر سورياً بدرخان إلى دويتارويت لكسب الكرد المقيمين في الولايات المتحدة لجانب القضية القومية الكردية ص 278... شهدت خوييون صراعاً بين جبهتين: عائلة بدرخان وأنصارها من جهة، وعائلة جميل باشا وأنصارها من الجهة الأخرى.. وأسس هذا الصراع حول الواجهة الشخصية والنفوذ.. واتهمت جبهة جميل باشا كاميران بإنفاق أموال مخصصة للجنة الكردية في مصالح شخصية. فقررت اللجنة المركزية في أحد المؤتمرات طرد كاميران فتضامن جلادت مع أخيه وأنهى مسؤولياته وعضويته في خويون ص 312... وثمة ما ترهل مشروعها السياسي... ودخلت خوييون، لعدم امتلاكها مشروعاً سياسياً بديلاً للكمالية، في مرحلة رقاد بسبب عجزها عن امتلاك أهداف جديدة، ووسائل عمل جديدة. ص 313..⁽¹⁾.

(1) غورغاس، جوردي: الحركة الكردية التركية.. المصدر المذكور، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

لنبدأ من النهاية، والتي تتمثل في مفهوم «العجز» حيث أرى أحياناً، أن ثمة أحكاماً على عمل ما، بعد إنجازه، وليس من خلال التدقيق في شموليته وعناصره. تُرى لو أن خوييون حققوا أهدافها، ماذا كان سيُقال فيها؟

من جهة أخرى، هناك إشارة دقيقة ومحفزة على التفاعل معها، وهي التي تخص نوعية العلاقة بين كل من المثقفين الذين تعلّموا في الجامعات أو الأكاديميات، أي إن ثقافتهم غربية «جلادت، كاميران، قدري جميل باشا... الخ»، ومن تميّزوا بثقافتهم التقليدية، ويحضر هنا في الحال «حاجو آغا» وهو موضوعنا، وعبر اعتماد عبارة لافتة «الزواج ضد الطبيعة»، وهي التي تشجعنا على السؤال: ومتى كانت الطبيعة تحكم على مستوى المجتمع المدني دون ضبطها ؟

أي حين تكون الطبيعة معلّمة للثقافة ومرضعتها أكثر من كون الثقافة مرجعاً وحكماً عليها، وربما من هذا المدخل نقابل بين حاجو آغا بتحصيله العلمي المتواضع جداً، إنما بذخيرته الحياتية اللافتة، والذين كانوا يعتبرونه دونهم مقاماً، من هذا الجانب، لكنهم كانوا دونه مقاماً في مدرسة الحياة بساحتها الكبرى، واعتبارها الأكثر صلاحية للأخذ بها في المقارنة الرئيسة.

ألسنا نجد فيما تم، تقدماً حيويّاً وملهماً في سياق البحث عن حل أفضل للقضية الكردية ؟ وفي الوقت الذي نعلم جميعاً، أنه في الوقت ذاك، ما كان في الإمكان، ولا بأي شكل القيام بأي عمل دون إيجاد قاعدة عريضة من الدعم المادي والمعنوي، وهذه ما كانت تتوفر دون اللجوء إلى القيام بعمل من هذا النوع، أي تحقيق لحمّة مجتمعية، وتجسير الفجوة، إن جاز التعبير بين ما هو ريفي وما هو مدني، أو بين التقليدي والحداثي، وإن كان في إمكان الباحث المهتم هنا أن يطرح سؤالاً على تماس مباشر بموضوعنا، وهو: تُرى، هل أفلح خريجو الغرب في بناء مجتمع على النمط الغربي، وهو مؤسّساتي بكل معنى الكلمة؟ هل المسؤولية تحوّل باستمرار إلى المعوقات التي تصدر عن المجتمع كونه تقليدياً؟ أي ما يبرىء ذمة القادم من الغرب، أي ما إذا كان هو نفسه تمكّن من أن يكون غربي العقل والروح، وليس مشوّهاً مفهوم الغرب داخله.

أما بصدد علاقات أعضاء من خوييون مع جهات أجنبية، فلا أحسب أن فيها ما يلفت النظر من موقع الحساسية والشعور بعقدة الذنب التاريخية، في الوقت

الذي سعت جهات كثيرة إلى التنشيط في هذا المجال، لا بل والتماهي مع حركات وعقائديات متطرفة كالنازية وغيرها⁽¹⁾.

ما يفيد هنا هو أن المساحة التي حازتها «خويبون» جغرافياً، تستحق المزيد من الدرس والتمحيص، وأن مجرد طي صفحاتها، كونها فقدت صلاحية النظر فيها، أو أُسْتُهْلِكَتْ جرّاء مواقف معينة، يظهر الجبن المعرفي للداعي إلى ذلك، وعدم ممارسته لأي نشاط فكري أو تحاوري، أوحى فعل إصغاء حقيقياً إلى الآخر.

أمّا أن نتوقف عند الباحث الكردي روهاك آلاكوم، وكتابه المخصّص لهذه الجمعية، ففي ذلك ثراء وإثراء في آن: في الثراء ما يفيد، ما يعلم ويفهم ويلهم معرفياً، وفي الإثراء ما يساعد على النقاش، وإضاءة المعتم هنا وهناك فيه.

آلاكوم يدرك وعورة الجغرافيا الكردية «الكردستانية، بصورة أدق»، كما أنه محاط علماً من خلال بحثه الرزين بأكثر من معنى، صعوبة الحديث عن تاريخ

(1) ينظر حول ذلك كتاب رجل الاستخبارات والسياسي والضابط الألماني د. فريتز غروبيا: رجال ومراكز قوى في بلاد الشرق، ترجمة: فاروق الحريري، مطبعة عصام، بغداد، 1979، في الجزء الثاني خاصة: فيما يقوله عن سامي شوكت، حيث أعلم هذا غروبيا وقد عين مديراً عاماً للمعارف أنه يدرب الشباب العراقي وفقاً للطريقة الألمانية ببث الروح العسكرية في نفوسهم، في حركة الشباب العراقي السمتة «الفتوة». وتم إرسال ممثلين عنها للمساهمة باحتفالات الحزب النازي السنوية. ص 317... وتتافس بين المفتي والكيلاني لكسب ألمانيا وإيطاليا في زيارتهما إليهما، بعد 1941.. ص 383... الخ. وكتاب حازم صاغية: قوميو المشرق العربي من درايغوس إلى غارودي، الرئيس، بيروت، ط1، 2000، عن ساطع الحصري، مثلاً (وربما كان أخطر ما يتضمنه الكلام الحصري هذا أن الانحياز للنازية ممكن.. بسبب المرتكزات والمنطلقات الإيديولوجية والتنظيمية التي تنطوي عليها التوتاليتارية الألمانية. ص 79)... الخ.

والأهم كتاب يونس بحري: أسرار 2، مايس 1941 أو الحرب العراقية الانكليزية، قدم له: علي الخافاني، مطبعة الحرية، 1968، وهو يتحدث عن تدخلات مفتي فلسطين في شؤون العراق الداخلية والخارجية. ص 58.. علاقات ألمانيا الهتلرية برجال الدولة العراقية من المعروفين بتوجهاتهم القومية العربية. ص 88.. ومنهم العقدا الأربعة والكيلاني ومعهم مفتي فلسطين، ص 96.. وتدريب الفتوة العراقية في نورينبيرغ. ص 98-99..

وينظر أيضاً ما أثاره د. فاضل محمد حسين البدراني، في كتابه: الفكر القومي لدى الأحزاب والحركات السياسية في العراق 1945-1958، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2005، وهو أطروحة دكتوراه، ويشكل كتاباً تمجيدياً في حزب البعث، وليس من أي إشارة بالدعاية الألمانية في ثلاثينيات القرن الماضي. ص 22-30.. ومكانة سامي شوكت المبشر بالنازية في العراق قوياً. ص 77... الخ.

كردي «کردستاني، بمعنى أدق أيضاً» لأنه مازال يتحرك إلى الأمام، ليكون تاريخاً بحق، ولهذا يتطلب المزيد من التحري والقراءة والكتابة والمحاورة....الخ.

البدء مطلوب في تناوله لـ «خوبيون» إذ بعد هذا «البدء» كان التفكير فيها (الکرد السوريون كانوا من أنشط هؤلاء الغياري، فلقد كان عدد كبير من مؤسسي وكوادر التنظيم من كردستان تركية، لاجئين في سورية.. ص 11...ومن ثم: يفند ادعاء بعض الأرمن على أن كلمة «خوبيون» صيغت بأسلوب أرمني وأن التنظيم كان يشرف عليه الأرمن، لأن لفظة «هاي» الأرمنية التي تعني «الوطن» تشبه «خو» في كلمة «خوبيون»... ولكن هذه الإدعاءات ومهما كانت نواياها، ليست صحيحة، لأن الأمر ليس بهذه السهولة... فنحن نعرف جيداً أن علاقات الصداقة الأرمنية- الكردية، التي امتدت عشرين عاماً، قد تترك أثراً ما على تنظيم «خوبيون» وأعضائه، ولكن ادعاء المؤسسات التركية بأن تسمية خوبيون تسمية أرمنية- كردية خطأ واضح وادعاء باطل، لأن تنظيم خوبيون كان يعرف نفسه دائماً بأنه اتحاد قومي كردي، كما ورد ذلك في منشوراته وأدبياته... ص 17...وما يدخل في نطاق توصيف وكذلك تقييم «خوبيون»: ولعل تنظيم «خوبيون» يعتبر أحد أبرز التنظيمات الكردية التي طرحت مفهوم القومية الكردية «الكرايه تي» بمفهومه المعاصر خلال الأعوام 1920- 1930. ص 11... والدال هو ما ينطلق إليه: وكما يبدو من القائمة أن أسماء مثل: ممدوح سليم، جلادت بدرخان وحاجو آغا كانت على رأس القائمة... ص 29 «لزوم التوسع في ذلك - وتألقت اللجنة المركزية الأولى لخوبيون من الآتية أسماؤهم» وهم «13»: جلادت بدرخان- ممدوح سليم- محمد شكري صكبان- حاجو آغا- أمين راماني- علي رضا- مصطفى شاهين- بوزان شاهين- كريم رستم بك- توفيق بك- كامل بك- بدرالدين آغا0 فهمي الليجي ص 28- جلادت معروف «ويعرف به في» ص 35، بدءاً من آخر ثلاثة أسطر، -39»، أما ممدوح سليم: 1880- 1979، فقد كان المهندس المؤسس للتنظيم، درس السياسة والفلسفة في اسطنبول.. وكان يقيم في كردستان سورية في العام 1922، وفيها بدأ نشاطاته القومية حتى ظهور تنظيم خوبيون وتأسيسه.. ص 40... وهو موضوع صفحتين «40-41» ونيف- أما صكبان «1881- 1960، فقد أدار المؤتمر التأسيسي للجمعية، وهو طبيب في الأصل. ص 42... وفي مقدمة الصفوف الأولى لمؤسسي خوبيون الذين يمثلون القوى التقليدية للمجتمع الكردي، حاجو آغا، وأمين الراماني وعلي رضا، وهم من ألمع وجوه تنظيم خوبيون...

ص 43.. إن حاجو آغا، وهو واحد من شخصيات خويبون ومن ذوي الشأن، كان رئيس عشيرة هفيران، التي كانت تعد من أكبر العشائر الكردية، وكثيراً ما يُذكر في المصادر بين الحين والآخر باسم حاجو الثالث.. بل إن الأسرة إنما تذكر حتى يومنا باسم «مالا حاجو» أي بيت حاجو.. ص 43.. إن تفاقم المصادمات العشائرية الداخلية في صفوف عشيرة هفيران يصعب على العشيرة أن تأخذ موقعها في المروحة القومية.. ويعمل جاجان، أحد أبناء حاجو آغا الذي يرى في كل آغا كردي حكومة قائمة بذاتها، السبب في إخفاق الكرد بحرمانهم من الكوادر السياسية خلال تلك السنوات.. ص 45.... ومما يذكر أن أمين الراماني على ما هو شائع عنه «بعد أن سلم نفسه للسلطات التركية وأعفي عنه ٩»- يسرب إلى أيدي مسؤولي الحكومة التركية معلومات، في غاية الأهمية، بشأن خويبون، ويسلم إليهم بعض عناصرها «نقلاً عن جكرخوين في الفولكلور الكردي، 174»، وعلى غرار عدد كبير من أقربائه الذين أعتيلوا أو قتلوا على أيدي القوات الحكومية، يُستغفل أمين الراماني، هو أيضاً، فيُستدرج إلى فخ ينصب له في خرائب أرزني وهي مدينة قديمة فيقتل هناك ص 201 «كما يقول جكرخوين في مذكراته، ص 201»... وليكون هناك الحديث عن الانشقاق والفوضى في خويبون، ص 105- 114 «اعتراض علي رضا على خويبون كونها تتبع سياسات الأرمن، ص 107» انتقادات بين البدرخانين وعائلة جميل باشا زاده، ص 108، وفي إطار العلاقات المعقدة جرّاء التوترات القائمة، نجد كيف. أسيء إلى عرب شاميلوف وحاجي جندي: الأول كان يرى أن الطاشناقيين والانكليز يستغلون الكرد لتحقيق غاياتهم الخاصة. ص 122... وانتهت العلاقات بانهييار خويبون سنة 1946 مع قيام مهاباد 1946، حيث الكرد مالوا إلى السوفيت. ص 125، «نادراً ما يحلل الآكوم هذه النقاط». مثلاً، عدا ما تقدم: لماذا العلاقات الكردية- الأرمنية، وبخاصة في أثناء اندلاع ثورة آكري، اكتسبت تعاضماً وقوة حتى أن ثمة مصادر تذكر بأن الأرمن كانوا يمدون الكرد بالسلاح عبر «تبريز» حيث كانوا قد أنشأوا هناك مصنعاً صغيراً لتصنيع السلاح.. ص 118، كما رأينا سابقاً..

وما يبقى «خويبون»، حيث قيل عن أنها انتهت سنة 1946، هو السعي إلى إبقائها، فالآكوم نفسه يذكر أن هناك من رفض حل التنظيم، وهم:

قدري جميل باشا

حسن حاجو آغا
جميل حاجو آغا
عبدالرحمن علي يونس
عارف عباس
جكرخوين

مفتي القامشلي الملا أحمد الزفكني... ص 127...⁽¹⁾.

من المؤكد أن من يمعن النظر فيما سطره آلاكوم يتلمس جديداً، في التفاصيل المتعلقة بأسماء الأعضاء، وجوانب ذات صلة بـ «الطاشناق» وبعض أعضائه أو قاداته «بابازيان ، مثلاً ، وثمة وضوح في التأريخ لأنشطة الجمعية، سوى أنه، كما نوّهت يتراجع إزاء ما كان يجب عليه أن يمضي ويوسّع دائرة إضاءة بحثه، كما في النقطة المتعلقة بما هو خفي، أو ما يعتبر كذلك بين الكرد والأرمن عبر «خويبون».

أي سهولة الزج بـ «خويبون» في خانة الارتهان أو التبعية للآخر: الأرمني، ومصادرتها من كل قيمة، لأن ثمة مسوِّغاً نفسياً معداً ينشط «عفريت» لكي يلعب بالمعنى نفسه، أي اعتبار الاسم صنعة أرمنية، وما في ذلك من تأكيد آخر، إلى نفاذ فعل «خويبون» وتحسس خصومها منها .

إن ما ليس لافتاً، وليس بمستغرب، كما يركّز عليه، هو ما يخص موقع كل من الكرد والأرمن ضمن جمعية لها طابع ثقافي وسياسي وحتى عسكري طبعاً، وتركّز على رقعة جغرافية : كردستانية، وثمة أرمن، وهم يمثلون نسبة كبيرة، لا يخفون رفضهم من هذه الدعوى، أي اعتبار مساحة كبيرة من كردستان تخص أرمنستان، وأن الذين انخرطوا في الجمعية لم يجدوا بداً من ذلك، أي في محاولة لشقّ طريق إلى قلب تركيا، أي قلب «أرمنستان» وليس كردستان، سوى أن بحثاً كهذا يفقد صفته البحثية، إذ هل من المعقول ألا يعرف أعضاء «خويبون» من الكرد، وخاصة من هم مثقفون ثقافة غربية ومطلّعون على تاريخ المنطقة، ما يجري أمام النظر ووراء الكواليس، أي كما لو أنهم انخدعوا ؟

(1) آلاكوم، روهاث :خويبون وثورة آكري، المصدر المذكور، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

في السياق نفسه، من المعلوم جيداً، أن الاتحاد السوفيتي وتركيا حينذاك، كانت مصلحتهما المشتركة تقتضي الدخول في أكثر من تعاون استخباراتي، لأنهما قدراً أن الخطر يطالهما معاً: الاتحاد السوفيتي في أول تشكيله، وقد ضم أرمينيا داخله، وما في ذلك من محق حقوق الأرمن القومية، وقد أصبحت السلطة الشيوعية فوق الجميع، وتركيا في بداية تشكيلها بدورها كجمهورية، وتلك المغازلة البراغماتيكية بينهما، حيث إن تركيا حينذاك كانت تدرك نوعية الجرائم: الإبادة الجماعية» التي ارتكبتها بحق الأرمن من جهة، وصادرت أموالهم وممتلكاتهم وطردتهم من ديارهم وموطنهم، من جهة ثانية، لترى في التعاون بين كل من الأرمن والكرد كقوميتين مظلومتين ومحرومتين من حقوقهما القومية والإنسانية، خطراً مضاعفاً، يخشى منه، خصوصاً، وأن للأرمن علاقات قوية تمتد إلى جهات متفرقة من العالم، وهو ما يحسب له حساب، وليس من غرابة إذاً، أن يجري التركيز المشترك على نقطة كان لها صداها السلبي، وهي أولاً، أن الكرد سلبيون، كونهم واقعين في الفخ الأرمني «الطاشناقي»: الحزب المتشدد والمهدد لأمن تركيا عبر أنشطته المختلفة في الخارج»، وهم بذلك سوف لن يستفيدوا شيئاً، بالعكس سوف يخسرون سمعتهم، من خلال انخداعهم هذا، وثانياً، أنهما في موقع العملاء مع الدول الامبريالية، أو التي تريد إلحاق الأذى بدول المنطقة، وفي الوقت التي كانت محتلة لها، لتعميق أثر الدعاية هذا، وهذا يذكّرنا بالمأثور النفسي الذي يستمرى تحويراً كهذا.

وإذا كان هناك ما ينبغي التوقف عنده، باعتباره صواباً، في بنية العلاقات هذه، كما رأينا، إلا أن ما ليس صواباً كذلك، هو التشديد على هاتين النقطتين، ومحاولة إحداث صدع/شرح بينهما، لإضعافهما معاً، حيث الطاشناقيون بحضورهم الإعلامي والدعائي وحتى دعمهم المادي، والكرد بحضورهم الديموغرافي وقابليتهم للدخول في الحرب مع تركيا.

لغة متوقع :

يعني ما تقدم، أن «خويون» التي تردّد حولها الكثير، والتي استمرت عقدين من الزمن، وفي فترة تاريخية صعبة، وكان لها موقعها السياسي والثقافي والعسكري، من الطبيعي أن تثير لغطاً، وأن تصدر إزاءها ردود أفعال في غاية التنوع، فلا غرابة

إن كان هناك من يشد البساط الخويبوني ناحيته، واعتبار الطرف الآخر دونه مقاماً وقدرة وأهلية إدارة وأداء مهام، سواء أكان من الأرمن أم من الكرد، لا غرابة أن يكون هناك من يسخط على علاقة كهذه، وفي مناخ محقتن بما هو ديني، اجتماعي وسياسي، وأن ينبري من يحتج على غبن من هذا الجاري مدافعاً عن اسمه ككردي أو أرمني، وفي الجانب الآخر، ليس من ضير أن يكون الدرس قاسياً، ولكنه ينبّه ويوقظ القوى النفسية أكثر، إن كان هناك من يهمل الدرس التاريخي، ولا بد أن رجلاً مثل حاجو آغا في قلب هذا الخضم، على وعي اجتماعي وسياسي بما يجري، وهو الذي يتزعم اتحاداً قبلياً يضم تنوعاً دينياً ومذهبياً، أي امتلك خبرة عملية في هذا المضمار، وأن الخلاف القائم حتى بينه وبين آخرين كما في حال آل جميل باشا، هو أكثر من كونه «خويبونيا»، إنما في تقدير المواقف، وأن التفريق بين الطرفين بالتقليدي بالنسبة إلى حاجو آغا والمتنور بالنسبة إلى آل جميل باشا مصطنع، لأن البدرخانين في مجملهم متنورون أيضاً.

تأكيداً على مدى نشاط «خويبون» على القاعدة السياسية والثقافية التي عرفت بها، هو فيما تمت أرشفته وثائقياً، وعلى صعيد استخباراتي، ليس فرنسياً فحسب، إذ إن ذلك سيتضح تالياً، وإنما انكليزياً وغيرهما، ففي وثيقة انكليزية نقرأ ما يعزز هذه القوة في الحضور، حيث (يلاحظ مدى التدقيق في كل نشاط كردي من خلال استخباراتيين أجانب، وطريقة تعامل كل مسئول كردي «أمير وغيره» مع الآخرين «وخاصة فيما يخص السريان والأرمن والإيزيديين، كما في» وثائق عن حركة الأمير بدرخان : 1843-1848، الموصل في 3-7/1843، صص 9-10، وفي تقرير آخر حول زيارة بدرخان في مقره بالجزيرة : 10 تموز 1844، ومن قبل نائب القنصل في الموصل... صص 13-25.

دور جمعية خويبون في الحركة القومية: التحالف الأرمني- الكردي

سري رقم 1/407- مقرر قيادة القوى الجوية الملكية، قيادة العراق -14

حزيران 1928

ليس هناك أي شك في أن باريس هي مركز النشاط القومي الكردي ولكن هناك جماعات نشطة وقوية في حلب، بيروت، القاهرة، تبريز وبغداد. إن الجمعيات التالية تحالفت مع الحزب الكردي «خويبون- المترجم» والتي لها مقرات في باريس:

- 1- حزب الدا شناق الأرمني-2- حزب السلطنة «الخلافة- المترجم» التركية-
3- جمعية الروس البيض. ص 375⁽¹⁾.

تلك صيغة أخرى من صيغ مصافحة التاريخ، إن جاز التوصيف، مهما كان هناك نقد أو تحفظ بصدد «خويبون» وما يصل بها من أنشطة، أو اتصالات، أو أعمال على الأرض، حيث الحديث يكون من خلال المتاح ما أمكن. أعني ما يجعل أحدنا قريباً من نفسه مدركاً لحقيقتها: قوة أضعفاً، وما يكون عليه وضع المناظر، وكيفية إدراك الإنسان في ذلك، دون ذلك يبقى ما لا يرد التفكير فيه أمام الآخرين، وهو أن نعيش دون العالمين، بعيدين عما هو تاريخي وجغرافي فينا . وماذا يقول جميل حاجو في مذكراته، وقد أحد أعضاء الجمعية فيما بعد، كما رأينا ؟

ينوء جميل حاجو هفيريكي نجل حاجو آغا إلى أمور ذات صلة بالجانب السياسي والتنظيمي للجمعية، وقبل ذلك يشير إلى واقعة عائلية مأسوية، لا تقتصر على آل حاجو وحدهم، وهي تعقد العلاقة مع الدولة بالذات، فيكون الاضطراب بالانتقال إلى بنختي، ومن هناك تسفير فرنسي لأفراد من العائلة (كان والدي قد أرسل أخي حسن إلى قسم من عشيرتنا في تركيا بغية الاتفاق للتعاون ضد الأتراك وكان يتزعم العشيرة هناك آنذاك أبناء عم ساروخان الذي سبق مقتله عام 1927 بإيعاز من والدي بسبب تعاونه المطلق مع الأتراك، وتم الاتفاق مع كبيرهم، حسين جلبي لمحاربة الأتراك. ص59...عند عودتنا إلى سوريا قام الفرنسيون بإبعاد والدي مع ثلاثة من أولاده، حسن، جاجان وأنا إلى دمشق تنفيذاً لتحذيرهم، إن قام والدي بأية حركة ضد الأتراك. ص59...ومن ثم جملة علاقات العائلة آل حاجو مع الساسة الأكراد، وما في ذلك من بعد مجتمعي :

بعد استقرارنا في قرية دوكر أصبحت دارنا ملقياً الزعماء الأكراد من رؤوساء العشائر والساسة الفارين من الظلم التركي ومنهم من سكن القرية المذكورة مع عائلاتهم، أمين آغا حزني آغا وآخرون ظلوا في ضيافة والدي. ص65.... وما يؤدي إلى تأسيس خويبون، أي عبر الحديث عن الفترة المعاصرة

(1) علي، د. عثمان: الكرد في الوثائق البريطانية، مؤسسة موكرياني، السليمانية، ط1، 2008 ، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز .

لتأسيس خوييون، وعثمان صبري: في تلك الفترة وصل إلى الشام أيضاً عثمان صبري قادماً من العراق، وحل ضيفاً على والدي، وبعد رجوعنا من المنفى إلى الحسكة قررت جمعية خوييون إيفاد عثمان صبري كمبعوث من قبلها للاتصال بالشيخ أحمد البارزاني لعرض وضع الجمعية عليه ومناقشة أوضاع الأكراد في تركيا، على أن يستمر الاتصال والحوار بين الجمعية والشيخ أحمد... كان ذلك في عام 1931.. ومكث عنده شهرين: وعند عودته قدّم تقريراً مشوهاً مليئاً بالحق والتحامل على كل من الشيخ أحمد والملا مصطفى، وصفهما بأنهما بعيدان عن القضية الكردية وادعى أن الشيخ أحمد يظن نفسه إلهاً وملا مصطفى نبياً إلى غير ذلك من الافتراءات، وعندما سمع والدي هذه الأكاذيب أخذه الغضب واتهم عثمان صبري بالتلفيق والافتراء، مبيناً أنه لا يمكن أن يكون جميع الناس المحيطين بالشيخ أحمد بسطاء لدرجة تصديق مثل هذه الادعاءات... لا شك أن حقه كان وراء افتراءاته تلك والتي جعلته يقوم بتحريف كلمة «رب بارزان» إلى الإله مضيفاً إلى ذلك فكرة نبوة ملا مصطفى... والمعروف أن عبارة «رب بارزان»... تعني رئاسة البارزانيين، مثل قولنا - رب البيت - أو رب الأسرة... بعد تجميد عضويته في الجمعية دفعته طبيعته التخريبية إلى بث الفتنة بين البدرخانيين وأولاد جميل باشا، الأمر الذي أدى إلى تفاقم الخلاف ووصل لحد القطيعة بين الطرفين، لكن انكشاف أمر عثمان صبري ودوافعه التخريبية للجانبين جعله منبوذاً من الجميع، وابتعد عنه كل أعضاء الجمعية، فاتجه للحزب الشيوعي واقترب منه ظناً أن الحزب سيمنحه مركزاً رفيعاً لكنه أخطأ، لأن الشيوعيين ليسوا بسطاء... الخ، ص 71⁽¹⁾.

ربما كان فيما يقوله جميل حاجو توضيحاً لنقاط سالفة، وإضاعة لها، وهي في بنيتها تتطلب من القارئ ضبطاً للنفس، وليس أن يقول: إذاً الوضع هكذا، إنما أن يقارن، ويحلل، ويفكر، ويبحث، ويتعلم، ويستفهم، كما تعلّم حاجو آغا في سجنه القراءة والكتابة، وكما تعلّم جميل حاجو هفيريكي، وكتب مذكراته، والأهم في ذلك هو كيفية خلق نوع من التوازن المعرفي بين هاتيك الأقوال، مهما بدا أحدها منفراً، ليس بمعنى المصالحة، أو التسامح، فهذا جانب آخر، وإنما تأكيد مقولة تقدير كتابة الآخر قدر الإمكان، بغية التمكن من قراءتها، باعتبارها تسمّ شخصاً معيناً،

(1) هفيريكي، جميل حاجو: مذكرات جميل حاجو، المصدر المذكور، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

له شخصيته، واحترامه واجب، ليكون في المحصلة هذا التوسع في العلاقة، وفي الطبيعة المشتركة للناس جميعاً، وهي تصلهم ببعضهم بعضاً.

أتراني ابتعدت عن كلام جميل حاجو؟ أتراني نبّهت هنا من لم يتنبه إلى خلل فيما سطره؟ ليس الوضع كذلك، وإنما هو في كيفية نقد الآخر، وما يعنيه النقد من انفتاح عليه وليس الانغلاق على الذات، إذ ربما كان الذي أفصح عنه نجل حاجو آغا مدركاً لحقيقة من يتحدث عنه: اوصمان/عثمان صبري أو غيره، أو حتى متشجعاً، جرّاء واقعة فعلية، فإن الذي يحفّزه قوله هذا هو البحث في الأسباب والمسببات دون الوصول إلى حد القطيعة، أو تغليب أحدهما على الآخر، لأن النقد لم يكن في محتواه عملية تغليب أو تغليب إنما تقريب وجهات النظر، والاستفادة من التاريخ الذي يعلم بمقدار ما يهدّب الروح.

يتحدث نذير جبو عن سلاطين هفيركان، كما لو أن طبيعة كردستان في تنوعها، وفي منحها يتشظ الخيال، ولكنه في هذا السياق قد يتحمس لقول، لوضع دون آخر، وليس الحديث عن حاجو آغا، وعن «خوبيون» إلا هذا التنوع والذي يتطلب تركيزاً أكثر واستبصاراً لما هو خفي بالمقابل، حيث نقراً، بدءاً من عنوان فرعي له قيمته «حاجو قائداً كردياً» ما ما يشدّد على هذه العبارة (بعد تبوئه مكانة في «سوريا» فإنه جعل الكثير من الوطنيين الكرد، الذين قدموا هاربين من الشمال أصحاب بيوت، مع تقديم المساعدات المختلفة، وجلادت في المقدمة، وكور حسين باشا.. ص 189... وهناك أسرة آل علي يونس.. ص 191... ومن ضيوفه وجد من كانوا أعداؤه أيضاً كوجهاء دكشوريين.. ص 192...).

هذه المقتطفات تشكّل بوابة مفتوحة على مصراعيها للنظر في موقعه، وما بلغه من مكانة في الوسط الذي استقر فيه، وفيما بعد يكون الانتقال إلى الحديث عن «تأسيس خوبيون» «5 تشرين الأول 1927» (خوبيون في مقدمة أهم التنظيمات السياسية الكردية في التاريخ الحديث وأكثر.. ص 192... وقد أقر تبعاً لأحدهم بلزوم إنقاذ الجزء الذي يسيطر عليه الأتراك من كردستان من الحكم التركي.. ص 195.. ومؤسسوه عديدون كما يذكر آلاكوم، ص 198.. جلادت بدرخان: 1893-1951- ممدوح سليم بك 1880-1976.. د. محمد شكري صكبان 1881-1960- أمين رامانلي «رمي» أو أميني بريخان.. علي رضا ابن سعيد بيروان.. فهمي الليجي 1887-1967.. بوزان شاهين 1895-1968.. مصطفى شاهين؟- 1953).

هؤلاء هم أصحابه، نظراؤه، معارفه، أهله، من كانوا يتحركون في محيطه، أو ضمن دائرة اهتماماته ومشاغله، وأن جمعية «خوييون» كانت الخانة المشتركة في لحظة معينة من الزمن، وحاجو بوصفه أحد مؤسسي خوييون :

(يأتي حاجو في مقدمة الأشخاص الذين بذلوا جهداً كبيراً من أجل انعقاد المؤتمر التأسيسي ص 206... كرس حاجو آغا كل إمكاناته من أجل تلبية احتياجات الأعضاء أثناء جلسات المؤتمر، كما أن الذي ضمن أمن المؤتمر كانت قوات هفيركات التابعة له ص 207.. إن أهم خدمة قام بها حاجو داخل التنظيم هي المساعي الكبيرة التي قام بها من أجل نشر الوعي القومي الكردي في الجزيرة.. ص 207... فقد كان أحد أعضاء فرع خوييون في الحسكة ص 208... عدا عن أنه نشر مقالات له، كما في مجلة «هاوار» بعنوان: الآغوات والشيوخ والمتورون «وهو يركّز على موضوع التعليم، وكذلك نشر جميل حاجو مقالاً هو» الكرد طيبون وكن جهلاء».. ص 210.. وكان العمل من خلال التوصل مع فرنسا من أجل مصلحة الكرد ص 216... في أحداث عامودا: لعب حاجو دوراً في إنهاؤها ص 220... وساند ثورة آكري، عندما خفف الضغط عنها حيث اجتاز الحدود بمساعدة لجنة خوييون، وفي 5 آب 1930 استولى على قرية صغيرة بالقرب من نصيبين. داعياً الناس إلى دعم انتفاضة آكري ص 223... ومن ثم عن خوييون وملاحظات حوله: لم بنية خوييون الاجتماعية متجانسة.. ص 225... ووجد نزاع بين آل جميل باشا وآل حاجو. ص 226... والخصومة بين آل بدرخان وآل جميل باشا. ص 229... وحاول حاجو رأب الصدع بين المتورين وبين الآغوات والشيوخ ص 230... وثمة قول لحاجو عن أن عدم تحقيق النجاح لانقسام الكرد هناك جهل بما جرى وبسبب عدم احتكاك المتورين بالناس. ص (232)⁽¹⁾.

أردتها مقاطع، وعبارات، وأحياناً جملاً متتالية، ضمن منظومة بحثية قد تكون منتشرة في رقعة جغرافية وزمنية واسعة، سوى أن الذي رميت إليه، هو نوع من التنوع في الكلام والكتابة، وليس تكرار ما سبق، إنما ربط بعض مما سبق ذكره بما هو مختلف يمنحه قيمة دلالية أخرى، وأن هذه التقطيعات، بنية التأمل، وإلا لكان في المستطاع، وبسّر شديد، اقتباس مقطع معين عن الموضوع، وحصره في نطاق الفقرة المسماة، والاكتفاء ببعض التعليق، ثم الانتقال إلى ما بعدها وهكذا.

(1) جبو، نذير: سلاطين هفيركان.... المصدر المذكور، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

أنا على يقين أن في حديث جبو وما أفصح عنه أو نقله ما يفيد، أي ما يجعل القارئ منتقلاً بين عمل الذاكرة المنقبة: ما إذا كان الذي تردّد في النص هوهكذا أم لا من باب الدقة، وعمل التصور الذي يمضي به إلى الأمام والغد، ليكون أكثر أهلية للانبناء في الداخل، وهي العملية التي تثمر معرفة، بمقدار ما تعزز ثقافة مركبة

إشكالات لا تُمحي :

بين نوع من التكتاف والتعاقد والشعور بما هو مشترك في تشكيل «خوبيون» والسعي الآخر الذي يغذي في أعضائها فضيلة الهدف السامي بالنسبة لكردستان الوطن المستقل أو المنشود، والتخوف مما هو قائم في عدم اكتمال نصاب هذه العملية، لأن مسار العمل ليس كما هو مبرمج له، أو كون المسيرة الزمنية تطلبت متابعة، سوى أن الجهد المبذول كان دونها، لاختلاف المواقف، أو لأن المواقف لم تستمر بالوتيرة ذاتها، وهذا ما أدى إلى صدام داخلي، أو التخلي عن الهدف المشترك والمباشرة بتوجيه الاتهامات، وما في ذلك من نسيان ما كان يجب التمسك به.

جبو، حين يسمي «آل...» أو «آل...»، إثر تصدع الوضع، فهو يعني أن الوطن كمفهوم قد أنزل من علياء موقعه، وأهمل جانباً، وبرزت صورت «آل...» و «آل...»، كما لو أن حدوداً التهبت في هذه العلاقة، وأن «أكري» قد استحال «أكري : ناراً» في الداخل: في النفوس والرؤوس، وهو ما يحبط وثبط أو يؤلم، ولا يؤجل المنشود فحسب، وإنما يجعله في حال التذكير به محل نبذ، أو رجّم أحياناً، كما لو أنه كان السبب في حصول هذه الشقاكات أو النزاعات المختلفة ، كما لو أن أصل «خوبيون» هو ألا تكون في معناها الحرفي «ألا تكون نفسك» وقد توحدت مع «نفس» الآخر، أي ما ليس استقلالاً، والذي يقتضي خروجاً من قبلية الذات، وغواية النسب الضيق إلى رحابة النسب المؤمل: نسب الوطن !

في العودة إلى حاجو، يظهر أنه يتقدم الكثير من الذين كان لهم باع طويل في تأسيس «خوبيون» سوى أن شيئاً مريباً، ربما يتلبس عملية التأسيس، أو حتى ما قبل التأسيس، وهو ما إذا كان الذي يشد أعضاء الجمعية إلى بعضهم بعضاً له أصل مشترك، في الاستقطاب والانشغال بالهدف الواحد، وليس استناداً إلى مقامات نسبية، أو لقبية بالمقابل ؟

جَبَّوْ، كما أقرأ ما يكتبه، يعزّز مكانة حاجو ليس من باب المحاباة، لأنه في العديد من النقاط لا يدّخر جهداً في نقده ويتشدّد أيضاً، كما في طبيعة علاقاته مع أهله، وعشيرته والعشائر الأخرى، مثلاً، إنما يجد فيه رجلاً محنكاً، وحريراً واقع وفي اتجاهات مختلفة، أي يستطيع أن يناور، وأن يتعدى حدوداً في غفلة عن الآخرين، وذلك من خلال تجاربه المتراكمة.

حاجو يخطيء، نعم، يخطيء، ولكنه يصيب أيضاً، لأنه يرجع إلى الواقع، ويحفظ درس الواقع كثيراً، أي إن كتابه الرئيس الذي يتصفحه ويعيد قراءته مراراً وتكراراً هو كتاب الواقع أكثر من الذين ينطلقون من الكتاب، من الأفكار غالباً.

تأكيداً على ذلك، أي بخصوص ما كان يمكن لحاجو أن يغتني به، وهو التزود ببعض من ثقافة الآخر: الغرب، ليكون أكثر قابلية في النجاح، أو مواجهة خصومه، فإنه مقارنة بمن تعاون معهم، وتشارك وإياهم في «خويبون» هو أكثر تفهماً للواقع، لأنه أكثر إحاطة بالواقع، بطبيعية كردستان الجغرافية التي تنقل في جنباتها، وكيف يستثمرها لصالحه كرجل خبرة أو خائض نزاعات وحروب وفي أمكنة مختلفة.

ربما من هنا، كانت حساسية المقال الذي نشره في مجلة «هاوار» كما يذكرها جبو، تحت عنوان «الأغا والشيخ والمتورين»، ومن المفيد، إيراد مقاطع منه :

(أريد قول بعض الأمور بخصوص الكفاح الذي خاضه الكرد وكردستان سابقاً، والمستمر الآن، والذي سيخوضونه مستقبلاً

اليوم، أرى أن شبابنا المتعلمين يسعون لفعل أشياء من أجل بلادهم، وهذا حديث يبعث السرور جداً في نفسي...

إن شبابنا هؤلاء يعدّون أنفسهم متورين، ولهذا يجب أن يخوضوا الكفاح من أجل حرية وطنهم قبل أي شخص آخر...

ومن جهة أخرى أرى أن عدم إعطاء نفس المتورين والشباب أي اعتبار للأغوات والشيوخ، وقيامهم بنشاطات مناهضة لهم، موقف خاطيء. إنهم يقولون بأن الأغوات والشيوخ يشوشون أفكار الناس ويستغلونهم...

إن شبابنا الذين لامسوا المداد «المتعلمين» استقروا في المدن الكبيرة والصغيرة وابتعدوا عن هويتهم الكردية، ولو أن هؤلاء اتحدوا مع الأغوات والشيوخ وكافحوا

سوية، فإن من المؤكد أنهم كانوا سيحرزون نجاحات «انتصارات» كبيرة، إلا أنهم لم يفعلوا..

يجب أن نسأل الآن، ترى أين كان متتورونا عندما أغار المشاركون في الحركة عن مدن كردستان ولأحقوا بها الضرر؟

.... ولا شك أن للأغوات والشيوخ أيضاً أخطاءهم، ولكن يجب أن لا ننسى بأن الذين انتفضوا كانوا الشيوخ والملاي، ومؤيديهم الأغوات...
.. بيد أن اليوم ليس وقت اتهام بعضنا البعض...

ولا شك أن للأغوات والشيوخ أخطاءهم، ومن ذلك قولهم بأن الشباب المتعلمين والمتتورين «لا دين لهم»، إن هذا أمر غير صحيح...
إن كائناً من كان إذا خدم وطنه يصل إلى مرتبة مقدسة...).

ويورد جبو رد من انتقد المقال، والذي سمى رسالته بـ «رسالة الموتى»، حيث يشير إلى أن الضرر الذي ألحقه الأغوات والشيوخ بالكرد كان بليغاً، وربما كان ممثلاً للنخبة الجامعيين.

وفي مثال تال، يورد واقعة تتمثل في مناظرة: مواجهة حادة بين حاجو آغا ونور الدين زازا والذي أغلظ القول له كما يظهر، فمنع حاجو آغا رجاله من إيذائه مسوِّغاً ذلك بأنه (إنسان متعلم ومتنور...) ⁽¹⁾.

هذا التوجه في الكتابة فيه ما يفيد وما يشيد بالنقد، كما في موقف حاجو من زازا، سوى أن المقال، لو كتبه شخص آخر، ولنقل أنه في هذه المرة من

(1) المصدر نفسه، صص 231-234 .

ومن المعلوم، أن المقال نشر في مجلة «هاوار» التي كان يصدرها جلادت بدرخان، العدد «15» 23 كانون الثاني 1933 ، وبالحروف العربية «شيخ وآغا ومنوران»، صص 318-317 ، وأما الرد، ففي العدد «17» 6 آذار 1933، وتحت عنوان «رشبلكا مرييان: رسالة الموتى»، صص 358-357 ، حيث أظهر رئيس التحرير أن الاسم حركي في التمهيد لنشر الرد، وهو ما يقلل من أهميته (ثمّة أمر، وهو أن أفين جيوه لك اسم سري.. وأن من أصول النشر في الطباعة والصحيفة هو أن من يكتب باسم سري، يصرّح باسمه الصريح في الأعلى، والصحيفة تعلم بأمره...ص 358)، ويبدو أنه نشر المقال لأمرين: الأول، تقديراً لأهمية النقد، وثانياً تجنباً للمحابة، وربما، ثالثاً، حتى لا يحسب الكاتب، وهو حاجو آغا على الصحيفة أو المجلة .

«البكوات: أهل المدينة»، وهو متنور/متعلم، أي موقف كان سيتشكل؟ أما كانت الفائدة في الحالة هذه تعم أكثر؟ أليس توجهاً كهذا يقرب المسافة بين الطرفين، وهما غير منفصلين عن بعضهما بعضاً.

لعل خلافاً «خويبون» تقرأ أحياناً في ضوء مكاشفة نقدية، حيث إنها ضمت أسماء من الطرفين، كما لو أن الذين اعتبروا أنفسهم في عداد المتنورين/المثقفين، مقصودين بنقد حاجو آغا، وهم بكوات، وما في ذلك من مواجهة ساخنة، تصل ما بين المنتمي إلى البرية/الريف/القرية/عالم الخيمة، والمنتمي إلى المدينة/الحضر/القصر، وهنا نجد أنفسنا تجاه نوعين من التفكير والنظر إلى العالم وقد انقسم على اسمه، أو أصابه شرخ داخلي، وما في ذلك من بلبلية، ومن ثم من تنازع وتنافر في آن، وبالتالي، إلى التباعد وانتفاء فرص التقارب والتجاوز في عمل بناء، وقد قيل في ذلك الكثير عمن يكون شيخاً أو آخر «حاجو»، مثال حي هنا، ومن يكون من البكوات «قدري جميل، مثلاً، في الواجهة»، جرأً اشتراك الطرفين في جمعية، وما آل إليه أمرها، وليكون فشلها مقروءاً على خلفية المقال، وكأن المتنورين محل تهمة.

لكن من هم في قائمة المتنورين، غير آل قدري جميل باشا، أي من هم مقربون من حاجو آغا: جلادت وكاميران، ومن نورالدين زازا... الخ، إذًا، ما الذي يمكن أن يقال في ضوء هذا المقال، ورد الاسم الخفي الذي يتشيع للمتنورين، وهم نقيض «الموتى» الممثلين إجمالاً في «حاجو»؟

ذلك يرجع بنا إلى واقعة تاريخية داخل «خويبون» حيث الخلاف الدائر بين كاميران وآخرين «قدري جميل باشا وغيره»، ومع كاميران الذي أتهم بالاختلاس من قبل أولئك، جلادت، وليكون حاجو معهما، وهو ما فجر النزاع أكثر، أي إن قراءة المقال تنطلق مما هو قائم، وليس مما يمكن التوسع في مفهومه، وكأن كتابة المقال، في ضوء المثار، ترافقت، أو تزامنت مع الحالة الانقسامية التي كان أقطاب «خويبون» يعيشونها، وليس أن يتناولوها بما هي فاعلة في الجميع، كما لو أن المقال ذاك- أيضاً- ترافق مع المكبوت داخل كل منهم، وعبر اصطفايات تنمي الانقسامية أكثر فأكثر.

في الوقت نفسه، فإن المقال يصلح لأن يُقرأ بعيداً عن إسقاطات نفسية أو إيديولوجية، سوى أن ما تعرضوا أظهر الأساس الهش، هذه المرة لما يتفكرونه

ويتعاملون معه في الواقع، والذي يدفع بمن يريد المزيد من بث الشقاق، في أن يشدد على لأهلية لا هؤلاء ولا أولئك لأن يكونوا أعضاء جمعية كهذه، وذات صلة بما هو سامٍ، وهو ما سنأتي إليه تالياً.

لكن ثمة ما يجب التمسك به، لنحسن تهذيب أنفسنا، ونحن في فضاء تاريخ رحب، وثمة ما يصادم، في ضوء خيبات الكرد، أي حين نعين البعد المدني لـ «خويبون» كأحدث وثيقة تاريخية للكرد، مركبة تضم أطرافاً ثقافية وسياسية مختلفة.

ثمة ما هو مستقبلي يستحسن التعرف عليه في كتاب جبو:

جهة القسم «الخويبوني» والذي لا يفضل فيه أي كان سواء، لأن المصير مشترك، على الأقل من خلال بنية الكلمات، والتي تكونت في صيغة بيان وزّع في جهات كردية شتى :

(أقسم بشرفي ودينني بأنني سوف لن أستخدم السلاح ضد أي كردي على مدى سنتين من تاريخ توقيعي هذا التعهد، إلا إذا قام باستهداف حياتي أو شرفي، أو حياة وشرف أولئك الذين أكون مسؤولاً عن سلامتهم بموجب الالتزامات العائلية أو القومية، وبأنني سأقوم بتأجيل كل مسائل الثأر والنزاعات الأخرى لمدة سنتين، وسأبذل أقصى ما بوسعي لمنع سفك الدماء بين كرديين حول مسائل شخصية خلال هاتين السنتين. إن أي كردي يعمل خلافاً لهذا التعهد يعدّ خائناً لأمته، وإن قتل أي خائن هو واجب..ص 258).

طبعاً، ما يلفت النظر في القسم، هو الجانب الديني، وقد تواءم مع الشرف الشخصي، إنما، ولكي نكون أكثر واقعية وإخلاصاً لتاريخ واقع الحال، فإن القسم هذا كان يتطابق مع ثقافة زمانه على أكثر من صعيد، ومن خلال نوعية المجتمع المخاطب، المجتمع الكردي، وأن قسم الإنسان بشرفه ساري المفعول إلى هذه اللحظة، ولعله قسم يصله بالأعراف، عدا عن كونه متعدداً لتلك الصفة الاسمية: لا يقتصر على الشخص الذي أقسم وحده، إنما يعني هو وعائلته وأهله، وحتى عشيرته وجماعته، وما يترتب على ذلك من استماتة، أما الجانب الديني، فرغم ظهور بوادر معتقدات لها صلة باللائكية وليس الملائكية «بالعلم الدنيوي/المجتمع المدني وليس الدين، ومجتمع الجامع، إن جاز التعبير، إلا أنه يظل أقرب إلى بنيان المجتمع الثقافي-الروحي.

نقد وارد :

وإذا كان هناك من إمكان توجيه النقد إلى مدى تلبس الدين بمفهومه العاطفي وليس النضالي الذي يمنح المرء الحق بالتمايز، كالعربي والفارسي والتركي، مثلاً، وأن القومية كائن غريب أو مغترب، لم يهتد إلى «بيته» المجتمعي المؤسساتي كما هو متوخى. بناء عليه، فإن ما يظهر هو أن الذين صاغوا البيان وجدوا أنفسهم مضطرين إلى هذا الأسلوب بمآثرته العاطفية، حيث الغالبية من شعبهم تفتقر إلى أبسط درجات «فك الحرف» وأنهم بمراعاتهم لهذا البعد المعرفي والنفسي، برروا اعتماد مفردات لها مدى حسي، يثير عاطفة الجماهير المسكونة بحرارة التدين، وإن كان في ذلك ما يتهدد الكاتب ذاته، لأن ثمة ما هو أكثر إثارة من مجرد مخاطبة الوعي الديني لدى الكرد.

والذي عرفت به نهاية الثورة، والمصير المأسوي للشيخ سعيد ورفاقه، ومن ثم تلك الدعاية السوداء بطابعها الديني السلبي من قبل السلطات التركية، باعتبار من قاموا بالثورة رجعيين، وأن كرداً تأثروا بهذه الدعاية واعتمدوها في تحليل بنية الثورة، كما لو أنهم قلّدوا أعداءهم، وهم ينتقدونهم، حال جكرخوين بالذات، ومفارقة التعامل مع الواقع بسلبية لا تغتفر.

إنما ما يهم كذلك، هو مدى اهتمام باحث أجنبي آخر بالموضوع، وحاجو آغا في المتن.

أعني بذلك البحث المذيل في كتاب جبو لـ «نيليدا فوكارو»، ومن زوايا شتى أيضاً :

أولاً، ما يشدد على أهمية كرد «تركيا» لكرد «سوريا» (كان نمو الوعي القومي بين الكرد السوريين يعتمد إلى حد مهم على التطورات التي تؤثر في الكرد الذين يعيشون في تركيا، لأنه تعزز أو نشأ بشكل رئيسي بين جماعة المهاجرين الكرد الذين وصلوا إلى سوريا قادمين من تركيا بعد عام 1925. ص 247)، إنما ذلك لا يعني تقسيماً «طبقياً» في الجغرافيا، حيث التفاوت في التواجد السكاني كان يتبع عملية المكان وفائدته، حال برية نصيبين-ماردين، وفي الجانب الآخر، أن خط الانتقال طارئ، عرّضي، ولم يكن له من وجود، أي حين أصبح التفكير في المساحة «الفارغة : بنختي» وكأنها غير مسكونة، أو «طابو» تملك للدولة التي جاءت فيما

بعد، أي دولة أوجدتها الاتفاقية الاستعمارية، على حساب سكان أصليين في المكان.

من هنا، يكون الحديث عن الإحصاء السكاني رهن التحولات والمستجدات، إلى جانب أن أي معلومة إحصائية لا تعتمد كوثيقة دقيقة، حيث السياسة السكانية فاعلة هنا (وفقاً لإحصاء السكان في عام 1943 شكل الكرد الذين يعيشون في سوريا ما بين 75 و «8» بالمائة ، من المجموعة الكلّي لسكان سوريا.. ص 248).

وثانياً، نلاحظ مثلاً، نوع التحول في التركيبة السكانية (بحلول عام 1932، كانت عملية التوطين بين السكان الكرد الرحّل «العشائر الرعوية المتنقلة» في شمال شرق «سوريا» قد حققت تقدماً جيداً، وقد بقيت عشيرتان فقط استمرت على هجرتهم الموسمية إلى تركيا والعراق وهما: اتحاد «عشائر» الملي واتحاد «عشائر» ميران، التي كانت تعيش على أطراف مناطق الاستقرار الزراعي.. ص 250).

سياسة التعامل مع الأرض بالمفهوم الرعوي تبرز أفقية، إلا أن نفاذ الأثر الزراعي أوجد البعد الشاقولي، جهة استثمار الأرض، وهذا أوجد معه البناء المنزلي، والمؤسساتي، ومن ثم طرق البحث الأنجع عن الاستثمار اقتصادياً، فالصراع على الملكية... الخ، وهو ما نجد له أثراً في الجزيرة، إنما من على بعد: من دمشق على الأقل، جرّاء تسمية الحدود السياسية.

وثالثاً، ربما أمكن النظر في «خوييون» على أنها قران الزراعي بالحضري، ومن ثم الانتقال إلى الخطوة الأهم: كيفية تأمين الاستقلالية لمن هم في المكان، باستعمال القوة المسيية، وهي من حيث الإمكانية أميل إلى البرية من المدينة، لظروف أفصحت عن شواغر، كان عليها أن تنتظر لبعض الوقت ليكون هناك امتلاء بسكان معينين، والتخطيط الدقيق لسياسة سكانية أكثر ضبطاً (إن إخفاق خوييون في تجنيد القوات العشائرية يرجع إلى عدد من الأسباب السياسية والإيديولوجية المهمة، ويتمثل العامل الأول في السيطرة المشددة على الحدود الأمر الذي منع مجموعات كبيرة من رجال العشائر من العراق وسوريا من الوصول إلى مناطق العمليات العسكرية. ص 255)، أي حيث وجد تفاوت بين المتحكم بالأرض كاستعمار، ومن يحاول نبذ ذلك، وأن «خوييون» لا تتفصل عن مؤثرات حدودية

نشأة، بمقدار ما أنها بلعت الطعم القاتل حدودياً، من خلال ظهور عشائر كردية أو أقسام منها تصد سواها، وما في ذلك من انقسام ذاتي في الجغرافيا الواحدة.

وربما كان حاجو آغا يحاول توسيع مفهوم العلاقة بالأرض، وهو الذي تخضرم في الإقامة على الأرض، أي جمع بين بنختي وسرختي، ولكن وعياً آخر كان يعتبر الجمع هذا تهديداً لسلطته، أي ما يعيق عملية نمو تفكير سلطوي يمحي صورة الخيمة لصالح صورة البيت الطابقي، ليكون هناك تفهم أكثر للمكان (والحقيقة أن الدعاية العشائرية للتنظيم قد نسقت بعد عام 1927 من قبل حاجو آغا «زعيم» اتحاد هفيركان، وهو عضو فرع خوييون في الحسكة..ص 257)، بحيث يمكن القول أن حاجو التالي في الترتيب الهرمي في «خوييون» أي بعد المؤسسين المعروفين، عموماً، يمكن احتسابه الأول على الأرض، في إشهار حيوية «خوييون» عبر قطع الحدود، حيث إنه ما كان ينظر كآخرين، بمقدار ما كان يخطط على الأرض ويسمي ما يلحق الأرض به وليس إلحاقه بها.

حيث إن الفعاليات الثقافية ذاتها، والتي كانت تتراعى إفرازاً مدينيّاً، إنما كانت تنتعش برئة على هيئة أرض مستصلحة أو مستثمرة زراعياً، وثمة حراس عليها، ومن هنا، يمكن الربط بين عمل جلادت الثقافي وعمل حاجو آغا السياسي التطبيقي، وفرنسا، كانت تراعي ذلك إذ (قدّمت سلطات الانتداب الفرنسي عدداً من التنازلات للطموحات الثقافية الكردية، وشددت على القيمة الروحية العليا للنهضة الثقافية الكردية...ص 262).

ولا بد من دليل ملموس حول توأم العلاقة هذه، وهو أن فرنسا كانت تتخوف كثيراً من محاولة تعميق المادة الثقافية لـ «خوييون» وما اشتغل عليه جلادت في «هاوار»، مراعية مصالحها على أعلى مستوى سياسياً، وعينها على حدود تركيا وليس العراق، لأن الخطر كامن هناك كما هو معلوم، فكان الإبعاد المستمر لكل شخصية سياسية كردية إلى الداخل، عبارة عن ضغط موجه من تركيا، وموافق عليه فرنسياً، وكأن حصر أي نشاط في الداخل إفقار له، إذ (حاولت السلطات الفرنسية تهميش التأثير القومي لخوييون، وتقليص توزيعها وانتشارها كمشجع على هوية كردية مميزة في سوريا، ولهذا غالباً ما حاول الموظفون الفرنسيون إظهار أن أغلبية الكرد لا يتطابقون مع غايات التنظيم..ص 263).

أسئلة لا تهدأ :

أليس لهذا التهميش صلة قرابة بمسألة اختزال المكان/الأرض، عبر سياسة الترحيلات بين المدن الداخلية في سوريا ؟ أليس «عصر» المساحة نفسها، تأمين على سلطة استحواذية على المكان، تلتقي فيها الأضداد، كما في حال فرنسا وتركيا وسوريا وإيران والعراق وباكستان؟

في مكاشفة لافتة ومؤثرة لمهمة حاجو آغا في هذه الفترة الحرجة من التاريخ الكردي، ثمة ما يستدعي بعضاً من ضبط الكلام (إن حياة وفعاليات حاجو آغا، زعيم اتحاد هفيركان العشائري، تفصح عن درجة من التواصل لمختلف المراحل في عملية التعبئة الكردية في سوريا...وقد جسد حاجو أيضاً العديد من التناقضات في الحركة القومية الكردية النامية...ص 267).

طبعاً، وكما هو مكرّر سالفاً، وفي أكثر من مكان، جهة فك الارتباط بين العشائري والقومي، أو بالعكس، فإن عملية الفك كانت ومازالت المعضل في القضية الكردية برمتها، وليس بالنسبة إلى طرف كردي دون آخر، في صراعه مع العدو القومي للکرد، حيث ينوّه إلى تداخل الاثنين في شخص حاجو، لكنه من الظلم بمكان أن نحمله وزر هذا «المسخ» المتشكّل، إن راعينا القيمة الفعلية للمحسوس، أي عدم تسليم العشائرية قواها للقومية، وعدم محاولة القومية هضمها بتلك الطريقة التي تستسيغها، فثمة توقّف عن الاستمرار، ولكن مبدول حاجو آغا، والذي يُرى في مسارات مختلفة، جرّ عليه ويلات وألبسّه اتهامات، كرجل تحديات أو مغامر، حيث يصعب وجود من يمكنه القيام بدوره الآن، إن قابلنا بين مجموعة القوى والتحديات والإمكانات، وفي جهة جغرافية، يتم تجريم كل من يسمّي نظاماً كونفدرالياً، أو أهمية إدارة ذاتية للبلاد، وتحرير الذهنية المركزية من طغيانها الشاقولي/الرمي المروع، على أنه «خائن- عميل»، أليس ذلك مدعاة لأن نكون أكثر انفتاحاً على ما كان، والكشف عن أدواته، ليأخذ الرجل حجمه الطبيعي؟

أي حين نتابع الموضوع من الزاوية الأكثر استواء لتاريخ مكانة، لتاريخ علاقة، وتاريخ تفاعل مع المكان والزمان، عندما نتابع صيرورة حاجو آغا نفسه، آله، في المكان الذي يحمل بصمته «بنختي» بالذات، أي في نطاق الجزيرة: تربه سبي،

والجوار: شمالاً وشرقاً، وكيف أن رؤية العمران الذي ميّز «تربه سبي»، من خلال مجموعة قصور لآل حاجو، تعزيز لهذا التفهم للمكان، ولما هو حدثي، أي تشرب روح المدنية بسرعات قياسية أكثر من الآخرين، وفي بعض الأحيان، على خلفية من المقارنات بين ما هو بيك «ابن المدينة والمدرسة» و «آغا» ابن الريف والثقافة الشفاهية، وهي ثنائية مختلفة، ورغم ذلك، إن أخذ بها افتراضاً، نجد إلى أي مدى، تصبح هذه الثنائية شاهدة على توهم، أو تجيير للمكان، لأن آل حاجو في مجمل ما عرفوا به، مهما كان الموقف منهم سلبياً، ثمة ما يضيء ساحة حضورهم الاجتماعي والثقافي والنفسي: روح المدنية: بالهيئة والأسماء وعلى مستوى الزي نفسه خلاف جل المتداول عن تأثر كرد المنطقة باللباس العربي: الرجال فيهم غالباً، كما في «الجتاية والعقال»، كتقليد للعرب، ولم يكن لذلك من حضور بين أفراد حاجو آغا، وخصوصاً الكبار من بينهم، من خلال ما يعتمرونه على رأسهم «العمامة الكردية»، والتفاعل مع ما هو كردي، أكثر من كثيرين من البيكوات أنفسهم، وليس من موقع المجارة، لأن العملية تسمي الداخل ومساحة التوضع، وربما من هذا المنعطف المرئي تاريخياً، يغدو الآغا المغاير لنمطية الآغا السائدة في المنطقة عموماً، وحيث استقر آل حاجو خصوصاً، باعتباره المتحرر من تلك الذهنية المروج لها حتى اللحظة، بمقدار ما يبرز المتجاوز - حتى - لنمطية البيك المقترن بالمدينة، وهو يجيد التكيف مع روحية المدينة، كما أنه لا ينسى كيفية التفاعل مع الريف، أو عالم القرية بصورة ما، وربما كان في ذلك استثناء لتاريخ أسري يستدعي عالمين: الآغا والبيك، لكنه لا يتشكل داخل أي منهما، إنما يأخذ من كليهما، أي تأسيس الذات الخاصة ، وفي ضوء انفجار المواقف والتقييمات، تتسلسل مواجهات شتى.

ربما، من جهة أخرى، نجد أنفسنا في مواجهة ضروب من الإرغامات في وضع شائك كهذا، كما في حال باروت الذي «كولج» جملاً وتصورات على خلفية الخلاف القائم خويبونيأ، مظهر حاجو آغا بمظهر المتحامل، وما يعنيه هذا التحميل من تقويل ومن تهويل ومن تعطيل للفكر النقدي وتجنّيه، وهو يشير إلى تاريخ نشر المقال بـ «آذار - 1933»، وهو «كانون الثاني - 1933» كما تابعت المصدر «باللغة الكردية، أما الرد ففي» آذار-1933 » (كان حاجو يقصد بهم «أي المتتورين» «أمثال»

قدري جميل باشا وعارف عباس والدكتور أحمد نافذ الذين ينتمون إلى فئة «المنتمين». ويبدو أن وصف «المتتورين» في مقالة حاجو آغا لم يكن إلا تعبير عما كان بوصف في ديار بكر تحت لقب «البيك» في تمييزه عن «الآغا». ففي ديار بكر كان الآغا هو الزعيم القبلي الجبلي الأمي الذي يتميز بأنه محارب، بينما كان «البيك» هو الذي يعيش في البلدة، وقد لا يكون زعيماً قُبلياً أصلاً، ويشارك في السياسة⁽¹⁾.

هل باروت يتنصّر للبيك ؟ «حرصاً على أهمية الثقافة التي يحملها بين جنبيه ابن المدينة هذا، وكونه مؤسسائياً، وكون الآغا ينتمي إلى عالم الريف/القرية، ويفتقر إلى تلك الثقافة التي تجيز له التحدث في السياسة، مثلاً، وغيرها؟ أم لأنه على طريقة «طنجرة لقت غطاها» وجد في مثال كهذا ما يشجعه أكثر لأن يسلس القياد لإرهاصاته أو هواجسه، وما يريد التصريح به دون منغصات، لأن ثمة من يعتبر خصماً وله كل هذا الحضور في الساحة السياسية، و«مستول» على مساحة واسعة من «أرضه»، وليس من يكون نظيراً له في الثقافة !!

أحسب أن باروت معادي الآغا وهو متشنج منه، ومجاور للبيك وهو دونه تفهم ثقافة، أي ما يبقيه دخيلاً على الثقافة المميّزة لكل منهما: الداس بينهما. إن «أمير» ميكيا فيلي ممسوخ هنا!

إنها تهيوّات ومساع لضبط الحالة تبعاً لمنشود نفسي، لأن ما أفصح حاجو عنه لا يستخف به كما يتصور، إلى جانب أن الكلام الذي يتكلم هنا، يسمي نطاقه الجغرافي، أي ما تحققه من خلال الرجل بالذات، وحاجو من حيث التقييم، يظل مقارنة بكثيرين ممن زعموا أنهم قادرون على تحقيق إنجازات كثيرة، يظل صاحب السبق التاريخي هنا، عدا عن أن الذي كتب مقالاً لا يكون أمياً، وهو ما لم ينتبه إلي باروت، إنما هناك رؤية معينة تحدد له مكانة في وسطه أو مجتمعه، أي ما لا يريد رؤيته ومعرفته حقاً.

إزاء ذلك، يمكن لنا أن نتابع وأن نبز مفارقات أخرى في هذا السياق في الحيّز المتعلق بـ «خوبيون» لدى باروت، وهي، أن كتابته مهمة، على الأقل من باب الإطلاع، إنما أيضاً، نظراً لخطورتها، لأنها متداولة في الوسط الثقافي العربي، حيث إن أغلبية الأسماء أو المصادر ذات الصلة، ربما غير معروفة لدى قارئ

(1) باروت، محمد جمال: التكوين التاريخي الحديث للجزيرة السورية، المصدر المذكور، 397 .

الضاد، وبالتالي، فإن ما هو وارد يمكن أن يؤخذ به على أنه حقائق، وبهذا يكون الذي كتب عنه قد «سوّدت» صفحته لزمن يطول :

محمد جمال باروت: التكون التاريخي الحديث للجزيرة السورية، المصدر المذكور:

(هناك الإشارة إلى انضمام من قدموا إلى سوريا من أعيان ولايات ديار بكر في جمعية «خويبون» القومية الكردية، ضمن مجموعة صراعات بين «الديار بكرليين» «المدنيين» بقيادة آل جميل باشا أنفسهم، و «الهويركيين» «القبليين» بقيادة حاجو آغا. ص 99. تمثل الاهتمام بحاجو آغا من قبل الفرنسيين، من خلال خطتها السرية التي قامت على رعاية تشكيل تحالف كردي- أرمني «طاشناق» لموازنة الضغوط التركية.... ويبدو أن البدرخانين الذين مثّلوا الطرف الكردي المفاوض مع هاراج بابازيان، أحد قادة الطاشناق في سورية، أدّوا دوراً «سرياً» كبيراً في استقبال الفرنسيين لحاجو آغا الذي كان يعمل بتنسيق مع البدرخانين. ص 252... كيفية اهتمام الفرنسيين بالذين قدموا إلى سوريا كمهاجرين : في سياق سياسة الاستيعاب الاثنية الفرنسية الخاصة بالمهاجرين الأكراد خصوصاً، وبشكل أكثر تحديداً في سياق «رعاية استخبارات» المفوضية الفرنسية في عام 1927، لإعادة تأليف جمعية «خويبون» الكردية بالتحالف مع «الطاشناق». ص 263... تأكيد ما تقدم، وكأنها البداية، وتحت عنوان لافت جمعية «خويبون»: ولادة الحركة القومية الكردية الحديثة!- مؤتمر بحدون والتحالف مع الطاشناق : بدرخان وبابازيان: في عام 1927 رعت المفوضية في إطار سياساتها الإثنية الخصوصية في الجزيرة، إعادة تشكيل جمعية «خويبون : الاستقلال» الكردية، وهي أول منظمة قومية كردية حديثة تعمل من أجل تحرير كردستان تركيا من «آخر جندي تركي».... وتعهدت الجمعية سرياً لكل من بريطانيا وفرنسا بأنها «ستحضر الأكراد ضمن الحدود العراقية والسورية على إعادة القانون»، نقلاً عن مكحول. ص 382... عنوان: طرد البدرخانين من «خويبون»: كانت التصدعات قد أخذت تبرز في «خويبون» في إثر إخفاق حركة آب/أغسطس 1930، في شكل تراشق تُعم بين أعضائها عن مسؤولية الإخفاق، وتسريب بعض أعضاء الجمعية ومعاونيهم للخطة قبل تنفيذها إلى كل من

الاستخبارات الفرنسية والتركية معاً. ص 395 «عن اوصمان صبري... في الصراع بين القائمة الوطنية والقائمة الانتدابية وهذه مدعومة من حاجو آغا... ويظهر كيف أن جمعية «خوبيون» رغم معارضتها قائمة حاجو آغا، صوتت له، لأنها تعرف : بأس حاجو و «بطشه»، وكذلك تمثيله «بيضة القبان» في العلاقات الكردية- الفرنسية في الجزيرة.. ص 412... كانت التقارير الاستخبارية الفرنسية تعتبر حاجو في البداية ممثل جمعية «خوبيون» في الجزيرة، ثم أخذت تعتبره أداة محلية لسياسة البدرخانيين في الجزيرة. ص 443... بينما كان قادة «خوبيون» في المعتقل أو الإبعاد أو الإقامة الجبرية أو التهديد بالإبعاد عن الجزيرة، انعقد «مؤتمر الجزيرة العام» في أواخر تموز/ يوليو 1938، بحضور 200 شخصية من الانفصاليين برئاسة حاجو آغا، وانتهى المؤتمر بتطير برقية إلى وزارة الخارجية الفرنسية تطالب بمنح الجزيرة الحكم الذاتي الكامل... في هذا السياق أعادت جمعية «خوبيون» تأليف لجنتها المركزية، مستبعدة منها حاجو آغا، لكنها مثلت ابنه القوي حسن حاجو في عضويتها. ص 467... اتصال «خوبيون» بالبريطانيين، إثر غروب عهد الحقبة الفرنسية في سورية، سنة 1939.. ص 512... في عام 1938 أعيد، في خضم هذه المتغيرات، تأليف قيادة «خوبيون» من جديد. ويلحظ إخراج التحالف البدرخاني- الهويبركي منها لمصلحة الجناح الدياربيكرلي- الديركي الملتف حول قدري جميل باشا والدكتور أحمد نافذ، وخلوها من ممثلي القيادات العشائرية التقليدية الكردية المحلية الجزراوية. ص 755.... على خلاف والده الذي تكوّن وعيه في الحروب والغارات، تكوّن وعي حسن حاجو في إطار النشاط العصري لجمعية «خوبيون» ، فتلقّى تعليماً دينياً بسيطاً، ونشط في «الجمعية الخيرية الكردية» وافتتح في أواخر الثلاثينيات في الحسكة مدرسة كردية تعلّم اللغة الكردية بالحروف اللاتينية. ص 756 «نسبة إلى جكرخوين، ويورد اسم خوين، ظناً منه أنه اسمان..»⁽¹⁾.

باروت، كما نوهت، بناء على أقوال أو مقتطفات، يصدر أحكاماً جزافية، إن جاز التوصيف، حيث إن الذي يمكن قوله هو أن لكل عضو مكانته، أو كان له دوره المحفوظ، سوى أن بعضاً من الأعضاء لهم مكانة خاصة تاريخياً.

(1) المصدر نفسه، وأرقام صفحات الكتاب وردت في المتن للإيجاز .

ومن بين أوهام باروت تحديداً، ما يخص الصراع البدرخاني - الدياربكرلي والاصطفافات التي تشكّلت حولهما، كما لو أن الآخرين كان عليهم أن يختاروا هذا الكرف أو ذاك، والمسألة ليست كذلك، إنما تمثلت في صراع على الزعامة، لأن كل طرف يعتبر نفسه الأكثر مدنية أو عراقية، فالأقدر على التمثيل، بحيث تقى قاعدة اجتماعية تضخ الدماء في الجسد التطظيمي، وربما كان حاجو آغا في الصدارة، وإن كان له دور متقدم في هذا الجانب.

يشير آلاكوم الذي درس الظاهرة هذه عن كثب إلى بُعد آخر في الموضوع قائلاً (لقد ظهرت تلك الخلافات في المبادئ والتوجهات في العام 1930 أي بعد انتكاسة ثورة «أكري» فالانتقادات وتوجيه الاتهامات وتبادلها بين أفراد العائلتين «عائلة جميل باشا زاده» و «البدرخانيين» بلغت ذروتها العام 1932، حيث أدّت إلى انشقاق البدرخانيين عن التنظيم.... لاحقاً: والحق أن انشقاق البدرخانيين عن خوييون لم يؤدّ إلى اتخاذ موقف معاد أو تنافس، وأن أعمالهم الثقافية الأخيرة كانت ضمن مسار خوييون.... إن قسماً آخر من الذين وجدوا لأنفسهم مكانة مرموقة في صفوف خوييون كانوا لا يخرون مناسبة للتعبير عن مواقفهم العدائية ضد تلك الإصدارات وحسب، بل كانوا يتخذون كل مناسبة للتعبير عن الموقف نفسه ضد بعض الكتاب فيها أيضاً.... ولكن بسبب من قوة البدرخانيين الثقافية وكفائتهم، كان عدد ممتدحيهم والمعجبين بهم في ازدياد مستمر... حتى أن قدري جميل باشا..أثنى عليهم هنا.... ونشرت مقالات في «هاوار» لعائلة جميل باشا...وأن اتهام كاميران باختلاس، دفع بجلادت أيضاً إلى ترك التنظيم... ولاحقاً أثنى كل من قدري جميل باشا وأكرم جميل باشا على الأعمال الثقافية التي كان البدرخانيون قد أنجزوها...وبرز الموقف العدائي من أبناء «جميل باشا» ضد حاجو آغا أيضاً و: الذي كان له ثقل كبير داخل تنظيم «خوييون» حينذاك. وكان حاجو متهماً بأنه أُمي - لا يقرأ ولا يكتب...⁽¹⁾.

لقد أطلت هنا، بمقدار ما اختصرت: وجه الإطالة هو في الانتقال من نقطة إلى أخرى، وكيف أن كلاً منها تستغرق مساحة لافتة، ووجه الاختصار، هو أن الموضوع يتشعب، وأن كل نقطة تتطلب أحياناً أفراد صفحات طوال، وبالتالي، فإن الذي يمكن التوقف عنده بعد ذلك هو المتعلق بأخطاء باروت القاتلة:

(1) آلاكوم، روهاث:خوييون وثورة أكري، المصدر المذكور، صص107-110.

الجانب الاتهامي بقليل من الأدلة وهي منتقاة وخارج سياقها التاريخي.

السعي ما أمكنه ذلك إلى ربط كل نشاط كردي داخل جمعية ما أو منتدى أو تنظيم بعامل خارجي، لتشويه كل أثر له، وهو ما يترجم، كما رأينا، بنية التفكير الأحادي الجانب لديه في أحسن الحالات.

إن سرديّة الخلافات بين العائلتين ليست كما يرتّبها، ولا كما يسمّيها، وتحديدًا بالنسبة إلى البدرخانيين، حيث إن الأخوين بدرخان لم يطرّدا من التنظيم، بمقدار ما استفز الأول: كاميران، وسخط الثاني وتبعه، وهكذا الحال بالنسبة لحاجو الذي تضايق من تصرف كهذا من قبل الذين أرادوهم خارجاً.

وجود أعضاء ليسوا بسويّة واقتدار البدرخانيين بالذات، بمن فيهم أبناء دياربكرلي على صعيد «الإنتاج» الثقافي، وما تركوه في إثرهم علامة دامغة على ذلك، وفي الوقت الذي لم يظهر أبداً أنهم كانوا خارج الاعتبار التاريخي للجمعية، كما رأينا، فأبناء جميل باشا دياربكرلي أنفسهم اعترفوا بهذا الجميل الثقافي لهم.

ثمة نقطة أخرى، وأجدني مشدداً عليها، وهي أن سعي أبناء بدرخان بك لأن تكون قبلة كردستان حيث كانت عاصمة الأسلاف: بوتان، وليس ما تحسس منه أبناء جميل باشا دياربكرلي، إذ إن مقارنة بينهما تعطي الحق الأول، وقد جمعوا بين قاعدة عريضة في الريف، وحضور معتبر في المدينة.

بالنسبة لحاجو آغا، والذي كان يتجاوب مع حقانية البدرخانيين ليس عن عمى، وإنما شعوراً واعياً بأن طريقتهم أقرب إلى الصواب، وأنه هو نفسه اختبر هذا الطريق بالذات، عدا عن دوره الكبير في الجمعية، وأن شبهة اتهامه بالأمية كتعالٍ على الواقع، تترافق من وجهة نظري مع شبهة اتهام البدرخانيين باستلام الزعامة، والمغالاة في هذا المطلب، وأن حاجو فيما عرّف به وعليه من حضور خاص في فرض شخصيته ربما كان وراء دافع غيرة وحسد، وراء هذا الاتهام. ولا أدري ما مقدار الصواب أو الخطأ في هذا القول، وهو: إن قطعة أرض استملكها آل حاجو في بنختي، تضاهي مجمل القصور التي شيّدت لأبناء بيكوات كرد في هذه المدينة أو تلك «آمد أو غيرها» وقد تم الاستيلاء عليها من قبل الدولة، وكأنها لم تكن مسكونة بهم يوماً.

إن ما يتوقف عنده الأكاديمي هروري، يضيء البحث أكثر، أو يثريه، إذ بعد تسليطه الضوء على الجمعية المذكورة تأسيساً وتنظيماً، يتوقف عند دور أبناء العائلة البدرخانية «موضوع كتابه المتركز عليهم»، منوهاً إلى أن دورهم أكبر مما يشار إليه (من خلال الإطلاع على نشاط جمعية خوييون ولا سيما للمدة 1927-1932، يتبين دور أفراد من الأسرة البدرخانية في تنظيم وقيادة الجمعية.... ومنهم: جلادت بدرخان، خليل رامي بدرخان، أحمد ثريا بدرخان، وكاميران بدرخان... والقول أن جلادت كان من المؤسسين لجمعية خوييون... وقد تولى رئاسة الجمعية منذ عام 1928، حيث كان مقرها آنذاك في مدينة حلب... وفي الهجوم الذي شُنَّ على القوات التراكية من منفذ عين ديوان لتخفيف الضغط على المنتفضين في آارات.. كان جلادت بدرخان مع الجبهة الأولى التي كانت بقيادة حاجو آغا... وغيره... إلا أنها عادت دون أن تحقق شيئاً يذكر نتيجة قوة الجيش التركي... وعندما فشلت محاولة جلادت بدرخان... بقي مدة مدة من الزمن عند حاجو آغا، ومن ثم غادر سوريا واستطاع الالتحاق بانتفاضة آارات⁽¹⁾.

ما يهمنا هنا هو التأكيد على صلات العائلة البدرخانية بآل حاجو نظراً لعمق العلاقات التاريخية والمصرية، إن جاز التعبير بينهما، ولأن حاجو آغا فيما قام به، هو رجل طبيعة وساحات مختلفة اختلاف جانبها التضاريسي، وليس من السهل أن يكون هو أحد القادة البارزين للقسم المعني به في الهجوم، وثمة إغفال عن متابعة الهجوم، وهو يتعلق بما جرى في الداخل، أي ليس للتفوق السكري التركي، وإنما لعائق كردي أحال دون ذلك، وهذا متوقع، وإزاء حاجو بالذات، إن رجعنا إلى وقائع سابقة لها صلة بطبيعة موقعه في «بنختي» عدا عن صراعات جانبية، لكنه يبقى مركز اهتمام كردي عملياً هنا في التحركات السياسية والعسكرية على الأرض، وفي جانب استضافته لرموز الكرد الكبار كما في حال البدرخانيين.

إن قراءة المتعلق بـ «خوييون»: ما يمهد لها، وما يترتب عليه، في مقال شاهوز حاجو تنوّه إلى مدى الاهتمام بالجانب السيري لحاجو آغا، باعتباره أكثر من تاريخ شخصية، لا بل وحتى عائلة بالذات، إنما ما يودع ما هو كردي عموماً في مركّب

(1) هروري، د. صلاح محمد: الأسرة البدرخانية.... المصدر المذكور، ص 119-120-121.

الشخصية تماماً، وإلا لما كان هناك من مغزى لإعادة النظر في هذا المسار الفردي: الاجتماعي، ولقد حاولت اقتطاف مقاطع من المقال، رغبة في إبلاغ ما هو منوع، وأكثر احتواء بالدلالات، أي ما نزداد وعياً للعبة المفارقات، وما يتطلب اهتمام مركّز كهذا على هذه النقطة، والمقارنة بينها والنقاط التي سلفت طبعاً :

(لقد كان أهل العلم يرحلون من الوطن دون حساب، وهم يستقرون في ديار الغربة. الذين قصدوا حاجو كان يتم استقبالهم، ولقد أصبح حاجو ظهيراً للمناضلين في كردستان الشمالية، إلا أنهم بدورهم شكّلوا بداية تكوين مقاومة جديدة، حيث إن خوييون تأسست في تلك الفترة، إذ إن خوييون مثّلت دماء جديدة في جسم الحركة الكردية في وجه الدولة التركية، وكانت خطوة مثالية قياساً إلى معايير العصر، حيث كان مطلب بناء إلى جانب استقلال كردستان غاية.

خوييون

بعد أن استقر حاجو في كردستان سوريا، أراد القيام بحركة في وجه الأتراك إلى جانب بعض وجهاء الكرد، لهذا أقام علاقات له مع مع اوسف حسن كُركي رئيس عشير رَمَا Rem ، وكذلك مع أمين أحمد رئيس بَنجِنَار Pencînar، ومع بعض الأرمن الذين كانوا هاربين من ظلم الأتراك، ومن بينهم ديكِرَان آفُو Dikran Avo، ووضعوا خطة فيما بينهم، إلا أن خطة حاجو مع هؤلاء لم تكن في مستوى منظم، بمقدار ما يمكننا تسميته بمحاولة مقاومة.

حاجو مع الأمير جلادت وبعض الكرد المخلصين بعد زيارة ضريح صلاح الدين الأيوبي في دمشق

في يوم «5- 1927/2»، وبعد نضال دؤوب، أفلح وجهاء كرد أن يعقدوا اجتماعاً للمخلصين لكردستان في بَحمَدُون بَلْبَنَان.

حيث إنهم تخلّوا عن كل الأعمال التي كان تتم بصورة منفصلة عن بعضها بعضاً، وقد تمكّنوا إزاء ذلك من بناء تنظيم جديد باسم «خوييون». فكان هناك حاجو، الأمير جلادت، والدكتور أحمد نافذ وأبناء حاجو، حسن، ججان وجميل.

لقد تشكلت خوييون بداية من قبل عائلة البدرخانيين، على يد جلادت بدرخان وأخيه كاميران بدرخان، وبمشاركة عائلة جميل باشا، حاجو، الدكتور نافذ

بك، عارف بك عباس، ممدوح سليم وعثمان صبري أيضاً في عملية بنائها وتمتينها.

كان مطلب خوييون هو تحرير كردستان واستقلالها، إلا أنه في تلك الآونة كان تنظيم ثورة جديدة وإدارتها في مواجهة الأتراك، الهدف الأكثر أهمية، حيث انطلقت شرارة جبل آغري سنة 1930، وكانت خوييون تدير هذه الثورة.

خطة ثورة جبل آغري

لقد تم الإعداد والبدء بثورة جبل آغري بمشاركة شخصيات كردية متنوعة مثل جلادت بدرخان، قدري جميل باشا، أكرم جميل باشا، محمد جميل باشا، حاجو، حمزة مكسي، ممدوح سليم بك، واتخذ القرار على أن تقوم الثورة في جبل آغري بقيادة الجنرال إحسان نوري باشا.

وبغية انتصار الثورة، اتخذ القرار في أن تقوم العشائر الكردية التي تقيم جنوب الخط بنشاط من قبلها، ليخفف ضغط الأتراك على الثورة.

لهذا كان هناك اتصال مع عائلة شاهين في كوباني، ومصطفى بك وأخيه شاهين بك، وإبراهيم باشا في سري كاني Serê Kaniyê ، وكذلك مع عائلة رسول آغا في ديريك.

من جهته، كان حاجو وابنه الأكبر حسن من خلال علاقتهما مع الأمير جلادت بدرخان، حمزة مكسي بك، وأبناء بوزان في كوباني والكثير من الآغوات والوجهاء والمتقنين الكرد، يناضلون على أكثر من جبهة ضد الأتراك.

جلادت بدرخان، نايف باشا وحاجو

اقتضت الخطة على أن يقوم كرد جنوب الخط بالهجوم على الأتراك بالشكل

التالي:

1- من تربية سبي حاجو والأمير جلادت بدرخان ورسول آغا

2- من سري كاني خليل إبراهيم باشا

3- من درباسية جميل باشا

4- من كوباني مصطفى بك شاهين

كان الأمير جلادت بدرخان مقيماً عند حاجو في تربه سبي، حيث كان يمارس نشاطه في صفوف الوطنيين الكرد. وكان الأمير جلادت قيم في بيت حاجو قريباً من الحدود، حيث أمضى أياماً طوالاً في قرى حاجو، فكان ضيفاً على ججان حاجو في قرية مزكفت، وكان في هذه القرية صخرة كبيرة يمضي إليها الأمير جلادت يجلس في ظلها، وهي تسمى إلى اليوم بصخرة الأمير.

اخفاق الخطة

يرسل حاجو ابنه ججان إلى عشيرته، للوقوف في وجه الأتراك، وفي تلك الفترة كان حسين جلبي ابن عم حاجو في أعلى الخط/سرختي رئيساً للعشيرة. وقد اتفق مع حسين، لكي يقوم هو أيضاً معهم في وجه الأتراك، وقد تقدمت قوة حاجو صوب الحدود، إنما للأسف، انقلب عليه حسين جلبي، ووقف إلى جانب الأتراك، وأرسل إلى حاجو معلماً بلزوم التراجع إلى الوراء، وإلا فإنه سيعلن هو والأتراك الحرب عليه، ولقد قدم الأتراك الكثير من السلاح إلى حسين جلبي، وأدرك حاجو أنه من الصعب جداً وقوفه في وجه الأتراك وعشيرته معاً، لهذا السبب انسحب إلى الوراء، إنما السبب الذي أحال دون مشاركة حاجو والأمير جلادت بدرخان في هذه الحرب، هو أن أولئك الذين اتخذوا قراراً بدخول الحرب في مناطقهم لم يكونوا قد حققوا شيئاً يذكر. ومن جهتهما لم يكن في مقدور حاجو والأمير جلادت تغيير موازين القوى، لهذا كان تراجعهما إلى الخلف.

وفي هذا السياق، ثمة نقطة خلافية جديرة بإضاءتها ولو بإيجاز، وهي أن التشديد على الخلاف القائم بين حاجو وجلبي، وهما أولاد عمومة، من قبل مجموعة من الكتّاب الكرد قبل سواهم، ولجكرخوين القدح المعلن في ذلك، كما تعلمنا سيرته بذلك، ومن ثم إظهار «استبداد» حاجو في العلاقة، دون متابعة الموقع الاجتماعي والسياسي للآخر، لا يُستهدف منه، من وجهة نظري، تصحيح مسار تاريخ ما، إنما محاولة «تعريّة» حاجو بالذات، من قبيل: كلمة حق يراد بها باطل، وإبراز البعد غير السوي أخلاقياً في سيرته، ومن ثم، ليصار إلى تجريده من كل أو جل ما يصله بالحركة الكردية سياسياً أو اجتماعياً، ربما كعمل «بلطجة» كردياً، وإخراجه من دائرة الكردايتية كلياً، وما في ذلك من اعتراف بسطوة اسمه في أذهان هؤلاء ولا تحيزهم، إنما لاتاريخيتهم، سواء أكان جكرخوين أولاً، أو آلاكوم ثانياً، أم

جبّو ثالثاً، أم من ينتمون إلى «متن» الحركة السياسية الكردية «الحديثة» ويعتمدون غمزاً كهذا...!

جواب فرنسا

بعد هذه الواقعة، أبعدت فرنسا حاجو مع ثلاثة من أبنائه: حسن، ججان وجميل عن الحدود التركية، حيث نفتهم إلى دمشق. بعد فترة سمح لحاجو فقط في أن يقيم في الحسكة، أما أبنائه حسن، ججان وجميل فيرجعون إلى قراهم. ولقد بقي حاجو في تلك البلدة حتى رحيله الأخير، وقبل ذلك، نبّهت فرنسا حاجو مراراً في ألا يقوم بأي عمل معاد لتركيا، وكذلك الحال مع الأمير بدرخان وأخيه كاميران، فقد نبّها بعدم مغادرة دمشق. ولهذا، فإن الذين خضعوا لهذا المحظور اضطروا لأن يخفوا أنفسهم وسط عشيرة حاجو، إلا أنهم عادوا بعد ذلك إلى دمشق⁽¹⁾

بعيد انتهاء أو فشل ثورة الشيخ سعيد، وبعيد فشل ثورة آكري، ثمة خطوط تتحرك ترسم فيها آثار حاجو آغا، بين البروز الشديد، أو ضعف الأثر أو تلاشيهِ دون محوه كلياً، إذ من الصعي، إن لم يكن مستحيلاً، التفكير في أي واقعة أو حادثة كردية في بنختي بالذات، دون النظر في الاتجاه الذي يقف فيه، مهما نوع الدور الذي يلعبه حتى رحيله الكلي سنة 1940، ونحن بالطريقة هذه لا نمارس تزكية، ولا اصطفاء لاسمه، أو تشييعاً لتاريخه، إنما هو ما يشبه التصوير والتشخيص للمدوّن أو المتداول عن طريق الألسنة، والذي يتجهّج، ومن جهة أخرى، فإن ما حاولت القيام ليس تتبّع الأثر، أو الوصل بين واقعة وأخرى، كلام وآخر، موقف وسواه، وإملاء فراغ معين، في الجملة التاريخية ذات المعنى، بمقدار ما مارست استقراء واستقصاء واستبطاء، حيث المآثور نظير الواقعة العلمية، بوجود مادة يُتفاعل معها منطقياً ووجدانياً، وأن الذهاب بأي أثر إلى أبعد مدى له، هو التوغل عميقاً في الإشارات الصادرة عنه، لأن المقروء ليس فوتوغرافاً إنما قراءة في قراءة في واقع الحال.

إن ما أستطيع قوله، هو أنه من الاستحالة بمكان النظر من أي زاوية إلى خوييون ومجريات ثورة آكري بعيداً عن الدور الذي تميّز به حاجو آغا، ولا بد أن قارئاً منصفاً بينه وبين نفسه، يستطيع تقدير هذا الموقف.

(1) حاجو، شاهوز: حاجو آغا، المصدر المذكور.

شذرة اسماعيلية وما يترافق معها تاريخياً :

لقد تردّد اسم اسماعيل حقي كثيراً في الفقرات السابقة، وتحديدًا من جهة وصفه ضابطاً تركياً ولقبه «غوندوز» أي «اليوم»، وهو الذي كان يخطط لأي عملية إغارة إلى داخل الأراضي «السورية» للقيام بعمليات مباغته: عامودا- قامشلو، وفي التخطيط لواقعة بيان دور بامتياز «دون السؤال عن خلفيته، ومن أين يكون، ومن يكون ونظيره في التسمية مع فارق اللقب، إنما أيضاً في المحصلة؟ وهذا الذي أركّز عليه هنا هو اسماعيل حقي شاويس أحد أعضاء «خويبون» في إقليم كردستان العراق، في السليمانية، ومن باب تعظيم دوره أو تأكيد، وتعميق الروابط الجغرافية والتاريخية بمفهوم الكردايي، رأيت من المناسب إيراد هذه المعلومات حوله، وتبيان مدى غيرة كرد سياسيين وضباط وهم ينصرفون إلى خدمة شعبهم وقضيته.

تلك علامة فارقة في التاريخ الجغرافي- التاريخي الكردي بالذات، وليس التركي أو سواء، إذ ثمة الكثير قليل فيه وكتب عنه، ومن المهم بمكان إيراد بعض من هذه المعلومات التي تخصه وهو يجمع في شخصه بين كردية الانتماء ومهنية العسكري المؤقتة في الجيش التركي وخروجه عن دائرة تعليماته، ونسب الثقافة الكردية بالذات:

ثمة مقال كتب تحت عنوان «اسماعيل حقي شاويس ودوره في النضال من أجل الحقوق القومية للشعب الكردي»، كتبه دلشاد محمود عبدالسلام، ترجمة : المحامي شعبان مزيري، وفي موقع «كلكاش» الإلكتروني، بتاريخ 1 تموز 1907، أقتطف منه هذه الفقرات لضرورتها من ناحية، وللتأكيد، من وجهة نظري، على أن حاجو آغا له دراية بعلاقات متشعبة وذات انتشارات جهوية، وصوب «الشرق» خصوصاً، من واقع التجربة المعيشة، وللتفريق بين اسم يُتحفّظ عليه وآخر جدير بتهجئته عالياً، وما يشير إلى آغوية الاسم، لكنه الجامع بين المدني والبري والعسكري معاً، وما في ذلك من إثراء للقب، وليس كما هو مشاع عنه بوصفه الأمي:

لقد عاش هذا الكردي الأصل اسماعيل حقي علي رسول أحمد آغا، بين عامي 1898-1976، وهو من مدينة الموصل، كان والده ضابطاً في الموصل وفي

سنة 1904 بعد أن تخرج في مدرسة الرشدية العسكرية التحق بالاعدادية العسكرية في بغداد، وفي سنة 1907 التحق بالمدرسة الحربية في اسطنبول، وفي سنة 1911 تخرج فيها وأصبح ضابطاً في الجيش التركي برتبة ملازم ثان، واشترك مع الجيش التركي في القضاء على انتفاضة القوميات في البلقان (اليونان، وصرب، وجبل الاسود) المناهضة للحكومة التركية في البلقان، والتي بدأت بين أعوام 1912. 1913 وتم اسره من قبل الثوار اليونانيين في مدينة (سالونيك). وعندما تم اطلاق سراحه من الاسر من قبل اليونانيين عاد ثانية الى اسطنبول والتحق بالجيش في شهر مايس عام 1914 برتبة ملازم اول. وفي اثناء الحرب العالمية الاولى 1914 اشترك في جبهات القتال وتم اسره من قبل القوات الانكليزية، وتم نفيه الى الهند، وبعد انتهاء الحرب العالمية الاولى تم اطلاق سراحه وعاد الى السليمانية وانضم الى الشيخ محمود الحفيد عام 1919 وأصبح رئيس الوفد الكردي للتفاوض مع (الجنرال فرايزر) محاولاً ايجاد حل للقضية الكردية بطرق سلمية ولكن المفاوضات فشلت وبعد انتصار القوات الانكليزية على قوات الشيخ محمود الحفيد، اختفى اسماعيل حقي شاويس عن الانظار في داخل مدينة السليمانية، وعلم الانكليز بوجوده في مكان ما من المدينة عن طريق عملائه، وعندما علم اسماعيل بأن الانكليز يبحثون عنه لألقاء القبض عليه خرج من مدينة السليمانية متنكراً بملابس رجل دين واتجه الى قرية (بيستان سوور) الواقعة شرق شهرزور. وهناك أصبح امام جامع وعرف باسم (ملا شاويس) ولكن لم يبق كثيراً في القرية وعن طريق ايران وتبريز ذهب الى تركيا والتحق بالجيش التركي مرة أخرى، واشترك في الحروب التي قام بها الجيش التركي في ارمينيا واراس وقارص ما بين سنوات 1920 و 1921. وفي أيلول عام 1923 ارتقى الى رتبة نقيب في الجيش التركي.... وبعد عودته الى السليمانية تم تعيينه مدير مدرسة في الناصرية براتب شهري (170) روبية ورغم أن هذا الراتب كان ضئيلاً ولكن اضطر القبول به لأنه كان يرفض العمل في الجيش العراقي الحديث النشأة. وبعد فترة تم نقله الى منطقة (كرميان) في كركوك، وفي شهر تشرين الاول سنة 1925 ذهب الى فرنسا لأغراض سياسية وعاد الكرة في سنة 1926 وفي سنة 1927 أصبح مرة أخرى معلماً في الناصرية ومن ثم في كفري وكركوك. واخيراً تم فصله من الوظيفة لأسباب سياسية ولصعوبة الحياة وحاجته إلى المادة اضطر للعودة إلى الجيش

العراقي وارتقى إلى رتبة(رئيس) في الجيش وتم فصله من الجيش بتهمة ملفقة لا أساس لها من الصحة قائلاً أنه تجاوز على شخصية ملك العراق. وفي خريف عام 1927 سافر إلى فرنسا وصادف ان عقد المؤتمر القومي لجمعية(خويون) في شهر تشرين الأول سنة 1927 في جبل(حمدون)بلبنان واشترك فيها، وفي سنة 1935 سافر مرة أخرى إلى فرنسا واصبح يعمل هناك في بعض الاعمال الحرة وهناك حاول أن يوضح للرأي العام العالمي القضية الكردية، وفي سنة 1936م عاد إلى العراق، في زمن وزارة ياسين الهاشمي وتم تعيينه قائممقاماً لـ(قضاءعقرة)، وبعد مرور ثمانية اشهر على وظيفته تم فصله من الوظيفة. وفي سنة 1939 إعادة الى الوظيفة وأصبح قائممقاماً لـ(قضاء مخمور) ثم قائممقاماً لـ(قضاء رانية)..... وكان له علاقاته الخاصة مع القاضي محمد . برغم ان اسماعيل حقي شاويس اعتقل عدة مرات في (السليمانية، وكركوك، وبغداد، وديوانية، وبعقوبة) لنشاطاته السياسية ولمواقفه الوطنية وحبه لكردستان حيث اصبح دكانه الصغير مشبوها لدى السلطات الحكومة العراقية ويقول الاستاذ محمدي ملا كريم في حديثه الخاص عن اسماعيل حقي شاويس: أن الدكان (عطارية شاويس)الذي كان يديره اصبح مشبوهاً وأن أي شخص يزور هذا الدكان كان سبباً كافياً لالقاء القبض عليه. وانا شخصيا(الكلام لأستاذ محمدي ملا كريم) في خريف عام 1945 عندما تم القاء القبض عليّ كانت احدى التهم الموجهة ليّ بموجب التقارير التي كتبها عملاء الحكومة ادعاءهم بأنني كنت اتردد على ذلك البيت الذي كان يوجد دكان اسماعيل حقي شاويس فيه..... وفي يوم (12) مايس/ 1976 توفي في مستشفى السليمانية .

دور اسماعيل حقي شاويس في انتفاضة سنة 1919 التي قادها الشيخ محمود الحفيد ومؤتمر الشعوب بالشرق الاوسط....لقد كتب عن إيمانه بالقضية الكردية، ومن ذلك أنه وفي 18 حزيران سنة 1919التقى اسماعيل حقي شاويس مع(جنرال فرايزر) قائد القوات البريطانية بمدينة كركوك، وبرغم ان المفاوضات فشلت ولكن استطاع الوفد الكردي برئاسة اسماعيل حقي شاويس ان يوضح للانكليز بان المسألة الكردية اكبر مما هم يتصورون، وان تصوراتهم عن الكرد غير صحيحة واكد لهم ان ما يجري الان في المناطق الكردية هو نتيجة لتصرفات خاطئة والمعاملة السيئة التي يقوم بها البريطانيون.... وكان له إسهام في جمعية التقدم الكردي.

تأسست جمعية التقدم الكردي في الموصل سنة 1930 وكانت جمعية سرية، استمرت في العمل لمدة عام ونصف العام. وكان اسماعيل حقي شاويس من أعضائها البارزين....وله نشاطات معروفة في تركيا ومن ذلك دوره في تشكيلات الاستقلال الكردي، حيث إنه انضم اسماعيل حقي شاويس الى تنظيم تشكيلات الاستقلال الكردي التي تأسست سنة 1921 بشكل سري في منطقة أروم بقيادة ميرالاي خالد بك جبرائلي رئيس عشيرة جبرائلي...وهكذا الحال بالنسبة إلى جمعية «خويون» المعروفة، فقد تأسس حزب (خويون) شهر تشرين الاول سنة 1927 وتم فتح فروع لهذا الحزب في عدة مدن كردية، منها فرع في مدينة السليمانية، وكان مصطفى زكي صائب أفندي رئيساً للفرع والشاعر الشيخ سلام سكرتيراً، وبموجب المصادر المتوفرة لدينا لم تذكر بأن اسماعيل حقي شاويس كان عضواً في فرع السليمانية لحزب (خويون) برغم أنه كان أحد مؤسسي الحزب وكان مسؤولاً لفتح فروع لهذا الحزب في المدن الكردية....

وتحت عنوان آخر، جاء مقال «اسماعيل حقي شاويس» كتبه هذه المرة الباحث التاريخي المخضرم الأكاديمي اسماعيل مظهر أحمد، وترجمه اسماعيل مزيري ونشره في الموقع الإلكتروني السالف ذكره، بتاريخ 8 تموز 2007، وفي إطار «شخصيات كردية»

حيث الاستهلال بالكلمات التالية: في الحقيقة كان اسماعيل حقي شاويس واحداً من الوطنيين الكرد الذي لعب دوراً مهماً أواسط خمسينيات القرن المنصرم في السياسة، وعرفته عن قرب كان مثلاً للشخص الوطني التقدمي، كنت أنا واصدقائي نزوره وهو كان يروي لنا من حكاياته النادرة والفريدة من نوعها في مجال النضال... وبعد ثورة تموز 1958م أخذ يكتب وينشر نتاجاته في مجال التاريخ واللغة الكردية وكنت أحد قراء تلك النتاجات قراءة دقيقة وتعلمت منها أشياء جديدة.... وكذلك التعاون مع الشعوب المجاورة للكرد ولهذا الغرض قام في بدايات العشرينيات (القرن المنصرم) الاتصال بالمناضل سمكو اغا شكاك وكذلك اتصل بحزب (خويون) وبموجب الوثائق الخاصة يظهر أنه كان عضواً في فرع (حزب خويون) الذي تأسس في السليمانية وكان يعتقد بأن لا بد أن يكون هناك حزب يقود الحركة الوطنية الكردية... وبسبب افكاره الوطنية تم القاء القبض عليه مرات عديدة ونفي الى مدينة الناصرية بجنوب العراق. وفي أواسط الخمسينيات

أصبح واحداً من القياديين المعروفين في مجال حركة السلم والتضامن التي كانت في ذلك الوقت قد ازدادت نشاطاتها في جميع أنحاء العراق...

إنه في الحالة هذه على العكس تماماً من الضابط والسياسي والكاتب الكردي المتنكر لكرديته تماماً سليمان نظيف، وما أبعدهما عن بعضهما بعضاً جهة الموقف الحميم من القضية الكردي. ففي كتاب روهاات آلاكوم: شرف باشا «سنوات عاصفة لديبلوماسي كردي»، ثمة تطرُّق إلى شخصه وبعض أدواره المهينة بحق نسبه وأصله الكرديين (فهو نجل الشاعر والباحث في التأريخ سعيد باشا الديار بكري، هو ابن أسرة كردية، ولد في ديار بكر «آمد»، لقد أنكر فيما بعد كونه كردياً، وادعى أنه تركي. ص 90... ينقلب على غرار ضياء كوك آلب على القومية التركية، في بداية عهده كان متحمساً للقومية الكردية مدافعاً عنها كما في مقالية «الكرد وكردستان» و «إزمير ليست بكردستان». ص 91... ثم ينقلب عليها فهو «من بين معماريي الذهنية الأشد محافظة ورجعية بشأن مستقبل الكرد. ص 93... ولقد كان حاقداً على شريف باشا، حين أصدر عنه كراساً سنة 1910 بعنوان بوش باشا» شريف الخاوي: في كتيبه هذا الذي حشاه بما لم ينزل به من سلطان من السباب والشتائم الرخيصة المستهجنة والهجمات الظالمة التي يأبأها الذوق العام. ص 94... ويقول في موضع آخر «حتى أن أمه بالذات لا تعرف من صلب من جاء بل حتى أبوه هو الآخر لا يعلم أين ولد. ص 94... ونبه علاء الدين كويسا بقوله «لم يكتب سليمان نظيف رسالته المعنونة بوجه شريف إلا بتحريض من جمعية الاتحاد والترقي بهدف تحقير هذا الرجل لا أكثر ولا أقل». ص 94... وظهور سليمان نظيف المعروف بعدائه الشديد لشريف باشا منذ القدم والكردي الأصل في هذه الآونة وبالذات لا يمكن تفسيره بمحض مصادفة. ص 131...»⁽¹⁾.

(1) آلاكوم، روهاات: شرف باشا «سنوات عاصفة لديبلوماسي كردي، ترجمة: شكور مصطفى، الدار العربية للموسوعات، 2006. الطبعة الأولى للكتاب، سنة 1995، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

ينظر أيضاً، ما كتب عن سليمان نظيف من قبل الدمولوجي في كتاب: صفحات من تاريخ الكرد وكردستان الحديث في الوثائق العثمانية «1840-1915» للدكتور خليل علي مراد- الدكتور: عبدالفتاح علي البوتاني، منشورات الأكاديمية الكردية، أربيل، 2015، صص 78-80.

إنها مجموعة من المعلومات ذات الصلة بموضوعنا، وكيف يكون إيذاء الشخص لبني جلدته مثيراً للألم والأسف معاً، وبطريقة تنبّه أعداء الكرد إلى كيفية التوغل إلى الداخل وممارسة المزيد من التخريب والتأليف لبعضهم على بعضهم الآخر، ومن ثم الحيلولة دون تحقيق هدف مشترك، أو إفشال أي مسعى موصول بالكردية مبنى ومعنى.

وشتان ما بين الأخير والوجه الكردي العسكري السياسي والثقافي المتألق رفيق حلمي 1889-1960، وحيث يندرج في خانته، ولو بدرجة أقل إيذاء منه «محمد شكري صكبان: 1881-1960»، والمشهور بكتابه «القضية الكردية» والمنشور بالفرنسية في باريس سن 1933، والذي انتقده رفيق حلمي بشكل عنيق في مقالات منشورة، جمعت في كتاب في خمسينيات القرن الماضي، وربما كان مغزى هذا العنف استغرابه من رجل فكر تنكّر لقضيته وكان له إسهام فيها حتى نهاية العقد الثالث من القرن العشرين، بصفته عضواً متميزاً في جمعية «خويون»، ويلتقي معه ضياء كوك ألب «1876-1924» الذي أصبح من المنظرين الكبار للقومية التركية... الخ.

وبغية توسيع دائرة النظر، ينظر في نص الوثيقة المرفوعة إلى «نظارة الداخلية» العثمانية، من مجموعة منتفعين من بقاء سليمان نظيف في سلطته والياً على الموصل، في كتاب «صفحات من تاريخ الكرد وكردستان الحديث في الوثائق العثمانية: 1840-1915»، لكل من الدكتور خليل علي مراد- والدكتور: عبدالفتاح علي البوتاني، منشورات الأكاديمية الكردية، أربيل، 1015، وبتاريخ «17 تموز 1914»، ومن ذلك (إن والينا سليمان نظيف بك الذي تفوق نزاهته ودهاؤه السياسي كل وصف أو تعريف، من يوم قدومه إلى هنا وحتى هذه اللحظة عمل بعزم جاد يختص به لتحقيق الأمان وحماية حقوق الخزينة وتنظيم شؤون البلاد وإعمارها... فلا يمكن تبرير أو توضيح انفكاكه من الولاية بهذه الصورة... ومنعاً لذلك وتأميناً لراحة البلاد حالاً ومستقبلاً نرجو باسم الجميع عدم قبول استقالة المشار إليه والحرص على بقاءه. ص367).

أي ما يمضي بنا في الاتجاه المعاكس لما هو مشار إليه سالفاً، إنما لإبراز التنوع إلى درجة التعارض الحدّي بين رؤية وأخرى، وذلك بغية تجنّب أي تعميم في الحكم، مهما كان بحثه.

وتلك أضمومة معلومات ، ومن باب التذكير، من باب الربط بينها وبين دراسة أي شخصية اجتماعية أو سياسية كردية، من جوانب مختلفة، بطريقة موضوعية، بغية التعرف عن عمق على المؤثرات المتحولة في مسيرتها وتحولاتها المفاجئة، إنما أيضاً ما يوسّع نظرتنا إلى واقع الكرد في حلّهم وترحالهم، في مدنيهم وعسكريهم، والأشراك التي تنصّب لهم أو من خلالهم.

في سياق جمعية «خوييون»

أ- وثيقتان فرنسيتان عن جمعية خوييون، من بين قائمة كبرى من الوثائق الفرنسية ذات العلاقة بها، وقد ترجمهما الباحث خالد عيسى، ونشرهما في موقع «كلكامش» الإلكتروني، في عام 2010، وهما تبرزان أسلوب التعامل الاستخباراتي مع «خوييون» والعاملين فيها، وامتداد أنشطتهم وصداهما، كما تفصّلان عن الثقل النوعي لها وللثورة المتخفضة عنها:

- 1 -

كتيبة القامشلية

رقم: 777 / آ.ع.ق

القامشلية في السابع عشر من شهر أيلول عام 1931
من المفتش الخاص قائد كتيبة الأمن العام في القامشلية
إلى

السيد رئيس الأمن العام في ولاية حلب

الموضوع: النشاط الكردي

المرجع: مذكرتك رقم 3266/ آ.ع. المؤرخة في الرابع عشر من شهر آب 1931.
لي الشرف أن أوافيكم أدناه، بالمعلومات المجمعة بهذا الخصوص:
أولاً: تنظيم لجنة «خوييون»

آ- في ربيع عام 1927، بمبادرة من الأمراء البدرخانين، قرر الوطنيون الكرد عقد مؤتمر لجمع ممثلين من كل المنظمات السياسية الكردية، و من كل العشائر الكردية، و من كل المدن الكردية، و من الثوار اللاجئين إلى جبال كردستان.
بدأ هذا المؤتمر أعماله في التاريخ المحدد على إحدى هذه الجبال، و اتخذ قرارات هامة جداً، أهمها هي:

- 1- حلّ جميع التنظيمات الوطنية لدمجها في تنظيم يتوجب تأسيسه.
- 2- استمرار النضال حتى رمي آخر جندي تركي خارج حدود كردستان.

3- قبل المبادرة في ثورة عام:

(أ)- تشكيل قيادة عامة للقوات الكردية.

(ب)- تنظيم القوات العسكرية، و تزويدها بالأسلحة و الذخائر اللازمة و الحديثة.

(ج)- تأسيس مركز عسكري على إحدى جبال كردستان لاستخدامه كمستودع للانتفاضة، و كقاعدة للنضال النهائي.

4- السعي لحلّ نهائي لكل ما حدث من سوء فهم مع الأمة الأرمنية.

5- إقامة أفضل علاقات الصداقة مع الحكومة الفارسية و الأمة الفارسية الشقيقة.

تشكلت إذا الرابطة القومية الكردية «خويون»، تنفيذاً لقرارات هذا المؤتمر.

بموجب القرارات المتخذة في هذا المؤتمر تم حلّ لجان «كردستان تعالي جمعيتي»، و «كرد تشكيلات اجتماعيتي جمعيتي»، و «كرد مليت فيرقاسي»، و «استقلال كردستان»، و انضمت إلى خويون.

ملاحظات المترجم:

(1) كانت دولة سورية قد تشكلت بدمج دولتي حلب و دمشق، و تحولت هاتان

الدولتان إلى ولايتين داخل الدولة السورية، بينما بقيت دولة جبل الدروز و دولة جبل العلويين مستقلتين.

- 2 -

المفوضية السامية للجمهورية الفرنسية

+++++

الأمن العام

كتيبة القامشلية

رقم: 777/أ.ع.ق

القامشلية في السابع عشر من شهر أيلول عام 1931
من المفتش الخاص قائد كتيبة الأمن العام في القامشلية

إلى

السيد رئيس الأمن العام في ولاية حلب

الموضوع: النشاط الكردي

المرجع: مذكرتكم رقم 3266/آ.ع المؤرخة في الرابع عشر من شهر آب 1931.

لي الشرف أن أوافيكم أدناه، بالمعلومات المجمعة بهذا الخصوص:

(...)

كانت قد تأسست «كردستان تعالي» في عام 1908 في القسطنطينية، من قبل
الأمير أمين عالي بدرخان، و الجنرال شريف باشا المتواجد حالياً في باريس، و
أحمد زلكفي باشا من ديار بكر.

كانت قد تشكلت لجنة «الاستقلال الكردي» في القاهرة، بعد الهدنة، من قبل
الأمير ثريا بدرخان، و كان الشيخ سعيد أيضاً أحد زعمائها الأساسيين.

كانت قد تأسست «كرد تشكيلات اجتماعية جمعيتي» في عام 1922 من قبل
الأمراء أمين عالي، و جلادت، و كاميران عالي بدرخان، و جميل باشا زادة أكرم
بك، و الدكتور شكري محمد بك، و ممدوح سليم بك.

هذه التنظيمات الوطنية الكردية التي كانت قد تبعثرت في الخارج بعد احتلال
القسطنطينية من قبل مصطفى كمال باشا، انضمت كلها إلى «خويبون» في عام
1927، موحدة جهودها تحت قيادة جلادت عالي بدرخان.

(ب) منذ تأسيسها، حازت رابطة «خويبون» على نفوذ كبير ليس فقط في
كردستان، بل حتى بين الجاليات الكردية المقيمة في الخارج أيضاً. وامتدت فروعها
حتى أمريكا.

وتشكل العديد من الفروع الملحقة باللجنة المركزية التي تتخذ من بيروت مقراً
لها.

وهذه الفروع هي موزعة كالتالي:

اللجنة المركزية في بيروت:

الرئيس: كاميران عالي بدرخان

الأعضاء:

ممدوح بن درويش كيبار

واهان بابازيان

تارلا با بك

خليل بك، ابن عم البدرخانيين

في دمشق:

الرئيس: جلادت علي بدرخان

الأعضاء:

عمر آغا شمدین

يوسف آغا

أوصمان أروسي

إبراهيم شمدین

في حلب:

الرئيس: هاريتش بابازيان

الأعضاء:

مصطفى بك شاهين

بوزان بك شاهين

حمزة أفندي

ممدوح سليم

في الحسجة:

الرئيس: قدري بك بن جميل باشا

الأعضاء:

محمد بك بن جميل باشا

حاجو آغا

حمزة بن بكر كردي
الياس أفندي ديركوي
صالح أفندي
سامي بك
قدور بك
رسول آغا
أكوب سيمون

ب- أنوّه بالمقابل إلى الأهمية الوثائقية لكتاب: وثائق بريطانية عن تشكيل دولة كردية مستقلة 1924-1927، إعداد وتقديم: د. عبدالفتاح علي البوتاني، منشورات الأكاديمية الكردية، هولير، 2008، ومن ذلك تلك الرسالة التي دبّجها حاجو آغا إلى معنيين بالقضية الكردية ناحية جنوب كردستان، وحتى كردستان الشرقية، من خلال نص الرسالة، حيث إن لغتها تفصح عن ذلك، ومدى متابعة حاجو آغا لما يجري في الأطراف الكردستانية مجتمعة حينها «سنة 1926»، وبعد هذا التاريخ أيضاً، حتى مطلع ثلاثينيات القرن الماضي، وقد بدأ يركّز على «الجزيرة» والبحث عن صيغة مشتركة لكيان سياسي كردي، أو كيان سياسي مشترك للکرد والمكونات الاثنية الأخرى في المنطقة من سريان وعرب وأرمن وغيرهم:

اصدقائي المجلّين،

لقد قرأت راسلتكم المؤرخة في 15 تشرين الثاني 26 بكل سرور، وفهمت محتوياتها، واشكركم على ما ابدىتموه من عواطف تجاهي، بيد انني تأثرت بالغ الامر لخبر ابعادكم الى العراق». ارجو منكم ان لا تقلقوا اذا سيحين الوقت الذي سينسى فيه الوطنيون امثالنا مشاكلهم. واننا ياذن الله سنوفق في تحقيق آمالنا. ان الامة لا يمكنها ان تنهض الا بدعم واسناد رجال عظام من شكالتنا، ان المفزة الحالية «قوة ؟» ستسفع دمهها في سبيل سعادة الامة.

ان الواجب يقتضي منا ان ننقذ بلدنا من عبودية عدونا الكبير الاتراك. وانني في سبيل هذا الهدف اواصل العمل ليل نهار ولهذا السبب ايضاً اوفدت قبل شهرين الشيخ مهدي الى شيخ برزان، ويعقوب وسيمكو، وارى ان الضرورة تستدعي منكم ايضاً ان تتوجهوا بالنصح الى الناس هناك وفي امكنة اخرى.

لم استسلم لحد الآن رداً من الشيخ مهدي. ان امين اغا رحمان و خليل ابن
الباشا يبعثان اليكم باحتراماتهما .

سيد حاجي «حاجو» رئيس عشيرة هافركي «هفيركا/هفيركان
ملاحظة: ارجو ابلاغ تحياتي الى جميع اصدقائكم

في 1926 / 11 / 26

ص 137

و تلك الرسالة المذيلة بأسماء رؤساء قبائل وعشائر كردية بدءاً بـ «هاجو:
حاجو»، رئيس قبيلة هافركي «هفيركا/هفيركان» من قرية بادبلي، نصيبين
«وآخرين، وبتاريخ 19 حزيران 1926 «ص 100» ومما ورد في البداية:

المجلس الكردي الموقر

محبّي القومية الموقرين

لقد استلمت بلاغاتكم غير المؤرخة من الشخص المعروف، ونحن متشكرين
للمشاعر الكريمة التي أظهرتموها. على الرغم من أن الجماعات «المجالس»
الكردية المشكلة والأكراد المستنيرين يفهمون بعضهم بعضاً، فإن الانشقاق القائم
بين القبائل بفعل الدساسات التركية من جهة، وشعور الغيرة السائد بيننا من جهة
أخرى، قد حال لحد الآن دون تحقيق آمالنا وقادنا إلى الأسر. ص 97 .

وفي رسالة أخرى «غير مؤرخة» لعلها تخص الفترة تلك، ومرسلة إلى مسئول
فرنسي في ضوء العلاقة القائمة بين حاجو آغا بالذات وسلطة الانتداب في سوريا:

إلى سيادة الأمر

سيدي اللامر:

نحييك باحترام، نتيجة للمراسلات بيننا وبينكم عن طريق محمد سعيد
أفندي، وثقة منا بكلمة الشرف لحكومتنا الجمهورية، جئنا إلى «حباب» وسبب
ذهابنا هناك أننا من أهل الجبال ومعتادون عليها ولم يكن بإمكاننا أن نتحمل ماء
وهواء هذه الصحراء وخوفاً من أن نصبح مرضى لم نتمكن من تدبير أنفسنا هناك
أن لدينا غرضاً واحداً، أننا نعدكم من أننا أثناء بقاءنا في هذا الجبل فلن نستعمل

العنف تجاه أي كان، ولن نسبب أي مشكلة. وأننا فقط بانتظار رحمة وعفو حكومة الجمهورية غير مبالين بكلمات المتآمرين.

نرجو أن تتصل بأي طريقة بنا

ونتمنى لكم أحسن الصحة.

موقعة من : هاجو رئيس هفيركي

محي الدين رئيس رومانان

بدرالدين رئيس جازين...ص 205 .

ما يهم في الكلام المكتوب بوثائقيته هو دور حاجو آغا وتوسع نطاق أنشطته في الجهات الكردستانية الأربع، وأنه حين يأتي الأول في الترتيب، فإنما لتعزيز موقعه، ومعرفة أولي الأمر «ممن تتم مخاطبتهم» له، إلى جانب أن صيغة الرسالة هنا وهناك تكشف عن نوع من العلاقة التي تأخذ مصلحة الطرفين بعين الاعتبار، ودون ذلك لما كان في مقدور حاجو آغا قبل سواه التحرك بالصورة التي عرف بها، وفي الجانب الآخر هو تأكيدُه إلى وجود نوعين من الساعين إلى بليلة العلاقة/ الوضع: من يعلنون حربهم الصريحة على الكرد على مستوى سلطوي في جهاز الحكومة، والأخطر، من يكونون كرداً، ولا يريدون للعلاقة هذه النجاح تحت وطأة الحسد، وهذا يستدعي مرة أخرى عمق الخلافات ذات المرجعية العشائرية ووهم الزعامة ولو على حساب مصلحة الكرد عموماً، مهما كانت الخسائر المادية والمعنوية.

ج- أحيل هنا في اللائحة الوثائقية الثانية إلى كتاب د. عبدالفتاح علي البوتاني - علي صالح الميراني: وثائق بريطانية عن مشاركة كردستان - سوريا في ثورات آارات «ثاكري» 1927- 1931، مركز الدراسات الكردية وحفظ الوثائق، دهوك، 2010، وتبيان مآثرتها التاريخية، وطابعها الزلزالي في تركيا، من خلال التمهيد لها، وفي الوقت الذي يشار إلى الجهود الملموسة التي قام بها كرد «سوريا» أو من انتقلوا من «سرختي» إلى «بنختي» فوجدوا ما يلزم لذلك :

حاولت خوييون فتح جبهة عسكرية في جنوب تركيا عن طريق سوريا، ولاستهواض الكرد وإثارة حميتهم.ص12- اجتاز حاجو آغا هفيركي في 4 آب 1930 الحدود السورية إلى تركيا، ومن هناك دعا القرى الكردية إلى الثورة، وفي اليوم

نفسه اجتاز الحدود نحو «600» فارس «خيال» كان قد نظمهم محمد شكري صكبان وكاميران عالي وثرثا بدرخان الحدود السورية وفتكوا بقوة تركية كاملة، وقطعوا أسلاك الاتصالات، واستقروا في مقر هفيركي في قرية «حباب»..ص 21.

16 آب 1930، اجتاز آل ابراهيم باشا الملي «1845-1908» الحدود التركية من جهة رأس العين «سري كاني» إلى ويران شهر فحرروها، وأخذوا بالزحف نحو أورفة للتجمع هناك ثم التقدم نحو ديار بكر..ص 22.

كان حاجو آغا قائداً بأسلاً وهو طويل القامة شديد السمرة ممتلىء الوجه بعينين سوداويتين واسعتين ترسل نظراتهما أشعة القوة والبطش، ويزيد في هذا الشعور شارباه الأسودان المعكوفان وله سبعة أولاد كلهم في مقتبل الشباب.. ص 26.

تقرير ضابط الخدمة الخاصة في الموصل في 12-2/1929 عن السياسة الفرنسية في سورية: لقد ظهر عدة مرات من قبل أهالي دير الزور والحسكة والقامشلي بأن الفرنسيين يعزمون على إنشاء وطن للأكراد والأرمن يشتمل على منطقة جبل سنجار وإلى الخابور وإلى جزيرة بن عمر ورأس العين وإلى الحسكة. ص 81.

كردستان الغربية: تقرير ضابط الخدمة في الموصل، في 7-12/1929

عصابات قطاع الطرق في منطقة الجزيرة شيرانش

علم بأن عصابات قطاع الطرق كثيرة أطلقها «حاجو هافركي» و «رسول محمد» رئيس إلى مناطق الجزيرة شيرانش. تعمل أحد العصابات تحت قيادة «عكيد» شقيق «رسول» في منطقة شيرانش وعصابة أخرى تتألف من 12 رجل تحت قيادة «حمة ...» و «سماكة سور» تعمل في أطراف مدينة جزيرة بن عمر..ص 87 .

تقرير ضابط الخدمة الخاصة في الموصل: كردستان الغربية: حاجو آغا

هافركي

علم بأن حاجو آغا الذي يقيم في «قبور البيد»: «تربه سبي- قبور البيض» أو اتباعه يقوم بالذهاب إلى القرى الواقعة في الأراضي التركية ويسرق الماشية

والأمتعة... الخ، يقال أن الفرنسيين يشجعون حاجو على القيام بذلك. ذهب حاجو آغا يوم 1-12/ 1929 إلى بيروت لاستلام دين له من أحد التجار هناك. دخلت القوات التركية يوم 9-12/ 1929 إلى سورية وسرقت 100 رأس من الغنم من أتباع حاجو آغا جوار «قبور البید: البیض» و «...» جمیلو مربع 23- ذهب ضابط الخدمة الخاصة الفرنسي في القامشلي إلى نصيبين وقابل السلطات التركية وترتب عن ذلك إعادة الماشية.

إلحاقاً بتقرير هذه الدائرة الرقم 1/ام/أي في 21- 11/1929 الذي جرى تأييده، علم الآن بأن قاتل «نايف بن حاجو آغا» يقيم الآن في قرية «مارباب» في الأراضي التركية والتي تقع على مسافة ثمانية أميال عن «قبور البید: البیض» - تعليق: يعتقد بأنها غير موثوق: 24-12/ 1929 -ص91.

دائرة السجلات العامة:

جاء في تقارير استلمت من منطقة القامشلي بأن عشيرتين كرديتين في سورية قد اجتازت الحدود التركية والتحقّت بالتمرد ضد تركية. ذهب «حاجو آغا هافركي» مع أتباعه إلى «مديات» من «قبور البید- أو البینر»- شرق نصيبين وعلم أن جماعة من عشيرة «الملي» ذهبت إلى «أطنة» من «کردش قباغ»- غرب عينتاب- سنقوم بتدقيق المعلومات. الموصل. ص 93-

ضابط الخدمة الخاصة في الموصل- الأركان الجوية «الاستخبارات» 8 آب 1930

الموضوع: الموقف الكردي في كردستان الغربية:

1-إلحاقاً بتقريرنا 56/ام/ أي في 8-8-1930

استلم تقرير مؤخراً من مصدر معلومات موثوق في منطقة القامشلي يفيد بأن العشائر الكردية التالية تنوي عبور الحدود التركية السورية في المستقبل القريب للالتحاق بحركة التمرد ضد تركية. يقال بأن هذه العشائر الكردية هذه ستدخل تركية كما يلي:

العشيرة المكان الحالي عدد الرجال المسلحين الرؤساء الملحوظات
جیلان منطقة صقلان 100 رسول محمد الشیلاني ستذهب إلى
منطقة جزيرة ويقيم قسم من هذه العشيرة في تركية ولم تدخل في هذا الجدول

هافركي قبور البيد 250 حاجو آغا ستذهب إلى منطقة نصيبين مديات
عند عبورها الحدود التركية السورية وسوف ينضمّ 7000 رجل إلى حاجو آغا
- مقابل الدريبيية 150 أولاد جميل باشا ستذهب إلى منطقة دربيية
برازي منطقة حلب 1000 - ستذهب إلى منطقة جرابلس. ص 96
دائرة السجلات العامة

ما هو ملحق، فقرة تخص حاجو آغا: استلم تقرير بصورة عرضة يفيد بأن
ضابط الخدمة الخاصة في القامشلي أخبر «الشيخ» حاجو مؤخراً بأنه سوف لا
يسمح له بالبقاء قرب الحدود السورية/ التركية أي «قبور البيد» ،ان عليه أن يعود
إلى الحسكة. علم بأن حاجو آغا غادر ليلة 3 آب / 1930 مع خمسين خيال و200
رجل مسلح قبور البيد وذهب إلى منطقة نصيبين ويقال بأنه غادر بنية حرق
جميع القرى التركية الموجودة في منطقة نصيبين. ص 97.

ضابط الخدمة الخاصة في الموصل في 8 آب 1930

الموضوع: الموقف الكردي في كردستان الغربية

يفرد آخر تقرير بأن «حاجو آغا هافركي» ينوي إرسال رسول مع رسالة إلى
الشيخ أحمد البارزاني. يقال بأن حاجو آغا سوف يخبر الشيخ أحمد في هذه
الرسالة بأنه سوف يلتحق بالتمرد الكردي ضد تركية وبأنه يطلب منه الاشتراك
في هذه الحركة. تعليق: درجة الوثوق غير معروفة. النقيب: ضابط الخدمة
الخاصة ق.ج.م الموصل. ص 99

ملاحظة: أحياناً تقريران في اليوم الواحد .

ضابط الخدمة الخاصة في الموصل: 11 آب 1930

الموضوع/ الموقف الكردي في كردستان الغربية

إلحاقاً بتقرير الرق 13/ ام/ أي في 8 آب 1930 فقرة 2 «مرفق 19 - ب»
استلمت في هذه الدائرة تقارير إضافية تفيد بما يلي:

غادر شيخ حاجو «هافركي» مع 200 رجل مسلح يوم 12 آب 1930 «قبور
البيد» عبروا الحدود التركية السورية. ذهب إلى قرية «تيتيا خيالة» على مسافة
أربعة ساعات شمال شرق نصيبين» حيث تقابل مع عمه «سوران بيك». أخبر

الأخير بأنه عزم على مهاجمة «مديات» وطلب مساعدته وافق سوران بيك على شرط أن يجلب حاجو آغا عائلته إلى تركية .

عاد شيخ حاجو ورجاله يوم 9 آب إلى قبور البید لأخذ عائلته إلى قرية عمه . قامت السلطات التركية خلال ذلك بتقديم شكوى إلى ضابط الخدمة الخاصة في القامشلي جاء فيها بأن حاجو آغا دخل إلى تركية من سورية . أوقف حاجو آغا عند عودته إلى قبور البید من قبل السلطات الفرنسية وأخذ إلى دير الزور حيث يوجد فيها الآن . ص 104 .

ضابط الخدمة الخاصة في الموصل في 24 آب 1930

أرسل شيخ حاجو آغا هافركي موقوفاً إلى بيروت بين يومي 9-1- آب / 1930، كما يقال أيضاً بأن أوقف ولدين من أولاد ابراهيم باشا «الملي» وأرسلوا إلى بيروت .

علم بأن حاجو آغا أرسل قبل ذهابه إلى تركية رسائل إلى العشائر الكردية في منطقة «مديات» يخبرها فيها بعزمه على العبور إلى تركية والالتحاق بالتمرد التركي . وقعت هذه الرسائل بأيدي السلطات التركية التي أرسلتها إلى السلطات الفرنسية في القامشلي . الاعتقاد بأنها موثوقة، ص 109 .

ضابط الخدمة الخاصة في 9 أيلول 1930

الموقف الكردي في كردستان الغربية

1- غادر حاجو آغا وبرفقته أولاده الثلاثة «حسن» و «ججان» و «جميل» و 200 رجل مسلح قبور البید وعبر الحدود السورية- التركية عند «ازنير» خريطة 25 مربع 22 رافق رسول آغا «رئيس عشيرة جيلان» وعكيد آغا «جيلان» مع مائة رجل مسلح جماعة حاجو آغا أيضاً واجهوا في «ازنير» مقاومة طفيفة من قبل المخفر المحدودي التركي ذهبوا بعد ذلك إلى «دالان» حيث قابل حاجو آغا الأولاد الثلاثة لـ «سوران خان» أخبر حاجو آغا الآخرين بأنه يعتزم الهجوم على القطعات التركية في «مديات» وطلب مساعدتهم ووافقوا على ذلك شريطة أن يجلب حاجو آغا عائلته إلى تركية . عاد حاجو آغا ورجاله يوم 9 آب إلى قبور البید لأجل أخذ عائلته إلى تركية . ص 113 .

ضابط الخدمة الخاصة في الموصل في 13 تشرين الأول 1930

الموضوع/ موقف الأكراد في كردستان الغربية

استلم تقرير من مخبر موثق في منطقة القامشلي يفيد بما يلي:

1- أنذرت السلطات التركية في ديار بكر الأكراد الموجودين في ولاية ديار بكر بوجوب عدم الإصغاء للدعاية الأجنبية. وقد أخبرت السلطات التركية سكان المدينة أنه إذا جرى هجوم على ديار بكر من قبل العشائر الكردية في سورية فإن تلك العشائر سوف تحرق المدينة إذا هجرها السكان .

2- أوقف عضوين من عائلة جميل باشا في ديار بكر. لقد علم بأن توقيفات أخرى جرى ذهب دكتور نافذ أفندي وحكمت أفندي «مهندس» وشوكت أفندي «معلم» إلى حلب .

3- يقال بأن حاجو آغا ورؤساء آخرون جرى توقيفهم من قبل السلطات الفرنسية السورية وسوف يطلق سراحهم في المستقبل القريب ويتوقع عودتهم إلى قراهم في 15 تشرين الأول 1930 . ص 118 .

ضابط الخدمة الخاصة في الموصل في 18 تشرين الثاني 1930

الموضوع / الموقف الكردي في كردستان الغربية

بالإشارة إلى تقرير رقم 13/ام/آي في 9/9/30 فقرة «8» «مرفق 28 أ» .
استلم تقرير من مصدر موثق والذي عاداً مؤخراً من القامشلي يفيد بما يلي :

منطقة دياربكر

1- وصل يوم 25 تشرين الأول 1930 الأولاد الثلاثة لجميل باشا إلى «كورم جاي» - خريطة 24 مربع 11- في تركيا. يقال بأن قوتهم تتألف من 4000 رجل مسلح وهذا الرقم يتضمن رؤساء العشائر التالون :

حسين آغا « ٩ » - حسني آغا سيكانلي « ٩ » - الحزرو « ٩ » واحتل القوة المذكورة « فارقين » .

يقال بأن الشيخ عبدالرحيم شقيق شيخ سعيد «مع قوة 2000 رجل مسلح كبدت الجندرمة السيارة خسائرة فادحة يوم 5 / منه .

حاجو آغا

2- بالإشارة إلى تقرير الرقـم 13 / ام/ آي في 13-10 / 1930 «مرفق 33-أ»
الفقرة 3» وتقرير الرقـم 13 / أم/ آي في 14-11 / 1930 مرفق «34 -أ» لقد
سمح مؤخراً لجميع الآغوات الأكراد باستثناء حاجو آغا هافركي وأولاده الثلاثة
وأكرم قدري محمد «ابن جميل باشا» والمحجوزين في دير الزور بالعودة إلى قراهم.
يقال بأن حاجو وأولاد جميل سوف يُسمح لهم بالعودة إلى قراهم في المستقبل
القريب ودفعت منحة مالية مقدارها 270 ورقة سورية. الفترة من 1 تموز لغاية 22
أيلول - يتبع- ص 122

دائرة السجلات العامة: من قبل السلطات الفرنسية السورية إلى حاجو آغا،
كما سمح لحاجو آغا ببناء دار في منطقة «جدينة»- خريطة رقم 44 مربع 8-
النقيب : ضابط الخدمة الخاصة- الموصل. ص 123.

مقتطف من تقرير ضابط الخدمة الخاصة في الموصل ، الرقم 15 / ام/ آي
في 17-1 / 1931

مقتطف من تقرير سنجار للربع المنتهي في 31 كانون الأول 1930

ألقت الحكومة التركية القبض على «نايف بن حاجو آغا هافركي» الذي قتل
«شمدين آغا جيلالي» في السنة الماضية في «قبور البید» وهرب إلى تركيا. كما
ألقت الحكومة التركية القبض أيضاً على أفراد عشيرة «بيري خاني» ، نقلاً إلى ديار
بكر حيث شنقوا فيها بتهمة قيادة التمرد الكردي. ص 129.

من دائرة السجلات العامة: وصل حاجو آغا «هافركي» ومحمد قدري وأكرم «أولاد
جميل باشا ديار بكر مؤخراً إلى الحسكة. أخبرتهم السلطات السورية الفرنسية بأنه لا
يسمح لهم بالإقامة قرب الحدود السورية- التركية ويجب أن يعيشوا في الحسكة. يقال
بأن حاجو آغا قد خصصت له منحة شهرية مقدارها 250 ليرة سورية ويمنح مبلغاً
قدره 350 «الخابور» و«جفغاغة صو»- خريطة 31 مربع 3 و8 و9. ص 145 .

ج- مجموعة مقتطفات فيما يخص ثورة آغري/ آكري في الوثائق الفرنسية،
ترجمها الباحث خالد عيسى، ونشرت في ست حلقات في موقع «كلكامش»
الالكتروني، واكتفيت بما هو مهم منها،

«الفقرة 23- الحركة الكردية

(نشرة المعلومات رقم 50 المحررة في 26 تموز 1930- القسم الأول- إدارة المخابرات في تل أبيب في 20 تموز 1930- مخبرون - على الأرجح)

يقال بأن الأكراد قد تقدموا حتى تشاباكشور على بعد 20 كيلومتراً من دياربكر، وان اشتباكاً قوياً جداً قد حصل حوالي 15 تموز وأنه بعد هذا الاشتباك نقلت حوالي عشرة شاحنات الجرحى إلى أورفه. و يقال بأن الحكومة الفارسية تقدم دعمها للأكراد، بتزويدهم بالسلاح والعتاد.

يقال أنه في اشتباك تشاباكشور تم أسر أكراد إيرانيين من قبل الأتراك، وأنه تم غزو ولاية وان من قبل المنتفضين الكرد، و تنتشر الانتفاضة في ثلاثة مناطق.

- منطقة الزيلان و المرج: في هذه المنطقة يدور الصراع لصالح الأتراك، يقال بأنه وقع 1500 قتيلاً كردياً، و أن خسائر الأتراك هي 500 جندي نظامي و 50 ضابطاً و تدمير 10 قرى. و الزعيمان الكرديان يايدي رسول و أمين آغا استطاعا الوصول إلى جبل آارات.

تشير إدارة المخابرات في القامشلية بأنه تم تدمير 15 قرية (من قبل الأتراك- المترجم) من قبيل القمع.

فالكتيبة السابعة من قوات حراسة الحدود قد انتشرت على المخافر الحدودية. و هذا ما يشير إلى أن السلطات التركية كانت تتوقع تدخلاً عسكرياً من قبل أكراد جنوب الحدود لدعم أكراد شمال الحدود.

يقال بأن الحكومة الفارسية مترددة تجاه موقف الحكومة التركية. أغلق الروس الحدود لمنع عبور اللاجئين نحو كردستان.

يقال بأن أكراد سورية و لجنة «خويون» يحاولون تمديد الحركة الثورية و يخططون لتدخل أكراد سورية «بتحفظ»

ثورة آغري....2

4 آب 2009

لقد وردت عدة فقرات مهمة في نشرة المعلومات رقم 45 ذات الطابع السري المحررة في 28 حزيران 1930 من قبل إدارة مخابرات إقليم الفرات التابعة للمفوضية الفرنسية العليا لدى دولة سورية، نذكر منها :

الفقرة 11- تذكر بأن مدير المخابرات، الكولونيل مورتييه، كان قد زار الجزيرة: في 22 حزيران كان في الحسجه و قامشليه، و في 23 كان في المنطقة الواقعة إلى شرق جقجقن، و في 24 كان في رأس العين، و في 25 كان في عين العرب .

الفقرة 13: حسب خبرية واردة إلى جهاز المخابرات في الحسجه وفي رأس العين، في 18 حزيران 1930: «يقال بأن خمسة شاحنات أقلت في نهاية أيار وجهاء الكرد من منطقة وان و بيتليس إلى أنكورا (أنقره- المترجم)

ثورة آغري..3

11 آب 2009

لقد وردت عدة فقرات مهمة في نشرة المعلومات رقم 54 ذات الطابع السري المحررة في 14 آب 1930 من قبل إدارة مخابرات إقليم الفرات التابعة للمفوضية الفرنسية العليا لدى دولة سورية.

حسب خبرية واردة إلى جهاز المخابرات في القامشليه في 7 آب 1930 . «حلقت على مدينة و مخفر القامشليه، طائرة تركية أحادية السطح»جونكير»، وذلك لعدة مرات مختلفة»

الفقرة الثانية: آ/س - الحركة الكردية :

حسب خبرية واردة إلى جهاز المخابرات في الدير في 11 آب 1930 . «في الليلة الثالثة إلى الرابعة من آب، حاجو آغا، و جلادت بدرخان، و برفقة حوالي مئة نصير، دخلا إلى تركية، و ذهبوا إلى منطقة مديات (36 كيلو متراً شمال القامشليه)، و عادوا إلى سورية في ليلة الخامس-السادس من آب. تم فوراً جلب

حاجو إلى القامشلي، و تم اقتياده إلى الدير. في التاسع من آب، تم اقتياده مخفوراً إلى دمشق .

اضطر جلادت بدرخان إلى الذهاب إلى العراق .

يصرح حاجو بأنه أثناء غارته في تركية لم يقترب أي عمل حربي .

بينما كان حاجو يخترق الحدود، أبناء جميل باشا: أكرم و قدري بك، الساكنين في الحسجة، كانا يخترقان الحدود التركية مع حوالي ثلاثين رجل في منطقة القرمانيه، و كانا يذهبان إلى حوالي شيخ موس (بين ماردين و دياربكر). و عاد أبناء جميل باشا إلى سورية في ليلة السابع - الثامن من آب، تم اقتيادهما فوراً إلى الدير، و من هناك إلى دمشق .

مثل حاجو، صرح أبناء جميل باشا بأنهما لم يقتربا أي فعل حربي .

ثورة أغري 5

14 آب 2009

لقد وردت عدة فقرات مهمة في نشرة المعلومات رقم 56 ذات الطابع السري المحررة في 23 آب 1930 من قبل إدارة مخابرات إقليم الفرات التابعة للمفوضية الفرنسية العليا لدى دولة سورية. نرفق الصفحة الرابعة، و نترجم منها الفقرات التالية :

الفقرة الثامنة: آ/س - مخاوف الأتراك من أكراد سورية :

حسب خبرية واردة إلى جهاز المخابرات في تل ابيض في 18 آب 1930 . «يدعي الأتراك بان 200 كردي سوري قد التحقوا بأكراد سروج في السادس عشر من شهر آب 1930. تقوم كتيبة بمراقبة الحدود حوالي عرب بينار(يتقاطع النبا مع معلومات إدارة المخابرات في جرابلس)، و تم في سروج حشد قوات مع وحدة مدفعية .

حسب خبرية (راجعة) واردة إلى جهاز المخابرات في تل ابيض في 18 آب 1930 . «تضرب العصابات الكردية منطقة دياربكر و ماردين و يقال بأنه تم إعلان حالة الطوارئ في هاتين المدينتين.

يقال بأنه تمت معارك ضارية جداً في منطقة دياربكر على مسافة ساعة واحدة من السير باتجاه الشرق و في جبل سيبانام (شمال بحيرة وان) يقال بأن سكان من ماردين و من دياربكر قد لجئوا، مع قطعانهم، إلى محمود بك .

يقال بأن الطريق من أورفه إلى دياربكر محروسة من قبل لواء من الخيالة مع المخافر الصغيرة في هاوكريه و كايناك و باتشان و القوات هي التي تضمن امن حافلات النقل العسكرية».

ثورة أغري - 6 -

16 آب 2009

لقد وردت عدة فقرات مهمة في نشرة المعلومات رقم 57 ذات الطابع السري المحررة في 27 آب 1930 من قبل إدارة مخابرات إقليم الفرات التابعة للمفوضية الفرنسية العليا لدى دولة سورية. نرفق صورة عن الصفحة الاولى من النشرة المذكورة، و نترجم منها الفقرات التالية :

الفقرة 1- آ/س- عداوة ضد الهفيركية: حسب خبرية أكيدة واردة في 20 آب عام 1937 من جهاز المخابرات في القامشلي:

«الجوالة من أتباع أحمد الكعود، المخيمون في وادي عباس، حاولوا طرد الهفيركية القاطنين في القطراني. تم إخطار زعماء الجوالة بأنه لن يتم التسامح مع أي عمل دموي».

الفقرة 14- آ/س- اعتقال أنصار حاجو: حسب خبرية أ واردة في 20 آب عام 1937 من جهاز المخابرات في ديريك :

«سَلَّمَ حسن تجليبي الى الأتراك ستة من أنصار حاجو من قرية سوخان».

الفقرة 15- آ/س- عند الأومريان: حسب خبرية واردة في 20 آب عام 1937 من جهاز المخابرات في القامشلي :

«أحمد السليمان المعتقل منذ ثلاثة اشهر في ماردين، تم نقله مؤخراً في 6 آب الى دياربكر، حيث سيُحاكم عن أحداث عشيرته .

علي الأحمد، الذي تمت الإشارة إليه من قبل إسماعيل أنصاري كنصير لحاجو، يخشى القمع التركي، يقال بأن معه 200 نصيراً».

في هذه المجموعة الوثائقية والتي تذكّرنا بغيرها، يسهل التدقيق في محتوى كل منها وقد آثرت نقل ما هو مهم، وليس كامل الوثيقة، وملاحظة تكرار التنويه والتنبيه إلى حاجو آغا على الصعيد العملي، والذي يتحرك في الاتجاهات كافة، وهو ما يذكّرنا من حيث التقييم بأنه ليس هاوي مجالس أنس، أو شغوفاً بالمناقشات كثيراً، إنما يتنفس في الساحات الواسعة، بمقدار ما يعيش وضعية اختبار لقواه في مواجهة التحديات مغامراً ليس إلا، ففي الوثائق السالفة، يتبين لأي كان أدواراً مختلفة تشير إلى أن حاجو آغا لم يكل ولم يمل طوال حياته، أنه، وبعيداً عن أي مديح، كان سريع التنقل من جهة إلى أخرى، ملقياً بثقله فيها، بحثاً عن سر ما يلخص حياته بالكامل، وهو تاريخي ولا يعنيه وحده، كما أنه لا يرتبط به وحده على مستوى التحقق، إنما بالتعاون مع آخرين، ولو أنه متقدم هنا وهناك، شعوراً منه أن شيئاً يجب عليه فعله قبل فوات الأوان، بعيداً عن تعالٍ، وليس من باب الغرابة إذ أن يكون محط اهتمام الصديق والعدو معاً .

حاجو آغا ورحلة البحث عن كيان كردي

«يجب أن نختار الحق ونقف ضد القوة، لكن عندما نجد أنفسنا مضطرين للاختيار بين قوتين، فعلينا الوقوف إلى جانب القوة التي تكشف عن هويتها، ورفض تلك التي تتخذ من الفضيلة قناعاً تختبئ وراءه» .

توفيتان تودوروف: الأمل والذاكرة «خلاصة القرن العشرين»، ص 394 .

ماذا يعني أن تكون قوياً ؟ :

كثيراً ما يدفنا التفكير بالقوة إلى خارج المدينة إلى عالم المسمى بـ «قانون الغاب»، أهذا معقول ؟

أنقول: في البدء كانت القوة، في البدء كان الصراع، كما يقول أحدهم؟ أم إن الصراع هو ناتج قوتين غير متكافئتين، يكون الضعف علامة فارقة لإحدهما، لتكون السيادة، أو الغلبة للأخرى؟ ثرى، منذ متى كان الغاب منعزلاً عن العالم البشري؟ ألا يحمل البشر هؤلاء في دواخلهم أكثر من صفة غابية، أكثر من صحراء، من أمازون هائل بمخلوقاته، من كهوف قاتلة برطوبتها؟ منذ متى كان الإنسان ربيب البرية المفتوحة، بمعزل عن أي مطاردة، وهو مشهود له بعهود من الحروب أكثر من السلام؟

في رحلة البحث عن الإنسان هذا الذي يعرف بصانع التاريخ، والمنتقل بين الجهات، ما أكثر ما يكون عليه البشر من تنوع، من قدرة على التلون، ومن قابلية للتحول، يغازل القوة وإن كان ضحيته، إدراكاً منه أنها خير وشر في آن !

البشر والقوة! كلمتان تتقابلان، تتناظران، تتعاديان، تتداخلان، تتفاوتان، تتصارعان، كما لو أن ليس من وشيخ قريى البتة بينهما، كما لو أن البشر معدومي الصلة بالقوة، وأن سلفهم الأول في القتل «قابيل» لم يطرح نفسه اللوح المحفوظ الإلهي من بوابة القوة الكبرى وأمان سمع وبصر خالقه، وأن الشروع في العنف، القتل، التدمير، الإرهاب وابتادة الآخر الجماعية لا صلة لها بالقوة، أو كما لو أن القوة مجرد تأخذ بنا إلى عالم لا عين رأت، ولا أذن سمعت به، ولا طأته قدما بشري، من جهة وجوه العنف التي تسميه وتنميه وتبقيه وتزكيه سيادياً هنا وهناك

بأكثر من معنى، وأن القوة هذه ليس لها لا يد ولا إصبع أو إبهام في تبصيم قصاصة ورقة لها، أو دمغة على جبينها المسنن، من خلال ما يسمّى بالقانون، أو حتى شريعة الله، أو نصوص الديانات الكبرى، ومسقطها على الأرض، وأن كل ما يمارسه البشر في بعضهم بعضاً منزوع العلاقة بهذه «القوة»، ولا أخال أيّاً منهم، إلا ويعلم علم اليقين أن ما فرضه لأمر ما، لحكم ما على آخر إجمالاً هو منطق القوة، وأن هذه التي يحتكم إليها التاريخ السائد والرائج للبشرية، وكما رأينا سابقاً مع آخرين ما تعنيه القوة في رسم السياسات، وفي تحويل المفاهيم، وفي التلاعب بالحقيقة، أي إن (إن جوهر الحكم هو القوة)⁽¹⁾.

صاحب القول، ضابط الاستخبارات الأميركي كوبلاند يعلم أكثر من غيره علام تسير المجتمعات البشرية والتي تحكّم بالإكراه، والذي أقام في المنطقة طويلاً وخبر سياساتها وكيفية توضع السياسة في الداخل وفي الخارج، على مستوى السلطات الحاكمة والمجتمع وإدارة أموره، وأين يمكن البحث عن نقاط التسلل إلى حيث يسهل التأثير في مسيرة السياسة هذه.

وربما جاز القول عن أن لعبة السياسة التي تمارسها أنظمة المنطقة تقيم في مساحات ضيقة، وتحت سقف واطيء، وفي بعض الحالات سقف هش، أو كرتوني أو بلاستيكي، يسهل ثقبه أو الإطاحة به، بأكثر من معنى.

هذا الكلام لم يُتفوّ به، أو يسطّر إلا لأن ثمة كلاماً يقيم في الانتظار، على مبعده زمانية ومكانية، وهو يتعلق بهذا الموضوع الكابوس الذي يترجم الوضعية البائسة لمن يسوسون السلطة، ومن يطمحون فيها، خلفاً عن سلف غالباً، لأن التراكم التاريخي شبه المعدوم، يضعف حضور التاريخ، فيبهت أثر التاريخ، والخروج منه، ليكون شبحياً أو محنطاً.

إذ إن اعتماد لغة التهديد عبر آلية القوة بوصفها ضامنة أمان المجتمع، ليس أكثر من وجود فزاعة جغرافية وتاريخية تقيم عالياً في ذهنية السلطة، والذين يأترون بأمرها، وهي تدار صوب المجتمع المنقسم على نفسه، أو المتعدد الأثنيات خاصة إجمالاً، على مستوى شرق أوسطي، وفي النطاقات البحثية التي تعيننا، حيث خطوط

(1) كوبلاند، مايلز: لعبة الأمم، تعريب: مروان خير، انترناشنال سنتر، بيروت، ط1، 1970، ص

التحرك تضيق وتتسع، ولكنها لا تفارق نقطة محورية ونقاطاً تقابلها أو تنافسها في التسمية من قبل من سيهتمون بها، أو يشددون عليها كحقيقة فاعلة.

هذا الكلام يخص مرحلة تالية على جمعية خوييون أو أثناء تداعيات وقائعها، وقد غطت زمناً طام عقدين من الزمن، كما أسلفنا سابقاً، لكنه، ومن باب الدقة كذلك، ينعطف على ما قبلها، في عملية لا تهدأ، كما هو الحراك التأريخي للعملية.

بدءاً من عشرينيات القرن الماضي على الأقل يمكن النظر في تعددية الخرائط السياسية للمناطق المقتسمة كفنائم امبريالية منهوية ومضروبة وموهوبة لأنظمة مفتونة بالعنف الموجه، وكيف تشكلت سياسات جبهوية، جهوية، سلطوية، ومدسترة، وأسماء تعنى بها في دول الجوار، أي من تقاسمت كردستان، كما لو أنها واقعاً قد شبت عن طوق السياسات الاستعمارية لعهد طويلة سبقتها، ومنها الحديثة: الغربية والامبريالية من نوع آخر، وتلك التي تعني استعماراً أجده واقعة تاريخية متلونة، وترتبط بالعادات والأعراف التي تدار من نقاط داخلية من رموز مجتمع: أعيانه، أشرافه، أقطابه من يعملون في الخفاء، وأن القضية الكردية مثقلة يارث ما تقدم.

لهذا ليس غريباً، أن نقرأ في أكثر من كتاب هذا التلحيم بين جهة جغرافية وأخرى ومنذ ما قبل القرن العشرين، وكيف شهدت كردستان قوة استعمارية محلية وأجنبية مؤازرة في شراكة ذات مستويات افتتانه بمصالح قائمة، كيف أن الكرد يعيشون إرهابات ثورة، انتفاضات واضع، عصيانات مجتمع، تمردات محلية، دون أن تنفصل عن الجهات الأخرى، أو أن الذي انشغلوا بعملية التقسيم حتى اللحظة، يتبهون سريعاً إلى المعتبر «سندوق بانورا» الكردي المليء بالشورور والسعي الحثيث إلى استجماع المزيد من قوى الانقضااض وإسكات مصدر القوة المقاومة كردياً، أو الكردي تحديداً:

إذ إنه على صعيد الملاحقة وإثقال الضغوط المادية والمعنوية ثمة ما يجري تفعله هنا وهناك ولو(من منظور ثقافي- حيث- يحضر الأكراد، وهم موزعون بين عدة دول: تركيا، وسوريا، والعراق، وإيران، وأدى سعيهم للحصول على حكم ذاتي، بين الحين والآخر، إلى دخولهم في مصادمات واشتباكات مع هذه الدول الأربع)⁽¹⁾.

(1) الشرق الأوسط «محاولة فهم»، تحرير: ديبورا ج. جيرنر، ترجمة: أحمد عبد الحميد أحمد - مراجعة: رؤوف عباس، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003، والقول المقتطف لكل من أيان، وبابرا، ص 32.

كما في حال «تاريخ كردستان» للآزاريف وآخريين، و «الحركة القومية الكردية» لوديع جويده، و «تاريخ الأكراد الحديث» لدافيد مكديول، و «الحركة الكردية المعاصرة» لعثمان علي، و «كردستان والحدود في القرن العشرين» لأصليخان يلدريم...الخ.

سأحاول جاهدًا في هذا المبحث الفرعي التطرق إلى مجموعة نقاط ارتكاز بالنسبة لكل من تركيا والعراق، ليكون الثالث مكتملاً في سوريا، وهنا حظ الجمال، وما في ذلك من مجال لكلام يتمم ما بعده ويُتمم به، ومسار حاجو آغا في ذلك .

بالنسبة لتركيا، ماذا يمكن أن يذكر هنا، ليوسّع مساحة البحث التأريخية لنا ؟
روبرت أولسن في كتاب له يشير إلى علامة تاريخية فارقة جهة التعامل مع القضية الكردية، وهي في قوله عن (أن هناك أربع مراحل للقومية الكردية يمكن أن توصف كالآتي:

1-مرحلة الحركة التي كانت بقيادة الشيخ عبيدالله والاتحاد الكردي، وقد أظهرت هذه الحركة أن دور الشيوخ كان الدور الأكثر أهمية بين الكرد، وانتهت هذه المرحلة بوفاة الشيخ عبيدالله سنة 1883.

2-مرحلة أولوية الفرسان الحميدية منذ تأسيسها سنة 1881، وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى.

3- مرحلة أحداث الحرب العالمية الأولى، حتى معاهدة سيفر، في «10» أغسطس/ آب 1920.

4- مرحلة أعقاب ما بعد الحرب العالمية الأولى، والتطورات التي ظهرت بعد الحرب خلال ثورة الشيخ سعيد⁽¹⁾.

لا بد أن ممعن النظر في هذه النقاط يلاحظ بيسر أنها لا تغادر الجغرافيا المحتواة عثمانياً- تركيا غالباً، حيث إن الأولى ذاتها متاخمة لحدود تلك، وأشغلتها كما أشكلت عليها وضعها في التعامل مع كل ما هو كردي، ومن ثم، فإن بيضة القبّان الكردي تتموقع في متن الجغرافيا «التركية» حتى الآن من خلال مخاتلات سلطتها ومناوراتها، ونهاياتها القيمية كذلك.

(1) أولسون، روبرت: تاريخ الكفاح القومي الكردي 1880-1925، ص 17.

الأكثر إثارة، هو ما انطلق منه، وهو يميّط اللثام عما يفصلنا عن تاريخ يرجع بنا إلى ما قبل قرن من الزمان تقريباً، ناحية تعامل الكرد مع المتنفذين الأتراك، وانخداعهم بوعودهم المعسولة، وهي تتكرر بين الفينة والأخرى، إلى يومنا هذا، كما يجري ذلك الآن في تركيا القرن الحادي والعشرين، وفي الوقت الذي لا تخفي تركيا عدوانيتها الموجهة ضد الكرد (استقطب مصطفى زعماء الكرد.. وإنني أعتقد من دون مبالغة، في القول بأنه لولا الدعم الكردي فإن الحركة القومية التركية ما كانت لتحقق النجاح الذي حققته، وبتعبير آخر: لو أن الكرد تحدوا الكماليين سياسياً وعسكرياً في أروم، لأعاق موقفهم الحركة القومية التركية، ومنع تحقيق نجاح الجيش التركي ضد الروس وقوات التحالف والأرمن....ومما يدعو إلى السخرية في تاريخ الكرد في تركيا هو أن تحدي القوات القومية التركية لحكومة استانبول، وللقوات المحتلة، انطلقت من المنطقة الكردية التي كان القوميون الكرد يعتزمون إقامة وطن مستقل فيها. أجل، إن الكرد ساعدوا القوات القومية التركية التي ألحقت الفشل بما كانوا قد اعتزموا عليه)⁽¹⁾.

البحث عن طريق سالك:

هل علينا أن نعيد ما تكرر سالفاً، أم نتعمق في الكلام الذي يتكلم ما هو معهود إلينا، إلى الكرد الذين يراهنون على خاصية الأخوة الإسلامية وأخوة الوطن، وهي علامة تتكرر كثيراً في كتابات بيشكجي الذي شدّد أولسون على أهميته.

أليس هذا جوهر ما عبّر عنه قائد آارات بقوله (إن الأتراك لم يعوا، بما فيه الكفاية، مسألة مبادئ الحرية وعشق الاستقلال لدى الكرد..... ومن ثم: إن الأمة الكردية متى ما خاضت القتال بملء إرادتها وبِعزم وتصميم، وأحجم الكرد عن خيانة بعضهم البعض، وتوقفوا عن مناصرة أعداء أمتهم، والتعاون معهم، فإن الأعداء ليس بمقدورهم أبداً إلحاق الهزيمة بالكرد والانتصار عليهم)⁽²⁾.

أليس قول قائد آكري/آارات حصاد مخاض مؤلم، أو تجربة كردية تبرّز إيقاع الكرد ببعضهم بعضاً قبل كل شيء؟

(1) المصدر نفسه، ص 87-88.

(2) مذكرات الجنرال إحسان نوري باشا: «انتفاضة آكري 1926-1930»، ترجمة: صلاح برواري، بيروت، ط1، 1990، 24-129.

هناك ما يستدعي الماضي لمعرفة أحيائه من موتاه، ولكنه استدعاء بالكلام، لأن الماضي يمتد في النفوس، وكأنني به شكل لما لا محتوى له، أو هو المحتوى، حيث وطأة أشباحه ضمن أعرافه تتلبس بأحياء اليوم، وكأنهم من كانوا وليسوا هم. ذلكا ينوّه على المكر المضاعف لتجربة سلطة شمولية تدرك ما تقوم به في احتواء الكرد وتهميشهم باضطراد.

(إن تحديد نقطة ما بأنها بداية يعني تصنيفها بعد ظهورها)⁽¹⁾، بتعبير ادوارد سعيد، والتحديد معرفة عميقة، وعن قرب لما هو جغرافي، وكيفية حدوث تحولات تاريخية فيه، ليكون في مقدور كل مولود جديد، أن يعلم تماماً لحظة ولادته، ليس من أجل السجل المدني «النفوس» فحسب، وإنما ليقيم فصلاً بينه وبين من هم قبله، ويكون فاعلاً على طريقته، وهذا ما لا يمكن القيام به أو تفعيله دون معرفة ذات مستقلة لا تطوّع آبائاً، وهي آبائية ضاربة سلطوية أو لاهبة أهلياً، عائلياً.

في بحث أكاديمي حديث، وربما معاصر لمؤرخ تركي هو سهيل صابان، يتطرق إلى المتحولات الثقافية في تركيا، وهو خريج جامعة سعودية، لا يخفي تذاكيه، وهو يتستر على ما يسيء إلى المنتمي إليه: الأب المؤسسات الكمالي، وكل ما يرتبط به، وبالمقابل، لا يدّخر جهداً في التشهير بمن يراه جديراً به تعبيراً عن الأبوية الضالعة فيه كمالياً، وهي قائمة حتى أيامنا هذه (... كما في تناوله لألب: كما توسّع ضياء كوك ألب في الأمر، وطالب بفصل المشيخة والقضاء عن الدولة، لأن الأصول والقواعد القضائية- حسب رأيه- ناقصة ولا توفر الحاجات العصرية للمجتمع. ص 129: وفي الهامش يعرف به: 1876-1924 م، فهو كاتب وعالم اجتماع، إنما لا يشير إلى أي صلة له بالكردية، أو كونه كردي الأصل، بقدر ما يشير إلى تشديده على القومية التركية، ويسمّي أعمالاً معروفة له: التتريك والإسلام والمعاصرة- العادات التركية- الطريق الصحيح- مبادئ التتريك- تاريخ التمدن التركي.. ص 129).

في الطرف الآخر والمعاكس، شن هجوماً حاداً، تسفيهاً على عبدالله جودت، والذي لا يخفي علمانيته، ودمج بين ما هو علماني اجتماعي والمؤسسة التركي كذلك، ولكنه كان يعطي الحضور الكردي اعتباراً، رغم ما تعرّض من نقد من

(1) سعيد، ادوارد: التمتع، التجنب، التعرف- تأملات حول البداية، دراستان مختارتان، منشورات بدايات، جبلة، سوريا، 2008، ص 63.

الأتراك ومن بني جلدته الكرد على مواقفه هذه. لكن ذلك لا ينطبق على النورسي الكردي الآخر، والذي عاش تحولات، وعرفَ بالجانب الديني، وصاحب طريقة، حيث إن مديحه بالمقابل ليس أكثر من تشهير ضمني، وإيقاع أكثر خبثاً في مغزاه للنورسي، ومن يقبل على قراءته، من الزاوية الدينية المطلوبة للمؤسسة الأمنية الكمالية. لاحظ هذه العبارات (وقد استمر عبد الله جودت في غيّه وضلاله وفي نشر سمومه في المجتمع، وانبهاره الشديد بالغرب، وبلغ في ذلك حداً دفعه إلى أن يقول: ينبغي لنا استيراد الرجال من الغرب للاستيراد..ص235- ودعا سنة 1922 إلى اتخاذ دين جديد غير الإسلام..ص236.... وظهر أنه عدو للإسلام فقط من بين مجموعة الأديان ص236... ولا إشارة إلى بيشكجي..- نشأت فكرة القومية التركية بمفهومها العصري في أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، وهي حركة تدعي أنها: تهدف إلى جمع شمل الأتراك في أنحاء العالم لتكوين أمة عظيمة تتبوأ مكانها بين أمم العالم..ص171.... عن عبد الله جودت من أوائل من دعوا إلى الفكر المادي، وترجموا كتب بعض الفلاسفة الغربيين..ص232..... وعن النورسي: ولد سعيد النورسي عام 1873 من أسرة كردية معروفة بتدينها والتزامها بالإسلام، وقد ظهرت عليه آثار النبوغ والذكاء منذ طفولته..ص427- واستطاع- رحمه الله- بكفاحه المستمر وإصراره على بيان حقيقة الإسلام.. دون أي رغبة في مغنم.. أن يكون جماعة كبيرة..ص438 «توفي سنة 1960»- تردد عن أنه يريد إنشاء دولة كردية في النقد وقيل عن أنه قال لأحد الأكراد وهو يناقشه: إن مسلماً تركيا أقرب إلي من آلاف الأكراد إن كانوا معارضين للإسلام..ص448⁽¹⁾.

طبعاً، على القارئ متابعة طريقة دس السم الملفق تاريخياً في الدسم الواقعي، وبصورة خاصة، ما بذل من محاولات كبرى لوضع النورسي في قالب ثقافي، يخدم التركي الأتاتوركّي العلامة، وليس أياً كان، بمقدار، ما يُستبقى من النورسي ما هو مشوّه، وليس فيه أكثر إيذاء للكرد، وتحديداً للعبارة الأخيرة، وبعدها التقويلي: المنسب إليه هكذا.

(1) صابان، سهيل: تطور الأوضاع الثقافية في تركيا من عهد التنظيمات إلى عهد الجمهورية «1839-1990»، تحرير ومراجعة: عثمان علي، المعهد العالي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط1/2010، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز، ومما يعرف هو أن المؤلف تركي، كما تقدّم، ومن مواليد 1960.

أي حيث يجري وضع الكردي في كل ما هو منفّر، وكعبء على التاريخ، وهو يتعرض للسرقعة المشرعنة، ولا مجال لأي شكوى لأي جهة، بالنسبة لصوت الكردي: لحنه وفنه، ومعاقبة كل من يهتم به وتغريمه بصيغ شتى، أي (السعي إلى اعتقال الأكراد الذين يبيعون شرائط تسجيل للأغنيات أو الموسيقى الكردية)⁽¹⁾ ولعلها عملية مبرمجة بإتقان.

تلك هي لعبة الديماغوجيا في عملية مسماة بـ «خلط الحابل بالنابل»، سوى أن القائم بها يعرف أين الحابل وأين النابل، وهما يحفظان السرّ النسبي بينهما، ومن شأنه، وهو محروس «الإيقاع بالآخرين ممن يعرضون له احتواء وتوجيه أفكار.

أي ما يجعل من الاهتمام بالفن قيمة روحانية، ترفع من مكانة المرء، وتمنحه نوعاً من الكونية، وما يجعل من الإنسان محل اهتمام أول وآخر من قبل السلطات الأحادية القيمة، إنما ما يجبر فيه كل ما يعنيه ويحميه ويعزّز تمايزه، ولعل في هذا الرصيد المتجدد تاريخياً، ينبغي على الباحث التاريخي، والكردي أولاً، التدقيق في مفارقات صادمة، ومن يكون وراءها، أو ما طبيعة الجهات التي تحرص على إبقائه وشحنه بالقوة المضادة، أي حقيقة التركي المؤسطرة .

إن ما أثاره موسى عنتر في حكاية متفلسفة سياسية التوجه، في غاية الطرافة والإيلام وامتلأ بالغرابة، بعنوان «الترك وتركيا»، من خلال تعقّب أصول الترك، وأين هي حقيقة التركية، ليجري وراءها وباسمها كل هذا التبجيل:

(سابقاً، كنا عثمانيين، إذ كان الشعب الأكثر منبوزية على تربة العثمانيين وفي عهد العثمانيين، هم الأتراك، حيث إنهم من جهة الأب كان نسبهم ينتهي إلى الملك أوغوز، إلا أن أمهاتهم كن من النساء المسيحيات الأوربيات عموماً.

مثال ذلك أن أم السلطان محمد الفاتح كانت ابنة ملك الصرب، ولم تسلم حتى وفاتها أيضاً، واليوم يقع قبرها ضمن حوش دير في اليونان، إلى درجة أنهم ردّدوا أن الفاتح عندما احتل ستانبول، بصدد التعظيم والتفخيم للذين منحاهما لبطريك الروم، كان كرمي لأمه، بحيث إنهم شككوا في الفاتح لاحقاً، عن أن نيته كانت مرتبطة

(1) راندل، جوناثان: أمة في شقاق «دروب كردستان كما سلكتها»، ترجمة: فادي حمود، دار النهار، ط2، 1999، ص 363.

بالمسيحية، وإلى يومنا هذا، نجد في مكتبة الفاتح، من الكتب المتعلقة بالمسيحية تفسيراً وأصولاً للإنجيل، لا يقابلها من نسخ قرآن وأحاديث الرسول محمد .

ذلك لا يعني، من جهة، أن ليس في نيتي كتابة تاريخ العثمانيين، إذ إنه وفق دستور العثمانيين، ما كانوا يرتقون بالأترك إلى منصب رجالات الدولة والباشوات فيها، فجميع أفراد الانشكارية كانوا أطفال المسيحيين «النصارى». إنما كان ذلك التوظيف يقتصر على المسلمين وكذلك العثمانيين، حيث يصبح هؤلاء جنوداً وباشوات.

في تاريخ العثمانيين، كان الصدر الأعظم والأشهر بامتياز سوق أوغلو محمد باشا صريباً، والداماد «صهر السلطان» ابراهيم باشا إيطالياً، ومشهور ميمار سينان أرمنياً، وكان الآخرون كافتهم هكذا .

من جهة أخرى، منذ سبعين عاماً، لا أعرف لماذا كنا نردد تركيا. وكانوا يقولون، يا جماعة، إن تركيا أيضاً في مقام العثمانيين أمميةً. إن هذه التربة التي بقيت في أيدينا، ونحن من حررناها: أتراكاً وكرداً، اسمها تركيا. وهذه قضية جغرافيا لا شعب، ليس لأن تركيا للأتراك، إنما كل الذين يعيشون على هذه التربة، تكون الدولة التركية لهم جميعاً. إلا أنه تبين لي أن هؤلاء قد خدعونا، فاليوم نجد أن تركيا المشكلة هي للأتراك، فهم يرددون «تركيا هي للأتراك»، ويرددون «طوبى من يقول عن أنه تركي»، ونحن الكرد قد تحينا جانباً. فنحن لسنا أتراكاً لتكون تركيا لنا، ولسنا أتراكاً كذلك، لنقول «طوبى» كوننا أتراكاً.

إلا أنني لست على يقين من أن هذا الحمق سوف يدوم، حيث إننا كنا نقول سالفاً، عن الدول التي تشيّد من جديد، لا بد أن تشهد ممارسات عنف، وأن ممارسي العنف هم العسكر، إلا أن ذلك العنف كان عليه ألا يدوم، كون الدولة عندما تتأسس على قواعدها، فهذا يعني أنها ستصبح مدنية، أي حضرية. ذلك معروف في أدبيات الدول، وأن فترة الحقبة العسكرية هذه تتراوح ما بين «9-10 سنوات»، في حدود علمي. سوى أن الذي أراه، هو أن الدولة التركية لا تتبع أصول علم بناء الدول، فهي سبعون عاماً، وهي دولة عسكر، وبدوره فإن الوضع ينتقل من سيء إلى أسوأ. وأن المدنيين الذين يظهرون في بعض الأحيان أيضاً، هم في هيئة حركات المتفكرين، و «البهلوانيين». والبهلوانيون هم العسكر، أما المتفكرون فهم المدنيون. لقد رحل كمال باشا وعصمت باشا، فقلنا لابأس، إلا

أنا فوجئنا كيف أن الباشوات اصطَفُوا على الدور: جمال باشا، جودت باشا، فخرالدين باشا، وختامهم في الختام كنعان إيفرين باشا.

لكننا لاحظنا أن جلال بايار، وتورغوت أوزال، كلاهما بدورهما كانا متفاخرين بهلوانيين.

في تاريخ الدول سابقاً، كان يوجد البوليس، ومن المعلوم أنه - في واقع الأمر - يكون البوليس أكثر مدنيّة من العسكر، إلا أنه في تركيا، ها هي سبعون عاماً، يوجد عسكرالدولة. ماذا يعرف العسكر، وما هي مهمته؟ إن ما يعرفه هو أنه حي، وأن مهمته هي القتل بالتالي، وعملياً هذان الاثنان أصبحا من نصيبنا نحن الكرد.

تُرى، هل هناك من يمكنه أن يقول إن ذلك ليس كذلك؟ وها هو سليمان ديميريل قد تعرّض للضرب المبرح من العسكر، سوى أنه رغم ذلك لم يعقل، إنما أصبح متفخراً وبهلوانياً. إن ما أراه في سليمان هو أنه مثل «كركوز: دمية متحركة» أما بالنسبة لإيواظ، فهو من خلف الستارة يشد خيطه ويمسكه بيديه، ويهرف بالكلام أمام الستارة، ومن ثم يلعب. اللعبة ليست له، إنما لعبة من يشد خيطه «رسنه» بيديه إليه. المسكين هو نفسه من تشوّش. لقد كنا نقول عنه سابقاً بأنه مهندس، وكان يتميز بقليل من العقل لديه، سوى أنني أراه كيف أنه فقد كل شيء خوفاً من العسكر أيضاً.

انظروا ماذا يقول: «سوف أمضي إلى إقليم كردستان بالديمقراطية، بالمحبة، والطيب. إلا أنني سوف أستأصل جذور الإرهاب».

انتبه، يا سلو! بداية، إن أطفالنا ليسوا إرهابيين، هذه واحدة، والثانية هي أن جذورهم هي نحن يا فهمان. بالنسبة إليك، كيف يمكنك استئصال شأفتهم، قبل أن تبديد الكرد جميعاً؟ تُرى، هل قدم هؤلاء الأطفال الشرقاء من سبارطة إلى جودي؟

ألا فلنكن هذه الفكرة كافية، لنكون على علم ونحن نتساءل بأي قحف ودماغ فارغين وخاطئين ندار نحن الأتراك والكرد. إلا فلينجّ الله كلاً من الأتراك والكرد من أيدي هؤلاء الجهلة، حيث إننا لست على يقين عن أنهم خونة جميعاً. إذ كيف يمكن لكل هؤلاء الخونة أن يتواجدوا في بلد واحد؟ سوى أنهم جهلة وجبناء.

13-7 شباط 1993⁽¹⁾.

(1) Mûsa Anter: Çinara min, Avesta, Stenbol, 1999, r:99-100

أردت نقلها كاملة، وهي بأسلوب موسى عنتر المبسط والعميق، وبلغته الكردية المتمرس فيها، رغبة في إيصال الفكرة كاملة، إلى القارئ، ومن موقع تجربة عميقة، كان ضحيتها، وربطها بما تقدم، أي في دولة الخداع والمكر والغطرسية.

وإذا انتقلنا إلى العراق، وهو انتقال جغرافي، وليس بمكلف، لأن المعاشية القاسية تكاد تكون ذاتها، إلى درجة التداخل بينهما، وكأنهما يتبادلان الأدوار، ويحتفظ كل طرف أحياناً بما يتباهى به على الآخر في عنفه ضد الكردي خصوصاً.

سوى أن الذي يحفز على التفكير في ثنايا واقعة حكاية وتاريخية من هذا النوع، هو اعتماد أسلوب السخرية التي تباشر هجومها على هدفها الواقعي، أي ليس في جعل الماضي هو الهدف، فهو ينتمي إلى الماضي، إنما إلى الذي يحاول نسيان أنه من «سلع» ماضية، ولا يستعد للمواجهة، أي في أن يتقبل حقيقته في نسبه المقنع، والذي لا يرتاح إليه، بمقدار ما يتحمس للتحرك في الجانب المضاد له، أي ما يبقيه بعيداً عنه كلياً، كما لو أن يجري الحديث عنه لا صلة له البتة، وبالتالي، فإن هذا التماذي في التعالي المزيف، واستخدام أساليب مراعاة وعنفي في المتن ضد الذي يشكلون خطراً على أخلاف أسلاف لا بد أنهم في قرارة أنفسهم غير مرتاحين لهم، نظراً للمكان الخاصة بالأم، وهو ما يجعل التاريخ في غاية التناقض بين عثمانية كانت تعتمد لغة المفارقات تلبية لسياسة من داخل الباب العالي، بزعم التفوق، أي لوجود فحولة عثمانية شرقية المصدر، وهي تصل بنساء من جهة يُعتدُّ به: الغرب، ومن فئات اجتماعية راقية، إلى جانب أن الجيش الجديد «الانكشارية» ليس إلا حصيلة هذه المقدرة الفظة في النيل من المسيحيين «النصارى» حيث استجرَّ صغارهم من داخل بيوتهم، أو خطفوا من بين أيديهم أهليهم أو أمهاتهم ليكونوا خدماً للسلطان، وللدفاع عن حدود امبراطوريته، وربما ضد أناس لهم بهم صلابة قرابة، أو من الدين «النصراني» نفسه، وما في ذلك من إشعار بإذلال الآخر، لكنه إذلال يترجم ضعةً المذل، والساعي إلى التستر على قبائليته «الأرطغرلية» وإبراز فحولته وفروسيته في كسر شوكة الروماني، وهي شوكة استمرت طويلاً، حتى أصبحت قيامة على المتباهي بها، والذي وجه سهام

عنتر، موسى: شجرة دُئي Çınara min»، منشورات آفستا، ستانبول، باللغة الكردية، 1999، صص 99-100.

حقده إلى الاثنيات المستبد بها في حدوده وقد أصبح العثماني تركياً، والتركي يحيل الجميع إليه أتراكاً، بنوع من الانكشارية الجديدة ويمع لامتهاء وفضائحي، أي لا مال يمكن الاستمرار بنهجه وهو ينزف كما يستنزف دماء، وانعداماً للراحة والأمان رغم زعم السيطرة الأمنية، ومن جهة أخرى، يُذم بدافع ديني، تفريقي، موجّه.

في مقطع من مذكراته، يمضي الدبلوماسي والسياسي العراقي طه الهاشمي «1888-1961» في نسج خيوط وهمه التاريخية الخاصة حول من يعتبره خصماً لا بل عدو عروبة العراق، والعراق العروبي بكر صدقي عندما يتحدث الهاشمي عن بكر صدقي ومحسوبياته وتداعيات اتهامات من هذا القبيل في التفكير والتدبير (التقرب إلى المشايخ الأكراد المقيمين في المنطقة الكردية، والسعي إلى تخصيص رواتب لهم وإعطائهم هدايا بحجة الاستفادة منهم في وقت النفير.. وبحسب السماع الإشارة إلى سعي بكر في القضايا الكردية نقلاً عن بعض الضباط والمعلمين..)⁽¹⁾.

سوى أن المؤرخ الكردي العراقي يردّ عليه قائلاً (من المعلوم أن قائد الانقلاب بكر صدقي كان من أصل كردي، فاستغل أعداء النظام الجديد ذلك من أجل حشد أكبر طاقة ممكنة في سبيل القضاء عليه، فبدأوا يصورون بكرًا في ثوب «قائد قومي انفصالي كردي» يعمل في سبيل إقامة «دولة كردستان الكبرى». وثمة استنتاج: إن اندماج بكر صدقي السريع والمتحمس في لعبة الصراع من أجل السلطة كان يعكس طموحه الذاتي أكثر من أي شيء آخر)⁽²⁾.

وربما بالطريقة ذاتها، إن لم تكن أمضى غلاً، يركّز السياسي والدبلوماسي العراقي توفيق السويدي «1892-1968»، وهو - هذه - المرة - يضع نصب عينيه صاحب الأقطيان ورجل الأعمال الكردي عبدالرحمن اليوسف في دمشق، وكيف قضى عليه، والتعبير عن مكبوته النفسي (وقد درّس في كلية الحقوق بدمشق بين

(1) مذكرات طه الهاشمي 1919-1943، بقلم خلدون ساطع الحصري، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1967. عاش بين عامي 1888-1961، ص 157، والهاشمي، كما ورد في المقدمة، بغدادي المولد وهو برتبة عميد ركن، والتعريف بالمذكرات وكاتبها، من قبل ولده الدكتور سهيل طه الهاشمي ص11..».

(2) أحمد، د. كمال مظهر: صفحات من تاريخ العراق المعاصر «دراسات تحليلية»، منشورات مكتبة البديليسي، بغداد، ط1، 1987، ص 120-129.

سنتي 1918-1921.... وثمة تأكيد لحرصه على العروبة، ولهذا رسالة يجب أن تقوم بها في الشرق الأوسط خاصة وفي الحضارة العالمية بوجه عام، لأن للعروبة لغة دقيقة سامية تصلح لأن تعبّر عن الرأي البشري بجميع أشكاله وتطوراتها. ص 25.... وحديثه عن الحكومة الهزيلة قبل دخول الفرنسيين، ومن قبل عبدالرحمن اليوسف، والسخرية منه، وجهله للسياسة: غير أن غناه وأملاكه الواسعة كانت تساعد على أن يظهر دائماً بقوة وشراسة، وبما أنه من أصل كردي فلم يكن متحسناً بالشعور العربي، بل كان عوناً للترك في مناهضة الجهود العربية للسلطنة العثمانية... ومن ثم إظهار كيف انتقم منه «الشعب» هو وآخرين في الوزارة، منهم علاء الدين الأيوبي رئيس الوزراء: وعند وصولهم إلى محطة خربة الغزالة هجم عليهم الأهالي، وقتلوا رئيس الوزراء وعبدالرحمن اليوسف شر قتلة ووضعوا الروث في فميهما، أما الشيخ الخطيب والأيوبي فهربا ونجيا من القتل..... وسعيه إلى الحيلولة دون حصول الكرد «الأكراد» على الحكم الذاتي⁽¹⁾.

إجراء ثقافي لا يتشكل على صعيد الذات الفردية فحسب، وإنما من خلال موقف عقائدي، له امتداده في المجتمع، وعبر مؤثرات تاريخية أيضاً، وما في ذلك من السلطة الفاعلة لنظام الذاكرة الجمعية بمفهومها القطيعي أرضاً، لأن البحث في بنية الكتابة، وعمقها اللافت وهو العائد إلى أحقاد دفينّة، لا تعبّر عن نفسها إلا في لحظة غياب الآخر، وما في ذلك من شعور بالانتقام، أو الأخذ بثأر يتعدى حدود الشخصي، وعدم المقدرة على المواجهة إلا حين يكون الآخر قد غاب عن الأنظار.

خلفية متحركة سياسياً:

في قائمة طويلة نسبياً، تشمل أحزاباً عراقية مختلفة، يقدمها الباحث العراقي هادي عليوش، تلقي بظلالها على تاريخ عراقي مقروء، إنما في معابر ضيقة، وأنفاق، وكذلك بعيداً عن التوازنات التي تضمن بناء مجتمع سوي من داخله، كما لو أن الباحث، وهو في ترتيبه لها، والسعي إلى تقديم تعريف تاريخي بكل منها، يقول: هذه هي عرائضنا الحزبية، بأرضيتها العشائرية المتناقضة، والتي تمثل الشاهد العيان على أن ليس هناك ما يطمئن النفوس والرؤوس جرّاء محتواها.

(1) السويدي، توفيق: مذكراتي «نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية»، الذاكرة، عمّان، 2011، ص 23-25-67-189.

(أي كما نوهت ثمة تأريخ بداية قائمة طويلة للأحزاب السرية والعلنية، مجموعها 66 حزباً، عبر اهتمام المؤلف بالأحزاب في العراق، منذ عام 1974.. ص15... التذكير بأن العراق حتى أواخر القرن التاسع عشر لم يكن تربة خصبة لنمو الحركة القومية، وبالتالي ظهور الجمعيات والأحزاب السياسية والجماعات الإصلاحية. ويعود ذلك إلى أسباب كثيرة أبرزها التخلف والجمود الاقتصادي والاجتماعي، اللذان كانا سائدين في العراق، في تلك الفترة. ص17... عبدالرحمن النقيب: نقيب أشرف بغداد، وأبرز الشخصيات الاجتماعية في بغداد، آنذاك، كان ذا علاقات ودية مع العثمانيين، ومثلهم مع الانكليز، من أبرز المناهضين لثورة العشرين، أصبح أول رئيس حكومة مؤقتة عراقية عام 1920... واختير أول رئيس وزارة في عهد الملك فيصل الأول عام 1921. ص51... حزب الشعب، في بداية عام 1941، بدأ نشاط سياسي سري لتشكيل حزب سياسي جديد.. في دار مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني.. وضمت اللجنة المشتركة: المفتي الحسيني، ورشيد عالي الكيلاني، وصلاح الدين الصباغ، ومحمود سلمان.. الخ. ص120... شباط 1963-18 تشرين الثاني 1963: قامت الثورة في العراق، بقيادة حزل البعث العربي الاشتراكي.. ص192... الظروف السياسية، التي أحاطت بالعراق الحديث داخلياً وخارجياً دفعت الأحزاب السياسية إلى التعاون بالرغم من التباين في مناهجها واختلاف إيديولوجياتها، وذلك لشعورها بعدم قدرتها على تحقيق المطالب الشعبية كل على انفراد. ص225... إن العراقيين عرفوا الحياة الحزبية منذ أوائل هذا القرن.. ص247..)⁽¹⁾.

مشاهد مركبة عن التجاذبات التي تعرّف بالمناخ الاجتماعي السياسي والقيمي العراقي، وهي مؤثرة في كل بحث يُراد منه أن يأتي متكاملًا في مكوناته وعلى الصعد كافة، وفي مجتمع لا يسلم من العدوان والعدوان الداخلي- الداخلي حتى الآن، أي ما يمكن اعتباره: العدوان الذي يفنّد كل قول يتردد عن مفهوم السلم الأهلي.

وبغية التعمق أكثر، وفي نطاق التنويع، يأتي العمل التصنيفي والإحصائي للباحث العراقي فائق بطي، والذي يتعرض للصحافة العراقية هذه المرة، وأي قارئ عادي

(1) عليوش، هادي حسن: الأحزاب السياسية في العراق السرية والعلنية، منشورات الرئيس، بيروت، ط1، 2015، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

يمكنه الربط بين عملية نشوء الأحزاب، والصحف التي كانت تمثل مرجعيات لها، لنشر مواقفها أو ما يتعلق بالجانب العقائدي الحزبي لها، أو حتى على مستوى جهات ثقافية، ليست محايدة، إنما تكون مدعّمة من هذا الطرف أو ذاك (عن الزوراء في 15 حزيران 1869 ومؤسسها الوالي العثماني مدحت باشا ص11... أول جريدة بريطانية باللغة العربية في بغداد هي «العرب» في 4 تموز 1917 بإدارة المس بيل.. وكتب عرب فيها مثل كاظم الجيلي والكرملي.. ص43... التقسيم حسب المراحل، كما في: من الاستقلال حتى المعاهدة الجائرة: الصحافة الحزبية والمستقلة 1922-1930 ص79... عن «الانقلاب» اليومية، في 29 تشرين الأول 1936 ص133... أسماء أمكنة وألقاب وشخصيات مركبة: الفرزدق 1939... جحا الرومي 1923... بابل 1923... كناس الشوارع 1925.. المداعب 1926، حبز بوز 1931.. الخ.. الصحافة الحزبية بعد ثورة 14 تموز 1958 ص325: الأهالي «الحزب الوطني الديمقراطي- اتحاد الشعب للحزب الشيوعي العراقي، سنة 1959 ص331... خه بات «النضال» للحزب الديمقراطي الكردستان ص337... التآخي فيما بعد وهي يومية وبالعربية صدرت إثر صدور بيان 11 آذار 1970 بين حزب البعث العربي الاشتراكي والحزب الديمقراطي الكردستاني.. ص406..⁽¹⁾.

فالتغطية التاريخية والثقافية ملحوظة، ولو باقتضاب، وتقدم فكرة موجزة عن صحافة متنوعة ومختلفة كان لها دورها ذات يوم في المجتمع العراقي الذي لم تخب نار صراعاته الجانبية إلى يومنا هذا، وفي ضوء ذلك تقيم الصحافة هذه غالباً، عدا عن ذلك، فإن أسلوب التغطية للجانب التاريخي والتعريفي بكل صحيفة، هو نفسه تعريف بموقف الباحث أو الكاتب، بمقدار ما يفتح له زاوية في جدار التاريخ، أو يدشن إطلالة له من خلالها ينظر إلى ما حوله أو يمثل أمام ناظره.

في الانتقال إلى سوريا وهو مستقرنا كمجال بحثي تاريخي وتقييمي ونقدي أيضاً، يمكن لنا أن نورد مجموعة من الرؤى التاريخية ولو أنها تخص توجهات صحفية أو حزبية في صنفاتها، أو كيف أبصرت النور، من خلال عدة كتاب للأقدم دوره سواء أثار في التالي عليه أو لم يُشر إليه.

(1) بطي، د. فائق: الموسوعة الصحفية العراقية، دار المدى، دمشق، ط1، 2010، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

الأول هنا، هو محمد فرزات الذي أرخ للأحزاب في سوريا، وما إذا كان دقيقاً في عمله التاريخي، بدءاً بمفهوم الحزب وتعريفه (الحزب هو الجمعية التي تمارس العمل السياسي.. ص10... نص الدستور السوري لعام 1920 والدستور الصادر في العام 1930 في مادتيه 14 و25 على حرية القول والكتابة والاجتماع وأفسح المجال- دستورياً- أمام الأحزاب للقيام بنشاطها. ص23... كانت الأحزاب التي نشطت على مسرح السياسة في سورية في عهد فيصل، وما بعده، وليدة الجمعيات والمنظمات الحزبية التي قامت في مطلع النهضة العربية الحديثة قبيل الحرب العالمية الأولى. ص25... نشاط الجمعيات والأحزاب بين إعلان الدستور والحرب العالمية الأولى: بعد إعلان الدستور «المشروطة» في 23 تموز 1908، كان هناك: جمعية الإخاء العربي العثماني- المنتدى الأدبي- حزب اللامركزية الإدارية العثماني. صص29-36... جمعيات إثر النشاط السري: جمعية العهد- جمعية القحطانية- جمعية العربية الفتاة.. صص40-42... مميزات الأحزاب في العهد الفيصلي: بعض الأحزاب نادى بالفكرة العربية وآمن بها، واقتصراً الآخر في برنامجه على سوريا. ص78... على أن أخطر ما في الحياة الحزبية في هذه الفترة هو تعدد الأحزاب، في ظرف خطير لا تتحمل فيه مصلحة البلاد الواضحة الجدل أو التناقص أو الخصومات الشخصية... ص78... الأحزاب في عهد الثورة: حزب الشعب: أول حزب سياسي أنشئ في سوريا بعد الاحتلال الفرنسي، وسمح بعقد أول اجتماع له رسمياً بعد جهود مفضية في أيار 1925. ص101... ومؤسسوه: سبعة رجال من دمشق د. شهبندر، فخري البارودي، وإحسان الشريف.. ص101... وتالياً فارس الخوري ولطفي الحفار وجميل مردم.. ص102... وبرنامجه: العمل لتأمين استقلال سورية ووحدتها. ص102... حزب الوحدة: مرخص كذلك، ومؤسسوه: شاكر الحنبلي، وحبيب كحالة، ود. مصطفى الشويخ، وبرنامجه: توحيد سورية على أساس السيادة القومية.. ص105... الكتلة الوطنية: أواخر 1926، من خلال التفاهم مع فرنسا، برئاسة هاشم الأتاسي بحضور إبراهيم هنانو، ود. عبدالرحمن الكيالي، وعبدالله اليافي، والأمير سعيد الجزائري.. ص107... ف6: الحياة الحزبية في دور المعاهدة «1932-1939»، ص122... أحزاب المجلس النيابي: الحزب الحر الدستوري ويتضمن حقوق الأقليات، ومن ممثليه صبحي بركات. ص124... عصبه العمل القومي: سنة 1932 من خلال شباب سوريين ولبنانيين في قرنايل، والأهداف: سيادة العرب

واستقلالهم المطلقين، والوحدة العربية الشاملة. وإقرار سياسة اللاتعاون مع المنتدبين والحكومات المقامة..ص140... الحزب السوري القومي، ومنشئ أنطون سعادة سنة 1932، التأكيد على وجود الأمة السورية وللسوريين..ص144... وصلاحيات الزعيم واسعة..ص156...مقتل الدكتور شهبندر، في حادث في 6 تموز 1940، ص205... الحياة الحزبية بين 1939-1949، المرحلة الأولى 1939-1944، حيث الحكم المباشر من قبل فرنسا عسكرياً..ص208...المرحلة الثانية 1944-1949، وقد ظهرت المعارضة البرلمانية..ص211...الأحزاب في مجلس عام 1947: الحزب الوطني وقام على أنقاض الكتلة الوطنية السابقة، ويؤكد وحدة الأمة العربية، واختير لرئاسته سعد الله الجابري، وبعده نبيه العظمة..ومن ثم د. عبدالرحمن الكيالي..ص222... حزب الشعب: 1948، التأكيد على وحدة الأمة العربية، ومؤسسوه أيضاً من مؤسسي الكتلة الوطنية..ص224 رئيس الحزب: رشدي كيخيا، ومن أقطابه: د. ناظم القدسي ود. عبدالوهاب حومد ود. معروف الدواليبي، وثمة عناصر من الملاكين أصحاب الأموال..ص226..الأحزاب غير البرلمانية: الحزب السوري القومي، وحزب البعث العربي الاشتراكي «أسسه عفلق وبيطار سنة 1940» وصفته الأساسية أنه انقلابي..ص237... والحزب التعاوني الاشتراكي «مؤسسه فيصل العسلي في 27 كانون الأول 1948، ص 241... والحزب الشيوعي وجماعة الإخوان المسلمين..ص228... الفصل الثامن، مجمل النشاط الحزبي بين 1949-1955، مارس الزعيم سياسة البطش على المجتمع والأحزاب..ص249... وحلها..ص250..⁽¹⁾.

كما يلاحظ، ثمة تأريخ للأحزاب في سوريا إنما تلك الناطقة أو المكتوبة بالعربية، ولأطراف عربية، وليس من وجود أو أثر لأي حزب أو عصابة عمل، أو رابطة ذات طابع حزبي عربي، وله منبر ثقافي ما، أو شارة حزبية وتاريخ ولادة. في حال الباحث والمؤرخ العراقي الجبوي، ثمة تعرض للأحزاب أيضاً، سوى أن له طريقتيه المختلفة، وسعي إلى الاختلاف، كما يلاحظ في التناول والبدء والتصنيف والتعريف كذلك، وهذا يلاحظ منذ البداية (ف 1: الأحزاب والجمعيات السياسية التي أسست في سوريا قبل الانقلاب العثماني عام 1908، هي عشرة:

(1) فرزات، محمد حرب: الحياة الحزبية في سوريا «دراسة تاريخية لنشوء الأحزاب السياسية وتطورها بين 1908-1955»، منشورات دار الرواد، دون تأريخ، وهو يرجع إلى خمسينيات القرن العشرين صدوراً، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

الجمعية العلمية السورية، تأسست سنة 1847، كناد أمريكي أسسه المبشرون قبل افتتاح المدارس الكبيرة المعروفة ص8... جمعية بيروت السرية، 1875، من خريجي الجامعة الأميركية، من أبرز مؤسسيها: يعقوب صروف وإبراهيم اليازجي وشاهين مكاريوس.. ص9... جمعية حفظ حقوق الملة العربية، 1881 في بيروت، من فئة الشباب. ص13... الجمعية الخيرية في دمشق، من قبل طاهر الجزائري. ص14... جمعية النهضة العربية، سنة 1903، في دمشق، من قادتها: محب الدين الخطيب، عثمان مردم، لطفي الحفار، صالح قمبر.. ص16... جمعية النشأة التهذيبية في حلب سنة 1907. ص18... الجمعيات والأحزاب التي أسست في استنبول بعد الانقلاب العثماني 1908-1914، وهي 14: جمعية الاتحاد والترقي، البدء في لندن سنة 1864. ص20... جمعية الإخاء العربي العثماني في 15 آب 1908 من قبل مثقفين عرب، من الولايات العربية كافة، في الواجهة: صادق باشا المؤيد العظم، شفيق المؤيد، شاكرفندي الألوسي، عارف بك مارديني، يوسف شتوان.. ص29... حزب الأحرار، في اسطنبول 1909، مؤسسوه من جميع القوميات، أبرزهم: اسماعيل كمال بك «ألبانيا»، نافع باشا الجابري «حلب»، خضير بك «دير الزور»، رشدي بك الشمعة «دمشق».. ص39... جمعية العلم الأخضر، في اسطنبول، 1912، من أبرز قادتها: داؤد الديبوني الموصل، أحمد عزت الأعظمي، سليم العطار، شكري غوشه.. الخ. ص47... ف3: الأحزاب والجمعيات التي أسست في سوريا في أواخر العهد العثماني: 11 جمعية: في مدن سورية مختلفة، جمعية الاتحاد والترقي، فرع دمشق، 1909. ص56... حزب الحرية والائتلاف في دمشق، سنة 1911. من قادته الكبار: عبدالرحمن الشهبندر، شكري العسلي.. ص57... ما تشكل منها في مصر: 18 جمعية وحزب.. ص89... وتلك التي أسست في سوريا 1920-1940، وهي 14 حزباً وهيئة وكتلة.. ص121... ما بين 1940-1958، 16 حزباً وميثاقاً وهيئة وتجمعاً.. ص205... الكتل السياسية والبرلمانية في سوريا 1940-1958، 12 كتلة ومنظمة.. ص269⁽¹⁾.

يبقى الأحداث في النماذج المختارة هو الباحث هاشم عثمان، إذ يتناول الأحزاب السورية دون طريقة التناول لدى الآخرين، ولا يخفي تقييمه العقائدي

(1) الجبوري، عبدالجبار حسن: الأحزاب والجمعيات السياسية في القطر السوري من أواخر القرن التاسع عشر إلى سنة 1958، دار الحرية، بغداد، 1980، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

وحتى السياسي لبعض الرموز أو أقطاب هذه الأحزاب، كما هو مثبت في نصه، إلى درجة النقد الجارح (حزب الكتلة الوطنية، تعريف مختصر: حزب «نحن وبس».. ص121... محسوبيات عضو في الكتلة الوطنية: لطفي الحفار وهو يسترزي أقاربه.. ص135... ونقد جريدة «القبس» وصاحبها نجيب الرئيس لمسلكتيات الكتلة.. ص136... الحزب العربي الاشتراكي، مؤسسه أكرم الحوراني سنة 1950: أسوأ سياسي عرفته سورية في تاريخها المعاصر.. ص345... مارس الحوراني أسلوب البلطجة مع الفلاحين، ومع خصومه مثل فيصل العسلي مسئول الحزب التعاوني الاشتراكي.. ص353... وللقبس وقائع مشهورة مع مسلكيات الحوراني وزئبقياته.. ص354-355... وكان وراء فشل الوحدة المصرية السورية، ومن الموقعين على وثيقة الانفصال.. ص359)⁽¹⁾.

هذه اللائحة من العناوين والتي تبين أنها معنية كما تقدم بما هو عربي وليس أياً آخر، كالأحزاب الكردية، وما في ذلك من خلل في التناول، ومن نظرة أحادية الجانب تعكس طبيعة التوجهات الثقافية والإيديولوجية الطائفة في أذهان الكتاب الذين يدركون أن مجرد التعرض لأحزاب ليست عربية واثنيات مختلفة، يعني اعترافاً بها، وهذا لم يتم على مستوى الدولة، أو بصفة رسمية، فكيف يكون التقرب مما هو محظور أو شبهه، وهنا يكون العراقي متقدماً على نظيره السوري بجلاء.

ثمة الكثير الممكن قوله أو اقتطافه واستئناف المزيد، سوى أن العبرة في التنوع، وعلام يدل، على أي أرضية فكرية، ومن ثم عقائدية تبرز الفكرة المتعلقة بكل فئة أو جماعة أو رابطة أو تكتل أو حزب؟ تلك بانوراما سورية لصراعات لا تخفى على الناظر في بنيتها هي الأخرى، وطريقة إدارتها لأموورها ونظرتها إلى غيرها من موقع الاختلاف، رغم الإيجاز الشديد (في سيرة تكوين الكتلة الوطنية مثال بارز على اختلاط المفاهيم الحزبية وإبهامها في ذهنية أولئك الذين تصدوا لقيادة الحركة الوطنية. وليس على ضعف الانضباط الحزبي فحسب، وإنما برهان على أن كل فرد يكاد يؤلف حزباً بمفرده وعلى أن الحزب كالكتلة، كالعصبية، أيا ما كان الاسم الذي يطلق على التجمع السياسي يعني في حقيقته لقاء بين اتجاهات

(1) عثمان، هاشم: الأحزاب السياسية في سورية السرية والعلنية، دار الرئيس، بيروت، ط1، 2001، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

مختلفة بل ومتباينة أحياناً، تتعاون وتآلف ليساند بعضها بعضاً ضد عدو أخطر على مصالحها.. لعل أكبر خطأ ارتكبه رجال الكتلة الوطنية هو تهافتهم على استلام الحكم من بابه إلى محرابه، وعدم الأخذ برأي بعضهم في ترك محمد علي العابد في رئاسة الجمهورية حتى نهاية مدته بل كان الأصوب لو بقوا خارج الحكم.....⁽¹⁾.

كما تقدمنا بالقول ابتداءً، لو أننا تعمقنا في جانب البحث الاجتماعي والسياسي والثقافي السوري، ماذا يتوافر لدينا؟ ثمة ما هو تاريخي، وما هو تصنيفي للحزبي، وتقييم للمعني به، إلى جانب العلاقات الاجتماعية وصراعاتها، أي أن نكون في مجتمع دون اسمه، أي مع الباحث قرقوط، وهو يعرّي ما يراه ويستشعره بمنطقة البحثي.

في مذكرات خالد العظم، لدينا جانب تاريخي، ومن رجل تاريخي ودبلوماسي وعاش تنوعات الموقف مع الآخرين، أن ما يميّز بين مؤيد لجماعة سياسة أو فرنسا وغيرهما من من منطلق المصلحة (م3- 2ف: الأحزاب في سورية، ربطها بالطمع والطموح باستثناء حزب البعث، رغم قلة المخلصين فيه.

حزب الشعب وقطباه رشدي الكيخيا وناظم القدسي، عبر الرغبة في الظهور، والحزب الوطني، مؤلف من فلول الكتلة الوطنية والشبان الطامعين بالوصول إلى النيابة، وضم لطفي الحفار وصبري العسلي ونجيب البرازي..- الحزب التعاوني الاشتراكي، أسسه فيصل العسلي على نمط الأحزاب الفاشستية أو الهتلرية.. وكان الرئيس القوتلي يعتمد على هذا الحزب، أما كتلة العشائر التي تألفت في مجلس النواب، فكان حافز تأليفها حماية مصالح رؤساء أولئك القوم، أما الكتلة الدستورية، فقد سعى بولادتها منير العجلاني، والتركيز على المصالح كالكتلة العشائرية، وكذلك كتلتنا الديمقراطية...⁽²⁾.

بينما في مذكرات توفيق بشور «1889- 1992» والتي يرويها ابنه حنا بشور، فثمة ما يستوقف النظر، جهة الدقة، لا بل والأمانة، وتحديدًا، لأن الشاهد على حدث حين ينقل روايته مرفقة بمشاعر معينة غير التي يدونها آخر باسمه، مهما

(1) قرقوط، د. ذوقان: تطور الحركة الوطنية في سورية 1920- 1939، دار طلاس، دمشق، طبعة 1989، ص 103- 173.

(2) مذكرات خالد العظم، المصدر المذكور، م 3، ص 32- 33.

كانت درجة القربة قوية هنا، والذي يُستشف من هذه المذكرات هو جانب وجداني، وتقييم مواقف بصدد وقائع مختلفة جرت في سوريا (أصل عائلة بشور من الغساسنة الذين كانوا يقيمون في حوران. ص23- خدم في الجزيرة السورية برتبة نقيب سنة 1933: عاشت الجزيرة في تلك المرحلة حالة متردية من الفوضى والصراعات والمنازعات التي افتعلها رجال الاستخبارات وأعوانهم من الغرباء والدخلاء عن هذا الوطن الحبيب.. ص53... حوادث عامودا مفتعلة من قبل الافرنسيين بغية فصل الجزيرة عن سورية. ص57... كان والذي يذكر الزعيم «حسني الزعيم» حتى يوم مماته، ويقول «إن من الصفات الحسنة التي كان يتمتع بها وتحسب له أنه كان يعترف فوراً بالخطأ ويتراجع عنه، لا بل ويعتذر أيضاً وما أكثر أخطاء هذا الرجل»، ص91⁽¹⁾.

لكن الذي يضمنه الباحثان سعاد جمعة- حسن ظاظا، في مؤلف لهما عن الحكومات السورية في القرن العشرين، له مذاق مختلف، وآية ذلك أن هناك ما يشبه بطاقة التعريف المقتضبة لكل حكومة، وهي ترافق أي باحث يدقق في سجل كل منها، والأسماء التي تنتمي إليه، ومن ثمة الربط بينها وأعمالها، وما إذا كان لها حضور مكرر في حكومات أخرى، واللافت أيضاً، هو التذكير بالنسب: الاثنية، وفي المنتصف الأول من القرن العشرين خاصة، بدءاً من التحديد السكاني (عدد سكان سورية، لعام 1999، قرابة 17 وربع مليون. ص5... الملك فيصل أول ملك عربي توج في سورية بعد تشكيل الحكومة العربية الأولى في 8 آذار 1920- أول من سمي رئيساً للجمهورية: محمد علي العابد، من 1932-1936. ثم تتالي أسماء الرؤساء، حتى سنة 2001. ص9... تمهيداً لتأسيس الحكومة العربية الأيوبي حاكماً عسكرياً على حلب وبيروت. شكري الأيوبي سياسي وعسكري 1851-1922، من مواليد أكراد دمشق. ص10... أول رئيس للجمهورية السورية محمد علي العابد الكردي. تولد 1867... توفي في باريس ودفن في دمشق سنة 1939... أصول العابد من جنوب شرق الأناضول. ص12... هاشم الأتاسي حمصي، ص13 تاج الدين الحسيني، أصول مغربية. ص15- شكري القوتلي، أصول عراقية. ص16... حسني الزعيم كردي، مواليد حلب. ص20، بهديني الأصل... سامي الحناوي. حلب.

(1) بشور، حنا توفيق: من ذاكرة أبي «ذكريات العقيد توفيق بشور»، دمشق، 1998، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

ص21... أديب الشيشكلي حموي. ص21... فوزي سلو: 1905-1972: رئيس الدولة، كردي الأصل، رئيس دولة ورئيس الوزراء في 3 شباط 1951- ووزير الدفاع أيضاً في 1 أيار 1953. ص24.

رؤوساء مجلس الوزراء:

الأمير محمد سعيد الجزائري: 1883- جزائري الأصل، ابن الأمير علي باشا نجل الأمير عبدالقادر الجزائري.

حقي العظم مواليد دمشق، تركي الأصل

صبحي بركات مواليد أنطاكية 1889.

الداماد أحمد نامي «صهر السلطان».

عطا الأيوبي 1920-1950.

جميل مردم بك، دمشق، 1894- ساهم في تأسيس حزب الشعب.

أحمد نصوحي البخاري تولد دمشق 1881، نسبة إلى جدته زوجة اسماعيل آغا... من ديار بكر

بهيح الخطيب، لبناني.

خالد العظم، دمشقي تولد سنة 1903، تركي الأصل.

حسن الحكيم تولد دمشق، 1886، دمشقي.

حسني البرازي، كردي الأصل، من مواليد حماة

محسن البرازي، كردي الأصل. تولد حماة 1904.

فارس الخوري، تولد لبنان 1877. معروف الدواليبي، تولد حلب 1907، باديي.

صلاح الدين البيطار، دمشقي 1912-

محمود الأيوبي تولد دمشق 1933، كردي الأصل⁽¹⁾.

إن ما يلاحظ في الثبّت الاجتماعي للأسماء ذات المراكز المهنية، هو وجود نسبة كبيرة نسبياً، تنتمي إلى الخارج، أي كانت «أجنبية» عن البلاد، وهذا يعرفنا

(1) جمعة، سعاد - ظاظا، حسن: الحكومات السورية في القرن العشرين، له مذاق مختلفة: الحكومات السورية في القرن العشرين: من عام 1918 لعام 2000، دار الرؤية، 2001، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

بالبنية السكانية لسوريا إلى جانب العراق، فهم إجمالاً بلدان مفتوحا الحدود أمام أفواج المهاجرين أو اللاجئين أو المتدفقين عليهم من جهات مختلفة، لأسباب سياسية واجتماعية وكوارث وغيرها .

من جهته، نلاحظ أن كتابة مطيع السمان، لا تخفي طابعها الأمني العسكري، إلى جانب اللمحة المؤامراتية في تعرضه للانقلاب العسكري الذي تم في نهاية أربعينيات القرن العشرين، سوى أن هناك ما يمكن التئور به من موقع الاختلاف، وما يميّزه عن سواه في الفترة هذه، وهي استمرار لما قبلها، أي كمجموعة حلقات في سلسلة تاريخية طويلة، وليس ما يركز حصراً على «أسباب الانقلاب»، إنما هناك ممهّدات لكل ما يرد في نص القول وطريقة توجيه الإشارة ذات العلاقة بالموضوع الفرعي كنموذج قابل للدرس والمعاينة (تهجم النائب فيصل العسلي عليه- استقبال رئيس الوزراء العظم لرئيس الأركان العامة حسني الزعيم، بعد إهمال مقصود وطول انتظار متعمد..- الآلام العميقة التي زرعتها مأساة فلسطين في النفوس- عدم رضوخ الرئيس القوتلي لطلب السفير الأميركي، بحجة أنه غير دستوري، في إيعاز إلى المجلس النيابي لتصديق اتفاقية التابلاين الأميركية.. واتفاقية النقد السورية الفرنسية- تأمر واتفاق محسن البرازي وحسني الزعيم، وقادة الرتلين العسكريين اللذين احتلّا مدينة دمشق: العقيد أديب الشيشكلي، والمقدم محمود شوكت، والنقيب بكري قوطرش، وكلهم من الطائفة الكردية الكريمة، للقضاء على عهد متمسك بعروبتة، واستبداله بعهد يساعد على قيام دولة كردية، من أكراد سورية والعراق وإيران وتركيا، وعلى قسم من أراضي الدول التي يحملون جنسيتها «الشك يحوم حول كردية الشيشكلي من أبيه رغم تأكيدها من العارفين، وثابتة من جهة والدته البرازية»⁽¹⁾).

وتحت وطأة الذاكرة السياسية المؤدلجة وتعتيم الوجه الآخر من القول وهو ينسبها إلى جغرافيا، لا ترى فيها الباحثة خيرية قاسمية ما يكلفها شيئاً ذا قيمة وهي تزيف تاريخاً لشعب أو تتجاهل وجوده، تأكيداً على مدى الافتتان بالوهم التاريخي بالذات، وهي تؤرخ لسوريا «الحديثة، وللحكومة العربية الأولى فيها،

(1) السمان، مطيع: وطن وعسكر «قبل أن تدفن الحقيقة في التراب: مذكرات 28 أيلول 1961- 8 آذار 1963، بيسان، بيروت، ط1، 1995، ص 322.

وهي تمتد بناظرها الإيديولوجي في ترسيم الحدود انطلاقاً من الأدبيات عروبية ليس إلا (كان تأسيس الحكومة العربية في دمشق أول تحقيق عملي لليقظة القومية الحديثة التي بدأت منذ نهاية القرن التاسع عشر بعد قرون طويلة من الحكم التركي... كانت سورية قبل الحرب تشمل تلك المنطقة من الامبراطورية العثمانية التي تمتد من طوروس إلى سيناء ومن المتوسط إلى الفرات. ومن ثم مباشرة: ويشكل العرب الذين يتكلمون لغة عربية واحدة ويحملون ذكريات حضارية واحدة، العنصر السائد بين السكان، مع أقلية حول أنطاكية وإسكندرون، وبعض المناطق الشمالية تتكلم التركية، وأقلية صغيرة على الحدود الشرقية تتكلم السريانية)⁽¹⁾.

هذه الحدود المضخمة والمفخمة سلطوياً، لا تراعي فيها كاتبها أي منغص فكري، أو إيلا م نفسي، أو مساءلة لا جغرافية ولا حتى تاريخية إن أخطأت، وقد أخطأت في كل ذلك، أو ألغت شعباً من الخارطة، وفطاعة هذا الإلغاء، وبجعله سريانياً، في الجهة المسماة، إلا إذا عنت بذلك الأقلية السريانية ذاتها، وهنا تكون المصيبة المعرفية أعظم، ولا غرابة إن تصرفت هكذا، وهي تمضي بذائقها الشعرا تية في مدى الحدود حيث تجاه ولا شيء من هذا على أرض الواقع.

إزاء ما تقدم، وفي هذا المهب التاريخي العاصف حيث الجغرافيا يمثل فيها عقائدياً، وجدتي أمام كاتب ذي شهرة معروفة عربية، ولكنه كردي الأصل وليس بكردي، كما هو يقرّر بذاته، جهة تأكيد انتمائه إلى الخانة العربية ومتطلباتها، بينما الكردية فيظهر أنها تخفيه، وتكلفه الكثير كما صورها لنفسها، وقد أتيت على اقتطاف عدة مقاطع من عالمه المذكراتي نظراً لخطورة أبعادها، وكونها تضيء بحثنا من زوايا أكثر أهمية وحساسية

ماذا لدينا في الجزء الثاني؟ ثمة الكثير والخطير دلالة وإحالة سياسيتين، بالنسبة للموقف من الكرد:

(في رسالة إلى رئيس دولة سورية المعظم، عن سلبيات العاملين في التربية. ص 436-437-439- والأخطر: وإني لمغتبط جد الاغتباط بما رأيت من قيام أعمال مهمة في بعض أنحاء لواء الجزيرة الذي لم تضع فيه الدولة البائدة حجراً

(1) قاسمية، خيرية: الحكومة العربية في دمشق بين 1918-1920، دار المعارف، القاهرة، 1971، ص 15-213.

على حجر فإن بضعة من الجسور والطرق والمدارس ودور الحكومة مثال من العناية بذاك اللواء الجديد والحكمة تقضي بمضاعفة هذه العناية وأن ينشأ فيه في السنة القادمة عشر مدارس ابتدائية لا تكلف أكثر من عشرة آلاف ليرة سورية

وينشأ جامع فخم في عين دوار. أما عمل الأهليين في أرض الجزيرة فهو أعظم أثراً ذلك لأن الحسجة التي لم تكن قبل ست سنين سوى قرية صغيرة أصبح سكانها اليوم نحو خمسة آلاف وكذلك يقال في القامشلي التي لم تكن تضم قبل ست سنين سوى بيت واحد وطاحون فأصبحت اليوم تحوي اثني عشر ألفاً من السكان مخططة على صورة هندسية جديدة منارة بالكهرباء مغروسة بالأشجار، وغداً تلحق بها عين دوار وغيرها. وتعلمون أيديكم أن معظم من هاجروا إلى تلك الأرجاء هم من العناصر الكردية والسريانية والأرمنية والعربية واليهودية. وجمهرة المهاجرين في الحقيقة هم من الأكراد نزلوا في الحدود. واني أرى أن يسكنوا بعد الآن في أماكن بعيدة عن حدود كردستان لئلا تحدث من وجودهم في المستقبل القريب أو البعيد مشاكل سياسية تؤدي إلى اقتطاع الجزيرة أو معظمها من جسم الدولة السورية لأن الأكراد إذا عجزوا اليوم عن تأليف دولتهم فالأيام كفيلة بأن تنيلهم مطالبهم إذا ظلوا على التناغي بحقهم والإشادة بقوميتهم، ومثل هذا يقال في أتركاء لواء الاسكندرونة فإن حشد جمهرتهم فيها قد يؤدي إلى مشاكل في الآجل لا يرتاح إليها السوريون فالأولى إعطاء من يريد من الترك والأكراد أرضاً من أملاك الدولة في أرجاء حمص وحلب.... ومهاجرة الكرد والأرمن يجب في كل حال أن يمزجوا بالعرب في القرى الواقعة في أواسط البلاد لا على حدودها اتقاء لكل عادية نظراً ونحن الآن في أول السلم نستطيع التفكير والتقدير. بقيت مسألة مالية يظهر أثرها هذه السنة والعقل يقضي بحلها وأعني بها مسألة تعداد الأغنام. ومعلوم أن المواشي هي أهم مورد في لواء الجزيرة، وإذا سقطت أسعار الصوف والسمن والماشية في كل مكان كان أكثر الأصقاع تأذياً بذلك من لا مورد لهم غير شياهم وجمالهم فالشاة التي نتقاضى منها خمسة وأربعين قرشاً سورياً يؤخذ عن مثلها في العراق نحو عشرين قرشاً سورياً وفي تركيا أربعون قرشاً تركياً أو نحو خمسة وعشرين قرشاً سورياً فإذا أنزلنا هذه الضريبة إلى النصف توشك أن تدخل أرضنا قبائل كثيرة من العراق وتركيا على ما جرى من قبل ويتخذون ديارنا موطناً لهم وننجو من التهريب الذي كان على مقياس عظيم في السنين الفائتة. ولا

بد من الملاحظة أيضاً أن الخروف الذي كان حال عليه الحول يساوي في قضاء القامشلي نحو 150 قرشاً سورياً ولا يساوي غير مئة قرش في قضاء عين دوار وذلك لصعوبة نقل الماشية في ربوع تعد مسافاتهما بمئات الكيلومترات إلى منافذ يمكن أن تقام لها سوق رائجة.. صص440-442⁽¹⁾.

هذا إقرار من كردي بلزوم التصدي للمشروع الكردي المبيّت، وفي تلك الفترة «ثلاثينيات القرن الماضي»، لأن تواجد الكرد على طريقته في تلك المناطق لا يبشّر بخير بالنسبة للحكومة العربية «القومية» ولا أبنائها، وهي مفارقة صاعقة.

بينما في مثال آخر، عن يوسف زعيم، ودفاعه المستميت عنه، نجد ما يلفت النظر، وكيف يصار إلى إعلانه رمزاً ثورياً على الرغم من كل ما أثير حوله وفيه من ردود أفعال، ومحاكمات وتسفيهاات وتهم تآمر على البلد.

في مقاله المعنون بـ «عن بطل دمشق، يوسف زعيم: ثمة ما يدع في هذا الاجتماع» عقلت الأيام أن تلد مثل ثورته الحكيمة... كانت دمشق مهد المصلحين والمجددين إذ نبغ فيها نابغة في الجندية والإدارة انضم إلى لواء الدولة القائمة يعاونها على حفظ سلطانها. أما الزعيم ابن دمشق الذي أدهش العالم بثورته فقد وثب وثبة جبارة للنهوض بسورية فحق لوالده صديقي الشهيد السعيد العلامة الشيخ رضا الزعيم أن يغتبط في قبره بأن أنجب للعرب مثل هذا النجيب⁽²⁾.

ذلك ما يتكرر في مكان آخر، وهو ما يترجم قناعة عقلية وتقدير ذاتي له في مقاله «في المشير الزعيم»:

(أنكر علي بعضهم إعجابي بالانقلاب الذي قام به المشير حسني الازعيم في سورية، وكان بعض المنكرين من الفريق الذي جوّز لنفسه المبالغة في غلطات صاحب هذه الثورة، وحاول أن يتابعه الناس على رأيه من دون بحث ولا نظر. [أنا] لم أكبر ثورة الزعيم، لأنه لم يسبق لأحد في هذه الديار أن قام بمثلها...)⁽³⁾.

(1) علي، محمد كرد: المذكرات، مطبعة الترقى، دمشق، 1948، ج2، ولقد أقيمت على صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

(2) علي، محمد كرد: المذكرات، مطبعة الترقى، دمشق، 1949، ج3، ص 905.

(3) علي، محمد كرد: كتاب المذكرات، تحقيق وشرح ودراسة: قيس الزرلي، منشورات المعهد الفرنسي، دمشق، 2008، ص 267، والكتاب عبارة عن رسالة دكتوراه في باريس.

ونقده المركز على قطب سياسي في البلد وما فيه من جرأة (اتضح للسوريين أن رجال الكتلة الوطنية أو الحزب الوطني، وفي خواتيم أمرهم خاصة، ما أتوا إلا ما فيه نفعهم على الأكثر، وأنهم تمادوا في الانتقام من خصومهم بما لا تكاد ترتكب مثله حكومة مع معارضيهـا . ص1012 .

...لا يعرف معنى الحرية من لم يتتقف ثقافة حرة...الحرية عندنا هي استئثار الكبراء بالمغانم..ص(1245)⁽¹⁾.

وأخيراً، وليس آخرأ ما يعود بنا إلى ما تقوه به عن الكرد، وكيفية التحوط لهم، والتنبه إلى خطورة تواجدهم، وهم يسعود إلى تأسيس وطن/ كيان خاص بهم (الأكراد شعب آري أقرب إلى المدنية منه إلى البداوة، فُطر على ذكاء ومضاء وشجاعة وإقدام، وله شعر وموسيقى وأدب، وكان منه في الإسلام عظماء في العلم والسياسة والجندية، ومنهم من اندمج في العرب، ومنهم من ظلوا على الهامش عند الفرس والترك. وهم منتشرون اليوم من شمال بحيرة أورمية إلى جوار خليج الإسكندرونة، ومن صحارى بلاد العرب إلى خرابات نينوى، وفي الشرق من [ولايتي] أستان «كردستان، في الأصل» وهمدان في إيران إلى ولايتي سيواس وأنقرة في تركيا . [ولا يؤلف] الأكراد أكثرية في ولاية من الولايات العربية والتركية والفارسية.

وتعلم بعض أبناء الأكراد فقويت فيهم [نزعات] القومية، وأخذوا يتناغون بالاستقلال، وما خلوا من غريب يحسن لهم [قيام دولتهم]، ويعيدهم ويمنيهم بتحقيقها، فكان من ذلك أن ضُربوا في تركيا والعراق ضربة قاسية هلك فيها ألوف من رجالهم، وخرَّب الترك ديارهم وأتوا على ثروتهم، فاضطر الأكراد إلى إرجاء حل مسألتهم إلى أن تسالمهم الأيام.

إن مطالبة الأكراد باستقلالهم وتوفيرهم على إحياء لغتهم والمناداة بقوميتهم حق من حقوقهم الطبيعية، ولكن [من] النظريات [ما] يصعب تحقيقها عند العمليات، وليس في إيران وتركيا والعراق فيما نحسب وزارة مستعدة للنزول عن جزء من بلادها للأكراد حتى ينشئوا دولتهم، فتفرق الأكراد إذاً أكبر عائق يحول [دون] تحقيق آمالهم القومية على ما يشتهي المشتبهون من بنينهم، وأكثر ما يرمضهم أن يذوبوا، وهم في عصر القوميات، في عنصر غير عنصرهم. وقديماً هاجر إلى

(1) علي، محمد كرد: المذكرات، مطبعة الترقى، دمشق، 1951، ج4، ص 1012-1275.

الشام ومصر ألوف من الأكراد، واتخذوها موطناً لهم وتعربوا وما شق عليهم ما صاروا إليه، ونسوا مع الزمن أصولهم [ولغتهم] واندمجوا في العنصر العربي، كما دانوا بالإسلام منذ رفرفة أعلام الفاتحين العرب على أرضهم في [العصور] الأولى من الهجرة. ص218-219⁽¹⁾.

هذه التغطية الأحادية الجانب تترجم الرؤية الذاتية والضيقة للكاتب، سوى أنها ليست رؤيته ككاتب مقتدر وجريء في كلامه، إنها رؤية من يقلل هذا الانتساب إلى الكرد، كما لو أن المزيد من النقد يبرئ ساحته، جرّاء التركيز عليهم، كونهم لا يهدؤون، ولا يثبتون على حال، إنما لا يتركون فرصة يجدون فيها ما يعينهم إلا ويسعون إلى حيازتها، وربما من هذا المنطلق يحاول الكتابة بالطريقة الآلفة الذكر، أي أن يظهر للكرد ما يجب القيام به في وجه الكرد فهو أدري بهم، وربما كان حينها على علم بما كان الكرد يشددون على تحقيقه، ربما كان يعرف حاجو آغا نفسه، بما أنه جال في المنطقة وتقصى الأخبار السياسية، وكان ذاك الأكثر تداولاً باسمه.

في حال المفكر والسياسي وربما رجل الجاسوسية الرهيب باتريك سيل، تتوافر مجموعة معلومات سجلها من خلال تجربة حياتية مباشرة في سوريا، فكان كتابه ذو العنوان اللافت «الصراع على سورية» في حيز زماني مدروس، مرجعاً للباحث المختص والمثقف والسياسي والمؤرخ والناقد... الخ، وبدا أن الاتهامات الموجهة إليه بأنه جاسوس انكليزي لا تفيد في «ردع» من يحاول الاقتباس منه، أو اعتباره مرجعاً لكتابه في المجالات السابقة، ليكون كتاباً عمدة مرجعياً.

(لا تدور قصة سنوات الاستقلال السوري الأول حول السياسيين العظام أو المبادئ السياسية القوية، فهي قصة رجال عاديّين دعوا للتصرف إزاء وضع متمدد.. ثم الإشارة إلى الزعيم وكيف رحّب به شعبياً بداية.. ص43- الكتلة الوطنية: مجموعة من الوطنيين القدامى «المتمرسين» الذين أثاروا معركة النضال من أجل الاستقلال السوري ضد فرنسا ما بين الحربين العالميتين، ولكنها مع مطلع عام 1945 فقدت كل تماسكها: جميل مردم بك، سعد الله الجابري الحلبي، شكري القوتلي الدمشقي،، هاشم الأتاسي.. ص44... أبان الفرنسي جاك بيرك،

(1) علي، محمد كرد: كتاب المذكرات، تحقيق وشرح ودراسة: قيس الزرلي، المصدر المذكور، ص 218-219.

عالم الاجتماع، عن أن الاندفاع الوطنية في أي قطر عربي تميل إلى إيجاد تجمع عريض غير متجانس، مثل «الكتلة الوطنية» في سوريا، و «الوفد» في مصر، و «الاستقلال» في الجزائر، و «الدستوري الجديد» في تونس، فقد تألف رجال بماض ومشارب متباينة وراء هدف وحيد هو الاستقلال... لقد كانت الانشقاقات الإيديولوجية تنثور، وتحل التمييزات الحادة مكان الوطنية الأصلية الطوعية.... في ذكريات نائب، كتب حبيب كحالة، ربما سنة 1947: نظرت حوالي، وكان ما رأيته فقط.. رجالاً لا يوحد بينهم شيء، ولا يشتركون في أية مبادئ، ولا يربطهم تنظيم حزبي، وقد وصلوا إلى البرلمان بأساليب خادعة مقنعة من انتخابات فوضوية تحت ستار الحرية، فكان بعضهم أمياً، وآخرون أدباء مرموقون، وكانت لغة بعضهم الكردية أو الأرمنية، ولم يعرف آخرون سوى اللغة التركية فقط، إن بعضهم ارتدى الطربوش، وآخرون اعتمروا الكوفية، وكان بينهم رجال من البادية أو المدينة، ولم يزد الأمر عن مسرحية وتمثيل أدوار...⁽¹⁾.

ما الذي يستفاد من هذا الكتاب؟ إنه الجانب السياسي الاستخباراتي وعن قرب، حيث إن بطاقات التسجيل التي تطل وقائع حية في سوريا، إلى جانب أهواء سياسيتها، وأمزجتهم، وفصولاً من حياتهم اليومية تدوّن بدقة، تصلح لأكثر من دراسة، إلا أن الذي يعيننا في البحث هو الخلفية المدوخة للكتاب، أي الأرضية الزلقة لسوريا جرّاء إراقات دماء في جوانبها.

إنما إلى أي مدى يمكن الاعتماد على كل ما ورد في كتابه من حيث الأمانة التاريخية، وأن هناك الكثير مما يتردد في أروقة الأكاديميين والمختصين أن سيل وإن حاول إظهار الروح العلمية، ولكنها مؤطرة وغير نزيهة، تجاه مفاصل تاريخية في سوريا، ومن ذلك الخلفية السياسية للانقلابات فيها.

في حال أندرو راثمل، ثمة تعمق في مشهديات السياسة السورية، وكيف تدار التهم، ومن وراءها، وما مدى دقتها، ومن هم الذين يشار إليهم بالبنان على مستوى السياسة السورية؟ إنهم في مجملهم تقليديون، أي دون مستوى مجتمعتهم (من الناحية التقليدية، فإن السياسة السورية قد هيمن عليها من قبل ملاك

(1) سيل، باتريك: الصراع على سورية «دراسة للسياسة العربية بعد الحرب 1945-1958»، ترجمة: سمير عبده- محمود فلاح، دار طلاس، دمشق، ط7، 1996، ص 43-47-53.

الأراضي وكبار التجار السنّيين، الذين أداروا نظاماً شبه إقطاعي، والذي تغيّر قليلاً مع مستهل الانتخابات الديمقراطية.... في أوائل 1974، حول الجناح المهيمن للكتلة نفسه إلى الحزب الوطني، وقاده وجهاء دمشق، الذين اشتقوا موقعهم من سجلهم الوطني في النضال ضد الفرنسيين، وسيطرتهم على الطبقة الوسطى في المدينة.. والشخصية الأعظم فيها: شكري القوتلي.. ومعه جميل مردم بيك، فارس الخوري، لطفي الحفار، صبري العسلي.. وفي آب 1948، تشكل حزب معارض لحزب القوتلي هو حزب الشعب، ومن قبل وجهاء حلب، ممثلاً في رشدي الكيخيا، ناظم القدسي، مصطفى برمادا.. ويمكن أن تعود أصول هذا الانشقاق إلى التنافس بين مساندي القوتلي الدمشقيين، وفئة التجار ورجال الأعمال في حلب، المدينة التي فقدت دورها التقليدي كمحطة أو مركز تجاري للهِلال الخصيب كنتيجة لإنشاء الدولة السورية... أعلن فيصل ملكاً على العراق بعد إخراجه من دمشق في عام 1921، وظهور الدعوة إلى توحيد دول الهلال الخصيب في عام 1933، ومن العراق....⁽¹⁾.

رائل ليس كباتريك سيل، فيما يتعقبه من صواب التاريخ أو خطأ، ليس من باب الأصلاح طراً بالاعتماد، وإنما هو أقرب إلى حرارة التاريخ الذي يسمّي أشخاصاً وأحزاباً لهم أو أنشطة تسمّيهم بالمقابل، وأي لعبة تظهر على السطح، وتلك التي تبقى في الأعماق، كما في مناخات السياسة السورية مذ أبصرة نفسها في هيئة دولة، أو هكذا ارتسمت دولة بقرار خارجي.

لدى مايلز كوبلاند ضابط الاستخبارات الأميركي الضليع في شئون المنطقة، شيء آخر وهو يحمل مخططاً للعبة القوى التي تفسّر عملية انهيار دولة في المنطقة أو أي دولة أخرى، بناء على قاعدة الانهيار تلك بصور مختلفة أو تعرضها للبليلة، أو تضيق عليها فرصة البحث عن الذات، أو تعقّد عليها وضعها، أو تجعل منها حلبة تصارعات دولية أو أيد خفية تحرك أشخاصاً لا يُشكّ في سلامتهم العقلية، ولا في قابليتهم على الكلام والاسترسال فيه، إلا أن الظاهر المغربي بالاهتمام غير الباطن الذي يصدم في لعبة القوى التي لا يفكر فيها، طالما أنها تمثّل مدخلاً رحباً

(1) رائل، أندرو: الصراع على سورية من 1949 - 1961: الحرب السريّة في الشرق الأوسط، ترجمة: محمّد نجّار، منشورات الأهلية، عمّان، ط1، 1997، ص 14 - 18.

ومخيفاً، لمكاشفة المحرك الرهيب لدولة تنمو، وتكتسب حضوراً في المنطقة، ثم تنهار، أو تسقط سريعاً، أو تصبح نهباً لصراعات لا يعرف أولها من آخرها، أي ما نكون في عهدة «لعبة الأمم» العبارة التي ذائع صيتها للرجل المذكور، ولسورية نصيب وافر من طعمها العلقم:

(في الاستهلال، يقتبس مقطوعاً من محاضرة لنائب رئيس مصر زكريا محي الدين ألقاها في الكلية العسكرية المصرية أيار 1963، وفي القسم الأخير التالي: إن الهدف المشترك لجميع اللاعبين في «لعبة الأمم» هو رغبتهم في المحافظة عليها مستمرة دون توقف. ذلك أن توقف هذه اللعبة «لعبة الأمم» لا يعني سوى شيء واحد ألا وهو «الحرب»..... وما يؤدي إلى نتيجة تكون الباعث على الحركة المؤثرة في المجتمع، وفي توفير السقف السيادي الحقيقي للدولة ونظامها، وما من شأنها التحكم في مواردها البشرية والطبيعية، بقوله عن: إن جوهر الحكم هو القوة⁽¹⁾).

لقد ابتدأنا الكلام سابقاً، ونحن نقتطف العبارة الأخيرة له، وفي نقطة نعتبرها حساسة، وهي ما تكونه العلاقة بين البشر، بين الدول، وبين الأمم بالمقابل، وأي نوع من «الدماء» يجري في عروقها، فتسخن كثيراً، أو تدوخ، أو تتشبط، وتكتسب مناعة، أو تصاب باللوخيميا، وفقدان المناعة لعوارض داخلية قبل الخارجية، جرّاء سهولة التأثير بعوارض خارجية.

بناءً عليه، صار في الإمكان، أو هكذا أرى، وبعد هذه هذه الطوافات في أمكنة جغرافية لنا، وتعود إلينا، وتعلّمنا بالكثير مما نحن عليه، وما يجب أن نكون عليه، على الصعيد الكردي، والمحرك المنبّه للبحث: حاجو آغا.

في المجال الكردي الساخن جداً:

ربما تستعاد هنا معلومات سابقة، ولكنها في هذا المضمار، والمحطة التاريخية المؤثرة، تكون مؤدية دوراً معلوماتياً لافتاً في إضاءة ما كان عليه الكرد بعد ولادة جمعية «خوبيون» وتداعياتها، ومن ثم الشروع في ثورة «آكري-آارات»، وما عاش أعضاء الجمعية ومن هم معنيون بالسؤال الثقافي والسوري من رموز الكرد آنذاك، وذلك عن طريق مالميسانز، وفي عبارات متسلسلة (يصل كل من قدرني، أكرم، بدري

(1) كوبلاند، مايلز: لعبة الأمم، المصدر المذكور، ص 5-17.

ومحمد جميل باشا إلى سورية «1929» أما مقدار وصل إلى سورية بعدهم بسنة....عن أكرم جميل باشا «1891-1974»: يعتبر من المؤسسين الأوائل في جمعية التشكيلات الاجتماعية الكردية، التي كانت تهدف إقامة كردستان مستقلة عام «1920» يعود أكرم جميل باشا إلى كردستان في «1921»، من أجل توعية المجتمع الكردي وتوجيهه. بعد قضائه مدة خمسة أشهر في منطقة ماردين، يحاول الخروج من المنطقة ويتم تسليمه لرجال الدولة بعد خيانة رئيس عشيرة هفيران عبدالكريم... يتم تجريد أكرم جميل باشا مع ثلاثة آخرين من أفراد العائلة من حق المواطنة التركية عام 1933. في نفس العام، نشرت أنباء مختلفة حول فعاليتهم في سوريا في الصحافة التركية، مثال:

«أضنة خاص- في اجتماع تم عقده في الشام وضم كل من قادر بك، حاجو آغا وبعض الأفراد من عائلة جميل باشا الساكنين في الشام والسريان والأرمن، وبعد مناقشات طويلة فيما بينهم توصلوا في النتيجة لهذه القرارات: إنشاء حكومة الجزيرة، المستقلة والمنفصلة عن الإدارة السورية لكن وإثر وصول خبر القرار للحكومة السورية، وبعد إعلام الحكومة الفرنسية بذلك، تم جمع هؤلاء الرجال واعتقال أكرم جميل باشا والبدرخانين من قبل قوات الأمن وإعادة الآخرين إلى الأماكن الأصلية»⁽¹⁾.

تلك تحولات في السياسة والتي تجد صدًى لها في رقعة جغرافية واسعة، وإن كانت نقطة الانطلاق تركية، إلا أن الأثر يتجاوز سوريا، وإن وجد له مستقراً في نقطة جغرافية فيها، من خلال أولي أمرها، كما تصرف فرنسا بناء على مصالحها، دون أن نعلم مدى الدقة في طبيعة الإخبارية الهفيرانية أو خلفية الاعتقال، في ضوء الحساسيات الجانبية تعود بنا إلى سنوات سابقة، أي ما يمكن أن تكون عليه الحقيقة وهي واقعة- ربما- ولكن ضمن أي سياق يكون من الأجدر تعقب هذا التركيب؟

ما أشبه السياسة بحبل متنوع الصنع بسماكته، وطوله وقصره وتركيبه، فقد يكون حبل خلاص، وثمة اعتصام به من قبل من يريدون خلاصاً من أزمة، أو وضع يتهدهدهم معاً، أو حبل من «مسد» من حيث المال، أو وهماً أحياناً لإزهاق أرواحهم، أو

(1) مالميسانز «تأليف وإعداد»: عائلة جميل باشا الديار بكري والنضال القومي الكردي، المصدر المذكور، ص 141-155-156.

بغية التحكم بمن يشدّون به أنفسهم ضمن حدود معينة، سوى أن المتحكم به هو من يقرّر أحياناً كيف يحركه، كما في حال الحكومة الفرنسية والتي رأت أن من مصلحتها توفير هذا الحبل، ووضعه في خدمة الكرد الثائرين إنما إلى حين، لأنه من حيث المتابعة، ليس من طريق في نطاق علاقات ما يُسمى بالتعاون بين فرنسا- مثلاً- والكرد الثائرين، أو ممثلي الكرد، وقد تم سلوكه إلى نهايته، لحظة النظر في الأوضاع السياسية التي عرفت بها كردستان، لأن أي متابعة لهذا الطريق، والشعور بأنه يؤدي إلى خلاص ما، حتى تسارع أطراف ممن تستبد بالكرد، أو طرف فاعل، إلى الاتصال بممهد الطريق، أو إجراء اتصال بالطرف الآخر، أو كل الأطراف ذات العلاقة، ووضعها في صورة الحدث، وهو ما نلاحظه اليوم، ومن ثم الالتفاف حول الجاري، وسد الطريق، إثر تقديم تنازلات لمهده، لأنه لم يشرع في فتحه، والإعلام بالتحرك فيه إلا بلغة المصالح، وهذه هي التي تسمي أخلاقها، أو قواعدها الذوقية، وما يكون عليه الداخل في «حلف» مصلحي عموماً، إذ دون توافر جرعة قوة كافية، لا أسهل من أن يتحول الطريق إلى طريق ملغوم، ويقضي على سالكه، أو لا يعود في مقدورهم التحرك، ومن ثم حتى العودة من حيث أتوا في لحظة ما، خصوصاً، حين يتلبسهم تملل أو شكوك متبادلة حول الجاري، وهو الأسلوب الأكثر سهولة لضعضة صفهم ورمي العداوة فيما بينهما، أو الدفع بآخرين للنيل منهم، من خلال إثارة أحقاد جانبية قائمة.

يعني ذلك أن التراكم التاريخي للتجارب التي تعلّم على ممارسة الكيديات والتباذ، يظهر مدى اهتمام أعداء الكرد بها وتجديدها بين الحين والآخر، لإبقائها نشطة، ومن ثم استثمارها في اللحظة المناسبة، لوجود من هم مهيتون لها.

يكتب لازاريف عن هذه العلاقة بين كل من الكرد وفرنسا وإمكانية التقدم إلى الأمام كما يريدون ما يفصح عن جدلية القوة والضعف، أي عن أن حسابات الكرد غير حسابات الفرنسيين، إن لدى الكرد حقلاً ولديهم شعور وإدراك أنه يمكن أن يؤمن لهم حضوراً أوفى وأكثر تشبثاً لهم في الواقع، لكن نقل ما في الحقل إلى البيدر هو المشكل، والبيدر مفهوم فرنسي، وفيه تلتقي حسابات سياسية متداخلة مع حسابات تركية قبل كل شيء، إنما في الواجهة كذلك حسابات الفرنسيين الذين لم يكونوا راضين بحالة الطمأنينة والثقة بالنفس لدى الكرد، ففي حسابات فرنسا يجب على

الكرد أن يعيشوا حالة انتقاص الشعور بالعالم من حولهم وفي أنفسهم، عليهم أن يعيشوا ألم الانتقاص بالذات واستحالة العمل في البيدر كما لو أنه صورة الحقل الدقيقة، لهذا تدخل هذه الحسابات الكردية في خانة الحسابات التاريخية السابقة إجمالاً، في أنهم ينتقلون من انكسار إلى آخر، لأن ثمة قانوناً آخر للقوة عبارة عن حاصل أكثر ممن قوة محيطية ودولية بالمقابل، تعصف بالقوة الكردية، لعدم الرغبة في عدم ظهور كيان سياسي يصلهم بحلمهم التاريخي، في أن يكونوا ليس كرد الشتات في وطنهم، إنما كرد الدولة المعترف بها، فيأتي قول لازارييف- ربما- في هذا المعنى (في ربيع عام 1930 وخلال تصاعد حدة انتفاضة آارات فإن الفرنسيين سمحوا لأبناء جميل باشا، وهما ابراهيم باشا وحاجو آغا بفتح فرع لخوييون في القامشلي المركز الكردي الحدودي الرئيسي في شمال شرقي سوريا ومن ثم ما يترتب على هذه الصدمة الموجعة: إن تاريخ خوييون بصفتها منظماً وقائداً للحركة التحررية الكردية قد أظهر أنه تاريخ قصير وقليل الفائدة)⁽¹⁾.

في لحظة الانكسار لا تعايش اللحظة ذاتها، إنما كل اللحظات السابقة، وهم ينحسرون إلى داخل نفوسهم، مثلما أن الجغرافيا تضيق بهم، والتاريخ بسقفه الواطئ قياساً إلى وضعهم يغدأ أصم أو شبهه، وأخرس أو شبهه، وهو شعور بالانضغاط، ومن ثم بدلاً من معاينة المشكل كثيراً ما يبدؤون ببعضهم بعضاً في تحميل المسؤولية، كما لو أنهم غير معدّين أنفسهم لما باتوا عليه، أي ما يصبح البيدر في غلته السياسية القليلة مخلاً بالأمال، وواعدة بسنوات عجاف وحداد نفسي جديد.

لعلنا نستطيع التحدث هنا عن لعق جراح الهزيمة والتحضر لما سيأتي، وما في هذه العبارة من هزة نفسية عنيفة، وربما كان حاجو آغا مطلوباً لأكثر من معنى في ألا يكون كما هو في حالات سعده بطلاً قومياً دون إرباكه، أو تشويه صورته، كما هي الحالات المشابهة لكل الزعماء الكرد التي يجهد الأعداء «أعداء الكرد» أنفسهم كثيراً لإنزالها من «شامخ عال إلى خفض» فلا تعود مؤمثلة، إنما مختلطة بأدران الواقع وأوساخه وعفنه، فتعاف وكأن حقيقتها هكذا. لكن سؤلاً طارئاً،

(1) لازارييف، م.س: النضال والاختفاق: المسألة الكردية في سنوات 1923- 1945 ل. م. س. لازارييف، ترجمة: صادق الجلاد بنكي زين- 2000، السليمانية 2006، ص 192- 195.

وليس بطارئ يطرح هنا: هل استمرت الصورة هذه في التقزم أو التحطم، بحيث فقدت كل بريق لها ؟

يقول الواقع نفسه: كلاً، لأن الجراح الحاصلة لم تعقهم عن الاستمرار، رغم الانقسامات الداخلية، وربما أمكن للباحث التاريخي أن يتبصر في إرادة الكرد في هذه النقطة، ولو لبعض الوقت، ليلاحظ أنه صحيح أن هناك الكثير من الشعور من السبي الداخلي لروحهم الطليقة، وإطفاء لنجم سعودهم، ولكن التاريخ لا يخرس أو يعمى طويلاً، لأن الذي يستنهض فيهم عزيمة المتابعة هي إرادتهم بالذات، كما هو الممكن التوقف عنده لاحقاً، إلى يومنا هذا، ومن دون رتوش.

ثمة وثيقة فرنسية تشير إلى أن حاجو آغا كان من ذوي الإرادة التي ترفض استمرارية الانتماء إلى عالم الخيمة أو المضارب ومن ثم الترحال من مكان إلى آخر ضعيفاً قسرياً على الجغرافيا معرضاً لنازلات التاريخ، حيث ينتشر قطاع طرقه ومنتشله في الجهات كافة، والإلحاح على عالم المدينة، والاستقرار فيه، ومن هناك الاتصال بعالم الحضارة، وليس بخاف أن محتوى رسالته إلى الفرنسيين يكمن في هذا التفسير الوحيد لتشبهه بكل من الجغرافيا والتاريخ، سنة 1930، وهي السنة التي تشهد تفريقاً بين إصابة داخلية على خلفية آارات ونزفها الداخلي كردياً، والنظر إلى ما بعدها بثبات لتلا يشمت يشمت بهم الأعداء، وما أكثرهم عدداً وعدة ومن بينهم كرد أباً عن جد:

(نشرة المعلومات المحلية)

المفوضية العليا للجمهورية الفرنسية

دولة سورية

منطقة الفرات

إدارة المخابرات

دير الزور 22 شباط 1930

رقم: 12/ ن. م

نشرة المعلومات رقم 12

سري: يجب أن لا تُعلن

الفترة من 20 إلى 22 شباط 1930

مسجل في وارد قيادة القوات الفرنسية في الشمال

في 24 شباط 1930 .

أولاً: لمحة عامة

السياسة :

حاجو آغا يقدم لضابط إدارة مخابرات القامشلية مضبطة موجهة إلى المفوض السامي مطالباً الأخذ بعين الاعتبار منطقة الجزيرة العليا الكردية، و دراسة نظام حكم ذاتي .

(...)

1- حاجو آغا والحكم الذاتي للمناطق الكردية في سورية

(نشرة المعلومات - دير رقم: 12 - 22 / شباط 1930 - القسم الأول - إدارة مخابرات - خيرو - 12 / شباط 1930). مؤكد .

في 6 شباط، قدّم حاجو آغا إلى ضابط إدارة مخابرات القضاء مضبطة محررة باللغة الكردية، و مترجمة إلى العربية، يطلب فيها من السيد المفوض السامي أن يأخذ في الاعتبار منطقة الجزيرة العليا الكردية، و أن يدرس إقامة نظام حكم ذاتي من أجلها .

ويطلب السماح له بالتجول بهذه المضبطة بين القرى لكي يجمع التوقع . أشار له ضابط إدارة المخابرات بأنه لا فائدة لهذه العريضة لأن السيد المفوض السامي هو على علم تام بالوضع .

ملاحظة من إدارة مخابرات خيرو: في الوقت الذي يشاع خبر عن تنظيم حكم ذاتي في كردستان التركية و في كردستان العراقية، بيد و هذا الطلب المقدم بدون إلحاح كمجرد عريضة .

2- مشروع سفر إلى الموصل :

(نشرة المعلومات - دير رقم: 12 - 22 / شباط 1930 - القسم الأول - إدارة مخابرات - خيرو - 12 / شباط 1930). راجع .

طلب حاجو آغا من ضابط إدارة المخابرات فيما إذا كان بإمكانه الحصول على جواز سفر من أجل الذهاب إلى الموصل. تمت إجابته رسمياً، بأن ذلك غير ممكن، لأنه ليس مواطناً سورياً .

بعد ذلك بفترة وجيزة، طلب قدور بك من أحد متعهدي النقل فيما إذا كان باستطاعته نقله إلى الموصل⁽¹⁾.

هذا ما يمكن أن يكون مدخلاً إلى تاريخ مختلف، إلى معاودة الاستئناف في المجابهة، وللممة القوى الذاتية. ومن ثم إعلام الخصوم، بمن فيهم فرنسا أن ما كان ليس نهاية التاريخ، إنما بداية جديدة، لأن حلم الكيان الكردي في الانتظار.

في استعادة أخرى لـ «حقْد» حاجو آغا على الدولة العثمانية التي كانت وراء قتل والده بيد جمو، وتنامي هذا الحقْد داخله، حتى كبر ورافقه أنَّى تحرك، ولعله كان يذكره بأعدائه وهم في ازدياد وقد أصبح العثماني تركياً، واختلط بعد ذلك التركي مع الفرنسي مع الانكليزي والأعداء المحليين، لا يعود في الحالة هذه، رب الخيمة أو المضرب حصراً، إنما الساعي في جهات شتى، بحثاً عما يثبتته في المكان، حيث تكون أرضه: الكيان الكردي المستقل سيراً على نهج أسلافه ما أمكنه ذلك:

(شهد عام 1926 انهيار الحركة الكردية في شمال كردستان، كانت سنة ألم الشعب الكردي، سنة سوداء كانت. إنما من الناحية الأخرى، فإنها كانت السنة التي كان الكرد يتحدثون فيها عن بطولات جديدة، ومن ثم السعي إلى توسيع رقعة الحركة الكردية بالتوازي مع التشديد أكثر على مطالبهم أيضاً، وهم يعقدون اجتماعات، وكلهم سعيٌ إلى طرح قضيتهم وقضية وطنهم بشكل عصري.

لم يهدأ حاجو مذ وعي على نفسه حتى رحيله الأخير، وهو في قلب حركة دائمة: حركة لولبية أو متقطعة. لقد نشأ حاجو في طفولته يتيماً، حيث إن أباه قتل سنة 1896 «تبعاً للرواية الأكثر تداولاً وانتشاراً، وليس وفق حسابات تاريخ دقيقة، إذ إن جمو قطع رأسه بتحريض من الأتراك. ولقد أبصر حاجو النور في مدياد» أو في مزيرخ ضمناً «كما رأينا سابقاً»، كما أنه ترعرع هناك، إلا أنه لم ينس

(1) ينظر ما كتبه خالد عيسى تحت عنوان: مطالبة حاجو آغا بالحكم الذاتي، في موقع «كلكاش» بتاريخ 28 كانون الثاني 2009.

الأخذ بالتأثر أبداً، له صلة برسم صورته الغدوية، وقد بقي معادياً للأتراك داخله حتى آخر لحظة من حياته.

وهذا اليأس يوّلد أملاً بالمتابعة وطرق أبواب الفرنسيين، حيث يكونون أهل الحل والعقد بأكثر من معنى، وبالمفهوم السياسي (طالت مدة إقامة حاجو في الحسكة، حيث إن فرنسا لم تعد حاجو إلى حيث كان، وسط عشيرته وناسه، لأن فرنسا ما كانت تريد خلق مضايقات لتركيا.

سوى أن موقف حاجو من أجل نيل حقوق شعبه كان قائماً. إذ إنه كان يطالب فرنسا بحقوق شعبه، وفرنسا من جهتها منحت الكثير من الوعود، حيث إن الشاعر الخالد جكرخوين يشير في مذكراته إلى الكم الهائل من الوعود المعسولة التي كانت تجزلها فرنسا، إلى درجة أنها وقّعت على مطلب الاستقلال أيضاً، لهذا نجد أن كرد الجزيرة، حلفاء حاجو، وهم حلفاء فرنسا، قد وقّعوا على طلب، ورفعوه باسم فرنسا إلى عصابة الأمم.

ولا بد أن الضغط الذي استمر مع طرق أبوابهم، مع الوعود المقدمة، حتى كانت النهاية المأسوية لحاجو آغا: رحيله الأبدي، وما في ذلك من مفارقات القدر، كما لو أن جسده المنهك لم يعد يتحمّله وليس روحه، إذ يحال هنا إلى جكرخوين وما تقوه به حول هذه النقطة، وما أعقب هذا الرحيل من رحيل آخر لفرنسا: يقول جكرخوين حول ذلك أن الرد على مطلبنا باسم حاجو آغا جاء سريعاً، بقولة عن أن رسالتكم وصلت إلينا، ونحن الآن ندرسها، وأن مطلبكم سوف يتحقق في القريب العاجل. سوى أنه لم يمض كثير من الوقت، حتى كان موعد الرحيل الأخير لحاجو آغا سنة 1940، إلا أن فرنسا خسرت في الحرب، وفقدت مكانتها، إلى جانب أن عصابة الأمم تلاشت تحت وقع السلاسل وهدير المدافع، لتلفظ أنفاسها الأخيرة. وأخرجت فرنسا تحت ضغط الجيش الانكليزي من سورية، وسلّمت قيادته للجيش السوري، ونال العرب ما يبتغون سوى أننا نحن الكرد، حلفاء فرنسا، في أن تمارس فينا الدولة السورية عسفاً بعد خروج فرنسا⁽¹⁾.

يمكن البحث هنا عن بدائل متكاملة، أي ما يخص السياسة العملية، وكيف أنها حين تتعب، فإنها تشكّل إنذاراً من نوع المنبه العصبي إلى الدماغ بلزوم التحول

(1) من مقال شاهوز حاجو، المصدر المذكور.

والبدء بما يبقي الجسد في وضعية عمل ونشاط، فتكون الثقافة، ومن ثم التثوير الذاتي سياسة من نوع آخر، أي تصبح جبهة الداخل هي ذاتها فتح جبهة حرب من نوع مغاير.

يكتب جبو مشيراً إلى هذا الجانب إلى (أن حاجو آغا الذي كان أكثر زعماء العشائر نفوذاً في منطقته كان يهدي كتباً باللغة الكردية للأشخاص الذين يقومون بزيارته في بيته في الحسكة، وقد دعم حتى النهاية موضوع التعليم بالكردية... ويتابع جبو قائلاً: كما أن جميل حاجو نشر مقالة في العدد السابع من هاوار بعنوان «الكرد طيبون ولكن جهلاء». إن عدم معرفته «أي جميل» بلغة أخرى غير الكردية وكتابته باللغة الأم بعد دراسته بالكردية في ظروف سوريا يومئذ، وكذلك همته وغيرته، كانت مدعاة لثناء جلاء بدرخان عليه، وقد تحدث جميل حاجو في مقالته عن الأضرار التي لحقت بالكرد بسبب الأمية والجهل⁽¹⁾.

وما يسمح لنا بالمضي قدماً إلى الأمام، هو جلد / صبر حاجو، وإدراكه الذي جمع فيه بين حيوية ما كان عليه سابقاً، وفضيلة ما هو عليه من معرفة العالم من حوله، فيكون أكثر تشديداً على سياسة من نوع آخر: التعليم كطريق لتحرر روحي، التحرر من سلطان الجهل، كما يعلمنا جبو (لقد طالب حاجو الذي صار نائباً في

(1) جبو، نذير: سلاطين هفيركان، المصدر المذكور، ص 210.

بالنسبة إلى مقال «جميل حاجو» منشور في العدد السابع، في «25» آب 1932، وقد ورد في الصفحة الأولى، ومطلعه (الكرد طيبون وملؤهم كرامة، واحترام وجسارة، لهذا يقاتل بعضهم بعضاً، وينهبون أموال بعضهم بعضاً، حيث لا أحد يتنازل للآخر، لأنه أمضى عمره في هذا السبيل، لهذا نجد أن كل شاب يتحرك بحثاً عن كل من يعمل الطبيب، ويراه وهو محل مديح الناس، ويقتل صناديد الرجال وينهبهم، ولا يظأطىء رأسه أما أخيه الكردي، وبدوره فإن هذا الشاب بالمقابل، يباشر بالقتل، ويمارس السلب والهمجية، وأعمالاً غاية في العنف... ودواء العلم هو هذا، إن كل من يقول عن أنه كردي، وأنا فتى الكردي، عليه بمساعدة المجتمع الخير، كل على قدر استطاعته، ليكون في مقدور المجتمع أيضاً منفعتنا، وتعليم أطفالنا، وجلب المدرسة إلى عتبة بيتنا... ص 143).

وفي الأسفل مديح جلادت له مستهلاً بالتالي: كاتب المقال هو جميل حاجو، ترى من يكون جميل حاجو(شاب، شايب، في أي مدرسة تعلّم... جميل حاجو شاب في عمر الـ «20-21» عاماً، لم يتعلم في المدرسة، ولا تتلمذ على يد أحد... إنه من الكرد الأوائل ممن تعلم القراءة والكتابة بالالفباء لغته، وبمساعدة لغة أخرى... لقد تعلم الألفباء الكردية خلال أسبوع، وكان في مقدوره بعدها أن يكتب في أي موضوع بالالفباء لغته، ويقرأ بصورة جيدة... ص 144).

البرلمان السوري عام 1928، مع بقية النواب الكرد بالاعتراف بالكردية لغة رسمية في المنطقة الكردية، واتخاذ التدابير اللازمة لتعميم التعليم باللغة الكردية. ومع أن سلطات الانتداب الفرنسي لم توافق على هذا الطلب رسمياً، إلا أنها لم ترفضه أيضاً بشكل قاطع، وكان موقفهم على الصعيد غير الرسمي مرناً ومتسامحاً إلى حد كبير. ولهذا افتتحت العديد من المدارس والدورات التي تعلم باللغة الكردية في الجزيرة... الخ.ص 211).

فرنسا، كما يظهر، لم تكن تبصر الكرد وحدهم أمامها، لقد كان هناك العرب والسيّريان والأرمن، وكان عليها أن توازن بين هذه الاثنيات، في ضوء المستجدات، عدا عن مراعاة دول الجوار، وتأثير تعلم اللغة الكردية بالذات على نفوس الكرد مما يحاربون به ويصار إلى محاولة صهرهم «في تركيا» بصورة خاصة، ورغم ذلك، فإن قوة الإلحاح، وثبات حاجو آغا في موقفه، كانا عاملين في تلبية الطلب، وربما ما هو أبعد من ذلك، ألا وهو تقدير الطلب الذي يستحق الموفقة عليه، وجعل ذلك بمثابة ضغط من نوع آخر على الأتراك أنفسهم.

إن تواصل حاجو آغا مع الكرد في الأطراف الأخرى، كان يمثل من ناحية مقدرته على الثبات، ومن ناحية أخرى اعتباره تهديداً للوضع الأمني الفرنسي وإثارة حساسيات الآخرين من السكان المحليين «جماعات أخرى غير كردية»، والأتراك على الحدود، كون ذلك ينبّه إلى أن هناك ما يلي كل خطوة ملموسة في هذا الجانب.

كما في رسالة مطوّلة نسبياً، مذيّلة بتوقيعه، ومرسلة في آذار 1927، إلى زعماء الكرد في جبل سنجار، ولا بد أنه في هذه الرسالة كان مطمئناً نفسه، وراضياً عن إجراءاته ذاك، لأن إيزيديي سنجار امتداد لإيزيديي هفيركان، أي بمثابة جسر موصول بين الجهتين، وفي ذلك إيقاظ للكرد في الأطراف الأخرى ضد أعدائهم المشتركين. ومن ذلك ما ورد في الرسالة من العبارات التالية، وهي تحتفظ ببلاغتها التأريخية:

(إن نية الدولة «التركية» هو التمسكن أمام الكرد ثم تتركهم، وهذا أمر مفهوم من قبل أولادنا أيضاً... لقد كبّدنا الأتراك الخسائر حتى الآن، ونحن مستمرّون على ذلك حالياً. إن كل خطوط الاتصالات البرقية بين نصيبين والجزيرة مقطوعة... وعلاقاتنا جيدة مع العشائر العربية المجاورة مثل طي وجواله وشمّر، ومن

المحتمل أن تساعدنا نطلب معلومات بخصوص التغييرات السياسية، وكذلك عن العشائر «في كردستان» الشرقية، وعن «سمكو آغا والشيخ طه ابن الشيخ سعيد ... ليس هناك أي فائدة من القعود» الجلوس/الانتظار، بالنسبة لنا الآن. نحن مضطرون للعمل ليل نهار. أرسلوا المعلومات والصحف اللازمة لأعمال الدعاية ...

ختاماً تقبلوا احتراماتنا

ننتظر إجابكم بشغف

الموقعون:

حاجو/، زعيم عشيرة هفيركي «قضاء نصيبين، قرية باديلي»

محمد أمين، زعيم عشيرة رامان «ديار بكر- قضاء بشيري»

محمد، زعيم عشيرة هبزييني «قضاء مديات»

ابراهيم، زعيم عشيرة هبزييني «قضاء مديات»

اسماعيل حقي مهدي، زعيم عشيرة حصاري

إن هذه المساعي والجهود المتواصلة بين الكرد وتطوير العلاقات الودية مع سلطة الانتداب الفرنسي والمسيحيين في المنطقة، والتوجه نحو الأهداف القومية أكثر من الأهداف العشائرية والدينية، كانت إشارة على حدوث تغيير في نظرة الكرد إلى الأحداث...

لم يكن القوميون العرب وحدهم منزعجين من مساعي حاجو المؤيدة للفرنسيين، إن أكثر كوادر خوييون تأثراً، وهم أبناء جميل باشا وعدد كبير آخر من الكرد كانوا يفكرون مثل العرب...ص 215).

أن نفكر في المدوّن من الزاوية التاريخية وما كان يجري في الجوار، فإننا نتلمس تلك القيمة الصاعدة في الفكرة التي تتشكل من خلال جملة من الأنشطة العملية، والعلاقات التي تضم إليها زيادة مضطرة من أعداد الكرد، وهم يقيمون في مناطق قصية، وما في ذلك من خرق للحدود، ومن المحظورات التي فرضها أعداء الكرد بالذات.

لهذا لا غرابة أن يكون حاجو آغا من ناحية المجابهة لهذه التحديات مرثياً، ليس لأنه محل كراهية من الذين كانوا يحيطون به من رفاق المنظمة ذاتها

«خوبيون» أو رفاق الهم المشترك، وهي موجودة حتماً، إنما لأنه، وكما هو مستقراً في سجله الشخصي وردود الأفعال تجاهه، كراهية لها صلة بحضوره، وهو في عداد الأقل شأنًا على المستوى الثقافي أو المعرفي، كما كان يجري النيل منه هنا وهناك من هذه الزاوية «أمّي/ جاهل، لا يعرف القراءة والكتاب»، أي دون الاعتبار أنفسهم أكاديميين: خريجي جامعات، أو دراسة رسمية، وليس «فك الحرف»، أو بصفته آغا، وهذه الصفة تخرجه دفعة واحدة من المدينة، وهي حالة نفسية وليس واقعية، لأن ليس كل آغا، كما يفترض أن يكون هكذا، كون اللقب يسميه دون أن يكون تعريفاً به، أي كيف يكون في مقدور رجل مثله أن يؤدي مثل هذه المهام، ويقلق أصدقاءه قبل أعدائه، كما هو مدرّك عن قرب ؟

لقد أحاط حاجو آغا الجزيرة «السورية» علماً بوزنه أو مكانته، ليكون له دوره في الحياة السياسية على مستوى سوريا ومن خلالها، وهو ما تنبّهت له فرنسا والقوى القائمة على الأرض، مقدرة أهميته ونفوذه.

إن غورغاس يطلعنا على جوانب حية من هذا الجانب (كانت حركة الاستقلال الذاتي في الجزيرة، التي يشار إليها غالباً بالكتلة الكردية المسيحية، تطمح إلى الحصول على استقلال ذاتي شبيه بالذي أعطته فرنسا للدروز وللعوليين.. وقد أثر التحالف بين الوجهاء المدنيين المسيحيين والوجهاء الكرد في ريف الجزيرة وأسس لعلاقات اجتماعية جديدة وإعداد من قبل النخب للتحرك السياسي، في هذه المنطقة المسكونة منذ زمن قريب جداً. وقد تم التخلي بالتدريج عن الشقاوة الاقتصادية والسياسية التي كانت تمارسها القبائل الكردية على الحدود التركية السورية، لينشأ بالتدريج بدلاً منها «مجتمع مدني» يستخدم أدوات جديدة للتعبير دون التخلي، بصورة عامة عن السلاح للدفاع عن المطالب عند الضرورة. ص 88).

ذلك هو المهم في بنية العلاقات أولاً بين مكونات الجزيرة، وبين التخلي عن المسمى بـ «الشقاوة» المذكورة، طالما أن هناك بديلاً عنها في إطار عقد مجتمعي يوحد الجميع داخل منظومة علاقات منتجة ثانياً، وأن السلاح المشار إليه هو الآخر، ليس من ضمان للقوة الذاتية منعاً لهدرها في غفلة ما ثالثاً.

ولعل المتقدم به أيضاً، هو أن المعنيين بالمكونات السكانية عاشوا أكثر من تجربة سياسية، واستوعبوا ألفباء الخطاب السياسي الفرنسي وما هو أكثر عمقاً

منها، خلال سنوات طالت نسبياً، ومن خلال لغة المناورات، أي إنهم بمقدار ما كانوا يتقاربون يشعرون بأن هناك اهتماماً أكبر يجري بهم من فرنسا وسوها.

ثمة نقطة أخرى في غاية الأهمية، وهي تركز إلى كيفية التعرف على القوى البشرية الموجودة على الأرض، إن من جهة التوزيع، أو من جهة الذين يبرزون فاعلين، حيث لا يعود في الإمكان هنا التكافؤ بينهما، ليس لأن الإمكان غير وارد، وإنما لأنه خطأ تاريخي، لا تقبله الجغرافيا المدعمة بالقوة، ومن نوع آخر.

هنا، لو أننا تحريّنا نوعية القوى الكردية على الأرض في الجزيرة، فسوف نجد ما ليس داخلياً في المعادلة السياسية المعمول بها:

على الصعيد الكردي، جهة أقدمية مجموعات كردية سبقت نزول حاجو الهفيركي وغيره إلى بنختي، ومدى معرفتها للمكان ولمن في المكان، وضمناً سلطة الانتداب الفرنسي، لكن الأقدمية تخرج عن حساب القوة المتنفذة في المكان لحظة المقارنة بين الذين وجدوا سابقاً، ولم يتمكنوا من احتواء المكان بمختلف قواه، والحيلولة دون ظهور عناصر قوة تسعى إلى سلبهم هذا الامتياز في الأقدمية.

على الصعيد الكردي العربي المسيحي، ربما هذا القول يوضح سابقه، ويتضح به، إلا أن المطلوب تنويره، هو أن العملية السياسية المعترف بها تتوقف على الأكثر قدرة في المبادرة وفي تسجيل الهدف السياسي في مرمى سواه، وما يترتب على هذه الأسبقية من لفت النظر، ومن اعتراف ضمني بحضوره.

على الصعيد الكردي الفرنسي، لا تعود فرنسا العلمانية، تعنيها المذهبية أو الاثنية، وإنما القوة الأقدر في الاستئثار بالمكان وترك البصمة عليه، ومن ثم في منح الاعتبار لمن يشغل المكان قبل سواه.

ينوء غورغاس وعبر باحث معروف عن أنه (لا تجوز دراسة التعبئة الشعبية والسياسية في مرحلة الانتداب الفرنسي بقراءة تبسيطية تقوم على تعارض ثنائية: أكثرية/ أقلية «كرد/ عرب» لأن كليهما كانا لا يزالان يشكلان كيانيين اجتماعيين سياسيين هجينين.... إن نتيجة عملية إدماج السكان الكرد في سوريا الانتدابية كانت، في الواقع، إعادة لتحديد الهويات الكردية على صعيد محلي.... فقد أتاح تمدين الجزيرة، كما هو حاصل في المدن السورية ذات الأكثرية العربية، بروز وجهاء مدنيين كرد سيطروا على المشهد السياسي المحلي والمناطق. وإلى ذلك شارك هؤلاء،

بالاتفاق مع الفرنسيين، في السياسة الوطنية، ومنها التمثيل السياسي في البرلمان، في دمشق، عاملين بذلك على «سورنة» الـ «جماعة الكردية»..ص 89).

لعله كلام أكثر من كونه كلاماً عابراً أو عادياً، ويستحق أن يضاء بكلام من مثله وما ينفصل عنه لوجود تتطلب توضيحاً خاصاً:

إن ثنائية الأكثرية- الأقلية التي لما تزل تستعمل ليست أكثر من أثريات الإيديولوجيات الشمولية والتي تمنح المشروعية والسيادة وشرعنة التمثيل البرلماني والصوت الأقوى فيه، لمفهوم «الأغلبية» كما لو أن الأكثر عدداً هو الأكثر تفعلاً أو أهلية إنتاج وإمكان بناء المجتمع والارتقاء به قلباً وقالباً.

إن وجود الكرد في الجزيرة ليس وجود إضافة، كما لو أنهم قدموا إليها من الخارج حقاً، وما يعنيه هذا الخارج من بناء جدار اسمنتي يفصل بين العالمين، سوى أنهم كانوا من أهل المكان، وهو في برأنيته، وليس لأنه في زمانه كان داخلياً في عداد ملكية طرف دون آخر بشكل فعلي، وفي جهات مختلفة منه، كما رأينا سابقاً.

إن القيمة التاريخية والتي تثرى عبر إبراز دور الكرد في العملية السياسية البرلمانية، أو في تمدين الجزيرة، لا تعني أكثر من حقيقة واحدة، وهي أن هؤلاء كانوا مأخوذون بالمكان، وعلى علم بالذين يقيمون فيه سابقاً، كما يشهد التاريخ نفسه بذلك، أي إثر عملية الاندماج السكاني، رغم كل معضلات التناوب وآثارها الجانبية ومن كانوا وراءها، أي لجعلها أمراً واقعاً، وليس مفتعلاً، وهذا ما كانت سلطة الانتداب الفرنسي تستفيد منه ومن معها.

لاحقاً، يعلمنا غورغاس بطبيعة تموضع الملاكين الكرد في المكان أي في المدينة (وقد تعززت علاقة الكرد بالمدينة بفعل التوطين التدريجي للملاكين الكبار، الأغوات، وزعماء القبائل الكردية في المراك المدينة، فحاجو آغا، على سبيل المثال، سكن في الحسكة في حين سكن محمود بك زعيم الملي في القامشلي. لقد استقر النفوذ الاقتصادي والسياسي، في الجزيرة العليا، في المدن التي تحولت إلى مصدر للنفوذ و«للمدينة»..ص 90).

من المؤكد أن لا أحد يستطيع أن يصبح مديناً عفواً، إلا إذا كان لديه أهلية تمدين، أن ليس في مقدور أي كان أن يصبح من أعيان الحقبة الجديدة، لولا توافر صلاحيات أو مغذيات لذلك، وهذا ما يدحض كل مقولة تذهب إلى اتهام الكرد

أحياناً بأنهم همج، بعيدون عن الحضارة أو لغة المدينة، منطلقين بذلك من تلك «الأورام» الخبيثة التي تتقدمهم، واعتبارها خير علامة على فقدان المناعة لديهم في سوء تقدير الآخر وتبخيس المدنية.

الحديث عن المدينة ليس من قبيل تزجية الوقت، إنما تعبير عن طاقات كامنة، تنتظر ترجمة لها إلى أفعال، إلى جانب أن الذين يمثلونها إنما يفصحون على تخوميتهم، أي وهم ممثلوا أرياف، ولكنهم عاشقو مدن كذلك.

الرئة السياسية للثقافة:

إنما لنمض إلى مكاشفة نقطة أخرى، وهي تتلمس بنية الثقافة وكيف جرى الاهتمام بها، في وقت كان الكرد يشعرون أنهم مهزومون على الأرض، لكنهم لم يخسروها كبعد من أبعاد الوجدان الجمعي الكردي.

ثمة نقطة يثيرها غورغاس بهذا الصدد حين يقول عن (إن وسط المثقفين الكرد، هذا «العالم الضيق» حسب قول سارتر، ليس متجانساً، ففي حين نشأ آل بدرخان وآل جميل باشا على الأفكار التحديثية في مختلف المدارس والجامعات في اسطنبول وأوروبا الغربية، نشأ الجيل الثاني «عثمان صبري، وجكرخوين، ونورالدين زازا، وقديري جان»، ذاتياً ومارسوا أسلوباً أكثر شعبية ليتحولوا إلى فئاني الشعب...ص 318)، وهذا من طبعه، لو دقق فيه بعيداً عن البحث عن بعض الأنسجة المعطبة في الجسد السياسي والاجتماعي، لأبرز ذلك العمق في عملية اللاتجانس والتي تولّد تناغماً من نوع آخر، هو هذا الفارق الذي ينبّه إلى الفواصل وإسهامها في البناء بعملية إسراع في العطاء وتقريب المسافة، ولكل طرف ما يعزّز موقعه، ويشده إلى الآخر، وينشد إليه، وهذا ما يتجلى فيما بعد، حيث يقول غورغاس (إن انخراط النخبة الكردية في الحقل الثقافي ليس غريباً. على العكس من ذلك، فجميع حركات النهضة القومية استمدت مراجعها من أعمال بعض المثقفين الذين أعادوا رسم الهوية الثقافية للجماعة التي يدعون تمثيلها. ص 319).

يشير غورغاس إلى نصائح الفرنسيين من خلال المفوضية العليا بما يجب على الأخوة بدرخان من القيام به ثقافياً ودون الوقوع في فخ السياسة التي تتعرض فرنسا عبرها لأوجاع رأسيّة من الداخل وعبر إشارات من الخارج، وهذا كان مفيداً، أي لا يجب اعتبار كل ما يأتي من المعتبر خصماً إيذاء/ إيلاماً (فلا بد من

الاستنتاج أن الأخوين بدرخان وجدا في الثقافة حقلاً يتيح لهما توظيف مخزونهما اللغوي والثقافي ويصبحان بذلك، عنصرين فاعلين في أعين السلطات المنتدبة الفرنسية كما في أعين الأوساط الثقافية الكردية، والحكومة التركية، وأيضاً في أعين المستشرقين الأوروبيين...ص 351).

لا بد أن الأخوة البدرخانيين وخاصة جلادت أدركوا ما يعنيه الإصغاء إلى روح الشعب، وما في روح الشعب هذا من مدد معنوي، يؤهلهم لأن يكونوا أكثر مضاء من ذي قبل، أي أن يشعروا بتلك القوة التي يحتفظ بها الريف، حيث الانتشار السكاني الكردي والمغنون الشعبيون، أو تاريخ الكردي غير المسجل، من خلال أغانيه وهو ما جسد أرشيفاً حياً ومدهشاً أقبل عليه جلادت بصورة مركزة، وهو مرفق بمغنيه الشعبي الأشهر «فرمان كيكي»، حيث يسهل التعرف عليه في العديد من روايات محمد اوزون ذات الصيت «يوم من أيام عبدالي زينكي- بئر القدر...»، كما لو أن الإصغاء هذا نوع من التطهير لروح أدمنت الجمود أو التبلد في المدينة، إلى جانب إعطاء مساحة معلومة لهذا الجانب: الفولكلور، وتأتي مجلته «هاوار» قيامة ثقافية من وجهة نظره والذين التفوا حوله وساندوه وشعروا أنهم في منعطف تاريخي جديد في عام 1932، حيث باشرت الصدور، وليس استقطابها لشعراء وكتاب ينتمون إلى أمزجة نفسية من الكرد وفي جهات كردستانية مختلفة، إلا ترجمة لهذا التوجه، وهو ما بات يمثل نهراً قوياً، وهو يهدر في برية ذبل نبتها، ومن هؤلاء حاجو آغا وجميل حاجو آغا، وفي كل ذلك ما يحفزنا على مكاشفة ما تعنيه الثقافة من طاقة نفاثة، ومن تصفية الأجواء وتهدة الأرواح القلقة في آن طبعاً.

وعلينا أن نلاحظ مدنى الاهتمام ونوعيته بـ «هاوار» قبل غيرها من المجلات الكردية، وفي منطقة لم تكن تتكلم بلغتها «أي دمشق» حيث شهدت ولادتها الأولى في «15 أيار 1932» على وجه التحديد، وكيف جرى الترابط بين المكان ومن فيه وفي تلك المدينة الناطقة بالعربية أيضاً، أي دمشق، وذلك التواجد الكردي فيه، أي ما حفز في كرد المكان من روح كردية تجاوبت مع مفهوم «هاوار: الصرخة الكردية أساساً»، وكما ينبّه روغاس، كيف تفعلت البيانات المرفوعة من الأخوة بدرخان إلى السلطات الفرنسية الآخرين (وشكلت منازل الوجهاء الكرد في الأحياء الكردية في دمشق والجزيرة، والمقاهي، والجمعيات المحلية، والأندية الرياضية، أيضاً، الأمكنة الأخرى لتعايش الحركة الثقافية الكردية.ص 324)، وفي الإطار نفسه، ثمة

ملاحظة في الهامش قبلها بصفحة، عن بيوتات كردية أصبحت منابر ثقافية، أو منازل (كان منزل علي آغا زلفو في حي الأكراد في دمشق مركزاً لالتقاء الشخصيات الكردية، وفي الجزيرة منزل حاجو آغا وفي الحسكة كان، أيضاً، مركزاً لاجتماعات القوميين الكرد)، ذلك من شأنه دحض كل مقولة تقلل من مقام الآغا وكونه نزيل الريف، أي حين نجد منزلي الآغوين الكرديين مقرين لاستقطاب رموز الثقافة والسياسية الكرديتين، أي ما بين جنوب سوريا وشمال شرقها، وما في ذلك من دلالة ودعوة إلى التدقيق في مقام فعل الاسم وليس اللقب الذي ينعطف عليه.

وسواء تحدثنا عن جكرخوين أو عثمان صبري كقطبين شعريين كرديين، فإنهما رغم نقدهما الجارح للذين يعتبرانهم من المتعاليين على الشعب، كالبدرخانيين، لكنهما ما كانا يجدان بداً من التقرب منهم، وحاجو آغا كان يعمل معهم، وليس في صفوفهم، أي يكون له اعتباره المختلف، أو مركزه المحفوظ، وعثمان صبري منطلقاً من إيديولوجيته الشعبوية كان ينتقد البدرخانيين، ويرجو رضاهم «ص 326»، بينما جكرخوين، فهو مثله، ولكنه أكثر «شراسة» هجوم، واختلاط وعي في الموقف من آل حاجو بالذات، وهو يعلم أنه يعمل مع البدرخانيين والذين يودونه جرّاء تفانيه في العمل إجمالاً، ودون أن ينقطع عنه كذلك، أو ينسى فضله وإن تجاهله أحياناً.

بأسلوبه الروائي يؤرّخ اوزون لواقعة ولادة «هاوار» وفي منزل/ بين علي آغا زلفو وليس سواه في الشام، وفي وصف لا يخلو من دلالة (كان المساء مساء بارداً من أمسيات شتاء 1932، ومن تحلقوا حول جلادت كانوا كثيراً. إذ من عدا جلادت بك، كان هناك: حاجو آغا، صحبة أولاده الثلاثة: حسن، جاجان وجميل، أكرم وقدري من أبناء جميل باشا، علي آغا زلفو، بوزان بك شاهين، عثمان صبري، وأصحاب جلادت من ستانبول ممدوح سليم بك، حمزة بك مكسي وآخرون، وقد تعشّوا من طناجر الطعام التي تبقى ساخنة على النار دائماً، ورفعت الأواني والصحون، وكان المجلس يرتشف القهوة بعد تناول العشاء، وكانت علبة التبغ تتنقل بين الأيدي، وتنبعث سحب الدخان عالياً من المضافة، وقد آن أوان الحديث والأنس...⁽¹⁾).

(1) اوزون، محمد: بئر القدر، المصدر المذكور، ص 231.

ولا بد أن فكرة الانشغال بالثقافة، تعني التفرغ لها، لئلا تسلط السياسة الأضواء الكاشفة على المعنيين بها، ولهذا حدد جلادت، كما يذكر غورغاس الهدف منها قائلاً (لقد أسسنا مجلتنا، هاوار، بهدف علمي وثقافي فقط... وهي لن تتعرض للسياسة بأي صورة من الصورة. ص332).

هذا صحيح، ولكن عدم التطرق إلى السياسة كان سياسة، لا بل إن تحديد الهدف ليس أكثر من محاولة للالتفاف على المتخوف من السياسة فيما لو مورست من الكرد جرأً وضعهم الخاص، فتكون الثقافة صك غفران ما .

إن فكرة الوحدة الكردية، يمكن أن تُتلمَّس فيها، حيث جرى التعاون مع رموز الثقافة الكردي ما استطاع جلادت إلى ذلك سبيلاً، كما في حال المتور الكردي العراقي توفيق وهبي، وهو عمل ليس من السهل القيام به، وما فيه من مغامرة، لأن جلادت ومن معه طارئون على المكان، غرباء فيه «في دمشق: الشام»، بينما توفيق وهبي ومن معهم فهم من أهل المكان، من أهل السليمانية، ومن في ذلك من روح المنافسة والتفاعل الثقافي.

ولا يخفي آل بدرخان اهتمامهم بالأدب الشعبي والشفهي والمرتبط بهم (هذا حال ملحمة مامي آلان تتحدث عن أمراء بوتان، مثلاً. ص 350)، طبعاً وما في ذلك من إحياء الصوت البوتاني، وإثارة حساسية الآخرين ممن سجّلوا عليه هذه الملاحظة، أو انتقدوه انتقاداً حاداً من هذه الزاوية «آل جميل باشا، مثلاً»، سوى أن جورغاس يشير على طريقته إلى (أن اختيار البوتانية كأساس للكردية الكرمانجية، يعبر، إذن عن اللجوء إلى لغة كلاسيكي الأدب الكردي.... ويعبر أيضاً عن اختيار منطقي في سياق السياسة التي أشرنا إليها سابقاً، لآل بدرخان، أي الكفاح من أجل احتكار الحركة الكردية في تركيا. ص351)، وهي حرب فعلية بحق، بمقدار ما تكون منافسة للأطراف الأخرى التي تتعامل مع ثقافة أخرى لها طريقتها الخاصة في الكتابة والكلام، والتعبير عن الذات «السورانية هنا. ص 351»، ولا بد أن ذلك ينسجم مع روح حاجو آغا لانتمائه إلى هذه الدائرة.

هذه السياسة الثقافية، تتداخل مع السياسة الأخرى والمتمثلة في حفريات الإدارة الفرنسية وطرق تلقيها للمؤثرات الاجتماعية والثقافية، ومن ذلك ما نعرفنا إليه، أي «تريي» الضابط الفرنسي، وكيف اتخذ مشروعه (حين ذلك،

التدابير الأولى لتشجيع هذه النشاطات الثقافية الكردية في المشرق: تأسيس صف كردي في المعهد العالي العربي في دمشق، وآخر للضباط الفرنسيين في المفوضية العليا، وإعداد صف ليلي كردي في بيروت والحصول في سوريا على رخصة لإصدار مجلة هاوار... ولم يكن هذا التأثير يتعلق فقط بهذه الإصدارات الكردية في المشرق بل أن المفوضية العليا قد أقامت إدارة رقابية على كل الدوريات الصادرة في الأراضي الخاضعة للانتداب الفرنسي. ص 361).

ذلك ما يعيدنا إلى أيام «خويبون» وبعدها، وكيف تساهلت الإدارة الفرنسية مع أنشطتها، عبر السماح بتعلم اللغة الكردية «ص 364»، ومن بين الاستراتيجيات المفروضة للمفوضية العليا السماح مثلاً بـ (دروس مسائية، حصل القادة الكرد على إذن من السلطات المنتدبة لإعطاء دروس مسائية اعتقد الفرنسيون أنها أقل إجحافاً للقوميين العرب. وفي عام 1932، قررت الجمعية الخيرية فتح دروس من هذا النوع في الحسكة، وتل شعير، وكوبور، وبياندور... ص 365)، وذلك إنجاز كبير وقتذاك، حيث الأمية طاغية، ويتم تعلم اللغة في مناطق نائية مثل بياندور، وتل شعير مثلاً، إلى جانب الدخول في (التحالف مع الدومانكان، سهّل توسع حركة الاستقلال الذاتي في الجزيرة العليا، التقارب بين الزعماء الكرد والمرسلين الدومينيكانيين المقيمين في المنطقة. ص 366)، والاستفادة من فرنسيين أصبحوا مستشرقين ومستكردين لهم وزنهم الثقافى والسياسى والجاسوسى كذلك، كما في حال «بيير روندو، مواليد 1904. ص 381»، وعمله (مع آل بدرخان وبصورة غير رسمية، في التصحيح والإشراف على مجلة هاوار، خاصة في القسم الفرنسى.. ص 382)، لا بد أنه أكثر من إشراف وتصويب على الصعيد الرقابي، وهناك «روجيه لسكوت، مواليد عام 1914. ص 383»، واللافت هنا أيضاً «الأب توماس بوا: لوسيان رامبو، مواليد 1900. ص 385»، أي معرفة أن أموراً كثيراً كانت تتم وتتطلب وعياً دقيقاً للوصل بين مكوناتها، حيث كان (التحالف بين خويبون والطاشناق مفيداً، بصورة خاصة، للقادة الكرد، إذ إن التحالف مع الطاشناق أتاح لهم، وهم لم يكونوا يملكون شبكة تنظيمية هامة، لا في الشرق الأوسط ولا في أوروبا، استخدام البنية التحتية الأرمينية لتوجيه حركة المنتفضين حول جبل أرارات، وللعمل لمكتب الدعاية، وتمكنت خويبون بذلك، جزئياً، من أن

تعقلن انتفاضة قامت بها المعارضة القبلية في مواجهة بسط السلطة على كردستان التركية بنقل بعض زعماء القبائل بالقوة نحو غرب البلاد..ص398)...الخ.

تلك الاحالات المرجعية تنير تاريخاً عاصفاً، ويتنفس في أرشيفات حكومات ودول، إلى جانب نفوس أشخاص معتبرين أو حتى أناس عاديين، لكنهم يعيشونها، ولا يصرحون بها لأسباب اجتماعية أو ذاتية خاصة، سوى أن اللافت هو أن الموضوع الذي يعاين هنا وهو يتوزع في حدوده ومؤثراته بين دول مختلفة، وقوى لا تكون معروفة جميعاً، ليس من السهل تقييمه، إلا أن الممكن تناوله، هو مدى تشعب البحث، أو القضية الكردية، أي حيث إن الكردي ليسوا أبناء الجبل، كما يحلو لأحدهم أن يقول ذلك بنوع من النشوة أو الاعتبار القيمي، أو كرد فعل تجاه ما يجري، إنما هناك السهل والمنحدر، فالشعب الذي يحمل دمغة جغرافية واحدة «جبليةً يكون، أو سواء» يصبح أسيره، لأن عالم اليوم يتحدى أياً كان وهو في بيته، وما كان يجري حينذاك لا بد أنه يظهر مدى التحدي في النفوس، والربط بين مناحات عدة، وأن حاجو آغا الذي عرفناه قبلياً إلى أبعد الحدود، زعيم سياسي بكل معنى الكلمة، بغض النظر عن نوعية الزعامة، إلا أنه يظل في وارد القول وهو أنه يقيم في المنزلة العليا من الزعامة بمفهومها الكردي، من حيث سعيه ما أمكن لأن يكون كردياً كغيره، وتاريخه هو الذي يسميه هكذا.

ما يجب التذكير به طبعاً:

إنما في غمرة هذه التناقضات أو التجاذبات علينا الإصغاء إلى هدير النهر السياسي بعمق، وكيف أن الحياة السياسية في سورية، بغض النظر عن مناطق خفّض التوتر أحياناً، ولؤثرات سياسية، وتحالفات، وليس لأن المشاكل التي كان يجب عليها أن تفجر أوضاعاً - ربما - أكثر من تلك القائمة في سواها، لوجود قوة متحكّمة فيها بأكثر من معنى، كانت تعبر عن نفسها تارة بعنف مكشوف، وتارة بعنف متقطع، وتارة ثالثة بعنف موارد من خلال استعمال مناشير أو التهديد بالمظاهرات أو الاحتجاجات، أو بإرسال الرسائل إلى المعنيين بالأمر، وحيث إنه على قدر جرعة العنف في كل رقعة، يمكن تشخيص ماهية السياسة ودرجة الخبرة لدى ممثليها، وقريباً من «مستودع البارود البلقاني: الجزيرة» نجد هذه الغليانات، هذه التمردات، هذه الأنشطة التي لم تتوقف، ومن قبل وموز باتوا مألوفين لـ

«جمهورهم»، للشارع الاجتماعي، جرّاء تداول أسمائهم بلغات محلية شتى، ومن ذلك ما يخص ناطقي اللغة الكردية ولو في توجهات معتقدية أوخلافية تصل إلى التصادم والتشتات أحياناً.

غورغاس يعلمنا في كتابه السالف الذكر ببعض مما يهم، وما يجب أن يُستفهم، وما يتطلب التدقيق في القول تاريخياً وسياسياً، وهو أنه (في نهاية الحرب العالمية الثانية تم تقاسم ثقل السياسة المحلية بين الكرد والعرب، في حين كان الوجهاء المسيحيون يتمتعون بنفوذ كبير عام 1937، ص 129).

هنا، نجد أنفسنا وقد عبرنا نطاق عام «1940» حيث شهد رحيل حاجو آغا، أي باعتباره الخط الفاصل بين مرحلة وأخرى، وهو ما يجب أخذه في الحسبان، إلا أن حسان «المدى الطويل» والمتعلق بفعل المؤثر له امتداد آخر، وهو «مائي» يتسرب/، ويمارس تأثيره أحياناً لزمن قد يطول، عدا عن وجود من وضعه نصب عينيه، فلا يكون الغائب عن النظر إلا بجسمه، بينما أفكاره، تصورات، حيويته، فقد بقيت، وربما تفعّلت أكثر.

أي إن ما أنجز حاجوياً، إن جاز التعبير، وما يمكن أن يشار إلى الكردية في الجزيرة على صعيد الواقع العملي، ومن خلال تلوين العلاقات الاجتماعية بمداميكها السياسية، من الصعب، إن لم يكن مستحيلاً تجاهل بصمة حاجو آغا، ليس من باب كيل المديح له، إنما هو التدقيق في بصمة كردية بارزة تسميه وتبقيه في تاريخ حافل بالصور التي تري ما هو مختلف عليه في الجزيرة، وحتى دمشق العاصمة، وما تلاه ما سلاه، كما يقال هنا وهناك.

استمراراً لما تقدّم أيضاً نتابع كتابة غورغاس (وعلى هذا الأساس أسس وجهاء دمشق والجزيرة- علي آغا زلفو، وعمر آغا شمدين وجلادت بدرخان من دمشق، وحاجو آغا قدري بك «الصحيح وقدري بك» من الجزيرة- جمعية هيفي «القمر: الصحيح: الأمل» بهدف الحفاظ على اللغة والعادات الكردية، ولمنع امتصاص هذه الإثنية من جانب العرب والترك... ص 129)، ومن ثم (وقد أثار تأكيد الهوية الكردية للجزيرة العليا، هواجس بعض الوجهاء المسيحيين الذين اعتقدوا أنهم قد اكتشفوا المشاريع الكردية الحقيقية المتعلقة بمستقبل الجزيرة.

فالمطر هبة، أحد أركان الكتلة الكردية المسيحية، قطع علاقاته مع الكرد حوالي نهاية الثلاثينيات، واشتكى لدى السلطات المنتدبة من «الخطر الكردي» (ص130).

تلك هي المشكلة، وهي مشكلة تلتقي فيها أطراف وشخصيات فعلية، وأخرى لا يشار إليها حتى بالبنان ظاهراً، لكن يمكن توجيه إصبع الاتهام إلى من كل من له مصلحة في التخلخل، أي اعتبار كل القوى التي تتنافس فيما بينها، أو تتبادل الاتهامات، أو ترمي كل منها إلى تلبيس سواها بالشبهات، على أن لها ضلعاً في الجاري.

في الجانب الآخر، لا يخفى صواب الحديث عن الضيم الملحق بالطرف المسيحي، أو السرياني، بالطرف المسلم أو الكردي، أو العربي أيضاً، في ذروة عملية الترشق بنيران الاتهامات، ومن المنطقي في ضوء الواقع، أن هذه العملية ليست مرفوضة لأنها تحدث بالصيغة هذه، وإنما مرفوضة في حال تم التكرار لها، أي لماذا حصل ما حصل؟ إنه سؤال يخرجنا من التاريخ المنسوج من لحم الضحايا ومن دمائهم وأنيهم، أي من تاريخ هو نفسه في حيرة من أمره، لأنه يأتي بمنطق الغلبة ويسود الحلبة، وأن مفهوم «الحق» مطارد أو في مقام المتكتم عليه.

أألوم حاجو، أم المطران هبة، أم من؟ من يستحق النقد أكثر من الآخر؟ لا أظن أن التسمية منطق تاريخ، إنما أخلاق، والتاريخ لا يقيم علاقة مباشرة بالأخلاق أو الضمير، لأن بنية العلاقات الاجتماعية والسياسية بين دول وأنظمة، وكذلك جماعات تتحارب فيما بينها، توسع نطاق الحق للتفاهم لكنها فيما بينهما، ما أن تضرب إحداها ضربتها، حتى تنسى وعداً تعهدت به، أو حقيقة مشتركة أفصحت عنه، وهو بعد آخر من أبعاد لاعقلانية التاريخ: حكمته !

لننظر من جهة أخرى، ما يحدث على السطح، وما يتحرك في الداخل، ما يمثل كردياً، وما مدى حضور الكرد كنسبة في العبارة هذه، تبعاً لكلام غورغاس (إن التقرير المقدم إلى السلطات المنتدبة يشير في أكثر من عنوان، بمعزل عن الخلاف الشخصي بين المطران هبة وحاجو آغا، الذي تكرر على الدوام بين أعوام 1936 و1939، والذي قاد الأسقف الكاثوليكي إلى موقف متطرف من الكرد، يشير أولاً، إلى كشف الاستراتيجيات المتعلقة بهوية كرد دولتي المشرق. ففي حين يهتم اللاجئون الكرد بالشعارات القومية، فإن الكرد الموجودين في سوريا، منذ عدة

أجيال، هم أقل تجاوباً، مبدئياً، مع الدعوة الكردية.... ثم يكشف المطران هبة عن وجود مشاريع تعاون كردي عابر للحدود من أجل إقامة كيان مستقل ذاتياً. فقد تم توقيف نورالدين زازا عضو لجنة خوييون وحكم عليه بالموت في العراق. والتهمة الرئيسية الموجهة إليه هي صلاته الدائمة مع بعض الزعماء الكرد العراقيين المنتفضين على الحكومة. وحسب المصادر الفرنسية.. (ص 131).

يسمح لنا هذا الكلام، والذي - ربما - استرسلنا في الاقتطاف منه بأكثر من مكاشفة بحثية واستقرائية:

من ذلك أن حقيقة التفريق بين كرد مع «حاجو» وآخرين ضد «حاجو» ليست دقيقة، وإن كان فيها صواب ما، ووجه الإشكال يكمن في الصراعات الكردية ذات الطابع القبلي، وتحديداً، من كانوا يتخوفون من ظل/ شبح حاجو آغا وقد أصبح في بنختي، ولا بد أن سمعته كانت قد سبقته إلى هناك، لا بد هذا المنحدر/ النازل من: الأعلى إلى الأسفل «سرختي- بنختي» وما توحى به الثنائية الحدودية هذه من شيء أكبر من مفهوم المكان المجرد، أو شخص عادي، ومعه بعض من أتباعه أو جماعته: اتحاد القبلي، وهو زخم الحضور، ما يمثله المنتقل من سرختي وما له من صيت واستباق قيمة شخصية لافتة، وبالنسبة لجهة جغرافية تكون ما دون «بنختي» برّيتها، أي كما لو أنها خلاء، وأن المتواجدين فيها ليسوا بتلك القوة التي تمكّنهم من احتواء المنطقة وإدارتها كما يجب، وفي ظل الاندفاع السكاني «لأسباب سياسية خاصة» من سرختي إلى بنختي، ومعنى القول ليس في تقليل أي قوة بشرية مستقرة في «الجزيرة» واعتبار حاجو آغا قوة مرهوبة الجانب، إنما هي العلاقة المكانية، وما تعرضت كل جهة له إلى توترات، ومن ثم إلى تبلبل في الداخل، وانخرط قوى «خارجية»: فرنسية، وحتى تلك التي تنتمي إلى دمشق، وما حصل من مجابهات، وما احتاج كل ذلك إلى ترتيبات سياسية وبقوة مدروسة، ومراقبة من أكثر من جهة، أي ليست أحادية الاتجاه.

في الجانب الثاني، لا يعود حاجو آغا مجرد قوة يتيمة تلون المكان بصفته سيده، ولا المرجع الأوحده فيما يحصل من مستجدات، فلقد رأينا سابقاً أسماء شخصية كردية فاعلة في النطاق السوري، وخارجه، كما في حال أفراد بدرخانين، ودياربكريين، وبصيغ شتى، وغيرهم، وأن ذلك أضفى إيقاعاً جديداً على سرعة أي

عملية سياسية وتحديد نتائجها أو الحيلولة دون نضج ثمرتها، سوى أن إبقاء حاجو آغا تحت الضوء، مردّة، هو أنه كان في الغالب تحت ضوء التاريخ، وأنظار الآخرين، ومحل اهتمامهم، وهو بلباسه التقليدي، كما يعرف به حتى الآن، وذهنيته المتفتحة والمستوعبة للكثير من خفايا السياسة كمحترف أكثر من محترفيها وبسطحية.

في نقطة ثالثة، حيث يقف أمامنا زازا، هذا الرجل المديد بقامته وفكره ومسلكه القويم، كان استثناء من بين كثيرين من كرده، والمهم القول هنا، هو أنه برز مناضلاً بأكثر من معنى، وقد كانت فكرته تضيء طريقه، وأن رجلاً مثله، وهو مدني، وليس قبلي، أي خوجه، كما يقال، يتعاون مع حاجو آغا، وضمناً جلادت وكاميران بدرخان بك... الخ، ليس أكثر من اعتراف ضمني بأن الذي بالكاد «يفك الحرف» كما رأينا، إن سلّمنا بذلك»، هو الذي يستأثر بأفكار من أمضوا سنوات طوالاً من عمرهم في قلب الحرف على وجوهه، فكيف يقيّم الوضع إذا ؟

ثمة خطأ في الإيصال للفكرة، لجوهر العملية السياسية التي تتطلب إشرقة فكرة، سهولة التحرك، ودون تردد، وأن يكون حاجو آغا فيما عرف به قبلياً، فتلك تتبعه، وأن يكون مدنياً فالمدنية بدأت تتقدمه، لكنه من حيث التعايش بينهما، ما كان ينسى أنه حاجو آغا بن حاجو آغا وصولاً إلى عثمان/ اوصمان، ليس لأنه كان يتباهى بهذا النسب الأغوي، وحاضنه البوتاني، وإنما ليكون أقل تعرضاً للأخطاء، حتى لا يحسب نفسه يتيم سلف له مقامه في الحالات هذه، إنما يحسب عليهم، كما يحسبون عليه في التقدير، وأنه لم يكن أكثر من حاجو، وليس حاجو آغا في حالات معينة، وعند اللزوم، لكي يكون المعمول بفكره ويديه شاهد عيان التاريخي ومقيّمه، جواز سفره إلى ما عام بعد «الخيمة» بأكثر من معنى.

حاجو آغا والسير على الجمر في سنواته الأخيرة

«يسهم الماضي بإعداد الهوية الفردية أو الجماعية، كما يسهم بتأهيل قيمنا ومثلنا العليا ومبادئنا - شريطة قبولنا أن تخضع هذه لفحص العقل وللنقاش بدل أن تفرض علينا لأنها ملكنا. إن ارتباطنا بالقيم هو أمر جوهري، وهو في الوقت نفسه محدود» .

تزفيتان تودوروف: الأمل والذاكرة «خلاصة القرن العشرين»، ص 242 .

إحياء العصب المركزي

السنوات الخمس المتبقية من عمر حاجو آغا، بدءاً من الاتفاقية الفرنسية-السورية والموقعة سنة 1936، كانت سيراً على الجمر، أكثر من أي يوم مضى، حيث ظهرت الكتلة الوطنية في إثرها، لتبرمج سوريا في حدودها السياسية على هوى مركزيته في دمشق، أي محاولة ربط كل الجهات السورية بها، وما في ذلك من تحكم بكل محاولة عن انفصال عن إرادتها الشمولية، وقد نصبت نفسها وطنية، لتكون التبعية لها علامة الوطنية الفارقة، وليس لأن الانتماء الوطني كان ملحقاتاً بمفهوم سورية كوطن للجميع، فذلك ما لم يحص واقعاً، وتلك إرادة الجزء المتحزب على الكل المتنوع.

الأوضاع ازدادت سخونة ليس في سورية وحدها، وإنما في المنطقة عموماً، في العراق، مثلاً، كان انقلاب بكر صدقي الكردي الأصل سنة 1936، بداية للدخول في أعمال عنف وقتل وقلاقل، وفي تركيا، كان هناك ثورة ديرسيم التي قادها سيد رضا سنة 1937، وفي سوريا كان هناك صراع على السلطة، وكيفية بناء الدولة، أما الجزيرة فقد كان لها وضع خاص، كما رأينا، وقد فجرت أحداث عامودا 1937 أزمة حادة على مستوى الشارع الجزيري وفي عموم البلد، ليجد كل سياسي فرصة له للتدخل، وحتى على مستوى الحكومة الفرنسية التي لم تدخر جهداً في ممارسة العنف ضد المدينة، ووجهت الأحداث المشتعلة في النفق المرعب، وهو: الطائفي، الأثني، وليتمس السياسي الصاعد إلى كرسي السلطة حديثاً، وهو من أقطاب الكتلة الوطنية، فرصة من ذهب له، لإثبات رجولته، وكونه الرجل الوطني المخلص لسورية.

عدا عن التآزم على مستوى الشارع في قامشلو، ومن خلال مختلف القوى الاجتماعية، والموقف من سياسة الدولة: أن يكون الشخص مع الكتلة الوطنية، أم معارضها، أي مع فرنسا، ومواجهة هذه التناقضات البينية، وكان لحاجو آغا أكثر من موطئ قدم، ليس في ساحة اللعبة، إنما في صميم الحراك السياسي، الاجتماعي والتاريخي، في محاولة لتهدئة الأوضاع، وتثبيت ذاته، وهو ينوّع في علاقاته مع مختلف المكونات الاجتماعية، وربما المسيحي بصورة خاصة، وبالتعاون مع فرنسا بالذات.

ربما كان التوقف عند أحداث عامودا مفيداً جداً، كمثال حي يصلح للنظر فيه من نواحي شتى، وصلة الأحداث هذه بالمنطقة، وكيف يمكن تمكّك تقييم شخصية حاجة فيها، من خلال تعددية مهامه في الجزيرة: في قامشلو، وخارجها، ومع الفرنسيين، خصوصاً، وأن النار التي التهمت عامودا لم تقتصر على المسيحيين وحدهم، إنما كانوا الطعم/الضحية، وفي الوقت نفسه، ليصبحوا مسوَّغاً لتوجيه حراب أكثر سمّية إلى صدور الآخرين من كرد عامودا وغيرهم، في الوقت الذي كان صوت هؤلاء «الكرد» يعلو ويُسَمَع في جهات مختلفة، والعرب كانوا يتهيبون هذه الحركة، ويريدون الالتفاف عليها، إنما علينا ألا نعتبر الصراع في الحالة هذه قومياً، كما يمكن أن يقال، إنما دخلت التحالفات في توجيه اللعبة، وهذا كان من شأنه إسقاط خرافة «الإيديولوجيا القومية»، أو النعرات القومية، إنما ما يجعل القومية ذاتها أحياناً أداة لتحريك المشاعر.

في سيرة حياته، يشير جكرخوين إلى تيارين «كردي وعربي» (كان يتزعم التيار الكردي حاجو آغا، كما كان يتزعم التيار العربي الشيخ دهام الهادي زعيم عشيرة الشمر العربية، وكما أن بعض العرب كانوا يقفون إلى جانبنا كذلك كان هناك بعض الكرد يقفون إلى جانب العرب، أما المسيحيون فكلهم كانوا إلى جانب الأكراد، وكانت فرنسا تساعدنا. ص252).

وهذا يسقطُ الثنائية القومية، كما تقدّم، لأن بنية العلاقات الاجتماعية، كما يظهر، لم تبلغ مستوى من التمايز للفصل فيها.

أما أن تقف الحكومة السورية العربية إلى جانب العرب، وأن يكون الديريون والشاشان حلفاء أعداء الكرد «ص 252»، فليس في ذلك من غرابة أو استغراب، إن تحرّينا هوية الحكومة والتي تمثّلتها الكتلة الوطنية، رغم أن رموزها من كبار

الملاك أو متنفذين، ولكن مصلحتهم تقتضي هذا التصرف، وما يجعل صفة «الوطنية» محل شبهة في الصميم.

وإن صح ما يذهب إليه جكرخوين، فإن المرئي مثير لاستغراب أكثر، جرّاء التداخل الصعب التفصيل فيه (عدا المسيحيين لم يقف إلى جانبنا في عامودا سوى عشيرة «الميرسينيان» نواف حسن، من المّلان-، وكما أن المرسينيين كانوا يرضخون لعبدي آغا بالقوة، فإن نواف كان يريد السيطرة على المّلان بالقوة أيضاً، إلا أن آغا المّلان كان عيسى عبدالكريم، وكان كل من الدقوريين والملي والميرسينيين مناصرين لدهام الهادي، ومن بين الكيكان كان حليفنا هو حاجي درويش فقط، وبين الأشيتان كان يقف معنا علي عبدي وحسن تنوي، وفي منطقة ديريك كان معنا عبدي مره، وحاجي عبدالكريم، إلا أن أكراد الجزيرة قاطبة كانوا يقفون إلى جانب أعدائنا، فقط لأنهم مسلمون. ص253).

الجغرافيا هنا تلعب دورها، إلى جانب التجاورات العشائرية، والنسبة العديدة لكل عشيرة وقوتها، ونوعية التحالف بين الواحدة والأخرى، وبالطريقة هذه، يتبين لنا إلى أي مدى لا تعود العشيرة ذاتها عشيرة، وهي ممزقة من الداخل، أي طالما أن أي تحريك لها، يتم القوة «من فوق»، وأن الدين والانتماء القومي نسيان هنا.

يورد أن عامودا تعرضت للضرب والخراب والسلب والنهب والقصص بالطائرات والحرق وإرهاب سكانها بالمقابل، إنما ويا للمفارقة مجدداً، لإبراز «همجية» أهلها، وحاجتهم إلى من يسوسهم، أي الدخول في طواعية الطاغية بامتنان طبعاً.

ييدي جكرخوين وجهة نظر في الدائر، بسؤاله: لماذا كان العرب وفرنسا يريدون إحراق عامودا؟ والجواب (كان هدف العرب هو عرقلة فرنسا في الجزيرة وإظهار الأكراد بأنهم ليسوا موضع ثقة، وأنهم ليسوا أهلاً للاستقلال... أما هدف فرنسا من إبادة مسيحيي عامودا، هو أن يكون ذلك ذريعة لهم للقيام بأعمال إبادة أكبر، ومن جهة أخرى لإظهار الوجه غير الحضاري للسوريين... ص257).

ذلكم، من ناحية هو التفسير المعتاد في حالة كهذه، حيث يتم ضرب الكل بالكل، أو تهديد البعض بالبعض الآخر، أو أكثر، أو تأليب جماعة على أخرى بطريقة ما، كما لو أن الحادثة داخلية، وأن لا بد من الداخل لوقف هذا العنف الأهلي.

سوى أن القوى الكبرى من ناحية ثانية، وحتى على مستوى الأنظمة التي تزعم أنها وطنية أحياناً، أو تعرّف بنفسها وطنية، وتظهر حرصها على البلاد وأهلها، من ناحية أخرى، لا تتردد في القيام بتنفيذ أعمال أو تدبير مخططات على هذه الشاكلة، وخصوصاً، حين تجد نفسها في وضع صعب، وتعتبر ذلك فرصة ثمينة لها، لإبراز قوتها، والإيحاء لمن معها أنها موضع ثقة بالذات، وبالطريقة هذه، يتم التنافس بين القوى الموجودة على الأرض، وضمن مساحات متفاوتة، غير مرئية أحياناً، ولا بد أن سوريا كرقعة/بقعة جغرافية في عوائد هذه المشمولات بالعنف القائم أو الموعود ضمناً، إن الإشارة التي تقول في هذه النقطة وهي، أنه قد (خيّم على سوريا في الفترة من أواسط 1928 وحتى نهاية 1935 ظل كساد اقتصادي متداول لم يكن صنّعة الفرنسيين أو السوريين بل كان امتداداً للأوضاع العالمية)⁽¹⁾، تأخذ موقعها في سلم الإشارات التي يتقاسمها التاريخ والجغرافيا، ويلوّنان فيها من خلال وطأة الضغوط وهي اجتماعية وسياسية واقتصادية ونفسية...، عدا عن كيفية ممارسة هذه الضغوط لمهامها، وكأنها قوى واعية، وماذا تستهدف، وما في ذلك من صدمة الجاري.

وبالمقابل، فإن ما يجري أمام أعيننا الآن في الوسط الكردي يعلّم ويفهم، وهذا هو درس التاريخ البليغ والموجع، ومن قبل أيد تكمن مهارتها في القيام بأعمال بليلة وتخريب وترويع للأهالي بصيغ مختلفة، دون أن تكون بعيدة عن متحالفين معها، أو داعمين لها، ولا بد أن الكرد كلما أظهر تفوقاً في زمان ومكان معينين، حتى يبادر من لا يريد لهم ذلك، إلى التغلغل في الداخل، أو تحرّي نقاط القوة التي تعينه، ومن ثم تمكّنه لأن يحول النصر إلى هزيمة، والفرحة إلى فاجعة.

كان يحدث ذلك في الوقت الذي علينا أن نكون على بينة تامة هنا أيضاً، وهي أن ما كان يجري، كان يشغل أمكنة يشار إليها، أو تُرسم إعلامياً أو دعائياً تبعاً لتقديرات المتنفذين، حيث أغلبية الناس تعيش حياتها اليومية روتينياً، وأمّية تكون، بمقدار ما تكون في حالة تبعية للذين يتولون أمورها، بمقدار ما يكون التحكم ملحوظاً بهذا المنوال هذا.

(1) لونغريغ، ستيفن هامسلي: تاريخ سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ترجمة: بيار عقيل، دار الحقيقة- بيروت، ط1، 1978، ص 231.

في الإطار نفسه، ما كان يضاعف من حدة الأزمات، هو الوضع العام في المنطقة، كما نوهنا في البداية، والقوى التي كانت تتشكل وهي تدفع بالعالم نحو حرب كونية: مدمرة، أي الحرب العالمية الثانية، وهي لم تكن منفصلة أبداً عن مجمل السياسات الاستعمارية والامبريالية في العالم أجمع، وما كانت تمارسه من وسائل إرهاب وتخريب للعالم بقصد نهبه في الجهات التي استعمرتها أو تستغلها، وما كانت تؤدي إليها في سياق تنافسات على مناطق النفوذ، وهي في طريقها «تخلق» أرباباً محليين، ومرابين، وسماسرة، وتجاراً رسميين وراء أعمال ليست حقيقية، وحتى جماعات تتعرض لابتزاز هذه القوى الاستعمارية، وهذا بدوره يؤدي إلى مزيد من التأزم، والانضغاط على المجتمع بعينه، فلا يكون هناك استثناء لأي جهة جغرافية: مدينة كبرى، صغرى، ناحية، أو قضاء، أو قرية، أو أي رقعة جغرافية، إلا وتكون في مرمى مطامع القوى تلك، أو الساعين إلى نهب المكان بمن فيه، باحتوائه، أو بتلغيمه من الداخل إن لزم الأمر طبعاً.

الحس التاريخي:

من خلال عبارة مقتطفة من قول للشاعر الانكليزي إليوت، وهي «الحس التاريخي» وهي تعني الزمن واللازم، ما يمكن الشعور به كوقت، وما يكون خلاف ذلك، لأن هناك ما يجري ولا يُشعر به، تحدث إدوارد سعيد عن مشكلة الحس التاريخي، وكيف تكون مشكلة، أو لماذا الحس التاريخي يكون فاعلاً في الزمان والمكان، وفي مقطع مهم، بقوله عن (إن استثارة الماضي هي بين أكثر الاستخطاطيات شيوعاً في تأويلات الحاضر، وما ينفح مثل هذه الاستخطاطيات بالحياة ليس الخلاف على ما حدث في الماضي وما كانه الماضي فحسب، بل هو أيضاً اللائقين مما إذا كان الماضي ماضياً فعلاً، منتهياً ومختتماً، أم كان ما يزال مستمراً لكن في أشكال قد تكون مختلفة، وتنفع هذه المشكلة بالحياة أنواعاً شتى من المناقشات- حول التأثير، وحول اللوم والمحاكمة، وحول الوقائع الراهنة والأولويات المستقبلية)⁽¹⁾.

كما تقدّم، كانت سوريا مقبولة بالمواصفات الأقليمية والخطاطة التاريخية المعدة لأن تكون «عضواً» وبالإكراه في دوامة هذا العنف الجغرافي والديموغرافي من

(1) سعيد، إدوارد: الثقافة والإمبريالية، نقله إلى العربية وقدم له/ كمال أبو ديب، بيروت، ط1، 1997، ص 75.

خلال عملية قلب المكان على أهليه، ومن ثم لأن يصبح المكان مصيدة لهم ومصدر لعنة، ومن ثم مسوَّغاً لملاحقتهم وايدائهم ووضعهم في صورة أن هذا الذي يتعرضون له إنما مرتجعه هو المكان، سوى أن الشعور أو الحس التاريخي بالمكان، كما هو مقدَّر، لا يعلمنا حرفياً بما هو مدوَّن داخله، إنما مصدره إحياء على وقع العنف الجاري أو المنفجر، أي يرجع تحميل الآثام إلى أهليه بالمكان، والعملية برمتها محمَّلة، أو لا داخل لها لا بالمكان ولا بالسكان، سوى أن قوى متعددة: داخلية وخارجية، لها شبكة قوية، هائلة، تبحث دائماً عن صور مطلوبة لزيائن محليين، وإقليميين، ودوليين ضمن شراكة ينتشي بها خاصاً أولئك الذين كانوا يحلمون بالحد الأدنى من ذلك.

والجزيرة «السورية» وفي المتن عامودا، كانت مدينة مطلوبة برأسها وجسدها لأن تؤدي هذا الدور، من خلال موقعها الجغرافي: لصق الحدود «التركية»، وفيها نسب من الديموغرافيات السكانية بتفاوتاتها الاقتصادية والاجتماعية، والأهم: الأثنية والمذهبية، بحيث يُتوقَّع أن أي عبارة ترد من الخارج، تفسَّر كما تؤوَّل في ضوء علاقة معينة، حتى داخل الخانة الأثنية والمذهبية الواحدة، بسبب مؤثرات تاريخية مارست تقسيماً حتى في الجغرافيا الواحدة رغم صغرها طبعاً.

وما شهدناه حتى الآن في عامودا، وكيف أصبحت مدينة مستهدفة بكل من وما فيها، وكانت قبلئذ هادفة ومسموعة في صوتها واعتبارها ذات مكانة، أي حيث تعرضت لأشكال عنف مدمِّرة أصبحت علامة تاريخية كبرى في ذاكرتها.

لا شيء من لا شيء، إنما هو التالي:

شيء من شيء.

جزء من الشيء من الشيء كله.

شيء من جزء من الشيء كله.

كل شيء مقابل كل شيء...

على المستوى المكاني والزمني، هذه النسب التي لا يمكن النظر فيها وحسابها رياضياً تماماً، لكن الذي أعلمنا به حتى الآن، يفضي بنا إلى طرحها «أي النسب» واعتبارها مهمة جداً بالنسبة إلينا، فالقوى الاجتماعية لا تعدو أن تكون نسباً في القوى العامة على الأرض، وهي بشرية، ولكنها مادية ومعنوية: مدمِّرة ومعمِّرة، كما أنها قابلة لأن تعمَّر أو تدمَّر، وينسب متفاوتة أيضاً هذه المرة، وضمن مساحة جغرافية فاعلة في

هذه العملية، وما تضمنته من قوى أمّنت عليها لأن تكون المدينة التي تتفجر، والمدينة التي تصب عليها النار، والمدينة التي يكفر بها أحياناً، جرّاء سجل أهوالها .

في الإطار المنطقي «لا شيء من لا شيء»، إنما هناك «شيء» أو «جزء من شيء» نظير «جزء من شيء أو أكثر»، وفي عامودا وجد هذا الشيء وجزءه، أي ما يدفع بها لأن تكون الحلبة والهدف .

غورغاس في كتابه النفيس عن الحركة الكردية، يتعقّب هذا الأثر «المفجوع» تاريخياً منوهاً إلى أن الذي حصل، ربما كان عليه أن يحصل بسبب الضغوط القائمة (كان للصراع بين الاستقلاليين الذاتيين والوحدويين عواقب محلية في العلاقات بين طوائف الشمال السوري. فالتوتر بين الجبهتين أثار تدهوراً في العلاقات الكردية المسيحية، إضافة إلى النزاع بين القبائل الكردية والعربية، استقلاليين ذاتيين وقوميين، للاستحواذ على الأرض. ص 123).

تبعاً للمقارنة بين القوى الرابضة على الأرض، وكيفية تشكيلها، وتشكيلها بالرموز، حيث لكل منها رايتها، وما يميّزها عن سواها، يمكن لنا أن نزداد معرفة بخلفية ما كان يجري، وما يمكن أن يجري، على صعيد إيجاد أزمة واستبقائها كما لو أنها هي الأساس لما عداها، فلا يفكر خارجها، إنما داخلها، باعتبارها أزمة وهي تتفاقم أو تدار بطرق شتى، إجمالاً، على النقيض مما نتلمس من مساع لتطويقها، وشعور أطراف كثيرة على أن الذي يعيشونه يمكن التفاهم عليه وهو متأزم، أي من أوجد بذور الأزمن وزرعها واستتبها ورعاها وحماها واهتم بها : حصاداً وتوزيعاً وإشراف «تناول» .

ما هي القوى التي تداخلت وكان في وسعها أن تكون في مستوى الحل للأزمة وليس لفكفكتها؟ يقول غورغاس مستدرِكاً ما تقدم (.. نشأت في عامودا وفي القرى المجاورة حركة لأنصار القومية السورية. وقد انحاز الزعيم الكردي سعيد آغا من دكورية وزعماء آخرون لأقسام من قبائل ملييس وكيليكييس إلى دمشق وأيدوا مرشح الكتلة الوطنية دهام الهادي. وقام رؤساء دينيون من المنطقة بحملة دعاية إسلامية ضد السريان الأرثوذكس في عامودا، بلدة مرشح الاستقلاليين الذاتيين سعيد إسحاق، وكانت انتفاضة 1937 التي قامت في الحسكة والقامشلي قد مهدت لثأر أنصار دمشق. فقام سعيد آغا وحلفاؤه بإخافة المسيحيين بإطلاق تهديدات مصحوبة بإطلاق للنار. ص 123).

قد لا يتطلب المشهد المكاني أو العمراني والاجتماعي تقييماً عاملاً لما جرى، وإنما ما كان سبباً لما جرى، أي ليس تأييد طرف دون آخر، وإنما ما أوجد هذه الأطراف وهي متغايرة أو متنازعة، كما لو أن ليس من مكان موحد يعنيها جميعاً. إن كل صور الاصطفافات تعني أمراً واحداً، هو أن ثمة تسرباً لتلك الطاقة العقلانية التي تعني ضبطاً للنفس، ومن ثم توجيهاً للنفس هذه صوب ما هو عام، والذي يعني الحيلولة دون الوقوع أداة في يد دون أخرى، ومن ثم، فإن النظر إلى ما كان وتمجيد أو تحسين هذا أو تقبيحه أو تأثيمه يعني جواز التصرف على النهج ذاته، أي وجود استعداد مماثل لما كان.

وجه في العاصفة:

ومن الطبيعي جداً، أن من يشعل النار، يحتاج إلى وقود لها، وإلى من يجب أن يحترق فيها، ومن ينتشي بصورة الحرق مادياً ومعنوياً، وهو ما يذكرنا في الحال بمغذّي النار ومن أي نوعية يكونون، وأين ومع من يصطقّون؟ ونشطت في المقابل، تجارة السلاح وتهريبه في تلك المناطق بدءاً من أواسط تموز/يوليو، وتوجه هذا السلاح الآتي من حلب، ومن القبائل البدوية في تدمر، ومن العراق إلى منطقة عامودا، وأضيف إلى الإعداد للهجوم القومي في عامودا، نقل الكرد «الجياغ» المستخدمين في دير الزور، في أشغال شاقة «حملة مياه»، ليشاركوا في نهب المدينة.. (ص124).

يمكن لدارس الجهات الجغرافية أن يحدد نوعية السلاح، ومن هم الذين يولون أمر تأمينه أو توريده وإيصاله إلى هذه المدينة التي انتكبت، بمقدار ما يمكنهم التعمق في المخطط له، بغية استنزاف المدينة بكل قواها وامكاناتها كذلك.

نقطة الانطلاق: حلب أو: تدمر، أو: العراق، تعني وجود أكثر من قوة مدمر لقوى لا يراد لها أن تكون معمّرة أو معمّرة، ودون أن يكون «نصر» مقابل هزيمة، وإنما تصفية الجميع بالجميع، أي ما يبقى السيّد والمسيطر هو الخصم والحكم في آن واحد(بعد ثلاثة أيام من الأحداث التي افتعلها القوميون، عاد المسيحيون إلى المدينة لإحراق الحي الكردي انتقاماً لقتل سعيد آغا أربع رهائن مسيحيين وجدت جثثهم ممزقة ومحروقة على الحدود. ودفع القمع الفرنسي معظم الزعماء المتورطين إلى الاستسلام للسلطات المنتدبة....كان عند مسيحيي عامودا شعور بأنهم ضحايا دسائس فرنسية، رغم تقاطع الاتهامات المتبادلة بين القوميين العرب السوريين

والسلطات المنتدبة..... لكن، ثمة تقرير سرّي لقوات المشرق يعترف ببعض الخروقات: «لم يكن جهاز المخابرات التابع لنا على المستوى المطلوب...إني أعتقد، أن كلاً منهم يقوم بأفضل قدراته، لكن هذا الأفضل لا يلبي حاجتنا الراهن. ص126).

إن مزعم ضبط الأمن، ليس مقولة أمنية في الحالة هذه، إنما نفي مباشر لها، حيث إن مقولة «العملية نجحت لكن المريض مات» تحضر هنا بكامل بلاغتها وفاجعتها: من أرادوا كارثة، ومن تابعوها هكذا، ومن حاولوا معالجتها، أو ضبطها، ومن ثم محاولة «ملاحقة» «المسؤولين» عنها توقيفاً ومحاسبة ومحاكمة، فلا يكون هناك أي منتصر إنما مهزوم.

وهنا علينا أيضاً أن نوجّه بأبصارنا إلى «أمانة العاصمة» ونوع الأمانة فيها، ومسئوليتها عن ذلك، وهي محكومة بسلطة الكتلة الوطنية، وأي وطنية يجري «بخها» الذي يعمي الأعين إجمالاً، وموقع سلطة الانتداب في اللعبة (فالنزاع بين دمشق والسلطة الفرنسية تزامن مع النزاع بين دمشق والأقليات. لقد بدت الكتلة الوطنية في مواجهة هاتين الجبهتين المفتوحتين، عاجزة عن تأمين سلطة حكومة دمشق في الجزيرة، فأعطت لفرنسا الفرصة لفرض سلطتها المباشرة على المنطقة منذ تموز /يوليو 1939، منعاً لبقائها في حالة فوضى. ص127).

إنه شيء من شيء، والإيحاء بلا شيء من كل شيء، وهو ليس أي شيء، حيث ينعدم أي أثر فعلي لهذا الشيء: أي جهة الكتلة الوطنية في حقيقة ارتباطها بالمجتمع، وزعم حرصها على سلامة البلد بكل فئاته، وتجنب الدخول في أي مغامرة مكلفة، كما الحال في عامودا، فقد كانت تقلقها لا بل مصدر أرق لها، جهة النظر في قواها «الكردية خاصة»، وليس ببعيد أن تكون فرنسا من جهتها تبحث عن موطئ قدم لها في المغامرة، وهي محسوبة عملياً على «الكتلة»، سوى أن الجانب المعطّب من الشعور «الوطني» فيها، هو الذي دفع بها إلى التنازل عن صلاحياتها لفرنسا، ليجري حرق وقتل وسلب.

إن ما يجدر التركيز عليه في مقولة كهذه، وبناء عليها هو أن (ما يميز التاريخ باعتباره علم التأمل العقلي، هو رؤيته الأحداث باعتبارها تعبيراً عن عملية فكرية في العقل، لا عملية سببية فيها مسبب ومسبب. لهذا، على التفسير التاريخي أن

يأخذ شكل استرجاع تفكيري لا تعميمات استقرائية⁽¹⁾، أي حيث يمكن التوقف عند أي مقولة مما سلف، وكيفية استبصار ما هو بعيد عن النظر المباشر، بالذهاب إلى البعيد، لتفهّم أمر القريب، ففي موضوع الكرد وكيف يتحركون فيما بينهم، وبالنسبة إلى بعضهم بعضاً، ومع الآخرين، ومن هم هؤلاء الآخرون، وأين ومتى وكيف، من الواجبات المعرفية التاريخية التي تسهم في تكون ما يشبه السيستم الفكري للتاريخ بالذات، ودون أي ممارسة قطعية في كشف المسمّى.

بالنسبة لحاجو آغا، كما نوّهت، لا أعلم كل ما كان يقوم به، ومع من كان يلتقي في الأمور المصيرية، وبشكل دقيق، وما الذي كان يجري بينهما وكيف...؟ ولا أظن أن هناك كتاباً، يمثل مرجعاً شاملاً يعنى بذلك، سوى أن الذي أعلم به في حدود المتابعة التاريخية والاستعانة بنوع من التجريد العقلي، لا المسح العاطفي للبحث، هو أنه كان فاعلاً في محيطه، يحسب له حساب حتى وهو في حالة غياب، لأن الحضور الذي مثله، لا يخفي نوعيته في مدوّنّة الجزيرة «السورية»، على الأقل، أما على مستوى سوريا عموماً، فهو غير قابل للتحديد، لكنه معتبر، بالنسبة لمن تعرّضوا لهذا الجاري، كما في حال من تطرقنا إليه في أكثر من نقطة «باروت، مثلاً حياً هنا» وسوف أتوقف عنده لاحقاً، وغورغاس في العديد من النقاط ذات الصلة المباشرة بهذه التركيبة الجغرافية وكيف يواجه الجزء بالكل، أو يغدو الكل آخذاً بأهمية الجزء، وكيف يصعد كلاهما إلى مستوى الفاعل والمفعول التاريخي به، وينسب تختلف تبعاً للمستجد والقوة القائمة والخفية أيضاً.

في صيغة تستحق النظر فيها، وهي تمثل بصدد هذه النقطة، يقول غورغاس عن الكرد ممن كانوا يعرفون بالهجرة البدائية، وتحولاتها وتأثيراتها المحيطية على مستوى تفعيل الأثر السياسي (وإذا تركنا جانباً الوجهاء، فيبدو لنا، بصورة مختلفة، تمسك المهاجرين الكرد بجماعتهم المنتشرة في العديد من البلدان. والواقع، أن متاخمة الجاليات الكردية في الشمال السوري لتركيا يتيح للمهاجرين الكرد إقامة شبكات عابرة للحدود، رغم الترسيم الجديد لها، وضعف وسائل الاتصال في تلك الحقبة، فالقبيلة، والعائلة، والطريقة، تشكل وسائل عديدة

(1) فرّو، قيس ماضي: المعرفة التاريخية في الغرب «مقاربات فلسفية وعلمية وأدبية»، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط1، 2013، ص 45.

للحفاظ على العلاقات مع البلد الأصلي. وعزز التهريب عبر الحدود التركية السورية والسورية العراقية، الحركة الرافضة لمفهوم الدولة، ووطد علاقات كرد سوريا مع كرد تركيا ومع كرد العراق أيضاً. (ص133)⁽¹⁾.

في بنية الصيغة، ما يمكن التشديد عليه، وهو أن «تَرَكَ الوجهاء جانباً» لا يعني بأي صورة من الصورة: تنحيهم جانباً، كما لو أننا نقوم بتجربة مخبرية، وما في ذلك من التحكم بالمادة الخام، وجعلها علمية، حيث إن المعيش هنا فوق السيطرة، لأن أي حديث عما يتلو يستبقي الوجهاء في تأثيراتهم، وكونهم هم في مقام أفعال نابعة من مكانتهم وتواجدهم في هذه النقطة الجغرافية، والحدودية أحياناً، فلا يعود الكرد المتاخم للحدود ببعيد عما يكون عليه الوجيه الذي له مرجعية اعتبارية، أما من حيث الفكرة، فهي صائبة، ولكنها بدورها تتطلب إثارة داخلية، لرؤية كل تم تقسيمه، أي حيث مورس التقسيم القسري على الأقل منذ خمسة قرون وفي رقعة جغرافية، لم تعد قابلة للاختلاف أو الخلاف حولها «كردستان»، لم يعد في الإمكان التفاوض على هذا وجودها أو عدم وجودها، كما يتصرف المعنيون بالكرد باعتبارهم أكراداً، أو أقليات هنا وهناك، وأحياناً، دون التوقف عند عبارة «الأقلية الكردية» بتجاهلهم، وبالتالي، فإن الذي لا يعلم به المهاجر الكردي، وإن لم يتطرق إليه، أو يسميه لا يعني أنه لا يعيشه، فهو ليس كردي سوريا أو العراق أو تركيا أو إيران، إنما الكردي الذي صودرت منه كريدته،

(1) في رد بليغ، كما أرى، يورد الرحالة والكاتب الهولندي مالبيرد قوله زعيم عشائري كردي في سؤاله عن الحدود، وماذا تمثل له، أو حتى للكرد الذين يحتكون بها، في كتابه: نواحير الفرات أو بين العرب والأكراد، ترجمة: حسين كبة، مطبعة الرابطة، بغداد، 1957: () ولقد سألت أحد رؤساء الأكراد مرة، فيما إذا كانوا يجراؤن أن يعبروا الحدود العراقية إلى إيران لرعي ماشيتهم فكان جوابه، وهو يتكلم بلهجة الوثائق من نفسه، إن الأكراد لا يعرفون من حدود الأراضي شيئاً غير الحدود التي رسمها الله في أرضه، وهي السلاسل الجبلية، التي لا يمكن الصعود إليها، أو المياه التي تتدافع من الجبال، فلا يمكن اقتحامها. والكردي الذي ولد وعاش في المناطق الجبلية، لا تصده هذه العقبات، وقد يحاول اجتيازها. (ص62).

هذا الجواب لا صلة له بالسياسة كما تقيم، إنما تجسد الصفة الحيوية والروحية للقاتل، بمقدار ما تمضي بنا إلى الرفض العميق لأي حدود توضع أو ترسم هنا وهناك، بمقدار ما تترجم الثقافة الجغرافية التي يعيشها هذا الزعيم وغيره حدودياً، وتحديه لأي قرار يحول دون حرية تحركه، فتكون الحدود اعتراضاً على وجوده الذي يعرف به، وعلى الذين يلتقيهم وقد أصبحوا أهله، أقاربه، ومعارفه.... الخ.

أي يعيش كردستانياً، وإن لم يفلح في صوغ تعبير فلسفي مكاني: أنا كردستاني، سوى أن تفاعله مع أي كردي في واقع الأمر، حتى وهو يؤذيه، يسجل له اعترافاً بوجود كردي في الجوار، وهو ليس حدودياً، إنما من أقام حدوداً، ومن هذا المنطلق، فإن رافض الدولة بحدودها المرتسمة سياسياً، إنما يعيش تشبثه بالحدود التي يعلم بها بفطرة تاريخية، فالدولة المقامة وضعية اغتصاب، ولا شرعية مكان، ونهب المكان داخله، كونه يعيشه بروحه، وبذلك لا يكون المهرب الكردي نفسه مجرداً من روح الانتماء الكردية، حيث يجري التركيز على أن الذي يهمه هو ما يحاول كسبه، هذا صحيح، إنما غير دقيق، فالمهرب يتعامل مع كردي مثله في الطرف الآخر، والمصطنع، وهو قد يكون قريبه المباشر، أو بات في حكم القريب أو الصاحب، وثمة لغة تجمعهما، وأن الحركة العكسية «من- إلى» أو «إلى - من» تلغي أحادية الحدود، أو الجغرافيا السياسية المقام، ويكون المهرب بفعله في مقام المتمرد على قانون يتحدى الطبيعي فيه.

حدود وقيود:

ذلك ما يفهم من نفسية الكردي حين يتذكر الحدود، وهو مجاورها أو قريب منها، أو أبعد عنها بقرار إكراهي، وفق خطة سياسية، تقديراً من أن إقصاءه عن الحدود المرتسمة سعي إلى نسيانها أنه كان له حدوده الخاصة، وأن حدوداً أخرى ألغتها، أي ألغته هو بالذات، لكن هذا الإجراء اعتراف بمعضلة السلطة المستبدة بالحدود والتي تفضل في التأكيد على أنها أنجزت المطلوب ودون عواقب أو تداعيات، والدليل أن الكردي رغم كل المحن يُسمي حدوده لا تلك التي أحكم بها.

ولعل الذي تقدّم به جويده في أثره النفيس تاريخياً، يظهر فاعلية العلاقات المستجدة، وقد سبق غورغاس في إضاءتها، ولو بإيجاز، فموضوعه كردستاني، ورغم وجود تفاوتات في المكاشفة الجغرافية والمقاربة التاريخية نقدياً لجهة جغرافية دون أخرى، والجهات تعني كردستان، رغم أنه سلط الأضواء على جهة أكثر من غيرها، ربما لأن إمكاناته وظروفه تدخلت في وضع كهذا، فإنه على وجه العموم، يمثل شخصية المؤرخ وناقد التاريخ في آن على مستويات عديدة.

فهو حين يتعرض لتداعيات توقيع الاتفاقية المبرمة بين فرنسا وسوريا سنة 1936، لا يسمي الأشياء كما ينبغي، أو هكذا يُفترض، كون الاتفاقية كانت تعني

مد بساط السلطة المركزية على كامل الجغرافيا السورية، والتي لم تكن يوماً حينها محكومة بها، إنما كان للفرنسيين حضورهم، والأمر الآخر، هو أن دوراً كبيراً للکرد أنفسهم في جعل الجزيرة التي تسمى بـ «الجزيرة السورية العليا» كما يتوقف عندها منظّرو القومية العربية، أو البعث، يتجاهلون دور الكرد في الحيلولة دون احتوائها تركيا، الجزيرة التي تشمل المحافظات ذات الموقع والمكانة في سوريا: الرقة، دير الزور، الحسكة/الحسجة، وأن الجزيرة على الأقل كانت الأكثر دوراً في اللعبة، وفرنسا حرصت عليها من باب المصلحة، ورفض الاتفاقية هو في باب رفض السلطة المركزية، وما يعنيه ذلك من إعفاء للشخصية «الجزيرية» بكل مكوناتها الاثنية بالذات، وهنا تبرز مقولة «الانفصالي» كما أظن، أي الرفض لسلطة قادمة من دمشق وبالقوة، بحيث يصبح ابن المكان تابعاً، ومأموراً حتى في عمله ومحكوماً بالآخر، رافضاً للوطنية السورية، التي تغلب سلطة الجزء على الكل، والجزء الوطني ليس أكثر من حيلة القوة بمفهومها السلطوي إذ تسعى إلى اعتبار محتواها لأجل «الكل، والكل هذا بالمقابل غير منسجم، فنسبة الرفض لهذه «الوطنية» الممثّلة في «لوغو» سياسي للكتلة، لا تتوقف على الكرد أنفسهم، بل حتى على نسبة من العرب ممن كانوا يتعاونون مع فرنسا، شعوراً منهم أنهم أقرب إلى المكان وأكثر تألفاً معه، فيما لو قدمت سلطة بممثليها من «البعيد»: دمشق، وهو شعور عميق يجب ألا ننساه البتة، وفجواه، أن هذا الرفض لا يخفي جانباً تكتلياً، وهو أن القادم من دمشق بطاقمه الإداري أو القانوني، وبجهازه السلطوي، وبأسلوب خاص به، يحمل معه نظاماً لا ينفصل عن صورة الجزيري إلى العشيرة وحاضنتها القيمية وبعدها الزعاماتي، وكأن هناك فرضَ زعامة عشائرية من الخارج، ومحواً للمحلية، وتكون شخصية الكردي في الواجهة، ومنبّه الآخرين إلى الخطر المحدق بطابعهم الاستقلالي ذاك. نقرأ ما دونه جويده تحت عنوان لافت، وفرعي جداً «الاضطرابات الكردية في الجزيرة في عام 1937»: (سرعان ما تفاقم التوتر في منطقة الجزيرة بعد التوصل إلى إبرام اتفاقية فرنسية سورية عام 1936، حيث وفاقاً لأحكام تلك الاتفاقية، سيتم استبدال الموظفين الرسميين الفرنسيين في الجزيرة بسوريين، وقد عبرت أقسام مهمة من السكان، بتشجيع من الموظفين الفرنسيين الرسميين المحليين، عن سخطها ضد هذه الخطوة، وطالبت، كحد أدنى، بأن يعيّن الموظفون المحليون، من بين السكان المحليين،.. عاد كرد

الحسكة لاستئناف العنف في الجزيرة في حزيران /يونيه، عام 1937، بسبب تعيين سوريين من خارج المنطقة، وقد تم إخماد هذه الاضطرابات بمساعدة القوات العسكرية الفرنسية. وبعد ذلك بوقت قصير، استأنف مسيحيو القامشلي ومراكز أخرى في الجزيرة الاضطرابات التي جمعت بين العنف ومطالب من أجل نظام إداري خاص، يضمن حقوقاً متساوية بغض النظر عن العرق أو الدين.

وما يهم أكثر، هو التالي في قوله:

أفسدت هذه الاضطرابات التي بلغت ذروتها في آب/أغسطس، عام 1937، بصدامات طائفية، قتل أتباع شيخ كردي موال للحكومة عدداً من المسيحيين من عامودا، استدعت قوات فرنسية لإخماد الاضطرابات واستعادة النظام. لكن الاضطراب استمر من أجل نظام منفصل في الجزيرة. ووقع عدد من الأحداث، بلغت أوجها في كانون الأول/ديسمبر، عام 1937، باختطاف حاكم الجزيرة، قامت مجموعة انفصالية من الحسكة. في غضون ذلك، انخرط الكاردينال تبوني، رئيس الكنيسة الكاثوليكية السورية، بنشاط في تشجيع قضية الانفصاليين في باريس وروما، لكن هذه المرحلة كانت عابرة، وقبل أن يمر وقت طويل عادت الأمور إلى طبيعتها. (ص 354).

تلك واقعة تاريخية، مشهود لها، ومعيشة في نفوس أهل المكان، وكانت محل تداول حتى الأمس القريب من قبل المعمّرين، لا بل ربما الآن من يمكنه أن يسرد على مسامعك وطويلاً، جوانب من تلك الواقعة، وبطريقته، ولكل راوية أسلوبية، ونظرتة، وموقعه، وما إذا كان كردياً، وأي كردي، ما إذا كان عربياً وأي انتماء قبلي له، ما إذا كان سريانياً وكيف يقيّم ما جرى، وما تعنيه عبارة «متعاون مع الفرنسية» محل خلاف واختلاف إلى يومنا هذا، حيث لا بد أن دعاية الكتلة المركّزة لعبت دوراً كبيراً في ترسيخ فكرة ضالة ومضلّلة بمحتواها، أي: الانفصالي، والتي تشكّل إدانة مباشرة لكل من ينادي باستقلالية معينة، حتى اللحظة، وأن عبارة أخرى، لا أحسبها بممكنة النسيان، يمكن أن تثير شعوراً بالامتناع، لحظة تسمية أحدهم نفسه بدمشقي قبل غيره بأنه من الحسكة، أو قامشلو، فيعقّب «جزراوي»!، وهو تعقيب لا يخفي ريبة، أو إدانة، تشير إلى مدى إلحاق الابن بالأب، أو الحفيد بالجد، ومن ثم ما في هذا الانطباع من وجود ثقافة معدّدة أو مفبركة جيداً، من قبل أنصار الكتلة، والطابع القبلي الآخر، رغم كل الإطناب في الذهنية

التجارية، أو الحداثية للعبارة/الاسم «الكتلة الوطنية» كمحاولة اجتهادية، مناوراتية، مخاتلة لضبط الأوضاع، رغبة في تسيير لغة الأطماع الاقتصادية، خصوصاً وأن الجزيرة وقد أصبحت بحكم السلطة الفرنسية ومكوناتها الاثنية ضمن حدود سوريا السياسية، باتت ممكنة لأن تدار من قبل دمشق أو أي قوة تأتيها من الخارج، وما في ذلك من استهانة بأهل المكان، وحساسية الدائر في المكان، إذ كيف يمكن لإداري لم يبصر قامشلو مثلاً في حياته، ويصبح مسئولاً إدارياً أو غير ذلك من المناصب الحساسة، إلا بلغة الهيمنة أو الإكراه، وتلك سياسة أقل ما يمكن القول فيها أنها تترجم الروح التفرغية للروح الفعلية، تلك التي تجلو هوية مسئول الكتلة، وبالتالي، فإن تهمة «الانفصالي» معكوسة، أي هم من يكونون انفصاليين، على مستوى القيمة التاريخية للمكان، ليس لأنهم يتشبثون بالمكان حباً به، إنما بمصالحهم، وبالتالي أيضاً، فإن الانفصالية المقدمة هنا، هي تحويل سكانها الأصلايين إلى غرباء عن موطنهم، فيصبح أولئك «الكتليون» في مقام من يمارسون الانفصالية جرّاء شرح كبير، وهو تاريخي، وأصبح جغرافياً، مفعوله لما يزل في اضطراد.

وعلينا هنا النظر في مدى جبروت الكتلة الوطنية وصلاحيات القوة القابلة للاستعمال، وأن ليس من اليسير بمكان مواجهة امتيازات القوة تلك، وكون هذه القوة المرتسمة «هبة» فرنسية، بأكثر من معنى، وليس لأنها استحققتها، جرّاء موقف «وطني» وهي متمسكة من حيث الجوهر بمصالحها الخاصة، وبالتالي فإن التلويح باستقلالية جهة ما في إدارة الأمور كان مغامرة أو مجلبة للكثير من العواقب، حتى على مستوى الشارع العام، ومن قبل معنيين بها⁽¹⁾.

(1) مثال ذلك، محاولة إقامة « حكومة الحسكة قريو- مرشو 1936»، مقال خالد عيسى، منشور في موقع «كلكاش» الإلكتروني، بتاريخ 9 مارس 2010، فحواه، أنه (في عام 1936 أعلن المندوب السامي الفرنسي مسيو بيو «PIAW» قيام دولة طائفية في شمال سورية أطلق عليها «الحسكة حكومة قريو- مرشو»... والقليل هم الذين يعرفون قصة قيام هذه الدولة التي هاجمها آنذاك الأمين العام للحزب الشيوعي المرحوم خالد بكداش في كتيب صدر عن الحزب يحمل عنوان «ماذا يحدث في الجزيرة» رافضاً تقسيم سوريا وقيام دولة عمادها الرابطة الدينية.

وكان وراء فكرة هذه الدولة ضابط آشوري مجنس فرنسياً، بعد فشل ثورة الأشور في العراق عام 1933 وهجرتهم إلى سوريا عبر الحدود الشمالية الشرقية... فكان لا بد من شخصية أرثوذكسية تشارك في الحكومة، فتم إقامة حكومة الحسكة قريو- مرشو، وإنشاء محكمة مستقلة عن العاصمة دمشق، وكذلك أحدث مركزاً مستقلاً للدرك بقيادة فرنسية وضباط

ثمة ترتيبات، تكون في غاية الفائدة ولصالح اسم العلم الشخصي لحاجو آغا والذي لم يعد يعنيه كفرد، ومن خلاله، وإنما كشخصية اعتبارية محل ثقل توجه

فرنسيين. فكان الرفض القطعي لهذه الدويلة من قبل البطريرك مار أفرام برصوم ، بطريرك السريان الأرثوذكس لانتاكية وسائر المشرق والعالم في الفترة المذكورة ، وقد اتصل بعبد الاحد قريو وقال له بالحرف: إلى أين تأخذ السريان نحن عرب منتمون لهذه الأمة «إنت شو عم تعمل» الأمر الذي اضطر «قريو» لإبلاغ البطريرك بما ينوي القيام به وبقي الأمر سرا بينهما حتى موعد إسقاط الدولة. وفيه بلغه بضرورة القبول المرحلي مخافة أن تسلم مقاليدها لمن هم قانعون بقيام مثل هذه الدويلة ويصبح من الصعب إسقاطها .

ما يجدر ذكره هو أن قسوة الظروف الاجتماعية التي كان يمر بها مسيحيو المنطقة، خاصة وأن المذابح التي تعرضوا لها من قبل العثمانيين، لم تكن بعيدة العهد، وهي التي توقفت عام 1920 فكان الرد الفرنسي على ما حدث نفي مرشو وقريو إلى بيروت.» .

إن قراءة المدون هنا، تفصح عن ضريبة المواجهة، وتخيلُ عنف الآخر، خصوصاً في ضوء الجرح الأرمني أو السرياني النازف، وغير المبرأ بعد حينذاك، وتوقع أطراف منه ما يعمق في الجرح. وربما أمكن التذكير بجهاث ردعية سريعة في الحكومة، وأهليتها لاستعمال العنف الفارض ضد المعتقد أنه يسعى إلى تقويض سلطة الدولة، على الطريقة النازية أو الفاشية في التنظيم، ومن ذلك ، وثيقة من وثائق الصراع على الجزيرة عام 1937 - 14، منشورة بتاريخ 22-9/2009 ، في «كلكاش» لخالد عيسى، وباسم الشاعر السوري المعروف كان فخري البارودي، حيث، قد شكل تنظيم القمصان الحديدية التابع للكتلة الوطنية؛ على غرار التنظيمات الفاشية التي كانت منتشرة في أوربة في تلك الفترة؛ وكان ينشر هذا التنظيم الرعب في صفوف معارضي الكتلة، حسب تقديم المترجم .

مقابل ذلك، ينظر، مثلاً، وقوع حادثة شجار اهتزت لها دمشق، بين تضامن الكرد في مواجهة آل عكاش، بعد توقيع الاتفاقية الفرنسية- السورية «1936» بسنة، وتدخّلت قوى عليا لحسم الموضوع، كما ورد عن ذلك في وثيقة ترجمها خالد عيسى أيضاً، ضمن عنوان «من مواقف أكراد دمشق»، كلكاش، في 30 مارس 2010، مع تقديم لها وإضاءة، ومن ذلك ، هذا التعليق (عقب الاعتقالات، تتعدد الاجتماعات في الحي الكردي، وخاصة عند عمر آغا شمدين، و ذلك للتوصل إلى إخلاء سبيل المعتقلين.

يسعى الوجهاء الكرد، لهذا الأمر، لدى مدير الشرطة و مدير الداخلية.
في حال الفشل، يهدد الكرد بالتظاهر، و يتحدث آخرون، بالقيام بانتقامات في حي الشاغور.

مدير الأمن العام

المفتش العام للشرطة

في دول المشرق الخاضعة للانتداب الفرنسي).

وما يجب التنبه إليه، هو أن الربط بين الواقعتين، لا يعني أن هؤلاء أكثر «مرجلة» وبالحرف، وإنما ثمة ظروف عديدة لها دورها، منها السياسية والاجتماعية إلى جانب التاريخية، دون ذلك، ثمة إهانة للتاريخ نفسه .

قومي كردي، مهما طعم بما هو مصلحي، تحديداً لحظة التدقيق في مفهوم التيارين اللذين تقاسما الجزيرة، التيار الداعم لاستقلال الجزيرة ممثلاً فيه، وسياسة المحاور والالتفافات الكبرى، التي أعتقدها ارتبطت به.

باروت، في كتابه السالف الذكر، رغم أننا سنتوقف عنده في الملحق، إلا أن إيراد مقاطع تعنيه كما تعيننا في هذه الفترة، قبل رحيله بسنوات، يشكّل خطوة تاريخية تنويرية لواقع اجتماعي- سياسي يستحق التقييم:

بالنسبة للقوائم الانتخابية في العقد الثلاثيني الأخير من القرن العشرين، وموقف حاجو منها حيث (دعم أعيان المليّة والمحلميّن وأعيان الآليان والميران والمرسينية وبعض أعيان الشيتية من الناهخين الثانويين قائمة حاجو آغا، بينما دعمت عشائر عامودا الكردية برمتها ما عدا عشيرة المرسينية قائمة الهادي، بسبب عدائها الشديد لحاجو آغا...ص412)، وهو مشهد فولكلوري في مكوناته، إنما يعطينا فكرة عن التقاربات والتنافرات القائمة حيث يتراجع القومي إلى الورا، ولو أدرجنا الأخير في ميزان الصرف الكردي، لكان على عشائر عامودا وهي الأقرب إلى «شمالها» إلى «سعيد بيران» دلالة أن تدعم حاجو آغا، وليس الشمر الذين زحفوا من نقطة عبور عراقية، ولم يدّخوا جهداً في اكتساح مناطق تواجد الكرد في المنطقة، وربما لولا مقاومة المللي- هفيران والمرسينية تالياً، لكانت عامودا «باي محمد» الآن شبه معرّبة وباسم آخر على أقل تقدير.

حاجو آغا كان أكثر من لاعب سياسي في الساحة، في لغة التحالفات التي برع فيها من خلال متابعتي لها، وقول باروت عن أنه كان (يعتبر نفسه طائياً بالتحالف والقربيات...ص412)، لا ينبغي أن يساوي ذلك تأكيد نسبه إلى «طي» إنما هو نسب تحالفي وليس ارتحاناً، وطى بدورها كانت واعية لهذا النوع من التحالف، ولو صح هذا الغمز لوجدت رجال هفيران أو آل حاجو ونساءهم وهم بالزي العربي من «ساسهم إلى راسهم» وبأسماء أقرب إلى العربية، وفي «مدّهم» العربي، ولا شيء من هذا الشيء إطلاقاً في محيطهم الاجتماعي وتقاليد لباسهم وأسمائهم.

ثمة نقطة أخرى تخص القوة الذاتية والاستثمارية المحصّلة لحاجو آغا أيضاً، في مواجهة السلطات المحلية، وحتى الرئيسة منها:

فيما يتعلق بتشديد حاجو آغا على مصداقية انتخابات النواب وفي مواجهة شيخ شمر دهام الهادي (وعاد الاستقطاب الميرير بين حاجو آغا ودهام الهادي إلى

الصدارة من جديد، وأضفى حاجو آغا عليه بعداً قومياً كردياً بوصفه قائمة النواب أنها قائمته الشخصية و «القومية»... وجاء الرد سريعاً من حاجو آغا بالقيام بـ «تمرد عارم» ضد حكومة مردم بك في حال عدم المصادقة على نتائج الانتخابات... ص 421).

ذلك يترجم قوة الحضور الشخصية لحاجو آغا وقدرته على تأكيد موقعه والذين تحالفوا معه كرداً وغير كرد تعبيراً عن اعترافهم بنفوذه اللافت.

وتجلى ذلك هذا التحدي كما يذكر باروت في مؤتمر انعقد في قرية عبيدي آغا «طوبز» لمبايعة الشيخ محمد عبدالرحمن رئيساً لعشيرة طي وليس (منافسه حسن السلیمان الذي تبناه المحافظ رئيساً للعشيرة، وهددوا الحكومة بالعصيان المسلح ما لم تقم بعزل المحافظ بهجت الشهابي وقائم مقام القامشلي ظافر الرفاعي، وقائد الدرك عبدالغني القضماني في مدة أقصاها الأول من تموز/يوليو 1937. ص 434).

أتراها مرحلة، أم مرحلة بطولية كانت تمثلت في رجال كانوا متنشطين لما هو قومي كردي واجتماعي عام؟ ماذا يعني هذا التهديد، فيما لو فكّرنا اليوم وتخيل من يقوم بالعمل ذاته ومحاولة تغيير عريف شرطة تحت الضغط ؟
أم تراها لعبة مسرحية من الحكومة لإبراز حاجو آغا بطلاً ؟

(..وليكون هناك عصيان لطرد المحافظ ومعاونية، بتحريك من حاجو في السابع من تموز/يوليو 1937 « ص 437).

وربما جرّاء هذا الضغط يحصل انقسام حتى في عشيرة شمّر، وبتحريك من حاجو في مواجهة السلطة وحلفائها (لجأ الشهابي إزاء ذلك إلى قوات دهام الهادي، رئيس عشيرة شمّر الخرصة ورئيس فرع الكتلة الوطنية في الجزيرة لتحطيم العصاة، لكن المتمردين تمكّنوا بقيادة منافسه التقليدي ميزر عبدالمحسن، رئيس شمّر الزور، مع حلفائه الهفيركيين من رد هذه القوات ودحرها ص 438).

أليس من الجدير بمكان تصوّر نوعية القوة المعتمدة في هذه المواجهة، وأين تقف خاصية المجابهة الذاتية وليس المتواطئة في وضع كهذا؟

أليس مهماً إيراد جملة المطالب المرفوعة إلى الحكومة، والتي يشدّد على نظير لها وحتى دونها مستوى؟ وذلك من خلال ما ذكره كاتب فرنسي استشهد به باروت في كتابه ذاك، حيث (إن زعماء المتظاهرين في الجزيرة وجّهوا إلى المفوض السامي

الفرنسي في بيروت كتاباً يطالبون فيه بما يلي «بما أن الجزيرة العليا على حدود تركيا والعراق، وبما أنها تتكون من عدة عناصر غير متجانسة، فإن خير وسيلة لإنصاف سكّانها هي وضعها تحت حماية الحكومة الفرنسية المباشرة، ونقل مركز القاعدة العسكرية الممنوحة لفرنسا في سورية إلى الجزيرة العليا لحماية سكانها، وأن يكون المحافظون الذين سيعيّنون فيها على معرفة بعادات السكان وتقاليدهم، كما أن يكون الموظفون من السكان الذين ولدوا في المنطقة حصراً وزيادة عدد المدارس، وإنشاء المستشفيات، وتعليم الكردية اللغة المحلية والخاصة كلغة رسمية، وتطوير الطرق ومكافحة الملاريا...» (ص 439).

ذلك ما يدفع بنا إلى إظهار مدى نفوذ حاجو آغا، حيث (شكّل ذلك اعترافاً بمكانة حاجو آغا في قيادة حركة التمرد وتصدرها. ص 441)....الخ.

إنها لقائمة طويلة تستغرق سنوات طوالاً بتداعياتها ونتائجها ذات الصلة بما كان يجري في الساحات العامة، ووراء الكواليس ومباشرة، إلا أن الذي يلاحظ أن حاجو آغا كان الفاعل في جملة هذه المستجدات، والحاضر فيها ناحية أخذ قوته بعين الاعتبار، إلى درجة إمكان القول إن ما تردّد عن طوشة عامودا «تموز 1937»، بمآلها الكارثي، لم يكن أكثر من محاولة لفت النظر إلى ثقل كردي محلي، ودونما مراعاة النتائج المترتبة من خلال عملية حرق ونهب وسلب للحي المسيحي، ثم الرد بالمثل على الحي الكردي، وليأتي الانتقام الفرنسي بالقصف بالطائرات وترويع الأهالي، لتجد عامودا نفسها منكوبة، في الوقت الذي وجد من يؤسّطرها، سعياً إلى شرعنة الفعل، ربما تأكيداً على أن الذين فجّروها أرادوا أن يقولوا: لسنا أقل استقلالية إرادة ولفّت أنظاراً، وفرض قيمة، من حاجو آغا، وهو ما لم يتحقق أبداً، إذ لو كان لحاجو رأي في المسألة لما «تطوّشت» عامودا، حاجو الذي كان يشدد على قولة: ليس منّا من يقول «خبز» بدلاً من «نان» بالكردية»، أم ترى «نانه» كان مسموماً؟⁽¹⁾.

(1) واقعة مشهورة، تلك التي شدّد عليها حاجو آغا، أي من خلال دعم من يقول «نان» بكل الوسائل الضامنة للدفاع عنه، وليس «خبز» للتفريق بين الكردي والعربي، كرد فعل على غليانات سياسية في النصف الثاني من العقد الثلاثيني للقرن العشرين، رغم أنه كان يتحالف مع قوى عربية كذلك، لكنه كان يشير إلى موقف آخر بقولته تلك، ولم أستطع التأريخ لهذه الواقعة كنقطة بداية، حيث أكّد عليها «د. بنكي حاجو» في أكثر من محادثة تليفونية جرت بيننا حول نقاط من هذا النوع.

وهل علينا أن نجدد في التشديد على أن الذي كان يطالب به في عهد حاجو آغا، ما زال يطرح نفسه بقوة الآن على مستوى كرد «سوريا»، ولعله الحد الأدنى من النصاب الحقوقي السياسي في لائحة مطالبهم: التمتع بنوع من الاستقلالية: الفيدرالية، أو نظام إدارة ذاتية في مناطقهم «في الجزيرة» إلى جانب آخرين، وغيرها حيث يتواجدون «كما في حال عفرين»، قبل كل شيء؟

تُرى، عدا ما أشير إليه في هذا المقام، ماذا نقرأ في البيان الذي صدر بتاريخ «3 تموز 1939» من قبل المفوض السامي الفرنسي، وبالصيغة التالية (أعلن المفوض السامي الفرنسي لسوريا ولبنان غبريال بيو، في دمشق، أن سوريا قسّمت إلى أربع حكومات: المركز، والعلوين، وجبل الدروز، والجزيرة، وأن الثلاث الأخيرة صرّن حكومات ذات استقلال ذاتي، ضمن الوحدة السورية)⁽¹⁾؟

(1) ينظر، البيانات الوزارية السورية ومناقشاتها في المجلس النيابي 1918-1958، تحرير: د. يوسف حسين إبيش- د. يوسف قزما خوري، دار تراث، بيروت، ط1، 2001، ص788. في السياق ذاته، يمكن متابعة أعمال المجلس النيابي السوري منذ البداية، وكيف كان ينظر إلى سوريا، باعتبارها «دولة سورية» أو «الجمهورية السورية» على نمط الجمهورية السورية»، وماذا كان يعني- مثلاً- الجنرال غورو في خطابه إلى السوريين، وهو يتحدث فيه عن (الاحترام للشعوب السورية)، في المصدر آنف الذكر، ص7، 9.

في هذا السياق، أشير إلى من يحاول التعميم على تاريخ حي بأحداثه، وأنا أشدد على ما يقال بآبن مدينة عامودا الدكتور الأكاديمي عبدالباسط سيدا، وكيفية مخالطة الحقيقة، وذلك في كتابه «المسألة الكردية في سورية: فصول منسية من معاناة مستمرة»، نسخة الكترونية، والمنشور في بداية القرن الحادي والعشرين، حيث يتجاهل كلياً هذه الواقعة التاريخية والمسجلة باسم حاجو بالذات، رغم أنه في المقدمة يشدد على المنهج العلمي (لقد اعتمدنا في هذا البحث المنهج العلمي الذي يضع الظاهرة في سياقها التاريخي الاجتماعي... الخ، ص7)، ويتعرض مطولاً إلى كردستان سورية، ومن ذلك الجزيرة، ويستعين بلازاريف وهو يتحدث (عن مقاومة الأكراد للاستعمار الفرنسي في سورية.. ص39-42، وقد رأينا خلاف ذلك، جهة التعميم، عدا عن أن التركيز على مفهوم «الوطني» حينذاك، كما تابعنا شطط وخط، إذ كيف يكون الكرد أكثر وطنية سورية من مجمل العرب أنفسهم؟ وكذلك في الحديث عن أحداث عامودا، وما يصدم في هذا المضمار (دوافع المقاومين الأكراد في عامودا كانت وطنية بحتة ولم تكن لهم أية اتصالات مع الأتراك، فقد كانوا يدركون أن فرنسا قوة استعمارية تريد كبحهم، لقد فضلوا المقاومة على الرغم من انسداد الآفاق. ص47)، أي من أجل «الوطن السوري»؟ وهو يغمز من قناة من كانوا مع الفرنسيين دون تسميتهم (وقد تحالفوا بهذا الشكل أو ذاك مع المسيحيين...)، والصادم هو على النقيض تماماً من كرديته التي يدافع عنها ويمثلها سيدا تعبيراً - ربما- عن تخندق عامودي (جوهر الموضوع هو أن أهالي

أليس في ذلك ما يدعو إلى المزيد من المكافحة التاريخية عمن كانوا يجتهدون، وهم بملء كرديتهم، قدر استطاعتهم، ليكون للكرد حضور من نوع آخر، كما يحاول الكرد بعد قرابة ستين سنة؟

أهو عمل من صنع الرجعية، أو الذهنية «القديمة» يا ترى ؟

من جهة أخرى، تكون القضية الكبرى كردية، لأن الذين كانوا يريدونها سوريا، ليس حباً فيها مجدداً، وإنما تجاوباً مع الولادة الجديدة لكيان سوري، لم يكن له من وجود بالصيغة هذه، كما هو حال العراق، ومن ثم فإن اتهام الكردي اليوم، أكثر من أي يوم آخر، وحتى اللحظة، بأنه انفصالي، بمجرد أن يطالب باستقلالية معينة، والحفاظ على وحدة البلاد، تصرف مريع ورهيب أخلاقي، لأنه يعزز مقولة «السلف» غير الصالح كتلوياً، وبمقدار ما يشهر في هويته الثقافية وضعف مردوها الاجتماعي على مستوى سوريا، وحيث يتم الاعتراف بأن الذي كان يشدد على الاستقلالية، ويواجه بالانفصالي إنما هو الكردي، أي إن الجزيرة كما تقال الآن، ليست أكثر من كونها كردية، ومجتزأ كردستاني، دون ذلك كيف يفهم هذا التعنيف للكردي أمنياً، وحتى من قبل منظري القومية العربية أو العروبية، وحتى- أكثر من ذلك- ما يُسمع من مجابهاة ومساجلات تلفزيونية عما تكون عليه الجزيرة، ومن داخل المسمى بـ «المعارضة السورية» حيث النفي الكلي لهذه الاستقلالية، أي إدارة ذاتية، إلى جانب تهمة قائمة، لا أظنها بفاقة صلاحيتها البائسة والممؤلة، وهي

عامودة بقيادة سعيد آغا الدقوري كانوا ينطلقون من موقف قوامه الالتزام بالوطنية السورية، في حين أن الطرف الآخر كان يراهن على فرنسا . ص 148)، ليت سيدا التزم الحد الأدنى من المنهج العلمي، ونشدان الحقيقة التاريخية، وحتى معرفة ما كانت تعنيه الوطنية حينها وهي تشير إلى الكتلة الوطنية المتشددة في موقفها من أي انقسام في الوحدة السورية، خلاف مطالب كردية سيدا، خلاف من كانوا يشددون على حكم ذاتي في الجزيرة يضم الكرد وغيرهم، وكان حاجو يمثل هذا الجانب، فأى وطنية سورية ينشدها وهي على النقيض مما ينطلق ويريد بلوغه؟ ولماذا غاب اسم حاجو في مؤلفه، وكله علم ما كان محمد طلب هلال يعنيه برأس الأفعى في الحركة الكردية تاريخياً، أي حاجو وعائلته من بعده؟ حيث يفترض المنهج العلمي أن يذكر العشائر الكردية طالما أنه ذكر العربية «ص 37-38»، أم تراه شعر بإحراج تاريخي لأنه كان عليه أن يورد ما لا يريده وهو المتعلق بأهم عشيرة ركز عليها هلال «هفيركان وحاجو وعائلته بالذات»، كما رأينا سابقاً ؟ وليس من أثر يفصح عما قام به كردستانياً- أليست العامودية- القامشلوكية على وزن المحمودكية- العثمانكية معتمدة هنا؟ بناء عليه، أي قيمة للأكاديمية تبقى في الحالة هذه؟

«الشمال»، فما أكثر الحالات التي كان الكردي محل شبهة، وفي وضع المسألة، إن استخدم هذه المفردة، في نص أدبي أو حتى بتعبير مناخي «رياح الشمال، مثلاً»، عبر استفسار: ماذا تقصد بها ؟ وكل التركيز على أن الشمال هو الشمال الكردي، أي شمال كردستان، أي ما يجعل الجزيرة امتداداً لتلك الجهة، وهو اعتراف بما لا يعترف به بوجود مشكلة ليست جغرافية، إنما تاريخية، وأن استمرارية تأزم الأوضاع، وفي «12» آذار 2004، شكّلت استعادة ما لما جرى سنة 1937، إنما للتعبير عن رفض جغرافيا تسوّق سياسياً، وتاريخ يدوّن إيديولوجياً، ولعل المتبصر فيما يجري اليوم في نطاق الجزيرة اليوم، يلاحظ توضع قوى سياسية كردية وحكومية وأهلية أخرى، ضمن مسرح جغرافي ملتهب، وتجاذبات سياسية، وقوى دولية متعددة الأعاد تلوّن في سردية حياتها اليومية، إنما بوضع درامي ومضحك جرّاء انفجار المفارقات، وفي الوقت الذي يمكن تعقّب خطوط هذه العملية في وجدانات الناس العاديين وكتابهم من الكرد خصوصاً⁽¹⁾.

(1) ربما كان المثال الأقرب إلى كل ذلك، هو جانب التوظيف التاريخي لواقعة «الشمال» ومردودها الاجتماعي والسياسي ثم النفسي لدى الكردي، إلى جانب عامودا وتجليات أحداثها «1937» نموذجاً، ربما تمثّل في نصوص بديعة لسليم بركات، كما قصيدته «دينوكا» وهي من بداياته الشعرية، وما أودعه روايته: الريش، ومعسكرات الأبد، وفي الأخيرة خصوصاً، يتم التركيز على حادثة عامودا في السنة المذكور، وتستحق المتابعة، كما تعقبها في كتابي البحثي عن بركات: قتل الأب في الأدب «سليم بركات نموذجاً»، دار الينابيع، دمشق، ط1، 2007، صص 108-110، ص 115-212-217... الخ.

كنموذج بحثي، ولو أنه مختصر، إلا أنه مشرق بالدلالات، ما أفصح عنه الباحث والمترجم العربي السوري، والمقيم في باريس صبحي حديدي، في تناوله لموضوع «دينوكا» وماذا تمثّل من فراهة العمق الجغرافي المستباح طبعاً، وشغف الكردي بشمال لا يعرف سره الصوفي إلا من يكابد عذاب الانفصال عنه، أو اشتهاً المجزأ القسري منه، وذلك في «دينوكا» بريفاً.. تعالي إلى كوباني - القدس العربي «لندن» في 13 تشرين الأول 2014، كما في قوله الذي ينتهي بمقطع استهلاكي من دينوكا، والذي توقفت عنده قبل ذلك بسنوات، في كتابي عن بركات (ولعليّ أسارع إلى اقتباس المقطع الاستهلاكي الأخاذ، والصاعق في ما يستهلّ من مناخ، وما يقترح من معجم: «عندما تحدر قطعان الذئاب من الشمال وهي تجرّ مؤخراتها فوق الثلج وتعوي فتشتعل الحظائر المقفلة، وحناجر الكلاب، أسمع حشجة دينوكا. في حقول البطيخ الأحمر، المحيطة بالقرية، كانت السماء تتناثر كاشفة عن فراغ مسقوف بخيوط العناكب وقبعات الدرك، حيث تخرج دينوكا عارية تسوق قطيعاً من بنات آوى إلى جهة أخرى خالية من الشظايا». درك تلك الأيام يمكن أن يمثّلهم، اليوم، أيّ صنف من المسلحين الذين يستهدفون الكرد في كوباني، أو في أية بقعة معاصرة تقطنها أغلبية كردية، بصرف النظر

بالنسبة إلى جكرخوين، يظهر منتقداً للحادثة، وخلفيتها، وأنه سعى جاهداً إلى تطويق الأزمة، لأنها تتهدد الجميع، ويعلم عن أنه وبإشارة منه، تشكل اجتماع، كان أحد الحضور هو حاجو آغا نفسه، حيث يقول الشاعر عن أنه هو من أرسل في طلبه، لهذا الغرض، فجاء في الحال، والاجتماع تم في قرية «موزان» وشدّد الشاعر في لهجته، أمام الاجتماع على الذين يلعبون بالنار، ومن يمارسون اللصوصية والقتل، وأن حاجو آغا هو من دعم رأيه، بقوله (إن السيدا على حق، وإنني لست مع هذه الأعمال القذرة، أقسم بالله إن من يسلب جدياً من كردي سوف يعوضه بدلاً عنها نعمة، وإذا كنتم تعادون ابن عبد الكريم وابن محمد آغا، لكنني لا أريدكم أن تشردوا وتتهبوا الأكراد المساكين. ص 256).

طبعاً ليس عندي المعلومات الكافية للنظر في سير الاجتماع، وماذا تم التداول فيه حرفياً، وقبل ذلك، من كان الفاعل أكثر، وما دور حاجو آغا الفعلي في ذلك، حيث إن عدم انكار دور جكرخوين، لا يعني عدم البحث في حقوق الآخرين وفضلهم بما قاموا به لتطويق الأزمة: الكارثة، أي إن حاجو آغا، لم ينتظر إشارة من جكرخوين ليأتي إليه في الحال، بمقدار ما كان هو الآخر، وأكثر منه، بما لا يقاس، مشغولاً بما كان يجري، ومن خلال موقعه، وسعيه إلى جكرخوين هو اعتراف من الشاعر ذاته بأن حاجو آغا ليس كما يردّد في صيغة هنا أو تلك، على أنه وفق الصورة غير المنضبطة والناضجة في ذهنه، وأنه في حالات عاصفة كهذه، يكون لرجل في موقع حاجو آغا الدور العملي الأكثر ظهوراً، كما هو مقدّر⁽¹⁾.

عن هويتها العسكرية أو العقائدية، وما إذا كانت إرهابية معلنة أم مبطنة.)، ومن المؤكد أن حديدي لا يمضي بتصوره الكتابي عن بركات، وكأنه يترجم لغته الروحية «الشمالية» إنما ينوّه إلى فاعلية مأساة الجغرافية في صناعة الأدب أحياناً، والشعر ضمناً، ورموز بركات هنا تقاوم خرائط السياسيين من حوله بأمكنة قائمة بفصاحتها الكردية، أي تكون استجابة الموجود الذي يجرد من الوجود، من قبل الساعي إلى إلغائه، بسلطة فارضة .

(1) ثمة إشارة، وهي ملاحظة، أثبتتها هنا، وهي تخص مقال جكرخوين، حيث إن الذي أورده جبو في كتابه يستعين من خلاله بروهات آلاكوم، عندما يقول/ يكتب (أدى حاجو دوراً طليعياً في الأحداث التي وقعت في منطقة عامودا قبل وفاته بثلاثة أعوام، ففي عام 1937، شهدت عامودا وأطرافها بعض التوترات الإثنية.. ص 219)، وتالياً في الحديث عن أن حاجو كان (على رأس الكرد «الذين يؤيدون التضامن مع الأرمن» والشيخ دهام هادي على رأس العرب...)، وفيما بعد، يشير إلى أن حاجو هو من نظم اجتماعاً انتقد فيه أساليبها «الحادثة»، ويشار إلى أن تصويب كلام حاجو من الشاعر وليس العكس... ولدى جكرخوين غير ذلك،

هذا يطرح عليك كقارئ ومتابع: أن تكون مع حاجو آغا، أو تختلف معه، أو تسعى إلى الابتعاد عنه، ذلك لا يعني أكثر من حقيقة واحدة، هي أنه لا يهتمش فيما كان يجري، وأن ما كان يعنيه يثقل عليه رغم كل ما كان يتردد خلاف ذلك: العمل لمصلحته الشخصية ليس إلا، وأعتبرها جائزة تماماً، إنما من قبل من لا يعرف حقيقة هذه العبارة، ويسوّقها كيفياً.

إنما ربما يمكن لهذه العلاقة أن تتوضع في النقطة التي لا تكون معه ولا ضده، وإنما مع حقيقة يمكن أن تعلّم الجميع بخصوص متنافرات التاريخ، ومن يوجّهه، ومن يصوغه، أو يروّج له.

إنما هو أن يمد القارئ بنظره جهوياً، ويتابع لعبة القوى المدمّرة لمحيطها رد فعل سلطة جائرة، ومن موقع التأديب المزعوم وهو يطال شعباً، أو بمسوّغ ملاحقة الخارجين عن القانون، يجري التضيق على الشعب نفسه، وفي الحالات كافة، هناك ما لا يسر.

وفيما بعد ينوّه جبو كيف (بذل حاجو وبقية الوطنيين الكرد جهوداً كبيرة من أجل التهذئة، ويفضل هذه الجهود تم إيقاف المعارك الكردية- المسيحية. ص 220).

طبعاً، لا بد من التحفظ على مفردة «الوطنيين» التوصيفية، لأنها ملتبسة في حينها، كما لو أن حاجو كان مع الكتلة وسياستها في المنطقة، بالعكس، إن اعتماد هذه المفردة حينها ودون تحديد المقصد على الأقل، ينسف حقيقة تاريخ بالكامل، كما لو أن ليس هناك من رقعة جغرافية اسمها: الجزيرة، وأن الحادثة تلك غير منفصلة عن تمادي سلطة الكتلة.

بينما في كتاب روهاات آلاكوم «خوييون وثورة آكري» فثمة معنى آخر في الصيغة، والمؤسف أن الكتب الثلاثة مترجمة إلى العربية حيث يصعب التدقيق في بنية النص الأصلي لكل منها، يكتب آلاكوم (يقود حاجو آغا قبل وفاته بثلاث سنين، الأحداث المتفجرة في عامودا. ونشاهده العام 1937 يعيش بعض النزاعات العرقية في عامودا وحواليها. ... يتزعم حاجو آغا الكرد، بينما الشيخ دحام «الصحيح دهام» الهادي العرب.. ص 48).

أي إن هناك التباساً آخر في الصيغة، كما لو أن حاجو له يد في «اللعبة» النارية والمميتة، إنما ما حاول القيام به، هو كيفية إخمار نار «الفتنة»، أو تطويق الأزمة، ولعل العمل مرتبط ببقية أعماله التي عرف بها، في صلاته بمجمل المكونات الاثنية أو الاجتماعية والسياسية في البلاد «في الجزيرة خاصة» وما في ذلك من قابلية انفتاح ومرونة، ولا بد أن مساعيه تبقيه في حجرة الانفجار التاريخية عموماً، إن جاز التوصيف، أي قابليته لأن يجد ما لا يرضيه، من قبل من يتضايقون منه، فيترصدون به وفي مجتمع متنافر القوام غالباً، حيث معرفة الآخر باعتباره الفاعل في وضع كهذا ويراد التحول به نحو الأفضل اجتماعياً واقتصادياً، وضمن حق التنوع الثقافي والسياسي لهذه المكونات.

إن القوة حين يصل بها الوضع إلى درجة فقدان ضبطها لنفسها، والشعور بأن ثمة تهديداً يطلها في معنى وجودها، أو هكذا يُتخيل لها، كونها تعيش تخوفاً من الآخر، لأنها تدير جدلية: السيد- العبد بطريقتها، وكما تريد، فإن شحنة مضاعفة من العنف تستدرج من الداخل، وهي تزيد في بنية القوة السالفة، وما يترتب على هذا الإجراء من الدخول في مرحلة التدمير والترهيب.

من ذلك أن تركيا على إثر تعرضها لزلزلة حادة في «آارات»، وسعي الكرد إلى المجابهة، وأن تقديرها الذي يقوم على أن الآتي قد لا يمكنها من الاستمرار كما هي، استدعت العنف الذي تختزنه في الداخل، وهو احتياطي، وخطر في نتائجه، رغم أن السلطة لا تقدّر هذا التحول، لأنه تكون منشغلة به، كما لو أنها تعيش هستيريا لا شيء يهدّثها لولا المرور بهذه التجربة المرعبة، لهذا، وبحسب جويده، فإنه (لعل أهم النتائج العكسية لتمرّد آكري داغ فيما يتعلق بكرد تركيا كان إصدار الحكومة التركية قانوناً قمعياً يضم الأقاليم الشرقية وسكانها الكرد تحت ظروف معسرة حادة).⁽¹⁾ لهذا لا غرابة أن يكون التماذي في العنف الممارس تعبيراً عن هذه الترجمة الخائنة والشائنة لواقع لا يراد له أن يكون بمقياس الرغبة الكمالية، وكأن العنف الدموي تعبير مباشر عن هزيمة المنطق، وإشهار بهمجية هي الحد الفاصل بين ممارستها وضحيتها.

ربما، تبعاً لما تقدّم، كانت قراءة «درسيم 1937»، انتفاضة ومأساة نابعة من سيرورة هذا الذي أخرج الكمالية من كل توازن لها، أي ما يبقّيها دولة إرهاب وباسم القانون، وهي رامية إلى تتريك الجميع، وربما وهي تثير شكوك الأتراك أنفسهم بما هم فيه من مصداقية جرّاء تردد شعار «طوبى لمن يقول أنا تركي»، ولديرسيم/درسيم موقعها الخاص في اللعبة الجهنمية (في كانون الثاني/يناير، عام 1937، اندلعت ثورة خطيرة في مرتفعات درسيم، لم يكن سكان هذه المنطقة المنعزلة والنائية الذين يتكلمون لغة الزازا «الظاظا» والمعتنقين للمذهب الشيعي المتطرف قد شاركوا في أي من الثورات الكردية الأنفة الذكر. وكما هي حال المسلم الشيعي، لم يبال هؤلاء بمسألة حظر الخلافة ولم يكونوا متعاطفين مع العقائد الدينية التي يروج لها شيوخ السنة الكرد، فقد بدّد إدخال القوانين العلمانية التركية

(1) جويده، وديع: الحركة القومية الكردية...، المصدر المذكور، ص 509.

والأسلحة التركية العزلة اللغوية والدينية والجغرافية التي كانت حتى ذلك الحين تعيق انتشار القومية الكردية بين كرد درسيم. ص 510)، وتلك نظرة صائبة من جويده، ولكن اللافت للنظر هو أن العدو في حالة الهستيريا الاندفاعية والعدوانية، قد يلعب دور ناقل غبار الطلع من زهرة لأخرى، وهكذا تمارس العدوانية السافرة من السلطة دوراً لم تحسب له حساباً: أولاً، وهي تنبّه إلى أن الكرد وإن اختلفوا مذهباً، لكنهم سواء مطلباً، وأن الكرد الذين ثاروا وجّهوا الدفة وأشاروا إلى الذين لم يتحركوا أي باعتبارهم كرداً وفي انتظار دورهم ثانياً، وأن عنفاً كهذا قد يحرّر المعرض للعنف كهزة وجدانية، من سيطرة القشور، أي ما يكون مذهبياً، وهو يتقدمه ثالثاً، فيظهر السبب في العنف الذي يطاله، ومن ثم فإن عنفاً يمارس قد يكون بمقام صحوة، وخروجاً إلى العالم، ومواجهة الظلمة، ومن ثم الانتشار خارجاً، والبحث عن الشريك في الأذى أو الاضطهاد القومي نفسه.

يستمر جويده، في تعزيز ظاهرة التتريك الكمالية في المناطق الكردية، ومنها درسيم (عام 1937، يبدو أن نشر الحكومة التركية لقانون مصمم لفرض الاندماج قد أوجج بشدة مشاعر كرد درسيم، الذين تداعوا إلى لقاءات جماهيرية لمناقشة القانون الجديد. ص 510)، ومن المؤكد أن وضعاً كهذا، وهو مستجد. سيحصل رد فعل على الجاري وهو في بلوغه أعلى درجات السفور همجية، لقد (اتهم الكرد الترك باللجوء إلى أكثر الوسائل وحشية لمعاقبة المتمردين، قبل التمرد وبعده، ولا توجد أرقام رسمية لعدد القتلى في خلال التمرد أو المرحلين فيما بعد لقد زعم الترك بأن العناصر الدينية والرجعية عند كرد درسيم هي المسؤولة عن التمرد ص 513)، وتلك هي الفقاعة الإعلامية المضخمة التي يلجأ إليها معتمدو العنف الدموي، وإلا فما الذي يمنع من دخول الإعلاميين، ما الذي يفسر التعتيم الإعلامي على ما يجري؟

ما ليس زبداً:

طبعاً، في مختلف الحركات التحررية والقومية الكردية ضد مستبديها، يكون الاتهام الموجه لها هو في طابعها الرجعي والإقطاعي أو الفيودالي، أو الديني المتزمت، ويستحيل وجود مثال يخرج عن نطاق هذا الحكم المبرم والمطلق مثلاً، بالنسبة لـ «تمرد الشيخ سعيد كحركة رجعية انتكاسية. ص 492)، ولعل جويده

يعزز المقولة المركبة، بتوأم القومي والديني، ومن ثم فإن (مما لا شك فيه أن سياسات العلمنة والتغريب التركية، على الرغم من عدم الاعتراض عليها من قبل المثقفين الكرد، كانت سياسات ممقوتة وبغيضة لعموم الشعب الكردي. وكان الزعماء الدينيون والقبليون بخاصة شديدي المعارضة لهذه السياسات التي كانت تخالف أعلى وأقدس معتقداتهم وتتهدد بالخطر امتيازاتهم الموروثة...ص 497).

لقد كان في مقدور سلطة مقتدرة تنصدر الساحة السياسية التركية، وتمتلك إمكانات هائلة في التصرف، ووجود متحالفين معها، وهم مستقبلليون، شركاء في إدارة الأمور والعمل في تركيا بحصص معينة، بحسب نسبة القوة الداعمة لتلك، أن تتلاعب بالمشاعر وبالدين والقومية، أو بالمفاهيم وهي تذروها بحسب قوة ريح الدعاية والسيطرة على سوق الشعارات:

أن تشدد على رجعية الكرد، لأنهم ضد نظام علماني جديد، حال أتاتورك، وما يكون عليه الغرب من صدمة لهذا المقرر، كما لو أن حرب العلمانية التركية ومصصلحة الغرب مستقبلاً، موجهة إلى الرجعية بكافة أشكالها، وهي كردية، وتسيطر على موارد البلاد، أو هي عقبة أمام أي تقدم للبلاد، وفي استثمار ثرواتها، وعلى النقيض من مصلحة الشعب الكردي بالذات، وفي الوقت الذي لا يلام المعنيون بأمور الدين بأي رد فعل تجاه الجاري ضدهم، لأنهم يتلمسون ما هو منخور في الداخل، أي حين تكون الكمالية معكوسة، ومطوطة أي مقدسة، وأن إحلال القبة محل العمامة على الرأس لا يعني «فرمته» المخبوء المستتعي في الداخل، وفي الجانب الآخر، حين تشهّد السلطة في أعدائها «الملحدين الغرب»، وكونهم يستهدفون حمى الإسلام وليس سواه، والحرب بين الكفر والإيمان، لا غرابة أن يكون هناك من يتجمهر لهذا الغرض، حيث إن الذي يشد المسلم إلى المسلم مؤثر، وفي جغرافيا «دار الإسلام»، وفي الحالتين، يكون الطرف الأقوى هو الذي يتحرك على الحبلين، والحركة بحسب المطلوب، ومن ثم، فإن الغرب لا يهيمه ما يكون عليه وضع الضحية، وقد صوّرت بهيئة العدو المعادي للمدينة، أو المتعاس عن مقارعة الكفرة، ليقتل بالأداتين، إنما ما يهيم هو أن لعبة جارية، وهي تتفعه بكثير، ومن ثم أيضاً، فإن علينا ألا نراهن على القصور الإعلامي كثيراً، لإخفاء الحقائق، ففي عالم اليوم، ليس هناك ما هو أسرع من انتقال المعلومة بالصوت والصورة، سوى أن الدائر محوّل بقيمة استحواذية ابتزازية تفيد أكثر من

طرف، أي كما في حالا وكالات الأنباء العالمية، والدور السلبي لها، في كيفية تغطية الأخبار، والتعامل بالمعلومات وقد لخصت شعوباً، وهذه أرصدة مسخرة لها .

ربما أيضاً، هكذا كان العنف التركي الدموي ضد تمرد علي يونس في جبل ساسون/صاصون، سنة 1938، استمراراً لمسلسلات العنف التي لم تبق الكرد في وضعية: استرح يوماً ما .

يقول جكرخوين(كان محمد- بن علي بن يونس- هو الأخ الأكبر، كان يقود عشيرته ويتطلع إلى المزيد من المجد. حارب الأتراك عدة سنوات وقتل منهم الكثيرين، ولأن الدولة لم يكن بمقدورها الانتصار عليهم بالقوة لذا لجأت إلى الخداع والحيلة، فأرسلت لهم: «توقفوا عن المقاومة، بالمقابل نتعهد الدولة بالألا تطلق عليكم طلقة واحدة..و: كنا نخشى العشائر الكردية ولم نكن نهاب الأتراك أبداً. كان الأعداء يدركون جيداً كيف يوقعون بين الأكراد حيث عملوا على استعداد أكراد تلك المنطقة لعائلة شرف، وكانت تجري معارك دموية بين الأكراد أنفسهم. قاتلوا الأتراك في عدة معارك وكانوا ندأ قوياً لهم وألحقوا بهم خسائر كبيرة.ص 250).

ربما علينا الكثير من الماضي قدماً في السردية الكردية التاريخية، والتي تبقي الكردي في مواجهة الكردي، أكثر مما تجعل الكردي عيناً على عدوه، وهو محتاط لكل نيل مفاجيء منه .

تلك وراثه أخرى لكمية المنغصات والمضايقات التي يعيشها الكرد فيما بينهم، سوى أن الذي يعزز موقعه في المجتمع، ويعيش هذا التقاسم والتجاذب والتداخل بين العنف والظلم الأهلي، أكثر من طلب صفاء عقلي وسعي إلى تأميم صفحة من التاريخ لصالح قضية تعني شعبه، أو جماعته، لن يكون قادراً على منح نفسه أماناً، أو طريق ضمان أمن، وخصوصاً، حين تكون تسمية الكردية أو الكيان الكردي المستقل في سلم الأولويات، أو واجهتها، وحاجو آغا كان من بين هؤلاء الزعماء الكرد، إن لم يتقدمهم في بعض الأحيان، كما هو سجل تاريخه المعروض بكرديته .

ربما كان حاجو آغا من بين زعماء الكرد الأكثر تعرضاً للمراقبة، نظراً لمعرفة السلطات الفرنسية وغيرها من العيون التي كانت تتبعه متحرية أنشطته في حله وترحاله، وخاصة ما عناه جرأ إبعاده عن الحدود التي كانت تصله بالطرف الآخر من مسقط الرأس في «سرختي» في دمشق، أو في الحسكة الدائرة الجغرافية

الخانقة ورغم ذلك كانت تتسع لأطياف المجتمع كافة من حوله، كما لو أن وجوده وحيداً يعني مواجهته للموت ويتم الحياة النفسية، وذلك قهر آخر، أو ما يضيفي على القهر طابعاً من القلق المؤلم، والغربة الضاغطة على النفس⁽¹⁾.

لكن ذلك لم يوقف حاجو، وهو في سعي حثيث، ومن جهة إلى أخرى، لنقلُ إنها مساعيه التي تستجيب لشهوة السلطة، أن يجد نفسه فيها، وهو أكثر من كونه زعيم قبيلة، أو اتحاد قبلي، أي ضير في ذلك، حين يقيس أي زعيم وهو في موقع مرئي وضمن مساحة جغرافية هائلة، وهو المحاط بالجميع، مثل الزعيم الأول، لأن الرابط القياسي لا يخل بمفهوم الرغبة، بمقدار ما يضعنا في نطاق المتداول هنا وهناك، أي البحث عن الزعامة وهي أكبر من كونها في ذاتها، وجكرخوين ينقل إلينا جانباً من العمر المتبقي، أو ما يجب أن يكون هكذا في التقدير طبعاً، أو اللحظات المؤثرة في حياته في سيرة حياته بقوله (كانت فرنسا قد وعدتنا بأن تعمل على أن تطلب من اجتماع الأمم أن ينال الأكراد استقلالهم والحصول على

(1) في مذكراته، يقول جميل حاجو (طالت إقامتنا في المنفى مع الوالد مدة سنة كاملة ثم انتقلنا بعدها إلى الحسكة حيث فرضت الإقامة الجبرية على والدي من قبل الفرنسيين، إرضاء للأتراك الذين عارضوا إقامة الوالد في المناطق الحدودية لأسباب تتعلق بأنهم وخوفاً من أن يخلق لهم مشكلات جديدة... ثم: استقر الوالد في الحسكة دون أن يهدأ له بال يدافع عن مصالح الأكراد أفراداً وجماعات حتى أصبح المتحدث بأسمائهم وغدت داره مرجعاً لهم ومكاناً لمجالسهم يحكم فيما بينهم ويحل خلافاتهم مع الدوائر الحكومية بما له من نفوذ... الخ. ص 73). ولعلها ديناميكية الشخصية الصاعدة في المجتمع.

13- بتاريخ 13-1/ 2018، وقبل أن أدفع بالمخطوط إلى الناشر لإخراجه، جرى اتصال بيننا: الدكتور بنكي حاجو وأنا، وتكلم بالتفاصيل، شعوراً منه أن ما يصرح به يضيء نقطة تاريخية، عن واقعة موت حسن حاجو مسموماً على يد الجاسوس التركي رشدي بك، والذي كان يعمل بيننا Navmalî، حيث تبين لنا أنه كان ينقل كل أخبار العائلة وما يتعلق بأنشطة وكذلك اتصالات حسن حاجو بأهل السياسة من الكرد وغيرهم، لكن الاكتشاف حصل بعد فوات الأوان.

ربما يؤكّد هذه المعلومة طبيعة الأنشطة التي كان يقوم بها حسن في تنوع اتصالاته، دون أن يعبأ بسلامته الشخصية، بينما كان مراقباً من العدو للدود الأول: تركيا، وهي تبث جواسيسها في أمكنة مخفية، ومنذ خروج حاجو من سرختي إلى بنختي وتنامي دوره السياسي كما رأينا، وهي إلى جانب السلطات الأخرى، كانت تدرك جيداً مصداقية مقولة «هذا الولد من ذاك الوالد» أي استمرارية حسن على نهج والده، ولو مع اختلاف الأسلوب، أي بتأكيد حقيقة دولته الكردية.

حكم ذاتي للأكراد في الجزيرة. لهذا فإن حلفاء حاجو أو حلفاء فرنسا أرسلوا بمطالبهم عن طريق فرنسا إلى اجتماع الأمم «عصبة الأمم»، وقد عاد الرد سريعاً باسم حاجو آغا حيث يقول «لقد وصلتنا رسالتكم المطالبة، نناقشها الآن، وقريباً سوف تحقق مطالبكم».. إلا أنه لم يمض الكثير حتى توفي آغا. ص 266).

وربما كانت تلك محطة عمرية وتاريخية وفاعلة بمآثرتها السياسية، وتقدير النتائج الضاغطة على وضع الكرد.

يقول شاهوز حاجو في مقاله السالف الذكر (طلالت مدة إقامة حاجو في الحسكة، حيث إن فرنسا لم تعد حاجو إلى حيث كان، وسط عشيرته وناسه، لأن فرنسا ما كانت تريد خلق مضايقات لتركيا.

سوى أن موقف حاجو من أجل نيل حقوق شعبه كان قائماً. إذ إنه كان يطالب فرنسا بحقوق شعبه، وفرنسا من جهتها منحت الكثير من الوعود، حيث إن الشاعر الخالد جكرخوين يشير في مذكراته إلى الكم الهائل من الوعود المعسولة التي كانت تجزلها فرنسا، إلى درجة أنها وقّعت على مطلب الاستقلال أيضاً، لهذا نجد أن كرد الجزيرة، حلفاء حاجو، وهم حلفاء فرنسا، قد وقّعوا على طلب، ورفعوه باسم فرنسا إلى عصبة الأمم.

ومن ثم وهو يستعين بجكرخوين، حيث تكتمل المأساة الكردية كما يجب أن تكون بهويتها الكردية وفاجعتها الشخصية، وهي لم تكن إلا مجتمعية، وإلا لما كان حاجو آغا كما يقول عنه: جكرخوين حول ذلك أن الرد على مطلبنا باسم حاجو آغا جاء سريعاً، بقوله عن أن رسالتكم وصلت إلينا، ونحن الآن ندرسها، وأن مطلبكم سوف يتحقق في القريب العاجل. سوى أنه لم يمض كثير من الوقت، حتى كان موعد الرحيل الأخير لحاجو آغا سنة 1940، إلا أن فرنسا خسرت في الحرب، وفقدت مكانتها، إلى جانب أن عصبة الأمم تلاشت تحت وقع السلاسل وهدير المدافع، لتلفظ أنفاسها الأخيرة. وأخرجت فرنسا تحت ضغط الجيش الانكليزي من سورية، وسلّمت قيادته للجيش السوري، ونال العرب ما يبتغون سوى أننا نحن الكرد، حلفاء فرنسا، في أن تمارس فينا الدولة السورية عسفاً بعد خروج فرنسا.

ويتابع المسيرة إلى نهايتها المعلومة أو المتوقعة:

لقد أصبح حاجو لسان حال الكرد في الحسكة، وشكل مركز استقطاب لجأ إليه الكرد، حيث إن حاجو كان يثير حماس أهل عاموده ودرباسية، لكي يبنوا قرى في تلك المنطقة الخالية، إذ إنه كان يقيد القرى والأرض بأسمائهم بصفة رسمية. ولو أننا نسأل اليوم شيب المنطقة، لكان جوابهم عن أن غالبية قراهم بقيت ملكاً لهم بفضل حاجو.

لقد انتقل حاجو سنة 1940 إلى رحمة الله تعالى، وهأنذا أختتم مقالي هذا بقصيدتين. أولاهما لجكرخوين، أما الأخرى فهي لسيدا أحمد نامي.

أما عن قصيدة جكرخوين عن حاجو فهي:

ألا انهض أيها الرجل الشجاع الشهم

حاجو حاجو مرشد الكرد

لم يكن وقتك لتتزل قبراً

وقد أبقيتنا نهب الظلم والقهر

ألا انهض أيها الرجل الشجاع الشهم

حاجو حاجو مرشد الكرد

نحن أولادك بقينا جميعاً دون صاحب

الشجرة التي زرعتها أثمرت وهي مخضرة

نحن معك على العهد وها نحن ماضون

إلى أن يطوينا ثرى القبر

في اللحظة التي ودعت فيها الحياة

نصبنا حسن ليحل محلك

قصيدة أحمد نامي في حاجو، فمنها هذه الأبيات:

فاجعة حاجو آغا

سنة 1940

في 22 نيسان المورّد

آغانا حاجو الرحيم
المشغول بهم فقراء الكرد وبؤساءهم
شملة الله الكبير برحمته
وجعله مثواه الجنة
في الثالث والعشرين من شهر آب
شهاب الزمن أحرق قلوبنا
بلغ التابوت المزار
كانت نضارته تنير وجه الربيع
احلكولت سماء جزيري
حينها كانت السحب تمطر دماء
ذلك الزمن الذي تسميه قيامة
ظاهر أن على ديننا مائتي علامة
كنا غرقى في موج التحسر
وقد فقدنا كل وعي وقتها
شبابنا أصبحوا في هيئة الشيوخ
وهم ملؤهم عزم وقوة
يمينا، لقد أصبحوا منجرحين عليك
معاً، في الوقت نفسه باتوا منكسين
وجوه الفتيات بدت كالساقية
وملؤها فقد العقل والرشد كدراً عليك
الليالي حزينة ودائخة حتى إشراقة الصباح
كأن دماء تنز من العيون السود
دورة الزمان العدو والخائنة
ما مشكلتك معي أيها الزمن
إذ لا يسمح لنا بالاستقرار مطمئنين

لنقرأ نسخة من كتابك
قائد الناشئين والشباب والشيب
لقد نهبك دون أي جرم أو خطيئة
بقينا أسرى الغم والهم
السهم الذي أصاب القلب سهمك
....الخ.

وتلك قمة المفارقات فيما تقدّم بالنسبة إلى شاعر التناقضات الكبرى، أي جكرخوين، وهو يرثيه بطريقته السالفة، كما لو أنه لم يلتق به يوماً في طريق مخالف: عكس السير، لم يتفوه بكلمة لا صلة لها بحقيقة واقعة، وكأن الكردي فيما يعيد هو هذا المركب الحافل بالشيء وخلافه إلى حد التصادم، والمصدق هو من يألّفهما، وليس لأنهما هكذا بالحرف.

أعني أننا نجد في جكرخوين تجسيدا لأكثر من حالة كردية لحظة أخذ الموقف سلبياً من حاجو دون تمييز بين وضع وآخر، والاعتراف في بعض الحالات بنقيض هذا الموقف السلبي، إلى درجة إمكان القول، حتى الآن أن الجكرخوينية بتناقضاتها، وهي تجمع بين عالي القول وما أقله وهابط القول وما أكثره، تشكّل قاسماً مشتركاً لأغلب كرد المنطقة ممن تعرّضوا وما زالوا يتعرضون لهذا الاسم «حاجو آغا» كمغص تاريخي، أي لا يعود جكرخوين الذي هو شيخموس أكثر من «موس شيخ» جهة الإيلام كترجمة نفسية ضاغطة، لاحتقان ذات تجد في الآخر: المنقود فرصة للظهور من خلالها، أو ما يكون مديح الخطأ إكسير روح تائهة !

في السياق نفسه يشير جبو إلى رحيله بتاريخ «23-4/1940»، وتردّد في الهامش، نقلاً عن الدكتور بنكي حاجو عن (أن حاجو عاد من بيروت وهو بصحة جيدة وانتظر ليلة في دير الزور وهناك أعطي جرعة دواء بالمفصل، وبعدها لم يفتح عينيه مرة أخرى، وهناك شكوك حول موته مسموماً، ومن الجدير بالذكر أن ولده حسن حاجو توفي في لبنان سنة 1963 مسموماً أيضاً وأن الذين قام بهذا العمل رجل يدعى رشدي بك كان جاسوساً مجنّداً من تركيا وقد طردته السلطات التركية سنة 1979. ص 239)».

ذلك يرجعنا إلى ما هو متداول في الوسط الطبي الفرعوني بـ «لغز موت توت عنخ آمون» الفرعون المصري الأشهر، قبل نحو «3350 عاماً»، موت يقلق علماء المومياة حول معرفة الطريقة التي مات فيها، وبالنسبة لعدد من أفراد حاجو المعتبرين، فإن هذا الذي رُوِيَ عنهم أو فيهم أقاويل كثيرة، كل قول رواية تسعى إلى إزاحة الأخرى، وتأكيد مصداقيتها، كما في حال حاجو الثالث ومن ثم حسن حاجو آغا، وليس موت عليكي بتي بأقل غموضاً، وربما حتى بالنسبة لمقتل حاجو الثاني «1896»؟ وإن تم التركيز على الفاعل الرئيس فيه: جمو، إلا أن ملابسات العملية ترقى بها إلى مستوى «الجنايات» المتعارضة من النوع التالي.

وهذا من شأنه لزوم التمييز بين موت لا يبحث في أمره أحد «موت إنسان عادي» يتعرض لحادثة، أو يقتل في ظرف غامض، وليس من مؤثرات تستدعي إضاعة ساحة الجريمة، إنه موت شخص محدد حصراً، وموت لا يقتصر على شخص بعينه، إذ يتعرض لقتل مخطط له، أو مبرمج، ويستدعي المزيد من التروي والتربص والملاحقة وكيفية التغطية على العملية، أكثر من إسناد الجرم «إلى فاعل مجهول»، لأن ثمة أكثر من جهة رسمية ومحلية وأبعد أحياناً قد تكون شاريكة في فعل الجريمة أو عملية القتل، ومن ثم إبقاءها لغزاً أو أقرب إلى اللغز، بغية تحريك خيوط اللعبة مع الزمن، طالما أن هناك من تستهويهم اللعبة هذه، أو أن البحث عن حقيقتها يستدعي التنقيب والمساءلة وجمع القرائن، لوجود نظائر للعبة كهذه، وبالنسبة لوضعية الشعب الكردي المتطاحن، والممزق في هذه الجهة أو تلك، وكأن الجاري يلخص قضيته بأكثر من معنى، أي ما يجعله شعب اللغز، وأمة اللغز، وقومية اللغز، تجاوباً مع مصالح تحتم ذلك.

وإذا كان من طبع التاريخ الاختلاف، والتحفيز على البحث والمتابعة والمقارنة، بخصوص موقف أو شخصية أو واقعة معينة تنتمي إلى التاريخ، فإن الصوت من طبعه التفاعل، ومن ثم المضي إلى ما وراء الصوت، وما فيه من كلمات مغنّاة، وموسيقى مرافقة، أو التدقيق في التوأم الفني: الصوت والكلمة، ونوعية الأداء، وما الذي يَبْث في الكلمات وصلتها بالتاريخ.

ذلك يخص حاجو آغا وكيفية تقديمه لثقافة الأذن والوجدان هذه المرة، تعزيزاً لمقام الشخص، وربما تأكيداً على قيمة مضافة له، وهو ما ينبغي التنويه

إلى أهميته ولو بإيجاز، على الأقل، في الوقت الذي يشدد على الفارق بين حضور كل من عليكي بتي وحاجو آغا في الأغنية الشعبية، حيث الأول يبدو الأكثر كثافة وتداولاً، ومن قبل فنانين كرد كبار، كما رأينا «محمد عارف جزيري، حسن جزيري... الخ»، أما حضور حاجو آغا فأقل حضوراً، ومن وجهة نظري، أرى أن الفارق لا يعتبر تفضيلاً للأول على الثاني، وإنما يرجع إلى التاريخ نفسه، حيث إن الواقع التاريخي الذي عاش فيه بتي، وطبيعة الأوضاع الاجتماعية والسياسية للكرد، لهما دور كبير في تحويل بتي إلى مادة مثيرة وشيقة مغناة من قبل كبار الفنانين الكرد، ولمقاومة التاريخ الرسمي بالمقابل، وتحفيزاً لمشاعر وأحاسيس تنتمي إلى ما هو قومي، وهو في هيئة تقرب إلى عالم الحكاية بنفحتها البطولية، بينما حاجو آغا فقد استمر في التاريخ المعلوم والمتابع من جهات رسمية مختلفة، كما لو أن الذاكرة الشعبية أحياناً، تمارس دوراً تعويضياً عند اللزوم، إذا تهادى التاريخ الرسمي «في غيّه»، رغم أن المفارقة المؤلمة والصادمة للوعي الشعبي الكردي هذه المرة، تبرز أحياناً أكثر تمثيلاً لمواقف كردية فاعلة أو متنفذة في أوساطها، لم تشأ له أن يشق طريقه إلى حاضرة التاريخ كما يستحق، والنصوص التاريخية والوثائق الرسمية تشهد على هذا النوع من المفارقات بطبعها الكردية المسيّسة حتى اللحظة، كما أثّرنا هذه النقطة هنا وهناك.

أشير إلى بعض الأصوات التي غنت باسم حاجو آغا، أو له، أو عنه، ويمكن سماعها بيسر من خلال مواقع انترنتية مختلفة:

من ذلك، ما يتمثله تيلي شاكّر في أغنية «حرب حاجو»:

Hey lê şere şere şere şere Zeynebê

Hay lê şere şere şere şere Têliyê

Li ser serê Haco Osmên bavê Çeçên şere Zeynebê

Bandikê mêrê weke Xelefê Mêşo bavê mino mênî çê

Bin dest hilînê

Kesekî nemaye di êla hevêrka de ji xeynê Xelefê Mêşo

Xîreta Haco Osmên hilînê ji xwe re Zeynebê

وما يسعى مطرب آخر إليه وهو يعبر عن رجولة حاجو آغا وتغلبه على الأعداء، في أغنية سريعة، ذات كلمات واضحة بمعانيها:

Tenê tenê axayo lo
Wey tenê tenê axê mine
Haco bavê Hesenê axayo lo
Delalîkê bi tenê axaoo lo
Serê xelkê jêkirî axaoo lo
Avêtî ber bedinê axê mina

ومن جهته، فإن بدرانو يصف الحرب في جوب ملحمي، في بدائة معتادة في الأغنية الشعبية الكردية:

Were hay hayê
Lê dayê fermana
Wele dayê fermana
Fermana xwedêya
Fermana Haco axaye

تلك إشارات إلى مدى حرص المغني الكردي الشعبي، باعتباره راوية على طريقته، في كيفية توثيق التاريخ المجسّد لواقعة معينة، وهي لا تفوّت وتدوينها في صورة كلمات مغناة مموسقة، سعياً إلى تفعيل أثرها في الوجدان الشعبي، ومن باب حفظ الأثر، وإبقاء الماضي حياً، وذلك لجعل الآتي أكثر إشراقاً، أو قابلية للتفاعل معه، وكأن الصوت المغنى يضيء ما بعده.

إنه تحدّي الرسمي والذي يشكّل خندقاً داخلياً، وحرماً على ذاكرة هي أرشيف المضاد له، وربما احتفظت هذه بميزة استماتة في الدفاع عن شعب محمول في الداخل، وشهادة ديمومة له واقعاً.

وثائق لتنوير ما يجب تنويره

مجموعة من الوثائق اخترتها من موقع كلكامش والتي اختارها الباحث والمترجم الكردي الأكاديمي خالد عيسى، أوردتها موجزة إجمالاً، أي ليس حرفياً، لأن قراءتها تضيء ما تقدمنا فيه، إلى جانب أن المعلومات التي تتضمنها تشمل ما هو اجتماعي، سياسي، جغرافي، وأمني، ولا بد أن النظر فيها يتطلب تحريماً دقيقاً في المقارنة، حيث شبهة التكرارات قائمة، وهي توحى بوجود كتابة الوثيقة الواحدة، أو بعضاً منها، وقد تكرر في وثيقة أخرى، أو حلقة جديدة، نظراً لوجود مستجد معين، أو تأكيداً على أهمية الوثيقة.

في الجانب الآخر، وكما رأينا سالفاً، فإن في مقدور هذه الوثائق المختارة، أن تعزز قناعة فكرية لدى الباحث فيها، حول طريقة تفكير واضعها، ومن يكون حقيقة، أهو الذي يذيل الوثيقة بالاسم والتوقيع، أو من ينوب عنه، وكيف تكون المباشرة بكتابة الوثيقة، وهل هي النسخة النهائية لها، أم أنها مرت في مراحل، وما إذا كان هناك نسخ أخرى لها، كما يلاحظ من أوجه التشابه بين نص وثائقي وآخر، وجهة الإرسال والمرسل إليها.

وما صلة التاريخ الذي حررت به الوثيقة بالواقعة التي يجري التطرق إليها، والمسافة الفاصلة فيما بينهما، إذ من المطلوب جيداً، السؤال عن الحقيقة التي تعني الواقعة أو الحادثة، وثمة مسافة زمنية فاصلة، ومسافة مكانية تعني إمكان تعريض الرواية المنقولة للتحويل، أو إخضاعها لأكثر من عملية تهذيب أو تشذيب، أي ترميم بالصورة التي تتجاوب مع المراد استخباراتياً، وما إذا كان الذي تخلل الوثيقة على أنه يمثل الواقعة إجمالاً «يطابقتها» قد أبقى على حاله، وما الغرض من ذلك، أو أن الوثيقة حررت سريعاً، ولماذا؟ وعلام تقوم الوثيقة من ضمانات أمنية وهيبتها؟

إن كل سؤال زمني- مكاني له أكثر من تعبير وتفسير وتأويل، كل سؤال مما طُرح، ومما لم يطرح، ويجدر طرحه، قابل للطرح، طالما أن يحرك صمت التاريخ، التاريخ الذي يُضغَط عليه كون الواقعة شديدة الخطورة أوتمس أمن الدولة مباشرة، وأن التلاعب بها بمهارة، ومن خلال خبراء الوثيقة، من مستوجبات هذا الأمن، وأن الذي يتهيأ لتفكيك كل وثيقة، أو مساءلة الخفي، أو الثغور المقدرة فيها،

أو التقابل بين مكوناتها، ومعرفة ما إذا كان هناك جزء أقل تماساً من سواء، أو التدقيق في التاريخ، ومعرفة مدى صوابه عند الرجوع إلى تاريخ الواقعة بالفعل.

وعندما أورد هذه اللائحة من الوثائق، فلمنح ما تعرضت له بعداً إثارياً أكثر، أي ما يصل الوثيقة بحاجو آغا، أو أي فرد من أفراد، أو معارفه، أو في محيطه، أو يضيء ساحتها، إذ لا أظن ولو للحظة واحدة، أن الآخذ بقراءة هذه الوثائق ولديه إرادة معرفة وثائقية إلا ويمتحنها الكثير مما تستحق، لجعل المقروء أقرب إلى روحه أو حيوية التاريخ، وهو يبكي ويضحك معاً، إذ لا شيء كالبكاء يمضي بنا إلى ليل الحدث، ولا شيء كالضحك يصعد بنا إلى نهاره ويثرينا.

وبالتوازي مع جملة الملاحظات، وهي لي، تلك التي تليها الوثائق، وهي مرقمة، أو مسماة بالملاحظة الموضوعية بين فارزتين، بغية إضاءة فكرة كل وثيقة، أو لفت النظر إلى نقطة محورية، أو ما يخص محتوى الوثيقة عموماً، أحسب أنها لا تنفصل عن سياسة قراءة خاصة لما تقدم.

في الجانب الآخر، وفيما بعد، ثمة عدة شخصيات كردية في الوثائق الفرنسية، أوردتها من الموقع نفسه للباحث والمترجم ذاته، والغرض الرئيس منها، هو التعرف على كيفية صوغ أو بناء المعلومات ذات الصلة: بين أن تكون شخصية، كهذه، أو تكون مع غيرها، أو ضمن نص معين، وفي معرض إضاءتها بالسلب أو بالإيجاب أو بهما معاً، لمعرفة أشمل بها، وماذا وراء كل عبارة ترد في الإثر، أو تختلف في بنيتها من واحدة لأخرى، بحيث تكون على تماس مباشر بالظروف القائمة أو المستجدات المعتملة، وكيف يفكر الآخر بوصفه العدو أو الخصم بسواء «الكردى هنا نموذجاً»، والوضعية الاجتماعية والسياسية لكل شخصية، أو القيمة الدلالية لكل كلمة أو جملة تدون، وما إذا كان هناك ما تم شطبه، أو اختزاله، أو محاولة التصرف به.

تلك مقارنة تاريخية للفكرة، ومحتواها، والدور الاعتباري لها أيضاً، ونزوع آخر إلى المعرفة ذات السياق الزمكاني، ومن يكون المعنى الأول بها، أو متابعتها، أو الحريص عليها.

إنها أسئلة مرتبطة بأجوبة تتفاعل مع بعضها من جهة التقدير، لأن ذلك من صلب مهام الخبير الأمني أو الاستخباراتي في أمور على هذه الشاكلة، وردود الأفعال المترتبة على ما تقدم، ومن ثم تحديد صلاحية عدم إفشاء السر، لأن ثمة

استمرارية لحاضر الوثيقة وخطورتها فيما لو صرّح باسمها أو قرئت علناً، ولماذا هذا التقدير الزمني، وأي نسبة حسابية تراعى في ذلك، أي وثيقة لا تقتصر في تأثيرها أو مكانتها على الجهة الحاضرة لها فقط، فالجهة التي كتبت باسمها، وإنما ثمة الجوار الجغرافي القريب أو البعيد، لحظة النظر في الشبكة العنكبوتية للسياسة، وتلك هي من أولى مهام الباحث في أدوار التاريخ ومعروضاته، ومدى دقة كل منها هنا وهناك، أي ما يحفز على دوام اليقظة العقلية، ومعرفة سيستام العناصر التي قد تكون متنافرة وهي ضمن الوثيقة ذاتها، حتى بالنسبة إلى السطر الواحد، بين شخصيتين هما على طرفي نقيض، أو حساسية معينة في لحظة تاريخية ما «حاجو آغا وقدري جان، مثلاً» حرصاً على الأطراف جميعاً وليس من منطلق محاماة طرف دون سواه (أجل، تكون الوثائق الإحصائية ذات قيمة بالغة في دراسة التاريخ، ولكنه يتألف منها لسان لا يسهل تفسيره دائماً. ويمكن أن تصبح هذه الوثائق، على الرغم من دقتها، منبع خطأ خطر إذا ما جمعت أحوالاً كثيرة الاختلاف على أنها متشابهة). وهو تعبير دقيق، كما أرى، تفوّ به غوستاف لوبون، في كتابه: فلسفة التاريخ، نقله: عادل زعيتر، دار المعارف، مصر، 1954، ص 107 .

كما نوّهت، فإن المسجل/المختار هنا عبارة عن وثائق لم أوردتها مفصلة، إنما ما يشي بالغرض تجنباً للإثقال على القارئ، وهي في حلقات وأجزاء في الموقع، حيث يمكن تفحصها هنا، مع التنويه إلى أنني عقب كل وثيقة أضع ملاحظة ذات صلة بها، ربما بغية تعمق التنقيب فيها :

-1-

الوثيقة التي ننشرها في هذا العدد هو خبر أرسله مدير الأمن العام، المفتش العام للشرطة، إلى وزارة الخارجية الفرنسية في باريس .

الأمن العام

بيروت في 25 حزيران 1937

معلومة رقم 3374

الأمن العام في القامشلية 25-6

الداخلية- مظاهرات انفصالية

في الثاني والعشرين، عُلِمَ قائم مقام القامشلية بأن مظاهرات انفصالية ستبدأ في القامشلية في الثالث والعشرين من شهر حزيران 1937. قام بتعبئة كل عناصر الجاندارمه و الحراس الليليين لكي يحرسوا السراي و حولها، لأن المخبر كان قد أعلمه بأن المتظاهرين سيهجمون على السراي و سيعزلون موظفي الكتلة (الكتلة الوطنية - المترجم)

استمرت الحراسة حتى الظهر، و لكن بعد ثبات كذب الخبرية تم إلغاء الحراسة في اليوم الثاني .

خاتم و توقيع

مدير الأمن العام

المفتش العام للشرطة

«ملاحظة1: هنا، كما هو مرجو، لا بد من التدقيق في مستجدات الوضع السوري، والصراعات التي كانت تتم في الشارع السياسي السوري، والكتلة الوطنية كانت تحت خطاها لتكون في موقع الهيمنة على ما عداها، وربما كانت أكثر تلبية لإرادة السلطة الانتدابية و صوب مستقبل بعيد، وأن لعبة التجاذبات لا تخفي هيكلية الجاري، أو حيوية القائم للتلاعب بالمشاعر، أي ما يجب التوجه إليه في الباطن، وتتبع القوى السياسية أبعد من حدود الأسماء التي تعرّف بها للناس»

-3-

الأمن العام

بيروت في 20 تموز 1937

معلومة رقم 3542

أمن القامشلية، 16-7-37 .

آ/ س- الانفصالية -(الداخل)

كان عيد الرابع عشر من تموز (العيد الوطني الفرنسي-المترجم) ذات طابع احتفالي كاف في القامشلية، حيث رفع السكان الأعلام الفرنسية على الأسطح و

في الخنادق. بدون أي علم سوري. و لافتة كبيرة وُضعت بجانب البلدية، و كان يمكن أن يُقرأ عليها :

« عاشت فرنسا، عاش سكان الجزيرة مسلمين و مسيحيين و يهود و ايزيديين».

لا زالت الأسواق مغلقة، و تستمر الاجتماعات، و الحركة تتعمم في كل يوم .

في الخامس عشر من شهر تموز عام 1937، انعقد اجتماع كبير في القامشلية

في منزل قدور بك، و حضره كل من :

-الشيخ ميزر

-خليل و ممدوح إبراهيم باشا

-قدري و أكرم جميل باشا

-حاجو آغا

-الدكتور نافذ

-ميشيل دوم

-الشيخ محمد عبد الرحمن

و العديد من وجهاء المسلمين و المسيحيين .

قرر الانفصاليون المطالبة من جديد بفصل الجزيرة عن حكومة دمشق و

وضعها تحت الانتداب الفرنسي» .

«ملاحظة2: هل علينا أن نتوقف هنا لبعض الوقت ولو من باب التذكير، بما

كان يجري في «الشمال» أي من قبل أجهزة القمع الكمالية: التركية من سعي إلى

تتريك كل المكونات الديموغرافية في تركيا، والکرد في الواجهة؟ على الأقل، ونحن

لا ننسى درسيم بعد آراءات، وانتفاضة ساسون، وفي الوقت ذاته، الاحتقانات في

الشارع السوداني والجزيري ضمناً، وفي الشرق، الغليانات السياسية في العراق

وحروب المواجهة المختلفة بين الكرد والحكومة المركزية في بغداد حينذاك؟ أي ما

يجب التركيز عليه، وهو أن رصاصة تطلق من مسدس كردي في أي جهة كردستان،

حتى يتخندق كثيرون في الجهات الأخرى تحسبان لإطلاق المزيد على مثلها، أي

كيف يلد النظرير النظرير، ليس لأن الكردي وحده يشدد على ذلك، وإنما من استبدَّ

به إدراكاً منه بوحده».

الأمن العام

بيروت في 20 تموز 1937

معلومة رقم 3542

أمن القامشلية، 16-7-37 .

آ / س- الانفصالية - (الداخل)

(القسم الأول منشور في الحلقة السابقة)

لم يبق حالياً إلا بعض الخصوم للحركة الانفصالية، الذين هم :

عبد الباقي نظام الدين، مرشح الكتلة (الكتلة الوطنية- المترجم) المغلوب .

عبد الرزاق حسو، رئيس قبيلة الراشد .

طاهر آغا، رئيس عشيرة بينار علي

زكي تجليبي ، ملاك في القامشلية .

سعيد آغا، الرئيس السابق لعشيرة الدقوريه في عاموده .

يعمل زعماء الحركة حالياً على إقناع هؤلاء الخصوم بأن الغاية من الانتفاضة هي تأمين سعادة المنطقة. إن نجاحهم هو مرجح، ويعتقد بأنه ستتشكل من الآن و حتى بعض الأيام جبهة موحدة ضد دمشق .

وصل توفيق شامية، محافظ دير الزور، إلى القامشلية في الخامس عشر من شهر تموز 1937، و يرافقه الكابيتن بلونديل. بناء على طلبه، ذهب أربعة زعماء انفصاليين لمقابلته في فندق معمار وهم: حاجو آغا، و الشيخ ميزر و ميشيل دوم و ممدوح إبراهيم باشا، وهؤلاء قالوا ببساطة بأن الجزيرة لم تعد لها أي شيء مع دمشق، و أنها قد توجهت إلى عصابة الأمم لحل قضيتها .

لقد قلّ احتمال وقوع هجوم من قبل العشائر العربية على القامشلية ، و لكن الخوف مستمرٌ. ترك القامشلية عدد كبير من العائلات، و لجأت إلى حلب أو إلى لبنان. تلجأ العائلات المسلمة إلى القرى .

السلطات العسكرية لا تزال تحافظ على الأمن .

السراي مسكونة من قبل الجاندارمه، جميع مكاتب الحكومة المحلية محتلة.
جميع المعاملات الإدارية معلقة .

علمنا في آخر لحظة بأن العديد من زعماء العشائر العربية قد وقعت اليوم
برقية و أرسلت إلى المفوض السامي و هي مصاغة كالتالي :
«نؤيد الحركة الانفصالية و نستنكر موقف حكومة دمشق»

خاتم و توقيع

مدير الأمن العام

المفتش العام للشرطة

«ملاحظة3: تُرى، أليست مظاهر الحشد للجندرية وقوات الأمن، وحالة
اليقظة، والتأهب في الشارع، تعني أمراً واحداً، وهو أن الأرضية التي مهدت للدولة
لا صلة لها بولادة طبيعية إنما قيصرية لها؟ أن الدولة كمفهوم سياسي، ومن خلال
مؤسسات فعلية تسندها، كما هو عمل الأوردة الدموية للقلب لم تشب عن طوق
قبلية مشوهة، وربما أعنف منها مناخاً، وكأن مجرد التفكير بها إعلام بمشكل لا
يراد له أن يُسمى هكذا، ولا أن يحدد موقعاً، ليكون في المقدور استثماره بصيغ
شتى، ومن خلال الشخصيات التي قيض لها تاريخياً أن تتواجد معاً، رغم التباعد
في هوية المواقع، كما في حال، مثلاً، ربط حاجو آغا، كشخصية بسواها 5.»

-7-

الأمن العام

بيروت في 26 تموز 1937

معلومة رقم 3623

أمن جرابلس، 21-7 .

الأخوان شاهين (مصطفى و بوزان- المترجم)، و بصراوي آغا، الذين كانوا قد
ذهبوا في العشرين (من تموز 1937 - المترجم) إلى عند مجحم (بن مهيد -
المترجم)، عادوا بعد الظهر حوالي الساعة 17. يقال بأنهم اتفقوا نهائياً على
المطالب التي سيرسلونها معاً يوم السبت القادم إلى حكومة دمشق .

مصطفى بك و مجهم سيذهبان إلى العاصمة السورية في اليوم المحدد لهذا الهدف .

المطلب الأساسي من مطالبهم هو: حلّ الكتلة الوطنية في عموم سورية .
كبدية، تم إخطار قائد الجاندارمه و مدير الناحية بأن 500 رجلاً مسلحاً سيقومون بالتظاهر في عموم المنطقة . سبق و أن تم، في العشرين من شهر تموز 1937، النهب الكامل لقرية نوردان التابعة لناحية سرّين .
يُنْتَظَر نفس الضربة، في هذه الليلة ، لقرية سرّين التي ترفض الحكومة تسليمها إلى بصراوي آغا المستأجر الشرعي .

خاتم و توقيع

مدير الأمن العام

المفتش العام لشرطة دول المشرق الخاضعة للانتداب الفرنسي
«ملاحظة 4: تلك مشهديات السلطة أو إفرازاتها، وطبيعة العلاقات الحدودية وجانبها الإرغامي أو القسري، وهو ما يذكّرنا بنوع التخوف من الآخر: الكرد!»

-12-

(الوثيقة الأولى)

الأمن العام

بيروت في 6 آب 1937

معلومة رقم 3890

أمن قامشلي، 03-08-47. (الأصح 37- المترجم)

أ/س - الانفصالية في الجزيرة :

لا زالت الحكومة المحلية معلقة. عادت عناصر الجندرمة في عين ديوار و ديريك الى مخافرها، لكنها لا تؤدي وظائفها .

شراء الأسلحة و الذخائر هو العمل الأساسي في المنطقة، فتجارة الأسلحة حرّة. تصل الأسلحة يومياً من تركية و العراق، ثمن البندقية هو ألفين فرنكاً و الطلقة بخمسة فرنكات .

يستمر أنصار الوطنيين (الكتلة الوطنية - المترجم) بنشر الإرهاب في منطقة عاموده و الدرباسية، حيث أعدادهم كثيرة بشكل كاف .

العديد من العائلات المسيحية من هاتين المنطقتين لجأت إلى القامشلية . الوضع غير محسوم و الفوضى تقلق الناس . ينتظر أنصار الكتلة تعليمات دمشق للبدء بالهجوم .

يجهز زعماء الحركة عريضتهم (لتقديمها - المترجم) الى لجنة التحقيق التي يفترض أن تصل بسرعة إلى القامشلية . انعقد في الأمس اجتماع كبير في كنيسة السريان الأرثوذكس ، و حضره حاجو آغا، و إبراهيم باشا محمود بك، و زعماء كل الطوائف و وجهاء القامشلية و رؤساء العديد من القبائل . و قرروا تعيين لجنة مؤلفة من بعض الشخصيات وهي مكلفة بمناقشة لجنة التحقيق .

حسب الرأي العام، ستستمر هذه الحالة لفترة طويلة . يغادر القامشلية عدد كبير من العائلات متجهة نحو حلب .

تستمر السلطات العسكرية في تأمين النظام في المنطقة .

عاد النائب قدور بك إلى القامشلية في الثاني من شهر آب 1937، و كان برفقته جميل ديلنجي، أحد وجهاء الحسجه . حسب إشاعة تنتشر اليوم، ستتوقف لجنة التحقيق في الحسجه حيث سيتم الاستماع لممثلي القامشلية .

خاتم و توقيع

مدير الأمن العام

المفتش العام لشرطة دول المشرق الخاضعة للانتداب الفرنسي

«ملاحظة5: إن أول ما يمكن القول فيه هو ربط الجزيرة بالاستقلال أو الانفصال، والمسألة تتلخص في الطرق التي يخطط لها بغرض المزيد من النهب وكنم الأنفاس».

-14-

(الوثيقة الأولى)

الأمن العام

بيروت في 13 آب 1937

معلومة رقم 4077

أمن حلب، 11-08-37 .

أ/س - اجتماع في المطرانية السريانية الكاثوليكية :

انعقد اجتماع في التاسع من شهر آب عام 1937 في الساعة السابعة عشر، و ذلك في المطرانية السريانية الكاثوليكية، و حضره قساوسة و وجهاء هذه الطائفة .

تم في هذا اللقاء بحث الأحداث الدامية التي حدثت في عاموده (الجزيرة أبرد الحاضرون في اليوم نفسه إلى الكاردينال تابوني في بيروت لإعلامه و مطالبته بالتدخل .

خاتم و توقيع

مدير الأمن العام

المفتش العام لشرطة دول المشرق الخاضعة للانتداب الفرنسي

(الوثيقة الثانية)

الأمن العام

بيروت في 14 آب 1937

معلومة رقم 4099

أمن عام القامشلي، 10-08-37 .

أ/س - الحركة الانفصالية:

لجنة تحقيق مؤلفة من السادة :

توفيق شامية

قطر غاسي

بهيح بك الخطيب

برتقاليان

الكولونيل كويتو

ادموند رابات

وصلت إلى الحسجة في السادس من شهر آب 1937، و اليوم التالي قدّم جميع ممثلي الجزيرة المجتمعين في الحسجة جرداً بكل الأعمال غير العادلة المرتكبة من قبل موظفي الكتلة (الكتلة الوطنية - المترجم)، والتي قد سوغت الانتفاضة في المنطقة. و قدموا بعد ذلك كتابياً مطالب الجزيرة التي تتكون من :

- الحكم الذاتي للجزيرة .
 - تعيين حاكم فرنسي .
 - الاحتفاظ بالقوات الفرنسية بعد رفع الانتداب .
 - حماية عصابة الأمم .
- يقال بأن اللجنة سترزور المنطقة كلها، وهي لا تزال في الحسجة حتى اليوم .
وصل اليوم الكولونيل كويتو لوحده إلى القامشلية. وعاد إلى الحسجة بعد ساعة من التوقف .

خاتم و توقيع

مدير الأمن العام

المفتش العام لشرطة دول المشرق الخاضعة للانتداب الفرنسي

«ملاحظة 6: تصوروا هذه المأساة الأخرى والخاصة بعملية المطاردة التاريخية لكل من يُشكّ في أمره بزعم أنه ضد الدولة، عندما يشدّد على أهمية أن يشعر المواطن أنه مواطن حقاً؟».

- 16-

الأمن العام

بيروت في 17 آب 1937

معلومة رقم 4181

الأمن العام في القامشلية 11-08-37 .

آ/س - مهاجمة عاموده :

المهاجمون بقيادة سعيد آغا، رئيس عشيرة دقورية، و عبدالكريم عيسى من عشيرة الملية، حرقوا الحيّ المسيحي في عاموده، و ذلك بعد غروب الشمس في يوم العاشر من شهر آب عام 1937 .

بعد أن رأوا بأن القيام بأي دفاع قد أصبح مستحيلاً، المسيحيون المعززون من قبل رجال عبيدي آغا خلّو، رئيس عشيرة ميرسنية، قرروا إخلاء المدينة و اللجوء بحماية رجال مسلحين إلى قرية توز العائدة ملكيتها إلى عبيدي آغا .

حسب المعلومات المعطاة من قبل الذين شاركوا في القتال، وقع بين المسيحيين قتل واحد و ثلاثة جرحى، و تم أسر خمسة آخرين من قبل المهاجمين، و مصير الأسرى غير معروف .

لحقَ بالمعتدين حوالي عشرة قتلى، و أحد الزعماء و هو عبد الكريم عيسى تم أسره من قبل عبيدي آغا .

تم نهب أسواق عاموده قبل الحريق. و تم أيضاً نهب و إحراق مستودع مؤسسة التبغ و الجمارك .

في يوم الحادي عشر من شهر آب عام 1937، تم توجيه السرية رقم 19، و فصيلة من اللواء السوري، و مفرزة من الجندرية، و الرشاشات الآلية، و مصفحات، تم توجيهها إلى عاموده للقيام بعملية ذات نطاق كبير .

تؤكد المعلومات التي تستحق الثقة بأن سعيد آغا على علاقة مع السلطات التركية الحدودية. يقال أن سعيد آغا قد قام بالسفر إلى تركيا مرتين أو ثلاثة مرات أثناء مهاجمة عاموده، و بأن ضابطاً تركياً قد زاره في منزله .

خاتم و توقيع

مدير الأمن العام

المفتش العام لشرطة دول المشرق الخاضعة للانتداب الفرنسي

«ملاحظة 7: إن التهلكة في مجال البحث، تتجلى في اللحظة التي يصار فيها إلى اصطناع خطة عمل لا تتميز بالمرونة، والاكتفاء بالثنائيات: مسيحي- مسلمي، كردي - عربي، مثلاً، حيث لا طرف يكسب المعرفة بالمقابل، بالعكس، سوف تتعقد الأوضاع، حيث إرادة العنف تكون فاعلة هنا، أي ساعية لئلا تبقى إرادة ردعية تحيط بالمسألة من الجهات كافة» .

-19-

(الوثيقة الأولى)

الأمن العام

بيروت في 17 آب 1937

معلومة رقم 4174

الأمن العام في سوار 13-08-37 -.

آ/س- عن أحداث الجزيرة :

صرح بدوي الجاسر، مختار قرية «الجيرية» (من تابعة للسوار) لرئيس مخفر الأمن العام في سوار بما يلي :

«تم القيام بكل التحضيرات للقيام بانتفاضة في الجزيرة. كل العشائر التي تحاذي الخابور تنتظر كلمة واحدة من الشيخ دهام الهادي .

«يوصي الوزير مردم بك إلى الشيخ دهام بأن لا يقوم بأية شيء حالياً، خشية من أن يضر عمله بعملية التصديق على الاتفاقية السورية من قبل البرلمان الفرنسي .

و يضيف المختار بأنه :

«لولا الأمل في رؤية التوقيع القريب على الاتفاقية، لكانت الثورة قد اندلعت في الجزيرة منذ وقت طويل .

«في كل الحالات، يُعتقد بأن الشيخ دهام له الرغبة الحاسمة في أن ينتفض، و ذلك بموافقة الوزارة، حتى و لو لم يتم تصديق الاتفاقية. و عندها سيكون مصير المسيحيين مماثلاً لمصير الآشورو-كلدانيين .

«توجد علاقة ما بين الشيخ دهام و زعماء العشائر العراقية، فضلاً عن بعض الزعماء العراقيين، من جهة أخرى، يعتقد بأن الغاية من هذه العلاقة هي تعميم الانتفاضة فوق كل الإقليم .

«العشائر التي تتاخم الخابور تزودت بكمية كبيرة من الأسلحة، و ينتظر الجميع كلمة من الشيخ دهام ./.

خاتم و توقيع

مدير الأمن العام

المفتش العام لشرطة دول المشرق الخاضعة للانتداب الفرنسي

«ملاحظة 8: من يمعن النظر في هذه التوازنات بين العاصمة في شخص الوزير مردم بك، وفرنسا، والتخطيط للانتفاضة في الجزيرة، وما هم عليه المسيحيون في الجزيرة، طبعاً دون أن ننسى الكرد أيضاً، لهالنا توازن الرعب، والذي يمكن تخيله إلى الآن، أي ما يضع السلطة التي تمثل المجتمع في خانة المساءلة، وما إذا كانت باحثة عن معالجة لمشكلة سياسية عامة أم لا، وما للابتزاز السياسي من قبل الحكومة «السورية» من دور في تنمية المشكلة تلك»

(الوثيقة الثانية)

الأمن العام

بيروت في 17 آب 1937

معلومة رقم 4177

أمن قامشليه: 15-08-37 -.

آ/س- مهاجمة عاموده :

قصفت الطائرات عاموده في الحادي عشر من شهر آب عام 1937. أُخليت المدينة بالكامل من قبل السكان، و هي تحترق. جاء المسيحيون إلى القامشلية .

مسيحيو الدرباسية أيضاً يغادرون المدينة .

لا زالت الأسواق مغلقة في القامشلية حيث يستمر فيها الهلع. تجري دوماً الأخبار حول هجوم العشائر المناهضة للانفصاليين

لم تأت لجنة التحقيق إلى القامشلية .

يتواجد هنا الكوماندان (الرائد - المترجم) بونو ، و ذلك منذ يوم أمس .

خاتم و توقيع

مدير الأمن العام

المفتش العام لشرطة دول المشرق الخاضعة للانتداب الفرنسي

«ملاحظة 9: على نوعية القصف يمكن تقدير الضغوط الموجودة من نقاط سلطات مختلفة، سوى أن القصف الجوي نفسه، يعني تعزيز فكرة إرهاب الأطراف

المتقاسمة للواقعة في عامودا وخارجها، والذين يأتون في الدرجة الثانية في التصعيد بالأزمة»

-20-

(الوثيقة الأولى)

الأمن العام

بيروت في 19 آب 1937

معلومة رقم 4215

أمن حماه: 17-08-37 -.

آ/س- عن نجيب آغا برازي :

غادر حماه النائب الوطني (من الكتلة الوطنية- المترجم) نجيب آغا يوم السبت الفائت متوجهاً إلى شمال سورية .

يعتقد بأن المذكور مكلف من قبل الحكومة (العربية- المترجم) بمهمة لدى أكراد هذه المنطقة، يتواجد حالياً في جرابلس، في مقتلى، حيث سيكون ضيفاً على الأخوين شاهين (مصطفى بك و بوزان بك- المترجم). و سيذهب فيما بعد الى الجزيرة.

خاتم و توقيع

مدير الأمن العام

المفتش العام لشرطة دول المشرق الخاضعة للانتداب الفرنسي

(الوثيقة الثانية)

الأمن العام

بيروت في 19 آب 1937

معلومة رقم 4224

أمن حلب: 17-08-37 -.

آ/س- أحداث عاموده :

خلقت أحداث عاموده تأثيراً كبيراً في الأوساط القومية في حلب. استغلت الأوساط الأخيرة هذه الأحداث من أجل شن دعاية اسلاموية (وحدة اسلامية- المترجم)، وذلك بالقيام بتخريجه مفادها أن مسيحيي الجزيرة هم فاعلو الحوادث .

هذه الدعاية، المبنية على روح التطرف، سمحت للكتلة الوطنية بأن تضم إليها قسماً من غير الراضين الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى .

أمّا بالنسبة للمسيحيين، مع تأسفهم على مصير أبناء ديانتهم، فهم يعبرون عن نوع من الرضاء، باعتبار أن هذه الأحداث تقدم، برأيهم، أدلة قاطعة على النوايا السيئة للمسلمين تجاههم. و يضيفون بأن فرنسه و عصبة الأمم ستستطيعان الاستفادة من ذلك من أجل إفشال المعاهدة الفرنسية-السورية (لعام 1936- المترجم)

خاتم و توقيع

مدير الأمن العام

المفتش العام لشرطة دول المشرق الخاضعة للانتداب الفرنسي

«ملاحظة 10: طبعاً، البيت المجتمعي مقبل على الانهيار لأن من يريد ذلك موجود ضمناً، وهذا يستوجب أكثر من رصيد من الحرية الذاتية والإنارة الباطنية للوقوف على حقيقة عناصر كل لعبة، وليس من قوة سياسية على الأرض، إلا وتغامر بأسلوب معينة، أو تتوَع فيه، وعينها على الهدف. .»

-23-

الأمن العام

بيروت في 23 آب 1937

معلومة رقم 4295

أمن حلب : 20-08-37. (مصدر إعزاز)

آ/س- الوضع السياسي في إعزاز :

في الثامن عشر من الشهر الجاري، نحو حوالي الساعة السابعة عشر، ضرب في السوق، أعضاء الكتلة الوطنية في هذه البلدة المدعو حسان تجالاحان، الرئيس السابق للقمصان الحديدية (ميليشيات مسلحة عائدة للكتلة الوطنية - المترجم) ،

و الذي كان قد انضمَّ إلى الحزب المعارض الذي أسسه كلاً من: علي آغا درويش، و الشيخ قدور كريتّي، و فاهري آغا (ربما فخري آغا - المترجم)

أثناء هذه الحادثة، تم إغلاق كافة الحوانيت خشية من النهب. الجندرية، بعد تبليغها حالاً، اتخذت التدابير اللازمة لاستعادة النظام و الأمن العام .

يقال بأن قادة الحزب المعارض مصممون للاعتراض، لدى رئيس الجمهورية السورية، و لدى وزير الداخلية، ضد تصرفات الكتلة الوطنية في إعزاز .

توقيع

مدير الأمن العام

المفتش العام لشرطة دول المشرق الخاضعة للانتداب الفرنسي

(الوثيقة الثانية)

الأمن العام

بيروت في 24 آب 1937

معلومة رقم 4298

أمن حلب : 20-08-37 - .

آ/س- نجيب آغا البرازي :

في الثامن عشر من الشهر الجاري، وصل إلى حلب، نائب حماه، نجيب آغا البرازي، و كان قادماً من جرابلس حيث كان قد ذهب مع جميل إبراهيم باشا، لمقابلة الأخوين شاهين (مصطفى بك و بوزان بك - المترجم) في اليوم التالي زار محافظ حلب، و تباحث معه طويلاً .

ذهب فيما بعد إلى مكتب الكتلة الوطنية حيث التقى بوزير العدل .

توقيع

مدير الأمن العام

المفتش العام لشرطة دول المشرق الخاضعة للانتداب الفرنسي

(الوثيقة الثالثة)

الأمن العام

بيروت في 23 آب 1937

معلومة رقم 4302

أمن حماه : 21-08-37 .

آ/س- عن نجيب آغا برازي :

عاد النائب الوطني (من الكتلة الوطنية-المترجم) نجيب آغا برازي، من جولته في الشمال السوري، وذلك بأوتوماتريس يوم العشرين من شهر آب عام 1937 .
يتم الاعتقاد في الأوساط المحيطة لهذا «الزعيم» بأنه لم ينجح في مهمته بشكل تام، وذلك سواء لدى الأخوين شاهين أم لدى بعض الزعماء الكرد الذين اتصل بهم بأمر من حكومة دمشق .

توقيع

مدير الأمن العام

المفتش العام لشرطة دول المشرق الخاضعة للانتداب الفرنسي

«ملاحظة 11: يمكن النظر في الوثيقة أحياناً على أنها صيغة خبرية لنشاط سياسي على مستوى الدولة أو جهة حكومية، كما في تغطية مهمة برازي، وما كان يؤمل في إنجاحه، في ضوء توترات المنطقة، سوى أن الخبر وثيقة، لأنه يرتبط بوضع استثنائي، كما يظهر» .

- 27 -

(الوثيقة الأولى)

الأمن العام

بيروت في الثاني من أيلول 1937

معلومة رقم 4539

أمن حلب : 1-9-37 - .

آ/س- مراسم لذكرى الجنرال صدقي باشا
يُشار إلى أن الأوساط الكردية في دمشق تستعد لإقامة مراسم ليوم الأربعين
من موت الجنرال العراقي صدقي باشا (من أصل كردي)
يقال بأن الكتلة الوطنية تضغط على الحكومة لحملها على منع هذه المراسم،
متذرة بأن بكر صدقي كان عدواً للعرب .

خلق هذا الموقف من الكتلة نوعاً من التذمر في الحي الكردي .
توقيع

مدير الأمن العام
المفتش العام لشرطة دول المشرق الخاضعة للانتداب الفرنسي
- 28 -

(الوثيقة الأولى)
الأمن العام

بيروت في الثالث من أيلول 1937
معلومة رقم 4555
أمن حمص : 1-9-37 .-

آ/س- بطيريك اليعاقبة و أحداث الجزيرة :
البطيريك السرياني الأرثوذكسي افرام الأول، الذي يرأسل حاجو آغا بشكل
منتظم، ممتعضاً جداً من الأخبار الواردة من الجزيرة. فحسب هذه الأخبار،
حذرت السلطات العسكرية سكان عاموده بضرورة العودة إلى قراهم تحت طائلة
حجز أموالهم لصالح الأكراد . فضلاً عن إجبار كل رب أسرة بتسليم بندقية و
طلقات، أو دفع المقابل الذي هو عشرة ليرات تركية ذهبية .
أعلم حاجو البطيريك أيضاً بأن الحكومة السورية، رغماً عن وعد ممثل دير
الزور (ممثل المفوض السامي - المترجم)، تقوم بتعيينات الموظفين المسلمين .

يؤكد افرام الأول، بأن وفداً من وجهاء المسيحيين و الأكراد سيجمع الأموال لكي يتمكن من الذهاب إلى باريس لعرض مطالبهم أمام الوزارة الفرنسية مباشرة .

البطريك الذي كان ينوي الذهاب بنفسه إلى باريس، تولى عن مشروعه . انه يقترح إرسال تقرير مفصل حول أحداث الجزيرة إلى كل من رئيس الجمهورية (الفرنسية - المترجم) و إلى السيد م. ديبلوس و إلى دوتيسان، ليثبت بأن الجزيرة لا يمكنها العيش إلا تحت رعاية فرنسا . انه سيضيف إلى تقريره عريضة يعرض فيها وجهاء هذه البقاع الأسباب الموجبة للمطالبة بالإدارة الفرنسية المباشرة .
الاتصال مع البطريك قائم بغية معرفة فيما إذا سيحقق مشروعه .

توقيع

مدير الأمن العام

المفتش العام لشرطة دول المشرق الخاضعة للانتداب الفرنسي

«ملاحظة 12: البطريك في اتصاله بحاجو آغا، يؤكد خطورة واقعة اجتماعية وسياسية في آن، ولكنها تتعدى نطاق عامودا والجزيرة بالذات، إلا أن المؤكد، كما يلاحظ، هو في مكانة حاجو آغا، والبطريك يرجو منه، أو يعلمه بالحدث الخطير ذلك، وإمكان حله، أي في قدرة حاجو على تطويق الأزمة، وهو ليس مقيماً في عامودا، وما في ذلك من دور نافذ» .

-29-

الأمن العام

بيروت في الرابع من أيلول 1937

معلومة رقم 4612

أمن حلب : 2-9-37 - .

آ/س- عن الجزيرة :

قررت «لجنة الدفاع عن الجزيرة» إرسال وفد إلى فرنسا و إلى جنيف .
سيتشكل هذا الوفد من :

الكاردينال تابوني، و البطريك افرام برصوم من الطائفة السريانية الأرثوذكسية،

و من الشيخ ميزر عبد المحسن رئيس عشيرة الشمر، و من خليل إبراهيم باشا و حاجو آغا، و هما زعيمان كرديان كبيران .

لتأمين مصاريف سفر هذا الوفد، تم فتح اكتاب (جمع أموال - المترجم) و قد دفع الأشخاص التالية أسماؤها المبالغ التالية :

-الشيخ ميزر عبد المحسن 300 ليرة سورية

-خليل إبراهيم باشا 400 ليرة سورية

-حاجو آغا 400 ليرة سورية

-عبدي آغا خلّو 200 ليرة سورية

-نايف الحسن 200 ليرة سورية

-دريش حاج موسى 200 ليرة سورية

-نايف المصطو، زعيم الكوجر 200 ليرة سورية

-عبد العزيز المسلط 100 ليرة سورية

المجموع: 2000 ليرة سورية

يتأكد بان سكان الجزيرة لازالوا يثقون بفرنسا و مصممون على النضال حتى الأخير ضد السلطات الوطنية (الكتلة الوطنية - المترجم) التي لا يريدون الاعتراف بها .

و لكن أمام الموقف المحايد للسلطات الفرنسية، يصرح المسيحيون علناً بأنهم لا يستطيعون التعويل على فرنسا من أجل حماية حكمهم الذاتي، إنهم سيطلبون قوة أجنبية أخرى، و يفكرون منذئذ بالمطالبة بحماية ايطاليا .

تدل كل المؤشرات، من جانب آخر، على أن هذه القوة (ايطاليا - المترجم) تنتظر فرصة من أجل تقديم الحماية لأقليات الجزيرة .

توقيع

مدير الأمن العام

المفتش العام لشرطة دول المشرق الخاضعة للانتداب الفرنسي

«ملاحظة 13 : أترانا في عداد السِّلْم الأهلي تجاه عملية التشارك في النقاش الجاري، وبخصوص الوفد، وتأمين نفقات السفر؟ ومَن المبادر إلى ذلك بداية؟ من صاحب الفكرة؟ ثمة الحكومة الفرنسية قبل كل شيء، وثمة إلحاح مشترك في الجزيرة لمعالجة مشكلة سياسية، لها صلة بوضعية إدارة الجزيرة، وأن يكون حاجو آغا أعد المساهمين، فهو تأكيد لموقعه.»

-33-

(الوثيقة الأولى)

الأمن العام

بيروت في الخامس عشر من أيلول 1937

معلومة رقم 4855

أمن حلب : 13-9-37 -.

آ/س- اشتباك دموي بين المريدين (الوطنيين) و الأكراد (الانفصاليين) في كرد- داغ :

في ليلة الثامن عشر - التاسع عشر من الشهر الجاري، في منتصف الليل، وقع اشتباك جدي في تجتل-كوي (كرد- داغ)، بين المريدين (من أنصار الوطنيين) و الكرد (الانفصاليين).

تم قتل ثلاثة من المريدين و اثنان من الكرد .

حسب المعلومات الأولية الواردة إلى الإدارة، يبدو أن المريدين هم الذين هجموا .

توقيع

مدير الأمن العام

المفتش العام لشرطة دول المشرق الخاضعة للانتداب الفرنسي

«ملاحظة 14 : وثيقة خبرية من نوع آخر، ترفع إلى الجهات إلى المعنية، مثلما أنها جاءت أو تأتي بتفويض من الجهات المعنية، لأجل الحفظ بها، والاستعانة بها

عند اللزوم، ومن المؤكد أيضاً، أن هذا الإجراء له تأثير في النطاق الدبلوماسي، أو السياسي بين أكثر من طرف، ويلوح بالوثيقة أيضاً في مواجهة حقيقة معينة ..»
نماذج من ثورة ديرسيم في الوثائق الفرنسية - خالد عيسى، في 14 تموز 2009، موقع «كلكامش»:

-1-

سفارة فرنسا في تركيا

الملحق العسكري و القوى الجوية

ن: 104 / آ.م

استانبول في 12 نيسان 1937

النسخة رقم: 1

سري

من الكولونيل كورسون، الملحق العسكري و القوى الجوية في تركيا

إلى السيد وزير الدفاع الوطني و الحرب. هيئة أركان الجيش - المكتب الثاني

في باريس

المرسل إليهم :

- هيئة أركان الجيش - المكتب الثاني: النسخ رقم. 1-2-3-4-5

- السفارة: النسخة رقم 6

- الأرشيف: النسخ رقم: 7-8 -

خاتم وارد هيئة أركان الجيش، تاريخ 20 أيار 1937

- التعبئة الجزئية للقوات التركية على الحدود السورية

ألقى وزير الداخلية في 4 نيسان خطاباً هاماً أمام الجمعية الوطنية الكبرى

بخصوص الأمن الداخلي .

كان الهدف من هذه المبادرة هو تنبيه البلاد، بل إنذارها، بالإشارة إلى غارات

العصابات التي وقعت مؤخراً في شمال الحدود السورية .

من المؤكد، في الحقيقة، بأنه تمت في الأسابيع الأخيرة في الأراضي التركية تفجيرات و أعمال سطو و أعمال قطع الطرق، وذلك من قبل العصابات المسلحة التي تقول تركية بأنها مشكلة في سورية، و التي تلقى هناك الملجأ بعد اقتراف جرائمها .

حسب خبرية قادمة من سورية - تم قتل عشرة عساكر أترك على الأقل خلال الاشتباكات مع هذه العصابات- لا يتم الحديث عن الجرحى .

أعلن وزير الداخلية للبرلمان بأنه أمام هذه الحالة، اتخذت الحكومة القرار بتعبئة قوات الحرب، وذلك باستدعاء الاحتياطيين، و إحدى فرق منطقة الحدود، و بأنه إذا بدا بأن هذا التدبير غير كاف، ستتم تعبئة قوات أكثر .

من واقع هذه التعبئة الجزئية - و نحن نعرف، في الواقع، بأن الاحتياطيين قد تم استدعاءهم إلى المناطق العسكرية في أضنه، و في سيزارة في مالاتيا- و بدون أي شك في منطقة ديار بكر التي هي بالذات منطقة هذه المعارك، هذا ما يبيّن بأن الوضع جدّي. (نذكر بأن قوات الحرب لفرقة مشاة تركية هي بحدود 13000 عسكري، بما فيهم لواءين اثنين من المدفعية)

«ملاحظة 1: علينا النظر في ساحة المخاوف القائمة، وكيف تراقب الحكومات بعضها بعضاً، إنما معاينة وطأة الوضع، وخطورة التحدي بالنسبة لدرسيم/ ديرسيم ومدى ضغط الكرد ؟»

-6-

14 آب 2009

لأمن العام

بيروت في العاشر من شهر تموز 1937

معلومة رقم 3478

الأمن العام في إعزاز -6-7

أ/ س عن الحركة الكردية :

حسب المعلومات المحصول عليها من المسافرين الأتراك، إن الجنرال آلب-دوغان، قائد القوات (التركية-المترجم) في ديرسيم، قد أمر الطيارين باستعمال قنابل الغازات الخانقة ضد المنتفضين الكرد في هذه المنطقة .

يقال بأن هذا التدبير قد سبب أثراً سيئاً جداً على المتمردين، و أدى إلى موت العديد من العائلات الكردية و مواشيها .

يقال بأن سيد رضا، زعيم المنتفضين في ديرسيم، قد تقدم باستنكار شديد لدى موسكو ضد وحشية الجنود الأتراك .

خاتم و توقيع

مدير الأمن العام

المفتش العام للشرطة .

«ملاحظة 2: على مستوى الداخل والخارج، يمارس الخبر تأثيره الإعلامي والدعائي، وهذا يعني أن ضراوة المعركة هائلة، أن حجم الدمار كبير، والضحايا كثر بالمقابل».

=====

نماذج من ملفات علي يونس :

ح2-29 ديسمبر 2009

الوثيقة الأولى -

باللغة التركية.

الجمهورية التركية

السفارة

بيروت

11/1

- باللغة الفرنسية.

مستعجل

بيروت في الثالث من كانون الأول عام 1938

إلى سيادة الكونت د . دومارتيل سفير فرنسة، مفوض سامي

بيروت

السيد المفوض السامي

رجال العصابات ملا شرفلي عبد الرحمن والشيخ عبد القدوس المتهمان
بأعمال قطع الطرق في المنطقة التركية من الحدود، دخلا الأراضي السورية حوالي
منتصف شهر أيلول عام 1937 .

رداً على طلب التسليم الموجه من قبل قائم مقام نصيبين الى الضابط
الفرنسي لإدارة المخابرات في قامشلي، أجاب هذا الأخير بأن تسليمهما لن يتم
قبل إتمام الإجراءات المتعلقة بذلك .

حيث أن، في هذه الحالة، قد تم اقتراح الجرح في المنطقة الحدودية، لي
الشرف ، بناءً على طلب حكومتي، أن أرجو سيادتكم بالفضل باعطاء التعليمات
اللازمة الى ضابط القامشلية لضمان تسليم رجال العصابات المذكورين إلى
السلطات التركية الحدودية .

«ملاحظة 1: ربما كان في الإمكان دراسة العائلات الكردية وهي تخرج من
نطاقها الفردي الضيق، أو كما في صيغة «مالا: آل، عائلة، أسرة»، وهي لم تعد
معنية بمواجهة مشكلة تقتصر عليها، إنما ذات طابع اجتماعي وسياسي، كما
الحالة هنا، وتحريّ بنية التركيبية القرابية بين أفرادها، وكيف كانوا يتعاملون مع ما
جرى، وكيف بدأت المواجهة لجعل التاريخ أرحب»

=====

من ملفات مالا علي يونس - 3-

29 ديسمبر 2009

من فيليب دافيد إلى المفوضية السامية

المفوضية السامية

للجمهورية الفرنسية

في سورية و لبنان

ممثلة حلب

++++++

الجمهورية الفرنسية

=====

من نائب ممثل المفوض السامي لمحافظة حلب
إلى السيد المفوض السامي للجمهورية الفرنسية
(المكتب السياسي) في بيروت

رقم: 1048/س.ب./ف

حلب في 16 من شهر نيسان عام 1938

مذكرة إحالة

مضمون الوثائق :

نسخة من رسالة مرسلة إلى السيد نائب ممثل المفوض السامي في الدير
آ/س عن الشيخ عبد القدوس، و عبد الرحمن مالاشرقلي و رفاقهما
العدد: 1

مسجل في وارد المفوضية السامية .الأمانة العامة

برقم 6927 وبتاريخ التاسع عشر من شهر نيسان عام 1938

. مسجل في وارد المكتب السياسي برقم 2919

و بتاريخ العشرين من شهر نيسان عام 1938

من فيليب دافيد إلى م.ج

رقم: 1048/س.ب./ف

في السادس عشر من شهر نيسان عام 1938

من نائب ممثل المفوض السامي لمحافظة حلب

إلى السيد نائب ممثل المفوض لأقاليم الفرات في دير الزور

عملاً بتعليماتكم، ضابط إدارة المخابرات، رئيس مخفر القامشلية، الكابيتن
عزيز(النقيب - المترجم) وأرسل لي الوثائق التي كنت قد طلبتها في برقيتي رقم 34/
س.ب./ف. المؤرخة في الثامن من شهر نيسان عام 1938 .

هذه الطلبات السبعة عشر المتعلقة بتوقيف و تسليم الشيخ عبد القدوس و عبد الرحمن مالا شرف و رفاقهما ، المرسله من قبل قائم مقام نصيبين إلى مخفر حدود القامشلية ، لا تتضمن، في غالبيتها، أية من المعلومات الدقيقة التي تقدم عادة، في موضوع من هذا القبيل، بمقتضى تعامل حدودي مستقر بشكل متين، و كما عملت على ملاحظته أنا، تبدو السلطات التركية متمسكة بشل خاص بهذا التعامل، و باللجنة الدائمة للحدود .

يكفي مجرد هذا التثبت لتبرير استنكافنا؛ ومع ذلك، أمام إصرار السلطات التركية، لنا المصلحة في القدرة على تدعيم متين لرفضنا المحتمل .
سأكون أيضاً ممنوناً لكم إذا ما أرسلتم لي المعلومات التالية :

1. تاريخ دخول الشيخ عبد القدوس، و عبد الرحمن مالا شرف و رفاقهما إلى الأراضي السورية .

2. التاريخ الدقيق الذي سلّم فيه فعلاً قائم مقام نصيبين طلبات التوقيف و التسليم إلى ضابط إدارة مخابرات القامشلية .

3. في هذا التاريخ، هل كان الأفراد المطلوبون متواجدين أم لا في منطقة الكيلومترات الخمسين في الأراضي السورية (على بعد 50 كم. من الحدود - المترجم). هذه النقطة مهمة؛ لدي من الأسباب التي تجعلني أقتنع، في الواقع، بأن الأعمال الجنحية التي يتم مؤاخذه الشيخ عبد القدوس وغيره قد تم إرتكابها خارج منطقة الخمسين كيلومتراً التركية (من الحدود التركية - المترجم).

وعليه، فيما إذا كانت طلبات التوقيف قد سلّمت الى مخفر حدود القامشلية في الوقت الذي كانت الأفراد المطلوبة قد غادروا منطقة الخمسين كيلومتراً السورية، الإجرات الحدودية (حسب إتفاقيات الحدود و ملحقاتها - المترجم) غير نافذة، و يتوجب على السلطات التركية، من أجل الحصول على التسليم، اللجوء الى إجراءات الإسترداد القضائي بالطريق الدبلوماسي .

4. أعلمتموني ببرقيتكم رقم 7/136 بأن عبد الرحمن مالا شرف و عبد القدوس و ابن هذا الأخير كانوا في دمشق. هل صدر قرار إداري لإجبارهم بهذه الإقامة .

5. هل يسكن مرافقوهم في منطقة الخمسين كيلومترا السورية؟ - في حالة الإيجاب، هل ترون ما يمنع من إتخاذ قرار لمنعهم من الإقامة في هذه المنطقة؟

أرجع بخصوص مداخلة الوفد التركي لدى اللجنة الدائمة للحدود إلى محضر اجتماع الجلسة الثالثة (الصفحة السابعة وما بعدها) من الدورة السابعة و ملحقه (مقتطف من محضر الجلسة التاسعة).

التوقيع: فيليب دافيد

ملفات علي يونس

ح 8 في 6 فبراير 2010

في هذه الحلقة نترجم و نعرض لكم طلب التوقيف و التسليم الصادر من السلطات التركية بحق الشيخ عبد القدوس، و المرسلة إلى السلطات الفرنسية. و هذا الطلب، و طلبات التوقيف و التسليم الأخرى، محرر باللغتين التركية و الفرنسية .

مخفر :

طلب التوقيف و التسليم

رقم: 1

اسم الظنين (1): عبد القدوس

اسم أب الظنين: شيخ خالد (حسين خالد)

اسم أم الظنين: هاتي

محل الولادة: قرية داخلية، من ناحية جاجاس، قضاء ساسون، ولاية سيرت

تاريخ الولادة: 1325

جنسية الظنين: تركية

تاريخ الوقائع: 1935/12/7، و 1937/8/20

محل الوقائع: قرية تلميس و ساليب، بشرية

نوع الوقائع: جعل من نفسه مريداً (التدفع في طريقة)، قتل و اغتصاب و أخرى .

خلاصة الوقائع: قتل و اغتصاب زوجة و أطفال إسماعيل من قرية ساليب .

الاتجاه الذي اتخذته الفار: سورية

محل اللجوء المحتمل: قضاء قامشلية

نطلب توقيف و تسليم الظنين

نصيبين، في 15 تشرين الثاني عام 1937 .

التوقيع

نسخة طبق الأصل، في الرابع من شهر كانون الثاني عام 1938 (كلمة غير مقروءة).

ملاحظات :

- 1- يمكن تكملة هذه المعلومات الأولية لاحقاً .
- 2- سيتم أخذ آثار المظنون بهم الذين لم تتأكد هوياتهم فور استلام هذا الطلب: سترسل نتيجة التحقيقات بالسرعة بالممكنة إلى السلطة المطالبة .
- 3- إذا كان غير معروفاً ملجأ و هوية الظنين، سيجري تحقيق بدون تأخير، و سيتم إعلام السلطة المطالبة بالنتيجة .

ملاحظة من المترجم :

-(1)الظنين هو الشخص الذي يشتبه في ارتكابه جنحة، و المتهم هو من يشبه في ارتكابه جنائية. و في النص الفرنسي للطلب يتم الخلط بين المصطلحين «ملاحظة: لو كان هناك متسع من الوقت لأوردت هنا الكثير منه، أولاً للتركيز على طريقة تناول السلطات الغاصبة والمستبدة للکرد، كمثال بحثي، وعدم الادّخار في تنحية أي جزيئة سياسية ليكون موقعها متماسكاً، وثانياً، إبراز هول المفبرك من قبل هذه السلطات، والذين يمثلونها، وهي تحولّ المعتبر مجنياً إلى مجرم، وليس بوصفه مدافعاً عن قضية تتعدى الذاتي فيه، وثالثاً، في تسليط الأضواء على ما يلي وثيقة كهذه، حين تساق إلى نطالق الورقة، ويُستشهد بها، وهي تدم القائمين بالانتفاضة، وتقبيح كل مسلك شخصي واجتماعي وسياسي، كما هو الممكن التعرف إليه من خلال مئات النصوص قديماً وحديثاً، باعتبارها وثائق، وإن خلّت من المحرّر الوثائقي ليكون لها أكثر من منفذ إلى الخارج، وعدم تعرضها للتشكيك، وكأن كاتبها طرف مستقل»

=====

تنويه: كما أوضحت الموقف آنفاً، فإن هذه اللائحة الاسمية موضع اختبار لذائقة القارئ السياسية، بمقدار ما أنها تعانٍ فيه قواه النفسية وكيفية ضبط الملابس، بالنسبة لأي جملة وصفية أو تقييمية لهذه الشخصية المسماة أو تلك، إذ ليس كل ما ورد من معلومات بصحيح، وليس بكل ما يمكن التفكير فيه خارجاً، بمعدوم القيمة حقاً، وأن كل شخصية لها تصريح معين، وهي محل مكاشفة تأريخية ضمن لائحة الشخصيات الأخرى، أو بمفردها، ولكل حالة إحالة، وما يتعلق بساعة تحرير «السيرة» هذه، وأين وكيف، ومدى «عدالة» المعلومات المثبتة»، والجدير بالذكر، هو أنني لم أعثر على وثيقة تخص شخصية حاجو آغا، ولا بد أنها موجودة، كيف لا وأن ثمة شخصيات وجدت طريقها إلى الأرشيف الفرنسي الوثائقي، لا أعتقد أنها في مقام حاجو آغا اعتباراً، وكلّي يقين أن مترجم هذه الوثائق خالد عيسى، لديه نسخة عنه، ولم يشأ ترجمتها أو نشرها، لأسباب تعنيه، أو لتقدير خاص منه:

مذكرة عن سيرة

نجيب آغا برازي

الاسم والشهرة :

نجيب آغا برازي

محل و تاريخ الولادة :

1878، حماه

الصلة العائلية و المصاهرة بالنساء :

متزوج للمرة الأولى مع ابنة المرحوم جلال الكيلاني، و للمرة الثانية مع ابنة

الوجه البيروتي مأمون المأمون، شقيقة الزعيم القومي السابق سيف الدين المأمون .

زعيم غالبية عائلة برازي. و هو عم حسني بك برازي، الرئيس الحالي لمجلس

الوزراء، و عم محسن بك برازي الاستاذ في كلية الحقوق و الوزير سابقاً .

الوضع المالي الحالي :

نقداً: 500000 ليرة لبنانية- سورية

ملكية عقارية: 13 قرية و ملكيات مبنية أخرى

الماضي السياسي و الاداري :

من 1919 حتى 1925 : يتعامل مع الملك فيصل الأول و القوميين العرب. و رئيس بلدية (1919-1921) .

1925 : يوافق على الثورة لكنه لا يتعاون مع الثوار. تم اعتقاله لمدة ثلاثة أشهر في بيروت .

1927 : 1928-ينضم إلى الوطنيين السوريين .

1931: 1932- يشارك بنشاط كبير في الانتخابات الدموية ضد ابن أخيه حسني بك برازي و نوري كيلاني، تم انتخابه نائباً على القائمة المناوئة للحكومة .، والأهم هو وجوب التدقيق في كل ما يُكتب، حتى لو علامة ترقيم، لأن الجهة المحررة رسمية، وفي قسم المحفوظات، ومن ثم، تدار المسألة من نواحي شتى، بين أن تكون شخصية مقربة من هذه الجهة الحكومية أو تلك، أن تكون متعاونة مع الحكومة الفرنسية وكيف ، أم لا ؟ وأي كردية تتمثلها»

1936 : يشجع المضربين أثناء الاحتجاجات المناهضة للانتداب. تم وضعه تحت الإقامة الجبرية في بيروت . و تم انتخابه نائباً للمرة الثانية .

1940- 1941 : يرأس لجنة مساعدة المتمردين العراقيين .

الميلول السياسية الحالية و اتصالاته :

بعد هزيمة فرنسه، نجيب آغا برازي أصبح موالياً بشكل واضح للألمان. و يمكن عندئذ تحديد طريقة سلوكه كالتالي: «منطق الأقوى هو دائماً الأفضل» . بعد احتلال الحلفاء لسورية، يحتفظ للمحور بنوع من «الحياد الودي»، و لكن يتصل بمبعوثي الانكليز، الجنرال آرثور جيلسن و الماجور عابدين بك هوشيمي. الآن و بعد أن يرى بأن فرنسه قد بدأت تنهض، يحاول التقرب من الفرنسيين. إذا كانت تصريحاته صادقة، انه «مع فرنسة يمكن التفاهم أفضل». لم يعد يرغب في الألمان: إنهم أفظاظ أكثر من اللازم، ومع الايطاليين «يكون موت البلاد»، و عن الانكليز «نتذكر أفعالهم». أما عن الوحدة العربية، فانه لم يعد يؤمن بها .

من وجهة النظر الداخلية، نجيب برازي وطني مقتنع و يشكل في حماه جماعة لحالها. في حين تعتمد «أخوته» في حركتهم على الجماهير، فهو يسعى كسب الطبقة الوسطى لنفسه .

ما عدا الوطنيين مثل محمد البارودي، و خضر شيشكلي في حماه، هاشم بك أتاسي و مظهر باشا رسلان في حمص، شكري القوتلي، جميل مردم بك و لطفي الحفار في دمشق، نجيب آغا برازي يعاشر ، هنا، الأوساط الدينية المسيحية و الإسلامية: البطريرك اليوناني- الأرثوذكسي لحماه مونسنيور أغناطيوس حريكه، و العالمين الشيخ أحمد بن شيخ سالم و الشيخ محمود الشقفة .

النفوذ :

نجيب آغا برازي له نفوذ، و بشكل خاص على أفراد عائلته (150-200 شاباً)، و على قسم كبير من التجار، و أيضاً على الزعماء الدينيين الأكثر نفوذاً. لكن، نظراً لموقعه كإقطاعي كبير غني و مضاعف بالبخل، فنفوذه على فئات الشعب الدنيا محدود جداً في المدينة. و مع ذلك لا يخشى من الإقدام على التضحيات بالمال و الأرواح من أجل سحق أعدائه السياسيين .

«ملاحظة قائمة: هنا، على سبيل المثال، ماذا تعني عبارة «وطني مقتنع» ومن وجهة نظر الداخلية؟ أكثر من اعتباره متجاوباً مع تعليمات وزارته، أي وفق سياسة معمولة، تعني الكتلة الوطنية كاتجاه سياسي، وكحزب، وليس لأنه كردي الأصل، كما هو الممكن فصلاً بين هذا الوزير وشخصية كردية أخرى: حاجو آغا، قدرتي جان، قدور بك ... الخ»

مذكرة حول الدكتور كاميران بدرخان

ولد الدكتور كاميران بدرخان في مقتله، قضاء جرابلس، في عام 1885. يتكلم و يكتب بالكردية و الفرنسية و الانكليزية و الألمانية و التركية و اليونانية و العربية. مجاز في الحقوق من جامعة قسطنطينوبل، و دكتور في الحقوق من جامعة لايبزيخ. مارس مهنة المحاماة في قسطنطينوبل و في بيروت. حالياً هو المدير- المالك لصحيفتين كرديتين، «روجا نو» (و فيها صفحة بالفرنسية «اليوم الجديد») و «ستير». و مؤلف لترجمة كردية للقرآن، و لقاموس كردي-فرنسي و فرنسي-

كردي، و لقواعد الكردية بالفرنسية (كتبت بالتعاون مع الكابتن روندو)، و كتب أخرى مدرسية و مؤلفات في الأدب الكردي. تم نشر أشعاره في مجلات فرنسية .

يقيم في بيروت في شارع كراهام

زعيم الحركة القومية الكردية في سورية و في لبنان هما الدكتور كاميران بدرخان و أخوه الأمير جلادت بدرخان المقيم في دمشق، و لهما مستوى أعلى بكثير، كقيمة ثقافية، من بقية الزعماء الكرد في البلاد. و الاثنان هما من ذوي الثقافة و العقلية الأوربيتين، و يجعلان في يديهما مبادرات الأنشطة الثقافية و السياسية للحركة .

و يحتفظان بعلاقات وطيدة مع الشخصيات الأساسية الكردية في البلاد التي بدورها تخضع تقريباً على نسق واحد لتعليماتهما .

كنيتهما – هي لجدهما، أمير البوتان، الذي كان آخر أمير كردي مستقل و الذي قاد خلال 15 عاماً الحرب ضد الأتراك- و إخلاصهما المطلق الذي يبرهنان عليه بفعاليتهم القومية، يمنحهما مكانة كبيرة، سواء في سورية أو في تركيا أو في العراق و حتى في إيران .

منذ أن دخلت القوات الحليفة في المشرق، كان الأخوان بدرخان على اتصال مع هيئة الأركان الفرنسية. الكوماندان فوليو و الكوماندان ربييتون، و الكولونيل بواسو، و الكوماندان لأكروا، و السيد كوتيه كانوا شهوداً على حسن إرادتهما في خدمة القضية الفرنسية .

«ملاحظة قائمة: ثمة نبرة رضا من هاتين الشخصيتين، أعني بهما الأخوين بدرخان، وقد ذكر جلادت مع أخيه كاميران، ولكن صيغة الوثيقة تظهر أنهما كانا منخرطين في أعمال مختلفة لا تسخط فرنسا بالذات، لأنها كانت تبحث عن فرصة عمل ثقافية و ثقافية لخدمة قضية قومية تتم محاربتها، وبالتالي، فإن في ذلك التزاماً بالتعليمات، وتفاعلاً مع ثقافة رسمية موجودة».

سنعرض في هذا العدد السجل الشخصي للسيد سعيد آغا الدقوري، الذي كان رئيساً لبلدية عاموده، و نائباً في البرلمان السوري عن قضاء القامشلية. وسنرفق صورة عن هذا السجل .

قضاء قامشليه

الدولة :

سورية

المنطقة :

عاموده

الاسم :

سعيد آغا

اسم الأب :

محمد آغا

تاريخ الولادة :

1899

محل الولادة :

عاموده

التعليم :

يكتب بالعربية، و يتكلم بالكردية و بالتركية .

الإقامة :

قرية ترزي (منطقة عاموده)

الحزب السياسي :

وطني- متطرف

الوضع المهني :

رئيس عشيرة دقوري

الوظيفة العامة :

رئيس سابق لبلدية عاموده. نائب عن قضاء القامشلية .

النفوذ :

مؤثر جداً على عشيرته

الموقف تجاه مسائل المصلحة العامة :

متحفظ، يأمل في عودة الحكومة الوطنية في سورية

المذهب :

مسلم سني - كردي

عموميات :

ماكر، متطرف. في عام 1937 قاد مجازر عاموده. و من ثم التجأ إلى العراق حيث بقي حتى شهر آب 1943. موال مقتنع لألمانيا. تطور كثيراً بعد نجاحات الحلفاء. انتهزني. سيلتحق على الأرجح بأنصار الوحدة العربية .

قامشليه في 14 آب 1943

«ملاحظة قائمة: ثمة طرافة هائلة في كتابة هذه السيرة، حيث تعني شخصية كردية محلية لها قوام عشائري وحضور اجتماعي وسياسي في آن، لكنها غير ملتزمة بالتعامل مع فرنسا بالذات كما تريد، ولهذا فإن دقوري الموصوف بأنه ماكر وقومي متطرف، يعني إقصاءه عن ساحة السياسة الفرنسية الرسمية، وعلى قدر نبذه، يعني عدم التزامه بالسياسة الفرنسية تلك، في ضوء أحداث عامودا طبعاً، وما في ذلك من مفارقة في الانطباع الشعبي والرسمي.

ينظر مثلاً، ما كتبه خالد عيسى في مقاله: انتفاضة سعيد آغا دقوري، موقع «عامودا» الالكتروني، بتاريخ 10 ديسمبر، 2011، ومن باب الإضاءة أكثر، مستهلاً بالتالي:

كانت عشيرة كابارة الكردية، المتمركزة في عامودا، ذات نفوذ ضعيف نسبياً، ففضلت التحالف مع قبائل من عشيرة الدقوري التي كانت تتمركز في بلدة عامودا و تنتشر حتى شمال الحدود. كان هذا التحالف يهدف بشكل أساسي إلى تقوية النفوذ العشائري للدقوريين و الكاباريين، هذا النفوذ الذي كان قد تزعزع شرقاً من قبل الميرسنيين وغرباً من قبل المليين

في عام 1936، تشدد الفرنسيون في مطالبة فلاحي منطقة عامودا بالضرائب، و أصبح المستشار الفرنسي يصر على أن يتم فض المنازعات عن

طريق المحاكم و ليس عن طريق زعماء العشائر المحليين أو مرشحيهم كما كان الأمر فيما مضى .

اتفق زعيم الكاباريين شيخموس هسو، مع زعيم الدقوريين سعيد آغا الدقوري للتمرد على أوامر الفرنسيين، و الانتفاض ضدهم. فتم تعبئة الجماهير و تسليحها بعد تشكيل مجلس «عشائري عسكري» بقيادة سعيد آغا .

ما أن جاء صيف عام 1937، وبدأ جني المحاصيل الزراعية، حتى أن كثفت السلطات المحلية في عامودا من جباة الضرائب من ناحية، و فرضت الحراسة و الحجز الاحتياطي لصالح المرابيين، على غلة أغلب الفلاحين من ناحية ثانية. فقرر سعيد آغا استثمار ردة فعل الفلاحين ضد هذه الإجراءات، فأبلغ رؤساء العشائر و القبائل التي كانت قد قبلت الانتفاضة ضد الفرنسيين بضرورة عدم دفع أية ضريبة للجباة، و طرد ممثلي السلطة من المنطقة بكاملها .

- شخصيات كردية في وثائق فرنسية-7

سنعرض في هذا العدد السجل الشخصي للسيد خليل بك ابن إبراهيم باشا المللي، الذي كان نائباً عن الجزيرة في البرلمان السوري. وسنرفق صورة عن هذا السجل .

قضاء راس العين

الدولة :

سورية

المنطقة :

رأس العين

المذهب :

مسلم سني

الاسم :

خليل بك

اسم الأب :

إبراهيم باشا

تاريخ الولادة :

ويرانشهر (تركية في 1894)

محل الولادة :

ويرانشهر

التعليم :

لا بأس

محل الإقامة: المدينة أو القرية :

رأس العين

الحزب السياسي :

وطني

الوضع المهني :

مزارع، رئيس عشيرة المللي

الوظيفة العامة :

نائب سابق كتلوي (الكتلة الوطنية - المترجم) عن الجزيرة (مسلم)

النفوذ :

مؤثر جداً على رجال عشيرة المللي و على المسلمين في منطقة راس العين .

الموقف تجاه مسائل المصلحة العامة :

متحفظ، غير راض من الحكومة الحالية .

الطبع :

هادئ، متميز

عموميات :

مناوئ للكتلة (الكتلة الوطنية - المترجم) و مناصر لحركة الحكم الذاتي في الجزيرة العليا . منقاداً بمصالحه الشخصية، يمكنه تغيير موقفه حسب الظروف .

كان في عام 1939 مرتبطاً جداً مع البارون ماكس أوبينهايم من عالم الآثار الألماني
لدى لجنة الهدنة الألمانية - الإيطالية .

في عام 1936 تم انتخابه في ظل النظام الوطني .

من أنصار ألمانيا

الأمن العام في دير الزور في 14 آب 1943

«ملاحظة قائمة: لا أحد يستطيع تجاهل موقع المملّي في نزاعات المنطقة
عموماً وفي الجزيرة خصوصاً، منذ ما قبل حوادث الألوية الحميدية بالمقابل، لأن
لها وزناً سياسياً واجتماعياً، وأكثر من رهان تحد مع السلطات القائمة، وحتى مع
المحليين، وربما أمكن اعتبار فاجعة تعرض قتل رموز من هذه العائلة المملية أو آل
المملّي، في سري كاني في انتفاضة قامشلو آذار 2004، موصولاً بمواقف سابقاً،
جهة الهجوم من قبل عرب في المنطقة، كما حضرنا عزاءهم وقتذاك»

شخصيات كردية في وثائق فرنسية-11-

نعرض في هذا العدد الاستمارة الشخصية للسيد مصطفى بك شاهين الذي
كان نائباً في البرلمان السوري، و هو من مؤسسي خويبون و لعب دوراً مهماً فيها، و
من أهم الشخصيات الكردية في عين العرب (كوباني). سنرفق صورة عن الصفحة
الأولى من هذا السجل .

الأمن العام للجيش

حلب

استمارة معلومات

الاسم والشهرة :

مصطفى بك شاهين

الصفة :

ملاك- مزارع- نائب عن قضاء عين العرب

محل و تاريخ الولادة :

1893 ، في مقتله

الوضع العائلي :

متزوج - زوجتين - له 6 أولاد

محلات الإقامة السابقة :

مقتله

الإقامة الحالية :

مقتله

القرباة(أقرباء معروفين أو ذي نفوذ)

رئيس عشيرة علاء الدين - برازي، يقول بأنه ابن عم حسني و نجيب برازي

من حماه

الحالة المالية :

ملاك غني- مزارع

مكان الملكية العقارية :

ناحية عين العرب- شراكة زراعية في كل قرى علاء الدين

التعليم :

ابتدائي

التربية :

عشائرية

السمعة -

الطبع :

مرن - مستبد

السلوك :

جيد

الوظيفة العامة التي يشغلها :

نائب منذ 1925

الأهلية لشغل وظائف عامة :

نفسها (كالسابق- المترجم)

المؤهلات السياسية (السوابق)

انظر التعليقات المتتابة (الملحقة- المترجم)

الحزب الذي ينتمي إليه :

الحزب المعتدل - له مشاعر موالية لفرنسه

الصحف التي يقرأها :

العلاقة مع الشخصيات السياسية السورية :

مع الزعماء السياسيين بدون تمييز في الآراء. مرتبط جداً مع حسني و نجيب
آغا برازي. و له علاقات جيدة مع جلالات عناية بك .

العلاقات مع الخارج :

مع الزعماء الكرد في الولايات الشرقية (شمال كردستان- المترجم)

الموقف تجاه السلطة الانتدابية :

الاحترام - الموالة .

النفوذ الشخصي على السكان، على الوجهاء، على الموظفين :

يتمتع بنفوذ حقيقي على عشيرة علاء الدين- برازي .

يتم تقديره من قبل وجهاء القضاء من غير الأرمن

يخشى الموظفين .

الموقف الذي يجب اتخاذه تجاه صاحب العلاقة :

العطف، لكن يجب مراقبة سلوكه من جهة علاقاته مع الأتراك .

المزايا التي سبق و أن تلقاها :

منذ خضوعه في عام 1922، كان مدعوماً دوماً من قبل فرنسه

«ملاحظة قائمة: الحديث عن مصطفى بك شاهين، يعني التطرق إلى نفوذ عائلة منقسمة على نفسها، متعددة المهام، وفي مواقع مختلفة، حسب انتشارها في المحيط السوري، مثلاً، ما الذي يصل بين هذه الشخصية المعروفة وشخصية نجيب البرازي عدا القرابة العائلية، لأن كلاهما كان يتحرك الاتجاه المغاير للآخر، ورغم ذلك، فإن هناك صيغة مخففة في ضبط أو إملاء الوثيقة، خلاف الحديث عن دقوري، مثلاً، وهذا ما ينبغي التنبيه إليه في أي مقارنة نقدية».

حاجو آغا ما بعد حاجو آغا

«عندما يشارك أصحاب العمل الإنساني في مواجهة سياسية، يجدون أنفسهم رغماً عنهم، قد تم اقتحامهم في أحد التيارات السياسية»
«تزفيتان تودوروف: الأمل والذاكرة «خلاصة القرن العشرين»، ص 362 .

علامة فارقة :

انتهى حاجو آغا، لم ينته حاجو آغا! الدليل هو أنه يحضر في أكثر من لغة، ويُتطرق إليه في أكثر من مناسبة، وربما سيشهد الغد القريب حضوراً أكثر له اعترافاً بأنه كان المختلف عن كثيرين غيره، فيما تفوّقه به، وفيما تحقق على يديه كردياً. وهنا لا أتحدث على طريق «حكيم زمانه» عن مناقبه، أو بطريقة «اذكروا محاسن موتاكم»، إنما ما يجب أن يشار إليه، في اتجاهات شتى، أتحدث عما مضى وأصبح في ذمة التاريخ، والتاريخ ليس حصيلة ما كان، وإنما ما يمتد إلينا، ما يبقيه بيننا، كما لو أنه يمتلك حواس وعقلاً ومحفّزات، وهو من حيث الأثر يتقدم الكتابة، ويفتح جراً هذا العمل «الضخم» بمحتواه طبعاً، أكثر من سؤال يتطلب جواباً يناسبه، ودون تشنج، إن أردنا تاريخاً، أو ما يكون تاريخاً، لا يمتلك، بمقدار ما أن الذي يكتب في التاريخ يحرّره على طريقته، وما يجري تحريره يمضي إليه، ويصبح من المستحيل نفيه، عدمه، تجبيره، وهو بنصه، وقد تم انتشاره، وليبقى الأهم، وهو الأهم في الذي يجب التعرض له: كيف يمكن الدخول معه في حوار، كيف تقام علاقة، وليس نقضاً، لأن أهون الكلام، يبقى كلاماً، وثمة من يأخذ به، والذي يعزّز صواباً بلغة الوثيقة الفعلية، أو تحرّي الدقة، هو من يتقدّم بحضوره على سواه في التاريخ، وحاجو آغا، يمكن أن يُرى بأكثر من عين طبعاً .

يمكن هنا التطرق إلى التدايعات أو الذبول، وتوقع ما هوانفجاري، جراً تغير المستجدات، حيث الحرب العالمية الثانية في أوجها، واعتبار ذلك ضغطاً إضافية على الوضع العام وعلى الكرد على وجه الخصوص، ويعيش الناس أهوال المعارك الداخلية والخارجية وتنافسات مختلفة .

يقول جميل حاجو في مذكرته (بعد وفاة الوالد سنة 1940 عن عمر يناهز الثالثة والستين تولى شقيقنا الأكبر- حسن- رئاسة العشيرة وأصبح عميد العائلة. ص 75... ومن ثم: فاز في دورتين لانتخابات المجلس النيابي السوري كنائب عن منطقة القامشلي وكانت أغلبية المرشحين يدفعون مبالغ طائلة لشراء أصوات الناس.. ص 76... ولاحقاً: بعد فوزه في انتخابات عام 1947 كنائب عن الجزيرة انتسب أخي حسن إلى الحزب الوطني وبعد فترة قصيرة أسند إليه رئاسة فرع الجزيرة للحزب. ص 77... و: جاء انقلاب حسني الزعيم ضد العهد الوطني السائد.. ص 80).

ربما أمكننا النظر في الجهات الأربع في تنوعات الحروب، وتداخلات السياسات، والصراعات التي تصل الداخل بالخارج، أو تبحث عن رهانات جديدة وأقطاب سياسة جدد بالمقابل.

لكن الذي ينبغي ألا يُنسى، هو أن ظل حاجو آغا لم ينحسر، كون الذين كانوا معه، حوله، واستمروا من بعده، أدركوا هذه القيمة، وأن أي تحول في مسيرة أي منهم، إنما يعكس اختلاف التجربة الشخصية من جهة، ومقدرته على تمثيل درس حاجو أو كيفية الاستفادة منه، حيث إنه، مهما اختلف بشأنه، كما نوهت كثيراً فيما سبق، فإن أثره يبقى من خلال السؤال عنه.

إن الباحث خالد عيسى ، ينوّه إلى هذا الجانب، عبر إيراد وثيقة مترجمة، وارتباطه «أي هذا الجانب» بمفهوم كيان سياسي كردي أو لزوم التأكيد على خصوصية كردي في التعاطي السياسي بقوله (لعب السيد حاجو دوراً بارزاً في الحركة القومية الكردية، وخاصة في غرب كردستان، من آذار عام 1926 وحتى وفاته في نيسان عام 1940. و سعى، مع بقية القوميين الكرد في تنظيم خويون، إلى إيصال صوت الشعب الكردي إلى مراكز القرار، سواء في الدول العظمى في ذلك الوقت أو في عصبة الأمم .

نعرض لكم ترجمة رسالة أرسلها حاجو آغا إلى القيادة الفرنسية في بدايات الحرب العالمية الثانية :

دمشق في السادس والعشرين من شهر كانون الثاني عام 1940

إلى صاحب السيادة الجنرال كايو

سيدي الجنرال

تُعلمنا الأخبار القادمة من داخل تركيا عن وجود بعض الاتفاقات السرية بين
تركية من طرف وروسيا و ألمانيا من طرف آخر .

في نفس الوقت، لا أنسى بأنه تم التوقيع على بعض الاتفاقات بين فرنسا و
انكلترا للتعاون مع تركية ، من أجل الدفاع عن الشرق الأوسط ضد غزو روسي .

في الحاليتين، أعتقد بأن الشعب الكردي سيكون مدعواً للاشتراك بمقياس
هام في الأحداث التي ستدور في الشرق الأوسط .

يشغل الكرد الحدود التركية - السورية و الحدود التركية العراقية، و هذه
الحدود هي على طول أكثر من ألف كيلو متر .

التنظيم العسكري الذي سيتم بين كرد سورية، و خاصة في منطقة كرد-داغ،
و جرابلس و الجزيرة العليا، و أيضاً في مناطق شمال العراق، المأهولة بالكرد،
سيشكل قوات هامة، إذا أخذنا بعين الاعتبار بأن عدد سكان هذه المناطق يقدر
بأكثر من مليون و ثلاثمائة نسمة .

إذا أضفنا إلى ذلك، حوالي أربعة ملايين من الكرد الذين يعيشون في تركية،
تبدو أهمية منظمة كردية كل أهميتها . الدولة البلشفية، التي تتكرر لتقاليد
الشعوب، و تهدم دينهم، و تلغي طبقات المجتمع، و تعمل في البلاد التي تسيطر
عليها على سيادة البؤس، و العيب، و اليأس و الحرمان، ستجد أمامها إلى جانب
جيوش فرنسا الشعب الكردي كعدو لا يقهر .

لي الشرف و السعادة، سيدي الجنرال، بأن أشير بان كل الزعماء الكرد
يوافقونني في الرأي، وبأن كل الأكراد من أية ديانة سيكونون سعداء بأن يضعوا
أنفسهم في خدمة فرنسا، و في خدمة بلادهم .

تفضلوا، صاحب السيادة، بقبول فائق تقديري .

رئيس عشائر الهفيركان في سورية

حاجو⁽¹⁾

(1) عيسى، خالد : اقتراح تشكيل جيش كردي في بداية 1940، موقع «كلامش»، في 30 مارس 2010 .

هذا الأثر التاريخي يظل يسمي حاجو، كما لو أنه لم يمض بعد «أو يختفي كل ما ينتمي إليه» بل يمكن التوسع فيه، أو الكشف عن أرضيته، ومن ثم الحفر في جيوبها وأنفاقها وطياتها، من خلال فكرة قيام دولة كردية مستقلة سنة 1941 ، كما وردت في وثيقة فرنسية أخرى :

(الوثيقة الأولى)

قامشلية في التاسع من شهر أيار عام 1941

خبر (أ.ع)

يقيم حالياً الأكراد الساكنون في الأراضي التركية علاقات وطيدة مع العشائر الكردية الأخرى التي تسكن في شمال - سورية .

يعتقد بأن ذلك عبارة عن قيام حلف لخلق اضطرابات في الوقت المناسب. و سيكون هدفهم هو الوصول إلى تشكيل دولة مستقلة ذات نفوذ في سورية الشمالية .

الشخصيات التالية :

جلال بك

شيخ يحيى الأنصاري من حوالي ماردين

إبراهيم قاسو من قرية زوراما

محمد سليمان من أومركان

شيخ حبيب الله من داغا

و يسكن الجميع في تركيا، يتباحثون مع الزعماء المقيمين في سورية - الشمال، التالية أسماءهم :

رسول آغا من ديريك، زعيم عشيرة كوجا

محمد عبد الكريم من تل كوجك

خالد بك إبراهيم باشا، و أخوه محمد بك من رأس العين

محمد شاكر، رئيس عشيرة شيها .

يعتقد قيام نوع من الدعاية في نفس الوقت في الأوساط البدوية⁽¹⁾.

(1) عيسى، خالد : مشروع قيام دولة كردية مستقلة عام 1941، موقع «كلكاش».

وللتأكيد على أهمية الوزن النوعي للكرد، ثمة إشارة إلى تشكيل السردية الكردية الخفيفة

(قوات فرنسه الحرة)

أقاليم شمال سورية

رقم: 27/129 أي.ل

تنفيذاً لتعليمات الأمر الإداري رقم 3/769

الصادر في 24 نيسان 1942 عن القائد العام لقوات فرنسه الحرة .

السرية الخفيفة في المشرق - رقم 27 -

بيان بالحركة و العمليات

شهر أيار 1942

في الثامن من أيار 1942 :

الفصيلة الثانية بقيادة الرقيب الأول محمد خليل، المفروزة إلى راجو من أجل مراقبة الحدود، تم استبدالها بسرية أردنية⁽¹⁾

والتعرف أكثر على مساعي الحركة الكردية وقتذاك، كما في هذه الوثيقة، من خلال معرفة صورة الأكراد في وثائق الحرب العالمية الثانية، ومن ذلك :

الممثلية العامة للحكومة المؤقتة

(الجمهورية الفرنسية في المشرق)

إدارة المكتب السياسي

رقم: 9167/س.ب

سري

بيروت، في 20 تشرين الأول 1945

مذكرة

بخصوص الحركة الكردية

(1) عيسى، خالد: السرية الكردية الخفيفة في الوثائق الفرنسية، في موقع «كلكامش» في 1 أغسطس، 2009.

:-:-:-:-:-

يذكر بأنه في آذار الماضي، تم توجيه عريضة تتضمن المطالبة بالحكم الذاتي تحت الحماية الفرنسية، وقد تم إرسالها إلى الممثل العام مطلق الصلاحية لفرنسه في المشرق، و الذي نقلها الى باريس. وأنها (العريضة-المترجم) حملت تواريخ 105 زعيماً و وجيهاً و مختاراً كردياً من الجزيرة، من بينهم :

- سعيد آغا دقوري - زعيم عشيرة الدقوري، نائب (في البرلمان - المترجم)
 - بدرخان آغا دقوري - شقيق المذكور سابقاً
 - عبدي آغا خلو - زعيم عشيرة ميرسنيه
 - نواف آغا الخلو - زعيم قبيلة مليه، و ثلاثة من أبناء أعمامه و هم:-
 - لانيش آغا (سلانيك -المترجم) و سليمان آغا و جميل آغا
 - عيسى آغا القطنه - زعيم قبيلة كيكية
 - محمود بك إبراهيم باشا - زعيم عشيرة المليلين
 - جميل حاجو آغا - من عشيرة هفيريكية، رئيس بلدية قبور البيض
-

يذكر الأب جوزيف بأن أحد هذين المبعوثين كان المدعو عبدي تيللو أحد المقيمين في عاموده، و بأنه يجهل اسم الثاني الذي هو من منطقة ديريك .

و يشير، من جهة أخرى، بأنه انعقد في حزيران الماضي اجتماع في القامشلي حضره العديد من زعماء الكرد و المسيحيين في الجزيرة، و كان بهدف تحقيق الاستقلال في هذه المقاطعة بضمانة فرنسية. حسب وجهة نظره، كانت اللحظة مناسبة جداً لاتخاذ عمل سريع و حاسم، وذات خطة مدروسة بإتقان، و كانت تتكون من :

- الإقدام على توقيف الموظفين السوريين و إرسالهم إلى دمشق .
- و ضع جميع أنصار الحكومة السورية، في كل مركز، في حالة عدم القدرة على الأذى .

-رفع العلم الفرنسي فوق جميع المباني الرسمية، وإعلان الحكم الذاتي للجزيرة⁽¹⁾.

(1) عيسى، خالد : الحركة الكردية في الوثائق الفرنسية، موقع كلكامش، في 27 يونيو 2009 .

وأخيراً، وليس آخراً، هذا النص الوثائقي :

بخصوص الحركة الكردية

:-:-:-:-:-

(...)

....يعلن الأب جوزيف في النهاية بأنه في شهر تموز الماضي، أثناء احتلال الجزيرة من قبل القوات البريطانية، أراد أن يعلن حركة انتفاضة ضد الحكومة السورية، لكن تم منعه من قبل المطران حبي .

—فيما بعد، وبكل السرية الممكنة، رجوت الدكتور كاميران بك علي بدرخان بأن يتفضل بإعلامي عن شعوره تجاه النشاط الذي يقوم به الأب جوزيف عبد الله في الجزيرة بين الشعب الكردي .

لا يخفي الدكتور تعجبه و عدم موافقته لمبادرة الأب جوزيف في نشاط كردي في الإطار الضيق للجزيرة .

كقائد للحركة الوطنية الكردية، لا يتصور سياسة كردية إلا كالتى تحدت في السابق باتفاقية سيفر، التي حصلت من القوى العظمى المتحالفة على الاعتراف بحقوق الاستقلال و التوحيد القومي للشعب الكردي .

أمّا عبيدي تيللو، الذي حصلت له بالفعل فرصة الالتقاء به مؤخراً في بيروت، فهو ليس إلا تاجر أغنام، جاء بداية إلى حلب، و من ثم إلى بيروت من أجل أعماله .

ويسمح لنفسه أيضاً بالتذكير بأن ممثلي السكان الأكراد قد وجهوا إلى كل الدول المشاركة في مؤتمر سان فرانسيسكو، في آذار الماضي، مذكرة، كتبها هو، تطالب بتشكيل دولة كردية مستقلة، و بأن النسخة الموجهة إلى الحكومة المؤقتة للجمهورية الفرنسية قد تم تسليمها، في الثالث من شهر نيسان 1943 ، إلى السيد الكونت أوسترووك، الممثل العام مطلق الصلاحية بالوكالة، و ذلك من قبل وفد ضمّ كل من السادة :

حسن آغا حاجو آغا - رئيس عشيرة الهفيريكيه، نائب الجزيرة .

أهرام (أكرم- المترجم) بك جميل باشا

الدكتور أحمد نافذ بك⁽¹⁾

لكن الذي يمكن التوقف عنده هو أنه بعد الرحيل النهائي لحاجو آغا، ظهر كما لو أن عهداً جديداً قد حل، من خلال الضغوط المحلية والإقليمية، وواجه الكرد تحديات جديدة.

إن حسن حاجو الذي عرف بعد وفاة والده رئيساً للعشيرة وكعميد للعائلة حتى 1963، وقد عمّر هو الآخر «63» عاماً كوالده، لیتابع مسيرته، وبمعرفة خاصة به أخوه جميل حاجو هفیرکی، حتى 1990، حيث عمّر «84» عاماً، لم يتخل عن الأنشطة التي تبقیه أولاً، في الجوار من المعنيتين بالحركة السياسية والثقافية الكردية، وضمناً العمل الوظيفي الذي يمكّن المرء من الاحتكاك بالآخر، كما في تعيينه برلمانياً في دمشق سنة 1947، ومحاولة الاتصال ثانياً، بكل الفعاليات السياسية والاجتماعية وغيرها في الجزيرة خاصة، وسوريا عامة، دون الانقطاع عن متابعة التحولات في أوضاع الكرد في الجهات الكردستانية الأخرى.

لدي هنا مذكرات جميل حاجو والتي تفيد في معرفة ما تقدم، حيث تعرّضنا لها في أكثر من مكان، أي ما إذا كانت فكرة كيان سياسي كردي قائمة أم لا، أو ما يجعل للكرد من اعتبار من خلال هذا العمل السياسي، رغم أنه ليس المثال الوحيد لمكاشفة هذا الجانب، وحتى لا يقال أو يتردد ما هو معروف «شاهد شاهد» من أهله». إن حاجو آغا لم يمّت، لأن حلمه استمر .

نقرأ في كتاب جميل(بعد وفاة الوالد سنة 1940 عن عمر يناهز الثالثة والستين تولى شقيقنا الأكبر حسن رئاسة العشيرة وأصبح عميد العائلة، وقد سار على درب والده وسلك مسلكه في خدمة أبناء قومه والدفاع عن مصالحهم، بل تخطاه في هذا المضمار بحيث غدا شخصية بارزة محترمة في الأوساط العربية والمسيحية أيضاً. ص 75) .

إن ما يجب التعرف إليه، وأخذ به بعين الاعتبار، هو أن مفهوم «سلك مسلكه» لا يعني أبداً، لا بالنسبة إليه أو سواه، أنه نسخة طبق الأصل عنه، إنما إشارة إلى أنه لم يتخل عما كان يشدد عليه والده حاجو آغا، لأننا نعلم وكما رأينا، أن حس

(1) عيسى، خالد: الأكراد في وثائق الحرب العالمية الثانية، موقع «كلكاش»، في 29 يونيو 2009.

حاجو آغا قد قبل به في أوساط سياسية كردية مختلفة، ونظر إليه مرناً أكثر من والده، كما أشيع عنه هكذا. تلك حقيقة تاريخية، لا لمرونة تمثلها حسن، وإنما لأن وضعاً كان يفرض نفسه، وأن صلابة حاجو آغا لم تكن من النوع الذي لا يهادن، إنما من النوع الذي لم يكن في مقدور أيّ كان التعامل معه كما يريد .

بصمة حاجو آغا كانت مرئية ومقدرة، كما لو أن رجل التحديات كان يجد ما يبحث عنه، حيث لم يكن هناك أكثر من هذه التحديات وفي مسارات مختلفة، سوى أن الوضع بدا مشهوداً له بالعنف، وفي سوريا بالذات، على خلفية الانقلابات العسكرية، في الوقت الذي رأى الصاعدون بشارة القومية العربية وهي في تنوع أحزابها وتنظيماتها أو أنشطتها لزوم الإسراع والسيطرة على المواقع القيادية في المجتمع وبطرق شتى، قبل فوات الأوان، وهو تملك الهاجس البداياتي في الإغارة عبر تحيين الفرص، ولا بد أن الوضع الكردي الصعب، وبعد خروج فرنسا من البلاد، وفي ضوء الانقلابات العسكرية بالمقابل، كان له حسابه المختلف بدوره، وضع من يعيش تحديات أكبر وبإمكانات أقل، إنما دون إخفاء المبادرات الذاتية، وما في صناعة الاسم ومن ثم ذبوع صيته من قيمة إبلاغية وهيبية وسطوة، الأمر الذي يضفي على الموضوع طابعاً من الدرامية المشددة للذاكرة والوعي، وتأمل العالم الذي يعرف به أحدهم أكثر من غيره.

أسماء تختلف عن أسماء:

تُرى، هل هناك مبرر للقول بأن ظروفاً يهيئها رجل ما «ليكن المثال حاجو آغا»، وقد أفصحت عن مكانة ذات صلة بميزة شخصية، كما يتردد من أحاديث عن فتنة الشخصية، هيبتها، قد تعود «أي هذه الظروف» إنما في وضعية أخرى، وبعلامات فارقة أخرى، في الزمان والمكان، لا لتبحث عن رجل مثله أو أكثر، بل ربما لتكون خلاف ما كانت عليه بداية ظهورها، وكأنها تسعى إلى الانتقام من المعنيين بذلك الرجل: بأهله، أو أقرب المقربين منه: أولاده الذكور، قبل غيرهم، لأن مجتمعنا الذكوري لا يخفي بالتأكيد أولوية الذكر في أمور حياتية مختلفة على الأنثى، وقد تكون بمعاكستها هذه آلة، أو موجهة، كما لو أن الظروف هذه تبصر وتسمع وتحسن الملامسة، من خلال قوى اجتماعية وسياسية، وللحيلولة دون ظهور بديل أو نظير للرجل الأول ؟

أعتقد أن هذا السؤال يختصر مسافات كبرى: زمانية، بالنسبة لرجال كثيرين أحياء وموتى، وتمايزهم عن بعضهم بعضاً في الاستجابة والفعل إزاء مشاكل قائمة أو حالات طارئة، ومكانية، على تماس مباشر بما يعيشه الناس في تنوعهم الالشي والاجتماعي والسياسي وكذلك النفسي.

لا أرى من غرابة في سؤال كهذا! إذ إن ما شهدناه من صراعات ساخنة، مميتة، مخيفة، ومتعددة وبأكثر من صيغة، لها علاقة مباشرة بالظروف التي تكون اعتيادية، وفي هذه يتشارك جل الناس، أما تلك الخاصة أو غير المألوفة فتلك المعتبرة بالنسبة لمن يهمهم أمرها، كأنما الظروف هذه ونوعية معينة من الرجال يبحث كل منهما عن الآخر، لا ليمنحه شرف التسمية والمكانة الخاصة، فهذه تتم لاحقاً، وإنما لنزال ما، أو اختبار ما، حيث يتحصل شكل معين، ومحتوى معين من العلاقة الاجتماعية والسياسية، وأن هذا الاستثناء بمفهومه النفسي، قد يفتح طريقاً، أو باباً لم يكن له من وجود قبل ذلك، للعبور إلى ميدان هو ساحة تاريخ، أفق استشراف مستقبل، تأمين مكانة شخصية أكثر من الاسم الشخصي، وارتقاء في المكان ذاته حيث لا يعود كأي مكان، مثلما أن الرجل السابق ذكره لم يعد كأي كان، وهو حقه من خلال مبادرة ذاتية، استثناء لا يتكرر ببسر، جرأً قوة شديدة التمايز، قد تسمي جهات كثيرة في نشأتها، أو وراءها. أعني بذلك، أن ليس من باب الاستغراب القول أن يكون كل ما تعرض له آل حاجو من منغصات أو مضايقات في الزمان والمكان، وبعد رحيل حاجو آغا مقروءة هنا.

بالطريقة هذه، يغدو من الجائز القول بأن الكتابة ذاتها تملك مشاعر وأحاسيس وقدرات تكون، وعملية تنفس عائدة إليها، بمعزل عن كاتبها، وما يكون عليه وعياً وإحساساً وتذوقاً، أي وهي انسيابية، أو متوترة، أو ذات حرارة معينة، أو برودة معينة، أو رمّاحة، أو هادئة، أو تعيش تردداً، أو منفوحة، أو مطواعة... الخ.

حاجو آغا باسمه، لم يرحل دون أن يكون للمكان والزمان من بعده، طابع خاص من التشكيل أو التعيين في القيمة والتاريخ، بالنسبة للذين بقوا من بعده، وهم ينسبون إليه، أعني بهم وهم يشعرون بثقل تاريخ يُسمى به، كما لو أن الأمس يمكن أن يستحيل فاعل غدٍ.

يشعر قارئ كتاب جميل حاجو أنه في تناوله لوقائع ذاتية، عائلية، قبلية، كردية، يعيش غياب الآخر وهو مجذّر في وجدانه، أعني به أباه/والده، أن تقطّع

الكتابة لديه، يفسّر من منظور التحليل النفسي، بذلك الحضور القوي الذي عرف به حاجو آغا حضور الأب الذي يستمر أباً وهو بكامل عافيته وهيبته، إنما بكبير قدره بالمقابل، فيكون انفتاح أو انبساط واستشراق للجوار دون أي تردد، كأن روح المغامرة أمّنت على روحها بعد سنوات من التحدي فأمنت في روحها بعد ذلك، وجميل مسكون بهمّ الوالد الراحل، وما أدّاه من أدوار في الحياة على أكثر من صعيد، أكثر من حدود «تربه سبي» بالذات طبعاً، رغم الزمن القصير جداً والذي أمضاه في بنختي «14 عاماً»، ولكنه الزمن المكثف، الممتلئ بالكثير مما يعجز القلة القليلة من الأشخاص على مستويات مختلفة القيام به، كما لو أن الزمن نفسه خرج من تجريدته وعزّز به، وكما لو أن مذكراته التي التقى فيها ما ينتمي إلى السّيري، وما ينتمي إلى عالم كتابة المقالات، وربما في طريقته تلك أراد أن يعيش رغبة الوالد في أن يكون كاتب سيرة حياة تعنيه وتعرّف به خارجاً.

في تقطيعات جميل حاجو، أو من خلال لوحات مرتسمة، أو مشاهد كتابية لديه، هذا التناوب بين الاحتفاء بالحياة والقلق منها وفيها، وما يترجم ألم الحرف وسطوة الكلمة واشتهاء الاستمرار.

أعني بذلك أن حاجو آغا الأب يحضر في كتابة جميل حاجو الابن، وكأنه يجدد حضوره بصورة فاعلة، وفي كتابته بعض لمّاح مما كان حاجو الأب يريد نقله من خلاله عمّن يكون.

ثمة إمكان لمعرفة ما آل إليه أمر آل حاجو آغا، وأغلبيتهم الآن في المهاجر أو المغتربات بصفة اضطرارية، جرّاء مكان أُستبد به من قبل النظام السياسي، ودون الانقطاع عنه، حيث ثمة ما هو أبعد من «سرختي- بنخي»، إنه «ما يطوي كلاً منهما، لأن المسافة تقدّر بالآلاف الأميال وهي موجعة لأفراد العائلة هؤلاء، وقد شكّلوا أجيالاً الآن، صار بينهم معمر ومغترب، ومن باتوا من أهل المكان، وليس في ذهنهم أي فكرة يمكن التوقف عندها من نوع «ما هو بنختي- سرختي»؟ بالتأكيد إن أفراداً معروفين وقد أمضوا سنوات لا تخفي حرقتها وألفتها وردحاً من الزمن الشبابي وأكثر أحياناً، في رحابة «بنختي» وأعين على سرختي، توقفاً إلى اللحظة التي لا يعود فيها «الخط» موجوداً، أي بولادة كيان سياسي كردي محلوم به، موعود به، مطالب به، أشخاص أعرفهم شخصياً طبعاً وهم بين سياسي ومهتم

بالشأن الثقافى والفنى من جوان إلى زغروس، إلى بهرم، إلى حزني، إلى كاميران حاجو، وعن قرب: زناور، تيمور، بنكي، حزني، فرهاد، جلال، بهرم، أحمد، جوان، نوري، زغروس، كاميران، سيامند... الخ، إنما الجيل الثالث فيهم، ممن ولدوا وتتردد في الجوار القريب منهم أصداء لغات أهلها الأوربيين، ومن هم أكبر منهم، بأعمار الشباب، فهم موزعون بين غربة أصبحت في مقام الوطن، ومهجر قسري، ووطن مجزأً وبيوت مفعوجة بأهلها، وربما تتنفس اشتياقات إليهم وهي مغلقة على أطياف وجوههم داخلتها، ووطن يمضي في نسيان قسري على خلفية من أعباء الحياة .

في كتاب جميل حاجو، ثمة التفاعل مع المكان، لكنه الإيحاء بأن المكان لا يُطمأن إليه وقد تمزق أكثر، وإن كان ما يكتبه يعطي انطباعاً أن هناك ما ينبغي التشبث به .

نقرأ في قائمة مذكراته (بعد فوزه في انتخابات عام 1947 كنائب عن الجزيرة انتسب أخي حسن إلى الحزب الوطني وبعد فترة قصيرة أسند إليه رئاسة فرع الجزيرة للحزب..ص 77) .

جميل يوازن ويقارن وينتقي ويظهر تفاوتات في العلاقات، إظهاراً لاضطراب المكان، والزمان لديه، أي ترجمة لوضع يفلت من اليد بفعل قوى لا تسمح بأن يكون هناك حاجو آغا آخر، فيكون عزاء من نوع آخر .

كما في إشارته إلى السياسي السوري سعد الله الجابري، والذي يظهر تقديره له، وهو يستعيد نتفاً من عالم مضى واستبقي ببعض ما يحتفظ به (وكان السيد سعد الله الجابري على علم بإبعاد الفرنسيين لأخي حسن إلى تدمر أثناء حوادث الجزيرة عام 1936 كرهينة، وتهديداً لوالدي في حال تحركه خلافاً لرغباتهم، وكان ذلك الإجراء إشارة من المسيحيين بطبيعة الحال .ص 79) .

تلك هي من «شيم/ قيم» صراعات التاريخ، من الرهانات حول قوة تسمي أشخاصاً وتهمل آخرين، وكأنني بجميل في تأريخه لما كان يدون ما لا يستطيع قوله أو تسطيره، وللتعبير عن أن «هذا الولد من ذاك الوالد» أي ما يضيف على الحياة التي يعيشها، ومن يأتي بعده من قيمة، حياة مكلفة مدفوعة الثمن بالتأكيد .

جميل حاجو يتحدث عما يجري، وكأنه يروي وقائع لا صلة له بها، وما فيها من برود أو صدمات، أي حيث يشعر باختلاف الأوضاع، وتبرز الكلمات بصفة رسمية ربما يكون في مقدور أي كان قولها، أو يتكلمها شخص عربي في الصميم، وفي لغة جميل طابع كتابة المقال والتوصيف (في هذا الوقت المضطرب وفي تلك الظروف العصيبة التي كانت تعصف بالبلاد، ظهر السيد جمال عبدالناصر على المسرح السياسي العربي حاملاً لواء القومية العربية، ومنادياً بالوحدة العربية الشاملة. ص 81) .

كما قلت، لو أن قائل هذا الكلام مناصرٌ للقومية العربية والوحدة العربية، لما أخطىء في حقه جهة التقييم، على أنه متحمس لما يقول، أما عن كلام جميل فهو لاف حقاً، وربما استدعى موقف كهذا تعليقاً، وهو أنه كان يعطي المساحة الجغرافية الكاملة قيمة اقتصادية وسياسية واجتماعية، تخرج البلاد والعباد من حالة التمزق والقهر إلى حالة التوحد والروح السيادية والانتعاش الاقتصادي والسعادة، وهو نفسه يربط حماسه للوحدة بهذا التوجه فيما بعد، أي حيث تشعر دولة كبرى بمكانتها الحضارية والإنسانية فتهتم بالشعوب المضطهدة كالشعب الكردي، وبشكل أوسع وأشمل .. «ص 88» .

ذلك وارد، أو محتمل، إذا كان الذين يجسّدون هذا الحلم ديمقراطيين، ولديهم إرادة تفكير وتدبير إنسانيين، بالتشارك مع آخرين هم سواء في القهر والتمزق ومكابدة ألم الحنين إلى المكان الأول: موطن الأجداد، إنما وهم بوضعية مغايرة في العداء القومي فالأمر مختلف .

في مطلق الأحوال، إذا كان موقف جميل حاجو حينذاك ينتقد فمن زاوية الأمل بأهل سلطة لا يقلّون جوراً فيما بينهم عما هو عشائري يتتابذون بالألقاب، وموقف لا ينبذ، لأنه خطاب إلى هذا الطرف ممثّل الأمر.

وربما كان الذي حصل في سوريا، بعد «الانفصال» في دراما العنف العروبية وعلامتها البعثية الفارقة وفي الطرف الشرقي: العراق، هو هذا الأمل المستباح، أي ما يعصف بالتنوع، وهو موقف آخر مغاير لسابقه في محتواه، لكنه يعبر عن تجربة قائمة تعلّم المرء عملياً (في ظل الحكم البعثي الأول أي قبل «الحركة التصحيحية» كان المسؤولون يكثرّون من الاستعراضات والمسيرات في كل مناسبة وحتى بدون مناسبة بهدف خلق جو مكهرب غوغائي، ومن هذه الاستعراضات والهوسات ما

كانوا يقيمونها في قبوض البيض أمام بيوتنا ومن خلالها يرموننا بوابل من الشتائم والتهديدات الأمر الذي جعل أقرب الناس إلينا من العشيرة والأصدقاء يتجنبوننا خوفاً من ردود الفعل البعثية والمسؤولين الحاقدين . (ص 93) .

أليس هذا الجاري انتقاماً من شخص مات ولم يمت، من تاريخ لم يندثر، ومحاولة استئصاله من جذوره؟

أليس ما يمضي إليه جميل يفصح عن أن الذي كان هو في حكم ما يكون وما سيكون، وليس في حكم «كان يا ما كان»، طالما أن أثر «الفاعل» المتخوف منه قائماً، في المكان والزمان وعبر أهليه مباشرة ؟

في بعض نقاطه الساخنة تاريخياً، وتعزيزاً لمقولة «الماضي لم يمت» بما أن الذين يتربصون بالعائلة، وبكل ما يمت إليها بصلة، يعلمون جيداً أن ثمة أرضاً في الوسط، هي التي تستبقي الماضي حياً، ولا بد أن الحديث عن رمز استخباراتي ينطلق بلسان حال هؤلاء (.. الفرق شاسع جداً بين الوطني سعدالله الجابري بنظرته الشمولية والإنسانية وتقديره للشعوب وحققها في نيل حريتها وبين بعثي من أمثال «طلب هلال» بضيق أفقه القومي وحققه الشوفيني الأعمى على كل من ليس عربياً وإيمانه بالصهر القومي كوسيلة للسيطرة والسيادة... فهو يطالب في كرأسه المذكور «عن محافظة الحسكة» بالقضاء على الوجود الكردي في الجزيرة على وجه الخصوص بالوسائل الشوفينية وإذابة هذا الشعب في المجتمع العربي متفاخراً بكونه يقدم الحل اللازم والصحيح لهذه المشكلة. (ص 96) .

لعلها الأرض المستملكة كردياً، كما يلاحظ في بنية التشهير والتحويل للآخر: الكردي، أو الرفض له، من منطلق «لجوء» أو «هجرة» إلى أرض مطوَّبة باسمه «أي العربي»، واعتباره مضطهداً «أي العربي» من قبل الكردي، إنما تبقى الأرض هي الفاصلة في أساس اللعبة (إن موضع الرهان والمجازفة إنما هو الأراضي، والممتلكات، والجغرافيا، والقوة. كل شيء يتعلق بالتاريخ البشري متجذر، طبعاً في الأرض، وهذا يعني أن علينا أن نفكر بالسكنى والمعاش، لكنه أيضاً يعني أن البشر قد وضعوا الخطط للتفكير بامتلاك المزيد من الأراضي وأن عليهم لذلك أن يفعلوا شيئاً ما بساكنيها الأصليين ..)⁽¹⁾.

(1) سعيد، ادوارد: الثقافة والامبريالية، المصدر المذكور، ص 78 .

قائل الكلام هو المفكر الفلسطيني الأصل الأميركي الراحل ادوارد سعيد، يقدر خطورة الرهان، ولا بد أنه يفكر بالطريقة «الأرضية» هذه كونه فلسطينياً، وفي ذهنه الآخر «اليهودي/الإسرائيلي» المغتصب لأرض تعود في ملكيتها إليه، ودون ذلك يصعب التفكير في هذه البنية «الحرارية الملتهبة لكل عبارة مصاغة، أو على الأقل ما يجعل الأرض محفزة على الدخول في مغامرات لا تنتهي، حيث إغراءات المتاح والمباح لحظة حيازتها: ثرواتها، طبيعتها، كائناتها، وتحديداً، جهة من عايش «شهوة» التملك للآخر، ولا بد أن هلال ومن يجري تمثيله من خلال يعيش هذه الشهوة المصادرة، أو المعطلة، فيكون إجراء التشويه كانتقام، أو السعي إلى إلغاء كل ركيعة تاريخية لهذا المهاجم بنفيه كلياً أو تعريبه، أو «تدجينه» ليظهر له أنه السيد وهو دونه، كما جرى حينها.

أي ما يجعل المسافة القائمة بين كل من جاذبية الأرض باعتبارها نصاً جغرافياً محتفى به، وتوازن التاريخ بوصفه الموصول بالنص والمتفاعل معه، مسافة مشبعة بالدلالات والإملاءات والتجاذبات وشقليات المصالح.

ربما أفصح جميل عن هذه الشقليات على التاريخ من قبل البعث السوري بابتداعه فكرة «الحزام العربي» ليكون في التقدير حدوداً تقسيمية وتلغيمية أعمق وأشد إثارة لكراهييات تاريخية متعددة ومستدامة قادمة (أعلنت الحكومة عن عزمها تطبيق الحزام العربي في عام 1966 وحددت الامتداد من رأس العين إلى دجلة بعمق عشرة كيلومترات بموازاة الحدود السورية التركية. ص 99)⁽¹⁾.

هنا لا يمكن القول أن الإجراء كان تعبيراً عن شهوة إيديولوجيا عروبية منتظمة في إطار حزبي من جنسه، وأمام سمع وبصر «الأتراك» إنما هو معزز

(1) من باب التأكيد على ما تقدم، يقول غنثريش، في كتابه: الكرد «شعب بدون دولة، تاريخ وأمل»، ترجمة: د. جورج كتورة، دار الفارابي- بيروت، دار آراس- أربيل، ط1، 2014 (حرمت عشرات الأسر الكردية من حق الملكية في سورية وكذلك حق العمل في أرض أهلهم وأجدادهم. ثم إن آلاف الفلاحين ومعهم أبناؤهم قد صاروا دون أي أفق مستقبلي في مناطقهم- هذا إن استطاعوا الصبر على ذلك- ما حدا بهم لقبول العمل في الأعمال الزراعية، أو الانتقال للعمل المهني في المدن الكبرى كدمشق وأحلب وفي السلم الأدنى من الطبقات الاجتماعية، إذ تحولوا إلى سائق تاكسي، أو إلى العمل في جمع النفايات والعمالة المنزلية أو في المطاعم، أو إلى الأعمال القاسية في موانئ اللاذقية وبانياس أو في الموانئ البعيدة أيضاً، مثل بيروت.. ص367).

بموافقة مسبقة، ليكون ذلك إرجاء مضاعف لأي حديث عن حكم بناء دولة كردية، أو مجرد التفكير فيها، بسبب «دق الإسفين» الجسدي العربي المسلح بما هو تعبوي مستقَدَم من الداخل: الرقة، حمص، ونسف الداخل الكردي وتأكيد وهمه «عدم وجود أي أثر لما هو كردي»..

جميل حاجو، يشير إلى أن وجه التماذي في التنفيذ تماشى مع تقاعس القيادات والزعامات الحزبية الكردية وإظهارها جنباً في مواجهة عملية الاستيطان.. (لقد كان من واجب قيادة البارتى تنظيم حركة احتجاج واسعة ضد المشروع المذكور... ص 100) .

في الحالة هذه، هل الذين مثلوا الكرد كانوا من الرموز الرجعية أيضاً هذه المرة، لينبري جكرخويني، أو من في مقامه قائلاً بالطريقة هذه، أم أن الذي مشدود إلى أساس مدشَن وفاسد مسبقاً، هيأ لما جرى ؟

ثمة سؤال: تُرى، كيف يمكن الربط بين سلبية هذه الزعامات والقيادات الكردية، وما كان عليه حاجو آغا في مواجهته لإجراء استيطانية عروبية أو زحف لها صوب «الداخل» «الكردى» حتى إن سلّمنا جدلاً أن محفَظ نشاط حاجو آغا حينذاك مصلحته الشخصية ؟ على الأقل أبقي على مساحات واسعة من الأراضي كردية في التملك ومجاورة الحدود ودون فواصل.

ينتقد جميل حاجو مَنْ تساهلوا مع المخطط الاستيطاني ومن برزوا انتهازيين على حساب الروح الكردية، وهذه المرة لم يكن لا حاجو آغا ولا أحد من آل حاجو في موقع التواطؤ مع السلطة متبنية المشروع ذاك، بالعكس، كان هناك سجن لجميل وبشكل مضاعف «ص 101 - 102»، وهذا يعرّي زعم الثورية اليسارية الكردية؟

جميل حاجو أول رئيس بلدية «تربه سبي» البلدة التي تعرّف باسم حاجو آغا، باعتبارها عاصمته، يرتد إلى نفسه جراء هذه الانجرافات، مستعيداً لحظات ماضية وهو يقيّمها (إن ما كان يهمننا بالدرجة الأولى هو تأمين حياة كريمة لأفراد عشيرتنا ولم يخطر ببالنا يوماً استغلالهم بل وقفنا سداً منيعاً لحمايتهم من مضايقات السلطة لهم. ص 107) .

ربما بالتوازي مع أخطاء واقعة من قبل الزعامات والقيادات آنفة الذكر، هكذا كان فشل تلقّي الدرس من تجارب الماضي جهة (أكراد تركيا)، ووقوعهم (في أخطاء أفدح وأكثر ضرراً بكثير.. ص 128) .

جميل حاجو، وهو مشغول بهمّ الكردي فيه وقضيته، لا ينسى التركيز على البارزاني كرمز كفاحي كردي، حيث زار الراحل ملا مصطفى، وأفصح عن تقديره لثورته «ص 165، مثلاً»، بمقدار ما شدد على لزوم ترسيخ فكرة الوحدة بين القيادات الكردية، كما في علاقته بالراحل جلال الطالباري... «ص 149، مثلاً»، وبمقدار ما دعا إلى تدشين وعي قومي كردي، عبر الاتصال بالعالم الخارجي، وتحقيق النضج الثقافي، وبعيداً عن العشائرية وغيرها... الخ، وهيمن بين العلامات الكبرى لـ(فشل حركاتنا القومية.. ص 224) .

لا غرابة أن نشهد هذا التنوع، وفي قالب مقالات لدى جميل حاجو، كما لو أنه يعترف بواقع مؤلم، ومن جهات أربع، كما هي الجغرافيا الكردستانية المقسّمة.

ثمة نقطة أخرى، تستحق التوقف عندها، ولها طرافة، ومرتبطة بعلاقة اجتماعية وثقافية، أعني بها صلات جميل حاجو بجكرخوين الشاعر، حول موضوع لم يكن خلافاً، ولكن رغبة الشاعر في جعلها خلافة أخرجته من حيّز ما هو عادي، وقد حلّ إلى نطاق قضية تاريخية، تظهر فروسية جكرخوين ومظلوميته، وجميل إذ يورد الواقعة في الملحق الأول من كتابه، أو ترد هكذا، فإظهار نوع المظلومية الجكرخوينية، مقابل نوع «التعدي» من قبل جميل، وفي قصيدة أراد الشاعر أن تكون شاهدة على منافحة نضالية تسميه، ولو أن الواقع ليس كذلك :

تتلخص الحادثة، وكما وردت في الملحق رقم «1» من الكتاب، في أنها ترجع إلى منتصف ثلاثينيات القرن الماضي، حيث كان جميل حاجو في مقام حاكم لمنطقة قامشلو، وقيل أن يوسف حداد كان رئيس بلديتها، وللحفاظ على نظافة المدينة، اقترح حداد مشروعاً، فحواه أن كل من يدخلها مع دابته يلزم بدفع غرامة، وهذا يخفف دخول الدواب إليها، وكان يجب تعيين حارس لذلك، بحيث يكون له جزء وللبلدية جزء، وجميل حاجو حبّذ الفكرة، واقترح اسم جكرخوين فقبله.

وفي نهاية الشهر، فوجيء جكرخوين، من قبل رئيس البلدية، حيث لم يعطه إلا القليل، فرفض المبلغ، وقصد جميل حاجو، فأعلمه بضرورة تسوية الموضوع مع رئيس البلدية، لكن الشاعر تأثر بما جرى، حيث لم يراجع البلدية، فكانت قصيدته الرائعة «كما وصفت في الكتاب. ص188»، وهي لم تدوّن، وحفظت بعض أبياتها، وفيها يعاتب جميل حاجو:

أنا لا أرضى بحصتين ليوسف حداد وحصة واحدة لي يا جميل
إذا كانت القضية متعلقة بكرامة النفس فلا أقبلها يا جميل
لو كنت أجمع مال الدنيا بالذل لأصبحت لورداً «غنيا»
أنا لا أستمد عزتي وشوكتي وافتخاري بالمال يا جميل
وفي النهاية:

إن هذا القلم هو سيفي فما قيمة السيف الهندي المصقول
أنا شاعر وفردوسي الكرد وملك الأفلاك يا جميل. ص189

وبعيداً عن الغوص عميقاً في الموضوع، رغم أن كلاً من الشاعر وصاحب المذكرات له مقامه المعتبر كردياً، وكل في اتجاه معين، يمكن القول بأن القصيدة التي قالها جكرخوين كانت عبارة عن رد فعل، غلب فيها النظم على روح الشعر، إذ إنه أرادها بمثابة تعريف بموقفه مما جرى، مفصلاً عن أنه فوق كل اعتبار مادي يمكن أن يتذرع به شخص ما.

وبصفتي مطلعاً على حيثيات الموضوع، وفي الوسط الذي كان يتداول القصيدة، وهأنذا أقرأ المتبقي منها في كتاب، وهو كتاب مذكرات الراحل سنة «1990»، أرى أن الموضوع أفصح عما هو اجتماعي وطبقي بمنطق عصره.

جكرخوين لم ينشر قصيدته هذه في كتاب، وللمهتم أن يسأل عن سبب عدم نشرها، وهي تترجم موقفاً من مواقف شاعر تتملكه حساسية الانجراف النفسي جرأه، كما لو أنه أراد أن يؤرّخ للموقف بطريقته، وهو ما اشتهر به كمسلك اجتماعي. لقد ترك القصيدة طليقة في عهدة بني جلدته، تركها، ربما لأنه أرادها خلاف مجمل قصائده المنشورة في مجموعات شعرية، وكان في إمكانه أن ينشرها

ضمن مجموعة شعرية لاحقاً، ولكنه تركها جانباً، هل لأن ثمة من طلب منه ألا ينشرها فكان ما كان، أما أن ثمة ما هو خفي في الموضوع، أي ثمة قبض لمال ما، بحيث يمتنع عن نشرها؟ أم أن حالة نفسية معينة تملك الشاعر دفعته إلى إطلاقها وإسماعها الآخرين، باعتبارها القصيدة التي فقدت طريقها إلى الورق؟

يمكن وضع أكثر من احتمال، حول هذه التنحية لها جانباً، وله مواقف حاسمة تعبر عن جرأة وشجاعة، أما هنا، فثمة ما يشغل الذهن، عن سر هذه الإزاحة الجانبية، وترك القصيدة في النفوس وعرضة للتكهنات والتحليلات؟!

يمكن التوقف عند الذين تناقلوها ومن يكونون؟ أشير هنا إلى أن الأكثرية الساحقة ممن تداولوها فيما بينهم، وهم متحمسون لشعر جكرخوين، أو من أنصاره بالحرف الواحد، لا يترددون في توصيف ذلك مواجهةً من إنسان عادي، تمكن من مواجهة متنفذ كبير كان جميل حاجو آغا، وأنه بقصيدته هذه ألمح إلى أن المرء قد يكون فقيراً، ولكنه لا يُستعبد، أو لا يشرى بالمال، وأن ما تميز الشاعر هو أنه فضل الفقر على الغنى القائم على الذل والخضوع لمن أكثر من ذكرهم: الآغا، الشيخ، وكل متنفذ آخر، وربما جاء إهمال جميل حاجو له، لأن المسألة لا تحتاج إلى كثير جهد، لتحصيل حقه، أو قد نذهب إلى الأبعد من كل ذلك، وهو أن يختبر القريحة الشعرية للشاعر، ويتلمس رد فعله، وقد تركه لحاله.

سيقت القصيدة في نطاق دائرة الصراعات الكبرى التي كان جكرخوين يتحرك فيها وهو شيوعي، وكان التشخيص، حيث الاسم الشخصي لافتاً آنذاك، وتعبيراً عن رؤية إلى المستقبل، أن يكون جكرخوين هو المطلوب باسمه والشاهد على عصره، وكأني به بطريقته تلك، أراد رئاسة من نوع آخر، ومقاماً استثنائياً لا يليق إلا به، فكانت القصيدة، والأشد بروزاً هو التعريف بنفسه فردوسياً وغيره، ليعلم المعني أن الباقي هو وأمثاله.

لكن النظر إلى القصيدة من أي منظور مما ذكرنا، يبقى أكثر من جهة مفتوحة، ويبقى الناس ومن يكونون حيث يتم التذكير بها فيما بينهم وفي مجالس خاصة، شهود عيان ذاتيين على وضعيات نفسية واجتماعية، فيكون التاريخ اللاحق وقد رحل كلاهما، عبر التذكير بالقصيدة أو ما تبقى منها، وكأن الحادثة باقية، ترجمة لما هو نفسي واجتماعي وحتى سياسي.

ربما نكون إزاء سوء استخدام القصيدة وإدارتها عبر إخراجها من سياقها المحلي والتاريخي الضيق، لتكون تعبيراً عن واقعة تمارس انقساماً في المجتمع بالذات، فلا يكون هناك تدقيق في التاريخ، وإنما يكون المضي قدماً مع وضعيات نفسية أو حالات استهواء أحياناً، وكأن كل قائل لها في موقع الصاحب والباحث عن خصم مشابه للمذكور، رغم أن المعائب ليس في موقع المنقود أو المتهم، وإنما في موقع المبتغى إعلامه، من جهة شاعر يريد منه حفظ هذه الواقعة، فلا يكون ضحية موقف أو من نُصب عليه، وفي الحالتين ثمة إبراز لذات عصية على النيل منها بالطريقة التي يتصورها أحدهم.

عتاب جميل حاجو يأتي من شاعر يعرفه وكل آل حاجو، كما هو المقروء عنهم في مذكرات جكرخوين، وثمة تشدد وحدة في الكتابة عنهم فيما بعد حدة شاهدة على خيبات شاعر وشعور بغبن تاريخي لا يعدل ولا يستوفي حقه استغرق نفسه من الداخل في مجمل حياته، وحيث إن مذكرات جكرخوين نشرت بعد رحيله «سنة 1984»، ولكن العتاب ينطوي على ضرب من الهجاء ولو بقليل من الإيلام، إنه توقع خلاف المتحصل من المعائب، أي كان ينبغي ألا يكون تصرف جميل حاجو كما تلمسه الشاعر وهو في عدم إيلائه الأهمية اللازمة، تجاوباً مع حساسية الشاعر وسرعته في تحويل الجاري مناسبة لقول قصيدة أو إطلاقها، حيث يتكرر فيها اسم جميل «جميل حاجو»، ليكون العتاب تبيان موقف وإدانة للآخر طبقياً.

لكن يبقى أن نقول: إن الكثير الكثير من قصائد الشاعر، وفي مجموعاته الأولى «بدءاً من نار وشرر 1945»، عبرت عن موقف طبقي «شيوعي» في نيله من الآغوات والمشايخ والبكوات والملالي.. الخ، فلماذا استبقى هذه خارجاً؟ يبقى السؤال معلّماً، وربما مشيراً إلى جانب خفي من حياة الشاعر، بحيث إن الذين أرادوا أن يقيموا هذه الحياة انطلقوا من تقديرات خاصة بهم، وخصوصاً حين أراد الشاعر أن يتحدث بلسان القومي، دون أن يتخلّى عن الطبقي فيه، وهي مفارقة من المفارقات الكبرى في حياة جكرخوين، لا أعتقد أنه تجاوزها حتى النفس الأخير له.

أشدّد مجدداً على أن جكرخوين رام التأمين على شهرة تمتد به نحو المستقبل، كونه لم يستسلم لأي إغراء أو تهديد أو وعيد، لكنه عملياً، كان دون كل هذه المزاعم .

تخيّلوا إذًا الفارق الكبير بين من يفكّر ضمن مساحة جغرافية بوسع كيان سياسي، دولة كردية، بغضّ النظر عن طبيعة الإمكانيات ومضمونها، حال حاجو آغا، ومن يذكّر بها، حال من جاؤوا من بعده من أولاده، كما هي المغتربات شاهدة عيان ما جرى لهم، ومن يفكّر فيما يكسبه تحت يافطة حقوقية ذاتية مضخّمة إلى حد كبير، كما هو حديث جكرخوين عن «أناه» وظلها الكئيب !

لقد عاش حاجو آغا أكثر واقعية ومتفاعلاً مع أحداث عصره، أكثر من كثيرين ممن جاؤوا من بعده، وهم في عداد رموز الحركة الكردية سياسياً وربما دون استثناء، ولعل الذين حاولوا أن يقتدوا به من أبنائه وأحفاده واجهوا مستجدات مختلفة، وأبصروا قدوة كردستانية في نسبة معلومة منهم من جهة «الشرق»: جنوب كردستان، ومن خلال البارزاني نموذجاً، أي اعتبار أن طريق الوصول إلى كردستان محرّرة يمر عبر «هولير» وليس آمد إجمالاً.

وربما كانت متابعة أنشطة أفراد من آل حاجو في السياسة والثقافة، تضعنا في صورة الأمر، أي معاشة كل متغير يجري في أرض الوطن «الموَجَّل» أو الموعود أو المحلوم به .

حسبي أن أشير كقيمة أدبية وفنية ما ينير هذه الواقعة، وتتمثل في نشاط كل من الشاعرة ديلبر حاجو وأخيها الفنان جوان حاجو، وكيف أنهما يتعاونان في رسم خارطة فنية تحمل تلك الصبغة الكردية، والفن إشهار بعالم معين، وعلى قدر إبرازه يكون وضوح الآخر وتعزيز موقعه، بمقدار ما يكشف النظر البحثي عن هذا «التلبّس» بالجغرافيا الكردية عموماً، ومسقط الرأس في «تريه سبي» ذات الدلالة الفارهة ومحيطها، كما لو أن تذكّرها هو التجديد المستمر لذلك الرحيل القسري من «مزيخ» أو مدياد إلى رقعة أرض أخرى هي داخلخ في لحمة تلك كردياً، ويبقى الفن وشقيقه التوأم الأدب وجهين لعملة واحدة هي التشبث بالحياة ما بقيت قائمة.

أنقل هنا بعضاً مما تحدث به جرحها الروحي عن هذا الذي كان بفعليته بالنسبة لديلبر، كما لو أنها تجيب على سؤاله الذي طرحته في مختتم الكتاب، أو في نطاقه :

(تقول ديلبر: تعود أصول عائلتنا إلى كردستان الشمالية، من ناحية مدياد في منطقة ماردين، وكان جدي هناك، بعدها عبر إلى روجآفا هرباً من الدولة التركية،

وكان عمر أبي حينها سنتين، وقد كان جدي يسعى إلى إشعال ثورة هناك، لكن المؤسف أن كردنا آنذاك ما كانوا متّحدين، فاضطرت عائلتنا للانتقال مع عشيرتها إلى روجآفا والاستقرار فيها. وكانت كبيرة، لكنها تبعثرت، وبعد قيام ثورة البارزاني وقد تقربت منها، كانت لها الدولة السورية بالمرصاد وقد آذت عائلة حاجو لهذا السبب. إذ وضعت يدها بالكامل على قراها الـ «23» التي كانت تملكها، تلك التي منحتها الدولة الفرنسية المنتدبة على سوريا لجدنا حاجو. فدفعت بها جميعاً للهجرة إلى أوروبا، فذهب البعض إلى ألمانيا، والبعض الآخر إلى السويد، فأميركا، ونحن استقرينا في النرويج.

واهتمت بالفن، حيث تقول: كان والدي نفسه من يعزف على الطنبور، إذ إنه ما أن يأتي إلى البيت حتى يتناوله ويعزف عليه، وأخي نايف الذي استشهد هو أيضاً كان يعزف على الطنبور، وهكذا الحال بالنسبة إلى أخي نورالدين وأختي الصغرى بروين والتي تقيم إلى الآن في النرويج، ومن جهته أصبح جوان فناناً/مطرباً، وأنا بدوري باشرت كتابة القصائد، وأصبح فناناً كروياً بدعم من قصائدي له. لقد كانت عائلتنا مرتبطة بالفن إجمالاً..وما يتعرض له المرء في الوطن وفي كردستان، أحوّله بمشاعري إلى كلمات، وهكذا يكون مطلب الكتابة، حيث كتبت قصائد في الثورة والحب...وما عاشه روجآفا من وقائع وجد طريقه إلى قصائدي، كما لو أن الكلمات التي سطرته كانت حية داخل مسبقاً، كما الحال في كوباني، وشنكّال وغيرهما، وكذلك فقد كتبت عن عن زيلان عندما ضحّت بروحها، وأنا التي كتبت «ديار مسكني Diyarbekir Mala Min e»

وتقول ديلبر، كما ورد عن ذلك في المقابلة معها: كان والدي يريد من جوان أن يصبح محامياً، لكنه ، وباختصار، اختار طريق الفن، وبعد أن ذاع صيته أحبّه والدي، حيث كان يتقصى أخباره دائماً جهة اهتمامنا واهتمام الناس به.

وديلبر تكبر أختها بعشر سنوات، وهو يحترمني، ولكنها تقول عن أن العلاقة بينهما علاقة أخت بأختها، وعلاقة فنية كذلك، وكلّ منهما يخبر الآخر ما يقوم به⁽¹⁾.

(1) موقع «Bas news»، في 10-10/2017، أما عن القصيدتين، فهما مستلّتان من الانترنت .

في قصيدة لها، وكمثال حي، وهي «ديار بكر» وهي مشهورة ومؤداة بصوت أخيها جوان، ثمة ما ييقينا في العالم الجغرافي المهيوب حيث كان الأجداد هناك، إنما يكون الانغراس الوجداني فيه بالمقابل، ولم أشأ ترجمتها، لأن ذلك يفقدها هنا حرارتها الاعتبارية ويفقر روحها المكانية :

Diyarbekir warê min e
Diyarbekir cihê min e
Cihê bav û kalê min e
Ew mesken û paytaxta min e
Ew xumxuma ava mezin
Diherike û pêl bilezin
Kulê dilêm pê re dibezin
Civat û seyrana min e
Li ser surhê singa te bû ferman
Hatin bi te re xortên ciwan
Bi hêbet û bi qehreman
êdî ne ma tirsî giran
Li ser birca te yê bilind
Mij û dûman her girtine
Gul û Sosin pel weşandin

وثمة مثال آخر، وهو يرتبط بالفنان جوان حاجو «مواليد 1957»، يلفت نظر المهتم به إلى تلك المسيرة الفنية الثرية التي عرف بها وهو يغني لوطن ممزقا، ويحيل أسماء أمكنته من وان إلى ديار بكر فكوباني وقامشلو ومن ثم شخصيات لها موقعها القيمي كردستانياً شيخ سعيد والبيشمركة.. الخ، إلى مصابيح تبقي الجغرافيا الكردية مضاءة من خلالها وتقاوم النسيان.

ومن باب تعزيز القول، أشير إلى القصيدة التي غناها وتحمل اسم «قامشلو» وهي للشاعر اوصمان حمو، أتركها كما هي حتى تكون معتبرة بلغتها وهي تنبض كسابقتها على الورق:

Bi dengê xewnê te şiyar dikim
 Bi lêvên tirsê te maç dikim
 Bi singa agir te himbêz dikim
 Qamişlo dîlbera min
 Di mirina evînê de em evîndar in
 Xewnê min û te bi weris ve bi dar in
 Kevoka spi li dor te mar in
 Ez û te kevokên bi der meşext man e
 Şev li me tari ye û derya talan e
 Qeyka me şikestiye û qerax winda ne
 Ka destê xwe bide min
 Da hêvi pêl bide
 Roj li ser geya
 Disa rewşen bide
 Ka destê xwe da kehnî din bibe
 Qamişlo dîlbera min

حسبى أن أشير هنا أيضاً إلى مجموعة أوراق خلفها مجيد حاجو « 1929-
 2001 » وراءه، وهي تؤرخ لمرحلة شديدة السخونة، سوى أن اللافت فيها، هو أنها
 تبرز استمرارية الخلافات بين المعنيين بالحركة الكردية وكيفية إدخالها في
 «خانة» التسييس الحزبي، كما أرى مع نشأة أول حزب سياسي كردي في سوريا
 سنة 1957، وأورد بعضاً مما ذكره الراحل مجيد حاجو في أوراق له (في سنوات
 الأربعينيات من هذا القرن وإلى قيام وتأسيس البارتى الديمقراطي الكردستاني
 في سوريا 1957، كانت الساحة السياسية الكردية خالية في سوريا من الأحزاب
 والجمعيات ما عدا بقايا جمعية خوييون وكانت تقتصر على بضعة أفراد
 متنفذين لا يزيد عددهم على عدد أصابع اليدين كما أنها لم تكن حركة
 جماهيرية.... ويشير - بمعنى ما - إلى مكانة المتبقين في جمعية خوييون : الجيل
 الثاني في الأربعينيات، وكيف أنهم طالبوا من في البارتى بإمكانهم حل الجمعية

وأن يتخذوهم استشاريين، فرفض اقتراحهم خوفاً من احتواء البارتى، كما يظهر، وهم السادة «قدرى بك وأكرم بك جميل باشا وعبدالرحمن آغا علي يونس وحسن وجميل حاجو ومصطفى بك وبوزان بك» رؤساء عشيرة برازان والدكتور أحمد نافذ وعارف بك عباس وممدوح سليم ... ولاحقاً يتحدث عن لقاءات متكررة له بالراحل ملا مصطفى بارزاني في سنوات «1970-1971-1972...»، وقد أكد الأخير «بارزاني» في لقاءه الأول عن تقديره لآل حاجو، وأشار قائلاً: آل حاجو وبارزاني عائلة واحدة منذ أيام الشيخ أحمد وحاجو الكبير ولازلت أنظر للعلاقة بيننا بنفس التقدير.. الخ⁽¹⁾.

ماذا تعني هذه «الاعترافات/التصريحات» ؟

أولاً، تأكيد الانتماء إلى الحراك الكردي ليس بالمعنى المحلي الخاص، إنما الكردي العام، وما يترتب على هذه العلاقة من أنشطة تترجم بنية المجتمع الكردي عموماً، وهو تعبير متحفّظ عليه، بما أنه لم يتشكل في إطاره السياسي في حدود

(1) مجموعة أوراق تشكل جانباً من مذكرات مجيد حاجو، أرسلت إلي بخط يده، ومن قبل ابنه الصديق كاميران حاجو من السويد، بتاريخ «5-1/ 2018»، مَشْكُوراً.

ومن المعلوم أن الراحل مجيد حاجو حصل على شهادة البكالوريا في عام 1948، وخدم في الجيش السوري النظامي كضابط «الدفعة الأولى احتياط» في عام 1952، برتبة ملازم، ولاحقاً انتسب إلى البارتى سنة 1958، واستمر في انتمائه الحزبي إلى نهاية حياته، وفي أواخر السبعينيات تسلّم مسؤولية إصدار مجلة Gelawêj ، باللغة الكردية، حيث أصدر أعداداً كثيرة منها، وهاجر إلى السويد سنة 1987، وتوفي هناك سنة 2001، وما أعرفه عنه شخصياً، حيث كانت اللقاءات تتكرر في بيته بقامشلو، إلى جانب أصدقاء ومعارف آخرين، قسم لافت منهم رحلوا قبله وبعده، هو مدى ارتباطه بالعصب المركزي «الكردايتي»، وربما كان الأبرز في هذا المسار من آل حاجو، إنما بعيداً عن أي تعال في علاقته بالآخرين، كما هي شهادتي فيه، ولعلها محتوى الكلمة التي ارتجلتها أثناء تشييع جنازه ودقّنه في قرية «Dugir»، القرية التي تقع غربي تربه سبي عدة كيلومترات، في يوم الاثنين «9-12/ 2001»، والتي اكتسبت صيتاً وهي تشكل ما يشبه مقبرة تضم إليها رفات كبار الكرد، مثل: حاجو آغا، حمزة مكسي، دكتور أحمد نافذ، عارف عباس، مقداد جميل باشا، عبد الرحمن علي يونس، وحسن حاجو آغا، ومجيد حاجو... حيث يسهل النظر إليها، من قبل مسافر، مثلاً، من قامشلو إلى تربه سبي من جهة الشمال، يسندها تلان، وهما يعلوان الأرض، غربي القرية، وكأن يدين خفيتين ترفعانها عالياً، ليبقيا ماثلين أمام الأنظار، ممن يقطعون الطريق مغرباً ومشرقاً، ومن على بعد مائة متر تقريباً.

كيان سياسي دولتي، والمجتمع الكردي ذي الطابع السياسي: الحزبي خصوصاً، والالتفاتات إلى جانب المناورات الشخصية وغيرها فيها .

ثانياً، إبراز ما يصل اللاحق بالسابق، جهة الصراعات الجانبية الكردية، مهما اختلفت أسماؤها أو كانت مسمياتها، إذ المهم هو عدم اختفاء هذا «الحبل» المكهرب والذي «اعتصم» به جلُّ الكرد ممن تستهويهم السياسة، أو يعرف بهم العمل الحزبي قبل كل شيء، بما يزيد في «كهرية» الحبل على خلفية من التنازعات الحزبية، والقبلية المستحدثة مذكّرة بسلف قديم لم يمت .

ثالثاً، ما يبقى آل حاجو في الدائرة الكردية وقد اتّسع كما تنوع نطاق العمل، ومفهوم الكردايتي فيها، سوى أن البارزانية، باعتبارها بالنسبة للكثيرين منهم هي النسخة الأحدث من كاوا الحداد، بمفهومه القومي، وهو يشعل ناره الكردستانية في هولير ومحيطها بشكل مركّز.

رابعاً، تنوع حسّ الانتماء الأكثر بروزاً بكرديته، من قبل من جاؤوا بعد حاجو آغا، بصفته قدوة لأخلافه، ومن خلال مقارنات بين ما تفعل باسمه كردياً، وما يمكن أن يُستمر استناداً إليه، ولا بد أن نظرة بسيطة إلى أسماء عديدة من أفراد هذه العائلة ومدى انخراطهم في العملين: السياسي والثقافي، وكيفية تعاملهم مع عموم الكرد وفيما بينهم، تعلمنا بذلك، حيث أترك لائححة الأسماء التي تمثل أمام ناظري لمن يعنيه أمر البحث في هذا الشأن، مهما اختلف الموقف منه .

حاجو آغا في أي طريق للتاريخ ؟ «في مقام الخاتمة»

«إن هدف المؤرخ هو تقديم المعرفة وليس الإيمان بها وتصديقها» .

تزفيتان تودوروف: الأمل والذاكرة «خلاصة القرن العشرين» ص 281.

في مقاله «أفكار حول الأمير بدرخان» والوارد في كتابه «الدولة والکرد...» ينتقد المفكر وعالم الاجتماع التركي الكبير، وصديق الشعب الكردي اسماعيل بيشكجي الأمير بدرخان كونه لم يقرأ أحمد خاني، ولو أنه قرأه بحق، في توجّهه القومي الكردي لما ارتكب أخطاء تاريخية قاتلة (ليس معلوماً ما إذا كان الأمير بدرخان يعرف أحمد خاني أم لا يعرفه. إن ما يقال، هو أن من دخل المدرسة، يعرف كلاً من أحمد خاني، ملا جزيري، وفقّي طيران، سوى أنه ليس معلوماً أن الأمير بدرخان قد دخل المدرسة)⁽¹⁾.

وفي كتابه «انبعاث كردستان الخيالية» أيضاً، يتعرض له، ضمن عنوان فرعي «أحمد خاني الذي انقطع شعاعه»، ماضياً في القول بأن لا أحد استطاع تمثيل تاريخ الشعب الكردي بإحساسه مثل العالم الكردي الكبير أحمد خاني، لا قبله ولا بعده، لا في القرن الثامن عشر ولا في التاسع عشر، ولا حتى في القرن العشرين، ولأهمية الفقرة من مقاله هذا، أوردتها مترجمة بالكامل (بعد الحرب العالمية الأولى ظهرت قوى كردية في أنحاء متفرقة من كردستان، وكان هدف كل منها هو إخضاع السياسة الكردية لسلطتها، وقهر القوى الأخرى. ففي ستانبول، كان سيد عبدالقادر في جمعية «تعالى وترقي كردستان» شخصاً له مكانته، وكان ابن أخيه سيد سيد طه صاحب قوة ضاربة في راوندوز في كردستان الجنوبية، حيث إن نفوذ سلطته كان يمتد حتى مناطق مثل هكاري، وان، ومهاباد كذلك، وفي جنوب كردستان كان هناك الشيخ محمود شخصية متنفذة، وتحديدًا في محيط السليمانية، وفي شرق كردستان، كان هناك سمكو، وفي بوتان بدرخان، وفي ديار بكر أولاد جميل باشا أصحاب قوى فاعلة، والجميع كانوا يعادون بعضهم بعضاً،

(1) بيشكجي، اسماعيل: الدولة والکرد «اللغة، الهوية، القومية، والوطنية»، الترجمة من التركية إلى الكردية: روشن لركين- أحمد كاني، منشورات وقف اسماعيل بيشكجي، ستانبول، 2016، ص 442.

وكلّ يسعى إلى هزيمة البقية، وعلى الضد من مصالحهم، كانوا يتحالفون مع الدول التي تحاول السيطرة على الكرد وكردستان، لهذا، يستحيل علينا القول عن أنهم أخذوا بفكر أحمد خاني وطبقوه في حياتهم، ولو درست التناقضات القائمة في هذه القوى، فإنها سوف تظهر ضعف المجتمع الكردي، ومن المؤكّد أن هذا الموضوع من اختصاصات الانتروبولوجيا وعلم الاجتماع⁽¹⁾.

وبغية توضيح الفكرة الرئيسة لما نحن عليه، أننتل إلى مقاله التالي، وهو «ثلاثة كرد»، حيث يشير إلى وجود ثلاثة أسماء/شخصيات فكرية كردية ظهرت في نهاية القرن التاسع عشر، والنصف الأول من القرن العشرين، كانت خارج الكردايي، أي العمل ضدها: عبدالله جودت، وضياء كوك آلب، وسعيد النورسي، ليستدرك فيما بعد أيضاً (نحن لا نستطيع القول على أن هؤلاء الثلاثة قد تلقوا شيئاً من أحمد خاني، وحيث كان وقتذاك مثقفون كرد آخرون، إلى جانب وجود تنظيمات ومجلات متشرة في محيطهم، مثل: خليل خيالي موتكي، أمين عالي بدرخان، شكري بابان، حيث إن كلاً من هؤلاء قدّم خدمات جليلة للشعب الكردي، سوى أننا لا نستطيع القول على أنهم فهموا قضية كردستان مثل أحمد خاني، كانوا يعيشون في ستانبول، وهم بعيدون عن الكرد وكردستان، وموظفون وبيروقراطيون، حيث إن وضعاً كهذا كان يضيّق الخناق على عملهم في الواقع⁽²⁾.

ما ابتدأت به ليس القصد منه الحديث عن بيشكجي طبعاً، ولا عن أحمد خاني ضمناً، إنما ما يصلنا بموضوعنا، لأن بيشكجي يعتبر من أهم من كتبوا عن الكرد من أوسع زاوية تاريخية، ولأن خاني كما يشار إليه في كل مناسبة ذات طابع قومي كردي، كان هذا الاستهلال.

مغزى القول أن بيشكجي - هنا - يضيّق واسعاً في النظر إلى تاريخ الأشخاص والمجتمعات وكذلك الأمم، بمقدار ما يسبغ لوناً واحداً أحياناً على موضوعه، كما في إبراز أحمد خاني القومي الكردي الأول والأخير، أي «يقوم» ما جاء به، ومن خلال «مم وزين» بالذات، وهذا تعسف في التقييم:

(1) بيشكجي، اسماعيل: انبعث كردستان الخيالية، الترجمة من التركية إلى الكردية: عمر دوران، منشورات وقف اسماعيل بيشكجي، ستانبول، 2016، ص 22.

(2) المصدر نفسه، ص 23.

أولاً، لا يعقل، أن يُقدّم خاني من خلال مجموعة محدودة من الأبيات الشعرية «لا تتجاوز دزينة أبيات»، على أنه شاعر القومية الكردية، ليعمّم حكماً على تاريخ كردي عامة، وكل من له موقع فيه سياسيين وقادة وكتاباً كرداً، وما في ذلك من إعدام لفكرة التاريخ بالذات.

وحتى بالنسبة للشخصيات الثلاث ثانياً، ثمة تعسف تاريخي، وقطعي، فهي ليست واحدة، وحتى بالنسبة للشخصية الواحدة، لا ينبغي النظر إليها بالقيمة المعرفية ذاتها:

بالنسبة إلى ضياء كوك آلب «1876-1924»، الذي يعتبر «خائن» القضية الكردية من جهة قوميها، ورهن نفسه للكماييين، باعتباره منظر القومية التركية، ليس أوله كآخره، وبيشكجي ذاته استفاد منه كثيراً، وفي السنوات الأخيرة تراجع عن تلك العلاقة المعرفية به⁽¹⁾.

بالنسبة إلى عبدالله جودت «1869-1932»، الباحث العلماني في زمانه، كما رأينا، يختلف من حيث الموقف وحدته عن آلب، وله مقالات واضحة الأبعاد في نقد السلطتين العثمانية خاصة ومن ثم جماعة الاتحاد والترقي، وفيما بعد تراجع، إنما كان دون الأول معاداة للکرد، كان من دعاة العلم الوضعي ومحفزاً الكرد على ذلك في أول عهده، كما في (مخاطبة الكرد: أيها الكرد! إن هذا العصر هو عصر العلم. لقد مضى زمن الجهل والتقوقع داخل مجاهل الجبال..)⁽²⁾.

أما عن سعيد النورسي «1877-1960»، فهو يقف في موقع مختلف عن الاثنين، من الذين آمنوا بوحدة الإنسانية واعتبار الإسلام مظلة تضم إليها المسلمين كافة، إلى نقد المظاهر السلبية في واقع المسلمين، والکرد ضمناً، وانتهى به الأمر متصوفاً وناسكاً، ويرى في استعادة الأصول خلاصاً، ودخولاً في التاريخ بكل حيويته (أيها الكرد، ظاهر، أن ليس لدينا نبع، لهذا، فإننا نشرب ماء نتناً كونه يأتي من مكان بعيد، حيث إننا كما كنا، نرى ما يجري على أنه استبداد، لهذا كونوا غياري واعملوا..⁽³⁾).

(1) ينظر حول ذلك في كتابي: الذئب الكردي «دراسة في شخصية ضياء كوك آلب» منشورات سبيريز، دهوك، ط1، 2016، صص 149-150.

(2) مالميسانز: القومية الكردية ود. عبدالله جودت في مطلع القرن العشرين، المصدر المذكور، ص 18.

(3) Norsî, Bediuzzaman Seidê: Munazerat, werger kurdî: Ayan Meretowar, Almedar, Istanbul, 2009, r: 29.

إن المراد قوله من خلال ما أثيرَ حتى الآن، هو استحالة النظر في التاريخ الكردي، مهما كان مستواه، أو نوع موضوعه، أو موقع أي شخصية فيه من زاوية اعتبارية ثابتة أولاً، وأن العمل المعرفي يقتضي، وعلى أساس الممارسة النقدية، وجوب المزيد من التحري في المقروء، في تاريخ البحث، أو المادة المعرفية، أو مسيرة شخصية معينة، وليس التعامل معها وفق إجراء منطقي، أو حسابي تقليدي، بقوله «هكذا إذا...» ثانياً، فهي أغنى من أي مكاشفة نقدية، وصواب المعرفة هو في النظر في جهات مختلفة، أبعد من منطق الحس السليم، أو الرؤية الحسية.

وإذ أتحدث بالطريقة هذه، فإنني أبقى كل الذين أوردت أسماءهم، ومن بالتوازي معهم، والذين تعرّضت لهم من خلال جوانب بحثية مختلفة، في معرض المناقشة، حتى أكثرها إبرازاً في خانة السلب، سوى أنني، وإن أظهرت نوعاً من الحكم النقدي عليها، أبقياها في معرض المساءلة، فالذي حاولت القيام به، ومن خلال العنوان المشار إليه «دولة حاجو آغا الكردية» هو رؤيتي البحثية والتاريخية للموضوع، انطلاقاً من مصادر مختلفة، ووثائق متنوعة، واجتهاد شخصي.

أي ما يبقي حاجو آغا، وكما عرف بلقبه هذا، تحت الضوء، وأن يتم وصله بدولة كردية، أو مشروع كيان سياسي كردي في عهده، فإنما هي محاولة اجتهد تتبعها على مدار عقود من السنين بحثاً وتنقيباً ومقارنة وحواراً، والتأكيد على أن ما سعى إليه حاجو آغا في زمانه، لا يزال الفكرة الأكثر قابلية للنظر فيها، وتأمل جوانبها من خلال مكونات المنطقة، والمثال الأكثر إثارة في طرحها والتوقف عندها، وأن كل المشاريع «الروجاؤاوية» إن جاز التعبير، بمفهومها الكردي، لا تعدو أن تكون دوراناً في فلکها، أو استدعاء لها، أو تذكيراً حياً لها بأكثر من معنى، أي ما يدخلنا في التاريخ، إنما يخرج رؤوسنا منه، لنقدر المسافة بين فعل الأمس واليوم .

حيث إن الذي أشغل حاجو آغا، وأن أثار الكثير من التساؤلات في وسطه أو من حوله أو حل حل وارتحل، تجلّى في مساعي البحث عن كيان سياسي كردي يضم المكونات الأخرى إليه، مهما كانت طبيعته، وهو لم يتحقق عملياً، لكنه كمشروع، كشروع في لزوم التأسيس لكيان كهذا شيء آخر، لا يمكن فصل مساعي الآن عما كان عليه حينها . كما أسلفت:

النورسي، بديع الزمان سعيد: المناظرات، الترجمة إلى الكردية: أيهان مرتو وار، المدار، ستانبول، 2009، ص 29 .

أن تكون لحاجو آغا دولة كردية تعنيه هو نفسه وآل حاجو .

أن تكون لحاجو آغا دولة كردية لا تعنيه وحده هو أو آل حاجو .

أن تكون لحاجو آغا دولة كردية تشجّع على التفكير فيها وتديرها كأمر مشروع، هو ما يمكن النظر فيه، هو ما يمكن التوقف عنده، هو ما يحفز على اعتبار حاجو آغا، مشروع العديد من الأسئلة التي تخص كياناً سياسياً كردياً، هو أو غيره، لكن ما يُسند إليه يؤكّد عليه.

ليت الجامع بين الجغرافيا والتاريخ يتحرّى خطوط تحركاته من جديد، وبوعي، بنوع من استعادة ما كان، وما هو كائن، ما كان يثار من خلاله وفي حياته العملية القصيرة جداً والمكثفة جداً، حينها ليسائل نفسه عن حقيقة ما تعنون به هذا الكتاب : دولة حاجو آغا الكردية !

لكم تكون سعادتي المعرفية كبيرة، فيما لو برز من يثبت العكس، أو خلاف ما تعرضتُ له، أو خطأ ما أثرته، أو حتى وهم ما توقفت عنده، إنما استناداً إلى نقاط ارتكاز بحثية وتنويرية؟!

ومن قبيل عود على بدء: لو سئلتُ: هل تؤيّد قيام دولة كردية ؟ فإن أول ما أجيب به هو: هو سؤال مرفوض أساساً، لأن طرحه يعني: إمكان رفضها، ولهذا، فإن التأييد هو من المسلّمات، وربما لا يوجد كردي، إن تحرّك في وريده دم كردي، ويمتلك الحد الأدنى من الشعور بما هو قومي، إلا وهو يعيش انتظاراً ممضاً للحظة تاريخية سعيدة كهذه، أما في ضوء الراهن، فإن إشعاراً بالتغيّر، في سوريا عموماً، حيث أنتمي إلى حدودها السياسية، ربما يؤجّل، أو يعدّل فكرة التفكير في كيان كهذا، وأنا أستعيد ما كان يشدّد عليه حاجو آغا، في نطاق «دولة سوريا» أو «الشعوب السورية»، وليس «القطر العربي السوري»، أو «الجمهورية العربية السورية»، لأن ذلك يعني العيش تحت وطأة أحادية الشعارات الإيديولوجية، وشمولية النظام السياسي، ومن ثم لاطرفيته، وسيادة إلى جانب سلطة القومية الواحدة، والحزب الواحد بمفهومه العروبي، وهذا لا يبقينا عالقين في الزمن وحده فحسب وإنما في وضعية نكوص، وداخل شرنقة الزمن الأكثر وعداً بالشقاء الشامل للجميع، والتحرك على الحد الأقصى من هامش التاريخ أيضاً .

أكانت دولة حاجو آغا يوتوبيا كردية، أم يوتوبيا كردي في بلد لم يهذب نفسه تاريخياً، أم مأساة نظام لم يتعرّف على وجهه بعد، بتفاصيله، وحقيقته في مرآة التاريخ بالذات ؟

وأنا أقف هنا، ودون أن أقول كما هو معتاد أيضاً «ختاماً، في الختام، وهكذا...الخ»، ثمة ما يمكنني التقدّم به واعتباره الجامع المشترك بين المختلفين فكرياً: لكم حاجو:كم، ولي حاجو:ي!

إمضاء إضافية مهمة

«وأراني أسأل نفسي، شأن كل من شهد هذا القرن: ما هو الانطباع الذي خلفه في ذهننا القرن المنصرم؟»

تزفيتان تودوروف: الأمل والذاكرة «خلاصة القرن العشرين»، ص 7 .

لقد أشرت سالفاً إلى مدى انتشار هفيران في الجهات الأربع، كما هو وضع جلّ العشائر أو القبائل الكردية جرّاء مواقف حكومات الدول وأنظمتها في المنطقة، وهي المعادية لها، إذ، كما هو معروف تاريخياً، كان من أكثر من وسائل الردع والانتقام المعتمدة من قبل أي منها، هو السعي إلى التفريق بين أبناء العشيرة- القبيلة الواحدة، إلى جانب نفي وجهاء منها إلى جهات قسوية، بغية إضعافها، فكيف الحال، حيث تشتعل حرب فعلية بين أي منها وإحداها ؟

ولقد كانت هفيران تاريخياً، كما رأينا، في واجهة اهتمامات هذه الحكومات والأنظمة حتى العصر الحديث «حتى النصف الأول من القرن العشرين» بصورة ملموسة، وجرّاء ملاحقة رموز هذه العشيرة أو تلك، كان هناك أعمال القتل والمطاردة، النفي والسجن، وتضييع الأثر، عدا عن اضطراب البعض من هؤلاء في لحظة التصعيد بالمواجهة، إلى التخفي، وبصورة خاصة، ما كانت تقوم به عشائر أو قبائل كردية، أو أطراف منها بالذات في التعاون مع أعداء الكرد، وإيذائهم باسم هذا النظام أو ذاك، وكان لهفيران نصيب وافر، وكذلك عائلة اوصمان سلو، كما رأينا مجدداً، ومن خلال مواقع كثيرة، بحيث تكون درجة عداء أطراف عشائرية أو قبائلية كردية لرموز عشائرية أو قبائلية كردية أخرى، أكثر بروزاً من تلك المعتمدة لدى الدولة أو الحكومة في هذه الجهة أو تلك، وتحديد بعد تقسيم كردستان سايكس- بيكويكاً، ولقد رأينا أن عائلة حاجو آغا «حاجو الثالث» كانت بين نارين حاميتين: دول المنطقة ومن تعاونوا معها من وجهاء العشائر الكردية، في القضية المحورية: الكردية .

ولعل الذي آتى على ذكره يندرج في هذا المضمار التاريخي والمأسوي الكردي، أي كيف أن شخصين برزا في مكان بعيد عن مزيزخ، في: شنكال وزمار، تكتما على نسبهما، حرصاً على سلامتهما، وتقديراً منهما أن هناك عيوناً تراقب كل صغيرة

وكبيرة في هذا الجانب، ليعيشوا مرحباً بهم من قبل من احتضنوهما: الإيزيدية من جهة والكركرية من جهة أخرى.

ذلك ما سمعته شخصياً، وبعد متابعة، من الأخ عزيز محمد عزو، والأخ سليمان شيخموس هفيري، وكلاهما ينتسب إلى حاجو «الأول»، أو بيت اوصمان سلو، حيث أسمعاني ما كان بحرارة ورغبة في نقل صوتهما إلى آخرين، لا بد أنهم يعيشون حالتهم، مثلهم، بسبب تمزيق أعداء الكرد لشمل الكرد ووحدة وطنهم، وهي حالات كثيراً ما نجد صوراً عنها، وبصيص شتى في أفلام ومسلسلات تلفزيونية وغيرها، وذلك بحضور كل من الأخ الشيخ فهد زعيم عشيرة كيكان، والأخ ابراهيم عيسى ابن عم سليمان في «مول دهور» في دهورك، السبت «20-1/2018»، حيث ملخص قصة كل منهما واردة بعد هذا التقديم والتعليق، برواية الأميركي ذي الأصول الأفريقية «إلكس هالي» والدائنة الصيت «الجدور»، عبر رحلة مؤلف الرواية إلى البحث عن أصوله، وعلى مدى قرون، حيث يرتحل إلى المكان الذي سبق منه جده «كونتال كنتي» رقيقاً ومستعبداً إلى أميركا، أي سنة 1750، ومن قرية «جوفور» وهي تقع على مسيرة أربعة أيام من ساحل غامبيا في غرب أفريقيا.

ما الذي أردته من تسجيل هذه الواقعة المركبة ؟

ليس إملاء المزيد من الصفحات بالتأكيد، إذ العبرة بالمحتوى، ولا نشر المزيد من الصور والخرائط، فالقيمة هي في المفيد بأكثر من معنى . إنها ما يعمق أثر البحث ويوسعه في آن، وهو أن تأكيد الانتساب إلى عائلة اوصمان سلو أو حاجو الأول، كما نظرت في المطروح من زوايا مختلفة، ليس أكثر من اعتزاز بهذا النسب، نسب له دلالة رمزية، أو اعتبارية، وليس لما هو مادي أي حضور، فثمة مكانة اجتماعية معتبرة لكل منهما، إلى جانب الوضع المادي الذي لا تخطئ العين في تقديره، أي ما يشدد على الدور الفاعل لشخصية تاريخية وسياسية، غلب اسمها اسم القبيلة وحتى عموم العائلة، إن انطلقنا من حاجو الثالث، وكما نوهنا كثيراً إلى هذه النقطة، وهو مدى امتداد هذا الأثر الجاذبي لهذه الشخصية، ومنذ أكثر من قرن، كما لو أنها حاضرة بيننا، وربما الوضع كذلك، إن روعي فعل الأثر، ومكانة الاسم.

أي ما يمكن التوقف عنده، وكيف أن الاسم الشخصي أحياناً يُعتدُّ به، أو يستعاد بين الحين والآخر من قبل الذاكرة، وعبر السنة العامة والخاصة، وبين

الحين والآخر على صفحات شتى وفي موضوعات مختلفة، والأهم، كيف يمكن إضاءة الاسم تاريخياً، وبما يفيد التاريخ نفسه، ولعلّي فيما تعرّضت له، وما حاولت الوصوله إليه، هو التأكيد على هذه النقطة المشعة تاريخياً.

ولهذا، وجدتي ناشراً بعضاً مما تلتطف به كل منهما بإرسال ما يعزّز هذه العلاقة، وهو التعزيز الذي يشهد بدوره على أن صيت حاجو «الثالث» تجاوز الحدود المحلية له، إلى جانب شجرة عائلة كل منهما، وكذلك صورة الجد «جد الأخ عزيز»: الحاج عزو.

من الأخ «عزيز»

تحية طيبة، أخي العزيز:

ليس خافياً عن الجميع أنه قبل أكثر من «150» عاماً، كان اهتمام الناس في ذلك الوقت يتركز على الماشية، ولم يعيروا أي اهتمام يُذكر للتدوين، وخاصة في مناطقنا «زمار»، منطقة الكركرية. ولهذا ضاع الكثير من التاريخ في هذه الفترة. والكركرية مجموعة من البيوتات المعروفة وقد استقرت في منطقة زمار. وكان رجالها شجعاناً ذوي صيت، وهذا ليس موضوعنا، رغم أن له مكانة فيه .

فتحن من بيت سمعة «اسماعيل»، ويتقدمهم الحاج عزو قادر سمعو، وهو جدي، ومن مواليد 1890، وتوفي سنة 1991. لقد كان رجلاً ثرياً، ووحيداً، ليس له أخوة، وكان يكرر على مسامعنا عن أننا ننتمي إلى عائلة حاجو «حاجو الأول»، حيث إن والد جده أو جده كان يقول بذلك، وأن والد جده أو جده الرابع جاء مهاجراً إلى المنطقة مع أحد رجاله، وحسب رواية أحد أولاد أعمام والدي وعمره حالياً يتعدى السبعين عاماً عن جده بأن الأغا قدم إلى المنطقة، ويقصد به أجداد جدي، ولديه أخ أيضاً، وقد ترك الأخ الأكبر واسمه حسن أخاه الصغير متوجهاً إلى سوريا، حيث يكون أقاربه، وبقي الأخ الصغير والذي نعتبّر من سلالته حالياً، وفي أحد الأيام، في نهاية عشرينيات القرن الماضي، ذهب جدي إلى بيت نايف باشا باحثاً عن جمل «بعير» له، كان مفقوداً، فقال له، أي لجدي الحاج عزو: لماذا لا تذهب إلى أقاربك في سوريا؟ فقال: ومن أقاربي ؟ رد عليه: بيت حاجو آغا. فقال جدي: إنهم أقاربي وأعمامي فعلاً. ومن هناك توجه إلى بيت حاجو، حيث اهتموا به كثيراً وقدرّوه، وعرضت عليه المصاهرة لتقوية الروابط بينهما، فقال لهم جدي: إن ابني صغير، فعمره ثلاث سنوات، وابنتي أكبر منه بسنة،

من الأخ «سليمان»

فرعٌ من شجرة ممتدة بين مزيخ وشنكال (سليمان شيخموس هفيريكي مابين 1880-1930):

من يتمعن ويتصفح قليلاً في أروقة تاريخ العشائر الكردية في معظم اجزاء كردستان المقسمة و صلة الارتباط بينها من حيث تعرضها الى الاضطهاد تارة أو الى التهجير والترحيل القسري والأنفال تارة أخرى سوف يكتشف أن الكثير من تلك العشائر ونتيجة الصراعات التاريخية والقومية وكذلك النزاعات والخصومات بين أكابر الأسر وبالأخص في كردستان تركيا قد فقدوا أبناءهم وأصبحوا طي النسيان، خصوصاً في تلك الفترات الزمنية التي كانت تنعدم فيها وسائل التواصل مقارنة باليوم وماشهدتها الحضارة من علوم وتكنولوجيا، حيث لم يكن هناك سوى الانتماء العشائري، والذي كان يعدّ الركيزة الأساسية التي تحكم العلاقات الاجتماعية والتواصل بين أغلب العشائر الكردية.

من ضمن تلك القبائل او العشائر التي ذاع صيتها بعد إمارة بوتان، هناك قبيلة هفيريكا والتي كانت تختلف عن معظم العشائر لأنها كانت تضم الكثير من العشائر الكردية تحت إمرتها إذ كانت تتكون من مختلف الأديان سواء الأكراد المسلمين والايديديين أو المسيحيين.

بعد تولي عائلة أوصمان مقاليد الحكم على قبيلة الهفيريكا بعد عائلة عليكي رمو والتي برز منها الكثير من القادة أمثال السلطان حاجو او عليكي بطي والكثيرين ونتيجة الصراعات العشائرية من جهة ومواجهة السلطات العثمانية من جهة أخرى ومحاولات العثمانيين زرع الفتنة بين العشائر الكردية لاسيما باسم الدين، والتي أدت الى منافسات وصراعات دموية بين تلك العشائر والقبائل نفسها شتت الكثير منها . وهنا بدأت القصة: شاب يافع ومندفع (سليمان شيخموس من عائلة اوصمان)، حيث تبدأ أحداث حياته قرابة العام 1880 إذ هرب إبان الحكم التركي العثماني، والذي اشتد عداؤه للأكراد بعد ثورة آخر حكام إمارة بوتان الكردية شبه المستقلة، ليلتحق بإحدى القوافل التي كانت تتاجر بين تركيا والعراق، ليستقر الشاب هذا في إحدى القرى القريبة من جبل شنكال، وليعيش مرة أخرى

قساوة الحياة وقد بدأ يعمل ليل نهار مع بعض القرويين المسلمين بشرط تزويجه إحدى بناتهم لكونه مسلماً حيث وفى سليمان شيخ موس بوعده بالعمل لسنوات بعيداً عن الأهل والعشيرة ومتناسياً عما كان عليه سابقاً في مزيزخ.

إنما هنا تبدأ المأساة ونكران المعروف و النكث بالوعد عند حرمان سليمان من الزواج. ويبدو أن النزعة العشائرية التي كان يحملها سليمان داخله، قد بقيت معه، فهو لم يقبل بالذل والهوان حيث غرز سيفاً أو ربما خنجرأ في صدر والد الفتاة لياشر الهروب من جديد ويواصل مسيرته الى مزار شرف الدين، وتقديم شكواه في معقل الإيزديين في المزار وبعد الاستماع الى أقواله من قبل احد كبار عشائر الجوانه الذين كانوا يسيطرون على تلك المنطقة يقرّر تبني سليمان فيكون ولدأ لهم لشجاعته وشهامته ورفضه الذل والإهانة. ثم دارت الأيام ليأتي يوم زواج سليمان متزامناً مع زواج أبناء تلك العشيرة وربما ششو كان أحدهم حيث كان لوالد ششو وأطفاله قاسم وقاسو، والذين أصبحوا فيما بعد ذوي صيت كبير ولازالوا إلى يومنا هذا أصحاب شأن كبير بين أفراد العشيرة و هكذا تزوج سليمان من إحدى بنات العشائر المسلمة في شنكال حيث رزقه الله أولاداً، وهم ثلاثة (قاسم، خلف، وعلي). ويبدو أن سوء الحظ كان يرافق سليمان نتيجة ما كانت تمر به منطقة شنكال وبالاخص منطقة شرفدين من صراعات عشائرية داخلية، فيشارك سليمان مع العشيرة التي تبنته، وفي إحدى الأيام وبينما هو وأحد أصدقائه يتبادلان الطلقات النارية مع الخصوم انتفضت الغيرة في نفس سليمان ليصرخ بأنه زاخوراني من أبناء عائلة اوصمان وظل يقاتل بتلك الحماسة حتى تلقى إحدى الطلقات النارية، فيفارق الحياة دون أن يحالفه الحظ بالعودة إلى أحضان الديار والقبيلة. ويُدفن في مزار من مزارات شرف الدين في جبل شنكال.

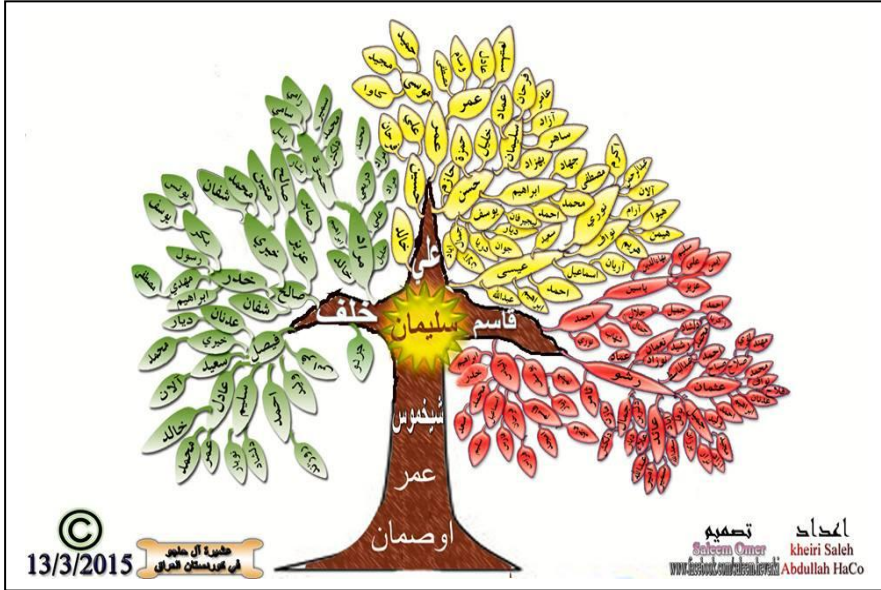
ومرّت الايام وكبر أولاده، و حيث بلغوا عمر الزواج، حيث تزوّج ثلاثتهم، وأنجبوا بدورهم أطفالاً، ثم كبرت العائلة لتقوم بمهامها وعملها في المزارع فوق سفوح جبل شنكال والتتقل بين الكثير من قرى ومجمعات شنكال واستقرارهم أخيراً في مركز مدينة شنكال. وذات يوم وإذا بالعشيرة المتبنية قرار زواج أحد أبناء قاسم الذي كان أكبرهم سنأ وليتفاجأ الجميع بأن أهل الفتاة يرغبون في معرفة

أصول سليمان وتاريخ عشيرته ويبدو أن سليمان في تلك الفترة قد شرح لبعض كبار السن في وقتها بأنه ينتمي الى عشيرة الهفيركا وهو زاخوراني ومن أحد أبناء عائلة اوصمان التي كانت تدير وقتها أمور القبيلة، وبهذا تم الاتفاق بإرسال رسالة للاستفسار عن حقيقة أمر سليمان الى السيد جميل حاجو الذي يتأسس العشيرة في كردستان سوريا آنذاك بعد رحيلهم من مزيزخ الى منطقة تربه سبي وعند وصول الرسالة ليد المرحوم جميل قام بتقبلها ووضعها على رأسه، ولمعرفة بسماع فقدان أحد أطفال العشيرة وارتباطه بحاجو الاول وقتها دون الإفصاح عن الكثير، وهذا أكبر دليل على انتماء سليمان للعائلة أو ربما لعدم الاهتمام كثيراً ببعض الأمور خصوصاً، بعد أن تم التعرف على أبناء سليمان وهو الأهم في القصة.

وعندما علمت عائلة حاجو بأمر سليمان بعد كل تلك السنين، أمر المرحوم حسين حسن حاجو بإرسال سيارته إلى الحدود السورية العراقية لجلب أبناء عمومته في حدود الأعوام 1940-1964 ليستقروا بعدها مع بقية أبناء القبيلة في إحدى القرى التي قد وهبها لهم المرحوم جميل حاجو وهذا دليل آخر على صلة الانتماء والقربة للعائلة . ولكن يبدو أن الشوق الى شنكال والبيئة التي تربوا فيها قد أثرت فيهم كثيراً ليقرروا العودة مرة أخرى إلى منطقة شنكال والاستقرار فيها، حيث ما زال الايزيديون في شنكال وخصوصاً عائلة ششو ينظرون إلى أحفاد سليمان نظرة القربة والعمومة. ونظراً لظروف الحرب والويلات التي مرت بالعراق وبقية الدول وهجرة عائلة حاجو خارج الوطن واشتغال الجميع بأمورهم الخاصة، كان لكل ذلك تأثير سلبي على العلاقات وتوقفها، إلى أن انتشرت وسائل التواصل وتخرج الكثيرون في الجامعات، ولتبدأ عملية الاستفسار عن أصول العائلة ليكون هناك نوع من التواصل بين أحفاد سليمان والكثير من أفراد القبيلة والعائلة على مستوى كردستان واوريا دون معرفة الكثير عما جرى من أحداث سابقة و أسباب انقطاع التواصل وإلى يومنا هذا .

الجدير بالاهتمام أن بعض الوثائق والرسائل تثبت أن شجرة العائلة: عائلة اوصمان تحتوي على تفرعات فارغة دون كتابة الاسم، والمرجح أن أحدها يعود إلى سليمان شيخموس .

الملحقات والملاحظات:



شجرة تعود لعائلة اوصمان، والتالية لأبناء سليمان وأحفاده، والتواريخ متقاربة

تاريخ الاستلام في 25 - 1 / 2018



الصورة من اليمين: (عزيز محمد عزو، سليمان شيخموس هفيري، المؤلف،

ابراهيم عيسى

رؤى من داخل بيت حاجو آغا

«إن الإنسان يجب أن يبقى هدفاً للإنسان، مهما كلف الأمر»

تزفيتان تودوروف: الأمل والذاكرة «خلاصة القرن العشرين»، ص 12 .

بعد انتهائي من الكتاب بصيغته النهائية، تبادر إلى ذهني سؤال مركّب، رغبت في توجيهه إلى بعض من الأصدقاء من آل حاجو آغا، ليس من باب اختبارهم، وإنما لمعرفة رد فعل كلّ منهم، أو ما يمكن أن يكون عليه جوابه، ومن المؤكد أنه كما هو متوقع ليس واحداً، لكن، هل من قاسم مشترك يصل ما بينهم ؟

وجدت في السؤال حقاً يعنيني معاً: أن أطرحه عليهم، وأن يجيبوا عليه كما هو شعورهم، أو تقديرهم للسؤال، ونظرتهم إلى ماضٍ كردي، لحاجو آغا دوره فيه، وكيف تم التعامل معه في الوسط الكردي عموماً، ومن قبل المعنيين به ساسة وكتّاباً خصوصاً .

والسؤال هو: هل تعتقد أن حاجو آغا ظلّ تاريخياً، وكيف ؟ مع الإيجاز في الجواب ما أمكن!

لقد استلمت أجوبة من بعض منهم، وثمة من رفض الرد/الإجابة لسبب مقدّر، وهو: كيف يمكن أن نتحدث عن شخص نحن معنيّون به مباشرة، وبالتالي، فإن غيرنا معني به أكثر ؟!

ولا شك أن من اعتذر عن الإجابة، أو لم يجب، كان معطياً جوابه سلفاً، من وجهة نظري، ألا وهو : نعم، ظلّ حاجو آغا تاريخياً، لأن ليس هناك من يعترف بدوره الفاعل في التاريخ الكردي، كما لو أنهم يصرّحون بأن جواب أي منهم بمثابة تأكيد على ما هو مؤكّد من قبلهم.

وحسبي أن أورد أجوبة بعض منهم، دون أي تعليق، فهي مطروحة للقراءة طي الكتاب طبعاً!

ثمة ملاحظة أخيرة، وهي أنني لم أتدخل في صيغة الكلام المرسل إلا ما ندر من حيث التدقيق اللغوي، تاركاً إياه على وضعه، لأنه هو نفسه يبقى دالاً على حالة نفسية لكاتبه، وفي الوقت الذي يعرف أكثر من لغة وهو في المهجر أو المغترب

تأكيداً على مدى ارتباطاً بالمكان الأول، ومن فيه وما فيه، بعد هذه العقود الزمنية الطويلة نسبياً، وتقديراً منه لمن يخاطبه ويحتك به، أنه من خلاله إلى جانب لغته الأم يمكنه الاستمرار في التواصل، ومن ثم متابعة ما يكتب عنه ككردي باللسان العربي، والوقوف على آخر المستجدات التي تعنيه كردستانياً أيضاً.

أجوبة من آل حاجو على سؤال المطروح على أفراد منهم: هل تعتقد أن حاجو آغا ظلم تاريخياً ؟ وكيف ؟

جواب نورالدين ابراهيم حاجو، في 27 ديسمبر 2017

نعم حاجو آغا ومعظم الشخصيات الكردستانية قد ظلموا تاريخياً والسبب بسيط جداً وهو عدم وجود أبحاث نقدية موضوعية لكي تقيم هؤلاء بشكل علمي! كل الأبحاث المتوفرة إما تكون مبنية على أرضية كيدية يكون أساسها الحقد والانتقام أو تفتقد إلى أسس البحث العلمي الموضوعي!

وتبقى هناك حقيقة وهي أن كل هذه الشخصيات بحكم امتلاكها للقوة والسلطة فهي حتماً أصابت وأخفقت هنا وهناك، ولكن المهم ما هو مدى تأثير هذه الشخصيات في الخطوط العامة للحركة الوطنية الكردستانية وهنا يكون دور المؤرخ أو الباحث.

جواب د. بنكي جلال جميل حاجو، في 29 ديسمبر 2017

في سبعينات القرن الماضي كانت الحركة السياسية الكردية في تركيا في أوجها وذلك بسبب انتشارها بين الشباب المتعطش للقومية الكردية.

العم موسى عنتر قضى العمر كله في المحاكم والسجون التركية بسبب كفاحه المستمر في سبيل القومية الكردية.

دار نقاش بين العم موسى وبعض الشباب حول الحركة الكردية في جو حميمي. قال أحد المشاركين في النقاش وكان ينتمي إلى إحدى الحركات الكردية العديدة التي تشكلت حديثاً في ذلك الوقت :

يا عمي موسى لقد بدأنا النضال الكردي من الصفر ناكراً لتاريخ الكرد وهو يقصد أن كل الحركات والانقفاضات الكردية السابقة مثل عبيدالله نهري

والبدرخانين الى الشيخ سعيد وأغري..... كانت حركات رجعية وفاشلة ولا تصنف حركات تحررية حسب النظريات الماركسية اللينينية التي كانت سائدة حينها .

رد العم موسى وقال يا عزيزي الله وحده يعلم بما قاسيناه من مجازر وسجون وتهجير وتدمير وتجويع وووو الى ان اوصلنا الحركة الى هذا الصفر الذي نتحدث عنه.

على هذا المنوال فان تاريخ الدولة السورية يبدأ في وصول حافظ الاسد والبعث الى الحكم في سوريا اي 1970 وكل ما قبل ذلك كان صفرا .

اما تاريخ الحركة الكردية فانها تبدأ في عام 1957 اي عام تأسيس البارتي وكل ما قبل ذلك كان صفرا .

ولكن لا احد يذكر تاريخ تلك العقود السابقة على التأسيس وهي الفترة التي تسبق الصفر.

في كل عام عندما تحل ذكرى تأسيس البارتي تصدر آلاف النشرات والبيانات واللقاءات والاجتماعات والتي لم تصل حتى الآن الى التأكد من الاسماء التي حضرت المؤتمر التأسيسي وكأن الذين حضروا ذلك الاجتماع كانوا ينتقلون من معركة الى اخرى او من جبهة حرب الى غيرها بين النار والدخان والقصف بحيث كان من الصعب التعرف على هوياتهم.....ام ان الموضوع هو التبارز حتى لو كان عن طريق تزوير التاريخ كما حدث منذ البدايات ويحدث الآن.

في النصف الثاني من القرن الماضي اشتهرت الاذاعات العربية في القاهرة وودمشق وبغداد بنشر الاكاذيب وعدم نشر ما كان يحدث في الواقع في تلك البلدان. معظم الناس حينها كانوا يضطرون للاستماع الى الاذاعات الاجنبية مثل بي بي سي من لندن ولاحقا اذاعات مونتي كارلو وصوت امريكا وراديو اسرائيل للوصول الى الاخبار الحقيقية.

في ذلك الوقت كان الناس يتناقلون نكتة شهيرة والتي كانت على الشكل التالي كانت جماعة من الاصدقاء في احدى العواصم المذكورة اعلاه في جلسة اصدقاء اعتيادية يتبادلون الاحاديث وفجأة وبحلول موعد الانباء صاح احدهم بالشخص الجالس بجانب الراديو قائلاً

يا اخي الله يرضى عليك حظ الراديو على لندن حتى نعرف شو صاير عنا

هكذا ايضا فيما يتعلق بتاريخ الكرد في سوريا اذ علينا ان نتعرف على تاريخنا وذلك بقراءة ما كتبه الآخرون عنا !!!

لان تاريخنا تم طمسه وتحريفه حتى وصل الامر الى ان التاريخ الكردي كله في روجافا يبدأ في عام 1957 اي تاريخ تأسيس البارتى.....وكل ما قبله مجهول او محرف او...

هنا اود التأكيد على ان تأسيس البارتى كانت خطوة لا بد منها وهو جزء هام من التاريخ والنضال القومي الكردي بنجاحاته وهفواته.

التاريخ الكردي في سوريا كله مهمش ومحرف ويتم القفز عليه بشكل مقصود وطبعاً بدعم من السلطات التي لا تريد اي ذكر للتاريخ الكردي في سوريا لان الكرد كلهم حسب الجهات الرسمية في الدولة هم مهاجرون من تركيا والعراق وايران بل قسم منهم جاءوا بالصحن الطائفة من الكواكب الاخرى.

اخي الكريم ابراهيم اني احتار كيف سأرد على سؤالك.

الجواب المختصر اذا كان كل التاريخ الكردي مظلوما فهل يمكن ان نتوقع ان تاريخ حاجو آغا منصف ؟

في العقد الاخير الذي نحن فيه بدأنا نرى بحوثاً تاريخية عن سوريا ككل وفيها نجد تاريخ حاجو ايضا.

التاريخ لن يضيع ولنسوف يظهر بكل تأكيد لا سيما في وثائق الدولة التركية والفرنسية.

وثائق الدولة التركية لاتعد ولا تحصى والتي كانت ترصد كل حركات التحرر الكردية وبشكل خاص في سوريا اولاً باول.

الا ان وثائق الدولة السورية سوف تكشف كل التاريخ الكردي وعندها سنجد الحقيقة كاملة.

نعم ليس حاجو فقط بل كل التاريخ الكردي السوري ظلم بكل تأكيد

جواب الدكتور حزني يوسف حاجو في رسالة صوتية، بتاريخ 2018/12-7

ذكرتُ في كتابي «تحضرنى الذاكرة : Tê bîra min» عن وجود تقصير واضح بحق حاجو كشخصية من قبل المثقفين وخاصة المؤرخين الكرد، وعزوت ذلك إلى عدم قابلية حاجو الكتابة مقارنة بالشخصيات الكردية الأخرى التي عايشها من أمثال جلادت بك وأخيه كاميران بك بدرخان، وأبناء جميل باشا، والدكتور نوري ديرسمي، وجكرخوين، وعثمان صبري وغيرهم.

ألم يكن حاجو من دعا إلى اجتماعين كبيرين في الجزيرة، أحدهما في «طوبز» لتوحيد كلمة الكرد بشكل خاص؟ ألم يكن حاجو الدينامو لحصول الكرد وحلفائهم من العرب والمسيحيين لإنشاء كيان مشابه للكيانات في دمشق وحلب وجبل الدروز والعلميين؟ مَنْ غيره مثَّل القومية الكردية مقابل دهام كمثل للقومية العربية في الجزيرة؟ هل ذكر محمود طلب هلال اسماً غير اسم حاجو وعشيرته لمحوهم ومحور تأثيرهم؟

لقد قال: لا تقطعن ذنب الأفعى وتتركها إن كنت شهماً فأتبع رأسها الذنباً
مَنْ من القيادات السياسية والكردية بشكل خاص ذكر شيئاً عن دور حاجو:
الأستاذ حميد حاج درويش، والأستاذ مجمد توج، ورموش يخو الفرحة نموذجاً؟
يخبرني زيور زنار حاجو وكاميران حاجو أنهما سمعا من صلاح بدر الدين
قال: إن مؤسس الكردايتي في سوريا هو حاجو، فسألاه: لماذا لا تكتب عن ذلك؟
أمل أن تكون هذه الكلمات توضيحاً لسؤالك !

جواب كاميران مجيد جاجان حاجو ، في 11- 2018/1

في زيارتي الأولى للسويد في نهاية الثمانينيات اطلعت على ديوان شعر للشاعر المعروف أحمد الذي كان قد طبع من قبل Komkar. وفي هذا الديوان كان الشاعر قد كتب قصيدة عنوانها «Şîna Haco: رثاء حاجو»، وخلافاً لكل القصائد الأخرى، فقد تم تحريف هذه القصيدة تحديداً، وتم تبديل العنوان إلى «Şîna hevalekî min: رثاء صديق لي»، وأيضاً تبديل اسم حاجو الذي ورد في القصيدة إلى Heval.

قد يوضّح هذا النموذج جزئياً، مدى تعرّض حاجو للظلم. فهناك العديد من المواقف والنماذج المشابهة التي حاولت تهميش دوره، وحتى تشويه صورته بشكل متعمق وتوظيف ذلك لصالح إيديولوجيا معينة، وللأسف فإن ذلك كان خديعة مجانية للمتربصين بالكرد في تشتيت قوى المجتمع الكردي في مرحلة التحرر القومي التي كانت أحوج ما تكون للاستفادة من كل شرائح المجتمع الكردي التي كانت تناضل من أجل التحرر. لقد تعرض حاجو وغيره أيضاً إلى الظلم التاريخي على أساس انتمائهم الطبقي وليس على أساس ما قدّموا لشعبهم، ولا على أساس فهم صحيح للتاريخ وللمجتمع الكردي وللجغرافية السياسية لكردستان، بل وجدوا فقط في الإقطاع والشيوخ الذين كانوا يقودون في مرحلة معينة النضال القومي، السبب الرئيس في الفشل في عملية التحرر القومي. وليس ذلك فحسب بل حاولوا تشويه التاريخ، كما في مثال القصيدة، وتزوير الحقيقة فقط في سبيل إثبات أنهم على صواب. فللفشل أسباب عديدة، قد يتحمّل جزءاً منها من هم في القيادة، ولكن كان من المفروض دراسة ذلك بشكل أعمق وبفكر منفتح حتى تستفيد منها الأجيال اللاحقة، وما حصل هو العكس، فقد أدّى إلى عدم فهم تجربة الماضي، وبالتالي لم يتم التأسيس للمستقبل والحاضر، بشكل سليم وهذا ما أدّى بنا إلى سلسلة من الإخفاقات، وتلك القوى التي كانت تقف وراء ذلك، لم تقم بعملية نقد ذاتي جدية حتى هذه اللحظة، مما يعني أنها لازالت تسير على الطريق الخاطيء.

جواب ديلبر ابراهيم حاجو في 2018/1-10

من وجهة نظري، وكما سمعت، نعم، لقد تعرّض حاجو وشخصيات كثيرة مثله لظلم التاريخ، إلا أن المؤسف هو أنه لم يكتب أو لم ينشر حتى الآن أي توضيح تاريخي حولهم.

جواب زيور زناور جاجان حاجو، في ساندي فيكن/السويد في 2018/1-11

لدي شعور خاص، وهناك أيضاً شعور عام سائد، لدى عائلة حاجو بظل تاريخي تعرّض لها حاجو آغا ومن بعده عائلته بدءاً من بني جلدتنا في كردستان

سوريا، وحتى في أجزاء أخرى وانتهاء بالحكومات والسلطات الشوفينية المتعاقبة على حكم سوريا وخاصة حكم البعث.

هذا الشعور لا يأتي من فراغ بل من وقائع وأحداث وممارسات ، وخاصة ما دُكر في بعض الكتابات من قبل المعاصرين لـ حاجو أو حتى لاحقاً، وهذا لا يعني طبعاً أنه لا يوجد هناك من حاول عرض وذكر حقائق التاريخ بموضوعية وأمانة.

فعلى سبيل الذكر لا الحصر، هناك مذكرات جكرخوين الذي يأتي مراراً وتكراراً على ذكر حاجو ودوره الوطني الكردي بجمع شمل الكرد في سوريا من خلال لقاءات واجتماعات عديدة للعشائر والوجهاء من الديانات المختلفة في الجزيرة والاتصال مع السلطات الفرنسية وتقديم عريضة عن طريقهم إلى عصابة الأمم حينذاك للحصول على حكم ذاتي كردي يمتد من الجزيرة وحتى حارم، ويحصل على الدعم المبدئي من السلطات الفرنسية المحلية، وهذه الوثيقة التاريخية تعدُّ أبرز ماتقدم به الكرد في سوريا لضمان حقوقهم..وهو بداية أسالسية لحقوق الكرد في سوريا. إلا أن جكرخوين سرعان ما يتنكر لمثل هذه الحقائق وحقائق أخرى كثيرة تشير إلى الدور الوطني الكردي لـ حاجو في كردستان سوريا أو حتى قبلها لدوره في تأسيس منظمة خويبون والقيام بعبور الحدود إلى كردستان تركيا لتأليب عشيرته ضد الأتراك، ومساندة ثورة آارات...ويتنكر جكرخوين لكل هذه الحقائق رغم ذكرها ويتهم القيادات الكردية بدءاً من الأمير جلادت عالي بدرخان وانتهاء بـ حاجو بعبارات مختلفة غير لائقة.

والقاريء البصير لمذكراته يجد أن ليس له من دور شخصي إلا برفقة وقيادة حاجو، وقد تميَّز جكرخوين بعدم الوفاء، رغم أنه كان يلقي رعاية خاصة من عائلة حاجو. فيروي العم مجيد حاجو أنهم أثناء تواجدهم في دمشق من أجل الدراسة وعند زيارة العم حسن حاجو إلى دمشق ووجود جكرخوين معهم في الدار كان يدفع لهم مصروفاً يومياً.

ويذكر جميل حاجو أنه كان يرسل سنوياً مبلغاً من المال والقمح مؤونة لعائلته، وعندما تعرَّض للسجن تدخل حسن حاجو لدى السلطات الفرنسية غاضباً من سوء المعاملة وأفرج عنه.

وهكذا الحال مع عثمان صبري الذي تعرّض في مذكراته متكرراً للدور الوطني الكردي لـ حاجو بل للأمير جلادت بدرخان وآخرين، ومستعملاً أبشع الصور في ذلك لنكران الحقيقة وزرع الفتنة «يذكر جكرخوين في مذكراته أن عثمان صبري أخبره أنه كان يعمل لدى أجهزة الأمن السورية وأنه حذّره من خطورة هذا العمل الشائن»... وأشير أيضاً إلى أن محمد طلب هلال في مشروعه العنصري دعا عند حديثه للقضاء على الحركة الكردية في سوري، إلى القضاء أولاً على الزعامات الكردية وشبّه عائلة حاجو برأس الأفعى، وأن القضاء على الحركة تلك يتوجب أولاً بقطع رأس الأفعى تلك، وهكذا فعلوا.. إلا أن ما يحيرني أن الأحزاب الكردية وهي تشهّر بهذا المشروع العنصري، ودون أي إشارة إلى ما تعرضت له عائلة عائلة حاجو من استيلاء على الأراضي والتعسف الذي جرى بحقهم وممتلكاتهم، وحتى أن الأحزاب تلك ساهمت من التقليل من شأن الزعامات التاريخية التقليدية الوطنية وتهميشها، رفعاً لمكانتها، وتجاوباً مع الإيديولوجيا الاشتراكية التي تبنتها أحزابنا وخلق صراعات لا طائل منها.. وفي هذا السياق أذكر أننا في جلسة خاصة مع السيد صلاح بدرالدين ونحن في زيارة إلى كردستان العراق «د. بنكي حاجو، نوري، كاميران وأنا: زيور» وبدعوة من السيد نيجيرفان البارزاني، ذكر أن الحركة الكردية في سوريا بدأت من حاجو آغا، فرد عليه كاميران: ولماذا لا تكتب هذا يا أخ صلاح، فأجاب أنه كتب عن ذلك، وكان ذلك بعد مرور زمن طويل إثر انقضاء المصالح الحزبية الضيقة.. لقد كان بيت حاجو ومن بعده أبنائه ملاذاً للكثير من المنفيين الكرد من مختلف أجزاء كردستان، هرباً من السلطات أو من أجل العمل الموسمي حيث كان الفقر يسود هناك لكسب رزقهم، والبقاء لفترات طويلة، وهم مرحّب بهم... إن المطلوب هو إضاءة تاريخ هؤلاء الكبار في التاريخ من قبل الكتاب الكرد.

أحمد عزيز حاجو في 2018/1-12

كان حاجو آغا شخصية مركزية في كردستان سوروية بعد الحرب العالمية الأولى. ربما لا تقل أهميته عن أهمية الرئيس قاضي محمد في إيران و البارزاني في العراق في كردستان سوريا. إن إتصالاته و حواراته مع الفرنسيين من أجل تقرير

حق مصير الكرد في سورية تثبت ذلك. حاجو ظُلم من قبل الأعداء و من قبل الفرنسيين، و الغريب هو أنه ظُلم من قبل الحركات الكردية المحلية التي نشأت في القرن الماضي في غرب كردستان. هذه الحركات والشخصيات الكردية السياسية تحاول ان تنسى التاريخ، و كأن التاريخ الكردي بدأ معهم حيث لا يأتون على ذكر الشخصيات الكردية مثل الامير جلادت ،نورالدين زازا، و كنعان عكيد اغا و الكثيرين غيرهم.حتى ان بعض الحركات للأسف أنكرت وجود جزء من أرض كردستان في سوريا و قامت على محو كل شيء متعلق بتاريخ كردستان. و أنشأت أعلاماً خاصة بها متتكة لعلم كردستان التقليدي ، واعتبار الكرد في سورية مهاجرين الى أرض عربية سورية. هكذا كلام خطير واجحاف بحق جغرافية كردستان و تاريخها. و هو ظلم لروح حاجو آغا القومية. اليوم لا نرى في كردستان سورية مؤسّسة رسمية و لا مدرسة و لا حتى شارع باسم حاجو، و كأنه لم يكن هناك وجود للمرحوم حاجو. أيضاً علينا أن لا ننسى مساهمة حاجو بدعمه للثقافة الكردية من خلال إحتضانه للكتّاب و المفكرين الكرد على رأسهم جلادت بدرخان وغيره. كلّ هذا يدلّ على أن إهمال شخصية حاجو هو ظلم و اجحاف بحقه، و تعدّ على تأريخ كردستان.

جواب فرهاد جميل حاجو، في 16-1/2018

لقد ظلم حاجو آغا تاريخياً . وهناك الدوافع والأسباب:

1. أسباب تتعلق بالظروف و التقلبات السياسية بشكل عام و التي رافقت مسيرة الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الثانية واستمرت لعقود طويلة من الزمن اتسمت بالصراع بين الدول العظمى والتي أنتجت بدورها صراعات حزبية و فئوية وعقائدية في المنطقة لا تمت الى الصراع الحقيقي لا شكلاً ولا مضموناً، بل كانت تعتمد شعارات ديماغوجية بدون أهداف حقيقية واضحة. سوريا لم تكن بمنأى من هذه الصراعات فلم يكد يمر عشر سنوات من عمر الاستقلال حتى ذهبت ديموقراطيتها الوليدة ضحية لتلك الصراعات، ومن ثم فتحت الأبواب على مصراعيها لفئات تتناوب على سدة الحكم عبر الانقلابات، وكل واحدة منها تجلب معها سلة من الشعارات، ولائحة من الافتراءات و اللعنات على كل من سبقها،

لتؤسس بها تاريخاً مزوراً جديداً للبلاد تتربى عليها الأجيال القادمة بذهنية جديدة وفهم جديد للتاريخ، واستتباط طرق حديثة في كتابة التاريخ و تزويره. وتمشياً مع المثل الشعبي «ما في حدا أحسن من حدا» هذا أكرادنا في سوريا حذو هؤلاء و مشوا على دربهم، ولأننا كنا في تبعية، فقد قمنا بخطوة أبعد منهم حيث لم نترك شيئاً بدون تزوير، ابتداء من معركة بياندور، وانتهاء بأسماء الذين قاموا بتأسيس خويبون. فهناك كتاب أكراد قاموا وما زالوا يقومون . كل حسب مزاجه وحسب موقعه، في طابور انتظار الدفع المسبق مقابل أعابيه في تزوير الحقائق، وتشويه تاريخنا وتاريخ شخصياتنا الوطنية من الذين ناضلوا من أجلنا، ووصل الأمر بهؤلاء إلى تزوير ما لم يقدر عليه أعداؤنا. من ضمن الشخصيات التي تعرض تاريخها للتشويه كان حاجو آغا. فما زال حتى اليوم يقيم تاريخ حاجو من قبل أصحاب الأيديولوجيات المدبجة التي فرزتها تلك الحقبة ككونه اقطاعياً، و ليس كشخصية وطنية حاول مع رفاقه تأسيس دولة كردية في سوريا و ليس اقطاعية لنفسه.

2. أسباب اجتماعية. نزوح حاجو الى كردستان الغربية أدى الى تغيرات جذرية في حياته الاجتماعية، فمن خلال احتكاكه بالفرنسيين و بالطبقة المثقفة الكردية و بمناضلي كردستان الشمالية، الذين كانوا بدورهم قد لجأوا حديثاً إلى سوريا بعد القضاء على الانتفاضات الكردية من قبل الأتراك، تحول حاجو من قائد عشيرة إلى رجل سياسة و شخصية اجتماعية مرموقة. ليس هذا فقط بل إن حاجو مهد الطريق أمام أولاده ليصبحوا أيضاً شخصيات لها وزنها ولأحفاده، ليعيشوا حياة عصرية في مجتمعهم الجديد الذي كان يتطلب الجلوس والتعاطي مع مستويات أعلى لا تنتمي للمجتمع القبلي القديم بشيء، سواء بالملبس أو السكن أو بطريقة الأكل و الشرب، وهذا لم يكن ينطبق فقط على الذكور بل أيضاً على الإناث من أفراد العائلة. هذا النمط الجديد للحياة أثر كثيراً على شكل العلاقة بين أفراد العائلة وبين محيطهم القبلي القديم، مما أدى إلى إفراز نوع من الحسد والكرهية، والضعف لدى شريحة واسعة من المنتمين إلى طيف من الايديولوجيات المختلفة التي كانت وما زالت ترفع شعارات ملتزمة، لا تمت الى الواقع بشيء ومستعدة لبذل المستحيل، لتشويه تاريخ حاجو والتغطية على دوره، ضمن صفوف رواد الحركة التحررية لكردستان الغربية.

3. أسباب تعود الى عدم تمكن ورثة حاجو. خاصة من بين الجيل الثالث . من إيجاد السبيل الناجعة للدفاع عن تاريخ حاجو. وربما يعود ذلك بالدرجة الأولى لأسباب موضوعية أكثر منها لأسباب ذاتية، فالظروف التي أحاطت بالعائلة خلال العقود الأخيرة من القرن السابق أدت إلى إجبار العائلة على ترك موطنها، وإلى هجرة جماعية الى أوروبا، وبالتالي إلى انقطاع تواصلها مع الوطن، واغترابها عن محيطها، ليس فقط جغرافيا بل اجتماعياً وحضارياً أيضاً. فجيل الاغتراب لا يستطيع أن يدافع عن حاجو آغا لأنه بحكم عيشه في المجتمع الجديد قد اكتسب رؤى جديدة لمفاهيم الحضارة، كالحرية والديموقراطية والمساواة و احترام الرأي الآخر، وبالتالي لا يستطيع بأدواته الجديدة الوقوف في وجه أبواق الاعلام الكردية الحديثة العهد والمحتكرة من قبل أحزاب، و فئات لا ترى إلا نفسها على شاشات التلفزيونات وتتماشى مع موضحة: من يصفق لي هو معي ومن لا يهتف

زاغروس عزيز حاجو ، في 31-1/ 2018

كان حاجو آغا صاحب صيت في منطقة هفيركان. وبعد فشل ثورة الشيخ سعيد بيران، توجه إلى جنوب الخط «بنختي»، ثم استقر في منطقة «جرأحي Cerhihê»، وهناك تابع حياته بصفته آغا مستقلاً مقتدراً .

ولقد كان يقيم موقع حاجو بصفته رئيس عشيرة كبرى وقتذاك، ومحل اعتبار لدى أهل المنطقة ومحيطها. وجرى التذكير باستمرار بدور حاجو بعد وفاته سنة 1940 باحترام .

ومن الجهة الأخرى، هناك خاصية في شخصية حاجو، تتمثل في تعلقه بقضيته الكردية، حيث إنه نشط بالتوازي مع الشخصيات الوطنية الكردية آنذاك في إدارة تنظيم خويبون، وحيث إنه شارك في اعتماد خطط للثورة ضد النظام التركي .

كما يُعرف في الأرشيف الخاص لحاجو أنه كان صاحب موقف قومي، إذ إنه إلى جانب شخصيات معروفة في سوريا المنتدب عليها من قبل فرنسا طالبها بإقامة كيان سياسي كردي، إضافة إلى أنشطة أخرى في خدمة كرد روجآفا كردستان.

ومن وجهة نظري، فإن شخصية حاجو من هذه الناحية، تم التعقيم عليها وتجاهلها عن وعى مقصود، وربما كان ذلك مرتبطاً بالتيار اليساري الماركسي والذي قام في المنطقة وقتذاك. حيث إن الشيوعيين الكرد الذي أحنوا رؤوسهم لحزب البعث العربي والنظام السوري، وبعض المتحالفين معهم، وتحت يافطة شعارات يسارية حاربوا بعنف شخصيات مثل حاجو .

ملحق

أنوّه إلى أهمية هذا الملحق، إذ إنه على الرغم من أن نقاطاً عديدة تردّ في الملحق، حاضرة في صفحات الكتاب، إلا أنها، إلى جانب غيرها، تحتفظ بميزة البروز، وهي على درجة عالية من الخلافية، وبمقدار ما ترتبط بما أثّر سابقاً، تكون لها استقلاليتها وجدّتها. إن قراءتها هي التي تفصح عن هذا المختلف.

حسبي أن أشير إلى التالي:

ثمة قسم كبير من الملحق، يخص الشاعر جكرخوين، من خلال سيرة حياته، وما تعرّض فيها إلى جوانب مختلفة من البحث، وحاجو آغا في الصميم، وفي أكثر من مقال: مترجم، ومؤلف، وجامع بينهما، وتحديداً، ما يخص كتاب الباحث زين العابدين زنار «كتاب القضية» باللغة الكردية، طبعة عام 2017، والذي يتعرض فيه - ربما - جملة جملة، لسيرة حياة جكرخوين وجانب الدقة فيها، كون الكثير من كردنا: كتّابهم، ساستهم وحتى عامتهم، اتخذوا من هذا الكتاب مرجعاً لهم، وحتى بالنسبة للكتاب العرب، كما في كتاب محمد جمال باروت عن «الجزيرة السورية» وله زاوية في الملحق، فكانت ترجمتي لمجمل مقدمة كتاب زين العابدين زنار إلى العربية، ليس لأنني أضع الوارد فيها مقابل الوارد في كتاب جكرخوين، وإنما أعرضه للقارئ بغية المقارنة، وما سيكون عليه موقفاً نقدياً فيما بعد، وهناك مقتطفات مترجمة من الكتاب أيضاً، ومن ثم متابعة نقدية للكتاب في باب آخر، ولي وقفة أخرى مع كتاب جكرخوين، ذات صلة بخطورة ما أثّر عن التأريخ الكردي الحديث، والحركة الكردية الحديثة عموماً، ولحاجو آغا مكانة لافتة وخطورة التعامل مع التاريخ، في ترجمته العربية، رغم أوجه نقص مختلفة في الترجمة، حيث إن هذه الوقفة/الرؤية تأتي بدايةً، ولهذا كان ملف جكرخوين ضمن الملف عموماً وفي الصدارة، كأني أريد لفت النظر إلى مدى الخلط الكبير بين كتاب هو سيرة ذاتية للمتخيّل النفسي سهم وافر فيها، وما يكونه التاريخ بدقة أحداثه ووثائقه ولغة البحث فيه، وبالنسبة إلى كردنا بالذات، وثمة مقال وجداني، انطباعي لباحث عربي عن حاجو آغا بالاسم نفسه، ومن ثم بحث عن كتاب باروت مركزاً فيه على كيفية تناوله لحاجو آغا، إلى جانب وقفة مع رواية محمد اوزون «بئر القدر» باللغة الكردية، وكيف جاء التلازم بين حياة الأمير جلادت بدرخان بك، وجوانب لافتة من حياة حاجو آغا، وكيف يمكن نسج العلاقات الاعتبارية بينهما.

ملف جكرخوين «إضاءات»

جكرخوين: سيرة حياتي، الترجمة العربية

في التقديم يشير جكرخوين إلى كراهيته للكذب، واعتبار المنقول هو من أفواه أناس ثقات، وهذا يعني أنه لن يقول إلا صدقاً (يضم تاريخ حياتي بعض الأحداث التي رأيتها بنفسي، أو ترعرعت بينها، أو نقلت من أفواه أناس صادقين وثقات... منذ قديم العهد كان يدون تاريخ الناس العظماء والمشاهير فقط، لكن كما أعتقد على كل الأشخاص المثقفين محبي الشعب... القيام بهذا العمل العظيم... ولكن من الضروري أن يُعرف أننا بقدر ما نستطيع لن ندع الأكاذيب، والأوهام والأهواء تتخذ لنفسها مكاناً بين صفحات هذا الكتاب.. ص 9... فشعب كردستان قد تيقظ وهو يحب الصدق، والوضوح دوماً، ولم يعد يريد أن يتبع الأكاذيب والأوهام... وكلما كان بمقدوري فلن أدع الأكاذيب تتخللها «سيرة حياتي»، ولن أترك الأوهام والظنون تتخذ أماكنها بينها... لكنه يشير إلى إمكان وقوعه في الخطأ والغلط والاعوجاج وطلب المساعدة. ص 14-15.

ولاحقاً يوسع دائرة اهتماماته، وهي التي تظهر جسامته المهمة التي كلف نفسه بها: أنا شاعر وأنظم القصائد وأطبع الكتب قبل كل شيء بل ومؤرخ أيضاً... أنا لست شاعراً وكاتباً فقط بل وصاحب أفكار ومبادئ.. ص 362.

والمشكل أنه يشمل الجميع بحكم قاطع لا يليق بمن يعتمد لغة النقد أو الكتابة في التاريخ: يبدو أنه منذ زمن وعصر خاني وحتى اليوم أيضاً... كلٌ يريد أن يجمع المال، كل يريد أن يسرق شعبه... ص 11.

وأكثر من ذلك في تمييزه لنفسه عن الدارسين الجامعيين وغيرهم، ولا بد أن في قوله هذا غمراً ولمزاً: وفي الحقيقة نعرف- أيضاً- أننا لا نستطيع أن نعمل شيئاً ثميناً ومعتبراً ونفيساً بحسب رغباتكم اليوم في هذه الظروف الصعبة والمظلمة. ص 12.

ويبدأ الإشكال الكبير في المساواة بين العدو التركي وعداء الآغوات والشيوخ والبكوات والباشاوات للشعب الكردي. ص 22.

والأكثر خطورة حين يسمّي عدواً تركياً، ومن خلاله يقيّم كرده بما يبرّر كل عنف ممارس فيهم من قبل ذلك العدو وأمثاله، أي اسماعيل حقي وهمجية الكرد: كان اسماعيل حقي بك، ضابط الحدود، يلعب على الأكراد والفرنسيين ويثير الفتن بينهم... إلا أنه في الحقيقة كان الأكراد حينذاك متوحشين وشرسين، ولم يواجهوا فرنسا وحدها ربما، بل كانوا يقتلون بعضهم بعضاً، وينهبون ويحرقون القرى. ص 118.

وما يصله بدم اسماعيل حقي، وفعل اسماعيل هذا بالآخرين كما لو أنه كان حاضراً معه في كل تنقلاته، ولحاجو النصيب الأوفر في قائمة التبعية على ذمته: ضابط الحدود الذي كان يضطهد الناس: وبهذا الشكل، ما إن دخلت فرنسا الجزيرة للمرة الأولى حتى عانى الـ «آشيتيان» الأمرين على أيديهم، ففي عام 1922، زرعوا عباس، أحد زعماء دوركان في التراب، اضطهدوا الأكراد كثيراً، ولكن اسماعيل حقي بك، أرسل حاجو آغا لنجدة الـ «آشيتيان». ص 156.

وفي مكان آخر جهة اتهام حاجو بالتواطؤ مع الضباط الأتراك. ص 123.

ولاحقاً، في اعتبار أمين أحمد وحاجو آغا وعائلهم «جميل باشا» بعضهم كانوا حلفاء للأتراك. ص 179.

وكذلك إظهار تعاون حاجو آغا مع قائد الجندرمة التركي الحدودي. ص 185.

واظهار جبن حاجو آغا أمام سلب العرب والأكراد لهم عند نزولهم إلى سوريا. ص 186.

وما هو تقييمي، أو نهائي: أمثال حاجو آغا وجميل باشا بعيدون عن الوطنية والكردايتية. ص 177.

أغلب من قدموا من سرختي إلى بنختي كانوا حلفاء الأتراك، وبعد وصولهم أصبحوا وطنيين: إن أولاد «حاجو آغا» ومحمد بك جميل باشا وأمين أحمد والزعماء الذين قدموا إلى سوريا كانوا يغيرون على أكراد تركيا ويجردون المساكين منهم ويخطفون نساءهم والفتيات ويقدمون كل ذلك للزعماء الأكراد والضباط الفرنسيين، كل ذلك يوضح أن الشعب الكردي لم يكن مؤهلاً بعد لإدراك أهدافه والعمل من أجلها.. ص 179.

وجكرخوين لا يرى من تعارض أو مدعاة للنظر في هاتين الواقعتين: حين يتحدث سنة 1926، وقد أغار الشمر على عامودا، وتواجهوا هم والدقوريون: ومنذ ذلك اليوم استحكم العداء بين الدقوريان والشمر. ص 203 ، وواقعة طوش عامودا ومأساتها سنة 1937: وكان كل من الدقوريين والملي والميرسيني مناصرين لدهام الهادي. ص 253.

وما يكون تجسيدا لغرور استعراضي: إن الأعياب وأهداف العائلات الكبيرة لا تتبدل برغم تظاهرها بالوداعة لأجل أن يخدع أمثالي. «ص 299».

وذم عائلتين: ما إن قدم آل جميل باشا حتى بنوا عدة قرى جميلة على مشارف الكيكان... كان لقدري بك دوراً كبيراً في «خويون» وقد عمل على دب الخلاف بين الوطنيين الأكراد.... لقد بدأ نجم حاجو باللمعان، ويجب علينا العمل على هديه، إلا أن قدري بك كان يرى في ذلك جهلاً من قبلنا وكان يقول: إنكم أميون، لا تدركون شيئاً، تسيرون خلف الجهلاء، خلف أعداء شعبكم، لا تعرفون الطريق الصحيحة. ص 226.

ومحاولته إبراز مصلحة حسن حاجو من أجل الانتخابات وهو يسترضي الكرد. ص 277.

وما هو استثناء لحظة إشارته إلى أن الواعين من الأكراد كانوا رافضين أن يكون واحد مثل حاجو آغا الذي لا يعرف أن يكتب اسمه، في مقدمتهم «أعداء الكرد» ويعمل على تحقيق الأهداف الفرنسية، لهذا كانوا يهاجمونه ويقولون: إن حاجو آغا يصادق الفرنسيين والمسيحيين من أجل راتبه. ص 290.

وما يستدعي الشفقة وحتى السخرية بالمقابل: حسن حاجو وقدري جان لم يساعده في إخراجه من السجن بالتوسط، وهو يرجوهما للتوسط من أجله قائلاً: حسن آغا بالله لو بقيت هنا يومين آخرين فسوف أموت بين هؤلاء الوحوش... ص 346.

إنما أيضاً ما يتعلق بقريتيه سنة 1936، وقد منحنا له عن طريق حاجو آغا، وهما أسفل ميرسينيان، ولم يسجلهما باسمه «طابو» كما أرادها حاجو آغا، فلاقى

المتاعب لهذا السبب، وندم، ومن آذاه كان يتعلم على يديه؟؟؟ ص 248... ثم باع القريتين، واشتغل في التجارة وخسر فيها، ظناً منه أن سيكسب بها، وينصح سواه بلزوم التعلم من هذا الدرس.. ص 310.

وقوله عن أنه كان يهاجم من أوصمان ورفاقه ومن الشيوعيين ورفاقهم «أي محارب من الجميع». ص 230... ومن الجميع، ص 375.

وعن اوصمان صبري، بلغة المفارقات، معجب به وساخط عليه أيضاً: وحسب ما أعرفه عن أوصمان فإنه كان يحب أصدقاءه جداً، ولكن ما إن يكره أحدهم حتى يهاجمه بكل الوسائل.

الأهم والأخطر والدال على لاسوية اللسان: كان بحوزته ملف يبين فيه رأيه عن رفاقه موجهاً إلى وزير الداخلية أكرم حوراني، عرضه علي في الدرياسية، فأحرقته وقلت له:

لو وقع الملف بين الأكراد، فإن ذلك سيسيء إليك كثيراً.

وفيما بعد أصبحنا أنا وأوصمان رفيقين وقد ساعدني كثيراً في طباعة ديواني الثاني. ص 230.

في مواجهة الحكومة التركية ومحكمتها: لا تعليق له البتة في الكتاب، كما في محاكمة الشيخ سعيد. ص 182.

ومن ثم عن الانخداع: وهذا يؤكد جهل الأغلبية لذلك كنا نخدع ولأن قياديينا لم يكن يهمهم إلا مصالحهم، كانوا يخدعوننا وكنا نخدمهم. ص 280.

ومن ساعدوا حسن حاجو من أمثاله من الوجهاء، وإظهار عامل القوة والتهديد: لقد عملوا على فوز حاجو آغا فقط لعدم رغبتهم في معاداته. ص 281.

عن عامودا وأحداثها ونادي جوان:

الأعداء الجهلة أحرقوا حارة المسيحيين تماماً. ص 255.

لقد أحرق عامودا وأبيدت سنة 1937، وفي عام 1938 افتتحنا هناك نادي جوان كرد. ص 260. ثم إظهار الهجوم عليه. ص 261... فأغلق النادي: لذا لم أجد بداً من أن أرسل في طلب جميل حاجو كي يطلب من هؤلاء على الأقل أن يتوقفوا

عن محاربتنا ولكن دون جدوى...عقد حاجو آغا اجتماعاً لدى مطران «حبة/ هبة» ، وتمت مناقشة إغلاق النادي مطولاً، وذم حاجو آغا من كان وراء هذا العمل...ف قيل إن المسئول هو نواف آغا..ص261..وكانني به ينسى معروفاً لا يجب أن ينسى: وسعى حاجو معه لافتتاح النادي عند الكابت الفرنسي..ص263...وتألم حاجو آغا مع جكرخوين لأن النادي أغلق..ص264...

وما يكون عكس السالف ذكره، إنما يكون الشاهد على واقعة تاريخية العامل الرئيس فيها حاجو بالذات: كانت فرنسا قد وعدتنا بأن تعمل على أن تطلب من اجتماع الأمم أن ينال الأكراد استقلالهم والحصول على حكم ذاتي للأكراد في الجزيرة. لهذا فإن حلفاء حاجو أو حلفاء فرنسا أرسلوا بمطالبهم عن طريق فرنسا إلى اجتماع الأمم «عصبة الأمم»، وقد عاد الرد سريعاً باسم حاجو آغا حيث يقول «لقد وصلتنا رسالتكم المطالبة، نناقشها الآن، وقريباً سوف تحقق مطالبكم».. إلا أنه لم يمض الكثير حتى توفى الآغا . ص 266.

وفي مشهد يجمع بين جميل حاجو وجكرخوين الذي كان محكوماً ، وقد عَنَفَه جميل، وحوله أصحاب له، لأنه يصاحب جماعة ذمّها، بمقدار ما يظهر المشهد مبنياً على تلفيق، يمثل طابعاً من البطولة الذاتية لجكرخوين، لا يعتد أنها هكذا، من خلال بنية القول، وخاصة في رد الشاعر الذي يتراءى صادمًا، وفي حالة وقوع أمر كهذا، فإن عدم رد جميل عليه، كما يستقرّ من المشهد المنسوج بلغة جكرخوين، فإنما تقديرًا لنفس مقهورة، وليس لذات سوية: أليس من المعيب أن تكون رفيقاً لهؤلاء الصبية المهرّجين أبناء القحبة، إنهم يسبّبون لك المتاعب، إننا نتأسف لك كثيراً لكن ماذا أفعل؟ قلت لهم غاضباً: «تفو»، ليتك لم تكن من صلب حاجو آغا أليس عيباً أن تأتي من بيتك ومع هؤلاء الرجال المحترمين لتطلب مني أن أترك هذا الطريق وأن أسلم نفسي على يد حسين آغا. كان يجب أن تقول لأمثالي بأنك ستتكلّف بأولادنا حين نعتقل ونمدّهم بالمال والمساعدة، عيب أن تكون ابن حاجو آغا .

لم يفعل الرجل من كلامي بل قال: يغضب ممن يريد له الخير، أدامك الله، إن لم تستطع أن تعيش أولادك، كيف لك أن تناضل من أجل شعب.

عاد هؤلاء الرجال غاضبين وفي اليوم التالي جاءني محمد شريف آغا بالسيارة وقال لي: ها قد أرسل لك 200 ليرة و/ 4 /أكياس من القمح للأولاد وطلب ألا تغضب منه يا سيدا .

قلت له: أريد أن يقف كل أولاد حاجو آغا كالرجال ويسندوا الوطنيين ويساعدوهم إن لم يتمكنوا من مشاركتهم في النضال .

كانوا قد زرعوا لي قطعة أرض ولا شك بأن هذا المال هو حصيلة تلك الأرض .
لن أنسى تلك العائلة، فبالرغم من اختلاف نظرتنا ونظرة بعض العوائل الكردية من شيوخ وآغاوات وبالرغم من أنهم رجعيون وكانوا يحاربونني في بعض الأحيان لكن لا أحد يستطيع القول بأنهم ليسوا وطنيين وجيدين، كما أن جميل آغا كان كريماً جداً معي وقد يكون خدمني أكثر من والده، لكن كان قاسياً ولا يرى واعياً غير نفسه ولهذا كثيراً ما كانت الخلافات بيننا ص 350.

وعن قوم جيا علي يونس: إن عائلة شرف تركت وطنها مرغمة ووصلت بشرف إلى الجزيرة، وحتى هذا اليوم لا يزال الكثير منهم فيهم . عبد الرحمن آغا، كان رجلاً مشهوراً، كانت له اليد الطولى في تحركات أكراد سوريا .. ص 251.

كما تقدم، فإن نظرة عابرة إلى بنية الكلمات الجكرخوينية، تضعنا في مواجهة شخصية مقهورة من الداخل، وبشكل لافت، ممزقة في رؤيتها لوسطها، متناقضة مع ذاتها إلى درجة كبيرة، تراهن على المفارقات التي لا تتناغم مع بعضها بعضاً، يستهويها التشهير، وما يترتب عليه من كسب شهرة، عندما نعلم «أعلم» أن الطرف الآخر، والذي يتمثل في قائمة المتنفذين في المجتمع، ومنهم حاجو آغا في الواجهة، لا يعطي اعتباراً ذا أهمية لتفوهات جكرخوين، ليس لانعدام قيمتها، وإنما لأنها تفتقر إلى التوازن، من جهة، ومن جهة أخرى، عندما نعلم «أعلم أيضاً»، أنهم بالرغم من تعرضهم لسلطة لسان جكرخوين، وجانب الإساءة البالغة إلى حد الطعن في الشخصية، كآل حاجو، وحاجو آغا وحتى جميل حاجو بالذات، ليس هناك من رد فعل، كما في محاولة رده أو زجره، أو تهديده بلزوم الكف عن هجوم لا مبرر له، وأرى أن هذه النقطة تستحق أكثر من إضاءة، إنما أيضاً، وهي تظهر مدى بؤس جكرخوين واقعاً.

ترجمة مقدمة كتاب زين العابدين زنار: كتاب القضية

عندما صدر كتاب جكرخوين الموسوم بـ «سيرة حياتي» من جهة منشورات APEC، وذلك في استوكهولم، سنة 1995. قدّم إلي الناشر نسخة منه إلي كهدية، بمناسبة صدوره، لاحقاً، وبسبب حبه الزائد لجكرخوين اقتنيت نسخة من الكتاب. ظهر الكتاب في حلة أنيقة، ومن القطع الكبير «قياس 16 ضرب 23»، ومكون من «414 ص»، ومغلافه ملون، وهو يحمل صورة جكرخوين، وقد انتشرت أشعة الشمس من خلف الصورة، إلى جانب وجود عدة صور مميزة احتلت الصفحات الأخيرة من الكتاب، بعد ذلك، بزمان وجيز تناهى إلى مسمعي صوت من الجهات كافة، فحواه أن جكرخوين قد كتب الكثير من الأشياء غير الدقيقة، وأخضعها لتحليلات خاطئة. بعد مرور عام، حيث سنحت لي الفرصة، وباشرت قراءة كتاب «سيرة حياة» جكرخوين، كنت أمضي في قراءته على مدى ساعات متواصلة. وفي بعض الليالي، وكنت مستغرقاً في القراءة، كانت الساعات تواصل تقدمها، دون أن أنتبه إليها، لأفاجأ بأن إشرافة الصباح قد أطلّت. سوى أنني بقدر ما كنت أستمّر في القراءة، كنت أصادف كلمات عجيبة غريبة. إلى درجة أنني في بعض الأحيان كنت أشك في نظري، وأن جكرخوين قد سطر كلمات منحرفة كهذه، وفي أحيان أخرى، كنت أعيد قراءة الجملة، على أمل أنه يمكن أن تكون قراءتي الأولى عكس ما هي عليه، إلا أنه، وبعد أن تأكد لي أن عيني لم تخطئاً في القراءة، وأن الجمل المكتوبة صحيحة بأكملها بالمقابل، الأمر الذي خيب أمني في الكتاب، سوى أنني وجراً اعتقادي أن المؤلف وثيقة، فقد تابعت قراءته حتى نهايته. لهذا، فإن أول ما بدأ شكي بالظهور حول هذه النقطة، وهي أن هناك من غير في كتاب جكرخوين وهو قيد الطبع. إلا أنه بعد متابعة وتقصّ سريين، تبين لي أن هاتيك الكلمات والجمل قد خرجت من فم جكرخوين، ودوّنت بيده بالتالي.

لهذا، قرأت الكتاب مجدداً، بالترافق مع الإشارة إلى كل النقاط التي ما كان عليها أن تذكر، وأن يسطرها جكرخوين والتشديد عليها بالقلم. بعدها أعدت قراءة الكتاب للمرة الثالثة. طبعاً، بما أن جكرخوين في خانة مثقفي الشعب الكردي، وأن الشعب الكردي كان مضطهداً بكل المقاييس، ومغتصب الحقوق، وأنه مازال مضطهداً، فقد توجّب عليه أن يقوم بعمل نضالي في خدمة شعبه الكردي.

إنما للأسف الشديد الشديد، فإن جكرخوين عمل على النقيض تماماً مما هو مطلوب من المثقف، وأنه داس حرمة مقاتلي الحرية وكرامتهم برجليه، حيث عاداهم، ولم يسجل بشأنهم ولو كلمة حق واحدة، وقال في أولئك الذين أودعوا أعناقهم مشانق الأعداء «قتالة، نهابون، لصوص، سفلة، خونة، وأعداء الشعب الكردي»

تُرى، أما كان من مناقب لأولئك الشهداء ؟ إنما بما أن جكرخوين تفوّه بتلك الكلمات النابية بحق مقاتلي الحرية، لو أنه تفوّه ببعض محاسنهم بالمقابل، كان لا بد أنه سيحسن صورته في أعين بعض القراء، وهذا يظهر أن مستقبل أي شعب يرتبط بالعمل النضالي لمثقفي هذا الشعب، وأن مسيرة الشعب من جهته تتغير بنضالهم، لهذا، فإن المثقفين إذا أحسنوا القيام بمسؤوليتهم، وزادوا من تضحياتهم، وأن يرتقوا بنضالهم العملي والنظري، لا بد أن مستقبل شعبهم يغدو منيراً ومضيئاً، سوى أن المثقفين إذا لم يحسنوا القيام بمسؤوليتهم، لو أنهم تقاعسوا وقصّروا في عملهم النضالي الثقافي، أو أنهم لا يعبرون بصورة دقيقة عن أدب شعبهم وثقافته، حينها لن يكون مستقبل شعبهم منيراً ومضيئاً، ولن يكون نجاحه كما هو تتمناه. أكثر من ذلك أيضاً، سوف يتعرض شعبهم لمشاكل ومآزق، وأنه سيعيش باستمرار بالتالي في عتمة الجهل، وفي غياهب الظلمات. ويمكنني القول باختصار عن أن المثقفين هم خميرة فكر شعبهم. والشعب يكون الوعاء أو القالب لتلك المادة أو الخميرة مستقبلاً.

ومما لا شك فيه أن المثقف إذا ظهر في أنشطته الكتابية أكثر بروزاً بالسخر والعداء والسفه في أدبياته، فإن الأجيال الصاعدة من جهتها سوف تتأثر بذلك.

سوى أن المثقف إذ يظهر أفكاراً إيجابية ومؤثرة وفاعلة للعلن، إلى جانب إبراز كتابات جديدة أيضاً، إنما يعلم بالطريقة هذه تلك الأجيال.

إلا أن جكرخوين لم يكتب أيّاً من مناقب مناضلي الحرية، ولا ما كان مهماً جداً، وحيث إنه لم يتوقف كذلك عند أي مثلبة «سيئة» لمحكمة الاستقلال «التركية»، حيث إنها من عدا شنقها للکرد، وقضت على مصادر العيش الاقتصادية لديهم، ونهبت كردستان، إلا أن جكرخوين لم يتناول هذه النقطة، ولم يسطر شيئاً حولها أيضاً.

ألا انظروا في هذه المسألة المهمة، بعد عدة سنوات من فشل ثورة عام 1925، حام شك عن أن هناك من يريد نصب كمين حول مصطفى كمال أتاتورك، فكان

سبباً لاعتقال كثيرين جداً، وكان رئيس محكمة الاستقلال علي صائب في ديار بكر بدوره من بين المعتقلين.

ونتيجة التفتيش في بيته ظهرت إلى العلن، حيث إنه عندما توجه من ديار بكر إلى أنقرة، أخذ معه «6000» قطعة ذهبية، فكان هناك بحث موسّع بالتالي، في موضوع الذهب كثيراً، وقد قال ابراهيم آرفاسي «كان يأخذ في كردستان، مقابل كل رأس «500» ذهبية»، فكان هناك الكشف عن حقيقة الذهب ذي الحلقة وخلافه. «ينظر حول ذلك كمال فوزي بدليسي، ص 78، ستوكهولم، كانون الثاني/ يناير 1993».

ألا فانظروا أيضاً في مسألة أكثر أهمية، حيث إن جكرخوين كان يصم أذنيه عن مسائل كهذه، وهي: لقد كتب الخالد موسى عنتر، عن أن وكيل النيابة لمحكمة الاستقلال في ديار بكر أحمد ثريا اوركفرين، قال في مذكراته ذات يوم جيء بشاب كردي مقدم، وعندما استجوبه القاضي، تنبّهنا إلى أنه لا يعرف التركية.

بعدها تشاورَ القضاة فيما بينهم، وأصدروا قراراً بشنقه، وأظهرت تهمته بالطريقة هذه: إن من لا يعرف التركية، لا خير له ينفع به الوطن هذا، ولهذا السبب صدر قرار بشنقه، حيث إنهم في الليلة ذاتها أخذوا ذلك وتم شنقه «ماليسانز، كمال فوزي بدليسي، ص 79، المصدر السابق».

نعم، لقد تحدث جكرخوين في سيرة حياته عن الفتاة التي لم ترض بخطيبها، حيث تعرضت للقتل على يد خطيبها هذا، إلا أن الشاب الكردي والذي انحصرت تهمته في عدم معرفته التركية فقط، وبناء عليه تم شنقه، لم يتطرق إليه جكرخوين في سيرة حياته. نعم، ما كان شاغلاً لجكرخوين في كتابه هذا تعرفتُ إليه، فكان التالي: لقد قرأت كتاباً حول ثورة الخالد الشيخ سعيد سنة 1925 منذ عهد بعيد، حيث أعد هذا الكتاب الصادر عن «مكتبة أتاتورك» من طرف بهجت جمالي، واسمه «انتفاضة الشيخ سعيد.. ستانبول، 1955، في 121 صفحة».

لقد جاء تأليف الكتاب غاية في السوء، وحملت الثورة كل التهم إلا أنه هناك تطرّق إلى ما هو صحيح في بنية الثورة، وأشير إلى بطولة المناضلين من أجل الحرية، وتمت تسمية جماعة المثقفين الكرد ممن كانوا قادة الثورة، ك «متورين كرد»، وعندما قارنت ما بين ذلك الكتاب وكلمات جكرخوين، لاحظت تطابقاً ما بين مجموعة من الكلمات المسيئة في ذلك الكتاب تقابل مثلها في كتاب جكرخوين

في بعض الأماكن، كما وردت تلك بالتركية من قبل الأتراك، وبدورها كتبها جكرخوين بالكردية. نعم، صحيح أن كل مثقف حر في مواقفه، وأن ممارسة النقد حق مشروع تماماً له، حيث إن المثقف في ممارسته للنقد يوجه الناس إلى طريق الصواب والصدق، أما أن يكون هناك من يصبحون حجر عثرة أمام الثقافة، يكون من حق الثقافة إعلان الحرب عليهم كذلك، وعلى الناس مساعدة ذلك الحق لكي يفوز. إلا أنه لا حق للثقافة في أن تسيء إلى سمعة الناس الأحرار وتشويه سمعتهم، ومحاربة أولئك الذين ضحوا بدمائهم من أجل الحرية والوطن.

فلا يكيل لهم المديح، إنما يجب قول الحقيقة.

ومن المؤكد، أن المثقف عندما يرسم طريق الحقيقة للشعب، ثمة أفكار ومواقف تصبح عوائق في تلك الكتابة، إذ لا تسمي الموقف الثقافي. وهذا الإجراء عمل طبيعي جداً، إلا أن الشاغل الأكبر لوضع جكرخوين هنا، ما يخص أولئك الذين لم يكونوا في خانة مواقفه، وما كانوا رفاقاً له، إلا أنهم في الهدف والمطلب القوميون كانوا مثله في مساعيهم، وربما كانوا أكثر نشاطاً منه أيضاً، وقد عاداهم كثيراً. إلا أن الذين حاربوا لم يحاربوا جكرخوين ولا بأي شكل، بالعكس ذلك، لقد ساعدوه كثيراً، لقد دعموه وحملوه من هجوم أشخاص سيئين، مثل: قدري بك، حاجو آغا، حسن آغا... الخ، إذ إن جكرخوين يظهر معادياً أكثر من أي كان. وها هي نماذج من تلك الكلمات غير المقبولة والتي سطرها جكرخوين في كتابه «سيرة حياتي»، حول زعماء كردستان، القادتها، المرشديها، وشهادتها، ومناضلي الحرية، وهي هذه:

كان الترك أعداء، يحمون مضطهديهم من استغلال أشقياء الثورة وعنفهم. إلا أن الكرد المنتفضين، بدلاً من أن يحموا أموال الشعب وكرامته، من أيدي الأعداء، كانوا يخطفون نساءه، وينهبون أموالهم «سيرة حياتي، ص 148-22». لقد كان كرد الداخل يريدون التخلص من عنف أشقياء الثورة وظلمهم، حيث كانوا مرتضين بالجندرية الترك «ص 148-14»، في ثورة الشيخ سعيد، لم يكن هناك من شخص متعلم، كان الجميع شيوخاً، بكوات، آغوات... «ص 149-1»، من بين أجوبة أشقياء الثورة، لم يكن هناك من إشارة إلى الكرد وكردستان باستثناء الدين. «ص 148-10»، وعندما انتقل أشقياء الثورة إلى سوريا، أظهروا عن أنهم ليسوا برجال ثوريين، أصحاب مواقف ومبادئ، إنما أعداء الشعب الكردي «ص 148-11»،

وسط كرد الجزيرة، ليس في الإمكان العثور ولو على شخص طيب واحد، فالجميع لصوص، قتلة، نهابون «ص 163-13»، وفي إثرها، وككردي، أطلت التفكير ملياً في شخصية جكرخوين أياماً وليال.

إلا أنني لم أصل إلى نتيجة، وهي حقيقة جكرخوين في مواقفه عملاً ومسلكاً، حيث يُستدعى إلى ذهني الكثير من الكلمات والأسئلة المتعلقة بالمواقف، وهي جديرة بالطرح، وبعض منها هي هذه: لو كان جكرخوين ماركسياً ولينينياً، ما كان يعادي الكرد المستعبدين بالطريقة هذه، وما كان يحيد عن جادة الصواب في مواقفه- لو كان جكرخوين كردايتياً ووطنياً كردياً، ما كان يقول كلمات في غاية السوء في حق مناضلي الحرية وشهداء كردستان- لو لم يكن جكرخوين رجل دين ومتعلماً، ما كان يعادي بهذا الشكل، الدين الإسلامي، ومصادقة الدين المسيحي- لو كان جكرخوين بإيديولوجيته مثل الآغوات والشيوخ، ما كان يعادي بهذا الشكل الناس المظلومين، ومخادعة القرويين الأميين، وإنما كان يفكر في مستقبل ما يعنيه- لو كان جكرخوين كأبي غني، ما كان يعادي إلى هذا الحد الفقراء والبؤساء، إنما كان يفكر في ماله- لو كان جكرخوين بائساً وفقيراً، ما كان يعادي بهذا الشكل، المال والأغنياء، إنما كان يفكر في لقمة عيشه ووضع أولاده.

لو كان جكرخوين على قدر من العلم والمعرفة، لما كان هكذا دون انضباط وشعور بالمسئولية- تُرى، على أي شيء جاء هدف جكرخوين؟- ترى لماذا عادا جكرخوين الكردايتية إلى هذا الحد؟-لماذا حارب جكرخوين بهذا الشكل مناضلي الحرية؟- من المؤكد أن تقديم جواب وشرح بخصوص هذه الكلمات سابقاً ليس بالأمر السهل. ذلك يوضح، أنه في أي زمن كان، حين يكتشف ما هو خطأ، غلطة، افتراء لدى كاتب ما، لا بد من الرد عليه بالطريقة ذاتها، خاصة حين لا يكون على قيد الحياة، إذ الواجب والمهم حينذاك، هو تقديم جواب عن طريق الصحافة إلى الرأي العام.

وانظروا أيضاً فيما يقوله جكرخوين هو نفسه «كلما عثرت على خطأ لقائد أو مناضل كردي وغلطه، أتضايق فأقول:أهو صحيح يا تُرى، أن أغض الطرف الطرف، عن تلك الأخطاء والأغلاط، ولا أرفع صوتي ؟ «ص 329، سطر 4»، وبدوري قلت لنفسني: إن كتاب جكرخوين هساري حافل بالأخطاء والأغلاط والافتراءات، لا بد على مثقف ما التعرض لها، وإعلام الرأي العام، حتى يمكن تبين

تلك الكلمات السيئة، ولا يكون لها موقع في صفحات التاريخ، وألا تفعل تأثيرها في عقول الأجيال الشابة، وألا ينبري أعداء للقومية الكردية، يعتمدونها ويستعملونها سلاحاً مسموماً ضد حركة التحرر القومية الكردية.

لقد توقفت زمناً طويلاً إثر ذلك، حيث إنني كنت أتتبع الوضع، لمعرفة ما إذا كان هناك مثقف كردي سيتناول كتاب جكرخوين، حينها كان قد مضت ثلاث سنوات على الواقعة، فتبتهت إلى أن أحداً لم يحرك ساكناً، وتبين أن الوضع سيستمر هكذا بالمقابل. إنما ما كنت أنسى ما شغلني، حيث أترقب ذلك المثقف الذي سيتصدى لذلك، وبعد قرابة ست سنوات وقد تأكد لي، أن أحداً لن يقارب الموضوع، بالعكس من ذلك، رأيت أنه كلما تقدّم الزمن كان هناك اضطراب في عدد الذين يحاولون تقديمه بطلاً قومياً، إلى درجة أنه كان هناك سياسيين وأشخاص يستثمرون اسم جكرخوين، ويسيّرون أمورهم المعيشية: الاقتصادية. لهذا باشرت بنقد حالة الصمت تلك من جهتي كتجربة ثقافية، وتنطحت له من موقع كردي مسئول.

حيث باشرت من خلال كتابة مقال طويل عن جكرخوين هساري، سوى أنني لاحظت بعد ذلك أن هذا العمل ليس صنيع مقالات، لهذا رأيت أن ما كتبت به باسم «مقال جراً طوله ما كان له النشر في مجلة أو في صفحات جريدة، لهذا أحلتُ مقالي ذاك إلى هيئة كتاب، وهأنذا أظهره لوجدان الرأي الكردي العام، وهدفي من إعداد هذا الكتاب، ليس التقليل من قيمة جكرخوين هساري، والإساءة إليه، إنما أشير إلى كلماته الخاطئة والمغلوطه وأضعها بجانب بعضها بعضاً، وأقدمها للقراء، وأطرح عليه أسئلتني، بمعنى ورود كلمة له قد قيلت في مكان ما، بمعنى ما، وبمعنى آخر في غيره. وأسئلتني تتركز على كلمات جكرخوين تلك، وهي مزدوجة، وتوجه إليه مباشرة. وفي كتابي هذا، هنالك «171» قضية كتابية/قولية لجكرخوين هساري، قد أخرجت من كتابه، وفي أسفل كل عبارة ثمة رقم الصفحة والسطر من الكتاب.

بعدها، يكون في مقدور القارئ تصور السؤال والجواب بسهولة، ومعرفة هدفي من إعداد هذا الكتاب وهو باسم «كتاب القضية».

وكل له شك في كتابة ليست صحيحة من كلمات جكرخوين من جهتي أيضاً، فلينظر في كتاب جكرخوين، وليمعن النظر. طبعي، أنه بمقدار ما أن جكرخوين هساري أعطى الحق لنفسه، وأهان كل قادة ثورات القومية الكردية وأبطالها، ولم

يمنحهم اعتباراً، وكان تصرفه في التقليل من مكانتهم تم بوعي، حيث وصف طالبي الحرية على أنهم «خونة الشعب الكردي» بدوري أعطيت الحق لنفسه لتصويب ذلك، وإظهار زيفها للرأي العام الكردي

إن الأسئلة التي وجهت إلى جكرخوين، تقابل الموضوعات المكتوبة والمحددة سالفاً، أي إن هناك رقماً لكل سؤال موجه من جهتي، وهو يناظر تماماً رقم عبارة لجكرخوين آنفاً. مثال: لقد طرحت سؤالاً كهذا: 49- أيا جكرخوين، هل وطنيتك هي في أن تدوس معتقدات القرويين؟ ترى، كيف يمكن للقرويين إذاً أن يصدّقوك، ويتبعوك؟ وجوابي بالمقابل، هو التالي «49- يا جكرخوين أنت في هذه النقطة، تكذب على الله وعلى القرويين أيضاً. أترأه حبك للوطن هو هكذا، بحيث تدوس معتقدات الكرد القرويين؟ ترى كيف يمكن إذاً لأولئك الكرد أن يثقوا بأشخاص مثلك، وفي المسلك الذي كنت تقول ألا هلموا إلي؟ وفي الوقت نفسه، فإنني كنت أتناول بعض كلمات جكرخوين بالشرح في بعض الأمكنة أيضاً، وتحت اسم «شرح المتن».

لهذا، فإن أياً كان حين يتلبسه الشك إزاء عبارة لجكرخوين، أو في موضع ما في هذا الكتاب، ففي وسعه مراجعة كتاب جكرخوين «سيرة حياتي» في الحال، والتقابل بين الكتابتين. وكذلك، فإنني اعتمدت في كتابي على الكثير من المصادر المتعلقة بكلمات جكرخوين هساري، وهي موجودة في الكتاب المؤلف باللغة التركية من «مكتبة أتاتورك»، واسمه عصيان الشيخ سعيد «ثورة الشيخ سعيد»، وفي إثرها يرد اسم الكتاب، رقم الصفحة، والترتيب الكتابي للسطر، مثلاً «S.S.I.، بهجت جمال، سنة النشر/الإصدار، مطبعة القلعة، CaganogluIstanbul، 1955، الصفحة 7/20»، أما عن معنى «S.S.I.»، فهو عصيان الشيخ سعيد. أما بهجت جمال فهو الشخص الذي أعد الكتاب. أما Sel Yayinlari، سنة النشر، أما عن Hisar Matbaasi، فهو مطبعة القلعة، أما Cagaloglu-Istanbul، فهو اسم حي من أحياء ستانبول، والرقم «20»، يخص رقم صفحة الكتاب، أما عن الرقم «7» فهو ترتيب السطر.

والحال، فإنني قد أوردت أيضاً أربع صفحات من ذلك الكتاب «حيث إنها كتبت ضد الشيخ شمس الدين» في كتابي. وأشير إلى أن بعض عباراتي طويلة وهي تستمر إلى الصفحة التالية، وفي مواضع من هذا فقد ثبتت أربع علامات، بحيث إنها تُرى/تقرأ وهي في استمراريتها مصحوبة بالعلامات ذاتها في الصفحة

اللاحقة عليها، وأكثر من هذا الكتاب المؤلف بالتركية، أشير إلى أنني اقتبست بعض الأقوال من كتاب السيد مالميسانز، والذي يتمحور حول الشهيد الحي أبداً كمال فوزي البدليسي. وقد سطر المصدر ذاك بالطريقة هذه:

«مالميسانز، كمال فوزي بدليسي، ص؟ ستوكهولم، كانون الثاني 1993، السويد».

وفي كتاب جكرخوين هساري ثمة الكثير من العيوب اللغوية. سوى أنني لم أقارب هذه النقطة أبداً. حيث إنني تعاملت مع كلماته وهي بعيوبها اللغوية وكذلك العبارات الخاطئة، واعتمدتها كما هي في كتابي هذا. سوى أنني كنت أفتح أقواساً في بعض الأمكنة حصرت هذه الكلمات بينها، وهي تتضمن عبارة أو أكثر، وفي إثرها يرد حرف «nm» بمعنى أنها ملاحظاتي، ليكون الكلام واضحاً مفهوماً.

وعموم الأقواس المرسومة تكون لي. أما عن جكرخوين، فهو قد افتتح أقواساً «وردت مفردة kevaken ناقصة، وهي في الأصل kevaneken» في ثلاثة مواضع فقط، وهي هذه «دولة قاضي محمد (أو دولة كردستان في مهاباد)»...و. «في حرب آمد (ديار بكر)»، و آمد (ديار بكر).

وبعد أن اكتمل الكتاب، فإن هناك كتابة لي تحت اسم «كلمة أخيرة»، وبعدها، ثمة رسالة مكتوبة، موجهة إلى المحكمة العليا لإقليم كردستان. أملاً في أن يغلق هذا الكتاب الباب في وجه بعض السيئات، ويكون جواباً على تلك المآسي والأباطيل التي لفقت بحق مقاتلي حرية كردستان وما تزال قائمة..

ستوكهولم، في 24-10-2002.

مختارات من «كتاب القضية» عن جكرخوين باللغة الكردية، لزين العابدين زنار

ويا جكرخوين، مادام «آل حاجو» هفيرانيين، ما الذي جرى لكي يصبح حاجو آغا متعاوناً مع الدولة. ص 20.

«قدمت من العراق واستقرت في قرية تل شعير، وكان حاجو آغا وأمين أحمد في قرية دوكر. أما عن الشيخ عبدالرحيم أخ الشيخ سعيد، فكان قد نزل حديثاً من سرختي، وكان راغباً في لقائي، وجاءني رجل في الصبح الباكر، معلماً إياي قائلاً: إن حاجو آغا يريد لقاءك في دوكر، فكان علي أن أسلك الطريق ومضيت،

سوى أنني قبل دوكر صادفت سيارة، حيث سألني حاجو قائلاً: يا فقّه، اسمك الكريم ؟ قلت: أنا جكرخوين، لقد قدمتُ إليك يا آغا . ص 21.

ويا جكرخوين، لقد قلت في النقطة «15» عن أن هفيركان كانت تعادي الأتراك، وآل حاجو هفيركانيون دائماً، وها أنت تقول عن أن قادة الأتراك كانوا يرسلون رجالاً مثل حاجو آغا زرافات إلى بنختي، لمحاربة فرنسا . أترانا قادرين على تصديق كلامك في النقطة «15» أو «16» ؟ ص 21.

تبعاً لدراسة حول هذا الموضوع، فإن حاجو آغا عندما مضى إلى بنختي، لم يَمْضِ إلا من أجل نجدة آل عباس، لهذا نجد أن وضعاً كهذا، كان مألوفاً أخلاقياً «لدى الكرد عبر مرّ آلاف السنين. يضاف إلى ذلك أن حاجو آغا وآل عباس كان بينهم صلة قرابة/نسب أيضاً. وكون حاجو آغا متعاوناً مع الأتراك، عندما مضى إلى بنختي كان الأتراك على علم به، وكان الهدف من حرب حاجو آغا مع فرنسا هو هذا: الرغبة في تحرير الكرد من ظلم فرنسا، كما قال جكرخوين بالمقابل أيضاً: «لقد كانت خانة حاجو آغا خانة كردايتية». ولم يسمح بتعرض الكرد للظلم من خلال تحريض المسيحيين، وفي الواقعة تلك، استقام أمر: بالنسبة إلى مصالح حاجو آغا، حيث كان زعيم عشيرة كردية، وأما عن مصالح الأتراك، كانت ضد فرنسا، وقد تجلّت خلال زمن قصير.

إلا أن البعيد عن الحقيقة هو التالي: أن الأتراك أرسلو حاجو آغا مع رجاله إلى بنختي لمحاربة فرنسا...

ويا جكرخوين عندما قدمت من العراق وأرسل حاجو في طلبك، قلت: اضطررت إلى سلوك الطريق ماضياً إليه. تُرى ما وجه اضطرارك لتسلك الطريق إليه ؟ طالما أن حاجو آغا لم يعرفك، كيف اعتقدت به، لتمضي إليه ؟ ص 21.

في عام 1945، مضى البارزانيون إلى رؤوس الجبال، وأعلنوا عن مباشرة النضال والثورة.

وبقيادة أحمد بارزاني خيضت معارك دموية ضارية ومتواصلة، حيث استمرت لعدة أشهر. ولقد جاءنا أحد أعضاء زاخو، وأقرّ الاجتماع بلزوم توجّه بعض منا لمساعدة البارزانيين، حيث يقاتلون في زاخو وشنگال، بحيث يتجه إلينا قسم من جنود العدو، لتخفيف الضغط قليلاً عن البارزانيين...رفع عبدالرحمن آغا يده قائلاً: ليت

أحداً من آل حاجو يأتي معي، فأنا أريد التوجه إلى زاخو...قلت: أنا أريد التوجه إلى «شنكال»، إنما يجب أن يرافقني شخص من آل حاجو». 22.

ويا جكرخوين، لقد قلت في النقطة «36» في حق حاجو آغا ما يلي «إنما علينا ألا ننسى أنه كان هناك الكثير من الناس العفنين، وهم يلعبون على حبلين، حيث إنهم كانوا معادين لشعبهم، أو متعاونين ومتحالفين مع الدولة، أمثال حاجو آغا هفيريكي...وهنا تقوq أيضاً عن أن خانة حاجو آغا كانت كردايتية. تُرى، أي من كلماتك/ أقوالك نصدّق؟

19-ويا جكرخوين، لقد قلت في النقطة «21» ما يلي: إنما علينا ألا ننسى أنه كان هناك الكثير من الرجال العفنين، كانوا يلعبون على الحبلين، والبعض أعداء لشعبهم، أو أعوان للدولة، رجال مثل حاجو آغا هفيريكي...وها أنت هنا تقول عن أن خانة حاجو آغا كردايتية، تُرى أي كلمة لك نصدّقها هنا؟

ويا جكرخوين، قد قلت في النقطة «21» ما يلي:لقد كان حاجو آغا زعيم هفيريكان، حيث إنه قدم من كردستان المحتلة من قبل الأتراك، بإمرة اسماعيل حقي إلى محاربة فرنسا، وها أنت تقول: «أريد التوجه إلى شنكال لأحارب، إنما يجب أن يأتي أحد من آل حاجو معي». طالما أن حاجو حليف الأتراك، كيف لك أن تثق بآل حاجو إذاً، بحيث تصطحب أحدهم معاً لمحاربة العدو؟ ص 22.

لا العرب، ولا المسيحيون ولا الكرد الرجعيون يريدون أن يحل الأفراد المتعلمون والوطنيون الكرد في البرلمان، وكانوا يسدّون الطريق في وجوههم، إلى درجة أن حاجو آغا نفسه، هو وأولاده ما كانوا يسمحون للأفراد المتعلمين بدخول البرلمان، وأن يصبحوا مثلهم. تيقنوا أن خطأنا الوحيد كان حب الوطن. «سيرة حياتي. ص 248».

ويا جكرخوين، أنت تقول، عن أن حاجو آغا وأولاده ما كانوا يريدون من المتعلمين الحلول في البرلمان، وهذا يعني، ومن خلال كلامك، أن حاجو آغا وأولاده كانوا متعلمين تماماً، إلا أنك قلت في النقطة «29»: لو أن حاجو آغا وحده كان متعلماً، لاستطاع قيادة بلاد، سوى أن أنشطة الآغا بكاملها كانت تتم بتوجيه من الأتراك «سيرة حياتي، ص100»، والآن، أي كلمة نصدقها لك هنا؟ وأيهما نكذب؟

شرح المحتوى: صراحة، لو أن حاجو آغا لم يكن يريد أن يبرز أفراد متعلمون ومحبو كردهم، لما ساعد جكرخوين إلى هذه الدرجة، ولما رافقه إلى القائد

الفرنسي من أجل النادي الكردي، وأنه بعد نيل الموافقة، لما قال حاجو آغا لجكرخوين «يا أيها المكرّش، ها قد أقبل يومك الذي كنت تحلم به، فكنت رجلاً إذاً، وقم بعملك».. سيرة حياتي. ص 229. كتاب القضية، ص 23.

لقد افتتح حسن حاجو آغا في الحسكة نادياً أو مدرسة، وعلم أطفال الكرد الكردية بالحروف اللاتينية... ومثال آخر: كان جميل حاجو آغا، يشترك الأقلام والدفاتر والمُحافظ لأطفال القرويين، وكان يضغط على آبائهم وأمهاتهم بلزوم إرسالهم إلى المدرسة، وفي السياق نفسه، فقد ضغط حسن حاجو على عارف عباس بلزوم إرسال ابنه إلى الجامعة، وأن ابنه بعد الدراسة أصبح طبيباً. فإذاً، ماذا كان يريد جكرخوين من آل حاجو ؟ من المؤكد أن ذلك لم ينكشف حتى الآن، ومعرفة ما سرد عدائه الكبير لآل حاجو. ص 23.

نزل حاجو آغا إلى بنختي، وكان هناك طائرات تركية تغير بشكل مستمر على مضارب آشيتيان «سيرة حياتي، ص 160».

لقد أصبحت السلطة بيد الآغا، لماذا لم تعلنوا عن سلطة كردية. ص 26.

كنا في قرية «خزنة» عندما نزل حاجو آغا إلى بنختي، حيث إن جنود الأتراك نهبوا بلاد هفيركان، وأعملوا فيها حرقاً وقتلاً. ص 27.

كان حاجو آغا يفرض ضريبة على المجلس، حيث إنه أخذ منا جميعاً نقوداً. وقتذاك، جمع 1270 ليرة سورية، إلا أن الآغا شيد قصره بها، وأعطى بعض النقود إلى نسيبه/ حموه فيصل عبني، حيث فتح له دكاناً في تربه سبي، فلم يبق من أثر للنقود، فاضطررنا للانسحاب من المجلس. «سيرة حياتي، ص 205».

تري، كيف لحاجو آغا صاحب «19» قرية، أن «يبلغ نقوداً، ولم تطالبوه بها، يعني ذلك أن الخطأ الأكبر خطأكُم، إلا أنك بدلاً من السؤال، قلت «اضطررنا للانسحاب من المجلس». ص 26.

تُرى، بعدها، هل هناك من سأل حاجو آغا لماذا «بلغ» النقود تلك ؟ بمعنى أنك اتخذت ذلك حجة، وابتعدت بنفسك عن المجلس. ص 28.

لقد جاوب قدري بك حاجو آغا بصوت حاد ومرتفع، قائلاً: روحي، أليس عيباً أن تسرق هفيركان مثل شوكت بك وعارف بك. فيغضب حاجو آغا، وحاجو

آغا كبير اللصوص. من جهة أخرى، جعل قدرك بك عارف وشوكت رفيقين له، وزعل بسببهم.

لقد أصبحت الحكاية هفيروكانية وديار بكرلية. فلم نجد بداً من الخروج من وسطهم.

وقد تنبهنا إلى ذلك حديثاً، إنما الأهم في الداخل، وهو أن حاجو آغا واجه قدري بك بحدّة قائلاً: لا بل أنت اللص... فتقابل زعيمانا الاثنان بالمسدسات «سيرة حياتي، ص 205»، ص 30.

وفي السياق نفسه، ساعدني حاجو آغا قائلاً: إن كلمات سيد صحيحة تماماً، حيث إنني أنا نفسي لست مؤيداً هذا العمل الخسيس والوضيع والمنحرف. قسماً بالله، إن من يسرق جدّي رجل كردي، سوف أغرّمه بدلاً عنه بدف نعجة «سيرة حياتي، ص 221»، ص 32.

ويا جكرخوين، كان حاجو آغا يملك «19» قرية، وها هو قد جعلك بالمقابل ملاكاً لقريتين، وقد بناهما لك، أي أنك أنت أيضاً أصبحت آغا، عدا عن أنك آغا بالمجان «دون جهد». إزاء ذلك، ما قيمة كلماتك السابقة تلك، وقد أخطأت في حق حاجو آغا. ص 33.

ويا جكرخوين، عندما حاربك بعض الناس، سارعت إلى طلب المساعدة من حاجو آغا، وعندما ينعدم من يحاربك، تسارع في الحال إلى معاداة آل حاجو. تُرى، أي سر في مقصدك هذا ؟ ص 23.

قال لي حاجو آغا: أيها المكرش، ها قد أقبل يومك الذي كنت تحلم به. فكن رجلاً واعمل «سيرة حياتي. ص 229».

ماذا نتج عن افتتاحنا لهذا النادي ؟ لقد زاد أعداؤنا عدداً، تيقّظوا أكثر، وعرفونا سريعاً. «سيرة حياتي، ص 230». ص 35.

ويا جكرخوين، لقد قلت: لقد خاطب سרוخان نايف ابن حاجو: يا ابن الأخت، لقد خصّص الأتراك في مقتل والدك مكافأة «200» ألف ليرة. ألا هلم واقتل والدك، وليكن هذا المال بيني وبينك... وأنت كتبت في أمكنة كثيرة، عن أن حاجو آغا كان متحالفاً مع الأتراك، فإذاً، لماذا يطالب الأتراك برأس متعاون معه ؟ ص 43.

ويا جكرخوين، كانت السنة 1925، السنة التي تمكّنت فيها الدولة التركية من سحق الثورة القومية الكردية بقيادة الشيخ سعيد، كان هناك الشيخ سعيد والكثير من رفاقه، الشيخ شمدین أيضاً مع الشيخ سعيد، وهم يحاكمون في محكمة استقلال الشرق. نجد أن قاضي المحكمة علي صايب اورساواش، وقد عرفت به على أنه بالمسئول الحكومي، قال الكلمات نفسها، هذه التي تقولها، في حقه، وكان ذلك سبباً رئيساً لإصدار الحكم بإعدامه شنقاً. لقد قال علي صايب للشيخ سعيد ما يلي:

لقد عقدت قرانك على زوجة أبيك الشيخ يوسف بعد وفاته، وقلت أنه عندما تزوج والدي أمي، حينها كان عمرك وأنت جنين في رحمها خمسة أشهر، بمعنى أنك بذات، أظهرت بصورة صريحة على أنك ولد حرام «زنى». وها همو الناس يرون أي نوعية من الناس السيئين يكون الشيوخ، بحيث يتزوجون حتى أمهاتهم، أما عن مرديهم فهم يعوون وينبحون مثل الكلاب والثعالب «كتاب بهجت جمال، ص 105-107»، أرايت يا جكرخوين أن كلماتك وكلمات قاتل الشعب الكردي سواء، أهي مصادفة في تطابقهما معا، أم أنك أردت أن تشر كلمات ذلك القاتل باللغة الكردية ؟ ص 51.

ويا جكرخوين، ها أنت قلت في النقطة «22»، عن أن رشيد كرد، ما كان يعرف سوى المجون شيئاً آخر... إنما، فيما بعد، حيث تشكّلت «خويون»، أصبح رشيد كرد رفيقنا نحن الكرد الديمقراطيين، إذ كنا نحارب العائلات الثرية معاً «سيرة حياتي، ص 197»، وبالنسبة إلينا، أي من كلماتك هذه نصدّق ؟ ص 56.

لقد كانت حركة الشيخ سعيد واضحة وهي أنها قامت من أجل الدين والرجعية. ص 62.

ويا جكرخوين، نجد أن آل حاجو بدورهم وكذلك عائلة جميل باشا بالمقابل، كان وضعهم المادي جيداً تماماً. فأى حاجة لهم إلى نهب كرد سرختي؟ كلمتك التي وردت هكذا، تظهر عن أنك كنت تريد الإساءة إلى تلك العائلتين وتشويه سمعتهما. بالطريقة هذه ساعدت الأعداء، لهذا كان الأتراك يعادون العائلتين، وحتى العرب من جتهتهم كانوا يعادونهم، أما أنت يا جكرخوين، فلماذا تكبر تلك العداوة. ص 67.

بالنسبة للشيخ سعيد، بعد أن عجز عن تحقيق أهداف الثورة بسبب أخطاء ونواقص، كان مضطراً لأن ينسحب ويلوذ بالفرار، سوى أنه عن طريق قاسم بك جبري وقع في يد عدوه، وفي ليلة رمضان أعدم «48» شخصاً...

وكان أتاتورك هكذا تماماً، إنما كتب أقل منك بالمقابل. انظر: عندما دخل عصاة «مناضلو الثورة» وسط المدينة، نهبوا المحلات وبيوت الأهالي... فإذاً لماذا كان الذي سطرته مثل تقرير محكمة الاستقلال ؟ ص 74.

في الدفعة الأولى حيث أعدم بالشنق معاً، ما كانوا «48» شخصاً، إنما «46»، هكذا يشير الكتاب الصادر عن مكتبة أتاتورك بالحرف: بعد أن أصدرت محكمة الاستقلال قراراً بالإعدام شنقاً، حينها استخف القضاة كثيراً بالشيخ سعيد و «45» من رفاقه، وبعدها نجد أن عضو المحكمة علي صايب اورساواش، قال للشيخ سعيد: ماذا نعمل يا شيخ سعيد أفندي، نحن لم نتناول معك لحم الخروف خنوس، وقال: إن أفلت الشيخ سعيد من هنا، فإنه سيوزع خرافاً على الجميع... ص 75.

عندما كان الشيخ سعيد يدافع عن نفسه في محكمة الاستقلال سياسياً، قال التالي أيضاً: أنا في هذا الوضع لست الأول ولن أكون الأخير «نقلًا عن بهجت جمالي»، ويجب ألا يُنسى عن أن الشيخ سعيد في محكمة الاستقلال قد بصق على النائب العام علي صايب، وقال له: «يا قليل التربية، تستطيعون أن تقتلونني، إلا أنني لا أريد أن أسمع منكم كلمات لا أخلاقية». لقد حكم على الشيخ سعيد بالإعدام، ولكنه لم يضعف. أما جكرخوين فإنه عندما كان في سجن قامشلو، انظروا ماذا قال «لقد ضعفت، وقال: يا حسن آغا، والله لو مضى علي يومان آخران هنا أيضاً، فسوف أموت، وأن هؤلاء الهمج والوحوش سوف يقتلونني... ص 75.

ويا جكرخوين، ها أنت قد قلت: لن تعثر على كردي خير وسط كرد الجزيرة، الجميع لصوص، قتلة، نهّابون... وفي السياق نفسه، قلت في زعماء وكذلك وجهاء كرد سرختي، عن أنهم كانوا أعداء الشعب الكردي. ص 79...

بالنسبة إلي وجميل باشا: لم يكن جميل باشا من باشاوات الحميدية، ولا كان من أمراء كردستان، إنما كونه أصبح والياً، صار باشا، حيث إنه كونه في السلطة، وضع يده على قرى كثيرة، واستولى عليها...

ويا جكرخوين، وأنت عادت الدولة السويدية إلى هذا الحد اللافت، وها أنت تقول: يجب على الحكومة السويدية أن تمنحنا ثيابنا الشتوية والصفية، وأن تدفع الدولة آجار البيت كذلك... وأنت قد قلت: لقد سطرّت رسالة إلى الملك فيصل العربي في بغداد، طالباً تخصيص راتب لي... وقد قلت أيضاً، عن أن جامعة بغداد

أعطيتي «500» ديناراً...ماذا يعني كل ذلك، بحيث إن كلاً من الامبريالية، فالقومية والدكتاتورية تقدّم لك المساعدة ؟ ص 78.

إن اوصمان صبري بك... ابن صبري بك، أو أن صبري آغا . فعمه هو شكري بك، أو شكري آغا، حيث إنه أعدم شناقاً في «محكمة الاستقلال»، وقد هرب صبري من الملاحقة وقدم إلى بنختي...وكان معه ملف بخط يده، يتضمن أسماء رفاقه، يريد تسليمه إلى وزير الداخلية أكرم الحوراني، حيث إنه أراني إياه في درياسية، وقد أحرقتة، وقلت: إن ذلك يمثل إساءة كبيرة إليك، فيما لو وقع في يد الأكراد «جكرخوين، ص 195- 196»، ص 89 .

ويا جكرخوين، إن كلماتك التي تخص اوصمان صبري، مهمة جداً، وتثير الكثير من التساؤلات حولها كذلك. أنت قلت عن أن اوصمان صبري كان يحمل ملفاً كتبه هو، يتضمن أسماء رفاق له، ليقدمها إلى وزير الداخلية أكرم الحوراني، وقد أراني إياه في درياسية، وقد أحرقتة، ليتبين من كلمتك هذه صراحة، عن أن اوصمان صبري عميل للدولة السورية. سوى أن السؤال المهم الذي يتبادر إلى الذهن هو: كيف وثق بك اوصمان صبري ليريك ذلك الملف؟ وطالما أنه أطلعك عليه، ذلك يعني أنه كان كثير الاطمئنان إليك «يثق بك كثيراً». تُرى تلك الحميمية من أين أتت ؟ ص 89.

تُرى، بالنسبة لحكاية اوصمان صبري وإعداد الملف ذلك، ما مدى صحتها؟ سواء أكانت صحيحة أو ليست كذلك، لماذا لم يصدر رد فعل تجاهها حتى الآن. ص 89.

محاكمة جكرخوين في كتاب

«أخطر وثيقة ضد جكرخوين»

ربما هناك الكثيرون ممن يتابعون شاعرنا الكردي الشهير جكرخوين، يعرفونه كشاعر، وعلى هذا الأساس يجري تقييمه، رغم أن قراءة شعره تتطلب الكثير من التروّي والتدقيق لتبين مفارقاته، كما تعرضتُ إلى ذلك في أكثر من مكان، سوى أن مذكراته المنشورة بعد رحيله، بالكاد تمّ التعرض لها، فهي حافلة بالتناقضات، وفيها الكثير من الثغرات، ومكتوبة بلغة شاعر متقلب الأهواء أحياناً، رغم أنها تعرّفنا بتاريخ طويل ومجتمع «كردي» بأمكنته وأسماء أشخاصه، وأحداث كردستانية جسام، وكتاب الباحث الكردي زين العابدين زنار «كتاب القضية

PIRSNAME» بالكردية، ومن منشورات «PENCÎNAR» في ستوكهولم، وفي «154 صفحة»، يمثل أخطر وثيقة- ربما- كردية تتناوله من زوايا مختلفة.

بدءاً من التنويه الذي تصدر الكتاب، وانتهاء برسائلته المرسلة إلى إقليم كردستان لمحاكمة جكرخوين في كتابه، ثمة ما يشبه «الحرب الوطيس» تستغرق صفحات الكتاب، ولعلها حرب على حرب، مع فارق الحربين ومداهما وصداهما، إذ بغضّ النظر عما جاء به الكتاب من حجج وإضاءات لإظهار تناقضات كتاب/مذكرات جكرخوين، وما يمكن أن تكون عليه صورة جكرخوين في المحصلة، فإن كتاب زنار يستحق القراءة، بقدر ما يتطلب وعياً تاريخياً واجتماعياً ومعرفياً بغية التمكن من النقاط إشارات الباحث، وكيفية الربط بين «أقواله» و «أقوال» جكرخوين.

هذه في هنا، ليس دعائياً، إنما هو التعريف به في إطار تقديمه، تعريف يتركز على نقطتين: كيفية متابعة نقاطه بالتسلسل لأنها تترد إلى بعضها بعضاً، وما في ذلك من تحديد أسلوبه/طريقته في القراءة والكتابة، والنظر في الكتابين في إطارهما التاريخي والثقافي والنقدي، وما يمكن أن تكون حصيلة هذه العلاقة المفتوحة بمؤثراتها.

في البدء كانت المواجهة:

وهي تاريخية ودلالية، انطلاقاً من بنية الكتاب المنقود، وهو في سخونته، وما يكون عليه نقد النقد.

إذ إن التنويه الذي تصدر الكتاب وهو «أعدّ هذا الكتاب للطباعة في يوم 15-12/2002»، سوى أنه جرّاء أسباب خاصة ظهر للقراء بعد خمسة عشر عاماً».

طبعاً لا يطالب قارئه أو ناقدته تحديداً في أن يخرط في لعبة التأويلات أو الافتراضات حول هذا «التأخير الطويل نسبياً»، إنما ما يمكن النظر فيه ومن خلال نوعية الكتاب، هو موضوع الكتاب ومن تمت مسألته فيه، وما انتهى إليه وهو وجوب محاكمته، وقسوة هذا الطلب، حيث لم تعد الكتابة تتوقف عند حدود النقد، إنما يتم تجاوزها إلى ضرورة تدخل الجهات المعنية واقعاً بغية مقاضاة مؤلف الكتاب، كما سنرى، وما في ذلك من مزج يستدعي أكثر من تساؤل عن مغزاه، في التصعيد بفعل الكتابة النقدية، ليكون كتاب القضية محوّل إلى النطاق السياسي، وخطورة هذا التوجه، رغم وجاهة الطرح في مناقشة الشاعر نقطة نقطة، والعودة

إلى نقاطه لأكثر من مرة، لكن التوجه بالطرح إلى دائرة لها صفة سياسية تضفي على الكتاب طابعاً آخر من جهة الموقف، وربما «الانتقام» بتدخل خارجي.

في قراءة كتابه يتضح مدى تدقيقه فيه وهو يبحث عن أي ثغرة، أو خطأ تاريخي، أو واقعة في غير محلها، وهذا من حقه ومن حق أي ناقد آخر، بما أن الكتاب يتضمن ما يتعدى حدود الفرد وذاتيته، حيث يقول في المستهل (هناك في الكتاب «171» مقتبساً من أقوال جكرخوين هساري، وطرح حولها «660» سؤالاً، منها «610» إلى جكرخوين، و «50» من قبل القراء).

وهو نفسه من يأتي على ذكر هذا الجانب من اهتمامه المركّز على كتابه، وهو يتقصى بنية كتابته واستقراء الخفي فيها، واعتماد المقارنات والمساءلات التاريخية، وصوغ الأحكام القيمية بطريقة قطعية في أكثر من نقطة، كما في الصفحة «130» من الكتاب على خلفية موقفه الاستقصائي (جراً ذلك «أي على خلفية من مواقف جكرخوين من كرده في مجالات مختلفة»، قرأت كتاب جكرخوين الموسوم بـ «سيرة حياتي» ثلاث مرات، واستقيت شواهد من «171» نقطة، إلى جانب أنني أوردت أقوالاً مهمة لها صلة بأقوال جكرخوين، اقتبستها من كتاب مؤلف بالتركية تحت اسم «ثورة/عصيان الشيخ سعيد»، وقد ترجمتها إلى الكردية وثبتها مقابل أقواله).

تلك إشارة مؤثرة وذات فاعلية محفّزة على قراءة كل ما كتبه من ألفه إلى يائه، وهو يشير إلى كتاب جكرخوين الأنف الذكر والمطبوع طبعة أنيقة بالكردية في السويد، قياس «16 ضرب 23»، في «414 صفحة، أي من الحجم الكبير، وهذه المعلومة تؤكد على مدى تدقيقه في الكتاب وتحريّ أصوله، عند السؤال عنه، حيث الحجم له علاقة بالمعلومات الواردة كمياً هنا.

بدءاً من المقدمة، يظهر زنار بعد تقصي بنية أقوال جكرخوين، إلى ختام الكتاب، يشدد على تلك القناعة التي تشكلت لديه وهو أن جكرخوين لم يكن يوماً معنياً بالكرد وكردستان، أي بقضية شعبه ومعبراً عن تاريخه النضالي، ومن خلال كم هائل من الأمثلة والمقارنات والأسئلة المطروحة، وهو في كل مرة يسعى إلى تضيق الخناق عليه، ومن خلال أقواله هو بالذات، سواء من خلال عملية التقييم أو الأسئلة التي هي بمثابة نتائج بحثية أو تحليلات ذات بنية ثقافية ونفسية.

في كل متابعة، يتضح لقارئه أن جكرخوين لم يخذل شعبه فحسب، وإنما خانه على امتداد الكتاب أيضاً، وهو المعتبر في عداد المثقفين والمتتورين، ودورهم كبير في تمثيل شعبهم وإنارة طريقهم النضالي والثقافي، ولا شك أن إهداء الكتاب من قبل زنار يفصح عن هذا التوجه (إهداء إلى أرواح شهداء كردستان الذين سمّاهم جكرخوين خونة شعبهم:

Şadî bo rihê wan şehîdên Kurdistanê yên ku Cegerxwînê ew
«Xayîne Miletê Kurd» bi nav kirine....)

وذلك ما يمكن تبينه أو التوقف عنده في هذه الكلمات، وقد تأكد لديه من يكون، حيث صدمه بأقواله وتحليلاته (إنما للأسف الشديد جداً، حين قلبَ الحقائق على عكس المطلوب من النضال الثقافي. وقد جعل شرف مقاتلي الحرية وكرامتهم تحت قدميه، وعاداهم، ولم يسطر حتى ولو كلمة حسنة في حقهم، وقال في أولئك الذين أودعوا رقابهم حبل مشنقة الأعداء: هم قتلة، نهابون، لصوص، طائشون، خونة، وأعداء الشعب الكردي. تُرى، ألم يكن لأولئك الشهداء ولو حسنة واحدة؟ سوى أنه مادام جكرخوين قد تفوه بمثل هذه الكلمات السيئة/ المثالب بحق مقاتلي الحرية، لو أنه ذكر مناقب لهم، فالذي لا يُشك فيه هو أنه كان سيعلو مقاماً في أعين بعض القراء.. ص 8).

إذ ذلك يمكن المضي مع أداة زنار النقدية والتاريخية والتحليلية السابرة، وهو ينتقل من ناحية بين الصفحات من باب الربط بين أقواله، حين تكون متعارضة، وما أكثرها لحظة التعرض لها، ومن ناحية أخرى، ينتقل من صفحة إلى أخرى مشيراً إلى جوانب شتى تفصح عن أن جكرخوين «هساري» حيث يتكرر اسم المكان «قريته» كثيراً في الكتاب، لم يكن في مستوى اسمه، وتمثيله «المزعوم» لشعبه، أو ما هو متداول باسمه، ولعل الوقوف على حقيقة كل هذه النقاط يحتاج إلى قراءة كتابه وكتاب جكرخوين بالمثل، ويعني ذلك أن المتوخى هنا هو وجوب إمعان النظر في بنية الكتابة لدى زنار، وكيف يناقش، ويسائل، ويقارن، ويحاجج، ويحكم كذلك، وفي كل جانب من هذه الجوانب ثمة مدخل بحثي ومخرج اعتباري بالمقابل، وما يتطلب كل ذلك من تروّ وانفتاح على جوانب الموضوع عموماً وحركية كل مقتبس خصوصاً.

ولو أننا استعرضنا هذه الحيثيات/نقاط استاده وإضاءتها، نجد أنفسنا إزاء التالي:

ما يخص الجانب النضالي، أو السياسي، كما الحال في الموقف من «الشيخ سعيد وثورته»، وقد احتل هذا الموقف مساحة واسعة نسبياً تأكيداً لأهمية الحدث التاريخي.

ما يخص الموقف الاجتماعي وصلته بما هو سياسي وقومي، كالموقف من حاجو آغا، وتناقضات التقييم جكرخوينياً.

ما يخص الموقف من الشيوخ والآغوات والبكوات، ومفارقات القول، أو تناقضاته بالمقابل.

ما يخص علاقته بأناس عرفهم في حياتهم وكتابته عنهم حتى في أكثر المسائل شخصية.

ويشير إلى أن جكرخوين كان عدو بني قومه «جلدته» دونما استثناء «ص 130-136، مثلاً»، وهو يقول في مكان تال عن أن هذه المقتبسات الـ «171»، قليلة وبالتالي فهو يقدمها إلى الرأي العام، لأن هناك بالئات في الكتاب (في الحقيقة هناك المئات من أمثال هذه المقتبسات/الأقوال والتي تكون ضد مطلب القومية الكردية، حيث إن كلاً منها من ناحية المردود السلبي والكلفة في موقع الديناميت. ص 138).

وهو في هذا المآل البحثي والدرسي يرى أن جكرخوين تجاه موضوعات القومية والشيوعية والإسلام على النقيض مما كان يعرف به تقدماً (ما يفهم من كلام جكرخوين هو أنه فكرياً لم يكن تقدماً: Ji gotinên Cegerxwînê tê fêmkirin ku ew ji aliyê mejî ve, ne pêşketî bûye. ص 140).

وليبقى الخطر في مسار البحث، ما جاء في ختام الكتاب، كما أشرت إليه سالفاً، وهو عبارة عن ملحق، أو رسالة موجهة إلى «المحكمة العليا في كردستان: إقليم كردستان»، وبتاريخ «15-12 / 2002» طالباً إياها بلزوم محاكمة الكتاب، وقد حشد هذا الكم الهائل واللافت من الأمثلة التي، كما يبدو، يعرّي بها كرخوين الحقيقة وليس الشائع بين الناس (لهذا السبب، فإنني أرفق رسالتي هذه بكتابي، وأرسلها إلى المحكمة العليا في كردستان، مقترحاً فيها، بإصدار قرار خاص حول كتاب جكرخوين لإثبات بطلان أقواله الضالة، وإعادة الاعتبار مجدداً إلى شهداء حرية القومية الكردية بالمقابل، وحماية كرامتهم، واحترامهم جميعاً:

Ji ber wê yekê îcar ez bi vê nameya xwe, herweha bi vê pirtûka xwe jî, ji DADGEHA BALA YA KURDISTANÊ re pêşniyar dikim ku biryareke taybet li ser wê pirtûka Cegerxwînê bide û nebûkariya gotinên wî pûç bike, îtbara wan Şehêdên Azadiya Neteweyê Kurd jî li wan şabaş û dubare bike, rûmeta wan bide parastin û rêz li hemuyan bide girtin. 143ص.).

الكتاب يتوقف هنا، لكنه من ناحية الأثر وتفعيله من هنا يبدأ كذلك، ولعلي حين أتعامل معه كقارئ وناقد معاً، أجد أنه جدير بالقراءة، كما نوهت إلى ذلك بداية، وقد توقفت عنده ملياً قبل هذا التاريخ، ربما كآخرين، واتصلت مع من له صلة بهذا الكتاب والثغرات الموجودة فيه، وتطرقت إليه من هذا المنطلقة في بعض كتاباتي، لكن باحثنا زنار، في كتابه قدّم لنا صورة بانورامية عنه، وهي تمثل حافزاً لقراءته بتمعن من جهة، وعدم التردد في قراءة أي كتاب كان بما أنه يخص مسائل اجتماعية وسياسية وتاريخية عامة.

إلا أن ما ينبغي التوقف عنده هو التالي:

لزوم التفريق بين ما هو شخصي، أو محدود، وما هو عام، من النوع السياسي والتاريخي. فالحديث عن علاقته بصاحبه وزوجته التي كانت على النبع، غير موقفه من ثورة الشيخ سعيد.

لزوم التفريق بين موقفه من عائلة معينة: مشيخة، بكوية، وما لها من امتداد تاريخي واجتماعي وسياسي، كالموقف من آل حاجو آغا، وتقلباته، وبنية هذه التقلبات والمواقف.

لزوم التفريق بين ما هو ديني وموقع الدين في المجتمع، وما هو مرتبط بالتاريخ والثقافة الكرديين...الخ.

وأرى أن الباحث لم يعتمد تمييزاً من هذه الشاكلة، بالعكس، ثمة نقاط كثيرة، جرى فيها الخلط بين الشخصي والاجتماعي العام، دون إضاءة الموقف «على سبيل المثال، يمكن أن ينظر في حديث جكرخوين عن أنه كان يفطر في رمضان ويصلي أمام قروبيه دون وضوء، على أنه اعتراف ذاتي من جهة، وربما جرأة غير مسبوقة، وكان في مقدوره التكتّم عليها، ربما في مواجهة سلبيات الكثيرين من

شيوخ المنطقة كردياً، وأرى أن هناك كمّاً هائلاً من المتاجرين بالدين وإلى يومنا هذا يمارسون الكبائر، ويُستترّ عليهم، بقدر ما أنهم هم أنفسهم يمارسون التقية. من جهة أخرى، أرى، أن المؤلف/الباحث، لم يخف ورعاً دينياً: إسلامياً لديه، وما فيه من قسوة في الموقف من جكرخوين، وأن أحكامه لا تخفي خلفيتها الفقهوية الاستنفارية وطابعها الثأري.

وأخيراً وأخيراً، إذا كنت أشدد على يدي باحثاً زنار فيما قام به مشكوراً، فإنني أشدد على نقطتين لا يتزعزع يقيني فيهما:

أولاً، إن توجيه رسالة إلى إقليم كردستان للحكم على كتاب جكرخوين خارج صلاحيات أي كاتب، ومهنته، بالعكس، إنها تسيء إلى موقعه، إذ حسبه أن ينتقد وينشر كتابه وليدع الباقي لسواه، فما ينيره هو مبتغاه وليس أن يكون حاكماً شمولياً، وهنا مقتل الكتاب، وليته ترك الكتاب دون رسالته المرعبة المحتوى هذه.

ثانياً، نعم، يمكن كتابة مئات الصفحات، آلافها عن جكرخوين نقداً، وعلى أكثر من صعيد، أما أن يجرد من كل ما هو كردي، ورؤية تنويرية، حتى في مذكراته طبعاً، فهذا يعتبر من كبرى الكبائر، إن جاز التوصيف، بحقه، وبحق ما هو أخلاقي وإنساني، وما هو كردي وحق النقد كذلك.

دهوك، في 30-6/2017.

ملاحظة: أولاً أشكر الصديق الدكتور بنكي حاجو الذي نبهني إلى أهمية هذا الكتاب، وثانياً، أشكر الصديق المعرف في الباحث زين العابدين زنار إذ أرسل إلي نسخة الكترونية من كتابه الذي أتمنى أن يكون في إثره الحصاد المعمر وليس المدمر لنفوسنا ورؤوسنا.

صنم جكرخوين في كتاب «سلاطين هفيركان»: بضع ملاحظات على القراءة

رغم أنني تعرضت إلى كتاب نذير جبّو: سلاطين هفيركان، في أمكنة مختلفة في الكتاب، إلا أنني رأيت واجباً معرفياً أولاً وأخلاقياً علي أن أنوّه إلى أهميته في الملحق هنا، بصفة مركّزة، ليس لأن الكتابة تخصه في عمومها، وإنما في نقاط، شكّلت مفاصل حركية لافتة فيه، لا بل أحسب أنها مقتل الكتاب بأكثر من معنى،

أي إن الأهمية المحددة لا تعني البتة جدواه، فائدته في التوازن المعرفي، إنما عكسه، وهي تشير إلى جكرخوين مرة أخرى، ولهذا، فإن هذا الملحق، كما هو ملاحظ يكاد يتركز على شاعرنا جكرخوين، وهو في مقام المؤرخ وناقد التاريخ، إنما وجه الخطورة يتجلى في كونه مرجعاً لكاتب كثيرة، كما لو أنه «يغترف» من نبع التاريخ مباشرة، وقد عوّل عليه كتّاب عرب، أو يكتبون بالعربية، وكرد، كما في حال «باروت- جبو» بالذات، وليس هناك شيء من هذا الشيء، أي في مصداقيته.

أعني بذلك أن هناك نوعاً من التقاسم من قبل جبو مع باروت في الاقتباس دون أن يكلف أحدهما نفسه عناء المسألة عما إذا كان المروي حقيقة واقع أم توهم.

هنا أشير إلى بعض النقاط الرئيسة الجديرة بالتعمق فيها، ومعرفة طابعها الجنائياتي، ومدى انطوائها على حسية المغامرة إلى درجة التهور في التلفيق والتناقض. يتكرر جكرخوين في المقتبس البائس منه في أكثر من عشر مرات، وهذا كثير، حيث إن كل اقتباس يمثل «دوسيه» جنائي» على صعيد الأخلاق العامة فالخاصة.

ينوّه جبو وهو يتحدث عن حاجو الثالث، وما إذا كان احتمى بخاله، مسلماً إياه نفسه، لأنه انتقم لأبيه فقتل ابن جليبي، حسب رواية زازا، أم بعد أن خطف ابنة خاله، حسب رواية جكرخوي، كما رأينا. اللعبة تبدأ من هنا، حين يشدد على رواية جكرخوين واعتبارها (صحيحة تماماً.. وكانت له علاقة وثيقة بحاجو الثالث، وقد كافح في نفس الصف. ص 121):

ربما تكون صحيحة، إنما ليس تماماً، ليس لأنه الأقرب إلى حاجو هذا، ولم يكن، ولا في أي يوم قريباً منه جرّاء لسلوكه المغاير لسلوك حاجو، وإن كانت صحيحة، فلا يعني أنه في رواياته عموماً هكذا «كما يستقرّ من مقتطفات كثيرة منه، وفيها تزوير حقائق وتزييف للوقائع، كما رأينا. إن رواية زازا، وإن لم تصدّق فهي لا تخرج صاحبها، أما رواية جكرخوين، وإن صدقت، لا تؤكد ثبات صدقه.

يبدأ نجم «جريمة» حاجو آغا في البروز/ السطوع، حين يؤكد جبو على رواية الشاعر، مشرّكاً إياه إلى جانب آخرين في عملية التعاون مع الأتراك «ص 130»، أي إثبات جرمية حاجو وتواطؤه مع العدو التركي، للنيل منه، كما رأينا.

في السياق نفسه، واستناداً إليه يأتي التخوين (وأخيراً، ومهما كانت نية حاجو وهدفه، فإنه لم يتخلص من وصمة «العميل» و «الخائن» في أوساط القوميين

الكرد. ص 138). جبو يجزَم هنا، وهذا خطأ، ويعمّم الحكم، وهذا تعسف تاريخي، إذ من الذين يمثّلون أوساط القوميين الكرد ؟ لا جواب دقيقاً هنا.

حين يتحدث عن الإهانة الملحقة بالهفيركيين من قبل الأتراك «ص 159»، كما لو أن جكرخوين كان حاضراً، وحاجو مهزوم، وفي هيئة الجبان.

وحين يظهره عن طريق جكرخوين «عميلاً» مطواعاً للأتراك والفرنسيين «ص 170»، وقد رأينا عدد المرات التي كان يلاحق فيها حاجو آغا من الأتراك والفرنساوية بالمقابل، وجبّو ظهر وكأنه يقطع كتابه ولا يقرأه في عمومته، أي إنه لو تذكّر سلسلة تعارضاته ولو في بعض منها، لانتبه إلى المزلق، إنما الملحوظ هو أن جبو نفسه يستعذب هذه اللعبة، وما في ذلك من سقوط مريع في امتحان التاريخ.

أي حين يأخذ كلام/قول جكرخوين كحقيقة لا تقبل الشك، وهو اعتقاد أعمى. ولحظة التذكير بعبارة لجكرخوين عن أن الكرد أعداء لبعضهم بعضاً، ليكون حاجو في الواجهة (ولو كان حاجو آغا شخصاً متنوراً «متعلماً» لاستطاع أن يوحد الكرد ويحكمهم إلا أنه كان يفعل ما يقوله الأتراك.. ص 171).

وتلك رواية أخرى من رواياته المرصّية، أي هو نفسه من يشير إلى أنه خلاف ذلك في أكثر من مكان في كتابه، وأنه حتى لو تم ذلك، فإن نظرة إلى أسلوب كتابة كهذه تشير إلى أن أول وكذلك آخر من يعارض هذه الوحدة الحاجوية سيكون جكرخوين، جرّاء افتراءات من هذا النوع، أي وهو يطلق الكلام على عواهنه.

وعندما يصف تعرض قوافل الهفيركان وهي من النساء والأطفال للسلب.. «ص 178»، وجبو لا يتمحص روايته، إذ أين كان جكرخوين حينها؟ هل حقاً عايش كل هذه الوقائع؟ فإذا، كيف يمكن تقييمه وهو يعرف الصديق والعدو، من مع هذا ومن مع ذاك؟ أليس الإيغال في الاختلاق لفت للنظر، ليكون بطل المختلقات بامتياز؟

وحين يستعين جبة بجكرخوين وتحسن أحواله وثرائه، وتقصيره في القيام بواجبه ككردي «ص 182»، وليس من تأريخ أو توثيق، وجبو لا يتردد في النقل عنه.

يشدّد جبو من خلال جكرخوين على الذين تعاونوا مع الدولة «التركية» مسمّياً أولاً أمين بريخان.. ولا بد أن حاجو أحدهم «ص 202»، لتصدق مقولة: اكذب اكذب حتى يصدّقوك، حيث استرسال القول لخيالاته غير المنضبطة.

والاستناد إلى جكرخوين في تقبيح سلوك الشيوخ الرجعيين المتريشين، من الكرد، والذين يتمسكون بمصالحهم، ومنهم حاجو آغا «ص 215»، كما لو أن حاجو لم يحسن إليه يوماً، أو يحل بينه وبين الاعتداء عليه في وسطه.

والى نفاق المتاجرين بالقومية الكردية، وازدواجيتهم، ومن خلال جكرخوين مرة أخرى «ص 219»، وجبّو يتمادى هنا في الاقتباس دون الاستفسار عن حقيقة هذه الاسترسالات في الإيقاع بالآخر، أو حاجو آغا بصورة مركّزة، إلى درجة أنه يظهر لي أنهما يتبادلان المواقع، تارة جكرخوين يتقدم جبو، وتارة، جبو يتقدم جكرخوين، سوى أن صاحب الرواية الموضوعة غالباً، كما رأينا هو جكرخوين، وأن الذي منحها حضوراً تاريخياً وأبرز قوتها لدافع في نفسه هو جبو، نفس جكرخوين، وشعور جكرخوين باليتم أو الحرمان النافذ الأثر فيه..

هنا، يمكنني أن أشير إلى نقطة رئيسة، أو هكذا أراها، وأعني بذلك، أن قراءة هذا الكتاب الشيق في بعض منه، والضيق الأفق في الكثير منه على مستوى دقة المعلومة، تعزّز نقاوة صورة المعنى بكتابة التاريخ وعسر هضمه، بمقدار ما تبرز تلك القوة المعكوسة في تفهم التاريخ الكردي.

أما عن النقطة الرئيسية، فقد تكونت من خلال متابعتي للمسطور هنا وهناك، وهي أن أن جكرخوين في محاولاته المتكررة إبراز حرصه على الكردية، وكوني دققت في صفحات الكتاب، لم ألحظ أي حس قومي كردي لدى جكرخوين في سيرة حياته، كونها سيرة «أكاذيبي» جهة المقدّر فيها من المعلومات المتهافنة بمحتواها، لم ألحظ في جكرخوين أي حضور لذلك الكردي المتمسك بكرديته، وليس المختفي وراء ظهور أشخاص، أو متزعم البطولة جرّاء إهانة الآخرين، وإثارة الشبهات حولهم، لا بل وملاحقتهم حتى وهم في القبر.

في سياق النقطة هذه أيضاً، لعلي أقول ودون أي شعور بالمبالغة، وكما قرأت عن جكرخوين في كتب أخرى، أنه لولا حاجو آغا بالذات، وليس سواه، وقد أراد جكرخوين أن يكون قريباً منه، لا حباً به، وإنما ليستثير خياله، وهو يدرك جيداً، أن «بضاعته» سوف تكون دارجة، وإن كانت فاسدة، لأنه تعني شخصي لم يكن مفكك الأوصال، متقلباً، مهزوماً من الداخل، متسول العتبات كجكرخوين، وأرى أن من الضروري أن تظهر دراسة موسّعة تتقّب في مصادر معلوماته، والطرق الملتوية التي سلكها لرير هلوساته، وإضاءة الكائن المتخّم بالعصاب بين جنبيه.

وبغية دعم ما تقدّم، أنوّه إلى مكانة الصور للمنشورة في نهاية كتاب جبّو، وضمناً ما كان لحاجو الثالث من بينها، وقرأتها دلاليّاً:

صورته وهو بالبزة العسكرية الفرنسية «ص 306»، ومغزاها، حيث إن الناظر فيها لا يمكن الحسم فيما إذا كان في الأصل عسكرياً أم لا، من باب التأنق.

صورة نادرة لغلاف كتاب نيكيتين بالتركية بعنوان «المسألة الكردية»، ومطبوع في دمشق، سنة 1934، ومن إصدارات «هاوار»، إنما الناشر هو: حاجو آغا «ص 314»، أليس من قيمة اعتبارية وتاريخية لغلاف كهذا، وصلته بثقافة حاجو آغا عكس ادعاءات الشاعر.

ثمة صورة جماعية لكل من: أكرم جميل باشا، حمزة مكسي، قدري جميل باشا، وهم وقوف، أما الجالس أمامهم، فهو حاجو آغا وبهيئة الواثق من نفسه «ص 317»، أليس من تفسير لصورة كهذه، في علاقة كهذه، أبعد من زيف مفهوم الثنائيات، أو شقليات جكرخوين، والخصومة المشدّد عليها هنا وهناك.

ثمة صورة جماعية تضم شخصيات كردية مشهورة، منها: جلادت بدرخان، وفي «قرية»: تربه سبي «ص 323»، والمقصد هو وجود حاجو آغا فيها وهو جلوسٌ، خلاف الكثيرين، ومنهم جلادت نفسه. أهو تقليل من قيمة الواقفين، أم تعزيز لمكانة حاجو آغا هنا؟

إنها أمثلة أعدتُ النظر فيها، ويمكن لسواي القيام بالفعل ذاته، في مكان آخر، لمعرفة حقيقة هذا الذي، لكن الصحيح، كما تابعت النصّين: الكردي والعربي عندي، هو أنه يستحيل على أي قارئ تأكيد خطأ أي ملاحظة سجّلتها عليه من خلال مثال واحد أو أكثر، ليس لاستحالة التعرض للخطأ، وإنما لأن صيغة الكلام الجكرخويني لا تقبل تفسيرات جانبية إطلاقاً.

زمن حاجو آغا

مقال الكاتب العربي السوري ابراهيم الجبين «زمن حاجو آغا» والمنشور في صحيفة «العرب» اللندنية بتاريخ 19-6/ 2015، يستحق القراءة استناداً إلى ما تقدّم، لأن فيه بوحاً كبيراً، وذاكرة المكان التي تضيء حقبة تاريخية تخص حاجو

آغا، كما لو أننا إزاء شخصية روائية، أو حكاية مؤثرة، شعبية وغير شعبية، لها أكثر من وصلة سياسة ومجتمع، في وسع قارئه مكاشفة أمور كثيرة وكثيرة:

تغيرت عليّ الأجواء في رمضان، بعد أن تم تكبيل الشياطين، فصار يتوجب على المرء الحدّ من انتقاده للآخرين، والتقليل من الحرية في تناول هذه أو تلك من الظواهر في العالم، وخاصة في عالم الشعوب المسلمة، التي دخلت منذ أمس أجواء روحانية عطرة.

ولا يصعب على الإنسان تلطيف الحقائق، في هذه الحالة، كأن يقول إن داعش تصوم وتقوم، ولا تذبح ولا تسلخ، أو أن يقول إن أميركا صادقة في دعم الديمقراطية في العالم وبالأخص حلفائها العرب، وأن السنة والشيعة كالسمن على العسل، وأن برائن إيران، تلك الدولة المسالمة، تريد بنعومة كل الخير للعرب والأكراد، وتناصر المظلومين في كل مكان من أنحاء الشرق الأوسط.

أما العرب والأكراد فهم أمة واحدة، في العراق وسوريا، لا يفرّقهم شيء، يجمعهم صفاء الذهن في رمضان، وتشع من قلوبهم نورانية المقاتلين الذين يرغبون العربي، بعقاله وحطّته، على الانحناء لتقبيل العلم الكردي، كما في الصور المنتشرة، أما عربنا فهم في أرقى درجات التطور والتعايش والوعي الاجتماعي والسياسي والأخلاقي.

ومن مناخات رمضان الإيمانية، أنه كان في الجزيرة الفراتية، رجل نبيل عظيم القدر، ليس كرعاع اليوم ممن يرفعون أصواتهم بالعنصرية والكراهية من كل جانب، تولى زعامة قومه ونال احترامهم، كان اسمه حاجو آغا، وكان صديقاً تاريخياً لأسرتنا في عشرينات وثلاثينات القرن العشرين، داهية وسياسياً محنكاً. قال يوماً للكابتن الفرنسي في الحسكة، كما روى الشاعر الكبير جكر خوين أنه ولأن فرنسا دخلت الحرب، فنحن أيضاً نريد أن نقدم عشرة آلاف مقاتل كردي، عليكم فقط تقديم السلاح والضباط لنا، لكن الفرنسيين ردّوا بأن بلادهم لو وافقت على تسليح عشرة آلاف كردي غير مدرّب، لاكتسبت بذلك عداء الأتراك والعراقيين والسوريين العرب. ولأن مصلحة فرنسا فوق كل اعتبار، فهي لن توافق على عرض الآغا، الذي عضّ على شفّتيه وقال «والله يا جكر خوين إنه الوحيد الذي يقول الحقيقة».

وكان حاجو آغا معتاداً على ممازحة البسطاء من قومه، ليظهر كبرياءهم ونزقهم من السلطة، مهما كانت. وفي ليلة من ليالي الشهر الفضيل، سهر عنده وجهاؤنا حتى السحور، وحين أذن الفجر قام أحد فلاحيه الأُميين لأداء الصلاة، وكان المذهب الشافعي يفرض الجهر بالنية قبل الصلاة لفظاً مسموعاً، فقرر الآغا نصب فخ للرجل، فاخْتَبأ خلف ستارة، ولما وقف الرجل على سجادة الصلاة وقال بالكردية «أز بنيتم أز دو ركعيان جى خودا ره نَمِيج بكم لَسَر نيتا قبوله» (أي ما معناه: نويت أن أصلي صلاة الفجر ركعتين لوجه الله تعالى على نية القبول)، ثم قال: الله أكبر، فقال حاجو آغا بالكردية بصوته الرخيم «قبول ناكي» أي «لم نتقبل منك»، فارتعد الرجل، وظن أن الصوت هو صوت أحد الملائكة، يبلغه بأن صلاته مرفوضة، فأعاد النية من جديد، وحين انتهى من لفظها، كرّر الآغا «قبول ناكي» فغضب الرجل، وصرخ «قبول ناكي في جهنم» ورمى سجادة الصلاة بعيداً مقطّبةً حاجبيه، صارفاً النظر عن الصلاة كلها.

عرف حاجو آغا أن صلاة الجاهل، مثل حرب الجاهل، لا تقدّم ولا تؤخر، فاختصر الطريق من عنده، في ليلة من ليالي رمضان.

عنزة ولو طارت

«حاجو آغا في كتاب محمد جمال باروت: التكوّن التاريخي الحديث للجزيرة السورية»

لافتة:

ربما كان من بين مجموعة مؤلفات الباحث السوري محمد جمال باروت، والمتعدد الاهتمامات الفكرية والبحثية والنقدية، الأكثر لفتاً للنظر، كتاب المشار إليه آنفاً عن «الجزيرة السورية»: جينالوجيا النشأة الحديث، وما في ذلك من فاصل تاريخي بين ما يعنيه «الحديث» من أن هناك قديماً، وهو الذي ينكشف «سرّه»، طبعاً، هو سر عربي بامتياز، وما تلاه، هو الآن، فيما يتعرض له الباحث بمظهره الحديث، أي ما يستبد بالقديم «الأصيل» أو هكذا يبدو الإجراء، بوصفه قلباً له وانقلاباً عليه، ومن ثم احتلالاً، ومن ثم ما يقصي الصفة الأخيرة «السورية» جانباً، فنكون إزاء قضية جنائية جغرافية كبرى من العنوان.

الناظر في الكتاب بصفحاته الألف، وطبعته الأنيقة، يتشكل لديه انطباع، بأنه معمول بدقة مدنية، خاصة إثر قراءة كلمة/بطاقة التعريف به، والذي تقلّب بين عدة مناصب، أو وظائف، وحامل أكثر من لقب مهني، إلا ما يصله بالمرجعية التي أطرته فيما رأى وسمع وقال وكتب، أي: الزاوية العروبية للتاريخ إلى الجغرافيا.

ربما كان من بين مؤلفات باروت العقائدي قبل المنهجي، الأكثر تفككاً وخلطاً أوراق، وغرابة مقاييسات، واستهانة بالمرجع، إلى جانب الاستخفاف بالكتابة، كقضية تأريخ ومسئولية أخلاق، وهو لا يعير عباراته حق التنوير، هو هذا الكتاب بالذات، إن لم الأول والأخير، فنكون إزاء جنحة كتابة في جنحة مكاشفة للموضوع.

لقد صدر الكتاب في شتاء «2013»، عن طريق «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، في قطر، كما تقدّم، ولعلي لا أستطيع أن أقيم نشاطات المركز بإصداراته المختلفة، فهو نشط بها، سوى أن الذي تابعته، وهذا الكتاب بالذات، دعّم تصوّراً لدي بخصوص طبيعة المركز، وهو أنه طارئ على اسمه، حيث السياسات لا تعدو أن تكون سياسة مختزلة.

وأن يصدر كتاب كهذا عن المركز، والنشر في بيروت، وبهذا التوقيت، فإن من المستحيل

تجاهل الحدث السوري الرهيب والمرعب، حيث العنوان بادي الإنس والسكينة، بعموميته الظاهرة، لكنه على النقيض تماماً مما هو فيه وعليه، أي إن ثمة عنواناً رئيساً، أو فرعياً رئيساً ينقص العنوان، من نوع «أوهام الكرد»، أو ما يلي العنوان الرئيس «مزاعم الوجود الكردي في الجزيرة السورية». أرى أنه لو اعتمد صيغة كهذه، ربما كان صادماً بها، إنما لكان صادقاً مع نفسه ومع قارئه، لأنه حدد منهجياً ما يريد خوض غماره، ولا أعتقد أن في الأمر خوفاً «كلا وكلا»، وإنما ما هو أثقل من الخوف منهجياً، حيث اصطناع اللغة التي توقع بالآخر: الكردي: استدراجه، ليكتشف أنه كتاب العروبي في تقريع الكردي الواهم.

ما كان للكتاب أن يظهر بهذا «الزخم» المعكوس، والحد وسرعة التوليفات لولا تصور يسهل التعرف عليه، وهو كيفية الرد السريع على من يدعي بما يدعي جزيرياً من قبل الكردي، قبل استفحال خطره، وقد «طغى خطبه». وأن أتوقف عنده هنا أيضاً، وفي الملحق بالمقابل، رغم تعرضي له في أماكن متفرقة من الكتاب، فلأمرين اثنين:

أولهما، أن الذي شددت عليه هو المتعلق بـ «حاجو آغا» وليس سواه، والحاضر في عموم الكتاب، وإن لم يؤت على ذكره في صفحات مختلفة، من خلال الاستثثار أو التقدير، ولا أخفي أن الذي كان يتحرك تحت قبعة باروت، وفي واعيته هو شبح حاجو آغا بالذات، لأن قراءة ما أثاره باسمه، ودونما عناء في تقدير نوعية المرجع المقروء، أو جهته، أو كاتبه، أو مشرفه، أو منميه، أو لاشعوره... الخ، ولا بد أنه أخذُ علماً بكل هذه التحولات، على الأقل من خلال طائفة تخصصاته وكتابات، قراءة تشير ببنان خاص جداً، وأضطر إلى تلوينه: أمني، أو استخباراتي.

ثانياً، أن الذي استوقفني فيما سبق، وفيما تلا، هو أن باروت، بدا كما لو أنه مكلف بمهمة، وعليه إنجازها بمعايير معينة، من خلال طائفة معلوماتية «تبوصل هدفه، و تعريّ «كردي» الذي يسلب منه «ديار بكر» وليس آمد، ليصبح القادم من شبه الجزيرة العربية، إن صدقنا رواية اللارواية الموثقة إنما نسبة الجغرافيا المستحيل ضبط لسانهم وتشخصيها، وقبل آلاف السنين، أي «عرب الجزيرة» هناك، وليس هنا، وقد اجتازوا الجهات المفتوحة أمامهم، طبعاً دون أن يكون هناك ساكن، أو «آدمي» مقيم حيثما اتجهوا أو استقروا أو «استعمروا»، ومن ذلك «الجزيرة» هنا.

حمى البحث عن «العدو» الكردي:

حاجو آغا المطلوب الإجهاز التاريخي عليه، وعدم ترك أي أثر له، من خلال بنية الكتابة بعنفها الفائنض، ورغم أن راسم الصورة الأكثر قتامة وجهامة وظلاما وانعدام سلامة للكردي عموماً، و«غازي» «الجزيرة» «السورية» خصوصاً، هو المهندس الأمني الاستخباراتي محمد طَلَب هلال بكتابه «المضبطة الجغرافية العروبية» عن وضع طارئ حينذاك، كمرحلة فاصلة كلياً، ما بين عهد غابر تُخَوِّف منه كثيراً «كان الانفصال، والانقلابات العسكرية التي حملت أثر أكثر من بصمة كردية: سياسية وعسكرية، وما قبلها، من خلال السعي المحموم لشخصيات كردية إلى تأكيد وجود كردي لا مركزي، أو ما يشبه الإدارة الذاتية، كما رأينا»، كما لو أن الاستعجال بختم الكتاب، فيما يشبه حالة طوارئ، وتجلّى الأمر هكذا، حيث حالة الطوارئ تلبست المنطقة أكثر من غيرها، تأكيداً على الإسراع بإنجاز المهمة، أي إن مجمل ما كان يحضر له، ويجب الأخذ به بحسابات موجهة، وباروت نفسه يقول موضحاً في الهامش «18» من الكتاب معلقاً على «دراسة» هلال (قدّمت هذه الدراسة إلى المؤتمر القطري في شكل اقتراح أعدته قيادة الفرع «البعث طبعاً». ويشير هلال نفسه إلى أنه اضطر إلى كتابتها في ظل ضعف المراجع، وعلى الرغم من أنه لم يمض على وجوده في الحسكة أكثر من ستة أشهر، كما يشير إلى برنامجه ولا سيما بعد إعلان الوحدة العسكرية بين سورية والعراق في عام 1963 . ص 736).

وجه الاضطراب هو إقرار بلزوم سرعة التصرف، وخاصة في مجريات الأحداث بين القطريين البعثيين في نظامهما حينذاك، أو بداية دخول عهد البعث «العراق- سوريا»، ربما للقيام بمعالجة فورية وسريعة لما كان يُتَخَوَّف منه، حيث الزمن التالي صار بعثياً في القطريين المذكورين، أي عبر تنمية أمنية موجهة، وباروت ربما يقابل هلال في تنمية أمنية بعثية موجهة فيما عرف به في كتابه، إذ إن مسوّغ ضعف المراجع لا يشكّل شيئاً أمام آلة العنف التي تلجم لسان التاريخ أحياناً، والأمني لا يهيم المرجع ليدقق، إنما النقيض ليحترق «أي ليولف على طريقته، وثمة معلومات جاهزة، وما يخص ضعف المراجع، قد يخص أسماء معينة لعشائر كردية وتموضعها، وبعضاً مما هو ضروري لسد الثغرات المطلوبة، أو التمويه عليها، وكون الكتاب بالذات وثيقة أمنية استخباراتية، لمن يلتفت إليها باروت، إنما كان آخذاً بها في يمينه، خاصة وأنه كباحث وناقد تنموي ومؤرّخ بشكل

ما ؟؟ يدرك خطورة كتب كهذه في لاعلميتها وأوهامها وأضغانها، لا أستبعد أن كتاب باروت هو نفسه مستوكد عنه، ويظهر مناخه أكثر سديمية، وضعف مراجع إلى حد كبير، ولا تعتمد لحاجتها إلى مزيد من التفحص.

هنا، لا أرى أي عائق أمام فقرة كاملة، وردت في كتاب هلال عن عشيرة هفيركان، وربما هي العمود الفقري من حيث الحمولة الإيديولوجية المستحدثة في كتاب باروت (لقد تمرست هذه العشيرة في أعمال الشقاوة وقطع الطرق على مر تاريخها، كانت في تركيا على الحدود السورية حيث اشتركت مع عصابة الشيخ سعيد في ديار بكر ثم هرب رئيسها حاجو آغا إلى العراق حيث كان مطلوباً من قبل الأتراك فلم تقبله الحكومة العراقية آنذاك، عاد إلى تركيا خلصة وكان يقبض عليه ويفلت من السجون بصورة تحير العقول حيث أخيراً تصاحب مع ضابط استخبارات تركي وأخذ يستغله هذا في أعمال الشقاوة ضد السوريين الآمنين في المنطقة آنذاك إلى أن قتل أحد الضباط الفرنسيين في سورية وحمل رأسه إلى والي ماردين بغية استجلاب رضا. ولكن الحكومة التركية كانت أوعى وأبعد من غيرها، حيث استنفذته ومقدراته، أخذت تطارده مع جديد إلى أن وجد صدرأ رحباً فانتقل إلى سوريا واستقر في قبور البيض هو وأسرته رغم إلحاح الأتراك على السوريين بإبعاده إلى الداخل، وعشيرته تتمركز الآن في قبور البيض والقامشلي وقسم في الحسكة من أولاده. وهذه العشيرة اليوم لها من المكانة بين الأكراد في تركيا وسوريا وحتى العراق مالها من القدسية والهالة من الاحترام، وتعتبر رأس حزبهم البارتى بل حتى الشيوعي فهم على دين الشيطان وعلى مذهب إبليس يعملون ويتعاونون ويجهدون في سبيل إنشاء الوطن الكردي (كردستان) يقدر عدد عائلات هذه العشيرة بأكثر من ألف عائلة كلها على استعداد للتضحية والفداء بإشارة من أبناء حاجو الأحياء الآن ويقدر عدد المسلحين تسليحاً خاصاً فيها بحوالي خمسمائة شخص، هذا عدا عن نفوذهم على بقية العشائر الكردية، هذا وقد كان قديماً لدى المسؤولين في العهود الغابرة استثمار الناحية الدينية لكونهم إسلام فاختلاط الناحية الدينية بالناحية القومية قديماً عن قصد عند المسؤولين مما جعلهم يتساهلون ويأخذون جانب الجذب عن طريق الاهتمام بهم. أما اليوم فلا الدين ولا غيره من العوامل يمكن أن تزيل ما رسخ في أذهانهم من مبادئ الحزب البارتى، وكما قلنا لقد ساعد على ذلك الوعي العلمي الذي ساهمنا به بنية تعريبهم وعلى سبيل المثال يمكنني أن أسرد حادثة صغيرة وقعت:

كانت معلمة عربية في قرية كردية ولد عند تعلم الأطفال وتسكن في بيت ، لها جارة كردية أمية وغير متعلمة حتماً ولتلك- ولد عند المعلمة، فسألتها عن ابنها في المدرسة فأجابت المعلمة لأبأس به لولا أنه ضعيف في مادة الديانة، وعلى الخصوص قراءة القرآن، فما كان من الجارة الكردية إلا أن قالت مالنا وللقرآن نحن الأكراد ونستطيع الاستغناء عن القرآن. ولدى الجدل أبرزت المرأة الجارة ما أدخل في روعها من تعصبها لقوميتها الكردية فهذه حادثة أن تدل على عدم اعتبار الدين الذي كنا نعتقد قديماً بأنه رابط بيننا وبينهم. فإذاً ليس من مجال مطلقاً ولا بأية حال من محاولة رآب الصدوع والمعاملة الإنسانية لأننا قد تدابرنا في الاتجاه - وجاوز السيل الزبا، حيث أصبحت كل محاولة للتسوية والاستمالة فاشلة حتماً وليس أمامنا إلا المعالجة الجذرية. من هنا نقدر خطورة أسرة آل حاجو زعماء قبيلة الهفيران الكردية وما يتبعها من أسر وقبائل صغيرة في فلكها، وما هم مصممين عليه ومدى علاقتهم الحالية مع البرزاني والقوية والمتينة المدعمة بالوثائق والرسائل المتبادلة فيما بينهم. وعلى هذا بالنسبة لهذه القبيلة أو الأسرة فلا بد من أن تغير مكانها انسجماً على الأقل مع بعد نظر الأتراك عندما طلبوا منا قديماً إبعادهم إلى الداخل على الأقل بـ(150 كم) عن الحدود التركية - فرفضنا ونحن نطلب مقترحين ترحيل تلك الأسرة بكاملها من مكانها إلى الداخل. على الأقل انسجماً مع ما يجري في القطر العراقي الشقيق من جهة وحفاظاً على أمن الجزيرة من جهة أخرى وخاصة وإن شبابنا في شمالي العراق هم الآن في وضع المقاومة الكلية فنحن مع الشاعر الذي قال:

لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها إن أنت شهماً فأجمع رأسها الذنبا⁽¹⁾.

قبل الانتقال إلى صلة المقتبس بالمناخ الفكري السديمي لباروت، ثمة ما يجدر التوقف عنده:

أولاً، ثمة اعتراف كامل ولافت بالدور الكبير والخطير لحاجو، من خلال نبذة القول أو الكتابة، حيث إن التوصيف الذي خصه به، وهو ضابط استخباراتي يعزز من مكانته في الطرف الآخر.

(1) هلال، محمد طلب «ملازم أول، رئيس الشعبة السياسية بالحسكة»: دراسة عن محافظة الجزيرة من النواحي السياسية- الاجتماعية- القومية، منشورات رابطة كاوا، بيروت، ط1، 2001، صص 43-46.

ثانياً، وهنا يمكن التشديد على نقطة غاية في الأهمية، لا بد أنها تشكل إدانة كامل بأكثر من معنى ليس للحركة الكردية السياسية وحدها، وحينها كان عمرها نصف عقد من الزمن «خمس سنوات»، وإنما كل من لهم صلة بعملية التاريخ السياسي والاجتماعي الكردي في سوريا، وفي «الجزيرة» ضمناً أيضاً، وتقصيرهم الكبير، وهم يتجاهلون إلى حد مريب ما كان عليه حاجو في زمانه من حيث النفوذ في المجال الاجتماعي، أي في إشارة هلال إلى مكانة حاجو كردياً حينها «اعتماداً على عبارة: القدسية» وهي في بنيتها لا تؤوّل، إنما تفصح مباشرة عن الذين كانوا يعرفون الكردية بنموذجها الأكثر حيوية إنما من خلاله، ومن جاؤوا بعده من أبنائه، ولا بد أن «أولي الأمر» الكرد من سياسيين ومتنفذين وقتذاك، تنبّهوا إلى خطورة هذا «الشقي؟» كما يظهر عليهم أكثر مما قدرته ربما دولة البعث نفسها، من خلال عملية ليس التهميش والتعتيم، وإنما السعي إلى إطلاق العنان لأقوال تشهيرية، وربما كان الذي تفوّه به جكرخوين اختلاقاً، من أثريات المرحلة تلك، ليضيفوا على حركتهم قيمة ومن ثم مشروعية وجود واستمرارية، خصوصاً وأن تمزقاتها في مقام وضع العربية أمام الحصان.

ثالثاً، ثمة الجانب الاجتماعي، أو الثقافي العملي والتحرر مما هو ديني بمفهومه العربي الخاص، على أصعدة مختلفة: اجتماعياً وتربوياً وسياسياً، من قبل آل حاجو عموماً، وربما أمكنني القول أن الكثير مما يخص هذا الانفتاح الكردي على خصوصيته في اللباس وإطلاق الأسماء على المواليد الجدد، والموقف من الأعراف المأخوذة بصبغة دينية، يرتد إلى تأثيرات حاجو آغا، وصلاته بأبناء بدرخان، وفي الواجهة: جلادت وكاميران قبل غيرهما.

رابعاً، مدى عمق الروابط السياسية والاجتماعية والثقافية لحاجو آغا ومن جاء بعده من أولاده بالمحيط الاجتماعي والسياسي والثقافي في المحيط الكردي بالذات... الخ.

بعد ذلك، لعلّي في كامل يقيني على أن باروت مفتون بقول محوري كهذا، وأن جماع «أفكار» كتابه هو هذا الذي تمثّل في المقتبس، وما في ذلك من تكثيف لطعن المأخوذ بشهوة التمثيل بالآخر في سواء، لحظة الربط بين دلالة مفردة وخلافها، أي كيفية انبناء المقتبس في مجموعه.

إذ إن الطاقة الاستنفارية تسمّى محتواها، من خلال هذا الرصد اللافت لنسيج العبارات سمّية.

أو ليس ما تردد في المقتبس من تشهير على أنه إشهار بخلافه، أي فوييا- الكردي؟ وفي الوقت ذاته مضي بالقول الفصل إلى الحد الأقصى من الهذر بعائده النفسي، عندما يترجم انفراطاً في الشخصية تحت وطأة سعار ثبات النظرة إلى صورة أو مفردة هي علامة جغرافية- تاريخية في تمام المردود، لأن المواجهة السوية تنتفي جرّاء هذا الاستفطاع لوجود الآخر، أي اعتراف لا أصرح أو أفصح منه بمكانة المشهّر فيه، وصعوبة في النيل الواقعي منه، فيكون الكلام حلاً، في بلاغة معهودة تاريخياً، حيث المسمّى شيطاناً ومستقبلاً، أي مؤبداً بقوته التي لا تقاوم.

أليس ما يمضي إليه هلال، وما يشدّد عليه تلميذه النجيب في الرؤية الفعلية إلى الكردي وحاجو وآله، يكون اعترافاً بخطورة دوره، أي بمكانته النافذة على مستوى الحراك الكردي؟

إن التأكيد على «إبليسية» الآخر، وهو الحد الأقصى من التعبير عن التعريف به بوصفه شديد الخطورة، وقد جرى تهويل خطورته، إنما هو في الجانب الآخر إبراز لدوره، وهو ما يجب أخذ العلم به.

في النطاق نفسه، لوحظ مدى توغل النشاط الاستخباراتي في الداخل، أي ما يصل الاستخباراتي هل بالمعلمة، وما يصل المعلمة بالدائرة التعليمية، وما يجعل المجتمع في عمومها في الشبكة الاستخباراتية، إنما أيضاً، ما يفصح عن بعد قومي كردي جهة التذكير بالمرأة «الأمية»، وهو يعني الكثير لمن يتعقّب ذيول القول: إذا كانت الأمية هذه بهذا المستوى من التعامل مع قضيتها، وفي التعبير عن كبريتها، فكيف بالمتعلم أو المتعلمة؟

وفي العودة إلى حاجو بالذات، هل علينا أن نكدّب تاريخاً يعترف فيه من يريدون شطب كل ما يصل الكردي به، بشيطنتهم، وهم بذلك يمدحونهم، لأن «شيطنة/أبلسة» الآخر ليست أكثر من الاعتراف القسري بنفوذها؟!

عداء لا يقاوم:

وأن أشدد على نقطة واحدة، فلأن النقطة هذه تمثّل في بعض جلي من كلام الكتاب حقيقة المتشكّل خط دائرة، وأن ليس من شكل هندسي، أو كتابة إلا ويكونان في الداخل، بما أن حاجو آغا هو المعرّز بهذا التوصيف والتعريف

والتوظيف الاعتباري شراً مستطيراً، وتأكيد استثنائية لافتة في بنية الاسم بمفهومه الكردي، القومي، والكرديستاني.

أي لحظة التقابل بين السوري وصفته: القومية والعروبية بالذات، وما في ذلك من إقصاء لما عدا العربي بعيداً عن التشارك في مبدأ إدارة السلطة، حيث إن السوري لا يعني إطلاقاً مجرد التواجد في نطاق الحدود السياسية، وإنما معرفة حصة كل فرد من الممارسة السياسية للسلطة بالذات، وموقعه من الإعراب القانوني والدستوري لكل ما ينظم أمور البلد، حيث إن الشعور بالدونية، أو الغبن، أو التهميش، يعني طغيان أحادية النظام السياسي وقومويته بالتحديد.

يبقى علي أن أثير بعض المسائل التي تنتمي إلى الخانة المفهومية للاسم وما الذي أبقاه بهذا البروز، وأعطاه هذا المد، بمقدار ما سيده في القوة الدلالية حتى على النابذ: العربي له.

شرف الاسم، تلف النقيض:

من خلال عملية إحصائية بسيطة قمت به، مستفيداً من كتاب باروت، تبين لي أن اسم حاجو آغا ورد «46» مرة، وأكثر، وفي الصفحة الواحدة لعدة مرات أحياناً، وهو رقم قياسي لا يعادله رقم آخر لا في لائحة الإيجاب من الأسماء الأخرى ولا السلب فيها، رغم أنه ورد لأكثر من مرة في الصفحة التي تضمنته أحياناً:

في الدرجة الثانية: السلطان عبدالحميد «28» مرة، وأديب الشيشكلي «27» مرة، وخالد العظم «22» مرة «ودهام الهادي» 21 مرة...

كردياً، تكرر قدري جميل باشا «18» مرة، وجكرخوين «17» مرة، ومحمود ابراهيم باشا «14» مرة.

أما شيخ طي، فقد تكرر اسم محمد عبدالرحمن «15» مرة، ويعادلة فيصل الأول، ويتلوه في الترتيب أكرم الحوراني «14» مرة...الخ...الخ

يعرف باروت، ومن يعمل في حقل التحليل النفسي، أو هكذا أقدر، ما يعنيه استئثار بالترتبة الأولى في وضعية كهذه، من تنازل عن القوة وسياديتها لمصلحة الآخر الذي أعلنت عليه الحرب في خافية الباحث أو لاشعوره، عبر مفهوم دوراني لا يستطيع فكاًكاً من شبح تلبسه به.

تُعزِزُ لما أشهر من كلام داخل في نطاق زمرة معاني الاسم، يتحدد المستقبل أو المدنس كونه شيطانياً، وما يعنيه هذا التركيب بين البشري وما ليس فيه، ربما لأن في حاجو آغا سهم تأريخي ونسبي من الإيزيدية، أو ما يصله بالزرادشتية، ومكانة الشيطان كشر محض، أكثر مما أرادته، أي حيث يسلم له بالنفوذ والبقاء بمجرد تكرار الاسم بالطريقة هذه.

تُرى، ما الذي يصل ما النسب المعرفي لكل من هلال وباروت غير هذا الاشتراك في التهويل من شأن الآخر، وما يفند بذلك كل دعوى مقامة ضده؟ أي زيف المعارض في الناقد تماماً.

كما تعقبتُ خيوط اللعبة النسبية هذه في صفحات متفرقة من الكتاب، فإن الممكن قوله هنا هو أن سعي النسابة العرب إلى تأكيد ثقافة نسبية كهذه، لا ينطلق من وضع آمن أو صحي، لعدم وجود أي دليل مادي أو جغرافي داعم، إنما هو مدماك قوة متصورة في لحظة تاريخية ما، ألزمت المعني بالثقافة العربية-الإسلامية على أن يكون طوع أمرها سلطوياً، ليكون له اعتبار، وهو ما شهدنا تشديداً عليه في أوج التعبير عن ذات مأزومة بالمفهوم العربي وبأدوات عقائدية، أعني إيديولوجية تحزبية: بعثية بصورة رئيسة، إمعاناً في تبديد كل أثر للآخر المحسوس والحاضر بثقله: الكردي وخلافه، وفي العراق وسوريا: توأم العقيدة البعثية المتشددة في هذا المقام، وممارسة مسح لتاريخ كامل، بزعم «إعادة كتابته من جديد»، ووهم المحاولة في ردع ما كان.

إذ لو سائرنا منطق الكاتب على الأقل، لكان في الإمكان القول بلسان باحث مدقق في فحوى هذا الجانب الخطير والمقلق في الوقت نفسه: الأصول/النسب (وكل إيديولوجية قومية استفادت فائدة كبرى من نوعين من الأساطير، الخاصة بالأصل النبيل الذي انحدرت منه الأمة، والخاصة برسالتها العظيمة، ومن المشكوك فيه أن يكون هناك شعب لم يدع أنه من أصل نبيل بصفة خاصة، على الأقل في مرحلة معينة من تطوره.. واعتبار الآخرين محقرين.. وكان الفرانك من سلالة «فرنسيون» الابن المزعوم لهكتور.. وكحال إسرائيل والشعب المختار..)⁽¹⁾.

(1) هرتز، فردريك: القومية في التاريخ والسياسة، ترجمة: عبد الكريم أحمد، مراجعة: إبراهيم صقر، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2009، ص 27.

فالمكان جار اصطفاؤه أو تحويله بمعنى أدق، وليس اختباره، وفي منطق اشتهاء العربي المعتد بنفسه، وفي محمية الجغرافيا التي يورثها اسمه أو خاصته، لا أسهل من التفاف على حقيقة القائم بالمرغوف فيه، أي من خلال منطق التعامل على حسن التعامل، فيكون الكردولوجي نظير صورة مركبة في واعية الكاتب العربي، وليس ما يكون عليه في الواقع والمستقل عن سيطرة مؤثراته⁽¹⁾.

من جانب آخر، فإن هذا الإدمان على معاودة إثارة موضوعة النسب العربي للكرد، ليس أكثر من توسيع مساحة المواجهة مع الذات وضعف ثققتها بنفسه، وبصحرائها القاحلة، فكأن الإيقاع بالآخر إثبات للذات المتوهمة على أن شيئاً في اليد بفضيلة تم تخيلها: ذات تتوهم وتتيقن بذلك، خاصة بعد الخروج من قفص الصحراء إلى رحابة الآخر، وإيداع الآخر في القفص الصحراوي، وما في ذلك من تأكيد ضمان نفسي وهمي بالمقابل، أي (إن للتصورات الأولية العربية عن الكرد لها علاقة بأزمة الهوية التي أصيب بها العرب على المستوى السياسي وتجسدت في سقوط الأمويين، ثم بعد ذلك تجسدت في التفتت والتفكك الدائمين لسلطة العباسيين. إذا، التصور عن الآخر، كما في التصور العربي الأولي عن الكرد تصورٌ جاء نتيجةً نوعيةً لأزمة، وقد ظهر التصور المذكور لكي يؤسس نقطة تشابه لا نقطة اختلاف أو تقاطع. وهدف التصور هذا هو الشروع بتوحيد الأنساب، وبواسطة توحيد الأنساب و لن يكون للكرد مجالٌ ليفكروا في هويتهم الذاتية كقوم مختلفين عن العرب، ولا سيما وإن العرب الأوائل كانوا يُولون الأهمية الكاملة بالأنساب، إذ كانوا يعتقدون أن النسب يثبت هوية الأشخاص)⁽²⁾.

مقصد الكلام في التاريخ، هو إمكان التعرض له من خلال ما يؤكده لا ما يفنّده، حيث يورد روايات مختلفة، إنما ذات مرجعية واحدة في «عربية» نمسب الكرد هنا وهناك، وتلك علامة فائقة الطرافة والعنف الإيحائي، حيث يرى من هو حي ومعاصره وينفي هذا النسب فيشدد الباحث «باروت» وغيره عليه، كما لو أن إلزامه بنسب عربي طمأنة له على أنه عربي، وهذا التنسيب يشمل من هم معروفون من الكرد للالتفاف على البقية، أي تجريدهم مما يخصهم في تمايزهم،

(1) ينظر بحث د. عبدالفتاح بوتاني: نبذة عن الكردولوجيا العربية العراقية 1932-1970، المقدمة، مخطوط، لم يطبع بعد.

(2) سيويلي، ريبوار: القفص الحديدي، أو لماذا أصبح عراقياً مرة أخرى، السليمانية، 2003، نسخة مصورة، ص 7.

كحال الأيوبيين، وكما هو مثار في الكتاب (وحيث بزغت الحقبة الأيوبية، كان هناك عديد من الأمراء الأيوبيين يقولون بأصلهم العربي، كما كانت الفئات الكردية غير السُّنية مثل اليزيديين تتنسب في مفهومها عن نفسها إلى الأمويين العرب..ص 47).

أولاً، عند النظر في مثال كهذا، وهو مفيد، وليس في مصلحة باروت ومن معه، والذي أحال قارئه إلى مرجع عتيق وهو «الأكراد في حقبة الخلافة العباسية» «لأرشاك بولاديان»، حيث رجعت إليه، ولم أجد في المحال عليه ما يثبت ذلك أبداً، فثمة ما قبل الكلام وما بعده، حيث إنه ما أن يأتي على ذكر رواية حتى يستكملها، ويفصح عن زيفها أو خطورة الاعتماد عليها.

وحتى بالنسبة للمؤرخ العربي وناقد التاريخ، لا أظن أن هناك باحثاً عربياً حقيقياً في هذا المجال واعتبر، مثلاً، رواية ابن يقظان أو ابن الكلبي، لأنهما نسّابان مزيفان مشهوران في منظور علم التاريخ، وبالنسبة لبولاديان، مثلاً، مرة أخرى، يقول عن أن جميع من زعموا بالنسب العربي للأيوبيين (أكّدوا معاً، في الوقت ذاته، أن سلالة الأيوبيين تعود إلى قبيلة الروادية الكردية..).

في نقطة ثانية، ثمة ما هو ذرائعي، أي (أن نظرية الأصل العربي إلى جانب الإسلام كانا يمنحان الأيوبيين سنداً مأمولاً لتوسيع عملياتهم العسكرية- السياسية في العالم الإسلامي).

ومن ثم ما يدعو إلى التأمل والتحرّي في أصول الكلام، وباروت يكره التأمل لتعارضه مع حسية المباشرة (سنح عدم دراسة موضوعات المؤلفين العرب من وجوها المختلفة وبشكل منقوص من قبل بعض المؤرخين العرب المعاصرين فرصة لاعتبار سلالة الأيوبيين ليس من أصل عربي فحسب، بل من قبيلة الروادية أيضاً...⁽¹⁾).

وفي وثيقة تاريخية قديمة، يشير عبرها الباحث التاريخي والمؤرخ محسن محمد حسين، بصدد وضعيات نسبية كهذه، كما في حال الأيوبي، يستعين بأبن خلكان ويبين بقولته على زيف دعوى من هذا النوع، وما في ذلك من اضطراب في عقل المنادي بذلك أصلاً.⁽²⁾

(1) بولاديان، أرشاك: الأكراد في حقبة الخلافة العباسية، ترجمه عن الأرمنية: د. الكسندر كشيشيان، دار الفارابي- آراس، بيروت- أربيل، ط2، 2013، ص 91- 92 .

(2) حوارات مع الدكتور محسن محمد حسين حول نتاجه في التاريخ والفكر: الحضارة وفلسفة التاريخ، أجراها: سعدون هليل، دار الجواهري، بغداد، ط1، 2017، ص121.

وأرى من هذا الموقع النقدي أن تكثيفاً لمقولة الأصول العربية لجماعات اشيّة مختلفة في المنطقة من مجمل الساميين، ومن ثم الأمازيغ، والأقباط، والكرد ضمناً، يترجم تخوفاً مما لو أن الوضع ليس كذلك، وبهذا سيبقى هناك القليل القليل جداً من يمكن أن يكونوا عرباً، ودون إمكان الجزم بذلك، إن استرجعنا انقراض العرب «الأقحاح» كما يقول نسبة العرب، وجرّاء ذلك توسّع الدائرة الجغرافية والديموغرافية النسبية تجنباً لاختناق غير متعود عليه.

أليس ما يواجهه به الكرد ينطلق من هذه الزاوية الضيقة؟ أليس المتردد عن حاجو، في مجمل ما يصور به، ويسند إليه في تحركاته، وما يوصف به قيمياً، يعزز ما انطلقنا منه ؟

الاصطناع المقلق:

في اصطناع التقابل بين «مدينة» الديار بكرليين، حيث يحضر آل جميل باشا، و «قبليّة» الهويركيين «الهفيريكيين» حيث يحضر حاجو آغا «ص 99»، ثمة خطورة تتسبب تأريخية، ومن ثم عمرانية، وهي مختلفة، لأن ما كان تأزماً في علاقة معينة معينة، لم يكن كذلك لاحقاً، أي ما يشد الواحد إلى الآخر، عدا عن أن سؤم الشائبة مثل هذا العقاب الموجّه وكأنه حقيقة، إنزال بالمفهوم من فضاء التاريخ الرحب إلى «زابوق/زقاق» جغرافياً غاية في التوحّم، وكوني أحد شهود هذه العلاقة، ولو فيما بعد، بين الجماعتين، وتغليب الجوهرية على العرضي، وفي الوقت الذي يفصح هذا التباعد «وليس التباعد» عن رغبة مؤجّجة ناشدة لخلاف تاريخي لإحكام الطوق على «بدائية» حاجو» الهفيريكي، وليس حياً بالدياربكرلي إطلاقاً.

وفي الوقت نفسه، فإن المهم جداً، هو السؤال عن حقيقة المرجع المعتمد هنا، وهو جكرخوين نفسه، وقد تعرّضنا له في أكثر من سياق: تاريخي واجتماعي وثقافي ونفسي، وتجلّى عن أن الكثير مما يسمّيه جكرخوين لا وجود له إلا في متخيله «وهمه»، ليس بالرجوع إلى تواريخ أخرى، إنما بلسانه هو بالذات، ومن خلال المقارنة، أي تناقضات هائلة جداً، إلى جانب كراهية نفسية تخصه، سبّبت له هذه المشاكل ولغيره، عدا عن أن المترجم إلى العربية من كتابه، لا يشمل كل ما هو مسطّر في النص الكردي، إلا أن مشكلة باروت الكبرى والعارية، هي أنه يصدّق جكرخوين، ليس لأنه مؤمن بما يقول، بمقدار ما يصدّقه حيث لا مناص من ذلك، طالما أنه يقدّم ما يفيد في كتابته بحثه،

ولو أنه كُلف نفسه ولو لبعض الوقت بالمقارنة بين بعض من كلماته المتناقضة في الترجمة العربية ذاتها، لهاله الأمر، ولكان أقل خبطاً وغلطاً وشططاً.

يظهر ذلك أيضاً، في الإشارة إلى مدى تبعية حاجو آغا للأتراك ممثلين في شخص الضابط الحدودي اسماعيل حقي «ص 152»، وعدم التأكد من حقيقة مرجعه أو مصدره، أي إبراز نفوذ الضابط التركي، ليس حياً في اسمه أو اثنيته، وإنما كرهاً في الكردي حاجو، وما في ذلك من تقيّة الكلام، وفي الوقت الذي تتكرر عبارة «عشائرية» حاجو، أي سهولة انقياده ومكرّ الشبهة.

ولو أن باروت امتلك الحد الأدنى من الوعي «الوطني» والقيمة المعرفية للتعبير النقدي، لتجنب استعمال عبارة «مذبحة بيان دور» والمرتكبة من قبل حاجو آغا «ص 153»، وهو هنا يظهر حرصه اللاوطني على وطنية الفرنسي، وهناك على وطنية متركة لاسماعيل حقي، وبين مطرقة هذا وسندان ذاك يتحرك قلمه بمزيد من العمه الكلامي في تعقّب «غريمه» التاريخي.

وباروت في بعض من انتروبولوجيا الكلام المشعوذ، ونصف من وصف الاثنوغراف في جهاز أكثر على عشائرية حاجو وصلته بمحمد عباس وقد ثار للأخير «ص 154»، وهو ثار يحسب على حاجو وليس لمصلحة قريبه العشائري عباس، إذ يظهر لانضباطية الهفيريكي، أي جانب الزعامة فيه، كما لو أن عصعوص الفتنة على جانبي «الحدود في ركابه، حيث يدار ولا يدور، يفعل ولا يتفاعل، وتلك تغريبة عربية مستحدثة، عندما ينفذ عمليات خطيرة كهذه، دونما نظر في إرادة معرفة المكان وأهل المكان، ومن يقوم بالتحرك في المكان.

لاحقاً، وبعد صفحة يقدم متحالفاً مع شيخ طي «ص 155»، سوى أن السابق يشد إليه اللاحق، أي إن التحالف هذا على حساب الهفيريكي، ويتحرك بناء على إملاءات. أيعقل ذلك ؟

يعيدنا هذا الاستخفاف بسلامة الاسم وصدقية المعلومة إلى ما تعرضنا له سابقاً، كما في تناوله لـ «ثورة النورسي 1925. ص 210-212»، والصحيح «ثورة سعيد بيران»، ولو أنه أخطأ في تسمية واحدة، اثنتين، لكان هناك بعض من التبرير، سوى أنه واضب على هذا الربط بين الاسم العَلَم «سعيد» و «النورسي» نسبة إلى النورسي المتصوف صاحب «رسائل النور»، وهو ضرب آخر من ضروب ابتداع

نسب جغرافياً غاية في السوء والتعامل، لأن الحديث يتركز على الشيخ سعيد بيران وثورته سنة «1925»، حيث تناولناها سابقاً، والمهزلة «حيث أضطر إلى استخدام هذه المفردة» جرّاء هذا التخبّيص في سرد المعلومات «حيث يجري الخلط بين ثلاثة شيوخ، لكل منهم مقامه وموقعه: الشيخ سعيد وثورته سنة «1925»، وجمعية «خويبون 1927» وإسهامها في ثورة «أكري-آارات-1930»، والشيخ سيد رضا الذي ارتبط اسمه بثورة «درسيم 1937»، ويبقى الشيخ النورسي بعيداً عن الاثنين.

لكن باروت يربط بين «خويبون» ودرسيم، وهو عته تاريخي في سطحيته، ويربط بين عدم مشاركة الأكراد العلويين في ثورة الشيخ «النورسي» بتعبيره بسبب سنة الأخير «ص 751»، ولا شأن للأخير أيضاً بدرسيم على طريقته، وبالعكس، وتالياً حين يمرر معلومة عن (لجوء القادة الخمسة «لثورة درسيم» إلى الجزيرة. ص 752)، دون ذكر أسمائهم، وهو خبل آخر في الكتابة، حيث يورد جريدة «الناظر»، ودون التعريف بالمصدر وصلته بالمستجدات..

هكذا الحال مع حاجو والخزان المعلوماتي المثقوب في واعيته، والتسرّع في التسطير دون ترو، أي إنه لم يقدم على صعيد التاريخ، إلا ما يشوّهه، وبما لبّؤس الناقل عنه وهول الحصاد!

يحضر هنا قول بيشكجي إزاء تصرفات تحت زعم «تأريخية» كهذه، وصلتها بما هو إيديولوجي وعلى أعلى مستوى من التصلب والتعزّب والتقولب أيضاً (وإذا ما أكدنا على أن الأرض تدور، فذلك لأن بالإمكان البرهنة على ذلك باستخدام معايير قابلة للتحقيق. فما العمل إذا ما وجدت إيديولوجية رسمية تمنع التأكيد على أن الأرض تدور قائلة «أن التأكيد على أن الأرض تدور عمل خياني خطير وتعاون مع العدو الأجنبي، وأن الإصرار على أن الأرض تدور عمل يعارض مصلحة الشعب، وأن من يقولون بأن الأرض تدور يقلقون سعادة الشعب وآماله في الرفاه، وسوف يعاقب هؤلاء الأشخاص والمؤسسات بطريقة قاسية جداً. وسوف تقطع رؤوس أولئك الذين يتجرأون قائلين «أن الأرض تدور»...هنا يواجه الباحثين في ميدان المجتمع والتاريخ ووضعهم أمام خيارين: الخضوع لقواعد الإيديولوجية الرسمية والتظاهر بالاعتقاد بأن الأرض لا تدور، أو التأكيد على العكس وتحمل النتائج⁽¹⁾.

(1) بيشكجي، اسماعيل: كردستان مستعمرة دولية، ترجمة: زهير عبد الملك، APEC، السويد، 1998، ص 121 .

أي يجري توقيف الأرض خشية أن تظهر كردستان في نقطة ما، أو ينبري كردي بلباسه التقليدي مفنداً ما يقوله باروت، وهو ما يعرف به العلم الذي ينصاع لسوط الإيديولوجيا اللاسع.

ليت باروت يؤمن كأني عالم، كأني واع سليم في ملكاته العقلية والنفسية بأن دوران الأرض حقيقة واقعة، لأدرك على الفور أن ثمة جغرافيا لها تسمية أخرى، بمفهومها الكردي، ولتحرر قليلاً من لوثة الإيديولوجيا الرسمية التي تملكته.

ذلك يذكّرني مجدداً على طريقة القائل بأن (الأحداث تعني للبعض المجد في حين أنها تعني للبعض الآخر المذلة)⁽¹⁾.

وفيما انطلق منه باروت في جمهرة تسيبائه، وبصدد حاجو آغا هنا، ينبري المسكون بـ «الغربة المقلقة»، حيث إنه «أسير الحجرة المعتمة» على مستوى الوعي المقارب.

تقودنا فكرة التسيب إلى أي نقطة أخرى، حين يتحدث باروت عن البنية الاجتماعية – القبلية لهفيركان، كونها مؤلفة من كرد مسلمين وإيزيديين ومسيحيين «ص 238»، وهذا يقلقه، كما يظهر، بما أن الذي يتعرض له هو أن يعرّي خواء هفيركان غير المنسجمة في الداخل، وأن حاجو آغا الذي يستبد بها، إنما كان يحاول تأكيد استبداده في تنوع، مفكك في بنيته، وأرى أنه لو كان أميل إلى العمل البحثي لمأرس قراءة انتربولوجية وحتى تلاحمية بين مكونات هفيركان ليس لأنها اتحاد نادر، فثمة اتحادات قبلية أخرى في الجوار «المللي، مثلاً»، وحتى على مستوى المجتمعات العربية المعروفة، فإنها لا تخرج عن هذه الصيغة في أساسها، وقد توسّعت⁽²⁾.

نجد استمراراً آخر لنوعية التحالفات التي يمثّلها حاجو هذه المرة، وفيما بعد، عبر «خوبيون» مع حزب «الطاشناق» الأرمني، وبرعاية فرنسية «ص 263»، وهو مثال آخر، لتعزيز فكرة خارجية هفيركان، ولاسوية حاجو في أنشطته، أو تنقله بين الجهات، رغم أن جملة الأنشطة التي تُسمّى لا تنسب إلى حاجو وحده، كـ

(1) ريكور، بول: الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة وتقديم وتعليق: د. جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، 2009، ص 138.

(2) ربما كانت الكتب الثلاثة عن المجتمع والدولة في المشرق العربي- المغرب العربي- الخليج العربي، لكل من- وبالتسلسل: غسان سلامة- عبد الباقي الهرماسي- خلدون حسن النقيب، مفيدة في قراءتها لمعرفة بنية القبيلة عربياً.

«خويبون» إنما هو عضو، وفاعل فيها، لكن المشتف من الكلام، هو أن الكرد غير قادرين على تمثيل أنفسهم، على ضبط جهودهم، على القيام بما هو مفيد لهم أولاً ولغيرهم، فيكون اعتمادهم على غيرهم، وهنا يكمن فشلهم المستمر.

لاحقاً، وفي مثال يسوقه باروت عن قصة/حكاية منح قريتين من قبل حاجو إلى جكرخوين، وما جرى بعد ذلك من مشاكل لم جكرخوين لا أهلاً لحلها، ولا كان أهلاً لأن يدير شئون «قريتيه»، واللافت هو تذكير باروت بأن منح القريتين كان بمثابة رشوة للشاعر لينحاز إلى صفة ضد آل جميل باشا، ومن ثم، وجراًء المشاكل أيضاً يظهر حاجو مغتصباً حقوق الفلاحين «ص328»:

أولاً، ما يسوقه باروت مجرد انصياع لرغبة واهمة لديه، لأن جكرخوين نفسه، وكما أوضحنا سابقاً، أن حاجو هو من منحه إياهما، ودون التذكير بالمقابل.

ثانياً، المؤسف جداً، أن باروت، وهو يقرأ جكرخوين، وما يقوله هنا وهناك، حيث تناقضات أقواله بلا حساب، يعتقد «أم يخاتل في اعتقاده ؟» أن الشاعر صاحب قوة مؤثرة، أي إن حاجو لم يسترض جكرخوين ليقف في صفة ضد الديار بكرلين، بالعكس، ثمة أكثر من نقطة لا يدخر الشاعر في اللجوء إلى التشهير «الثائية: المدينية- القبلية» المزيفة باروتياً.

ثالثاً، أن جكرخوين نفسه كان فاشلاً في رعاية قريتيه، وهو نفسه أيضاً يعترف بذلك، كما رأينا، إلى جانب أن حاجو ألح عليه بأن يسجلهما «طابو: ملك باسمه» ليضمن ملكيتهما له أبداً، لكنه رفض، وكان على باروتنا أن يعلم، وفي النص العربي المترجم أنه باع القريتين وياشر التجارة وخسر فيها بالمقابل.

رابعاً، يعلم باروت جيداً، وكونه كتب عن الشعر والممارسة الشعرية، أن الشاعر يعيش وضعية اشتهاء العوالم داخله، ليشعر أنه كائن كوني، أو له وزنه، وأن جكرخوين، يركب كلمات من عالم تخيلاته/توهماتة عن الذين كانوا يحسنون إليه «من الطرفين»، وبالتالي، فإن حاجو لم يستول على حقوق الفلاحين، إنما كان مع جكرخوين حتى اللحظة الأخيرة، وأن الشاعر نفسه اشتكى من فلاحيه «ممن تعلم على يديه» وهو درس في معرفة الآخر.

معرفة تصفي نفسها:

باختصار، لم يظهر باروت أي استعداد معرفي دقيق، أو علمي لتبيان ولو جانب

محدود مما هو عليه جكرخوين في تناقضاته، أي كيف يتصرف هكذا بالمفهوم النفسي والاجتماعي، لأن سؤالاً كهذا، كما يبدو، لا يعنيه، ولا يريده في «نسقه الثقافى المختزل»، طالما أن المرجو هو تحقيق هدف يتعداه، وإلا لأبرز هذا اللكم الهائل من تناقضات الشاعر الذاتية، وما لا يمكن البت فيه، بذلك التقابل، هذه المرة، بينه وبين حاجو آغا، أي من موقع النديّة، وليس من مثال يؤكد ذلك. هناك نقطة أخرى، يتوقف فيها باروت عند جزيرة «ابن عمر» وليس غيرها، وربطها بعشائر كردية ريفية بـ «هسنان»، ثم يعربها بأنها (توصف بالحسناوية. ص 364)، وهذا تجريم للتاريخ، إنما هي «هسنان: Hesinan»، ولا أدري أي رد فعل يعيشه باروت لو تهجى أحدهم «تَي/تاي» مثلاً، بدلاً من «طي» العشيرة العربية، أو «جامر/جمر» بدلاً «شمّر»، لأن الكلمة المكتوبة بالكردية تشير إلى الحديد، أما في الجانب التاريخي، فلا اعتبار لدى الكاتب على صعيد الاسم الحقيقي أو التاريخ الحقيقي، كما لو أن الإسلام هو الذي أسس لحضارة المنطقة ليس إلا، وأن العرب هم الذي «رفعوا» الإسلام وأضاءوا العالم، كما تقول الدعاية، أو ما الذي يربط بين «الحسنان: مفرد: حسن، أو من الحُسْن، و «هسنان» من الحديد، والكلمة هذه لا تتّرجم، إنما تخص تصوراً مكانياً ونفسياً وتاريخياً بالمقابل.

الاسم «أي هسنان» قديم جداً، إذ تبعاً (للمعلومات التاريخية، ترتد إلى 2300 سنة قبل الميلاد، وكانت تتبع دولة الخوريين/الحوريين... وبعدها بزمان آخر: خضعت لسلطة الحوريين- الميثانيين..)⁽¹⁾.

(1) Zûlkuf Ergûn: Bajar-Edebiyat û Cizîra Botan, Nûbihar, Istanbul, ç1, 2014, r:79

ذو الكفؤ أركون: المدينة والأدبيات التاريخية وجزيرة بوتان، منشورات نوبهار، ستانبول، 2014، بالكردية، ص 79 .

ولعل الوارد في مقال الدكتور البوتاني: عبدالفتاح علي يحيى: بوتان والبولتانيون والأغنية الكردية التاريخية، المصدر المذكور، العدد «28» كانون الثاني، 1985، ما يفيد في البحث والمقارنة أيضاً، ومن ذلك (بوتان بلاد الكروخيين الذين ذكرهم المؤرخ «زينفون» كانت معدن الأبطال وعنصر الرجال وينبوع الخيل والعدة ونبوت الحيل والشدة. ص 155).

ينظر أيضاً، في كتاب د. فائزة محمد عزت: الكرد في إقليم الجزيرة وشهرزور في صدر الإسلام 132-16هـ/ 637-739 م «دراسة في التاريخ السياسي»، مطبعة خاني، دهوك، د.ت، حيث نقرأ (أشارت المصادر العربية إلى وجود الكرد في الجزيرة والموصل في سياق تناولها الفتوحات الإسلامية، وهذا يدل على وجودهم في المنطقة قبل الإسلام وأن جزيرة ابن عمر

وهنا نجد أنفسنا مرة أخرى في مواجهة الذهنية التي تسمي تاريخية وهي تثقل على اسمه، تلك التي تشغل بما هو وثائقي، أو هكذا يفترض، لكنها تفتن بالتلفيق، أي ما يحيل أسماء الأمكنة التي لم يكن لها من وجود في الإسلام إلى عدم، والتأكيد بما يلفت النظر، وهو مصداقية الجغرافيا العربي-الإسلامي، رغم أننا، إن طبقنا الحد الأدنى من قراءة ذات نظير استشرافي، كما تصرف أدوار سعيد ذات يوم «1978» في كتابه «الاستشراق»، مبيّناً على طريقته مدى تزييفات الغرب وتخرصاته، على مصطلح أراه صائباً «الاستعجام» وكيفية «عجّمنة» كل ما

كانت تعرف بجزيرة الأكراد مما يثبت أن الكرد كانوا يشكلون الغالبية فيها، كما أن أوليا جلبي يرجع وجود الكرد في الجزيرة إلى زمن نوح عليه السلام، إن صح رأيه فإنه يدل على قدم الكرد فيها ص 44)، ومن المعلوم، أن الحديث عن «زمن نوح» وأوليا جلبي، قد ورد في المصدر الكردي نفسه، ص 77 .

وكذلك:

Ferhenga erdnîgarîyê Cograya : Kurdî-Tirkî-Frensî-Almanî,İnglîzî, Abdurrahman Ünen, Doz-Istanbul, ç1,2008.

القاموس الجغرافي: كردي-تركي، فرنسي، ألماني، انكليزي، لعبدالرحمن اونن، دوز، ستانبول، ط1، 2008.

ومن ذلك ما ورد فيه (جزيرة بوتان من المناطق التابعة لماردين، وهي تقع على ضفة نهر دجلة، وفي أشهر الربيع يفيض النهر، ويحيط بالجزيرة من الجهات كافة، ولهذا تكون الجزيرة، وهي ذات موقع مهم جداً في الشرق الأوسط، حيث يعبرها الطريق التجاري، ولهذا كان لها أهمية كبرى، حيث إن أهل الجزيرة يعتمدون في أمور معيشتهم على التجارة، وأرضها خصبة، وتصلح لكل أنواع الزراعة، وهي عدا ما تقدّم، مركز للثقافة واللغة الكرديتين، وقد استطاع أهلها أن يحموا أنفسهم من عملية الصهر القومي «التركي»، وتعتبر موطناً للشعراء والأدباء الكبار الكبار مثل ملا جزيري وفقّي طيران حيث عاشا فيها. ص 335. ينظر جهة المكانة والقدم أيضاً، كلاً من «مدياد» وتالياً «نصيبين، ص 336»، أيضاً...الخ، والمقصود من إيراد هذه المعلومات هو لفت النظر إلى سبب تشديد القوى التي غزت المنطقة وكردستان ضمناً على البقاء فيها، واستغلالها: أرضاً وقوى بشرية لمصلحتها، وقبل كل شيء: تغيير الأسماء أمكنة وأشخاصاً، وحتى المتبقية منها جرى تصريفها تبعاً لـ «سلطة» البيان العربي، كـ «بوتان»، وقد صيرت جزيرة «ابن عمر»، كما لو أنها دخلت التاريخ بإمضاء اسمه «ابن عمر»، وهكذا الحال بالنسبة إلى «ديار بكر» وهي «آمد» ورضيتها السلطات التركية باسمها العربي ليس حباً بالعرب بالتأكيد، وإنما كرهاً بالكردية، ولتغدو «نصيبيس» نصيبين...الخ).

وللتوسع أيضاً، ينظر فيما هو مكتوب عن «آمد» ومن ذلك (أن تاريخه يمتد إلى ما قبل الميلاد بسبعة آلاف عام، وربما يتعدى التاريخ الفعلي إثر الحفريات فيها هذا الرقم ليصل إلى عشرة آلاف عام...ص327...الخ).

ليس عربياً، وقد تغير فيه أسلوب النطق والمعنى، لهاننا الأمر، في ظل سلطة مراقبة، معاقبة!

وربما كان هناك مجال للقول بصدد تناوله لجمعية «خويون» وما أسهب في تبيانها، وهو البعد العشائري لها إجمالاً، مبتدئاً بعدد (من القيادات السياسية والعشائرية الكردية التركية التي لجأت إلى سورية واستقرت فيها....منها حاجو آغا، طبعاً ص 383).

ربما توصيف كهذا يقرأ، ويمرر أو يمر دون تعليق، لكن الناظر في الحراك الدلالي له، يتلمس ما هو محرّك لبحث باروت بالذات من ألف الكتاب إلى يائه بالكامل: عشائرية الكرد إلى جانب لاجودية الكرد بالمفهوم الجغرافي، ولا أدري بهذا الصدد، رغم سيئات التاريخ التي تعرض لها الكرد، ومن باب المقابل، أي مدنية يمكن لباروت أن ينسبها إلى قياداته السياسية في عالمه العربي، وضمناً البلد الذي تنعم فيه: قطر، ومركزه البحثي بجوار آخرين بحامله الاعتباري عزمي بشارة؟ أعني على مستوى فك الارتباط بين العشائرية والمدينة وغيرها؟

وجه الغرابة في القياس التفكيري للواقعة، للشخصية، وكيفية تحريك الفكرة، ودون ملازمة من يسعى جاهداً إلى إبقاء الكرد دون اسمهم جغرافياً وتاريخاً، وليس لتبرئتهم من أخطاء تخص الزمان والمكان طبعاً، وباروت لا يعنيه التقرب مما هو محظور، ومكلف سياسياً وأمنياً.

إن المقروء هو ما يبقى الكرد دون وحدة الاسم، وإقليمهم الجغرافي الكردستاني كذلك، ولا بأس أن يتفوه هو وسواه بما يتعرض له الكرد من مجابهات، ليس من موقع «الضحية» بالتأكيد، وإنما من موقع التجاهل لأي حضور هوياتي لهم، وليس من مجال لتحديد التعارض بين تشديد العربي على حق المواطنة والديمقراطية، وممارسة الاستبداد وكأنهما سواء، كما يتفوه زميله المهني (وتشكّل المسألة الكردية عنصر توازن إقليمي بين عدد من الدول «وخاصة تركيا وإيران وسورية» المعنية بمعنى التجربة الكردية ومآلها في العراق، وتداعيات الصراع في تركيا، وكذلك التأثيرات الجانبية لأحوال الكرد في إيران وسوريا والشتات)⁽¹⁾.

(1) محفوض، د. عقل سعيد: سوريا وتركيا: الواقع الراهن واحتمالات المستقبل، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2009، ص 409.

أي حين يصار إلى جعل الكرد عصا التوازن، وليس الجسد الكردي المجزأً ومن كان وراءه، حيث لا جهة تأويه إلا بوصفه لاجئاً، مهاجراً، أو ضعيفاً في أحسن الأحوال، وعلى الضيف أن يقدر حق الضيافة، أن يقدر المستضيف، والوضع التهميشي لعلاقة كهذه، كما في هذا الترسيم: القيادات الكردية التركية المهاجرة إلى سورية، حيث كانت تخضع لترسيمات حدودية، وطور التشكل كالعراق، وأن مخاطبة الماضي جغرافياً بلغة الآن تاريخياً إبراز لسديمية التاريخ ذهنياً.

ونلاحظ لاحقاً أيضاً تكرار الخطأ اللغوي والجغرافي والتاريخي نفسه، حين يتحدث عن ثورة آراءات الكردية، سعي الكرد إلى الضغط على الأتراك، فيصعب هذا، فيكتب مثلاً (تنامي الانقسام الكردي العشائري الداخلي..)، وكأنه طاقة كامنة مارست مهمتها ذاتياً، وليس لأن القوى التي جزأت الكرد وطناً وتاريخاً أسهمت في ذلك، ويشدد على العامل في عشيرة وجدت في المنطقة «الحسنان» و «هسنان» وبؤس التعريب سالفاً، والأهم هو تعليقه على تعبير بروينسن حول حاجو آغا (يكرس بروينسن أسطورة حاجو آغا المدخل الانثروبولوجي من دون حذر كاف ولا سيما أنه يعطي أهمية للفرق بين التسجيل الشفوي والتاريخ....ص387)، بمعنى أن باروت لا يتردد في «لکم» كاتب يثيره بعبارة له، أو قارئه حين يظن به ظن السوء «أي على أنه غير متنبه إلى أي كلمة لا تتسجم مع قائمة أوصاف يلتزم بها، إذ إن بروينسن كحال أي انثروبولوجي يحلل على طريقته، ولكن الانثروبولوجيا في مهادها الكردي تتطلب المزيد من الوقت والمتابعة، وأن تغطية نشاط حاجو واعتراض الأتراك عليه، توحى بنوع من التكافؤ، أي ما يعطي دفعة لاسم حاجو آغا كمحارب صلب العود للأتراك، سوى أن الواقع الذي عرف به الصراع بين الاثنين، كما رأينا سابقاً، زلزل تركيا، وأرعب قادتها، ولهذا جاء العنف مروّعاً.

إن الأهم هنا، هو أن بروينسن يعرف ما يمليه عليه وعيه البحثي باقتدار، وفي ظل ثقافة لا موقع لها إلا في الذاكرات والأفواه «مكتبة تحت اللسان»، وفي المخيلات الشعبية، كما هو الكرد، ولهذا تكون جرعة الخيال الشعب مضاعفة، حيلته لتأبيد تاريخ محارب من عدوه.

وفي الصفحة الثالثة نفسها، ما يرد بلسان جكرخوين «وهو اسم واحد» وليس كما توهم باروت بجعله «جكر+خوين»، ويكتفي بـ «خوين» لأكثر من مرة، كما نوّهت

سابقاً، كونه لا يعرف الكردية، ورأى في الكلمة وهي في هيئة اسمين، أي حيث ينطلق من صاروا زعماء خوييون إلى الإغارة على كردهم (يجردون المساكين منهم، ويخطفون نساءهم والفتيات، ويقدمون كل ذلك إلى الزعماء الأكراد والضباط الفرنسيين... على حد وصف كل من جكرخوين واوصمان صبري)، وقد حاولنا تعقب هذه النوعية من الكتابات آنفاً، ومن خلال كتاب «زين العابدين: كتاب القضية» عدا ما تطرقت إليه، والتناقضات الهائلة جداً في أقوال جكرخوين بالذات وصبري بصورة أقل، من منطلق ذم كل ما يعتبره مخالفاً له، تعبيراً عن نقص في الشخصية السوية، أي لحظة الربط بين أقواله المختلفة وتعارضها التام مع بعضها بعضاً، وحتى بالنسبة لصبري الذي أظهره جكرخوين «عميلاً» «للدولة السورية»، وما معنى التستر عليه... الخ، وباروت المفتون بأخبار كهذه، لكن مهزوم كمحصل معرفي فعلي تالياً.

ويرتد باروت مجدداً لتناول ثنائية الدياربكرليين والبدرخانين، تعزيزاً لفكرة تصدع «خوييون» جرّاء هذه التناقضات «ص 395»، أي دون مكاشفة أي وجه إيجابي، وكيف حصل ذلك بالطريقة التي تؤكد وحدة المعرفة في الذاتي والموضوعي، في السلب والإيجاب.

ليت باروت يحاول، أو حاول إبراز تقديره لوعي قارئه، للتاريخ باعتباره من لحم ودم ووعي وإحساس، وهو في أحادية اتجاهه، لا ينعطف على أي شيء يستدعي انعطافة لضبط كلام، ولو بصورة عابرة، وهو إجراء يبقيه كما لو أن الشيء هو الشيء نفسه وكما يرى لقطة واحدة.

وحسبي أن أشير أيضاً إلى مدى تركيزه على حاجو بصفته آغا، والآغا أمّي أو صنو الأمّي ولا شيء سواه «ص 397»، وهي وصمة قدرية، لم يصدّق أنه أخذها من مشهر فيه أي جكرخوين بالذات قبل غيره، وكأنني به يقول: كيف لأمّي أن يمثل شعباً هو أوعى منه؟ أي: ما أفلح شعب يقوده أمّي، أي: بنس شعب كان الذي يتحكم به أمّي... الخ، هل من تفسير آخر؟

ودون أن يتعقّب بنية القول، وما إذا كانت الأميّة في المعرفة أم في عدم تمكّنه من القراءة والكتابة، وفي الوقت الذي يتحدث عن قدرته على إقامة علاقات مع القبلي والحضري، ويذكّر بالمقابل بتقرير استخباراتي عن أنه كان (يتقن اللغة

العربية قراءة وكتابة. ص 249)، وفي هامش مواز يستعين بجكرخوين مجدداً وتأكيداً عن أنه «أمّي».. فأَي أمّية علم هنا ؟

أكثر من ذلك، لحظة الربط بين الآغا والأمّية، عندما نتوقف عند مثال حي وصارخ، ويتمثل في رجل الأعمال الكردي الدمشقي وذو الصيت علي آغا زلفو «1871-1957»، ومدى صلة حاجو آغا به، إلى جانب مجمل رموز الحركة الثقافية الكردية خصوصاً «الأخوان بدرخان، زازا.. الخ»، حيث يكتب بحماس عن أن زلفو جعل من حي الأكراد الدمشقي الشهير (أحد أوائل الوطنية السورية المتقدمة، وكانت زعامته قد آلت في العشرينيات حين قاوم علي زلفو زحف الجنرال غورو لاحتلال دمشق ولذا حكم الفرنسيون على زلفو آغا وعلى عدد من الوطنيين غيابياً بالإعدام..). وفي الهامش «61» والمقابل للاقتباس الآف الذكر، ورد عن أنه كان (أحد كبار مموّلي المجموعات الكردي المقاومة في الغوطة. وحتى عام 1920 كان 40 في المئة من أكراد حي الأكراد متعربين بشكل كامل.. نقلاً عن مكحول.. ص 442).

تلك إشارة أخرى، يظهر من خلالها «عربية» وربما «عروبة» من عناهم في الحي المذكور، كما لو أنه يدين آخرين «من الكرد» ممن ليسوا كذلك في مناطق أخرى، وبأنهم «خارج دائرة الوطنية المذكورة» وهي بمفهومها «العربي السوري» في الوقت الذي أكد في أكثر من صفحة سالفه عن مدى عشائر عربية «العنزة وغيرها» مع الجيش الفرنسي كحماة له، وبذلك يدين حاجو نفسه، وما في ذلك من بلبلة في رسم صورة الآخر: اعتبار الكردي عربياً ووطنياً سورياً أكثر من العربي السوري نفسه، مثل الزج بمفهوم «الجزيرة السورية العليا» في الخانة ذاتها تاريخياً «من ملاك الجمهورية العربية السورية» وقهر التاريخ بها.

وباروت، من خلال التركيز عليه يظهر مدى انشغال أكثر من قوة محلية وسياسية دولية بأمره، كما في العلاقة بين تركيا وفرنسا والحكومة السورية وتلك القوى السياسية القائمة في الجزيرة والتي تحسب له حساباً، وما يعنيه ذلك من اعتبار له، كما في إبعاده (من الجزيرة إلى دمشق عام 1930 في إثر إخفاق خطة آب/أغسطس 1930 في الهجوم على الأراضي التركية على طول خط ديريك- جرابلس الحدودي، لتخفيف الضغط العسكري التركي عن ثورات آراوات.. ص 400).

ذلك وجه آخر من وجوه التحدي للسلطات القائمة، التحدي الذي كانت حكومة أتاتورك تقدّره وتتخوف منه، من حاجو آغا أكثر من غيره، وهي تسعى جاهدة إلى إبعاد من يقومون بمهام المجابهة له، عن طريق أعوانها إلى الداخل، أو الحسكة، كما تصرفت معه، ولم يتوقف عن إظهار ما هو خلافاً فيه من خلال أنشطة مختلفة: قومية كردية في داره، والأكثر بروزاً وإثارة لاستفزاز السلطات المحلية ومن معها: رمز الراية الكردية على سطح داره، ومحاولات العناصر العربية التسلل ليلاً لإنزالها، وهي واقعة تاريخية وليس مجرد نسج حكاية.

قهر نفسي غير مرصود:

ما يلاحظ في عدم التدقيق والتركيز وما يترتب على وضع كهذا، هو أنه يوحى بمعرفة منبّهة إلى وجود شرخ داخلي في سيكولوجية جكرخوين أكثر من أي كردي آخر، طالما أنه يطلق أحكاماً دون اعتبار على من حوله، شرخ لا يُردم، كما في التذكير بكتلتي كل من حاجو آغا الكردي ودهام الهادي العربي، لكنه ينوّه إلى وجود انقسام في المكونات الاثنية تجاههما في الجزيرة، أي أبعد من حدود الثنائية، وربما صدق جكرخوين هنا، وكذب لسان باروت، وأما عن صدق جكرخوين فليس لأنه يستحق ثواباً، طالما أنه أجرم بحق واقع تاريخي عريض بذاكرته وطائفة من تخيلاته الخاصة، وإنما لأن القول بالكتلتين ومن ثم بالانقسام يعني نفي الحالة الأولى، أما عن كذب لسان باروت، فقد صدق في إبراز نواياه، وبذلك لا يكافأ عليها، كونه فارق بين ألف القول وبائه، أي لم يعلّق على مغزى كلام جكرخوين بنقده.

المفارقة أنه يكتب تعليقاً حول ذلك في الهامش «105» والعائد إلى صفحته (يكتب جكرخوين: الجزيرة منقسمة إلى تيارين: تيار حاجو آغا وهو للكردياتية، والثاني تيار دهام الهادي، وهو تيار العروبة.. لكنه يستدرك مباشرة ويقول: لكن في الحقيقة الأكراد والعرب انقسموا بين حاجو آغا والشيخ دهام، أو يمكن أن يقال حلفاء فرنسا وحلفاء العرب. ص 406).

لماذا لم يستدرك باروت بدوره؟ أكان تصنيف يتناغم مع البعد المؤامراتي الغائر في واعيته جهة التعامل مع «أعداء البلاد»؟ أما كان يجدر به مساءلته عن

نوعية العلاقة بين الحالتين، لتبيان تهافت ليس منطق جكرخوين الشاعر المحتد وليس المؤرّخ، وإنما المنطق المزعوم تأريخاً؟

في السياق نفسه، لو أن باروت كان ممتلئاً بالحد الأدنى من الوعي السوسيولوجي لأدرك نسبية تقييمات الآخرين، حين يتحدث عن التحالفات في الجزيرة وانقسام الناس باثنياتهم «ص 414»، أي ما يجعل أساس التحالفات ترجمة تأريخية لحقيقة مجتمعية تشهد مثل هذه الاختلافات، ومن ثم ما كان هناك من داع للرهان على جدل «الثنائية» القسري.

في صفحة تالية، يتوقف باروت عند نقطة تظهر مدى نفوذ حاجو في قامشلو أو في الجزيرة، حيث يشير إلى حلفائه المسيحيين أنفسهم، وفرض حاجو نفسه عليهم وعلى السلطة المحلية في الوقت نفسه «ص 437»، والسؤال: كيف يمكن لـ «أمي» كردي- تركي، كردي - فرنساوي، كردي- قبلي... الخ، أن يفرض هيئته على مجتمع كامل، حتى على خصومه، إن لم يكن خلاف ما هو متداول عنه، دعائياً، ومن قبل أكثر من حاول التشهير فيه، ليقترن اسمه باسمه، وأعني به جكرخوين، كما يجري الآن؟ أي باعتباره متعلماً ومطلّعاً على أمور كثيرة.

في نقطة تالية، يستعين بتقارير استخباراتية فرنسية عن أن حاجو ممثل «خوبيون» في الجزيرة، وأما الأبعد فهو أنه متواطئ مع سياسة البدرخانين وعبر تحالفات أخرى: مسيحية وغيرها لـ (إحياء إمارة الجزيرة. ص 443).

طبعاً ثمة محاولة تزاك وتحامق في آن جهة تسمية إمارة البدرخانين المعروفة «بوتان» وليس الجزيرة المعربة في واعية باروت العروبية، ومن جهة أخرى، ما الذي يحفزّه على تلبس هوى التقارير الاستخباراتية وبطرق شتى، غير استفظاع صورة منقوده، وتخوفه منها؟ وأي جنحة، من حيث التعامل في إجراءات حاجو، طالما يريد ما هو مشروع له، وبصورة خاصة في التعامل مع السلطة التركية؟ أم أن تسمية العاصمة «بوتان» تعني إلغاء «الجزيرة»، ومحو الخارطة السياسية السورية، وما يترتب على كل ذلك من زوال أسباب قوة الكاتب المتخيّلة؟

في نقطة تالية، حين يتحدث باروت عن الجزيرة يشدد مجدداً على الصراعات القائمة (بين حلفاء الفرنسيين وأعدائهم، وبين الانفصاليين والوطنيين... ص 446)، وقد كان من المفترض أن ينور الباحث فكرته هذه، حتى لا

يقع في فخ غواية مفهوم مصطنع ومضرب وغائم عدا عن كونه مزيفاً «الانفصالي- الوطني» كما يجري الآن كذلك، إذ ليس الانفصالي هو المتخلي عن «وطنه» والمراهن نفسه لفرنسا، إنما داعية استقلال ذاتي ضمن خارطة سياسية واحدة، حال دولة الدروز والعلويين، ولا كان الوطني من حريصي وحدة الوطن، وأعداء فرنسا، حال من ينتمي إلى الكتلة الوطنية الأكثر إغراقاً في مصالحهم التي تجعلهم انفصاليين واقعاً أكثر من الذين يجهرون بالانفصال لكنهم شديداً الانفصال بكيان سياسي أكثر مرونة.

باروت يتلاعب بالحروف وهي ليست كذلك، في جبهات عدة، حيث إن الذين يتصارعون ديكة لا تهدأ وراء مصالحهم، كما يظهر، ويسبغون إلى عامة الناس، كما في مكاشفة أحداث عاموا بالذات أيضاً «ص 456»، لأن ثمة قوى كثيرة أشعلت نارها، وللكتلة الوطنية إلى جانب فرنسا القذح المعلى لإبراز فوضى الجزيرة، ولزوم التدخل بالقوة، وضبط الأوضاع.

ذلك ما نتلمسه لديه في وضعه حاجو آغا مقابل قدري جميل باشا، والرواية جكرخوين الذي يأتي وصف حاجو بالأمي وقد استنطق به لسان قدري «ص 465 - أيضاً، ص 500»، وقد رأينا ذلك، وليس هناك ما يثبت هذا الدائر هكذا حرفياً، كما لو أن جكرخوين كان كاتب الطرفين وخلافهما، ومن ثم الرواية الوحيد في تأريخ ما يجري، أي «ابن خلكان» زمانه، وبمثل هذا التجني!

في عنوان فرعي عن تحويل القيادات الكردية ولأها بسرعة من الفرنسيين إلى البريطانيين، مع اندلاع نار الحرب العالمية الثانية «ص 512»، أي ما يضعف هذه القيادات أكثر، وقد غابت شمس حاجو آغا «أي رحل نهائياً، ليحل محله حسن حاجو آغا.

السؤال المنطقي: أليس البحث عن سند قوي أفضل من الضعيف؟ ثم ما الإشكال في هذا التحويل حيث نتلمس ذلك على مستوى أمة وشعوب وحكومات أو دول، كما يجري الآن؟

أرى أن باروت يعاني من حبسة جغرافية وتاريخية معاً: في الأولى سطحية الثقل النوعي للجغرافيا وكيف أن لها اعتباراً، وفي ضوء المستجدات تقدّم خيارات،

وفي الثانية: هشاشة السيستم النقدي لديه، لأن منطق التاريخ يلزم بهذا التنوع في
بؤرة صراعات قائمة.

نلاحظ تالياً، مثلاً، كيف يتحدث عن عدم وفاء سلطات الانتداب الفرنسي
في سوريا بإنشاء كيان اثني كردي مطعم بما هو مسيحي (في ظل «الفيتو»
التركي... ص 754)، وهو ما يحصل على صعيد توازنات القوة والرعب معاً، أي
لوجود دول كبرى تحتفظ بقوتها ولا تفرط بها من أجل قوى أصغر، تتمثل في
شعوب في مهب أطماعها، وكون «سايكس-بيكو» حينها حديثة العهد نسبياً، وسلة
أطماع الدول المستعمرة لم تمتلئ بعد، فلا يكون الوفاء قائماً.

بالطريقة ذاتها وبعد صفحة «755» يجري الحديث عن «خوبيون» في تشكيلة
جديدة يحضر المناسبة أقطاب عشائريون، كما يظهر، ومنهم الديار بكرليون،
وحاجو آغا المتوفى يحل محله حسن حاجو آغا، أي كما لو أن حسن «خالف» أباه
والوضع ليس كذلك جرّاء المختلف في الزمان والمكان، عملاً بقانون الصيرورة الذي
لا يُستثنى منه أحد.

طبعاً، لاحقاً، يكرر عبارة «آل حاجو آغا» و(سار حاجو آغا مع سياسة قذري
جميل باشا في دعم الحكم الوطني... الخ. ص 766)، والصحيح أولاً: حسن حاجو
آغا، وقد تكرر الخطأ لأكثر من مرة، كما الحال مع بدعة «سعيد النورسي»، والأمر
الثاني، أن «الحكم الوطني» إن كان له معنى، فلا أعتقد أنه من النوع الذي يبهج
سريرة باروت عروبياً، إنما ما يعزّز تنوعاً أكثر، وهكذا الحال جهة الترقب لما هو
متغير في السياسة العربية- الكردية، في نهاية خمسينيات القرن الماضي، في مصر
والعراق، مع انتعاش جانبي لجسد الديمقراطية في الثلاثية العربية السياسية شبه
المعطلة بمحيطها الصحراوي، تأكيداً على أهمية التنوع «ص 785».

يمكن أن نتباحث حول الكثير من النقاط التي تبرز مدى استهتار الدولة
السورية بحق المواطن، أو المجتمع، أو الشعب، بعد جلاء الفرنسيين عن سوريا
خاصة «سنة 1946»، رغم أن نسبة ملموسة من الساسة المعتبرين «كانوا كردياً»، كما
في حال قائد أول انقلاب عسكري في سوريا حسني الزعيم «سنة 1949»، إنما
ليس لأنه كردي فحسب، وإنما لأنه كان داخلياً في دائرة صراعات كغيره، ولو
بتفاوت أيضاً، ورغم ذلك كانت الاتهامات تطال الكردي، بمجرد إظهار حركة

مغايرة لمفهوم السائد أو الرسمي، ومنها: الشروع في إنشاء وطن قومي للکرد، تهمة ألْبست الزعيم وسواه، إنما هو بصفة رئيسة، ربما لأنه تحدى جمود السائد، وإن بقيت «قدماء» عالقتين في حذاء خلق أو ضيق جداً، ومحكوم بواقع ليس سهلاً التحرك خلاف المتداول، كما هو متوقع سريعاً.

ثمة الكثير مما يمكن قوله استناداً إلى هذه النقطة «الزعيمية» وتجلياتها اللاكردية اللاحاجوية، أو إن شاء القارئ، فالحاجوية، طالما أن حاجو أعطي هذا المد التاريخي تأكيداً لأهميته، أي حين يصبح كل من يسمي حقاً من حقوقه ذماً أخلاقياً له، وبمقدار ما أن الكردي كثيراً ما يتحول في المعتبر مفسدة أخلاقية وخارج دائرة الكردية على أنها مفسدة الأصل في استدعاء أعداء الأمة «العربية وغيرها»، نظراً لوجود أرضية لنشر إيديولوجيا تشهيرية من هذا النوع:

ما جاء في التقديم لمذكراته كما في الحديث عن حسني الزعيم (طلب تقديم للكتاب من العقيد أديب الشيشكلي، فجاءت الكتابة هكذا: تأكيد أهميته لولا أنه تأثر بالمنصب: ولكن المنصب الجديد ما لبث أن بدل أخلاقه وأفسد برنامجه فطمع أن يسخر قوى الدولة لأطماع نفسه ونفاذ حكمه...، وتأريخ المقدمة في 31-1951/ص9... لكن وزيره كان أصدق لزعيمه:

ومما لا شك فيه، أن الزعيم كان ذا شخصية جذابة، وكان على جانب كبير من الصراحة، تلك الصراحة التي يتجنبها رجال السياسة...ص47...والحديث عن مشاريعه العمرانية،ص61-69- رفضه للهدايا: إهداء بيتاً، ص85...وأسماء إنجازات كثيرة عمرانية ومدنية وقضائية...إثر الانقلاب عليه: على أن التاريخ لا يكتب، إلا بعد مرور الأيام والشهور والسنين.ص144- ف10... والحديث عن الدولة المثلي، أي على طريق التحديث: رغب الزعيم في أن يجعل سوريا دولة مثلى...ص145...⁽¹⁾.

وفي الجوار العراقي سنة 1936، حيث الانقلاب العراقي الأول من قبل بكر صدقي، والذي تردد فيه الكثير من الدم، كتوصيف سياسي عراقي لها حينها

(1) من ذكريات حكومة الزعيم حسني الزعيم «خواطر وآراء»، بقلم المحامي فتح الله ميخائيل صقال وزير الأشغال العامة والمواصلات في حكومة الزعيم، دار المعارف، مصر، 1952، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

(الفصل السديمي وهو الخامس: عن الأسباب الحقيقية لانقلاب بكر صدقي: علم حكمت أن بكر صدقي ناظم على الوزارة الهاشمية، مثله، وطامح إلى الدكتاتورية، وأنه منذ زمن يشتغل في القضية الكردية فأراد أن يستميله.. إن بكر صدقي رجل طموح، قد انطوت لفائف قلبه على التعصب العنصري، وكان دائماً، يرنو إلى قومه، ويتمنى تحقيق أمانهم...أضف إلى ذلك ما في قلب بكر من أحقاد وما في نفسه من طموح، فإن حكمت شجعه على العمل لتحقيق أمانه في عالم الوجود، ونفخ في جذوة ناره، فأذكاها، وزاد ضررها في نفسه.. ص177... وهوامش الفصل وفيها تركيز على «دونية» بكر صدقي، و «عمالته» للانكليز، من خلال «وثائق انكليزية، صص191-194، ودون أي مساءلة عن مدى دقة ذلك... ليتابع ذلك في الفصل السابع، صص217-227..ثم التشفي بمقتل بكر صدقي..ص264... وما تلا ذلك بقوله: لقد بذر من لا يهمهم أمرالعراق بقدر ما تهمهم مصالحهم الذاتية بذوراً فاسدة في البلاد.. ص282.. إن هذه البذور المفسدة التي بذرت لن تستأصل شأفتها ولن تطهر من البلاد، إلا إذا أتاح الله تعالى لها مخلصاً صادقاً من قبله.. ص284..الخ⁽¹⁾).

(1) أبو طيخ، السيد محسن: المبادئ والرجال «بؤادر الانهيار السياسي في العراق : دراسة وثائقية»، المؤسسة العربية، تحقيق : جميل السيد محسن أو طيخ، بيروت، ط2، 2003، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز .

بالمقابل، ينظر في وجهة نظر أخرى، حول ذلك في كتاب ابراهيم الراوي: من الثورة العربية الكبرى إلى العراق الحديث، مطبعة دار الكتب، بيروت، 1978، والمؤلف من مواليد الرماذي سنة 1895، حيث يتحدث عن انقلاب بكر صدقي «1889-1937»، واعتباره كردياً ومديحه، كغيره من أخوانه الأكراد، ومن أراد الاستفادة أو المنفعة من انقلابه (حسين فوزي، سعيد حقي، أمين زكي، ماجد مصطفى، نورالدين محمود، سامي فتاح.. وبعض الكرد لا يعرف الكردية.. ص150... ومدح شجاعته في مواجهة التحديات وما يخص الموقف من أوريين. ص152-154... و: انقلابه كان الأول من نوعه كما حدث في سوريا.. وكان بكر صدقي آخر من يفكر بالانقلاب لأنه وهو الرجل الأعزب، كان يسير ويطيّر على كيفه.. ص165... وفي سؤال الانقلاب عن حكمة سليمان وكامل الجادرجي..ص168...وحكمة سليمان عندما بادر بكر صدقي بالانقلاب تجاوب معه، كرجل طموح ومغامر رأى أن يستغل هذه الفرصة ليصل إلى ما تطمح إليه نفسه من الصعود إلى منصة الحكم أولاً، وليخلص الجيش من تكتل السياسيين والانتهازيين. ص169...ثم: نعم كان بكر أكثر من أي عراقي، كان يناوىء السياسة الانكليزية، وكان يتحداهم سراً وعلانية.. ص186)...الخ.

وماذا عمن يزعم صناعة المفكر، ويتنقل بين طغاة السلطة، مداحاً، وهو يعتمد أعلى درجات التعبير ما بعد حداثة، كمطاع صفدي البعثي القديم، والمتخلي عن بعثيته، لكنه المؤمن بها في مجسّد «البطل الفرد في التاريخ: صدام حسين»؟ كيف يقيّم تقييمه لحزبه إذا؟ (يكتب في البداية عن الحزب الذي كان قوياً ثم انخرط في سلوكيات فضائحية في أواسط الأربعينيات.. إن هذا الحزب، الذي ولدت أفكاره في مناخ الحرب العالمية الثانية، ونمت مثله خلال معارك الاستقلال، والتحرر من التبعية، قد حمل لواء الثورة، ثم حمل لواء الثورة المضادة... هذا الحزب، الذي اجتمعت له في فترة ما خلاصة العناصر الشابة المؤمنة والمتحففة، غدرت بها قياداته، واستغلّتها أيما استغلال، ثم مزقت مطامع هذه القيادات وحدة الحزب، وحرفته تدريجياً عن خط الثورة العربية إلى أن أصبح في الصف المناقض لها تماماً⁽¹⁾).

وهو حال رفيقه البعثي الآخر، وكان دونه تهاقناً على المتنفذين، أي سامي الجندي، الذي انتقد البعث وسياسته مبكراً دون التخلي عن عروبيته، أو ما يبقيه بعثياً، طالما أنه لم يطلقه بالثلاث (لهت القيادات عن رسالتها التاريخية لأنها لم تكن على قدها فأوغلت في دوامة الأحداث حتى بات البعث تنظيمًا سياسياً ص 10... يقول ما يعتقد ص 12... لقد خبرت في حياتي تقلبات قلما واجهها إنسان آخر، فعرفت الترف والفقر، تظل صورتها في عيني متلازمة. ص 15.. بعد 1970، أصبح البعثيون بلا بعث والبعث بلا بعثيين: أيديهم مصبوعة بالدم والعار يتسابقون إلى القتل والظلم والركوع أمام مهماز الجزمة. ولكن البعث العربي يظل رسالة خالدة تؤمن بها لأنها وحدة حرية وتقديس مطلق للإنسان⁽²⁾).

(1) صفدي، مطاع: حزب البعث «مأساة المولد، مأساة النهاية»، دار الآداب، بيروت، ط1، 1964، ص 6.

(2) الجندي، سامي: البعث، دار النهار، بيروت، 1969، وقد وردت أرقام صفحات الكتاب في المتن للإيجاز.

وينظر من باب النقد الذاتي لكل من فكرة القومية العربية وحزبيتها، كما في حال البعث، ما ورد في كتاب أحد البعثيين العراقيين القدامى هاني الفكيكي: أوكار الهزيمة «تجربتي في حزب البعث العربي الاشتراكي»، مؤسسة المنارة، بيروت، ط2، باحث عراقي، ومن مواليد 1936، انتسب إلى حزب البعث سنة 1954، وقد درس الصيدلة، كما في حديثه عن علق بأن (كتابات عن ماضي الأمة وتراثها تركت آثاراً مدمرة على ازدهار المعرفة ونمو عقل سياسي داخل الحزب. ص 62....

وهل يصدقُ باروت كلمة الأرسوزي التأليهية للأمة، وهو مأخوذ بها بالمقابل (إن الأمة العربية وهي ينبوع الشعوب السامية كافة، عالم بذاتها لم تأمل منذ ظهور الإنسان على مسرح التاريخ وهي تظهر بفيضها في كل مرحلة ماتراكم من آثام على الشعوب فتهدىها إلى تحقيق أهدافها. مثل الأمة العربية كمثال السديم ذاته «أصل الوجود» يتكاثر حيناً ثم يتناثر بعد حين فتتجم الشموس عن تكاثفه ثم تنتهي بتناثرها في الأثير، أبنائها منزورون في قوقعة من الأنانية، إلا أنها لا تلبث حتى يسطع منها نبي أو زعيم فبيعث بها من جديد ويلقي النور الحاصل من تأججها شفقاً على العالم أجمع فيهدي الأمم حينئذ بمنارته إلى تحقيق رسالتها. وعند ذلك تتحدى هذه الأمة تقديرات المؤرخين)⁽¹⁾ ؟

أي شخصية عربية، سورية، أو هُما معاً، يحملها باروت في ذاته في مختتم هذا النقاش الساخن؟

أي بعثية عاشها وهو طالب مدرسة، ودراسة جامعية، ومن ثم محتفى به عقائدياً في الدولة، ليكون لسان إيديولوجيا رسمية، أفلح في تمثيلها تماماً، لكنه

ومما أثار استغرابي أن الأستاذ «أي علق» لم يكن يقرأ ولا كان يتابع التيارات السياسية والفكرية الجديدة في الوطن العربي والعالم. أحياناً كان يتندر ويقول أنه لم يقرأ كتاباً منذ 1956.. ص154... وهو الذي: منح صدام حسين لقب «القائد الضرورة» الذي وهبه الله لنا .. ص323)، ضمناً، ثمة ما يدعو للتأمل حين يشير المؤلف إلى أنه (افترن بفتاة كردية كانت زميلته في كلية الصيدلة زوجاً يسكن إليها في بيروت.. ص305...) الخ.

(1) الأرسوزي، زكي: رسالة البعث العربي- البقرية العربية في لسانها، دار اليقظة العربية، دمشق، ص 214 .

وهنا، تبرز القيمة المعرفية المؤثرة فيما ذهب إليه حازم صاغية بصدد الهوس العربي بالهوية وضمناً القومية العربية، والأمة العربية، وذلك ينطبق على باروت نفسه أيضاً، بقوله (لا غرو في أن العرب المهجوسين بالهوية والآخر لم يتعدوا مرحلة طفلية موضوعها الرحم وحبل الصرة. وما العناوين الكثيرة التي يتداولها كتابنا على هامش الهوية ومسائلها، كالحداثة والأصالة، والتراث والمعاصرة، والذات والكونية، غير تعابير على أننا لم نهجر السلطنة العثمانية وأسئلتها، ولم ندخل بعد، زمن انشطار العالم دولاً ومجتمعات، والذي هو زمن تعرضنا للعالم وتحديه لنا كبالغين أسوياء، وتالياً كأبناء دول ومجتمعات وجنسيات لا يملكون في جعبتهم أية وسيلة يتعرفون بها إلى معناهم).

حول ذلك ينظر في كتاب : تساؤلات حول الهوية العربية، لمجموعة باحثين، دار بدايات، جبلة، سوريا، 2008، ص 139 .

خسر نفسه كثيراً بتزويره لتاريخ لا يعنيه وحده، إنما يخص تاريخ حقيقة، وهذه تعني شعباً، وشخصاً ينتمي إليه، مهما اختلف حوله، أعني به حاجو آغا، إذ الرجل قابل لأن ينتقد من جهات مختلفة، إنما ما يبقى فيه، وينبغي الحرص على سلامته، هو كيفية الجلوس إليه عن قرب، لرؤيته بالتفاصيل، أم إنه من حيث البنية النفسية، وكما هو مؤهل عقائدياً، يخشى الاقتراب منه، أليس هذا منطق كتابه الفعلي، أعني المنطق الذي يعتبر الجهة الواحدة تمثيلاً للجهات الثلاث الأخرى⁽¹⁾.

(1) ينوء هنا، أن باروت أودع «الأفكار» الرئيسة لكتابه السالف ذكره، بخصوص الكرد بالذاكر، وضمناً حاجو آغا، في الكتاب المشترك: مسألة أكراد سورية «الواقع - التاريخ- الأسطورة»، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، بيروت، ط1، 2013، إلى جانب سخونة مضافة، ومنذ البداية لحظة «إعدام» كل أثر لوجود تاريخي كردي في سوريا (يتميز ما بات يُسمى «المسألة الكردية» في سورية عن المسائل المماثلة في إيران والعراق وتركيا. وتعتبر المسألة الكردية «السورية» بمعناها الراهن من الناحية التاريخية الصرف مشكلة تركية تساقطت آثارها في سورية أكثر مما هي مشكلة سورية، وإن أعادت القوى السياسية الكردية في المراحل الزمنية السياسية اللاحقة صياغتها تدريجاً على شكل مشكلة كردية سورية. ص 15).

أي ما يشد هذه المشكلة، كما يلاحظ إلى عامل «الهجرة» الكردية من «تركيا» إلى «سوريا» حيث «الجزيرة السورية العليا»، في الربع الأول من القرن العشرين، فلولا الهجرة تلك، لما كان هناك أي مشكلة بصفة «الكردية»، وكأني به لاحقاً، يحمل تركيا تداعياتها، إلى جانب أن مجمل المشاكل التي تعيشها سوريا كدولة وحكومات من جهة الكرد «الأكراد» يكون هؤلاء مسؤولين عنها، على خلفية ما تقدم، ربما مثلما أن حاجو آغا «هرب» من السلطة التركية، وقدم إلى الجزيرة السورية، وبدأ بالمطالبة بكيان كردي مستقل.

لتكون الحدود المصطنعة ذاتها مشكلة أوروبا، وأن الكرد حيث يعيشون في تركيا قبل غيرها، وعليهم المطالبة بحقوقهم منها وفيها وليس خارجها، وهو إجراء سلطوي سوري في الصميم.

هكذا يأتي الكلام الأخير «الرصاصية الأخيرة في الرأس الكردي» في «خاتمة: نحو حل ديمقراطي (عمل المجال الكردي السوري في تاريخه من أجل غيره، أي من أجل المجتمعين الكرديين في تركيا وشمال العراق.. ص 155)، أي حيث لا تسمية تشير إلى أي جغرافيا كردية، ولا بأي صيغة، حتى في البلدين المذكورين، وأن الإمكان الوحيد للكرد ليكونوا «بشراً؟» كسواهم هو في التالي أيضاً (إن المواطنة الديمقراطية المؤسسية بمعناها العميق الذي يشمل الحقوق الثقافية الجماعية هي الطريق لحل ما يدعى بالمسألة الكردية السورية في إطار دولة عربية سورية واحدة موحدة يجد مواطنوها كافة محلاً كاملاً لهم ولتطورهم الفاعل والخلق. ص 160).

أوليس هذا الطرح بعثياً في جوهره؟ لا بل أليس متخلفاً، من جهة أخرى، حتى عن طرح البعث نفسه في ضوء التحديات التي تواجهها المنطقة، خصوصاً من خلال مفهوم «دولة عربية سورية واحدة موحدة؟» وتهجئة «الحقوق الثقافية الجماعية» وهي الأكثر مدعاة للسخرية،

وما دون جائزة الترضية سياسياً، على مستوى نظام سياسي، وتعدد اثنيات، في بلد ملفوظ خارج نظام الحياة الفعلي؟ ومن ثم: أي معنى أو قيمة للمركز الذي يعمل الباحثون المخضرمون: عزمي بشارة، ومحمد جمال باروت، وثائر ديب، إن لم يكونوا في مستوى المستجدات وحساسيتها؟

في ضوء ذلك ألا يبرز محمد جمال باروت نفسه بالمقياس السالف أكثر رجعية واستبداداً فكرياً من ميشيل عفلق نفسه؟ طالما أنه لم يتعلم شيئاً من درس التاريخ، ويريد أن يعلم سواه به ؟

صورة جلادت بدرخان بك وحاجو آغا

رواية «بئر القدر» لمحمد اوزون، آفستا، ستانبول، ط5، 2002 ، باللغة الكردية.

أن تتشكل في ذهنك فكرة عن حاجو آغا، أو أي شخصية أخرى، وأنت تنتقل إلى عالم الرواية، فإن أول ما يجب عليك اتباعه، هو التنازل عن التاريخ كوثيقة، إلى الفن كجمال، كقيمة اجتماعية وسياسية، وفي رواية الروائي والكاتب الكردي محمد اوزون «1953 – 2007»: بئر القدر، ثمة الكثير الذي يمكن قوله من خلالها، وهي تفتح نافذة على ما كان وما سيكون.

إن الفصل الرئيس للرواية هو تمحورها حول الشخصية البدرخانية الكبيرة جلادت بك بدرخان «1893 – 1951»، وإبراز مكانتها الكبرى، أي تمجيد لها بالذات، ورتاء لحياته ومماته في آن، غير أن الرواية وهي تمزج الواقع بالخيال، الوثيقة غير المسماة بالأرشييف الذي لا بد أن اوزون أطلع عليه، تبلمس الروح، وتمنحها دفقا جماعيا غامرا. وفي السياق نفسه، يتكرر اسم حاجو آغا بشكل لافت، وبعد رحيل، ثمة أكثر من إشارة إلى من حل محله «حسن آغا حاجو».

هذا يؤكد أهمية ما يتردد باسمه حاجو آغا في الرواية، إلى جانب أن أسلوب التفضيم في المخاطبة معه، تأكيد آخر على أن له موقعا اعتباريا في العائلة البدرخانية، وعدا ما تقدم، فإن نظرة في كتاب جلادت، والسالف ذكره «ابنة العم»، وفي مستهل نص يحمل الاسم نفسه، وفي ذلك مفارقة، ثمة مقطع غنائي، من الأغنية المشهورة ذاتها، مقطع مهدي إلى حاجو آغا، ص 30 ، وبذلك يعزز أصرة القريب، إنما الصداقة إنما العلاقة الكفاحية، دون ذلك، أكان جلادت بحاجة أن يكون متقلبا مثل من مروا معنا سابقا؟ أم أنه كان يقدر في حاجو اسمه، وقدرته على إثبات مكانته؟

جلادت ليس جكرخوين، أو خلافه، في المستوى التوصيفي نفسه، إنما ينتمي إلى عالم مغاير، وأن يتعرض اوزون لكليهما، فلأن هناك ما يشدهما إلى بعضهما بعضا بأكثر من معنى، في أكثر من مصير، كما لو أن كلام جلادت معزز في شخصه.

لست هنا بصدد تقديم قراءة تاريخية أو نقدية للرواية، فهذا ليس مجالها، وإنما أضيء حقل التاريخ فيها، وهذا التلاحم بين كل من جلادت وحاجو في مواقع وحالات

كثيرة، وهنا تبرز القيمة الفنية والاجتماعية وفالتاريخية للرواية، أي إنه لو لم يكن حاجو بهذا المقام لما كان ضيف الرواية، مقيمها التاريخي، وشارة فنية ودلالية بالمقابل.

لهذا أنوّه إلى النقاط الرئيسة فيها، حيث يحضر اسم حاجو آغا، وأن في وسع قارئ الرواية أن يراجع النص الأصلي «الكردى» ويقيم علاقة معه كما يرغب . المختار هنا للتأمل، ومن خلال العديد من الفقرات أو المقاطع المتفاوتة الطول، أحسب أن قراءتها استنارة وجدانية.

لحظة البدء:

الاسم «بئر القدر»، النوع: رواية، سنة بدء المباشرة بكتابتها: 15 تموز 1951. البدء: الجميع يموت، الأخ وابن الأخ، العاشق والمعشوق، الرفيق والصاحب، المؤانس والسائح، والغريب والمعروف، كلهم يموت، وها قد جاء دوري أيضاً. الآن هو دوري كذلك. ص 11.

ثم الإشارة إلى ولادة الحفيد البدرخاني لضرورة المعلومة :
عن ولادة جلادت في عام 1893، ص 21 .

وما حدث من تحوّل في بنية السلطنة العثمانية، لتصبح سلطة كمالية :
من كانوا غير راضين عن حكومة السلطان عبدالحميد من أشخاص وقوى التقوا وشكّلوا جمعية «الاتحاد والترقي»، وقاوموا عبدالحميد، وقد انتصر التمرد الآن، حيث قبل عبدالحميد بجميع شروط رموز التمرد .

كل الناس والطوائف العثمانية، وراء هذا التمرد، سعياً إلى حقوقها . ص 85 .
ولا بد أن هذا التغير يحدث تغييراً في القيم القائمة، ونظرة كل إنسان إلى سواء، إنما بالنسبة إلى البدرخاني، فذلك بعد آخر، حيث كانت الإمارة البدرخانية تنتمي إلى عهد السلطنة، أما فيما بعد، فثمة دخول في مخاضات حياة عاصبة كما يظهر، سوى أن لحظة حاجو وما كان يجب أن يعرف به، ويشار إليه على تماس مباشر بحدث كردي وانعطافه، كما لو أن أول عنف دموي ارتكبه أتاتورك، وشهد انعطافه تاريخ، هو ما أعقب إعلان ولادة الجمهورية التركية «1924» (وقد أنهت الخلافة، لتأتي ثورة الشيخ سعيد أول رد فعل على هذه الجمهورية المخضبة دماء، والموقف منها، سنة 1925، وما ينبغي الإعداد له حيث العدو شرس وأي شراسة؟):

ليعلّق من يشاء أن يعلّق، فإن الهجوم لم يكن في وقته، حيث إننا اخترنا توقيتاً خاطئاً، وخاطئاً جداً. ص 225 .

كان قرار الفريق مستعجلاً، والاستعدادات لم تكن كافية، ونحن لم نمنح الثقة المطلوبة للعشائر.

شأننا نحن الكرد، هو دائماً هكذا، حيث يتنبّه الكرد فيما بعد . لماذا لم نهئى - هنا- بعض القوات المقتدرة والمسلّحة، وقد اعتمدنا على القوات والعشائر في الداخل؟ من هم المسؤولون عن ذلك ؟

الليالي تنام، لكن العدو لا ينام. لقد نسي أصدقاؤنا المسؤولون هذه الكلمات القديمة، أما كانوا يفتنون إلى أن هذا العدو لا ينام أبداً ؟ هو بدوره يتّخذ تدابير، اعذروني، لقد أساء الحزب إلى نفسه ونحن معه أيضاً .

لقد كنّا نثق مرة أخرى بالأشخاص أنفسهم والعشائر نفسها تلك التي خانت الشيخ سعيد وثورته سنة 1925، هؤلاء العصاة الأندال أعادوا فعلتهم مرة أخرى، وخانوا، إنما الذنب ليس ذنب أولئك معدومي الشرف، إنما ذنب الذين وثقوا بهؤلاء...لقد كان أنصار الحزب في الجبال يتعذبون جوعاً وعطشاً، إلا أن رفاقاً لنا كانوا غارقين في نشوة شراب الشمبانيا والكونياك .

هناك «300» ليرة ضائعة للحزب، أسأل الرفيق المسؤول، إلى أين ذهبت هذه النقود؟ ومن بلعها ؟

-إن الرفاق الذين لم يعيشوا وسط الكرد لن يعرفوهم، لا يمكنهم إدارة الحركة الكردية بسهولة. إنهم ينظرون إلى الحركة بعقل آخر، وفي ضوءها يسطّرون أشياء. تُرى هل الكرد الفرنسيون سواء؟ تُرى، هل يمكن إدارة أمور الكرد بالكتب الفرنسية ؟

-تُرى، أليست خيانة أغوات الكرد، بكواتهم، وشيوخهم مشهورة؟ أو لم يذع صيتها في العالم أجمع ؟ لماذا أسأل أنا- لماذا نحن وحدنا رأيانهم، لماذا لم تتفتح عيوننا العمياء؟

علينا أن نعترف. ثمة الكثير من الرفاق قد انخرطوا، من أجل الشهرة والسمعة في هذا العمل، والبعض الآخر من أجل المال والجاء، الأرض والتراب. إنما ما جرى كان فينا، حيث إن النار التي اندلعت في الجبل، أحرقت الأخضر واليابس. لا شيء يتحقق بأصحاب الشأن والشهرة، إنما احترقنا نحن. ص 226.

وما يصل الثورة وفشلها بالجهل وانعدام اليقظة كردياً، وهو تقييم سلبي عام للكثير أو ربما أغلبية الانتفاضات، الثورات الكردية، وكيف تشكلت ولماذا أخفقت:

- هل الجهل جهل من مئات السنين؟ ما دواء الجهل؟

- كنت أقول لو أنكم أيدتموني، ما كان حصل ما حصل.

- نعم، نعم، الكلام عقيم، ودون جدوى، حيث إننا في خمس مجموعات، وفي ليلة ظلماء، دخلنا الحدود التركية، بأمل كبير، حيث إنني وحاجو آغا وأولاده كذلك، قد تحركنا صوب حدود جزيرة بوتان، إنما هيهات! إذ بعد يوم، وكالرفاق الآخرين، رجعنا على أعقابنا بدورنا إلى «بنختي»، لقد ذقنا مرارة الهزيمة مرة أخرى.

كلا؟ الحكاية طويلة. لا أنت تسأل، ولا أنا أجيب أيضاً. فلترق هذه الحكاية كأشياء كثيرة أخرى خاصتنا، طي صفحات التاريخ المعتمة والمنسية في التاريخ. إن هذه الكلمات التي تسطرّها الآن في الرواية، كانت تقال في اجتماعنا الأخير لـ «خويبون»، لا، ليس «اجتماعنا»، في اجتماعي الأخير أنا، إذ إنه بعد ذلك الاجتماع، لم أعد أمضي إلى اجتماع الحزب، حيث إنني شددت لجام فرسي التي كانت تجمع في ساحة السياسة، وابتعدت عن ذلك الميدان. ص 227.

وما يشكل مناسبة تاريخية تخص صدور العدد الأول من مجلة «هاوار» ومن حضروها، أي حين تكون «هاوار» هاوار كل كردي: صوته، نبضه، نظرته، وجدانه، روحه، ودون ذلك يستحيل علينا التعرف إلى هذه «اللّمة» هذا التنادي من أجل ما بعد هاوار طبعاً :

في الأعلى، عنوان «الصورة 11»: هاوار: الصرخة، صرخة الشعب والوطن، صرخة القلب والروح، صرخة بدرخان، صرخة الأرواح. ص 228.

-لقد أعطيت قراري، قالها جلادت، سوف أكتب، سأبشر الكتابة... ككل المرات السابقة، وهذا المساء بدوره، مجدداً، كان هناك اجتماع في الشام، حي الأكراد، في بيت علي آغا زلفو، كان المساء بارداً، في شتاء 1932، والذين جلسوا في المضافة كثر. بدءاً من جلادت، حاجو مع أولاده الثلاثة: حسن، جاجان وجميل، أكرم وقدري بك من عائلة جميل باشا، علي آغا زلفو، بوزان بك شاهين، اوصمان صبري، أصدقاء جلادت بك من هم في ستانبول، ممدوح سليم بك، حزة بك مكسي وآخرون، حيث تناولوا عشاءهم الذي كان يُعدُّ في طناجر قائمة على النار، ورُفعت الأواني والصحون، وهم

يشربون القهوة، وتنتقل علبة التبغ من يد إلى أخرى، وتتصاعد سحب الدخان من المضافة الدافئة، عندما تم التطرق إلى الموضوع. ص 231 «البحث حول هاوار».

- رغم أن الوقت متأخر من الليل، كانت المضافة في حيويتها، حيث إن أصدقاء جلادت بك ورفاقه، كانوا يتحدثون عن المجلة، الواحد إثر الآخر، إلا حاجو آغا، فقد التزم الصمت، ولم يفه بحرف، غنما كان يصغي، وعندما هم حاجو بحمل سيكارة، هم جلادت بك الذي كان يجاوره بسرعة بإشعال سيكارتته، وسأله:

- عم حاجو، أنت كبيرنا. أنت أعلم بالأحوال والإمكانات، لقد تحدثنا مراراً في الموضوع، سوى أنني أرى أنك مستمر في الصمت. أليس لديك مواقف، ملاحظات، ومقترحات؟

- أميري، إن محبك وطلبك قد يعقدان لساني، فلا أدري ماذا يمكنني قوله.

- بالتأكيد، لا بد من وجود ما يمكنك قوله، لما نحرّم من آرائك القيّمة؟

- أميري، أنت أمير بوتان، عزيز على قلوبنا. كان آباؤك وأجدادك أمراء عشائرنّا وأربابها. قسماً برأس والدك، إذا كنت تريد أن تعلم، في وسعي، ودون أن تطرف عيني، أن أذبح أولادي الثلاثة هؤلاء أمام ناظريك. ثق بذلك تماماً. إنما بخصوص الجريدة، إذا كنت، كنت محلك، فلن أتعامل مع هذه الجريدة «المريدة»، أنت أمير الكرد، إنما لا تعرفهم، وإذا نهضت بأعمال هذه الورق والجرائد، فسوف يشهرون بك كثيراً. ها إن خوفي من هذا.

- إنما لماذا؟ سأصدر هذه الجريدة من أجلهم، أعمل من أجلهم، وأجعل

الجريدة كرسياً/منبراً لهم. لماذا؟

- إذاً أنا قلت أنت لا تعرفهم. ماذا ينفع عزف المزمار أمام الثور؟ ماذا يعمل المصباح أمام العميان؟ ويا سيدي، فإن الجريدة بدورها مزمار ومصباح. سيكون هناك عدة أنفار من أصحابك الواعين، سيباركون لك، وسيقولون: «طوبى، عشت أبداً»، إنما هناك المئات، وربما الآلاف من هم جهلة، وأنصاف جهلة، سوف يتكلمون عليك، وبالتالي، فإن الجريدة سوف تصبح سبباً لإطلاق كلمات وألسنة مهذارة، ونحن بدورنا سوف نغضب.. أم الوضع ليس كذلك، أنا أعلم أن العمل الذي تقوم به، عمل مبارك، ولهذا، أباركك عليه منذ الآن... ص 234.

ولدينا هذا المثال الذي يبرز فيه حاجو بين الحضور ويخاطب مؤسس بوتان، وبخشوع:

-أميري، أمير بدرخان، أنت مبدد هموم عشاق الوطن. هكذا تكلم حاجو، وهو منكبٌ بخشوع، على تقبيل حجر ضريح الأمير بدرخان .ص 265 .

- كان آبائي وأجدادي، وعشيرة هفيركان، وأهل جزيرة بوتان طوع أمرك، وفي خدمتك. كان آبائي وأجدادي يرددون عن أنك كنت قوياً، مقداماً، كان جيشك قوياً، وكنت ملء العين، ولحيتك طويلة ممشطة.. كنت امرئاً بسيطاً/متواضعاً، وكنت تردد: لتكن بطون أبناء قومي شبعي، وأن تكون مطابخ قروبي ساخنة دائماً، وأن يكون العدس على النار دائماً، والخبز على التتور جاهزاً دائماً، وأن تكون النعاج والأكباش، الخراف والجداء أمام الباب «من أجل الضيوف، م من ابراهيم محمود»، ولتحلق طيورنا بحرية في السماء، وتتجول أسودنا ونمورنا بحرية. هوذا كان دعاؤك الأوحـد لرب العالمين فقط.

كان آبائي وأجدادي يرددون عن أنك كنت تحب صوت المزمار، وكان لديك مكتبة، وكان قصرک Birca Belek، مفتوحاً على مصراعيه أمام أهل العلم والمعرفة، وكنت تعتبر اليهود والمسيحيين، الكلدان والإيزيديين في عداد قومك. وبالقرب من نهر دجلة، وعلى ضفاف مائه الزلال، كانت تقام الأعراس وحفلات الرقص، وما كانت نار نوروز تخدم من على قمة جبل «هرکول، وكان ملؤك إحساساً ونبلاً، وكنت محباً لنفسك وأهلك وأولادك وموطنك وأرضك. وأنت كنت تحب كما تطيع الله ورسوله، وكنت تقرن القول بالفعل، كنت سريعاً إلى حمل سيفك الثقيل، وها أنت الآن ميت لا تدري بما يجري من حولك، سوى أنك أصبحت أمير الكرد الخالد يا أميري .

يتوقف حاجو آغا لبعض الوقت، وينظر حواليه، ويخرج علبة التبغ من جيب معطفه، وهو يقرب سيكارة ملفوفة من فمه، ويشعلها متأثراً. ثم يسترسل في الكلام بتؤدة مجدداً، وعيناه على جلاذت بك ، كما لو أنه يكلم نفسه:

-أميري الجنّتي، لقد كبرنا على حكاياتك وأساطيرك، ولقد ربّينا أولادنا على حكاياتك وأساطيرك، وما زال قرويو بوتان يؤفّفون عنك القصص. إنهم يقولون عن أنك أنت والخوجه خضر صاحبان، أنكما تمتطيان معاً فرسان أصيلتان ، وتخرجان في نزهة في بلاد الكرد، وتمضيان إلى الأنهار والبحار، وتصبحان صاحبيّ طيور النسر والعقاب. أنت تمتطي فرسك البيضاء، بردائك الأبيض، وأنت تبدو في هيئة الملائكة ، وما زلت تأتينا في أحلامنا، ومن عدانا، أحفادك، حيث تُرى وجلاذت هنا أيضاً، ولا بد أن تعلم أننا نقتفي أثرک في طريقك. ص 267 .

وفي مشهد آخر، عندما يكون فراق الضريح، والبحث في المستقبل، كأن مفاتحة جلادت بلزوم الزواج تصريح بحقيقة: لا ينبغي ألا يكون نسل. وهو تعظيم لمقامه : نهض الذين زاروا الضريح وودعوا الأمير بدرخان، وخرجوا من المقبرة، وكانت المسالك ضيقة وعبارة عن حفرة، حيث إنهم ينحدرون من الجبل جماعياً، وبانتظام، عبر المسالك الملتوية، وكان جلادت بك، حاجو آغا، السيدة روشن ووالدتها في إثر الجميع. حاجو آغا جاور جلادت، ليكون في مقدوره المشي.

-أميري، قالها حاجو آغا، هذا غير ممكن، سوف نتحدث في ذلك لاحقاً، إنما هذا غير ممكن.

- لماذا هذا غير ممكن يا عم؟ سأله جلادت ضاحكاً.

- أميري، أرايت، يقول الكرد، إن الرجال يفقرون دون وجود عائلة أما النساء فبدون عائلة يستعرن. لقد فقرت كثيراً... هذا غير ممكن.. إلى متى ستعيش دون عائلة؟ إلى متى ستعيش مع أحمد فرمان وشنكي؟ هذا غير ممكن، علينا أن نزوجك .

- الزواج، مرة أخرى. قالها جلادت ضاحكاً، لقد قلتها مراراً على أنني لن أتزوج، ولقد قال الشاعر السوري أبو العلاء «المعري»: أصبحت اليوم ضحية من جاؤوا بي إلى الدنيا، إنما لن يكون هناك من سيصبح ضحية لي .

- سيدي، رجاء، دعك من هذه الكلمات، دعك من هذه الفلسفة، وها قد انتهت حكاية سفر السيدة، وعمرك قد تجاوز الأربعين، أنت أمير كردي، لست في أوروبا، إنما تعيش في الشام .

- عم حاجو، يقول صحيحاً، من الأرض إلى السماء. سيد جلادت، ثمة في أوساطنا الكثير من النساء الحسنات، وأنا بنفسني سأبحث لك عن واحدة.. ثمة أصدقاء لي، ثمة معارف وأهل وأقارب. سوف أنتقي لك فتاة جميلة، ذات أصول وتربية، فإن لم ترضك، فإننا سنبحث عن غيرها، إنما عليك بالزواج . ص 270 .

وحين يكون الزواج معلناً، أي زواج جلادت من روشن، أو بالعكس، وما في ذلك من إرضاء لافت لحاجو، لأنه يتلمس في الزواج ذاك توازناً في العلاقة الزوجية والحياتية :

من كان يعلم أن ابنة عمه، حيث مقولة ابنة العم «جارية مطبخه»، سوف تصبح زوجته .

-أنا كنت أعلم بذلك، قالها حاجو آغا ضاحكاً. لا، ليس لأنني كنت أعلم، إنما كنت أقدر. أتريدها ملاً وجاهاً، من سوى روشن تحسين وضعك وإعمار بيتك ؟

ضحك الجميع معاً، حيث إن جلادت بك والسيدة روشن كانا قد عزمنا حاجو آغا وحسني بك برازي اللذين ساعداهما في زواجهما في بيتهما الجديد، وأحمد فرمان كيكي، كان مغني البيت والمجلة أيضاً، وكانوا في الصالون الكبير للبيت الجديد، وهو جالس معهم «صحبة طرب». ص 275 .

وحين ينتقل بنا الروائي اوزون إلى مشهد ساخن، لتسليط الضوء على واقع المجلة، وهو واقع كردي يناضل في قلب العاصفة، وحوله عواصف، وثمة أصدقاء يحيطون به :

-بالمناسبة، ما أخبار المجلة يا أميري؟ قالها حاجو وهو يهيم بالجلوس .
- إنها في بؤس حال، قالها جلادت، حال المعدم في قبر، ولو استمر الوضع على هذا الحال، فسوف تنتهي .

...

كان جلادت بك، وممدوح سليم بك، وحاجو آغا، ومصطفى بوزان بك شاهين، وآخرون، في حلب، جالسين في صالون فسيح وقديم لفندق البارون ص 280 .
وما يشدد على وجع جلادت، جرّاء الأزمة المالية ومصاعب الاستمرار في المجلة وبها :

عن جلادت: لقد فتحنا جرحاً غائراً في قلوبنا، ونحن نتألم ونتحسر، ودفناً «هاوار» في القبر. حكاية هاوار استمرت ثلاث سنوات وثلاثة أشهر وثلاثة أيام، وكانت كالكثير من الحكايات الأخرى للقدر الكردي، وقد جاءت ساعتها، وحكاية هاوار بدورها هكذا، والتي تطابق حكاية حاجو آغا.
أميري، ليقول من يشاء أن يقول، أنت نفّدت ما اعتقدته، وعبرت عما تريد . ص 283 .

وما يحرك الواقع، ويبعث على الأمل، كما لو أن معاودة الروح بطاقتها في جسد متعب، ترجمة من نوع آخر لواقع الكرد على وجه العموم :
لقد عاودت «هاوار» الصدور، العدد «واحد»، لا ليس العدد «واحد»، إنما العدد «27»، قد صدر اليوم في «25» نيسان 1941. ص 298 .

وما يعرفنا بطبيعة مجتمع كردي نصف أرستقراطي، نصف مدني، نصف تقليدي، وهو في واقع الحال لا ينفصل عن المجتمع المحلي، غير أن له همومه الخاصة:

كان هناك من حضروا لهذا السبب: السيدة روشن، علي آغا زلفو، محمد آغا زركي، عمر آغا شمدین، سليمان أفندي قوطرش، عارف عباس بك، حسني برازي بك، محسن برازي بك، ممدوح سليم بك، نظام الدين كبار بك، اوصمان صبري، د. نظيف بك، وأحمد فرمان كيكي، إنما في فترة المساء هذه، ثمة من هم متواجدون جدد في الحوش: كاميران بك، روجيه ليسكو، قدری جان، جكرخوين، الأخ الصغير للدكتور نظيف، نورالدين، قدری، أكرم، مقداد وبدری بكوات جميل باشا، في هذا الاجتماع، حيث يكونون متباعدين عن بعضهم بعضاً غالباً، إنما اليوم، فقد قدموا إلى بيت جلادت بك، بحجة مباركة المجلة، وثمة رجل ينقص الاجتماع: حاجو آغا، لقد توفي حاجو آغا، إنما حل محله في الحضور ابنه حسن آغا حاجو . ص 299 .

-مؤسف جداً، أن حاجو آغا لم يبصر هذا اليوم، قالها ممدوح سليم بك، وهو يحمل المجلة، موجهاً كلامه إلى حسن آغا حاجو، كان سيفرح كثيراً، أليس كذلك يا أميري؟ ص 301 .

- هذا صحيح، قالها جلادت بك، وهو يمسد لحيته البيضاء بيده. إنما أنا على يقين أنه اليوم، وموتانا الآخرون في أضرحتهم، سوف ينامون ملء جفونهم «مرتاحين» .

لقد أصدرنا المجلة، والآن مجدداً، ثمة ما نعمل عليه، استمراراً لها . ص 301 .

كان كل من جلادت بك، روجيه ليسكو، كاميران بك، ممدوح سليم بك، قدری بك، علي آغا زلفو وحسن آغا حاجو، بجوار البئر، وهم واقفون، ويتحدثون.

كانت المجلة في أيدي البعض منهم، وهم معدّو أنفسهم، ليمضوا معاً بعد قليل، لتناول العشاء في مطعم قديم بالقرب من ساحة المرجة، والمناسبة هي صدور المجلة، حيث إن حسن آغا حاجو هو من عزمهم، وحسن هذا الذي يشبه أباه كثيراً، كانت عيناه على المجلة، دون أن ينظر إلى جلادت بك، وهو يسأله:

-أميري، بغية الاستمرار، ما المطلوب ؟

- تلزم أشياء كثيرة، إنما النقود، هي قبل كل شيء، ودفع الآجار .

- ما آجار سنة ؟

- خمس ليرات سورية .

- أميري، إن لم تنزعج، لدي استعداد لأن أساعدك قليلاً في أمور المجلة، حيث إنني قبل أن آتي إلى هنا، ربحت في عمل تجاري لي، مما يغطي نفقات المجلة ضمناً، وأنا مستعد لأن أدفع «400» ليرة .

- يعمّر بيتك، قالها جلادت، جائز أن تمهّد مساعدتك هذه الطريق .

- نعم، قالها ممدوح سليم، إنها ستمهّد الطريق، إنما ليس لدينا «400» ليرة، فماذا نفعل. سوف أقدمّ عشر ليرات مساعدة، وكلّ منا بما يستطيع .

- ومني، أيضاً، خمس ليرات، قالها علي آغا زلفو .

- ومن جهتي أنا ونورالدين كذلك، قالها الدكتور أحمد نافذ بك، وهو يتقدّم منهم.

- وأنا كذلك، باسم جميع أبناء جميل باشا، هناك ستون ليرة، قالها أكرم بك .

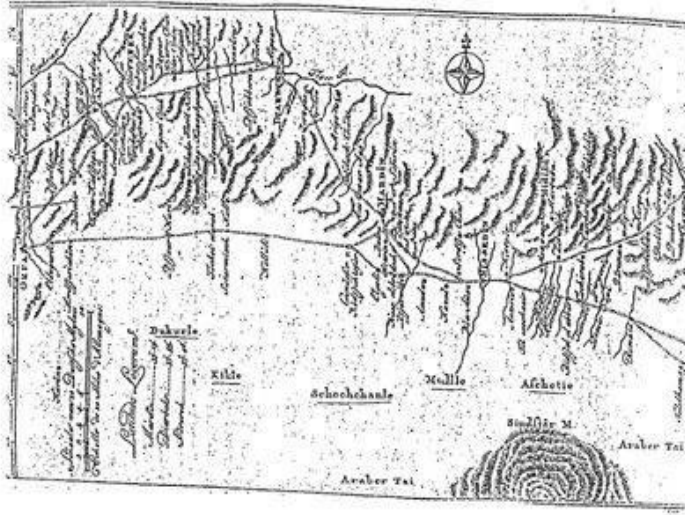
الآخرون بدورهم، وهم بجوار البئر، تقدّموا منهم، ويحدّد كلّ منهم حسب إمكاناته. ص 302 .

بالطريقة هذه، نكون قد أحطنا علماً ببعض من مفاتن الرواية، بـ «بئر قدر» جلادت بك، وكيف انتهت حياته في بئر، ربما هي أيضاً كرمز بئر الحرمان، بئر القدر الكردي، والذي يذكّر بأوجه استبداد أعداء الكرد في الكرد، فالبئر انسحاب من العالم، وغور في الأسفل، وفي الوقت ذاته تعبير عن مؤامرة، عن شرك منصوب، وأن تتجرف البئر أو تتردّد، ففي المحصلة انهيار تاريخ أو أمل، ودخول في عتمة تاريخ، وقد شكّ في انهيار البئر الطبيعي، ومن ثم: الموت الطبيعي لجلادت، لأن ثمة تواريخ يمثلها أشخاص معتبرون، وربما في الحالة هذه يكون لحاجو نفسه بئر قدره، وقد شكّ في موته الطبيعي، كما هو موت ولده حسن، وما في هذه السلسلة من «نحس» تاريخ، ولكنها أيدي الزمان المشخص، أيدي أعداء الكرد إذ تسعى جاهدة إلى تمويه الحفر والدفع بهم فيها، أو هم أنفسهم يقعون فيها، جرّاء معاداتهم المستمرة.

لكن الذي أشغل جلادت تمثّل في كيان سياسي كردي ثقافي، يعمل عليه حتى الآن، كما لو أن الوجه المقابل لجلادت بإرثه الثقافي، هو حاجو آغا بإرثه السياسي مهما قصّر زمانه .

دهوك

ملحق الصور



Carsten Niebuhr's 1764 Map of Jazira (Upper Mesopotamia)

Carsten Niebuhr was a famous man of science of the 18th century, Danish citizen but a German native of Holstein, then part of Denmark. He was sent by the Danish Academy in a mission to the Near East, to gather information and data about the peoples and tribes in the area. In 1764, coming from Baghdad then Mosul, in his way to Mardin, Diyarbakir and Aleppo, he travelled across the part of Jazira (Upper Mesopotamia) which constitutes the north-eastern area of today's Republic of Syria.

Niebuhr left us in his book, written in German, some concise information on this area, and a map of it, with place names and the names of tribes, a copy of which is shown above. In the book he mentions five Kurdish tribes in this area, whose names figure on the map, in German script, from east to west: Aschetie (Ashiti), Mullie (Mili), Schochchanle (Chechani), Kili (Kili), and Dakurle (Dakori). One Arab tribe is mentioned, the Tai, who were nomads, of which he said it was large. The Sinjar mountain, seen on the map, is also Kurdish.

The same Kurdish tribes are found in the same area in today's Syria, with a difference. They were semi-nomadic at Niebuhr's time. They are in this day sedentary, city-dwellers or cultivators, and have made of this area the very granary of Syria.

A copy of this map was attached to the Letter-memorandum sent by the undersigned, in the name of the Kurdistan National Congress, to the late Syrian President Hafiz al-Assad, on 2 June 2000, on the Kurdish question in Syria. Another copy was attached to the paper presented by the same writer, on the same question, at the conference « The Predicament of the Kurds... », Virginia, USA, on 22-24 September 2001.

Source:

Carsten Niebuhr, *Reisebeschreibungen nach Arabien und anderen umliegenden Ländern* (4 volumes), Copenhagen, 1774-1778, Vol. 8; French edition: *Voyage en Arabie et en d'autres pays circonvoisins*, Amsterdam, 1776-1780, vol. 4; English edition, Edinburgh, 1792.

Ismet Chériff Vardy

(Map 1)

صورة خريطة العالم الإسلامي - الدنيا كما كانت في سنة 1764
الكردية التي صارت في الجزيرة التي كانت بلاد العرب
عصر



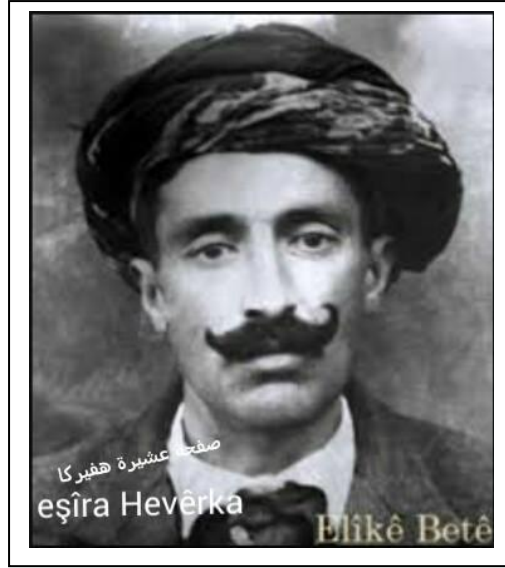
قرية مزيزخ مسقط رأس حاجو آغا



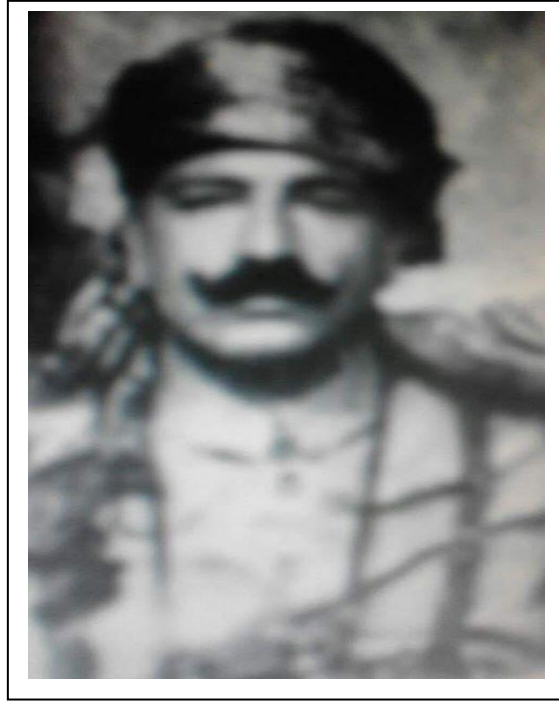
Tora Hevêrka ديار هفیرکا



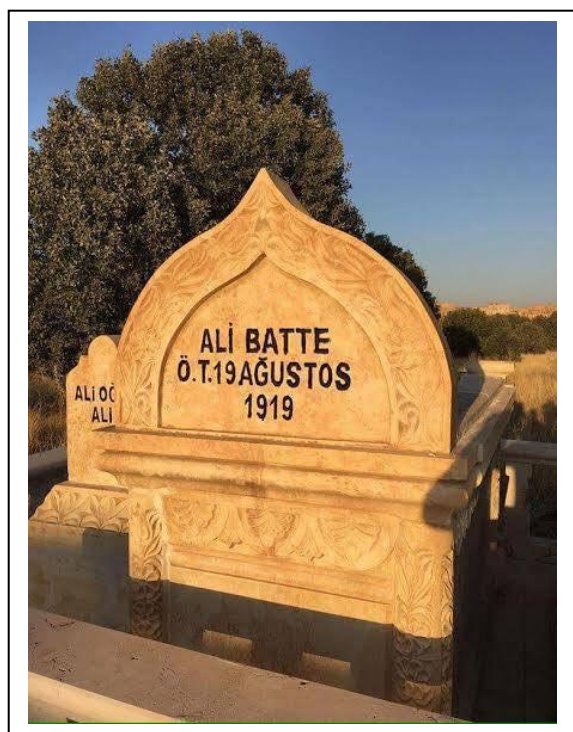
خارطة تمثل مناطق وعشائر بالكردية والتركية



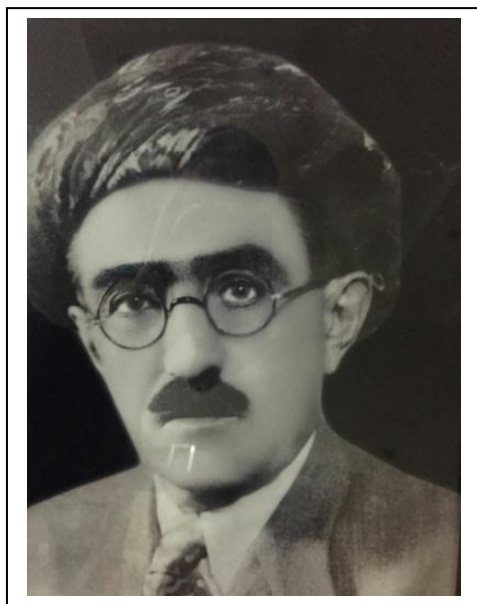
عليكي بتي



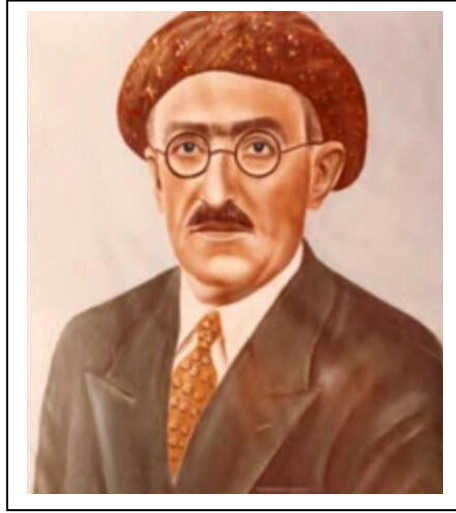
صورة لـ عليكي بتي مستخرجة من الأرشيف العثماني، حسب الوارد عنه في
فيسبوك عشيرة هفيركان



شاهدة قبر عليكي بتي



حاجو آغا



صورة ملوثة لحاجو آغا



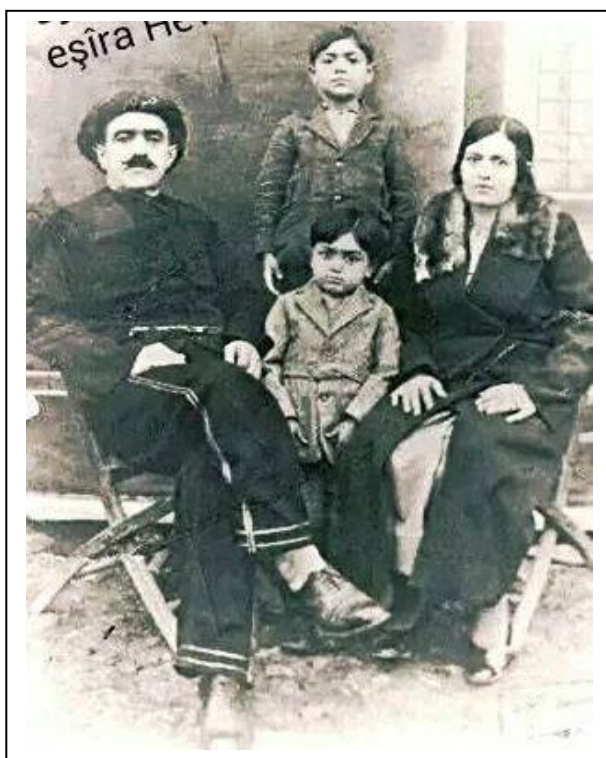
صورة حاجو آغا هفیرکی واقفاً وجلادت بدرخان ونايف باشا



حاجو آغا، وهي الصورة التي أعمل فيها الفنان المعروف بهرم يوسف حاجو ريشته معدلاً في شكل العباءة بشكل خاص .



حاجو آغا وزوجته خديجة



حاجو آغا وعائلته



حاجو آغا مع وطنيين كرد



شمعون حيدو حنا



ما يُعتَقَدُ هو أن الجالسة في الصورة جهة اليسار صاحبة القبعة هي أخت الكابتان روغان والذي قتل في حرب حاجو ضد فرنسا، وقد رغبت أن ترى حاجو والذي يجلس عن يمينها، ولهذا قدمت إلى تربيته سبي .



حاجو آغا جالساً والواقفون من اليمين الى اليسار: السادة أكرم جميل باشا
وحمزة بك مكسي وقدري جميل باشا



Haco axa , Mir Celadet û doktor Ahmad Nafiz û zarwên Haco
Hesen, Çeçan û Cemîl

حاجو آغا، الأمير جلادت والدكتور أحمد نافذ وأبناء حاجو: حسن، جاجان، وجميل



صورة أخرى لحاجو آغا



Ceneralê Faransî, Haco û matran Hibê

الجنرال الفرنسي وحاجو والمطران حبه

نسخة مصوّرة عن خبر نشرته صحيفة ألمانية بالعنوان المذكور أدناه، يفترض أن تاريخ النشر يرجع إلى سنة 1930، أي أثناء ثورة آارات، وقد أرسله إلي مشكوراً مع نص الترجمة الأستاذ فرهاد جميل حاجو من ألمانيا، وفي الخبر يرد اسم حاجو



معارك جديدة في كردستان

في برقية لمراسلنا

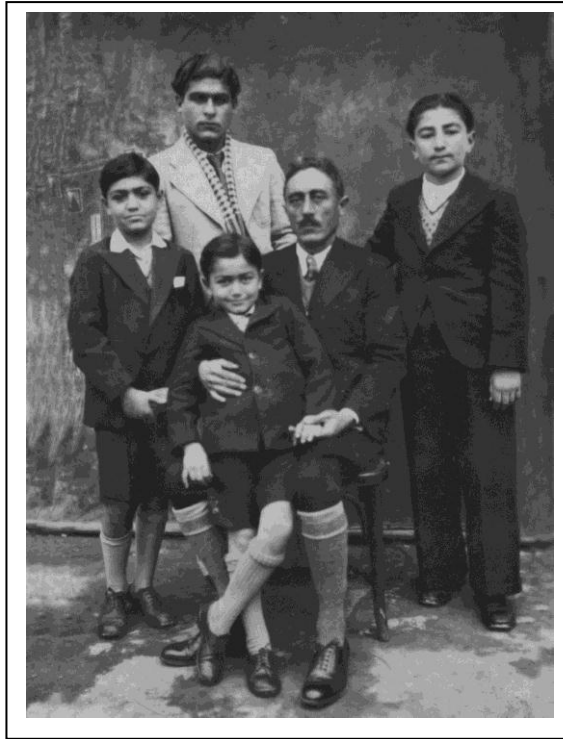
القسطنطينية في 7 آب (×)

مع الوقت تتوسع المعارك مع الأكراد. فالعمليات العسكرية على الحدود الفارسية أصبحت صعبة جرّاء هجمات الأكراد من العراق، وراهنأ أيضاً من خلال تقدم عشائر كردية أخرى عبر الحدود السورية. حيث إن الأكراد يتقدمون بإمرة الزعيم المعروف حاجو. إن هؤلاء يوزعون منشورات يطالبون فيها استقلال كردستان. وهذه الأحداث الى جانب التحرك بالمطالبة بالحكم الذاتي لكردستان في العراق، يقيّمها الأتراك كبرهان على أنها عملية واسعة مدعومة من الخارج.

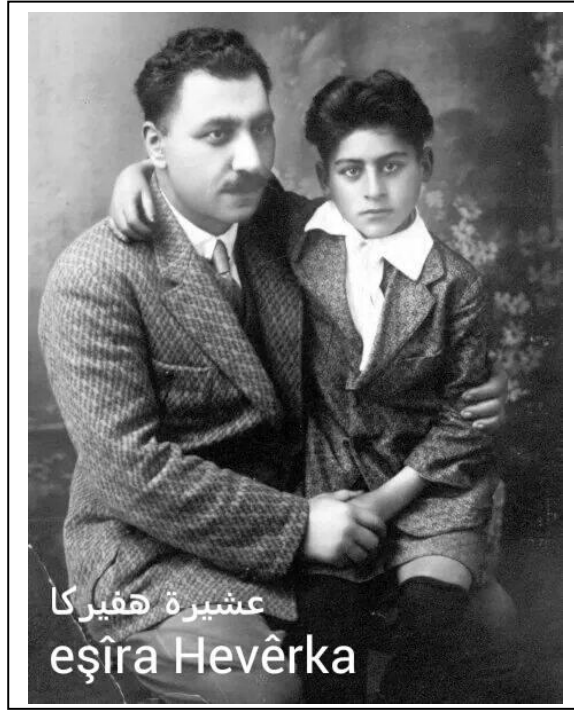
العام غير مذكور هنا، ولكن حسب تقديري سيكون عام 1930



ضريح حاجو آغا



حسن حاجو جالساً مع أخوته من اليمين : ابراهيم حاجو " والد جوان
حاجو " بهرم" حاجو " حاجو في حضنه، أكرم حاجو الواقف بجواره من الجهة
الأخرى، وخلفه نجله عثمان عثمان حاجو واقفاً



المير جلادت واوصمان حسن حاجو



أديب الشيشكلي- سعيد اسحق- عبدالعزيز حسن بك- حسن حاجو آغا



الصورة من اليمين محمد شريف حاجو و يوسف حاجو وحسن حاجو
و جاجان حاجو.



الصورة من اليسار محمد علي شويش و حسن حاجو و ممدوح سليم وقدري جان



Çelebi Ağa bir grup adamıyla

چلبی آغا وحوله رجاله



عشيرة هفیرکا
eşîra Hevêrka

یوسف ونزیر ولدا علیکی بتي



جلادت بدرخان وحسن حاجو



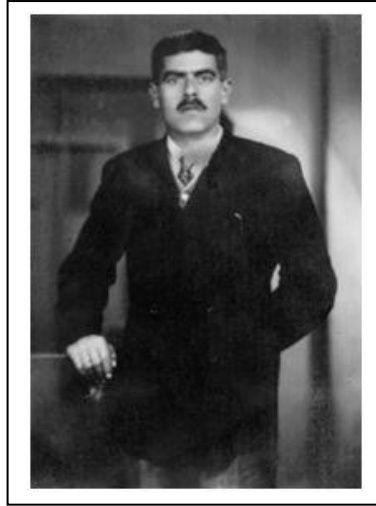
تربيه سبي في عام 1960



مشهد يمثل جانباً من جنازة حسن حاجو



أبناء حاجو اغا الهفيري جاجان حاجو اغا ويوسف حاجو اغا ومحمد شريف
 حاجو اغا زعماء عشيرة هفيرا
 الصورة ملتقطة اثناء مراسيم دفن حسن حاجو اغا الهفيري في قرية دوكر
 بمنطقة سنجق خلف اغا (تربه سبي)



جميل حاجو في شبابه



المرحوم جميل حاجو



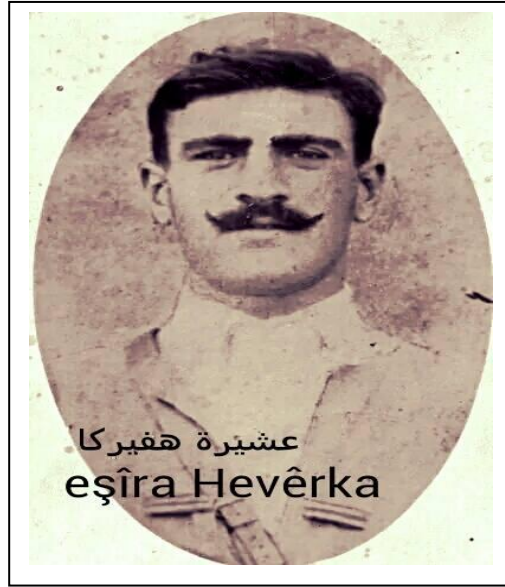
المرحوم يوسف حاجو



يوسف حاجو وحزني



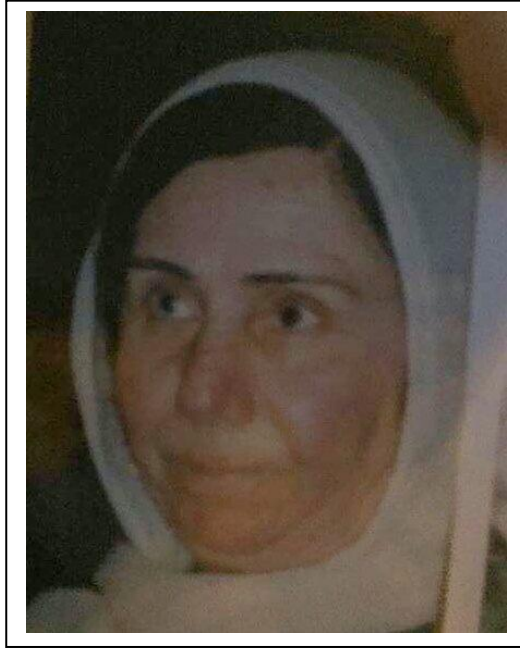
محمد شرف و ابراهيم حاجو



نايف حاجو



أكرم حاجو



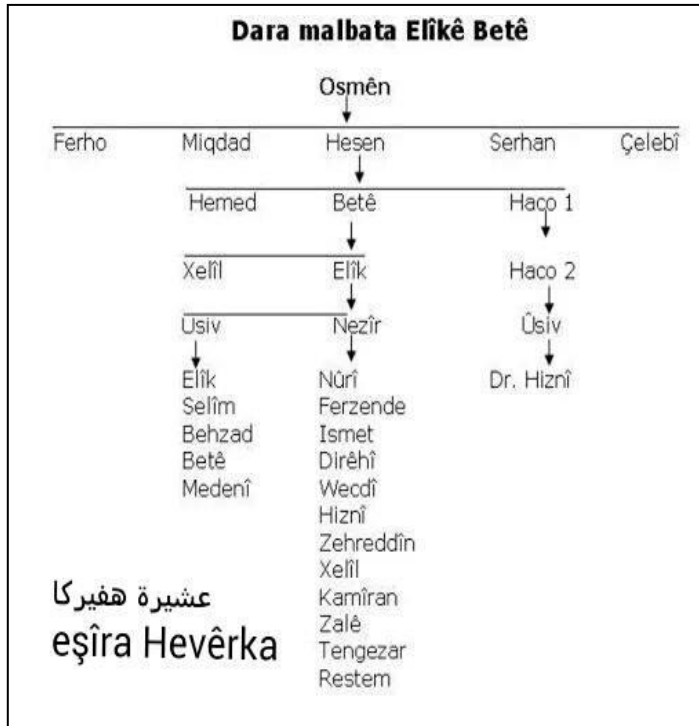
المرحومة حليلة حسن حاجو



المرحومة عيشانة جلال حاجو



عفيضة جتو زوجة يوسف حاجو



شجرة عائلة عليكي بتي



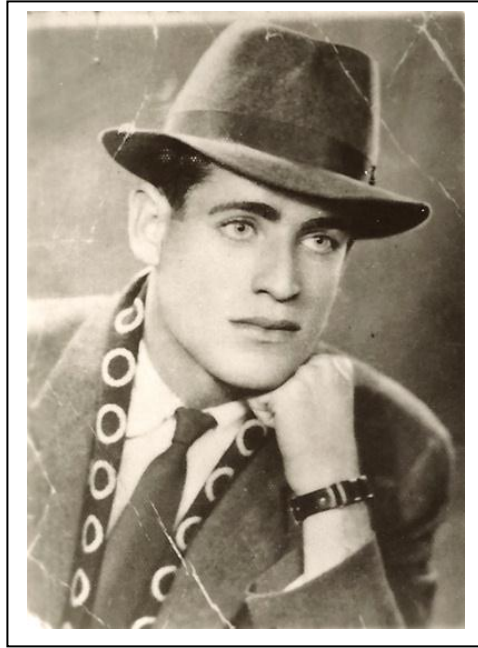
المرحوم ابراهيم حاجو والد الفنان جوان حاجو



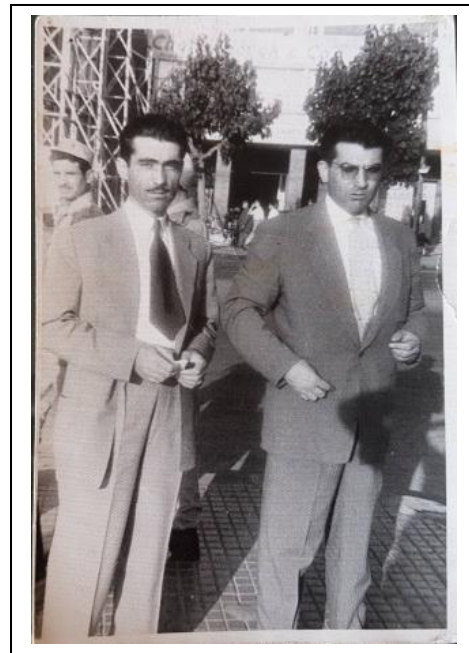
شهناز أكرم حاجو



فدوى محمود قوطرش زوجة بهرم «حاجو» حاجو، وابنة أخت خالد بكداش



جلال جميل حاجو توفى وعمره دون الثلاثين عاماً وهو والد الدكتور بنكي حاجو



الراحلان نورالدين زازا ومجيد حاجو



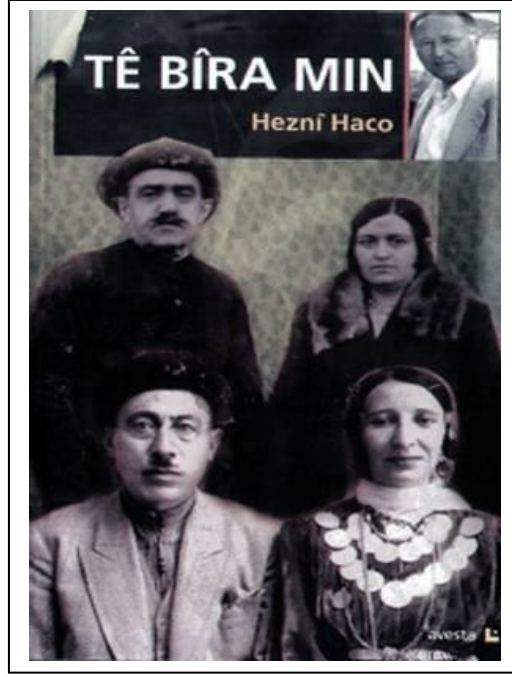
مجيد حاجو وبعض من زملاء الخدمة العسكرية في خمسينيات القرن الماضي



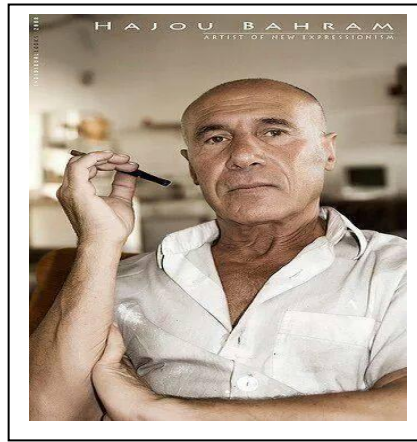
مجيد حاجو مع آخرين في سجن الحسجة سنة 1960



آل حاجو في نوروز 1960 في مدينة كركي



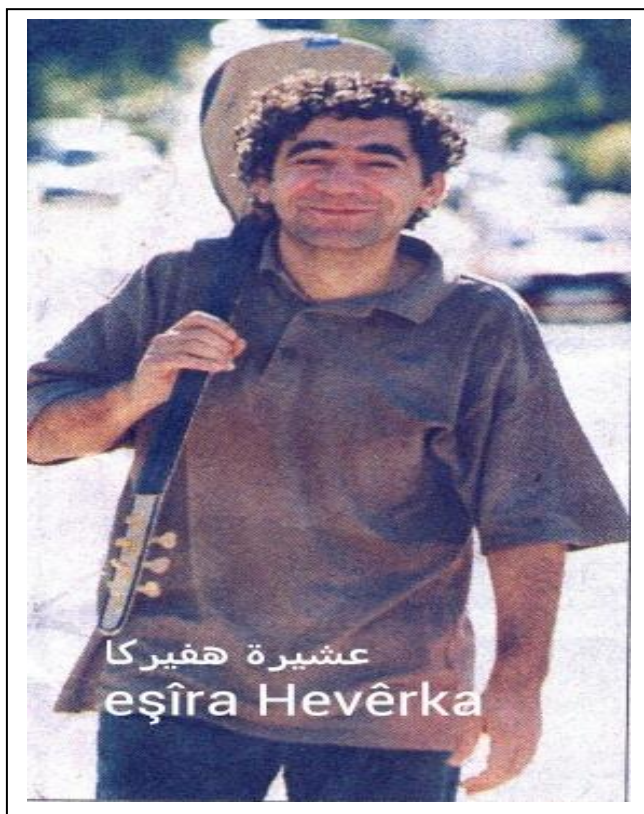
غلاف كتاب الدكتور حزني حاجو بالكردية «أتذكر»، وفي الأعلى صورة حاجو آغا وعائلته خديجة، وفي الأسفل صورة كل من يوسف حاجو وعائلته : عفيفة جتو ، وهما والدا الدكتور ،وما في ذلك من دلالة، كما لو أنهما ينظر إلى الأمام بتركيز من خلالهما: الجدّين والوالدين طبعاً .



الفنان بهرم حاجو



الشاعرة الكردية ديلبر وأخوها الفنان جوان ابراهيم حاجو



الفنان جوان حاجو

سيرة ذاتية للمؤلف



إبراهيم محمود

باحث ومفكر كردي سوري

تولد 1956.

إجازة «بكالوريوس» في الفلسفة من كلية الآداب، قسم الفلسفة، جامعة دمشق/1981.

التفرغ للدراسة والتأليف في مجالات فكرية وأدبية وتاريخية ونقدية مختلفة.

شارك في ندوات أدبية وثقافية مختلفة داخل المحافظة وخارجها، وخارج سوريا.

ألقى محاضرات في مدن أوروبية بين أعوام 2005-2006-2009.

الآن لاجئ في إقليم كردستان، ويعمل في مركز بيشكجي للأبحاث الإنسانية في جامعة دهوك. حيث شارك في أنشطة أدبية وثقافية في دهوك- هولير- سليمانية (كلاويژ الأخير).

نشر عدة كتب في فترة تواجده في الإقليم منذ أول آذار 2013.

نشر الكثير من المقالات والأبحاث الفكرية والأدبية في كبريات المجلات والصحف العربية، مثل: المسيرة، الآداب، عالم الفكر، الوحدة، دراسات عربية، المستقبل العربي، الفكر العربي، الموقف الأدبي، النهج، الطريق، كتابات معاصرة، الفكر العربي المعاصر، الاجتهاد، الناقد، النقد، السفير، أخبار الأدب، الغاؤون، جسد، البيان، أوان، الثورة، تشرين، صوت الآخر، مجلة الأكاديمية الكردية، مجلة كلاويژ... الخ، عدا النشر في مواقع الكترونية مختلفة.

مؤلفاته: نشر أكثر من خمسين كتاباً في حقول نقدية: فكرية وتاريخية وأدبية مختلفة ويركّز بصورة خاصة على الجانب الانثروبولوجي في دراساته، وفيما يخص الجسد، عدا مشاركاته في كتب جماعية، ومقدماته وشروحاته لكتب مترجمة عن الفرنسية (لجاءك دريدا خصوصاً)، ومن مؤلفاته:

مغامرة المنطق البنيوي (البنيوية كما هي)، مركز الدراسات والأبحاث الاشتراكية في العالم العربي، دمشق/ 1991.

صورة الأكراد عربياً بعد حرب الخليج، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، ط1/ 1992.

الجنس في القرآن، شركة رياض الريس، لندن، ط1/ 1994/ ط2/ 2000، ط2، دار رؤية، القاهرة، 2016.

البنيوية وتجلياتها في الفكر العربي المعاصر، دار الينايع، دمشق، ط1/ 1994.

الهجرة إلى الإسلام، دار الفكر، دمشق، ط1/ 1995.

الکرد في مهب التاريخ، كرد برس، بيروت، ط1/ 1995.

أثمة وسحرة «البحث عن مسيلمة الكذاب وعبدالله بن سبأ في التاريخ»، شركة رياض الريس، لندن، ط1/ 1996. الطبعة الثانية، دار رؤية 2018

جغرافية الملذات «الجنس في الجنة»، شركة رياض الريس، بيروت، ط1/ 1998، ط2، الريس، بيروت، 1998، ط3، دار رؤية، القاهرة، 2016.

الفتنة المقدسة «عقلية التخاصم في الدولة العربية الاسلامية»، شركة رياض الريس، بيروت، ط1/ 1999، ط2، دار رؤية، القاهرة، 2016.

المتعة المحظورة «الشذوذ الجنسي في تاريخ العرب»، شركة رياض الريس، بيروت، ط1/ 2000. الطبعة الثانية، دار رؤية 2018

إيقاعات مدينة «فصول من سيرة مدينة القامشلي»، دار الينايع، دمشق ط1/ 2000.

صدع النص وارتحالات المعنى، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1/ 2000.

تقديس الشهوة «الرموز الفلكية في النص القرآني»، شركة رياض الريس، بيروت، ط1/ 2000.

أفئنة المجتمع الدمائية، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، ط1/ 2001.

- الحنين إلى الاستعمار، دار الينابيع، دمشق، ط1/ 2001.
- جماليات الصمت «في أصل المخفي والمكبوت» مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1/2002.
- قراءة معاصرة في الإعجاز القرآني، دار الحوار، اللاذقية، ط1/ 2002.
- الشبق المحرم «أنطولوجيا النصوص الممنوعة»، شركة رياض الرئيس، بيروت، ط1/2002، ط2، دار رؤية، القاهرة، 2016.
- أرواح اليوم الثامن، دار الينابيع، دمشق، ط1/2002.
- في الثقافة العربية المعاصرة «صراع الإحداثيات والمواقع»، دار الحوار، اللاذقية، ط1/2003.
- صائد الوهم «الطبري في تفسيره»، دار كتابات، بيروت، ط1/2003.
- الضلع الأعوج «المرأة وهويتها الجنسية الضائعة»، شركة رياض الرئيس، بيروت، ط1/2004.
- وعي الذات الكردية، الشركة العربية الأوربية، بيروت، ط1/2004.
- نقد وحشي «رؤية لنص مختلف»، دار الحوار، اللاذقية، ط1/2005.
- الموسيقى «عتبات المقدس والمدنس»، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1/2005.
- مجالس الورد والشوك «بين ذاكرة القرية وأرشفيف المدينة»، دار الينابيع، دمشق/2005.
- الباحثون عن ظلالهم «العبور إلى فيينا» دار الينابيع، دمشق، ط1/2005.
- قتل الأب في الأدب «سليم بركات نموذجاً»، دار الينابيع، دمشق، ط1/2007.
- النقد والرغبة في القول الفلسفي المعاصر، دار الحوار، اللاذقية، ط1/2007.
- القبيلة الضائعة «الأكراد في الأدبيات العربية الإسلامية»، شركة رياض الرئيس، بيروت/2007.
- وانما أجسادنا.. الخ «ديالكتيك الجسد والجلد»، وزارة الثقافة السورية، دمشق، ط1/2007.

- أحدهم يتغزل بزوجتي «رواية»، دار الينابيع، دمشق، ط1/2008.
- المنغولي أو مجهول الريح «رواية»، دار الينابيع، دمشق، ط1/2009.
- الأنثى المهذورة «لعبة المتخيّل الذكوري في صناعة الأنثى»، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1/2009.
- الجسد المخلوع بين هز البطن وهز البدن، شركة رياض الريس، بيروت، ط1/2009.
- جنازة المؤخرة «في مائة وواحد وعشرين نصّاً»، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1/2010.
- الصائد الخفي «جدل الصامت في حوارات نبيل سليمان»، دار الحوار، اللاذقية، ط1/2010.
- النص- الجسد- الهاوية «قراءات في ظلال المعاني»، دار تموز، دمشق، ط1/2011.
- زنبق شهريار «جماليات الجسد المحظور في الرواية النسوية العربية»، دار الحوار، اللاذقية، ط1/2012.
- قراءة في رواية يوم الدين، دار الجديد، بيروت، ط1/2012.
- نصوص أفستا وقراءة في النص الأفستاني، دار تموز، دمشق، ط1/2013.
- الإسلام: مدخل جنسي - دراسة- شركة رياض الريس- بيروت، ط1/2013.
- لا قمامة في هذه المدينة، عن اتحاد الأدباء الكرد - المركز العام أربيل، ط1/2013.
- سيرة المخلّق أرضياً «دراسة في شعر جكرخوين»، الأكاديمية الكردية - أربيل، ط1/2013.
- الجسد البغيض للمرأة- دراسة- دار الحوار- اللاذقية، ط1/2013.
- الحيوانات تستعيد ذاكرتها «قصص»، كلاويد، السليمانية، ط1/2013.
- الرجل الذي كان: شيركو بيكيس: الحياة والكتابة، الأكاديمية الكردية/2013.
- قتل الجياد الكردية: عن محمد اوزون مجدداً «دراسة»، منشورات سردم، السليمانية، 2015.
- علم جمال الجسد المغاير «دراسة»، دار الحوار، اللاذقية، 2015.
- أسئلة التأويل «دراسة»، دار الحوار، اللاذقية، 2015.

- بروق تتقاسم رأسي «سيرة فكرية»، دار الحوار، اللاذقية، 2015.
- الأكاديمي «هل هناك أكاديمي كردي؟»، دراسة، دار تموز، دمشق، 2015.
- معدّبو النور «في التصوف الكردي»، دراسة، دار تموز، دمشق، 2015.
- الإقليم خارج حدوده، مديرية الطباعة، دهوك، 2015.
- اليد والقفاز «التنوير البحثي في كتابات الأستاذ الدكتور عبدالفتاح علي البوتاني» دراسة، أربيل، 2016.
- طريدو التاريخ «الکرد في خضمّ حروب الآخرين»، مركز بيشكجي للدراسات الإنسانية، دهوك، 2016.
- تراجيديا الضحك، دراسة، دار الحوار، ط1، 2017.
- ظلال الوجه الآخر «دراسة في شخصية محمد كرد علي»، مركز بيشكجي للدراسات الإنسانية، دهوك، 2017 .
- الدرع الواقى: اسماعيل بيشكجي وكتابة القضية الكردية «دراسة في سلوك وفكر رجل في العاصفة»، مركز بيشكجي للدراسات الإنسانية، دهوك، 2017 .
- الذئب الكردي «دراسة في شخصية ضياء كوك آلب» دار سبيريز، دهوك، 2017.
- سطوح الهاوية «دراسة عن الكرد والفيصبوك»، الأكاديمية الكردية، أربيل، 2017 .
- لا ليس لي لحية «محمد كرد علي وموقفه من التصوف»، دار تموز، دمشق 2017.
- سرديات الحية «دراسة»، دار رؤية، القاهرة 2018
- الجسد الدبق «دراسة»، دار رؤية، القاهرة 2018
- أما عن كتاباته بالكردية فقد صدر له ديوان شعر تحت عنوان
- Weke çemekî ji dil derkeve-Şam-2005
- وهناك مخطوطات له تحت الطبع في كل من سوريا، لبنان، مصر والإمارات العربية المتحدة.
- أما عن ترجماته من الكردية إلى العربية، فهي عديدة، ومنها: روايتا الخراب، والمتنور، للالش قاسو، والطوفان، لحسن مته، وكردستان والحدود في القرن العشرين، لأصليخان يلدرم، ورسالة إلى اليونسكو، وإرهاب الدولة في الشرق الأوسط، والدولة

والكرد، والكرد بين التاريخ والجغرافيا لاسماعيل بيشكجي، واسماعيل بيشكجي
كردولوجيا لماميسانز، مع دراسة وملحق... ومقالات ونصوص مختلفة..الخ.
إلى جانب ترجمة نصوص أدبية شعرية وغيرها من العربية إلى الكردية انترنتياً.